

# تَقْسِيرُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ

لِإِمَامِ الْمَحَافِظِ يَحَادِ الدِّينِ أَبِي الْفِدَاءِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ عُمَرَ  
ابْنِ كَثِيرِ الدَّعْشَقِيِّ  
الْمُسَوْقَ سَنَةُ ٧٧٤ هـ

وَضَعَ حَوَاشِيهِ وَعَلَقَ عَلَيْهِ  
مُحَمَّدُ هُرَيْمُ شَعْرَانُ الدِّين

الجُزءُ الْأَوَّلُ

المحتوى:

مِنْ أَوْلِ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ إِلَى آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ

مَشْوِرَاتٌ  
مُحَمَّدُ عَلَيْهِ بَرَاهِنُون  
دَارُ الْكِتبِ الْعُلُومِية  
بَيْرُوت - نَسَّان

# جميع الحقوق محفوظة

جميع حقوق الملكية الادبية والفنية محفوظة لدار الكتب  
العلمية بيروت - لبنان ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة  
أو إعادة تضييد الكتاب كاملاً أو مجزأً أو تسجيله على أشرطة  
كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر أو برمجته على أسطوانات  
صوتية إلا موافقة الناشر خطياً.

Copyright ©  
All rights reserved

Exclusive rights by DAR al-KOTOB al-ILMIYAH Beirut - Lebanon. No part of this publication may be translated, reproduced, distributed in any form or by any means, or stored in a data base or retrieval system, without the prior written permission of the publisher.

الطبعة الأولى  
١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م

## دار الكتب العلمية

لبنان - بيروت

العنوان : رمل الطريف، شارع البحيري، بناية ملكارت  
تلفون وفاكس : ٣٦٤٢٩٨ - ٣٦٦١٢٥ - ٦٠٢١٢٢ (٩٦١ ١) ..  
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ - بيروت - لبنان

DAR al-KOTOB al-ILMIYAH  
Beirut - Lebanon

Address : Ramel al-Zarif, Bohtory st., Melkart bldg, 1st Floore.  
Tel. & Fax : 00 (961 1) 60.21.33 - 36.61.35 - 36.43.98  
P.O.Box : ١١ - ٩٤٢٤ Beirut - Lebanon

ISBN 2-7451-2221-5

9 0 0 0 0 >



9 782745 122216  
<http://www.al-ilmiyah.com.lb/>  
e-mail : baydoun@dm.net.lb



## ترجمة ابن كثير

هو الإمام الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير بن درع القرشي من بني حصلة. ولد سنة إحدى وسبعينمائة كما ذكر هو نفسه في البداية والنهاية<sup>(١)</sup>، في قرية «مجدل» من أعمال «بصري»، وقد ورد اسمها في البداية والنهاية<sup>(٢)</sup>: «مجدل» ولعل ذلك وقع تصحيفاً. وتوفي والده الخطيب شهاب الدين في قرية المجدل سنة ٧٠٣ هـ كما ذكر المؤلف في البداية والنهاية ضمن ترجمة مستفيضة لوالده<sup>(٣)</sup>. وقد نشأ الإمام بعد وفاة والده في رعاية شقيقه الأكبر الذي قال عنه: «كان لنا شقيقاً، وبين رفيقاً شفوقاً»<sup>(٤)</sup>. وقد شهد القرن الثامن الهجري أحداثاً عظيمة في ظل دولة المماليك تمثلت بهجوم التتار والمجاعات الكثيرة المتواترة والأوبئة التي حصدت الملايين من الناس، كما شهد الغزوات مع الصليبيين وكثرة المؤامرات والفتن بين الأمراء والوزراء. ومع ذلك كان يسود هذا العصر نشاط علمي باز تتمثل في كثرة المدارس وكثرة التأليف وخاصة التأليف الموسوعية منها.

### شيوخه:

درس الإمام ابن كثير على أيدي المئات من الشيوخ، نذكر منهم: القاسم بن محمد البرزالي مؤرخ الشام (ت ٧٣٩هـ)، والشيخ يوسف بن عبد الرحمن المزري (ت ٧٤٤هـ)، والحافظ ابن القلانسي (ت ٧٢٩هـ)، وإبراهيم بن عبد الرحمن الفزاروي (ت ٧٢٩هـ)، ونجم الدين ابن العسقلاني، وابن الشحنة شهاب الدين الحجار (ت ٧٣٠هـ)، وكمال الدين ابن قاضي شهبة، والشيخ نجم الدين موسى بن علي بن محمد الجيلي ثم الدمشقي المعروف بابن البصيص (ت ٧٦٦هـ)، والحافظ شمس الدين الذهبي (ت ٧٤٨هـ)؛ كما أخذ عن القاسم ابن عساكر وابن الشيرازي وإسحاق الأدمي وغيرهم كثير.

### وفاته:

توفي ابن كثير في يوم الخميس ٢٦ شعبان من سنة ٧٧٤ هـ، وخرجت بدمشق

(١) البداية والنهاية (١٤/٢٢).

(٢) البداية والنهاية (١٤/٣٢).

(٣) البداية والنهاية (١٤/٣٣).

(٤) البداية والنهاية (١٤/٤٨).

جموع غفيرة لتشييع جنازته؛ ودفن بمقر الصوفية خارج باب النصر من دمشق حسب وصيته رحمة الله.

### مصنفاته

ترك الحافظ ابن كثير عشرات المؤلفات في شتى الميادين العلمية، وبشكل خاص في التاريخ والتفسير والحديث. وإليك أهم مؤلفاته المطبوعة والمخطوطة والمفقودة:

#### أ - المؤلفات المطبوعة:

١ - تفسير القرآن الكريم، وهو الكتاب الذي بين أيدينا: طبع أولاً ببلاط على هامش فتح البيان للقونوجي في عشرة أجزاء، ثم طبع سنة ١٣٠٠هـ في حواشي كتاب «مجموع البيان في مقاصد القرآن» للسيد أبي الطيب صديق بن حسن خان، وطبع بمطبعة المنار بمصر سنة ١٣٤٣هـ بأمر من السلطان عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل إمام نجد، وبها منه تفسير البغوي. وأعيد طبعه مختصرًا باسم « عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير» سنة ١٣٧٥هـ، في خمسة أجزاء، عن مخطوطة نفيسة في المكتبة الأزهرية.

وقد اعتمد الحافظ في تفسيره العظيم هذا أسلوب تفسير القرآن بالقرآن، ثم بالحديث، وابتعد عن الإسرائييليات وانتقد الاعتماد عليها إلا فيما سمح به الشرع. وفي هذا يقول: «وهذا عندي وأمثاله وأشباهه من اختلاف بعض زنادقهم، يكتبون به على الناس أمر دينهم»<sup>(١)</sup>. وفي موضع آخر يقول: «والذي نسلكه في هذا التفسير الإعراض عن كثير من الأحاديث الإسرائييلية لما فيها من تضييع الزمان ولما اشتمل عليه من الكذب المروج عليهم»<sup>(٢)</sup>.

٢ - البداية والنهاية: مؤلف كبير في التاريخ طبع عدة طبعات، ولعل أقدم طبعة منه كانت سنة ١٣٤٨هـ بمساعدة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود، بمطبعة كردستان العلمية عن مخطوطة مصورة في مكتبة ولی الدين بالأسنان.

٣ - جامع المسانيد والسنن: كتاب ضخم، طبع لأول مرة في دار الكتب العلمية في بيروت في ٣٨ مجلداً.

٤ - الاجتهاد في طلب الجهاد: طبع أولاً بمطبعة أبي الهول سنة ١٣٤٧هـ طبعة غير محققة، ثم طبع سنة ١٤٠١هـ بيروت بتحقيق عبد الله عبد الرحيم عسيران.

٥ - اختصار علوم الحديث: طبع بمكة سنة ١٣٥٣هـ، بتصحيح الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة. وطبع بمصر سنة ١٣٥٥هـ بتحقيق أحمد شاكر، ثم أعاد شاكر طبعه سنة

(١) ابن كثير، عمدة التفسير (ص ١٧).

(٢) ابن كثير، عمدة التفسير (ص ١٧).

١٣٧٠ مع زيادات في الشرح.

٦ - أحاديث التوحيد والردة على الشرك: ذكره بروكلمان في ملحق تاريخ الأدب العربي (٤٨/٢) وأشار إلى أنه طبع في دلهي سنة ١٢٩٧هـ.

#### ب - المؤلفات المخطوطة:

٧ . طبقات الشافعية: منه نسخة خطية مصورة بمعهد المخطوطات بالقاهرة تحت رقم (٧٨٩) صورت عن نسخة الكتاني بالرباط، وهناك مخطوطة أخرى في شسترتي رقمها (٣٣٩٠).

#### ج - المؤلفات المفقودة:

٨ - التكميل في معرفة الثقات والضعفاء والمجاهيل: ورد ذكره في كشف الظنون (٤٧١/١) وطبقات المفسرين للنداودي (١١٠/١) وذيل تذكرة الحفاظ لسيوطى (ص ٨٥).

٩ - الكواكب الدراري في التاريخ: ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٢/٢). (١٥٢١)

١٠ - سيرة الشيوخين: ورد ذكره في البداية والنهاية (١٨/٧) وذيل تذكرة الحفاظ لسيوطى (ص ٣٦١).

١١ - الواضح النفيسي في مناقب الإمام محمد بن إدريس: ذُكر في كشف الظنون (١٨٤٠/٢) وطبقات المفسرين (١١١/١).

١٢ - كتاب الأحكام: وهو كتاب كبير لم يكمله وصل فيه إلى الحجّ؛ وقد ورد ذكره باسم «الأحكام الصغرى في الحديث» في كشف الظنون (١/٥٥٠).

١٣ - الأحكام الكبيرة: ذُكر في البداية والنهاية (٣/٢٥٣) وطبقات المفسرين (١/١١٠).

١٤ - تخريج أحاديث أدلة التنبئ في فروع الشافعية: ذكره ابن كثير في البداية والنهاية (٢/١٢٥) والبغدادي في هدية العارفين (١/٢١٥).

١٥ - اختصار كتاب المدخل إلى كتاب السنن للبيهقي: ورد ذكره في اختصار علوم الحديث لابن كثير (ص ٤).

١٦ - شرح صحيح البخاري: لم يتمه؛ ذُكر في البداية والنهاية (٣/٣، ٣/١١)، وكشف الظنون (١/٥٥٠) وطبقات المفسرين (١/١١٠).

١٧ - السمام: ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون (٢/١٠٠٢).



## [مقدمة المؤلف]

(قال الشيخ الإمام الأوحد، البارع الحافظ المتقن، عماد الدين أبو الفداء: إسماعيل ابن الخطيب أبي حفص عمر بن كثير، الشافعي، رحمه الله تعالى ورضي عنه).

الحمد لله الذي افتح كتابه بالحمد فقال: ﴿الحمد لله رب العالمين \* الرحمن الرحيم \* مالك يوم الدين﴾ [الفاتحة: ٢ - ٤] وقال تعالى: ﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً \* قياماً لينذر بأساً شديداً من لدنه ويسير المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرًا حسناً ما كثين فيه أبداً \* وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً \* ما لهم به من علم ولا آباء لهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً﴾ [الكهف: ١ - ٥] وافتتح خلقه بالحمد فقال تعالى: ﴿الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾ [الأنعام: ١] واختتمه بالحمد فقال بعد ما ذكر مآل أهل الجنة وأهل النار ﴿وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين﴾ [الزمر: ٧٥] ولهذا قال تعالى: ﴿وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون﴾ [القصص: ٧٠] كما قال تعالى: ﴿الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير﴾ [سبأ: ١] فله الحمد في الأولى والآخرة أي في جميع ما خلق وما هو خالق، هو المحمود في ذلك كله كما يقول المصلي «اللهم ربنا لك الحمد، ملء السموات وملء الأرض، وملء ما شئت من شيء بعد» ولهذا يلهم أهل الجنة تسبيحه وتحميده كما يلهمون النفس أي يسبحونه ويحمدونه عدد أنفاسهم، لما يرون من عظيم نعمه عليهم، وكمال قدرته وعظم سلطانه وتواتي منه دوام إحسانه إليهم كما قال تعالى: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهدى لهم ربهم يا يامنهم تجري من تحتهم الأنهر في جنات النعيم \* دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيthem فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين﴾ [يونس: ٩، ١٠].

والحمد لله الذي أرسل رسleه ﴿مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾ [النساء: ١٦٥] وختمهم بالنبي الأمي العربي المكي الهادي لأوضح السبل، أرسleه إلى جميع خلقه من الإنس والجن من لدن بعثته إلى قيام الساعة كما قال تعالى: ﴿قل يا أيها الناس إنني رسول الله إليكم جميعاً الذي له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله

رسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون» [الأعراف: ١٥٨] وقال تعالى: «لأنذركم به ومن بلغ» [الأنعام: ١٩] فمن بلغه هذا القرآن من عرب وعجم وأسود وأحمر وإنس وجان فهو نذير له، ولهذا قال تعالى: «ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده» [هود: ١٧] فمن كفر بالقرآن ممن ذكرنا فالنار موعده بنص الله تعالى كما قال تعالى: «فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنتدرجهم من حيث لا يعلمون وأملي لهم» [القلم: ٤٤] وقال رسول الله ﷺ: «بعثت إلى الأحرم والأسود» قال مجاهد يعني الأنس والجن. فهو صلوات الله وسلامه عليه رسول الله إلى جميع الثقلين الإنس والجن مبلغًا لهم عن الله تعالى ما أوحاه إليه من هذا الكتاب العزيز الذي «لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلقه تنزيل من حكيم حميد» [فصلت: ٤٢] وقد أعلمهم فيه عن الله تعالى أنه ندبهم إلى تفهمه فقال تعالى: «أفلا يتذرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً» [النساء: ٨٢] وقال تعالى: «كتاب أنزلناه إليك مبارك ليذروا آياته وليذرك أولوا الألباب» [ص: ٢٩] وقال تعالى: «أفلا يتذرون القرآن أم على قلوب أفالها» [محمد: ٢٤].

فالواجب على العلماء الكشف عن معاني كلام الله وتفسير ذلك وطلبه من مظانه وتعلم ذلك وتعليمه كما قال تعالى: «وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيئته للناس ولا تكتمونه فبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون» [آل عمران: ١٨٧] وقال تعالى: «إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيمة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم» [آل عمران: ٧٧] فذم الله تعالى أهل الكتاب قبلنا بإعراضهم عن كتاب الله المنزل إليهم وإقبالهم على الدنيا وجمعها واستغالهم بغير ما أمروا به من اتباع كتاب الله.

فعلينا أيها المسلمين أن ننتهي بما ذهبنا به، وأن نتأمر بما أمرنا به من تعلم كتاب الله المنزل إلينا وتعليمه، وتفهيمه، وتفهيمه، قال تعالى: «ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقصدت قلوبهم وكثير منهم فاسقونْ \* اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعلقون» [الحديد: ١٦ - ١٧] ففي ذكره تعالى لهذه الآية بعد التي قبلها تنبية على أنه تعالى كما يحيي الأرض بعد موتها كذلك يلين القلوب بالإيمان والهدى بعد قسوتها من الذنوب والمعاصي، والله المؤمل المسؤول أن يفعل بنا هذا إنه جواد كريم.

فإن قال قائل فما أحسن طرق التفسير؟ فالجواب أن أصبح الطريق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن فما أجمل في مكان فإنه قد بسط في موضع آخر فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة فإنها شارحة للقرآن وموضحة له، بل قد قال الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله تعالى: كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن. قال الله تعالى: «إانا أنزلنا إليك

الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائبين خصيما» [ النساء : ١٠٥ ] وقال تعالى : «وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتَبْيَنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يَؤْمِنُونَ» [ النحل : ٦٤ ] وقال تعالى : «وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِكْرَ لِتَبْيَنَ لِلنَّاسِ مَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمْ وَلِعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ» [ النحل : ٤٤ ] ولهذا قال رسول الله ﷺ : «أَلَا إِنِّي أَوْتَيْتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ» يعني السنة . والستة أيضاً تنزل عليه بالوحى كما ينزل القرآن إلا أنها لا تنتمي كما يتلى القرآن وقد استدل الإمام الشافعى رحمة الله تعالى وغيره من الأئمة على ذلك بأدلة كثيرة ليس هذا موضع ذلك .

والغرض أنك تطلب تفسير القرآن منه ، فإن لم تجده فمن السنة كما قال رسول الله ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمين : «فِيمَ تَحْكُمُ؟ قَالَ : بِكِتَابِ اللَّهِ . قَالَ : فَإِنَّ لَمْ تَجِدْ؟ قَالَ : بِسْنَةِ رَسُولِ اللَّهِ ، قَالَ : فَإِنَّ لَمْ تَجِدْ؟ قَالَ : أَجْتَهَدْ رَأِيِّي ، قَالَ : فَضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي صَدْرِي وَقَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَفَقَ رَسُولُ اللَّهِ لِمَا يَرْضِي رَسُولَ اللَّهِ»<sup>(١)</sup> وهذا الحديث في المساند والسسن بإسناد جيد كما هو مقرر في موضعه . وحيثنى إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوا من القرائن والأحوال التي اختصوا بها ، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح لا سيما علماؤهم وكبارهم كالأئمة الأربع الخلفاء الراشدين ، والأئمة المهديين ، وعبد الله بن مسعود رضي الله عنه . قال الإمام أبو جعفر محمد بن جرير : حدثنا أبو كريب حدثنا جابر بن نوح حدثنا الأعمش عن أبي الضحى عن مسروق قال : قال عبد الله يعني ابن مسعود : والذي لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيما نزلت ، وأين نزلت . ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله مني تناه المطايلا لأتيته<sup>(٢)</sup> . وقال الأعمش أيضاً عن أبي وايل عن ابن مسعود قال : كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن . وقال أبو عبد الرحمن السلمي : حدثنا الذين كانوا يقرئونا أنهم كانوا يستقرئون من النبي ﷺ فكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً .

ومنهم الخبر البحر عبد الله بن عباس ابن عم رسول الله ﷺ وترجمان القرآن ببركة دعاء رسول الله ﷺ له حيث قال : «اللَّهُمَّ فَقِهْنِي فِي الدِّينِ وَعَلِمْنِي التَّأْوِيلَ» وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن بشار وحدثنا سفيان عن الأعمش عن مسلم قال : قال عبد الله يعني ابن مسعود : نعم ترجمان القرآن ابن عباس . ثم رواه عن يحيى بن داود عن إسحاق الأزرق عن سفيان عن الأعمش عن مسلم بن صبيح أبي الضحى عن مسروق عن ابن مسعود أنه قال : نعم الترجمان للقرآن<sup>(٣)</sup> ابن عباس . ثم رواه عن بندار عن جعفر بن عون عن الأعمش به

(١) آخرجه الإمام أحمد في المسند (ج ٥ ص ٢٣٠، ٢٣٦، ٢٤٢) من حديث معاذ بن جبل .

(٢) تفسير الطبرى / ١ ٦٠ . وفيه «فِيمَ نَزَّلْتَ» في موضع «فِيمَ نَزَّلْتَ» .

(٣) في الطبرى / ٥٥ : «نعم ترجمان القرآن» أي بنص الحديث الذى قبله .

كذلك<sup>(١)</sup>. فهذا إسناد صحيح إلى ابن مسعود أنه قال عن ابن عباس هذه العبارة. وقد مات ابن مسعود رضي الله عنه في سنة اثنين وثلاثين على الصحيح وعمر بعده عبد الله بن عباس ستة وثلاثين سنة، فما ظنك بما كسبه من العلوم بعد ابن مسعود. وقال الأعمش عن أبي وائل: استخلف عليّ عبد الله بن عباس على الموسم خطيب الناس فقرأ في خطبته سورة البقرة وفي رواية سورة النور ففسرها تفسيراً لو سمعته الروم والترك والديلم لأسلموا<sup>(٢)</sup>.

ولهذا غالب ما يرويه إسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير في تفسيره عن هذين الرجلين ابن مسعود وابن عباس، ولكن في بعض الأحيان ينقل عنهم ما يحكونه من أقاويل أهل الكتاب التي أباحها رسول الله ﷺ حيث قال: «بلغوا عني ولو آية وحدثوا عنبني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» رواه البخاري<sup>(٣)</sup> عن عبد الله بن عمرو ولهذا كان عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قد أصاب يوم اليرموك زاملتين<sup>(٤)</sup> من كتب أهل الكتاب، فكان يحدث منهما بما فهمه من هذا الحديث من الإذن في ذلك.

ولكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد لا للاعتضاد فإنها على ثلاثة أقسام: أحدها ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق فذاك صحيح والثاني ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه والثالث ما هو مسكون عنه لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل فلا نؤمن به ولا نكتبه ويجوز حكايته لما تقدم، وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني. ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب في هذا كثيراً. ويأتي عن المفسرين خلاف بسبب ذلك، كما يذكرون في مثل هذا أسماء أصحاب الكهف، ولون كلبهم، وعددتهم، وعصا موسى من أي الشجر كانت، وأسماء الطيور التي أحياها الله لإبراهيم، وتعيين البعض الذي ضرب به القتيل من البقرة، ونوع الشجرة التي كلم الله منها موسى، إلى غير ذلك مما أبهمه الله تعالى في القرآن مما لا فائدة في تعينه تعود على المكلفين في دينهم ولا دنياهم. ولكن نقل الخلاف عنهم في ذلك جائز كما قال تعالى: «سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم، ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب، ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم، قل ربى أعلم بعدهم ما يعلمهم إلا قليل فلamar فيهم إلا مراءً ظاهراً ولا تستفت فيهم منهم أحداً» [الكهف: ٢٢] فقد اشتغلت هذه الآية الكريمة على الأدب في هذا المقام وتعليم ما ينبغي في مثل هذا، فإنه تعالى أخبر عنهم بثلاثة أقوال ضعف القولين الأولين وسكت عن الثالث، فدل على صحته إذ لو كان باطلًا لرده كما ردّهما ثم أرشد على أن الاطلاع

(١) في الطبرى ٦٥ / ١: «وحدثني محمد بن بشار، قال: حدثنا جعفر بن عون، قال: حدثنا الأعمش، عن أبي الضحى، عن مسروق، عن عبد الله، بنحوه».

(٢) قارن بالطبرى: ٦٠ / ١.

(٣) صحيح البخاري (علم باب ٣٨؛ جنائز باب ٢٢؛ مناقب باب ٥؛ أنباء باب ٥٠؛ أدب باب ١٠٩).

(٤) الزاملة: ما يُحمل عليه من الإبل وغيرها.

على عدتهم لا طائل تحته فقال في مثل هذا ﴿قل ربِّي أعلم بعدهم﴾ فإنه ما يعلم ذلك إلا قليل من الناس ممن أطلعه الله عليه فلهذا قال: ﴿فَلَا تَمْأُرْ فِيهِمْ إِلَّا مَرَأَ ظَاهِرًا﴾ أي لا تجهد نفسك فيما لا طائل تحته ولا تسأله عن ذلك فإنهم لا يعلمون من ذلك إلا رجم الغيب. فهذا أحسن ما يكون في حكاية الخلاف: أن تستوعب الأقوال في ذلك المقام وأن تنبه على الصحيح منها وتبطل الباطل وتذكر فائدة الخلاف وثمرته لثلا يطول التزاع والخلاف فيما لا فائدة تحته، فتشتغل به عن الأهم فالأهم. فأما من حکى خلافاً في مسألة ولم يستوعب أقوال الناس فيها فهو ناقص إذ قد يكون الصواب في الذي تركه، أو يحكي الخلاف ويطلقه ولا ينبه على الصحيح من الأقوال فهو ناقص أيضاً، فإن صحة غير الصحيح عامداً فقد تعمد الكذب، أو جاهلاً فقد أخطأ، وكذلك من نسب الخلاف فيما لا فائدة تحته أو حکى أقوالاً متعددة لفظاً ويرجع حاصلها إلى قول أو قولين معنى فقد ضيع الزمان وتكثر بما ليس ب صحيح فهو كلام ثوبي زور، والله الموفق للصواب.

[فصل] إذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة ولا وجده عن الصحابة، فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين كمجاحد بن جبر فإنه كان آية في التفسير كما قال محمد بن إسحاق: حدثنا أبان بن صالح عن مجاهد قال: عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمتها أوقفه عند كل آية منه وأسئلته عنها. وقال ابن جرير<sup>(١)</sup>: حدثنا أبو كريب حدثنا طلق بن غنم عن عثمان المكي عن ابن أبي مليكة قال: رأيت مجاهداً سأله ابن عباس عن تفسير القرآن ومعه ألواحه قال: فيقول له ابن عباس: اكتب، حتى سأله عن التفسير كله. ولهذا كان سفيان الثوري يقول: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به، وكسعيد بن جبير وعكرمة مولى ابن عباس وعطاء بن أبي رباح والحسن البصري ومسروق بن الأجدع وسعيد بن المسيب وأبي العالية والربيع بن أنس وقادة والضحاك بن مزاحم وغيرهم من التابعين وتبعيهم ومن بعدهم فتذكر أقوالهم في الآية فيقع في عبارتهم تبادل في الألفاظ يحسبها من لا علم عنده اختلافاً فيحكيها أقوالاً، وليس كذلك فإن منهم من يعبر عن الشيء بلازمه أو بنظيره، ومنهم من ينص على الشيء بعينه، والكل بمعنى واحد في أكثر الأماكن فليتقطن الليب لذلك والله الهادي. وقال شعبه بن الحجاج وغيره: أقوال التابعين في الفروع ليست حجة فكيف تكون حجة في التفسير؟ يعني أنها لا تكون حجة على غيرهم من خالفهم وهذا صحيح. أما إذا أجمعوا على الشيء فلا يرتاب في كونه حجة، فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على قول بعض ولا على من بعدهم ويرجع في ذلك إلى لغة القرآن أو السنة أو عموم لغة العرب أو أقوال الصحابة في ذلك.

فاما تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام لما رواه محمد بن جرير رحمه الله تعالى حيث قال:

حدثنا محمد بن بشار ثنا يحيى بن سعيد ثنا سفيان حدثني عبد الأعلى وهو ابن عامر الشعبي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «من قال في القرآن برأيه أو بما لا يعلم فليتبواً مقعده من النار»<sup>(١)</sup> وهكذا أخرجه الترمذى<sup>(٢)</sup> والنسائي من طرق عن سفيان الثورى، به. ورواه أبو داود عن مسدد عن أبي عوانة عن عبد الأعلى به مرفوعاً. وقال الترمذى: هذا حديث حسن، وهكذا رواه ابن جرير أيضاً عن يحيى بن طلحة اليربوعي عن شريك عن عبد الأعلى به مرفوعاً<sup>(٣)</sup> ولكن رواه عن محمد بن حميد عن الحكم بن بشير عن عمرو بن قيس الملائى عن عبد الأعلى عن سعيد عن ابن عباس فوفقه<sup>(٤)</sup>، وعن محمد بن حميد عن جرير عن ليث عن بكر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس من قوله<sup>(٥)</sup> فالله أعلم، وقال ابن جرير<sup>(٦)</sup>: حدثنا العباس بن عبد العظيم العنبرى ثنا حبان بن هلال ثنا سهيل أخو حزم ثنا أبو عمران الجوني عن جنوب أن رسول الله ﷺ قال: «من قال في القرآن برأيه فقد أخطأ»<sup>(٧)</sup> وقد روى هذا الحديث أبو داود والترمذى والنسائي من حديث سهيل بن أبي حزم القطعى وقال الترمذى: غريب وقد تكلم بعض أهل العلم في سهيل<sup>(٨)</sup>. وفي لفظ لهم «من قال في كتاب الله برأيه فأصاب فقد أخطأ» أي لأنه قد تكلف ما لا علم له به وسلك غير ما أمر به فلو أنه أصاب المعنى في نفس الأمر لكان قد أخطأ لأنه لم يأت الأمر من بابه كمن حكم بين الناس على جهل فهو في النار، وإن وافق حكمه الصواب في نفس الأمر، لكن يكون أخف جرماً من أخطأ والله أعلم. وهكذا سمي الله القذفة كاذبين فقال: «إِذَا لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ» [النور: ١٣] فالقاذف كاذب ولو كان قد قذف من زنى في نفس الأمر لأنه أخبر بما لا يحل له الإخبار به ولو كان أخبر بما يعلم لأنه تكلف ما لا علم له به والله أعلم. ولهذا تحرج جماعة من السلف عن تفسير ما لا علم لهم به كما روى شعبة عن سليمان عن عبد الله بن مهران عن أبي معمر قال: قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: أي أرض تقلني، وأي سماء تظلني، إذا قلت في كتاب الله ما لا أعلم. وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: ثنا محمد بن يزيد عن العوام بن حوشب عن إبراهيم التيمي أن أبو بكر الصديق سئل عن قوله تعالى: «وَفَاكِهَةٌ وَأَبَا» [عبس: ٣١] فقال: أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إذا أنا قلت في كتاب الله ما لا أعلم. منقطع، وقال أبو عبيد أيضاً: ثنا يزيد عن حميد عن أنس أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر «وَفَاكِهَةٌ وَأَبَا» فقال: هذه الفاكهة قد عرفناها فما الأب؟ ثم رجع إلى

(١) تفسير الطبرى ٥٨/١.

(٢) سنن الترمذى، كتاب التفسير، باب ١.

(٣) أي من قول ابن عباس موقوفاً.

(٤) تفسير الطبرى ٥٩/١.

(٥) في الطبرى: «من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ». وكذا في الترمذى، كتاب التفسير، باب ١.

(٦) عباره الترمذى: «وقد تكلم بعض أهل الحديث في سهيل بن أبي حزم» هذا ولم نقع على حكمه بأن هذا

الحديث غريب.

نفسه فقال : إن هذا لهو التكلف يا عمر . وقال عبد بن حميد : ثنا سليمان بن حرب ثنا حماد بن زيد عن ثابت عن أنس قال : كنا عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه وفي ظهر قميصه أربع رقاع فقرأ **«وفاكهة وأبا»** فقال لما الأب ثم قال : هو التكلف فما عليك أن لا تدرره ؟ وهذا كله محمول على أنهما رضي الله عنهما إنما أرادا استكشاف علم كيفية الأب وإلا فكونه نبتاً من الأرض ظاهر لا يجهل كقوله تعالى : **«فأنبأتنا فيها حباً وعنباً»** [عبس : ٢٨] وقال ابن جرير : حدثنا يعقوب بن إبراهيم حدثنا ابن علية عن أيوب عن ابن أبي مليكة أنَّ ابن عباس سئل عن آية لو سئل عنها بعضكم لقال فيها فأبى أن يقول فيها<sup>(١)</sup> ، إسناده صحيح ، وقال أبو عبيد : حدثنا إسماعيل بن إبراهيم عن أيوب عن ابن أبي مليكة قال : سأَلَ رجل ابن عباس عن (يوم كان مقداره ألف سنة) فقال له ابن عباس : مما يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ؟ فقال له الرجل : إنما سألك لـ تحدثني ، فقال ابن عباس : هما يومان ذكرهما الله في كتابه الله أعلم بهما ، فكره أن يقول في كتاب الله ما لا يعلم .

وقال ابن جرير أيضاً : حدثني يعقوب يعني ابن إبراهيم حدثنا ابن علية عن مهدي بن ميمون عن الوليد بن مسلم قال : جاء طلق بن حبيب إلى جنديب بن عبد الله فسألته عن آية من القرآن ؟ فقال : أخرج عليك إن كنت مسلماً إلا ما قمتعني - أو قال : أن تجالسني<sup>(٢)</sup> - وقال مالك عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب أنه كان إذا سئل عن تفسير آية من القرآن قال : إننا لا نقول في القرآن شيئاً<sup>(٣)</sup> . وقال الليث عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب أنه كان لا يتكلم إلا في المعلوم من القرآن<sup>(٤)</sup> . وقال شعبة عن عمرو بن مرة قال : سأَلَ رجل سعيد بن المسيب عن آية من القرآن فقال : لا تسألني عن القرآن وسل من يزعم أنه لا يخفى عليه منه شيء يعني عكرمة<sup>(٥)</sup> . وقال ابن شوذب حدثني يزيد بن أبي يزيد قال : كنا نسأل سعيد بن المسيب عن الحرام والحلال وكان أعلم الناس فإذا سأله عن تفسير آية من القرآن سكت لأن لم يسمع<sup>(٦)</sup> . وقال ابن جرير : حدثني أحمد بن عبدة الضبي حدثنا حماد بن زيد حدثنا عبيد الله بن عمر قال : لقد أدرك فقهاء المدينة وإنهم ليعظمون<sup>(٧)</sup> القول في التفسير منهم سالم بن عبد الله والقاسم بن محمد وسعيد بن المسيب ونافع . وقال أبو عبيد حدثنا عبد الله بن صالح عن الليث عن هشام بن عروة قال : ما سمعت أبي تأول آية من كتاب الله فقط . وقال أيوب وابن عون وهشام الدستوائي عن محمد بن سيرين : سألت عبيدة يعني السلماني عن آية من القرآن فقال : ذهب الذين كانوا يعلمون فيم أنزل

(١) تفسير الطبرى ٦٢/١ .

(٢) تفسير الطبرى ٦٣/١ .

(٣) في الطبرى : «أنا لا أقول في القرآن شيئاً» .

(٤) تفسير الطبرى ٦٢/١ .

(٥) في الطبرى : «إنهم ليخلطون القول في التفسير . . . الخ» .

القرآن، فاتق الله وعليك بالسداد. وقال أبو عبيد: حدثنا معاذ عن ابن عون عن عبد الله بن مسلم بن يسار عن أبيه قال: إذا حديث عن الله حديثاً فقف حتى تنظر ما قبله وما بعده. حدثنا هشيم عن مغيرة عن أباهيم قال: كان أصحابنا يتقدون التفسير ويهارون. وقال شعبة عن عبد الله بن أبي السفر قال: قال الشعبي: والله ما من آية إلا وقد سألت عنها ولكنها الرواية عن الله عز وجل. وقال أبو عبيد: حدثنا هشيم حدثنا عمرو بن أبي زائدة عن الشعبي عن مسروق قال: اتقوا التفسير فإنما هو الرواية عن الله.

فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف محمولة على تحرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم فيه. فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعاً فلا حرج عليه، ولهذا روی عن هؤلاء وغيرهم أقوال في التفسير، ولا منافاة لأنهم تكلموا فيما علموه وسكتوا عمما جهلوه، وهذا هو الواجب على كل أحد، فإنه كما يجب السكوت عملاً لا علم له به فكذلك يجب القول فيما سئل عنه مما يعلمه لقوله تعالى: ﴿لَتُبَيِّنَنَّ لِلنَّاسِ وَلَا تُكْتَمِنُوهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧] ولما جاء في الحديث الذي روی من طرق: «من سئل عن علم فكتمه ألم يعلم يوم القيام بلجام من نار». وأما الحديث الذي رواه أبو جعفر بن جریر: حدثنا عباس بن عبد العظيم حدثنا محمد بن خالد بن عثمة حدثنا أبو جعفر بن محمد الزبیری حدثني هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: ما كان النبي ﷺ يفسر شيئاً من القرآن إلا آياً تعد<sup>(١)</sup>، علمهن إيه جبريل عليه السلام، ثم رواه عن أبي بكر محمد بن يزيد الطرسوسي عن معن بن عيسى عن جعفر بن خالد عن هشام به، فإنه حديث منكر غريب، وجعفر هذا هو ابن محمد بن خالد بن الزبیری بن العوام القرشي الزبیری قال البخاري: لا يتابع في حديثه. وقال الحافظ أبو الفتح الأزدي: منكر الحديث، وتكلم عليه الإمام أبو جعفر بما حاصله أن هذه الآيات مما لا يعلم إلا بالتوقيف عن الله تعالى مما وقفه عليها جبراً، وهذا تأويل صحيح لو صح الحديث، فإن من القرآن ما استأثر الله تعالى بعلمه، ومنه ما يعلمه العلماء ومنه ما تعلمه العرب من لغاتها، ومنه ما لا يعذر أحد في جهله كما صرحت بذلك ابن عباس فيما قال ابن جریر: حدثنا محمد بن بشار حدثنا مؤمل حدثنا سفيان عن أبي الزناد قال: قال ابن عباس: التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلم أحد إلا الله. قال ابن جریر: وقد روی نحوه في حديث في إسناده نظر<sup>(٢)</sup>! حدثني يونس عن عبد الأعلى الصدفي أئبنا ابن وهب قال: سمعت عمرو بن الحارث يحدث عن الكلبي عن أبي صالح مولى أم هانئ عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «أنزل القرآن على أربعة أحرف حلال وحرام - لا يعذر أحد بالجهالة به،

(١) في الطبری: «إلا آیاً بعده».

(٢) عبارة ابن جریر (تفسير الطبری ١/٥٧): «وقد روی بنحو ما قلنا في ذلك أيضاً عن رسول الله ﷺ خبر في إسناده نظر» وهو حديث يونس الصدفي.

وتفسيره العرب وتفسير تفسره العلماء، ومتشابه لا يعلمه إلا الله عز وجل، ومن ادعى علمه سوى الله فهو كاذب» والنظر الذي أشار إليه في إسناده هو من جهة محمد بن السائب الكلبي فإنه متروك الحديث، لكن قد يكون إنما وهم في رفعه، ولعله من كلام ابن عباس كما تقدم والله أعلم بالصواب.

### مقدمة مفيدة تذكر في أول التفسير قبل الفاتحة

قال أبو بكر بن الأنباري: حدثنا إسماعيل بن إسحاق القاضي حدثنا حجاج بن منهال حدثنا همام عن قتادة قال: نزل في المدينة من القرآن البقرة وال عمران والنساء والمائدة وبراءة والرعد والنحل والحج والنور والأحزاب ومحمد والفتح والحجرات والرحمن وال الحديد والمجادلة والحضر والمحنة والصف والجامعة والمنافقون والتغابن والطلاق و﴿يأيها النبي لم تحرم﴾ [سورة التحرير] إلى رأس العشر وإذا زلزلت و﴿إذا جاء نصر الله﴾ هؤلاء سور نزلت بالمدينة وسائر سور بمكة.

فأما عدد آيات القرآن العظيم فستة آلاف آية ثم اختلف فيما زاد على ذلك على أقوال: فمنهم من لم يزد على ذلك، ومنهم من قال ومائتي آية وأربع آيات، وقيل وأربع عشرة آية. وقيل: ومائتان وتسعة عشرة آية وقيل: ومائتان خمس وعشرون آية، أو ست وعشرون آية، وقيل: ومائتان وست وثلاثون، حتى ذلك أبو عمرو الداني في كتابه «البيان». وأما كلماته فقال الفضل بن شاذان عن عطاء بن يسار: سبع وسبعون ألف كلمة وأربعين ألف وتسع وثلاثون كلمة. وأما حروفه فقال عبد الله بن كثير عن مجاهد: هذا ما أحصينا من القرآن وهو ثلاثة وألف حرف واحد وعشرون ألف حرف ومائة وثمانون حرفاً، وقال الفضل بن عطاء بن يسار: ثلاثة ألف حرف وثلاثة وعشرون ألفاً وخمسة عشر حرفاً. وقال سلام أبو محمد الحمامي أن الحجاج جمع القراء والحفظ والكتاب فقال: أخبروني عن القرآن كله كم من حرف هو؟ قال: فحسبنا فأجمعوا أنه ثلاثة ألف وأربعين ألفاً وسبعين ألفاً وأربعين حرفاً، قال: فأخبروني عن نصفه فإذا هو إلى الفاء من قوله في الكهف ﴿وليتلطف﴾ وثلثة الأول عند رأس مائة آية من براءة والثانية على رأس مائة أو إحدى مائة من الشعراء، والثالث إلى آخره، وسبعين الأول إلى الدال من قوله تعالى: ﴿فمنهم من آمن به ومنهم من صد﴾ [النساء: ٥٥] والسبع الثاني إلى النساء من قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿أولئك حبطت﴾<sup>(١)</sup> والثالث إلى ألف الثاني من قوله تعالى في الرعد: ﴿أكلها﴾ [الرعد: ٣٥] والرابع إلى ألف في الحج من قوله: ﴿جعلنا

(١) لم يرد في سورة الأعراف لفظ «أولئك حبطت» وإنما السياق التالي من دون «أولئك: ﴿والذين كذبوا بأياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم﴾ [الأعراف: ١٤٧]. أما «أولئك حبطت» فقد وردت في سورة التوبية، الآية: ٦٩ و ١٧.

منسكاً<sup>(١)</sup>) والخامس إلى الهاه من قوله في الأحزاب: «وما كان لمؤمن ولا مؤمنة» [الأحزاب: ٣٦] والسادس إلى الواو من قوله تعالى في الفتح: «الظانين بالله ظن السوء» [الفتح: ٦] والسابع إلى آخر القرآن. قال سلام أبو محمد: علمنا ذلك في أربعة أشهر، قالوا وكان الحجاج يقرأ في كل ليلة ربع القرآن، فالأول إلى آخر الأنعام والثاني إلى «وليتلطف» من سورة الكهف، والثالث إلى آخر الزمر، والرابع إلى آخر القرآن وقد حكى الشيخ أبو عمرو الداني في كتابه (بيان) خلافاً في هذا كله فالمؤلم.

وأما (التحزيب والتجزئة) فقد اشتهرت الأجزاء من ثلاثين كما في الرباعات بالمدارس وغيرها وقد ذكرنا فيما تقدم الحديث الوارد في تحزيب الصحابة للقرآن والحديث في مسنده الإمام أحمد وسنن أبي داود وابن ماجه وغيرهم عن أوس بن حذيفة أنه سأله أصحاب رسول الله ﷺ في حياته كيف تحزبون القرآن؟ قالوا ثلث وخمس وسبع وأحد عشرة وثلاث عشرة وحزب المفصل حتى تختتم.

[فصل] واختلف في معنى السورة مما هي مشتقة فقيل من الإبابة والارتفاع قال النابغة:

[[الطويل]]

أَلْمَ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَعْطَاكَ سُورَةً تَرَى كُلَّ مَلَكٍ دُونَهَا يَتَذَبَّبُ<sup>(٢)</sup>

فكأن القارئ ينتقل بها من منزلة إلى منزلة. وقيل لشرفها وارتفاعها كسور البلدان، وقيل: سميت سورة لكونها قطعة من القرآن وجزءاً منه مأخوذ من أسرار الإناء وهو البقية. وعلى هذا فيكون أصلها مهموزاً. وإنما خفت الهمزة فأبدلت الهمزة وأواً لانضمام ما قبلها، وقيل لتمامها وكمالها لأن العرب يسمون الناقة التامة سورة (قتلت) ويحتمل أن يكون من الجمع والإحاطة لأياتها كما يسمى سور البلد لإحاطته بمنازله ودوره. وجمع السورة سور بفتح الواو، وقد يجمع على سورات و سورات، وأما الآية فمن العلامة على انقطاع الكلام الذي قبلها عن الذي بعدها وانفصالتها أي هي بائنة عن أختها ومنفردة قال الله تعالى: «إِنَّ آيَةً مِّلْكِهِ» [البقرة: ٢٤٨] وقال النابغة: [[الطويل]]

تَوَهَّمْتَ آيَاتٍ لَهَا فَعْرَفْتَهَا لَسْتَ أَعْوَامَ وَذَا الْعَامِ سَابِعُ<sup>(٣)</sup>

وقيل لأنها جماعة حروف من القرآن وطائفة منه كما يقال: خرج القوم بأياتهم أي بجماعاتهم. قال الشاعر: [[الطويل]]

(١) اللفظ «جعلنا منسقاً» ورد مرتين في سورة الحج، في الآية ٣٤ والآية ٦٧.

(٢) البيت للنابغة في ديوانه ص ٧٣؛ ولسان العرب (سور)؛ وتهذيب اللغة ص ٤٩ / ١٣؛ وجمهرة اللغة ص ١٧٤ ، وديوان المعاني ١ / ١٥؛ وتاح العروس (سور).

(٣) البيت للنابغة في ديوانه ص ٣١؛ وخزانة الأدب ٢ / ٤٥٣؛ وشرح أبيات سيبويه ١ / ٤٤٧؛ والصاحب في فقه اللغة ص ١١٣؛ والكتاب ٢ / ٨٦؛ ولسان العرب (عشر)؛ والمقاصد النحوية ٣ / ٤٠٦.

خرجنا من النقيبين لا حيَّ مثنا بـأيَّتنا نرجي اللقاح المُطَافِلاً<sup>(١)</sup>

وقيل سميَت آية لأنها عجب يعجز البشر عن التكلم بمثلها قال سيبويه: وأصلها آية مثل أكمة وشجرة، تحركت الياء وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً فصارت آية بهمزة بعدها مدة وقال الكسائي أصلها آية على وزن أمنة فقلبت ألفاً ثم حذفت للتباشها وقال الفراء: أصلها آية بشد الياء الأولى فقلبت ألفاً كراهة التشدید فصارت آية وجمعها آيٰ وأيات وأيٰيٰ . وأما الكلمة فهي اللفظة الواحدة وقد تكون على حرفين مثل ما ولا ونحو ذلك . وقد تكون أكثر، وأكثر ما تكون عشرة أحرف مثل «ليستخلفنهم» و «أنلزمكموها» «فأسقيناكموه» . وقد تكون الكلمة الواحدة آية مثل الفجر والضحى والعصر وكذلك ألم وطه ويس وحم في قول الكوفيين وحم عشق عندهم كلمتان وغيرهم لا يسمى هذه آيات بل يقول هذه فواتح السور وقال أبو عمرو الداني لا أعلم كلمة هي وحدها آية إلا قوله تعالى : «مدحامتان» بسورة الرحمن .

[فصل] قال القرطبي : أجمعوا على أنه ليس في القرآن شيء من التراكيب الأعجمية، وأجمعوا أن فيه أعلاماً من الأعجمية كإبراهيم ونوح ولوط واختلفوا هل فيه شيء من غير ذلك بالأعجمية فأنكر ذلك الباقلاني والطبرى وقالا : ما وقع فيه مما يوافق الأعجمية فهو من باب ما توافقت فيه اللغات .

(١) البيت لبرج بن مسهر الطائي في لسان العرب (آيا)؛ ومقاييس اللغة ١٦٩/١؛ وتاح العروس (آيٰ)؛ وللترجمي في لسان العرب (قفف)؛ وتاح العروس (قفف).

## سورة الفاتحة

يقال لها الفاتحة أي فاتحة الكتاب خطأ وبها تفتح القراءة في الصلوات، ويقال لها أيضاً أم الكتاب عند الجمهور، ذكره أنس، والحسن وابن سيرين كرها تسميتها بذلك، قال الحسن وابن سيرين: إنما ذلك اللوح المحفوظ، وقال الحسن: الآيات المحكمات هن أم الكتاب، ولذا كرها أيضاً أن يقال لها أم القرآن وقد ثبت في الصحيح عند الترمذى وصححه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «الحمد لله رب العالمين أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثانى والقرآن العظيم» ويقال لها (الحمد) ويقال لها (الصلاه) لقوله ﷺ عن ربه «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين فإذا قال العبد الحمد لله رب العالمين قال الله: حمدني عبدي» الحديث. فسميت الفاتحة صلاة لأنها شرط فيها ويقال لها (الشفاء) لما رواه الدارمي عن أبي سعيد مرفوعاً «فاتحة الكتاب شفاء من كل سُمٍ» ويقال لها (الرقية) لحديث أبي سعيد في الصحيح حين رقى بها الرجل السليم فقال له رسول الله ﷺ «وما يدريك أنها رقية؟» وروى الشعبي عن ابن عباس أن سماها (أساس القرآن) قال: وأساسها بسم الله الرحمن الرحيم وسماها سفيان بن عيينه (بالواقية) وسماها يحيى بن أبي كثیر (الكافیة) لأنها تکفى عما عداها ولا يکفى ما سواها عنها كما جاء في بعض الأحادیث المرسلة «أم القرآن عوض من غيرها وليس من غيرها عوض منها» ويقال لها سورة الصلاة والكتز، ذكرهما الزمخشري في کشافه.

وهي مکية قاله ابن عباس وقتادة وأبو العالية، وقيل مدنیة قاله أبو هريرة ومجاہد وعطاء بن يسار والزہری ويقال نزلت مرتین: مرة بمکة ومرة بالمدینة، والأول أشبه لقوله تعالى: «ولقد آتيناك سبعاً من المثاني» [الحجر: ۸۷] والله تعالى أعلم. وحکى أبو الليث السمرقندی أن نصفها نزل بمکة ونصفها الآخر نزل بالمدینة وهو غریب جداً، نقله القرطبی عنه، وهي سبع آیات بلا خلاف، وقال عمرو بن عبید: ثمان، وقال حسین الجعفی: ستة، وهذا القول ان شاذان وإنما اختلفوا في البسمة هل هي آیة مستقلة من أولها كما هو عند جمهور قراء الكوفة وقول جماعة من الصحابة والتابعین وخلق من الخلف أو بعض آیة أو لا تعدد من أولها بالكلیة كما هو قول أهل المدینة من القراء والفقهاء على ثلاثة أقوال كما سیأتي تقریرها في موضعه إن شاء الله تعالى وبه الثقة.

قالوا: وكلماتها خمس وعشرون کلمة، وحروفها مائة وثلاثة عشر حرفاً. قال البخاری في أول كتاب التفسیر وسمیت أم الكتاب لأنه يبدأ بكتابتها في المصاھف ويبدأ بقراءتها في الصلاة،

وقيل: إنما سمي بذلك لرجوع معاني القرآن كله إلى ما تضمنته. قال ابن حجر: والعرب تسمى كل جامع أمراً أو مقدم لأمر إذا كانت له توابع تتبعه هو لها إمام جامع: أمّا، فتقول للجلدة التي تجمع الدماغ أم الرأس ويسمون لواء الجيش ورایتهم التي يجتمعون تحتها أمّا، واستشهد بقول ذي الرمة [الطوبل].

**على رأسه أم لنا نقتدي بها جماع أمور لا نعاصي لها أمراً<sup>(١)</sup>**

- يعني الرمح - قال: وسميت مكة أم القرى لتقدمها أمام جميعها وجمعها ما سواها، وقيل لأن الأرض دحيت من تحتها. ويقال لها أيضاً: الفاتحة لأنها تفتح بها القراءة وافتتحت الصحابة بها كتابة المصحف الإمام<sup>(٢)</sup> وصح تسميتها بالسبعين المثاني، قالوا: لأنها تثنى في الصلاة فقرأ في كل ركعة، وإن كان للمثاني معنى آخر كما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله تعالى.

قال الإمام أحمد<sup>(٣)</sup>: حدثنا يزيد بن هارون أبأنا ابن أبي ذئب وهاشم بن هاشم<sup>(٤)</sup> عن ابن أبي ذئب عن المقبرى عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال في أم القرآن: «هي أم القرآن وهي السبع المثاني وهي القرآن العظيم» ثم رواه عن إسماعيل بن عمر عن ابن أبي ذئب به. وقال أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى<sup>(٥)</sup>: حدثني يونس بن عبد الأعلى أبأنا ابن وهب أخبرني ابن أبي ذئب عن سعيد المقبرى عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «هي أم القرآن وهي فاتحة الكتاب وهي السبع المثاني» وقال الحافظ أبو بكر أحمد بن موسى بن مردوه في تفسيره: حدثنا أحمد بن زياد حدثنا محمد بن غالب بن حارت، حدثنا إسحاق بن عبد الواحد الموصلى، حدثنا المعافى بن عمران عن عبد الحميد بن جعفر عن نوح بن أبي بلال عن المقبرى عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «الحمد لله رب العالمين سبع آيات: بسم الله الرحمن الرحيم إحداهن، وهي السبع المثاني والقرآن العظيم، وهي أم الكتاب، وفاتحة الكتاب» وقد رواه الدارقطنى أيضاً عن أبي هريرة مرفوعاً بنحوه، أو مثله، وقال: كلهم ثقات. وروى البيهقي عن علي وابن عباس وأبي هريرة أنهم فسروا قوله تعالى «سبعاً من المثاني» بالفاتحة وأن البسمة هي الآية السابعة منها وسيأتي تمام هذا عند البسمة. وقد روى الأعمش عن إبراهيم قال: قيل لابن مسعود: لَمْ لَمْ تَكْتُبِ الْفَاتِحَةَ فِي مَسْحِفِكَ؟ فَقَالَ: لَوْ كَتَبْتُهَا لَكَتَبْتُهَا

(١) الطبرى ١/٧٤. وقد روى ثلاثة آيات هي:

وَأَسْمَرَ قَوَامٍ إِذَا نَامَ صَحْبِي

عَلَى رَأْسِهِ أَمْ لَنَا نَقْتَدِيْ بِهَا

إِذَا نَزَلَتْ قَيْلَ أَنْزَلُوا إِذَا غَدَتْ

(٢) المصحف الإمام هو مصحف عثمان رضي الله عنه.

(٣) المسند ج ٣ ص ٤٥٩.

(٤) في المسند: «هاشم بن القاسم».

(٥) تفسير الطبرى ١/٧٤.

خَفِيفُ الثِّيَابِ لَا تُسْوَارِي لَهُ أَزْرَا

جِمَاعُ أَمْرُورِ لَا نَعَاصِي لَهَا أَمْرًا

غَدَتْ ذَاتٌ بِزُرْقَىٰ نَسَالَ بَهَا فَخْرَا

في أول كل سورة، قال أبو بكر بن أبي داود: يعني حيث يقرأ في الصلاة، قال: واكتفيت بحفظ المسلمين لها عن كتابتها وقد قيل: إن الفاتحة أول شيء أنزل من القرآن كما ورد في حديث رواه البهيمي في دلائل النبوة ونقله الباقياني أحد أقوال ثلاثة وقيل: **﴿يَا أَيُّهَا الْمُدْرِر﴾** كما في حديث حابر في الصحيح وقيل: **﴿أَقْرأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾** وهذا هو الصحيح كما سيأتي تقريره في موضعه والله المستعان.

### ذكر ما ورد في فضل الفاتحة

قال الإمام أحمد بن حنبل رحمة الله تعالى في مسنده<sup>(١)</sup> حدثنا يحيى بن سعيد عن شعبة حدثني خبيب بن عبد الرحمن عن حفص بن عاصم عن أبي سعيد بن المعلى رضي الله عنه قال: كنت أصلي فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجبه حتى صلitàت، قال: فأتيته فقال: «مامنك أن تأتيني»؟ قال: قلت: يا رسول الله إني كنت أصلي قال: ألم يقل الله تعالى **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِبُو لِهِ وَلِرَسُولِكُمْ إِذَا دَعَاكُمْ﴾** [الأنفال: ٢٤] ثم قال: «لأعلمك<sup>(٢)</sup> أعظم سورة في القرآن قيل أن تخرج من المسجد» قال: فأخذ بيدي فلما أراد أن يخرج من المسجد قلت: يا رسول الله إنك قلت لأعلمك أعظم سورة في القرآن قال: «نعم **﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾** هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته» وهكذا رواه البخاري عن مسدد وعلي بن المديني، كلاهما عن يحيى بن سعيد القطان به، ورواه في موضع آخر من التفسير، وأبو داود والنسيائي وابن ماجه من طرق عن شعبة به، ورواه الواقدi عن محمد بن معاذ الأنصاري عن خبيب بن عبد الرحمن عن حفص بن عاصم عن أبي سعيد بن المعلى عن أبي بن كعب فذكر نحوه. وقد وقع في الموطأ<sup>(٣)</sup> للإمام مالك بن أنس رحمة الله ما ينبغي التنبية عليه فإنه رواه مالك عن العلاء بن عبد الرحمن بن يعقوب الحرقبي: أن أبا سعيد مولى عامر بن كريز أخبرهم أن رسول الله ﷺ نادى أبي بن كعب وهو يصلّي في المسجد فلما فرغ من صلاته لحقه قال فوضع النبي ﷺ يده على يدي وهو يريد أن يخرج من باب المسجد ثم قال ﷺ: «إني لأرجو أن لا تخرج من باب المسجد حتى تعلم سورة ما أنزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في القرآن مثلها» قال أبي رضي الله عنه: فجعلت أبطئ في المشي رجاء ذلك ثم قلت: يا رسول الله ما السورة التي وعدتني؟ قال: «كيف تقرأ إذا افتتحت الصلاة؟» قال: فقرأت عليه **﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾** حتى أتيت على آخرها، فقال رسول الله ﷺ: «هي هذه السورة وهي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أعطيت» فأبو سعيد هذا ليس بأبي سعيد بن المعلى كما اعتقد ابن الأثير في

(١) المسند ج ٥ ص ٣٣٤.

(٢) المراد: لأعلمك من أمرها ما لم تكن تعلمه قبل ذلك، وإنما فقد كان عالماً بالسورة وحافظاً لها.

(٣) الموطأ، كتاب الصلاة، حديث ٣٧ (باب ما جاء في أم القرآن).

جامع الأصول ومن تبعه فإن ابن المعلى صحابي أنصاري وهذا تابعي من موالى خزاعة، وذاك الحديث متصل صحيح، وهذا ظاهره منقطع إن لم يكن سمعه أبو سعيد هذا من أبي بن كعب، فإن كان قد سمعه منه فهو على شرط مسلم والله أعلم. على أنه قد روي عن أبي بن كعب من غير وجه كما قال الإمام أحمد<sup>(١)</sup>: حدثنا عفان حدثنا عبد الرحمن بن إبراهيم حدثنا العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: خرج رسول الله ﷺ على أبي بن كعب، وهو يصلی فقال: يا أبي، فالتفت ثم لم يجبه، ثم قال: أبي، فخفف<sup>(٢)</sup> أبي ثم انصرف إلى رسول الله ﷺ فقال: السلام عليك أي رسول الله قال: وعليك السلام ما منعك أي أبي إذ دعوتك أن تجيئني، قال: أي رسول الله إني كنت في الصلاة قال: أولست تجد فيما أوحى الله تعالى إلى [أن]<sup>(٣)</sup> «استجيبوا الله ولرسول إذا دعاكم لما يحييكم» قال: بل يا رسول الله لا أعود قال أتحب أن أعلمك سورة لم ينزل لا في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها؟ قلت: نعم أي رسول الله، قال رسول الله ﷺ بيدي يحدثنی وأنا أتبطأ مخافة أن يبلغ قبل أن يقضي الحديث، فلما دنونا من الباب قلت: أي رسول الله ما السورة التي وعدتنی؟ قال: ما تقرأ في الصلاة<sup>(٤)</sup>؟ قال: فقرأت عليه أم القرآن قال: والذي نفسي بيده ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها إنها السبع المثاني<sup>(٥)</sup>. ورواه الترمذی عن قتيبة عن الدراوردي عن العلاء عن أبي هريرة رضي الله عنه فذكره وعنه: إنها من السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أعطيته ثم قال: هذا حديث حسن صحيح، وفي الباب عن أنس بن مالک، ورواه عبد الله ابن الإمام أحمد عن إسماعيل بن أبي معمر عن أبيأسامة عن عبد الحميد بن جعفر عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة عن أبي بن كعب، فذكره مطولاً بنحوه أو قريباً منه. وقد رواه الترمذی والنمسائي جميعاً عن أبي عمار حسين بن حرث عن الفضل بن موسى عن عبد الحميد بن جعفر عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: ما أُنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل مثل أم القرآن، وهي السبع المثاني وهي مقصومة بيني وبين عبدي. هذا لفظ النمسائي، وقال الترمذی: حديث حسن غريب.

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا هاشم يعني ابن البريد، حدثنا عبد الله بن محمد بن عقيل عن ابن جابر قال: انتهي إلى رسول الله ﷺ وقد أهراق<sup>(٦)</sup> الماء فقلت: السلام

(١) المسند ج ٣ ص ٣٨٧.

(٢) عبارة المسند: «ثم صلّى أبي فخفف» في موضع «ثم قال: أبي، فخفف».

(٣) زيادة من المسند.

(٤) عبارة المسند: «فكيف تقرأ في الصلاة»؟

(٥) عبارة المسند: « وإنها للسبعين من المثاني».

(٦) أهراق يهريق إهراقة الماء: أراقه.

عليك يا رسول الله فلم يرد علي، قال فقلت: السلام عليك يا رسول الله فلم يرد علي، قال: فقلت: السلام عليك يا رسول الله فلم يرد علي، قال: فانطلق رسول الله عليه السلام يمشي وأنا خلفه حتى دخل رحله<sup>(١)</sup> ودخلت أنا المسجد فجلست كثيراً حزيناً فخرج علي رسول الله عليه السلام وقد تطهر فقال: عليك السلام ورحمة الله وعليك السلام ورحمة الله وعليك السلام ورحمة الله ثم قال: «ألا أخبرك يا عبد الله بن جابر بأخرين سورة في القرآن» قلت: بلى يا رسول الله، قال «اقرأ الحمد لله رب العالمين حتى تختتمها<sup>(٢)</sup>» هذا إسناد جيد، وابن عقيل هذا يحتاج به الأئمة الكبار وعبد الله بن جابر هذا الصحابي ذكر ابن الجوزي أنه هو العبدى والله أعلم، ويقال إنه عبد الله بن جابر الأنصارى البىاضى فيما ذكره الحافظ ابن عساكر. واستدلوا بهذا الحديث وأمثاله على تفاضل بعض الآيات وال سور على بعض كما هو المحكى عن كثير من العلماء، منهم إسحاق بن راهويه وأبو بكر بن العربي وابن الحفار من المالكية، وذهب طائفة أخرى إلى أنه لا تفاضل في ذلك لأن الجميع كلام الله، ولثلا يوهم التفضيل تقص المفضل عليه، وإن كان الجميع فاضلاً، نقله القرطبي عن الأشعري وأبي بكر الواقاني وأبي حاتم بن حيان البستي ويحيى بن يحيى ورواية عن الإمام مالك.

حديث آخر: قال البخاري في فضائل القرآن: حدثنا محمد بن المثنى، وحدثنا وهب حدثنا هشام عن محمد عن معبد عن أبي سعيد الخدري، قال: كنا في مسير لنا، فنزلنا فجاءت جارية فقالت: إن سيد الحي سليم<sup>(٣)</sup> وإن نفرنا غيب فهل منكم راقٍ؟ فقام معها رجل ما كان نأبه<sup>(٤)</sup> برقة فرقاه فبراً، فأمر له بثلاثين شاة وسبعين لبناً. فلما رجع قلنا له: أكنت تحسن رقية أو كنت ترقي؟ فقال: لا ما رقيت إلا بأم الكتاب قلنا: لا تحدثوا شيئاً حتى نأتي أو نسأل رسول الله عليه السلام، فلما قدمتنا المدينة ذكرناه للنبي عليه السلام فقال: «وما كان يدريه أنها رقية اقسموا واضربوا لي بسهم» وقال أبو عمر: حدثنا عبد الوارث، حدثنا هشام، حدثنا محمد بن سيرين حدثني معبد بن سيرين عن أبي سعيد الخدري بهذا، وهكذا رواه مسلم وأبو داود من رواية هشام وهو ابن حسان عن ابن سيرين به وفي بعض روایات مسلم لهذا الحديث أن أبو سعيد الخدري هو الذي رقى ذلك السليم يعني اللديع يسمونه بذلك تقاؤلاً.

(١) الرَّحْلُ: مركب للبعير والناقة، وهو من مراكب الرجال دون النساء. ويعبر به عمما يستصحبه الراكب وعمما جلس عليه في المتنزل، وعن المتنزل نفسه، وعن مسكن الرجل.

(٢) المسند ج ٦ ص ١٨٧.

(٣) السليم: الملدوغ (على التفاؤل). وهو أيضاً الجريح المستفي على الهلة. والتَّفَرُّ: رهط الإنسان وعشيرته، والجماعة الذين ينفرون في الأمر.

(٤) أَبْنَهُ: عَابِهُ، وَاتَّهَمَهُ. وَالْمَرَادُ: مَا كَنَا نَعْلَمُ أَنَّهُ يَرْقِي فَعَيَّبَهُ بِذَلِكَ، بَاعْتَبَرَ أَنَّ تَوْسُّلَ الرُّؤْمَى مَا يُعَابُ عَلَيْهِ الإِنْسَانُ الْمُسْلِمُ.

حدث آخر: روى مسلم<sup>(١)</sup> في صحيحه والنسائي<sup>(٢)</sup> في سنته من حديث أبي الأحوص سلام بن سليم عن عمارة بن رُزَيْق عن عبد الله بن عيسى بن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: بينما رسول الله ﷺ وعنده جبرائيل، إذ سمع نقضاً<sup>(٣)</sup> فوقه فرفع جبرائيل بصره إلى السماء فقال: هذا باب قد فتح من السماء ما فتح قط، قال: فنزل منه ملك فأتى النبي ﷺ فقال: أبشر بتوتين قد أتواهما لم يؤتئهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ حرفاً منها إلا أتيته، وهذا لفظ النسائي.

ولمسلم نحوه حديث آخر، قال مسلم<sup>(٤)</sup>: حدثنا إسحاق بن إبراهيم الحنظلي (هو ابن راهويه) حدثنا سفيان بن عيينة عن العلاء، (يعني ابن عبد الرحمن بن يعقوب الخرقاني) عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من صلى صلاة لم يقرأ فيها ألم القرآن فهي خداج<sup>(٥)</sup> ثلاثة غير تمام». فقيل لأبي هريرة: إننا نكون خلف الإمام، فقال: اقرأ بها في نفسك فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله عز وجل: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ولعבدي ما سأله، فإذا قال: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ قال الله: حمدني عبدي، وإذا قال ﴿الرحمن الرحيم﴾ قال الله: أثنى عليّ عبدي، فإذا قال ﴿مالك يوم الدين﴾ قال الله: مجذبني عبدي، وقال مرة: فوض إليّ عبدي، فإذا قال: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ قال: هذا بيني وبين عبدي ولعבدي ما سأله، فإذا قال ﴿إهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالل﴾ قال الله: هذا لعבدي ولعבدي ما سأله». وهكذا رواه النسائي عن إسحاق بن راهويه وقد روياه أيضاً عن قتيبة عن مالك عن العلاء، عن أبي السائب مولى هشام بن زهرة عن أبي هريرة به، وفي هذا السياق «فنصفها لي ونصفها لعبي، ولعبي ما سأله» وكذا. رواه ابن إسحاق عن العلاء وقد رواه مسلم من حديث ابن جريج عن العلاء عن أبي السائب هكذا. ورواه أيضاً من حديث ابن أبي أويس عن العلاء عن أبيه وأبي السائب، كلاماً عن أبي هريرة. وقال الترمذى: هذا حديث حسن. وسألت أبي زرعة عنه فقال: كلا الحديثين صحيح، من قال عن العلاء عن أبيه وعن العلاء عن أبي السائب. روى هذا الحديث عبد الله بن الإمام أحمد من حديث العلاء عن أبيه عن أبي هريرة عن أبي بن كعب مطولاً. وقال ابن جرير<sup>(٦)</sup>: حدثنا صالح بن مسمار المروزى حدثنا زيد بن الحباب حدثنا عنابة بن سعيد عن مطرف بن طريف عن سعد بن إسحاق بن كعب بن عجرة عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ:

(١) كتاب صلاة المسافرين، حديث ٢٥٤.

(٢) كتاب الافتتاح، باب ٢٥.

(٣) النقضا: الصوت كصوت الباب إذا فتح.

(٤) كتاب الصلاة، حديث ٣٨. وما وضعناه بين هلالين ليس من حديث مسلم.

(٥) الخداج: النقصان. قوله عليه الصلاة والسلام: «خداج» أي ذات خداج.

(٦) تفسير الطبرى ١/ ١١٧.

«قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين وله ما سأله فإذا قال العبد ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ قال: حمدني عبدي وإذا قال: ﴿الرحمن الرحيم﴾ قال: أنت على عبدي، ثم قال: هذا لي وله ما بقي . وهذا غريب من هذا الوجه<sup>(١)</sup> .

### الكلام على ما يتعلّق بهذا الحديث

#### مما يختص بالفاتحة من وجوه

أحدّها: أنه قد أطلق فيه لفظ الصلاة، والمراد القراءة كقوله تعالى: ﴿وَلَا تجهر بصلاتك ولا تخفّف بها وابتغ في ذلك سبلاً﴾ [الإسراء: ١١٠] أي بقراءتك كما جاء مصراً به في الصحيح عن ابن عباس، وهكذا قال في هذا الحديث: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين فنصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأله» ثم بين تفضيل هذه القسمة في قراءة الفاتحة فدل على عظم القراءة في الصلاة، وأنها من أكبر أركانها إذا أطلقت العبادة وأريد بها جزء واحد منها هو القراءة، كما أطلق لفظ القراءة والمراد به الصلاة في قوله: ﴿وَقُرْآنُ الْفَجْرِ، إِنْ قُرْآنُ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾ [الإسراء: ٧٨] والمراد صلاة الفجر كما جاء مصراً به في الصحيحين من أنه يشهد لها ملائكة الليل وملائكة النهار فدل هذا كله على أنه لا بد من القراءة في الصلاة وهو اتفاق من العلماء، ولكن اختلّفوا في مسألة ذكرها في الوجه الثاني، وذلك أنه هل يتّبعن للقراءة في الصلاة فاتحة الكتاب أم تجزيء هي أو غيرها؟ على قولين مشهورين، فعند أبي حنيفة ومن وافقه من أصحابه وغيرهم، أنها لا تتّبعن بل مهما قرأ به من القرآن أجزاء في الصلاة واحتّجوا بعموم قوله تعالى: ﴿فَاقْرُءُوا مَا تِيسِّرُ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ [المزمول: ٢٠] وبما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة في قصة المسيء صلاته أن رسول الله ﷺ قال له: «إذا قمت إلى الصلاة فكبر ثم اقرأ ما تيسّر معك من القرآن» قالوا فأمره بقراءة ما تيسّر ولم يعين له الفاتحة ولا غيرها فدل على ما قلنا.

والقول الثاني: أنه تعيّن قراءة الفاتحة في الصلاة ولا تجزيء الصلاة بدونها، وهو قول بقية الأئمة مالك والشافعي وأحمد بن حنبل وأصحابهم وجمهور العلماء، واحتّجوا على ذلك بهذا الحديث المذكور حيث قال صلوات الله وسلامه عليه: «من صلّى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج» والخداج هو الناقص كما فسر به في الحديث «غير تمام» واحتّجوا أيضاً بما ثبت في الصحيحين من حديث الزهري عن محمود بن الربيع عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب» وفي صحيح ابن خزيمة وابن حبان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجزيء صلاة لا يقرأ فيها فيها بأم القرآن»

(١) العبارة الأخيرة هي من قول الحافظ ابن كثير لا من قول الطبرى، فتنبه.

والأحاديث في هذا الباب كثيرة ووجه المتناظرة هنا يطول ذكره وقد أشرنا إلى مأخذهم في ذلك رحمة الله.

ثم إن مذهب الشافعي وجماعة من أهل العلم أنه يجب قراءتها في كل ركعة. وقال آخرون: إنما يجب قراءتها في معظم الركعات. وقال الحسن وأكثر البصريين: إنما يجب قراءتها في ركعة واحدة من الصلوات أخذًا بمطلق الحديث «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب» وقال أبو حنيفة وأصحابه والثوري والأوزاعي: لا تتعين قراءتها بل لو قرأ بغيرها أجزأه لقوله تعالى «فاقرئوا ما تيسر من القرآن» والله أعلم. وقد روى ابن ماجه من حديث أبي سفيان السعدي عن أبي نضرة عن أبي سعيد مرفوعاً «لا صلاة لمن لم يقرأ في كل ركعة بالحمد وسورة في فريضة أو غيرها» وفي صحة هذا نظر وموضع تحرير هذا كله في كتاب الأحكام الكبير والله أعلم.

والوجه الثالث: هل يجب قراءة الفاتحة على المأموم؟ فيه ثلاثة أقوال للعلماء [أحددها] أنه يجب عليه قراءتها كما يجب على إمامه لعموم الأحاديث المتقدمة [والثاني] لا يجب على المأموم قراءة بالكلية لا الفاتحة ولا غيرها ولا في الصلاة الجهرية ولا السرية، لما رواه الإمام أحمد بن حنبل في مسنده<sup>(١)</sup> عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ أنه قال: «من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة» ولكن في إسناده ضعف<sup>(٢)</sup>. ورواه مالك عن وهب بن كيسان عن جابر من كلامه، وقد روي هذا الحديث من طرق ولا يصح شيء منها عن النبي ﷺ والله أعلم [والقول الثالث] أنه يجب القراءة على المأموم في السرية لما تقدم، ولا يجب ذلك في الجهرية لما ثبت في صحيح مسلم عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ «إنما جعل الإمام ليؤتكم به فإذا كبر فكبروا، وإذا قرأ فأنصتوا» وذكر بقية الحديث، وهكذا رواه أبو داود والترمذى والنمسائى وابن ماجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا قرأ فأنصتوا» وقد صححه مسلم بن الحجاج أيضًا، فدل هذان الحديثان على صحة هذا القول وهو قول قديم للشافعى رحمة الله: ورواية عن الإمام أحمد بن حنبل والغرض من ذكر هذه المسائل هبنا بيان اختصاص سورة الفاتحة بأحكام لا تتعلق بغيرها من سور والله أعلم. وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا إبراهيم بن سعيد الجوهري حدثنا غسان بن عبيد عن أبي عمران الجوني عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «إذ وضعت جنبك على الفراش وقرأت فاتحة الكتاب وقل هو الله أحد فقد أمنت من كل شيء إلا الموت».

(١) ج ٥ ص ١٠٠.

(٢) إسناد الإمام أحمد جاء على النحو التالي: حدثنا عبد الله، حدثني أبي، حدثنا أسود بن عامر، أربأنا حسن بن صالح عن أبي الزبير عن جابر عن النبي ﷺ.

## الكلام على تفسير الاستعاذه

قال الله تعالى : ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ \* وَإِمَّا يَنْزَغَنَكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِدْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعُ عَلِيهِ﴾ [الأعراف: ١٩٩ - ٢٠٠] وقال تعالى : ﴿ادْفُعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصْفُونَ \* وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٦ - ٩٧] وقال تعالى : ﴿ادْفُعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّمَا الظَّنُونُ إِلَّا ذُو حَظٍ عَظِيمٍ \* وَإِمَّا يَنْزَغَنَكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِدْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٤ - ٣٦] فهذه ثلاثة آيات ليس لهن رابعة في معناها وهو أن الله تعالى يأمر بمصانعة العدو الإنساني والإحسان إليه ليرده عنه طبعه الطيب الأصل إلى المودة والمصافاة، ويأمر بالاستعاذه به من العدو الشيطاني لا محالة إذ لا يقبل مصانعة ولا إحساناً ولا يتغير غير هلاك ابن آدم لشدة العداوة بينه وبين أبيه آدم من قبل كما قال تعالى : ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتَنُكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبْوَيْكُمْ مِّنَ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧] وقال تعالى : ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عُدُوٌ فَاتَّخِذُوهُ عُدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُ حَزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعْيِ﴾ [فاطر: ٦] وقال : ﴿أَفَتَخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتِهِ أُولَئِيَّةٍ مِّنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عُدُوٌ بَئْسَ لِلظَّالِمِينَ بِدَلَالِ﴾ [الكهف: ٥٠] وقد أقسم للوالد آدم عليه السلام أنه له لمن الناصحين وكذب فكيف معاملته لنا وقد قال : ﴿فَبِعْزَتْكَ لِأَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ \* إِلَّا عِبَادُكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصُونَ﴾ [ص: ٨٢ - ٨٣] وقال تعالى : ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِدْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ \* إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رِبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ \* إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَُّونَ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٨ - ١٠٠].

قالت طائفة من القراء وغيرهم : تتبعَذ بعد القراءة ، واعتمدوا على ظاهر سياق الآية ، ولدفع الإعجاب بعد فراغ العبادة ، ومن ذهب إلى ذلك حمزة فيما نقله عنه ابن قلوقا<sup>(١)</sup> وأبو حاتم السجستاني ، حكى ذلك أبو القاسم يوسف بن علي بن جباره الهندي المغربي في كتابه «الكامل»<sup>(٢)</sup> وروي عن أبي هريرة أيضاً وهو غريب . ونقله محمد بن عمر الرازي في تفسيره عن ابن سيرين في رواية عنه قال : وهو قول إبراهيم النخعي وداود بن علي الأصفهاني الظاهري . وحكى القرطبي عن أبي بكر بن العربي عن المجموعة عن مالك رحمه الله : أن القارئ يتبعَذ بعد الفاتحة ، واستغربه ابن العربي . وحكى قوله ثالثاً وهو الاستعاذه أولاً وأخراً جمعاً بين الدليلين ، نقله الرازي . والمشهور الذي عليه الجمهور أن الاستعاذه إنما تكون قبل التلاوة لدفع الموسوس فيها ومعنى الآية عندهم ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِدْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨] أي إذا أردت القراءة كقوله تعالى ﴿إِذَا قَمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ

(١) هو عبد الرحمن بن قلوقا ، أو أقلاوقا ، الكوفي . من الرواية . انظر طبقات القراء لابن الجوزي / ١ - ٣٧٦.

(٢) هو «الكامل في القراءات الخمسين» لأبي القاسم يوسف بن علي بن جباره المتوفى سنة ٤٦٥ هـ . (كشف الظنون ٢ / ١٣٨١).

وأيديكم» [المائدة: ٦] أي إذا أردتم القيام، والدليل على ذلك الأحاديث عن رسول الله ﷺ بذلك. قال الإمام أحمد بن حنبل<sup>(١)</sup> رحمه الله: حدثنا محمد بن الحسن بن أنس حدثنا جعفر بن سليمان عن علي بن علي الرفاعي اليشكري عن أبي الم وكل الناجي عن أبي سعيد الخدري قال: كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل فاستفتح صلاته وكبر قال: «سبحانك اللهم وبحمدك، وتبarak اسمك وتعالى جَدُّك»<sup>(٢)</sup>، ولا إله إلا الله ثلثاً - ثم يقول - «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه» وقد رواه أهل السنن الأربعه من روایة جعفر بن سليمان عن علي بن علي وهو الرفاعي، وقال الترمذی: هو أشهر شيء في هذا الباب، وقد فسر الهمز بالموتة وهي الخنق، والنفخ بالكبش والنفث بالشعر. كما رواه أبو داود وابن ماجه من حديث شعبة عن عمرو بن مرة عن عاصم العنزي عن نافع بن جبير بن المطعم عن أبيه قال:رأيت رسول الله ﷺ حين دخل في الصلاة قال: «الله أكبر كبراً ثلثاً، الحمد لله كثيراً ثلثاً، سبحان الله بكرة وأصلباً ثلثاً، اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه» قال عمرو: همزه الموتة ونفخه الكبر ونفثه الشعر، وقال ابن ماجه: حدثنا علي بن المنذر حدثنا ابن فضيل حدثنا عطاء بن السائب عن أبي عبد الرحمن السلمي عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم وهمزه ونفخه ونفثه» قال: همزه الموتة ونفخه الكبير ونفثه الشعر. وقال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن يوسف، حدثنا شريك عن يعلى بن عطاء عن رجل حدثه أنه سمع أبا أمامة الباهلي يقول: كان رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة كبر ثلثاً ثم قال: «لا إله إلا الله» ثلث مرات، «وبسنان الله وبمحمده» ثلث مرات ثم قال: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه»<sup>(٣)</sup>. وقال الحافظ أبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى الموصلي في مسنده: حدثنا عبد الله بن عمر بن أبان الكوفي، حدثنا علي بن هاشم بن البريد عن يزيد بن زياد عن عبد الملك بن عمير عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: تلاحي رجلان عند النبي ﷺ فتمزع<sup>(٤)</sup> أنف أحدهما غضباً فقال رسول الله ﷺ «إني لأعلم شيئاً لو قاله لذهب عنه ما يجد: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» وكذا رواه النسائي في اليوم والليلة عن يوسف بن عيسى المروزي عن الفضل بن موسى عن يزيد بن زياد بن أبي الجعد، به. وقد روى هذا الحديث أحمد بن حنبل عن أبي سعيد عن زائدة، وأبو داود عن يوسف بن موسى عن جرير بن عبد الحميد، والترمذی والنمسائی في اليوم والليلة عن بندار عن ابن مهدی عن الشوری، والنمسائی أيضاً من حديث زائدة بن قدامة ثلاثة عن عبد الملك بن عمیر

(١) المسند ج ٤ ص ١٠١.

(٢) الجَدُّ: المكانة وال منزلة.

(٣) مسند الإمام أحمد ج ٨ ص ٢٧٨.

(٤) تمَّ زَعَ الشيءَ: تشَقَّقَ وتقطَّعَ.

عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : استَبَّ رجلان عند النبي ﷺ فغضب أحدهما غضاً شديداً حتى يخيل إلى أن أحدهما يتزعزع أنفه من شدة غضبه فقال النبي ﷺ : «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنها ما يجد من الغضب» فقال : ما هي يا رسول الله ، قال : يقول : «اللهم إني أعوذ بك من الشيطان الرجيم» قال : فجعل معاذ يأمره فأبي وجعل يزداد غضاً وهذا لفظ أبي داود ، وقال الترمذى : مرسل ، يعني أن عبد الرحمن بن أبي ليلى لم يلق معاذ بن جبل فإنه مات قبل سنة عشرين . قلت : وقد يكون عبد الرحمن بن أبي ليلى سمعه من أبي بن كعب كما تقدم وبلغه عن معاذ بن جبل فإن هذه القصة شهدتها غير واحد من الصحابة رضي الله عنهم . قال البخارى : حدثنا عثمان بن أبي شيبة ، حدثنا جرير عن الأعمش عن عدي بن ثابت قال : قال سليمان بن صرد رضي الله عنه : استَبَّ رجلان عند النبي ﷺ ونحن عنده جلوس فأحدهما يسب صاحبه مغضباً قد احمر وجهه فقال النبي ﷺ : «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنها ما يجد لو قال : «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» فقلوا للرجل ألا تسمع ما يقول رسول الله ﷺ قال : إني لست بمحجون . وقد رواه أيضاً مع مسلم وأبي داود والنسائي من طرق متعددة عن الأعمش به .

وقد جاء في الاستعاذه أحاديث كثيرة يطول ذكرها ههنا وموطنها كتاب الأذكار وفضائل الأعمال والله أعلم . وقد روى أن جبريل عليه السلام أول ما نزل بالقرآن على رسول الله ﷺ أمره بالاستعاذه كما قال الإمام أبو جعفر بن جرير<sup>(١)</sup> : حدثنا أبو كريب ، حدثنا عثمان بن سعيد ، حدثنا بشير بن عمارة ، حدثنا أبو روق عن الضحاك عن عبد الله بن عباس قال : أول ما نزل جبريل على محمد ﷺ قال : «يا محمد استعد» قال : «استعيذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم» ثم قال : «قل بسم الله الرحمن الرحيم» ثم قال ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ قال عبد الله : وهي أول سورة أنزلها الله على محمد ﷺ بسان جبريل . وهذا الأثر غريب وإنما ذكرناه ليعرف فإن في إسناده ضعفاً وانقطاعاً والله أعلم .

[مسألة] وجمهور العلماء على أن الاستعاذه مستحبة ليست بمحتمة يأشم تاركها وحكي الرازى عن عطاء بن أبي رباح وجوبها في الصلاة وخارجها كلما أراد القراءة قال : وقال ابن سيرين : إذا تعود مرة واحدة في عمره فقد كفى في إسقاط الوجوب واحتج الرازى لعطاء بظاهر الآية (فاستعد) وهو أمر ظاهره الوجوب وبمواطبة النبي ﷺ عليها ولأنها تدرأ شر الشيطان وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ولأن الاستعاذه أحوط وهو أحد مسائل الوجوب وقال بعضهم : كانت واجبة على النبي ﷺ دون أمته ، وحكي عن مالك أنه لا يتعود في المكتوبة ويتعود لقيام رمضان في أول ليلة منه .

[مسألة] وقال الشافعي : في الإماء يجهر بالتعوذ وإن أسر فلا يضر ، وقال في «الأم» بالتخير لأنه أسر ابن عمر وجهر أبو هريرة ، وختلف قول الشافعي فيما عدا الركعة الأولى هل يستحب التعوذ فيها على قولين ورجح عدم الاستحباب ، والله أعلم ، فإذا قال المستعيد : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم كفى ذلك عند الشافعي وأبي حنيفة وزاد بعضهم : أعوذ بالله السميع العليم ، وقال آخرون بل يقول : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم إن الله هو السميع العليم ، قاله الثوري والأوزاعي ، وحكي عن بعضهم أنه يقول : أستعيد بالله من الشيطان الرجيم ، لمطابقة أمر الآية ول الحديث الضحاك عن ابن عباس المذكور ، والأحاديث الصحيحة كما تقدم أولى بالاتباع من هذا والله أعلم .

[مسألة] ثم الاستعاذه في الصلاة إنما هي للتلاوة وهو قول أبي حنيفة ومحمد . وقال أبو يوسف : بل للصلوة ، فعلى هذا يتغوز المأمور وإن كان لا يقرأ ويتعوذ في العيد بعد الإحرام وقبل تكبيرات العيد والجمهور بعدها قبل القراءة ، ومن لطائف الاستعاذه أنها طهارة للضم مما كان يتعاطاه من اللغو والرفث وتطيب له وهو للتلاوة كلام الله وهي استعاذه بالله واعتراف له بالقدرة وللعبد بالضعف والعجز عن مقاومة هذا العدو المبين الباطني الذي لا يقدر على منعه ودفعه إلا الله الذي خلقه ولا يقبل مصانعة ولا يدارى بالإحسان بخلاف العدو من نوع الإنسان كما دلت على ذلك آيات من القرآن في ثلاثة من المثاني وقال تعالى : «إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلًا» [الإسراء: ٦٥] وقد نزلت الملائكة لمقاتلة العدو البشري فمن قتلته العدو الظاهر البشري كان شهيداً ، ومن قتلته العدو الباطني كان طريداً ، ومن غلبه العدو الظاهري كان مأجوراً ، ومن قهره العدو الباطني كان مفتوناً أو موزوراً ، ولما كان الشيطان يرى الإنسان من حيث لا يراه استعاذه منه بالذي يراه ولا يراه الشيطان .

[فصل] والاستعاذه هي الالتجاء إلى الله تعالى والالتصاق بجنبه من شر كل ذي شر والعيادة تكون لدفع الشر واللياذ يكون لطلب جلب الخير كما قال المتتبّي : [البسيط]

يامن ألوذ به فيما أؤمله ومن أعوذ به ممن أحذره  
لا يجر الناس عظماً أنت كاسره ولا يهيضون عظماً أنت جابره

ومعنى أعوذ بالله من الشيطان الرجيم أي أستجير بجنب الله من الشيطان الرجيم أن يضرني في ديني أو ديني أو يصدني عن فعل ما أمرت به ، أو يحثني على فعل ما نهيت عنه فإن الشيطان لا يكتف عن الإنسان إلا الله ، ولهذا أمر تعالى بمصانعة شيطان الإنس ومداراته بإسداء الجميل إليه ليرد طبعه عما هو فيه من الأذى وأمر بالاستعاذه به من شيطان الجن لأنه لا يقبل رشوة ولا يؤثر فيه جميل لأنه شرير بالطبع ولا يكتف عنك إلا الذي خلقه ، وهذا المعنى في ثلاثة آيات من القرآن لا أعلم لهن رابعة قوله في الأعراف : «خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجahلين» [الأعراف: ١٩٩] فهذا فيما يتعلق بمعاملة الأعداء من البشر ثم قال : «وإما ينزعنك من الشيطان

نزع فاستعد بالله إنه سميع عليم» [الأعراف : ٢٠٠] وقال تعالى في سورة قد أفلح المؤمنون : «ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون \* وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرنون» [المؤمنون : ٩٦ - ٩٨] وقال تعالى في سورة حم السجدة : «ولا تسوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولد حميم \* وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم \* وإنما ينزعنك من الشيطان نزع فاستعد بالله إنه هو السميع العليم» [فصلت : ٣٤ - ٣٦].

والشيطان في لغة العرب مشتق من شَطَن إذا بعد، فهو بعيد بطبعه عن طباع البشر وبعيد بفسقه عن كل خير، وقيل مشتق من شاط لأنه مخلوق من نار، ومنهم من يقول : كلاماً صحيحاً في المعنى ولكن الأول أصح، وعليه يدل كلام العرب ؛ قال أمية بن أبي الصلت في ذكر ما أوتي سليمان عليه السلام : [الخفيف]

**أيما شاطِنِ عصاه عَكَاه      ثُمَّ يُلْقَى فِي السُّجْنِ وَالْأَغْلَالِ<sup>(١)</sup>**

فقال أيما شاطن ولم يقل أيما شائط . وقال النابغة الذبياني وهو زياد بن عمرو بن معاوية بن جابر بن ضباب بن يربوع بن مرة بن ذبيان : [الوافر]

**نَأْتَ بِسَعَادَ عَنْكَ نَوْيَ شَطُونُ      فَبَاتَتْ وَالْفَؤَادَ بِهِ رَهِينٌ<sup>(٢)</sup>**

يقول : بعدت بها طريق بعيدة وقال سيبويه : العرب تقول تشيطن فلان إذا فعل فعل الشياطين ولو كان من شاط لقالوا تشيط فالشيطان مشتق من البعد على الصحيح ، ولهذا يسمون كل من تمرد من جن وensi وحيوان شيطاناً . قال الله تعالى : «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسَنِ وَالْجَنِ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زَخْرَفَ الْقَوْلَ غَرُورًا» [الأنعام : ١١٢] وفي مسند الإمام أحمد عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ يا أبا ذر «تعوذ بالله من شياطين الإنس والجن» فقلت ألم للإنس شياطين ؟ قال : «نعم». وفي صحيح مسلم عن أبي ذر أيضاً قال : قال رسول الله ﷺ «يقطع الصلاة المرأة والحمار والكلب الأسود» فقلت : يا رسول الله ما بال الكلب الأسود من الأحمر والأصفر ؟ فقال : «الكلب الأسود شيطان». وقال ابن وهب : أخبرني هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن أبيه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ركب برذونا<sup>(٣)</sup> فجعل

(١) البيت لأمية بن أبي الصلت في ديوانه ص ٥١؛ وجمهرة اللغة ص ٩٤٧؛ وكتاب الجيم ٢/٢٩٢؛ وتاج العروس (عكا)؛ والطبرى ١/٧٦؛ ولسان العرب (شطون، عكا)؛ وتهذيب اللغة ٣/٤٠؛ ومقاييس اللغة ٣/١٨٥، ويروى أيضاً : «ثم يلقى في الغل والإكبال». وعكا : شدّه في الحديد.

(٢) البيت للنابغة في ديوانه ص ٢١٨؛ ولسان العرب (شطون)؛ ومقاييس اللغة ٣/١٨٤؛ والطبرى ١/٧٦؛ ولزياد بن معاوية في تاج العروس (نبغ)؛ ويلا نسبه في مجلل اللغة ٣/١٥٦.

(٣) البرذون : يطلق على غير العربي من الخيل والبغال . وهو عظيم الخلقة غليظ الأعضاء قوي الأرجل عظيم الحوافر.

يتبختر به فجعل يضربه فلا يزداد إلا تبخترًا فنزل عنه وقال ما حملتوني إلا على شيطان ما نزلت عنه حتى أنكرت نفسي . إسناده صحيح . والرجيم فعل بمعنى مفعول أي أنه مر جوم مطرود عن الخير كله كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَا السَّمَاوَاتِ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَجَعَلْنَا هَرَبًا لِلشَّيَاطِينِ ﴾ [الملك : ٥] وقال تعالى : ﴿ إِنَّا زَيَّنَاهَا بِزَينَةِ الْكَوَافِرِ \* وَحَفَظَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ \* لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيَقْذِفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ \* دَحْرَوْا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ \* إِلَّا مِنْ خَطْفِ الْخَطْفَةِ فَأَتَبْعَهُ شَهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ [الصافات : ٦ - ١٠] وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاوَاتِ بِرْوَجًا وَزَيَّنَاهَا لِلنَّاظِرِينَ \* وَحَفَظَنَا هَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ \* إِلَّا مِنْ أَسْتَرْقَ السَّمَعِ فَأَتَبْعَهُ شَهَابٌ مُبِينٌ ﴾ [الحجر : ١٦ - ١٨] إلى غير ذلك من الآيات وقيل رجيم بمعنى راجم لأنه يرجم الناس بالوساوس والرباث والأول أشهر وأصح .

[بسم الله الرحمن الرحيم]

افتتح بها الصحابة كتاب الله واتفق العلماء على أنها بعض آية من سورة النمل ، ثم اختلفوا هل هي آية مستقلة في أول كل سورة أو من أول كل سورة كتبت في أولها أو أنها بعض آية من كل سورة أو أنها كذلك في الفاتحة دون غيرها أو أنها إنما كتبت للفصل لا أنها آية على أقوال للعلماء سلفاً وخلفاً وذلك مبسوط في غير هذا الموضع . وفي سنن أبي داود بإسناد صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان لا يعرف فصل السورة حتى ينزل عليه ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ وأخرجه الحاكم أبو عبد الله النسابوري في مستدركه أيضاً ، وروي مرسلاً عن سعيد بن جبير . وفي صحيح ابن حزيمة عن أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قرأ البسمة في أول الفاتحة في الصلاة وعدتها آية ، لكنه من روایة عمر بن هارون البلخي ، وفيه ضعف ، عن ابن جريج عن ابن أبي مليكة عنها . وروي له الدارقطني متابعاً عن أبي هريرة مرفوعاً ، وروي مثله عن علي وابن عباس وغيرهما . وممن حكى عنه أنها آية من كل سورة إلا براءة : ابن عباس وابن عمر وابن الزبير وأبو هريرة وعلي ، ومن التابعين : عطاء وطاوس وسعيد بن جبير ومكحول والزهرى وبه يقول عبد الله بن المبارك الشافعى وأحمد بن حنبل في روایة عنه وإسحاق بن راهويه وأبو عبيد القاسم بن سلام رحمهم الله . وقال مالك وأبو حنيفة وأصحابهما : ليست آية من الفاتحة ولا من غيرها من سور ، وقال الشافعى في قول في بعض طرق مذهبها هي آية من الفاتحة . وليس من غيرها وعنه أنها بعض آية من أول كل سورة وهو غريبان . وقال داود : هي آية مستقلة في أول كل سورة لا منها ، وهذا روایة عن الإمام أحمد بن حنبل وحكاه أبو بكر الرازي عن أبي الحسن الكرخي ، وهما من أكابر أصحاب أبي حنيفة رحمهم الله . هذا ما يتعلق بكونها آية من الفاتحة أم لا .

فاما الجهر بها فمفرئ على هذا ، فمن رأى أنها ليست من الفاتحة فلا يجهر بها وكذا من قال إنها آية من أولها ، وأما من قال بأنها من أوائل السور فاختلقو ، فذهب الشافعى رحمه الله إلى أنه

يجهز بها مع الفاتحة والسورة، وهو مذهب طوائف من الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين سلفاً وخلفاً، فجهز بها من الصحابة أبو هريرة وابن عمر وابن عباس ومعاوية وحکاہ ابن عبد البر والبیهقی عن عمر وعلي ونقله الخطیب عن الخلفاء الأربعه وهم أبو بکر وعمر وعثمان وعلي البیهقی عن سعید بن جبیر وعکرمة وأبی قلابة والزھری وعلي بن الحسین وهو غریب، ومن التابعين عن سعید بن جبیر وعکرمة وأبی قلابة والزھری وعلي بن الحسین وأبی محمد وسعید بن المسبیب وعطاء وطاوس ومجاہد وسالم ومحمد بن کعب القرظی وأبی بکر بن محمد وسعید بن المسبیب وعطاء وطاوس ومجاہد وسالم ومحمد بن المنکدر وعلي بن عبد الله ابن عباس وابنه محمد ونافع مولی این عمر وزید بن أسلم وعمر بن عبد العزیز والأزرق بن قیس وحبیب بن أبي ثابت وأبی الشعثاء ومکحول وعبد الله بن معقل بن مقرن زاد البیهقی وعبد الله بن صفوان ومحمد بن الحنفیة. زاد این عبد البر: عمرو بن دینار والحجۃ في ذلك أنها بعض الفاتحة فيجهز بها كسائر أبعاضها وأيضاً فقد روی النسائي في سنته وابن خزيمة وابن حبان في صحيحهما والحاکم في مستدرکه عن أبي هريرة أنه صلی فجهز في قراءته بالبسملة وقال بعد أن فرغ: إني لأشبهكم صلاة رسول الله ﷺ. وصححه الدارقطنی والخطیب والبیهقی وغيرهم. وروی أبو داود والترمذی عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يفتح الصلاة بسم الله الرحمن الرحيم ثم قال الترمذی: وليس إسناده بذلك. وقد رواه الحاکم في مستدرکه عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يجهز بسم الله الرحمن، والرحیم ثم قال: صحيح وفي صحيح البخاری عن أنس بن مالک أنه سئل عن قراءة النبي ﷺ فقال: كانت قراءته مداً، ثمقرأ بسم الله الرحمن الرحیم يمد بسم الله ويمد الرحمن. وفي مستند الإمام أحمد وسنن أبي داود وصحيح ابن خزيمة ومستدرک الحاکم عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يقطع قراءته: «بسم الله الرحمن الرحيم \* الحمد لله رب العالمين \* الرحمن الرحيم \* مالك يوم الدين» وقال الدارقطنی: إسناده صحيح. وروی الإمام أبو عبد الله الشافعی والحاکم في مستدرکه عن أنس أن معاویة صلی بالمدینة فترك البسمة فأنکر عليه من حضره من المهاجرين ذلك فلما صلی المرة الثانية بسمل. وفي هذه الأحادیث والآثار التي أوردنها کفایة ومقنع في الاحتجاج لهذا القول عما عدتها. فأما المعارضات والروايات الغریبة وتطریقها وتعلیلها وتضعیفها وتقریرها فله موضع آخر. وذهب آخرون إلى أنه لا يجهز بالبسملة في الصلاة وهذا هو الثابت عن الخلفاء الأربعه وعبد الله بن مغفل وطوائف من سلف التابعين والخلف وهو مذهب أبي حنیفة والثوری وأحمد بن حنبل. وعند الإمام مالک أنه لا يقرأ البسمة بالكلیة لا جهراً ولا سراً واحتتجوا بما في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يفتح الصلاة بالتكبیر والقراءة بالحمد لله رب العالمين وبما في الصحيحین عن أنس بن مالک قال: صلیت خلف النبي ﷺ وأبی بکر وعمر وعثمان فكانوا يفتحون بالحمد لله رب العالمین. ولمسلم: ولا يذکرون بسم الله الرحمن الرحيم في أول قراءة ولا في آخرها، ونحوه في السنن

عن عبد الله بن مغفل رضي الله عنه . فهذا مأخذ الأئمة رحمةهم الله في هذه المسألة وهي قريبة لأنهم أجمعوا على صحة صلاة من جهر بالبسملة ومن أسر والله الحمد والمنة .

### فصل ثالث فصلها

قال الإمام العالم الحبر العابد أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم<sup>(١)</sup> رحمه الله في تفسيره: حدثنا أبي حدثنا جعفر بن مسافر حدثنا زيد بن المبارك الصنعاني حدثنا سلام بن وهب الجندى حدثنا أبي عن طاوس عن ابن عباس أن عثمان بن عفان سأله رسول الله ﷺ عن «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» ؟ فقال: «هو اسم من أسماء الله وما بينه وبين اسم الله الأكابر إلا كما بين سواد العينين وبياضهما من القرب» وهكذا رواه أبو بكر بن مردوه عن سليمان بن أحمد عن علي بن المبارك عن زيد بن المبارك به . وقد روى الحافظ بن مردوه من طريقين عن إسماعيل بن عياش عن إسماعيل بن يحيى عن مسعود عن عطية عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنْ عِيسَى ابْنُ مُرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَسْلَمَتْهُ أُمَّهُ إِلَى الْكِتَابِ لِيَعْلَمَهُ» ، فقال له المعلم: اكتب فقال: ما أكتب ؟ قال: بسم الله ، قال له عيسى: وما بسم الله ؟ قال المعلم: ما أدرى ، قال له عيسى: الباء بهاء الله ، والسين سناوءه ، والميم مملكته ، والله إله الآلة ، والرحمن رحمن الدنيا والآخرة ، والرحيم رحيم الآخرة» وقد رواه ابن جرير<sup>(٢)</sup> من حديث ابراهيم بن العلاء الملقب زريق عن إسماعيل بن عياش عن إسماعيل بن يحيى عن ابن أبي مليكة عن حديثه عن ابن مسعود ومسعود عن عطية عن أبي سعيد عن رسول الله ﷺ ذكره ، وهذا غريب جداً ، وقد يكون صحيحًا إلى من دون رسول الله ﷺ . وقد يكون من الإسرائيليات لا من المرفوعات والله أعلم<sup>(٣)</sup> . وقد روى جوير

(١) هو عبد الرحمن بن محمد الرازي الحافظ المتوفى سنة ٣٢٧ هـ . وتفسيره انتقاء الشیخ جلال الدين السیوطی المتوفی سنة ٩١١ هـ في مجلد . (کشف الظنون ١/٤٣٦).

(٢) تفسیر الطبری ١/٨١.

(٣) قال الأستاذ محمود محمد شاكر تعلیقاً على هذا الحديث (تفسير الطبری ١/١٢١، حاشیة): هذا حديث موضوع لا أصل له . رواه ابن حبان في كتاب المجرورين ، في ترجمة إسماعيل بن يحيى بن عبد الله التميمي وقال في إسماعيل هذا: «كان من يروي الموضوعات عن الثقات وما لا أصل له عن الأثبات ، لا تحل الرواية عنه ولا الاحتجاج به بحال». ثم ضرب مثلاً من أكاذيبه هذا الحديث . ويتابع الأستاذ شاكر: وما أدرى كيف فات الحافظ ابن كثير أن في إسناده هذا الكذاب ، فتسقط روایته بمرة ولا يحتاج إلى هذا التردد . وأما السیوطی فقد ذكره في الدر المنشور ولم يغفل عن علته ، فذكر أنه بسند ضعيف جداً . وترجم الذہبی في المیزان لإسماعیل بن یحییٰ هذا ، وتبیه ابن حجر في لسان المیزان ، وفي ترجمته: «قال صالح بن محمد جزرة: كان يضع الحديث . وقال الأزدي: رکن من أركان الكذب لا تحل الرواية عنه . وقال النسیابوری والدارقطنی والحاکم: کذاب». ثم إن إسناده فيه أيضاً راوی مجہول وهو «من حديثه عن ابن مسعود» وفيه أيضاً عطیة بن سعد بن جنادة العوفی وهو ضعیف ، ضعفه أحمد وأبو حاتم وغيرهما .

عن الضحاك نحوه من قبله . وقد روی ابن مردویه من حدیث یزید بن خالد عن سلیمان بن بردیدة وفي رواية عن عبد الکریم أبی أمیة عن ابن بردیدة عن أبیه أن رسول الله ﷺ قال : «أنزلت علی آیة لم تنزل علی نبی غیر سلیمان بن دواد وغیری وهي **بسم الله الرحمن الرحيم**» ، وروی بإسناده عن عبد الکریم بن المعافی بن عمران عن أبیه عن عمر بن ذر عن عطاء بن أبي رباح عن جابر بن عبد الله قال : لما نزل **بسم الله الرحمن الرحيم** هرب الغیم إلى المشرق وسکنت الرياح ، وهاج البحر وأصغت البهائم بآذانها ، وترجمت الشیاطین من السماء ، وحلف الله تعالى بعزمته وجلاله أن لا يسمی اسمه على شيء إلا بارک فيه . وقال وكیع عن الأعمش عن أبي وائل عن ابن مسعود قال : من أراد أن ينجیه الله من الزیانة التسعة عشر فليقرا **بسم الله الرحمن الرحيم** فيجعل الله له من كل حرف منها جنة من كل واحد . ذکرہ ابن عطیة والقرطی ووجھه ابن عطیة ونصره بحدیث «لقد رأیت بضعة وثلاثین ملکاً یبتدرونها» لقول الرجل ربنا ولک الحمد حمداً کثیراً طیباً مبارکاً فيه ، من أجل أنها بضعة وثلاثون حرفاً وغير ذلك . وقال الإمام أحمد بن حنبل في مسنده<sup>(۱)</sup> : حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبہ عن عاصم قال : سمعت أبا تمیمة يحدث عن ردیف النبی ﷺ قال<sup>(۲)</sup> : عشر بالنبی ﷺ [حماره]<sup>(۳)</sup> . فقلت تعس الشیاطین فقال النبی ﷺ : «لا تقل تعس الشیاطین ، فإنك إذا قلت تعس الشیاطین تعاظم و قال بقوتی صرعته ، وإذا قلت باسم الله تصاغر حتى یصیر مثل الذباب» هکذا وقع في رواية الإمام أحمد ، وقد روی النسائی في «الیوم واللیلة» وابن مردویه في تفسیره من حدیث خالد الحذاء عن أبي تمیمة وهو الهجیمی عن أبي الملیح بن أسامہ بن عمر عن أبيه قال : كنت ردیف النبی ﷺ فذکرہ وقال : «لا تقل هکذا فإنه یتعاظم حتى یكون كالذباب» فهذا من تأثیر برکة باسم الله ، ولهذا تستحب في أول كل عمل وقول ، فستتحب في أول الخطبة لما جاء «كل أمر لا یبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أجدم<sup>(۴)</sup>» وتستحب البسمة عند دخول الخلاء لما ورد من الحديث في ذلك وتستحب في أول الوضوء لما جاء في مسند الإمام أحمد<sup>(۵)</sup> والسنن من رواية أبي هريرة وسعيد بن زيد وأبی سعید مرفوعاً : «لا یوضوء لمن لم یذكر اسم الله عليه» وهو حديث حسن ومن العلماء من أوجبها عند الذکر هئنا ومنهم من قال بوجوبها مطلقاً وكذا تستحب عند الذیحۃ في مذهب الشافعی وجماعة ، وأوجبها آخرون عند الذکر ومطلقاً في قول بعضهم كما سیأثی بیانه في موضعه إن شاء الله . وقد ذکرہ الرازی في تفسیره في فضل البسمة أحادیث

(١) المسند ج ٧ ص ٣٤٩

(٢) في المسند: «عن رديف النبي . قال شعبة: قال عاصم، عن أبي تميمة، عن رجل، عن رديف النبي قال: عن النبي ... الخ».

(٣) الزيادة من مسند أحمد.

(٤) الأَجْذَمُ: الْمَقْطُوْعُ.

(٥) . المسند ج ٤ ص ٨٣

منها عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أتيت أهلك فسم الله فإنك إن وجد لك ولد كتب بعدد أنفاسه وأنفاس ذريته حسنات» وهذا لا أصل له ولا رأيته في شيء من الكتب المعتمد عليها ولا غيرها، وهكذا تستحب عند الأكل لما في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال لربيبه عمر بن أبي سلمة: «قل بسم الله وكل بيمنيك وكل مما يليك» ومن العلماء من أوجبها والحالة هذه وكذلك تستحب عند الجماع لما في الصحيحين عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال: بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقنا فإنه إن يقدر بينهما ولد لم يضره الشيطان أبداً».

ومن هنا ينكشف لك أن القولين عند النحاة في تقدير المتعلق بالباء في قوله بسم الله هل هو اسم أو فعل متقاربان، وكل قد ورد به القرآن، أما من قدره بـ«تقديره بـبسم الله ابتدائي فلقوله تعالى: «وقال اركبوا فيهم بـبسم الله مجريها ومرساها إن ربى لغفور رحيم» [هود: ٤١] ومن قدره بالفعل أمراً أو خبراً نحو أبداً بـبسم الله او ابتدأت بـباسم الله فلقوله تعالى: «اقرأ باسم رب الذي خلق» [العلق: ١] وكلاهما صحيح فإن الفعل لا بد له من مصدره فلك أن تقدر الفعل ومصدره وذلك بحسب الفعل الذي سميت قبله إن كان قياماً أو قعوداً أو أكلاً أو شراباً أو قراءة أو وضوءاً أو صلاة فالمشروع ذكر اسم الله في الشروع في ذلك كله تبركاً وتيمناً واستعاناً على الإتمام والتقبل والله أعلم، ولهذا روى ابن جرير<sup>(١)</sup> وابن أبي حاتم من حديث بشر بن عمارة عن أبي روق عن الضحاك عن ابن عباس قال: إن أول ما نزل به جبريل على محمد ﷺ قال: «يا محمد قل: أستعيد بالسميع العليم من الشيطان الرجيم ثم قال: قل «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» قال: قال له جبريل [قل] بـبسم الله يا محمد، يقول: اقرأ بـذكر الله ربك وقم واقعد بـذكر الله تعالى» لفظ ابن جرير.

وأما مسألة هل هو المسمى أو غيره ففيها للناس ثلاثة أقوال: أحدها أن الاسم هو المسمى، وهو قول أبي عبيدة وسيبويه، واختاره الباقلاني وابن فورك، وقال الرازي وهو محمد بن عمر المعروف بابن خطيب الري في مقدمات تفسيره: قالت الحشوية والكرامية والأشعرية: الاسم نفس المسمى وغير نفس التسمية، وقالت المعتزلة: الاسم غير المسمى ونفس التسمية، والمختار عندنا أن الاسم غير المسمى وغير التسمية. ثم نقول إن كان المراد بالاسم هذا اللفظ الذي هو أصوات متقطعة وحروف مؤلفة، فالعلم الضروري حاصل أنه غير المسمى وإن كان المراد بالاسم ذات المسمى، فهذا يكون من باب إيضاح الواضحات وهو عبث، فثبت أن الخوض في هذا البحث على جميع التقديرات يجري مجرى العبث، ثم شرع<sup>(٢)</sup> يستدل على مغايرة الاسم للمسمى، بأنه قد يكون الاسم موجوداً والمسمى مفقوداً كلفظة المعدوم وبأنه

(١) تفسير الطبرى / ١٧٨ .

(٢) الرّازِيُّ أَيُّ.

قد يكون للشيء أسماء متعددة كالمترادفة وقد يكون الاسم واحداً والسميات متعددة المشتركة وذلك دال على تغایر الاسم والسمى وأيضاً فالاسم لفظ وهو عرض والسمى قد يكون ذاتاً ممكناً أو واجبة بذاتها وأيضاً للفظ النار والثلج لو كان هو السمي لوجد اللافظ بذلك حر النار أو برد الثلج ونحو ذلك ولا يقوله عاقل وأيضاً فقد قال الله تعالى: ﴿وَلِلّٰهِ الْأَسْمَاءُ الْحَسَنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ وقال النبي ﷺ: «إِنَّ اللّٰهَ تَسْعَةٌ وَتَسْعِينَ اسْمًا» فهذه أسماء كثيرة والسمى واحد وهو الله تعالى وأيضاً قوله: ﴿وَلِلّٰهِ الْأَسْمَاءُ﴾ أضافها إليه كما قال: ﴿فَسُبِّحَ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ ونحو ذلك فالإضافة تقتضي المغایرة وقوله تعالى: ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ أي فادعوا الله بأسمائه وذلك دليل على أنها غيره واحتاج من قال الاسم هو السمي بقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ والمبارك هو الله تعالى والجواب أن الاسم معظم لتعظيم الذات المقدسة، وأيضاً فإذا قال الرجل زينب طالق يعني أمرأته طلقت ولو كان الاسم غير السمي لما وقع الطلاق والجواب أن المراد أن الذات المسماة بهذا الاسم طالق. قال الرازبي: وأما التسمية فإنه جعل الاسم معيناً لهذه الذات فهي غير الاسم أيضاً والله أعلم.

[القول في تأويل الله] علم على الرب تبارك وتعالى، يقال إنه الاسم الأعظم لأنه يوصف بجميع الصفات كما قال تعالى: ﴿هُوَ اللّٰهُ الَّذِي لَا إِلٰهٌ إِلَّا هُوَ الْعَالَمُ الْغَيْبُ وَالشَّهَادَةُ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدس السلام المؤمن المهيمن العزيز العجار المتكبر سبحانه الله عما يشركون \* هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنة يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾ [الحشر: ٢٢ - ٢٤] فأجرى الأسماء الباقية كلها صفات له كما قال تعالى: ﴿وَلِلّٰهِ الْأَسْمَاءُ الْحَسَنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨] وقال تعالى: ﴿قُلْ ادْعُوا اللّٰهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحَسَنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠] وفي الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللّٰهَ تَسْعَةٌ وَتَسْعِينَ اسْمًا، مائةٌ إِلَّا واحِدًا مِّنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ» وجاء تعدادها في رواية الترمذى وابن ماجه، وبين الروايتين اختلاف زيادة ونقصان وقد ذكر الرازبي في تفسيره عن بعضهم أن الله خمسة آلاف اسم: ألف في الكتاب والسنة الصحيحة، وألف في التوارية وألف في الإنجيل، وألف في الزبور وألف في اللوح المحفوظ.

وهو اسم لم يسم به غيره تبارك وتعالى ولهذا لا يعرف في كلام العرب له الاشتراق من فعل يفعل، فذهب من ذهب من النحاة إلى أنه اسم جامد لا اشتراق له، وقد نقله القرطبي عن جماعة من العلماء منهم الشافعى والخطابى وإمام الحرمين والغزالى وغيره وروى عن الخليل وسيبوه أن الألف واللام فيه لازمة، قال الخطابى: ألا ترى أنك تقول يا الله ولا تقول يا الرحمن، فلو لا أنه من أصل الكلمة لما جاز إدخال حرف النداء على الألف واللام، وقيل إنه مشتق واستدلوا عليه بقول روبة بن العجاج: [الجز]

**للله در الغانيات المُلَدَّه سبْحَنَ واسترَجَعْنَ من تَأْلِمِي<sup>(١)</sup>**

فقد صرخ الشاعر بلفظ المصدر وهو التاله، من أله يأله إلهة وتتألمها، كما روي أن ابن عباس قد (ويذرك وإلاهتك) قال: عبادتك، أي أنه كان يعبد ولا يعبد وكذا قال مجاهد وغيره. وقد استدل بعضهم على كونه مشتقاً بقوله تعالى: «وهو الله في السموات وفي الأرض» [الأنعام: ٢] كما قال تعالى «وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله» [الزخرف: ٨٤] ونقل سيبويه عن الخليل أن أصله إله مثل فعال فأدخلت الألف واللام بدلاً من الهمزة. قال سيبويه: مثل الناس، أصله أناس، وقيل أصل الكلمة لاه فدخلت الألف واللام للتعظيم، وهذا اختيار سيبويه. قال الشاعر: [البسيط]

**لاه ابنُ عمك لا أفضَّلتَ في حَسَبِ عني ولا أنت دَيَانِي فتَخَرُّزُونِي<sup>(٢)</sup>**

قال القرطبي<sup>(٣)</sup>: بالخاء أي فتسوني. وقال الكسائي والفراء: أصله الإله<sup>(٤)</sup> حذفوا الهمزة وأدغموا اللام الأولى في الثانية [فصاراتا لاماً مشددة]<sup>(٥)</sup> كما قال تعالى: «لَكُنَّا هُوَ اللَّهُ رَبُّكُنَا» [الكهف: ٣٨] أي لكن أنا وقد قرأها كذلك الحسن، قال القرطبي: ثم قيل هو مشتق من ولَه إذا تحير، والوله ذهاب العقل يقال: رجل والهُّ وامرأة والهُّ ووالهُ، وماء موله إذا أرسل في الصحراء، فالله تعالى تتحير الألباب وتذهب في حقائق صفاته والفكُّ في معرفته<sup>(٦)</sup> فعلى هذا يكون أصل إله ولاه فأبدلت الواو همزة كما قالوا في وشاح إشاح ووسادة إسادة. وقال الرازى وقيل إنه مشتق من ألهت إلى فلان أي سكت إليه فالعقل لا تسكن إلا إلى ذكره، والأرواح

(١) يقال: مدهه يمدده مدهاً: مدحه، وهو ماده. والرجز لرؤبة في ديوانه ص ١٦٦؛ ولسان العرب (سبع)، جله، وهذه، مده، مده؛ وخزانة الأدب ٦/٣٩١؛ وشرح المنفصل ٤/٨١؛ وتهذيب اللغة ٦/٤٣٠؛ وجمهرة اللغة ص ٤٣؛ ومقاييس اللغة ١/١٢٧؛ وديوان الأدب ٢/٤٦٤؛ وكتاب العين ٤/٣٢؛ وтاج العروس (أله، مده)؛ والطبرى ١/٨٢.

(٢) البيت الذي الإصبع العدواني في أدب الكاتب ص ٥١؛ والأزهية ص ٢٧٩؛ وإصلاح المتنطق ص ٣٧٣؛ والأغاني ٣/١٠٨؛ وأمالى المرتضى ١/٢٥٢؛ وجمهرة اللغة ص ٥٩٦؛ وخزانة الأدب ٧/١٧٣؛ والدرر ٤/١٤٣؛ وسمط اللالي ص ٢٨٩؛ وشرح التصریح ٢/١٥؛ ولسان العرب (فضل، دین، عنن، لوه، خزا)؛ والمؤتلف والمختلف ص ١١٨؛ ومغني الليب ١/١٤٧؛ والمقاصد النحوية ٣/٢٨٦؛ ولکعب الغنوی في الأزهية ص ٩٧.

(٣) تفسير القرطبي ١٢/١. وابن كثير ينقل هنا عن القرطبي ابتداءً من قوله «ونقل سيبويه عن الخليل» إلى قوله: «كما قالوا في وشاح: إشاح، ووسادة: إسادة».

(٤) عبارة القرطبي: «قال الكسائي والفراء: معنى (بسم الله) بضم الإله».

(٥) الزيادة من القرطبي.

(٦) عبارة الأصل: «فالله تعالى يحيّر أولئك والفكُّ في حقائق صفاته». وما أثبتناه هو عبارة القرطبي (١٠٢). والعبارات لا تخلوان من اضطراب.

لا تفرح إلا بمعرفته لأنَّه الكامل على الإطلاق دون غيره، قال الله تعالى: ﴿أَلَا بذِكْرِ اللَّهِ تَطمَئِنُ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] قال: وقيل من لا يلوه إذا احتجب، وقيل اشتقاء من أله الفضيل أولع بأمه . والمعنى أنَّ العباد مألهون مولعون بالتضرع إليه في كل الأحوال ، قال: وقيل مشتق من أله الرجل يأله إذا فزع من أمر نزل به فأله أي أجراه فالمجير لجمع الخلائق من كل المضار هو الله سبحانه لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يَجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون: ٨٨] وهو المنعم لقوله تعالى ﴿وَمَا بَكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنْ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣] وهو المطعم لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يَطْعَمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأناعم: ١٤] وهو الموجد لقوله تعالى ﴿قُلْ كُلُّ مَنْ عَنِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨] وقد اختار الرازي أنه اسم غير مشتق البتة ، قال وهو قول الخليل وسيبوه وأكثر الأصوليين والفقهاء ثم أخذ يستدل على ذلك بوجوه منها أنه لو كان مشتقاً لاشترك في معناه كثيرون ، ومنها أن بقية الأسماء تذكر صفات له فتقول الله الرحمن الرحيم الملك القدس ، فدل أنه ليس بمشتق . قال: فأما قوله تعالى ﴿الْعَزِيزُ الْحَمِيدُ اللَّهُ﴾<sup>(١)</sup> على قراءة الجر فجعل ذلك من باب عطف البيان ، ومنها قوله تعالى ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيَّاً﴾ [مريم: ٦٥] وفي الاستدلال بهذه على كون هذا الاسم جامداً غير مشتق نظر والله أعلم .

وحكى الرازي عن بعضهم أنَّ اسم الله تعالى عبراني لا عربي ، ضعفه وهو حقيق بالتضعيف كما قال ، وقد حكى الرازي هذا القول ثم قال: وأعلم أنَّ الخلائق قسمان: واصلون إلى ساحل بحر المعرفة ، ومحرومون قد يقوا في ظلمات الحيرة وتيه الجهات ، فكأنهم قد فقدوا عقولهم وأرواحهم؛ وأما الواجبون فقد وصلوا إلى عرصة النور وفسحة الكرباء والجلال فتاهوا في ميادين الصمدية وبادروا في عرصة الفردانية ، ثبت أنَّ الخلاق كلهم والهون في معرفته ، وروي عن الخليل بن أحمد أنه قال: لأنَّ الخلق يألهون إليه ، بفتح اللام وكسرها لغتان ، وقيل إنه مشتق من الارتفاع ، فكانت العرب تقول لكل شيء مرتفع: لاهـا ، وكانوا يقولون إذا طلعت الشمس لاهـت ، وقيل إنه مشتق من أله الرجل إذا تعبد وتأله إذ تنسك ، وقرأ ابن عباس (ويذرك وإلهتك) وأصل ذلك الإله فحذفت الهمزة التي هي فاء الكلمة فاللتقت اللام التي هي عينها مع اللام الزائدة في أولها للتعریف فأدغمت إحداها في الأخرى فصارتا في اللفظ لاماً واحدة مشددة وفخت تعظيماً فقيل الله .

القول في تأويل ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ اسمان مشتقات من الرحمة على وجه المبالغة ، ورحمن أشد مبالغة من رحيم ، وفي كلام ابن جرير ما يفهم منه حكاية الاتفاق على هذا ، وفي تفسير بعض السلف ما يدل على ذلك كما تقدم في الأثر عن عيسى عليه السلام أنه قال: والرحمن: رحمن الدنيا والآخرة ، والرحيم: رحيم الآخرة ، وزعم بعضهم أنه غير مشتق إذ لو كان

(١) المراد ما جاء في آخر الآية الأولى وأول الآية الثانية من سورة إبراهيم: ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ \* اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ . . .﴾.

كذلك<sup>(١)</sup> لا تصل بذكر المرحوم وقد قال «وكان بالمؤمنين رحيمًا» [الأحزاب: ٤٣] وحكى ابن الانباري في الزاهر عن المبرد أن الرحمن: اسم عبراني ليس عربي . وقال أبو إسحاق الزجاج في معاني القرآن: وقال أحمد بن يحيى: الرحيم عربي والرحمن عبراني، فلهذا جمع بينهما . قال أبو إسحاق: وهذا القول مرغوب عنه . وقال القرطبي: والدليل على أنه مشتق<sup>(٢)</sup> ما خرجه الترمذى وصححه عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: أنا الرحمن خلقت الرحمن وشققت لها أسماءً من أسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته» قال: وهذا نص في الاستنقاف فلا معنى للمخالفه والشقاقي ، قال: وإنكار العرب لاسم الرحمن لجهلهم بالله وبما وجب له ، قال القرطبي: ثم قيل بما معنى واحد كندمان ونديم قاله أبو عبيدة ، وقيل: ليس بناء فعلان كفعيل ، فإن فعلان لا يقع إلا على مبالغة الفعل نحو قوله: رجل غضبان للرجل الممتلىء غضباً ، وفعيل قد يكون بمعنى الفاعل والمفعول<sup>(٣)</sup> ، قال أبو علي الفارسي: الرحمن اسم عام في جميع أنواع الرحمة يختص به الله تعالى ، والرحيم إنما هو من جهة المؤمنين [كما] قال الله تعالى: «وكان بالمؤمنين رحيمًا» وقال ابن عباس: هما أسمان رقيقان أحدهما أرق من الآخر أي أكثر رحمة ، ثم حكى<sup>(٤)</sup> عن الخطابي وغيره أنهم استشكلوا هذه الصفة وقالوا لعله أرق<sup>(٥)</sup> كما في الحديث «إن الله رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف» وقال ابن المبارك: الرحمن إذا شئت أعطي والرحيم إذا لم يسأل غَضب . وهذا كما جاء في الحديث الذي رواه الترمذى وابن ماجه من حديث أبي صالح الفارسي الخوزي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «من لم يسأل الله يغضب عليه» وقال بعض الشعراء: [الكامل]

الله يغضب ان تركت سؤاله      وبنى آدم حين يُسأَل يغضب<sup>(٦)</sup>

وقال ابن جرير<sup>(٧)</sup>: حدثنا السري بن يحيى التميمي حدثنا عثمان بن زفر قال: سمعت

(١) أي: «لو كان مشتقاً من الرحمة» كما هي عبارة القرطبي .

(٢) هو قول ابن الحصار يشير إلى ما خرجه الترمذى ، نقله القرطبي (١٠٤/١).

(٣) وأورد القرطبي شاهداً على هذا قول عمس بن عقيل:

فاما إذا عضت بك الحرب عضة      فإنك معطوف عليك رحيم

وأضاف: فالرحمن خاص الاسم عام الفعل ، الرحيم عام الاسم خاص الفعل هذا قول الجمهور.

(٤) أي القرطبي (١٠٦/١).

(٥) أي: لعل قول ابن عباس هو: «هذا أسمان رفيقان (بالفاء المودحة) أحدهما أرق من الآخر» على نحو ما جاء في القرطبي نقلًا عن الحسين بن الفضل البجلي . قال: لأن الرقة ليست من صفات الله تعالى في شيء ، والرفق من صفاته عز وجل . وبهذا المعنى نقل عن الخطابي .

(٦) البيت بلا نسبة أيضاً في القرطبي ١٠٦/١ .

(٧) تفسير الطبرى ٨٤/١ .

العزمي يقول: الرحمن الرحيم قال: الرحمن بجميع الخلق، الرحيم قال: بالمؤمنين: قالوا ولهذا قال «ثم استوى على العرش الرحمن» [الفرقان: ٥٩] وقال «الرحمن على العرش استوى» [طه: ٥] فذكر الاستواء باسمه الرحمن ليعلم جميع خلقه برحمته وقال «وكان بالمؤمنين رحيمًا» فخدهم باسمه الرحيم. قالوا: فدل على أن الرحمن أشد مبالغة في الرحمة لعمومها في الدارين لجميع خلقه والرحيم خاصة بالمؤمنين، لكن جاء في الدعاء المأثور: الرحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما. واسمه تعالى الرحمن خاص به لم يسم به غيره كما قال تعالى «قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيًا ما تدعوا فله الأسماء الحسنی» [الإسراء: ١١٠] وقال تعالى: «واسأل من أرسلنا من قبلك من رسالتنا أجعلنا من دون الرحمن آلة يعبدون» [الزخرف: ٤٥] ولما تجهر مسيلمة الكذاب وتسمى برحمن اليمامة كسام الله جلباب الكذب وشهر به فلا يقال إلا مسيلمة الكذاب فصار يضرب به المثل في الكذب بين أهل الحضر من أهل المدر وأهل الوبر من أهل البادية والأعراب.

وقد زعم بعضهم أن الرحيم أشد مبالغة من الرحمن لأنه أكد به والتأكيد لا يكون إلا أقوى من المؤكّد، والجواب أن هذا ليس من باب التأكيد وإنما هو من باب النعت ولا يلزم فيه ما ذكره، وعلى هذا فيكون تقديم اسم الله الذي لم يسم به أحد غيره ووصفه أولاً بالرحمن الذي منع من التسمية به لغيره كما قال تعالى: «قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيًا ما تدعوا فله الأسماء الحسنی» [الإسراء: ١١٠] وإنما تجهر<sup>(١)</sup> مسيلمة اليمامة في التسمي به ولم يتبعه على ذلك إلا من كان معه في الصلاة؛ وأما الرحيم فإنه تعالى وصف به غيره حيث قال: «لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم» [التوبه: ١٢٨] كما وصف غيره بذلك من أسمائه كما قال تعالى «إنما خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سمعاً بصيراً» [الإنسان: ٢] والحال أن من أسمائه تعالى ما يسمى به غيره ومنها ما لا يسمى به غيره كاسم الله والرحمن والخالق والرازق ونحو ذلك فلهذا بدأ باسم الله ووصفه بالرحمن لأنه أخص وأعرف من الرحيم، لأن التسمية أولاً إنما تكون بأشرف الأسماء فلهذا ابتدأ بالأخص فالأخصر. فإن قيل: فإذا كان الرحمن أشد مبالغة فهلا اكتفى به عن الرحيم؟ فقد روى عن عطاء الخراساني ما معناه أنه لما تسمى غيره تعالى بالرحمن جيء بلفظ الرحيم ليقطع الوهم بذلك فإنه لا يوصف بالرحمن الرحيم إلا الله تعالى، كما رواه ابن جرير<sup>(٢)</sup> عن عطاء. ووجهه

(١) كذا ولعله «تجاسر» كما ورد في القرطبي.

(٢) حديث عطاء: «كان الرحمن، فلما اختزل الرحمن من اسمه كان الرحمن الرحيم». قال القرطبي: والذي قال عطاء من ذلك غير فاسد المعنى، بل جائز أن يكون جل ثناؤه خص نفسه بالتسمية بهما مجتمعين، إبانة لهما من خلقه، ليعرف عباده بذكرهما مجموعين أنه المقصود بذكرهما من دون سواه من خلقه، مع ما في تأويل كل واحد منها من المعنى الذي ليس في الآخر منها.

بذلك والله أعلم. وقد زعم بعضهم أن العرب لا تعرف الرحمن حتى رد الله عليهم ذلك بقوله ﴿فَلَمْ يَأْتِ اللَّهُ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيْمَانًا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحَسَنَى﴾ . ولهذا قال كفار قريش يوم الحديبية لما قال رسول الله ﷺ لعلي اكتب ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فقالوا: لا نعرف الرحمن ولا الرحيم. رواه البخاري وفي بعض الروايات: لا نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة. وقال تعالى ﴿وَإِذَا قَبَلُوكُمْ أَسْجَدُوكُمْ لِرَحْمَنِكُمْ وَمَا الرَّحْمَنُ إِلَّا رَحْمَنُ الْيَمَامَةِ﴾ [الفرقان: ٦٠] والظاهر أن إنكارهم هذا إنما هو جحود وعناد وتعنت في كفرهم فإنه قد وجد في أشعارهم في الجاهلية تسمية الله بالرحمن. قال ابن جرير: وقد أنسد لبعض الجاهلية الجهات: [الطوبل]

أَلَا ضربت تلك الفتاة هجينها      أَلَا قَضَبَ الرَّحْمَنُ رَبِّي يَمِينَهَا<sup>(١)</sup>

وقال سلامة بن جندل الطهوي<sup>(٢)</sup>: [الطوبل]

عجلتم علينا إذ عجلنا عليكم      وما يشأ الرَّحْمَنُ يعِيدُ وَيُطْلِقُ<sup>(٣)</sup>

وقال ابن جرير<sup>(٤)</sup>: حدثنا أبو كريب عثمان بن سعيد حدثنا بشر بن عمارة حدثنا أبو روق عن الضحاك عن عبد الله بن عباس قال الرحمن الفعلان من الرحمة هو من كلام العرب وقال ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ الرفيق الرقيق لمن<sup>(٥)</sup> أحب أن يرحمه والبعد الشديد على من أحب أن يعذبه عليه، وكذلك أسماؤه كلها. وقال ابن جرير<sup>(٦)</sup> أيضاً: حدثنا محمد بن بشار حدثنا حماد بن مسعدة عن عوف عن الحسن قال: الرحمن اسم ممنوع. وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد يحيى بن سعيد القطنان حدثنا زيد بن الحباب حدثني أبو الأشهب عن الحسن قال الرحمن اسم لا يستطيع الناس أن ينتحلوه تسمى به تبارك وتعالى. وقد جاء في حديث أم سلمة أن رسول الله ﷺ كان يقطع قراءته حرفاً حرفاً ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ \* الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فقرأ بعضهم كذلك وهم طائفة ومنهم من وصلها بقوله ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ . وكسرت الميم لالتقاء الساكنين وهو الجمهور، وحكى الكسائي من الكوفيين عن بعض العرب أنها تقرأ بفتح الميم وصلة الهمزة فيقولون ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فنقلوا حركة الهمزة إلى الميم بعد تسكينها كما قرئ قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ قال ابن عطية: ولم ترد هذه قراءة عن أحد فيما علمت.

(١) البيت بلا نسبة في الطبرى ١/٨٦؛ والمخصص لابن سيده ١٧/٥٢.

(٢) كذا أيضاً في أصول تفسير الطبرى، كما أشار محقق طبعة دار المعارف بمصر ١/١٣١، حاشية<sup>(٣)</sup>. قال: وهو خطأ، إذ ليس سلامة طهرياً. وصححها بالسعدي. قلت: ولعل الحافظ ابن كثير تابع الطبرى في هذا الخطأ، إذ ينقل عنه في هذا المقام.

(٣) البيت لسلامة بن جندل في ديوانه ص ١٩؛ وتفسير الطبرى ١/٨٦.

(٤) تفسير الطبرى ١/٨٥.

(٥) في الطبرى: ﴿الرَّفِيقُ الرَّفِيقُ مِنْ أَحَبِّ﴾.

(٦) الطبرى ١/٨٨.

## الْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

القراء السبعة على ضم الدال في قوله (الحمد لله) هو مبتداً وخبر . وروي عن سفيان بن عيينة ورؤبة بن العجاج أنهما قالا (الحمد لله) بالنصب وهو على إضمار فعل وقرأ ابن أبي عبلة (الحمد لله) بضم الدال واللام إتباعاً للثاني الأول ، وله شواهد لكنه شاذ ، وعن الحسن وزيد بن علي (الحمد لله) بكسر الدال اتباعاً للأول الثاني .

قال أبو جعفر بن حرير<sup>(١)</sup> : معنى (الحمد لله) الشكر لله خالصاً دون سائر ما يعبد من دونه ، دون كل ما برأ من خلقه ، بما أنعم على عباده من النعم التي لا يحصيها العدد ولا يحيط بعدها غيره أحد ، في تصحيح الآلات لطاعته ، وتمكن جوارح أجسام المكلفين لأداء فرائضه ، مع ما بسط لهم في دنياهم من الرزق ، وغذائهم من نعيم العيش من غير استحقاق منهم ذلك عليه ، ومع ما نبههم عليه ودعاهم إليه من الأسباب المؤدية إلى دوام الخلود في دار المقام في النعيم المقيم ، فلربنا الحمد على ذلك كله أولاً وأخراً . وقال ابن حرير رحمه الله : (الحمد لله) ثناء أثنى به على نفسه وفي ضمه أمر عباده أن يتثنوا عليه فكانه قال : قولوا الحمد لله . قال : وقد قيل إن قول القائل : الحمد لله ثناء عليه بأسمائه الحسنى وصفاته العلي ، وقوله (الشكر لله) ثناء عليه بنعمه وأياديه . ثم شرع في رد ذلك بما حاصله أن جميع أهل المعرفة بلسان العرب يوقعون كلاماً من الحمد والشكر مكان الآخر . وقد نقل السلمي هذا المذهب أنهما سواء عن جعفر الصادق وابن عطاء من الصوفية ، وقال ابن عباس (الحمد لله) كلمة كل شاكر ، وقد استدل القرطبي لابن حرير بصحة قول القائل الحمد لله شكرأ<sup>(٢)</sup> . وهذا الذي ادعاه ابن حرير فيه نظر ، لأنه اشتهر عند كثير من العلماء من المتأخرین أن الحمد هو الثناء بالقول على المحمود بصفاته الالزمة والمتعلقة ، والشكر لا يكون إلا على المتعدية ويكون بالجنان واللسان والأركان كما قال الشاعر : [الطوبل]

أفدادكم النعماء مني ثلاثة: يدي ولسانني والضمير المحجب  
ولكنهم اختلقوها أيهما أعمَ الحمد أو الشكر على قولين، والتحقيق أن بينهما عموماً  
وخصوصاً فالحمد أعم من الشكر من حيث ما يقعان عليه لأنه يكون على الصفات الالزمة

(١) الطبرى / ٨٩.

(٢) هنا وهم من ابن كثير ، إذ إن القرطبي عارض رأى الطبرى بقوله : «ذهب أبو جعفر الطبرى وأبو العباس المبرد إلى أن الحمد والشكر بمعنى واحد سواء ، وليس بمرضاً» ثم قال : «ال الصحيح أن الحمد ثناء على الممدوح بصفاته من غير سبق إحسان ، والشكر ثناء على المشكور بما أولى من الإحسان . وعلى هذا الحد قال علماؤنا : الحمد أعم من الشكر» (تفسير القرطبي ١٣٣ / ١ — ١٣٤). وعقب محمود محمد شاكر على من ناقضوا رأى الطبرى بقوله : والذي قاله الطبرى أقوى حججاً وأعرق عربية من الذين ناقضوه . (تفسير الطبرى ، ١٣٨ / ١ ، حاشية (٢) ، طبعة دار المعارف بمصر).

والمتعلدية ، تقول : حمدته لفروسيته وحمدته لكرمه وهو أخص ، لأنه لا يكون إلا بالقول ، والشكراً أعم من حيث ما يقعان عليه لأنه يكون بالقول والفعل والنية كما تقدم وهو أخص لأنه لا يكون إلا على الصفات المتعلدية لا يقال : شكرته لفروسيته وتقول شكرته على كرمه وإحسانه إلى . هذا حاصل ما حرره بعض المتأخرین والله أعلم .

وقال أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري : الحمد نقىض الذم ، تقول حمدت الرجل أحمده حمداً ومحمدة فهو حميد ومحمود والتحميد أبلغ من الحمد ، والحمد أعم من الشكر ، وقال في الشكر : هو الثناء على المحسن بما أولاه من المعروف ، يقال : شكرته وشكرت له ، وباللام أفضح . وأما المدح فهو أعم من الحمد لأنه يكون للحي وللميت وللجماد أيضاً كما يمدح الطعام والمكان ونحو ذلك ويكون قبل الإحسان وبعده ، وعلى الصفات المتعلدية واللازمة أيضاً فهو أعم .

### ذكر أقوال السلف في الحمد

قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا أبو معمر القطبي حدثنا حفص عن حجاج عن ابن أبي مليكة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال عمر رضي الله عنه : قد علمنا سبحانه الله ولا إله إلا الله ، فما الحمد لله ؟ فقال علي : كلمة رضيها الله لنفسه ، ورواه غير أبي معمر عن حفص فقال : قال عمر لعلي - وأصحابه عنده - : لا إله إلا الله سبحانه الله والله أكبر قد عرفناها فما الحمد لله ؟ قال علي : كلمة أحبها الله تعالى لنفسه ورضيها لنفسه وأحب أن تقال<sup>(١)</sup> . وقال علي بن زيد بن جدعان عن يوسف بن مهران : قال ابن عباس : الحمد لله كلمة الشكر وإذا قال العبد الحمد لله قال الله : شكرني عبدي . رواه ابن أبي حاتم ، وروى أيضاً هو وابن جرير<sup>(٢)</sup> من حديث بشر بن عمارة عن أبي روق عن الضحاك عن ابن عباس أنه قال : الحمد لله هو الشكر لله والاستخذاء له والإقرار له بنعمته وهدايته وغير ذلك . وقال كعب الأحبار : الحمد لله ثناء على الله ، وقال الضحاك : الحمد لله رداء الرحمن ، وقد ورد الحديث بنحو ذلك<sup>(٣)</sup> .

قال ابن جرير : حدثنا سعيد بن عمرو السكوني حدثنا بقية بن الوليد حدثني عيسى بن إبراهيم عن موسى بن أبي حبيب عن الحكم بن عمير وكانت له صحبة قال : قال رسول الله ﷺ إذا قلت الحمد لله رب العالمين فقد شكرت الله فزادك ، وقد روى الإمام أحمد بن حنبل<sup>(٤)</sup> : حدثنا عوف عن الحسن عن الأسود بن سريع قال : قلت يا رسول الله ألا أنشدك مhammad حمدت

(١) الدر المثور ١ / ٣٤.

(٢) تفسير الطبرى ١ / ٨٩؛ والدر المثور ١ / ٣٤.

(٣) حدیث کعب والضحاک آخر جھما ابن جریر وابن أبي حاتم (الدر المثور ١ / ٣٤).

(٤) المستند ج ٥ ص ٣٠٣.

بها ربى تبارك وتعالى فقال : «أما إن ربك يحب الحمد» ورواه النسائي عن علي بن حجر عن ابن علية عن يونس بن عبد عن الحسن الأسود بن سريع به . وروى أبو عيسى الحافظ الترمذى والنمسائى وابن ماجه من حديث موسى بن إبراهيم بن كثير عن طلحة بن خراش عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ «أفضل الذكر لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء الحمد لله» وقال الترمذى حسن غريب ، وروى ابن ماجه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «ما أنعم الله على عبد نعمة فقال : الحمد لله إلا كان الذي أعطى أفضل مما أخذ» وقال القرطبي في تفسيره وفي نوادر الأصول عن أنس عن النبي ﷺ قال : «لو أن الدنيا بحذا فيرها في يد رجل من أمتي ثم قال الحمد لله كان الحمد لله أفضل من ذلك» قال القرطبي وغيره : أي لكان إلهامه الحمد لله أكثر نعمة عليه من نعم الدنيا لأن ثواب الحمد لله لا يفني ونعم الدنيا لا يبقى قال الله تعالى : ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونُ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكُ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلَأً﴾ [الكهف : ٤٦] وفي سنن ابن ماجه عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ حدثهم أن عبداً من عباد الله قال يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظم سلطانك . فعضلت<sup>(١)</sup> بالملكين فلم يدرريا كيف يكتبانها فصعدا إلى الله فقالا : يا ربنا إن عبدا قد قال مقالة لا ندرى كيف نكتبها ، قال الله ، وهو أعلم بما قال عبده ، ماذا قال عبدي ؟ قالا يا رب إنه قال : لك الحمد يا رب كما ينبغي لجلال وجهك وعظم سلطانك . فقال الله لهما «اكتباها كما قال عبدي حتى يلقاني فأجزيه بها» وحكى القرطبي عن طائفة أنهم قالوا : قول العبد (الحمد لله رب العالمين) أفضل من قوله (لا إله إلا الله) لاشتمال الحمد لله رب العالمين على التوحيد مع الحمد ، وقال آخرون (لا إله إلا الله) أفضل لأنها تفصل بين الإيمان والكفر وعليها يقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، كما ثبت في الحديث المتفق عليه وفي الحديث الآخر : «أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلى : لا إله إلا الله وحده لا شريك له» وقد تقدم عن جابر مرفوعاً «أفضل الذكر لا إله إلا الله وأفضل الدعاء الحمد لله» وحسنه الترمذى ، والألف واللام في الحمد لاستغراق جميع أجناس الحمد وصنوفه لله تعالى كما جاء في الحديث : «اللهم لك الحمد كله ولكل الملك كله وبيدك الخير كله وإليك يرجع الأمر كله» الحديث .

### [القول في تأويل ﴿رب العالمين﴾]

والرب هو المالك المتصرف ويطلق في اللغة على السيد وعلى المتصرف للإصلاح وكل ذلك صحيح في حق الله ، ولا يستعمل الرب لغير الله بل بالإضافة تقول : رب الدار ، رب كذا ، وأما الرب<sup>(٢)</sup> فلا يقال إلا الله عز وجل ، وقد قيل إنه الاسم الأعظم . والعالمين جمع عالم ، وهو

(١) عضل به الأمر : اشتد واستغلق .

(٢) أي الرب مطلقاً .

كل موجود سوى الله عز وجل ، والعالم جمع لا واحد له من لفظه ، والعوالم أصناف المخلوقات في السموات وفي البر والبحر وكل قرن منها وجيل يسمى عالماً أيضاً . قال بشر بن عمار عن أبي روق عن الصحّاك عن ابن عباس ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ الحمد لله الذي له الخلق كله السموات والأرضون وما فيهنَّ وما بينهنَّ مما نعلم ومما لا نعلم . وفي رواية سعيد بن جبير وعكرمة عن ابن عباس : رب الجن والإنس ، وكذلك قال سعيد بن جبير ومجاهد وابن جرير وروي عن علي نحوه ، قال ابن أبي حاتم : بإسناده لا يعتمد عليه . واستدل القرطبي لهذا القول بقوله تعالى : ﴿ليكون للعالمين نذيرا﴾ [الفرقان : ١] وهم الجن والإنس . قال الفراء وأبو عبيد : العالم عبارة عما يعقل وهو الإنس والجن والملائكة والشياطين ولا يقال للبهائم عالم . وعن زيد بن أسلم وأبي محيصن : العالم كل ما له روح ترفرف . وقال قتادة : رب العالمين كل صنف عالم ، وقال الحافظ ابن عساكر في ترجمة مروان بن محمد وهو أحد خلفاءبني أمية وهو يعرف بالجعد ويلقب بالحمار أنه قال : خلق الله سبعة عشر ألف عالم ، أهل السموات وأهل الأرض عالم واحد ، وسائرهم لا يعلمهم إلا الله عز وجل .

وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبي العالية في قوله تعالى : ﴿رب العالمين﴾ قال : الإنس عالم [والجن عالم]<sup>(١)</sup> وما سوى ذلك ثمانية عشر ألف أو أربعة عشر ألف عالم - هو يشك - من الملائكة على الأرض وللأرض أربع زوايا ، في كل زاوية ثلاثة آلاف عالم وخمسماة عالم خلقهم الله لعبادته . رواه ابن جرير وابن أبي حاتم<sup>(٢)</sup> . وهذا كلام غريب يحتاج مثله إلى دليل صحيح . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا هشام بن خالد حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا الفرات ، يعني ابن الوليد ، عن معتب بن سمي عن تبع يعني الحميري في قوله تعالى : ﴿رب العالمين﴾ قال : العالمين ألف أمة فستمائة في البحر وأربعمائة في البر<sup>(٣)</sup> ، وحكي مثله عن سعيد بن المسيب وقد روي نحو هذا مرفوعاً كما قال الحافظ أبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى في مسنده : حدثنا محمد بن المثنى حدثنا عبيد بن واقد القيسى أبو عباد حدثني محمد بن عيسى بن كيسان حدثنا محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال : قل الجراد في ستة من سنى عمر التيولي فيها ، فسأل عنه فلم يخبر بشيء ، فاغتنم لذلك ، فأرسل راكباً يضرب إلى اليمين وأخر إلى الشام وأخر إلى العراق يسأل هل رؤي من الجراد شيء ، أم لا؟ قال : فأتاه الراكب الذي من قبل اليمين بقبضة من جراد ، فألقاها بين يديه فلما رأها كبر ثم قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول «خلق الله ألف أمة : ستمائة في البحر وأربعمائة في البر ، فأول شيء يهلك من هذه الأمم الجراد فإذا هلك تتابعت مثل النظام إذا قطع سلكه» محمد بن عيسى هذا وهو الهلالى

(١) زيادة من الطبرى .

(٢) تفسير الطبرى / ١ / ٩٣ ؛ والدر المثور / ١ / ٣٧ .

(٣) الدر المثور / ١ / ٣٧ .

ضعف<sup>(١)</sup>. وحكى البغوي عن سعيد بن المسيب أنه قال: الله ألف عالم ستمائة في البحر وأربعمائة في البر، وقال وهب بن منبه: لله ثمانية عشر ألف عالم الدنيا عالم منها، وقال مقاتل: العالم ثمانون ألفاً، وقال كعب الأحبار: لا يعلم عدد العوالم إلا الله عز وجل نقله البغوي. وحكى القرطبي عن أبي سعيد الخدري أنه قال: إن الله أربعين ألف عالم الدنيا من شرقها إلى مغربها عالم واحد منها، وقال الزجاج: العالم كل ما خلق الله في الدنيا والآخرة قال القرطبي: وهذا هو الصحيح إنه شامل لكل العالمين قوله: ﴿قَالَ فَرْعَوْنَ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ \* قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣] والعالم مشتق من العلامة (قلت) لأنَّه علم دال على وجود خالقه وصانعه ووحدانيته كما قال ابن المعتز:

فِي اعْجَبٍ كَيْفَ يَعْصِي إِلَهٌ  
أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الْجَاحِدُ  
وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ  
تَدْلِي عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ

### الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ

وقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ تقدم الكلام عليه في البسمة بما أغني عن الإعادة. قال القرطبي<sup>(٢)</sup>: إنما وصف نفسه بالرحمن الرحيم بعد قوله رب العالمين ليكون من باب قرن الترغيب بعد الترهيب كما قال تعالى: ﴿نَبِيٌّ عَبْدِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ \* وَأَنَّ عذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩ - ٥٠] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٦٥] قال: فالرب فيه ترهيب والرحمن الرحيم ترغيب. وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عَنْهُ اللَّهُ مِنْ الْعَوْقَبَةِ مَا طَمِعَ فِي جِنْتَهُ أَحَدٌ وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عَنْهُ اللَّهُ مِنِ الرَّحْمَةِ مَا قَطَطَ مِنْ رَحْمَتِهِ»<sup>(٣)</sup> أحد».

### مَلِكُ يَوْمِ الدِّينِ

قرأ بعض القراء (ملك يوم الدين) وقرأ آخرون (مالك) وكلاهما صحيح متواتر في السبع<sup>(٤)</sup>، ويقال ملك بكسر اللام وبإسكانها، ويقال ملك أيضاً وأشيع نافع كسرة الكاف فقرأ (ملكي يوم الدين) وقد رجح كلا من القراءتين مرجحون من حيث المعنى وكلتاهمما صحيحة حسنة، ورجح الزمخشري ملك لأنها قراءة أهل الحرمتين ولقوله: ﴿لَمَنِ الْمَلْكُ الْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٦] وقوله: ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلِهِ الْمَلْكُ﴾ [الأنعام: ٧٣] وحكى عن أبي حنيفة أنه قرأ: ﴿مَلِكُ يَوْمِ الدِّينِ﴾ على

(١) الحديث رواه السيوطي في الدر المثور (١/ ٣٧) وقال: بسنده ضعيف.

(٢) تفسير القرطبي ١٣٩/١ ، وابن كثير ينقل هنا عن القرطبي بتصرف.

(٣) في القرطبي ١٣٩/١ وصحيح مسلم (توبه حديث ٢٣): «جنته».

(٤) أي القراءات السبع المشهورة.

أنه فعل وفاعل ومفعول وهذا شاذ غريب جداً وقد روى أبو بكر بن أبي داود في ذلك شيئاً غريباً حيث قال: حدثنا أبو عبد الرحمن الأزدي، حدثنا عبد الوهاب بن عدي بن الفضل عن أبي المطرف عن ابن شهاب أنه بلغه أن رسول الله ﷺ وأبا بكر وعمر وعثمان ومعاوية وابنه يزيد بن معاوية كانوا يقرؤون (مالك يوم الدين) قال ابن شهاب: وأول من أحدث «ملك» مروان (قلت) مروان عنده علم بصحبة ما قرأه لم يطلع عليه ابن شهاب والله أعلم. وقد روى من طرق متعددة أوردها ابن مروديه أن رسول الله ﷺ كان يقرؤها (مالك يوم الدين) ومالك مأخوذ من الملك كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مريم: ٤٠] وقال ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس: ١ - ٢] وملك مأخوذ من الملك كما قال تعالى: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ وقال ﴿قُولُهُ الْحَقُّ وَلِهِ الْمُلْكُ﴾ وقال: ﴿الْمَلَكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦] وتخصيص الملك بيوم الدين لا ينفيه عما عداه لأنه قد تقدم الإخبار بأنه رب العالمين وذلك عام في الدنيا والآخرة، وإنما أضيف إلى يوم الدين لأنه لا يدع أحد هنالك شيئاً ولا يتكلم أحد إلا بإذنه كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفَّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مِنْ أَذْنِ لَهِ الرَّحْمَنِ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النَّبَأِ: ٣٨] وقال تعالى: ﴿وَخَشِعْتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسَةً﴾ [طه: ١٠٨] وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكُلُّ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيقٌ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥] وقال الضحاك عن ابن عباس ﴿مَالِكُ يَوْمَ الدِّين﴾ يقول: لا يملك أحد معه في ذلك اليوم حكماً كملükهم في الدنيا، قال: ويوم الدين يوم الحساب للخلائق وهو يوم القيمة يدينهم بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر إلا من عفا عنه<sup>(١)</sup>. وكذلك قال غيره من الصحابة والتابعين والسلف وهو ظاهر. وحكى ابن جرير<sup>(٢)</sup> عن بعضهم أنه ذهب إلى أن تفسير مالك يوم الدين أنه القادر على إقامته، ثم شرع يضعفه، والظاهر أنه لا منافاة بين هذا القول وما تقدم وأن كلام القائلين هذا القول وبما قبله يعترض بصحبة القول الآخر ولا ينكره، ولكن السياق أدل على المعنى الأول من هذا، كما قال تعالى: ﴿الْمَلَكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ والقول الثاني يشبه قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ والله أعلم. والملك في الحقيقة هو الله عز وجل، قال الله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلَكُ الْقَدُوسُ السَّلَامُ﴾ [الحشر: ٢٣] وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً «أَخْنَعَ اسْمَعْ عِنْدَ اللَّهِ رَجُلٌ تَسْمَى بِمَلْكِ الْأَمْلَاكِ وَلَا مَالِكٌ إِلَّا اللَّهُ»<sup>(٣)</sup> وفيهما عنه عن رسول الله ﷺ قال: «يَقْبَضُ اللَّهُ الْأَرْضَ وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيمِينِهِ ثُمَّ يَقُولُ أَنَا الْمَلَكُ أَيْنَ مُلُوكُ

(١) أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس (الدر المثور/١/٩).

(٢) تفسير الطبرى /١/٩٦.

(٣) أخرجه البخاري (أدب، باب ١١٤) وأبو داود (أدب، باب ٦٣). والترمذى (أدب، باب ٦٦) وأحمد في المسند ج ٣ ص ٤٠. قال عبد الله ابن الإمام أحمد: قال أبي: سألت أبا عمرو الشيباني عن أخْنَعَ اسْمَعْ عِنْدَ الله؟ قال: أَوْضَعُ اسْمَعْ عِنْدَ الله.

الأرض ؟ أين الجبارون ؟ أين المتكبرون ؟<sup>(١)</sup> » وفي القرآن العظيم « لمن الملك اليوم الله الواحد القهار » [غافر : ١٦] فأما تسمية غيره في الدنيا بملك فعلى سبيل المجاز كما قال تعالى : « إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً » [البقرة : ٢٤٧] « وكان وراءهم ملك » [الكهف : ٧٩] « إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً » [المائدة : ٢٠] وفي الصحيحين « مثل الملوك على الأسرة ». .

والدين الجزاء والحساب كما قال تعالى : « يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق » [النور : ٢٥] وقال « أئنا لمديتون » [الصفات : ٥٣] أي مجزيون محاسبون ، وفي الحديث « الکیس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت » أي حاسب نفسه كما قال عمر رضي الله عنه : حاسبو أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا ، وتأهبو للعرض الأكبر على من لا تخفي عليه أعمالكم « يومئذ تعرضون لا تخفي منكم خافية » . [الحقة : ١٨] .

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ

قرأ السبعة والجمهور بتشديد الياء من إياك وقرأ عمرو بن فائد بتخفيفها مع كسر الهمزة وهي قراءة شاذة مردودة لأن إيا : ضوء الشمس<sup>(٢)</sup> ، وقرأ بعضهم إياك بفتح الهمزة وتشديد الياء ، وقرأ بعضهم هيأك بالهاء بدل الهمزة كما قال الشاعر : [الطوبل]  
[الطوبل]

فهي أك والأمر الذي إن توسعَتْ موارده ضاقت عليك مصادره<sup>(٣)</sup>

ونستعين بفتح النون أول الكلمة في قراءة الجميع سوى يحيى بن وثاب والأعمش فإنهما كسراهما وهي لغة بنى أسد وربيعة وبني تميم ، والعبادة في اللغة من الذلة يقال طريق معبد وبغير معبد أي مذلل ، وفي الشرع : عبارة عما يجمع كمال المحبة والخصوص والخوف . وقد المفعول وهو إياك وكرر للاهتمام والحصر أي لا نعبد إلا إياك ولا نتوكل إلا عليك وهذا هو كمال الطاعة ، والدين كله يرجع إلى هذين المعنين ، وهذا كما قال بعض السلف : الفاتحة سر القرآن ، وسرها هذه الكلمة « إياك نعبد وإياك نستعين » فالأول تبرؤ من الشرك ، والثاني تبرؤ من الحول

(١) أخرجه مسلم (منافقين ، حديث ٢٤) وأبو داود (سنة ، باب ١٩) وابن ماجه (مقدمة ، باب ١٣) وزهد ، باب ٢٣ وأحمد في المستند (ج ٣ ص ٣٠٩) .

(٢) في لسان العرب (أيا) : إيا الشمس وأياؤها : نورها وضوئها وحسنها . وكذلك إياتها وأياؤتها ، وجمعها آياء وإياء كأكمة وإيام . وأنشد الكسائي :

سقته إِيَّاهُ الشَّمْسِ إِلَى ثَسَاتِهِ  
أَسْفَّ وَلَمْ تَكِدْ عَلَيْهِ بِإِثْمِ  
الشاهد في القرطبي ١٤٦ / ١ .

(٣) البيت لمدرس بن رباعي في شرح شواهد الشافية ص ٤٧٦؛ ولطفي العنزي أو لمدرس في ديوان طفيلي ص ١٠٢؛ وبلا نسبة في الإنصاف ٢١٥ / ١؛ وسر صناعة الإعراب ٥٥٢ / ٢؛ وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص ١١٥٢؛ وشرح شافية ابن الحاجب ٣ / ٢٢٣؛ وشرح المفصل ١١٨ / ٨؛ ولسان العرب (هيا، أيا)؛ والمحتسب (٤٠ / ١) .

والقوة والتفويض إلى الله عز وجل، وهذا المعنى في غير آية من القرآن كما قال تعالى: «فَاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون» [هود: ١٢٣]، «قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمْنَا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوْكِلْنَا» [الملك: ٢٩]، «رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا» [المزمول: ٩] وكذلك هذه الآية الكريمة «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» وتحول الكلام من الغيبة إلى المواجهة بكاف الخطاب وهو مناسبة لأنه لما أثني على الله فكانه اقترب وحضر بين يدي الله تعالى فلهذا قال «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ» وفي هذا دليل على أن أول السورة خبر من الله تعالى بالثناء على نفسه الكريمة بجميل صفاتـه الحسنـي وإرشاد لعبادـه بأن يثـنوا عـلـيـهـ بـذـلـكـ ولـهـذاـ لاـ تصـحـ صـلـاةـ منـ لمـ يـقـلـ ذـلـكـ وـهـوـ قـادـرـ عـلـيـهـ كـمـ جـاءـ فـيـ الصـحـيـحـيـنـ عـنـ عـبـادـةـ بـنـ الصـامـاتـ أـنـ رـسـوـلـ اللهـ ﷺـ قالـ:ـ لـاـ صـلـاةـ لـمـ يـقـرـأـ بـفـاتـحةـ الـكـتـابـ»<sup>(١)</sup> وـفـيـ صـحـيـحـ مـسـلـمـ مـنـ حـدـيـثـ العـلـاءـ بـنـ عـبـدـ الرـحـمـنـ مـوـلـيـ الـحرـقـةـ عـنـ أـبـيـ هـرـيرـةـ عـنـ رـسـوـلـ اللهـ ﷺـ يـقـولـ اللـهـ تـعـالـىـ:ـ قـسـمـ الصـلـاةـ بـيـنـ وـبـيـنـ عـبـدـيـ نـصـفـهـ لـيـ وـنـصـفـهـ لـعـبـدـيـ وـلـعـبـدـيـ مـاـ سـأـلـ إـذـاـ قـالـ عـبـدـيـ «الـحـمـدـ لـلـهـ رـبـ الـعـالـمـيـنـ» قـالـ اللـهـ:ـ حـمـدـنـيـ عـبـدـيـ،ـ إـذـاـ قـالـ «الـرـحـمـنـ الرـحـيمـ» قـالـ اللـهـ:ـ أـثـنـيـ عـلـيـ عـبـدـيـ،ـ إـذـاـ قـالـ «مـالـكـ يـوـمـ الدـيـنـ» قـالـ اللـهـ مـجـدـنـيـ عـبـدـيـ،ـ إـذـاـ قـالـ «إـيـاكـ نـعـبـدـ وـإـيـاكـ نـسـتـعـيـنـ» قـالـ:ـ هـذـاـ بـيـنـ وـبـيـنـ عـبـدـيـ وـلـعـبـدـيـ مـاـ سـأـلـ،ـ إـذـاـ قـالـ «اهـدـنـاـ الصـرـاطـ الـمـسـتـقـيمـ» صـرـاطـ الـذـينـ أـنـعـمـتـ عـلـيـهـمـ غـرـيـبـ الـمـغـضـوبـ عـلـيـهـمـ وـلـاـ الضـالـلـيـنـ» قـالـ:ـ هـذـاـ لـعـبـدـيـ وـلـعـبـدـيـ مـاـ سـأـلـ»<sup>(٢)</sup> وـقـالـ الضـاحـكـ عـنـ اـبـنـ عـبـاسـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـمـ «إـيـاكـ نـعـبـدـ» يـعـنـيـ إـيـاكـ نـوـحـ وـنـخـافـ وـنـرـجـوـ يـاـ رـبـنـاـ لـاـ غـيرـكـ «وـإـيـاكـ نـسـتـعـيـنـ» عـلـىـ طـاعـتـكـ وـعـلـىـ أـمـورـنـاـ كـلـهـاـ»<sup>(٣)</sup>. وـقـالـ قـتـادـةـ «إـيـاكـ نـعـبـدـ وـإـيـاكـ نـسـتـعـيـنـ» يـأـمـرـكـ أـنـ تـخلـصـواـ لـهـ الـعـبـادـةـ وـأـنـ تـسـتـعـيـنـهـ عـلـىـ أـمـورـكـ. وـإـنـاـ قـدـ «إـيـاكـ نـعـبـدـ» عـلـىـ «وـإـيـاكـ نـسـتـعـيـنـ» لـأـنـ الـعـبـادـةـ لـهـ هـيـ الـمـقـصـودـةـ وـالـاستـعـانـةـ وـسـيـلـةـ إـلـيـهـاـ وـالـاـهـتـمـامـ وـالـحـزـمـ تـقـدـيمـ ماـ هوـ الـأـهـمـ فـالـأـهـمـ وـالـلـهـ أـعـلـمـ. فـإـنـ قـيلـ:ـ فـمـاـ مـعـنـيـ النـونـ فـيـ قـوـلـهـ تـعـالـىـ:ـ «إـيـاكـ نـعـيـدـ وـإـيـاكـ نـسـتـعـيـنـ»ـ إـنـ كـانـتـ لـلـجـمـعـ فـالـلـدـاعـيـ وـاـحـدـ وـإـنـ كـانـتـ لـلـتـعـظـيمـ فـلـاـ يـنـاسـبـ هـذـاـ الـمـقـامـ؟ـ وـقـدـ أـجـيـبـ بـأـنـ الـمـرـادـ مـنـ ذـلـكـ الـإـخـبـارـ عـنـ جـنـسـ الـعـبـادـ وـالـمـصـلـيـ فـرـدـ مـنـهـمـ وـلـاـ سـيـمـاـ إـنـ كـانـ فـيـ جـمـاعـةـ،ـ أـوـ إـمامـهـمـ فـأـخـبـرـ عـنـ نـفـسـهـ وـعـنـ إـخـوانـهـ الـمـؤـمـنـيـنـ بـالـعـبـادـةـ التـيـ خـلـقـواـ لـأـجـلـهـاـ وـتـوـسـطـ لـهـمـ بـخـيرـ،ـ وـمـنـهـمـ مـنـ قـالـ:ـ يـجـوزـ أـنـ تـكـونـ لـلـتـعـظـيمـ. قـيلـ:ـ إـذـاـ كـنـتـ دـاـخـلـ الـعـبـادـةـ فـأـنـتـ شـرـيفـ وـجـاهـكـ عـرـيـضـ فـقـلـ «إـيـاكـ نـعـبـدـ وـإـيـاكـ نـسـتـعـيـنـ»ـ وـإـنـ كـنـتـ خـارـجـ الـعـبـادـةـ فـلـاـ تـقـلـ نـحـنـ وـلـاـ فـعـلـنـاـ وـلـوـ كـنـتـ فـيـ مـائـةـ أـلـفـ أـلـفـ لـأـحـيـاجـ الـجـمـيعـ إـلـىـ اللـهـ عـزـ وـجـلـ وـفـقـرـهـمـ إـلـيـهـ. وـمـنـهـمـ مـنـ قـالـ:ـ «إـيـاكـ نـعـبـدـ أـلـطـفـ فـيـ التـوـاضـعـ مـنـ إـيـاكـ عـبـدـنـاـ لـمـاـ فـيـ الثـانـيـ مـنـ تـعـظـيمـ نـفـسـهـ مـنـ جـعـلـهـ نـفـسـهـ وـحـدـهـ أـهـلـاـ»

(١) البخاري (توحيد، باب ٤٨) ومسلم (صلوة، حديث ٣٤).

(٢) صحيح مسلم، صلاة، حديث ٣٨ و ٤٠.

(٣) أخرجه ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس (الدر المثور ٣٩/١).

ل العبادة الله تعالى الذي لا يستطيع أحد أن يعبد حق عبادته ولا يثنى عليه كما يليق به ، والعبادة مقام عظيم يشرف به العبد لانتسابه إلى جناب الله تعالى كما قال بعضهم : [السريع]

لَا تَدْعُنِي إِلَّا بِإِعْبُدَهَا فَإِنَّهُ أَشَرُّ أَسْمَائِي

وقد سمي الله رسوله ﷺ بعده في أشرف مقاماته فقال : ﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب﴾ [الكهف: ١] ﴿وأنه لما قام عبد الله يدعوه﴾ [الجن: ١٩] ، ﴿سبحان الذي أسرى بعده ليلاً﴾ [الإسراء: ١] فسماه عبداً عند إنزاله عليه وعند قيامه في الدعوة وإسرائه به وأرشده إلى القيام بالعبادة في أوقات يضيق صدره من تكذيب المخالفين حيث يقول : ﴿ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون﴾ فسجح بحمد ربك وكن من الساجدين \* واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾ [الحجر: ٩٧ - ٩٩] وقد حكى الرازي في تفسيره عن بعضهم أن مقام العبودية أشرف من مقام الرسالة لكون العبادة تصدر من الخلق إلى الحق والرسالة من الحق إلى الخلق ، قال : ولأن الله يتولى مصالح عبده والرسول يتولى مصالح أمته ، وهذا القول خطأ والتوجيه أيضاً ضعيف لا حاصل له ولم يتعرض له الرازي بتضييف ولا رد ، وقال بعض الصوفية : العبادة إما لتحصيل ثواب أو درء عقاب ، قالوا : وهذا ليس بطائل إذ مقصوده تحصيل مقصوده ، وإما للترشيف بتکاليف الله تعالى وهذا أيضاً عندهم ضعيف ، بل العالى أن يعبد الله لذاته المقدسة الموصوفة بالكمال ، قالوا : ولهاذا يقول المصلي : أصلى الله ، ولو كان لتحصيل الثواب ودرء العقاب لبطلت الصلاة وقد رد ذلك عليهم آخرون وقالوا : كون العبادة لله عز وجل لا ينافي أن يطلب معها ثواباً ولا أن يدفع عندياً كما قال ذلك الأعرابي : أما أني لا أحسن دندنك ولا دندنة معاذ إنما أسأل الله الجنة وأعوذ به من النار فقال النبي ﷺ «حولها ندندن»<sup>(١)</sup>.

### أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ

قراءة الجمهور بالصاد وقرئ السراط وقرئ بالزاي ، قال الفراء : وهي لغة بني عذرة وبني كلب . لما تقدم الثناء على المسؤول تبارك وتعالى ناسب أن يعقب بالسؤال كما قال : «فتصفها لي وتصفها لعبدي ولعبي ما سأّل» وهذا أكمل أحوال السائل أن يمدح مسؤوله ثم يسأل حاجته وحاجة إخوانه المؤمنين بقوله : ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ لأنه أنجح للحاجة وأنجح للإجابة ، ولهاذا أرشد الله إليه لأنه الأكمل ، وقد يكون السؤال بالإخبار عن حال السائل واحتياجه كما قال موسى عليه السلام ﴿رَبِّنِي لَمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ﴾ [القصص: ٢٤] وقد يتقدمه مع ذلك وصف المسؤول كقول ذي النون ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سَبَّاحُكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ وقد يكون بمجرد الثناء على المسؤول كقول الشاعر : [الوافر]

(١) الحديث أخرجه أحمـد في المسند (ج ٥ ص ٣٨٦) عن بعض أصحاب النبي وأخرجه أبو داود (صلاة، باب ١٢٤) وابن ماجـه (إقامة، باب ٤٦؛ ودعاـء، باب ٤).

أذكر حاجتي ألم قد كفاني حياؤك إن شيمتك الحياة  
إذا أئنى عليك المرء يوماً كفاه من تعرضه النساء  
والهداية هننا الإرشاد والتوفيق، وقد تعدى الهداية بنفسها كما هنا «أهدنا الصراط المستقيم» فتضمن معنى ألهمنا أو وفقنا أو أرزقنا أو أعطنا «وهديناه النجدين» [البلد: ١٠] أي بينما له الخير والشر، وقد تعدى إلى قوله تعالى: «اجتباه ودهاه إلى صراط مستقيم» [النحل: ١٢١] «فأهدوهم إلى صراط الجحيم» [الصافات: ٢٣] وذلك بمعنى الإرشاد والدلالة وكذلك قوله « وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم» [الشورى: ٥٢] وقد تعدى باللام كقول أهل الجنة «الحمد لله الذي هدانا لهذا» [الأعراف: ٤٣] أي وفقنا لهذا وجعلنا له أهلاً.

وأما الصراط المستقيم فقال الإمام أبو جعفر بن جرير<sup>(١)</sup>: أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعاً على أن الصراط المستقيم هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه وكذلك في لغة جميع العرب، فمن ذلك قول جرير بن عطيه الخطفي: [الوافر]

### أمير المؤمنين على صراط إذا اعوج الموارد مستقيماً<sup>(٢)</sup>

قال: والشاهد على ذلك أكثر من أن تحصر. قال: ثم تستعير العرب الصراط فستعمله في كل قول وعمل وصف باستقامة أو اعوجاج فتصف المستقيم باستقامته والمعوج باعوجاجه. ثم اختللت عبارات المفسرين من السلف والخلف في تفسير الصراط، وإن كان يرجع حاصلها إلى شيء واحد وهو المتابعة لله وللسoul، فروي أنه كتاب الله، قال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة حدثني يحيى بن يمان عن حمزة الزيارات عن سعد وهو أبو المختار الطائي عن ابن أخي الحارث الأعور عن الحارث الأعور عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «الصراط المستقيم كتاب الله» وكذلك رواه ابن جرير<sup>(٣)</sup> من حديث حمزة بن حبيب الزيارات. وقد تقدم في فضائل القرآن فيما رواه أحمد والترمذى<sup>(٤)</sup> من رواية الحارث الأعور عن علي مرفوعاً «وهو جبل الله المتنى وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم» وقد روي هذا موقعاً عن علي رضي الله عنه وهو أشبه والله أعلم. وقال الثوري عن منصور عن أبي وائل عن عبد الله قال: الصراط المستقيم كتاب الله، وقيل هو الإسلام. قال الضحاك عن ابن عباس قال: قال جبريل لمحمد عليهما السلام «قل يا محمد أهدنا الصراط المستقيم» يقول: أهدنا الطريق الهادي وهو

(١) تفسير الطبرى ١/١٠٣.

(٢) البيت لجرير في ديوانه ص ٢١٨؛ وتهذيب اللغة ١٢/٣٣٠؛ وتأج العروس (ورد)؛ وجمهرة اللغة ص ٧١٤؛ ومقاييس اللغة ٦/١٠٥؛ وأساس البلاغة (ورد)؛ ولسان العرب (ورد، سرط)؛ ومجمل اللغة ٥٢٢/٤.

(٣) تفسير الطبرى ١/١٠٤.

(٤) الترمذى، ثواب القرآن، باب ١٤.

دين الله الذي لا اعوجاج فيه. وقال ميمون بن مهران عن ابن عباس في قوله تعالى : «اهدنا الصراط المستقيم» قال : ذاك الإسلام . وقال إسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمданى عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ اهدا الصراط المستقيم قالوا : هو الإسلام . وقال عبد الله بن محمد بن عقيل عن جابر اهدا الصراط المستقيم قال : هو الإسلام قال : هو أوسط مما بين السماء والأرض . وقال ابن الحنفية في قوله تعالى «اهدنا الصراط المستقيم» قال : هو دين الله الذي لا يقبل من العباد غيره . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : اهدا الصراط المستقيم قال : هو الإسلام . وفي هذا الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده<sup>(١)</sup> حيث قال : حدثنا الحسن بن سوار أبو العلاء حدثنا ليث يعني ابن سعد عن معاوية بن صالح أن عبد الرحمن بن جبير بن ثقيف حدثه عن أبيه عن النواس بن سمعان عن رسول الله ﷺ قال : «ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً وعلى جنبي الصراط سوران فيهما أبواب مفتوحة وعلى الأبواب ستور مربخة وعلى باب الصراط داع يقول يا أيها الناس ادخلوا الصراط جميعاً ولا تعوجوا<sup>(٢)</sup> »، وداع يدعوك من فوق الصراط فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال : ويحك لا تفتحه – فإنك إن تفتحه تلجه – فالصراط الإسلام والسوران حدود الله والأبواب المفتوحة محارم الله وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله والداعي من فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم » وهكذا رواه ابن أبي حاتم وابن جرير من حديث الليث بن سعد به . ورواه الترمذى والنسائى جميعاً عن علي بن حجر عن بقية عن بجير بن سعد عن خالد بن معدان عن جبير بن ثقيف عن النواس بن سمعان به ، وهو إسناد حسن صحيح والله أعلم . وقال مجاهد : اهدا الصراط المستقيم قال : الحق . وهذا أشمل ولا منافاة بينه وبين ما تقدم . وروى ابن أبي حاتم وابن جرير من حديث أبي النضر هاشم بن القاسم ، حدثنا حمزة بن المغيرة عن عاصم الأحول عن أبي العالية «اهدنا الصراط المستقيم» قال هو النبي ﷺ وصحابه من بعده . قال عاصم فذكرنا ذلك للحسن فقال صدق أبو العالية ونصح<sup>(٣)</sup> . وكل هذه الأقوال صحيحة وهي متلازمة فإن من اتبع الإسلام فقد اتبع النبي ﷺ واقتدى باللذين من بعده أبي بكر وعمر فقد اتبع الحق ومن اتبع الحق فقد اتبع الإسلام ومن اتبع الإسلام فقد اتبع القرآن وهو كتاب الله وحبله المtin وصراطه المستقيم ، فكلها صحيحة يصدق بعضها ببعضاً ، والله الحمد . وقال الطبراني حدثنا محمد بن الفضل السقطي حدثنا إبراهيم بن مهدي المصيصي حدثنا يحيى بن زكريا بن أبي زائدة عن الأعمش عن أبي وائل عن عبد الله قال : الصراط المستقيم الذي تركنا عليه رسول الله ﷺ . ولهذا قال الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله : والذي

(١) المسند ج ٦ ص ١٩٩.

(٢) في المسند «ولا تفرقجو» ،

(٣) تفسير الطبرى ١ / ١٠٥ .

هو أولى بتأويل هذه الآية عندي أعني - اهداي الصراط المستقيم - أن يكون معنيا به : وفتنا للثبات على ما ارتضيته ووقفت له من أنعمت عليه من عبادك من قول وعمل ذلك هو الصراط المستقيم لأن من وفق لما وفق له مَنْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشَّهِداءِ وَالصَّالِحِينَ فقد وفق للإسلام وتصديق الرسل والتمسك بالكتاب والعمل بما أمره الله به والانزجار عما زجره عنه واتباع منهج النبي ﷺ ومنهاج الخلفاء الأربع، وكل عبد صالح وكل ذلك من الصراط المستقيم<sup>(١)</sup>.

فإن قيل فكيف يسأل المؤمن الهدایة في كل وقت من صلاة وغيرها وهو متصرف بذلك ؟ فهل هذا من باب تحصيل الحاصل أم لا ؟

فالجواب أن لا ، ولو لا احتياجه ليلاً ونهاراً إلى سؤال الهدایة لما أرشده الله تعالى إلى ذلك ، فإن العبد مفتقر في كل ساعة وحالة إلى الله تعالى في تثبيته على الهدایة ورسوخه فيها وتبصره وازيداته منها واستمراره عليها فإن العبد لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً إلا ما شاء الله فأرشده تعالى إلى أن يسأله في كل وقت أن يمدّه بالمعونة والثبات والتوفيق ، فالسعيد من وفقه الله تعالى لسؤاله فإنه قد تكفل بياجابة الداعي إذا دعاه ولا سيما المضطرب المحتاج المفتقر إليه آناء الليل وأطراف النهار ، وقد قال تعالى : «بِأَيْمَانِ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِهِ» [ النساء : ١٣٦] فقد أمر الذين آمنوا بالإيمان وليس ذلك من باب تحصيل الحاصل لأن المراد الثبات والاستمرار والمداومة على الأعمال المعينة على ذلك والله أعلم . وقال تعالى أمراً لعباده المؤمنين أن يقولوا : «رَبُّنَا لَا تَزُغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا وَهُبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَابُ» [آل عمران : ٨] وقد كان الصديق رضي الله عنه يقرأ بهذه الآية في الركعة الثالثة من صلاة المغرب بعد الفاتحة سراً، فمعنى قوله تعالى «اهداي الصراط المستقيم» استمر بنا عليه ولا تعدل بنا إلى غيره .

### صِرَاطُ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرَ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ

قد تقدم الحديث فيما إذا قال العبد «اهداي الصراط المستقيم» إلى آخرها أن الله يقول «هذا لعبي ولعبي ما سأله» وقوله تعالى : «صِرَاطُ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ» مفسر للصراط المستقيم وهو بدل منه عند النحوة ويجوز أن يكون عطف بيان والله أعلم . والذين أنعم الله عليهم هم المذكورون في سورة النساء حيث قال تعالى : «وَمَنْ يَطِعَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشَّهِداءِ وَالصَّالِحِينَ وَحْسَنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا \* ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيَّمًا» [ النساء : ٦٩ - ٧٠] وقال الضحاك عن ابن عباس : صراط الذين أنعمت عليهم بطاعتكم وعبادتك وأنبائك والصديقين والشهداء والصالحين . وذلك نظير

ما قال ربنا تعالى: «ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم» الآية. وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس «صراط الذين أنعمت عليهم» قال: هم النبيون، وقال ابن جريج عن ابن عباس: هم المؤمنون، وكذا قال مجاهد وقال وكيع: هم المسلمين، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هم النبي ﷺ ومن معه، والتفسير المتقدم عن ابن عباس رضي الله عنهما أعلم وأشمل والله أعلم.

وقوله تعالى: «غير المغضوب عليهم ولا الضالين» قرأ الجمهور (غير) بالجر على النعت، قال الزمخشري: وقرئ بالنصب على الحال، وهي قراءة رسول الله ﷺ وعمر بن الخطاب، ورويَت عن ابن كثير<sup>(١)</sup> ذو الحال الضمير في عليهم والعامل أنعمت والمعنى: اهدا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم ممن تقدم وصفهم ونعتهم وهم أهل الهدایة والاستقامة والطاعة لله ورسله وامثال أوامره وترك نواهيه وزواجه غير صراط المغضوب عليهم الذين فسدت إرادتهم فللموا الحق وعدلوا عنه ولا صراط الضالين وهو الذين فقدوا العلم فهم هائمون في الضلال لا يهتدون إلى الحق. وأكد الكلام بلا ليدل على أن ثم مسلكين فاسدين وهما طريقتا اليهود والنصارى، وقد زعم بعض النحاة أن غير هنَا استثنائية فيكون على هذا منقطعاً لاستثنائهم من المنعم عليهم وليسوا منهم، وما أوردناه أولى لقول الشاعر: [الوافر]

كأنك من جمال بني أقيش يقعّع عند رجلٍ بشن<sup>(٢)</sup>

أي كأنك جمل من جمال بني أقيش فحذف الموصوف واكتفى بالصفة، وهكذا. غير المغضوب عليهم، أي غير صراط المغضوب عليهم. واكتفى بالمضارف إليه عن ذكر المضاف، وقد دل سياق الكلام وهو قوله تعالى: «اهدا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم» ثم قال تعالى: «غير المغضوب عليهم» ومنهم من زعم أن لا في قوله تعالى «ولا الضالين» زيادة وأن تقدير الكلام عنده: غير المغضوب عليهم والضالين واستشهد ببيت العجاج: [الرجز]

في بئر لا حور سرى وما شعر<sup>(٣)</sup>

(١) هو عبد الله بن كثير، القاريء المتفوى سنة ١٢٠ هـ.

(٢) البيت للتابعة الذبياني في ديوانه ص ١٢٦؛ وخزانة الأدب ٦٧/٥؛ وشرح أبيات سيبويه ٥٨/٢؛ وشرح المفصل ٥٩/٣؛ والكتاب ٣٤٥/٢؛ ولسان العرب (وقش، قع، شن)؛ والمقاصد التحوية ٦٧/٤. والبيت قاله التابعة في هجاء عبيدة بن حصن الفزارى يصفه بالجين والخور كأنه جمل من جمال بني أقيش المعروفة بشدة النفار إذا سمعت صوت شن (قربة بالية) يتعقع به.

(٣) تتمة الرجز: «يا فكه حتى رأى الصبح جَشْ». وهو للعجاج في ديوانه ٢٠؛ والأزهية ص ١٥٤؛ والأشباه النظائر ١٦٤/٢؛ وخزانة الأدب ٤/٥١؛ وشرح المفصل ١٢٦/٨؛ وتأج العروس (حور، لا)؛ وتهذيب اللغة ٢٢٨/٥؛ ولسان العرب (حور). قال في اللسان: أراد: في بئر لا حُؤُور، فأسكن الواو الأولى وحذفها لسكونها وسكون الثانية بعدها. قال الفراء: أراد في بئر ماء لا يحيى عليه شيئاً. وحار يحور حوراً وحُؤُوراً: رجع. وفي الحديث: «من دعا رجلاً بالكفر وليس كذلك حار عليه» أي =

أي في بئر حور، وال الصحيح ما قدمناه، ولهذا روى أبو القاسم بن سلام في كتاب فضائل القرآن عن أبي معاوية عن الأعمش عن إبراهيم عن الأسود عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان يقرأ (غير المغضوب عليهم وغير الضالين) وهذا الإسناد صحيح، وكذلك حكي عن أبي بن كعب أنه قرأ كذلك، وهو محمول على أنه صدر منهما على وجه التفسير، فيدل على ما قلناه من أنه إنما جيء بها لتأكيد النبي لثلا يتوجهون أنه معطوف على الذين أنعمت عليهم، وللفرق بين الطريقتين ليتجنب كل منهما فإن طريقة أهل الإيمان مشتملة على العلم بالحق والعمل به، واليهود فقدوا العمل، والنصارى فقدوا العلم، ولهذا كان الغضب لليهود والضلال للنصارى، لأن من علم وترك استحق الغضب خلاف من لم يعلم، والنصارى لما كانوا قاصدين شيئاً لكنهم لا يهتدون إلى طريقه لأنهم لم يأتوا الأمر من بابه، وهو اتباع الرسول الحق، ضلوا، وكل من اليهود والنصارى ضال مغضوب عليه، لكن أخص أوصاف اليهود الغضب كما قال تعالى عنهم «من لعنه الله وغضب عليه» [المائدة: ٦٠] وأخص أوصاف النصارى الضلال كما قال تعالى عنهم «قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سوء السبيل» [المائدة: ٧٧] وبهذا جاءت الأحاديث والأثار وذلك واضح بين فيما قال الإمام أحمد<sup>(١)</sup>: حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة قال سمعت سماك بن حرب يقول: سمعت عباد بن حبيش يحدث عن عدي بن حاتم، قال: جاءت خيل رسول الله ﷺ فأخذوا عمتي وناساً فلما أتوا بهم إلى رسول الله ﷺ صفوا له فقالت: يا رسول الله، نأى الواسف وانقطع الولد وأنا عجوز كبيرة ما بي من خدمة فمن علي من الله عليك، قال «من وافقك؟» قالت عدي بن حاتم، قال «الذى فر من الله ورسوله» قالت فمن علي، فلما رجع ورجل إلى جنبه ترى أنه علي، قال: سليه حملاناً فسألته فأمر لها، قال فأتني فقالت: لقد فعلت فعلة ما كان أبوك يفعلها فإنه قد أتاها فلان فأصاب منه وأتاه فلان فأصاب منه فأتته فإذا عنده امرأة وصبيان، وذكر قربهم من النبي ﷺ قال: فعرفت أنه ليس بملك كسرى ولا قيسار، فقال «يا عدي ما أفرك؟ أن يقال لا إله إلا الله؟ فهل من إله إلا الله؟ ما أفرك أن يقال الله أكبر فهل شيء أكبر من الله عز وجل؟» قال: فأسلمت، فرأيت وجهه استبشر وقال: «إن المغضوب عليهم اليهود وإن الضالين النصارى»<sup>(٢)</sup>، وذكر الحديث ورواه الترمذى من حديث سماك بن حرب<sup>(٣)</sup>، وقال حسن غريب لا نعرفه إلا من حديثه: قلت: وقد رواه حماد بن سلمة عن

= رجع إليه ما نسب إليه.

(١) المستند ج ٧ ص ٩٨ — ٩٩

(٢) ولهذا الحديث بقية تُنظر في مظتها المشار إليها. وعدي هذا هو ابن حاتم الطائي الجواد المشهور. كان نصرانياً وقد فرَّ لما بُعث النبي، ثم رجع وأسلم سنة ٩ هـ وحسن إسلامه وصحبه. وقد قام في حرب الربدة بأعمال كبيرة حتى قال ابن الأثير؛ خير مولود في أرض طيء وأعظمه بركة عليهم (الأعلام ٤/٢٢٠).

(٣) الترمذى، كتاب التفسير، سورة الفاتحة . ١٠١

مرئي بن قطري عن عدي بن حاتم قال: سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى «غير المغضوب عليهم» قال: هم اليهود **(ولا الضالين)** قال: النصارى هم الضالون. وهكذا رواه سفيان بن عيينة عن إسماعيل بن أبي خالد عن الشعبي عن عدي بن حاتم به، وقد روی حديث عدي هذا من طرق وله ألفاظ كثيرة يطول ذكرها. وقال عبد الرزاق: وأخبرنا معمر عن بدبل العقيلي أخبرني عبد الله بن شقيق أنه أخبره من سمع رسول الله ﷺ وهو بوادي القرى وهو على فرسه وسأله رجل منبني القين فقال: يا رسول الله من هؤلاء؟ قال: المغضوب عليهم وأشار إلى اليهود والضالون هم النصارى. وقد رواه الجريري وعروة وخالف الحذاء عن عبد الله بن شقيق فأرسلوه ولم يذكروا من سمع من النبي ﷺ ووقع في رواية عروة تسمية عبد الله بن عمر فالله أعلم. وقد روی ابن مردویه من حديث إبراهيم بن طهمان عن بدبل بن ميسرة عن عبد الله بن أعلم. قال: سألت رسول الله ﷺ عن المغضوب عليهم قال: اليهود، قلت: الضالين شقيق عن أبي ذر قال: سألت رسول الله ﷺ عن المغضوب عليهم قال: الضالين ابن مسعود، وعن أناس من أصحاب النبي ﷺ: غير المغضوب عليهم هم اليهود ولا الضالين هم النصارى. وقال الضحاك وابن جريج عن ابن عباس: غير المغضوب عليهم هم اليهود ولا الضالين النصارى، وكذلك قال الربيع بن أنس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغير واحد، وقال ابن أبي حاتم: ولا أعلم بين المفسرين في هذا اختلافاً.

وشاهد ما قاله هؤلاء الأئمة من أن اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون، الحديث المقدم، وقوله تعالى في خطابه مع بني إسرائيل في سورة البقرة **(بئس ما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياناً أن ينزل الله من فضلاته على من يشاء من عباده فإباءاً بغضبه على غضب وللكافرين عذاباً مهيناً)** [البقرة: ٩٠] وقال في المائدة **(قل هل أنتكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضبه عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكاناً وأضل عن سوء السبيل)** [المائدة: ٦٠] وقال تعالى: **(لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا و كانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون)** [المائدة: ٧٨ - ٧٩] وفي السيرة<sup>(١)</sup> عن زيد بن عمرو بن نفيل أنه لما خرج هو وجماعة من أصحابه إلى الشام يطلبون الدين الحنيف قالت له اليهود: إنك لن تستطيع الدخول معنا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله، فقال: أنا من غضب الله أفر، وقالت له النصارى إنك لن تستطيع الدخول معنا حتى تأخذ بنصيبك من سخط الله، فقال: لا أستطيعه. فاستمر على فطرته وجانب عبادة الأوّلان ودين المشركين ولم يدخل مع أحد من اليهود ولا النصارى، وأما أصحابه فتنصروا ودخلوا في دين النصرانية لأنهم وجدهم أقرب من دين اليهود إذ ذاك، وكان منهم ورقة بن نوفل حتى هداه الله بنبيه لما بعثه آمن بما وجد من الوحي رضي الله عنه.

(١) السيرة النبوية لأبن هشام، ج ١ ص ٢٢٤ — ٢٣٢.

[مسألة] والصحيح من مذاهب العلماء أنه يغتفر الإخلال بتحرير ما بين الضاد والظاء لقرب مخرجيهما، وذلك أن الضاد نخرجها من أول حافة اللسان وما يليها من الأض aras، ومخرج الظاء من طرف اللسان وأطراف الثنایا العليا ولأن كلا من الحروف المجهورة ومن الحروف الرخوة ومن الحروف المطبقة فلهذا كله اغتفر استعمال أحدهما مكان الآخر لمن لا يميز ذلك والله أعلم، وأما حديث أنا أفصل من نطق بالضاد فلا أصل له والله أعلم.

### [فصل في معاني هذه السورة]

اشتملت هذه السورة الكريمة وهي سبع آيات على حمد الله وتمجيده والثناء عليه بذكر أسمائه الحسنی المستلزم لصفاته العليا وعلى ذكر المعاد وهو يوم الدين وعلى إرشاده عباده إلى سؤاله والتضرع إليه والتبرؤ من حولهم وقوتهم إلى إخلاص العبادة له وتوحیده بالألوهية تبارك وتعالى وتزییهه أن يكون له شريك أو نظير أو مماثل، وإلى سؤالهم إیاه الهدایة إلى الصراط المستقیم وهو الدين القویم وتبییتم علیه حتی یفضی بهم بذلك إلى جواز الصراط الحسی يوم القيمة المفضی بهم إلى جنات النعیم في جوار النبین والصدیقین والشہداء الصالحین، واشتملت على الترغیب في الأعمال الصالحة ليكونوا مع أهلها يوم القيمة، والتحذیر من مساکل الباطل لثلا يحشروا مع سالکیها يوم القيمة، وهم المغضوب عليهم والضالون. وما أحسن ما جاء إسناد الإنعام إليه في قوله تعالى ﴿صِرَاطُ الَّذِينَ أَعْسَتُ عَنْهُمْ﴾ وحذف الفاعل في الغضب في قوله تعالى ﴿غَيْرُ المَغْضُوبِ عَنْهُمْ﴾ وإن كان هو الفاعل لذلك في الحقيقة كما قال تعالى ﴿أَلمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْ قَوْمًا غَضَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [المجادلة: ١٤]. وكذلك إسناد الضلال إلى من قام به وإن كان هو الذي أضلهم بقدره كما قال تعالى ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمَهْتَدُ وَمَنْ يُضْلَلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مَرْشِدًا﴾ [الکھف: ١٧] وقال ﴿مَنْ يَضْلِلُ اللَّهُ فَلَا هَادِي لَهُ وَيَذْرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٦] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنه سبحانه هو المنفرد بالهدایة والإضلال لا كما تقول الفرقۃ القردیۃ<sup>(۱)</sup> ومن حذا حذوهم من أن العباد هم الذين يختارون ذلك ويفعلون ويحتاجون على بدعتهم بمتشابه من القرآن ويترکون ما يكون فيه صریحاً في الرد عليهم: وهذا حال أهل الضلال والغی وقد ورد في الحديث الصحيح «إذا رأیتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمی الله فاحذروهم» يعني في قوله تعالى ﴿فَآمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ

(۱) القردیۃ: جماعة من التابعين قالوا بحرية الإرادة وقدرة الإنسان على أعماله. رددوا هذا في الشام والعراق، وكان على رأسهم معبد الجھنی وغیلان الدمشقی، وهم ضد الجبریة. مهدوا للمعتزلة وتلاشوا فيهم. ويسمی المعتزلة أحياناً القردیۃ. أما الجبریة منهم طائفۃ ظهرت في القرن الأول المھرجی وكان على رأسهم جھنم بن صفوان، ويسمون أيضاً الجھنیۃ؛ يقولون إن الإنسان مجری لا اختيار له ولا قدرة وأن الله قدر الأفعال أولاً وخلقه. عارضهم المعتزلة لأنهم يعطّلون الجزاء ويلغون المسؤولیة. (انظر الموسوعة العربية الميسرة ص ٦١٢ و ١٣٧١).

ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله》 [آل عمران: ٧] فليس، بحمد الله، لمبتدع في القرآن حجة صحيحة لأن القرآن جاء لفصل الحق من الباطل مفرقاً بين الهدى والضلال وليس فيه تناقض ولا اختلاف لأنه من عند الله تنزيل من حكيم حميد.

### [فصل في التأمين]

يستحب لمن يقرأ الفاتحة أن يقول بعدها آمين، مثل يس، ويقال آمين بالقصر أيضاً، ومعناه: اللهم استجب. والدليل على استحباب التأمين ما رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذى عن وائل بن حجر قال: سمعت النبي ﷺ قرأ «غير المغضوب عليهم ولا الضالين» فقال آمين مد بها صوته<sup>(١)</sup>، ولأبي داود: رفع بها صوته، وقال الترمذى هذا حديث حسن، وروي عن علي وابن مسعود وغيرهم. وعن أبي هريرة قال: كان رسول الله ﷺ إذا تلا «غير المغضوب عليهم ولا الضالين» قال «آمين» حتى يسمع من يليه من الصف الأول، رواه أبو داود وابن ماجه وزاد فيه: فيرج بها المسجد. والدارقطنى وقال: هذا إسناد حسن. وعن بلال أنه قال: يا رسول الله لا تسبقني بآمين، رواه أبو داود، ونقل أبو نصر القشيري عن الحسن وجعفر الصادق أنهما شددا الميم من آمين مثل «آمين البيت الحرام» [المائدة: ٢] قال أصحابنا وغيرهم: ويستحب ذلك لمن هو خارج الصلاة، ويتأكد في حق المصلي، وسواء كان منفرداً أو إماماً أو مأموماً، وفي جميع الأحوال لما جاء في الصحيحين<sup>(٢)</sup> عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «إذا آمن الإمام فأمنوا فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه» ولمسلم أن رسول الله ﷺ قال: «إذا قال أحدكم في الصلاة آمين والملائكة في السماء آمين فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه»<sup>(٣)</sup> قيل بمعنى من وافق تأمينه تأمين الملائكة في الزمان، وقيل في الإجابة، وقيل في صفة الإخلاص. وفي صحيح مسلم عن أبي موسى مرفوعاً «إذا قال - يعني الإمام - ولا الضالين فقولوا آمين يجبركم الله»<sup>(٤)</sup> وقال جوير عن الضحاك عن ابن عباس قال: قلت: يا رسول الله ما معنى آمين؟ قال «رب افعل» وقال الجوهري: معنى آمين كذلك فليكن. وقال الترمذى معناه: لا تخيب رجاءنا. وقال الأكثرون معناه: اللهم استجب لنا. وحكى القرطبي عن مجاهد وجعفر الصادق وهلال بن يساف أن آمين اسم من أسماء الله تعالى، وروي عن ابن عباس مرفوعاً ولا يصح، قاله أبو بكر بن العربي المالكي. وقال أصحاب مالك: لا يؤمن الإمام ويؤمن المؤمن لما رواه مالك عن سمي عن أبي صالح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال «إذا قال - يعني الإمام - ولا الضالين فقولوا آمين» الحديث. واستأنسوا أيضاً

(١) مسند أحمد، ج ٦ ص ٤٧٣ . ك

(٢) صحيح البخاري (أذان باب ١١١، ودعوات باب ٤) ومسلم (صلاة حدیث ٧٣).

(٣) صحيح مسلم (صلاة حدیث ٧٤ — ٧٦).

(٤) صحيح مسلم (صلوة حدیث ٢٦، ٨٧).

ب الحديث أبي موسى عند مسلم: كان يؤمن إذا قرأ **﴿غَيْرُ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾** وقد قدمنا في المتفق عليه **«إذا أمن الإمام فأمنوا»** وأنه عليه الصلاة والسلام كان يؤمن إذا قرأ **﴿غَيْرُ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾**.

وقد اختلف أصحابنا في الجهر بالتأمين للمأمور في الجهرية، وحاصل الخلاف أن الإمام إن نسي التأمين جهر المأمور به قوله واحداً، وإن أمن الإمام جهراً فالجديد أن لا يجهر المأمور وهو مذهب أبي حنيفة، ورواية عن مالك: لأنه ذكر من الأذكار فلا يجهر به كسائر أذكار الصلاة، والقديم أنه يجهر به وهو مذهب الإمام أحمد بن حنبل والرواية الأخرى عن مالك لما تقدم «حتى يرجح المسجد» ولنا قول آخر ثالث أنه إن كان المسجد صغيراً لم يجهر المأمور لأنهم يسمعون قراءة الإمام وإن كان كبيراً جهر ليبلغ التأمين من في أرجاء المسجد والله أعلم. وقد روى الإمام أحمد في مسنده عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ ذكرت عنده اليهود فقال «إنهم لن يحسدوننا على شيء كما يحسدوننا على الجمعة التي هدانا الله لها وضلوا عنها وعلى القبلة التي هدانا الله لها وضلوا عنها وعلى قولنا خلف الإمام أمين» رواه ابن ماجه ولفظه «ما حسدتكم اليهود على شيء ما حسدتكم على السلام والتأمين»<sup>(١)</sup> وله عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال «ما حسدتكم اليهود على شيء ما حسدتكم على قول أمين فأكثروا من قول أمين» وفي إسناده طلحة بن عمرو<sup>(٢)</sup> وهو ضعيف، وروى ابن مردويه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال «أمين خاتم رب العالمين على لسان عباد المؤمنين»<sup>(٣)</sup> وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ «أعطيت أمين في الصلاة وعند الدعاء لم يعط أحد قبلي إلا أن يكون موسى، كان موسى يدعوه وهارون يؤمن فاختتموا الدعاء بأمين فإن الله يستجيبه لكم» (قلت) ومن هنا نزع بعضهم في الدلالة بهذه الآية الكريمة وهي قوله تعالى: **﴿وَقَالَ مُوسَى رَبِّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فَرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبِّنَا لِيَضْلُّوْا عَنْ سَبِيلِنَا اطْمَسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشدَّ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يُرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾** قال قد أجبت دعوتكم فاستقموا ولا تتبعوا سبيل الذين لا يعلمون» [يونس: ٨٨ - ٨٩] ذكر الدعاء عن موسى وحده ومن سياق الكلام ما يدل على أن هارون أمن فنزل منزلة من دعا لقوله تعالى **﴿قَدْ أَجَبْتَ دُعَوْتَكُمَا﴾** فدل ذلك على أن من أمن على دعاء فكأنما قاله، فلهذا قال من قال: إن المأمور لا يقرأ لأن تأمينه على قراءة الفاتحة بمنزلة قراءتها، ولهذا جاء في الحديث «من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة» رواه أحمد في مسنده<sup>(٤)</sup>. وكان بلال يقول:

(١) ابن ماجه (إقامة باب ١٤).

(٢) هو طلحة بن عمرو بن عثمان الحضرمي المكي المتوفى سنة ١٥٢. من الطبقة السابعة. متوفى.

(موسوعة رجال الكتب التسعة ٢٠٦/٢).

(٣) الدر المثور ١/٤٤). قال السيوطي: بسنده ضعيف.

(٤) المستند ج ٥ ص ١٠٠. رواه من حديث جابر بن عبد الله مرفوعاً.

لا تسبقني بأمين يا رسول الله. فدل هذا المตزع على أن المأمور لا قراءة عليه في الجهرية والله أعلم. ولهذا قال ابن مردوه: حدثنا أحمد بن الحسن حدثنا عبد الله بن محمد بن سلام حدثنا إسحاق بن إبراهيم حدثنا جرير عن ليث عن ابن أبي سليم عن كعب عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «إذا قال الإمام غير المغضوب عليهم ولا الضالين، فقال أمين، فوافق أمين أهل الأرض أمين أهل السماء غفر الله للعبد ما تقدم من ذنبه، ومثل من لا يقول أمين كمثل رجل غزا مع قوم فاقتربوا فخرجت سهامهم ولم يخرج سهمه فقال لمَ لم يخرج سهمي؟ فقيل إنك لم تقتل أمين»<sup>(١)</sup>.

---

(١) رواه السيوطي في الدر المثمر (٤٤/١) قال: وأخرجه أبو يعلى في مستنده وابن مردوه بسنده جيد عن أبي هريرة.

## تفسير سورة البقرة

### [ذكر ما ورد في فضلها]

قال الإمام أحمد حدثنا عارم حدثنا معتمر عن أبيه عن رجل عن أبيه عن معقل بن يسار أن رسول الله ﷺ قال «البقرة سنام القرآن وذروته». نزل مع كل آية منها ثمانون ملكاً واستخرجت «الله لا إله إلا هو الحي القيوم» من تحت العرش فوصلت بها أو فوصلت بسورة البقرة، ويس قلب القرآن لا يقرؤها رجل يريده الله والدار الآخرة إلا غفر له واقرؤوها على موتاكم»<sup>(١)</sup> انفرد به أحمد. وقد رواه أحمد أيضاً عن عارم عن عبد الله بن المبارك عن سليمان التيمي عن أبي عثمان - وليس بالن Heidi - عن أبيه عن معقل بن يسار قال، قال رسول الله ﷺ «اقرؤوها على موتاكم» يعني يس - فقد تبين بهذا الإسناد معرفة المبهم في الرواية الأولى. وقد أخرج هذا الحديث على هذه الصفة في الرواية الثانية أبو داود والنسائي وابن ماجه، وقد روى الترمذى من حديث حكيم بن جبير وفيه ضعف عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «لكل شيء سنام وإن سنام القرآن سورة البقرة وفيها آية هي سيدة آيات القرآن آية الكرسي»<sup>(٢)</sup> وهي مستند لأحمد وصحيحة مسلم والترمذى والنسائى من حديث سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً فإن البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة لا يدخله الشيطان»<sup>(٣)</sup> وقال الترمذى: حسن صحيح وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: حدثني ابن أبي مريم عن ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب عن سنان بن سعد عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ «إن الشيطان يخرج من البيت إذا سمع سورة البقرة تقرأ فيه»<sup>(٤)</sup> سنان بن سعد ويقال بالعكس، وثقة ابن معين، واستنكر حديثه أحمد بن حنبل وغيره. وقال أبو عبيد: حدثنا محمد بن جعفر عن شعبة عن سلمة بن كهيل عن أبي الأحوص عن عبد الله - يعني ابن مسعود - رضي الله عنه قال: إن الشيطان يفر من البيت يسمع فيه سورة البقرة. ورواه النسائي في «اليوم والليلة» وأخرجه الحاكم في مستدركه من حديث شعبة ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقال ابن مردويه: حدثنا أحمد بن كامل حدثنا أبو

(١) المستند ٧ ص ٢٨٦.

(٢) الترمذى، ثواب القرآن باب ٢.

(٣) هذا لفظ الترمذى. ولفظ أحمد في المستند (ج ٣ ص ١٢٨): «لا تجعلوا بيوتكم مقابر، فإن الشيطان يفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة».

(٤) الدر المثور ١/٤٩.

إسماعيل الترمذى حدثنا أىوب بن سليمان بن بلال حدثني أبو بكر بن أبي أوىيس عن سليمان بن بلال عن محمد بن عجلان عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ «لَا أَلْفِينَ أَحَدُكُمْ يَضْعِفُ إِحْدَى رِجْلَيْهِ عَلَى الْأُخْرَى يَتَغْنِي»<sup>(١)</sup> ويدع سورة البقرة يقرؤها فإن الشيطان يفر من البيت تقرأ فيه سورة البقرة وإن أصفر<sup>(٢)</sup> البيوت الجوف الصفر من كتاب الله<sup>(٣)</sup> وهكذا رواه النسائي في «الاليوم والليلة» عن محمد بن نصر عن أىوب بن سليمان به. وروى الدارمي في مسنده عن ابن مسعود قال: ما من بيت تقرأ فيه سورة البقرة إلا خرج منه الشيطان قوله ضرطاط<sup>(٤)</sup>. وقال إن لكل شيء سناماً وإن سلام القرآن سورة البقرة وإن لكل شيء لباباً وإن لباب القرآن المفصل. وروى أيضاً من طريق الشعبي قال: قال عبد الله بن مسعود: من قرأ عشر آيات من سورة البقرة في ليلة لم يدخل ذلك البيت شيطان تلك الليلة، أربع من أولها وآية الكرسي، وأيام بعدها، وثلاث آيات من آخرها، وفي رواية: لم يقربه ولا أهله يومئذ شيطان، ولا شيء يكرهه، ولا يقرأ على مجنون إلا أفاق. وعن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ «إن لكل شيء سناماً وإن سلام القرآن البقرة وإن من قرأها في بيته ليلة لم يدخله الشيطان ثلاط ليال ومن قرأها في بيته نهاراً لم يدخله الشيطان ثلاثة أيام» رواه أبو القاسم الطبراني وأبو حاتم وابن حبان في صحيحه وابن مردويه من حديث الأزرق بن علي حدثنا حسان بن إبراهيم حدثنا خالد بن سعيد المدنى عن أبي حازم عن سهل به. وقد روى الترمذى والنمسائى وابن ماجه من حديث عبد الحميد بن جعفر عن سعيد المقبرى عن عطاء مولى أبي أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال «بعث رسول الله ﷺ بعثاً وهم ذوو عدد فاستقرأهم فاستقرأ كل واحد منهم ما معه من القرآن فأتى على رجل من أحدهم سنًا فقال: ما ملك يا فلان؟ فقال: معي كذا وكذا وسورة البقرة. فقال: أمعك سورة البقرة إلا أني خشيت أن فأنت أميرهم» فقال رجل من أشرافهم: والله ما معنني أن أتعلم سورة البقرة إلا أني خشيت أن لا أقوم بها. فقال رسول الله ﷺ «تعلموا القرآن فاقرأوه وأقرئوه فإن مثل القرآن لم تعلم فقرأه وقام به كمثل جراب محسوساً يفوح ريحه في كل مكان ومثل من تعلمه فيرقد وهو في جوفه كمثل جراب وُكِيَّةً على مسک» هذا لفظ رواية الترمذى<sup>(٥)</sup> ثم قال هذا حديث حسن ثم رواه من

(١) في الدر المثور «يتغنى» بالعين المهملة وهو الصواب.

(٢) أصفر البيوت: أخلاها. وبيت صفر: خال. وصفر اليدين: خالي اليدين.

(٣) وفي الدر المثور: أخرجه ابن الضريس والنمسائى وابن الأنبارى في المصاحف والطبرانى في الأوسط والصغرى وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان بسند ضعيف عن ابن مسعود.

(٤) رواه السيوطي بأطول من هذا وباختلاف يسير، قال: وأخرجه الدارمى ومحمد بن نصر وابن الضريس والطبرانى والحاكم وصححه والبيهقي في شعب الإيمان.

(٥) الترمذى (ثواب القرآن، باب ٢). قوله: وُكِيَّةً أي ربط. وأصل الوكاء: خيط يربط به في القربة بعد ملتها.

حديث الليث عن سعيد عن عطاء مولى أبي أحمد مرسلاً<sup>(١)</sup> فالله أعلم. قال البخاري : وقال الليث حدثني يزيد بن الهاد عن محمد بن إبراهيم عن أسيد بن حضير رضي الله عنه قال : بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة - وفرسه مربوطة عنده - إذ جالت الفرس ، فسكت فسكت ، فقرأ فجالت الفرس ، فسكت فسكت ثم قرأ فجالت الفرس ، فانصرف ، وكان ابنه يحيى قريباً منها - فأشتفق أن تصيبه فلما أخذه رفع رأسه إلى السماء حتى ما يرها ، فلما أصبح حدث النبي ﷺ فقال «اقرأ يا ابن حضير» قال : قد أشفقت يا رسول الله أن تطاًّ يحيى وكان منها قريباً فرفعت رأسه وانصرفت إليه فرفعت رأسه إلى السماء فإذا مثل الظلة فيها أمثال المصايف فخرجت حتى لا أراها قال «وتدرى ماذاك؟» قال لا قال «تلك الملائكة دنت لصوتك ولو قرأت لأصبحت ينظر الناس إليها لا توارى منهم» وهكذا رواه الإمام العالم أبو عبد القاسم بن سلام في كتاب فضائل القرآن عن عبد الله بن صالح ، ويحيى بن بکير عن الليث به . وقد روی من وجه آخر عن أسيد بن حضير كما تقدم والله أعلم . وقد وقع نحو من هذا ثابت بن قيس بن شمام رضي الله عنه وذلك فيما رواه أبو عبد حدثنا عباد بن عباد عن جرير بن حازم عن عممه جرير بن يزيد أن أشياخ أهل المدينة حدثوه أن رسول الله ﷺ قيل له : ألم تر ثابت بن قيس بن شمام لم تزل داره البارحة تزهـر مصابيح قال «فلعله قرأ سورة البقرة» قال : فسألـت ثابتـاً فقال : قرأت سورة البقرة وهذا إسناد جيد إلا أن فيه إبهاماً ثم هو مرسل والله أعلم .

(ذكر ما ورد في فضلها مع آل عمران)

قال الإمام أحمد : حدثنا أبو نعيم حدثنا بشر بن مهاجر حدثني عبد الله بن بريدة عن أبيه قال : كنت جالساً عند النبي ﷺ فسمعته يقول «تعلموا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا يستطيعها البطلة»<sup>(٢)</sup> قال : ثم سكت<sup>(٣)</sup> ساعة ثم قال «تعلموا سورة البقرة وأل عمران فإنهما الزهراون<sup>(٤)</sup> يظلان صاحبهما يوم القيمة كأنهما غمامتان أو غياثتان<sup>(٥)</sup> أو فرقان من طير صواف<sup>(٦)</sup> وإن القرآن يلقى صاحبه يوم القيمة حين ينشق عنه قبره كالرجل الشاحب فيقول له : هل تعرفيني ؟ فيقول : ما أعرفك فيقول : أنا صاحبك القرآن الذي أظمئتـكـ فيـ الـهـوـاجـرـ وأـسـهـرـتـ لـيـلـكـ ، وإن كل تاجر من وراء تجارته وإنكـ اليـومـ منـ وـرـاءـ كـلـ تـجـارـةـ ، فيـعـطـيـ الـمـلـكـ بـيـمـينـ

(١) وزاد الترمذى هنا أن الليث لم يذكر فيه عن أبي هريرة .

(٢) لا يستطيعها البطلة : لا يقدر على تحصيلها المبطلون أو أهل الباطل . وفي صحيح مسلم : قال معاوية ابن سلام : بلغني أن البطلة السحرة .

(٣) مستند أحمد «مكث» وهو الصواب .

(٤) سميت الزهراوين لنورهما وهدايتها وعظيم أجراهما .

(٥) الغمامـةـ والـغـيـاـةـ بـمـعـنىـ . وـهـمـاـ كـلـ شـيءـ أـظـلـ الإـنـسـانـ فـوـقـ رـأـسـهـ مـنـ سـحـابـةـ وـغـيـرـهـماـ .

(٦) الفرقان : الجماعاتـ أوـ القـطـيعـانـ ، وـاحـدـهـمـاـ فـرـقـ . وـقـوـلـهـ : مـنـ طـيرـ صـوـافـ ، جـمـعـ صـافـةـ وـهـيـ مـنـ الطـيـورـ ما يـسـطـ اـجـنـحـتـهـ فـيـ الـهـوـاءـ .

والخلد بشماله ويوضع على رأسه تاج الوقار ويكسى والدها حُلَّتين لا يقوم لهما أهل الدنيا فيقولان : بمَ كسينا هذا ؟ فيقال : بأخذ ولدكما القرآن ، ثم يقال له : اقرأ واصعد في درج الجنة وغرفها فهو في صعود ما دام يقرأ هذَا كان<sup>(١)</sup> أو ترتيلًا<sup>(٢)</sup> وروى ابن ماجه من حديث بشر بن المهاجر بعضه<sup>(٣)</sup> ، وهذا إسناد حسن على شرط مسلم فإن بثراً هذا خرج له مسلم ووثقه ابن معين وقال النسائي : ما به بأس ، إلا أن الإمام أحمد قال فيه : هو منكر الحديث قد اعتبرت أحاديثه فإذا هي تأتي بالعجب . وقال البخاري : يخالف في بعض حديثه . وقال أبو حاتم الرازى : يكتب حدثه ولا يحتاج به . وقال ابن عدي : روى ما لا يتبع عليه . وقال الدارقطنى : ليس بالقوى . (قلت) ولكن لبعضه شواهد فمن ذلك حديث أبي أمامة الباهلى . قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الملك بن عمرو حدثنا هشام عن يحيى بن أبي كثير عن أبي سلام عن أبي أمامة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول «اقرأوا القرآن فإنه شافع لأهله يوم القيمة اقرأوا الزهراوين البقرة وأل عمران فإنهما يأتيان يوم القيمة كأنهما غمامتان أو كأنهما فرقان من طير صواف يجاجان عن أهلهما» يوم القيمة ثم قال «اقرأوا البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا يستطيعها البطلة»<sup>(٤)</sup> وقد رواه مسلم في الصلاة من حديث معاوية بن سلام عن أخيه زيد بن سلام عن جده أبي سلام ممطرور الحبشي عن أبي أمامة صدي بن عجلان الباهلى به الزهراوان : المنيرتان ، والغياثة : ما أظللك من فوقك ، والفرقُ : القطعة من الشيء ، والصواف المصطفة المتضامنة ، والبطلة السحرة ، ومعنى لا تستطيعها أي لا يمكنهم حفظها وقيل لا تستطيع التفوذ في قارئها والله أعلم . ومن ذلك حديث التواس بن سمعان قال الإمام أحمد<sup>(٥)</sup> : حدثنا يزيد بن عبد ربه حدثنا الوليد بن مسلم عن محمد بن مهاجر عن الوليد بن عبد الرحمن الجُرجاشي عن جبير بن نفير قال : سمعت التواس بن سمعان الكلابي يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول «يؤتى بالقرآن يوم القيمة وأهله الذين كانوا يعملون به تقدمهم سورة البقرة وأل عمران» وضرب لهما رسول الله ﷺ ثلاثة أمثال ما نسيتهن بعد قال «كأنهما غمامتان أو ظلتان سوداوان بينهما شرق<sup>(٦)</sup> كأنهما فرقان من طير صواف يجاجان عن صاحبهما» ورواه مسلم<sup>(٧)</sup> عن

(١) هذَا القرآن : أسرع في قراءته ، وهو غير محمود .

(٢) الحديث رواه أحمد في المسند (ج ٩ ص ٩) .

(٣) وروى مسلم بعضه من حديث أبي أمامة الباهلى مرفوعاً (صحيح مسلم ، كتاب صلاة المسافرين حديث . ٢٥٢).

(٤) مسند أحمد (ج ٨ ص ٢٧٠) .

(٥) المسند (ج ٦ ص ٢٠٠) .

(٦) شرق ، بفتح الراء وإنكاثها : ضياء ونور .

(٧) صحيح مسلم (صلاة المسافرين حديث ٢٥٣) .

إسحاق بن منصور عن يزيد بن عبدربه به، والترمذى<sup>(١)</sup> من حديث الوليد بن عبد الرحمن الجرجشى به وقال: حسن غريب، وقال أبو عبيد: حدثنا حجاج عن حماد بن سلمة عن عبد الملك بن عمير قال: قال حماد أحسبه عن أبي منيب عن عممه أن رجلاً قرأ البقرة وآل عمران فلما قضى صلاته قال له كعب: أقرأت البقرة وآل عمران؟ قال: نعم قال: فوالذي نفسي بيده إن فيما اسم الله الذي إذا دعى به استجاب. قال: فأخبرني به قال: لا والله لا أخبرك به ولو أخبرتك به لأوشكت أن تدعوه بدعوة أهلك فيها أنا وأنت، وحدثنا عبد الله بن صالح عن معاوية بن صالح عن سليم بن عامر أنه سمع أبا أمامة يقول: إن أخاك أنت أري في المنام أن الناس يسلكون في صدع جبل وَعِرْ طويل وعلى رأس الجبل شجرتان خضراء وان يهتفان هل فيكم قارئ يقرأ سورة البقرة؟ وهل فيكم قارئ يقرأ سورة آل عمران؟ قال: فإذا قال الرجل نعم دنتا منه بأعذاكهما<sup>(٢)</sup> حتى يتعلق بهما فيخطران به الجبل، وحدثنا عبد الله بن صالح عن معاوية بن صالح عن أبي عمران أنه سمع أم الدرداء تقول: إن رجلاً من قرأ القرآن أغار على جار له فقتله وإنه أُقيد به فقتل فما زال القرآن ينسن منه سورة حتى بقيت البقرة وآل عمران جمعة ثم إن آل عمران انسلت منه وأقامت البقرة جمعة فقيل لها ﴿مَا يَدْلِيُ اللَّهُ وَمَا أَنَا بِظَلَامٍ لِلْعَبْدِ﴾ [ق: ٢٩] قال فخرجت كأنها السحابة العظيمة. قال أبو عبيد: أراه يعني أنهما كانتا معه في قبره يدفعان عنه ويؤنسانه فكانتا من آخر ما بقي معه من القرآن. وقال أيضاً: حدثنا أبو مسهر الغساني عن سعيد بن عبد العزيز التنوخي أن يزيد بن الأسود الجرجشى كان يحدث أنه من قرأ البقرة وآل عمران في يوم بريء من النفاق حتى يمسى ومن قرأهما في ليلة بريء من النفاق حتى يصبح قال: فكان يقرأهما كل يوم وليلة سوى جزئه. وحدثنا يزيد عن ورقاء بن إياس عن سعيد بن جبير قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: من قرأ البقرة وآل عمران في ليلة كان - أو كتب - من القانتين. فيه انقطاع ولكن ثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ بهما في ركعة واحدة.

### ذكر ما ورد في فضل السبع الطوال

قال أبو عبيد: حدثنا هشام بن إسماعيل الدمشقي عن محمد بن شعيب عن سعيد بن بشير عن قتادة عن أبي المليح عن وائلة بن الأسعق عن النبي ﷺ قال: «أعطيت السبع الطوال مكان التوراة وأعطيت المئين مكان الإنجيل وأعطيت المثاني مكان الزبور وفضلت بالمفصل»<sup>(٣)</sup> هذا حديث غريب وسعيد بن أبي بشير فيه لين. وقد رواه أبو عبيد عن عبد الله بن صالح عن الليث عن سعيد بن أبي هلال قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال فذكره والله أعلم ثم قال: حدثنا إسماعيل بن

(١) الترمذى (ثواب القرآن، باب ٥).

(٢) العذق: عرجون النخل بما فيه من الشماريخ.

(٣) وأخرجه أحمد في المسند (ج ٦ ص ٤٤).

جعفر عن عمرو بن أبي عمرو مولى المطلب بن عبد الله بن حنطب عن حبيب بن هند الإسلامي عن عروة عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال «من أخذ السبع فهو حبر» وهذا أيضاً غريب وحبيب بن هند بن أسماء بن حارثة الإسلامي وروى عنه عمرو بن عبد الله بن أبي بكرة وذكره أبو حاتم الرازي ولم يذكر فيه جرحاً فالله أعلم. وقد رواه الإمام أحمد<sup>(١)</sup> عن سليمان بن داود وحسين كلامها عن إسماعيل بن جعفر به، ورواه أيضاً عن أبي سعيد عن سليمان بن بلال عن حبيب بن هند عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال «من أخذ السبع الأول من القرآن فهو حبر» قال أحمد: وحدثنا حسين حدثنا ابن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي ﷺ مثله قال عبد الله بن أحمد: وهذا أرى أن فيه عن أبيه عن الأعرج ولكن كذا كان في الكتاب فلا أدرى أغفله أبي أو كذا هو مرسل. وروى الترمذى عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ بعث بعثاً وهم ذوو عدد وقدم عليهم أحدهم سناً لحفظه سورة البقرة وقال له: «اذهب فأنت أميرهم» وصححه الترمذى ثم قال أبو عبيد: حدثنا هشيم أبا أبو بشر عن سعيد بن جبیر في قوله تعالى «ولقد آتيناك سبعاً من المثاني» قال هي السبع الطوال البقرة وال عمران والنماء والمائدة والأئم والأعراف ويونس، قال: وقال مجاهد: هي السبع الطوال، وهكذا قال مكحول وعطاء بن قيس وأبو محمد الفارسي وشداد بن أوس ويعيبي بن الحارث الذماري في تفسير الآية بذلك وفي تعدادها وإن يونس هي السابعة.

### فصل — [البقرة نزلت بالمدينة]

والبقرة جميعها مدنية بلا خلاف وهي من أوائل ما نزل بها، لكن قوله تعالى فيه «واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله» الآية يقال إنها آخر ما نزل من القرآن ويتحمل أن تكون منها، وكذلك آيات الربا من آخر ما نزل. وكان خالد بن معدان يسمى البقرة فسطاط القرآن. قال بعض العلماء وهي مشتملة على ألف خبر وألف أمر وألف نهي. وقال العادون آياتها مائتان وثمانون وسبعين آيات وكلماتها ستة آلاف كلمة ومائتان وإحدى وعشرون كلمة وحروفها خمسة وعشرون ألفاً وخمسماة حرف فالله أعلم. قال ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس: نزلت بالمدينة سورة البقرة. وقال خصيف عن مجاهد عن عبد الله بن الزبير قال: نزلت بالمدينة سورة البقرة. وقال الواقدي: حدثني الضحاك بن عثمان عن أبي الزناد عن خارجة بن ثابت عن أبيه قال: نزلت البقرة بالمدينة. وهكذا قال غير واحد من الأئمة والعلماء والمفسرين ولا خلاف فيه. وقال ابن مردويه: حدثنا محمد بن معمر حدثنا الحسن بن علي بن الوليد الفارسي حدثنا خلف بن هشام وحدثنا عيسى بن ميمون عن موسى بن مالك عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ «لاتقولوا

سورة البقرة ولا سورة آل عمران ولا سورة النساء وكذا القرآن كله ولكن قولوا السورة التي يذكر فيها البقرة والتي يذكر فيها آل عمران وكذا القرآن كله» هذا حديث غريب لا يصح رفعه ويعسى بن ميمون هذا هو أبو سلمة الخواص وهو ضعيف الرواية لا يحتاج به وقد ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود أنه رمى الجمرة من بطن الوادي فجعل البيت عن يساره ومني عن يمينه ثم قال هذا المقام الذي أنزلت عليه سورة البقرة. أخرجه. وروى ابن مردويه من حديث شعبة عن عقيل بن طلحة عن عتبة بن مرثد قال: رأى النبي ﷺ في أصحابه تأخراً فقال «يا أصحاب سورة البقرة» وأظن هذا كان يوم حنين يوم ولوا مدربين أمر العباس فناداهم «يا أصحاب الشجرة» يعني أهل بيعة الرضوان وفي رواية «يا أصحاب سورة البقرة» ليشطهم بذلك فجعلوا يقبلون من كل وجه، وكذلك يوم اليمامة مع أصحاب مسلمة جعل الصحابة يفرون لكتافة حشر بن حنيفة فجعل المهاجرون والأنصار يتنددون يا أصحاب سورة البقرة، حتى فتح الله عليهم، رضي الله عن أصحاب رسول الله أجمعين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمَ

قد اختلف المفسرون في الحروف المقطعة التي في أوائل السور فمنهم من قال: هي بما استأثر الله بعلمه، فردوها علمها إلى الله ولم يفسروها، حكاه القرطبي<sup>(١)</sup> في تفسيره عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلى وابن مسعود رضي الله عنهم أجمعين، وقاله عامر الشعبي وسفيان الثوري والربيع بن خيثم و اختاره أبو حاتم بن حبان. ومنهم من فسرها واختلف هؤلاء في معناها فقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم إنما هي أسماء السور. قال العالمة أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري في تفسيره: وعليه إبطاق الأكثر، ونقل عن سيويه أنه نص عليه، ويعتضد لهذا بما ورد في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة «الم» السجدة و«هل أتى على الإنسان»، وقال سفيان الثوري عن ابن أبي نجيح عن مجاهد أنه قال: الم، وحم، والمص، وص. فواتح افتتح الله بها القرآن، وكذا قال غيره عن مجاهد، وقال مجاهد في رواية أبي حذيفة موسى بن مسعود عن شبل عن ابن أبي نجيح عنه أنه قال: الم اسم من أسماء القرآن. وهكذا قال قتادة وزيد بن أسلم، ولعل هذا يرجع إلى معنى قول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنه اسم من أسماء السورة فإن كل سورة يطلق عليها اسم القرآن، فإنه يبعد أن يكون المص اسمًا للقرآن كله لأن المبادر إلى فهم سامع من يقول: قرأت المص إنما ذلك عبارة عن سورة الأعراف لا لمجموع القرآن والله أعلم.

(١) تفسير القرطبي ١٥٤/١.

وقيل هي اسم من أسماء الله تعالى، فقال الشعبي: فواتح السور من أسماء الله تعالى. وكذلك قال سالم بن عبد الله وإسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير وقال شعبة عن السدي: بلغني أن ابن عباس قال: الم اسم من أسماء الله الأعظم. هكذا رواه ابن أبي حاتم من حديث شعبة ورواه ابن جرير عن بندار عن ابن مهدي عن شعبة قال: سألت السدي عن حم وطس والم فقال ابن عباس: هي اسم الله الأعظم. وقال ابن جرير<sup>(١)</sup>: وحدثنا محمد بن المثنى حدثنا أبو النعمان حدثنا شعبة عن إسماعيل السدي عن مرة الهمданى قال: قال عبد الله فذكر نحوه. وحكى مثله عن علي وابن عباس. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: هو قسم أقسم الله به، وهو من أسماء الله تعالى. وروى ابن أبي حاتم وابن جرير من حديث ابن عليه عن خالد الحذاء عن عكرمة أنه قال: الم قسم<sup>(٢)</sup>. ورويا أيضاً من حديث شريك بن عبد الله عن عطاء بن السائب عن أبي الضحى عن ابن عباس، الم قال: أنا الله أعلم<sup>(٣)</sup>، وكذا قال سعيد بن جبير وقال السدي عن أبي مالك. وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمدانى عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ الم قال: أما الم فهي حروف استفتحت<sup>(٤)</sup> من حروف هجاء أسماء الله تعالى. وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبي العالية في قوله تعالى الم قال: هذه الأحرف الثلاثة من التسعة والعشرين حرفاً دارت فيها الألسن كلها ليس منها حرف إلا وهو مفتاح اسم من أسمائه، وليس منها حرف إلا وهو من آياته، وبلاه: وليس منها حرف إلا وهو في مدة أقوام وأجالهم. قال عيسى ابن مريم عليه السلام وعجب فقال: أعجب أنهم ينطقون بأسمائه ويعيشون في رزقهم فكيف يكفرون به، فالآلف مفتاح اسم الله واللام مفتاح اسمه لطيف والميم مفتاح اسمه مجید فالآلف آلاء الله واللام لطف الله والميم مجد الله، الآلف ستة واللام ثلاثون سنة والميم أربعون سنة.

هذا لفظ ابن أبي حاتم. ونحوه رواه ابن جرير ثم شرع يوجه كل واحد من هذه الأقوال ويوفّق بينها وأنه لا منافاة بين كل واحد منها وبين الآخر وأن الجمع ممكن فهي أسماء للسور ومن أسماء الله تعالى يفتح بها السور فكل حرف منها دل على اسم من أسمائه وصفة من صفاتاته كما افتح سوراً كثيرة بتحميده وتسويقه وتعظيمه، قال: ولا مانع من دلالة الحرف منها على اسم من أسماء الله وعلى صفة من صفاتاته وعلى مدة وغير ذلك كما ذكره الربيع بن أنس عن أبي العالية لأن الكلمة الواحدة تطلق على معاني كثيرة كلفظة الأمة فإنها تطلق ويراد بها الدين قوله تعالى «إنا وجدنا آباءنا على أمة» [الزخرف: ٢٢] وتطلق ويراد بها الرجل المطيع لله كقوله تعالى «إن إبراهيم كان أمة قاتلت الله حنيفاً ولم يك من المشركين» [التحل: ١٢٠] وتطلق ويراد بها الجماعة كقوله تعالى «وَجَدَ عَلَيْهِ أَمَةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ» [القصص: ٢٣] وقوله تعالى «وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ

(١) تفسير الطبرى / ١١٩.

(٢) في الدر المنثور «اشتقت».

أمة رسولًا» تطلق ويراد بها الحين من الدهر كقوله تعالى «وقال الذي نجا منهما وأذكر بعد أمة» [يوسف : ٤٥] أي بعد حين على أصح القولين قال فكذلك هذا.

هذا حاصل كلامه<sup>(١)</sup> موجهاً ولكن هذا ليس كما ذكره أبو العالية فإن أبو العالية زعم أن الحرف دل على هذا وعلى هذا معاً، ولنقطة الأمة وما أشبهها من الألفاظ المشتركة في الاصطلاح إنما دل في القرآن في كل موطن على معنى واحد دل عليه سياق الكلام فاما حمله على مجموع محامله إذا أمكن فمسألة مختلف فيها بين علماء الأصول ليس هذا موضع البحث فيها والله أعلم. ثم إن لفظة الأمة تدل على كل من معانيها في سياق الكلام بدلالة الوضع فاما دلالة الحرف الواحد على اسم يمكن أن يدل على اسم آخر من غير أن يكون أحدهما أولى من الآخر في التقدير أو الإضمار بوضع ولا بغيره فهذا مما لا يفهم إلا بتوفيق ، والمسألة مختلف فيها وليس فيها إجماع حتى يحکم به. وما أنسدوه من الشواهد على صحة إطلاق الحرف الواحد على بقية الكلمة فإن في السياق ما يدل على ما حذف بخلاف هذا كما قال الشاعر : [الرجز]

قلنا لها قفي لنا فقالت قاف      لا تحسبني أنا نسينا الإيجاف<sup>(٢)</sup>

تعني وقفت . وقال الآخر : [الرجز]

ما للظلييم عال<sup>(٣)</sup> كيف لا يا      ينقد عنـه جـلـدـه إـذـا يـا<sup>(٤)</sup>

قال ابن جرير بأنه أراد أن يقول إذا يفعل كذا وكذا فاكتفى بالباء من يفعل . وقال الآخر : [الرجز]

بـالـخـيـرـ خـيـرـاتـ وـإـنـ شـرـاـ فـا      وـلـأـرـيدـ الشـرـ إـلـاـ أـنـ تـاـ<sup>(٥)</sup>

يقول : وإن شرًا فشرًا ولا أريد الشر إلا أن تشاء ، فاكتفى بالفاء والتاء من الكلمتين عن

(١) تفسير الطبرى / ١٢٠ — ١٢٩.

(٢) الرجز للوليد بن عتبة في الأغاني / ٥ ، ١٣١ ؛ وشرح شواهد الشافية في ٢٧١ ؛ ومشكل القرآن ص ٢٣٨ ؛ وبلا نسبة في لسان العرب (وقف) ؛ والطبرى / ١٢٢ ، وتهذيب اللغة / ١٥ ، ٦٧٩ ؛ وتاح العروس (سين) . والإيجاف : حد الدابة على سرعة السير ، وهو الوحيف .

(٣) كذا أيضاً برواية الطبرى . وقوله عال : دعاء عليه ، من قولهم : عال عوله أي ثكلته أمه ، فاختصر . و(يا) في البيت الأول بأنه أراد أن يقول «ينقد عنه . . .» فوقف ، ثم عاد يقول «ينقد» . و(يا) في الآخر : أي إذا يعدو هذا العدو . وفي رواية اللسان : «عاك» في موضع «عال» . قال ابن سيده : عاك عيكاناً : مشي وحرّك منكبيه . (اللسان : عيك).

(٤) الرجز بلا نسبة في لسان العرب (يا) ؛ وتهذيب اللغة / ١٥ ، ٦٧٠ ؛ وتاح العروس (يا) ؛ وشرح شواهد الشافية ص ٢٦٧ ؛ والطبرى / ١٢٣.

(٥) البيت بلا نسبة في الطبرى / ١٢٣ ، والكتاب / ٢ ، والكامن للمبرد / ١ ، ٢٤٠ ؛ والموضع للمرزباني ص ١٢٠ ؛ وشرح شواهد الشافية ص ٢٦٢ . ونسب في شرح شواهد الشافية ص ٢٦٤ للقيمي بن أوس . وهو منسوب إلى زهير بن أبي سلمى في القرطبي / ١٥٥ .

بقيتهم، ولكن هذا ظاهر من سياق الكلام والله أعلم.

قال القرطبي: وفي الحديث «من أعن على قتل مسلم بشطر الكلمة» الحديث قال شقيق<sup>(١)</sup> هو أن يقول في أقل «اق»، [كما قال عليه السلام: «كفى بالسيف شا» معناه: شافياً]<sup>(٢)</sup>. وقال خصيف عن مجاهد أنه قال: فواتح السور كلها (ق وص وحم وطم والر) وغير ذلك هجاء موضوع<sup>(٣)</sup>. وقال بعض أهل العربية: هي حروف من حروف المعجم استغني بذكر ما ذكر منها في أوائل السور عن ذكر بواقيها التي هي تتمة الثمانية والعشرين حرفاً كما يقول القائل: ابني يكتب في - ا ب ت ث - أي في حروف المعجم الشمانية والعشرين فيستغني بذكر بعضها عن مجموعها حكاه ابن جرير<sup>(٤)</sup>.

قلت مجموع الحروف المذكورة في أوائل السور بحذف المكرر منها أربعة عشر حرفاً وهي - ال م ص ر ك ه ي ع ط س ح ق ن - يجمعها قوله: نص حكيم قاطع له سر. وهي نصف الحروف عدداً والمذكور منها أشرف من المتروك وبيان ذلك من صناعة التصرف. قال الزمخشري: وهذه الحروف الأربع عشر مشتملة على أصناف أجناس الحروف يعني من المهموسة والمجهورة، ومن الرخوة والشديدة، ومن المطبقة والمفتوحة ومن المستعملة والمنخفضة، ومن حروف القلقلة. وقد سردها مفصلاً ثم قال: فسبحان الذي دقت في كل شيء حكمته. وهذه الأجناس المعدودة مكتوبة بالمذكورة منها وقد علمت أن معظم الشيء وجله يتزل متزلة كله ومن ه هنا لحظ بعضهم في هذا المقام كلاماً فقال: لا شك أن هذه الحروف لم يتزل لها سبحانه وتعالى عبثاً ولا سدى، ومن قال من الجهة إن في القرآن ما هو بعيد لا معنى له بالكلية فقد أخطأ خطأً كبيراً، فتعين أن لها معنى في نفس الأمر، فإن صح لنا فيها عن المعصوم شيء قلنا به وإنما وقفتنا حيث وقفتنا وقلنا «آمنا به كل من عند ربنا» ولم يجمع العلماء فيها على شيء معين وإنما اختلفوا فمن ظهر له بعض الأقوال بدليل فعليه اتباعه وإنما فالوقف حتى يتبيّن هذا مقام.

المقام الآخر في الحكمة التي اقتضت إبراد هذه الحروف في أوائل السور ما هي؟ مع قطع النظر عن معانيها في نفسها، فقال بعضهم: إنما ذكرت ليعرف بها أوائل السور، حكاه ابن جرير وهذا ضعيف لأن الفصل حاصل بدونها فيما لم تذكر فيه وفيما ذكرت فيه البسملة تلاوة وكتابة. وقال آخرون بل ابتدئ بها لفتح الاستماع لها اسماع المشركين إذ تواصوا بالإعراض عن القرآن حتى إذا استمعوا له ثلي عليهم المؤلف منه حكاه ابن جرير أيضاً وهو ضعيف لأنه لو كان

(١) في الأصل: «سفيان». وما أثبناه عن القرطبي ١٥٦/١.

(٢) الزيادة من القرطبي.

(٣) الطبرى ١/١٢٠.

(٤) روى ابن حجر أربعة أحاديث بهذا المعنى عن مجاهد (تفسير الطبرى ١١٨/١ - ١١٩).

ذلك لكان ذلك في جميع سور لا يكون في بعضها بل غالبيها وليس كذلك، ولو كان كذلك أيضاً لأنبغي الابتداء بها في أوائل الكلام معهم سواء كان افتتاح سورة أو غير ذلك ثم إن هذه السورة والتي تليها أعني البقرة وأآل عمران مدینیتان لیستا خطاباً للمشرکین فانتقض ما ذكره بهذه الوجوه . وقال آخرون بل إنما ذكرت هذه الحروف في أوائل سور التي ذكرت فيها بياناً لإعجاز القرآن وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله هذا مع أنه مرکب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها ، وقد حکى هذا المذهب الرازي في تفسیره عن المبرد وجمع من المحققين ، وحکى القرطبي عن الفراء وقطرب نحو هذا ، وقرره الزمخشري في کشافه ونصره أتم نصر ، وإليه ذهب الشیخ الإمام العلام أبو العباس بن تیمیة وشیخنا الحافظ المجتهد أبو العجاج المزی وحکاه لی عن ابن تیمیة .

قال الزمخشري : ولم ترد كلها مجموعة في أول القرآن وإنما كررت ليكون أبلغ في التحدي والتبيكية كما كررت قصص كثيرة وكرر التحدي بالتصريح في أماكن ، قال : وجاء منها على حرف واحد كقوله - ص ن ق - وحرفين مثل « حم » وثلاثة مثل « الم » وأربعة مثل « المر » و « المص » وخمسة مثل « كهيعص » و - « حمعسق » لأن أساليب كلامهم على هذا من الكلمات ما هو على حرف وعلى حرفين وعلى ثلاثة وعلى أربعة وعلى خمسة لا أكثر من ذلك (قلت) ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلا بد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن وبيان إعجازه وعظمته ، وهذا معلوم بالاستقراء وهو الواقع في تسع وعشرين سورة ولهذا يقول تعالى « الم \* ذلك الكتاب لا ريب فيه » [البقرة: ١ - ٢] « الم \* الله لا إله إلا هو الحي القيوم نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه » [آل عمران: ١ - ٣] « المص \* كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه » [الأعراف: ١ - ٢] « الرحمن الرحيم \* كتاب أتنزناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم » [إبراهيم: ١] « الم \* تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين » [السجدة: ١ - ٢] « حم \* تنزيل من الرحمن الرحيم » [فصلت: ١ - ٢] « حم \* عسق \* كذلك يوحى إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم » [الشورى: ١ - ٣] وغير ذلك من الآيات الدالة على صحة ما ذهب إليه هؤلاء لمن أمعن النظر والله أعلم .

وأما من زعم أنها دالة على معرفة المدد وأنه يستخرج من ذلك أوقات الحوادث والفتن والملاحم فقد ادعى ما ليس له، وطار في غير مطاره، وقد ورد في ذلك حديث ضعيف وهو مع ذلك أدل على بطلان هذا المسلك من التمسك به على صحته<sup>(١)</sup> وهو ما رواه محمد بن إسحاق بن يسار صاحب المغارى: حدثني الكلبى، عن أبي صالح عن ابن عباس، عن جابر بن

(١) وقال الطبرى أيضاً: قال بعضهم: هي حروف من حساب الجمل — كرها ذكر الذى حكى ذلك عنه، إذ كان الذى رواه ممن لا يعتمد على روایته ونقله». يقصد محمد بن السائب الكلبى. وقد روى الطبرى حديثين نظير ذلك عن الربيع بن أنس. (تفسير الطبرى ١٢٠ / ١).

عبد الله بن رئاب قال: مر أبو ياسر بن أخطب من رجال من يهود برسول الله وهو يتلو فاتحة سورة البقرة ﴿الْمَ﴾ \* ذلك الكتاب لا ريب فيه﴿ فأتى أخاه حبي بن أخطب في رجال من اليهود فقال: تعلمون والله لقد سمعت محمداً يتلو فيما أنزل الله تعالى عليه ﴿الْمَ﴾ ذلك الكتاب لا ريب فيه﴿ فقال: أنت سمعته؟ قال نعم. قال: فمشي حبي بن أخطب في أولئك النفر من اليهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا يا محمد ألم يذكر أنك تتلو فيما أنزل الله عليك ﴿الْمَ﴾ ذلك الكتاب؟﴿ قال رسول الله ﷺ «بلى» فقالوا جاءك بهذا جبريل من عند الله؟﴿ فقال «نعم» قالوا لقد بعث الله قبلك أبياء ما نعلمه بين النبي منهم ما مدة ملكه وما أجل أمته غيرك. فقام حبي بن أخطب وأقبل على من كان معه فقال لهم الألف واحدة واللام ثلاثون والميم أربعون فهذه إحدى وسبعون سنة أفتخلون في دين النبي إنما مدة ملكه وأجل أمته إحدى وسبعون سنة؟ ثم أقبل على رسول الله ﷺ فقال: يا محمد هل مع هذا غيره؟﴿ فقال: نعم، قال: ما ذاك؟﴿ قال: «المص» قال: هذا أثقل وأطول، الألف واحد واللام ثلاثون والميم أربعون والصاد سبعون وهذه إحدى وثلاثون ومائتا سنة. فهل مع هذا يا محمد غيره؟﴿ قال: نعم، قال ما ذاك؟﴿ قال: الر. قال: هذا أثقل وأطول، الألف واحدة واللام ثلاثون والراء مائتان وهذه إحدى وثلاثون ومائتا سنة. فهل مع هذا يا محمد غيره؟﴿ قال «نعم» قال: ماذا؟﴿ قال: هذه أثقل وأطول، الألف واحدة واللام ثلاثون والميم أربعون والراء مائتان وهذه إحدى وسبعون ومائتان ثم قال: لقد لبس علينا حبي بن أخطب حتى ما ندري أقليلاً أعطيت أم كثيراً. ثم قال قوموا عنه، ثم قال أبو ياسر لأخيه حبي بن أخطب ولمن معه من الأخبار: ما يدرِّيكم لعله قد جمع هذا لمحمد كله إحدى وسبعون وإحدى وثلاثون ومائة وإحدى وثلاثون ومائتان وإحدى وسبعون ومائتان فذلك سبعمائة وأربعين سنتين؟﴿ فقالوا: لقد تشابه علينا أمره، فيزعمون أن هؤلاء الآيات نزلت فيهم ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مَحْكُمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَآخَرٌ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [آل عمران: ٧] وهذا الحديث مداره على محمد بن السائب الكلبي وهو من لا يحتج بما انفرد به، ثم كان مقتضى هذا المسلك إن كان صحيحاً أن يحسب ما لكل حرف من الحروف الأربع عشر التي ذكرناها وذلك يبلغ منه جملة كثيرة وإن حسبت مع التكرر فأعظم<sup>(١)</sup> وأعظم والله أعلم.

ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَبَّ لِفِيهِ هُدَى لِمُتَّقِينَ

قال ابن جريج قال ابن عباس ذلك الكتاب، أي هذا الكتاب وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والسدي ومقاتل بن حيان وزيد بن أسلم وابن جريج أن ذلك بمعنى هذا والعرب تقارض<sup>(٢)</sup> بين اسمي الإشارة [هذين] فيستعملون كلاً منها مكان الآخر وهذا معروف

(١) الطام: الشيء العظيم. وأعظم وأعظم بمعنى واحد.

(٢) تقارضاً الشيء أو الأمر: تبادلاه.

في كلامهم. وقد حكاه البخاري عن معاذ بن المثنى عن أبي عبيدة وقال الرمخشري: ذلك إشارة إلى ﴿الْمَ﴾ كما قال تعالى ﴿لَا فارض ولا بكر عوان بين ذلك﴾ [البقرة: ٦٨] وقال تعالى ﴿ذُلِّكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُم﴾ [المتحنة: ١٠] وقال ﴿ذُلِّكُمْ اللَّهُ﴾ [غافر: ٦٢] وأمثال ذلك مما أشير به إلى ما تقدم ذكره والله أعلم. وقد ذهب بعض المفسرين فيما حكاه القرطبي<sup>(١)</sup> وغيره أن ذلك إشارة إلى القرآن الذي وعد الرسول ﷺ يأنزله عليه أو التوراة أو الإنجيل أو نحو ذلك في أقوال عشرة. وقد ضعف هذا المذهب كثيرون والله أعلم.

والكتاب: القرآن. ومن قال: إن المراد بذلك الكتاب الإشارة إلى التوراة والإنجيل كما حكاه ابن جرير<sup>(٢)</sup> وغيره فقد أبعد النجعة وأغرق في التزع وتتكلف ما لا علم له به. والريب: الشك. قال السدي عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرمي الهمданى عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب رسول الله ﷺ ﴿لَا رِيبُ فِيهِ﴾: لا شك فيه، وقال أبو الدرداء وابن عباس ومجاحد وسعيد بن جبير وأبو مالك ونافع مولى ابن عمر وعطاء وأبو العالية والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان والسدي وقتادة وإسماعيل بن أبي خالد وقال ابن أبي حاتم: لا أعلم في هذه خلافاً. وقد يستعمل الريب في التهمة قال جميل: [الطويل]

بثنية قالت يا جميل أربتبني      فقلت كلانا يا بثين مريبا<sup>(٣)</sup>  
واستعمل أيضاً في الحاجة كما قال بعضهم: [الوافر]

قضينا من تهامة كل ريب      وخير ثم أجمعنا السيفوا<sup>(٤)</sup>

ومعنى الكلام هنا أن هذا الكتاب هو القرآن لا شك فيه أنه نزل من عند الله كما قال تعالى في السجدة ﴿الْمَ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رِيبُ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأية: ٢] وقال بعضهم: هدى خبر، ومعناه النهي أي لا ترتباوا فيه. ومن القراء من يقف على قوله تعالى ﴿لَا رِيبُ﴾ ويبدأ بقوله تعالى ﴿فِيهِ هُدَىٰ لِلْمُتَّقِينَ﴾ والوقف على قوله تعالى ﴿لَا رِيبُ فِيهِ﴾ أولى للآية التي ذكرناها وأنه يصير قوله تعالى ﴿هُدَىٰ﴾ صفة للقرآن وذلك أبلغ من كون فيه هدى. وهدى يحتمل من حيث العربية أن يكون مرفوعاً على النعت ومنصوباً على الحال. وخصت الهدىية للمتقين كما قال ﴿فَلَهُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدَىٰ وَشَفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذانِهِمْ وَقَرَ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمَىٰ أَوْلَئِكَ يَنَادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤] ﴿وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شَفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على اختصاص المؤمنين بالنفع

(١) تفسير القرطبي ١٥٧ / ١ - ١٥٨ .

(٢) تفسير الطبرى ١٢٩ / ١ .

(٣) رواه أيضاً القرطبي (١٥٩ / ١) شاهداً على هذا المعنى.

(٤) البيت لكتعب بن مالك الأنصاري في ديوانه ص ٢٣٤؛ ولسان العرب (ريب)؛ وتابع العروس (ريب)؛ وبلا نسبة في مقاييس اللغة ٢ / ١٦٤؛ ومجمل اللغة ٢ / ٤٤٠؛ والقرطبي ١١٥٩ / ١ .

بالقرآن لأنّه هو في نفسه هدى ولكن لا يناله إلا الأبرار كما قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم مَوْعِظَةً مِنْ رَبِّكُمْ وَشَفَاءً لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧] وقد قال السدي عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرّة الهمданى عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب رسول الله ﷺ ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ يعني نوراً للمتقين . وقال أبو روق عن الضحاك عن ابن عباس قال : هدى للمتقين قال : هم المؤمنون الذين يتقوون الشرك بي ويعلمون بطاعتي . وقال محمد بن إسحاق ، عن محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ قال : الذين يحدرون من الله عقوبته في ترك ما يعرفون من الهدى ويرجون رحمته في التصديق بما جاء به . وقال سفيان الثوري عن رجل عن الحسن البصري : قوله تعالى للمتقين قال : اتقوا ما حرم الله عليهم وأدوا ما افترض عليهم . وقال أبو بكر بن عياش : سأله الأعمش عن المتقين قال : فأجبته فقال لي : سل عنها الكلبي ، فسألته فقال : الذين يجتنبون كبائر الإثم قال : فرجعت إلى الأعمش فقال : يرى أنه كذلك ولم ينكره . وقال قتادة : للمتقين هم الذين نعثهم الله بقوله ﴿الَّذِينَ يَؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيَقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ الآية والتي بعدها<sup>(١)</sup> ، واختيار ابن جرير أن الآية تعم ذلك كله وهو كما قال<sup>(٢)</sup> . وقد روى الترمذى وابن ماجه من روایة أبي عقيل عن عبد الله بن يزيد عن ربيعة بن يزيد وعطاء بن قيس عن عطية السعدي قال : قال رسول الله ﷺ ﴿لَا يَلِعُ الْعَبْدُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُتَّقِينَ حَتَّى يَدْعُ مَا لَا يَأْسُ بِهِ حَذْرًا مَمَّا بِهِ بَأْسٌ﴾ ثم قال الترمذى : حسن غريب . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا عبد الله بن عمران عن إسحاق بن سليمان يعني الرازى عن المغيرة بن مسلم عن ميمون أبي حمزة قال : كنت جالساً عند أبي وائل فدخل علينا رجل يقال له أبو عفيف من أصحاب معاذ فقال له شقيق بن سلمة : يا أبا عفيف ألا تحدثنا عن معاذ بن جبل ؟ قال : بلى ، سمعته يقول : يحب الناس يوم القيمة في بقى واحد فينادي مناد أين المتقون ؟ فيقومون في كف من الرحمن لا يحتاجون الله منهم ولا يستتر . قلت : من المتقون ؟ قال : قوم اتقوا الشرك وعبادة الأوثان وأخلصوا الله العبادة فيمرون إلى الجنة . ويطلق الهدى ويراد به ما يقرّ في القلب من الإيمان وهذا لا يقدر على خلقه في قلوب العباد إلا الله عز وجل قال الله تعالى ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مِنْ أَحَبِّتِ﴾ [القصص: ٥٦] وقال ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هَدَاهُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٢] وقال ﴿مَنْ يُضْلِلَ اللَّهُ فَلَا هَادِي لَهُ﴾ [الأعراف: ١٨٦] وقال ﴿مَنْ يَهْدِي اللَّهُ فَهُوَ الْمَهْدُ وَمَنْ يُضْلِلَ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مَرْشِدًا﴾ [الإسراء: ٩٧] إلى غير ذلك من الآيات . ويطلق ويراد به بيان الحق وتوضيحه والدلالة عليه والإرشاد قال الله تعالى ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] وقال ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلَكُلُّ قَوْمٍ هَادِي﴾ [الرعد: ٧] وقال

(١) أي الآية التي بعد ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ فهي تفسير القرآن بالقرآن ، وهو الأكثر اعتباراً في مذاهب التأويل .

(٢) تفسير الطبرى ١٣٢/١ .

تعالى ﴿وَأَمَا ثُمودٌ فَهَدِيناهُمْ فَاسْتَحْبُوا الْعُمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت: ١٧] وَقَالَ ﴿وَهَدِيناهُمْ النَّجْدِينَ﴾ [البلد: ١٠] عَلَى تَفْسِيرِ مِنْ قَالَ الْمَزَادُ بِهِمَا الْخَيْرُ وَالشَّرُّ وَهُوَ الْأَرْجُحُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَأَصْلُ التَّقْوَى التَّوْقِيُّ مَا يَكْرَهُ لَأَنَّ أَصْلَهَا وَقُوَّى مِنَ الْوَقَايَةِ قَالَ النَّابِغَةُ: [الْكَامِلُ]

سَقْطُ التَّصِيفِ وَلَمْ تَرُدْ إِسْقاطَهُ فَتَنَاوِلْتُهُ وَاتَّقْتَنَبَالِيٰ<sup>(١)</sup>

وَقَالَ الْآخِرُ: [الْطَّوَيْلُ]<sup>(٢)</sup>

فَأَلْقَتْ قَناعًا دُونَهُ الشَّمْسُ وَاتَّقَتْ بِأَحْسَنِ مَوْصُولَيْنِ كَفَ وَمَعْصَمَ<sup>(٣)</sup>

وَقَدْ قِيلَ إِنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سُئِلَ أَبِي بْنَ كَعْبٍ عَنِ التَّقْوَى فَقَالَ لَهُ: أَمَا سَلَكْتَ طَرِيقًا ذَا شُوكٍ؟ قَالَ بَلِيٌّ، قَالَ: فِيمَا عَمِلْتَ؟ قَالَ: شَمَرْتُ وَاجْتَهَدْتُ<sup>(٤)</sup>، قَالَ: فَذَلِكَ التَّقْوَى. وَقَدْ أَخَذَ هَذَا الْمَعْنَى أَبْنَى الْمُعْتَزَ فَقَالَ: [مَجْزُوءُ الْكَامِلِ]<sup>(٥)</sup>

خَلَ الدَّنْسُوبَ صَغِيرَهَا  
وَكَبَيَ رَهَا ذَاكَ التَّقَى  
وَاصْنَعَ كَمَاشَ فَسُوقَ أَرَى  
ضَ الشُّوكَ يَحْذَرُ مَا يَرِى  
لَا تَحْقِرْنَ صَغِيرَةً<sup>(٦)</sup>  
إِنَّ الْجَبَالَ مِنَ الْحَصَى<sup>(٧)</sup>

وَأَنْشَدَ أَبُو الدَّرَداءَ يَوْمًا: [الْوَافِرُ]<sup>(٨)</sup>

يَرِيدُ الْمَرءُ أَنْ يَؤْتَى مِنَاهُ  
وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا مَا أَرَادَ  
يَقُولُ الْمَرءُ فَائِدَتِي وَمَالِي<sup>(٩)</sup>  
وَتَقْوَى اللَّهُ أَفْضَلُ مَا اسْتَفَادَ<sup>(١٠)</sup>

وَفِي سُنْنَ ابْنِ ماجِهِ عَنْ أَبِي أَمَامَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ «مَا اسْتَفَادَ الْمَرءُ بَعْدَ تَقْوَى اللَّهِ خَيْرًا لَهُ مِنْ زَوْجَةِ صَالِحةٍ إِنْ نَظَرَ إِلَيْهَا سَرْتَهُ، وَإِنْ أَمْرَهَا أَطَاعَتْهُ، وَإِنْ أَقْسَمَ عَلَيْهَا أَبْرَتَهُ، وَإِنْ غَابَ عَنْهَا نَصْحَتَهُ فِي نَفْسِهَا وَمَالِهِ»<sup>(١١)</sup>.

### الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ

(١) البيت للنابغة الذبياني في ديوانه ص ٩٣؛ والشعراء ١٧٦/١؛ والمقاصد النحوية ٣/١٠٢؛ ولسان العرب (نصف)؛ والقرطبي ١٦١/١؛ وبلا نسبة في شرح الأشموني ١/٢٥٩. والتصيف: هو كل ما غطى الرأس من خمار أو عمامة. والنابغة هنا يصف المتجردة زوجة النعمان بن المنذر.

(٢) البيت بلا نسبة أيضًا في القرطبي ١٦١/١.

(٣) في رواية القرطبي: «تَشَرَّتْ وَحْذَرَتْ» وهو أوضح في المقام.

(٤) الآيات الثلاثة في القرطبي ١٦٢/١.

(٥) البيتان في القرطبي ١٦٢/١. وقد أوردهما القرطبي شاهدًا على أن «التقوى فيها جماع الخير كله وهي وصية الله في الأولين والآخرين». قال: كما قال أبو الدرداء وقد قيل له: إن أصحابك يقولون الشعر وأنت ما أحفظ عنك شيء، فقال... .

(٦) ابن ماجه (نكاح، باب ٥).

قال أبو جعفر الرازى عن العلاء بن المسبب بن رافع عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن عبد الله قال: الإيمان التصديق، وقال علي بن أبي طلحة وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما: يؤمنون: يصدّقون. وقال معاذ عن الزهرى: الإيمان العمل، وقال أبو جعفر الرازى عن الربع بن أنس يؤمنون: يخشون.

قال ابن جرير: والأولى أن يكونوا موصوفين بالإيمان بالغيب قوله عملاً واعتقاداً قال: وقد تدخل الخشية لله في معنى الإيمان الذي هو تصديق القول بالعمل، والإيمان كلمة جامعة للإقرار بالله وكتبه ورسله وتصديق الإقرار بالفعل (قلت) أما الإيمان في اللغة فيطلق على التصديق المحسن وقد يستعمل في القرآن والمراد به ذلك كما قال تعالى ﴿يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين﴾ [التوبه: ٦١] وكما قال إخوه يوسف لأبيهم ﴿وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين﴾ [يوسف: ١٧] وكذلك إذا استعمل مقويناً مع الأعمال كقوله تعالى ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الشعراء: ٢٢٧] فاما إذا استعمل مطلقاً فالإيمان الشرعي المطلوب لا يكون إلا اعتقاداً وقولاً وعملاً. هكذا ذهب إليه أكثر الأئمة بل قد حكاه الشافعى وأحمد بن حنبل وأبو عبيدة وغير واحد إجماعاً: أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص ، وقد ورد فيه آثار كثيرة وأحاديث أفردنا الكلام فيها في أول شرح البخارى والله الحمد والمنة . ومنهم من فسره بالخشية كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ﴾ [الملك: ١٢] قوله: ﴿مِنْ خَشْيَ الرَّحْمَنِ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ [آل عمران: ٣٣] والخشية خلاصة الإيمان والعلم كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عَبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] وقال بعضهم: يؤمنون بالغيب كما يؤمنون بالشهادة ، وليسوا كما قال تعالى عن المنافقين ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَا وَإِذَا خَلُوا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ [البقرة: ١٤] وقال: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشَهِدُ إِنَّكَ لِرَسُولِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لِرَسُولِهِ وَاللَّهُ يَشَهِدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكاذِبُونَ﴾ [المُنَافِقُونَ: ١] فعلى هذا يكون قوله بالغيب حالاً أي في حال كونهم غياباً عن الناس .

وأما الغيب المراد هنا فقد اختلفت عبارات السلف فيه وكلها صحيحة ترجع إلى أن الجميع مراد ، قال أبو جعفر الرازى عن الربع بن أنس عن أبي العالية في قوله تعالى: ﴿يؤمنون بالغيب﴾ قال: ويؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وجنته وناره ولقاءه ويؤمنون بالحياة بعد الموت وبالبعث ، فهذا غيب كله . وكذا قال قتادة بن دعامة . وقال السدي عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمданى عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ أما الغيب فما غاب عن العباد من أمر الجنة وأمر النار وما ذكر في القرآن . وقال محمد بن إسحاق عن محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس: (بالغيب) قال: بما جاء منه - يعني من الله تعالى - وقال سفيان الثورى . عن عاصم عن

زر<sup>(١)</sup> قال: الغيب القرآن وقال عطاء بن أبي رباح: من آمن بالله فقد آمن بالغيب . وقال إسماعيل بن أبي خالد: يؤمنون بالغيب قال: بغير الإسلام . وقال زيد بن أسلم: الذين يؤمنون بالغيب قال: بالقدر . فكل هذه متقاربة في معنى واحد لأن جميع المذكورة من الغيب الذي يجب الإيمان به .

وقال سعيد بن منصور: حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن عمارة بن عمير عن عبد الرحمن بن يزيد قال: كنا عند عبد الله بن مسعود جلوساً فذكرنا أصحاب النبي ﷺ وما سبقونا به فقال عبد الله: إن أمر محمد ﷺ كان بيّناً لمن رأه؛ والذى لا إله غيره ما آمن أحد قط إيماناً أفضل من إيمان بغير ثم قرأ «الم»، ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب - إلى قوله - **المقلعون** و وكذلك رواه ابن أبي حاتم وابن مردوحه والحاكم في مستدركه من طرق عن الأعمش به . وقال الحاكم صحيح على شرط الشعixin ولم يخرجه . وفي معنى هذا الحديث الذي رواه أحمـد<sup>(٢)</sup>: حدثنا أبو المغيرة حدثنا الأوزاعي حدثني أسيـد بن عبد الرحمن عن خالد بن دريك عن ابن محـيز قال: قلت لأبي جـمعـة [رجل من الصـحـابة]: حدثـنا حـديثـاً سـمعـتهـ منـ رسـولـ اللهـ ﷺ قالـ: نـعـمـ أحـدـثـكـ حـديثـاً جـيدـاً: تـغـدـيـنـاـ معـ رسـولـ اللهـ ﷺ وـ معـناـ أـبـوـ عـبـيـدةـ بـنـ الـجـراـحـ فـقـالـ: يـاـ رـسـولـ اللهـ هـلـ أحـدـ خـيرـ مـنـاـ؟ أـسـلـمـنـاـ مـعـكـ وـ جـاهـدـنـاـ مـعـكـ . قالـ: نـعـمـ قـومـ يـكـونـونـ مـنـ بـعـدـكـمـ يـؤـمـنـونـ بـيـ وـ لـمـ يـرـونـ بـيـ»: طـرـيقـ أـخـرىـ . قالـ: أـبـوـ بـكـرـ بـنـ مـرـدـوـحـ فـيـ تـفـسـيرـهـ: حدـثـناـ عـبـدـ اللهـ بـنـ جـعـفـرـ حـدـثـناـ إـسـمـاعـيلـ عـنـ عـبـدـ اللهـ بـنـ مـسـعـودـ حـدـثـناـ عـبـدـ اللهـ بـنـ صـالـحـ حـدـثـناـ مـعـاوـيـةـ بـنـ صـالـحـ عـنـ صـالـحـ بـنـ جـيـبـرـ قـالـ: قـدـمـ عـلـيـنـاـ أـبـوـ جـمـعـةـ الـأـنـصـارـيـ صـاحـبـ رسـولـ اللهـ ﷺ بـيـتـ المـقـدـسـ لـيـصـلـيـ فـيـ وـمـعـنـاـ يـؤـمـنـدـ رـجـاءـ بـنـ حـيـوـيـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ فـلـمـ اـنـصـرـ خـرـجـنـاـ نـشـيـعـهـ، فـلـمـ أـرـادـ الـانـصـرافـ قـالـ: إـنـ لـكـمـ جـائزـةـ وـحـقاـ، أحـدـثـكـ بـحـدـيثـ سـمعـتـهـ مـنـ رسـولـ اللهـ ﷺ قـلـنـاـ: هـاتـ رـحـمـكـ اللـهـ قـالـ: كـنـاـ مـعـ رسـولـ اللهـ ﷺ وـ مـعـنـاـ مـعـاذـ بـنـ جـبـلـ عـاـشـ عـشـرـ فـقـلـنـاـ: يـاـ رـسـولـ اللهـ هـلـ مـنـ قـوـمـ أـعـظـمـ مـنـاـ أـجـرـاـ؟ أـمـنـاـ بـالـلـهـ وـاتـبـعـنـاـ، قـالـ: «مـاـ يـمـنـعـكـمـ مـنـ ذـلـكـ وـرسـولـ اللهـ بـيـنـ أـظـهـرـكـمـ يـأـتـيـكـمـ بـالـوـحـيـ مـنـ السـمـاءـ بـلـ قـوـمـ مـنـ بـعـدـكـمـ يـأـتـيـهـمـ كـتـابـ بـيـنـ لـوـحـينـ يـؤـمـنـونـ بـهـ وـيـعـمـلـونـ بـمـاـ فـيـهـ أـوـلـئـكـ أـعـظـمـ مـنـكـمـ أـجـرـاـ مـرـتـيـنـ» ثـمـ رـوـاهـ مـنـ حـدـيـثـ ضـمـرـةـ بـنـ رـبـيـعـةـ عـنـ مـرـزـوقـ بـنـ نـافـعـ عـنـ صـالـحـ بـنـ جـيـبـرـ عـنـ أـبـيـ جـمـعـةـ بـنـ حـنـوـهـ . وـهـذـاـ حـدـيـثـ فـيـ دـلـالـةـ عـلـىـ الـعـلـمـ بـالـوـجـادـةـ<sup>(٣)</sup> الـتـيـ اـخـتـلـفـ فـيـهـ أـهـلـ الـحـدـيـثـ كـمـ قـرـرـتـهـ فـيـ أـوـلـ شـرـحـ الـبـخـارـيـ لـأـنـهـ مـدـحـهـمـ عـلـىـ

(١) بالزاي المكسورة وراء مشددة . وهو زَرْ بن جيش بن حباشة بن أوس الأسدى الكوفى الغاضرى ، أبو مريم ، المتوفى نحو ٨١ هـ . ثقة جليل ، أخرج له البخارى ومسلم وأبو داود والنمسائى وابن ماجه . (موسوعة رجال الكتب التسعة ٥١٨/١).

(٢) مسنـدـ أـحـمـدـ (جـ ٦ـ صـ ٤٣ـ).

(٣) الـوـجـادـةـ (فـيـ اـصـطـلـاحـ الـمـحـدـثـيـنـ): اـسـمـ لـمـاـ أـخـذـ مـنـ الـعـلـمـ مـنـ صـحـيفـةـ، مـنـ غـيرـ سـمـاعـ وـلـاـ إـجازـةـ وـلـاـ مـنـاـوـلـةـ.

ذلك وذكر أنهم أعظم أجرًا من هذه الحجية لا مطلقاً، وكذا الحديث الآخر الذي رواه الحسن بن عرفة العبدى، حدثنا إسماعيل بن عياش الحمصي عن المغيرة بن قيس التميمي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ «أيُّ الْخَلْقِ أَعْجَبٌ إِلَيْكُمْ إِيمَانًا؟» قالوا الملائكة قال «وَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَهُمْ عِنْ رَبِّهِمْ؟» قالوا فَالنَّبِيُّونَ قَالَ «وَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَالْوَحْيُ يَنْزَلُ عَلَيْهِمْ؟» قالوا فَنَحْنُ قَالُوا: «وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهَرِكُمْ؟» قال: فقال رسول الله ﷺ «أَلَا إِنَّ أَعْجَبَ الْخَلْقِ إِلَيْيَّ إِيمَانًا لَّقَوْمٍ يَكُونُونَ مِنْ بَعْدِكُمْ يَجِدُونَ صَحْفًا فِيهَا كِتَابٌ يُؤْمِنُونَ بِمَا فِيهَا» قال أبو حاتم الرازى: المغيرة بن قيس البصري منكر الحديث (قلت) ولكن قد روى أبو يعلى فى مسنده وابن مردوه فى تفسيره والحاكم فى مستدركه من حديث محمد بن أبي حميد - وفيه ضعف - عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر عن النبي ﷺ بمثله أو نحوه. وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقد روى نحوه عن أنس بن مالك مرفوعاً والله أعلم، وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا عبد الله بن محمد المسندي حدثنا إسحاق بن إدريس أخبرني إبراهيم بن جعفر بن محمود بن سلمة الأنصارى أخبرنى جعفر بن محمود عن جدته نويلة بنت أسلم قالت: صليت الظهر أو العصر في مسجد بني حارثة فاستقبلنا مسجد إيلاء<sup>(١)</sup> فصلينا سجدين ثم جاءنا من يخبرنا أن رسول الله ﷺ قد استقبل البيت الحرام فتحول النساء مكان الرجال والرجال مكان النساء فصلينا السجدين الباقيتين ونحن مستقبلون البيت الحرام. قال إبراهيم: فحدثني رجال من بني حارثة أن رسول الله ﷺ حين بلغه ذلك قال: «أولئك قوم أمنوا بالغيب» هذا حديث غريب من هذا الوجه .

وَيَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يَنْفِقُونَ

قال ابن عباس: ويقيمون الصلاة أي يقيمون الصلاة بفرضها. وقال الضحاك عن ابن عباس: إقامة الصلاة إتمام الركوع والسجود والتلاوة والخشوع والإقبال عليها فيها. وقال قتادة: إقامة الصلاة المحافظة على مواقيتها ووضوئها وركوعها وسجودها. وقال مقاتل بن حيان: إقامتها المحافظة على مواقيتها وإسباغ الطهور بها وتمام رکوعها وسجودها وتلاوة القرآن فيها والشهاد والصلاحة على النبي ﷺ فهذا إقامتها.

وقال علي بن أبي طلحة وغيره عن ابن عباس «وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يَنْفِقُونَ» قال: زكاة أموالهم، وقال السدي عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب رسول الله ﷺ «وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يَنْفِقُونَ» قال: نفقة الرجل على أهله وهذا قبل أن تنزل الزكاة. وقال جوير عن الضحاك كانت النفقات قربات يتقربون بها إلى الله على قدر ميسرتهم وجهدهم حتى نزلت فرائض الصدقات سبع آيات في سورة براءة مما يذكر فيهن الصدقات هن

(١) هو المسجد الأقصى في بيت المقدس، وهو أولى القبلتين.

الناسخاتالمثبتات. وقال قتادة ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ فأنفقوا مما أعطاكم الله، هذه الأموال عوار<sup>(١)</sup> وودائع عندك يا ابن آدم يوشك أن تفارقها.

واختار ابن جرير أن الآية عامة في الزكاة والنفقات فإنه قال<sup>(٢)</sup>: وأولى التأويلات وأحقها بصفة القوم أن يكونوا لجميع اللازم لهم في أموالهم مؤدين - زكاة كان ذلك أو نفقة من لزمه نفقته من أهل أو عيال وغيرهم ممن يجب عليهم نفقته بالقرابة والملك وغير ذلك، لأن الله تعالى عم وصفهم ومدحهم بذلك، وكل من الإنفاق والزكاة ممدوح به محمود عليه (قلت) كثيراً ما يقرن الله تعالى بين الصلاة والإإنفاق من الأموال، فإن الصلاة حق الله وعبادته وهي مستملة على توحيده والثناء عليه وتمجيده والابتهاج إليه ودعائه والتوكيل عليه، والإإنفاق هو الإحسان إلى المخلوقين بالنفع المتعدى إليهم، وأولى الناس بذلك القرابات والأهلون والمماليك، ثم الأجانب، فكل من النفقات الواجبة والزكاة المفروضة داخل في قوله تعالى : ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ ولهذا ثبت في الصحيحين<sup>(٣)</sup> عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكوة وصوم رمضان وحج البيت» والأحاديث في هذا كثيرة وأصل الصلاة في كلام العرب الدعاء. قال الأعشى : [الطوبل]

لها حارس لا يسرح الدهر بيتها  
وإن ذبحت صلى عليها وزمزما<sup>(٤)</sup>  
وقال أيضاً : [المتقارب]

وقاربها الريح في دنها  
أنشدهما ابن جرير مستشهدأ على ذلك . وقال الآخر ، وهو الأعشى أيضاً : [البسيط]  
تقول بنتي وقد قربت مرتحلا  
عليك مثل الذي صليت فاغتمضي  
وصلى على دنها وارتسم<sup>(٥)</sup>  
يارب جنب أبي الأوصاب والوجعا  
نوماً فإن لجنب المرء مضطجعا<sup>(٦)</sup>

(١) العواري: جمع عارية، وهي ما تغيره إلى غيرك ثم تسترده.

(٢) تفسير الطبرى ١٣٧/١ . وابن كثير ينقل ما يأتي باختصار وبعض تصرُّف.

(٣) البخارى (إيمان باب ١ و ٢؛ وتفسير سورة ٢ باب ٣) ومسلم (إيمان حديث ١٩ — ٢٢).

(٤) البيت من شواهد الطبرى (١٣٧/١). والكلام يدور على دنّ الخمر. ذبحت الدنّ: أزيل ختمها. وزمزم المجوسي عند الأكل أو الشرب: رطن وهو مطبق فاه وصوت بصوت مبهم يديره في خيشومه وحلقه لا يحرك فيه لساناً ولا شفة.

(٥) البيت للأعشى في ديوانه ص ٨٥؛ ولسان العرب (رسم، صلا)؛ والمخصص ١٣/٨٥؛ ومقاييس اللغة ٣/٣٠٠؛ وتهذيب اللغة ٩/١٦٦؛ وجمهرة اللغة ص ١١٥؛ وتاج العروس (رسم). وارتسم الرجل: كبير ودعا (الصحاح). ورواية الديوان: «وارتشم».

(٦) البيت للأعشى في ديوانه ص ١٥١؛ ومقاييس اللغة ٣/٣٠٠؛ وتاج العروس (شفع)؛ والقرطبي ١٦٨/١.

يقول : عليك من الدعاء مثل الذي دعيته لي ، وهذا ظاهر . ثم استعملت الصلاة في الشع في ذات الركوع والسجود والأفعال المخصوصة في الأوقات المخصوصة بشروطها المعروفة وصفاتها وأنواعها المشهورة . قال ابن جرير : وأرى أن الصلاة [المفروضة]<sup>(١)</sup> سميت صلاة لأن المصلي يتعرض لاستنجاح طلبه من ثواب الله بعلمه مع ما يسأل ربه من حاجاته [تعرض الداعي بدعائه ربَّه استنجاح حاجاته وسُؤْلَه]<sup>(٢)</sup> وقيل : هي مشتقة من الصلوين إذا تحركا في الصلاة عند الركوع والسجود ، وهما عرقان يمتدان من الظهر حتى يكتنfan عجب الذنب ومنه سمي المصلي وهو التالي للسابق في حلبة الخيل ، وفيه نظر . وقيل هي مشتقة من الصلى وهو الملازم للشيء من قوله تعالى : « لا يصلحها » أي لا يلزمها ويدوم فيها « إلا الأشقي » [الليل : ١٥] وقيل مشتقة من تصليمة الخشبة في النار لتقوم كما أن المصلي يقوم عوجه بالصلاوة « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكْبَر » [العنكبوت : ٤٥] واشتقاقها من الدعاء أصل وأشهر والله أعلم .

وأما الزكاة فسيأتي الكلام عليها في موضعه إن شاء الله تعالى .

وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقَنُونَ

قال ابن عباس : (والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك) أي يصدقون بما جئت به من الله وما جاء به من قبلك من المرسلين لا يفرقون بينهم ولا يجادلون ما جاؤوه به من ربهم ، وبالآخرة هم يوقنون : أي بالبعث والقيمة والجنة والنار والحساب والميزان ، وإنما سميت الآخرة لأنها بعد الدنيا . وقد اختلفت المفسرون في الموصوفين هنا ، هل هم الموصوفون بما تقدم من قوله تعالى : « الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم يتفقون » ومن هم ؟ على ثلاثة أقوال حكاهما ابن جرير<sup>(٣)</sup> ، أحدها : أن الموصوفين أولاً هم الموصوفون ثانياً وهم كل مؤمن ، مؤمنو العرب ومؤمنو أهل الكتاب وغيرهم ، قاله مجاهد وأبو العالية والربيع بن أنس وقادره . والثاني : هما واحد وهو مؤمنو أهل الكتاب ، وعلى هذين تكون الواو عاطفة على صفات كما قال تعالى : « سبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَىِ . الَّذِي خَلَقَ فَسَوَى . وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىِ . فَجَعَلَهُ غَنَاءَ أَحْوَىِ » [الأعلى : ١ - ٥] وكما قال الشاعر : [المتقارب]

إِلَى الْمَلِكِ الْقَرْمِ وَابْنِ الْهَمَامِ      وَلِيَثِ الْكَتِيَّةِ فِي الْمَزْدَحِمِ

فعطف الصفات بعضها على بعض والموصوف واحد والثالث أن الموصوفين أولاً مؤمنو العرب والموصوفون ثانياً بقوله « والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم

(١) الزيادة من الطبرى / ١٣٧ .

(٢) تفسير الطبرى / ١٣٩ .

(٣) البيت بلا نسبة في الإنفاق / ٢٤٦٩؛ وخزانة الأدب / ٤٥١، وشرح قطر الندى ص ٢٩٥ .

يُوقنون» لمؤمني أهل الكتاب، نقله السدي في تفسيره عن ابن عباس وابن مسعود وأناس من الصحابة واختاره ابن جرير رحمة الله ويستشهد لما قال بقوله تعالى: «وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمْ خَاطِئِينَ اللَّهَ» [آل عمران: ١٩٩] وبقوله تعالى: «الَّذِينَ أَتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ وَإِذَا يَتَلَقَّبُونَ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كَنَا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مِرْتَبِينَ بِمَا صَبَرُوا وَيُدَرَّوْنَ بِالْحُسْنَاتِ وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يَنْفَقُونَ» [القصص: ٥٢ - ٥٤] وبما ثبت في الصحيحين من حديث الشعبي عن أبي بردة عن أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال: «ثُلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مِرْتَبِينَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَّ بِهِ وَرَجُلٌ مُمْلُوكٌ أَدْيَ حَقَّ اللَّهِ وَحْقَ مَوَالِيهِ وَرَجُلٌ أَدْبَرَ جَارِيَتِهِ فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا ثُمَّ أَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا»<sup>(١)</sup> وأما ابن جرير فما استشهد على صحة ما قال إلا بمناسبة وهي أن الله وصف في أول هذه السورة المؤمنين والكافرين، فكما أنه صنف الكافرين إلى صنفين كافر ومنافق فكذلك المؤمنون صنفُهم إلى عربي وكتابي.

(قلت) والظاهر قول مجاهد فيما رواه الثوري عن مجاهد ورواه غير واحد عن ابن أبي نجيح عن مجاهد أنه قال: أربع آيات من أول سورة البقرة في نعت المؤمنين وأياتان في نعت الكافرين وثلاثة عشر في المنافقين فهذه الآيات الأربع عامت في كل مؤمن اتصف بها من عربي وعجمي وكتابي من إنسني وجني وليس تصح واحدة من هذه الصفات بدون الأخرى بل كل واحدة مستلزمة للأخرى وشرط معها، فلا يصح الإيمان بالغريب وإقام الصلاة والزكاة إلا مع الإيمان بما جاء به الرسول ﷺ وما جاء به من قبله من الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين والإيقان بالأخرة، كما أن هذا لا يصح إلا بذلك وقد أمر الله المؤمنين بذلك كما قال: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِهِ» [ النساء: ١٣٦] وقال تعالى: «وَلَا تَجَادُلُوا أَهْلَ الْكِتَابَ إِلَّا بِالِّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا إِلَهُكُمْ وَاحِدٌ» [العنكبوت: ٤٦] وقال تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ آمَنُوا بِمَا نَزَّلْنَا عَلَيْكُمْ لَمَا مَصِدِّقاً لِمَا مَعَكُمْ» [النساء: ٤٧] وقال تعالى: «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابَ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تَقِيمُوا التُّورَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ» [المائدة: ٦٨] وأخبر تعالى عن المؤمنين كلهم بذلك فقال تعالى: «آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّهُمْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتبِهِ وَرَسُولِهِ لَا نَفْرَقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رَسُولِهِ» [البقرة: ١٨٥] وقال تعالى: «وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَمْ يَفْرُقوْا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ» [النساء: ١٥٢] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على جميع أمر المؤمنين بالإيمان بالله ورسوله وكتبه، لكن لمؤمني أهل الكتاب خصوصية وذلك أنهم يؤمنون بما بأيديهم مفصلاً فإذا دخلوا في الإسلام وأمنوا به مفصلاً كان لهم على ذلك الأجر مرتين، وأما غيرهم فإنما يحصل له الإيمان بما تقدم مجملًا كما جاء في

(١) البخاري (علم باب ٣١) ومسلم (إيمان حديث ٢٤١).

الصحيح «إذا حديثكم أهل الكتاب فلا تكذبواهم ولا تصدقواهم ولكن قولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم» ولكن قد يكون إيمان كثير من العرب بالإسلام الذي بعث به محمد ﷺ أتم وأكمل وأعم وأشمل من إيمان من دخل منهم في الإسلام فهم وإن حصل لهم أجران من تلك الحقيقة فغيرهم يحصل له من التصديق ما ينفي ثوابه على الأجرين اللذين حصلا لهم والله أعلم.

أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّنْ رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ

يقول الله تعالى: «أولئك» أي المتصفون بما تقدم من الإيمان بالغيب وإقام الصلاة والإيفاق من الذي رزقهم الله والإيمان بما أنزل إلى الرسول ومن قبله من الرسل والإيقان بالدار الآخرة، وهو مستلزم الاستعداد لها من الأعمال الصالحة وترك المحرمات «على هدى» أي على نور وبيان وبصيرة من الله تعالى: «وأولئك هم المفلحون» أي في الدنيا والآخرة، وقال محمد بن إسحاق عن محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس «أولئك على هدى من ربهم» أي على نور من ربهم واستقامة على ما جاءهم به «وأولئك هم المفلحون» أي الذين أدركوا ما طلبوا ونجوا من شر ما منه هربوا. وقال ابن جرير: وأما معنى قوله تعالى: «أولئك على هدى من ربهم» فإن معنى ذلك فإنهم على نور من ربهم وبرهان واستقامة وسداد بتسيديه إياهم وتوفيقه لهم وتأويل قوله تعالى: «وأولئك هم المفلحون» أي المنجحون المدركون ما طلبو عند الله بأعمالهم وإيمانهم بالله وكتبه ورسله من الفوز بالثواب، والخلود في الجنة والنجاة مما أعد الله لأعدائه من العقاب<sup>(١)</sup>. وقد حكى ابن جرير قوله قولاً عن بعضهم أنه أعاد اسم الإشارة في قوله تعالى: «أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون» إلى مؤمني أهل الكتاب الموصفين بقوله تعالى: «والذين يؤمنون بما أنزل إليك» الآية، على ما تقدم من الخلاف، وعلى هذا فيجوز أن يكون قوله تعالى: «والذين يؤمنون بما أنزل إليك» منقطعًا مما قبله وأن يكون مرفوعاً على الابتداء وخبره «أولئك هم المفلحون» واختار أنه عائد إلى جميع من تقدم ذكره من مؤمني العرب وأهل الكتاب لما رواه السدي عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمданى عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب رسول الله ﷺ: أما الذين يؤمنون بالغيب فهم المؤمنون من العرب، والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك هم المؤمنون من أهل الكتاب، ثم جمع الفريقيين فقال: «أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون»<sup>(٢)</sup> وقد تقدم من الترجيح أن ذلك صفة للمؤمنين عامة والإشارة عائدة عليهم والله أعلم.

وقد نقل هذا عن مجاهد وأبي العالية والربيع بن أنس وقادة رحمهم الله، وقال ابن أبي حاتم:

(١) تفسير الطبرى / ١٤٠ .

(٢) تفسير الطبرى / ١٣٩ .

حدثنا أبي حدثنا يحيى بن عثمان بن صالح المصري حدثنا أبي حدثنا ابن لهيعة حدثني عبد الله ابن المغيرة عن أبي الهيثم واسمها سليمان بن عمرو عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ، وقيل له : يا رسول الله إنا نقرأ من القرآن فترجوا ونقرأ من القرآن فنكاد أن نيأس أو كما قال ، فقال : «أفلا أخبركم عن أهل الجنة وأهل النار ، قالوا : بلـ يا رسول الله ، قال : ﴿الَّمْ ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رِيبٌ فِيهِ هُدٌ لِّلْمُتَّقِينَ - إِلَى قَوْلِهِ - الْمُفْلِحُونَ﴾ هؤلاء أهل الجنة ، قالوا : إنا نرجوا أن تكون هؤلاء ثم قال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ هـ . هـ يا رسول الله ، قال : «أجل» .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ

يقول تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي غطوا الحق وستروه وقد كتب الله تعالى عليهم ذلك سواء عليهم إنذارك وعدمه فإنهم لا يؤمنون بما جئتـ به . كما قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلْمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرُوا الْعِذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس : ٩٦] وقال تعالى في حق اپلـ معانديـن من أهل الكتاب : ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أَوْتَوْا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبَعَوْ قَبْلَكَ﴾ [البقرة : ١٤٥] ، أي إنـ من كتب الله عليه الشقاوة فلا مسعدـ له ومن أصلـه فلا هاديـ له ، فلا تذهب نفسـك عليهم حسرات وبلغـهم الرسـالة ، فمن استـجابـ لكـ فـلهـ الحـظـ الأـوفـرـ وـمنـ توـلىـ فـلاـ تـحزـنـ عـلـيـهمـ ولاـ يـهـمـنـكـ ذـلـكـ ﴿فَإِنـمـاـ عـلـيـكـ الـبـلـاغـ وـعـلـيـنـاـ الـحـسـابـ﴾ [الرـعدـ : ٤٠] ﴿إِنـمـاـ أـنـتـ نـذـيرـ وـالـهـ عـلـيـ كلـ شـيءـ وـكـيلـ﴾ [هـودـ : ١٢] وـقالـ عـلـيـ بنـ أـبـيـ طـلـحةـ عـنـ اـبـنـ عـبـاسـ فـيـ قـوـلـهـ تـعـالـيـ : ﴿إِنـ الـذـينـ كـفـرـوـ سـوـاءـ عـلـيـهـمـ أـنـذـرـتـهـمـ أـمـ لـمـ تـنـذـرـهـمـ لـاـ يـؤـمـنـونـ﴾ قـالـ : كـانـ رـسـولـ اللهـ ﷺ يـحرـصـ أـنـ يـؤـمـنـ جـمـيعـ النـاسـ وـيـتـابـوـهـ عـلـىـ الـهـدـىـ فـأـخـبـرـهـ اللهـ تـعـالـيـ أـنـهـ لـاـ يـؤـمـنـ إـلـاـ مـنـ سـبـقـ لـهـ مـنـ اللهـ السـعـادـةـ فـيـ الذـكـرـ الـأـوـلـ وـلـاـ يـضـلـ إـلـاـ مـنـ سـبـقـ لـهـ مـنـ اللهـ الشـقاـوةـ فـيـ الذـكـرـ الـأـوـلـ<sup>(١)</sup> . وـقـالـ مـحـمـدـ بـنـ إـسـحـاقـ : حـدـثـنـيـ مـحـمـدـ بـنـ أـبـيـ مـحـمـدـ عـنـ عـكـرـمـةـ أـوـ سـعـيدـ بـنـ جـبـيرـ عـنـ اـبـنـ عـبـاسـ ﴿إِنـ الـذـينـ كـفـرـوـ﴾ أـيـ بماـ أـنـزـلـ إـلـيـكـ وـإـنـ قـالـوـ إـنـاـ قـدـ أـمـنـاـ بـمـاـ جـاءـنـاـ قـبـلـكـ ﴿سـوـاءـ عـلـيـهـمـ أـنـذـرـتـهـمـ أـمـ لـمـ تـنـذـرـهـمـ لـاـ يـؤـمـنـونـ﴾ أـيـ إـنـهـمـ قـدـ كـفـرـوـ بـمـاـ عـنـدـهـمـ مـنـ ذـكـرـكـ وـجـحـدـوـ ماـ أـخـذـ عـلـيـهـمـ مـنـ الـمـيـثـاقـ وـقـدـ كـفـرـوـ بـمـاـ جـاءـكـ وـبـمـاـ عـنـدـهـمـ مـاـ جـاءـهـمـ بـهـ غـيرـكـ فـكـيفـ يـسـمـعـونـ مـنـكـ إـنـذـارـاـ وـتـحـذـيرـاـ وـقـدـ كـفـرـوـ بـمـاـ عـنـدـهـمـ مـنـ عـلـمـكـ . قـالـ أـبـوـ جـعـفرـ الرـازـيـ عـنـ الرـبـعـ بـنـ أـنـسـ عـنـ أـبـيـ الـعـالـيـةـ قـالـ : نـزـلتـ هـاتـانـ الآـيـاتـ فـيـ قـادـةـ الـأـحـزـابـ وـهـمـ الـذـينـ قـالـ اللهـ فـيـهـمـ : ﴿أَلَمْ تـرـ إـلـىـ الـذـينـ بـدـلـوـنـاـ نـعـمـةـ اللهـ كـفـرـاـ وـأـحـلـواـ قـوـمـهـ دـارـ الـبـوارـ \* جـهـنـمـ يـصـلـونـهـاـ﴾ [إـبرـاهـيمـ : ٢٩ـ ـ ٢٨ـ] وـالـمـعـنـىـ الـذـيـ ذـكـرـنـاهـ أـوـلـاـ وـهـوـ المـرـوـيـ عـنـ اـبـنـ عـبـاسـ فـيـ روـاـيـةـ عـلـيـ بـنـ أـبـيـ طـلـحةـ أـظـهـرـ ، وـيـفـسـرـ بـقـيـةـ الـآـيـاتـ الـتـيـ فـيـ

(١) رـوـاهـ السـيـوطـيـ فـيـ الدـرـ المـشـورـ (٦٥ـ /ـ ١) . قـالـ : وـأـخـرـجـهـ اـبـنـ جـرـيـجـ وـابـنـ أـبـيـ حـاتـمـ وـالـطـبـرـانيـ فـيـ الـكـبـيرـ فـيـ الـسـنـةـ وـابـنـ مرـدـوـيـ وـالـبـيـهـقـيـ فـيـ الـأـسـمـاءـ وـالـصـفـاتـ .

معناها، والله أعلم.

وقد ذكر ابن أبي حاتم هنا حديثاً فقال: حدثنا أبي حدثنا يحيى بن عثمان بن صالح المصري حدثنا ابن لهيعة حدثني عبد الله بن المغيرة عن أبي الهيثم عن عبد الله بن عمرو وقال: قيل يا رسول الله إنا نقرأ من القرآن فنرجو ونقرأ فنكاد أن نيأس فقال: «ألا أخبركم» ثم قال: «إن الذين كفروا سواء عليهم أذنرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون» «هؤلاء أهل النار» قالوا: لستا منهم يا رسول الله، قال «أجل». قوله تعالى: «لا يؤمنون» محله من الإعراب أنه جملة مؤكدة للتي قبلها «سواء عليهم أذنرتهم أم لم تنذرهم» أي هم كفار في كلا الحالين فلهذا أكد ذلك بقوله تعالى: «لا يؤمنون» ويحتمل أن يكون لا يؤمنون خبراً لأن تقديره إن الذين كفروا لا يؤمنون ويكون قوله تعالى: «سواء عليهم أذنرتهم أم لم تنذرهم» جملة معتبرة، والله أعلم.

خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غَشْوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ

قال السدي: ختم الله أي طبع الله وقال قتادة في هذه الآية: استحوذ عليهم الشيطان إذ أطاعوه فختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة فهم لا يصررون هدى ولا يسمعون ولا يفهون ولا يعقلون. وقال ابن جريج: قال مجاهد: ختم الله على قلوبهم قال: الطبع، ثبتت الذنوب على القلب فحفت به من كل نواحيه حتى تلتقي عليه فالتقاؤها عليه الطبع والطبع الختم. قال ابن جريج: الختم على القلب والسمع. قال ابن جريج: وحدثني عبد الله بن كثير أنه سمع مجاهداً يقول: الران أيسر من الطبع، والطبع أيسر من الإقفال، والإقفال أشد ذلك كله. وقال الأعمش: أرانا مجاهد بيده فقال: كانوا يرون أن القلب في مثل هذه - يعني الكف - فإذا أذنب العبد ذنباً ضمّ منه - وقال بأصبعه الخنصر<sup>(١)</sup> هكذا - فإذا أذنب ضم - وقال بأصبع آخر - فإذا أذنب ضم - وقال بأصبع أخرى هكذا - حتى ضم أصابعه كلها ثم قال: يطبع عليه بطباع. وقال مجاهد: كانوا يرون أن ذلك الران<sup>(٢)</sup>. ورواه ابن حrir عن أبي كريب عن وكيع عن الأعمش عن مجاهد بنحوه<sup>(٣)</sup>، قال ابن حrir: وقال بعضهم إنما معنى قوله تعالى: «ختم الله على قلوبهم» إخبار من الله عن تكبرهم وإعراضهم عن الاستماع لما دعوا إليه من الحق كما يقال إن فلاناً أصم عن هذا الكلام إذا امتنع من سماعه ورفع نفسه عن تفهمه تكبراً. قال: وهذا لا يصح لأن الله تعالى قد أخبر أنه هو الذي ختم على قلوبهم وأسماعهم (قلت) وقد أطرب الرمخشري في تقرير ما رده ابن حrir هنا وتأول الآية من خمسة أوجه وكلها ضعيفة جداً، وما جرأه على ذلك إلا اعتزاله، لأن الختم على قلوبهم ومنعها من وصول الحق إليها قبيح عنده

(١) قال بلسانه: تكلم. وقال بيده وإصبعه: أشار. وكذلك بعينه وقدمه الخ.

(٢) الران والران: الغطاء والحجاب الكثيف. وهو أيضاً الصدأ يعلو شيء الجلي. والدنس. وما غطى على القلب وركبه من القسوة للذنب بعد الذنب.

(٣) تفسير الطبرى / ١٤٥.

يتعالى الله عنه في اعتقاده، ولو فهم قوله تعالى: «فَلِمَا زَاغُوا أَرَأَغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ» [الصف: ٥] وقوله: «وَنَقْلَبُ أَفْتَدُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْلَ مَرَةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ» [الأنعام: ١١٠] وما أشبه من الآيات الدالة على أنه تعالى إنما ختم على قلوبهم وحال بينهم وبين الهدى جزاء وفاقاً على تماديهم في الباطل وتركمهم الحق<sup>١</sup> وهذا عدل منه تعالى حسن وليس بقبيح، فلو أحاط علمًا بهذا لما قال ما قال والله أعلم.

قال القرطبي<sup>(١)</sup>: وأجمعت الأمة على أن الله عز وجل قد وصف نفسه بالختم والطبع على قلوب الكافرين مجازة لکفرهم كما قال: «بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ» [النساء: ١٥٥] وذكر حديث تقليل القلوب «اللَّهُمَّ يَا مَبْتَأِ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قُلُوبَنَا عَلَى دِينِنَا» وذكر حديث حذيفة الذي في الصحيح عن رسول الله ﷺ: قال «تعرض الفتنة على القلوب كالحصير عوداً فـأـي قـلـبـ أـشـرـبـهاـ نـكـتـ فـيـهـ سـوـدـاءـ وـأـيـ قـلـبـ أـنـكـرـهـاـ نـكـتـ فـيـهـ نـكـتـ بـيـضـاءـ حـتـىـ تـصـيـرـ عـلـىـ قـلـبـيـنـ عـلـىـ أـبـيـضـ مـثـلـ الصـفـاـ فـلـاـ تـضـرـهـ فـتـتـةـ مـاـ دـامـتـ السـمـوـاتـ وـالـأـرـضـ،ـ وـالـآخـرـ أـسـوـدـ مـرـبـادـ»<sup>(٢)</sup> كالكور مجخياً<sup>(٣)</sup> لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً» الحديث<sup>(٤)</sup>، قال ابن جرير: والحق عندي في ذلك ما صح بنظيره الخبر عن رسول الله ﷺ وهو ما حدثنا به محمد بن بشار حدثنا صفوان بن عيسى حدثنا ابن عجلان عن القعقاع عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ ذَنْبًا كَانَتْ نَكْتَةُ سُوْدَاءِ فِي قَلْبِهِ فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ<sup>(٥)</sup> صَقْلَ قَلْبِهِ، وَإِنْ زَادَتْ حَتَّى تَعْلُو<sup>(٦)</sup> قَلْبَهُ فَذَلِكَ الرَّانُ الَّذِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قَلْوَبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ»<sup>(٧)</sup>. وهذا الحديث من هذا الوجه قد رواه الترمذى والنسائى عن قتيبة واللith بن سعد وابن ماجه عن هشام بن عمار عن حاتم بن إسماعيل والوليد بن مسلم ثلاثة عن محمد بن عجلان به. وقال الترمذى: حسن صحيح. ثم قال ابن جرير: فأخبر رسول الله ﷺ أن الذنوب إذا تتابعت على القلوب أغلقتها وإذا أغلقتها أنها حينئذ الختم من قبل الله تعالى والطبع فلا يكون للإيمان إليها مسلك ، ولا للکفر عنها مخلص فذلك هو الختم والطبع الذي ذكر في قوله تعالى: «خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ» نظير الختم والطبع على ما تدركه الأ بصار من الأوعية والظروف التي لا يوصل إلى ما فيها إلا بغض ذلك عنها ثم حلها فكذلك

(١) تفسير القرطبي ١٨٧ / ١.

(٢) أي اختلط سواده بكدرة.

(٣) مُجَحِّيًّا: مائلاً.

(٤) تفسير القرطبي ١٨٩ / ١ ، صحيح مسلم (إيمان حديث ٢٣١).

(٥) في الأصل «واستعبد». وما أثبتناه عن الطبرى.

(٦) في الطبرى «تغلق».

(٧) سورة المطففين ، الآية: ١٤ . والحديث في تفسير الطبرى ١٤٥ / ١ . ورواه أحمد في المستند (ج ٣ ص

١٥٤) عن صفوان بن عيسى بهذا الإسناد.

لا يصل الإيمان إلى قلوب من وصف الله أنه ختم على قلوبهم وعلى سمعهم إلا بعد فض خاتمه  
وحل رباطه عنها.

واعلم أن الوقف التام على قوله تعالى: «ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم» وقوله: «وعلى أبصارهم غشاوة» جملة تامة فإن الطبع يكون على القلب وعلى السمع، والغشاوة وهي الغطاء تكون على البصر كما قال السدي في تفسيره عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمданى عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب رسول الله ﷺ في قوله «ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم» يقول: فلا يعقلون ولا يسمعون يقول: وجعل على أبصارهم غشاوة يقول: على أعينهم فلا يبصرون، وقال ابن جرير<sup>(١)</sup>: حدثني محمد بن سعد حدثنا أبي حدثني عمى الحسين بن الحسن عن أبيه عن جده عن ابن عباس: «ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم» والغشاوة على أبصارهم. قال: وحدثنا القاسم حدثنا الحسين، يعني ابن داود وهو سنيد<sup>(٢)</sup>، حدثني حجاج، وهو ابن محمد الأعور، حدثني ابن جريج قال: الختم على القلب والسمع، والغشاوة على البصر قال الله تعالى: «فإن يشأ الله يختم على قلبك» [الشورى: ٢٤] وقال: «وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة» [الجاثية: ٢٣] قال ابن جرير: ومن نصب غشاوة من قوله تعالى «وعلى أبصارهم غشاوة» يحتمل أنه نصبها بإضمار فعل تقديره: يجعل على أبصارهم غشاوة ويحتمل أن يكون نصبها على الإتباع على محل «وعلى سمعهم» كقوله تعالى: «وحور عين» [سورة الواقعة: ٢٢] وقول الشاعر: [الرجز]

علفه سا تبناً و ماء بـ سارداً حتى شـت هـمـالـة عـينـاهـا<sup>(٣)</sup>

وقال الآخر: [مجزوء الكامل]

ورأيت زوجك في الوغى متقدداً سيفاً ورمحاً<sup>(٤)</sup>

(١) تفسير الطبرى ١/١٤٧.

(٢) هو سُنيد بن داود، أبو علي المحتسب المصيحي المدائني المتوفى سنة ١٢٦ هـ. من الطبقة العاشرة.  
آخر ح له ابن ماجه. ضعيف. (موسوعة رجال الكتب التسعة ١١٣/٢).

(٣) الرجز بلا نسبة في لسان العرب (زجج، قلد، علف)؛ والأشياء والنظائر ١٠٨ / ٢؛ وأمالي المرضى ٤٧٩ / ٦؛ والإنصاف ٤١٢ / ٢؛ وأوضح المسالك ٢٤٥ / ٢؛ والخصائص ٤٣١ / ٢؛ والدرر ٤٢٥٩ / ٢ وشرح الأشموني ١ / ٢٢٦؛ وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ص ١١٤٧؛ وشرح شذور الذهب ص ٣١٢؛ وشرح شواهد المغني ١ / ٥٨؛ وهمع الهوامع ٢ / ١٣٠؛ وتاج العروس (علف)؛ والطبرى ١٤٧ / ١.

(٤) ويروي أيضاً: «يا ليت زوجك قد غداً». والبيت بلا نسبة في الطبرى /١٤٧؛ والأشباء والنظائر  
٢٣١ /٢؛ وأمالى المرتضى /١٥٤؛ والإنصاف /١٥٤؛ وخزانة الأدب /٢٣١؛ والخصائص  
٤٣١ /٢؛ وشرح شواهد الإيضاح ص ١٨٢؛ وشرح المفصل /٢٥؛ ولسان العرب (رغب، زجج)،  
مسح، قلد، جدع، جمع، هلى)؛ والمقتضب /٥١.

تقديره وسقيتها ماء بارداً ومتقدلاً رمحاً. لما تقدم وصف المؤمنين في صدر السورة بأربع آيات ثم عرَّف حال الكافرين بهاتين الآيتين، شرع تعالى في بيان حال المنافقين الذين يظهرون بالإيمان ويقطنون الكفر، ولما كان أمرهم يشتبه على كثير من الناس أطرب في ذكرهم بصفات متعددة كل منها نفاق، كما أنزل سورة براءة فيهِم، وسورة المنافقين فيهِم، وذكرهم في سورة النور وغيرها من السور تعريضاً لأحوالهم لتجتنب ويجتنب من تلبس بها أيضاً فقال تعالى:

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ إِيمَانًا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ يَخْدِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ إِيمَانُهُ وَمَا يَخْدِعُونَ إِلَّا أَنفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢﴾

النفاق هو إظهار الخير وإسرار الشر، وهو أنواع: اعتقادى، وهو الذي يخلد صاحبه في النار. وعملى وهو من أكبر الذنوب كما سيأتي تفصيله في موضعه إن شاء الله تعالى، وهذا كما قال ابن جريج: المنافق يخالف قوله فعله، وسره علانيته، ومدخله مخرجه، ومشهده مغييه، وإنما نزلت صفات المنافقين في السور المدنية لأن مكة لم يكن فيها نفاق بل كان خلافه، من الناس من كان يظهر الكفر مستكراً وهو في الباطن مؤمن، فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة وكان بها الأنصار من الأوس والخزرج وكانوا في جاهليتهم يعبدون الأصنام على طريقة مشركي العرب، وبها اليهود من أهل الكتاب على طريقة أسلافهم وكانوا ثلث قبائل: بنو قينقاع حلفاء الخزرج، بنو النضير وبنو قريطة حلفاء الأوس، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة وأسلم من أسلم من الأنصار من قبيلتي الأوس والخزرج وقل من أسلم من اليهود إلا عبد الله بن سلام رضي الله عنه ولم يكن إذ ذاك نفاق أيضاً لأنه لم يكن للMuslimين بعد شوكة تخاف، بل قد كان عليه الصلاة والسلام وادع اليهود وقبائل كثيرة من أحياء العرب حوالي المدينة فلما كانت وقعة بدر وأظهر الله كلمته وأعز الإسلام وأهله قال عبد الله بن أبي بن سلول وكان رأساً في المدينة وهو من الخزرج وكان سيد الطائفتين في الجاهلية، وكانوا قد عزموا على أن يملكون عليهم فجاءهم الخير وأسلموا واستغلوه عنه فبقي في نفسه من الإسلام وأهله، فلما كانت وقعة بدر قال: هذا أمر الله قد توجه<sup>(١)</sup>. فأظهر الدخول في الإسلام ودخل معه طوائف من هم على طريقته ونحلته وآخرون من أهل الكتاب، فمن ثم وجد النفاق في أهل المدينة ومن حولها من الأعراب فأمام المهاجرون فلم يكن فيهم أحد نافق لأنه لم يكن أحد يهاجر مكرهاً بل يهاجر فيترك ماله وولده وأرضه رغبة فيما عند الله في الدار الآخرة.

قال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ إِيمَانًا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ» يعني المنافقين من الأوس والخزرج ومن كان على أمرهم. وكذا فسرها بالمنافقين من الأوس والخزرج أبو العالية والحسن

(١) أي أن ملكه قد تولى وانقضى.

وقتادة والسيدي ولهذا نبه الله سبحانه على صفات المنافقين لئلا يغتر بظاهر أمرهم المؤمنون فيقع بذلك فساد عريض من عدم الاحتراز منهم ومن اعتقاد إيمانهم وهم كفار في نفس الأمر، وهذا من المحذورات الكبار أن يظن بأهل الفجور خير فقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي يقولون ذلك قوله لاً ليس وراءه شيء آخر كما قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكُمُ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشَهِدُ إِنَّكُمْ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكُمْ لَرَسُولُهُ﴾ [المنافقون: ١] أي إنما يقولون ذلك إذا جاؤوك فقط لا في نفس الأمر، ولهذا يؤكدون في الشهادة بإن ولام التأكيد في خبرها. كما أكدوا أمرهم قالوا: آمنا بالله وبالاليوم الآخر، وليس الأمر كذلك، كما كذبهم الله في شهادتهم وفي خبرهم هذا بالنسبة إلى اعتقادهم بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَشَهِدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١] وبقوله: ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي يظهارهم ما أظهروه من الإيمان مع إسرارهم الكفر، يعتقدون بجهلهم أنهم يخدعون الله بذلك، وأن ذلك نافع لهم عنده، وأنه يروج عليه كما قد يروج على بعض المؤمنين كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فِي حَلْفَوْنَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ إِلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [المجادلة: ١٨] ولهذا قبلهم على اعتقادهم ذلك بقوله: ﴿وَمَا يَخْدُعُونَ إِلَّا أَنفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ يقول: وما يغرون بصنعيهم هذا ولا يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون بذلك من أنفسهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يَخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢] ومن القراء من قرأ ﴿وَمَا يَخْدُعُونَ إِلَّا أَنفُسُهُمْ﴾ وكلا القراءتين ترجع إلى معنى واحد<sup>(١)</sup>. وقال ابن جرير: فإن قال قائل: كيف يكون المنافق لله وللمؤمنين مخادعاً وهو لا يظهر بلسانه خلاف ما هو له معتقد إلا تقية؟ قيل: لا تمنع العرب من أن تسمى من أعطى بلسانه غير الذي هو في ضميره تقية لينجو مما هو له خائف مخادعاً، فكذلك المنافق سمي مخادعاً لله وللمؤمنين بإظهاره ما أظهر بلسانه تقية مما تخلاص به من القتل والسبي والعذاب العاجل وهو لغير ما أظهره مستبطن وذلك من فعله، وإن كان خداعاً للمؤمنين في عاجل الدنيا فهو لنفسه بذلك من فعله خادع، لأنه يظهر لها بفعله ذلك بها أنه يعطيها أمنيتها ويسقيها كأس سرورها، وهو موردها به حياض عطبيها، ومحجرها به كأس عذابها، ومُزِيرها<sup>(٢)</sup> من غضب الله وأليم عقابه ما لا قبل لها به، فذلك خديعته نفسه ظناً منه مع إساءته إليها في أمر معادها أنه إليها محسن كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَخْدُعُونَ إِلَّا أَنفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ إعلاماً منه عباده المؤمنين أن المنافقين بإساءتهم إلى أنفسهم في إسخاطهم عليها ربهم بكفرهم وشكهم وتکذيبهم

(١) اختار الطبرى قراءة (وما يخدعون). قال: ومن الدلالة أيضاً على أن هذه القراءة أولى بالصحة أن الله جل شأنه قد أخبر عنهم أنهم يخدعون الله والمؤمنين في أول الآية، فمحال أن ينفي عنهم ما قد أثبت أنهم قد فعلوه، لأن ذلك تضاد في المعنى، وذلك غير جائز من الله عز وجل. (تفسير الطبرى ١٥٣/١).

(٢) جعلها زيارة، وهي هلاك، سخرية بهم واستهزاء.

غير شاعرين ولا دارين، ولكنهم على عمياء من أمرهم مقيمون. وقال ابن أبي حاتم: أنبأنا علي بن المبارك فيما كتب إلى حدثنا زيد بن المبارك حدثنا محمد بن ثور عن ابن جريج في قوله تعالى: يخادعون الله قال: يظهرون لا إله إلا الله يريدون أن يحرزوا بذلك دماءهم وأموالهم وفي أنفسهم غير ذلك. وقال سعيد عن قتادة **﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾** يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون **﴿نَعْتَ الْمُنَافِقِ عِنْدَكُمْ﴾** نعت المنافق عند كثير: خنع الأخلاق يصدق بلسانه وينكر بقلبه ويختلف بعمله ويصبح على حال ويمسي على غيره، ويمسي على حال ويصبح على غيره، ويتكفأ<sup>(١)</sup> تكتفاً السفينة كلما هبت ريح هبت معها.

**فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادُهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ**

قال السدي عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمданى عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب رسول الله ﷺ في هذه الآية **﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾** قال: شك (فزادهم الله مرضًا) قال: شكًا. وقال ابن إسحاق عن محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس (في قلوبهم مرض) قال: شكًا. وكذلك قال مجاهد وعكرمة والحسن البصري وأبو العالية والربيع بن أنس وقتادة. وعن عكرمة وطاوس (في قلوبهم مرض) يعني الرياء. وقال الضحاك عن ابن عباس (في قلوبهم مرض) قال: نفاق. (فزادهم الله مرضًا) قال: نفاقاً وهذا كال الأول. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (في قلوبهم مرض) قال: هذا مرض في الدين وليس مرضًا في الأجساد وهم المنافقون. والمرض الشك الذي دخلهم في الإسلام (فزادهم الله مرضًا) قال: زادهم رجساً، وقرأ **﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادُهُمْ إيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبَشِّرُونَ﴾** وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم **﴿[التوبه: ١٢٤ - ١٢٥]﴾**. قال: شراً إلى شرهم وضلالاً إلى ضلالتهم. وهذا الذي قاله عبد الرحمن رحمة الله حسن وهو الجزاء من جنس العمل وكذلك قاله الأولون وهو نظير قوله تعالى أيضاً **﴿وَالَّذِينَ اهْتَدُوا زَادُهُمْ هُدًى وَأَتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾** [محمد: ١٧] وقوله **﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾** وقرئ **يَكْذِبُونَ** وقد كانوا متصفين بهذا وهذا، فإنهم كانوا كذبة ويکذبون بالغيب يجمعون بين هذا وهذا. وقد سئل القرطبي وغيره من المفسرين عن حكمة كفه عليه الصلاة والسلام عن قتل المنافقين مع علمه بأعيان بعضهم <sup>(٢)</sup> وذكروا أوجوبة عن ذلك منها ما ثبت في الصحيحين أنه **ﷺ** قال لعمراً رضي الله عنه «أكره أن يتحدث العرب أن محمداً يقتل أصحابه» <sup>(٣)</sup> ومعنى هذا خشية أن يقع بسبب ذلك تغيير لكثير من الأعراب عن الدخول في الإسلام ولا يعلمون حكمة قتله لهم وأن قتله إياهم إنما هو على الكفر فإنه إنما

(١) تكتفاً: تمايل وتبخر.

(٢) المراد: مع علمه بتفاهمهم، كما في القرطبي . ١٩٨ / ١ .

(٣) في القرطبي: «معاذ الله أن يتحدث الناس أي أقتل أصحابي» قال: أخرجه البخاري ومسلم .

يأخذونه بمجرد ما يظهر لهم فيقولون: إن محمداً يقتل أصحابه، قال القرطبي: وهذا قول علمائنا وكما كان يعطي المؤلفة قلوبهم مع علمه بسوء اعتقادهم، قال ابن عطية<sup>(١)</sup>: وهي طريقة أصحاب مالك، نص على هذا محمد بن الجهم والقاضي إسماعيل والأبهري وعن ابن الماجشون. ومنها ما قال مالك: إنما كف رسول الله ﷺ عن المنافقين لبيان لأمته أن الحكم لا يحكم بعلمه قال القرطبي: وقد اتفق العلماء عن بكرة أبيهم على أن القاضي لا يقتل بعلمه وإن اختلفوا في سائر الأحكام، قال: ومنها ما قال الشافعي إنما منع رسول الله ﷺ من قتل المنافقين ما كانوا يظهرونه من الإسلام مع العلم باتفاقهم لأن ما يظهرونه يجب<sup>(٢)</sup> ما قبله. ويفيد هذا قوله عليه الصلاة والسلام في الحديث المجمع على صحته في الصحيحين وغيرهما «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله عز وجل»<sup>(٣)</sup> ومعنى هذا أن من قالها جرت عليه أحكام الإسلام ظاهراً فإن كان يعتقدوها وجد ثواب ذلك في الدار الآخرة وإن لم يعتقدوها لم ينفعه جريان الحكم عليه في الدنيا وكونه كان خليط أهل الإيمان «ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بل، ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربيتم وغرتبتم الأمانى حتى جاء أمر الله» [الحاديدين: ١٤] فهم يخالطونهم في بعض المحشر فإذا حقت المحقوقية تميزوا منهم وتختلفوا بعدهم «وحيل بينهم وبين ما يشتهرون» [سبأ: ٥٤] ولم يمكنهم أن يسجدوا معهم كما نطقت بذلك الأحاديث ومنها ما قاله بعضهم أنه إنما لم يقتلهم لأنه لا يخاف من شرهم مع وجوده ﷺ بين أظهرهم يتلو عليهم آيات مبينات فأما بعده فيقتلون إذا أظهروا التفاق وعلمه المسلمون، قال مالك: المنافق في عهد رسول الله ﷺ هو الزنديق اليوم<sup>(٤)</sup> (قلت) وقد اختلف العلماء في قتل الزنديق إذا أظهر الكفر هل يستتاب أم لا، أو يفرق بين أن يكون داعية أم لا، أو يتكرر منه ارتداده أم لا، أو يكون إسلامه ورجوعه من تلقاء نفسه أو بعد أن ظهر عليه؟ على أقوال متعددة موضع بسطها وتقريرها وعزوها كتاب الأحكام.

[تنبيه] قول من قال: كان عليه الصلاة والسلام يعلم أعيان بعض المنافقين، إنما مستنده حديث حذيفة بن اليمان في تسمية أولئك الأربع عشر منافقاً في غزوة تبوك الذين هموا أن يفتكونا برسول الله ﷺ في ظلماء الليل عند عقبة هناك، عزموا على أن ينفروا به الناقة ليسقط عنها، فأوحى الله إليه أمرهم، فأطلع على ذلك حذيفة ولعل الكف عن قتلهم كان لمدرك من هذه

(١) ما يأتي من قول ابن عطية ومالك والشافعي هو أيضاً نقل عن القرطبي في تفسيره ١٩٩/١.

(٢) جب الشيء: قطعه. ومنه الحديث: «إن الإسلام يجب ما قبله».

(٣) أخرجه البخاري (إيمان باب ١٧؛ وزكاة باب ١؛ وصلة باب ٢٨؛ واستتابة باب ٣) ومسلم (إيمان حديث ٣٢؛ وزكاة حديث ١؛ وجihad حديث ١) والترمذى (إيمان باب ١ و ٢؛ وتفسير سورة ٨٨ والنمسائي (زكاة باب ٣؛ وإيمان باب ١٥) وابن ماجه (مقدمة باب ٩؛ وفتن باب ١).

(٤) عبارة القرطبي: قال مالك: النفاق في عهد رسول الله هو الزندة فينا اليوم؛ فيقتل الزنديق إذا شهد عليه بما دون استتابة؛ وهو أحد قولى الشافعى.

المدارك أو لغيرها والله أعلم.

فاما غير هؤلاء فقد قال الله تعالى: «وَمِنْ حَوْلِكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرْدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ» [التوبه: ١٠١]، وقال تعالى: «لَئِنْ لَمْ يَتَّهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرْضٌ وَالْمَرْجُونُ فِي الْمَدِينَةِ لَنَغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يَجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا \* مَلُوْنِينَ أَيْنَمَا ثَقَفُوا أَخْذَنَوْا وَقُتْلُوْا تَقْتِلَلًا» [الأحزاب: ٦٠ - ٦١] ففيها دليل على أنه لم يغر بهم ولم يدرك على أعيانهم وإنما كان تذكر له صفاتهم فيتوسمها في بعضهم كما قال تعالى «وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرِينَاكُمْ فَلَعْنَوْهُمْ بِسِيمَاهُمْ \* وَلَتَعْرِفُنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ» [محمد: ٣٠] وقد كان من أشهرهم بالتفاق عبد الله بن أبي بن سلول، وقد شهد عليه زيد بن أرقم بذلك الكلام الذي سبق في صفات المنافقين ومع هذا لما مات صلى الله عليه وسلم وشهد دفنه كما يفعل بقية المسلمين، وقد عاتبه عمر بن الخطاب رضي الله عنه فيه فقال: «إني أكره أن تتحدث العرب أن محمداً يقتل أصحابه» وفي رواية في الصحيح «إني خيرت فاخترت» وفي رواية «لو أعلم أني لو زدت على السبعين يغفر له لزدت».

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۚ إِلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ۚ

قال السدي في تفسيره عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة الطيب الهمданى عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب النبي ﷺ «وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون» قال: هم المنافقون. أما (لا تفسدوا في الأرض) قال: الفساد هو الكفر والعمل بالمعصية. وقال أبو جعفر عن الربيع بن أنس عن أبي العالية في قوله تعالى «وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض» قال: يعني لا تعصوا في الأرض وكان فسادهم ذلك معصية الله لأنه من عصى الله في الأرض أو أمر بمعصيته فقد أفسد في الأرض لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة<sup>(١)</sup>. وهكذا قال الربيع بن أنس وقاده. وقال ابن جريج عن مجاهد «وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض» قال: إذا رکبوا معصية الله فقيل لهم لا تفعلوا كذا وكذا قالوا: إنما نحن على الهدى مصلحون<sup>(٢)</sup>، وقال وكيع وعيسى بن يونس وعثام بن علي عن الأعمش عن المنھال بن عمرو عن عباد بن عبد الله الأزدي عن سلمان الفارسي «وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون» قال سلمان: لم يجيء أهل هذه الآية بعد. وقال ابن جریر<sup>(٢)</sup> حدثني أحمد بن عثمان بن حكيم حدثنا عبد الرحمن بن شريك حدثني أبي عن الأعمش عن زيد بن وهب وغيره عن سلمان الفارسي في هذه الآية قال: ما جاء هؤلاء بعد؟ قال ابن جریر:

(١) تفسير الطبرى / ١٥٩ .

(٢) تفسير الطبرى / ١٦٠ .

يحتمل أن سلمان رضي الله عنه أراد بهذا أن الذين يأتون بهذه الصفة أعظم فساداً من الذين كانوا في زمان النبي ﷺ لا أنه عنى أنه لم يمض ممن تلك صفتـه أحد، قال ابن جرير: فأهل النفاق مفسدون في الأرض بمعصيتـهم فيها ربـهم وركوبـهم فيها ما نهاـهم عن ركوبـه وتضيـعـهم فرائـصـه وشكـهم في دينـه الذي لا يقبلـ من أحد عملـ إلا بالتصـديـقـ به والإـيقـانـ بـحقـيقـتـهـ وكـذـبـهمـ المؤـمنـينـ بـدعـواـهمـ غـيرـ ماـ هـمـ عـلـيـهـ مـقـيـمـونـ منـ الشـكـ والـرـبـ ومـظـاهـرـتـهمـ أـهـلـ التـكـذـيبـ بـالـلـهـ وـكـتـبـهـ وـرـسـلـهـ عـلـىـ أـوـلـيـاءـ اللـهـ إـذـاـ وـجـدـواـ إـلـىـ ذـلـكـ سـبـيـلاـ فـذـلـكـ إـفـسـادـ الـمـنـافـقـينـ فـيـ الـأـرـضـ، وـهـمـ يـحـسـبـونـ أـنـهـمـ بـفـعـلـهـ ذـلـكـ مـصـلـحـوـنـ فـيـهـاـ . وـهـذـاـ الـذـيـ قـالـ حـسـنـ، فـإـنـ مـنـ الـفـسـادـ فـيـ الـأـرـضـ اـتـخـاذـ الـمـؤـمـنـينـ الـكـافـرـينـ أـوـلـيـاءـ كـمـاـ قـالـ تـعـالـىـ 『وـالـذـينـ كـفـرـوـ بـعـضـهـمـ أـوـلـيـاءـ بـعـضـ إـلـىـ تـفـعـلـوـهـ تـكـنـ فـتـنـةـ فـيـ الـأـرـضـ وـفـسـادـ كـبـيرـ』 [الأـنـفـالـ: ٧٣ـ] فـقـطـ اللـهـ الـمـوـالـةـ بـيـنـ الـمـؤـمـنـينـ وـالـكـافـرـينـ كـمـاـ قـالـ تـعـالـىـ 『يـاـ أـيـهـاـ الـذـينـ آمـنـواـ لـاـ تـخـذـنـوـ الـكـافـرـينـ أـوـلـيـاءـ مـنـ دـوـنـ الـمـؤـمـنـينـ أـتـرـيـدـوـنـ أـنـ تـجـعـلـوـهـ عـلـيـكـمـ سـلـطـانـاـ مـبـيـناـ』 ثـمـ قـالـ 『إـنـ الـمـنـافـقـينـ فـيـ الـدـرـكـ الـأـسـفـلـ مـنـ النـارـ وـلـنـ تـجـدـ لـهـ نـصـرـاـ』 [الـنـسـاءـ: ١٤٤ـ] ١٤٥ـ فـالـمـنـافـقـ لـمـ كـانـ ظـاهـرـ الـإـيمـانـ اـشـتـبـهـ أـمـرـهـ عـلـىـ الـمـؤـمـنـينـ، فـكـانـ الـفـسـادـ مـنـ جـهـةـ الـمـنـافـقـ حـاـصـلـ لـأـنـهـ هـوـ الـذـيـ غـرـ الـمـؤـمـنـينـ، بـقـولـهـ الـذـيـ لـاـ حـقـيقـةـ لـهـ وـوـالـىـ الـكـافـرـينـ عـلـىـ الـمـؤـمـنـينـ، وـلـوـ أـنـهـ اـسـتـمـرـ عـلـىـ حـالـهـ الـأـوـلـ لـكـانـ شـرـهـ أـخـفـ، وـلـوـ أـخـلـصـ الـعـلـمـ اللـهـ وـتـطـابـقـ قـولـهـ وـعـمـلـهـ لـأـفـلـحـ وـنـجـحـ، وـلـهـذـاـ قـالـ تـعـالـىـ 『وـإـذـاـ قـيلـ لـهـمـ لـاـ تـفـسـدـوـاـ فـيـ الـأـرـضـ قـالـوـاـ إـنـمـاـ نـحـنـ مـصـلـحـوـنـ』 أـيـ نـرـيدـ أـنـ نـدارـيـ الـفـرـيقـيـنـ مـنـ الـمـؤـمـنـينـ وـالـكـافـرـينـ وـنـصـطـلـحـ مـعـ هـؤـلـاءـ وـهـؤـلـاءـ كـمـاـ قـالـ مـحـمـدـ بـنـ إـسـحـاقـ عـنـ مـحـمـدـ بـنـ أـبـيـ مـحـمـدـ عـنـ عـكـرـمـةـ أـوـ سـعـيـدـ بـنـ جـبـيرـ عـنـ اـبـنـ عـبـاسـ 『وـإـذـاـ قـيلـ لـهـمـ لـاـ تـفـسـدـوـاـ فـيـ الـأـرـضـ قـالـوـاـ إـنـمـاـ نـحـنـ مـصـلـحـوـنـ』 أـيـ إـنـمـاـ نـرـيدـ إـلـاصـلـاحـ بـيـنـ الـفـرـيقـيـنـ مـنـ الـمـؤـمـنـينـ وـأـهـلـ الـكـتـابـ<sup>(١)</sup>. يـقـولـ اللـهـ 『أـلـاـ إـنـهـ هـمـ الـمـفـسـدـوـنـ وـلـكـنـ لـاـ يـشـعـرـوـنـ』 يـقـولـ: أـلـاـ إـنـ هـذـاـ الـذـيـ يـعـتـمـدـوـنـ وـيـزـعـمـوـنـ أـنـ إـصـلـاحـ هـوـ عـيـنـ الـفـسـادـ وـلـكـنـ مـنـ جـهـلـهـمـ لـاـ يـشـعـرـوـنـ بـكـونـهـ فـسـادـاـ.

فـإـذـاـ قـيلـ لـهـمـ إـمـنـواـ كـمـاـ إـمـنـواـ كـمـاـ إـمـنـ الـنـاسـ قـالـوـاـ آتـوـمـنـ كـمـاـ إـمـنـ الـسـفـهـاءـ لـلـأـلـاـ إـنـهـمـ هـمـ الـسـفـهـاءـ وـلـكـنـ لـأـ يـعـلـمـوـنـ

يـقـولـ تـعـالـىـ وـإـذـاـ قـيلـ لـلـمـنـافـقـيـنـ: أـمـنـواـ كـمـاـ إـمـنـ الـنـاسـ أـيـ كـإـيمـانـ الـنـاسـ بـالـلـهـ وـمـلـائـكـتـهـ وـكـتـبـهـ وـرـسـلـهـ وـالـبـعـثـ بـعـدـ الـمـوـتـ وـالـجـنـةـ وـالـنـارـ وـغـيـرـ ذـلـكـ مـاـ أـخـبـرـ الـمـؤـمـنـينـ بـهـ وـعـنـهـ، وـأـطـيـعـواـ اللـهـ وـرـسـوـلـهـ فـيـ اـمـتـالـ الـأـوـامـرـ وـتـرـكـ الزـوـاجـ 『قـالـوـاـ آتـوـمـنـ كـمـاـ إـمـنـ السـفـهـاءـ』 يـعـنـونـ - لـعـنـهـ اللـهـ - أـصـحـابـ رـسـوـلـ اللـهـ<sup>ﷺ</sup> رـضـيـ اللـهـ عـنـهـمـ، قـالـهـ أـبـوـ الـعـالـيـةـ وـالـسـدـيـيـ فـيـ تـفـسـيـرـهـ بـسـنـدـهـ عـنـ اـبـنـ عـبـاسـ وـابـنـ مـسـعـودـ وـغـيـرـ وـاحـدـ مـنـ الـصـحـابـةـ، وـبـهـ يـقـولـ الـرـبـيـعـ بـنـ أـنـسـ وـعـبـدـ الرـحـمـنـ بـنـ زـيـدـ بـنـ

(١) بـهـذـاـ إـسـنـادـ أـخـرـجـهـ الطـبـرـيـ فـيـ تـفـسـيـرـهـ ١٦٠ـ /ـ ١ـ .

أسلماً<sup>(١)</sup>، وغيرهم يقولون: أنصيير نحن وهؤلاء بمترفة واحدة وعلى طريقة واحدة وهم سفهاء؟ والسفهاء جمع سفيه كما أن الحكماء جمع حكيم والحملاء جمع حليم، والسفيه هو الجاهل الضعيف الرأي القليل المعرفة بمواضع المصالح والمضار، ولهذا سمي الله النساء والصبيان سفهاء في قوله تعالى ﴿وَلَا تُؤْتُوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً﴾ [النساء: ٥] قال عامة علماء التفسير: هم النساء والصبيان، وقد تولى الله سبحانه جوابهم في هذه المواطن كلها فقال ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السفهاء﴾ فأكذب وحصر السفهاء فيهم ﴿وَلَكُنْ لَا يَعْلَمُون﴾ يعني: ومن تمام جهلهم أنهم لا يعلمون بحالهم في الصلاة والجهل وذلك أردى لهم وأبلغ في العمى والبعد عن الهدى.

وَإِذَا كُفَّا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا إِنَّا أَمَنَّا وَإِذَا خَلُوا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَخْنَنُ مُسْتَهْزِئِينَ وَنَبْشِرُهُمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَنْدَمُهُمْ فِي طَغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ

يقول تعالى وإذا لقي هؤلاء المنافقون المؤمنين قالوا: آمنا، وأظهروا لهم الإيمان والموالاة والمصافحة غروراً منهم للمؤمنين ونفاقاً ومصانعة وتقية، وليشركوه في مما أصابوا من خير ومحنة ﴿وَإِذَا خَلُوا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ يعني إذا انصرفوا وذهبوا وخلصوا إلى شياطينهم، فضمن (خلوا) معنى انصرفوا لتعديته بالي ليدل على الفعل المضار والفعل الملفوظ به. ومنهم من قال ﴿إِلَى﴾ هنا بمعنى «مع» والأول أحسن، وعليه يدور كلام ابن جرير<sup>(٢)</sup>. وقال السدي عن أبي مالك: خلوا يعني مضوا، وشياطينهم: سادتهم وكباراً لهم من أخبار اليهود ورؤوس المشركين والمنافقين. قال السدي في تفسيره عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمданى عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ ﴿وَإِذَا خَلُوا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾: يعني هم رؤوساً لهم في الكفر. وقال الصحاح عن ابن عباس: وإذا خلوا إلى أصحابهم وهم شياطينهم. وقال محمد بن إسحاق عن محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿وَإِذَا خَلُوا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ من يهود الذين يأمرونهم بالتكذيب وخلاف ما جاء به الرسول ﷺ وقال مجاهد: ﴿وَإِذَا خَلُوا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ إلى أصحابهم من المنافقين والمشركين. وقال قتادة ﴿وَإِذَا خَلُوا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ قال: إلى رؤوسهم وقادتهم في الشرك والشر، وبنحو ذلك فسره أبو

(١) تفسير الطبرى / ١٦٢ / ٤؛ والدر المثور / ٦٨ / ١ — ٦٩.

(٢) قال ابن جرير: وأما بعض نحوى أهل الكوفة فإنه كان يتأنى أن ذلك بمعنى: وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا، وإذا صرقو خلاءهم إلى شياطينهم... الخ. فيزعم أن الجالب «إلى» المعنى الذي دل عليه الكلام: من انصراف المنافقين عن لقاء المؤمنين إلى شياطينهم خالين بهم، لا قوله «خلوا». وعلى هذا التأويل لا يصلح في موضع «إلى» غيرها، لتغير الكلام بدخول غيرها من العروض مكانها. قال: وهذا القول عندي أولى بالصواب، لأن لكل حرف من حروف المعاني وجهاً هو به أولى من غيره. (تفسير الطبرى / ١٦٥ / ١).

مالك وأبو العالية والسدسي والربيع بن أنس . قال ابن جرير : وشياطين كل شيء مردته ، ويكون الشيطان من الإنس والجن كما قال تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُواً شَيَاطِينَ مِنَ الْإِنْسَانِ وَالْجَنِ يَوْحِي بِعِضْهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غَرْوَرًا﴾ [الأعام : ١١٢] وفي المسند<sup>(١)</sup> عن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ «[يَا أَبَا ذَرٍّ] تَعَوَّذْ بِاللهِ مِنْ شَيَاطِينَ الْإِنْسَانِ وَالْجَنِ» فقلت يا رسول أَوَ للإِنْسَانِ شَيَاطِينَ؟ قال «نعم» وقوله ﴿قَالُوا إِنَا مَعْكُم﴾ قال محمد بن إسحاق عن محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس : أَي إِنَا عَلَى مِثْلِ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ أَي إِنَّمَا نَحْنُ نَسْتَهْزِئُ بِالْقَوْمِ وَنَلْعَبُ بِهِمْ<sup>(٢)</sup> . وقال الفضاحاً عن ابن عباس : قالوا إنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ بِأَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وكذا قال الربيع بن أنس وقتادة .

وقوله تعالى جواباً لهم ومقابلة على صنيعهم ﴿إِنَّمَا يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمْدُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ قال ابن جرير : أخبر تعالى أنه فاعل بهم ذلك يوم القيمة في قوله تعالى ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمَنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْظَرُونَا نَقْتِيسَ مِنْ نُورِكُمْ قَبْلَ أَرْجِعُوكُمْ وَرَاءَكُمْ فَالْمُتَمَسِّوْنَ نُورًا فَضَرَبَ بَيْنَهُمْ بَسُورٍ لَهُ بَابٌ بِاطِّنَهُ فِي الرَّحْمَةِ وَظَاهِرُهُ مِنْ قَبْلِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد : ١٣] وقوله تعالى ﴿وَلَا يَحْسِنُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّمَا نَمْلِي لَهُمْ خَيْرًا لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نَمْلِي لَهُمْ لِيَزَدَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عمران : ١٧٨] قال : فهذا وما أشبهه من استهزءاء الله تعالى ذكره وسخريته ومكره وخديعته للمنافقين وأهل الشرك به عند قائل هذا القول ومتأنل هذا التأويل قال : وقال آخرون بل استهزأوه بهم توبيقه إياهم ولو م لهم على ما ركبوا من معاصيه والكفر به . قال : وقال آخرون هذا وأمثاله على سبيل الجواب كقول الرجل لمن يخدعه إذا ظفر به : أنا الذي خدعتك ، ولم يكن منه خديعة ولكن قال ذلك إذا صار الأمر إليه . قالوا : وكذلك قوله تعالى ﴿وَمَكْرُوا وَمَكْرُ اللهِ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [آل عمران : ٥٤] و ﴿إِنَّمَا يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ على الجواب ، والله لا يكون منه المكر ولا الهزلة . والمعنى أن المكر والهزلة حاقد بهم ، وقال آخرون : قوله تعالى ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ \* إِنَّمَا يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ وقوله ﴿يَخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء : ١٤٢] وقوله ﴿فَيُسْخِرُونَ مِنْهُمْ سُخْرَيْرَ اللهِ مِنْهُمْ﴾ [التوبه : ٧٩] و ﴿نَسَوَ اللهُ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبه : ٦٧] وما أشبه ذلك إخبار من الله تعالى أنه مجازيهم جزاء الاستهزاء ومعاقبهم عقوبة الخداع ، فآخر خبره عن جزائه إياهم وعقابه لهم مخرج خبره عن فعلهم الذي عليه استحقوا العقاب في اللفظ وإن اختلف المعنيان كما قال تعالى ﴿وَجُزَاءُ سَيِّئَةٍ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأُجْرِهُ عَلَى اللهِ﴾ [الشورى : ٤٠] وقوله تعالى ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ﴾ فال الأول ظلم والثاني عدل ، فهما وإن اتفقا لفظهما فقد اختلف معناهما . قال : وإلى هذا المعنى وجها كل ما في القرآن من نظائر ذلك .

(١) مسند أحمد، ج ٥ ص ١٧٨ و ١٧٩ و ٢٦٥ .

(٢) الزيادة من المسند .

(٣) الدر المثور ١/٦٩؛ والطبرى ١/٦٥ .

قال : وقال آخر ون إن معنى ذلك أن الله أخبر عن المنافقين أنهم إذا خلوا إلى مردمتهم قالوا إننا معكم على دينكم في تكذيب محمد ﷺ وما جاء به ، وإنما نحن بما نظير لهم من قولنا لهم [صدقنا بمحمد عليه السلام وما جاء به]<sup>(١)</sup> مستهزئون ، فأخبر تعالى أنه يستهزئ بهم فيظير لهم من أحكامه في الدنيا يعني من عصمة دمائهم وأموالهم خلاف الذي لهم عنده في الآخرة يعني من العذاب والنکال . ثم شرع ابن جرير يوجه هذا القول وينصره لأن المكر والخداع والسخرية على وجه اللعب والعبث متتف عن الله عز وجل بالإجماع ، وأما على وجه الانتقام والمقابلة بالعدل والمجازاة فلا يمتنع ذلك . قال : وينحو ما قلنا فيه روي الخبر عن ابن عباس : حدثنا أبو كريب حدثنا عثمان حدثنا بشر عن أبي روق عن الضحاك عن ابن عباس في قوله ﴿الله يستهزئ بهم﴾ قال : يسخر بهم للنقطة منهم . قوله تعالى ﴿ويمدهم في طغيانهم يعمهون﴾ قال السدي عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمданى عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب النبي ﷺ : يمدهم يملي لهم . وقال مجاهد : يزيدهم . وقال تعالى : ﴿أيحسبون إنما نمدهم به من مال وبني نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون﴾ [المؤمنون : ٥٥ - ٥٦] وقال : ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾ [الأعراف : ١٨٢] ; والقلم : [٤٤] قال بعضهم : كلما أحدثوا ذنباً أحدث لهم نعمة وهي في الحقيقة نعمة وقال تعالى : ﴿فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بعنة فإذا هم مبلسوون \* فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين﴾ [الأنعام : ٤٤ - ٤٥] قال ابن جرير : والصواب نزيدهم على وجه الإملاء والترك لهم في عتهم وتمردتهم كما قال تعالى ﴿ونقلب أفئتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾ [الأنعام : ١١٠] والطغيان : هو المجاوزة في الشيء كما قال تعالى : ﴿إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية﴾ [الحاقة : ١١] وقال الضحاك عن ابن عباس : في طغيانهم يعمهون في كفرهم يتددون . وكذا فسره السدي بسنده عن الصحابة وبه يقول أبو العالية وقتادة والربيع بن أنس ومجاهد وأبو مالك عبد الرحمن بن زيد : في كفرهم وضلالتهم . قال ابن جرير : والمعنون : الضلال . يقال : عمه فلان يعمه عمهاً وعموهاً إذا ضل ، قال : قوله (في طغيانهم يعمهون) في ضلالهم وكفرهم الذي غمرهم دنسه وعلاهم رجسه يتددون حيارى ضلالاً لا يجدون إلى المخرج منه سبيلاً لأن الله قد طبع على قلوبهم وختم عليها وأعمى أبصارهم عن الهدى وأغشتها فلا يتصرون رشدًا ولا يهتدون سبيلاً<sup>(٢)</sup> . وقال بعضهم : العمى في العين والعمى في القلب ، وقد يستعمل العمى في القلب أيضاً قال تعالى : ﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾ [الحج : ٤٦] وتقول عمه الرجل يعمه عمهاً فهو عمه وعامة وجمعه عمه ، وذهبت إليه العماء إذا لم يدر

(١) الزيادة من الطبرى / ١٦٦.

(٢) الطبرى / ١٧٠ .

أين ذهبت.

**أُولَئِكَ الَّذِينَ أَشْتَرُوا الْضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَحِتْ يَحْذَرُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١﴾**

قال السدي في تفسيره عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة **﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَشْتَرُوا الْضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ﴾** قال: أخذوا الضلاله وتركوا الهدى، وقال ابن إسحاق عن محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس **﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَشْتَرُوا الْضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ﴾** أي الكفر بالإيمان<sup>(١)</sup>، وقال مجاهد: أمنوا ثم كفروا **﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَشْتَرُوا الْضَّلَالَةَ عَلَى الْهُدَىٰ﴾**، وهذا الذي قاله قتادة يشبهه في المعنى قوله تعالى وقال قتادة: استحبوا الضلال على الهدى<sup>(٢)</sup>، وهو معنى قوله تعالى **﴿فَمَا ثُمُودٌ فَهُدِينَاهُمْ فَاسْتَحْبُوا الْعُمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾** [فصلت: ١٧] وحاصل قول المفسرين فيما تقدم أن المنافقين عدلوا عن الهدى إلى الضلال واعتاضوا عن الهدى بالضلال وهو معنى قوله تعالى **﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَشْتَرُوا الْضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ﴾** أي بذلوا الهدى ثمناً للضلال، وسواء في ذلك من كان منهم قد حصل له الإيمان ثم رجع عنه إلى الكفر كما قال تعالى فيهم **﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾** [المنافقون: ٣] أو أنهم استحبوا الضلال على الهدى كما يكون حال فريق آخر منهم فإنهم أنواع وأقسام ولهذا قال تعالى **﴿فَمَا رَبَحَ تِجَارَتَهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾** أي ما ربحت صفتهم في هذه البيعة وما كانوا مهتدين أي راشدين في صنيعهم ذلك. وقال ابن جرير: حدثنا بشر حدثنا يزيد حدثنا سعيد عن قتادة **﴿فَمَا رَبَحَ تِجَارَتَهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾** قد والله رأيتموهم خرجوا من الهدى إلى الضلال ومن الجماعة إلى الفرقة ومن الأمان إلى الخوف ومن السنة إلى البدعة<sup>(٣)</sup>، وهكذا رواه ابن أبي حاتم من حديث يزيد بن زريع عن سعيد عن قتادة بمثله سواء<sup>(٤)</sup>.

**مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي أَسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا آضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ يُؤْرِهُمْ وَرَكَّهُمْ فِي ظُلْمَتِ الْأَيَّامِ يُبَصِّرُونَ ﴿١٧﴾ صُمُّ بِكُمْ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾**

يقال: مثل ومثل ومثيل أيضاً والجمع أمثال، قال الله تعالى: **﴿وَتَلَكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُون﴾** [العنكبوت: ٤٣] وتقدير هذا المثل أن الله سبحانه شبههم في اشتراكهم الضلال بالهدى، وصيروتهم بعد البصيرة إلى العمى، بمن استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله وانتفع بها وأبصر بها ما عن يمينه وشماله وتأنس بها فبينا هو كذلك إذ طفت ناره وصار في ظلام شديد لا يُبصِر ولا يهتدي، وهو مع هذا أصم لا يسمع أبكم لا ينطق أعمى لو كان ضياء لما

(١) الطبرى / ١٧١؛ والدر المثور / ١٧٠.

(٢) الدر المثور / ١٧١.

(٣) الطبرى / ١٧٢.

(٤) الدر المثور / ١٧١.

أبصراً، فلهذا لا يرجع إلى ما كان عليه قبل ذلك، فكذلك هؤلاء المنافقون في استبدالهم الضلاله عوضاً عن الهدى واستحبابهم الغي على الرشد. وفي هذا المثل دلالة على أنهم آمنوا ثم كفروا كما أخبر تعالى عنهم في غير هذا الموضع، والله أعلم.

وقد حكى هذا الذي قلناه الرازي في تفسيره عن السدي، ثم قال: والتشبيه هنا في غاية الصحة لأنهم بآيمانهم اكتسبوا أولاً نوراً ثم بنفاقهم ثانياً أبطلوا ذلك فوقعوا في حيرة عظيمة فإنه لا حيرة أعظم من حيرة الدين.

وزعم ابن جرير أن المضروب لهم المثل هنا لم يؤمنوا في وقت من الأوقات واحتج بقوله تعالى «ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين» [البقرة: ٨]، والصواب أن هذا إخبار عنهم في حال نفاقهم وكفرهم، وهذا لا ينفي أنه كان حصل لهم إيمان قبل ذلك ثم سلبوه وطبع على قلوبهم، ولم يستحضر ابن جرير هذه الآية هنا وهي قوله تعالى «ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون» [المافقون: ٣] فلهذا وجه هذا المثل بأنهم استضاؤوا بما أظهروه من كلمة الإيمان أي في الدنيا ثم أعقبهم ظلمات يوم القيمة. قال<sup>(١)</sup>: وصح ضرب مثل الجماعة بالواحد، كما قال «رأيتم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت» [الأحزاب: ١٩] أي كدوران الذى يغشى عليه من الموت، وقال تعالى: «ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة» [لقمان: ٢٨] وقال تعالى: «مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً» [الجمعة: ٥] وقال بعضهم: تقدير الكلام: مثل قصتهم كقصة الذين استوقدوا ناراً، وقال بعضهم: المستوقد واحد لجماعة معه. وقال آخرون: الذي هنا بمعنى الذين كما قال الشاعر: [الطوبل]

إِنَّ الَّذِي حَانَتْ بِفُلْجٍ دَمَائِهِمْ هُمُ الْقَوْمُ كُلُّ الْقَوْمِ يَا أَمَّ خَالِدٍ<sup>(٢)</sup>

قلت: وقد التفت في أثناء المثل من الواحد إلى الجمع في قوله تعالى: «ذلِكُمْ الظَّاهِرَاتُ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلْمَاتٍ لَا يَبْصِرُونَ» \* صم بكم عني فهم لا يبصرون وهذا أوضح في الكلام وأبلغ في الظلم، وقوله تعالى «ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ» أي ذهب عنهم بما ينفعهم وهو النور وأبقى لهم ما يضرهم وهو الإحرار والدخان «وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلْمَاتٍ» وهو ما هم فيه من الشك والكفر والنفاق «لَا يَبْصِرُونَ» لا يهتدون إلى سبيل خير ولا يعرفونها وهم مع ذلك «صم» لا يسمعون خيراً «بِكُمْ» لا يتكلمون بما ينفعهم «عني» في ضلاله وعمانية

(١) الطبرى / ١٧٥.

(٢) البيت للأشہب بن رمیلة في خزانة الأدب ٦/٧؛ وشرح شواهد المغني ٢/٥١٧؛ والكتاب ١٨٧/١؛ ولسان العرب (فلج، لذا)، والمختلف والمختلف ص ٣٣؛ والمحتب ١/١٨٥؛ ومعجم ما استعمل ص ١٠٢٨؛ والمقاصد النحوية ١/٤٨٢؛ والمقتضب ٤/١٤٦؛ والمنصف ١/٦٧. وللأشہب أو لحرث بن مخضن في الدرر ١/١٤٨، وبلا نسبة في الأزهية ص ٩٩؛ ورصف المباني ص ٣٤٢.

البصرة كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَلُ الْأَبْصَارُ، وَلَكِنْ تَعْمَلُ الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] فلهذا لا يرجعون إلى ما كانوا عليه من الهدایة التي باعوها بالضلال.

### ذكر أقوال المفسرين من السلف بنحو ما ذكرناه

قال السدي في تفسيره عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمданى عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة في قوله تعالى ﴿فَلِمَّا أَضَاءَتِ مَا حَوْلَهُ﴾ زعم أن ناساً دخلوا في الإسلام مقدم نبى الله ﷺ المدينة ثم إنهم نافقوا وكان مثلهم كمثل رجل كان في ظلمة فأوقده ناراً فلما أضاءت ما حوله من قذى أو أدى فأبصره حتى عرف ما يتقي منه فبینا هو كذلك إذ طفت نارة فأقبل لا يدرى ما يتقي من أدى، فكذلك المنافق كان في ظلمة الشرك فأسلم فعرف الحال والحرام والخير والشر فبینا هو كذلك إذ كفر فصار لا يعرف الحلال من الحرام ولا الخير من الشر<sup>(١)</sup>. وقال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية، قال: أما النور فهو إيمانهم الذي كانوا يتكلمون به وأما الظلمة فهي ضلالتهم وكفرهم الذي كانوا يتكلمون به وهم قوم كانوا على هدى ثم نزع منهم فعتوا بعد ذلك<sup>(٢)</sup>. وقال مجاهد: ﴿فَلِمَّا أَضَاءَتِ مَا حَوْلَهُ﴾ أما إضاءة النار فإنما يقتصر على هؤلاء إلى المؤمنين والهداى. وقال عطاء الخراساني في قوله تعالى ﴿مِثْلَهُمْ كَمَثْلُ الَّذِي اسْتُوْدَدَ نَارًا﴾ قال: هذا مثل المنافق يبصر أحياناً ويعرف أحياناً ثم يدركه عمي القلب. وقال ابن أبي حاتم: رووى عن عكرمة والحسن والسدي والربيع بن أنس نحو قول عطاء الخراساني. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله تعالى ﴿مِثْلَهُمْ كَمَثْلُ الَّذِي اسْتُوْدَدَ نَارًا﴾ إلى آخر الآية، قال: هذه صفة المنافقين كانوا قد آمنوا حتى أضاء الإيمان في قلوبهم كما أضاءت النار لهؤلاء الذين استوقدوا ناراً ثم كفروا فذهب الله بنورهم فانتزعاً كما ذهب بضوء هذه النار فتركهم في طلبات لا يصرون<sup>(٣)</sup>.

وأما قول ابن جرير في شبہ ما رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿مِثْلَهُمْ كَمَثْلُ الَّذِي اسْتُوْدَدَ نَارًا﴾ قال: هذا مثل ضربه الله للمنافقين أنهم كانوا يعتزون بالإسلام فيما ينكحهم المسلمون ويوارثونهم ويقاسمونهم فيه، فلما ماتوا سلبهم الله ذلك العز كما سلب صاحب النار ضوءه. وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبي العالية: ﴿مِثْلَهُمْ كَمَثْلُ الَّذِي اسْتُوْدَدَ نَارًا﴾ فإنما ضوء النار ما أوقتها، فإذا خمدت ذهب نورها، وكذلك المنافق كلما تكلم بكلمة الإخلاص بلا إله إلا الله أضاء له، فإذا شک وقع في الظلمة. وقال الضحاك: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ أما نورهم فهو إيمانهم الذي تكلموا به. وقال عبد الرزاق عن معمر عن

(١) الدر المتنور ١/٧١؛ والطبرى ١/١٧٦.

(٢) الطبرى ١/١٧٦.

(٣) الطبرى ١/١٧٧.

قتادة: ﴿مُثِلُهُمْ كَمِثْلُ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾ فَهِيَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ أَضَاءَتْ لَهُمْ فَأَكْلَوْبَا بَهَا وَشَرَبُوا وَأَمْنَوْا فِي الدُّنْيَا وَنَكْحُوا النِّسَاءَ وَحَقَّنُوا دِمَائِهِمْ حَتَّى إِذَا مَاتُوا ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكُوهُمْ فِي ظَلَمَاتٍ لَا يَبْصُرُونَ﴾ وَقَالَ سَعِيدُ عَنْ قَتَادَةِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: إِنَّ الْمَعْنَى أَنَّ الْمُنَافِقَ تَكَلَّمُ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ أَفَاضَاءَتْ لَهُ فِي الدُّنْيَا فَنَاكَحَ بَهَا الْمُسْلِمِينَ وَغَازَاهُمْ بَهَا وَوَارَثُهُمْ بَهَا وَحَقَّنَ بَهَا دَمَهُ وَمَالَهُ فَلَمَّا كَانَ عِنْدَ الْمَوْتِ سَلَبَهَا الْمُنَافِقُ لَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهَا أَصْلٌ فِي قَلْبِهِ وَلَا حَقِيقَةً فِي عَمَلِهِ وَتَرَكُوهُمْ فِي ظَلَمَاتٍ لَا يَبْصُرُونَ﴾ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ أَبْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَتَرَكُوهُمْ فِي ظَلَمَاتٍ لَا يَبْصُرُونَ﴾ يَقُولُ: فِي عَذَابٍ إِذَا مَاتُوا. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي مُحَمَّدٍ عَنْ عَكْرَمَةَ أَوْ سَعِيدَ بْنِ جَبَرٍ عَنْ أَبْنِ عَبَّاسٍ: ﴿وَتَرَكُوهُمْ فِي ظَلَمَاتٍ﴾ أَيْ يَبْصُرُونَ الْحَقَّ وَيَقُولُونَ بِهِ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ ظَلْمَةِ الْكُفْرِ أَطْفَؤُوهُ بِكُفُّرِهِمْ وَنَفَاقِهِمْ فِيهِ، فَتَرَكُوهُمْ فِي ظَلَمَاتِ الْكُفْرِ فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ هَذِي، وَلَا يَسْتَقِيمُونَ عَلَى حَقٍّ. وَقَالَ السَّدِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ بِسْنَدِهِ: ﴿وَتَرَكُوهُمْ فِي ظَلَمَاتٍ﴾ فَكَانَتِ الظَّلْمَةُ نَفَاقَهُمْ. وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: وَتَرَكُوهُمْ فِي ظَلَمَاتٍ لَا يَبْصُرُونَ، فَذَلِكَ حِينَ يَمُوتُ الْمُنَافِقُ فَيَظْلُمُ عَلَيْهِ عَمَلُهُ عَمَلُ السُّوءِ فَلَا يَجِدُ لَهُ عَمَلاً مِنْ خَيْرٍ عَمِلَ بِهِ يَصْدِقُ بِهِ قَوْلُهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ: ﴿صَمْ بَكُمْ عَمِي﴾ قَالَ السَّدِيُّ بِسْنَدِهِ: صَمْ بَكُمْ عَمِي فَهُمْ خَرَسُ عَمِي، وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنْ أَبْنِ عَبَّاسٍ ﴿صَمْ بَكُمْ عَمِي﴾ يَقُولُ لَا يَسْمَعُونَ الْهَدَى وَلَا يَبْصُرُونَهُ، وَلَا يَعْقُلُونَهُ، وَكَذَا قَالَ أَبُو الْعَالِيَّةَ وَقَتَادَةُ بْنُ دَعَامَةَ: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ قَالَ أَبْنُ عَبَّاسٍ: أَيْ لَا يَرْجِعُونَ إِلَى هَذِي، وَكَذَا قَالَ الرَّبِيعُ بْنُ أَنْسٍ. وَقَالَ السَّدِيُّ بِسْنَدِهِ ﴿صَمْ بَكُمْ عَمِي فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ إِلَى الْإِسْلَامِ. وَقَالَ قَتَادَةُ: فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ، أَيْ لَا يَتَوَبُونَ وَلَا هُمْ يَذَكَّرُونَ،

أَوْ كَسَبَتِ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلْمَتُ وَرَعْدٌ وَرِقٌ يَجْعَلُونَ أَصْنَاعَهُمْ فِي هَذَا زَمَانٍ مِنَ الْمَسْكُونِيَّةِ حَدَّرَ الْمَوْتَ وَاللهُ  
مُحِيطٌ بِالْكُفَّارِ يَكَادُ الْبَرَقُ يَخْطُفُ أَعْصَارَهُمْ لَكُمْ أَضَاءَ لَهُمْ شَمْسُ الْحَيَاةِ وَإِذَا أَخْلَمْتُ عَلَيْهِمْ قَاتَلُوا وَلُوْشَاءَ  
اللهُ لَدَهُ بِسْمُهُمْ وَأَنْصَرَهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْدِرٌ

هذا مثل آخر ضربه الله تعالى لضرب آخر من المنافقين، وهم قوم يظہر لهم الحق تارة ويشكون تارة أخرى فقلوبهم في حال شکهم وكفرهم وترددهم **﴿كصيّب﴾** ، والصيّب المطر، قاله ابن مسعود وابن عباس وناس من الصحابة وأبو العالية ومجاحد وسعيد بن جبير وعطاء والحسن البصري وقتادة وعطية العوفي وعطاء الخراشاني والسدي والربيع بن أنس . وقال الصحاح: هو السحاب . والأشهر هو المطر نزل من السماء في حال ظلمات ، وهي الشكوك والكفر والنفاق (ورعد) وهو ما يزعج القلوب من الخوف ، فإن من شأن المنافقين الخوف الشديد والفلز كما قال تعالى : **﴿يَحْسِبُونَ كُلَّ صِيَحَّةٍ عَلَيْهِمْ﴾** [المنافقون : ٤] وقال : **﴿وَيَحْلِفُونَ بِأَنَّهُمْ لَمْ يَنْكِمْ وَمَا هُمْ بِلَكُنْهِمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ \* لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مَدْخَلًا لَوْلَوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَعُونَ﴾** [التوبه : ٥٦ - ٥٧] و **﴿الْبَرْقُ﴾** هو ما يلمع في قلوب هؤلاء الضرب من

المنافقين في بعض الأحيان من نور الإيمان ولهذا قال ﴿ يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين ﴾ أي ولا يجدي عنهم حذرهم شيئاً لأن الله محيط بقدرته وهم تحت مشيئته وإرادته كما قال: ﴿ هل أتاك حديث الجنود فرعون وثمود بل الذين كفروا في تكذيب والله من ورائهم محيط ﴾ [البروج: ٢٠ - ١٧] بهم ثم قال: ﴿ يكاد البرق يخطف أبصارهم ﴾ أي لشدة وقوته في نفسه، وضعف بصائرهم وعدم ثباتها للإيمان.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿ يكاد البرق يخطف أبصارهم ﴾ يقول: يكاد محكم القرآن يدل على عورات المنافقين وقال ابن إسحاق حديثي محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿ يكاد البرق يخطف أبصارهم ﴾ أي لشدة ضوء الحق كلما أضاء لهم مشوا فيه (إذا أظلم عليهم قاموا) أي كلما ظهر لهم من الإيمان شيء استأنسا به واتبعوه وتارة تعرض لهم الشكوك أظلمت قلوبهم فوقفوا حائرين. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس (كلما أضاء لهم مشوا فيه) يقول: كلما أصاب المنافقين من عز الإسلام اطمأنوا إليه وإذا أصاب الإسلام نكبة قاموا ليرجعوا إلى الكفر كقوله تعالى ﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصحابه خير اطمأن به ﴾ [الحج: ١١] وقال محمد بن إسحاق عن محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿ كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ﴾ أي يعرفون الحق ويتكلمون به، فهم في قولهم به على استقامة فإذا ارتكسوا منه إلى الكفر (قاموا) أي متحيرين، وهكذا قال أبو العالية والحسن البصري وقتادة والربيع بن أنس والسدي بسنده عن الصحابة وهو أصح وأظهر والله أعلم. وهكذا يكونون يوم القيمة عندما يعطى الناس النور بحسب إيمانهم، فمنهم من يعطى من النور ما يضيء له مسيرة فراسخ وأكثر من ذلك وأقل من ذلك، ومنهم من يطفأ نوره تارة ويضيء له أخرى، فيمشي على الصراط تارة ويقف أخرى، ومنهم من يطفأ نوره بالكلاية وهم الخالص من المنافقين الذين قال تعالى فيه ﴿ يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظروا نقبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً ﴾ [الحديد: ١٣] وقال في حق المؤمنين ﴿ يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهر ﴾ [الحديد: ١٢]، وقال تعالى: ﴿ يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قادر ﴾ [التحرير: ٨].

### ذكر الحديث الوارد في ذلك

قال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة في قوله تعالى: ﴿ يوم ترى المؤمنين والمؤمنات ﴾ الآية، ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: «من المؤمنين من يضيء نوره من المدينة إلى عدن، أين

إلى<sup>(١)</sup> صناعه بدون ذلك ، حتى إن من المؤمنين من لا يضيء له نوره إلا موضع قدميه [والناس منازل بأعمالهم]<sup>(٢)</sup> ، رواه ابن جرير . ورواه ابن أبي حاتم من حديث عمران بن داور القطان عن قتادة بنحوه . وهذا كما قال المنهاج بن عمرو عن قيس بن السكن عن عبد الله بن مسعود قال : يؤتون نورهم على قدر أعمالهم ، فمنهم من يؤتى نوره كالنخلة ومنهم من يؤتى نوره كالرجل القائم وأدناهم نوراً على إيهامه يطفأ مرة ويتقدّم مرة ، وهكذا رواه ابن جرير عن ابن مثنى عن ابن إدريس عن أبيه عن المنهاج . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا محمد بن علي بن محمد الطنافسي حدثنا ابن إدريس سمعت أبي يذكر عن المنهاج بن عمرو عن قيس بن السكن عن عبد الله بن مسعود **﴿نورهم يسعى بين أيديهم﴾** قال : على قدر أعمالهم يمرون على الصراط ، منهم من نوره مثل الجبل ، ومنهم من نوره مثل النخلة ، وأدناهم نوراً من نوره في إيهامه يتقدّم مرة ويطفأ أخرى . وقال ابن أبي حاتم أيضاً : حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسى حدثنا أبو يحيى الحمانى حدثنا عتبة بن اليقطان عن عكرمة عن ابن عباس قال : ليس أحد من أهل التوحيد إلا يعطى نوراً يوم القيمة ، فأما المنافق فيطفأ نوره فالمؤمن مشفع مما يرى من إطفاء نور المنافقين ، فهم يقولون : ربنا أتم لنا نورنا . وقال الضحاك بن مزاحم : يعطى كل من كان يظهر الإيمان في الدنيا يوم القيمة نوراً فإذا انتهى إلى الصراط طفي نور المنافقين ، فلما رأى ذلك المؤمنون أشفقوا فقالوا : ربنا أتم لنا نورنا .

إذا تقرر هذا صار الناس أقساماً ، مؤمنون خلص وهم الموصوفون بالأيات الأربع في أول البقرة ، وكفار خلص وهم الموصوفون بالأياتين بعدها . ومنافقون وهم قسمان : خلص وهم المضروب لهم المثل الناري<sup>(٣)</sup> ، ومنافقون يتربدون تارة يظهرون لهم لمع الإيمان وتارة يخبو ، وهم أصحاب المثل المائي<sup>(٤)</sup> وهم أخف حالاً من الذين قبلهم . وهذا المقام يشبه من بعض الوجوه ما ذكر في سورة النور<sup>(٥)</sup> من ضرب مثل المؤمن وما جعل الله في قلبه من الهدى والنور بالصبح في الزجاجة التي كأنها كوكب دري وهي قلب المؤمن المفطور على الإيمان واستمداده من الشريعة الخالصة الصافية الواصلة إليه من غير كدر ولا تخليط كما سيأتي تقريره في موضعه إن شاء الله . ثم ضرب مثل العباد من الكفار الذين يعتقدون أنهم على شيء وليسوا على شيء ، وهم أصحاب الجهل المركب في قوله تعالى **﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقية يحسبه الظمان ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً﴾** [النور : ٣٩] ثم ضرب مثل الكفار الجهل

(١) في الأصل «إلى عدن أو بين صناعه ودون ذلك» وما أثبتنا عن الدر المثور ٦ / ٢٥٠ .

(٢) الزيادة عن الدر المثور . قال السيوطي : وأخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة .

(٣) أي في قوله تعالى : **﴿مِثْلَهُمْ كَمَثْلُ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾** الآية .

(٤) أي في قوله تعالى : **﴿أَوْ كَصَبَّ مِنَ السَّمَاءِ﴾** الآية .

(٥) سورة النور ، الآية ٣٥ .

البسيط وهم الذين قال تعالى فيهم ﴿أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكدرها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾ [النور: ٤٠] فقسم الكفار همها إلى قسمين: داعية ومقلد، كما ذكرهما في أول سورة الحج ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبخ كل شيطان مريد﴾ [الحج: ٣] وقال ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير﴾ [الحج: ٨] وقد قسم الله المؤمنين في أول الواقعة وفي آخرها، وفي سورة الإنسان إلى قسمين: سابقون وهم المقربون، وأصحاب يمين وهم الأبرار.

فتلخيص من مجموع هذه الآيات الكريمتات أن المؤمنين صنفان: مقربون وأبرار، وأن الكافرين صنفان: دعاة ومقلدون، وأن المنافقين أيضاً صنفان: منافق خالص، ومنافق فيه شعبة من نفاق، كما جاء في الصحيحين عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ «ثلاث من كن فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه واحدة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: من إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اتمن خان»<sup>(١)</sup> استدلوا به على أن الإنسان قد تكون فيه شعبة من إيمان وشعبة من نفاق. إما عملي لهذا الحديث أو اعتقادي كما دلت عليه الآية كما ذهب إليه طائفة من السلف وبعض العلماء كما تقدم وكما سيأتي إن شاء الله. قال الإمام أحمد<sup>(٢)</sup>: حدثنا أبو التضر حدثنا أبو معاوية يعني شيبان عن ليث عن عمرو بن مرة عن أبي البختري عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ «القلوب أربعة: قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر، وقلب أغلف مربوط على غلافه، وقلب منكوس، وقلب مصفح، فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن فسراجه فيه نوره وأما القلب الأغلف فقلب الكافر وأما القلب المنكوس فقلب المنافق الخالص عرف ثم أنكر وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمان ونفاق، ومثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدّها الماء الطيب ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدّها القيح والدم فـأي المادتين غلت على الأخرى غلت عليه» وهذا إسناد جيد حسن.

وقوله تعالى: ﴿ولو شاء الله للذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قادر﴾ قال محمد بن إسحاق حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ولو شاء الله للذهب بسمعهم وأبصارهم﴾ قال: لـمـا ترـكـوا مـنـ الـحـقـ بـعـدـ مـعـرـفـتـهـ<sup>(٣)</sup> ﴿إـنـ اللـهـ عـلـىـ كـلـ شـيـءـ قـدـيرـ﴾ قال ابن عباس: أي إن الله على كل ما أراد بعباده من نعمة أو عفو

(١) أخرجه البخاري (إيمان باب ٢٤؛ جزية باب ١٧؛ مظالم باب ١٧) ومسلم (إيمان حديث ١٠٢) وأبو داود (سنة باب ١٥) والترمذى (إيمان باب ١٤) والنمسائي (إيمان باب ٢٠) وأحمد في المسند (ج ٢ ص ١٨٩).

(٢) المسند ج ٣ ص ١٧ .  
(٣) الطبرى / ١٩٤ .

قدير وقال ابن جرير<sup>(١)</sup>: إنما وصف الله تعالى نفسه بالقدرة على كل شيء في هذا الموضع لأنه حذر المنافقين بأسه وسطوته وأخبرهم أنه بهم محيط ، وعلى إذهاب أسماعهم وأبصارهم قدير . ومعنى قدير : قادر ، كما أن معنى عليم : عالم . وذهب ابن جرير ومن تبعه من كثير من المفسرين إلى أن هذين المثلين مضروبان لصنف واحد من المنافقين وتكون «أو» ، في قوله تعالى : ﴿أَوْ كصِيبٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ بمعنى الواو كقوله تعالى ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كُفُورًا﴾ [الإنسان : ٢٤] أو تكون للتخيير أي اضرب لهم مثلاً بهذا وإن شئت بهذا ، قاله القرطبي<sup>(٢)</sup> . أو للتساوي مثل : جالس الحسن أو ابن سيرين ، على ما وجهه الرمخشري أن كلاً منها مساو للآخر في إباحة الجلوس إليه ويكون معناه على قوله : سواء ضربت لهم مثلاً بهذا أو بهذا فهو مطابق لحالهم (قلت) وهذا يكون باعتبار جنس المنافقين فإنهم أصناف ولهم أحوال وصفات كما ذكرها الله تعالى في سورة براءة - ومنهم - ومنهم<sup>(٣)</sup> - يذكر أحوالهم وصفاتهم وما يعتمدونه من الأفعال والأقوال ، فجعل هذين المثلين لصنفين منهم أشد مطابقة لأحوالهم وصفاتهم ، والله أعلم ، كما ضرب المثلين في سورة النور لصنفي الكفار الدعاة والمقلدين في قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسْرَابٌ بَقِيعَةٌ﴾ إلى أن قال ﴿أَوْ كَظْلَمَاتٍ فِي بَحْرٍ لَّجِي﴾ الآية : فال الأول للدعاة الذين هم في جهل مركب ، والثاني لذوي الجهل البسيط من الأتباع المقلدين ، والله أعلم بالصواب .

يَأَيُّهَا النَّاسُ أَعْبُدُ وَأَرْبَكُ الَّذِي خَلَقْتُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَفَقَّنُونَ ﴿١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ  
فِرَشًا وَالسَّمَاءَ بَرَاءَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الْتَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ  
تَعْلَمُونَ ﴿٢﴾

شرع تبارك وتعالى في بيان وحدانية ألوهيته بأنه تعالى هو المنعم على عبيده بإخراجهم من العدم إلى الوجود وإسباغه عليهم النعم الظاهرة والباطنة بأن جعل لهم الأرض فراشاً ، أي مهدأ كالفراش مقررة<sup>(٤)</sup> موطأ مثبتة بالروايات الشامخات ، والسماء بناء ، وهو السقف ، كما قال في الآية الأخرى ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾ وهم عن آياتها معرضون<sup>(٥)</sup> [الأنياء : ٣٢] وأنزل لهم من السماء ماء والمراد به السحاب هنا في وقته عند احتياجهم إليه ، فأخرج لهم به من أنواع الزروع والثمار ما هو مشاهد رزقاً لهم ولأنعامهم كما قرر هذا في غير موضع من القرآن . ومن أشبه آية بهذه الآية قوله تعالى : ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بَنَاءً وَصُورَكُمْ فَأَحْسَنَ

(١) الطبرى / ١٩٥.

(٢) تفسير القرطبي / ٢١٥.

(٣) سورة التوبه (براءة) ، الآيات : ٤٩ ، ٥٨ ، ٦١ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٩٧.

(٤) مقررة : مسوأة مدحوة . ومنه قوله تعالى : ﴿جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ .

صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين» [غافر: ٦٤] ومضمونه: أنه الخالق الرازق مالك الدار وساكنيها ورازقهم، فبهذا يستحق أن يعبد وحده ولا يشرك به غيره ولهذا قال: «فلا تجعلوا الله أنداداً وأنتم تعلمون».

وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال: قلت يا رسول الله أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: «أن تجعل الله نداً وهو خلقك» الحديث<sup>(١)</sup>، وكذا حديث معاذ: «أن تدري ما حق الله على عباده؟ أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً» الحديث<sup>(٢)</sup>، وفي الحديث الآخر «لا يقولن أحدكم ما شاء الله وشاء فلان، ولكن ليقل ما شاء الله ثم شاء فلان». وقال حماد بن سلمة: حدثنا عبد الملك بن عمير عن ربعي بن حراش عن الطفيلي بن سخبرة<sup>(٣)</sup> أخي عائشة أم المؤمنين لأمهما قال: رأيت فيما يرى النائم كأنني أتيت على نفر من اليهود فقلت من أنتم؟ قالوا: نحن اليهود، قلت: إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون عزيز ابن الله، قالوا: وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون ما شاء الله وما شاء محمد، قال: ثم مررت بمنف من النصارى فقلت من أنتم؟ قالوا نحن النصارى، قلت: إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون المسيح ابن الله، قالوا: وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون ما شاء الله وشاء محمد، فلما أصبحت أخبرت بها من أخبرت ثم أتيت النبي ﷺ فأخبرته فقال: «هل أخبرت بها أحداً؟» قلت: نعم، فقام محمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أما بعد فإن طفلياً رأى رؤيا أخبر بها من أخبر منكم وإنكم قلتم كلمة كان يمنعني كذا وكذا<sup>(٤)</sup> أن أنها لكم عنها فلا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد ولكن قولوا ما شاء الله وحده» هكذا رواه ابن مردويه في تفسير هذه الآية من حديث حماد بن سلمة به، وأخرج له ابن ماجه من وجه آخر عن عبد الملك بن عمير به بنحوه، وقال سفيان بن سعيد الثوري عن الأجلع بن عبد الله الكندي عن يزيد بن الأصم عن ابن عباس قال: قال رجل للنبي ﷺ ما شاء الله وشئت فقال: «أجعلتني الله نداً؟ قل ما شاء الله وحده» رواه ابن مردويه وأخرج له النسائي وابن ماجه من حديث عيسى بن يونس عن الأجلع به، وهذا كله صيانة وحماية لجانب التوحيد، والله أعلم.

وقال محمد بن إسحاق حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن

(١) أخرجه البخاري (تفسير سورة ٢ باب ٣؛ وأدب باب ٢٠؛ وحدود باب ٤؛ وديات باب ١، وتوحيد باب ٤٠) ومسلم (إيمان حديث ١٤١؛ وأبو داود (طلاق باب ٥) والترمذى (تفسير سورة ٢٥ باب ١ و النساءى (أيمان باب ٦؛ وتحرير باب ٤) وأحمد في المسند (ج ١ ص ٢٨٠).

(٢) أخرجه البخاري (لباس باب ١٠١؛ جهاد باب ٤٦؛ استذان باب ٣٠؛ رفاق باب ٢٧؛ توحيد باب ١) ومسلم (إيمان حديث ٤٨ — ٥١).

(٣) وهو الطفيلي بن عبد الله بن الحارث بن سخبرة. وقد ينسب إلى جده فيقال: الطفيلي بن سخبرة. (أسد الغابة ٥٣/٣؛ وموسوعة رجال الكتب التسعة ٢٠٣/٢).

(٤) في مسند أحمد (ج ٥ ص ٧٢) والدر المثور (ج ١ ص ٧٦): «إنكم كتمتقولون كلمة كان يمنعني الحياة منكم أن أنها لكم منها».

عباس قال: قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رِبَّكُمْ﴾ للفريقين جميـعاً من الكفار والمنافقين، أي وحدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم<sup>(١)</sup>. وبه عن ابن عباس ﴿فَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي لا تشركوا بالله غيره من الأنداد التي لا تنفع ولا تضر وأنت تعلمون أنه لا رب لكم يرزقكم غيره وقد علمتم أن الذي يدعوكم إليه الرسول ﷺ من التوحيد هو الحق الذي لا شك فيه . وهكذا قال قتادة . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أحمد بن عمرو بن أبي عاصم حدثنا أبو الضحاك بن مخلد أبو عاصم حدثنا شبيب بن بشر حدثنا عكرمة عن ابن عباس في قول الله عز وجل : ﴿فَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ أَنْدَاداً﴾ قال : الأنداد هو الشرك أخفى من دبيب النمل على صفة سوداء في ظلمة الليل ، وهو أن يقول : والله وحياتك يا فلان وحياتي ، ويقول : لو لا كلبة هذا لأنـانا للصوص البارحة ، ولو لا البط في الدار لأنـانا للصوص ، وقول الرجل لصاحبه : ما شاء الله وشئت ، وقول الرجل : لو لا الله وفلان لا تجعل فيها فلان ، هذا كله به شرك . وفي الحديث أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ ما شاء الله وشاء فلان<sup>(٢)</sup> قال : «أجعلتني الله نداً» وفي الحديث الآخر : «نعم القوم أنتم لو لا انـكم تنددون : تقولون ما شاء الله وشاء فلان» قال أبو العالية : فلا تجعلوا الله أنداداً أي عدلاً شركاء ، وهكذا قال الريبع بن أنس وفتـادة والسدي وأبو مالك وإسماعيل بن أبي خالد ، وقال مجاهد ﴿فَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ قال : تعلمون أنه إله واحد في التوراة والإنجيل .

### ذكر حديث في معنى هذه الآية الكريمة

قال الإمام أحمد<sup>(٣)</sup> : حدثنا عفان حدثنا أبو خلف موسى بن خلف ، وكان يعد من البلاء<sup>(٤)</sup> ، حدثنا يحيى بن أبي كثير عن زيد بن سلام عن جده ممطور عن العارث الأشعري أن النبي الله ﷺ قال : «إن الله عز وجل أمر يحيى بن زكريـا عليه السلام بخمس كلمـات أن يعمل بهاـن وأن يأمر بـني إسرائـيل أن يـعملوا بهاـن وأنـه كـاد أن يـطـئـ بهاـ فـقاـلـ له عـيسـى عـلـيـهـ السـلامـ : إنـكـ قدـ أـمـرـتـ بـخـمـسـ كـلـمـاتـ أـنـ تـعـمـلـ بـهاـنـ وـتـأـمـرـ بـنـيـ إـسـرـائـيلـ أـنـ يـعـمـلـ بـهاـنـ فـإـمـاـ أـنـ تـبـلـغـهـنـ إـلـيـهـ فـقاـلـ : يـاـ أـخـيـ إـنـيـ أـخـشـ إـنـ سـبـقـتـنـيـ أـنـ أـعـذـبـ أـوـ يـخـسـفـ بـيـ قـالـ : فـجـمـعـ يـحـيـىـ بـنـ زـكـرـيـاـ بـنـيـ إـسـرـائـيلـ فـيـ بـيـتـ المـقـدـسـ حـتـىـ اـمـتـلـأـ الـمـسـجـدـ فـقـعـدـ عـلـىـ الشـرـفـ فـحـمـدـ اللـهـ وـأـثـنـىـ عـلـيـهـ ثـمـ قـالـ : إـنـ اللـهـ أـمـرـنـيـ بـخـمـسـ كـلـمـاتـ أـنـ أـعـمـلـ بـهاـنـ وـأـمـرـكـمـ أـنـ تـعـمـلـ بـهاـنـ ، أـوـلـهـنـ : أـنـ تـبـعـدـوـ اللـهـ وـلـاـ تـشـرـكـوـ بـهـ شـيـئـاـ ، فـإـنـ مـثـلـ ذـلـكـ كـمـثـلـ رـجـلـ اـشـتـرـىـ عـبـدـاـ مـاـلـهـ بـورـقـ أـوـ

(١) الطبرى / ١٩٦ .

(٢) المستدرج ٤ ص ١٣٠ .

(٣) البلاء أو الأبدال : قوم من الصالحين بهم يُقيـمـ اللهـ الأرضـ ، لا يـمـوتـ مـنـهـ أحـدـ إـلـاـ قـامـ مـكـانـهـ آخـرـهـ . فـلـذـلـكـ سـمـواـ أـبـدـالـاـ . (لـسانـ الـعـربـ : بـدلـ) .

ذهب فجعل يعمل ويؤدي غلته إلى غير سيده، فأيكم يسره أن يكون عبده كذلك؟ وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأمركم بالصلة فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده ما لم يلتفت فإذا صليتم فلا تلتفتوا، وأمركم بالصيام فإن مثل ذلك كمثل رجل معه صرة من مسك في عصابة كلهم يجد ريح المسك، وإن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، وأمركم بالصدقة فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فشدوا يديه إلى عنقه وقدموه ليضربوا عنقه، فقال لهم: هل لكم أن أفتدي نفسي منكم؟ فجعل يفتدي نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فك نفسه، وأمركم بذكر الله كثيراً وإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سرعاً في أثره، فأتى حصننا حصيناً فتحصن فيه وإن العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان في ذكر الله» قال: «فقال رسول الله ﷺ: «وأنا أمركم بخمس أمورني بهن: الجماعة والسمع والطاعة والهجرة والجهاد في سبيل الله، فإنه من خرج من الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يرجع، ومن دعا بدعوى جاهلية فهو من جثي جهنم» قالوا: يا رسول الله وإن صام وصلى؟ فقال: «وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم فادعوا المسلمين بأسمائهم على ما سماهم الله عز وجل: المسلمين المؤمنين عباد الله» هذا حديث حسن. والشاهد منه في هذه الآية قوله: «وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً» وهذه الآية دالة على توحيده تعالى بالعبادة وحده لا شريك له، وقد استدل به كثير من المفسرين كالرازي وغيره على وجود الصانع تعالى، وهي دالة على ذلك بطريق الأولى، فإن من تأمل هذه الموجودات السفلية والعلوية واختلاف أشكالها وألوانها وطبعاتها ومتافعها ووضعها في مواضع النفع بها محكمة، علم قدرة خالقها وحكمته وعلمه وإتقانه وعظيم سلطانه، كما قال بعض الأعراب، وقد سئل ما الدليل على وجود رب تعالى؟ فقال: يا سبحان الله إن الضرر ليدل على البعير، وإن أثر الأقدام لتدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج لا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير؟ .

وحكى الرازي عن الإمام مالك أن الرشيد سأله عن ذلك فاستدل له باختلاف اللغات والأصوات والنعمات. وعن أبي حنيفة أن بعض الزنادقة سأله عن وجود الباري تعالى، فقال لهم: دعوني فإني مفكر في أمر قد أخبرت عنه، ذكروا لي أن سفينته في البحر موقرة<sup>(١)</sup> فيها أنواع من المتاجر وليس بها أحد يحرسها ولا يسوقها، وهي مع ذلك تذهب وتتجيء وتسير بنفسها وتخترق الأمواج العظام حتى تخالص منها، وتسير حيث شاءت بنفسها من غير أن يسوقها أحد، فقالوا: هذا شيء لا يقوله عاقل، فقال: ويحكم هذه الموجودات بما فيها من العالم العلوى والسفلى وما اشتغلت عليه من الأشياء المحكمة ليس لها صانع؟ فبعث القوم ورجعوا إلى الحق وأسلموا علي يديه. وعن الشافعي أنه سئل عن وجود الصانع، فقال: هذا ورق التوت طعمه

واحد تأكله الدود<sup>(١)</sup> فيخرج منه الإبريسم، وتأكله النحل فيخرج منه العسل وتأكله الشاة والبقر والأنعام فتلقيه بعراً وروثاً، وتأكله الظباء فيخرج منها المسك وهو شيء واحد. وعن الإمام أحمد بن حنبل أنه سئل عن ذلك فقال: هنا حصن حصين أملس ليس له باب ولا منفذ، ظاهره كالفضة البيضاء، وباطنه كالذهب الإبريز، فيما هو كذلك إذا اندفع جداره فخرج منه حيوان سماع بصير ذو شكل حسن وصوت مليح، يعني بذلك البيضة إذا خرج منها الدجاجة. وسئل أبو نواس عن ذلك فأنسد: [الوافر]

إلى آثار ما صنع الملك  
بأحداق هي الذهب السبيك  
بأن الله ليس له شريك  
تأمل في نبات الأرض وانظر  
عيون من لجين شخصيات  
على قصب الزبرجد شاهدات  
وقال ابن المعتر: [المتقارب]

في عجباً كيف يعصى الإله  
— هـ ألم كيف يجده الجاحد  
وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

وقال آخرون: من تأمل هذه السموات في ارتفاعها واتساعها وما فيها من الكواكب الكبار والصغرى النيرة من السيارة ومن الثوابت، وشاهدها كيف تدور مع الفلك العظيم في كل يوم وليلة دويرة ولها في نفسها سير يخصها، ونظر إلى البحر المكتنفة للأرض من كل جانب ، والجبال الموضوعة في الأرض لتقر ويسكن ساكنوها مع اختلاف أشكالها وألوانها كما قال تعالى : ﴿وَمِنَ الْجَبَالِ جَدَدُ بَيْضٍ وَحِمْرًا مُخْتَلِفُ أَلْوَانِهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ \* وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفُ أَلْوَانِهِ كَذَلِكَ، إِنَّمَا يَخْشِيُ اللَّهَ مِنْ عَبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٧-٢٨] وكذلك هذه الأنهار السارحة من قطر إلى قطر للمنافع وما ذر<sup>(٢)</sup> في الأرض من الحيوانات المتنوعة والنبات المختلفة الطعم والأرایج<sup>(٣)</sup> والأشكال والألوان مع اتحاد طبيعة التربة والماء استدل على وجود الصانع وقدرته العظيمة وحكمته ورحمته بخلقه ولطفه بهم وإحسانه إليهم وبره بهم، لا إله غيره ولا رب سواه، عليه توكلت وإليه أنيب ، والآيات في القرآن الدالة على هذا المقام كثيرة جداً .

وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَرَرَنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِثْلِهِ، وَأَدْعُوا شَهَادَةَ كُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّمَا تَفْعَلُونَ وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأَنْتُمُ الْأَتَّى وَفُؤُدُّهُ النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكُفَّارِينَ

ثم شرع تعالى في تقرير النبوة بعد أن قرر أنه لا إله إلا هو ، فقال مخاطباً للكافرين: ﴿وَإِنْ

(١) المراد دود الحرير . والإبريسم: الحرير .

(٢) ذرأ: خلق .

(٣) الأرایج والأرائج: جمع ، أريجة ، وهي الريح الطيبة .

ومن تدبر القرآن وجد فيه من وجوه الإعجاز فنوناً ظاهرة وخفية من حيث اللفظ ومن جهة المعنى، قال الله تعالى: «الر \* كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير» [هود: ۱] فأحكمت ألفاظه وفصلت معانيه، أو بالعكس على الخلاف فكل من لفظه ومعناه فصيح

لا يحاذى ولا يداني، فقد أخبر عن مغيبات ماضية كانت ووّقعت طبقاً ما أخبر سواه، وأمر بكل خير، ونهى عن كل شر كما قال تعالى: ﴿وَتَمَتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صَدِقاً وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] أي صدقأً في الأخبار وعدلاً في الأحكام، فكله حق وصدق وعدل وهدى ليس فيه مجازفة ولا كذب ولا افتراء كما يوجد في أشعار العرب وغيرهم من الأكاذيب والمجازفات التي لا يحسن شعرهم إلا بها، كما قيل في الشعر إن أعدبه أكذبه، وتتجدد القصيدة الطويلة المديدة قد استعمل غالباً في وصف النساء أو الخيل أو الخمر أو في مدح شخص معين أو فرس أو ناقة أو حرب أو كائنات أو مخافة أو سبع أو شيء من المشاهدات المتعينة التي لا تفيده شيئاً إلا قدرة المتalking المعين على الشيء الخفي أو الدقيق أو إبرازه إلى الشيء الواضح، ثم تجد له فيه بيت أو بيتين أو أكثر هي بيوت القصيد وسائرها هذر لا طائل تحته، وأما القرآن فجمعيه فصيح في غاية نهايات البلاغة عند من يعرف ذلك تفصيلاً وإجمالاً من فهم كلام العرب وتصاريف التعبير، فإنه إن تأملت أخباره وجدتها في غاية الحلاوة سواء كانت مبسوتة أو وجيبة وسواء تكررت أم لا، وكلما تكرر حلاً وعلا، لا يخلق<sup>(١)</sup> عن كثرة الرد، ولا يمل منه العلماء، وإن أخذ في الوعيد والتهديد جاء منه ما تشعر منه الرجال الصم الراسيات، فما ظنك بالقلوب الفاهمات، وإن وعد أتى بما يفتح القلوب والأذان، ويشوق إلى دار السلام ومجاورة عرش الرحمن كما قال في الترغيب ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسًا مَا أَخْفَى لَهُمْ مِنْ قَرْةِ أَعْيُنٍ جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧] وقال في الترهيب: ﴿وَفِيهَا مَا تُشْتَهِيَ الْأَنْفُسُ وَتَلْذِدُ الْأَعْيُنُ وَأَتْمَمْتُ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ إِذَا هِيَ تَمُورٌ \* أَمْ أَتَمْتَمْ مِنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَرْسُلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسْتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٌ﴾ [الملك: ١٦ - ١٧] وقال في الزجر: ﴿فَكُلَا أَخْذَنَا بِذَنْبِهِ﴾ [العنكبوت: ٤٠] وقال في الوعظ: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَعَنَّاهُمْ سِنِينَ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يَوْعِدُونَ مَا أَخْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٥] إلى غير ذلك من أنواع الفصاحة والبلاغة والحلابة. وإن جاءت الآيات في الأحكام والأوامر والنواهي، اشتتملت على الأمر بكل معروف حسن نافع طيب محبوب، والنهي عن كل قبيح رذيل دنيء، كما قال ابن مسعود وغيره من السلف: إذا سمعت الله تعالى يقول في القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فأرعها سمعك فإنها خير يأمر به أو شر ينهى عنه، ولهذا قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَبِنَهَا مِنَ الْمُنْكَرِ وَيَحْلِ لَهُمُ الطَّيَّابَاتِ وَيَحرِمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيُضْعِفُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالُ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وإن جاءت الآيات في وصف المعاذ وما فيه من الأهوال وفي وصف الجنة والنار وما أعد الله فيما لأوليائه وأعدائه من النعيم والجحيم والملاذ والعقاب الأليم، بشرت به وحذرت وأنذرت، ودعت إلى فعل الخيرات واجتناب المنكرات، وزهدت في الدنيا ورغبت في الآخرة، وثبتت على الطريقة

(١) لا يخلق: لا يبلل.

المثلث ، وهدت إلى صراط الله المستقيم وشرعه القويم ، ونفت عن القلوب رجس الشيطان الرجيم . ولهذا ثبت في الصحيحين<sup>(١)</sup> عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «ما مننبي من الأنبياء إلا قد أعطي من الآيات ما أمن على مثله البشر وإنما كان الذي أوتيه وحياً أو حاده الله إلى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيمة» - لفظ مسلم<sup>(٢)</sup> - وقوله ﷺ : « وإنما كان الذي أوتيه وحياً أي الذي اختصت به من بينهم هذا القرآن المعجز للبشر أن يعارضوه بخلاف غيره من الكتب الإلهية فإنها ليس معجزة عند كثير من العلماء والله أعلم . وله عليه الصلاة والسلام من الآيات الدالة على نبوته وصدقه فيما جاء به ما لا يدخل تحت حصر حصر والله الحمد والمنة .

وقد قرر بعض المتكلمين الإعجاز بطريق يشمل قول أهل السنة وقول المعتزلة في الصرف ، فقال : إن كان هذا القرآن معجزاً في نفسه لا يستطيع البشر الإيتان بمثله ولا في قواهم معارضته فقد حصل المدعى وهو المطلوب ، وإن كان في إمكانهم معارضته بمثله ولم يفعلوا ذلك مع شدة عداوتهم له كان ذلك دليلاً على أنه من عند الله لصرفه إياهم عن معارضته مع قدرتهم على ذلك ، وهذه الطريقة وإن لم تكن مرضية لأن القرآن في نفسه معجز لا يستطيع البشر معارضته كما قررنا إلا أنها تصلح على سبيل التنزل والمجادلة والمنافحة عن الحق ، وبهذه الطريقة أجاب الرازبي في تفسيره عن سؤاله في السور القصار كالعصر وإنما أعطيناك الكوثر .

وقوله تعالى : «فاقتوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين» أما الوقود ، بفتح الواو ، فهو ما يلقى في النار لإضرامها كالحطب ونحوه ، كما قال تعالى : «وأما القاطعون فكانوا لجهنم حطباً» [الجن: ١٥] وقال تعالى : «إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون \* لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون» [الأنباء: ٩٨ - ٩٩] والمراد بالحجارة هنا هي حجارة الكبريت العظيمة السوداء الصلبة المنتنة ، وهي أشد الأحجار حرّاً إذا حميّت ، أجارنا الله منها . وقال عبد الملك بن ميسرة الزراد عن عبد الرحمن بن سابط عن عمرو بن ميمون عن عبد الله بن مسعود في قوله تعالى : «وقودها الناس والحجارة» قال : هي حجارة من كبريت ، خلقها الله يوم خلق السموات والأرض في السماء الدنيا يدها للكافرين . رواه ابن جرير<sup>(٣)</sup> وهذا لفظه وابن أبي حاتم والحاكم في مستدركه وقال : على شرط الشيختين . وقال السدي في تفسيره عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة : اتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة ، أما الحجارة فهي من كبريت أسود يعذبون به مع النار . وقال مجاهد حجارة من كبريت أتنى من الجيفة . وقال أبو جعفر محمد بن علي : حجارة من كبريت ، وقال ابن جريج : حجارة من كبريت أسود في النار ، قال :

(١) آخر جه البخاري (فضائل القرآن باب ١؛ اعتصام بباب ١) ومسلم (إيمان حديث ٢٣٩).

(٢) بالمقارنة مع لفظ مسلم لاحظنا اختلافاً في ترتيب عدد من الألفاظ .

(٣) تفسير الطبرى ١/ ٢٠٤.

وقال لي عمرو بن دينار: أصلب من هذه الحجارة وأعظم. وقيل المراد بها حجارة الأصنام والأنداد التي كانت تعبد من دون الله كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبٌ جَهَنَّمُ﴾ الآية، حكاه القرطبي والرازي ورجحه على الأول، قال: لأن أخذ النار في حجارة الكبريت ليس بمستنقع يجعلها هذه الحجارة أولى. وهذا الذي قاله ليس بقوى، وذلك أن النار إذا أضرمت بحجارة الكبريت كان ذلك أشد لحرها وأقوى لسعيرها ولا سيما على ما ذكره السلف من أنها حجارة من كبريت معدة لذلك، ثم أخذ النار بهذه الحجارة أيضاً مشاهد، وهذا الجص يكون أحجاراً فيعمل فيه بالنار حتى يصير كذلك. وكذلك سائر الأحجار ت Nxhera النار وتحرقها وإنما سيق هذا في حر هذه النار التي وعدوا بها، وشدة ضرارها وقوتها لهبها كما قال تعالى: ﴿كُلُّمَا خَبَتْ زَدَنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧] وهكذا رجح القرطبي أن المراد بها الحجارة التي تسرع بها النار لتحمر ويشتت لهبها قال: ليكون ذلك أشد عذاباً لأهلها، قال: وقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «كل مؤذ في النار» وهذا الحديث ليس بمحفوظ ولا معروف، ثم قال القرطبي: وقد فسر بمعنىين، أحدهما أن كل من آذى الناس دخل النار، والآخر أن كل ما يؤذى في النار يتأذى به أهلها من السباع والهؤام وغير ذلك<sup>(١)</sup>.

وقوله تعالى: ﴿أَعْدَتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ الأظهر أن الضمير في أعدت عائد إلى النار التي وقودها الناس والحجارة، ويحتمل عوده إلى الحجارة كما قال ابن مسعود، ولا منافاة بين القولين في المعنى لأنهما متلازمان، وأعدت أي رصدت وحصلت للكافرين بالله ورسوله كما قال ابن إسحاق عن محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿أَعْدَتْ لِلْكَافِرِينَ﴾: أي لمن كان على مثل ما أنت عليه من الكفر. وقد استدل كثير من أئمة السنة بهذه الآية على أن النار موجودة الآن لقوله تعالى: ﴿أَعْدَتْ﴾ أي أرصدت وهيئت، وقد وردت أحاديث كثيرة في ذلك منها «تحاجت الجنة والنار» ومنها «استأذنت النار ربها فقالت رب أكل بعضي بعضاً، فأذن لها بنفسين: نفس في الشتاء ونفس في الصيف» وحديث ابن مسعود: سمعنا وجة<sup>(٢)</sup> فقلنا ما هذه؟ فقال رسول الله ﷺ: «هذا حجر ألقى به من شفير جهنم منذ سبعين سنة الآن وصل إلى قعرها» وهو عند مسلم، وحديث صلاة الكسوف وليلة الإسراء وغير ذلك من الأحاديث المتواترة في هذا المعنى، وقد خالفت المعتزلة بجهلهم في هذا ووافقهم القاضي متذر بن سعيد البلوطي<sup>(٣)</sup> قاضي الأندلس.

(١) تفسير القرطبي ٢٣٦ / ١. وعبارة القرطبي: «والثاني أن كل ما يؤذى الناس في الدنيا من السباع والهؤام وغيرها في النار، معدٌّ لعقوبة أهل النار».

(٢) الوجة: صوت الساقط. ووجب القلب وجيباً: خفق واضطرب.

(٣) هو متذر بن سعيد بن عبد الله القرطبي البلوطي المتوفى سنة ٣٥٥ هـ. نسبته إلى «فحص البلوط» بقرب قرطبة. قال ابن الفرضي في «تاريخ علماء الأندلس»: كان بصيراً بالجدل منحرفاً إلى مذاهب أصحاب الكلام.

## (تنبيه ينبغي الوقوف عليه)

قوله تعالى : ﴿فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مُّثْلِهِ﴾ و قوله في سورة يومن : ﴿بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ يعم كل سورة في القرآن طويلة كانت أم قصيرة لأنها نكرة في سياق الشرط فتعم كما هي في سياق النفي عند المحققين من الأصوليين كما هو مقرر في موضعه ، فالإعجاز حاصل في طوال السور وقصارها ، وهذا ما لا أعلم فيه نزاعاً بين الناس سلفاً وخلفاً . وقد قال الرازي في تفسيره : فإن قيل قوله تعالى : ﴿فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مُّثْلِهِ﴾ يتناول سورة الكوثر وسورة العصر ، وقل يا أيها الكافرون ونحن نعلم بالضرورة أن الإتيان بمثله أو بما يقرب منه ممكן فإن قلتم إن الإتيان بمثل هذه السور خارج عن مقدار البشر كان مكابرة والإقدام على هذه المكابرات مما يطرق بالتهمة إلى الدين (قلنا)<sup>(١)</sup> فلهذا السبب اخترتنا الطريق الثاني وقلنا إن بلغت هذه السور في الفصاحة حد الإعجاز فقد حصل المقصود ، وإن لم يكن كذلك ، كان امتناعهم من المعارضه مع شدة دواعيهم إلى توهين أمره معجزاً ، فعلى التقديررين يحصل المعجز . هذا لفظه بحروفه ، والصواب أن كل سورة من القرآن معجزة لا يستطيع البشر معارضتها طويلة كانت أو قصيرة . قال الشافعي رحمة الله : لو تدبر الناس هذه السورة لكتفهم ﴿وَالعَصْرُ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خَسْرٍ \* إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر : ١ - ٢] وقد روينا عن عمرو بن العاص أنه وفد على ميسيلمة الكذاب قبل أن يسلم ، فقال له ميسيلمة : ماذا أنزل على صاحبكم بمكة في هذا الحين ؟ فقال له عمرو : لقد أنزل عليه سورة وجية بلغة فقال : وما هي ؟ فقال ﴿وَالعَصْرُ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خَسْرٍ﴾ ففكرا ساعة ثم رفع رأسه فقال : ولقد أنزل علياً مثلها ، فقال : وما هو ؟ فقال : يا وبر يا وبر إنما أنت أذنان وصدر ، وسائلك حقر فقر ، ثم قال : كيف ترى يا عمرو ؟ فقال له عمرو : والله إنك لتعلم أني لأعلم أنك تكذب .

وَبَشَّرَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا أَلَانَهَرٌ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ شَمْرَقَةِ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلٍ وَأَتُؤْمِنُ بِهِ مُتَشَسِّهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَلِيلُونَ<sup>(٢)</sup>

لما ذكر تعالى ما أعده لأعدائه من الأشقياء الكافرين به وبرسله من العذاب والنکال ، عطف يذكر حال أوليائه من السعداء المؤمنين به وبرسله الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة ، وهذا معنى تسمية القرآن مثاني على أصبح أقوال العلماء كما سنبسطه في موضعه ، وهو أن يذكر الإيمان ويتبع بذلك الكفر أو عكسه أو حال السعداء ثم الأشقياء أو عكسه ، وحاصله ذكر الشيء ومقابلة . وأما ذكر الشيء ونظيره فذاك الشابه كما سنجليزه إن شاء الله فلهذا قال تعالى : ﴿وَبَشَّرَ

الذين أمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهر<sup>(١)</sup> فوصفها بأنها تجري من تحتها الأنهر أي من تحت أشجارها وغرفها، وقد جاء في الحديث: أن أنهارها تجري في غير أخدود، وجاء في الكوثر أن حافتيه قباب اللؤلؤ المجوف، ولا منافاة بينها فطينها المسك الأدفر، وحصاًؤها اللؤلؤ والجوهر، نسأل الله من فضله إنه هو البر الرحيم. وقال ابن أبي حاتم: قرئ على الربيع بن سليمان، حدثنا أسد بن موسى، حدثنا ابن ثوبان عن عطاء بن قرة، عن عبد الله بن ضمرة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أنهار الجنة تفجر تحت تلال أو من تحت جبال المسك» وقال أيضاً: حدثنا أبو سعيد حدثنا وكيع عن الأعمش عن عبد الله بن مرة عن مسروق، قال: قال عبد الله: أنهار الجنة تفجر من جبل المسك.

وقوله تعالى: «كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل» قال السدي في تفسيره عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة (قالوا: هذا الذي رزقنا من قبل)، قال: إنهم أتوا بالثمرة في الجنة فلما نظروا إليها قالوا: هذا الذي رزقنا من قبل في الدنيا، وهكذا قال قتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم نصره ابن جرير<sup>(٢)</sup>، وقال عكرمة «قالوا هذا الذي رزقنا من قبل» قال: معناه مثل الذي كان بالأمس، وكذا قال الربيع بن أنس. وقال مجاهد: يقولون ما أشبه به. قال ابن جرير: وقال آخرون: بل تأويل ذلك: هذا الذي رزقنا من ثمار الجنة من قبل هذا، لشدة مشابهته بعضاً<sup>(٣)</sup> لقوله تعالى: «وأتوا به متشابهاً». قال سعيد بن داود حدثنا شيخ من أهل المصيصة<sup>(٤)</sup> عن الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثیر قال: يؤتى أحدهم بالصفحة من الشيء فياكل منها ثم يؤتى بأخر فيقول: هذا الذي أتينا به من قبل، فتقول الملائكة: كُلْ فاللون واحد والطعم مختلف<sup>(٥)</sup>. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا عامر بن يساف عن يحيى بن أبي كثیر، قال: عشب الجنة الزعفران وكثبانها المسك، ويطوف عليهم الولدان بالفواكه فياكلونها، ثم يؤتون بمثلها، فيقول لهم أهل الجنة: هذا الذي أتيمونا آنفاً به، فتقول لهم الولدان: كلوا فاللون واحد والطعم مختلف، وهو قول الله تعالى: «وأتوا به متشابهاً». وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبي العالية «وأتوا به متشابهاً» قال: يشبه بعضه بعضاً، ويختلف في الطعم. قال ابن أبي حاتم: روی عن مجاهد والربيع بن أنس والسدي نحو ذلك. وقال ابن جرير بإسناده عن السدي في تفسيره عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة، عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة في قوله تعالى: «وأتوا به متشابهاً» يعني في اللون والمرأى وليس يشتبه في

(١) الطبرى ٢٠٦/١.

(٢) أضاف الطبرى: «ومن علة قائلى هذا القول أن ثمار الجنة كلما نزع منها شيء عاد مكانه آخر مثله».

(٣) المصيصة: مدينة من ثغور بلاد الشام بين انطاكية وبلاط الروم.

(٤) الطبرى ٢٠٧/١.

الطعم، وهذا اختيار ابن جرير. وقال عكرمة **﴿وَأَتُوا بِهِ مِتْشَابِهَا﴾** قال: يشبه ثمر الدنيا غير أن ثمر الجنة أطيب. وقال سفيان الثوري عن الأعمش عن أبي ظبيان عن ابن عباس: لا يشبه شيء مما في الجنة ما في الدنيا إلا في الأسماء، وفي رواية: ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء، ورواه ابن جرير من رواية الثوري وابن أبي حاتم من حديث أبي معاوية كلامهما عن الأعمش به. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله تعالى: **﴿وَأَتُوا بِهِ مِتْشَابِهَا﴾** قال: يعرفون أسماءه كما كانوا في الدنيا التفاح بالتفاح والرمان بالرمان، قالوا في الجنة: هذا الذي رزقنا من قبل في الدنيا وأتوا به متشابهاً يعرفونه وليس هو مثله في الطعام<sup>(١)</sup>.

وقوله تعالى: **﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مَطْهَرَةٌ﴾** قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس: مطهرة من القذر والأذى، وقال مجاهد: من الحيض والغائط والبول والنخام والبزاق والمني والولد، وقال قتادة: مطهرة من الأذى والمأثم، وفي رواية عنه لا حيض ولا كلف. وروي عن عطاء والحسن والضحاك وأبي صالح وعطاءة والسدي نحو ذلك. وقال ابن جرير<sup>(٢)</sup>: حدثني يونس بن عبد الأعلى. أنبأنا ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، قال: المطهرة التي لا تحيسن، قال: وكذلك خلقت حواء عليها السلام، فلما عصت قال الله تعالى: إني خلقتك مطهرة وسأدريك كما أدميت هذه الشجرة - وهذا غريب. وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه: حدثنا إبراهيم بن محمد حدثني جعفر بن محمد بن حرب وأحمد بن محمد الجورى قالا: حدثنا محمد بن عبيد الكندي، حدثنا عبد الرزاق بن عمر البزيبي، حدثنا عبد الله بن المبارك عن شعبة عن قتادة عن أبي نصرة عن أبي سعيد عن النبي ﷺ في قوله تعالى: **﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مَطْهَرَةٌ﴾** قال من الحيض والغائط والنخاع<sup>(٣)</sup> والبزاق. هذا حديث غريب - وقد رواه الحاكم في مستدركه عن محمد بن يعقوب عن الحسن بن علي بن عفان عن محمد بن عبيد به، وقال: صحيح على شرط الشيفيين. وهذا الذي ادعاه فيه نظر، فإن عبد الرزاق بن عمر البزيبي هذا قال فيه أبو حاتم بن حبان البستي: لا يجوز الاحتجاج به (قلت) والأظاهر أن هذا من كلام قتادة كما تقدم، والله أعلم.

وقوله تعالى: **﴿وَهُمْ فِيهَا حَالِدُون﴾** هذا هو تمام السعادة فإنهما مع هذا النعيم في مقام أمين من الموت والانقطاع فلا آخر له ولا انقضاء بل في نعيم سرمدي أبدى على الدوام، والله المسؤول أن يحشرنا في زمرتهم، إنه جواد كريم برحميم.

**إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحِيْ إِنَّ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً فَمَا فَرَقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ**

(١) الطبرى / ٢١٠؛ والدر المثور / ١ / ٨٢ — ٨٣.

(٢) تفسير الطبرى / ٢١٢ / ١.

(٣) في الدر المثور: «والنخامة».

الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضَلِّلُ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضَلِّلُ بِهِ إِلَّا الْفَنَسِيقِينَ إِنَّ الَّذِينَ يَنْفَضِعُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيَكْتَبِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمْرَ اللَّهُ بِهِ إِنَّمَا يُوصَلُ وَيُقْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ

قال السدي في تفسيره عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن معاذ عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة: لما ضرب الله هذين المثلين للمنافقين يعني قوله تعالى: «مثلك كمثل الذي استوقد ناراً» قوله: «أو كصيـب من المسـاء» الآيات الثلاث، قال المنافقون: الله أعلى وأجل من أن يضرـب هذه الأمـثال، فأـنزل الله هذه الآية إلى قوله تعالى: «هم الخـاسرون». وقال عبد الرزاق عن معمر عن قـتادة: لما ذـكر الله تعالى العنكـبوت والذـباب، قال المـشركون: ما بال العنكـبوت والذـباب يـذكران؟ فأـنزل الله «إـن الله لا يستـحبـي أن يـضرـب مـثـلاً ما بـعـوضـة فـما فـوقـها» وقال سعيد عن قـتادة: أي إـن الله لا يستـحبـي منـ الحقـ أن يـذـكـرـ شـيـئـاً مـا قـلـ أوـ كـثـرـ، وإنـ اللهـ حـيـنـ ذـكـرـ فـيـ كـاتـبـ الذـبـابـ وـالـعـنـكـبـوتـ قـالـ أـهـلـ الضـلـالـةـ: ماـ أـرـادـ اللهـ مـنـ ذـكـرـ هـذـاـ؟ فأـنزلـ اللهـ «إـنـ اللهـ لاـ يـسـتـحـبـيـ أـنـ يـضـرـبـ مـثـلاًـ مـاـ بـعـوضـةـ فـماـ فـوقـهاـ» (قلـتـ) العـبـارـةـ الـأـوـلـىـ عـنـ قـتـادـةـ فـيـهـ إـشـعـارـ أـنـ هـذـهـ الـآـيـةـ مـكـيـةـ وـلـيـسـ كـذـلـكـ، وـعـبـارـةـ روـاـيـةـ سـعـيدـ عـنـ قـتـادـةـ أـقـرـبـ، وـالـهـ أـعـلـمـ. وـرـوـىـ اـبـنـ جـرـيـجـ عـنـ مجـاهـدـ نـحـوـ هـذـاـ الثـانـيـ عـنـ قـتـادـةـ. وـقـالـ اـبـنـ أـبـيـ حـاتـمـ روـيـ عـنـ الـحـسـنـ وـإـسـمـاعـيلـ بـنـ أـبـيـ خـالـدـ نـحـوـ قـولـ السـدـيـ وـقـتـادـةـ. وـقـالـ أـبـوـ جـعـفرـ الرـازـيـ عـنـ الرـبـيعـ بـنـ أـنـسـ فـيـ هـذـهـ الـآـيـةـ قـالـ: هـذـاـ مـثـلـ ضـرـبـهـ اللـهـ لـلـدـنـيـاـ إـنـ الـبـعـوضـةـ تـحـيـاـ مـاـ جـاءـتـ فـإـذـاـ سـمـنـتـ مـاتـ وـكـذـلـكـ مـثـلـ هـؤـلـاءـ الـقـومـ الـذـينـ ضـرـبـ لـهـمـ هـذـاـ مـثـلـ فـيـ الـقـرـآنـ إـذـاـ اـمـتـلـاـوـاـ مـنـ الدـنـيـاـ رـيـاـ أـخـذـهـمـ اللـهـ عـنـ ذـلـكـ ثـمـ تـلـاـ: «فـلـمـ نـسـواـ مـاـ ذـكـرـوـاـ بـهـ فـتـحـنـاـ عـلـيـهـمـ أـبـوابـ كـلـ شـيـءـ» [الأنـعامـ: ٤٤] هـذـكـذاـ روـاهـ اـبـنـ جـرـيـجـ<sup>(١)</sup> وـرـوـاهـ اـبـنـ أـبـيـ حـاتـمـ مـنـ حـدـيـثـ أـبـيـ جـعـفرـ عـنـ الرـبـيعـ بـنـ أـنـسـ عـنـ أـبـيـ الـعـالـيـةـ بـنـ حـوـهـ فـالـلـهـ أـعـلـمـ. فـهـذـاـ اـخـتـلـافـهـمـ فـيـ سـبـبـ النـزـولـ. وـقـدـ اـخـتـارـ اـبـنـ جـرـيـجـ مـاـ حـكـاهـ السـدـيـ لـأـنـهـ أـمـسـ بـالـسـوـرـةـ وـهـوـ مـنـاسـبـ، وـمـعـنـيـ الـآـيـةـ أـنـ تـعـالـيـ أـخـبـرـ أـنـهـ لـاـ يـسـتـحـبـيـ أـيـ لـاـ يـسـتـنـكـفـ وـقـيلـ لـاـ يـخـشـيـ أـنـ يـضـرـبـ مـثـلاًـ مـاـ، أـيـ: أـيـ مـثـلـ كـانـ بـأـيـ شـيـءـ كـانـ صـغـيـراًـ كـانـ أـكـبـراًـ، وـمـاـ هـنـاـ لـلـتـقـلـيلـ، وـتـكـوـنـ بـعـوضـةـ مـنـصـوـبـةـ عـلـىـ الـبـدـلـ كـمـاـ تـقـولـ: لـأـضـرـبـنـ ضـرـبـاًـ مـاـ، فـيـصـدـقـ بـأـدـنـيـ شـيـءـ، أـوـ تـكـوـنـ مـاـ نـكـرـةـ مـوـصـوـفـةـ بـعـوضـةـ، وـاـخـتـارـ اـبـنـ جـرـيـجـ أـنـ مـاـ مـوـصـوـلـةـ وـبـعـوضـةـ مـعـرـبـةـ بـإـعـرـابـهـاـ، قـالـ: وـذـلـكـ سـائـعـ فـيـ كـلـامـ الـعـرـبـ أـنـهـمـ يـعـرـبـونـ صـلـةـ مـاـ وـمـنـ بـإـعـرـابـهـمـ لـأـنـهـمـ يـكـونـانـ مـعـرـفـةـ تـارـةـ وـنـكـرـةـ أـخـرـىـ كـمـاـ قـالـ حـسـانـ بـنـ ثـابـتـ: [الـكـامـلـ]

وكـفـىـ بـنـاـ فـضـلـاًـ عـلـىـ مـنـ غـيرـنـاـ حـبـ النـبـيـ مـحـمـدـ إـيـانـ<sup>(٢)</sup>

(١) الطبرى ٢١٣ / ١

(٢) البيت منسوب لحسان بن ثابت في الطبرى ٢١٦ / ١؛ والأزهري ص ١٠١؛ وللcube بن مالك في ديوانه ص ٢٨٩؛ وخزانة الأدب ٦ / ١٢٠؛ والدرر ٣ / ٧؛ وشرح أبيات سيبويه ١ / ٥٣٥؛ ول بشير بن عبد الرحمن في لسان العرب (من)؛ وللCube أو لحسان أو عبد الله بن رواحة في الدرر ١ / ٣٠٢ =

قال : ويجوز أن تكون بعوضة منصوبة بحذف الجار ، وتقدير الكلام : إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بين بعوضة إلى ما فوقها . وهذا الذي اختاره الكسائي والفراء . وقرأ الضحاك وإبراهيم بن [أبي]<sup>(١)</sup> عبلة : بعوضة بالرفع ، قال ابن جني و تكون صلة لما وحذف العائد كما في قوله « تماماً على الذي أحسن » أي على الذي هو أحسن ، وحکى سيبويه : ما أنا بالذي قائل لك شيئاً ، أي بالذي هو قائل لك شيئاً و قوله تعالى : « فما فوقها » فيه قولان : أحدهما فيما دونها في الصغر والحقارة كما إذا وصف رجل باللؤم والشح فيقول السامع : نعم وهو فوق ذلك - يعني فيما وصفت - وهذا قول الكسائي وأبي عبيدة قاله الرازي وأكثر المحققين . وفي الحديث « لو أن الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة لما سقى كافراً منها شربة ماء » والثاني : بما فوقها لما هو أكبر منها لأنه ليس شيء أحقر ولا أصغر من البعوضة ، وهذا قول قتادة بن دعامة و اختيار ابن جرير ، فإنه يؤيده ما رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « ما من مسلم يشاك شوكة بما فوقها إلا كتب له بها درجة ومحيت عنه بها خطيئة »<sup>(٢)</sup> فأخبر أنه لا يستصغر شيئاً يضر به مثلاً ولو كان في الحقارة والصغر كالبعوضة ، كما لا يستنكف عن خلقها كذلك لا يستنكف عن ضرب المثل بها كما ضرب المثل بالذباب والعنكبوت في قوله « يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب » [الحج : ٧٣] وقال : « مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون » [العنكبوت : ٤١] وقال تعالى : « ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يذكرون \* ومثل الكلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار \* يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويغفل الله ما يشاء » [إبراهيم : ٢٤] - [٢٧] وقال تعالى : « ضرب الله مثلاً عبداً مملاوكاً لا يقدر على شيء » [النحل : ٧٥] ، ثم قال : « وضرب الله مثلاً رجلين أحدهم أبكم لا يقدر على شيء وهو كَلُّ على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل » [النحل : ٧٦] كما قال : « ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم » [الروم : ٢٨] . وقال : « ضرب الله مثلاً رجالاً فيه شركاء متشاركون » [الزمر : ٢٩] . وقال : « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا

= ولالأنصاري في الكتاب ٢/١٠٥؛ ولسان العرب (كفى)؛ وبلا نسبة في رصف المبني ص ١٤٩  
ومجالس ثعلب ١/٣٣٠؛ وهمع الهوامع ١/٩٢.

(١) الزيادة من القرطيسي . وزاد بأنها قراءة رؤبة بن العجاج أيضاً . قال : وهي لغة تميم . ووجه ذلك أن « ما » اسم بمنزلة « الذي » ، « وبعوضة » رفع على إضمار المبتدأ ، والتقدير : لا يستحيي أن يضرب الذي هو بعوضة مثلاً ، فحذف العائد على الموصول وهو مبتدأ .

(٢) آخرجه مسلم (بزـ حديث ٤٦، ٤٧، ٤٨).

العالمون» [العنكبوت : ٤٣] وفي القرآن أمثل كثيرة .

قال بعض السلف : إذا سمعت المثل في القرآن فلم أفهمه بكيت على نفسي لأن الله قال : «وتكل الأمثال نصربها للناس وما يعقلها إلا العالمون» وقال مجاهد في قوله تعالى : «إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعْضُهُ فَمَا فُوقُهَا» الأمثال صغيرها وكبیرها يؤمـنـونـ ويـعـلـمـونـ أنهاـ الحقـ منـ ربـهمـ وـيـهـدـيـهمـ اللهـ بهاـ . وـقـالـ قـاتـادـةـ «فـأـمـاـ الـذـيـنـ آـمـنـواـ فـيـعـلـمـونـ أـنـهـ الحقـ منـ ربـهمـ» أيـ يـعـلـمـونـ أنهـ كـلـامـ الرـحـمـنـ وـأـنـهـ منـ عـنـ اللهـ ، وـرـوـيـ عنـ مجـاهـدـ وـالـحـسـنـ وـالـرـبـيعـ بـنـ أـنـسـ نـحـوـ ذـلـكـ . وـقـالـ أـبـوـ الـعـالـيـةـ «فـأـمـاـ الـذـيـنـ آـمـنـواـ فـيـعـلـمـونـ أـنـهـ الحقـ منـ ربـهمـ» يعنيـ هذاـ المـثـلـ «وـأـمـاـ الـذـيـنـ كـفـرـواـ فـيـقـولـونـ مـاـذـاـ أـرـادـ اللـهـ بـهـذـاـ مـثـلـاـ» كماـ قـالـ فـيـ سـوـرـةـ المـدـثـرـ «وـمـاـ جـعـلـنـاـ أـصـحـابـ النـارـ إـلـاـ مـلـاتـكـةـ وـمـاـ جـعـلـنـاـ عـدـتـهـمـ إـلـاـ فـتـنـةـ لـلـذـيـنـ كـفـرـواـ لـيـسـتـيـقـنـ الـذـيـنـ أـوـتـوـاـ الـكـتـابـ وـيـزـدـادـ الـذـيـنـ آـمـنـواـ إـيمـانـاـ \*ـ وـلـاـ يـرـتـابـ الـذـيـنـ أـوـتـوـاـ الـكـتـابـ وـالـمـؤـمـنـونـ وـلـيـقـولـ الـذـيـنـ فـيـ قـلـوبـهـمـ مـرـضـ وـالـكـافـرـونـ مـاـذـاـ أـرـادـ اللـهـ بـهـذـاـ مـثـلـاـ \*ـ كـذـلـكـ يـضـلـ اللـهـ مـنـ يـشـاءـ وـيـهـدـيـهـ مـنـ يـشـاءـ وـمـاـ يـعـلـمـ جـنـودـ رـبـكـ إـلـاـ هـوـ» [المـدـثـرـ : ٣١] وكذلكـ قـالـ هـنـاـ «يـضـلـ بـهـ كـثـيرـاـ وـيـهـدـيـ بـهـ كـثـيرـاـ وـمـاـ يـضـلـ بـهـ إـلـاـ الـفـاسـقـينـ» قالـ السـدـيـ فيـ تـفـسـيرـهـ عنـ أـبـيـ مـالـكـ وـعـنـ أـبـيـ صـالـحـ عـنـ اـبـنـ عـبـاسـ وـعـنـ مـرـةـ عـنـ أـبـنـ مـسـعـودـ وـعـنـ نـاسـ مـنـ الصـحـابـةـ (يـضـلـ بـهـ كـثـيرـاـ) يـعـنـيـ الـمـنـافـقـينـ (وـيـهـدـيـ بـهـ كـثـيرـاـ) يـعـنـيـ الـمـؤـمـنـينـ ، فـيـزـيدـ هـؤـلـاءـ ضـلـالـتـهـمـ لـتـكـذـيـبـهـمـ بـمـاـ قـدـ عـلـمـوـهـ حـقـاـ يـقـيـنـاـ مـنـ المـثـلـ الـذـيـ ضـرـبـهـ اللـهـ بـمـاـ ضـرـبـ لـهـمـ ، وـأـنـهـ لـمـ ضـرـبـ لـهـ موـافـقـ ، فـذـلـكـ إـضـلـالـ اللـهـ إـيـاـهـ بـهـ ، (وـيـهـدـيـ بـهـ) يـعـنـيـ بـالـمـثـلـ كـثـيرـاـ مـنـ أـهـلـ الـإـيمـانـ وـالـتـصـدـيقـ فـيـزـيدـهـمـ هـدـىـ إـلـىـ هـدـاـهـمـ وـإـيمـانـاـ إـلـىـ إـيمـانـهـ لـتـصـدـيقـهـمـ بـمـاـ قـدـ عـلـمـوـهـ حـقـاـ يـقـيـنـاـ أـنـ موـافـقـ لـمـ ضـرـبـهـ اللـهـ لـهـ مـثـلـاـ وـإـقـرـارـهـمـ بـهـ وـذـلـكـ هـدـاـيـةـ مـنـ اللـهـ لـهـمـ بـهـ «وـمـاـ يـضـلـ بـهـ إـلـاـ الـفـاسـقـينـ» قالـ : هـمـ الـمـنـافـقـونـ . وـقـالـ أـبـوـ الـعـالـيـةـ «وـمـاـ يـضـلـ بـهـ إـلـاـ الـفـاسـقـينـ» قالـ : هـمـ أـهـلـ النـفـاقـ ، وـكـذـاـ قـالـ الرـبـيعـ بـنـ أـنـسـ . وـقـالـ اـبـنـ جـرـيـحـ عـنـ مجـاهـدـ عـنـ اـبـنـ عـبـاسـ «وـمـاـ يـضـلـ بـهـ إـلـاـ الـفـاسـقـينـ» قالـ : يـعـرـفـهـ الـكـافـرـونـ فـيـكـفـرـوـنـ بـهـ . وـقـالـ قـاتـادـةـ «وـمـاـ يـضـلـ بـهـ إـلـاـ الـفـاسـقـينـ» فـسـقـوـاـ فـأـصـلـهـمـ اللـهـ عـلـىـ فـسـقـهـمـ . وـقـالـ اـبـنـ أـبـيـ حـاتـمـ حـدـثـنـاـ أـبـيـ عـنـ إـسـحـاقـ بـنـ سـلـيـمانـ عـنـ أـبـيـ سـنـانـ عـنـ عـمـرـوـ بـنـ مـرـةـ عـنـ مـصـعـبـ بـنـ سـعـدـ عـنـ سـعـدـ (يـضـلـ بـهـ كـثـيرـاـ) يـعـنـيـ الـخـوارـجـ . وـقـالـ شـعـبـةـ عـنـ عـمـرـوـ بـنـ مـرـةـ عـنـ مـصـعـبـ بـنـ سـعـدـ قـالـ سـأـلـتـ أـبـيـ فـقـلتـ : قـوـلـهـ تـعـالـيـ «الـذـيـنـ يـنـقـضـوـنـ عـهـدـ اللـهـ مـنـ بـعـدـ مـيـثـاقـهـ» إـلـىـ آخرـ الـآـيـةـ : فـقـالـ : هـمـ الـحـرـوـرـيـةـ<sup>(١)</sup> ، وـهـذـاـ إـلـسـنـادـ وـإـنـ صـحـ عـنـ سـعـدـ بـنـ أـبـيـ وـقـاصـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ فـهـوـ تـفـسـيرـ عـلـىـ الـمـعـنـيـ لـاـ أـنـ الـآـيـةـ أـرـيدـ مـنـهـاـ التـنـصـيـصـ عـلـىـ الـخـوارـجـ الـذـيـنـ خـرـجـوـاـ عـلـىـ عـلـيـ بـالـنـهـرـوـانـ ، فـإـنـ أـوـلـئـكـ لـمـ يـكـوـنـوـاـ حـالـ نـزـولـ الـآـيـةـ وـإـنـماـ هـمـ دـاـخـلـوـنـ بـوـصـفـهـمـ فـيـهـاـ مـعـ مـنـ دـخـلـ لـأـنـهـمـ سـمـواـ خـوارـجـ لـخـروـجـهـمـ عـنـ طـاعـةـ

(١) الحرورية : لقب أطلق على الـخـوارـجـ ، نسبة إلى حرورـاءـ ، قـرـيةـ قـرـيبةـ مـنـ الـكـوـفـةـ لـجـاؤـاـ إـلـيـهاـ أـوـلـ ماـ انـضـوـاـ عـنـ أـبـيـ طـالـبـ . وـيـسـمـونـ أـيـضاـ الـمـحـكـمـةـ ، مـنـ أـسـمـاءـ الـأـخـدـادـ ، لـأـنـهـمـ رـفـضـوـاـ التـحـكـيمـ .

## الإمام والقيام بشرائع الإسلام.

والفاشق في اللغة هو الخارج عن الطاعة أيضاً، وتقول العرب: فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرتها، ولهذا يقال للفأرة: فويسقة لخروجها عن حجرها للفساد. ثبت في الصحيحين عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «خمس فواشق يقتلن في الحل والحرم: الغراب والحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور»<sup>(١)</sup> فالفاشق يشمل الكافر والعاصي، ولكن فسق الكافر أشد وأفحش، والمراد به من الآية الفاسق الكافر، والله أعلم، بدليل أنه وصفهم بقوله تعالى «الذين يتقضون عهده الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون»<sup>(٢)</sup> وهذه الصفات صفات الكفار المباينة لصفات المؤمنين كما قال تعالى في سورة الرعد «أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْحَقَّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى؟ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ»<sup>\*</sup> الذين يوفون بعهد الله ولا يتقضون الميثاق \* والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويختسون ربهم ويختلفون سوء الحساب» [الرعد: ١٩ - ٢١] إلى أن قال «وَالذِّينَ يَتَقْضِيُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيَثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمْرَ اللَّهَ بِهِ أَنْ يَوْصِلَ وَيَفْسُدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ» [الرعد: ٢٥] وقد اختلف أهل التفسير في معنى العهد الذي وصف هؤلاء الفاسقين بنقضه ، فقال بعضهم: هو وصية الله إلى خلقه وأمره إياهم بما أمرهم به من طاعته ونهيه إياهم عما نهاهم عنه من معصيته في كتبه وعلى لسان رسليه ، ونقضهم ذلك هو تركهم العمل به .

وقال آخرون: بل هي في كفار أهل الكتاب والمنافقين منهم، وعهد الله الذي نقضوه هو ما أخذ الله عليهم في التوراة من العمل بما فيها واتباع محمد ﷺ إذا بعث والتصديق به وبما جاء به من عند ربهم، ونقضهم ذلك هو جحودهم به بعد معرفتهم بحقيقة وإنكارهم ذلك وكتمانهم علم ذلك عن الناس بعد إعطائهم الله من أنفسهم الميثاق ليبيّنه للناس ولا يكتمونه، فأخبر تعالى أنهم نبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً . وهذا اختيار ابن جرير<sup>(٢)</sup> رحمه الله وهو قول مقاتل بن حيان .

وقال آخرون بل عنى بهذه الآية جميع أهل الكفر والشرك والنفاق وعهده إلى جميعهم في توحيده ما وضع لهم من الأدلة الدالة على ربوبيته وعهد إليهم في أمره ونهيه ما احتاج به لرسليه من المعجزات التي لا يقدر أحد من الناس غيرهم أن يأتي بمثلها، الشاهدة لهم على صدقهم ، قالوا: ونقضهم ذلك : تركهم الإقرار بما قد تبيّنت لهم صحته بالأدلة ، وتكذيبهم الرسل والكتب مع علمهم أن ما أتوا به حق . وروي عن مقاتل بن حيان أيضاً نحو هذا وهو حسن ، وإليه مال الزمخشري فإنه قال ، فإن قلت : فما المراد بعهد الله ؟ قلت : ما ركز في عقولهم من الحجة على

(١) أخرجه البخاري (صيده باب ٧؛ بداء الخلق بباب ١) ومسلم (حجّ حديث ٧١، ٧٣) والترمذى (حج باب

(٢) والنمسائي (مناسك باب ١١٦، ١١٧) وأحمد في المستند (ج ٦ ص ١٦٤).

(٢) تفسير الطبرى / ١٢٩ .

التوحيد كأنه أمرٌ وصاهم به ووثقه عليهم ، وهو معنى قوله تعالى ﴿وأشهدتم على أنفسهم ألسنت بربكم قالوا بلى﴾ [الأعراف: ١٧٢] إذ أخذ الميثاق عليهم من الكتب المتزلة عليهم كقوله ﴿ وأنفروا بعهدي أوف بعهدهم﴾ [البقرة: ٤٠] وقال آخرون: العهد الذي ذكره تعالى هو العهد الذي أخذه عليهم حين أخرجهم من صلب آدم الذي وصف في قوله ﴿ وإذا أخذ ربكم من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدتم على أنفسهم ألسنت بربكم قالوا بلى شهدنا﴾ [الأعراف: ١٧٢ - ١٧٣] ، ونقضهم ذلك تركهم الوفاء به ، وهكذا روي عن مقاتل بن حيان أيضاً ، حكى هذه الأقوال ابن جرير في تفسيره .

وقال أبو جعفر الرازبي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية في قوله تعالى: ﴿الذين ينقضون عهده الله من بعد ميثاقه - إلى قوله - أولئك هم الخاسرون﴾ قال: هي ست خصال من المنافقين إذا كانت فيهم الظاهرة<sup>(١)</sup> على الناس أظهروا هذه الخصال ، إذا حدثوا كذبوا ، وإذا وعدوا أخلفوا ، وإذا اؤتمنوا خانوا ، ونقضوا عهده الله من بعد ميثاقه ، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل ، وأفسدوا في الأرض ، وإذا كانت الظاهرة عليهم أظهروا الخصال الثلاث: إذا حدثوا كذبوا ، وإذا وعدوا أخلفوا ، وإذا اؤتمنوا خانوا . وكذا قال الربيع بن أنس أيضاً ، وقال السدي في تفسيره بإسناده قوله تعالى ﴿الذين ينقضون عهده الله من بعد ميثاقه﴾ قال: هو ما عهد إليهم في القرآن ، فأفروا به ثم كفروا فنقضوه .

وقوله: ﴿ ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل﴾ قيل: المراد به صلة الأرحام والقرابات ، كما فسره قتادة كقوله تعالى ﴿ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وقطعوا أرحامكم﴾ [محمد: ٢٢] ورجحه ابن جرير ، وقيل: المراد أعم من ذلك فكل ما أمر الله بوصله وفعله فقطعوه وتركوه . وقال مقاتل بن حيان في قوله تعالى: ﴿أولئك هم الخاسرون﴾ قال: في الآخرة ، وهذا كما قال تعالى: ﴿أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار﴾ [الرعد: ٢٥] وقال الضحاك عن ابن عباس: كل شيء نسبه الله إلى غير أهل الإسلام من اسم مثل خاسر فإنما يعني به الكفر ، وما نسبه إلى أهل الإسلام ، فإنما يعني به الذنب . وقال ابن جرير<sup>(٢)</sup> في قوله تعالى ﴿أولئك هم الخاسرون﴾ الخاسرون: جمع خاسر ، وهم الناقصون أنفسهم حظوظهم بمعصيتهم الله من رحمته كما يخسر الرجل في تجارتة بأن يوضع من رأس ماله في بيته وكذلك المنافق والكافر خسر بحرمان الله إياه رحمته التي خلقها لعباده في القيمة أحوج ما كانوا إلى رحمته ، يقال منه: خسر الرجل يخسر خسراً وخسراً كما قال جرير بن عطية: [الجزء]

إن سليطاً في الخسار إنَّهُ أولاد قومٍ خلقوا أَفَّهُ<sup>(٣)</sup>

(١) أي إذا كانت لهم الغلبة على الناس.

(٢) تفسير الطبرى / ١٢٢ .

(٣) الرجز لجرير في ديوانه ص ١٠١٧؛ ولسان العرب (قبن)؛ وأساس البلاغة (قبن)؟ وديوان الأدب =

كَيْفَ تَكُفُّرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَيْتُكُمْ ثُمَّ يُمْسِكُمْ ثُمَّ يُحِيِّكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٧﴾

يقول تعالى محتجاً على وجوده وقدرته وأنه الخالق المتصرف في عباده **﴿كيف تكفرون بالله﴾** أي كيف تجحدون وجوده أو تبعدون معه غيره **﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُم﴾** أي وقد كنتم عدماً فأخرجكم إلى الوجود كما قال تعالى **﴿أَمْ خَلَقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالقُون﴾** \* أم خلقوا السموات والأرض \* بل لا يوقنون **﴿[الطور: ٣٥ - ٣٦]﴾** وقال تعالى : **﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَىٰ إِنْسَانٍ حِينَ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾** [الإنسان : ١] والآيات في هذا كثيرة ، وقال سفيان الثوري عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه **﴿قَالُوا رَبُّنَا أَمْتَنَا اثْتَنِينَ وَأَحْيَتْنَا اثْتَنِينَ فَاعْتَرَفْنَا بِذَنْبِنَا﴾** [غافر : ١١] قال هي التي في البقرة **﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمْسِكُمْ ثُمَّ يُحِيِّكُم﴾** وقال ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس : (كتم أمواتاً فأحياكم) : أمواتاً في أصلاب آبائكم لم تكونوا شيئاً حتى خلقكم ثم يميتكم موتة الحق ثم يحييكم حين يبعثكم ، قال : وهي مثل قوله تعالى : **﴿أَمْتَنَا اثْتَنِينَ وَأَحْيَتْنَا اثْتَنِينَ﴾** وقال الضحاك عن ابن عباس في قوله تعالى **﴿رَبُّنَا أَمْتَنَا اثْتَنِينَ وَأَحْيَتْنَا اثْتَنِينَ﴾** قال : كتنم تراباً قبل أن يخلقكم ، فهذه ميتة ، ثم أحياكم خلقكم وهذه حياة ، ثم يميتكم فترجعون إلى القبور وهذه ميتة أخرى ، ثم يبعثكم يوم القيمة وهذه حياة أخرى ، وهذه ميتان وحياتان فهو قوله **﴿كَيْفَ تَكُفُّرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُم﴾** وهكذا روي عن السدي بسنده عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة وعن أبي العالية والحسن ومجاهد وقادة وأبي صالح والضحاك وعطاء الخراصاني نحو ذلك ، وقال الثوري عن السدي عن أبي صالح **﴿كيف تكفرون بالله وكتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم يرجعون﴾** قال : يحييكم في القبر ثم يميتكم . وقال ابن جرير عن يونس عن ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال : خلقهم في ظهر آدم ثم أخذ عليهم الميثاق<sup>(١)</sup> ثم أماتهم ثم خلقهم في الأرحام ثم أماتهم ثم أحياهم يوم القيمة ، وذلك كقوله تعالى **﴿قَالُوا رَبُّنَا أَمْتَنَا اثْتَنِينَ وَأَحْيَتْنَا اثْتَنِينَ﴾** . وهذا غريب والذى قبله . والصحيح ما تقدم عن ابن مسعود وابن عباس وأولئك الجماعة من التابعين وهو قوله تعالى **﴿قُلَّ اللَّهُ يَحِيِّكُمْ ثُمَّ يُمْسِكُمْ ثُمَّ يَجْمِعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رِيبَ فِيهِ﴾** [الجاثية : ٢٦] ، كما قال تعالى في الأصنام **﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾** [النحل : ٢١] وقال : **﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمِيَةُ أُحْيِيْنَا هَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبَّاً فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾** [يس : ٣٣] .

= ٣٥ / ٣ : وتأج العروس (قنز).

(١) عبارة حديث ابن جرير (الطبرى ١ / ٢٢٤) : «خلقهم من ظهر آدم حين أخذ عليهم الميثاق».

**هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ يُكَلِّفُ  
شَيْءًا عَلَيْهِ**

لما ذكر تعالى دلالة من خلقهم وما يشاهدونه من أنفسهم ذكر دليلاً آخر مما يشاهدونه من خلق السموات والأرض فقال **«هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات»** أي قصد إلى السماء . والاستواء هنا مضمون معنى القصد والإقبال ، لأنه عدي بالي فسواهن أي فخلق السماء سبعاً ، والسماء هنا اسم جنس فلهذا قال **«فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم»** أي وعلمه محيط بجميع ما خلق ، كما قال : **«ألا يعلم من خلق»** [الملك : ١٤] وتفصيل هذه الآية في سورة حم السجدة وهو قوله تعالى **«قل أنتم لتکفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين \* وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين \* ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتها طوعاً أو كرهاً فالتنا أتينا طائعين \* فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم»** [فصلت : ٩ - ١٢] ففي هذا دلالة على أنه تعالى ابتدأ بخلق الأرض أولاً ثم خلق السموات سبعاً وهذا شأن البناء أن يبدأ بعمارة أسافله ثم أعلىه بعد ذلك ، وقد صرخ المفسرون بذلك كما سندكره بعد هذا إن شاء الله . فأما قوله تعالى **«أَلَّتْمَ أَشَدَّ خَلْقَأَمِ السَّمَاءِ بَنَاهَا \* رَفِعَ سَمْكَهَا فَسَوَاهَا \* وَأَغْطَشَ لِيَلَهَا وَأَخْرَجَ ضَحَاهَا \* وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا \* أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرَعَاهَا \* وَالْجَبَالَ أَرْسَاهَا \* مَتَاعًا لَكُمْ وَلَأَنْعَامَكُمْ»** [النازعات : ٢٧ - ٣٣] فقد قيل إن (ثم) هنا إنما هي لعطف الخبر على الخبر لا لعطف الفعل على الفعل <sup>(١)</sup> ، كما قال الشاعر : **«الخفيف»**

**قَلْ لِمَنْ سَادَ ثُمَّ سَادَ أَبُوهُ ثُمَّ قَدْ سَادَ قَبْلَ ذَلِكَ جَدُّهُ**

وقيل إن الدحي كان بعد خلق السموات ، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ، وقد قال السدي في تفسيره عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة **«هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ»** قال : إن الله تبارك وتعالى كان عرشه على الماء ولم يخلق شيئاً غير ما خلق قبل الماء ، فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخاناً فارتفع فوق الماء فسما عليه فسماه سماء ثم أيس الماء فجعله أرضاً واحدة ثم فتقها فجعلها سبع أرضين في يومين في

(١) عبارة القرطبي : «ثُمَّ» لترتيب الإخبار لا لترتيب الأمر في نفسه . (تفسير القرطبي / ١ / ٢٥٤)

(٢) البيت لأبي نواس في ديوانه / ٣٥٥؛ وخزانة الأدب / ١١، ٣٧؛ والدرر / ٦، ٩٣؛ وبلا نسبة في الجنبي الداني ص ٤٢٨؛ وجواهر الأدب ص ٣٦٤؛ ورصف المباني ص ١٧٤؛ ومغني الليب / ١١٧.

والرواية المشهورة : «إن من ساد...» .

الأحد والاثنين فخلق الأرض على حوت ، والحوت هو [النون]<sup>(١)</sup> الذي ذكره الله في القرآن ﴿ن والقلم﴾ والحوت في الماء ، والماء على ظهر صفة ، والصفة على ظهر ملك ، والملك على صخرة ، والصخرة في الريح ، وهي الصخرة التي ذكر لقمان ، ليست في السماء ولا في الأرض ، فتحرك الحوت فاضطرب فترزلت الأرض فأرسى عليها الجبال فقرت فالجبال تفخر على الأرض فذلك قوله تعالى ﴿وَلَقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَّا أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ﴾ [النحل: ١٥] وخلق الجبال فيها وأقوات أهلها وشجرها وما ينبغي لها في يومين في الثلاثاء والأربعاء وذلك حين يقول ﴿فَلَأَنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ \* وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَّا مِنْ فَوْقَهَا وَبِارْكَ فِيهَا﴾ [فصلت: ٩ - ١٠] يقول أنت شجرها ﴿وَقَدْرَ فِيهَا أَقْوَاتُهَا﴾ لأهلها ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءَ لِلْسَّائِلِينَ﴾ [فصلت: ١٠] يقول : لمن يسألك : هكذا الأمر ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ١١] وذلك الدخان من تنفس الماء حين تنفس يجعلها سماء واحدة ثم فتقها يجعلها سبع سموات في يومين في الخميس والجمعة ، إنما سمي يوم الجمعة لأنَّه جمع فيه خلق السموات والأرض ، وأوحى في كل سماء أمرها قال : خلق الله في كل سماء خلقها من الملائكة والخلق الذي فيها من البحار والجبال والبرد ومما لا يُعلم ، ثم زين السماء الدنيا بالكواكب فجعلها زينة حفظاً لحفظ الشياطين ، فلما فرغ من خلق ما أحب استوى على العرش فذلك حيث يقول ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سَتَةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤] ويقول ﴿كَانَتِ رَتْقاً فَفَتَّنَاهُمَا وَجَعَلَنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍ﴾ [الأنياء: ٣٠] وقال ابن جرير : حدثني المثنى حدثنا عبد الله بن صالح حدثني أبو معشر عن سعيد بن أبي سعيد عن عبد الله بن سلام أنه قال : إن الله بدأ الخلق يوم الأحد فخلق الأرضين في الأحد والاثنين ، وخلق الأقوات والرواسي في الثلاثاء والأربعاء ، وخلق السموات في الخميس والجمعة ، وفرغ في آخر ساعة من يوم الجمعة فخلق فيها آدم على عجل ، فتلك الساعة التي تقوم فيها الساعة<sup>(٢)</sup>.

وقال مجاهد في قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾ قال خلق الله الأرض قبل السماء فلما خلق الأرض ثار منها دخان فذلك حين يقول : ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَسَوَاهَنَ سَبْعَ السَّمَوَاتِ﴾ قال : بعضهن فوق بعض وبسبعين يعني بعضها تحت بعض . وهذه الآية دالة على أن الأرض خلقت قبل السماء كما قال في سورة السجدة : ﴿فَلَأَنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ \* وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَّا مِنْ فَوْقَهَا وَبِارْكَ فِيهَا أَقْوَاتُهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءَ لِلْسَّائِلِينَ \* ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ أَئْتِيَا طَوْعاً أَمْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ \* فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ

(١) الزيادة من الطبرى / ٢٣١ / ١.

(٢) تفسير الطبرى / ٢٣٢ / ١.

في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم》 فهذه وهذه دالتنان على أن الأرض خلقت قبل السماء، وهذا ما لا أعلم فيه نزاعاً بين العلماء إلا ما نقله ابن جرير عن قتادة أنه زعم أن السماء خلقت قبل الأرض ، وقد توقف في ذلك القرطبي في تفسيره لقوله تعالى : ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقَهُ أَمِ السَّمَاوَاتِ بِنَاهَا﴾ رفع سملتها فسوهاها \* وأغطش ليها وأخرج ضحاها ، والأرض بعد ذلك دحها \* أخرج منها ماءها ومرعاها \* والجبال أرساها﴾ قالوا: ذكر خلق السماء قبل الأرض ، وفي صحيح البخاري أن ابن عباس سئل عن هذا بعينه فأجاب بأن الأرض خلقت قبل السماء وأن الأرض إنما دحيت بعد خلق السماء ، وكذلك أجاب غير واحد من علماء التفسير قدماً وحديثاً ، وقد حررنا ذلك في سورة النازعات وحاصل ذلك أن الدحي مفسر بقوله تعالى : ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ أخرج منها ماءها ومرعاها \* والجبال أرساها﴾ فسر الدحي بإخراج ما كان مودعاً فيها بالقوة إلى الفعل لما أكملت صورة المخلوقات الأرضية ثم السماوية حتى بعد ذلك الأرض فأخرجت ما كان مودعاً فيها من المياه فنبت النباتات على اختلاف أصنافها وصفاتها وألوانها وأشكالها ، وكذلك جرت هذه الأفلاك فدارت بما فيها من الكواكب الثوابت والسيارة ، والله سبحانه وتعالى أعلم . وقد ذكر ابن أبي حاتم وابن مردوه في تفسير هذه الآية الحديث الذي رواه مسلم والنمسائي في التفسير أيضاً من روایة ابن جریح ، قال : أخبرني إسماعيل بن أمية عن أيوب بن خالد عن عبد الله بن رافع مولى أم سملة عن أبي هريرة قال : أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال : «خلق الله التربة يوم السبت وخلق الجبال فيها يوم الأحد وخلق الشجر فيها يوم الاثنين وخلق المکروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الأربعاء وبث فيها الدواب يوم الخميس وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة من آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل» وهذا الحديث من غرائب صحيح مسلم<sup>(١)</sup> ، وقد تكلم عليه علي بن المديني والبخاري وغير واحد من الحفاظ وجعلوه من كلام كعب ، وأن أبو هريرة إنما سمعه من كلام كعب الأخبار ، وإنما اشتبه على بعض الرواية ، فجعلوه مرفوعاً ، وقد حرر ذلك البيهقي .

وإذ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةَ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَيْرَهُ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَيْحُ مُحَمَّدًا وَنُنَقْدِسُ لَكَ قَالَ إِنَّمَا أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١﴾

يخبر تعالى بامتنانه علىبني آدم بتنييه بذكرهم في الملأ الأعلى قبل إيجادهم ، فقال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةَ﴾ أي واذكر يا محمد إذ قال ربكم للملائكة واقصص على قومك ذلك . وحكى ابن جرير عن بعض أهل العربية وهو أبو عبيدة أنه زعم أن «إذ» ههنا زائدة وأن تقدير

الكلام: وقال ربك، ورده ابن جرير<sup>(١)</sup>. قال القرطبي: وكذا رده جميع المفسرين حتى قال الزجاج هذا اجتراء من أبي عبيدة<sup>(٢)</sup>.

﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ أي قوماً يخلف بعضهم بعضاً قرناً بعد قرن وجيلاً بعد جيل كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَافَةً لِّلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥] قال: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خَلِيفَةً لِّلْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٢] وقال: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ [الزخرف: ٦٠] وقال: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ [مريم: ٥٩] وقرئ في الشاذ: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ حكاها الزمخشري وغيره. ونقل القرطبي عن زيد بن علي<sup>(٣)</sup> وليس المراد هبنا بال الخليفة آدم عليه السلام فقط كما يقوله طائفة من المفسرين، وعذاه القرطبي إلى ابن عباس وابن مسعود وجميع أهل التأويل، وفي ذلك نظر بل الخلاف في ذلك كثير، حكاه الرازى في تفسيره وغيره، والظاهر أنه لم يرد آدم عيناً إذ لو كان ذلك لما حسن قول الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مِنْ يَفْسُدُ فِيهَا وَيُسْفِكُ الدَّمَاءَ﴾ فإنهم أرادوا أن من هذا الجنس من يفعل ذلك، وكأنهم علموا بذلك بعلم خاص أو بما فهموه من الطبيعة البشرية، فإنه أخبرهم أنه يخلق هذا الصنف من صلصال من حما مسنون، أو فهموا من الخليفة أنه الذي يفصل بين الناس في ما يقع بينهم من المظالم ويردعهم عن المحارم والمآثم، قاله القرطبي؛ أو أنهم قاسوهم على من سبق كما سذكر أقوال المفسرين في ذلك.

وقول الملائكة هذا ليس على وجه الاعتراض على الله ولا على وجه الحسد لبني آدم كما قد يتوهّم بعض المفسرين - وقد وصفهم الله تعالى بأنهم لا يسبقونه بالقول<sup>(٤)</sup> أي لا يسألونه شيئاً لم يأذن لهم فيه، وهبنا لما أعلمه بأنه سيخلق في الأرض خلقاً، قال قتادة: وقد تقدم إليهم أنهم يفسدون فيها، فقالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مِنْ يَفْسُدُ فِيهَا وَيُسْفِكُ الدَّمَاءَ﴾ الآية - وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة في ذلك يقلّون: يا ربنا ما الحكمة في خلق هؤلاء مع أن منهم من يفسد في الأرض ويسفك الدماء، فإن كان المراد عبادتك فنحن نسبح بحمدك ونتقدس لك أي نصلّي لك كما سيأتي. أي ولا يصدر منا شيء من ذلك، وهلا وقع الاقتدار علينا؟ قال الله تعالى مجيباً لهم عن هذا السؤال: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي إني أعلم من المصلحة الراجحة في خلق هذا الصنف على المفاسد التي ذكرتموها مالا تعلمون أنتم فإني سأجعل فيهم الأنبياء

(١) تفسير الطبرى / ١ — ٢٣٢ — ٢٣٣.

(٢) في القرطبي (١/ ٢٦٢): «هذا اجترام». وقال: فالتقدير: وابتدا خلقكم إذ قال. فكان هذا من المحذوف الذي دل عليه الكلام، كما قال الشاعر:

فَإِنَّ الْمُنْيَةَ مِنْ يَخْشَهَا  
فَسُوفَ تَصَادِفَهُ أَيْنَمَا

قال: يريد أينما ذهب. ويحتمل أن تكون متعلقة بفعل مقدر تقديره: واذكر إذ قال.

(٣) العبارة غير واضحة. والحال أن القرطبي يذكر هنا أن زيد بن علي قرأ «خليفة» بالقاف.

كما جاء في سورة الأنبياء، الآية ٢٧: ﴿لَا يَسْبُقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾.

(٤)

وأرسل فيهم الرسل ويوجد منهم الصديقون والشهداء والصالحون والعياد والزهاد والأولياء والأبرار والمقربون والعلماء والعاملون والخاشعون والمحبون له تبارك وتعالى المتبعون رسله صلوات الله وسلامه عليهم. وقد ثبت في الصحيح<sup>(١)</sup> أن الملائكة إذا صعدت إلى الرب تعالى بأعمال عباده يسألهم وهو أعلم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون وتركناهم هؤلاء ويصعد أولئك بالأعمال كما قال عليه الصلاة والسلام: «يرفع إليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل» فقولهم: أتيناهم وهم يصلون وتركناهم هم يصلون من تفسير قوله لهم: «إني أعلم ما لا تعلمون»، وقيل معنى قوله تعالى جواباً لهم: «إني أعلم ما لا تعلمون» إني لي حكمة مفصلة في خلق هؤلاء والحالة ما ذكرتم لا تعلمونها، قيل إنه جواب «ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك» فقال: «إني أعلم ما لا تعلمون» أي من وجود إبليس بينكم وليس هو كما وصفتم أنفسكم به. وقيل بل تضمن قوله: «أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحي سبح بحمدك ونقدس لك» طلباً منهم أن يسكنوا الأرض بدل بني آدم، فقال الله تعالى لهم: «إني أعلم ما لا تعلمون» من أن بقاءكم في السماء أصلح لكم وأليق بكم. ذكرها الرازي مع غيرها من الأرجوحة، والله أعلم.

## ذكر أقوال المفسرين بسيط ما ذكرناه

قال ابن جرير: حدثني القاسم بن الحسن قال: حدثنا الحسين قال: حدثني الحجاج عن جرير بن حازم ومبارك عن الحسن وأبي بكر عن الحسن وقتادة قالوا: قال الله للملائكة: «إنني جاعل في الأرض خليفة»، قال لهم إني فاعل وهذا معناه أنه أخبرهم بذلك<sup>(٢)</sup>. وقال السدي: استشارة الملائكة في خلق آدم، رواه ابن أبي حاتم قال: وروي عن قتادة<sup>(٣)</sup> نحوه. وهذه العبارة إن لم ترجع إلى معنى الإخبار فيها تساهل<sup>(٤)</sup>، وعبارة الحسن وقتادة في رواية ابن جرير أحسن والله أعلم. «في الأرض». قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا أبو سلمة حدثنا حماد حدثنا عطاء بن السائب عن عبد الرحمن بن سبط أن رسول الله ﷺ قال: «دحيت الأرض من مكة وأول من طاف بالبيت الملائكة. فقال الله: إني جاعل في الأرض خليفة، يعني مكة» وهذا مرسل، وفي سنته ضعف وفيه مدرج وهو أن المراد بالأرض مكة، والله أعلم، فإن الظاهر أن المراد بالأرض أعم من ذلك.

(١) البخاري (بدء الخلق باب ٦) والنسائي (صلاة باب ٢١) وموطأ مالك (سفر حديث ٨٢).

(٢) تفسير الطبرى / ١٢٣٥

(٣) تفسير الطهري / ٢٤٦

(٤) التساهلا لحمة الاستشارة.

﴿خليفة﴾ قال السدي في تفسيره عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة أن الله تعالى قال للملائكة: إني جاعل في الأرض خليفة. قالوا: ربنا وما يكون ذاك الخليفة؟ قال: يكون له ذرية يفسدون في الأرض ويتحاسدون ويقتل بعضهم بعضاً. قال ابن جرير: فكان تأويل الآية على هذا إني جاعل في الأرض خليفة مني يخلفني في الحكم بالعدل بين خلقي وإن ذلك الخليفة هو آدم ومن قام مقامه في طاعة الله والحكم بالعدل بين خلقه، وأما الإفساد وسفك الدماء بغير حقها فمن غير خلفائه. قال ابن جرير: وإنما معنى الخلافة التي ذكرها الله، إنما هي خلافة قرن منهم قرناً، قال: وال الخليفة الفعلية من قولك: خلف فلان فلاناً في هذا الأمر إذا قام مقامه فيه بعده كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لتنظر كيف تعلمون﴾ [يونس: ١٤]، ومن ذلك قيل للسلطان الأعظم خليفة لأنه خلف الذي كان قبله فقام بالأمر مكانه فكان منه خلفاً، قال: وكان محمد بن إسحاق يقول في قوله تعالى: ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾، يقول ساكناً وعامراً يعمرها ويسكنها خلفاً ليس منكم. قال ابن جرير: وحدثنا أبو كريب حدثنا عثمان بن سعيد حدثنا بشر بن عمارة عن أبي روق عن الضحاك عن ابن عباس قال: إن أول من سكن الأرض الجن، فأفسدوا فيها وسفكوا فيها الدماء وقتل بعضهم بعضاً، قال: فبعث الله إليهم إبليس [في جند من الملائكة]<sup>(١)</sup> فقتلهم إبليس ومن معه حتى أحقهم بجزائر البحور وأطراف الجبال، ثم خلق آدم فأسكنه إليها، فلذلك قال: ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾. وقال سفيان الثوري عن عطاء بن السائب عن ابن سابط: ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾، قالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء؟ قال: يعنيون به بني آدم. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: قال الله للملائكة: إني أريد أن أخلق في الأرض خلقاً وأجعل فيها خليفة، وليس الله عز وجل [يومئذ]<sup>(٢)</sup> خلق إلا الملائكة والأرض ليس فيها خلق، قالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها؟ وقد تقدم ما رواه السدي عن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما من الصحابة: أن الله أعلم الملائكة بما تفعله ذرية آدم فقالت الملائكة ذلك، وتقدم آنفاً ما رواه الضحاك عن ابن عباس أن الجن أفسدوا في الأرض قبل بني آدم، فقالت الملائكة ذلك فقاوسوا هؤلاء بأولئك.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا علي بن محمد الطنافي حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن بكير بن الأخنس عن مجاهد عن عبد الله بن عمر، قال: كان الجن بنو الجان في الأرض قبل أن يخلق آدم بآلفي سنة، فأفسدوا في الأرض وسفكوا الدماء بعث الله جنداً من الملائكة فضربوهم حتى أحقوهن بجزائر البحور فقال الله للملائكة: إني جاعل في الأرض خليفة، قالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء؟ قال: إني أعلم ما لا تعلمون. وقال

(١) الزيادة من الطبرى.

(٢) تفسير الطبرى / ٢٣٦ — ٢٣٧

أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبي العالية في قوله تعالى : **﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً إِلَى قَوْلِهِ - وَأَعْلَمُ مَا تَبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾** قال : خلق الله الملائكة يوم الأربعاء وخلق الجن يوم الخميس وخلق آدم يوم الجمعة ، فكفر قوم من الجن فكانت الملائكة تهبط إليهم في الأرض فتقاتلهم بغيتهم فكانت الدماء بينهم ، وكان الفساد في الأرض ، فمن ثم قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها كما أفسدت الجن ويسفك الدماء كما سفكوا . قال ابن أبي حاتم : وحدثنا الحسن بن محمد بن الصباح حدثنا سعيد بن سليمان حدثنا مبارك بن فضالة حدثنا الحسن قال : قال الله للملائكة **﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾** ، قال لهم : إني فاعل ، فامنوا بربهم فعلمهم علماً وطوى علمه ولم يعلمه ، فقالوا بالعلم الذي علمهم : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ؟ قال : إني أعلم ما لا تعلمون . قال الحسن : إن الجن كانوا في الأرض يفسدون ويسفكون الدماء ، ولكن جعل الله في قلوبهم أن ذلك سيكون ، فقالوا بالقول الذي علمهم . وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة في قوله : **﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يَفْسِدُ فِيهَا﴾** كان الله أعلمهم أنه إذا كان في الأرض خلق أفسدوا فيها وسفكوا الدماء ، فذلك حين قالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها . وقال ابن أبي حاتم حدثنا هشام الرازى حدثنا ابن المبارك عن معروف يعني ابن خربوذ المكي عن سمع أبي جعفر محمد بن علي يقول : السجل ملك<sup>(١)</sup> ، وكان هاروت وماروت من أعوانه ، وكان له في كل يوم ثلاثة لمحات ينظرهن في أم الكتاب ، فنظر نظرة لم تكن له فأبصر فيها خلق آدم وما كان فيه من الأمور فأسر ذلك إلى هاروت وماروت وكانت في أعوانه فلما قال تعالى : **﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يَفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدَّمَاءَ﴾** . قالا ذلك استطالة على الملائكة . وهذا أثر غريب وبتقدير صحته إلى أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين الباقي فهو نقله عن أهل الكتاب ، وفيه نكارة توجب رده ، والله أعلم ، ومقتضاه أن الذين قالوا ذلك إنما كانوا اثنين فقط ، وهو خلاف السياق . وأغرب منه ما رواه ابن أبي حاتم أيضاً حيث قال : حدثنا أبي حدثنا هشام بن أبي عبيد الله حدثنا عبد الله بن يحيى بن أبي كثير قال : سمعت أبي يقول : إن الملائكة الذين قالوا : **﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يَفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدَّمَاءَ وَنَحْنُ نَسْبِحُ بِحَمْدِكَ وَنَقْدِسُ لَكَ﴾** كانوا عشرة آلاف فخرجت نار من عند الله فأحرقتهم ، وهذا أيضاً إسرائيلي منكر كالذى قبله ، والله أعلم . قال ابن حريج : وإنما تكلموا بما أعلمهم الله أنه كائن من خلق آدم فقالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء . وقال ابن حريج<sup>(٢)</sup> : وقال بعضهم إنما قالت الملائكة ما قالت (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) لأن الله أذن لهم في السؤال عن ذلك بعد ما أخبرهم أن ذلك كائن من بني آدم ، فسألته الملائكة فقالت على التعجب منها : وكيف

(١) هو المذكور في سورة الأنبياء ، الآية ١٠٤ **﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطْيَ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ﴾** . قال الزمخشري في الكشاف ١٠٨ / ١ : وقيل : السجل ملك يطوي كتب بني آدم إذا رفعت إليه .

(٢) تفسير الطبرى ٢٤٥ / ١ .

يعصونك يا رب وأنت خالقهم ؟ فأجابهم ربهم ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ يعني أن ذلك كائن منهم ، وإن لم تعلموه أنتم ، ومن بعض من ترونه لي طائعاً . قال : وقال بعضهم ذلك من الملائكة على وجه الاسترشاد عما لم يعلموه من ذلك ، فكانهم قالوا : يا رب خبرنا - مسألة استخار منهن لا على وجه الإنكار<sup>(١)</sup> - واختاره ابن جرير . وقال سعيد عن قتادة قوله تعالى : «إِذْ قَالَ رَبُّ الْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلُ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً» قال : استشار الملائكة في خلق آدم ، فقالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء - وقد علمت الملائكة من علم الله أنه لا شيء أكرهه عند الله من سفك الدماء والفساد في الأرض - (ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ) ، قال إني أعلم ما لا تعلمنون فكان في علم الله أنه سيكون من ذلك الخليفة أنبياء ورسل وقوم صالحون وساكنو الجنة ، قال : وذكر لنا عن ابن عباس أنه كان يقول : إن الله لما أخذ في خلق آدم عليه السلام قالت الملائكة : ما الله خالق خلقاً أكرم عليه منا ولا أعلم منا فابتلوا بخلق آدم ، وكل خلق مبتلى ، كما ابتليت السموات والأرض بالطاعة فقال الله تعالى : «إِئْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ» [فصلت : ١١]<sup>(٢)</sup> .

وقوله تعالى : «ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك» قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة ، قال : التسبيح والتسبيح<sup>(٣)</sup> والتقديس الصلاة ، وقال السدي عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة (ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ) قال : يقولون : نصلي لك . وقال : مجاهد (ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ) ، قال : نعظمك وننكربك . وقال الضحاك : التقديس التطهير . وقال محمد بن إسحاق (ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ) ، قال : لا نعصي ولا نأتي شيئاً تكرهه . وقال ابن جرير : التقديس هو التعظيم والتطهير . ومنه قولهم : سُبُّوح قدوس . يعني بقولهم سبوج : تنزيه لله ، وبقولهم قدوس : طهارة وتعظيم له ، وكذلك قيل للأرض مقدسة يعني بذلك المطهرة ، فمعنى قول الملائكة إذا «ونحن نسبح بحمدك» نترهك ونبثك مما يضيئه إليك أهل الشرك بك (ونقدس لك) نسبك إلى ما هو من صفاتك من الطهارة من الأدناس وما أضاف إليك أهل الكفر بك<sup>(٤)</sup> . وفي صحيح

(١) عبارة الطبرى : «لا على وجه مسألة التوبيخ» .

(٢) الطبرى / ٢٤٢ . قال أبو جعفر الطبرى : وهذا الخبر عن قتادة يدل على أن قتادة كان يرى أن الملائكة قالت ما قالت من قولها «أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء» على غير يقين علم تقدم منها بأن ذلك كائن ، ولكن على الرأى منها والظن . ثم قال الطبرى : وقد روى عن قتادة خلاف هذا التأويل وهو ما حدثنا به الحسن بن يحيى ، أخبرنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر ، عن قتادة قال : كان الله أعلمهم إذ كان في الأرض خلق أفسدوا فيها وسفكوا الدماء .

(٣) أي أن التسبيح المذكور في الآية هو عينه التسبيح المعروف .

(٤) الطبرى / ٢٤٨ . وكان رسول الله يقول في ركوعه وسجوده : «سُبُّوحٌ قدوس ، ربُّ الملائكة والروح» روتة عائشة وأخرجه مسلم (القرطبي / ٢٧٧) .

مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سئل أي الكلام أفضل؟ قال: «ما أصطفى الله لملائكته سبحانه وبحمده»<sup>(١)</sup> وروى البيهقي عن عبد الرحمن بن قرط أن رسول الله ﷺ ليلة أسرى به سمع تسبيباً في السموات العلا «سبحان العلي الأعلى سبحانه وتعالى».

﴿قال إني أعلم ما لا تعلمون﴾ قال قتادة: فكان في علم الله أنه سيكون في تلك الخليفة أنبياء ورسل وقوم صالحون وساكنو الجنة. وسيأتي عن ابن مسعود وابن عباس وغير واحد من الصحابة والتابعين أقوال في حكمة قوله تعالى: ﴿قال إني أعلم ما لا تعلمون﴾.

وقد استدل القرطبي وغيره بهذه الآية على وجوب نصب الخليفة ليفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه ويقطع تنازعهم ويتصدر لمظلومهم من ظالمهم ويقيم الحدود ويزجر عن تعاطي الفواحش إلى غير ذلك من الأمور المهمة التي لا تمكن إقامتها إلا بالإمام، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. والإمام تناول بالنص كما يقوله طائفة من أهل السنة في أبي بكر، أو بالإيماء إليه كما يقول آخرون منهم، أو باستخلاف الخليفة آخر بعده كما فعل الصديق بعمر بن الخطاب أو بتركه شوري في جماعة صالحين كذلك كما فعله عمر، أو باجتماع أهل الحل والعقد على مبايعته أو بمباعدة واحد منهم له فيجب التزامها عند الجمهور، وحکى على ذلك إمام الحرمين الإجماع. والله أعلم. أو بقهر واحد الناس على طاعته فتجب لثلا يؤدي ذلك إلى الشقاق والاختلاف. وقد نص عليه الشافعي. وهل يجب الإشهاد على عقد الإمام؟ فيه خلاف، فمنهم من قال لا يشترط وقيل بل ويکفي شاهدان، وقال الجبائي: يجب أربعة وعائد ومعقود له، كما ترك عمر رضي الله عنه الأمر شوري بين ستة فوقة الأمر على عائد وهو عبد الرحمن بن عوف، ومعقود له وهو عثمان، واستتبط وجوب الأربع الشهود من الأربع الباقين وفي هذا نظر، والله أعلم.

ويجب أن يكون ذكرأ حراً بالغاً عاقلاً مسلماً عدلاً مجتهداً بصيراً سليم الأعضاء خبراً بالحروب والأراء، قريشاً على الصحيح، ولا يشترط الهاشمي ولا المعصوم من الخطأ خلافاً للغلة الروافض. ولو فسق الإمام هل يعزل أم لا؟ فيه خلاف، وال الصحيح أنه لا يعزل لقوله عليه الصلاة السلام، «إلا أن تروا كفراً بواحـاً»<sup>(٢)</sup> عندكم من الله فيه برهان» وهل له أن يعزل نفسه؟ فيه خلاف. وقد عزل الحسن بن علي رضي الله عنه نفسه وسلم الأمر إلى معاوية، لكن هذا لعذر، وقد مدح على ذلك. فأما نصب إمامين في الأرض أو أكثر فلا يجوز لقوله عليه الصلاة

(١) صحيح مسلم (كتاب الذكر والدعاء، حديث ٨٤).

(٢) أي جهاراً. من قولهم: باح بالشيء، إذا أعلنه. وهذا الحديث أخرجه مسلم في صحيحه (إمارة حديث

٤٢). قال النووي: معنى الحديث: لا تنازعوا ولادة الأمور في ولايتهم ولا يتعرضوا عليهم إلا أن تروا منهم منكراً محققاً تعلمونه من قواعد الإسلام. فإذارأيتم ذلك فأنكروه عليهم وقولوا بالحق حيثما كنتم. وأما الخروج عليهم وقتلهم فحرام بإجماع المسلمين، وإن كانوا فسقة ظالمين.

والسلام «من جاءكم وأمركم جميع ي يريد أن يفرق بينكم فاقتلوه كائناً من كان» وهذا قول الجمهور، وقد حكى الإجماع على ذلك غير واحد منهم إمام الحرمين، وقالت الكرامية<sup>(١)</sup> يجوز اثنان فأكثر، كما كان علي ومعاوية إمامين<sup>(٢)</sup> واجبي الطاعة، قالوا: وإذا جاز بعث نبئين في وقت واحد وأكثر جاز ذلك في الإمام لأن النبوة أعلى رتبة بلا خلاف. وحكي إمام الحرمين عن الأستاذ أبي إسحاق أنه جوز نصب إمامين فأكثر إذا تباعدت الأقطار واتسعت الأقاليم بينهما، وتردد إمام الحرمين في ذلك. قلت: وهذا يشبه حال الخلفاء بني العباس بالعراق والفارطميين بمصر والأمويين بالمغرب ولنقرر هذا كله في موضع آخر من كتاب الأحكام إن شاء الله تعالى<sup>(٣)</sup>.

وَعَلِمَ آدَمُ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضُوهُمْ عَلَى الْمَلَكِيَّةِ فَقَالَ أَنْتُمْ يَأْسَأَنِّي هُوَلَّاءِ إِنْ كُنْتُ صَدِيقِي فَلَمَّا قَالُوكُلَّهُمْ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا حَلَّتْنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيُّ الْحَكِيمُ فَلَمَّا قَالَ يَكَادُمُ أَنْتِهِمْ يَأْسَأَهُمْ فَلَمَّا أَنْتَهُمْ يَأْسَأَهُمْ فَلَمَّا أَنْتَهُمْ أَقْلَلَ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ عَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تَبَدُّونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْنِمُونَ

هذا مقام ذكر الله تعالى فيه شرف آدم على الملائكة بما اختصه من علم أسماء كل شيء دونهم، وهذا كان بعد سجودهم له؛ وإنما قدم هذا الفصل على ذلك لمناسبة ما بين المقام وعدم علمهم بحكمة خلق الخليفة حين سألوا عن ذلك، فأخبرهم تعالى بأنه يعلم ما لا يعلمون، ولهذا ذكر الله هذا المقام عقب هذا لبيان لهم شرف آدم بما فضل به عليهم في العلم فقال تعالى: **﴿وَعِلْمَ آدَمُ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾**.

قال السدي عمن حدثه عن ابن عباس **﴿وَعِلْمَ آدَمُ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾** قال: علمه أسماء ولده إنساناً إنساناً والدوااب فقيل: هذا الحمار، هذا الجمل، هذا الفرس. وقال الضحاك عن ابن عباس **﴿وَعِلْمَ آدَمُ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾** قال: هي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس: إنسان ودابة وسماء وأرض وسهل وبحر وخيل وحمار وأشباه ذلك من الأمم وغيرها. وروى ابن أبي حاتم وابن جرير من حديث عاصم بن كلبي عن سعيد بن معبد عن ابن عباس **﴿وَعِلْمَ آدَمُ الْأَسْمَاءَ**

(١) الكرامية: فرقة من أهل السنة تنسب إلى محمد بن كرام الذي نشأ في سجستان وتوفي ببيت المقدس سنة ٨٦٩م. والكرامية مجسمون يذهبون إلى أن الله محدود من جهة العرش، وأن شيئاً لا يحدث في العالم قبل حدوث أعراض في ذاته. تعدد فروعهم دون اختلاف في الأصول، وعرفوا بالزهد والتقوى، وكثير أبنائهم في خراسان وما وراء النهر وبيت المقدس حتى أوائل القرن الثالث عشر.

(٢) الحال أن معاوية لم يدع الإمامة لنفسه وإنما أدعى ولادة الشام.

(٣) بسط القرطبي هذه الأمور المتعلقة بالإمام في تفسيره ٢٦١ / ١ — ٢٧٢.

كلها» قال: علمه اسم الصحفة والقدر، قال نعم حتى الفسوة والفسمية<sup>(١)</sup>. وقال مجاهد «وعلم آدم الأسماء كلها» قال: علمه اسم كل دابة وكل طير وكل شيء. كذلك روي عن سعيد بن جبير وقتادة وغيرهم من السلف أنه علمه أسماء كل شيء. وقال الربيع في رواية عنه<sup>(٢)</sup> قال: أسماء الملائكة. وقال حميد الشامي: أسماء النجوم. وقال عبد الرحمن بن زيد: علمه أسماء ذريته كلهم. واختار ابن جرير أنه علمه أسماء الملائكة وأسماء الذرية [دون أسماء سائر أجناس الخلق]<sup>(٣)</sup> لأنه قال «ثم عرضهم». وهذا عبارة عما يعقل<sup>(٤)</sup>. وهذا الذي رجع به ليس بلازم، فإنه لا ينفي أن يدخل معهم غيرهم، ويعبر عن الجميع بصيغة من يعقل للتغلب كما قال تعالى «والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قادر» [النور: ٤٥] وقد قرأ عبد الله بن مسعود: ثم عرضهن، وقرأ أبي بن كعب: ثم عرضها أي المسميات. والصحيح أنه علمه أسماء الأشياء كلها ذواتها وصفاتها وأفعالها كما قال ابن عباس حتى الفسوة والفسمية، يعني أسماء الذوات والأفعال المكابر والمصغر. ولهذا قال البخاري في تفسير هذه الآية في كتاب التفسير من صحيحه: حدثنا مسلم بن إبراهيم حدثنا هشام عن قتادة عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: وقال لي خليفة: حدثنا يزيد بن زريع حدثنا سعيد عن قتادة عن أنس عن النبي ﷺ قال «يجتمع المؤمنون يوم القيمة فيقولون لو استشفتنا إلى ربنا فلأنكم آدم فيقولون: أنت أبو الناس خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلمتكم أسماء كل شيء فاشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا، فيقول: لست هناكم<sup>(٥)</sup>، ويدرك ذنبه فيستحي. ائتوا نوحًا فإنّه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض فلأنه فيقول: لست هناك، ويدرك سؤاله رب ما ليس له به علم فيستحي. فيقول ائتوا خليل الرحمن، فلأنه فيقول: لست هناك، فيقول: ائتوا موسى عبداً كلمه الله وأعطاه التوراة فيقول: لست هناك ويدرك قتل النفس بغير نفس فيستحي من ربه. فيقول: ائتوا عيسى عبد الله ورسوله وكلمة الله وروحه فلأنه فيقول: لست هناك ائتوا محمداً عبداً غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فلأنه فيستحي من ربي فلأنه فيأذن لي فإذا رأيت ربي وقعت ساجداً فيدعني ما شاء الله ثم يقال: ارفع رأسك وسلم تعطه وقل يُسْمَعْ واسفع شَفَعَ، فأرفع رأسي فأحمدك بتحميد يعلمنيه ثم أشفع فيحد لي حداً فأدخلهم الجنة ثم أعود إليه فإذا رأيت ربي

(١) أخرج الطبرى أربعة أحاديث بنحو هذا عن ابن عباس من طريق عاصم بن كلبي. (الطبرى ١/ ٢٥٢). — (٢) ٢٥٣.

(٢) الإسناد في الطبرى: حديث عن عمار، حدثنا عبد الله بن أبي جعفر، عن أبيه عن الربيع.

(٣) الزيادة من الطبرى ١/ ٢٥٣.

(٤) قال الطبرى موضحاً رأيه ومدعماً هذا الاختيار: ولا تكاد العرب تكى بالهاء والميم إلا عن أسماء بين آدم والملائكة.

(٥) لست هناكم: لست أهلاً لذلك.

مثله ثم أشفع فيحد لي حداً فادخلهم الجنة ثم أعود الثالثة ثم أعود الرابعة فأقول ما بقي في النار إلا من حبسه القرآن ووجب عليه الخلود» هكذا ساق البخاري<sup>(١)</sup> هذا الحديث هنـا، وقد رواه مسلم والنسائي من حديث هشام وهو ابن أبي عبد الله الدستوائي عن قتادة به، وأخرجه مسلم<sup>(٢)</sup> والنسائي وابن ماجه من حديث سعيد وهو ابن أبي عروبة عن قتادة، ووجه إيراده هنـا، والمقصود منه قوله عليه الصلاة والسلام «فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ أَنْتَ أَبُو النَّاسِ خَلْقُ اللَّهِ بِيْدِهِ وَأَسْجُدْ لَكَ مَلَائِكَةٌ وَعِلْمُكَ أَسْمَاءُ كُلِّ شَيْءٍ». فدل هذا على أنه علمه أسماء جميع المخلوقات، ولهذا قال **﴿ثُمَّ عَرَضُهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾** يعني المسمايات كما قال عبد الرزاق عن معاذ عن قتادة، قال : ثم عرض تلك الأسماء على الملائكة **﴿فَقَالَ أَبْنَئُونِي بِأَسْمَاءِ هُؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾**.

وقال السدي في تفسيره عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة **﴿وَعَلِمَ آدَمُ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾** ثم عرض الخلق على الملائكة . وقال ابن جريج عن مجاهد **﴿ثُمَّ عَرَضُهُمْ﴾** : عرض أصحاب الأسماء على الملائكة ، وقال ابن جرير : حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثني الحجاج عن جرير بن حازم ومبروك بن فضالة عن الحسن وأبي بكر عن الحسن وقتادة قالا : علمه اسم كل شيء ، وجعل يسمى كل شيء باسمه وعرضت عليه أمة <sup>(٣)</sup> . وبهذا الإسناد عن الحسن وقتادة في قوله تعالى : **﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾** إني لم أخلق خلقاً إلا كنت أعلم منه فأخبروني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . وقال الضحاك عن ابن عباس **﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾** إن كنتم تعلمون أنني لم أجعل في الأرض خليفة . وقال السدي عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة **﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾** أنبني آدم يفسدون في الأرض ويسفكون الدماء . وقال ابن جرير وأولى الأقوال في ذلك تأويل ابن عباس ومن قال بقوله ، ومعنى ذلك : فقال أبئوني بأسماء من عرضته عليكم أيها الملائكة القائلون أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء من غيرنا أم منا فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ إن كنتم صادقين في قيلكم إني إن جعلت خليفي في الأرض من غيركم عصاني ذريته وأفسدوا فيها وسفكوا الدماء وإن جعلتكم فيها أطعتموني واتبعتم أمري بالتعظيم لي والتقديس ، فإذا كنتم لا تعلمون أسماء هؤلاء الذين عرضت عليكم وأنتم [من خلقي ، وهم مخلوقون موجودون ترونهم وتعاينونهم ، وعلمه غيركم بتعليمي إياه]<sup>(٤)</sup> فأنتم بما هو غير موجود من الأمور الكائنة التي لم توجد أخرى أن تكونوا غير عالمين .

(١) صحيح البخاري (تفسير سورة ٢ باب ١).

(٢) صحيح مسلم (إيمان حديث ٣٢٢ — ٣٢٤). وأحاديث مسلم الثلاثة المذكورة هي عن قتادة عن أنس بن مالك مرفوعة.

(٣) الطبرى / ١ ٢٥٥.

(٤) بين معقوفين من الطبرى . ومكانه في الأصل : «وأنتم تشاهدونهم» .

﴿قالوا سبحانك لا علم لنا إلّا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم﴾ هذا تقدير وتنزيه من الملائكة لله تعالى أن يحيط أحد بشيء من علمه إلّا بما شاء وأن يعلموا شيئاً إلّا ما علمهم الله تعالى ولهذا قالوا ﴿سبحانك لا علم إلّا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم﴾ أي العليم بكل شيء الحكيم في خلقك وأمرك وفي تعليمك من تشاء ومنعك من تشاء لك الحكمة في ذلك والعدل التام. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا حفص بن غياث عن حجاج عن ابن أبي مليكة عن ابن عباس: سبحان الله، قال تنزيه الله نفسه عن السوء، ثم قال عمر لعلي وأصحابه عنده: لا إلّا الله قد عرفناها، فما سبحان الله؟ فقال له علي: كلمة أحبها الله نفسه ورضيها وأحب أن تقال. قال: وحدثنا أبي حدثنا ابن نفيل حدثنا النضر بن عربي قال: سأله رجل ميمون بن مهران عن سبحان الله، قال: اسم يعظم الله به، ويحاشي به من السوء.

قوله تعالى: ﴿قال يا آدم أبئهم بأسماهم فلما أنبأهم بأسماهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾ قال زيد بن أسلم: قال: أنت جبرائيل أنت ميكائيل أنت إسرافيل حتى عدد الأسماء كلها حتى بلغ الغراب. وقال مجاهد في قول الله ﴿قال يا آدم أبئهم بأسماهم﴾ قال اسم الحمامه والغراب واسم كل شيء. وروي عن سعيد بن جبیر والحسن وقتادة نحو ذلك، فلما ظهر آدم عليه السلام على الملائكة عليهم السلام في سرده ما علمه الله تعالى من أسماء الأشياء، قال الله تعالى للملائكة ﴿ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾ أي ألم أتقدم إليكم إني أعلم الغيب الظاهر والخفي كما قال تعالى ﴿وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى﴾ [ط: ٧] وكما قال إخباراً عن الهدى أنه قال لسلیمان ﴿ألا يسجدوا الله الذي يخرج الخبر في السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون \* الله لا إلّا هو رب العرش العظيم﴾ [النمل: ٢٥ - ٢٦] وقيل في قوله تعالى: ﴿وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾ غير ما ذكرناه، فروى الضحاك عن ابن عباس ﴿وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾ قال يقول: أعلم السر كما أعلم العلانية يعني ما كتم إبليس في نفسه من الكبر والاغترار. وقال السدي عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة قال: قولهم ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾ الآية، فهذا الذي أبدوا ﴿وما كنتم تكتمون﴾ يعني ما أسر إبليس في نفسه من الكبر. وكذلك قال سعيد بن جبیر ومجاهد والسدي والضحاك والثوری، واختار ذلك ابن جریر. وقال أبو العالية والربع بن أنس والحسن وقتادة: هو قولهم: لم يخلق ربنا خلقاً إلّا كنا أعلم منه وأكرم عليه منه. وقال أبو جعفر الرازی عن الربع بن أنس ﴿وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون﴾ فكان الذي أبدوا هو قولهم: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء، وكان الذي كتموا بينهم هو قولهم: لن يخلق ربنا خلقاً إلّا كنا نحن أعلم منه وأكرم، فعرفوا أن الله فضل عليهم آدم في العلم والكرم. وقال ابن جریر: حدثنا يونس حدثنا ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في

قصة الملائكة وأدم، فقال الله للملائكة: كما لم تعلموا هذه الأسماء فليس لكم علم إنما أردت أن أجعلهم ليفسدوها فيها، هذا عندي قد علمته ولذلك أخفيت عنكم أني أجعل فيها من يعصيني ومن يطيعني، قال: وقد سبق من الله **﴿لَمْلَأْنَ جَهَنَّمَ مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّاسُ أَجْمَعُونَ﴾** [هود: ١١٩] قال: ولم تعلم الملائكة ذلك ولم يدروه، فقال: فلما رأوا ما أعطي الله آدم من العلم أقروا له بالفضل. وقال ابن جرير: وأولى الأقوال في ذلك قول ابن عباس وهو أن معنى قوله تعالى: **﴿وَأَعْلَمُ، مَا تَبَدُّلُونَ﴾** وأعلم مع علمي غيب السموات والأرض، ما تظهرونه بأسنتكم وما كتمتم تحفون في أنفسكم، فلا يخفى علي أي شيء سواء عندي سرائركم وعلايتكم. والذي أظهره بأسنتهم قولهم: أتجعل فيها من يفسد فيها، والذي كانوا يكتمون ما كان عليه منطوباً إبليس من الخلاف على الله في أوامره والتكبر عن طاعته، قال: وصح ذلك كما تقول العرب: قتل الجيش وهزموا، وإنما قتل الواحد أو البعض وهزم الواحد أو البعض، فيخرج الخبر عن المهزوم منه والمقتول مخرج الخبر عن جميعهم كما قال تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَنَادِونَكُمْ مِنْ وَرَاءِ الْحَجَرَاتِ﴾** [الحجرات: ٤] ذكر أن الذي نادى إنما كان واحداً من بنى تميم، قال: وكذلك قوله **﴿وَأَعْلَمُ مَا تَبَدُّلُونَ وَمَا كَنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾**<sup>(١)</sup>.

وَإِذْ قُلْنَا لِهِ كَيْفَ كُلَّا أَسْجَدُوا إِلَيْنَا إِبْرَاهِيمَ أَنَّى وَاسْتَكْبَرُوكَانِ مِنَ الْكَافِرِينَ

وهذه كرامة عظيمة من الله تعالى لآدم امتن بها على ذريته حيث أخبر أنه تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم، وقد دل على ذلك أحاديث أيضاً كثيرة منها حديث الشفاعة المتقدم، وحديث موسى عليه السلام «رب أرني آدم الذي أخرجنا ونفسه من الجنة، فلما اجتمع به قال: أنت آدم الذي خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته» وقال وذكر الحديث كما سيأتي إن شاء الله.

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا عثمان بن سعيد، حدثنا بشر بن عمارة عن أبي روق، عن الصحák، عن ابن عباس، قال: كان إبليس من حي من أحياه الملائكة يقال لهم الجن، خلقوا من نار السموات من بين الملائكة، وكان اسمه الحارث، وكان حازناً من خزان الجنة، قال: وخلقت الملائكة كلهم من نور غير هذا الحي، قال: وخلقت الجن الذين ذكروا في القرآن من مارج من نار وهو لسان النار الذي يكون فيه طرفها إذا ألهبت. قال: وخلق الانسان من طين، فأول من سكن الأرض الجن فأفسدوا فيها، وسفكوا الدماء، وقتل بعضهم بعضاً، قال: فبعث الله إليهم إبليس في جند من الملائكة وهم هذا الحي الذي يقال لهم الجن<sup>(٢)</sup> فقتلهم إبليس

(١) الطرسى ٢٦٠ — ٢٦١ / ١

(٢) كذا أيضاً في الطبرى: «الجن» بالجيم. وقد خطأه الإستاذ محمود شاكر فى تحقيقه لتفسير الطبرى (طبقة دار المعارف بمصر) وقال إن الصواب «الحن» بالحاء المهملة، مستشهدًا بسياق الأثر الذى ميز بين =

ومن معه حتى ألقهم بجزائر البحور وأطراف الجبال فلما فعل إبليس ذلك اغتر في نفسه، فقال: قد صنعت شيئاً لم يصنعه أحد، قال: فاطلع الله على ذلك من قلبه ولم تطلع عليه الملائكة الذين كانوا معه فقال الله للملائكة الذين كانوا معه: «إني جاعل في الأرض خليفة». فقالت الملائكة أتعجل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء كما أفسدت الجن وسفكت الدماء، وإنما بعثتنا إليهم لذلك؟ فقال الله تعالى: «إني أعلم ما لا تعلمون» يقول: إني اطلعت من قلب إبليس على ما لم تطعوا عليه، من كبره واغتراره، قال: ثم أمر بتربة آدم فرقت، فخلق الله آدم من طين لازب، واللازم اللازم الصلب من حمأً مستون متن، وإنما كان حمأً مستوناً بعد التراب، فخلق منه آدم بيده، قال: فمكث أربعين ليلة جسداً ملقي، وكان إبليس يأتيه فيضر به برجله فيصلصل [أي] فيصوت، فهو قول الله تعالى «من صلصال كالفخار» يقول كالشيء المنفرج الذي ليس بمصنوع، قال: ثم يدخل في فيه ويخرج من دبره، ويخرج من فيه، ثم يقول: لست شيئاً للصلصلة ولشيء ما خلقت، ولئن سلطت عليك لأهلكنك، ولئن سلطت علىي لأعصينك، قال: فلما نفح الله فيه روحه أتت النفحة من قبل رأسه فجعل لا يجري شيء منها في جسده إلا صار لحمأً ودمأً، فلما انتهت النفحة إلى سرتة نظر إلى جسده فأعجبه ما رأى من جسده فذهب ليneath فلم يقدر، فهو قول الله تعالى «وخلق الإنسان عجولاً» قال: ضجراً لا صبر له على سراء ولا ضراء قال: فلما تمت النفحة في جسده عطس فقال «الحمد لله رب العالمين» باليهام الله، فقال الله له «يرحmk الله يا آدم» قال: ثم قال تعالى للملائكة الذين كانوا مع إبليس خاصة دون الملائكة الذين في السموات: اسجدوا لآدم فسجدوا كلهم إلا إبليس أبي واستكروا لما كان حدث نفسه من الكبر والاغترار، فقال: لا أسجد له وأنا خير منه وأكبر سنًا وأقوى خلقاً، خلقتني من نار وخلقته من طين، يقول: إن النار أقوى من الطين، قال: فلما أبى إبليس أن يسجد أبليس الله، أي أيسه من الخير كله وجعله شيطاناً رجيناً عقوبة لمعصيته، ثم علم آدم الأسماء كلها وهي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس: إنسان ودابة وأرض وسهل وبحر وجبل وحمار وأشياه ذلك من الأمم وغيرها. ثم عرض هذه الأسماء على أولئك الملائكة يعني الملائكة الذين كانوا مع إبليس الذين خلقوا من نار السموات، وقال لهم «أنبئوني بأسماء هؤلاء» أي يقول

= إبليس وبين الجن. فابليس مخلوق من نار السموات، والآخرون خلقوا من مارج من نار. والجن (بالجيم) أول من سكن الأرض، وإبليس جاء لقتالهم في جند من الملائكة. وقد قال الجاحظ في الحيوان ٧/١٧٧: وبعض الناس يقسم الجن على قسمين فيقول: هم جنٌ (بالجيم) وحنٌ (بالحاء)، ويجعل التي بالحاء أضعفهما. وقال في موضع آخر من كتاب الحيوان (٢٩١ — ٢٩٢): وبعض الناس يزعم أن الجن والجن صنفان مختلفان. وذهبوا إلى قول الأعرابي حين أتى باب بعض الملوك ليكتب في الزمني فقال في ذلك:

من ظاهر الداء وراء مستكِّنْ  
مختلفٍ نجسٌ هُمْ جِنْ وَ حِنْ

إن تكتبوا الرَّمْتَنَى فِيَانِي لَرَّمْنَ  
أَيْتُ أَهْوِي فِي شِيَاطِينَ تَرِنَ

أخبروني بأسماء هؤلاء ﴿إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ إن كنتم تعلمون لم أجعل في الأرض خليفة ، قال : فلما علمت الملائكة موجدة الله عليهم فيما تكلموا به من علم الغيب الذي لا يعلمه غيره الذي ليس لهم به علم ﴿قَالُوا سَبَّحْنَاكَ﴾ تزيهاً لله من أن يكون أحد يعلم الغيب غيره وثبتنا إليك ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلِمْنَا﴾ تبرياً منهم من علم الغيب إلا ما علمتنا كما علمت أدم فقال ﴿يَا آدُمْ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ يقول : أخبرهم بأسمائهم ﴿فَلَمَّا أَنْبَأْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ، قَالَ: أَلَمْ أَقْلِ لَكُمْ﴾ أيها الملائكة خاصة ﴿إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ولا يعلم غيري ﴿وَأَعْلَمُ مَا تَبَدُّلُونَ﴾ يقول ما تظهرون ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ يقول : أعلم السر كما أعلم العلانية ، يعني ما كنتم إبليس في نفسه من الكبر والاغترار . هذا سياق غريب وفيه أشياء فيها نظر يطول مناقشتها . وهذا الإسناد إلى ابن عباس يروى به تفسير مشهور .

وقال السدي في تفسيره عن أبي مالك ، وعن أبي صالح ، عن ابن عباس وعن مرة ، عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب النبي ﷺ : لما فرغ الله من خلق ما أحب استوى على العرش . فجعل إبليس على ملك السماء الدنيا ، وكان من قبيلة من الملائكة يقال لهم الجن ، وإنما سموا الجن لأنهم خزان الجنة ، وكان إبليس مع ملكه خازناً فوقع في صدره الكبير وقال : ما أعطاني الله هذا إلا لميزة لي على الملائكة ، فلما وقع ذلك الكبر في نفسه اطلع الله على ذلك منه ، فقال الله للملائكة ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ فقالوا : ربنا وما يكون ذلك الخليفة ؟ قال : يكون له ذريمة يفسدون في الأرض ويتحاسدون ويقتل بعضهم بعضاً ، قالوا : ربنا ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مِنْ يَسْدِدُ فِيهَا، وَيُسْفِكُ الدَّمَاءَ، وَنَحْنُ نُسْبِحُكَ بِحَمْدِكَ وَنَقْدِسُ لَكَ؟﴾ قال إني أعلم ما لا تعلمون ﴿يُعْنِي مِنْ شَأْنٍ إِبْلِيسَ﴾ . فبعث الله جبريل إلى الأرض ليأتيه بطين منها ، فقالت الأرض : إني أعوذ بالله منك أن تنقص <sup>(١)</sup> مني أو تشيني ، فرجع ولم يأخذ ، وقال : يا رب إنها عاذت بك فأعذتها ، فبعث ميكائيل فعاذت منه فأعادتها ، فرجع فقال كما قال جبريل ، فبعث ملك الموت فعاذت منه فقال : وأنا أعوذ بالله أو أرجع ولم أنفذ أمره ، فأخذ من وجه الأرض وخلط ولم يأخذ من مكان واحد وأخذ من تربة حمراء وببيضاء وسوداء فلذلك خرج بنو آدم مختلفين فصعد به قبل التراب حتى عاد طيناً لازباً ، واللازم هو الذي يلترق بعضه ببعض <sup>(٢)</sup> ، ثم قال للملائكة ﴿إِنِّي خَالقُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ \* فَإِذَا سُوِّيَتْ وَنَفَخْتُ فِيهِ رُوحِي فَقَعُوا لِهِ سَاجِدِينَ﴾ [ص : ٧١ - ٧٢] فخلق الله بيده لثلا يتكبر إبليس عنه ليقول له : تتكبر عما عملت بيدي ولم تكبر أنا عنه ؟ فخلقه بشراً ، فكان جسداً من طين أربعين سنة من مقدار يوم الجمعة ، فمرت به الملائكة ففزعوا منه لما رأوه ، فكان أشدهم فرعاً منه إبليس فكان يمر به فيضربه فيصوت الجسد كما يصوت الفخار وتكون له

(١) في الأصل «تنقض». وما أتبناه من الطبرى.

(٢) بعد هذا في رواية الطبرى : «ئم ترك حتى أتن وتعزز. وذلك حين يقول ﴿مِنْ حَمَّا مَسْنُون﴾ [الحجر] — قال : متنن .

صلصلة، فذلك حين يقول ﴿من صلصال كالفخار﴾ [الرحمن: ١٤] يقول: لأمر ما خلقت، ودخل من فيه وخرج من ذرته وقال للملائكة: لا ترهبوا من هذا فإن ربكم صمد وهذا أجوف، لئن سلطت عليه لأهلكته، فلما بلغ الحين الذي يريد الله عز وجل أن ينفح فيه الروح، قال الملائكة: إذا نفخت فيه من روحك فاسجدوا له، فلما نفخ فيه الروح فدخل الروح في رأسه عطس فقالت الملائكة قل الحمد لله، فقال الحمد لله، فقال له الله «رحمك ربك» فلما دخلت الروح في عينيه نظر إلى ثمار الجنة، فلما دخل الروح إلى جوفه اشتته الطعام فوثب قبل أن تبلغ الروح رجليه عجلان إلى ثمار الجنة فذلك حين يقول الله تعالى ﴿خلق الإنسان من عجل﴾ [الأنياء: ٣٧] فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس أبي أن يكون مع الساجدين، أبي واستكبر وكان من الكافرين، قال الله له: ما منعك أن تسجد إذ أمرتك لما خلقت بيدي؟ قال: أنا خير منه لم أكن لأسجد لبشر خلقته من طين. قال الله له: ﴿فاهبط منها فما يكون لك﴾ يعني ما ينبغي لك ﴿أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين﴾ [الأعراف: ١٣] والصغر هو الذل، قال ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾ ثم عرض الخلق على الملائكة فقال ﴿أبئثوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين﴾ أن بني آدم يفسدون في الأرض ويسفكون الدماء، فقالوا: ﴿سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم﴾ قال الله: ﴿يا آدم أبئتهم بأسمائهم فلما أبئتهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم وما تبدون ما كنتم تكتمون﴾ قال: قولهم ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها﴾ وهذا الذي أبدوا ﴿وأعلم ما تكتمون﴾ يعني ما أسر إبليس في نفسه من الكبر<sup>(١)</sup>، فهذا الإسناد إلى هؤلاء الصحابة مشهور في تفسير السدي ويقع فيه إسرائيليات كثيرة، فعلل بعضها مدرج<sup>(٢)</sup> ليس من كلام الصحابة، أو أنهم أخذوا من بعض الكتب المتقدمة، والله أعلم<sup>(٣)</sup>. والحاكم يروي في مستدركه بهذا الإسناد بعينه ويقول أشياء ويقول على شرط البخاري.

والغرض أن الله تعالى لما أمر الملائكة بالسجود لآدم، دخل إبليس في خطابهم لأنه وإن لم يكن من عنصرهم إلا أنه كان قد تشبه بهم وتوصم بأفعالهم، فلهذا دخل في الخطاب لهم وذم في مخالفه الأمر، وسبّه المسألة إن شاء الله تعالى عند قوله: ﴿إلا إبليس كان من الجن ففست عن

(١) خبر السدي بالإسناد المذكور نقله الطبرى في تفسيره ١/٢٤٠ — ٢٤١.

(٢) حديث مُدرَج: هو الحديث الذى يرويه الراوى فيذكر في آخره كلاماً لنفسه أو لغيره من غير فصل أو تمييز، فيأتي بعده من يرويه متصلًاً متوهّماً أنه من أصل الحديث.

(٣) الإسناد المذكور الذى أورده السدي في تفسيره «عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس — وعن مرة الهمданى عن ابن مسعود — وعن ناس من الصحابة» هو من أكثر الأسانيد دوراناً في تفسير الطبرى، علماً أن الطبرى نفسه قد ارتقى به ولكنه لم يبيّن علة ارتقائه. وللأستاذ محمود شاكر بحث وتدقيق ورأى حول هذا الأمر، فانتظر تفسير الطبرى (طبعة دار المعارف) ١/١٥٦ — ١٦٠ (حاشية طوبيلة استغرقت نحو ٤ صفحات).

أمر ربه ﴿الكهف: ٥٠﴾ ولذا قال محمد بن إسحاق عن خلاد عن عطاء عن طاوس عن ابن عباس، قال: كان إبليس قبل أن يركب المعصية من الملائكة اسمه عازيل وكان من سكان الأرض وكان من أشد الملائكة اجتهداداً، وأكثرهم علمًا، فذلك دعاه إلى الكبر، وكان من حي يسمونه جنًا<sup>(١)</sup>. وفي رواية عن خلاد عن عطاء عن طاوس أو مجاهد عن ابن عباس أو غيره بتحوه. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا سعيد بن سليمان حدثنا عباد يعني ابن العوام عن سفيان بن حسين عن يعلى بن مسلم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، قال: كان إبليس اسمه عازيل، وكان من أشرف الملائكة من ذوي الأجنحة الأربع، ثم أبليس بعد. وقال سنيد، عن حجاج عن ابن جريج، قال: قال ابن عباس: كان إبليس من أشرف الملائكة وأكرمهم قبيلة، وكان خازناً على الجنان، وكان له سلطان سماء الدنيا، وكان له سلطان الأرض<sup>(٢)</sup>. وهكذا روى الضحاك وغيره عن ابن عباس سواء. وقال صالح مولى التوأم<sup>(٣)</sup> عن ابن عباس: إن من الملائكة قبيلاً يقال لهم الجن: وكان إبليس منهم، وكان يسوس ما بين السماء والأرض، فعصى، فمسخه الله شيطاناً رجيناً، رواه ابن جرير<sup>(٤)</sup>. وقال قتادة عن سعد بن المسيب: كان إبليس رئيس ملائكة سماء الدنيا<sup>(٥)</sup>. وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار حدثنا عدي بن أبي عدي عن عوف عن الحسن، قال: ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين فقط، وإنه لأصل الجن كما أن آدم أصل الإنس. وهذا الإسناد صحيح عن الحسن. وهكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم سواء. وقال شهر بن حوشب: كان إبليس من الجن الذين طردتهم الملائكة فأسره بعض الملائكة فذهب به إلى السماء، رواه ابن جرير. وقال سنيد بن داود: حدثنا هشيم أباًنا عبد الرحمن بن يحيى عن موسى بن نمير وعثمان بن سعيد بن كامل عن سعد بن مسعود، قال: كانت الملائكة تقاتل الجن فسي إبليس وكان صغيراً فكان مع الملائكة يتبعدها فلما أمرها بالسجود لآدم سجدوا، فأبى إبليس، فلذلك قال تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسُ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن القزار حدثنا أبو عاصم عن شريك عن عكرمة عن ابن عباس قال: إن الله خلق خلقاً فقال اسجدوا لآدم فقالوا: لا نفعل، فبعث الله عليهم ناراً فأحرقهم، ثم خلق خلقاً آخر فقال: ﴿إِنِّي خالقٌ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ﴾ اسجدوا لآدم قال: فأبوا فبعث الله عليهم ناراً

(١) كذلك أيضًا في الطبرى / ١٦٢: «جنًا» — بالجيم. وصوابه بالحاء المهملة. راجع ص ١٣٠ حاشية ٢.

(٢) هذا الخبر في الطبرى / ٥٠٣ . وفيه زيادة عما هنا: «قال: قال ابن عباس: قوله: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ إنما يسمى بالجنان أنه كان خازناً عليها، كما يقال للرجل مكي ومدني وكوفي وبصري».

(٣) هو صالح بن نبهان (أبى صالح) المتوفى نحو ١٢٥ هـ. من الطبقة الرابعة. أخرج له أبو داود والترمذى وابن ماجه. صدوق، اختلط بأخرجه، فقال ابن عدي: لا بأس برواية القدماء عنه كابن أبي ذئب وابن جريج. وقد أخطأ من زعم أن البخارى أخرج له. (موسوعة رجال الكتب التسعة / ١٦٨/٢).

(٤) تفسير الطبرى / ٢٦٤.

(٥) أخرجه الطبرى / ٢٦٢.

فأحرقتهم، ثم خلق هؤلاء فقال: اسجدوا لآدم، قالوا: نعم، وكان إبليس من أولئك الذين أبوا أن يسجدوا لآدم<sup>(١)</sup> - وهذا غريب ولا يكاد يصح إسناده فإن فيه رجلاً مبهماً<sup>(٢)</sup> ومثله لا يحتاج به، والله أعلم.

وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبوأسامة حدثنا صالح بن حيان حدثنا عبد الله بن بريدة: قوله تعالى: «وكان من الكافرين» من الذين أبوا فأحرقتهم النار. وقال أبو جعفر رضي الله عنه عن أبي العالية «وكان من الكافرين» يعني من العاصين. وقال السدي «وكان من الكافرين» الذين لم يخلقهم الله يومئذ يكونون بعد. وقال محمد بن كعب القرشي: ابتدأ الله خلق إبليس على الكفر والضلاله وعمل بعمل الملائكة فصيده الله إلى ما أبدى عليه خلقه على الكفر، قال الله تعالى: «وكان من الكافرين». وقال قتادة في قوله تعالى: «وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم» فكانت الطاعة لله والسجدة لآدم، أكرم الله آدم أن أسجد له ملائكته. وقال بعض الناس: كان هذا سجود تحيه وسلام وإكرام كما قال تعالى: «ورفع أبويه على العرش وخرروا له سجداً، وقال يا أبت هذا تأويل رؤياني من قبل قد جعلها ربي حقاً» [يوسف: ١٠٠] وقد كان هذا مشرعاً في الأمم الماضية ولكنه نسخ في ملتتنا. قال معاذ: قدمت الشام فرأيتهم يسجدون لأساقفهم وعلمائهم، فأنت يا رسول الله أحق أن يسجد لك، فقال: «لا لو كنت أمراً بشراً أن يسجد لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها»<sup>(٣)</sup> ورجحه الرازي. وقال بعضهم: بل كانت السجدة لله وأدم قبلة فيها، كما قال تعالى: «أقم الصلاة لدلك الشمسم» [الإسراء: ٧٨] وفي هذا التنظير نظر، والأظهر أن القول الأول أولى، والسجدة لآدم إكراماً وإعظاماً واحتراماً وسلاماً، وهي طاعة الله عز وجل لأنها امتناع لأمره تعالى، وقد قواه الرازي في تفسيره وضعف ما عده من القولين الآخرين وهو كونه جعل قبلة إذا لا يظهر فيه شرف والآخر أن المراد بالسجود الخضوع لا الانحناء ووضع الجبهة على الأرض وهو ضعيف كما قال. وقال قتادة في قوله تعالى: «فسجدوا إلا إبليس أبي واستكبر وكان من الكافرين» حسد عدو الله إبليس آدم عليه السلام ما أعطاه من الكرامة، وقال: أنا ناري وهذا طيني، وكان بدء الذنوب الكبير، استكبر عدو الله أن يسجد لآدم عليه السلام. قلت: وقد ثبت في الصحيح «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر»<sup>(٤)</sup> وقد كان في إبليس من الكبر والكفر والعناد ما اقتضى طرده وإبعاده عن جناب الرحمة وحضرمة القدس، قال بعض

(١) الطبرى ٢٦٤ / ١.

(٢) قوله: «عن رجل عن عكرمة».

(٣) آخرجه أبو داود (نكاح باب ٤٠) والترمذى (رضاع باب ١٠) وابن ماجه (نكاح باب ٤) وأحمد في المسند (ج ٥ ص ٢٤٨).

(٤) آخرجه مسلم (إيمان حديث ١٤٩، ١٤٨).

العربين<sup>(١)</sup>: «وكان من الكافرين» أي وصار من الكافرين بسبب امتناعه كما قال «فكان من المغرقين» [هود: ٤٣] وقال: «فتكونوا من الظالمين» [البقرة: ٣٥] وقال الشاعر: [الطوبل]ـ

بيهاء قفر والمطئي كأنها قطا الحَزْنِ قد كانت فراخاً بيوضها<sup>(٢)</sup>

أي قد صارت. وقال ابن فورك: [«كان» هنا بمعنى «صار» خطأ تردد الأحوال]. وقال جمهور المتأولين<sup>(٣)</sup> تقديره وقد كان في علم الله من الكافرين، ورجحه القرطبي. وذكر هنا مسألة فقال: قال علماؤنا من أظهر الله على يديه ممن ليسبني كرامات وخوارق للعادات فليس ذلك دالاً على ولايته خلافاً لبعض الصوفية والرافضة، هذا لفظه. ثم استدل على ما قال بقوله: ولما اتفقنا على أننا بأننا لا نقطع بهذا الذي جرى الخارج على يديه أن يوافي الله بالإيمان وهو لا يقطع لنفسه، علم أن ذلك ليس يدل على ولايته لله<sup>(٤)</sup> قلت: وقد استدل بعضهم على أن الخارج قد يكون على يدي غيرولي بل قد يكون على يد الفاجر والكافر أيضاً بما ثبت عن ابن صياد أنه قال: هو الدخ حين خباء له رسول الله ﷺ «فارتقب يوم ثأري السماء بدخان مبين» وبما كان يصدر عنه أنه كان يملاً الطريق إذا غضب حتى ضربه عبد الله بن عمر، وبما ثبت به الأحاديث عن الدجال بما يكون على يديه من الخوارق الكثيرة من أنه يأمر السماء أن تمطر فتمطر، والأرض أن تنبت فتنبت، وتتبعه كنوز الأرض مثل اليعاسيب، وأنه يقتل ذلك الشاب ثم يحييه إلى غير ذلك من الأمور المهولة. وقد قال يونس بن عبد الأعلى الصدفي: قلت للشافعي: كان الليث بن سعد يقول: إذا رأيت الرجل يمشي على الماء ويطير في الهواء فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة، فقال الشافعي: قصر الليث رحمه الله، بل إذا رأيت الرجل يمشي على الماء ويطير في الهواء فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة<sup>(٥)</sup>. وقد حكى الرازى وغيره قولين للعلماء: هل المأمور بالسجود للأدم خاص بملائكة الأرض أو عام في ملائكة السموات والأرض، وقد رجح كلا من القولين طائفه، وظاهر الآية الكريمة العموم «فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس» فهذه أربعة أوجه مقوية للعموم، والله أعلم.

وَقُلْنَا يَقَادُمُ أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ أَجْنَةَ وَكُلَا مِنْهَا رَعْدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا نَفَرَيَا هَذِهِ الْشَّجَرَةَ فَتَكُونُوا مِنَ

(١) أي بعض المفسرين أو المتأولين.

(٢) البيت لعمرو بن أحمر في ديوانه ص ١١٩؛ والحيوان ٥/٥٧٥؛ وخزانة الأدب ٩/٢٠١؛ ولسان العرب (عرض، كون). وله أو لابن كنزة في شرح شواهد الإيضاح ص ٥٢٥؛ وبيانه في أسرار العربية ص ١٣٧؛ وشرح الأشموني ١/١١١؛ والمعانى الكبير ١/٣١٣، والقرطبي ١/٢٩٦.

(٣) الزيادة من القرطبي ١/٢٩٧. وهي ضرورية لصحة العبارة.

(٤) عبارة الأصل: «لذلك يعني والولي الذي يقطع له بذلك في نفس الأمرة، وهي غير واضحة. وما أثبتناه عن القرطبي، وكذا الزيادة قبل هذا بين معقوفين.

(٥) كذا بالأصل. ولا فرق بين عبارتي الليث والشافعي، فتأمل.

**الظَّالِمِينَ فَأَزَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقَنَّا أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِيَعْسِي عَدُوًّا وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقْرٌ وَمَنْعَ إِلَى جَنَّةٍ**

يقول الله تعالى إخباراً عما أكرم به آدم: أنه أمر الملائكة بالسجود له فسجدوا إلا إبليس وأنه أباح له الجنة يسكن منها حيث يشاء ويأكل منها ما شاء رغداً أي هنيئاً واسعاً طيباً. وروى الحافظ أبو بكر بن مردوه من حديث محمد بن عيسى الدامغاني: حدثنا سلمة بن الفضل عن ميكائيل عن ليث عن إبراهيم التيمي عن أبيه عن أبي ذر، قال: قلت يا رسول الله أربيت آدم، أنبياً كان؟ قال: «نعم نبياً رسولاً كلمه الله قبلاً» - يعني عياناً - فقال: «اسكن أنت وزوجك الجنة» وقد اختلف في الجنة التي أسكنها آدم أهي في السماء أم في الأرض؟ والأكثرون على الأول، وحکى القرطبي عن المعتزلة والقدرية القول بأنها في الأرض، وسيأتي تقرير ذلك في سورة الأعراف إن شاء الله تعالى. وسياق الآية يقتضي أن حواء خلقت قبل دخول آدم الجنة وقد صرخ بذلك محمد بن إسحاق حيث قال: لما فرغ الله من معابة إبليس أقبل على آدم وقد علمه الأسماء كلها فقال يا آدم أنبيهم بأسمائهم إلى قوله: «إنك أنت العليم الحكيم» قال: ثم أقيمت السنة<sup>(١)</sup> على آدم فيما بلغنا عن أهل الكتاب من أهل التوراة وغيرهم من أهل العلم عن ابن عباس وغيره، ثم أخذ ضلعاً من أصلاعه من شقه الأيسر ولأم مكانه لحماً، وأدام نائم لم يهب من نومه حتى خلق الله من ضلعة تلك زوجته حواء فسواها امرأة ليسكن إليها، فلما كشف عنه السنة وهب من نومه رأها إلى جنبه فقال، فيما يزعمون والله أعلم: «الحمي ودمي وزوجتي» فسكن إليها، فلما زوجه الله وجعل له سكناً من نفسه قال له قبلاً: «يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين»<sup>(٢)</sup>.

ويقال إن خلق حواء كان بعد دخول الجنة كما قال السدي في خبر ذكره عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة وعن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة: أخرج إبليس من الجنة وأسكن آدم الجنة فكان يمشي فيها وحشاً ليس له زوج يسكن إليه فنام نومة فاستيقظ وعند رأسه امرأة قاعدة خلقها الله من ضلعة، فسألها: ما أنت؟ قالت: امرأة، قال: ولم خلقت؟ قالت: لتسكن إلي. قالت له الملائكة ينظرون ما بلغ من علمه: ما اسمها يا آدم، قال: حواء، قالوا: ولم سميت حواء؟ قال: لأنها خلقت من شيء حي. قال الله: «يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما».

وأما قوله: «ولا تقربا هذه الشجرة» فهو اختبار من الله تعالى وامتحان لآدم. وقد اختلف في هذه الشجرة ما هي، فقال السدي عمن حدثه عن ابن عباس: الشجرة التي نهي عنها آدم عليه

(١) السنة: النعاس.

(٢) الأثر في الطبرى ٢٦٧ / ١.

السلام هي الكرم . وكذا قال سعيد بن جبیر والسدی والشعیی وجعده بن هبیرة و محمد بن قیس . وقال السدی أيضًا في خبر ذکرہ عن أبي مالک وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مره عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة ﴿ولا تقربا هذه الشجرة﴾ هي الكرم<sup>(١)</sup> . وتزعم يهود أنها الحنطة . وقال ابن جریر وابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن اسماعیل بن سمرة الأحمصی حدثنا أبو يحيی الحمانی حدثنا النضر أبو عمر الخراز عن عکرمة عن ابن عباس قال : الشجرة التي نهي عنها آدم عليه السلام هي السنبلة<sup>(٢)</sup> . وقال عبد الرزاق : أبأنا ابن عینة وابن المبارک عن الحسن بن عمارة عن المنهال بن عمر عن سعید بن جبیر عن ابن عباس قال : هي السنبلة . وقال محمد بن إسحاق عن رجل من أهل العلم عن حجاج عن مجاهد عن ابن عباس قال : هي البر وقال ابن جریر : وحدثني المثنی بن إبراهیم ، حدثنا مسلم بن إبراهیم ، حدثنا القاسم حدثني رجل من بنی تمیم أن ابن عباس كتب إلى أبي الجلد يسألة عن الشجرة التي أكل منها آدم والشجرة التي تاب عندها آدم فكتب إليه أبو الجلد : سألتني عن الشجرة التي نهي عنها آدم وهي السنبلة ، وسألتني عن الشجرة التي تاب عندها آدم وهي الزيتونة<sup>(٣)</sup> . وكذلك فسره الحسن البصري و وهب بن منبه و عطیة العوفی وأبو مالک و محارب بن دثار و عبد الرحمن بن أبي لیلی وقال محمد بن إسحاق عن بعض أهل اليمن عن وهب بن منبه أنه كان يقول : هي البر ، ولكن الحبة منها في الجنة كکلی البقر وألین من الزبد وألحلی من العسل<sup>(٤)</sup> . وقال سفیان الثوری عن حصین عن أبي مالک ﴿ولا تقربا هذه الشجرة﴾ قال النخلة . وقال ابن جریر عن مجاهد ﴿ولا تقربا هذه الشجرة﴾ قال التینة<sup>(٥)</sup> . وبه قال قتادة وابن جریح ، وقال أبو جعفر الرازی عن الریبع بن أنس عن أبي العالیة : كانت شجرة من أكل منها أحدث ، ولا ينبغي أن يكون في الجنة حدث<sup>(٦)</sup> . وقال عبد الرزاق : حدثنا عمر بن عبد الرحمن بن مهران قال : سمعت وهب بن منبه يقول : لما أسكن الله آدم وزوجته الجنة ونهاه عن أكل الشجرة ، وكانت شجرة غصونها متشعب بعضها من بعض ، وكان لها ثمر تأكله الملائكة لخلدهم وهي الشجرة التي نهى الله عنها آدم وزوجته .

فهذه أقوال ستة في تفسیر هذه الشجرة . قال الإمام أبو جعفر بن جریر رحمه الله : والصواب في ذلك أن يقال إن الله عز وجل ثناؤه : نهى آدم وزوجته عن أكل شجرة بعينها من أشجار الجنة دون سائر أشجارها فأكلا منها ولا علم عندنا بأي شجرة كانت على التعین ، لأن الله لم يضع

(١) الطبری ٢٦٩ — ٢٧٠ ؛ والدر المتنور ١٠٧ .

(٢) الطبری ٢٦٨ .

(٣) الطبری ٢٦٩ .

(٤) رواه السیوطی في الدر المتنور ١٠٧ . قال : وأخرجه ابن جریر وابن أبي حاتم .

(٥) الذي أخرجه ابن جریر بهذا المعنى هو عن ابن جریح عن بعض أصحاب النبي ﷺ (الطبری ٢٧٠ / ١) .

و عن مجاهد أخرجه أبو الشيخ ، وعن قتادة أخرجه ابن أبي حاتم ( الدر المتنور ١٠٧ / ١) .

(٦) الرازی ٦ / ٣ .

لعباده دليلاً على ذلك في القرآن ولا من السنة الصحيحة، وقد قيل: كانت شجرة البر وقيل كانت شجرة العنبر وقيل كانت شجرة التين، وجائز أن تكون واحدة منها، وذلك علم إذا علم لم ينفع العالم به علمه، وإن جهله جاهل لم يضره جهله به، والله أعلم. وكذلك رجح الإبهام الرازي في تفسيره وغيره وهو الصواب.

وقوله تعالى: «فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا» يصح أن يكون الضمير في قوله عنها عائداً إلى الجنة فيكون معنى الكلام كما قرأ عاصم بن بهدلة وهو ابن أبي النجود: فَأَزَلَّهُمَا أَيِّ فَنَحَاهُمَا؛ ويصح أن يكون عائداً على أقرب المذكورين وهو الشجرة فيكون معنى الكلام كما قال الحسن وقتادة: فَأَزَلَّهُمَا أَيِّ مِنْ قَبْلِ الرَّزْلِ، فعلى هذا يكون تقدير الكلام «فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا» أي بسبها، كما قال تعالى: «يُؤْفَكُ عَنِّهِ مِنْ أَفْكَ» [الذاريات: ٩] أي يصرف بسبها من هو مأفوكة، ولهذا قال تعالى «فَأَخْرَجَهُمَا مَا كَانَا فِيهِ» أي من اللباس والمنزل الربح والرزق الهنيء والراحة.

«وَقُلْنَا اهْبِطُوا بِعْضَكُمْ لِبَعْضٍ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقْرٌ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ» أي قرار وأرزاق وأجال - إلى حين - أي إلى وقت ومقدار معين ثم تقوم القيامة. وقد ذكر المفسرون من السلف كالسدسي بأسانيده وأبي العالية و وهب بن منبه وغيرهم هنا أخباراً إسرائيلية عن قصة الحية وإبليس، وكيف جرى من دخول إبليس إلى الجنة ووسوسته، وتبسيط ذلك إن شاء الله في سورة الأعراف فهناك القصة أبسط منها هنا، والله الموفق. وقد قال ابن أبي حاتم هنا: حدثنا علي بن الحسن بن إشكاب، حدثنا علي بن عاصم عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ طَوَالًا كَثِيرًا شَعْرَ الرَّأْسِ كَأَنَّهُ نَخْلَةٌ سَحْوَقٌ»<sup>(١)</sup> فلما ذاق الشجرة سقط عنه لباسه، فأول ما بدا منه عورته، فلما نظر إلى عورته جعل يشتت في الجنة فأخذت شعره شجرة فتازعها فناداه الرحمن: يا آدم مني تفر» فلما سمع كلام الرحمن قال: يا رب لا، ولكن استحياء. قال: وحدثني جعفر بن أحمد بن الحكم القرشي سنة أربع وخمسين ومائتين، حدثنا سليمان بن منصور بن عمار حدثنا علي بن عاصم عن سعيد عن قتادة عن أبي بن كعب، قال: قال رسول الله ﷺ: «لَمَا ذاقَ آدَمَ مِنَ الشَّجَرَةِ فَرَهَبَأْ فَتَعْلَقَ شَجَرَةُ بَشْرَهُ فَنُودِيَ: يَا آدَمُ أَفَرَأَرَا مَنِي؟ قَالَ: بَلْ حَيَاءَ مِنْكَ، قَالَ: يَا آدَمُ أَخْرُجْ مِنْ جَوَارِي فَبَعْرَتِي لَا يُسَاكِنِي فِيهَا مِنْ عَصَانِي، وَلَوْ خَلَقْتَ مِثْلَكَ مِلْءَ الْأَرْضِ خَلَقْتَأَ ثُمَّ عَصَوْنِي لَا سُكْنَتَهُمْ دَارُ الْعَاصِينِ»<sup>(٢)</sup> هذا حديث غريب وفيه انقطاع بل إعصار<sup>(٣)</sup> بين قتادة وأبي بن كعب رضي الله

(١) السحوق: الطويل.

(٢) رواه البيهقي في الدر المنشور ١٠٩/١؛ قال: وأخرجه ابن إسحاق في المبتدأ، وابن سعد، وأحمد، وعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا في التوبية، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصحمه، وابن مردويه، والبيهقي في البعث والنشر، عن أبي بن كعب عن النبي .

(٣) الإعصار في الحديث: أن يسقط من إسناده اثنان أو أكثر على التوالى.

عنهمَا. وَقَالَ الْحَاكِمُ حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرُ بْنُ بَالْوَيْهِ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ النَّضْرِ عَنْ مَعَاوِيَةَ بْنِ عُمَرٍ عَنْ زَائِدَةَ عَنْ عُمَارَ بْنِ أَبِي<sup>(١)</sup> مَعَاوِيَةَ الْبَجْلِيِّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جَبَرٍ عَنْ أَبْنَ عَبَّاسٍ، قَالَ: مَا أَسْكَنَ آدَمَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَا بَيْنَ صَلَةِ الْعَصْرِ إِلَى غَرْبِ الشَّمْسِ، ثُمَّ قَالَ: صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخِيْنِ وَلَمْ يَخْرُجْ جَاهٌ. وَقَالَ عَبْدُ بْنِ حَمِيدٍ فِي تَفْسِيرِهِ: حَدَّثَنَا رُوحُ عَنْ هَشَّامٍ عَنْ الْحَسْنِ، قَالَ: لَبِثَ آدَمَ فِي الْجَنَّةِ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ تِلْكَ السَّاعَةِ ثَلَاثُونَ وَمَائَةً سَنَةً مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا. وَقَالَ أَبُو جَعْفَرُ الرَّازِيُّ، عَنِ الرِّبِيعِ بْنِ أَنْسٍ، قَالَ: خَرَجَ آدَمَ مِنَ الْجَنَّةِ لِلسَّاعَةِ التَّاسِعَةِ أَوِ الْعَاشرَةِ فَأَخْرَجَ آدَمَ مَعَهُ غَصْنًا مِنْ شَجَرِ الْجَنَّةِ عَلَى رَأْسِهِ تَاجٌ مِنْ شَجَرِ الْجَنَّةِ وَهُوَ الْإِكْلِيلُ مِنْ وَرْقِ الْجَنَّةِ. وَقَالَ السَّدِيُّ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَهْبِطُوهَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ [الْبَقْرَةُ: ٣٨] فَهَبِطُوا وَنَزَلَ آدَمَ بِالهَنْدِ وَنَزَلَ مَعَهُ الْحَجَرُ الْأَسْوَدُ وَقَبْضَةً مِنْ وَرْقِ الْجَنَّةِ، فَبَثَّهُ بِالهَنْدِ فَنَبَتَ شَجَرَةُ الطَّيْبِ فَإِنَّمَا أَصْلُ مَا يَجِدُ بَهُ مِنَ الطَّيْبِ مِنَ الْهَنْدِ مِنْ قَبْضَةِ الْوَرْقِ الَّتِي هَبَطَ بِهَا آدَمُ، وَإِنَّمَا قَبْضَهَا آدَمُ أَسْفًا عَلَى الْجَنَّةِ حِينَ أَخْرَجَ مِنْهَا.

وَقَالَ عُمَرَانَ بْنَ عَيْنَةَ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ السَّائبِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جَبَرٍ عَنْ أَبْنَ عَبَّاسٍ، قَالَ: أَهْبَطَ آدَمَ مِنَ الْجَنَّةِ بِدَحْنَاهُ أَرْضَ بِالهَنْدِ. وَقَالَ أَبْنَ أَبِي حَاتِمَ: حَدَّثَنَا أَبُو زَرْعَةَ حَدَّثَنَا عُثْمَانَ بْنَ أَبِي شَيْبَةَ حَدَّثَنَا جَرِيرُ عَنْ عَطَاءِ عَنْ سَعِيدِ عَنْ أَبْنَ عَبَّاسٍ قَالَ: أَهْبَطَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامَ إِلَى أَرْضٍ يُقَالُ لَهَا دَحْنَا بَيْنَ مَكَةَ وَالْطَّائفِ. وَعَنِ الْحَسْنِ الْبَصْرِيِّ قَالَ: أَهْبَطَ آدَمَ بِالهَنْدِ، وَحَوَاءَ بِجَدَةَ، وَإِبْلِيسَ بِدَسْتِمِيَّانَ مِنَ الْبَصْرَةِ عَلَى أَمِيَالٍ، وَأَهْبَطَتِ الْحَيَاةَ بِأَصْبَهَانَ، رَوَاهُ أَبْنَ أَبِي حَاتِمٍ. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي حَاتِمَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عُمَارَ بْنِ الْحَارِثِ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سَابِقٍ حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ أَبِي قَيْسٍ عَنِ الزَّبِيرِ بْنِ عَدَى عَنْ أَبْنِ عَمْرٍ قَالَ: أَهْبَطَ آدَمَ بِالصَّفَا وَحَوَاءَ بِالْمَرْوَةِ. وَقَالَ رَجَاءُ بْنُ سَلَمَةَ: أَهْبَطَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامَ يَدَاهُ عَلَى رَكْبَتِيهِ مَطْأْطِئًا رَأْسَهُ، وَأَهْبَطَ إِبْلِيسَ مُشْبِكًا بَيْنَ أَصَابِعِهِ رَافِعًا رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ. وَقَالَ عَبْدُ الرَّزَاقَ: قَالَ مَعْمَرٌ: أَخْبَرَنِي عَوْفُ عَنْ قَسَّامَةَ بْنِ زَهِيرٍ عَنْ أَبِي مُوسَى، قَالَ: إِنَّ اللَّهَ حِينَ أَهْبَطَ آدَمَ مِنَ الْجَنَّةِ إِلَى الْأَرْضِ عَلَمَهُ صَنْعَةً كُلَّ شَيْءٍ وَزَوَّدَهُ مِنْ ثَمَارِ الْجَنَّةِ، فَشَمَارَكُمْ هَذِهِ مِنْ ثَمَارِ الْجَنَّةِ غَيْرُ أَنْ هَذِهِ تَغْيِيرٌ وَتِلْكَ لَا تَغْيِيرٌ. وَقَالَ الزَّهْرِيُّ عَنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ هَرْمَنِ الْأَعْرَجِ عَنِ أَبِي هَرِيرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتِ الْشَّمْسُ يَوْمَ الْجَمْعَةِ فِيهِ خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ وَفِيهِ أَدْخَلَ الْجَنَّةَ وَفِيهِ أَخْرَجَ مِنْهَا» رَوَاهُ مُسْلِمُ وَالنَّسَائِيُّ<sup>(٢)</sup>. وَقَالَ الرَّازِيُّ<sup>(٣)</sup>: أَعْلَمُ أَنِّي فِي هَذِهِ الْآيَةِ تَهْدِيدًا عَظِيمًا عَنْ كُلِّ الْمُعَاصِي مِنْ وِجُوهِ [أَحَدُهَا]<sup>(٤)</sup> أَنْ مِنْ تَصْوِرِ مَا جَرَى عَلَى آدَمَ بِسَبِيلِ إِقْدَامِهِ عَلَى هَذِهِ الْزَّلْزَلَةِ الصَّغِيرَةِ كَانَ عَلَى وَجْهِ شَدِيدِ الْمُعَاصِيِّ، قَالَ الشَّاعِرُ: [الْكَاملُ]

(١) الصواب «عمار بن معاوية» (موسوعة رجال الكتب التسعة ٩٢/٣).

(٢) مسلم (جمعة حديث ١٧ ، ١٨) والنسيائي (جمعة باب ٤ ، ٥ ، ٤٥).

(٣) تفسير الرازبي ١٨/٣.

(٤) في الأصل: «الأول». وما أثبتناه عن الرازبي.

يا ناظراً يرنو بعيني راقد  
تصل الذنوب إلى الذنوب وترتجي  
أنسيت ربك حين أخرج آدم<sup>(٢)</sup>  
منها إلى الدنيا بذنب واحد

وقال ابن القاسم:

ولكتنا سبي العدو فهل ترى نعود إلى أوطاننا ونسالم

قال الرازى عن فتح الموصلى أنه قال: كنا قوماً من أهل الجنة فسبانا إيليس إلى الدنيا، فليس لنا إلا الهم والحزن حتى نرد إلى الدار التي أخرجنا منها<sup>(٣)</sup>. فإن قيل: فإذا كانت جنة آدم التي أخرج منها في السماء كما يقوله الجمهور من العلماء، فكيف تمكّن إيليس من دخول الجنة، وقد طرد من هنالك طرداً قدرياً، والقدر لا يخالف ولا يمانع؟ فالجواب: أن هذا بعينه استدل به من يقول: إن الجنة التي كان فيها آدم في الأرض لا في السماء، كما قد بسطنا هذا في أول كتابنا البداية والنهاية، وأجاب الجمهور بأرجوحة، أحدهما: أنه منع من دخول الجنة مكرماً، فأما على وجه السرقة والإهانة، فلا يمتنع، ولهذا قال بعضهم: كما جاء في التوراة أنه دخل في فم الحية إلى الجنة. وقد قال بعضهم: يحتمل أنه وسوس لهما وهو خارج باب الجنة. وقال بعضهم: يحتمل أنه وسوس لهما وهو في الأرض، وهما في السماء، ذكرها الزمخشري وغيره. وقد أورد القرطبي ههنا أحاديث في الحيات وقتلهن وبيان حكم ذلك، فأجاد وأفاد<sup>(٤)</sup>.

فَلَقِيَّ أَدْمَ مِنْ زَيْبَهُ كَلِكِتْ فَنَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ أَرَجِيمُ

قيل إن هذه الكلمات مفسرة بقوله تعالى: «قالا ربنا ظلمتنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكون من الخاسرين» [الأعراف: ٢٣] وروي هذا عن مجاهد وسعيد بن جبير وأبي العالية والربيع بن أنس والحسن وقتادة ومحمد بن كعب القرظي وخالد بن معدان وعطاء الخراساني وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم<sup>(٥)</sup>. وقال أبو إسحاق السبئي عن رجل من بني تميم قال: أتيت ابن عباس فسألته ما الكلمات التي تلقى آدم من ربه؟ قال: علم شأن الحج. وقال سفيان الثوري عن عبد العزيز بن رفيع، أخبرني من سمع عبيد بن عمير، وفي رواية قال: أخبرني مجاهد عن عبيد بن عمير، أنه قال: قال آدم: يا رب خطئتي التي أخطأت شيء كتبته علي قبل أن تخلقني أو

(١) في الرازى: «درك».

(٢) في الرازى «أنسيت أن الله أخرجه آدم».

(٣) انتهى نقل ابن كثير عن الرازى.

(٤) انظر تفسير القرطبي ٣١٩—٣١٣/١.

(٥) وفي الدر المثمر ١١٧/١ — ١١٨ آثار بهذا المعنى عن ابن عباس، علاوة على ورد عن الحسن والضحاك ومحمد بن كعب القرظي ومجاهد وقتادة.

شيء ابتدعه من قبل نفسي؟ قال «بل شيء كتبته عليك قبل أن أخلقك» قال: فكما كتبته على فاغفر لي، قال: فذلك قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلْمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ . وقال السدي عن حديث عن ابن عباس: فتلقى آدم من ربه كلمات، قال: قال آدم عليه السلام: يا رب ألم تخلقني بيده؟ قيل له: بلى، ونفخت في من روحك؟ قيل له بلى، وعطست فقلت يرحمك الله، وسبقت رحمتك غضبك؟ قيل له: بلى، وكتبت علي أن أعمل هذا؟ قيل له: بلى، قال: أرأيت إن تبت هل أنت راجعي إلى الجنة؟ قال: نعم. وهكذا رواه العوفي وسعيد بن جبير وسعيد بن معبد عن ابن عباس بنحوه، ورواه الحاكم في مستدركه من حديث ابن جبير عن ابن عباس، وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وهكذا فسره السدي وعطاء العوفي. وقد روى ابن أبي حاتم هنأ الحديثاً شبيهاً بهذا فقال: حدثنا علي بن الحسين بن إشحاص، حدثنا علي بن عاصم عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن عن أبي بن كعب، قال: قال رسول الله ﷺ «قال آدم عليه السلام: أرأيت يا رب إن تبت ورجعت أعادئي إلى الجنة؟» قال: نعم فذلك قوله ﴿فَتَلَقَّى آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلْمَاتٍ﴾ وهذا حديث غريب من هذا الوجه وفيه انقطاع. وقال أبو جعفر الرازى عن الربع بن أنس عن أبي العالية في قوله تعالى: فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه. قال: إن آدم لما أصاب الخطيئة قال: أرأيت يا رب إن تبت وأصلحت؟ قال الله ﴿إِذَا دَخَلْتَ الْجَنَّةَ﴾ فهي الكلمات ومن الكلمات أيضاً ﴿رَبُّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسُنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَا مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ . وقال ابن أبي نجج عن مجاهد أنه كان يقول في قول الله تعالى: فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه، قال: كلمات: اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي إني خير الغافرين، اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، رب إني ظلمت نفسي فارحمني إني خير الراحمين، اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، رب إني ظلمت نفسي فتب علي إني أنت التواب الرحيم. قوله تعالى ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾ أي إنه يتوب على من تاب إليه وأناب كقوله ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبِلُ التَّوْبَةَ عَنِ الْعَبَادِ﴾ [التوبه: ١٠٤] وقوله: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾ [النساء: ١١٠]، قوله: ﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [الفرقان: ٧١] وغير ذلك من الآيات الدالة على أنه تعالى يغفر الذنوب، ويتوب على من يتوب، وهذا من لطفه بخلقه ورحمته بعيده، لا إله إلا هو التواب الرحيم.

قُلْنَا أَهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَكُمْ مِّنْ هُدًى فَمَنْ تَبَعَ هُدًى إِلَيْهِ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٨﴾  
وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِعِيَّاتِنَا أَوْ لَيْكَ أَصْحَبَتِ النَّارَ هُمْ فِيهَا خَلِدُونَ ﴿٢٩﴾

يقول تعالى مخبراً عما أندى به آدم وزوجته وإبليس حين أهبطهم من الجنة، والمراد الذرية، أنه سينزل الكتب ويبعث الأنبياء والرسل كما قال أبو العالية: الهدى: الأنبياء والرسل والبيانات

والبيان<sup>(١)</sup>. وقال مقاتل بن حيان: الهدى: محمد ﷺ، وقال الحسن: الهدى: القرآن، وهذا القولان صحيحان. وقول أبي العالية أعم. «فمن تبع هداي» أي من أقبل على ما أنزلت به الكتب وأرسلت به الرسول «فلا خوف عليهم» أي فيما يستقبلونه من أمر الآخرة «ولا هم يحزنون» على ما فاتهم من أمور الدنيا كما قال في سورة طه «قال اهبطوا منها جميعاً بعضاكم لبعض عدو فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هدای فلا يضل ولا يشقى» [طه: ١٢٣] قال ابن عباس: فلا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة «ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكًا ونحرره يوم القيمة أعمى» [طه: ١٢٤] كما قال ههنا «والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون» أي مخلدون فيها لا محيد لهم عنها ولا محيس وقد أورد ابن جرير هنا حديثاً ساقه من طريقين: عن أبي مسْلَمَةَ سعيد بن يزيد عن أبي نصرة المنذر بن مالك بن قطعة عن أبي سعيد واسمه سعد بن مالك بن سنان الخدرى<sup>(٢)</sup>، قال: قال رسول الله ﷺ: «أما أهل النار الذي هم أهلها فلا يموتون فيها ولا يحيون ولكن أقوام أصابتهم النار بخطاياهم<sup>(٣)</sup> فأماتهم إماتة حتى إذا صاروا فحماً أذن في الشفاعة» وقد رواه مسلم من حديث شعبة عن أبي مسْلَمَةَ به<sup>(٤)</sup>. وذكر هذا الإهاط الثاني لما تعلق به ما بعده من المعنى المغاير للأول، وزعم بعضهم: أنه تأكيد وتكرير، كما يقال: قم قم، وقال آخرون: بل الإهاط الأول من الجنة إلى السماء الدنيا، والثاني من سماء الدنيا إلى الأرض، والصحيح الأول، والله أعلم.

يَنِيْ إِسْرَائِيلَ أَذْكُرُو أَنْعَمْتَ أَلَّيْ أَنْعَمْتَ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِيْ أَوْفِيْ بِعَهْدِكُمْ وَإِيْتَنِي فَارْهَبُونِيْ وَإِمْنَوْا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوْلَى كَافِرِيْ بِهِ وَلَا تَشْرُوْ بِإِيمَانِيْ ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيْتَنِي فَاتَّقُونِيْ

يقول تعالى آمراً ببني إسرائيل بالدخول في الإسلام، ومتابعة محمد عليه من الله أفضل الصلاة والسلام، ومهججاً لهم بذكر أبيهم إسرائيل وهو نبي الله يعقوب عليه السلام، وتقديره: يا بني

(١) الطبرى ١/٢٨٤؛ والدر المنشور ١/١٢٣، عن أبي العالية — وليس فيهما لفظ «البيات».

(٢) أخطأ ابن كثير هنا إذ قال إن الطبرى ساق الحديث من طريقين. والصواب أنه ساقه بثلاثة أسانيد على النحو التالي: «حدثنا عقبة بن سنان البصري، قال: حدثنا غسان بن مضر، قال: حدثنا سعيد بن يزيد [إسناد أول] — وحدثنا سوار بن عبد الله العنبرى، قال: حدثنا بشر بن المفضل، قال: حدثنا أبو مسلم سعيد بن يزيد [إسناد ثان] — وحدثني يعقوب بن إبراهيم، وأبو بكر بن عون، قالا: حدثنا إسماعيل بن علية، عن سعيد بن يزيد [إسناد ثالث] — عن أبي نصرة عن أبي سعيد الخدرى عن الرسول. (الطبرى ١/٢٨٦).

(٣) في الطبرى: «ولكن أقواماً أصابتهم النار بخطاياهم أو بذنوبهم» الخ.

(٤) مسلم (إيمان حديث ٣٠٦) وابن ماجه (زهد باب ٣٦). ولم يروه من أصحاب الكتب الستة غيرهما من حديث مسامة

العبد الصالح المطيع لله، كونوا مثل أبيكم في متابعة الحق، كما تقول: يا ابن الكريم افعل كذا، يا ابن الشجاع بارز الأبطال، يا ابن العالم اطلب العلم، ونحو ذلك. ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿ذُرْيَةٌ مِّنْ حَمْلَنَا مَعْ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣] فإسرائيل هو يعقوب بدليل ما رواه أبو داود الطيالسي: حدثنا عبد الحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب، قال: حدثني عبد الله بن عباس قال: حضرت عصابة من اليهود نبي الله ﷺ، فقال لهم «هل تعلمون أن إسرائيل يعقوب؟» قالوا: اللهم نعم، فقال النبي ﷺ: «اللهم اشهد» وقال الأعمش عن إسماعيل بن رجاء عن عمير مولى ابن عباس عن عبد الله بن عباس: أن إسرائيل كقولك عبد الله. وقوله تعالى ﴿أَذْكُرُوا نَعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُم﴾ قال مجاهد: نعمة الله التي أنعم بها عليهم فيما سمي، وفيما سوى ذلك أن فجر لهم الحجر وأنزل عليهم المن والسلوى ونجاهم من عبودية آل فرعون. وقال أبو العالية: نعمته أن جعل منهم الأنبياء والرسل، وأنزل عليهم الكتب، قلت: وهذا كقول موسى عليه السلام لهم ﴿يَا قَوْمَ اذْكُرُوا نَعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيمَا كُنْتُمْ مَلِوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يَؤْتُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠] يعني في زمانهم. وقال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿أَذْكُرُوا نَعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُم﴾ أي بلا شيء<sup>(١)</sup> عندكم وعند آباءكم لما كان نجاحكم من فرعون وقومه ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِكُمْ﴾ قال: بعهدي الذي أخذت في أعناقكم للنبي ﷺ إذا جاءكم أجز لكم ما وعدتكم عليه من تصدقه واتباعه بوضع ما كان عليكم من الأصار والأغلال التي كانت في أعناقكم بذنبكم التي كانت من إحداثكم. وقال الحسن البصري: هو قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعْثَنَا مِنْهُمْ أَنْثَى عَشْرَ نَفِيًّا، وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعْكُمْ لَئِنْ أَقْمَتُ الصَّلَاةَ وَأَتَيْتُ الزَّكَاةَ وَأَمْتَمْ بِرْسَلِي وَعَزَّزْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَنَاً لَا كُفَّرُنَّ عَنْكُمْ سَيَّئَاتِكُمْ وَلَا دُخُلُنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [المائدة: ١٢] وقال آخرؤن: هو الذي أخذ الله عليهم في التوراة أنه سيبعث من بنى إسماعيل نبياً عظيماً يطیعه جميع الشعوب والمراد به محمد ﷺ فمن اتبعه غفر الله له ذنبه وأدخله الجنة وجعل له أجراً. وقد أورد الرازبي بشارات كثيرة عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بمحمد ﷺ.

قال أبو العالية ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ قال عهده إلى عباده دين الإسلام وأن يتبعوه، وقال الضحاك عن ابن عباس: (أوف بعهلكم)؟ قال: أرض عنكم وأدخلنكم الجنة. وكذا قال السدي والضحاك وأبو العالية والربيع بن أنس. وقوله تعالى ﴿وَإِبْرَاهِيمَ فَارَهُبُونَ﴾ أي فاخشون، قاله أبو العالية والسدي والربيع بن أنس وقتادة، وقال ابن عباس في قوله تعالى ﴿وَإِبْرَاهِيمَ فَارَهُبُونَ﴾ أي إن نزل بكم ما أنزلت بمن كان قبلكم من آباءكم من النقمات التي قد عرفتم من المسوخ وغيره، وهذا انتقال من الترغيب إلى الترهيب فدعاهم إليه بالرغبة والرهبة لعلهم يرجعون إلى الحق واتباع

(١) في الطبرى ١/ ٢٨٧: «آلائي».

الرسول ﷺ والاعظام بالقرآن وزواجه وامثاله وأوامره وتصديق أخباره والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، ولهذا قال ﴿وَأَمْنَا بِمَا أَنْزَلْتَ مَصْدِقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ يعني به القرآن الذي أنزل على محمد ﷺ النبي الأمي العربي بشيراً ونذيراً وسراجاً منيراً مشتملاً على الحق من الله تعالى مصدقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل. قال أبو العالية رحمة الله في قوله تعالى ﴿وَأَمْنَا بِمَا أَنْزَلْتَ مَصْدِقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ يقول: يا معشر أهل الكتاب آمنوا بما أنزلت مصدقاً لـما معكم، يقول لأنهم يجدون محمداً ﷺ مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل وروي عن مجاهد والربيع بن أنس وقتادة نحو ذلك. قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا أُولَئِكَ كُفَّارٌ بِهِ﴾ قال بعض المعربين: أول فريق كافر به أو نحو ذلك، قال ابن عباس: ولا تكونوا أول كافر به وعندكم فيه من العلم ما ليس عند غيركم، قال أبو العالية: يقول: ولا تكونوا أول من كفر بمحمد ﷺ، يعني من جنسكم أهل الكتاب بعد سماحكم بمعبه، وكذا قال الحسن والسدي والربيع بن أنس، واختار ابن جرير<sup>(١)</sup> أنضمmer في قوله «به» عائد على القرآن الذي تقدم ذكره في قوله ﴿بِمَا أَنْزَلْتَ﴾ وكلا القولين صحيح لأنهما متلازمان، لأن من كفر بالقرآن فقد كفر بمحمد ﷺ، ومن كفر بمحمد ﷺ فقد كفر بالقرآن. وأما قوله ﴿أُولَئِكَ كُفَّارٌ بِهِ﴾ فيعني به أول من كفر به من بني إسرائيل، لأنه قد تقدمهم من كفار قريش وغيرهم من العرب بشر كثیر، وإنما المراد أول من كفر به من بني إسرائيل مباشرة، فإن يهود المدينة أول بني إسرائيل خوطبوا بالقرآن فكفرهم به يستلزم أنهم أول من كفر به من جنسهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ يقول: لا تتعاضوا عن الإيمان بآياتي وتصديق رسولي بالدنيا وشهواتها، فإنها قليلة فانية، كما قال عبد الله بن المبارك: أربأنا عبد الرحمن بن زيد بن جابر عن هارون بن يزيد قال: سئل الحسن، يعني البصري عن قوله تعالى، ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ قال: الثمن القليل الدنيا بحذافيرها. قال ابن لهيعة: حدثني عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير في قوله تعالى ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ إن آياته كتابه الذي أنزله إليهم، وإن الثمن القليل الدنيا وشهواتها، وقال السدي: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ يقول: لا تأخذوا طمعاً قليلاً، ولا تكتنوا اسم الله، فذلك الطمع هو الثمن. وقال أبو جعفر عن الربيع بن أنس عن أبي العالية في قوله تعالى ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ يقول: لا تأخذوا عليه أجراً، قال: وهو مكتوب عندهم في الكتاب الأول: يا ابن آدم علّم مجاناً علّمت مجاناً<sup>(٢)</sup>. وقيل: معناه لا تعاضوا عن البيان والإيضاح ونشر العلم النافع بالكتمان واللبس لستمروا على رياستكم في الدنيا القليلة الحقيقة الرائلة عن قريب. وفي سنت أبي داود عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «من تعلم علمًا مما يتغىّ به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضًا من الدنيا لم يرُخْ<sup>(٣)</sup> رائحة الجنة يوم القيمة»<sup>(٤)</sup> فأما

(١) الطبرى ٢٩١/١.

(٢) راح الشيء روحًا: وجدر يحيه.

(٣) أبو داود (ترجّل بباب ٢٠).

تعليم العلم بأجرة، فإن كان قد تعين عليه فلا يجوز أن يأخذ عليه أجرة، ويجوز أن يتناول من بيت المال ما يقوم به حاله وعياله بأجرة، فإن لم يحصل له منه شيء وقطعه التعليم عن التكسب، فهو كما لم يتعين عليه، وإذا لم يتعين عليه فإنه يجوز أن يأخذ عليه أجرة عند مالك والشافعى وأحمد وجمهور العلماء كما في صحيح البخاري عن أبي سعيد في قصة اللديع «إن أحق ما أخذتم عليه أجراً كتاب الله»<sup>(١)</sup> وقوله في قصة المخطوبية «زوجتكها بما معك من القرآن»<sup>(٢)</sup> فاما حديث عبادة بن الصامت، أنه علم رجلاً من أهل الصفة<sup>(٣)</sup> شيئاً من القرآن فأهدى له قوساً فسأل عنه رسول الله ﷺ فقال «إن أحببت أن تطوق بقوس من نار فاقبله» فتركه، رواه أبو داود. وروي مثله عن أبي ابن كعب مرفوعاً، فإن صح إسناده فهو محمول عند كثير من العلماء منهم: أبو عمر بن عبد البر، على أنه لما علمه الله لم يجز بعد هذا أن يعتاض عن ثواب الله بذلك القوس، فاما إذا كان من أول الأمر على التعليم بالأجرة فإنه يصح كما في حديث اللديع وحديث سهل في المخطوبية، والله أعلم. وقوله «إِيَّاهُمْ فَاتَّقُوهُمْ» قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عمر الدوري، حدثنا أبو إسماعيل المؤدب عن عاصم الأحول عن أبي العالية عن طلق بن حبيب، قال: التقوى أن تعمل بطاعة الله رجاء رحمة الله على نور من الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله، ومعنى قول «إِيَّاهُمْ فَاتَّقُوهُمْ» أنه تعالى يتوعدهم فيما يعتمدونه من كتمان الحق وإظهار خلافه ومخالفتهم الرسول صلوات الله وسلامه عليه.

وَلَا تَلِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكُنُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَأَقُلُوا الرِّزْكَ وَلَا كُوْنُوا مَعَ الْرَّجُلِينَ ﴿٢٣﴾

يقول تعالى ناهياً لليهود عما كانوا يعتمدونه من تلبيس الحق بالباطل، وتمويهه به، وكتمانهم الحق، وإظهارهم الباطل: «وَلَا تلبسو الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون» فنهاهم عن الشيئين معاً، وأمرهم بإظهار الحق والتصريح به، ولهذا قال الصحاح عن ابن عباس «وَلَا تلبسو الحق بالباطل»: لا تخلطوا الحق بالباطل، والصدق بالكذب. وقال أبو العالية - ولا تلبسو الحق بالباطل - يقول: ولا تخلطوا الحق بالباطل، وأدوا النصيحة لعباد الله من أمة محمد ﷺ ولا تلبسو اليهودية والنصرانية بالإسلام، وأنتم تعلمون أن دين الله الاسلام، وأن اليهودية والنصرانية بدعة ليست من الله. وروي عن الحسن البصري نحو ذلك. وقال محمد بن إسحاق:

(١) البخاري (إجارة باب ١٦).

(٢) أخرجه البخاري (فضائل القرآن باب ٢١؛ ونكاح باب ٤٠، ٢٧). وأبو داود (نكاح باب ١٧) والترمذى (نكاح باب ٢٣) والدارمى (نكاح باب ١٩).

(٣) أهل الصفة: هم فقراء المهاجرين ومن لم يكن له منهم منزل يسكنه فكانوا يأowون إلى موضع مظلل في مسجد المدينة يسكنونه.

حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿وتكتموا الحق وأتتم تعلمون﴾ أي لا تكتموا ما عندكم من المعرفة برسولي وبما جاء به وأنتم تجدونه مكتوباً عندكم فيما تعلمون من الكتب التي بأيديكم. وروي عن أبي العالية نحو ذلك . وقال مجاهد والسدى وقتادة والربيع بن أنس ﴿وتكتموا الحق﴾ يعني محمداً ﷺ (قلت) وتكتموا يحتمل أن يكون مجزوماً، ويحتمل أن يكون منصوباً، أي لا تجتمعوا بين هذا وهذا كما يقال: لا تأكل السمك وتشرب اللبن، قال الزمخشري: وفي مصحف ابن مسعود: «وتكتمون الحق» أي في حال كتمانكم الحق (وأنتم تعلمون) حال أيضاً، ومعناه وأنتم تعلمون الحق، ويجوز أن يكون المعنى: وأنتم تعلمون ما في ذلك من الضرر العظيم على الناس من إضلالهم عن الهدى المفضي بهم إلى النار إلى أن سلكوا ما تبدونه لهم من الباطل المشوب بنوع من الحق لتروّجوه عليهم، والبيان الإيضاح وعكسه الكتمان وخلط الحق بالباطل .

﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين﴾ قال مقاتل: قوله تعالى لأهل الكتاب ﴿وأقيموا الصلاة﴾ أمرهم أن يصلوا مع النبي ﷺ ﴿وآتوا الزكاة﴾ أمرهم أن يؤتوا الزكاة أي يدفعونها إلى النبي ﷺ ﴿واركعوا مع الراكعين﴾ أمرهم أن يركعوا مع الراكعين من أمة محمد ﷺ، يقول: كانوا معهم ومنهم . وقال علي بن طلحة عن ابن عباس: يعني بالزكاة طاعة الله والإخلاص ، وقال وكيع عن أبي جناب عن عكرمة عن ابن عباس في قوله: ﴿وآتوا الزكاة﴾، قال: ما يوجب الزكاة قال: مائتان فضاعداً . وقال مبارك بن فضالة عن الحسن في قوله تعالى ﴿وآتوا الزكاة﴾ قال: فريضة واجبة لا تنفع الأعمال إلا بها وبالصلاه . وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة حدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا جرير عن أبي حيان التيمي عن الحارث العكلي في قوله تعالى ﴿وآتوا الزكاة﴾ قال: صدقة الفطر . وقوله تعالى: ﴿واركعوا مع الراكعين﴾ أي وكونوا مع المؤمنين في أحسن أعمالهم ، ومن أخص ذلك وأكمله الصلاة . وقد استدل كثير من العلماء بهذه الآية على وجوب الجمعة ، وأبسط ذلك في كتاب الأحكام الكبير إن شاء الله تعالى ، وقد تكلم القرطبي على مسائل الجمعة والإمامية فأجاد .

﴿أَنَّمَرُونَ النَّاسَ بِالْبَرِّ وَتَنسُونَ أَنفُسَكُمْ وَإِنْتُمْ نَتَنُونَ أَلِكُتْبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

يقول تعالى: كيف يليق بكم يا معاشر أهل الكتاب ، وأنتم تأمرن الناس بالبر وهو جماع الخير ، أن تنسوا أنفسكم فلا تأمرن بما تأمرن الناس به ، وأنتم مع ذلك تتلون الكتاب وتعلمون ما فيه على من قصر في أوامر الله ؟ أفلًا تعقلون ما أنتم صانعون بأنفسكم ، فتنتبهوا من رقدتكم ، وتبصروا من عمياتكم ، وهذا كما قال عبد الرزاق عن معمراً عن قتادة في قوله تعالى: ﴿أَنَّمَرُونَ النَّاسَ بِالْبَرِّ وَتَنسُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ قال: كان بنو إسرائيل يأمرن الناس بطاعة الله ويتقواه

وبالبر ، وبخالفون ، فغيرهم الله عز وجل<sup>(١)</sup> . وكذلك قال السدي . وقال ابنجريج : «أتأمرون الناس بالبر» أهل الكتاب والمنافقون كانوا يأمرن الناس بالصوم والصلوة ويدعون العمل بما يأمرن به الناس ، فغيرهم الله بذلك ، فمن أمر بخير فليكن أشد الناس فيه مسارعة<sup>(٢)</sup> . وقال محمد بن إسحاق عن محمد [بن أبي محمد]<sup>(٣)</sup> عن عكرمة أو سعيد بن جبیر عن ابن عباس : «وتنسون أنفسكم» أي ترکون أنفسکم «وأنتم تتلون الكتاب أفلأ تعقلون» أي تنهون الناس عن الكفر بما عندکم من النبوة والعهد من التوراة وترکون أنفسکم ، أي وأنتم تکفرون بما فيها من عهدي إليکم في تصدقی رسولی وتنقضون میثاقی وتجحدون ما تعلمون من کتابی . وقال الصحاک عن ابن عباس : في هذه الآية يقول : أتأمرن الناس بالدخول في دین محمد ﷺ وغير ذلك مما أمرت به من إقام الصلاة وتنسون أنفسکم . وقال أبو جعفر بن جریر : حدثني علي بن الحسن حدثنا مسلم الجرمي حدثنا مخلد بن الحسين عن أیوب السختياني ، عن أبي قلابة في قول الله تعالى : «أتأمرن الناس بالبر وتنسون أنفسکم وأنتم تتلون الكتاب» قال : قال أبو الدرداء رضي الله عنه : لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يمکن الناس في ذات الله ثم يرجع إلى نفسه فيكون لها أشد مقتاً<sup>(٤)</sup> . وقال عبد الرحمن بن زید بن أسلم في هذه الآية : هؤلاء اليهود إذا جاء الرجل سأله عن الشيء ليس فيه حق ولا رشوة أمروه بالحق ، فقال الله تعالى : «أتأمرن الناس بالبر وتنسون أنفسکم وأنتم تتلون الكتاب أفلأ تعقلون» والغرض : أن الله تعالى ذمهم على هذا الصنیع ، ونبھهم على خطئهم في حق أنفسهم حيث كانوا يأمرن بالخير ولا يفعلونه ، وليس المراد ذمهم على أمرهم بالبر مع تركهم له ، فإن الأمر بالمعروف معروف وهو واجب على العالم ، ولكن الواجب والأولى بالعالم أن يفعله مع من أمرهم به ولا يتخلّف عنهم كما قال شعيب عليه السلام : «وما أريد أن أخالفك إلى ما أنهاك عن إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب» [هود: ٨٨] فكل من الأمر بالمعروف و فعله واجب لا يسقط أحدهما بترك الآخر على أصح قولی العلماء من السلف والخلف . وذهب بعضهم إلى أن مرتکب المعاصي لا ينهی غيره عنها وهذا ضعيف ، وأضعف منه تمسکهم بهذه الآية فإنه لا حجة لهم فيها ، والصحيح : أن العالم يأمر بالمعروف وإن لم يفعله ، وينهى عن المنکر وإن ارتكبه ، قال مالک عن ربيعة : سمعت سعيد بن جبیر يقول : لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهی عن المنکر حتى لا يكون فيه شيء ما أمر أحد بمعروف ولا نهى عن منکر . قال مالک : وصدق من ذا الذي ليس فيه شيء ؟ (قلت) لكنه والحاله هذه مذموم على ترك الطاعة و فعله المعصية لعلمه بها ومخالفته على بصیرة فإنه ليس من يعلم كمن لا يعلم ، ولهذا جاءت

(١) الطبری / ١٢٩٦.

(٢) الزيادة من الطبری.

(٣) الطبری / ١٢٩٧.

الأحاديث في الوعيد على ذلك، كما قال الإمام أبو القاسم الطبراني في معجمه الكبير: حدثنا أحمد بن المعلى الدمشقي والحسن بن علي العمري، قالا: حدثنا هشام بن عمار حدثنا علي بن سليمان الكلبي حدثنا الأعمش عن أبي تيمية الهجيمي عن جذب بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل العالم الذي يعلم الناس الخير ولا يعمل به، كمثل السراج يضيء للناس ويحرق نفسه» هذا حديث غريب من هذا الوجه.

حديث آخر: قال الإمام أحمد بن حنبل في مسنده<sup>(١)</sup>: حدثنا وكيع حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد (هو ابن جدعان) عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مررت ليلة أسرى بي على قوم تفرض شفاههم بمقاريض من نار، قال: قلت من هؤلاء؟ قالوا: خطباء أمتك<sup>(٢)</sup> من أهل الدنيا من كانوا يأمرن الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفالاً يعقلون» ورواه عبد بن حميد في مسنده وتفسيره عن الحسن بن موسى عن حماد بن سلمة به، ورواه ابن مردويه في تفسيره من حديث يونس بن محمد المؤدب والحجاج بن منهال كلاماً عن حماد بن سلمة به، وكذلك رواه يزيد بن هارون عن حماد بن سلمة به، ثم قال ابن مردويه: حدثنا محمد بن عبد الله بن إبراهيم حدثنا موسى بن هارون حدثنا إسحاق بن إبراهيم التستري بيلغ حدثنا مكي بن إبراهيم حدثنا عمر بن قيس عن علي بن زيد عن ثمامة عن أنس، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مررت ليلة أسرى بي على أناس تفرض شفاههم وألسنتهم بمقاريض من نار، قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء خطباء أمتك الذين يأمرن الناس بالبر وينسون أنفسهم» وأخرجه ابن حبان في صحيحه، وابن أبي حاتم وابن مردويه أيضاً من حديث هشام الدستوائي عن المغيرة يعني ابن حبيب ختن<sup>(٣)</sup> مالك بن دينار عن مالك بن دينار عن ثمامة عن أنس بن مالك، قال: لما عرج برسول الله ﷺ مرّ بقوم تفرض شفاههم، فقال: يا جبريل من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الخطباء من أمتك يأمرن الناس بالبر وينسون أنفسهم أفالاً يعقلون.

الحديث آخر - قال الإمام أحمد<sup>(٤)</sup>: حدثنا يعلى بن عبيد: حدثنا الأعمش عن أبي وائل، قال: قيل لأنسأمة وأنا رديفه: ألا تكلم عثمان؟ فقال: إنكم ترون أني لا أكلمه، ألا أسمعكم إني لا أكلمه فيما بيني وبينه دون أن أفتح<sup>(٥)</sup> أمراً لا أحب أن أكون أول من افتحه، والله لا أقول لرجل إنك خير الناس وإن كان علي أميراً بعد أذ سمعت رسول الله ﷺ يقول، قالوا: وما سمعته

(١) مسنـد الإمامـ أحمدـ (جـ ٣ـ صـ ١٢٠).

(٢) لفظ «أمتك» غير موجود في النسخة التي بين أيدينا من المسند.

(٣) الختن: زوج البنت أو زوج الأخت.

(٤) المسندـ (جـ ٥ـ صـ ٢٠٥).

(٥) عبارة المسند: «إنكم ترون أن لا أكلمه إلا سمعكم، إني لا أكلمه فيما بين وبينه ما دون أن أفتح» الخ.

يقول ؟ قال : سمعته يقول : «يجاء بالرجل يوم القيمة فيلقى في النار فتندلق به أقتابه<sup>(١)</sup> ، فيدور بها في النار كما يدور الحمار برحاه ، فيطيف به أهل النار فيقولون : يا فلان ما أصابك ؟ ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتهانا عن المنكر ؟ فيقول : كنت أمركم بالمعروف ولا آتية ، وأنهاكم عن المنكر وآتية» رواه البخاري ومسلم من حديث سليمان بن مهران الأعمش به نحوه . وقال أحمد . حدثنا سيار بن حاتم حدثنا جعفر بن سليمان عن ثابت عن أنس ، قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله يعافي الأميين يوم القيمة مالا يعافي العلماء» وقد ورد في بعض الآثار : أنه يغفر للجاهل سبعين مرة حتى يغفر للعالم مرة واحدة ، ليس من يعلم كمن لا يعلم . وقال تعالى : ﴿فَلَمْ يَكُنْ عَسِيرًا لِّلَّهِ يَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيمَةٌ لِّلْأَنْسَابِ﴾ [الزمر : ٩] وروى ابن عساكر في ترجمة الوليد بن عقبة عن النبي ﷺ ، قال : «إن أناساً من أهل الجنة يطعلون على أناس من أهل النار فيقولون بم دخلتم النار ؟ فوالله ما دخلنا الجنة إلا بما تعلمنا منكم ، فيقولون : إننا كنا نقول ولا نفعل» ورواه ابن جرير الطبراني عن أحمد بن يحيى الخياز الرملي عن زهير بن عباد الرواسي عن أبي بكر الزهري عبد الله بن حكيم عن إسماعيل بن أبي خالد عن الشعبي عن الوليد بن عقبة فذكره . وقال الضحاك عن ابن عباس : أنه جاءه رجل فقال : يا ابن عباس ، إن أريد أن أمر بالمعروف وأنهى عن المنكر ، قال : أبلغت ذلك ؟ قال : أرجو ، قال : إن لم تخش أن تفتضح بثلاث آيات من كتاب الله فافعل ، قال : وما هن ؟ قال : قوله تعالى : ﴿أَتَأْمَرُونَ النَّاسَ بِالْبَرِّ وَتَنْهَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ أحكمت هذه ؟ قال : لا ، قال : فالحرف الثاني ؟ قال : قوله تعالى : ﴿لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبَرْ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف : ٣] أحكمت هذه ؟ قال : لا ، قال : فالحرف الثالث ؟ قال : قول العبد الصالح شعيب عليه السلام ﴿وَمَا أَرِيدُ أَنْ أَخْالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أَرِيدُ إِلَّا الإِصْلَاحَ﴾ [هود : ٨٨] أحكمت هذه الآية ؟ قال : لا ، قال : فابداً بنفسك ، رواه ابن مردوه في تفسيره . وقال الطبراني : حدثنا عباد بن أحمد حدثنا زيد بن الحارث حدثنا عبد الله بن خراش عن العوام بن حوشب عن المسيب بن رافع عن ابن عمر ، قال : قال رسول الله ﷺ : «من دعا الناس إلى قول أو عمل ولم يعمل هو به لم يزل في ظل سخط الله حتى يكف أو يعمل ما قال أو دعا إليه» إسناده فيه ضعف وقال إبراهيم التخعي : إن لأكره القصص لثلاث آيات : قوله تعالى : ﴿أَتَأْمَرُونَ النَّاسَ بِالْبَرِّ وَتَنْهَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ وقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ \* كَبَرْ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ وقوله إخباراً عن شعيب : ﴿وَمَا أَرِيدُ أَنْ أَخْالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أَرِيدُ إِلَّا الإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتَ وَمَا تُوفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوْكِلْتُ وَإِلَيْهِ أَنِيبَ﴾ .

وَأَسْتَعِينُوكُمْ بِالصَّبَرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْحَنْشَعِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُظْلَمُونَ أَتُهُمْ مُلْقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ

رجُونَ

يقول تعالى آمراً عبيده فيما يؤملون من خير الدنيا والآخرة بالاستعانة بالصبر والصلوة، كما قال مقاتل بن حيان في تفسير هذه الآية: استعينوا على طلب الآخرة بالصبر على الفرائض والصلوة، فاما الصبر فقيل: إنه الصيام، نص عليه مجاهد، قال القرطبي وغيره: ولهذا يسمى رمضان شهر الصبر كما نطق به الحديث. وقال سفيان الثوري عن أبي إسحاق عن جري<sup>(١)</sup> بن كلوب عن رجل من بني سليم عن النبي ﷺ، قال «الصوم نصف الصبر» وقيل: المراد بالصبر الكف عن المعاصي، ولهذا قرنه بأداء العبادات وأعلاها فعل الصلوة.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا عبيد الله بن حمزة بن إسماعيل حدثنا إسحاق بن سليمان عن أبي سنان عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: الصبر صبران: صبر عند المصيبة حسن، وأحسن منه الصبر عن محارم الله. قال: وروي عن الحسن البصري نحو قول عمر. وقال ابن المبارك عن ابن لهيعة عن مالك بن دينار عن سعيد بن جبير، قال: الصبر اعتراف العبد لله بما أصيب فيه واحتسابه عند الله ورجاء ثوابه، وقد يجزع الرجل وهو يتجلد لا يرى منه إلا الصبر. وقال أبو العالية في قوله تعالى: «وَاسْتَعِنُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ» قال: على مرضاة الله، واعلموا أنهم من طاعة الله<sup>(٢)</sup>. وأما قوله: «وَالصَّلَاةُ، فَإِنَّ الصَّلَاةَ مِنْ أَكْبَرِ الْعُوَنِ عَلَى الثَّبَاتِ فِي الْأَمْرِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: «أَتَلِ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهِيُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرِ اللَّهِ أَكْبَرُ» [العنكبوت: ٤٥]. وقال الإمام أحمد<sup>(٣)</sup>: حدثنا خلف بن الوليد حدثنا يحيى بن زكريا بن أبي زائد عن عكرمة بن عمارة بن محمد بن عبد الله الدؤلي قال: قال عبد العزيز أخوه حذيفة: قال حذيفة، يعني ابن اليمان رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ ، إذا حزبه أمر صلي. ورواه أبو داود عن محمد بن عيسى عن يحيى بن زكريا عن عكرمة بن عمارة كما سيأتي، وقد رواه ابن جرير من حديث ابن جريج عن عكرمة بن عمارة عن محمد بن عبد الله الدؤلي: قال عبد العزيز بن عيسى عن عبد العزيز ابن أخي حذيفة، ويقال: أخي حزبه أمر فزع إلى الصلاة<sup>(٤)</sup>. ورواه بعضهم عن عبد العزيز ابن أخي حذيفة، ويقال: أخي حذيفة مرسلاً عن النبي ﷺ . وقال محمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة: حدثنا سهل بن عثمان العسكري حدثنا يحيى بن زكريا بن أبي زائد قال: قال عكرمة بن عمارة: قال محمد بن عبد الله الدؤلي: قال عبد العزيز: قال حذيفة: رجعت إلى النبي ﷺ ، ليلة الأحزاب وهو مشتمل في شملة يصلى، وكان إذا حزبه أمر صلي. حدثنا عبد الله بن معاذ حدثنا أبي حدثنا شعبة عن أبي

(١) جُرَيْيَ بن كلوب الدوسي البصري. من الطبقة الثالثة. مقبول. أخرج له أبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه. (موسوعة رجال الكتب التسعة ١/٢٣٨).

(٢) الطبرى ١/٢٩٩.

(٣) المستند ج ٥ ص ٣٨٨.

(٤) الطبرى ١/٢٩٨.

إسحاق سمع حارثة بن مضرب سمع علياً رضي الله عنه يقول: لقد رأيتنا ليلة بدر وما فينا إلا نائم غير رسول الله ﷺ يصلي ويذعن حتى أصبح. قال ابن جرير: وروي عنه عليه الصلاة والسلام أنه من بأبي هريرة وهو منبطح على بطنه فقال له: «أشكُم درد» ومعناه أیوجعك بطنك؟ قال: نعم، قال: «قُم فصل، فإن الصلاة شفاء»<sup>(١)</sup>. قال ابن جرير: وقد حدثنا محمد بن الفضل ويعقوب بن إبراهيم، قالا: حدثنا ابن عمارة حدثنا عبيدة بن عبد الرحمن عن أبيه: أن ابن عباس نعي إليه أخوه قسم وهو في سفر، فاسترجع ثم تناهى عن الطريق فأناخ، فصلى ركعتين أطال فيهما الجلوس، ثم قام يمشي إلى راحلته وهو يقول: ﴿وَاسْتَعِنُوا بِالصَّابِرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لِكَبِيرٍ﴾ [الإعلى على الخاشعين]. وقال سنيد عن حجاج عن ابن جريج: ﴿وَاسْتَعِنُوا بِالصَّابِرِ وَالصَّلَاةِ﴾ قال إنهم معونتان على رحمة الله. والضمير في قوله: «إنها لكبيرة» عائد إلى الصلاة، نص عليه مجاهد، واختاره ابن جرير. ويحتمل أن يكون عائداً على ما يدل عليه الكلام وهو الوصية بذلك، كقوله تعالى في قصة قارون **﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْعِلْمَ وَبِلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آتَمْ وَعْلَمَ صَاحِحاً وَلَا يَلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾** [القصص: ٨٠] وقال تعالى: **﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسْنَةُ وَلَا السَّيْئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِي حُمَّى﴾** وما يلقاها إلا الذين صرروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم<sup>(٢)</sup> [فصلت: ٣٤ - ٣٥] أي وما يلقى هذه الوصية إلا الذين صرروا وما يلقاها أي يؤتها ويلهمها إلا ذو حظ عظيم. وعلى كل تقدير فقوله تعالى: **﴿وَإِنَّهَا لِكَبِيرٍ﴾** أي مشقة ثقيلة إلا على الخاشعين قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس: يعني المصدقين بما أنزل الله، وقال مجاهد: المؤمنين حقاً، وقال أبو العالية: إلا على الخاشعين الخائفين، وقال مقاتل بن حيان: (إلا الخاشعين) يعني به المتواضعين. وقال الصحاح: (إنها لكبيرة)، قال: إنها لثقلة إلا على الخاضعين لطاعته الخائفين سطوة المصدقين بوعلده ووعيده. وهذا يشبه ما جاء في الحديث «لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله عليه» وقال ابن جرير<sup>(٣)</sup>: معنى الآية: واستعينوا أيها الأخبار من أهل الكتاب بحبس أنفسكم على طاعة الله وبإقامة الصلاة المانعة من الفحشاء والمنكر المقربة من رضا الله، العظيمة إفامتها إلا على الخاشعين أي المتواضعين المستكين لطاعته المتذليلين من مخافته. هكذا قال. والظاهر أن الآية وإن كانت خطابة في سياق إنذاربني إسرائيل، فإنهم لم يقصدوا على سبيل التخصيص، وإنما هي عامة لهم ولغيرهم، والله أعلم.

(١) الحديث ذكره الطبرى معلقاً، دون إسناد. وفيه «أشكنتب دزد». وهو لفظ فارسي بمعنى: تستكى بطنك؟ وثبت هذا اللفظ في رواية البخاري في التاريخ الصغير، ص ٢١٤: «شكם درد» وفي رواية ابن ماجه «اشكمنت درد».

(٢) الطبرى ١ / ٣٠٠.

(٣) في الطبرى: «مراضي الله».

وقوله تعالى: ﴿الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون﴾ هذا من تمام الكلام الذي قبله، أي وإن الصلاة أو الوصاة لثقلة إلا على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم، أي يعلمون أنهم محشورون إليه يوم القيمة معروضون عليه، وأنهم إليه راجعون أي أمرهم راجعة إلى مشيئته يحكم فيها ما يشاء بعده، فلهذا لما أيقنوا بالمعاد والجزاء سهل عليهم فعل الطاعات وترك المتركتات . فأما قوله ﴿يظنون أنهم ملاقوا ربهم﴾ قال ابن جرير<sup>(١)</sup>، رحمة الله: العرب قد تسمى اليقين ظناً، والشك ظناً، نظير تسميتهم الظلمة سدفة، والضياء سدفة، والمغيث صارخاً، والمستغاث صارخاً، وما أشبه ذلك من الأسماء التي يسمى بها الشيء وضده، كما قال دريد بن الصمة: [الطوبل]

فقلت لهم ظنو بألفي مدجج سراتهم في الفارسي المسرد<sup>(١)</sup>

يعني بذلك: تيقنوا بألفي مدجج يأتيكم ، وقول عميرة بن طارق: [الطوبل]

فإن يعبروا قومي وأقعد فيكم وأجعل مني الظن غيّاً مرجماً<sup>(٢)</sup>

يعني ويجعل اليقين غيّاً مرجماً، قال: والشواهد منأشعار العرب وكلامها على أن الظن في معنى اليقين أكثر من أن تحصر ، وفيما ذكرنا لمن وفق لفهمه كفاية ، ومنه قول الله تعالى: ﴿ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها﴾ [الكهف: ٥٣] ثم قال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار حدثنا أبو عاصم حدثنا سفيان عن جابر عن مجاهد: كل ظن في القرآن يقين أي<sup>(٣)</sup> ظنت وظنوا . وحدثني المثنى: حدثنا إسحاق حدثنا أبو داود الح拂ري عن سفيان عن ابن أبي نجيع عن مجاهد، قال: كل ظن في القرآن فهو علم . وهذا سند صحيح . وقال أبو جعفر الرازبي<sup>(٤)</sup> عن الربيع بن أنس عن أبي العالية في قوله تعالى: ﴿الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم﴾ قال: الظن هنا يقين . قال ابن أبي حاتم: وروي عن مجاهد والسدوي والربيع بن أنس وقتادة نحو قول أبي العالية . وقال سنيد عن حجاج عن ابن جريج ﴿الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم﴾ علموا أنهم ملاقوا ربهم كقوله ﴿إني طمنت أني ملاق حسابي﴾ يقول: علمت . وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم . (قلت) وفي الصحيح: أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيمة «ألم أزوّجك ألم أكرمك ألم أسرّ لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع؟» فيقول: بلـي ، فيقول الله تعالى «أطمنت أنك ملاقي؟» فيقول: لا ، فيقول الله «اليوم أنساك كما نسيتني» وسيأتي مبسوطاً عند قوله تعالى ﴿نسوا الله فنسيهم﴾ إن

(١) البيت لدرید بن الصمة في دیوانه ص ٤٧؛ والأصمعیات ص ٢٢؛ والطبری / ١؛ ولسان العرب (ظنن). وبلا نسبة في أسرار العربية ص ١٥٦ . والفارسي المسرد: الدروع الفارسية الجيدة السجع.

(٢) البيت في الطبری / ٣٠٠؛ ونقاوص جریر والفرزدق ص ٥٣؛ والأضداد لابن الأنباری ص ١٢ . والرواية: «بأن تغزوا قومي».

(٣) في الطبری: «إني».

(٤) تفسیر الرازی ٤٨/٣ .

شاء الله تعالى .

يَبْنِ إِنْرَاءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾

يذكرهم تعالى بسالف نعمه إلى آبائهم وأسلافهم، وما كان فضلهم به من إرسال الرسل منهم وإنزال الكتب عليهم وعلى سائر الأمم من أهل زمانهم، كما قال تعالى: «ولقد اخترناهم على علم على العالمين» [الدخان: ٣٢] وقال تعالى: «وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعل لكم ملوكاً وآتاكם مالاً يؤت أحداً من العالمين» [المائدة: ٢٠] قال أبو جعفر الرازى<sup>(١)</sup> عن الربيع بن أنس عن أبي العالية في قوله تعالى: «وأني فضلتكم على العالمين» قال: بما أعطوا من الملك والرسل والكتب على عالم من كان في ذلك الزمان، فإن لكل زمان عالماً. وروي عن مجاهد والربيع بن أنس وقتادة وإسماعيل بن أبي خالد نحو ذلك، ويجب العمل على هذا لأن هذه الأمة أفضل منهم لقوله تعالى، خطاباً لهذه الأمة «كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمورون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتومنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم» [آل عمران: ١١٠] وفي المسانيد والسنن عن معاوية بن حيدة القشيري، قال: قال رسول الله ﷺ: «أنتم توفون سبعين أمة أتمت خيرها وأكرها على الله»، والأحاديث في هذا كثيرة تذكر عند قوله تعالى: «كنتم خير أمة أخرجت للناس» وقيل: المراد تفضيل النوع ما من الفضل على سائر الناس، ولا يلزم تفضيلهم مطلقاً، حكاه الرازى وفيه نظر. وقيل: إنهم فضلوا على سائر الأمم لاشتمال أمتهم على الأنبياء منهم، حكاه القرطبي<sup>(٢)</sup> في تفسيره، وفيه نظر، لأن العالمين عام يشمل من قبلهم ومن بعدهم من الأنبياء، فإبراهيم الخليل قبلهم وهو أفضل من سائر أنبيائهم، ومحمد بعدهم وهو أفضل من جميع الخلق وسيد ولد آدم في الدنيا والآخرة، صلوات الله وسلمه عليه .

وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا يَجِزُّ نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعةً وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنَصَّرُونَ ﴿٤٨﴾

لما ذكرهم تعالى بنعمه أولاً، عطف على ذلك التحذير من طول نقمهم بهم يوم القيمة ، فقال: «وانقوا يوماً» يعني يوم القيمة «لا تجزي نفس عن نفس شيئاً» أي لا يعني أحد عن أحد، كما قال «ولا تزر وازرة وزر أخرى» [الأنعام: ١٦٤] : وقال «لكل امرئ منهم يوماً شأن يغنيه» [عبس: ٣٧] : وقال: «يا أيها الناس انقوا ربكم واخشووا يوماً لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جازٍ عن والده شيئاً» [لقمان: ٣٣] فهذا أبلغ المقامات أن كل من الوالد وولده لا يعني أحدهما عن الآخر شيئاً. قوله تعالى: «ولا يقبل منها شفاعة» يعني من الكافرين كما قال: «فما تنفعهم شفاعة الشافعين» [المدثر: ٤٨] وكما قال عن أهل النار «فما لنا من شافعين

(١) تفسير الرازى ٤٩/٣ .

(٢) تفسير القرطبي ٣٧٦/١ .

ولا صديق حميم》 [الشعراء: ١٠٠] وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أي لا يقبل منها فداء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ﴾ [آل عمران: ٩١] وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنْ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِنْهُ مَعَهُ لِيَفْتَدِوا بِهِ مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا تَقْبِلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٦] وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ٧٠] وقال: ﴿فَالَّذِي لَمْ يَؤْخَذْ مِنْكُمْ فَدِيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ﴾ [الحج: ١٥] . فأخبر تعالى أنهم إن لم يؤمنوا برسوله ويتابعوه على ما بعثه به ووافوا الله يوم القيمة على ما هم عليه فإنه لا ينفعهم قربة قريب ولا شفاعة ذي جاه، ولا يقبل منهم فداء ولو بملء الأرض ذهباً، كما قال تعالى: ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمَ لَا يَبْعِيْ فِيهِ وَلَا خَلْلَةَ وَلَا شَفَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٥٤] وقال: ﴿لَا يَبْعِيْ فِيهِ وَلَا خَلْلَةَ﴾ [إبراهيم: ٣١] قال سعيد: حدثني حجاج حدثني ابن جريج قال: قال مجاهد: قال ابن عباس: ﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ قال: بدل، والبدل: الفدية، وقال السدي: أما عدل؛ فيعدلها، من العدل. يقول: لو جاءت بملء الأرض ذهباً تفتدي به ما تقبل منها<sup>(١)</sup> ، وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم . وقال أبو جعفر الرازبي<sup>(٢)</sup> عن الربيع بن أنس عن أبي العالية في قوله: ﴿وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ يعني فداء<sup>(٢)</sup> . قال ابن أبي حاتم: وروي عن أبي مالك والحسن وسعيد بن جبير وقتادة والربيع بن أنس نحو ذلك، وقال عبد الرزاق: أئبنا الشوري عن الأعمش عن إبراهيم التيمي عن أبيه عن علي رضي الله عنه في حديث طويل، قال: والصرف والعدل: التطوع والفرضية، وكذا قال الوليد بن مسلم عن عثمان بن أبي العاتكة عن عمير بن هانئ وهذا القول غريب ههنا. والقول الأول أظهر في تفسير هذه الآية . وقد ورد حديث يقويه وهو ما قال ابن جرير<sup>(١)</sup> : حدثني نجيح بن إبراهيم حدثنا علي بن حكيم حدثنا حميد بن عبد الرحمن عن أبيه عن عمرو بن قيس الملائي عن رجل من بني أمية، من أهل الشام أحسن عليه الثناء، قال: قيل يا رسول الله، ما العدل؟ قال: «العدل الفدية».

وقوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يَنْصُرُونَ﴾ أي ولا أحد يغضب لهم فينصرهم وينقذهم من عذاب الله، كما تقدم من أنه لا يعطف عليهم ذو قربة ولا ذو جاه، ولا يقبل منهم فداء، هذا كله من جانب التلطيف، ولا لهم ناصر من أنفسهم ولا من غيرهم، كما قال: ﴿فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٌ﴾ [الطارق: ١٠] أي أنه تعالى لا يقبل فيمن كفر به فدية ولا شفاعة ولا ينقذ أحداً من عذابه منتقد، ولا يخلص منه أحد، ولا يغير منه أحد، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ يَغِيْرُ وَلَا يَجْرِيْ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون: ٨٨] وقال: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يَعْذَبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ وَلَا يُوَثِّقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾ [الفجر: ٢٦] وقال: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصِرُونَ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ [الصفات: ٢٥] وقال: ﴿فَلَوْلَا

(١) الطبرى / ٣٠٧ .

(٢) تفسير الرازى / ٣ . ٥١

نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة بل ضلوا عنهم» [الأحقاف: ٢٨] ، وقال الضحاك عن ابن عباس في قوله تعالى: «مالكم لا تناصرون» [الصافات: ٢٥] مالكم اليوم لا تمانعون منا، هيئات ليس ذلك لكم اليوم، قال ابن جرير<sup>(١)</sup>: وتأويل قوله: «ولا هم ينصرون» يعني أنهم يومئذ لا ينصرهم ناصر كما لا يشفع لهم شافع، ولا يقبل منهم عدل ولا فدية، بطلت هنالك المحاباة، واضمحلت الرشا والشفاعات، وارتفاع من القوم التناصر والتعاون، وصار الحكم إلى الجبار العدل الذي لا ينفع لديه الشفاعة والنصراء، فيجزي بالسيئة مثلها، وبالحسنة أضعافها، وذلك نظير قوله تعالى: «وقفوهם إنهم مستولون» ما لكم لا تناصرون بل هم اليوم مستسلمون» [الصافات: ٢٤ - ٢٦]

**وَإِذْ جَنَحَنَّكُمْ مِّنْ أَلِفِ رَعْوَنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَنْثَاءَكُمْ رَيْسَتْهُنَّ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ  
بَلَاءٌ مِّنْ رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ** **وَإِذْ فَرَقْنَا بَيْنَكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَنَّنَّكُمْ وَأَغْرَقْنَا أَلِفَ رَعْوَنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ**

يقول تعالى: اذكروا يابني إسرائيل نعمتي عليكم إذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب، أي خلاصتكم منهم، وأنقذتكم من أيديهم صحبة موسى عليه السلام، وقد كانوا يسومونكم أي يوردونكم ويدقونكم ويولونكم سوء العذاب، وذلك أن فرعون لعنه الله كان قد رأى رؤيا هالته، رأى ناراً خرجت من بيت المقدس فدخلت بيوت القبط ببلاد مصر إلا بيوتبني إسرائيل، مضمنوها أن زوال ملكه يكون على يدي رجل منبني إسرائيل، ويقال بعد تحدث سُمّاره عنده بأنبني إسرائيل يتوقعون خروج رجل منهم يكون لهم به دولة ورفة، وهكذا جاء في حديث الفتون كما سيأتي في موضعه في سورة طه إن شاء الله تعالى، فعند ذلك أمر فرعون لعنه الله بقتل كل ذكر يولد بعد ذلك منبني إسرائيل وأن ترك البنات، وأمر باستعمالبني إسرائيل في مشاق الأعمال وأرذلها، وهنها فسر العذاب بذبح الأبناء، وفي سورة إبراهيم عطف عليه كما قال: «يسومونكم سوء العذاب وينذبحون أبناءكم ويستحبون نساءكم» وسيأتي تفسير ذلك في أول سورة القصص إن شاء الله تعالى، به الثقة والمعرفة والتأيد. معنى يسومونكم: يولونكم، قاله أبو عبيدة، كما يقال: سامه خطة خسف إذا أولاها إليها، قال عمرو بن كلثوم: [الوافر]

إذا ما الملك سام الناس خسفاً أبينا أن نقر الخسف فيما

وقيل معناه: يديمون عذابكم، [والسُّومُ: الدوام]<sup>(٣)</sup> كما يقال: سائمة الغنم من إدامتها الرعي، نقله القرطبي. وإنما قال ههنا: «ينذبحون أبناءكم ويستحبون نساءكم» ليكون ذلك

(١) الطبرى ٣٠٨ / ١.

(٢) البيت لعمرو بن كلثوم في ديوانه ص ٩١؛ والقرطبي ١/ ٣٨٤؛ وتفسير الرازى ٦٣ / ٣ .

(٣) الزيادة من القرطبي.

تفسيرًا للنعمة عليهم في قوله: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ ثم فسره بهذا لقوله هنا: ﴿أَذْكُرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ وأما في سورة إبراهيم فلما قال: ﴿وَذَكْرُهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ [إبراهيم: ٥] أي بأيديه ونعمه عليهم فناسب أن يقول هناك: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَذْبَحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيِيْنَ نِسَاءَكُمْ﴾ [إبراهيم: ٦] فعطف عليه الذبح ليدل على تعدد النعم والأيدي علىبني إسرائيل . وفرعون عَلِمَ على كل من ملك مصر كافراً من العمالق وغيرهم ، كما أن قيسر عَلِمَ على كل من ملك الروم مع الشام كافراً ، وكسرى لمن ملك الفرس ، وتبع لمن ملك اليمن كافراً ، والنجاشي لمن ملك الحبشة ، وبطليموس لمن ملك الهند ، ويقال: كان اسم فرعون الذي كان في زمن موسى عليه السلام الوليد بن مصعب بن الريان ، وقيل مصعب بن الريان ، فكان من سلالة عمليق بن الأود بن إرم بن سام بن نوح ، وكنيته أبو مرة ، وأصله فارسي من اصطخر ، وأيًّا ما كان فعليه لعنة الله .

وقوله تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ قال ابن جرير<sup>(١)</sup>: وفي الذي فعلنا بكم من إنجائناكم<sup>(٢)</sup> مما كنتم فيه من عذاب آل فرعون بلاء لكم من ربكم عظيم ، أي نعمة عظيمة عليكم في ذلك . وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: قوله تعالى: ﴿بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ قال: نعمة<sup>(٣)</sup> . وقال مجاهد ﴿بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ قال: نعمة من ربكم عظيمة<sup>(٤)</sup> . وكذا قال أبو العالية وأبو مالك والسدي وغيرهم . وأصل البلاء الاختبار وقد يكون بالخير والشر كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فَتَنَّا﴾ [الأنياء: ٣٥] وقال: ﴿وَبِلُونَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيَّئَاتِ لِعِلْمِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨] قال ابن جرير: وأكثر ما يقال في الشر: بلوته أبلوه بلاء ، وفي الخير أبلية إبلاء وبلاء ، قال زهير بن أبي سلمى: [الطوبل]

جزى الله بالإحسان ما فعلكم وأبلاهما خير البلاء الذي يبلو<sup>(٥)</sup>

قال<sup>(٤)</sup>: فجمع بين اللغتين لأنه أراد: فأنعم الله عليهم خير النعم التي يختبر بها عباده . وقيل: المراد بقوله: ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ﴾ إشارة إلى ما كانوا فيه من العذاب المهين من ذبح الأبناء واستحياء النساء قال القرطبي<sup>(٥)</sup>: وهذا قول الجمهور ، ولفظه بعد ما حكى القول الأول ، ثم قال: وقال الجمهور: الإشارة إلى الذبح ونحوه ، والبلاء هنا في الشر ، والمعنى: وفي الذبح

(١) تفسير الطبرى / ١ / ٣١٣.

(٢) في الأصل «إنجائنا أباءكم» والتصحيح من الطبرى .

(٣) البيت لزهير بن أبي سلمى في ديوانه ص ١٠٩؛ ولسان العرب (بلاء)؛ وتهذيب اللغة / ١٥ / ٣٩٠؛ مقاييس اللغة / ١ / ٢٩٤؛ وديوان الأدب / ٤ / ١٠٦؛ وタاج العروس (باس)؛ وتفسير الرازى / ٣ / ٦٦؛ والطبرى / ١ / ٣١٤.

(٤) أي ابن جرير الطبرى .

(٥) تفسير القرطبي / ١ / ٣٨٧.

مكروه وامتحان .

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بَكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فَرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظَرُونَ﴾ ، معناه: وبعد أن نقدناكم من آل فرعون وخرجتم مع موسى عليه السلام ، خرج فرعون في طلبكم ففرقنا بكم البحر كما أخبر تعالى عن ذلك مفصلاً كما سيأتي في مواضعه ، ومن أبسطها ما في سورة الشعراء إن شاء الله . ﴿فَأَنْجَيْنَاكُمْ﴾ أي خلصناكم منهم وحزنا بينكم وبينهم وأغرقناهم وأنتم تنظرتون ، ليكون ذلك أشفى لصدوركم وأبلغ في إهانة عدوكم . قال عبد الرزاق : أنبأنا عمر عن أبي إسحاق الهمداني عن عمرو بن ميمون الأودي في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بَكُمُ الْبَحْرَ - إِلَى قَوْلِهِ - وَأَنْتُمْ تَنْظَرُونَ﴾ ، قال : لما خرج موسى بنبني إسرائيل ، بلغ ذلك فرعون ، فقال : لا تتبعوهم حتى تصيغ الديكة ، قال : فوالله ما صاح ليلتند ديك حتى أصبحوا ، فدعا بشاة فذبحت ، ثم قال : لا أفرغ من كبدتها حتى يجتمع إليّ ستمائة ألف من القبط [فلم يفرغ من كبدتها حتى اجتمع إليه ستمائة ألف من القبط]<sup>(١)</sup> ، فلما أتى موسى البحر قال له رجل من أصحابه يقال له يوش بن نون : أين أمرك ربك ؟ قال : أمامك ، يشير إلى البحر ، فأقحم يوش فرسه في البحر حتى بلغ الغمر ، فذهب به الغمر ، ثم رجع فقال : أين أمر ربك يا موسى ؟ فوالله ما كذبت ولا كذبت ، فعل ذلك ثلث مرات . ثم أوحى الله إلى موسى ﴿أَنْ اضْرِبْ بَعْصَاكَ الْبَحْر﴾ ، فضربه فانقلق ، ﴿فَنَكَانَ كُلُّ فَرْقٍ كَالْطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ يقول : مثل الجبل - ثم سار موسى ومن معه ، واتبعهم فرعون في طريقهم حتى إذا تاموا فيه أطبقه الله عليهم ، فلذلك قال : ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فَرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظَرُونَ﴾ . وكذلك قال غير واحد من السلف كما سيأتي بيانه في موضعه . وقد ورد أن هذا اليوم كان يوم عاشوراء ، كما قال الإمام أحمد : حديث عفان حدثنا عبد الوارث حدثنا أئوب عن عبد الله بن سعيد بن جبير عن أبيه عن ابن عباس ، قال : قدم رسول الله ﷺ المدينة فرأى اليهود يصومون يوم عاشوراء ، فقال : «ما هذا اليوم الذي تصومون؟» قالوا : هذا يوم صالح ، هذا يوم نجى الله عز وجل فيهبني إسرائيل من عدوهم ، فصامه موسى عليه السلام ، فقال رسول الله ﷺ : «أنا أحق بموسى منكم» فصامه رسول الله ﷺ وأمر بصومه<sup>(٢)</sup> . وروى هذا الحديث البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجه من طرق عن أئوب السختياني به نحو ما تقدم<sup>(٣)</sup> . وقال أبو يعلى الموصلي : حديثنا أبو الربيع حدثنا سلام يعني ابن سليم عن زيد العمي عن يزيد الرقاشي عن أنس عن النبي ﷺ قال : «فلق الله البحر لبني إسرائيل يوم عاشوراء» وهذا ضعيف من

(١) الزيادة من الطري ٣١٥ / ١.

(٢) مسنـد أـحمد (ج ١ ص ٢٩١).

(٣) وأخرجه البخاري (صوم باب ٦٩ ، وتفسيـر سورة ١٠ بـاب ١) . ومسلم (صيـام حـديث ١٢٦) وابن ماجـه (صيـام بـاب ٤١) .

هذا الوجه ، فإن زيداً العمي<sup>(١)</sup> في ضعف ، وشيخه يزيد الرقاشي<sup>(٢)</sup> أضعف منه .

وَإِذَا وَعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ أَخْدَثْنَاهُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَلَمُونَ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشَكُّرُونَ وَإِذَا أَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ

يقول تعالى : واذكروا نعمتي عليكم في عفو عنكم ، لما عبدتم العجل بعد ذهاب موسى لميقات ربه عند انقضاء أمد الموعدة ، وكانت أربعين يوماً وهي المذكورة في الأعراف في قوله تعالى : «وَوَاعْدَنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمْمَنَا هَا بِعْشَرَ» [الأعراف : ١٤٢] قيل إنها : ذو القعدة بكماله وعشرون من ذي الحجة ، وكان ذلك بعد خلاصهم من فرعون وإنجاشيم من البحر ، وقوله تعالى : «وَإِذَا آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ» يعني التوراة «وَالْفُرْقَانَ» وهو ما يفرق بين الحق والباطل والهدى والضلال «لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ» وكان ذلك أيضاً بعد خروجهم من البحر كما دل عليه سياق الكلام في سورة الأعراف ، ولقوله تعالى : «وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكَنَا الْقَرْوَنَ الْأُولَى بِصَائِرٍ لِلنَّاسِ وَهُدِيَ وَرَحْمَةً لِعَلَّهِمْ يَتَذَكَّرُونَ» [القصص : ٤٣] وقيل : الواو زائدة ، والمعنى : ولقد آتينا موسى الكتاب الفرقان وهذا غريب ، وقيل : عطف عليه وإن كان المعنى واحداً ، كما في قول الشاعر : [الوافر]

وقدمت الأديم لراقيه فألقي قولها كذباً وميئاً<sup>(٣)</sup>  
وقال الآخر : [الطويل]

ألا جذا هند وأرض بها هند وهند أتى من دونها الناي والبعد<sup>(٤)</sup>

فالكذب هو المين ، والناي : هو بعد . وقال عترة : [الكامل]

حييت من طلل تقادم عهده أقوى وأفتر بعد أم الهيثم<sup>(٥)</sup>

(١) هو زيد العمي البصري ، أبو الحواري ، قاضي هرة . أخرج له أبو داود والترمذى والنسائي وابن ماجة . ضعيف . (موسوعة رجال الكتب التسعة ١ / ٥٥٦).

(٢) هو يزيد بن أبان الرقاشي البصري ، القاص . وفاته ما بين ١١٠ و ١٢٠ هـ . أخرج له البخاري في الأدب والترمذى وابن ماجه . ضعيف (موسوعة ٤ / ٢٤٢).

(٣) الرواية المشهورة للبيت :

وقددت الأديم لراقيه وألقي قولها كذباً وميئاً

وهو لعدي بن زيد في ذيل ديوانه ص ١٨٣ ، والأسباب والنظائر ٢١٣ / ٣ ، وجمهرة اللغة ص ٩٩٣ ، والدرر ٦ / ٧٣ ، وشرح شواهد المغني ٢ / ٧٧٦ ، والشعر والشعراء ١ / ٢٣٣ ، ولسان العرب (مين) ، ومعاهد التنصيص ١ / ٣١٠ .

(٤) البيت للخطية في ديوانه ص ٣٩ ، والدرر ٥ / ٢٢١ ، ولسان العرب (ستد ، ناي) ، وبلا نسبة في شرح المفصل ١ / ١٠ ، والصاحب في فقه اللغة ص ٩٧ ، وهمع الهوامع ٢ / ٨٨ ، والقرطبي ١ / ٣٩٩ .

(٥) البيت لعترة في ديوانه ص ١٨٩ ، ولسان العرب (شرع) ، وتهذيب اللغة ١ / ٤٢٤ ، وتاح العروس =

فغضف الإلقاء على الإلقاء وهو هو.

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَقُولُ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاِتَّخَادِكُمُ الْعَجْلَ فَتُوبُوا إِلَيَّ إِلَيْ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ

هذه صفة توبته تعالى على بني إسرائيل من عبادة العجل. قال الحسن البصري رحمه الله في قوله تعالى «وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل» فقال: ذلك حين وقع في قلوبهم من شأن عبادتهم العجل ما وقع حتى قال تعالى: «ولما سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا» [الأعراف: ١٤٩]. قال: فذلك حين يقول موسى «يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل» وقال أبو العالية وسعيد بن جبير والربيع بن أنس «فتوبوا إلى بارئكم» أي إلى خالقكم، قلت: وفي قوله هنا «إلى بارئكم» تنبية على عظم جرمهم، أي فتوبوا إلى الذي خلقكم وقد عبدتم معه غيره. وقد روى النسائي وابن جرير وابن أبي حاتم من حديث يزيد بن هارون عن الأصبغ بن زيد الوراق عن القاسم بن أبي أيوب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، قال: فقال الله تعالى: إن توبتهم أن يقتل كل واحد منهم من لقي من والد ولد فيقتله بالسيف ولا يبالي من قتل في ذلك الموطن، فتاب أولئك الذين كانوا خفي على موسى وهارون ما اطلع الله على ذنوبهم فاعترفوا بها وفعلوا ما أمروا به فغفر الله للقاتل والمقتول. وهذا قطعة من حديث الفتون وسيأتي في سورة طه بكماله إن شاء الله.

وقال ابن جرير: حدثني عبد الكرييم بن الهيثم حدثنا إبراهيم بن بشار حدثنا سفيان بن عيينة قال: قال أبو سعيد عن عكرمة عن ابن عباس، قال: قال موسى لقومه: «فتوبوا إلى بارئكم فاقتلو أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم، فتاب عليكم، إنه هو التواب الرحيم» قال: أمر موسى قومه عن أمر ربه عز وجل أن يقتلو أنفسهم، قال: فاحتبى<sup>(١)</sup> الذين عبدوا العجل فجلسوا وقام الذين لم يعکفوا على العجل فأخذوا الخنجر بأيديهم وأصابتهم ظلمة شديدة، فجعل يقتل بعضهم بعضاً، فانجلت الظلمة عليهم وقد أجلوا عن سبعين ألف قتيل، كل من قتل منهم كانت له توبة، وكل من بقي كانت له توبة. وقال ابن جرير: أخبرني القاسم بن أبي بزة أنه سمع سعيد بن جبير ومجاهداً يقولان في قوله تعالى «فاقتلو أنفسكم» قالا: قام بعضهم إلى بعض بالخنجر يقتل بعضهم بعضاً، لا يحنو رجل على قريب ولا بعيد حتى ألوى<sup>(٢)</sup> موسى بثوبه فطرحوا

= ٢٦٠ / ٢١ (شرع).

(١) في الأصل: «فأخبر» وما أثبتناه عن الطبرى / ٣٢٥. واحتبى: جلس على أليته وضم فخذيه وساقيه إلى بطنه بذراعيه ليستند.

(٢) أي أشار.

ما بأيديهم، فتكتشفَ عن سبعين ألف قتيل، وإن الله أوحى إلى موسى أن حسيبي فقد اكتفيت بذلك حين ألوى موسى بثوبه وروي عن علي رضي الله عنه نحو ذلك. وقال قنادة: أمر القوم بشديد من الأمر فقاموا يتناحرُون بالشفار، يقتل بعضهم بعضاً، حتى بلغ الله فيهم نقمته، فسقطت الشفار من أيديهم، فأمسك عنهم القتل فجعل لحيهم توبة، وللمقتول شهادة. وقال الحسن البصري: أصابتهم ظلمة حندس<sup>(١)</sup>، فقتل بعضهم بعضاً ثم انكشف عنهم فجعل توبتهم في ذلك.

وقال السدي في قوله «فاقتلو أنفسكم» قال: فاجتلد الذين عبدوه والذين لم يعبدوه بالسيوف، فكان من قتل من الفريقين شهيداً حتى كثر القتل حتى كادوا أن يهلكوا حتى قتل منهم سبعون ألفاً وحتى دعا موسى وهارون: ربنا أهلكت بني إسرائيل، ربنا البقية البقية، فأمرهم أن يلقوا السلاح، وتاب عليهم، فكان من قتل منهم من الفريقين شهيداً، ومن بقي مكفرأ عنه، فذلك قوله «فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم» وقال الزهرى: لما أمرت بنو إسرائيل بقتل أنفسها بربوها ومعهم موسى فاضطربوا بالسيوف وتطاعنا بالختاجر، وموسى رافع يديه حتى إذا فتر بعضهم، قالوا: يا نبى الله، ادع الله لنا، وأخذوا بعضاً يسدون يديه، فلم يزل أمرهم على ذلك حتى إذا قبل الله توبتهم قبض أيديهم بعضهم عن بعض فألقوا السلاح وحزن موسى وبنو إسرائيل للذى كان من القتل فيهم، فأوحى الله جل ثناؤه إلى موسى: ما يحزنك، أما من قتل منهم فحي عندي يرزقون، وأما من بقي فقد قبلت توبته، فسر بذلك موسى وبنو إسرائيل، رواه ابن جرير بإسناد جيد عنه<sup>(٢)</sup>. وقال ابن إسحاق: لما رجع موسى إلى قومه وأحرق العجل وذرarah في اليم، خرج إلى ربه بمن اختار من قومه، فأخذتهم الصاعقة، ثم بعثوا، فسأل موسى ربه التوبة لبني إسرائيل من عبادة العجل، فقال: لا إلا أن يقتلوا أنفسهم قال: فبلغني أنهم قالوا لموسى: نصبر لأمر الله فأمر موسى من لم يكن عبد العجل أن يقتل من عبده، فجلسوا بالأفنيّة، وأصلت عليهم القوم السيوف، فجعلوا يقتلونهم، وبكي موسى، وبهش<sup>(٣)</sup> إليه النساء والصبيان يطلبون العفو عنهم، فتاب الله عليهم وعفا عنهم، وأمر موسى أن ترفع عنهم السيوف<sup>(٤)</sup>. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: لما رجع موسى إلى قومه وكانوا سبعين رجلاً قد اعتزلوا مع هارون العجل لم يبعدوه، فقال لهم موسى: انطلقوا إلى موعد ربكم، فقالوا: يا موسى. أما من توبة؟ قال: بلى، «فاقتلو أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم» - الآية: فاخترطوا

(١) ظلمة حندس: شديدة السواد.

(٢) إسناده في الطبرى: حدثنا المشتى، حدثنا أبو صالح، حدثني الليث، حدثني عقيل، عن ابن شهاب.

(٣) بهش إليه: خفت إليه.

(٤) الطبرى ٣٢٧ / ١.

السيوف والجِرَزة<sup>(١)</sup> والخناجر والسكاكين . قال : وبعث عليهم ضبابة ، قال : فجعلوا يتلامسون بالأيدي ويقتل بعضهم بعضاً ، قال : ويلقى الرجل أباه وأخاه فيقتله وهو لا يدري . قال : ويتنادون فيها : رحم الله عبداً صبر نفسه حتى يبلغ الله رضاه ، قال : فقتلتهم شهداء ، وتيب على أحياهم ثم قرأ ﴿نَّابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾ .

وَإِذْ قُلْتُمْ يَمْوُسَى لَنْ تُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ رَأَىَ اللَّهَ جَهَرَةً فَأَخَذْتُمُ الْأَصْعِقَةَ وَأَشْتَمْتُ نَظَرِي وَنَحْنُ ثُمَّ بَعْثَتْنَاكُمْ  
مِّنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعْلَكُمْ تَشْكُرُونَ

يقول تعالى: واذكروا نعمتي عليكم في بعثي لكم بعد الصعق إذا سألكم رؤيتي جهرة عياناً مما لا يستطيع لكم ولا لأمثالكم، كما قال ابن جريج، قال ابن عباس في هذه الآية «وإذا قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله» قال: علانية، وكذا قال إبراهيم بن طهمان عن عباد بن إسحاق عن أبي الحويرث عن ابن عباس، أنه قال في قول الله تعالى «لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة» أي علانية، أي حتى نرى الله. وقال قتادة والربيع بن أنس «حتى نرى الله جهرة» أي عياناً. وقال أبو جعفر عن الربيع بن أنس: هم السبعون الذين اختارهم موسى فساروا معه، قال: فسمعوا كلاماً، فقالوا «لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة» قال: فسمعوا صوتاً فصعقوا يقول: ماتوا. وقال مروان بن الحكم، فيما خطب به على منبر مكة: الصاعقة صيحة من السماء. وقال السدي في قوله «فأخذتكم الصاعقة» الصاعقة: نار. وقال عروة بن رويم في قوله «وأنتم تنتظرون» قال: صعق بعضهم وبعض ينظرون، ثم بعث هؤلاء وصعق هؤلاء. وقال السدي «فأخذتكم الصاعقة» فماتوا، فقام موسى يبكي ويذعن الله، ويقول: رب ماذا أقول لبني إسرائيل إذا أتيتهم وقد أهلكت خيارهم «لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي أتهلكتنا بما فعل السفهاء منا» [الأعراف: ١٥٥] فأوحى الله إلى موسى أن هؤلاء السبعين ممن اتخذوا العجل. ثم إن الله أحياهم فقاموا وعاشاوا رجل رجل، ينظر بعضهم إلى بعض كيف يحيون؟ قال: فذلك قوله تعالى: «ثم بعثناكم من بعد الموت ليستوفوا آجالهم، وكذا قال قتادة، وقال ابن جريج: حدثنا عقوبة لهم ببعثوا من بعد الموت ليستوفوا آجالهم، وقال الربيع بن أنس كان موتهم محمد بن حميد حدثنا سلمة بن الفضل عن محمد بن إسحاق، قال: لما رجع موسى إلى قومه فرأى ما هم عليه من عبادة العجل، وقال لأخيه وللسامي ما قال، وحرق العجل وذرarah في اليم، اختار موسى منهم سبعين رجلاً الخير فالخير، وقال: انطلقوا إلى الله وتوبوا إلى الله مما صنعتم، وأسألوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم، صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم. فخرج بهم إلى طور سيناء لميقات وقته له ربه، وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعلم، فقال له السبعون - فيما ذكر لي - حين صنعوا ما أمروا به، وخرجوا للقاء ربّه، قالوا: يا موسى، اطلب لنا إلى ربك نسمع

(١) الجرز: عمود من حديد، وهو سلاح يقاتل به.

كلام ربنا، فقال: أفعل، فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود من<sup>(١)</sup> الغمام حتى تغشى الجبل كله، ودنا موسى فدخل فيه، وقال للقوم: ادروا، وكان موسى إذا كلمه الله وقع على جبهته نور ساطع لا يستطيع أحد منبني آدم أن ينظر إليه، فضرب دونه بالحجاب، ودنا القوم حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجوداً فسمعوا وهو يكلم موسى يأمره وينهاه: افعل ولا تفعل، فلما فرغ إليه من أمره انكشف عن موسى الغمام، فأقبل إليهم، فقالوا لموسى ﴿لَنْ تؤْمِنَ لَكَ حَتَّى ترَى اللَّهَ جَهَرًا﴾ فأخذتهم الرجفة وهي الصاعقة، فماتوا جميعاً، وقام موسى يناديه ربه ويدعوه ويرغب إليه ويقول ﴿رَبُّ لَوْ شَاءْ أَهْلَكْتَهُمْ مِّنْ قَبْلِ إِلَيَّ أَيْ﴾ قد سفهوا، أفتلهك من ورائي منبني إسرائيل بما فعل السفهاء مثنا؟ أي إن هذا لهم هلاك واخترت منهم سبعين رجلاً الخير فالخير، أرجع إليهم وليس معهم رجل واحد، فما الذي يصدقونني به ويؤمنونني عليه بعد هذا؟ ﴿إِنَا هَدَنَا إِلَيْكَ﴾ فلم يزل موسى يناديه ربه عز وجل ويطلب إليه حتى رد إليهم أرواحهم، وطلب إليه التوبة لبني إسرائيل من عبادة العجل، فقال: لا، إلا أن يقتلوا أنفسهم - هذا سياق محمد بن إسحاق<sup>(٢)</sup>. وقال إسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير<sup>(٣)</sup>: لما تابت بنو إسرائيل من عبادة العجل، وتتاب الله عليهم بقتل بعضهم لبعض كما أمرهم الله به، أمر الله موسى أن يأتيه في كل أناس منبني إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل وواعدهم موسى، فاختار موسى سبعين رجلاً على عينه، ثم ذهب بهم ليعتذروا. وساق البقية، وهذا السياق يقتضي أن الخطاب توجه إلىبني إسرائيل في قوله ﴿وَإِذْ قَلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ تؤْمِنَ لَكَ حَتَّى ترَى اللَّهَ جَهَرًا﴾ والمراد السبعون المختارون منهم ولم يحك كثير من المفسرين سواه. وقد أغرب الرازي في تفسيره حين حكى في قصة هؤلاء السبعين: أنهم بعد إحياءهم قالوا: يا موسى إنك لا تطلب من الله شيئاً إلا أعطاك، فادعه أن يجعلنا أحياء، فدعا بذلك فأجاب الله دعوته<sup>(٤)</sup>. وهذا غريب جداً إذ لا يعرف في زمان موسى نبي سوي هارون ثم يوشع بن نون، وقد غلط أهل الكتاب أيضاً في دعواهم أن هؤلاء رأوا الله عز وجل، فإن موسى الكليم عليه السلام قد سأله ذلك فمنع منه فكيف يناله هؤلاء السبعون؟

القول الثاني في الآية: قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في تفسير هذه الآية: قال لهم موسى لما رجع من عند ربه بالألواح قد كتب فيها التوراة فوجدهم يعبدون العجل، فأمرهم بقتل أنفسهم ففعلوا، فتاب الله عليهم، فقال: إن هذه الألواح فيها كتاب الله فيه أمركم الذي أمركم به

(١) الطبرى ٣٣١/١.

(٢) الزيادة من الطبرى والرازي.

(٣) أخرجه الطبرى عن موسى بن هارون، عن عمرو بن حماد، عن أسباط بن نصر، عن السدى.

(٤) تفسير الرازي ٣/٧٩. والأثر يرويه الرازي من قول السدى، بلا إسناد. ورواه الطبرى عن موسى بن هارون عن عمرو بن حماد عن أسباط بن نصر عن السدى.

ونهيكم الذي نهاكم عنه. فقالوا: ومن يأخذك بقولك أنت؟ لا والله حتى نرى الله جهرة حتى يطلع الله علينا فيقول: هذا كتابي فخذوه، فما له لا يكلمنا كما يكلمك أنت يا موسى، وقرأ قول الله ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهَرًا﴾ قال: فجاءت غضبة من الله فجاءتهم صاعقة بعد التوبة فصعقتهم فماتوا أجمعون، قال: ثم أحياهم الله من بعد موتهم، وقرأ قول الله ﴿ثُمَّ بَعْثَانَا مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لِعَلَّكُمْ تَشَكَّرُونَ﴾ فقال لهم موسى: خذوا كتاب الله، فقالوا: لا، فقال: أي شيء أصابكم؟ فقالوا: أصابنا أنا متنا ثم أحينا، قال: خذوا كتاب الله، قالوا: لا، فبعث الله ملائكة ففتقت<sup>(١)</sup> الجبل فوقهم. وهذا السياق يدل على أنهم كلفوا بعد ما أحياوا. وقد حكى الماوردي في ذلك قولين: أحدهما: أنه سقط التكليف عنهم لمعاييرتهم الأمر جهرة حتى صاروا مضطربين إلى التصديق، والثاني: أنهم مكلفون ثلاثة يخلو عاقل من تكليف، قال القرطبي<sup>(٢)</sup>: وهذا هو الصحيح لأن معاييرهم للأمور الفظيعة لا تمنع تكليفهم لأنبني إسرائيل قد شاهدوا أموراً عظاماً من خوارق العادات، وهم في ذلك مكلفون وهذا واضح، والله أعلم.

وَظَلَّلَنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلَنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلَوَىٰ كُلُّوا مِنْ طَيْبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَّمُونَا وَلَكُنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ

لما ذكر تعالى ما دفعه عنهم من النقم، شرع يذكرهم أيضاً بما أسيغ عليهم من النعم، فقال: **﴿وَظَلَّلَنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَام﴾** وهو جمع غمام، سمي بذلك لأنه يغم السماء أي يواريها ويسترها، وهو السحاب الأبيض ظللوا به في النtie ليقيهم حر الشمس، كما رواه النسائي وغيره عن ابن عباس في حديث الفتون، قال: ثم ظلل عليهم في النtie بالغمام. قال ابن أبي حاتم: وروي عن ابن عمر والربيع بن أنس وأبي مجلز والضحاك والسدي نحو قول ابن عباس. وقال الحسن وقتادة **﴿وَظَلَّلَنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَام﴾** كان هذا في البرية، ظلل عليهم الغمام من الشمس. وقال ابن جرير: قال آخرون: وهو غمام أبرد من هذا وأطيب. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا أبو حذيفة حدثنا شب عن ابن أبي نجيع عن مجاهد **﴿وَظَلَّلَنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَام﴾** قال، ليس بالسحاب هو الغمام الذي يأتي الله فيه يوم القيمة ولم يكن إلا لهم. وهكذا رواه ابن جرير عن المثنى بن إبراهيم عن أبي حذيفة<sup>(٣)</sup>، وكذا رواه الثوري وغيره عن ابن أبي نجيع عن مجاهد وكأنه يزيد، والله أعلم، أن ليس من زمي هذا السحاب بل أحسن منه وأطيب وأبهى منظراً، كما قال سنيد في تفسيره عن حجاج بن محمد عن ابن جريج، قال: قال ابن عباس **﴿وَظَلَّلَنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَام﴾** قال: غمام أبرد من هذا وأطيب وهو الذي يأتي الله فيه في قوله: **﴿هَلْ يَنْظَرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظَلَّلٍ﴾**

(١) نتفت الجبل: رفعته من مكانه لترمي به. أو: هرَّته ونفضته.

(٢) تفسير القرطبي ٤٠٥ / ١. وما حكاه الماوردي نقله القرطبي.

(٣) الطبرى ٢٣٣ / ١.

من الغمام والملائكة» [البقرة: ٢١٠] وهو الذي جاءت فيه الملائكة يوم بدر. قال ابن عباس وكان معهم في التيه<sup>(١)</sup>.

وقوله تعالى: «وأنزلنا عليكم المن» اختلفت عبارات المفسرين في المن ما هو؟ فقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: كان المن ينزل عليهم على الأشجار، فيغدون إليه، فإذا كانوا منه ما شاؤوا. وقال مجاهد: المن: صمة، وقال عكرمة: المن: شيء أنزله الله عليهم مثل الطل شبـه الرـبـ الغـليـظـ، وقال السـديـ، قالـواـ: يا مـوسـىـ، كـيفـ لـنـاـ بـمـاـ هـنـاـ، أـيـ الطـعـامـ؟ فأـنـزـلـ اللـهـ عـلـيـهـمـ الـمـنـ، فـكـانـ يـسـقـطـ عـلـىـ شـجـرـةـ الزـنـجـبـيلـ، وـقـالـ قـتـادـةـ: كـانـ الـمـنـ يـنـزـلـ عـلـيـهـمـ فـلـوـعـ الفـجـرـ إـلـىـ مـحـلـهـمـ سـقـوطـ الثـلـاجـ أـشـدـ بـيـاضـاـ مـنـ الـلـبـنـ وـأـحـلـىـ مـنـ الـعـسلـ، يـسـقـطـ عـلـيـهـمـ مـنـ طـلـوعـ الشـمـسـ، يـأـخـذـ الرـجـلـ مـنـهـمـ قـدـرـ مـاـ يـكـفـيـهـ يـوـمـ ذـلـكـ، فـإـذـاـ تـعـدـيـ ذـلـكـ فـسـدـ وـلـمـ يـقـ، حـتـىـ كـانـ يـوـمـ سـادـسـهـ يـوـمـ جـمـعـتـهـ أـخـذـ مـاـ يـكـفـيـهـ لـيـوـمـ سـادـسـهـ وـيـوـمـ سـابـعـهـ لـأـنـهـ كـانـ يـوـمـ عـيـدـ لـاـ يـشـخـصـ فـيـ لـأـمـرـ مـعـيـشـتـهـ وـلـاـ يـطـلـبـهـ لـشـيءـ، وـهـذـاـ كـلـهـ فـيـ الـبـرـيـةـ. وـقـالـ الـرـبـيـعـ بـنـ أـنـسـ: الـمـنـ شـرـابـ كـانـ يـنـزـلـ عـلـيـهـمـ مـثـلـ الـعـسلـ فـيـ مـيـزـجـونـهـ بـالـمـاءـ ثـمـ يـشـرـبـونـهـ. وـقـالـ وـهـبـ بـنـ مـنـبـهـ، وـسـئـلـ عـنـ الـمـنـ، فـقـالـ: خـبـزـ رـاقـقـ مـثـلـ الذـرـةـ أـوـ مـثـلـ النـقـىـ، وـقـالـ أـبـوـ جـعـفـرـ بـنـ جـرـيرـ حـدـثـيـ مـحـمـدـ بـنـ إـسـحـاقـ حـدـثـاـ أـبـوـ أـحـمـدـ حـدـثـاـ إـسـرـائـيلـ عـنـ جـاـبـرـ عـنـ عـامـرـ، وـهـوـ الشـعـبـيـ، قـالـ: عـسـلـكـمـ هـذـاـ جـزـءـ مـنـ سـبـعـينـ جـزـءـاـ مـنـ الـمـنـ، وـكـذـاـ قـالـ عـبـدـ الرـحـمـنـ بـنـ زـيـدـ بـنـ أـسـلـمـ: أـنـ الـعـسلـ، وـوـقـعـ فـيـ شـعـرـ أـمـيـةـ بـنـ أـبـيـ الـصـلـتـ حـيـثـ قـالـ: [الـخـفـيفـ]

فـرـأـيـ اللـهـ أـنـهـ مـبـضـيـعـ  
لـاـ بـذـيـ مـزـرـعـ وـلـاـ مـثـمـورـاـ  
فـسـنـاهـاـ عـلـيـهـمـ غـادـيـاتـ  
وـتـرـىـ مـزـنـهـمـ خـلـاـيـاـ وـخـورـاـ  
عـسـلـاـ نـاطـفـاـ وـمـاءـ فـرـاتـاـ  
وـحـلـيـباـ ذـاـ بـهـجـةـ مـزـمـورـاـ<sup>(٢)</sup>

فالناطف هو السائل والحليب المزמור الصافي منه، والغرض أن عبارات المفسرين متقاربة في شرح المن، فمنهم من فسره بالطعام، ومنهم من فسره بالشراب، والظاهر، والله أعلم، أنه كل ما امتن الله به عليهم من طعام وشراب وغير ذلك مما ليس لهم فيه عمل ولا كد، فالمن المشهور إن أكل وحده كان طعاماً وحلوة، وإن مزج مع الماء صار شراباً طيباً، وإن ركب مع

(١) الطبرى / ١٣٣.

(٢) كما أيضاً رواية الآيات الثلاثة في مخطوط تفسير الطبرى وفي ديوان أمية بن أبي الصلت ص ٣٤ - ٣٥. وقد اختار محقق طبعة دار المعارف في تفسير الطبرى الاستاذ محمود محمد شاكر أن يثبت النص التالي، استناداً إلى اجتهاد وتعليق من عنده:

رـأـيـ اللـهـ أـنـهـ مـبـضـيـعـ  
نـسـاـهـاـ عـلـيـهـمـ غـادـيـاتـ  
لـاـ نـاطـفـاـ وـمـاءـ فـرـاتـاـ  
لـاـ بـذـيـ مـزـرـعـ وـلـاـ مـغـمـورـاـ  
وـمـرـىـ مـزـنـهـمـ خـلـاـيـاـ وـخـورـاـ  
وـحـلـيـباـ ذـاـ بـهـجـةـ مـثـمـورـاـ

انظر تفسير الطبرى ٩٤ / ٢ - ٩٥ ، الحواشى.

غيره صار نوعاً آخر، ولكن ليس هو المراد من الآية وحده، والدليل على ذلك قول البخاري: حدثنا أبو نعيم حدثنا سفيان عن عبد الملك عن عمرو بن حريث عن سعيد بن زيد رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ: «الكمأة من الممن وماؤها شفاء للعين»<sup>(١)</sup> وهذا الحديث رواه الإمام أحمد عن سفيان بن عيينة عن عبد الملك وهو ابن عمير به<sup>(٢)</sup>، وأخرجه الجماعة في كتبهم، إلا أبا داود، من طرق عن عبد الملك وهو ابن عمير به، وقال الترمذى: حسن صحيح<sup>(٣)</sup>، ورواه البخاري ومسلم من رواية الحكم عن الحسن العرنى عن عمرو بن حريث به، وقال الترمذى: حدثنا أبو عبيدة بن أبي السفر ومحمد بن غيلان، قالا: حدثنا سعيد بن عامر عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «العجوة من الجنّة، وفيها شفاء من السنم، والكمأة من الممن، وماؤها شفاء للعين» تفرد بإخراجه الترمذى ثم قال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث محمد بن عمرو وإنما من حديث سعيد بن عامر عنه. وفي الباب عن سعيد بن زيد وأبي سعيد وجابر - كذا قال - وقد رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسيره من طريق آخر عن أبي هريرة، فقال: حدثنا أحمد بن الحسن بن أحمد البصري، حدثنا أسلم بن سهل حدثنا القاسم بن عيسى حدثنا طلحة بن عبد الرحمن عن قتادة عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الكمأة من الممن، وماؤها شفاء للعين» وهذا حديث غريب من هذا الوجه وطلحة بن عبد الرحمن هذا السلمي الواسطي يكنى بأبي محمد وقيل: أبو سليمان المؤدب، قال فيه الحافظ أبو أحمد بن عدي: روى عن قتادة أشياء لا يتبع عليها. ثم قال الترمذى: حدثنا محمد بن بشار حدثنا معاذ بن هشام حدثنا أبي عن قتادة عن شهر بن حوشب عن أبي هريرة: أن ناساً من أصحاب النبي ﷺ قالوا: الكمة جدرى الأرض فقال النبي ﷺ: «الكمأة من الممن وماؤها شفاء للعين والعجوة من الجنّة وهي شفاء من السنم» وهذا الحديث قد رواه النسائي عن محمد بن بشار به، وعنه عن غندر عن شعبة عن أبي بشر جعفر بن أبياس عن شهر بن حوشب عن أبي هريرة به، وعن محمد بن بشار عن عبد الأعلى عن خالد الحذاء عن شهر بن حوشب بقصة الكمة فقط. وروى النسائي أيضاً وابن ماجه من حديث محمد بن بشار عن أبي عبد الصمد عبد العزيز بن عبد الصمد عن مطر الوراق عن شهر: بقصة العجوة عند النسائي، وبالقصتين عند ابن ماجه، وهذه الطريق منقطعة بين شهر بن حوشب وأبي هريرة، فإنه لم يسمع منه بدليل ما رواه النسائي في الوليمة من سنته عن علي بن الحسين

(١) صحيح البخاري (تفسير سورة ٢ ب ٤، وسورة ٧ باب ٢؛ وطبع باب ٢٠).

(٢) وأخرجه أحمد من حديث أبي هريرة (المسند ج ٢ ص ٣٠١) ومن حديث سعيد بن زيد (ج ١ ص ١٨٧).

ومن حديث جابر بن عبد الله وأبي سعيد الخدري (ج ٢ ص ٤٨).

(٣) الترمذى (طبع باب ٢٢).

الدرهمي عن عبد الأعلى عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن غنم عن أبي هريرة، قال: خرج رسول الله ﷺ وهم يذكرون الكلمة وبعضهم يقول: جدرى الأرض، فقال «الكلمة من المرن، وماؤها شفاء للعين» وروي عن شهر بن حوشب عن أبي سعيد وجابر كما قال الإمام أحمد: حدثنا أسباط بن محمد حدثنا الأعمش عن جعفر بن إياس عن شهر بن حوشب عن جابر ابن عبد الله وأبي سعيد الخدري، قالا: قال رسول الله ﷺ «الكلمة من المرن، وماؤها شفاء للعين، والعجوة من الجنة، وهي شفاء من السم» وقال النسائي في الوليمة أيضاً: حدثنا محمد بن بشار حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن أبي بشر جعفر بن إياس عن شهر بن حوشب عن أبي سعيد وجابر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «الكلمة من المرن، وماؤها شفاء للعين» ثم رواه أيضاً ابن ماجه من طرق الأعمش عن أبي بشر عن شهر عنهما به، وقد رويـاـ أعني النسائي من حديث جرير وابن ماجه من حديث سعيد ابن أبي سلمة - كلاهما عن الأعمش عن جعفر بن إياس عن أبي نصرة عن أبي سعيد رواه النسائي وحديث جابر عن النبي ﷺ قال «الكلمة من المرن وماؤها شفاء للعين» ورواه ابن مردوهـ عنـ أـحمدـ بنـ عـثمانـ عنـ عـباسـ الدـوريـ عنـ لـاحـقـ بـنـ صـوـابـ عنـ عـمـارـ بـنـ زـرـيقـ عـنـ الأـعمـشـ كـابـنـ مـاجـهـ،ـ وـقـالـ اـبـنـ مـرـدـوـهـ أـيـضاـ:ـ حـدـثـنـاـ أـحـمـدـ بـنـ عـثـمـانـ حـدـثـنـاـ عـبـاسـ الدـوريـ حـدـثـنـاـ الـحـسـنـ بـنـ الرـبـيعـ حـدـثـنـاـ أـبـوـ الـأـحـوـصـ عـنـ الـأـعـمـشـ عـنـ الـمـنـهـالـ بـنـ عـمـرـوـ عـنـ عـبـدـ الرـحـمـنـ بـنـ أـبـيـ لـيـلـىـ عـنـ أـبـيـ سـعـيدـ الـخـدـريـ،ـ قـالـ خـرـجـ عـلـيـنـاـ رـسـوـلـ اللهـ ﷺـ وـفـيـ يـدـهـ كـمـاتـ،ـ فـقـالـ «ـالـكـلـمـةـ مـنـ الـمـرـنـ،ـ وـمـاـؤـهـاـ شـفـاءـ لـلـعـيـنـ»ـ وـأـخـرـجـهـ النـسـائـيـ عـنـ عـمـرـوـ بـنـ مـنـصـورـ عـنـ الـحـسـنـ بـنـ الـرـبـيعـ بـهـ؛ـ ثـمـ اـبـنـ مـرـدـوـهـ رـوـاهـ أـيـضاـ عـنـ عـبـدـ اللهـ بـنـ إـسـحـاقـ عـنـ الـحـسـنـ بـنـ سـلـامـ عـنـ عـبـدـ اللهـ بـنـ مـوسـىـ،ـ عـنـ شـيـيـانـ عـنـ الـأـعـمـشـ بـهـ،ـ وـكـذـاـ رـوـاهـ النـسـائـيـ عـنـ أـحـمـدـ بـنـ عـشـمـانـ بـنـ حـكـيـمـ عـنـ عـبـدـ اللهـ بـنـ مـوسـىـ،ـ وـقـدـ رـوـيـ منـ حـدـثـنـاـ أـنـسـ بـنـ مـالـكـ رـضـيـ اللهـ عـنـهـ،ـ كـمـاـ قـالـ اـبـنـ مـرـدـوـهـ:ـ حـدـثـنـاـ مـحـمـدـ بـنـ عـبـدـ اللهـ بـنـ إـبـراهـيمـ حـدـثـنـاـ حـمـدـونـ بـنـ أـحـمـدـ حـدـثـنـاـ حـوـثـرـةـ بـنـ أـشـرـسـ حـمـادـ عـنـ شـعـيبـ بـنـ الـجـبـحـابـ عـنـ أـنـسـ:ـ أـنـ أـصـحـابـ رـسـوـلـ اللهـ ﷺـ تـدـارـأـوـاـ فـيـ الشـجـرـةـ الـتـيـ اـجـتـسـتـ مـنـ فـوـقـ الـأـرـضـ مـاـ لـهـاـ مـنـ قـرـارـ،ـ فـقـالـ بـعـضـهـ الـكـلـمـةـ،ـ فـقـالـ رـسـوـلـ اللهـ ﷺـ «ـالـكـلـمـةـ مـنـ الـمـرـنـ،ـ وـمـاـؤـهـاـ شـفـاءـ لـلـعـيـنـ،ـ وـالـعـجـوـةـ مـنـ الـجـنـةـ،ـ وـفـيـهـ شـفـاءـ مـنـ السـمـ»ـ وـهـذـاـ حـدـثـ مـحـفـوظـ أـصـلـهـ مـنـ روـاـيـةـ حـمـادـ بـنـ سـلـمـةـ.ـ وـقـدـ روـيـ التـرمـذـيـ وـالـنـسـائـيـ مـنـ طـرـيقـهـ شـيـئـاـ مـنـ هـذـاـ،ـ وـالـلـهـ أـعـلـمـ.ـ وـرـوـيـ عـنـ شـهـرـ بـنـ عـبـاسـ كـمـاـ روـاهـ النـسـائـيـ أـيـضاـ فـيـ الـوـلـيـمـةـ عـنـ أـبـيـ بـكـرـ أـحـمـدـ بـنـ عـلـيـ بـنـ سـعـيدـ عـنـ عـبـدـ اللهـ بـنـ عـوـنـ الـخـرـازـ عـنـ أـبـيـ عـبـدـةـ الـحـدـادـ عـنـ عـبـدـ الـجـلـيلـ بـنـ عـطـيـةـ عـنـ شـهـرـ عـنـ عـبـدـ اللهـ بـنـ عـبـاسـ عـنـ النـبـيـ ﷺـ قـالـ «ـالـكـلـمـةـ مـنـ الـمـرـنـ،ـ وـمـاـؤـهـاـ شـفـاءـ لـلـعـيـنـ»ـ وـقـدـ اـخـتـلـفـ كـمـاـ تـرـىـ فـيـهـ عـلـىـ شـهـرـ بـنـ حـوشـبـ وـيـحـتـملـ عـنـدـيـ أـنـ حـفـظـهـ وـرـوـاهـ مـنـ هـذـهـ الـطـرـقـ كـلـهـاـ،ـ وـقـدـ سـمـعـهـ مـنـ بـعـضـ الصـحـابـةـ وـبـلـغـهـ عـنـ بـعـضـهـمـ،ـ

فإن الأسانيد إليه جيدة، وهو لا يعتمد الكذب، وأصل الحديث محفوظ عن رسول الله ﷺ كما تقدم من رواية سعيد بن زيد رضي الله عنه.

وأما السلوى، فقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: السلوى طائر شبه بالسماني، كانوا يأكلون منه. وقال السدي في خبر، ذكره عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة: السلوى طائر يشبه السماني، وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح حدثنا عبد الصمد بن الوارث حدثنا قرة بن خالد عن جهضم عن ابن عباس، قال: السلوى هو السماني، وكذا قال مجاهد والشعبي والضحاك والحسن وعكرمة والربيع بن أنس رحمهم الله تعالى. وعن عكرمة: أما السلوى فطير كطير يكون بالجنة أكبر من العصفور أو نحو ذلك. وقال قتادة: السلوى كان من طير أقرب إلى الحمراء تحشرها عليهم الريح الجنوب وكان الرجل يذبح منها قدر ما يكتفيه يومه ذلك فإذا تعدى فسد ولم يبق عنده حتى إذا كان يوم سادسه ليوم جمعته أخذ ما يكتفيه ليوم سادسه ويوم سابعه لأنه كان يوم عبادة لا يشخون فيه لشيء ولا يطلبه. وقال وهب بن منبه: السلوى طير سمين مثل الحمامات كان يأتيهم فيأخذون منه من سبت إلى سبت. وفي رواية عن وهب قال: سألت بنو إسرائيل موسى عليه السلام لحماً فقال الله لأطعمنهم من أقل لحم يعلم في الأرض فأرسل عليهم ريحًا فأذرت عند مساكنهم السلوى وهو السماني مثل ميل في ميل قيد رمح إلى السماء فخأوا للغد فتن اللحم وختر<sup>(١)</sup> الخبر، وقال السدي: لما دخل بنو إسرائيل التي قالوا لموسى عليه السلام: كيف لنا بما ه هنا؟ أين الطعام؟ فأنزل الله عليهم المن فكان ينزل على شجر الزنجيل، والسلوى وهو طائر ليشبه السماني أكبر منه فكان يأتي أحدهم فينظر إلى الطير فإن كان سميًّا ذبحه وإلا أرسله فإذا سمن أتاهم، فقالوا: هذا الطعام. فأين الشراب؟ فأمر موسى فضرب بعصاص الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً فشرب كل سبط من عين، فقالوا: هذا الشراب فأين الظل؟ فظلل عليهم الغمام، فقالوا: هذا الظل فأين اللباس؟ فكانت ثيابهم تطول معهم كما تطول الصبيان ولا ينحرق لهم ثوب، فذلك قوله تعالى «وَظَلَلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامُ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَ وَالسَّلْوَى» [الأعراف: ١٦] وقوله: «وَإِذَا سَتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقَلَّتِ الْأَرْضُ مَفْسَدِينَ» [البقرة: ٦٠] علم كل أناس مشربهم كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثروا في الأرض مفسدين<sup>[١]</sup> غلط الهذلي في قوله أنه العسل وأنشد في ذلك مستشهاداً: [الطوبل]

(١) خنز الخبر: أتن.

وَقَاسِمُهَا بِاللَّهِ جَهْدًا لَأَنْتُمْ أَلَذُّ مِنَ السَّلْوَى إِذَا مَا أَشُورُهَا<sup>(١)</sup>

قال: فظن أن السلوى عسلًا، قال القرطبي: دعوى الإجماع لا تصح لأن المؤرخ<sup>(٢)</sup> أحد علماء اللغة والتفسير قال إنه العسل، واستدل بيت الهذلي هذا، وذكر أنه كذلك في لغة كنانة لأنه يسلّي به ومنه عين سلوان<sup>(٣)</sup>، وقال الجوهرى: السلوى: العسل، واستشهد بيت الهذلي أيضًا، والسلوانة بالضم خرزة كانوا يقولون إذا صب عليها ماء المطر فشربها العاشق سلا، قال الشاعر: [الطوويل]

شربت على سلوانة ماء مزنة      فلا وجديد العيش يامي ما أسلو<sup>(٤)</sup>  
واسم ذلك الماء السلوان، وقال بعضهم: السلوان دواء يشفى<sup>(٥)</sup> الحزين فيسلوا والأطباء  
يسمونه (مفرج). قالوا: والسلوى جمع بلفظ الواحد أيضًا كما يقال: سمانى للمفرد والجمع  
وويلي كذلك<sup>(٦)</sup>، وقال الخليل: واحده سلوا، وأشد: [الطوويل]

وإنني لتعروني لذكرك هزة      كما انتفض السلوة من بلل القطر<sup>(٧)</sup>

وقال الكسائي: السلوى واحدة وجمعه سلاوى، نقله كله القرطبي<sup>(٨)</sup>. قوله تعالى: ﴿كُلُّهُمْ مِنْ طَيَّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أمر بإباحة وإرشاد وامتنان، قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَا وَلَكُنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلَمُونَ﴾ أي أمرناهم بالأكل مما رزقناهم وأن يعبدوا كما قال ﴿كُلُّهُمْ مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَأَشْكَرُوا لَهُ﴾ فخالفوا وكفروا فظلموا أنفسهم هذا مع ما شاهدوه من الآيات البينات والمعجزات القاطعات، وخوارق العادات، ومن هنا تبين فضيلة أصحاب محمد ﷺ ورضي الله عنهم علىسائر أصحاب الأنبياء في صبرهم وثباتهم وعدم تعنتهم مع ما كانوا معه في أسفاره وغزواته منها عام تبوك في ذلك القيط والحر الشديد والجهد لم يسألوا خرق عادة ولا إيجاد أمر مع أن ذلك

(١) المشهور «نشورها» في موضع «أشورها». والبيت لخالد بن زهير في شرح أشعار الهذلين ص ٣١٥ ولسان العرب (سلا)، وтاج العروس (شور، سلا)؛ وتهذيب اللغة ٦٩/١٣؛ والمخصص ١٥/٥؛ وبلا نسبة في كتاب العين ٧/٢٩٨.

(٢) هو مؤرج بن عمر الدوسى المتوفى سنة ١٩٥ هـ. كان من أصحاب الخليل بن أحمد.

(٣) عين سلوان: عين نضاحة يتبرك بها ويستشفى منها باليت المقدس.

(٤) البيت بلا نسبة في لسان العرب (سلا)؛ وتهذيب اللغة ٦٨/١٣؛ ومجمل اللغة ٣/٨٢، وтاج العروس (سلا)، والقرطبي (٤٠٨/١).

(٥) في القرطبي «يُسْقاَه».

(٦) عبارة «وويلي كذلك» غير موجودة في القرطبي.

(٧) البيت منسوب لأبي صخر الهذلي برواية: «كما انتفض العصفور بِلَّهِ القطر»، في الأغاني ١٦٩/٥ والإنساف ١/٢٥٣؛ وخزانة الأدب ٣/٢٥٤؛ الدرر ٣/٧٩؛ وشرح أشعار الهذلين ٢/٩٥٧؛ ولسان العرب (رمث)؛ والمقاديد التجوية ٣/٦٧.

(٨) تفسير القرطبي ١/٤٠٧ — ٤٠٨.

كان سهلاً على النبي ﷺ لكن لما أجهدهم الجوع سأله في تكثير طعامهم فجمعوا ما معهم فجاء قدر مبرك الشاة فدعا الله فيه وأمرهم فملؤوا كل وعاء معهم وكذا لما احتاجوا إلى الماء سأله تعالى فجاءتهم سحابة فأمطرتهم فشربوا وسقو الإبل وملؤوا أسقيتهم ثم نظروا فإذا هي لم تجاوز العسكرية. فهذا هو الأكمل في اتباع الشيء مع قدر الله مع متابعة الرسول ﷺ.

وَإِذْ قُلْنَا أَدْخُلُوهُنَّدِهَ الْقَرَيْةَ فَكَلُوا مِنْهَا حَيْثُ شَتَّمْ رَغْدًا وَأَدْخُلُوا الْبَابَ سُجْدًا وَقُلُوا حَطَّةٌ لَّمْ يَرَكُمْ  
خَطَّيْكُمْ وَسَنَرِيْدُ الْمُحْسِنِينَ فَبَدَلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قُوْلًا غَيْرَ الَّذِيْقَ قِيلَ لَهُمْ فَانْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ  
ظَلَمُوا رِجَراً مِنَ السَّمَاءِ إِنَّا كَانُوا يَسْفَقُونَ

يقول تعالى لائما لهم على نكولهم عن الجهاد ودخولهم الأرض المقدسة لما قدموا من بلاد مصر صحبة موسى عليه السلام فأمروا بدخول الأرض المقدسة التي هي ميراث لهم عن أبيهم إسرائيل وقتل من فيها من العماليق الكفرة فنكروا عن قتالهم وضعفوا واستحسروا فرمأهم الله في التيه عقوبة لهم كما ذكره تعالى في سورة المائدة، ولهذا كان أصح القولين أن هذه البلدة هي بيت المقدس كما نص على ذلك السدي والربيع بن أنس وقتادة وأبو مسلم الأصفهاني وغير واحد وقد قال الله تعالى حاكياً عن موسى ﴿يَا قَوْمَ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقْدَسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُو﴾ [المائدة: ٢١]. وقال آخرون هي أريحاء، ويحكى عن ابن عباس وعبد الرحمن بن زيد، وهذا بعيد لأنها ليست على طريقهم وهم قاصدون بيت المقدس لا أريحاء، وأبعد من ذلك قول من ذهب إلى أنها مصر، حكاه الرازى في تفسيره، وال الصحيح الأول أنها بيت المقدس، وهذا كان لما خرجوا من التيه بعد أربعين سنة مع يوشع بن نون عليه السلام وفتحها الله عليهم عشية الجمعة وقد حبسوا لهم الشمس يومئذ قليلاً حتى أمكن الفتح، ولما فتحوها أمروا أن يدخلوا الباب باب البلد ﴿سُجْدًا﴾ أي شكرًا لله تعالى على ما أنعم به عليهم من الفتح والنصر ورد بذلك عليهم وإنقاذهم من التيه والضلالة.

قال العوفي في تفسيره عن ابن عباس أنه كان يقول في قوله تعالى ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجْدًا﴾ أي ركعاً، وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار حدثنا أبو أحمد الزبيري حدثنا سفيان عن الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجْدًا﴾ قال: ركعاً من باب صغير<sup>(١)</sup>، رواه الحاكم من حديث سفيان به، ورواه ابن أبي حاتم من حديث سفيان وهو الثوري به وزاد: «فدخلوا من قبل أستاهم»، وقال الحسن البصري: أمروا أن يسجدوا على وجوههم حال دخولهم، واستبعده الرازى. وحكى عن بعضهم أن المراد هنا بالسجود الخضوع لتعذر حمله على حقيقته، وقال خصيف: قال عكرمة قال ابن عباس: كان الباب قبل القبلة، وقال ابن عباس ومجاهد والسدي وقتادة والضحاك: هو باب الحطة من

باب إيلاء بيت المقدس. وحكي الرازى عن بعضهم أنه عني بالباب جهة من جهات القبلة، وقال خصيف قال عكرمة قال ابن عباس: فدخلوا على شق<sup>(١)</sup>، وقال السدي عن أبي سعيد الأزدي عن أبي الكنود عن عبد الله بن مسعود: قيل لهم ادخلوا الباب سجداً فدخلوا مقنعي رؤوسهم أي رافعى رؤوسهم خلاف ما أمروا.

وقوله تعالى: «وقولوا حطة» قال الثوري عن الأعمش عن المنهاج عن سعيد بن جبير عن ابن عباس «وقولوا حطة» قال: مغفرة استغروا. وروي عن عطاء والحسن وقتادة والريبع بن أنس نحوه، وقال الضحاك عن ابن عباس «وقولوا حطة» قال: قولوا: هذا الأمر حق، كما قيل لكم. وقال عكرمة: قولوا: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» وقال الأوزاعي: كتب ابن عباس إلى رجل قد سماه فسأله عن قوله تعالى «وقولوا حطة» فكتب إليه: أن أقرروا بالذنب. وقال الحسن وقتادة أي أحاطط عنا خطايانا «نَفَرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسْتَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ» وقال: هذا جواب الأمر أي إذا فعلتم ما أمرناكم غفرنا لكم الخطئات وضاعفنا لكم الحسنات.

وحاصل الأمر أنهم أمروا أن يخضعوا لله تعالى عند الفتح بالفعل والقول وأن يعترفوا بذلك بهم ويستغروا منها والشكر على النعمة عندها والمبادرة إلى ذلك من المحبوب عند الله تعالى كما قال تعالى: «إِذَا جَاءَ نَصْرَ اللَّهِ وَالْفَتْحَ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًاً فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ إِنَّهُ كَانَ تَوَابًا» فسره بعض الصحابة بكثرة الذكر والاستغفار عند الفتح والنصر، وفسره ابن عباس بأنه نعي إلى رسول الله ﷺ أجره فيها وأقره على ذلك عمر رضي الله عنه، ولا منافاة بين أن يكون قد أمر بذلك عند ذلك ونعي إليه روحه الكريمة أيضاً، ولهذا كان عليه الصلاة والسلام يظهر عليه الخضوع جداً عند النصر كما روي أنه كان يوم الفتح فتح مكة داخلاً إليها من الثنية العليا وأنه لخاضع لربه حتى أن عثثونه ليمس مورك رحله<sup>(٢)</sup> شكر الله على ذلك، ثم لما دخل البلد اغتسل وصلى ثمانى ركعات وذلك ضحى، فقال بعضهم: هذه صلاة الضحى، وقال آخرون بل هي صلاة الفتح فاستحبوا للإمام وللأمير إذا فتح بلداً أن يصلى فيه ثمانى ركعات عند أول دخوله كما فعل سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه لما دخل إيوان كسرى صلى فيه ثمانى ركعات، وال الصحيح أنه يفصل بين كل ركعتين بتسلیم، وقيل يصليها كلها بتسلیم واحد، والله أعلم.

وقوله تعالى: «فَبَدَلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قُيلَ لَهُمْ» قال البخاري<sup>(٣)</sup>: حدثني محمد حدثنا عبد الرحمن بن مهدي عن ابن المبارك عن معمر عن همام بن منبه عن أبي هريرة رضي الله

(١) أي على جهد ومثقة.

(٢) العثثون: اللحية. ومورك الرحل: المرفقة التي تكون عند قادمة الرحل، يضع الراكب رجله عليها ليستريح من وضع رجله في الركاب.

(٣) صحيح البخاري (تفسير سورة ٧ باب ٣).

عنه عن النبي ﷺ قال: «قيل لبني إسرائيل ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة - فدخلوا يزحفون على أستاهم فبدلوا وقالوا حبة في شعرة» ورواه النسائي عن محمد بن إسماعيل بن إبراهيم عن عبد الرحمن به موقعاً وعن محمد بن عبيد بن محمد عن ابن المبارك ببعضه مسنداً في قوله تعالى: «حطة» قال: فبدلوا وقالوا حبة، وقال عبد الرزاق أثنا معمراً عن همام بن منبه أنه سمع أبي هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «قال الله لبني إسرائيل: ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة نغفر لكم خططيّاكم» فبدلوا ودخلوا الباب يزحفون على أستاهم فقالوا حبة في شعرة» وهذا حديث صحيح رواه البخاري عن إسحاق بن نصر ومسلم عن محمد بن رافع والترمذى عن عبد بن حميد كلهم عن عبد الرزاق به، وقال الترمذى: حسن صحيح، وقال محمد بن إسحاق: كان تبليهم كما حدثني صالح بن كيسان عن صالح مولى التوأمة عن أبي هريرة وعمن لا أتهم عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «دخلوا الباب - الذي أمروا أن يدخلوا فيه سجداً - يزحفون على أستاهم وهم يقولون حنطة في شعرة» وقال أبو داود حدثنا أحمد بن صالح وحدثنا سليمان بن داود حدثنا عبد الله بن وهب حدثنا هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «قال الله لبني إسرائيل ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة نغفر لكم خططيّاكم» ثم قال أبو داود: حدثنا أحمد بن مسافر حدثنا ابن أبي فديك عن هشام بنته، هكذا رواه منفرداً به في كتاب الحروف مختصراً. وقال ابن مردوه<sup>(١)</sup>: حدثنا عبد الله بن جعفر حدثنا إبراهيم بن مهدي حدثنا أحمد بن المنذر الفزار حدثنا محمد بن إسماعيل بن أبي فديك عن هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري، قال: سرنا مع رسول الله ﷺ حتى إذا كان من آخر الليل أجزنا في ثنية<sup>(٢)</sup> يقال لها ذات الحنظل، فقال رسول الله ﷺ: «ما مثل هذه الثنية الليلة إلا كمثل الباب الذي قال الله لبني إسرائيل ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة نغفر لكم خططيّاكم». وقال سفيان الثوري عن أبي إسحاق عن البراء: «سيقول السفهاء من الناس» [البقرة: ١٤٢] قال: اليهود: قيل لهم ادخلوا الباب سجداً قال: ركعاً، وقولوا حطة أي مغفرة، فدخلوا على أستاهم وجعلوا يقولون حنطة حمراء فيها شعيرة، فذلك قول الله تعالى: «فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم». وقال الثوري عن السدي عن أبي سعد الأزدي عن أبي الكنود عن ابن مسعود: وقولوا حطة، فقالوا حنطة، حبة حمراء فيها شعيرة، فأنزل الله: «فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم». وقال أسباط عن السدي عن مرة عن ابن مسعود أنه قال: إنهم قالوا: هطا سمعاتك أزية مزباً<sup>(٣)</sup>، فهي بالعربية حبة حنطة حمراء مثقوبة فيها شعرة سوداء فذلك قوله تعالى: «فبدل الذين ظلموا قولاً

(١) رواه السيوطي في الدر المنشور / ١٣٩ .

(٢) في الدر المنشور: «اجتننا في برية» .

(٣) رواه الطبرى ١ / ٣٤٤، وفيه أنهم قالوا: «هطى سمعقاً يا ازبة هزباً» .

غير الذين قيل لهم». وقال الثوري عن الأعمش عن المنهاج عن سعيد عن ابن عباس في قوله تعالى: «ادخلوا الباب سجداً» قال: ركعاً من باب صغير، فدخلوا من قبل أستاهم وقالوا حنطة، فذلك قوله تعالى: «فبدل الذين ظلموا قولًا غير الذي قيل لهم» وهكذا روی عن عطاء ومحاذد وعكرمة والضحاك والحسن وقتادة والربيع بن أنس ويحيى بن رافع.

وحاصل ما ذكره المفسرون وما دل عليه السياق أنهم بدلوا أمر الله لهم من الخضوع بالقول والفعل فأمروا أن يدخلوا سجداً فدخلوا يزحفون على أستاهم من قبل أستاهم رافعي رؤوسهم وأمرروا أن يقولوا حطة أي أحطط عنا ذنبنا وخطايانا، فاستهزأوا فقالوا حنطة في شعيرة، وهذا في غاية ما يكون من المخالفة والمعاندة ولهذا أنزل الله بهم بأسه وعدبه بفسقهم وهو خروجهم عن طاعته. ولهذا قال: «فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون» وقال الضحاك عن ابن عباس: كل شيء في كتاب الله من الرجز يعني به العذاب، وهكذا روی عن مجاهد وأبي مالك والسدسي والحسن وقتادة أنه العذاب، وقال أبو العالية: الرجز الغضب، وقال الشعبي: الرجز إما الطاعون وإما البرد، وقال سعيد بن جبیر: هو الطاعون، وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشعج حدثنا وكيع عن سفيان عن حبیب بن أبي ثابت عن إبراهيم بن سعد يعني ابن أبي وقار عن سعد بن مالک وأسامة بن زید وخزيمة بن ثابت رضي الله عنهم، قالوا: قال رسول الله ﷺ: «الطاعون رجز عذاب عذب به من كان قبلكم» وهكذا رواه النسائي من حديث سفيان الثوري به، وأصل الحديث في الصحيحين من حديث حبیب بن أبي ثابت «إذا سمعتم الطاعون بأرض فلا تدخلوها» الحديث<sup>(١)</sup>، قال ابن جریر: أخبرني يونس بن عبد الأعلى عن ابن وهب عن يونس عن الزهري، قال: أخبرني عامر بن سعد بن أبي وقار عن أسامة بن زید عن رسول الله ﷺ قال: «إن هذا الوجع أو السقم رجز عذب به بعض الأمم قبلكم»<sup>(٢)</sup> وهذا الحديث أصله مخرج في الصحيحين من حديث مالک عن محمد بن المنکدر وسالم بن أبي النضر عن عامر بن سعد بنحوه.

﴿وَإِذْ أَسْتَسْقَ مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا أَضِرِّ بِعَصَالَكَ الْحَجَرَ فَانْجَرَرَتْ مِنْهُ أَثْنَتَ عَشَرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أَنَّا إِنْ مَشَرَّبَهُمْ كُلُّهُ وَأَشَرَّبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾

يقول تعالى: واذكروا نعمتي عليكم في إجابتي لنبيكم موسى عليه السلام حين استسقاني لكم وتيسيري لكم الماء وإخراجه لكم من حجر معكم وتفجيري الماء لكم منه من إثنتي عشرة عيناً لكل سبط من أسباطكم عين قد عرفوها فكلوا من الممن والسلوى واشربوا من هذا الماء الذي أنبعته لكم بلا سعي منكم ولا كد واعبدوا الذي سخر لكم ذلك «ولا تعثوا في الأرض مفسدين»

(١) البخاري (طب باب ٣٠) ومسلم (سلام حديث ٩٢، ٩٣، ٩٤).

(٢) الطبری ٢٤٥ / ١.

ولا تقابلوا النعم بالعصيان فتسليبوها .

وقد بسطه المفسرون في كلامهم كما قال ابن عباس رضي الله عنه : وجعل بين ظهريه حجر مربع وأمر موسى عليه السلام فضربه بعصاه فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً في كل ناحية منه ثلاث عيون وأعلم كل سبط عينهم يشربون منها لا يرتحلون من منقلة<sup>(١)</sup> إلا وجدوا ذلك معهم بالمكان الذي كان منهم بالمنزل الأول . وهذا قطعة من الحديث الذي رواه النسائي وابن جرير وابن أبي حاتم وهو حديث الفتون الطويل . وقال عطيه العوفي : وجعل لهم حجراً مثل رأس الشور يحمل على ثور فإذا نزلوا متزلاً وضعوه فضربه موسى عليه السلام بعصاه فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً فإذا ساروا حملوه على ثور فاستمسك الماء . وقال عثمان بن عطاء الخراساني عن أبيه : كان لبني إسرائيل حجر فكان يضعه هارون ويضربه موسى بالعصا ، وقال قتادة : كان حجراً طورياً من الطور يحملونه معهم حتى إذا نزلوا ضربه موسى بعصاه ، وقال الزمخشري : وقيل كان من الرخام وكان ذراعاً في ذراع وقيل مثل رأس الإنسان وقيل كان من الجنة طوله عشرة أذرع على طول موسى وله شعبتان تتقادان في الظلمة وكان يحمل على حمار ، قال : وقيل اهبطه آدم من الجنة فتوارثوه حتى وقع إلى شعيب فدفعه إليه مع العصا ، وقيل هو الحجر الذي وضع عليه ثوبه حين اغتنس ، فقال له جبريل : ارفع هذا الحجر فإن فيه قدرة ولدك فيه معجزة فحمله في مخلاته . قال الزمخشري : ويعتمد أن تكون اللام للجنس لا للعهد أي اضرب الشيء الذي يقال له الحجر ، وعن الحسن : لم يأمره أن يضرب حجراً بعينه ، قال : وهذا أظهر في المعجزة وأبين في القدرة فكان يضرب الحجر بعصاه فينفجر ثم يضربه فيليس ، فقالوا : إن فقد موسى هذا الحجر عطشنا ، فأوحى الله إليه أن يكلم الحجارة فتفاجر ولا يمسها بالعصا لعلهم يقررون ، والله أعلم . وقال يحيى بن النضر : قلت لجوبر : كيف علم كل أناس مشربهم ؟ قال : كان موسى يضع الحجر ويقوم من كل سبط رجل ويضرب موسى الحجر فينفجر منه اثنتا عشرة عيناً فينضح من كل عين على رجل فيدعوه ذلك الرجل سبطه إلى تلك العين ، وقال الضحاك : قال ابن عباس : لما كان بنو إسرائيل في التي شق لهم من الحجر أنهاراً ، وقال الثوري عن أبي سعيد عن عكرمة عن ابن عباس قال : ذلك في التي ضرب لهم موسى الحجر فصار منه اثنتا عشرة عيناً من ماء لكل سبط منهم عين يشربون منها ، وقال مجاهد نحو قول ابن عباس وهذه القصة شبيهة بالقصة التي في سورة الأعراف ولكن تلك مكية ، فلذلك كان الإخبار عنهم بضمير الغائب لأن الله تعالى يقص على رسوله ﷺ ما فعل لهم . وأما في هذه السورة - وهي البقرة - فهي مدنية ، فلهذا كان الخطاب فيها متوجهاً إليهم . وأخبر هناك بقوله : «فَانجحستْ مِنْهُ اثنتاً عَشْرَةً عِيْنًا» [الأعراف : ١٦٠] وهو أول الانفجار ، وأخبر ههنا بما آل إليه الحال آخرًا وهو الانفجار المناسب ذكر الانفجار

(١) الصواب «لا يرتحلون منقلة» كما في الطبرى / ٣٤٧ . والمنقلة: المرحلة من مراحل السفر ، والجمع مناقل .

هنا وذاك هناك، والله أعلم، وبين السياقين تبادر عشرة أوجه لفظية ومعنوية قد سأله عنها الزمخشري في تفسيره وأجاب عنها بما عنده، والأمر في ذلك قریب. والله أعلم.

وَإِذْ قُلْتُمْ يَرْمُوسَى لَنْ تَصِرِّ عَلَى طَعَامٍ وَاجِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبِّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُبْتِ أَلَّارْضُ مِنْ بَقِيلِهَا وَقَاتِلِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِيلِهَا قَالَ أَتَسْتَبِدُ لَوْرَتْ أَلَّذِي هُوَ أَذْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَخْيَطْرُ مِصْرَارًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ

يقول تعالى: واذكروا نعمتي عليكم في إِنْزالي عليكم المن والسلوى طعاماً طيباً نافعاً هنيئاً سهلاً واذكروا دبركم وضجركم مما رزقناكم وسؤالكم موسى استبدال ذلك بالأطعمة الدينية من القبول ونحوها مما سألكم. قال الحسن البصري: فبطروا ذلك ولم يصبروا عليه، وذكروا عيشهم الذي كانوا فيه، وكانوا قوماً أهل أعداس وبصل وبقول وفوم فقالوا: «ياموسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلتها وقاتلتها وفومها وعدسها وبصلتها» وإنما قالوا على طعام واحد وهم يأكلون المن والسلوى لأنه لا يتبدل ولا يتغير كل يوم، فهو مأكل واحد: فالبقول والثاء والعدس والبصل كلها معروفة، وأما الفوم، فقد اختلف السلف في معناه، فوقع في قراءة ابن مسعود وثومها بالثاء، وكذا فسره مجاهد في رواية ليث بن أبي سليم عنه، بالثوم. وكذا الربيع بن أنس وسعيد بن جبير، وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عمرو بن رافع، حدثنا أبو عمارة يعقوب بن إسحاق البصري عن يونس، عن الحسن، في قوله: «فوفمهما» قال: قال ابن عباس: الشوم. قال: وفي اللغة القديمة: فوّموا لنا بمعنى اختبزوا. قال ابن جرير<sup>(١)</sup>: فإن كان ذلك صحيحاً، فإنه من الحرروف المبدلة كقولهم: وقعوا في عاثور شر وعافور شر، وأثنافي وأثنائي، ومغافير ومغايير وأشباه ذلك مما تقلب الفاء ثاء والثاء فاء لتقارب مخرجيهما، والله أعلم. وقال آخرون: القوم الحنطة، وهو البر الذي يعمل منه الخبر قال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن عبد الأعلى قراءة، أربانا ابن وهب قراءة حدثني نافع بن أبي نعيم أن ابن عباس: سُئل عن قول الله: «فوفمهما» ما فومها؟ قال: الحنطة. قال ابن عباس: أما سمعت قول أحىحة بن الجلاح، وهو يقول: [الكامل]

قد كنت أغنى الناس شخصاً واحداً ورد المدينة عن زراعة فوم<sup>(٢)</sup>

وقال ابن جرير: حدثنا علي بن الحسن، حدثنا مسلم الجهنمي، حدثنا عيسى بن يونس، عن رشيد بن كريب، عن أبيه، عن ابن عباس، في قوله تعالى: «فوفمهما» قال: القوم الحنطة

(١) الطبرى / ٣٥٢.

(٢) البيت لأبي محجن القفقى فى اللسان (فوم) أنشده الأخفش له وروايته: (قد كنت أحسبنى كأغنى واجد... نزل المدينة). وكذا رواية القرطبي / ٤٢٥. وهو في الروض الأنف ٤٥ / ٢ لأبي أميمة أو لأبي محجن، ورواه «سكن المدينة».

بلسان بني هاشم<sup>(١)</sup>، وكذا قال علي بن أبي طلحة والضحاك وعكرمة عن ابن عباس: أن الفوم الحنطة، وقال سفيان الثوري عن ابن جريج عن مجاهد وعطاء «وفوتها» قالا: وخبزها، وقال هشيم عن يونس عن الحسين وحصين عن أبي مالك «وفوتها» قال: الحنطة، وهو قول عكرمة والسدسي والحسن البصري وقتادة وعبد الرحمن بن يزيد بن أسلم وغيرهم، فالله أعلم، وقال الجوهرى: الفوم: الحنطة، وقال ابن دريد: الفوم: السنبلة، وحكى القرطبي عن عطاء وقتادة: أن الفوم كل حب يختبر<sup>(٢)</sup>. قال: وقال بعضهم: هو الحمص، لغة شامية، ومنه يقال لبائعه: فامي، مغير عن فومي، قال البخاري: وقال بعضهم: الحبوب التي تؤكل كلها فوم.

وقوله تعالى: «قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير» فيه تقرير لهم وتوبیخ على ما سألوا من هذه الأطعمة الدينية مع ما هم فيه من العيش الرغيد والطعام الهنيء الطيب النافع، وقوله تعالى: «اهبطوا مصرًا» هكذا هو منون مصر، مكتوب بالألف في المصاحف الأئمة العثمانية وهو قراءة الجمهور بالصرف. وقال ابن جرير: ولا أستجيذ القراءة بغير ذلك لإجماع المصاحف على ذلك. وقال ابن عباس «اهبطوا مصرًا» قال: مصر من الأمصار، رواه ابن أبي حاتم من حديث أبي سعيد البقال سعيد بن المربزيان عن عكرمة عنه قال: وروي عن السدي وقتادة والربيع بن أنس نحو ذلك، وقال ابن جرير: وقع في قراءة أبي بن كعب وابن مسعود «اهبطوا مصر» من غير إجراء، يعني من غير صرف ثم روي عن أبي العالية والربيع بن أنس أنهما فسرا ذلك بمصر فرعون، وكذا رواه ابن أبي حاتم عن أبي العالية والربيع وعن الأعمش أيضاً وقال ابن جرير: ويحتمل أن يكون المراد: مصر فرعون على قراءة الإجراء أيضاً. ويكون ذلك من باب الإتباع لكتابة المصحف كما في قوله تعالى: «قواريراً قواريراً» [الإنسان: ١٥ - ١٦] ثم توقف في المراد ما هو أمصر فرعون أم مصر من الأمصار؟ وهذا الذي قاله فيه نظر، والحق أن المراد: مصر من الأمصار كما روي عن ابن عباس وغيره، والمعنى على ذلك لأن موسى عليه السلام يقول لهم: هذا الذي سألتم ليس بأمر عزيز بل هو كثير في أي بلد دخلتموها وجدتموه، فليس يساوي مع دنائته وكثرته في الأمصار أن أسأل الله فيه. ولهذا قال: «أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير اهبطوا مصرًا فإن لكم ما سألتم» أي ما طلبتم، ولما كان سؤالهم هذا من باب البطر والأشر ولا ضرورة فيه لم يجابوه إليه والله أعلم.

وَضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الْذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِعَنَصِّبٍ مِّنْ أَنَّهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ كَيْأَيْتَ اللَّهُ  
وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَعْبُرُ الْحَقَّ ذَلِكَ مَا عَصَمُوا وَكَانُوا يَسْتَدُورُونَ

يقول تعالى: «وَضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الْذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ» أي وضعتم عليهم وألزمتموها شرعاً وقدراً

(١) الطبرى / ٣٥٢.

(٢) القرطبي / ٤٢٦.

أي لا يزالون مستذلين، من وجدهم استذلهم وأهانهم وضرب عليهم الصغار، وهم مع ذلك في أنفسهم أذلاء متمسكون. قال الضحاك، عن ابن عباس: ﴿وَضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ قال: هم أصحاب النيلات يعني الجزية. وقال عبد الرزاق، عن معاذ، عن الحسن، وفتادة في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ﴾ قال: يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون، وقال الضحاك: وضربت عليه الذلة، قال: الذلة. وقال الحسن: أذلهم الله فلا منعة لهم، وجعلهم تحت أقدام المسلمين ولقد أدركتهم هذه الأمة وإن المجروس لتجيئهم الجزية، وقال أبو العالية والربيع بن أنس والسدي: المسكنة الفاقة، وقال عطية العوفي: الخراج، وقال الضحاك: الجزية، وقوله تعالى: ﴿وَبَاوَوْا بِغَضْبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ قال الضحاك: استحقوا الغضب من الله، وقال الربيع بن أنس: فحدث عليهم غضب من الله، وقال سعيد بن جبير: ﴿وَبَاوَوْا بِغَضْبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ يقول: استوجبوا سخطاً، وقال ابن جرير: يعني بقوله: ﴿وَبَاوَوْا بِغَضْبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ انصرفاً ورجعوا، ولا يقال: باء إلا موصولاً إما بخير وإما بشر يقال منه: باء فلان بذنبه يبوء به بواءً وبواء، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمَكُ﴾ [المائدة: ٢٩] يعني تنصرف متحملهما وترجع بهما قد صارا عليك دوني. فمعنى الكلام: إذا رجعوا منصرفين متحملين غضب الله قد صار عليهم من الله غضب، ووجب عليهم من الله سخط.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ، وَيَقْتَلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ يقول تعالى: هذا الذي جازيناهم من الذلة والمسكنة، وإحلال الغضب بهم من الذلة، بسبب استكبارهم عن اتباع الحق وكفرهم بآيات الله، وإهانتهم حملة الشرع، وهم الأنبياء وأتباعهم، فانتقصوهم إلى أن أفضى بهم الحال إلى أن قتلوا، فلا كفر أعظم من هذا، إنهم كفروا بآيات الله، وقتلوا أنبياء الله بغير الحق، ولهذا جاء في الحديث المتفق على صحته: أن رسول الله ﷺ قال: «الكبير بطر الحق وغمط الناس»<sup>(١)</sup> وقال الإمام أحمد رحمه الله: حدثنا إسماعيل، عن ابن عون، عن عمرو بن سعيد، عن حميد بن عبد الرحمن، قال: قال ابن مسعود: كنت لا أحجب عن النجوى، ولا عن كذا ولا عن كذا، فأتيت رسول الله ﷺ وعنه مالك بن مرارة الراوبي، فأدركته من آخر حديثه وهو يقول: يا رسول الله، قد قسم لي من الجمال ما ترى، فما أحب أن أحداً من الناس فضلي بشركين فما فوقيهما، أفاليس ذلك هو البغي؟ فقال: لا ليس ذلك من البغي ولكن البغي من بطره، أو قال: «سفه الحق وغمط الناس»<sup>(٢)</sup> يعني رد الحق، وانتهاص الناس، والازدراء بهم، والتعاظم عليهم، ولهذا لما ارتكب بنو إسرائيل ما ارتكبوا من الكفر بآيات الله، وقتلهم أنبياءه، أحل الله بهم بأسه الذي لا يرد،

(١) أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن مسعود مرفوعاً. (إيمان حديث ١٤٧). وبطر الحق: هو دفعه وإنكاره ترفاً وتجرأً. وغمط الناس احتقارهم.

(٢) مسند أحمد (ج ١ ص ٣٨٥).

وكساهم ذلًا في الدنيا موصولاً بذل الآخرة جزاء وفاقاً. قال أبو داود الطيالسي : حدثنا شعبة ، عن الأعمش ، عن إبراهيم ، عن أبي معمر ، عن عبد الله بن مسعود ، قال : كانت بنو إسرائيل في اليوم تقتل ثلاثمائةنبي ، ثم يقيمون سوق بقلهم من آخر النهار ، وقد قال الإمام أحمد<sup>(١)</sup> : حدثنا عبد الصمد ، حدثنا أبان ، حدثنا عاصم ، عن أبي وائل عن عبد الله يعني ابن مسعود ، أن رسول الله ﷺ قال : «أشد الناس عذابا يوم القيمة رجل قتلتهنبي أو قتلت نبياً وإمام ضلاله وممثل من الممثلين». قوله تعالى : «ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون» وهذه علة أخرى في مجازاتهم بما جوزوا به أنهم كانوا يعصون ويعدون فالعصيان فعل المنافي ، والاعتداء المجاوزة في حد المأذون فيه والمأمور به ، والله أعلم .

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالْمُصَدَّرَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ مَاءَمَ بِاللَّهِ وَآتَيْتُمُ الْآخِرَ وَعَمِلَ صَنْلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزُنُونَ ﴿٦٢﴾

لما بين تعالى حال من خالق أوامره وارتکب زواجه وتعدی في فعل ما لا إذن فيه وانتهك المحارم وما أحل بهم من النكال ، نبه تعالى على أن من أحسن من الأمم السالفة وأطاعه فإن له جزاء الحسنی ، وكذلك الأمر إلى قيام الساعة كل من اتبع الرسول النبي الأمی فله السعادة الأبدية ولا خوف عليهم فيما يستقبلونه ولا هم يحزنون على ما يتراکونه ويختلفونه كما قال تعالى : «ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون» [يونس : ٦٢] وكما تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار في قوله : «إن الذين قلوا ربنا الله ثم استقاموا تنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون» [فصلت : ٣٠] قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي حدثنا عمر بن أبي عمر العدنی حدثنا سفیان عن ابن أبي نجیح عن مجاهد قال : قال سلمان رضی الله عنه : سألت النبي ﷺ عن أهل دین کنت معهم ، فذكرت من صلاتهم وعبادتهم ، فنزلت **﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَآتَيْتُمُ الْآخِرَ﴾** إلى آخر الآية ، وقال السدی **﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَآتَيْتُمُ الْآخِرَ﴾** الآية ، نزلت في أصحاب سلمان الفارسي بينما هو يحدث النبي ﷺ إذ ذكر أصحابه فأخبره خبرهم ، فقال كانوا يصلون ويصومون ويؤمرون لك ويشهدون أنك ستبث نبياً ، فلما فرغ سلمان من ثنائه عليهم قال له النبي ﷺ **﴿يَا سَلَمَانَ هُمْ مِنْ أَهْلِ النَّارِ﴾** ، فاشتد ذلك على سلمان فأنزل الله هذه الآية . فكان إيمان اليهود أنه من تمسك بالتوراة وسنة موسى عليه السلام حتى جاء عيسى فلما جاء كان من تمسك بالتوراة وأخذ سنة موسى فلم يدعها ولم يتبع عيسى كان هالكاً ، وإيمان النصارى أن من تمسك بالإنجیل منهم وشرائع عيسى كان مؤمناً مقبولاً منه حتى جاء محمد ﷺ ، فمن لم يتبع محمداً ﷺ منهم ويدع ما كان عليه من سنة عيسى والإنجیل كان هالكاً .

(١) المسند (ج ١ حديث ص ٤٠٧) ..

قال ابن أبي حاتم، وروي عن سعيد بن جبیر نحو هذا. قلت: وهذا لا ينافي ما روی علی بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مِنْ آمَنَ بِهِ اللَّهُ وَالْيَوْمَ الْآخِر﴾ الآية - قال - فأنزل الله بعد ذلك ﴿وَمَنْ يَتَّبِعُ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيَنًا فَلَنْ يَقْبَلْ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ فإن هذا الذي قاله ابن عباس إخبار عن أنه لا يقبل من أحد طريقة ولا عملاً إلا ما كان موافقاً لشريعة محمد ﷺ بعد أن بعثه بما بعثه به، فأما قبل ذلك فكل من اتبع الرسول في زمانه فهو على هدى وسبيل ونجاة، فاليهود أتباع موسى عليه السلام الذين كانوا يتحاكمون إلى التوارة في زمانهم. واليهود من الهوادة وهي المودة، أو التهود وهي التوبة، كقول موسى عليه السلام ﴿إِنَا هُدْنَا إِلَيْكُمْ﴾ [الأعراف: ١٥٦] أي تبا، فكانهم سموا بذلك في الأصل لتوبيتهم وموتهم في بعضهم البعض، وقيل: لنسبتهم إلى يهودا أكبر أولاد يعقوب، وقال أبو عمرو بن العلاء: لأنهم يتهودون أي يتحركون عند قراءة التوارة، فلما بعث عيسى ﷺ وجب علىبني إسرائيل اتباعه والانقياد له، فأصحابه وأهل دينه هم النصارى، سموا بذلك لتناصرهم فيما بينهم، وقد يقال لهم أنصار أيضاً، كما قال عيسى عليه السلام ﴿مِنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ وقيل: إنهم إنما سموا بذلك من أجل أنهم نزلوا أرضًا يقال لها ناصرة، قاله قتادة وابن جريج، وروي عن ابن عباس أيضاً، والله أعلم. والنصارى جمّ نصران، كنشاوي جمع نشوان، وسکاری جمع سکران، ويقال للمرأة نصرانة وقال الشاعر:

[الطويل]

[فَكُلْتَاهُمَا خَرَّتْ وَأَسْجَدَ رَأْسُهَا      كَمَا سَجَدَتْ] نَصْرَانَةَ لَمْ تَحَفَّ<sup>(١)</sup>

فلما بعث الله محمداً ﷺ خاتماً للنبيين، ورسولاً إلىبني آدم على الإلقاء، وجب عليهم تصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، والانكفاء عما عنه زجر، وهؤلاء هم المؤمنون حقاً وسميت أمة محمد ﷺ مؤمنين لكثره إيمانهم، وشدة إيقانهم ولأنهم يؤمنون بجميع الأنبياء الماضية والغيبة الآتية، وأما الصابئون فقد اختلف فيهم، فقال سفيان الثوري، عن ليث بن أبي سليم، عن مجاهد، قال: الصابئون قوم بين المجنوس واليهود والنصارى وليس لهم دين، وكذلك رواه ابن أبي نجيح عنه، وروي عن عطاء وسعيد بن جبیر نحو ذلك. وقال أبو العالية والربيع بن أنس والسدي وأبو الشعثاء، جابر بن زيد، والضحاك وإسحاق بن راهويه: الصابئون فرقة من أهل الكتاب يقرأون الزبور، ولهذا قال أبو حنيفة وإسحاق: لا بأس بذبائحهم ومناكحتهم، وقال هشيم، عن مطرف: كنا عند الحكم بن عتبة، فحدثه رجل من أهل البصرة عن الحسن أنه كان يقول في الصابئين: إنهم كالمجوس فقال الحكم: ألم أخبركم بذلك، وقال عبد الرحمن بن مهدى عن معاوية بن عبد الكريم: سمعت الحسن ذكر الصابئين فقال: هم قوم يعبدون

(١) البيت لأبي الأحرز الحمانى في الإنصال ٤٤٥ / ٢، والكتاب ٤١١ / ٣؛ ولسان العرب (نصر)؛ وبلا نسبة في الكتاب ٢٥٦ / ٣؛ والطبرى ٣٥٩ / ١.

الملائكة . وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن عبد الأعلى ، حدثنا المعتمر بن سليمان ، عن أبيه ، عن الحسن ، قال : أخبر زiad أن الصابئين يصلون إلى القبلة ، ويصلون الخمس قال : فأراد أن يضع عنهم الجزية ، قال : فخبر بعد أنهم يعبدون الملائكة <sup>(١)</sup> . وقال أبو جعفر الرazi : بلغني أن الصابئين قوم يعبدون الملائكة ، ويقرأون الزبور ويصلون للقبلة <sup>(٢)</sup> ، وكذا قال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا يونس بن عبد الأعلى ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرني ابن أبي الزناد عن أبيه قال : الصابئون قوم مما يلي العراق وهم بکوثى ، وهم يؤمنون بالنبين كلهم ويصومون من كل سنة ثلاثة أيام ، ويصلون إلى اليمن كل يوم خمس صلوات . وسئل وهب بن منبه عن الصابئين فقال : الذي يعرف الله وحده وليس له شريعة يعمل بها ولم يحدث كفراً وقال عبد الله بن وهب : قال عبد الرحمن بن زيد : الصابئون أهل دين من الأديان ، كانوا بجزيرة الموصل ، يقولون : لا إله إلا الله ، وليس لهم عمل ولا كتاب ولا نبي إلا قول لا إله إلا الله ، قال : ولم يؤمنوا برسول فمن أجل ذلك كان المشركون يقولون للنبي ﷺ وأصحابه هؤلاء الصابئون يسبونهم بهم ، يعني في قول لا إله إلا الله ، وقال الخليل : هم قوم يشبه دينهم دين النصارى إلا أن قبلتهم نحو مذهب الجنوب ، يزعمون أنهم على دين نوح عليه السلام . وحكى القرطبي <sup>(٣)</sup> عن مجاهد والحسن وابن نجيح ، أنهم قوم تركب دينهم بين اليهود والمجوس <sup>(٤)</sup> ، ولا تؤكل ذبائحهم ولا تنحر نساؤهم ، قال القرطبي : والذي تحصل من مذهبهم فيما ذكره بعض العلماء أنهم موحدون ويعتقدون تأثير النجوم ، وأنها فاعلة <sup>(٥)</sup> ، ولهذا أفتى أبو سعيد الإصطخري بكفرهم للقادر بالله حين سأله عنهم . واختار الرazi أن الصابئين قوم يعبدون الكواكب بمعنى أن الله جعلها قبلة للعبادة والدعاة ، أو بمعنى أن اللهفوض تدبير أمر هذا العالم إليها ، قال : وهذا القول هو المنسوب إلى الكلدائين <sup>(٦)</sup> الذين جاءهم إبراهيم عليه السلام راداً عليهم وبطلاً لقولهم . وأظهر الأقوال والله أعلم ، قول مجاهد ومتابعه وهب بن منبه : أنهم قوم ليسوا على دين اليهود ولا النصارى ولا المجوس ولا المشركين ، وإنما هم باقون على فطرتهم ولا دين مقرر لهم يتبعونه ويقتلونه ، ولهذا كان المشركون ين逼ون من أسلم بالصابيء ، أي أنه قد خرج عن سائر أديان أهل الأرض إذ ذاك . وقال بعض العلماء : الصابئون الذين لم تبلغهم دعوة النبي ، والله أعلم .

(١) الطبرى / ١٣٦١.

(٢) تفسير الرazi / ٣٩٨ . وقد نقله من قول قتادة .

(٣) القرطبي / ١٤٣٤ .

(٤) عبارة القرطبي : «بين اليهودية والمجوسية» .

(٥) في القرطبي : «فعالة» .

(٦) في الأصل «الكلدائين» . والتصحيح عن الرazi .

وَإِذَا خَدَنَا مِيشَقُكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الظُّورَ خُدُّوا مَاءَ أَتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعْلَكُمْ تَتَّقَوْنَ ۝ ثُمَّ  
تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قِبَلِ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝

يقول تعالى مذكراً بني إسرائيل ما أخذ عليهم من العهد والميثاق بالإيمان به وحده لا شريك له، واتباع رسله، وأخبر تعالى أنه لما أخذ عليهم الميثاق، رفع الجبل فوق رؤوسهم ليقروا بما عوهدو عليه، ويأخذوه بقوة وجسم وامثال، كما قال تعالى: «وَإِذْ نَتَقَنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظَلَّةٌ وَظَنَّوْا أَنَّهُ وَاقِعٌ بَعْهُمْ خَذَنَا مَا أَتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعْلَكُمْ تَتَّقَوْنَ» [الأعراف: ١٧١] فالطور هو الجبل كما فسره به في الأعراف، ونص على ذلك ابن عباس ومجاهد وعطاء وعكرمة والحسن والضحاك والرابع بن أنس وغير واحد، وهذا ظاهر. وفي رواية عن ابن عباس: الطور ما أنبت من الجبال، وما لم ينبت فليس بطور. وفي حديث الفتون عن ابن عباس أنهم لما امتنعوا عن الطاعة رفع عليهم الجبل ليسمعوا. وقال السدي: فلما أبوا أن يسجدوا أمر الله الجبل أن يقع عليهم فنظروا إليه وقد غشיהם فسقطوا ساجداً فسجدوا على شق ونظروا بالشق الآخر فرحمهم الله فكشفه عنهم، فقالوا: والله ما سجدة أحب إلى الله من سجدة كشف بها العذاب عنهم فهم يسجدون كذلك، وذلك قول الله تعالى «وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الظُّورَ» . وقال الحسن في قوله «خَذَنَا مَا أَتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ» يعني التوراة . وقال أبو العالية والرابع بن أنس: بقوة أي بطاعة، وقال مجاهد: بقوة بعمل ما فيه، وقال قتادة «خَذَنَا مَا أَتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ» القوة: الجد وإلا قذفته عليكم، قال: فأقرروا بذلك أنهم يأخذون ما أوتوا به بقوة، ومعنى قوله وإلا قذفته عليكم، يعني الجبل . وقال أبو العالية والرابع «وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ» يقول: اقرأوا ما في التوراة واعملوا به، وقوله تعالى «ثُمَّ تَوَلَّتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ» يقول تعالى: ثم بعد هذا الميثاق المؤكد العظيم توليتم عنه وانثنتم ونقضتموه «فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ أَيْ بَوْبَتُهُ عَلَيْكُمْ وَإِرْسَالُهُ النَّبِيِّنَ وَالْمَرْسَلِينَ إِلَيْكُمْ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ» . بنتقضكم ذلك الميثاق في الدنيا والآخرة .

وَلَكُنْتُمْ عَزَّاصُمُ الْجَمِيعِ أَعْنَدُكُمْ يَسْتَهِنُونَ فِي الْكَتَبِتِ فَلَمَّا آتَاهُمْ مُؤْمِنًا فَرَدُّهُ حَمِيمِينَ ۝ بَعْلَغَتْهَا كَلَّا لَتَسْكَنَنَّ  
يَسْتَهِنُونَ وَمَا يَعْلَمُونَ ۝ وَصَرَبَتْهُمْ إِلَى الْمُنْتَهَى ۝

يقول تعالى: «وَلَكُنْتُمْ يَسْتَهِنُونَ» يا معشر اليهود ما أحل من البأس بأهل القرية التي عصت أمر الله وخالفوا عهده وميثاقه فيما أخذه عليهم من تعظيم السبت والقيام بأمره إذ كان مشروعاً لهم، فتحيلوا على اصطياد الحيتان في يوم السبت بما وضعوا لها من الشخصوص<sup>(١)</sup> والحيائلي والبرك قبل يوم السبت فلما جاءت يوم السبت على عادتها في الكثرة نشب بتلك العجائب

(١) الشخصوص: جمع شخص، وهو حديدة معقوفة يصاد بها السمك.

والحيل ، فلم تخلص منها يومها ذلك ، فلما كان الليل أخذوها بعد انقضاء السبت ، فلما فعلوا ذلك ، مسخهم الله إلى صورة القردة وهي أشبه شيء بالأنسي في الشكل الظاهر وليست بإنسان حقيقة ، فكذلك أعمال هؤلاء وحياتهم لما كانت مشابهة للحق في الظاهر ومخالفة له في الباطن ، كان جزاؤهم من جنس عملهم وهذه القصة مبسوطة في سورة الأعراف حيث يقول تعالى : «وَاسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةً بِالْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شَرْعًا وَيَوْمًا لَا يَسْبِطُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوْهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُدُونَ» [الأعراف : ١٦٣] القصة بكمالها . وقال السدي : أهل هذه القرية هم أهل أيله ، وكذا قال قتادة ، وسنورد أقوال المفسرين هناك مبسوطة إن شاء الله وبه الثقة .

وقوله تعالى : «فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قَرْدَةً خَاسِئِينَ» قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا أبو حذيفة ، حدثنا شبل ، عن ابن أبي نجيع ، عن مجاهد «فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قَرْدَةً خَاسِئِينَ» قال : مسخت قلوبهم ولم يمسخوا قردة . وإنما هو مثل ضربه الله «كَمِثْلِ الْحَمَارِ يَحْمَلُ أَسْفَارًا» [ال الجمعة : ٥] ورواه ابن جرير عن المثنى ، عن أبي حذيفة وعن محمد بن عمر الباهلي وعن أبي عاصم عن عيسى عن ابن أبي نجيع عن مجاهد به<sup>(١)</sup> ، وهذا سند جيد عن مجاهد ، وقول غريب خلاف الظاهر من السياق في هذا المقام وفي غيره . قال الله تعالى : «قُلْ هَلْ أَنْبَئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَوْبِيَةٍ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ وَغَضْبِهِ وَجَعْلِهِمْ قَرْدَةً وَخَنَازِيرَ وَعَبْدَ الطَّاغُوتِ» [المائدة : ٦٠] ، وقال العوفي في تفسيره عن ابن عباس «فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قَرْدَةً خَاسِئِينَ» فجعل الله منهم القردة والخنازير فرعم أن شباب القوم صاروا قردة وأن المشيخة صاروا خنازير . وقال شيبان النحوى عن قتادة «فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قَرْدَةً خَاسِئِينَ» فصار القوم قردة تعاوى ، لها أذناب بعد ما كانوا رجالاً ونساء وقال عطاء الخراساني : نودوا يا أهل القرية «كُونُوا قَرْدَةً خَاسِئِينَ» فجعل الذين نهوهם يدخلون عليهم فيقولون يا فلان ألم نتهكم ؟ فيقولون برأوسهم : أي بلى ، وقال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين حدثنا عبد الله بن محمد بن ربيعة بالمصيصية<sup>(٢)</sup> ، حدثنا محمد بن مسلم ، يعني الطائفي ، عن ابن أبي نجيع ، عن مجاهد ، عن ابن عباس ، قال : إنما كان الذين اعتدوا في السبت فجعلوا قردة فواقا<sup>(٣)</sup> ، ثم هلكوا ما كان للمسخ نسل . وقال الصحاك ، عن ابن عباس : فمسخهم الله قردة بمعصيتهم ، يقول : إذا لا يحيون في الأرض إلا ثلاثة أيام ، قال : ولم يعش مسخ قط فوق ثلاثة أيام ، ولم يأكل ولم يشرب ولم ينسل وقد خلق الله القردة والخنازير وسائر الخلق في الستة الأيام التي ذكرها الله في كتابه ، فمسخ هؤلاء القوم في صورة

(١) الطبرى / ٣٧٣ .

(٢) كذا . ولعلها المصيصية : مدينة على شاطئ جيحان من ثغور الشام بين أنطاكية وبلاد الروم تقارب طرسوس (معجم البلدان) .

(٣) الفواق : ما بين الحلبتين من الراحة .

القردة، وكذلك يفعل بمن يشاء كما يشاء، ويحوله كما يشاء، وقال أبو جعفر<sup>(١)</sup>، عن الربع، عن أبي العالية في قوله ﴿كُونُوا قردة خاسِئِين﴾ قال: يعني أذلة صاغرين. وروي عن مجاهد وقتادة والربيع وأبي مالك نحوه.

وقال محمد بن إسحاق عن داود بن أبي الحصين عن عكرمة، قال: قال ابن عباس: إن الله إنما افترض علىبني إسرائيل اليوم الذي افترض عليكم في عيدهم يوم الجمعة فخالفوا إلى السبت فعظموه وتركتوا ما أمرتوا به، فلما أبوا إلا لزوم السبت ابتلاهم الله فيه، فحرم عليهم ما أحل لهم في غيره، وكانوا في قرية بين أيلة والطور، يقال لها: مدین، فحرم الله عليهم في السبت الحيتان صيدها وأكلها، وكانوا إذا كان يوم السبت، أقبلت إليهم شرعاً إلى ساحل بحرهم، حتى إذا ذهب السبت ذهبن فلم يروا حوتاً صغيراً ولا كبيراً، حتى إذا كان يوم السبت أتين شرعاً، حتى إذا ذهب السبت ذهبن، فكانوا كذلك، حتى إذا طال عليهم الأمد وقرموا<sup>(٢)</sup> إلى الحيتان، عمد رجل منهم فأخذ حوتاً سراً يوم السبت فحزمه بخيط ثم أرسله في الماء وأوتد له وتداً في الساحل فأوثقه تم تركه، حتى إذا كان الغد جاء فأخذه أي إني لم أخذه في يوم السبت<sup>(٣)</sup>، فانطلق به فأكله، حتى إذا كان يوم السبت الآخر عاد لمثل ذلك، ووجد الناس ريح الحيتان، فقال أهل القرية: والله لقد وجدنا ريح الحيتان، ثم عثروا على صنيع ذلك الرجل، قال: ففعلوا كما فعل، وصنعوا سراً زماناً طويلاً لم يتعجل الله عليهم العقوبة حتى صادوها علانية وباعوها في الأسواق، فقالت طائفة منهم من أهل البقية: وبحكم انقاوا الله، ونهوهم عما كانوا يصنعون، فقالت طائفة أخرى لم تأكل الحيتان، ولم تنه القوم عما صنعوا، ﴿لَمْ يَعْظُمُنَّ قَوْمًا اللَّهُ مَهْلِكُهُمْ أَوْ مَعْذِبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ قالوا: معدرة إلى ربكم<sup>(٤)</sup> [الأعراف: ١٦٤] لسخطنا أعمالهم ﴿وَلِعَلَّهُمْ يَتَقَوَّنُ﴾. قال ابن عباس: في بينما هم على ذلك، أصبحت تلك البقية في أنديةهم ومساجدهم وقدروا الناس فلم يروهم، قال: فقال بعضهم لبعض: إن للناس شأنًا، فانظروا ما هو ذهباً ينظرون في دورهم، فوجدوها مغلقة عليهم، قد دخلوها ليلاً فغلقوها على أنفسهم كما يغلق الناس على أنفسهم، فأصبحوا فيها قردة، وإنهم ليعرفون الرجل بعينه وإنه لقرد، والمرأة وإنها لقردة، والصبي بعينه وإنه لقرد، قال: قال ابن عباس: فلو لا ما ذكر الله أنه نجى الذين نهوا عن السوء لقلنا أهلك الله الجميع منهم، قال: وهي القرية التي قال جل ثناؤه لمحمد<sup>صلوات الله عليه</sup> ﴿وَاسْأَلُوكُمْ عَنِ الْقَرِيرَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةً بِالْبَحْرِ﴾ [الأعراف: ١٦٣]، وروى الضحاك عن ابن عباس نحوه من هذا. وقال السدي في قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدُوا مِنْكُمْ غَيْرَ الْمُتَّقِينَ﴾ قال: هم أهل أيلة، وهي القرية التي كانت حاضرة البحر،

(١) الطبرى / ٣٧٤.

(٢) أي اشتدت شهوتهم إلى لحم الحيتان.

(٣) أي مدعياً، على سبيل الاحتيال والمخداعة، أنه لم يأخذه في يوم السبت.

فكانت الحيتان إذا كان يوم السبت، وقد حرم الله على اليهود أن يعملوا في السبت شيئاً، فلم يبق في البحر حوت إلا خرج حتى يخرجن خرطيمهن من الماء، فإذا كان يوم الأحد لزمن سفل البحر فلم ير منهن شيء حتى يكون يوم السبت، فذلك قوله تعالى ﴿وَاسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةً الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حَيَّاتُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شَرْعًا وَيَوْمًا لَا يَسْبِطُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ فاشتهى بعضهم السمك، فجعل الرجل يحفر الحفيرة ويجعل لها نهراً إلى البحر، فإذا كان يوم السبت فتح النهر فأقبل الموج بالحيتان يضرها حتى يلقاها في الحفيرة، فيزيد الحوت أن يخرج فلا يطبق من أجل قلة ماء النهر، فيمكث فيها، فإذا كان يوم الأحد جاء فأخذنه، فجعل الرجل يشوي السمك، فيجد جاره رواحه، فيسأله فيخبره، فيصنع مثل ما صنع جاره حتى فشا بهم أكل السمك، فقال لهم علماؤهم: ويحكم، إنما تصطادون يوم السبت وهو لا يحل لكم، فقالوا: إنما صدناه يوم الأحد حين أخذناه، قال الفقهاء: لا ولكنكم صدتموه يوم فتحتم له الماء فدخل، قال: وغلبوا أن يتنهوا. فقال بعض الذين نهوهם لبعض ﴿لَمْ تَعْظُنُوْنَ قَوْمًا اللَّهُ مَهْلِكُهُمْ أَوْ مَعْذِبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ يقول: لم تَعْظُنُوْنَهم وقد عظمتهم فلم يطيعوكم؟ فقال بعضهم ﴿مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعْلَهُمْ يَتَقَوَّنُ﴾ فلما أبوا، قال المسلمون: والله لا نساكنكم في قرية واحدة، فقسموا القرية بجدار وفتح المسلمون بباباً والمعتدلون في السبت بباباً ولعنهم داود عليه السلام، فجعل المسلمون يخرجون من بابهم، والكافر من بابهم، فخرج المسلمون ذات يوم ولم يفتح الكفار بابهم فلما أبطأوا عليهم، تصور المسلمون عليهم الحائط، فإذا هم قردة يثبت بعضهم على بعض، ففتحوا عنهم فذهبوا في الأرض، فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَا عَمَّا نَهَا عَنْهُ قَلْنَالَهُمْ كَوْنُوا قَرْدَةً خَاسِئِينَ﴾ وذلك حين يقول ﴿لَعْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسانِ دَاوِدَ وَعَيْسَى ابْنِ مَرِيمٍ﴾ [المائدة: ٧٨]: فهم القردة.

(قلت) والغرض من هذا السياق عن هؤلاء الأئمة، بيان خلاف ما ذهب إليه مجاهد رحمه الله، من أن مسخهم إنما كان معنوياً لا صورياً، بل الصحيح أنه معنوي وصوري، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا﴾ قال بعضهم: الضمير في فجعلناها عائد على القردة وقيل على الحيتان وقيل على العقوبة وقيل على القرية، حكاها ابن حرب<sup>(١)</sup>. وال الصحيح أن الضمير عائد على القرية، أي فجعل الله هذه القرية والمراد أهلها بسبب اعتدائهم في سبthem ﴿نَكَالًا﴾ أي عاقبناهم عقوبة فجعلناها عبرة كما قال الله عن فرعون ﴿فَأَخْذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ [النازعات: ٢٥] وقوله تعالى ﴿لَمَا بَيْنَ يَدِيهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ أي من القرى، قال ابن عباس: يعني جعلناها بما أحللنا بها من العقوبة عبرة لما حولها من القرى كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكَنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَفْنَا الْآيَاتِ لِعَلَمِ يَرْجِعُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٧] ومنه قوله تعالى ﴿أَوْ لَمْ

يروا أنا نأتي الأرض نقصها من أطراها» [الرعد: ٤١]، على أحد الأقوال في المكان، كما قال محمد بن إسحاق عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس: لما بين يديها من القرى وما خلفها من القرى، فالمراد لما بين يديها وما خلفها من القرى، وكذا قال سعيد بن جبير: لما بين يديها وما خلفها، قال: من بحضرتها من الناس يومئذ. وروي عن إسماعيل بن أبي خالد وقتادة وعطاء العوفي «جعلناها نكالاً لما بين يديها» قال: ما قبلها من الماضين في شأن السبت. وقال أبو العالية والربيع وعطاء: «وما خلفها» لما بقي بعدهم من الناس منبني إسرائيل أن يعملوا مثل عملهم، وكان هؤلاء يقولون: المراد لما بين يديها وما خلفها في الزمان. وهذا مستقيم بالنسبة إلى من يأتي بعدهم من الناس أن يكون أهل تلك القرية عبرة لهم، وأما بالنسبة إلى من سلف قبلهم من الناس فكيف يصح هذا الكلام أن تفسر الآية به، وهو أن يكون عبرة لمن سبقوهم؟ وهذا لعل أحداً من الناس لا يقوله بعد تصوره فتعين أن المراد بما بين يديها وما خلفها في المكان، وهو ما حولها من القرى، كما قاله ابن عباس وسعيد بن جبير، والله أعلم.

وقال أبو جعفر الرazi<sup>(١)</sup>، عن الريبع بن أنس، عن أبي العالية «فجعلناها نكالاً لما بين يديها وما خلفها» أي عقوبة لما خلا من ذنبهم. وقال ابن أبي حاتم: وروي عن عكرمة ومجاهد والسدي والقراء وابن عطية: لما بين يديها من ذنب القوم وما خلفها، لمن يعمل بعدها مثل تلك الذنوب. وحكى الرazi ثلاثة أقوال: أحدها: أن المراد بما بين يديها وما خلفها، من تقدمها من القرى<sup>(٢)</sup> بما عندهم من العلم بخبرها بالكتب المتقدمة ومن بعدها. والثاني: المراد بذلك من بحضرتها من القرى<sup>(٣)</sup> والأمم. والثالث: أنه تعالى، جعلها عقوبة لجميع ما ارتكبوا من قبل هذا الفعل وما بعده، وهو قول الحسن. (قلت) وأرجح الأقوال المراد بما بين يديها وما خلفها، من بحضرتها من القرى، يبلغهم خبرها وما حل بها، كما قال تعالى «ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى» [الأحقاف: ٢٧]، وقال تعالى: «ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة» [الرعد: ٣١]، وقال تعالى «أفلا يرون أنا نأتي الأرض نقصها من أطراها» [الرعد: ٤١] فجعلهم عبرة ونكالاً لمن في زمانهم، وموعظة لمن يأتي بعدهم بالخبر المتواتر عليهم، ولهذا قال «وموعظة للمتقين».

وقوله تعالى: «وموعظة للمتقين» قال محمد بن إسحاق، عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس «وموعظة للمتقين» الذين من بعدهم إلى يوم القيمة، وقال الحسن وقتادة «وموعظة للمتقين» بعدهم فيتقون نعمة الله ويحذرونها، وقال السدي وعطاء العوفي

(١) تفسير الرazi ١٠٤ / ٣.

(٢) في الرazi: «من الأمم والقرون».

(٣) في الرazi: «القرون».

﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ قال أمة محمد ﷺ (قلت) المراد بالموعظة ه هنا الزاجر أي جعلنا ما أحالنا بهؤلاء من الأساس والنکال في مقابلة ما ارتكبواه من محارم الله، وما تحيلوا به من الحيل ، فليحذر المتقوون صنيعهم لثلا يصيبهم ما أصابهم ، كما قال الإمام أبو عبد الله بن بطة : حدثنا أحمد بن محمد بن مسلم ، حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح الزعفراني ، حدثنا يزيد بن هارون ، حدثنا محمد بن عمر ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة : أن رسول الله ﷺ قال : «لا ترتكبوا ما ارتكبتم اليهود فستحلوا محارم الله بأدئي الحيل» وهذا إسناد جيد ، وأحمد بن محمد بن مسلم هذا ، وثقة الحافظ أبو بكر البغدادي وبباقي رجاله مشهورون على شرط الصحيح ، والله أعلم .

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذَبَّحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَنَجِدُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ

يقول تعالى : واذكروا يا بني إسرائيل نعمتي عليكم في خرق العادة لكم في شأن البقرة ، وبيان القاتل من هو بسببيها ، وإحياء الله المقتول ، ونصبه على من قتله منهم .

قال ابن أبي حاتم : حدثنا الحسن بن الصباح ، حدثنا يزيد بن هارون ، أباينا هشام بن حسان عن محمد بن سيرين ، عن عبيدة السلماني ، قال : كان رجل من بني إسرائيل عقيماً لا يولد له ، وكان له مال كثير ، وكان ابن أخيه وارثه ، فقتله ثم احتمله ليلاً ، فوضعه على باب رجل منهم ، ثم أصبح يدعيه عليهم حتى تسلحوا وركب بعضهم على بعض . فقال ذو الرأي منهم والنهي : علام يقتل بعضكم بعضاً ، وهذا رسول الله فيكم ؟ فأتوا موسى عليه السلام ، فذروا ذلك له ، فقال ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذَبَّحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَنَجِدُنَا هُزُوا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ قال : فلو لم يعتضوا لأجزاء عنهم أدنى بقرة ، ولكنهم شدوا ، فشدد عليهم حتى انتهوا إلى البقرة التي أمروا بذبحها ، فوجدوها عند رجل ليس له بقرة غيرها ، فقال : والله لا أنقصها من ملء جلدتها ذهباً ، فأخذوها بملء جلدتها ذهباً ، فذبحوها ، فضربوه ببعضها ، فقام فقالوا : من قتلك ؟ فقال : هذا - لابن أخيه ، ثم مال ميتاً ، فلم يعط من ماله شيئاً ، فلم يورث قاتل بعد . ورواه ابن جرير من حديث أيبوب ، عن محمد بن سيرين ، عن عبيدة بنحو من ذلك<sup>(١)</sup> ، والله أعلم . ورواه عبد بن حميد في تفسيره : أباينا يزيد بن هارون به ، ورواه آدم بن أبي إياس في تفسيره ، عن أبي جعفر هو الرازي ، عن هشام بن حسان به ، وقال آدم بن أبي إياس في تفسره : أباينا أبو جعفر الرازي عن الربيع عن أبي العالية في قول الله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذَبَّحُوا بَقَرَةً﴾ قال : كان رجل من بني إسرائيل ، وكان غنياً ، ولم يكن له ولد ، وكان له قريب ، وكان وارثه ، فقتله ليثره ، ثم القاه على مجمع الطريق ، وأتى موسى عليه السلام فقال له : إن قريبي قتل وأني إلى أمر عظيم ، وإنني لا أجد أحداً يبين لي من قتله غيرك يا نبي الله ، قال : فنادي

موسى في الناس ، فقال : أنسد الله من كان عنده من هذا علم إلا يبينه لنا ، فلم يكن عندهم علم فأقبل القاتل على موسى عليه السلام ، فقال له : أنت نبي الله ، فسل لنا ربك أن يبيّن لنا ، فسأل ربه ، فأوحى الله : « إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة » فعجبوها من ذلك ، فقالوا : « أتتخذنا هزوا ؟ قال أعود بالله أن أكون من الجاهلين \* قالوا ادع لنا ربك يبيّن لنا ما هي ؟ قال أنه يقول إنها بقرة لا فارض » يعني لا هرمة « ولا بكر » يعني ولا صغيرة « عوان بين ذلك » أي نصف بين البكر والهرمة « قالوا ادع لنا ربك يبيّن لنا ما لونها ؟ قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها » أي صاف لونها « تسر الناظرين » أي تعجب الناظرين « قالوا ادع لنا ربك يبيّن لنا ما هي ؟ إن البقر تشبه علينا وإنما إن شاء الله لم يهتدون \* قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول » أي لم يذللها العمل « تثير الأرض ولا تسقي الحرش » يعني وليست بذلول ، تثير الأرض ولا تسقي الحرش يعني ولا تعمل في الحرش « مسلمة » يعني مسلمة من العيوب « لا شيء فيها » يقول : لا يراض فيها « قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون » قال : ولو أن القوم حين أمروا بذبح بقرة ، استعرضوا بقرة من البقر فذبحوها لكيان إياها ، ولكن شددوا على أنفسهم ، فشدد الله عليهم ، ولو لا أن القوم استثنوا فقالوا : إنما إن شاء الله لم يهتدون ، لما هدوا إليها أبداً ، فبلغنا أنهم لم يجدوا البقرة التي نعمت لهم إلا عند عجوز وعندما يتأمّي وهي القيمة عليهم ، فلما علمت أنه لا يزکو لهم غيرها ، أضعفوا عليهم الثمن ، فأتوا موسى فأخبروه أنهم لم يجدوا هذا النعمت إلا عند فلانة ، وأنها سألت أضعاف ثمنها ، فقال موسى : إن الله قد خفف عليكم ، فشددتم على أنفسكم ، فأعطواها رضاها وحكمها . فعلوا واشتروها فذبحوها ، فأمرهم موسى عليه السلام أن يأخذوا عظماً منها فيضرموا القتيل ، ففعلوا ، فرجع إليه روحه ، فسمى لهم قاتله ، ثم عاد ميتاً كما كان ، فأخذ قاتله ، وهو الذي كان أتى موسى عليه السلام ، فشكأ إليه ، فقتله الله على أسوأ عمله .

وقال محمد بن جرير : حدثني أبي ، حدثني عمي ، حدثني أبي عن أبيه ، عن ابن عباس ، في قوله في شأن البقرة ، وذلك أن شيئاً من بني إسرائيل على عهد موسى عليه السلام كان مكتراً من المال ، وكان بنو أخيه فقراء لا مال لهم ، وكان الشيخ لا ولد له ، وكان بنو أخيه ورثته فقالوا ليت عمنا قد مات فورثنا ماله ، وإنما تطاول عليهم لأنهم يموت عمهم ، أتتهم الشيطان فقال لهم : هل لكم إلى أن تقتلوا عمكم فترثوا ماله ، وتغرموا أهل المدينة التي لست بها ديتها ؟ وذلك أنهما كانتا مدینتين كانوا في إحداهما ، وكان القتيل إذا قتل وطرح بين المدينتين ، قيس ما بين القتيل والقريتين ، فأيتهما كانت أقرب إليه ، غرم الدية ، وأنهم لما سول لهم الشيطان ذلك ، وتطاول عليهم أن لا يموت عمهم ، عمدوا إليه فقتلوا ، ثم عمدوا فطروحه على باب المدينة التي ليسوا فيها ، فلما أصبح أهل المدينة ، جاء بنو أخي الشيخ فقالوا : عمنا قتل على باب مدینتكم ، فوالله لغرن من لنا دية عمنا ، قال أهل المدينة : نقسم بالله ما قتلنا ولا علمنا قاتلاً ولا فتحنا باب مدینتنا منذ أغلق حتى أصبحنا ، وإنهم عمدوا إلى موسى عليه

السلام، فلما أتوه، قال بنو أخي الشيخ: عمنا وجدناه مقتولاً على باب مدینتهم، وقال أهل المدينة: نقسم بالله ما قتلناه ولا فتحنا باب المدينة من حين أغلقناه حتى أصبحنا، وإن جبرائيل جاء بأمر السميع العليم إلى موسى عليه السلام، فقال: قل لهم: «إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة» فتضربوه ببعضها، وقال السدي<sup>(١)</sup>: «إذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة» قال: كان رجل من بنى إسرائيل مكثراً من المال، فكانت له ابنة، وكان له ابن آخر محتاج، فخطب إليه ابن أخيه ابنته، فأبى أن يزوجه، فغضب الفتى وقال: والله لأقتلن عمي ولاخذن ماليه، ولأنكحن ابنته، ولا كلن ديته، فأتأهله الفتى وقد قدم تجارة في بعض أسباط بنى إسرائيل، فقال يا عم، انطلق معي فخذ لي من تجارة هؤلاء القوم لعلي أن أصيب منها، فإنهم إذا رأوك معك أعطوني فخرج العم مع الفتى ليلاً فلما بلغ الشیخ ذلك السبط قتله الفتى، ثم رجع إلى أهله، فلما أصبح جاء كأنه يطلب عمه، كأنه لا يدرى أين هو، فلم يجده، فانطلق نحوه، فإذا بذلك السبط مجتمعين عليه، فأخذهم وقال: قتلتكم عمي، فأدوا إليّ ديته، فجعل يبكي ويحثو التراب على رأسه وينادي واعمه، فرفعهم إلى موسى فقضى عليهم بالدية، فقالوا له: يا رسول الله ادع لنا ربك حتى يبين لنا من صاحبه ف يؤخذ صاحب القضية<sup>(٢)</sup>، فوالله إن ديته علينا لهينة، ولكن نستحي أن نعيشه به فذلك حين يقول تعالى: «إذ قتلت نفساً فدارأت نفساً فيها والله مخرج ما كتمت تكتمون» [البقرة: ٧٢] فقال لهم موسى: «إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة» قالوا: نسألك عن القتيل وعمن قتله، وتقولوا اذبحوا بقرة أتهزاً بنا «قال أعود بالله أن أكون من الجاهلين» قال ابن عباس: فلو اعترضوا بقرة فذبحوها لأجزاءٍ عنهم، ولكن شددوا وتعنتوا على موسى، فشدد الله عليهم، فقالوا: «ادع لنا ربك يبين لنا ما هي قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك» والفارض: الهرمة التي لا تولد، والبكر التي لم تلد إلا ولداً واحداً، والعوان النصف التي بين ذلك التي قد ولدت وولد ولدها «فافعلوا ما تؤمرون» قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها» قال: نقى لونها «تسرك الناظرين» قال: تعجب الناظرين «قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي إن البقر تتشابه علينا وإنما إن شاء الله لمهتدون» قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تشير الأرض ولا تسقي الحرش مسلمة لا شيء فيها» من بياض ولا سواد ولا حمرة «قالوا الآن جئت بالحق» فطلبوها فلم يقدروا عليها، وكان رجل من بنى إسرائيل من أب الناس بأبيه، وإن رجلاً مرت به معه لؤلؤ بيعيه، وكان أبوه نائماً تحت رأسه المفتاح، فقال له الرجل: تشتري مني هذا اللؤلؤ بسبعين ألفاً؟ فقال له الفتى: كما أنت حتى يستقيظ أبي فاخذه منه بمائتين ألفاً، قال الآخر: أيقطظ أباك وهو لك بستين ألفاً، فجعل التجار يحط له حتى بلغ ثلاثين ألفاً، وزاد الآخر على أن يتضرر أباه حتى يستيقظ حتى بلغ مائة

(١) تفسير الطبرى / ١ / ٣٨٠.

(٢) في الطبرى: «صاحب الجريمة».

ألف، فلما أكثر عليه قال: والله لا أشتريه منك بشيء أبداً، وأبى أن يوقيط أباه، فعوضه الله من ذلك اللؤلؤ أن جعل له تلك البقرة، فمرت به بنو إسرائيل يطلبون البقرة، وأبصروا البقرة عنده فسألوه أن يبيعهم إياها بقرة بيقرة، فأبى، فأعطوه اثنتين فأبى، فزادوه حتى بلغوا عشرة، فقالوا: والله لا نتركك حتى تأخذها منك، فانطلقوا به إلى موسى عليه السلام، فقالوا: يا نبي الله، إننا وجدناها عند هذا وأبى أن يعطيها وقد أعطيناها ثمناً، فقال له موسى: أعطهم بقرتك، فقال يا رسول الله، أنا أحق بمالـي، فقال: صدقت، وقال للقوم: أرضوا صاحبكم فأعطوه وزنها ذهباً، فأبى فأضعفوه له حتى أعطوه وزنها عشر مرات ذهباً، فباعهم إياها وأخذ ثمنها، فقال: اذبحوها فذبحوها، قال: اضربوه ببعضها، فضربوه بالبضعة التي بين الكتفين، فعاش، فسألوه: من قتلك؟ فقال لهم: ابن أخي، قال: أقتلـه فأخذـ مالـه وأنـجـ ابـنتهـ. فأخذـواـ الغـلامـ فـقتـلـوـهـ.

وقال سعيد: حدثنا حجاج هو ابن جريح، عن ابن جريح، عن مجاهد وحجاج، عن أبي معشر، عن محمد بن كعب القرظي ومحمد بن قيس - دخل حديث بعضهم في حديث بعض -، قالوا: إن سبطاً من بني إسرائيل لما رأوا كثرة شرور الناس، بنوا مدينة فاعترزوا شرور الناس، فكانوا إذا أمسوا لم يتركوا أحداً منهم خارجاً إلا أدخلوه، وإذا أصبحوا قام رئيسهم فنظر وأشرف، فإذا لم ير شيئاً فتح المدينة، فكانوا مع الناس حتى يمسوا، قال: وكان رجل من بني إسرائيل له مالـ كـثـيرـ، ولمـ يـكـنـ لهـ وـارـثـ غـيرـ أـخـيهـ، فـطـالـ عـلـيـهـ حـيـاتـهـ، فـقـتـلـهـ لـيـرـثـهـ، ثـمـ حـمـلـهـ فـوـضـعـهـ عـلـىـ بـابـ المـدـيـنـةـ، ثـمـ كـمـنـ فـيـ مـكـانـ هـوـ أـصـحـابـهـ، قـالـ: فـأـشـرـفـ رـئـيـسـ المـدـيـنـةـ فـنـظرـ، فـلـمـ يـرـ شـيـئـاً فـفـتـحـ الـبـابـ، فـلـمـ رـأـيـ القـتـيلـ رـدـ الـبـابـ، فـنـادـاهـ أـخـوـ الـمـقـتـولـ وـأـصـحـابـهـ: هـيـهـاتـ قـتـلـتـمـوـهـ ثـمـ تـرـدـوـنـ الـبـابـ، وـكـانـ مـوـسـىـ لـمـ رـأـيـ القـتـيلـ كـثـيرـاًـ فـيـ بـنـيـ إـسـرـائـيلـ كـانـ إـذـ رـأـيـ الـقـتـيلـ بـيـنـ ظـهـرـانـيـ الـقـوـمـ أـخـذـهـمـ فـكـادـ يـكـونـ بـيـنـ أـخـيـ الـمـقـتـولـ وـبـيـنـ أـهـلـ الـمـدـيـنـةـ قـتـالـ ثـمـ لـبـسـ الـفـرـيقـانـ السـلاحـ ثـمـ كـفـ بـعـضـهـمـ عـنـ بـعـضـ، فـأـتـوـ مـوـسـىـ، فـذـكـرـواـ لـهـ شـأنـهـ، قـالـواـ: يـاـ مـوـسـىـ إـنـ هـؤـلـاءـ قـتـلـوـاـ قـتـيـلـاًـ ثـمـ رـدـوـاـ الـبـابـ، قـالـ أـهـلـ الـمـدـيـنـةـ: يـاـ رـسـوـلـ الـلـهـ قـدـ عـرـفـتـ اـعـتـرـازـاـنـاـ الشـرـورـ، وـبـيـنـاـ مـدـيـنـةـ كـمـ رـأـيـتـ نـعـزـلـ شـرـورـ النـاسـ، وـالـلـهـ مـاـ قـتـلـنـاـ وـلـاـ عـلـمـنـاـ قـاتـلـاًـ، فـأـوـحـيـ اللـهـ تـعـالـىـ إـلـيـهـ أـنـ يـذـبـحـوـ بـقـرـةـ، فـقـالـ لـهـمـ مـوـسـىـ: ﴿إـنـ اللـهـ يـأـمـرـكـمـ أـنـ تـذـبـحـوـ بـقـرـةـ﴾ـ وـهـذـهـ السـيـاقـاتـ عـنـ عـبـيـدـةـ وـأـبـيـ الـعـالـيـةـ وـالـسـدـيـ وـغـيرـهـمـ، فـيـهـاـ اـخـتـلـافـ ماـ، وـالـظـاهـرـ أـنـهـاـ مـأـخـوذـةـ مـنـ كـتـبـ بـنـيـ إـسـرـائـيلـ، وـهـيـ مـاـ يـجـوزـ نـقـلـهـ، وـلـكـنـ لـاـ تـصـدـقـ وـلـاـ تـكـذـبـ، فـلـهـذـاـ لـاـ يـعـتـمـدـ عـلـيـهـ إـلـاـ مـاـ وـافـقـ الـحـقـ عـنـدـنـاـ، وـالـلـهـ أـعـلـمـ.

قـالـوـاـ أـذـعـ لـنـارـيـكـ يـبـيـنـ لـنـاـ مـاـ هـيـ قـالـ إـنـهـ يـقـوـلـ إـلـهـ بـقـرـةـ لـاـ أـرـضـ وـلـاـ سـكـرـ عـوـانـ يـبـيـنـ ذـلـكـ فـأـعـلـوـأـمـاـ تـوـمـرـوـنـ ﴿قـالـوـاـ أـذـعـ لـنـارـيـكـ يـبـيـنـ لـنـاـ مـاـ لـوـنـهـاـ قـالـ إـنـهـ يـقـوـلـ إـلـهـ بـقـرـةـ صـفـرـاءـ فـاقـعـ لـوـنـهـاـ سـرـ الـنـظـرـيـنـ ﴿قـالـوـاـ أـذـعـ لـنـارـيـكـ يـبـيـنـ لـنـاـ مـاـ هـيـ إـنـ الـبـقـرـ شـبـهـ عـلـيـنـاـ وـإـنـاـ إـنـ شـاءـ اللـهـ لـمـهـدـدـوـنـ ﴿قـالـ إـنـهـ يـقـوـلـ إـلـهـ بـقـرـةـ لـاـ دـلـلـ شـيـرـ الـأـرـضـ وـلـاـ سـقـيـ الـحـرـثـ مـسـلـمـةـ لـاـ شـيـةـ فـيـهـاـ قـالـوـاـ

الْأَعْلَمُ بِحَيْثُ مَا فِي الْحَقِّ كَذَّبُوهُ وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ

أخبر تعالى عن تunset بنى إسرائيل وكثرة سؤالهم لرسولهم، لهذا لما ضيقوا على أنفسهم ضيق الله عليهم، ولو أنهم ذبحوا أي بقرة كانت لوقعت الموقعة عنهم، كما قال ابن عباس وعبيدة وغير واحد، ولكنهم شددوا عليهم فقالوا: «ادع لنا ربك يبين لنا ما هي» أي ما هذه البقرة وأي شيء صفتها، قال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا ثمَّام بن علي، عن الأعمش، عن المنھال بن عمرو عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس، قال: لو أخذوا أدنى بقرة لاكتفوا بها، ولكنهم شددوا فشدد عليهم - استناد صحيح - وقد رواه غير واحد عن ابن عباس، وكذا قال عبیدة والسدی ومجاھد وعکرمة وأبو العالیة وغير واحد، وقال ابن جریح: قال لی عطاء: لو أخذوا أدنی بقرة لکفthem، قال ابن جریح: قال رسول الله ﷺ: «إنما أمروا بأدنی بقرة ولكنهم لما شددوا شد الله عليهم وايم الله لو أنهم لم يستثنوا لما بینت لهم آخر الأبد» قال: «إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بکر» أي لا كبيرة هرمة ولا صغيرة لم يلحقها الفحل، كما قاله أبو العالیة والسدی ومجاھد وعکرمة وعطیة العوفی وعطاء الخراسانی ووھب بن منبه والضحاک والحسن وقتادة، وقاله ابن عباس أيضًا، وقال الضحاک عن ابن عباس: عوان بين ذلك، يقول نصف بين الكبير الصغیرة، وهي أقوى ما يكون من الدواب والبقر، وأحسن ما تكون، وروي عن عکرمة مجاهد وأبی العالیة والریبع بن أنس وعطاء الخراسانی والضحاک نحو ذلك، وقال السدی: العوان: النصف التي بين ذلك التي قد ولدت وولد ولدها، وقال هشیم، عن جویر، عن کثیر بن زیاد، عن الحسن في البقرة: كانت بقرة وحشیة، وقال ابن جریح، عن عطاء، عن ابن عباس: من ليس نعلاً صفراء لم يزل في سرور ما دام لا بسها، وذلك قوله تعالى: ﴿تَسْرِي صُفْرَاءَ فَاقِعَ لَوْنَهَا﴾ قال سوداء شديدة السواد، وهذا غریب، والصحيح الأول ولھذا أكد صفترتها بأنه ﴿فَاقِعَ لَوْنَهَا﴾ وقال عطیة العوفی ﴿فَاقِعَ لَوْنَهَا﴾ تکاد تسود من صفترتها، وقال سعید بن جبیر ﴿فَاقِعَ لَوْنَهَا﴾ قال: صافية اللون. وروي عن أبی العالیة والریبع بن أنس والسدی والحسن وقتادة نحوه، وقال شریک عن معمر عن ابن عمر ﴿فَاقِعَ لَوْنَهَا﴾ قال: صاف، وقال العوفی في تفسیره عن ابن عباس ﴿فَاقِعَ لَوْنَهَا﴾ تکاد تسود من صفترتها، وقال سعید بن جبیر ﴿فَاقِعَ لَوْنَهَا﴾ صافية اللون، وروي عن أبی العالیة والریبع بن أنس والسدی والحسن وقتادة نحوه، وقال شریک عن معمر عن ابن عمر ﴿فَاقِعَ لَوْنَهَا﴾ شديدة الصفرة، تکاد من صفترتها تبیض، وقال السدی ﴿تَسْرِي الناظرین﴾ أي تعجب الناظرین، وكذا قال أبو العالیة وقتادة والریبع بن أنس. وقال وہ بن منبه: إذا نظرت إلى جلدھا تخیلت أن شعاع الشمس يخرج من جلدھا. وفي التواریة:

أنها كانت حمراء وسوداء، فلعل هذا خطأ في التعریب، أو كما قال الأول: إنها كانت شديدة الصفرة تضرب إلى حمرة وسوداد، والله أعلم.

وقوله تعالى: «إن البقر تشابه علينا» أي لكثرتها، فميز لنا هذه البقرة وصفها وحلها لنا «وإنا إن شاء الله» إذا بيتها لنا «لمهتدون» إليها، وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن يحيى الأودي الصوفي، حدثنا أبو سعيد لأحمد بن داود الحداد، حدثنا سرور بن المغيرة الواسطي بن أخي منصور بن زاذان، عن عباد بن منصور، عن الحسن، عن أبي رافع، عن أبي هريرة: قال: قال رسول الله ﷺ «لولا أنبني إسرائيل قالوا «وإنا إن شاء الله لمهتدون» ما أعطوا أبداً، ولو أنهم اعترضوا بقرة من البقر فذبحوها لأجزاءٍ عنهم، ولكن شددوا، فشدد الله عليهم» وهذا حديث غريب من هذا الوجه، وأحسن أحواله أن يكون من كلام أبي هريرة كما تقدم مثله على السدي، والله أعلم.

«قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرش» أي إنها ليست مذلة بالحراثة ولا معدة للسقي في الساقية، بل هي مكرمة، حسنة، وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة: مسلمة يقول: لا عيب فيها، وكذلك قال أبو العالية والربيع. وقال مجاهد: مسلمة من الشيبة، وقال عطاء الخراساني: مسلمة القوائم والخلق لا شيء فيها، قال مجاهد: لا بياض ولا سواد، وقال أبو العالية والربيع والحسن وقتادة: ليس فيها بياض، وقال عطاء الخراساني: لا شيء فيها، قال: لونها واحد بهيم، وروي عن عطية العوفي ووهب بن منبه وإسماعيل بن أبي خالد نحو ذلك، وقال السدي: لا شيء فيها من بياض ولا سواد ولا حمرة. وكل هذه الأقوال متقاربة في المعنى. وقد زعم بعضهم أن المعنى في ذلك قوله تعالى: «إنها بقرة لا ذلول» ليست بمذلة بالعمل، ثم استأنف فقال: «تثير الأرض» أي يعمل عليها بالحراثة، لكنها لا تسقى الحرش، وهذا ضعيف لأنَّه فسر الذلول التي لم تذلل بالعمل بأنها لا تثير الأرض ولا تسقى الحرش، كذا قرره القرطبي<sup>(١)</sup> وغيره.

«قالوا الآن جئت بالحق» قال قتادة: الآن بینت لنا، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: قبل ذلك والله قد جاءهم الحق «فذبحوها وما كادوا يفعلون» قال الضحاك، عن ابن عباس: كادوا أن لا يفعلوا ولم يكن ذلك الذي أرادوا، لأنهم أرادوا أن لا يذبحوها، يعني أنهم مع هذا البيان وهذه الأسئلة والأجوبة والإيضاح ما ذبحوها إلا بعد الجهد، وفي هذا ذم لهم، وذلك أنه لم يكن غرضهم إلا التعتن، فلهذا ما كادوا يذبحونها. وقال محمد بن كعب ومحمد بن قيس: ذبحوها وما كادوا يفعلون لكترة ثمنها. وفي هذا نظر، لأن كثرة الثمن لم يثبت إلا من نقلبني إسرائيل كما تقدم من حكاية أبي العالية والسدي، ورواوه العوفي عن ابن عباس، وقال عبيدة

ومجاهد ووهب بن منبه وأبو العالية وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أنهم اشتروها بمال كثير، وفيه اختلاف، ثم قد قيل في ثمنها غير ذلك، وقال عبد الرزاق: أبناؤنا ابن عيينة، أخبرني محمد بن سوقة عن عكرمة، قال: ما كان ثمنها إلا ثلاثة دنانير، وهذا إسناد جيد عن عكرمة والظاهر أنه نقله عن أهل الكتاب أيضاً، وقال ابن جرير<sup>(١)</sup>، وقال آخرون: لم يكادوا أن يفعلوا ذلك خوف الفضيحة إن أطلع الله على قاتل القتيل الذي اختصصوا فيه [إلى موسى]<sup>(٢)</sup> ولم يستدنه عن أحد، ثم اختار أن الصواب في ذلك أنهم لم يكادوا يفعلوا ذلك لغلاء ثمنها وللفضيحة، وفي هذا نظر، بل الصواب، والله أعلم، ما تقدم من رواية الضحاك عن ابن عباس على ما وجهناه، وبالله التوفيق.

[مسألة] استدل بهذه الآية في حصر صفات هذه البقرة حتى تعينت أو تم تقديرها بعد الإطلاق على صحة السلم في الحيوان، كما هو مذهب مالك والأوزاعي والليث والشافعي وأحمد وجمهور من العلماء سلفاً وخلفاً بدليل ما ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ: «لا تنتن المرأة المرأة لزوجها كأنه ينظر إليها» وكما وصف النبي ﷺ، إبل الديبة في قتل الخطأ، وشبه العمد بالصفات المذكورة بالحديث، وقال أبو حنيفة والثوري والковفيون: لا يصح السلم في الحيوان لأنها لا تنضبط أحواله، وحكي مثله عن ابن مسعود وحذيفة بن اليمان وعبد الرحمن بن سمرة وغيرهم.

وَإِذْ قُتِلْتُمْ نَفْسًا فَادْرَأُوهُمْ فِيهَا وَاللَّهُ خَرِجَ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧﴾ فَقُلْنَا أَضْرِبُوهُ بِعَصْمَهَا كَذَلِكَ يُحِيِّ اللَّهُ أَمْوَالَهُ وَيُرِيكُمْ أَيْتَهُ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٨﴾

قال البخاري: «فadarأتم فيها» اختلftم، وهكذا قال مجاهد، قال فيما رواه ابن أبي حاتم، عن أبيه، عن ابن حذيفة، عن شبل، عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، إنه قال في قوله تعالى: «وَإِذْ قُتِلْتُمْ نَفْسًا فَادْرَأُوهُمْ فيها» اختلftm. وقال عطاء الخراساني والضحاك: اختلftم فيها، وقال ابن جريج «وَإِذْ قُتِلْتُمْ نَفْسًا فَادْرَأُوهُمْ فيها» قال بعضهم: أنت قتلتـموه، وقال آخرون: بل أنت قتلتـموه، وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسم «والله خرج ما كـنـتـم تـكـتـمـون» قال مجاهد: ما تغـيـيـوـنـ، وقال ابن أبي حاتم: حدثـنا عمـرو بن مـسلـم الـبـصـرـيـ، حدثـنا مـحـمـدـ بنـ الطـفـيلـ الـعـبـدـيـ، حدثـنا صـدـقـةـ بنـ رـسـمـ، سـمعـتـ المسـبـبـ بنـ رـافـعـ يـقـولـ: ما عـمـلـ رـجـلـ حـسـنـةـ فـيـ سـبـعـةـ أـيـاتـ إـلـاـ أـظـهـرـهـاـ اللـهـ، وـمـاـ عـمـلـ رـجـلـ سـيـئـةـ فـيـ سـبـعـةـ أـيـاتـ إـلـاـ أـظـهـرـهـاـ اللـهـ، وـتـصـدـيقـ ذـلـكـ فـيـ كـلـامـ اللـهـ «وـالـلـهـ خـرـجـ مـاـ كـنـتـمـ تـكـتـمـونـ \*ـ فـقـلـنـاـ أـضـرـبـوـهـ بـعـصـمـهـاـ كـذـلـكـ يـحـيـ اللـهـ أـمـوـالـهـ وـيـرـيـكـمـ أـيـتـهـ لـعـلـكـمـ تـعـقـلـوـنـ»ـ هـذـاـ الـبـعـضـ أـيـ شـيـءـ كـانـ مـنـ أـعـضـاءـ هـذـهـ الـبـقـرـةـ، فـالـمـعـجـزـ حـاـصـلـةـ بـهـ، وـخـرـقـ الـعـادـةـ بـهـ، وـقـدـ كـانـ مـعـيـنـاـ فـيـ نـفـسـ

(١) الطبرى / ٣٩٧.

(٢) الزيادة من الطبرى.

الأمر، فلو كان في تعينه لنا فائدة تعود علينا في أمر الدين أو الدنيا لبينه الله تعالى لنا، ولكنه أبهمه ولم يجيء من طريق صحيح عن مخصوص بيانيه، فنحن نبهمه كما أبهمه الله، ولهذا قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان حدثنا عفان بن مسلم حدثنا عبد الواحد بن زياد حدثنا الأعمش عن المنهاج بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال إن أصحاب بقرة بنى إسرائيل طلبوها أربعين سنة حتى وجدها عند رجل في بقر له وكانت بقرة تعجبه، قال: فجعلوا يعطونه بها فإذا بـ حتى أعطوه ملء مسكتها<sup>(١)</sup> دنانير، فذبحوها، فضربوه - يعني القتيل - بعضه منها، فقام تشتبه أوداجه دماً، فقالوا له من قتلك؟ قال: قتلني فلان، وكذا قال الحسن وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: أنه ضرب ببعضها، وفي رواية عن ابن عباس أنه ضرب بالعظم الذي يلي الغضروف وقال عبد الرزاق أنبأنا معاذ، قال: قال أويوب عن ابن سيرين، عن عبيدة: ضربوا القتيل ببعض لحمها، قال معاذ: قال قتادة: ضربوه بلحام فخذلها فعاش، فقال: قتلني فلان، وقال وكيع بن الجراح في تفسيره: حدثنا النضر بن عرببي عن عكرمة «فقلنا اضربوه ببعضها» فضرب بفخذلها، فقام فقال: قتلني فلان، قال ابن أبي حاتم: وروي عن مجاهد وقتادة وعكرمة نحو ذلك. وقال السدي: ضربوه بالبضعة التي بين الكتفين، فعاش، فسألوه فقال: قتلني ابن أخي، وقال أبو العالية: أمرهم موسى عليه السلام، أن يأخذوا عظيماً من عظامها فيضربوا به القتيل، ففعلوا فرجع إليه روحه، فسمى لهم قاتله، ثم عاد ميتاً كما كان، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ضربوه ببعض آرائها<sup>(٢)</sup> وقيل: بلسانها وقيل بعجب<sup>(٣)</sup> ذنبها.

وقوله تعالى: «وكذلك يحيى الله الموتى» أي ضربوه فحيي، ونبيه تعالى على قدرته وإحياء الموتى بما شاهدوه من أمر القتيل، جعل تبارك وتعالى ذلك الصناع حجة لهم على المعاد، وفاصلاً ما كان بينهم من الخصومة والعناد، والله تعالى قد ذكر في هذه السورة مما خلقه من إحياء الموتى في خمسة مواضع: «ثم بعثناكم من بعد موتكم» وهذه القصة، وقصة الذين خرجوا من ديارهم وهو ألف حذر الموت، وقصة الذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها، وقصة إبراهيم عليه السلام والطيور الأربع. ونبيه تعالى بإحياء الأرض بعد موتها على إعادة الأجسام بعد صيرورتها رمياً، كما قال أبو داود الطيالسي: حدثنا شعبه، أخبرني يعلى بن عطاء، قال: سمعت وكيع بن عدس يحدث عن أبي رزين العقيلي رضي الله عنه، قال: قلت يا رسول الله، كيف يحيي الله الموتى؟ قال: «أما مررت بباد محل، ثم مررت به خضراً؟ قال بلـ. قال: «كذلك النشور» أو قال: «كذلك يحيى الله الموتى» وشاهد هذا قوله تعالى: «وآية لهم الأرض الميتة أحيناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون» وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب

(١) أي ملء جلدتها.

(٢) الآراب: جمع إرب، وهو العضو. أي ضربوه ببعض أعضائه.

(٣) عجب الذنب:الجزيء في أصل الذنب عند رأس العصعص.

وَفِجْرَنَا فِيهَا مِنَ الْعَيْنِ لِيأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلْتَهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ》 [سُورَةُ الْبَقَرَةِ : ٣٣ - ٣٥].

[مسألة] استدل لمذهب الإمام مالك في كون قول الجريح: «فلان قتلني، لوثاً»<sup>(١)</sup> بهذه القصة، لأن القتيل لما حبي سئل عن قته، فقال فلان قتلني، فكان ذلك مقبولاً منه، لأنه لا يخبر حينئذ إلا بالحق، ولا يتم لهم والحالة هذه. ورجحوا ذلك لحديث أنس أن يهودياً قتل جارية على أوضاع<sup>(٢)</sup> لها، فرضخ رأسها بين حجرين، فقيل: من فعل بك هذا، أفلان؟ أفلان؟ حتى ذكروا اليهودي، فأومأت برأسها، فأخذ اليهودي، فلم يزل به حتى اعترف، فأمر رسول الله ﷺ أن يرخص رأسه بين حجرين، وعند مالك إذا كان لوثاً، حلف أولياء القتيل قسامته، وخالف الجمهور في ذلك، ولم يجعلوا قول القتيل في ذلك لوثاً.

**ثُمَّ قَسْتُ قُلُوبَكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَنْفَجِرُ مِنْهُ الْأَنْهَرُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقَقْ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خُشْبَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ يُغَنِّفُ عَمَّا تَعْمَلُونَ**

يقول تعالى توبىخاً لبني إسرائيل وتقريراً لهم على ما شاهدوه من آيات الله تعالى وإحياءه الموتى: «ثُمَّ قَسْتُ قُلُوبَكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ كُلَّهُ، فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ الَّتِي لَا تَلِينُ أَبَدًا، وَلَهُذَا نَهَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ الْمُثُلِّ حَالَهُمْ، فَقَالُوا: أَلَمْ يَأْنَ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعْ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَّلَ مِنْهُ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أَوْتَوْا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمْدُ فَقَسْتُ قُلُوبَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسْقَوْنَ» [الحديد: ١٦] قال العوفى في تفسيره عن ابن عباس: لما ضرب المقتول بعض البقرة جلس أحياناً ما كان قط ، فقيل له: من قتلك؟ قال: بنو أخي قتلوني ثم قبض ، فقال بنو أخيه حين قبضه الله: والله ما قتلناه فكذبوا بالحق بعد أن رأوه فقال الله: «ثُمَّ قَسْتُ قُلُوبَكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ» ، يعني أبناء أخي الشيخ فهي كالحجارة أو أشد قسوة ، فصارت قلوب بنى إسرائيل مع طول الأمد قاسية بعيدة عن الموعظة بعد ما شاهدوه من الآيات والمعجزات ، فهي في قسوتها كالحجارة التي لا علاج للينها أو أشد قسوة من الحجارة فإن من الحجارة ما يتفجر منها العيون بالأنهار الجارية ، ومنها ما يشقق فيخرج منه الماء وإن لم يكن جاريًّا ، ومنها ما يهبط من رأس الجبل من خشبة الله وفيه إدراك لذلك بحسبه ، كما قال: «تَسْبِعُ لِهِ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبِعُ بِحَمْدِهِ وَلَكُنْ لَا تَفْقَهُنَّ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا» [الإسراء: ٤٤].

وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد: إنه كان يقول: كل حجر يتفجر منه الماء: أو يتشقق عن ماء أو يتردى من رأس جبل لمن خشية الله نزل بذلك القرآن. وقال محمد بن إسحاق حدثني

(١) اللوث عند الإمام الشافعى: شبه الدلاله، ولا يكون بنية تامة. وفي حديث القسامه ذكر اللوث، وهو أن يشهد شاهد واحد على إقرار المقتول، قبل أن يموت، بأن فلاناً قتلني أو يشهد شاهدان على عداوة بينهما، أو تهديد منه له، أو نحو ذلك. وهو من التلوث: التلطخ (لسان العرب).

(٢) الأوضاح: الحلبي من الدرر المصححة، والخلاخل.

محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس ﴿وَإِنْ مِنَ الْحَجَرَةِ لَمَا يَنْفُجْرِي  
مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقْ فِي خُرُجِ الْمَاءِ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطْ مِنْ خُشْبَةِ اللَّهِ﴾ أي وإن من  
الحجارة لألين من قلوبكم عمما تدعون إليه من الحق ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

وقال أبو علي الجياني في تفسيره ﴿وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطْ مِنْ خُشْبَةِ اللَّهِ﴾ هو سقوط البرد من  
السحب. قال القاضي الباقلاني: وهذا تأويل بعيد، وتبعد في استبعاده الرازي، وهو كما قال  
فإن هذا خروج عن اللفظ بلا دليل، والله أعلم. وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي، حدثنا هشام بن  
عمار، حدثنا الحكم بن هشام الثقفي، حدثني يحيى بن أبي طالب يعني يحيى بن يعقوب في  
قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنَ الْحَجَرَةِ لَمَا يَنْفُجْرِي مِنْ الْأَنْهَارِ﴾ قال: كثرة البكاء ﴿وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقْ  
فِي خُرُجِ الْمَاءِ﴾ قال: قليل البكاء ﴿وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطْ مِنْ خُشْبَةِ اللَّهِ﴾ قال: بكاء القلب من غير  
دموع العين.

وقد زعم بعضهم أن هذا من باب المجاز، وهو إسناد الخشوع إلى الحجارة كما أسننت  
الإرادة إلى الجدار في قوله: ﴿يَرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ﴾ [الكهف: ٧٧] قال الرازي والقرطبي وغيرهما  
من الأئمة: ولا حاجة إلى هذا، فإن الله تعالى يخلق فيها هذه الصفة كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا  
عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجَبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلُنَّاهَا وَأَشْفَقُنَّهُنَّا﴾ [الأحزاب: ٧٢]  
وقال: ﴿تَسْبِحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ [الإسراء: ١٧]، وقال: ﴿وَالنَّجْمُ  
وَالشَّجَرُ يَسْجُدُان﴾ [الرحمن: ٦] ﴿أَوْ لَمْ يَرُوا إِلَيْهِ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظَلَالَهُ﴾ [النحل:  
٤٨]، ﴿فَقَالَتِ الْأَنْجَوْنَ طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ﴾ [الحشر: ٢١]:  
﴿وَقَالُوا لِجَلَودِهِمْ لَمْ شَهَدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقْنَا اللَّهَ﴾ [فصلت: ٢١]، وفي الصحيح «هذا جبل  
يحبنا ونحبه» وكحنين الجدع المتواتر خبره، وفي صحيح مسلم «إني لأعرف حجرًا بمكة كان  
يسلم على قبل أن أبعث إني لا أعرفه الآن» وفي صفة الحجر الأسود: إنه يشهد لمن استلم بحق  
يوم القيمة، وغير ذلك مما في معناه. وحكي القرطبي قوله أولاً أنها للتخيير أي مثلاً لهذا وهذا  
مثل: جالس الحسن أو ابن سيرين. وكذا حكاية الرازي في تفسيره وزاد قوله آخر: إنها للإبهام  
بالنسبة إلى المخاطب، كقول القائل: أكلت خبزاً أو تمراً، وهو يعلم أيهما أكل، وقال آخر: إنها  
بمعنى قول القائل: كل حلواً أو حامضاً، أي لا يخرج عن واحد منها، أي وقلوبكم صارت  
كالحجارة أو أشد قسوة منها لا تخرج عن واحد من هذين الشيئين، والله أعلم.

[تنبيه] اختلف علماء العربية في معنى قوله تعالى: ﴿فَهِيَ كَالْحَجَرَةِ أَوْ أَشَدَّ قَسْوَةً﴾ بعد  
الإجماع على استحالة كونها للشك، فقال بعضهم: أو هبنا بمعنى الواو، تقديره: فهي  
كالحجارة وأشد قسوة، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْعُهُمْ آثَمًا أَوْ كُفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤] ﴿عَذْرًا أَوْ  
نَذْرًا﴾ [المرسلات: ٦] وكما قال النابغة الذبياني: [البسيط]

قالت ألا ليتما هذا الحمام لنا إلى حمامتنا أو نصفه فقد<sup>(١)</sup>

تريد ونصفه، قاله ابن جرير<sup>(٢)</sup>، وقال جرير بن عطية: [البسيط]

نال الخلافة أو كانت له قدرًا كما أتى ربه موسى على قدر<sup>(٣)</sup>

قال ابن جرير: يعني نال الخلافة وكانت له قدرًا وقال آخرون: أو ه هنا بمعنى بل فتقديره فهي كالحجارة بل أشد قسوة، وقوله: «إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية» [النساء: ٧٧]، «وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون» [الصفات: ١٤٧]، فكان «قاب قوسين أو أدنى» [النجم: ٩] وقال آخرون: معنى ذلك: «فيها كالحجارة أو أشد قسوة» عندكم حكاہ ابن جریر. وقال آخرون: المراد بذلك الإيهام على المخاطب، كما قال أبو الأسود: [الوافر]

أَحَبْ مُحَمَّدًا حَبَّاً شَدِيدًا  
وَعَبَاسًا وَحْمَزَةَ وَالْوَصَيْلَا  
فَإِنْ يَكْ جَهَنَّمَ رَشِيدًا أَصْبَهُ  
وَلَيْسَ بِمُخْطَيْءِ إِنْ كَانَ غَيْرًا<sup>(٤)</sup>

وقال ابن جرير: قالوا: ولا شك أن أبا الأسود لم يكن شاكاً في أن حب من سمي رشد، ولكنه أبهم على من خطابه [بـ]<sup>(٥)</sup>، قال: وقد ذكر عن أبي الأسود أنه لما قال هذه الأبيات، قيل له: شركت؟ فقال: كلا والله، ثم انتزع. يقول الله تعالى: «وَإِنَّا أَوْ إِيَّا كُمْ لَعَلَى هَدِي أَوْ ضَلَالٍ مُّبِينٍ» [سبأ: ٢٤] فقال: أو كان شاكاً من أخبر بهذا من الهادي منهم ومن الضال؟ وقال بعضهم: معنى ذلك فقلوبكم لا تخرج عن أحد هذين المثلتين، إما أن تكون مثل الحجارة في القسوة، وإما أن تكون أشد منها في القسوة. قال ابن جرير ومعنى ذلك على هذا التأويل، فبعضها كالحجارة قسوة، وبعضها أشد قسوة من الحجارة؛ وقد رجحه ابن جرير مع توجيهه غيره.

(قلت) وهذا القول الأخير يبقى شبيهاً بقوله تعالى: «مُثُلُّهُمْ كَمُثُلُ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا» [البقرة: ١٧] مع قوله: «أَوْ كَصِيبٍ مِّن السَّمَاءِ» [البقرة: ١٩] وقوله: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالَهُمْ كَسْرَابٌ بَقِيعَةٌ» [النور: ٣٩] مع قوله: «أَوْ كَظُلْمَاتٍ فِي بَحْرٍ لَّجْجِي» [النور: ٤٠]، أي

(١) البيت للنابغة في ديوانه ص ٢٤؛ والأزهية ص ٨٩؛ والأغاني ٣١/١١؛ والإنصاف ٢/٤٧٩؛ وتنكرة النحة ص ٣٥٣؛ وخزانة الأدب ٢٥١/١٠؛ والخصائص ٤٦٠.

(٢) تفسير الطبرى ٢/٢٣٦.

(٣) ويروى « جاء الخلافة ». والبيت لجرير في ديوانه ص ٤١٦؛ والأزهية ص ١١٤؛ وخزانة الأدب ١١/٦٦٩؛ والدرر ١١٨/٦؛ وشرح شواهد المغني ١/١٩٦؛ والمقاصد النحوية ٤٨٥/٢.

(٤) البيتان لأبي الأسود في القرطبي ١/٤٦٣. وفيه: « وحمة أو علياً » مكان « وحمة والوصيّا ». وتفسير الطبرى ١/٤٠٥.

(٥) الزيادة من الطبرى.

إن منهم من هو هكذا، ومنهم من هو هكذا، والله أعلم.

وقال الحافظ أبو بكر بن مردوه: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا محمد بن أبيوب حدثنا محمد بن عبد الله بن أبي الثلوج حدثنا علي بن حفص حدثنا إبراهيم بن عبد الله بن حاطب عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله ، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة القلب ، وإن أبعد الناس من الله: القلب القاسي» رواه الترمذى في كتاب الزهد من جامعه عن محمد بن عبد الله بن أبي الثلوج صاحب الإمام أحمد به ، ومن وجه آخر عن إبراهيم بن عبد الله بن الحارث بن حاطب به ، وقال: غريب لا نعرفه إلا من حديث إبراهيم ، وروى البزار عن أنس مرفوعاً «أربع من الشقاء: جمود العين ، وقساوة القلب ، وطول الأمل ، والحرص على الدنيا».

﴿فَأَفْتَنَمُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَمَنَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقْلَوْهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَكَ ﴾<sup>vii</sup> وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا مَآمِنُنَا وَإِذَا خَلَّ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَخْدِثُوهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْنَكُمْ لِيَحْجُجُوكُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمْ أَفْلَأُ لَعْقَلُونَ ﴾<sup>viii</sup> أَوْلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلَمُونَ ﴾<sup>ix</sup>

يقول تعالى: «أفتشمعون» أيها المؤمنون «أن يؤمنوا لكم» أي ينقاد لكم بالطاعة هؤلاء الفرقة الضالة من اليهود شاهد أباوهم من الآيات البينات ما شاهدوه، ثم قست قلوبهم من بعد ذلك: «وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه» أي يتأولونه على غير تأويله «من بعد ما عقلوه» أي فهموه على الجلية ومع هذا يخالفونه على بصيرة «وهم يعلمون» أنهم مخطئون فيما ذهبوا إليه من تحريفه وتأويله، وهذا المقام شبيه بقوله تعالى: «فبما نقضهم ميثاقهم لعنهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه» [النساء: ٤٦] قال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس، أنه قال: ثم قال الله تعالى لنبيه ﷺ ولمن معه من المؤمنين يؤيدهم منهم «أفتشمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله» وليس قوله: يسمعون كلام الله: يسمعون التوراة كلهم قد سمعها، ولكن هم الذين سألوا موسى رؤية ربهم فأخذتهم الصاعقة فيها. وقال محمد بن إسحاق، فيما حدثني بعض أهل العلم: أنهم قالوا لموسى: يا موسى، قد حيل بيننا وبين رؤية ربنا تعالى فأسمينا كلامه حين يكلمك، فطلب ذلك موسى إلى ربه تعالى، فقال: نعم، مرحهم فليتطهروا ولطيطهروا ثيابهم ويصوموا، ففعلوا ثم خرج بهم حتى أتوا الطور، فلما غشياهم الغمام، أمرهم موسى أن يسجدوا، فوقعوا سجوداً، وكلمه ربهم، فسمعوا كلامه يأمرهم وينهاهم حتى عقلوا منه ما سمعوا، ثم انصرف بهم إلىبني إسرائيل، فلما جاءهم، حرف فريق منهم ما أمرهم به، وقالوا: حين قال موسى لبني إسرائيل: إن الله قد أمركم بكلذا وكذا، قال ذلك الفريق الذين

ذكرهم الله : إنما قال كذا وكذا خلافاً لما قال الله عز وجل لهم فهم الذين عنى الله لرسوله ﷺ .

وقال السدي : « وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه » قال : هي التوراة حرفوها ، وهذا الذي ذكره السدي أعم مما ذكره ابن عباس وابن إسحاق ، وإن كان قد اختاره ابن جرير لظاهر السياق ، فإنه ليس يلزم من سمع كلام الله أن يكون منه كما سمعه الكليم موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام ، وقد قال الله تعالى : « وإن أحد من المشركين استجبارك فأجره حتى يسمع كلام الله » [التوبه : ٦] أي مبلغاً إليه ، ولهذا قال قتادة في قوله : « ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه ما عقلوه وهم يعلمون » قال : هم اليهود كانوا يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه ووعواه ، وقال مجاهد : الذين يحرفونه والذين يكتمونه هم العلماء منهم ، وقال أبو العالية : عمدوا إلى ما أنزل الله في كتابهم من نعت محمد ﷺ فحرفوه عن مواضعه ، وقال السدي « وهم يعلمون » أي أنهم أذنوا ، وقال ابن وهب : قال ابن زيد في قوله : « يسمعون كلام الله ثم يحرفونه » قال : التوراة التي أنزلها الله عليهم يحرفونها ، يجعلون الحلال فيها حراماً والحرام فيها حلالاً ، والحق فيها باطلًا والباطل فيها حقاً ، إذا جاءهم المحق برشوة أخرجوه كتاب الله ، وإذا جاءهم المبطل برشوة أخرجوه ذلك الكتاب فهو فيه محق ، وإذا جاءهم أحد يسألهم شيئاً ليس فيه حق ولا رشوة ولا شيء أمروه بالحق ، فقال الله لهم : « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلأ تعقلون » [البقرة : ٤٤] .

وقوله تعالى : « وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض » الآية ، قال محمد بن إسحاق : حدثنا محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير ، وعن ابن عباس « وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا » أي بصاحبكم محمد رسول الله ، ولكنه إليكم خاصة ، وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا : لا تحدثوا العرب بهذا فإنكم قد كتم تستفتحون به عليهم فكان منهم ، فأنزل الله « وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم » أي تقرؤن بأنهنبي ، وقد علمتم أنه قد أخذ له الميثاق عليكم باتباعه ، وهو يخبرهم أنه النبي الذي كنا ننتظر ونجد في كتابنا ، اجحدوه ولا تقرروا به . يقول الله تعالى « أولاً يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون » .

وقال الضحاك عن ابن عباس : يعني المنافقين من اليهود ، كانوا إذا لقوا أصحاب محمد ﷺ قالوا : آمنا ، وقال السدي : هؤلاء ناس من اليهود ، آمنوا ثم نافقوا . وكذا قال الريبع بن أنس وقتادة وغير واحد من السلف والخلف حتى قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فيما رواه ابن وهب عنه كان رسول الله ﷺ قد قال « لا يدخلن علينا قصبة المدينة إلا مؤمن » فقال رؤساؤهم من أهل الكفر والتفاق : اذهبوا فقولوا : آمنا واكفروا إذا رجعتم إلينا ، فكانوا يأتون المدينة بالبكر ويرجعون إليهم بعد العصر . وقرأ قول الله تعالى « وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون » [آل عمران : ٧٢] وكانوا يقولون إذا

دخلوا المدينة: نحن مسلمون ليعلموا خبر رسول الله ﷺ وأمره، فإذا رجعوا إلى الكفر، فلما أخبر الله نبيه ﷺ قطع ذلك عنهم، فلم يكونوا يدخلون، وكان المؤمنون يظلون أنهم مؤمنون فيقولون: أليس قد قال الله لكم كذا وكذا، فيقولون: بلـ، فإذا وجهـ إلى قومـهمـ، يعني الرؤساءـ، فقالـواـ: «أتحـدـثـونـهـ بـمـاـ فـتـحـ اللـهـ عـلـيـكـمـ» الآيةـ.

وقال أبو العالية: «أتحـدـثـونـهـ بـمـاـ فـتـحـ اللـهـ عـلـيـكـمـ» يعني بما أنزل عليكم في كتابكم من محمد ﷺ، وقال عبد الرزاق عن عمر عن قتادة: «أتحـدـثـونـهـ بـمـاـ فـتـحـ اللـهـ عـلـيـكـمـ لـيـحـاجـوـكـمـ بـهـ عـنـ دـرـبـكـمـ» قالـ: كانواـ يـقـولـونـ: سيـكـونـ نـبـيـ، فـخـلـاـ بـعـضـهـمـ بـعـضـ، «قالـواـ أـتـحـدـثـونـهـ بـمـاـ فـتـحـ اللـهـ عـلـيـكـمـ» قولـ آخرـ فيـ المرـادـ بـالـفـتـحـ. قالـ ابنـ جـريـجـ: حـدـثـيـ القـاسـمـ بـنـ أـبـيـ بـرـزـةـ عـنـ مـجـاهـدـ فـيـ قـوـلـهـ تـعـالـىـ: «أـتـحـدـثـونـهـ بـمـاـ فـتـحـ اللـهـ عـلـيـكـمـ» قالـ: قـامـ النـبـيـ ﷺ يـوـمـ قـرـيـظـةـ تـحـتـ حـصـونـهـمـ، فـقـالـ: يـاـ إـخـوـانـ الـقـرـدـةـ وـالـخـنـازـيرـ، وـيـاـ عـبـدـ الـطـاغـوتـ، فـقـالـواـ: مـنـ أـخـبـرـ بـهـذـاـ الـأـمـرـ مـحـمـداـ؟ مـاـ خـرـجـ هـذـاـ القـوـلـ إـلـاـ مـنـكـمـ «أـتـحـدـثـونـهـ بـمـاـ فـتـحـ اللـهـ عـلـيـكـمـ» بـمـاـ حـكـمـ اللـهـ لـلـفـتـحـ يـكـوـنـ لـهـمـ حـجـةـ عـلـيـكـمـ. قالـ ابنـ جـريـجـ عـنـ مـجـاهـدـ: هـذـاـ حـينـ أـرـسـلـ إـلـيـهـمـ عـلـيـاـ فـآذـواـ مـحـمـداـ ﷺ. وـقـالـ السـدـيـ: «أـتـحـدـثـونـهـ بـمـاـ فـتـحـ اللـهـ عـلـيـكـمـ» مـنـ الـعـذـابـ لـيـحـاجـوـكـمـ بـهـ عـنـ دـرـبـكـمـ هـؤـلـاءـ نـاسـ مـنـ الـيـهـودـ آمـنـواـ ثـمـ نـافـقـواـ، فـكـانـواـ يـحـدـثـونـ الـمـؤـمـنـيـنـ مـنـ الـعـربـ بـمـاـ عـذـبـواـ بـهـ، فـقـالـ بـعـضـهـمـ لـبـعـضـ: «أـتـحـدـثـونـهـ بـمـاـ فـتـحـ اللـهـ عـلـيـكـمـ» مـنـ الـعـذـابـ لـيـقـولـواـ: نـحـنـ أـحـبـ إـلـىـ اللـهـ مـنـكـمـ، وـأـكـرـمـ عـلـىـ اللـهـ مـنـكـمـ. وـقـالـ عـطـاءـ الـخـرـاسـانـيـ: «أـتـحـدـثـونـهـ بـمـاـ فـتـحـ اللـهـ عـلـيـكـمـ» يعني بـمـاـ قـضـىـ لـكـمـ وـعـلـيـكـمـ. وـقـالـ الـحـسـنـ الـبـصـرـيـ: هـؤـلـاءـ الـيـهـودـ كـانـواـ إـذـ لـقـواـ الـذـيـنـ آمـنـواـ قـالـواـ: آمـنـاـ، وـإـذـ خـلـاـ بـعـضـهـمـ إـلـىـ بـعـضـ قـالـ بـعـضـهـمـ: لـاـ تـحـدـثـواـ أـصـحـابـ مـحـمـدـ بـمـاـ فـتـحـ اللـهـ عـلـيـكـمـ مـاـ فـيـ كـتـابـكـمـ لـيـحـاجـوـكـمـ بـهـ عـنـ دـرـبـكـمـ فـيـخـصـمـوـكـمـ.

وقـلـهـ تـعـالـىـ: «أـوـلـاـ يـعـلـمـ أـنـ اللـهـ يـعـلـمـ مـاـ يـسـرـونـ وـمـاـ يـعـلـنـونـ» قـالـ أبوـ العـالـيـةـ: يعني ما أـسـرـواـ مـنـ كـفـرـهـ بـمـحـمـدـ ﷺ وـتـكـذـيـبـهـ بـهـ، وـهـمـ يـجـدـونـ مـكـتـوبـاـ عـنـهـمـ، وـكـذـاـ قـالـ قـتـادـةـ. وـقـالـ الـحـسـنـ: «إـنـ اللـهـ يـعـلـمـ مـاـ يـسـرـونـ» قـالـ: كـانـ ماـ أـسـرـواـ أـنـهـمـ كـانـواـ إـذـ تـولـواـ عـنـ أـصـحـابـ مـحـمـدـ ﷺ وـخـلـاـ بـعـضـهـمـ إـلـىـ بـعـضـ، تـناـهـواـ أـنـ يـخـبـرـ أـحـدـ مـنـهـمـ أـصـحـابـ مـحـمـدـ ﷺ بـمـاـ فـتـحـ اللـهـ عـلـيـهـمـ مـاـ فـيـ كـتـابـهـمـ خـشـيـةـ أـنـ يـحـاجـهـمـ أـصـحـابـ مـحـمـدـ ﷺ بـمـاـ فـيـ كـتـابـهـمـ عـنـ دـرـبـهـمـ «وـمـاـ يـعـلـنـونـ» يعني حـينـ قـالـواـ لـأـصـحـابـ مـحـمـدـ ﷺ: وـآمـنـاـ. كـذـاـ قـالـ أبوـ العـالـيـةـ وـالـرـبـيعـ وـقـتـادـةـ.

وـمـنـهـمـ أـمـيـونـ لـاـ يـعـلـمـوـنـ الـكـتـبـ إـلـاـ أـمـاـنـاـ وـإـنـ هـمـ إـلـاـ يـظـلـوـنـ (٧٦) فـوـيـلـ لـلـذـيـنـ يـكـثـرـونـ الـكـتـبـ بـأـيـدـيـهـمـ ثـمـ يـقـوـلـوـنـ هـذـاـ مـنـ عـنـدـ اللـهـ لـيـشـرـرـ وـأـيـهـ، ثـمـنـاـ فـيـلـاـ لـهـمـ مـمـاـ كـنـتـ أـيـدـيـهـمـ وـوـيـلـ لـهـمـ مـمـاـ يـكـسـبـوـنـ (٧٧)

يـقـولـ تـعـالـىـ: «وـمـنـهـمـ أـمـيـونـ» أيـ وـمـنـ أـهـلـ الـكـتـابـ، قـالـ مـجـاهـدـ. وـالـأـمـيـونـ جـمـعـ أـمـيـ، وـهـوـ

الرجل الذي لا يحسن الكتابة. قال أبو العالية والربيع وقتادة وإبراهيم النخعي وغير واحد: وهو ظاهر في قوله تعالى ﴿لَا يعْلَمُونَ الْكِتَابَ﴾ أي لا يدركون ما فيه. ولهذا في صفات النبي ﷺ: أنه الأمي لأنه لم يكن يحسن الكتابة، كما قال تعالى ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُطْ بِيَمِينِكَ إِذَا لَأْرَاتِ الْمُبْطَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨] وقال عليه الصلاة السلام «إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب الشهر هكذا وهكذا» الحديث، أي لا نفتقر في عبادتنا ومواقعها إلى كتاب ولا حساب، وقال تبارك وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأَمَمِينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢] وقال ابن جرير<sup>(١)</sup>: نسبت العرب من لا يكتب ولا يخط من الرجال إلى أمه من جهله بالكتاب دون أبيه. قال: وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: قول خلاف هذا، وهو ما حدثنا به أبو كريب حدثنا عثمان بن سعيد، عن بشر بن عمارة، عن أبي روف، عن الضحاك، عن ابن عباس، في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أَمِيَّونَ﴾ قال: الأميون قوم لم يصدقوا رسولاً أرسله الله، ولا كتاباً أنزله الله، فكتبوا كتاباً بأيديهم، ثم قالوا لقوم سفلة جهال: هذا من عند الله، وقال: قد أخبر أنهم يكتبون بأيديهم ثم سماهم أميين لجحودهم كتب الله ورسله، ثم قال ابن جرير: وهذا التأويل تأويل على خلاف ما يعرف من كلام العرب المستفيض بينهم، وذلك أن الأمي عند العرب الذي لا يكتب. قلت: ثم في صحة هذا عن ابن عباس بهذا الإسناد نظر، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَمَانِي﴾ قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس: إلا أمانى الأحاديث. وقال الضحاك عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿إِلَّا أَمَانِي﴾ يقول: إلا قولًا يقولون بأفواههم كذباً. وقال مجاهد إلا كذباً: وقال سنيد عن حجاج، عن ابن جريج، عن مجاهد ﴿وَمِنْهُمْ أَمِيَّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي﴾ قال: أناس من اليهود، لم يكونوا يعلمون من الكتاب شيئاً، وكانوا يتكلمون بالظن بغير ما في كتاب الله ويقولون هو من الكتاب، أمانى يتمنونها. وعن الحسن البصري نحوه. وقال أبو العالية والربيع وقتادة: إلا أمانى يتمنون على الله ماليس لهم. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إلا أمانى، قال: تمنوا فقالوا: نحن من أهل الكتاب وليسوا منهم. قال ابن جرير: والأشبه بالصواب قول الضحاك عن ابن عباس. وقال<sup>(٢)</sup> مجاهد: إن الأميين الذين وصفهم الله تعالى أنهم لا يفهون من الكتاب الذي أنزله الله تعالى على موسى شيئاً ولكنهم يترخصون الكذب ويترخصون الأباطيل كذباً وزوراً، والتمني في هذا الموضع هو تخلق الكذب وتخرصه، ومنه الخبر المروري عن عثمان بن عفان رضي الله عنه: ما تغنيت ولا تمنيت، يعني ما تخرست الباطل ولا اختلقت الكذب. وقيل المراد بقوله إلا أمانى بالتشديد والتخفيف أيضاً: أي إلا تلاوة، فعلى هذا يكون استثناء منقطعًا، واستشهدوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿إِلَّا إِذَا تَمَنَّى - أَيْ تَلَا - أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أَمْنِيَّتِهِ﴾ [الحج: ٥٢]، وقال كعب بن مالك الشاعر:

(١) الطبرى ٤١٧ / ١.

(٢) في الطبرى: «قول مجاهد». والكلام ما زال للطبرى بقصد اختياره.

[الطوبل]

تمنى كتاب الله أول ليلة وآخره لاقى حمام المقادير<sup>(١)</sup>  
وقال آخر : [الطوبل]

تمنى كتاب الله آخر ليلة تمي داود الكتاب على رسول<sup>(٢)</sup>

وقال محمد بن إسحاق : حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ﴿لَا يعلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيٌّ وَإِنَّهُمْ إِلَّا يَظْنُونَ﴾ [البقرة : ٧٨] أي ولا يدركون ما فيه ، وهم يجدون نبوتك بالظن . وقال مجاهد : ﴿وَإِنَّهُمْ إِلَّا يَظْنُونَ﴾ يكذبون . وقال قتادة وأبو العالية والريبع : يظنون بالله الظنوں بغير الحق .

وقوله تعالى : ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَيَشْتَرِوْنَا بِهِ ثُمَّاً قَلِيلًا﴾ الآية ، هؤلاء صنف آخر من اليهود . وهم الدعاة إلى الضلال بالزور والكذب على الله وأكل أموال الناس بالباطل ، والويل : الهلاك والدمار ، وهي كلمة مشهورة في اللغة . وقال سفيان الثوري عن زياد بن فياض : سمعت أبا عياض يقول : ويل : صديد في أصل جهنم . وقال عطاء بن يسار : الويل واد في جهنم لو سيرت فيه الجبال لماعت . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا يونس بن عبد الأعلى ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرني عمرو بن الحارث عن دراج ، عن أبي الهيثم عن أبي سعيد الخدري ، عن رسول الله ﷺ قال : «ويل واد في جهنم يهوي فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره» ورواه الترمذى عن عبد الرحمن بن حميد ، عن الحسن بن موسى ، عن ابن لهيعة ، عن دراج به ، وقال : هذا الحديث غريب لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة .

(قلت) لم ينفرد به ابن لهيعة كما ترى ، ولكن الآفة ممن بعده ، وهذا الحديث بهذا الإسناد مرفوع منكر ، والله أعلم .

وقال ابن جرير حدثنا المثنى ، حدثنا إبراهيم بن عبد السلام ، حدثنا صالح القشيري<sup>(٣)</sup> ، حدثنا علي بن جرير عن حماد بن سلمة ، عن عبد الحميد بن جعفر ، عن كنانة العدوى ، عن عثمان بن عفان رضي الله عنه ، عن رسول الله ﷺ ﴿فَوَيْلٌ لَّهُمْ مَا كَتَبْتُ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مَا يَكْسِبُونَ﴾ قال «الويل جبل في النار». وهو الذي أنزل في اليهود ، لأنهم حرفوا التوراة ، زادوا فيها ما أحبوا ، ومحوا منها ما يكرهون ، ومحوا اسم محمد ﷺ من التوراة ولذلك غضب الله عليهم ، فرفع بعض التوراة فقال تعالى : ﴿فَوَيْلٌ لَّهُمْ مَا كَتَبْتُ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مَا يَكْسِبُونَ﴾

(١) البيت بلا نسبة في لسان العرب (مني) ؛ ومقاييس اللغة ٥/٢٧٧ ؛ وكتاب العين ٨/٣٩ ؛ وتابع العروس (مني) . ولحسان بن ثابت في تفسير ابن حيان ٦/٣٨٢ .

(٢) البيت بلا نسبة في لسان العرب (مني) ؛ وتابع العروس (منا) .

(٣) في الطبرى : «حدثنا إبراهيم بن عبد السلام بن صالح التستري ...» .

وَقَالُوا لَنْ تَمْسَنَا الْكَارِ إِلَّا أَيْسَىٰ مَعَذُودَةٌ قُلْ أَتَخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ وَأَمْ  
لَفْلُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾

يقول تعالى إخباراً عن اليهود فيما نقلوه وادعوه لأنفسهم من أنهم لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة، ثم ينجون منها، فرد الله عليهم ذلك بقوله تعالى ﴿قُلْ أَتَخْذِلُمْ عِنْ دِيَنِكُمْ أَيْ بَدْلٍ كَانَ قَدْ وَقَعَ عَهْدُهُ فَلَا يَخْلُفُ عَهْدَهُ﴾، ولكن هذا ما جرى ولا كان، ولهذا أتى بأم بذلك، فإن كان قد وقع عهد فهو لا يخلف عهده، ولكن هذا ما جرى ولا كان، ولهذا أتى بأم التي يمعنى بل، أي بل تقولون على الله ما لا تعلمون من الكذب والافتراء عليه.

قال محمد بن إسحاق عن سيف بن سليمان، عن مجاهد، عن ابن عباس: أن اليهود كانوا يقولون أن هذه الدنيا سبعة آلاف سنة، وإنما نعذب بكل ألف سنة يوماً في النار وإنما هي سبعة أيام معدودة فأنزل الله تعالى **(وقالوا لن تمسنا النار إلا أيامًا معدودة)** إلى قوله **(خالدون)** ثم

رواه عن محمد، عن سعيد أو عكرمة عن ابن عباس بنحوه. وقال العوفي عن ابن عباس **﴿وقالوا لِنْ تَمْسَنَا النَّارُ إِلَّا أَيَامًا مَعْدُودَةً﴾** اليهود قالوا: لن تمسنا النار إلا أربعين ليلة، زاد غيره وهي مدة عبادتهم العجل، وحکاهم القرطبي <sup>(١)</sup> عن ابن عباس وقتادة، وقال الضحاك وعن ابن عباس: زعمت اليهود أنهم وجدوا في التوراة مكتوبًا أن ما بين طرفي جهنم مسيرة أربعين سنة إلى أن ينتهوا إلى شجرة الزقوم التي هي نابتة في أصل الجحيم، وقال أعداء الله إنما نعذب حتى ننتهي إلى شجرة الزقوم فتدهب جهنم وتهلك قوله تعالى: **﴿وَقَالُوا لَنْ تَمْسَنَا النَّارُ إِلَّا أَيَامًا مَعْدُودَةً﴾**.

وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة **﴿وَقَالُوا لَنْ تَمْسَنَا النَّارُ إِلَّا أَيَامًا مَعْدُودَةً﴾** يعني الأيام التي عبدها فيها العجل. وقال عكرمة: خاصمت اليهود رسول الله ﷺ، فقالوا لن ندخل النار إلا أربعين ليلة، وسيختلفنا فيها قوم آخر، يعنون محمداً ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، فقال رسول الله ﷺ بيده على رؤوسهم «بل أنتم خالدون مخلدون لا يخلفكم فيها أحد» فأنزل الله عز وجل **﴿وَقَالُوا لَنْ تَمْسَنَا النَّارُ إِلَّا أَيَامًا مَعْدُودَةً﴾** الآية. وقال الحافظ أبو بكر بن مردوه رحمه الله: حدثنا عبد الرحمن بن جعفر، حدثنا محمد بن محمد بن صخر، حدثنا أبو عبد الرحمن المقرئ، حدثنا ليث بن سعد، حدثني سعيد بن أبي سعيد، عن أبي هريرة، قال: لما فتحت خير أهديت لرسول الله ﷺ، شاة فيها سم، فقال رسول الله ﷺ «اجمعوا لي من كان من اليهود هنا» فقال لهم رسول الله ﷺ «من أبوكم؟» قالوا فلان، قال «كذبتم بل أبوكم فلان» فقالوا: صدقتم وببرت، ثم قال لهم «هل أنتم صادقي عن شيء إن سألكم عنه؟» قالوا نعم يا أبي القاسم، وإن كذبناك عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا، فقال لهم رسول الله ﷺ «من أهل النار؟» فقالوا: نكون فيها يسيراً ثم تختلفون فيها، فقال لهم رسول الله ﷺ «اخسروا والله لا يخلفكم فيها أبداً» ثم قال لهم رسول الله ﷺ «هل أنتم صادقي عن شيء إن سألكم عنه؟» قالوا: نعم يا أبي القاسم، قال: «هل جعلتم في هذه الشاة سماً؟» فقالوا: نعم، قال «فما حملتم على ذلك؟» فقالوا: أردنا إن كنت كاذباً أن نستريح منك، وإن كنتنبياً لم يضر، ورواه الإمام أحمد والبخاري والنسائي من حديث الليث بن سعد بنحوه <sup>(٢)</sup>.

**بَلْ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَاتٍ وَاحْكَمَتْ بِهِ حَطِيشَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ الْكَارِهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴿١﴾  
**وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴿٢﴾

يقول تعالى: ليس الأمر كما تمنيتم ولا كما تشتهون، بل الأمر أنه من عمل سيئة وأحاطت به

(١) تفسير القرطبي ٢/١٠.

(٢) رواه البخاري (هبة باب ٢٨؛ وجزية باب ٧؛ وطبع باب ٥٥) والدارمي (مقدمة باب ١١). وأحمد في المسند (ج ٢ ص ٤٥١).

خطيئته وهو من وافق يوم القيمة وليس له حسنة بل جميع أعماله سيئات فهذا من أهل النار .  
 ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي آمنوا بالله ورسوله ، وعملوا الصالحات من العمل الموافق للشريعة فهم من أهل الجنة ، وهذا المقام شبيه بقوله تعالى : ﴿لَيْسَ بِأَمَانِكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلُ الْكِتَابَ مَنْ يَعْمَلُ سُوءًا يُجْزَاهُ وَلَا يَجِدُ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا \* وَمَنْ يَعْمَلُ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكْرٍ أَوْ أَثْنَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يُدْخَلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء : ١٢٣ - ١٢٤]

قال محمد بن إسحاق حدثني محمد بن أبي محمد عن سعيد أو عكرمة ، عن ابن عباس ﴿بَلِّي مِنْ كَسْبِ سَيِّئَة﴾ أي عمل مثل أعمالكم وكفر بمثل ما كفترت به حتى يحيط به كفره ، فماله من حسنة . وفي رواية عن ابن عباس ، قال : الشرك . قال ابن أبي حاتم : وروي عن أبي وائل وأبي العالية ومجاحد وعكرمة والحسن وقتادة والربيع بن أنس نحوه . وقال الحسن أيضًا والسدي : السيدة الكبيرة من الكبائر ، وقال ابن جريج ، عن مجاهد ﴿وَاحْاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ قال : بقلبه . وقال أبو هريرة وأبو وائل وعطاء والحسن ﴿وَاحْاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ قال : أحاط به شركه . وقال الأعمش عن أبي رزين عن الربيع بن خيثم ﴿وَاحْاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ قال الذي يموت على خطاياه من قبل أن يتوب ، وعن السدي وأبي رزين نحوه ، وقال أبو العالية ومجاحد والحسن في رواية عنهما ، وقتادة والربيع بن أنس ﴿وَاحْاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ والموجبة الكبيرة ، وكل هذه الأقوال متقاربة في المعنى ، والله أعلم .

ويذكر هنا الحديث الذي رواه الإمام أحمد<sup>(١)</sup> حيث قال : حدثنا سليمان بن داود ، حدثنا عمرو بن قنادة عن عبد ربه ، عن أبي عياض ، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : «إياكم ومحقرات الذنوب فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه» وإن رسول الله ﷺ ضرب لهم مثلًا كمثل قوم نزلوا بأرض فلاد ، فحضر صنيع القوم ، فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود ، والرجل يجيء بالعود حتى جمعوا سواداً ، وأججو ناراً فأنصجوا ما قدفوا فيها . وقال محمد بن إسحاق حدثني محمد عن سعيد أو عكرمة ، عن ابن عباس ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُون﴾ أي من آمن بما كفترت به وعمل بما تركتم من دينه ، فلهم الجنة خالدين فيها ، يخبرهم أن الثواب بالخير والشر مقسم على أهله أبداً لا انقطاع له .

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيشَقَ بَنَى إِسْرَئِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهُ وَبِالْوَلَدِينِ إِخْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلثَّالِثِ حُسْنَا وَأَفِيمُوا الْأَسْلَوَةَ وَأَتُوا الْزَّكَوَةَ ثُمَّ تَوَلَّتُمُ إِلَّا قَلِيلًا قِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ

(١) مستند الإمام أحمد (ج ١ ص ٤٠٢).

يذكر تبارك وتعالى بني إسرائيل بما أمرهم به من الأوامر وأخذه ميثاقهم على ذلك وأنهم تولوا عن ذلك كله، وأعرضوا قصداً وعمداً وهم يعرفونه، ويذكرونـه، فأمرهم تعالى أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وبهذا أمر جميع خلقه، ولذلك خلقهم كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نَوْحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنباء: ٢٥] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَبَبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [آل عمران: ٣٦] وهذا هو أعلى الحقوق وأعظمها، وهو حق الله تبارك وتعالى أن يعبد وحده لا شريك له، ثم بعده حق المخلوقين وأكدهم وأولاً لهم بذلك حق الوالدين، ولهذا يقرن تبارك وتعالى بين حقه وحق الوالدين كما قال تعالى: ﴿أَنَّ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدِيكَ إِلَيَّ الْمَصِير﴾ [آل عمران: ١٤] وقال تبارك وتعالى: ﴿وَقُضِيَ رِبُّكَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَاهُ وَبِالوَالِدِينِ إِحْسَانًا﴾ [آل عمران: ٢٣] إلى أن قال ﴿وَاتَّ ذَا الْقُرْبَى حَقَهُ وَالْمُسْكِنُ وَابْنُ السَّبِيلِ﴾ [آل عمران: ٢٦] وفي الصحيحين عن ابن مسعود، قلت: يا رسول الله أي العمل أفضل؟ قال «الصلة على وقتها» قلت: ثم أي؟ قال «بر الوالدين» قلت: ثم أي؟ قال «الجهاد في سبيل الله» ولهذا جاء في الحديث الصحيح أن رجلاً قال: يا رسول الله من أبْرَ؟ قال «أمك» قال: ثم من؟ قال «أمك» قال: ثم من؟ قال: «أباك»؟ ثم أدناك ثم أدناك».

وقوله تعالى: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهُ﴾ قال الزمخشري خبر بمعنى الطلب وهو أكده، وقيل كان أصله «أن لا تعبدوا إلا الله» ونقل من قرأها من السلف، فحذفت أن فارتفع، وحكي عن أبي وابن مسعود أنهما قرأاها «لا تعبدوا إلا الله» ونقل هذا التوجيه القرطبي<sup>(١)</sup> في تفسيره عن سيبويه. قال: واختاره الكسائي والفراء، قال ﴿وَالْيَتَامَى﴾ وهم الصغار الذين لا كاسب لهم من الآباء، والمساكين الذين لا يجدون ما ينفقون على أنفسهم وأهليهم. وسيأتي الكلام على هذه الأصناف عند آية النساء التي أمرنا الله تعالى بها صريحاً في قوله ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالوَالِدِينِ إِحْسَانًا﴾ [آل عمران: ٣٦]، وقوله تعالى ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حَسَنًا﴾ [آل عمران: ٨٣] أي كلّهم طيّباً، ولينوا لهم جانباً، ويدخل في ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالمعروف كما قال الحسن البصري في قوله تعالى ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حَسَنًا﴾ فالحسن من القول يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويحملم ويعفو ويصفح، ويقول للناس: حسناً كما قال الله، وهو كل خلق حسن رضيه الله.

وقال الإمام أحمد<sup>(٢)</sup>: حدثنا أبو عامر الخزاز، عن أبي عمران الجوني، عن عبد الله بن الصامت، عن أبي ذر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال «لا تحقرن من المعروف شيئاً، وإن لم تجد فالق أخاك بوجه منطلق»<sup>(٣)</sup> وأخرجه مسلم في صحيحه، والترمذى،

(١) تفسير القرطبي ١٣/٢.

(٢) مسنـد الإمام أحمد (ج ٥ ص ١٧٣).

(٣) في المسند: «طلق».

وصححه من حديث أبي عامر الخازار واسمه صالح بن رستم به، وناسب أن يأمرهم بأن يقولوا للناس حسناً بعدهما أمرهم بالإحسان إليهم بالفعل، فجمع بين طرف الإحسان الفعلي والقولي، ثم أكد الأمر بعبادته والإحسان إلى الناس بالمعنى من ذلك وهو الصلاة والزكاة، فقال ﴿وَأَقِيمُوا الصلاة وَاتَّوْا الزَّكَاة﴾ وأخبر أنهم تولوا عن ذلك كله، أي تركوه وراء ظهورهم وأعرضوا عنه على عدم بعد العلم به إلا القليل منهم، وقد أمر الله هذه الأمة بنظير ذلك في سورة النساء بقوله ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدِينِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْبَيْتَمِيِّ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجَنْبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَ أَيْمَانَكُمْ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مِنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء : ٣٦] ففاقت هذه الأمة من ذلك بما لم تقم به أمة من الأمم قبلها، والله الحمد والمنة.

ومن النقول الغريبة ه هنا ما ذكره ابن أبي حاتم في تفسيره: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن خلف العسقلاني، حدثنا عبد الله بن يوسف يعني التنيسي، حدثنا خالد بن صبيح عن حميد بن عقبة، عن أسد بن وداعه: أنه كان يخرج من منزله فلا يلقى يهودياً ولا نصراانياً إلا سلم عليه، فقيل له: ما شأنك تسلم على اليهودي والنصراني؟ فقال: إن الله تعالى يقول: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حَسْنًا﴾ وهو السلام. قال: وروي عن عطاء الخراساني نحوه (قلت) وقد ثبت في السنة أنها لا يبدأون بالسلام، والله أعلم.

وإِذْ أَخَذْنَا مِنَّا قُلُومْ لَا تَسْفِكُونَ دَمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُمْ مِنْ دِيْرِكُمْ وَأَنْتُمْ تَشَهُّدُونَ ۝ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا لِتُنْكِمُ مِنْ دِيْرِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَيْنَهُمْ بِالْإِثْمِ وَالْعَدْوَنِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أَسْكَرَى تُفَنَّدُوهُمْ وَهُوَ مُحَمَّرٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَرَأَ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خَرَقَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَيْهِ أَشَدُ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِعَذَابِهِ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَشْرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُحْكَفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ بِنُصُرَوْنَ ۝

يقول تبارك وتعالى منكراً على اليهود الذين كانوا في زمان رسول الله ﷺ بالمدينة، وما كانوا يعانونه من القتال مع الأوس والخرج، وذلك أن الأوس والخرج وهم الأنصار كانوا في الجاهلية عباد أصنام، وكانت بينهم حروب كثيرة، وكانت يهود المدينة ثلاث قبائل: بنو قينقاع، وبني النضير: حلفاء الخرج، وبني قريطة: حلفاء الأوس، فكانت الحرب إذا نشب بينهم، قاتل كل فريق مع حلفائه، فيقتل اليهودي أعداءه، وقد يقتل اليهودي الآخر من الفريق الآخر، وذلك حرام عليهم في دينهم ونص كتابهم، ويخرجونهم من بيوتهم ويتهبون ما فيها من الأثاث والأمتعة والأموال، ثم إذا وضعت الحرب أوزارها استفزوا الأسرى من الفريق المغلوب عملاً بحكم التوراة، ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِعَضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضِهِ﴾ [البقرة: ٨٥]

ولهذا قال تعالى : ﴿وَإِذْ أَخْدَنَا مِثَاقَكُمْ لَا تَسْفَكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تَخْرُجُونَ أَنفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ أي لا يقتل بعضكم بعضاً ولا يخرجه من منزله ولا يظاهر عليه ، كما قال تعالى : ﴿فَتَوَبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُو أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ﴾ [البقرة : ٥٤] وذلك أن أهل الملة الواحدة بمنزلة النفس الواحدة كما قال عليه الصلاة والسلام «مثُل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتواصلهم بمنزلة الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسرير» .

وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشَهِّدُونَ﴾ أي ثم أقررت بمعرفة هذا الميثاق وصحته وأنتم تشهدون به ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هُؤُلَاءِ تَقْتَلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتَخْرُجُونَ فِرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ الآية ، قال محمد بن إسحاق بن يسار ، حدثني محمد بن أبي محمد عن سعيد بن جبير أو عكرمة ، عن ابن عباس ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هُؤُلَاءِ تَقْتَلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتَخْرُجُونَ فِرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ الآية ، قال : أنبيأهم الله بذلك من فعلهم ، وقد حرم عليهم في التوراة سفك دمائهم ، وافتراض عليهم فيها فداء أسراهם ، فكانوا فريقين : طائفة منهم بنو قينقاع وهم حلفاء الخزرج والنضير ، وقريطة وهم حلفاء الأوس ، فكانوا إذا كانت بين الأوس والخزرج حرب خرجت بنو قينقاع مع الخزرج ، وخرجت النضير وقريطة مع الأوس ، يظاهر كل واحد من الفريقين حلفاء على إخوانه حتى تسافكوا دماءهم بينهم وبأيديهم التوراة يعرفون فيها ما عليهم وما لهم ، والأوس والخزرج أهل شرك يعبدون الأوثان ولا يعرفون جنة ولا ناراً ولا بعثاً ولا قيامة ولا كتاباً ولا حلالاً ولا حراماً ، فإذا وضعت الحرب أوزارها ، افتدوا أسراهם تصديقاً لما في التوراة وأخذوا به بعضهم من بعض ، يفتدي بنو قينقاع ما كان من أسراهם في أيدي الأوس ، ويفتدى النضير وقريطة ما كان في أيدي الخزرج منهم ، ويطلبون ما أصابوا من دمائهم ، وقتلوا من قتلوا منهم فيما بينهم مظاهرة لأهل الشرك عليهم يقول الله تعالى ذكره حيث أنبيأهم بذلك ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِعِبْدِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة : ٨٥] أي تفادونهم بحكم التوراة وتقتلونهم وفي حكم التوراة أن لا يقتل ولا يخرج من داره ولا يظاهر عليه من يشرك بالله ويعبد الأوثان من دونه ابتغاء عرض الدنيا ؟ في ذلك من فعلهم مع الأوس والخزرج فيما بلغني نزلت هذه القصة .

وقال أسباط عن السدي : كانت قريطة حلفاء الأوس ، وكانت النضير حلفاء الخزرج فكانوا يقتتلون في حرب بينهم ، فتقاتل بنو قريطة مع حلفائهم النضير وحلفائهم ، وكانت النضير تقاتل قريطة وحلفاءها ويغلبونهم ، فيخربون ديارهم ويخرجونهم منها ، فإذا أسر رجل من الفريقين كلاهما ، جمعوا له حتى يفدوه ، فتغيرهم العرب بذلك يقولون : كيف تقاتلونهم وتقدونهم ، قالوا : إنما أمرنا أن نفديهم وحرم علينا قتالهم ، قالوا فلم تقتلونهم ؟ قالوا : إننا نستحي أن تستنزل حلفاؤنا ، فذلك حين عيرهم الله تبارك وتعالى فقال تعالى : ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هُؤُلَاءِ تَقْتَلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتَخْرُجُونَ فِرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ الآية .

وقال أسباط عن السدي عن الشعبي نزلت هذه الآية في قيس بن الخطيم ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هُؤُلَاءِ

تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم ﴿ الآية .

وقال أسباط عن السدي، عن عبد خير، قال: غزونا مع سليمان<sup>(١)</sup> بن ربيعة الباهلي بلنجر<sup>(٢)</sup> فحاصرنا أهلها، ففتحنا المدينة وأصبنا سبايا، واشترى عبد الله بن سلام يهودية بسبعمائة، فلما مر برأس الجالوت نزل به، فقال له عبد الله، يا رأس الجالوت، هل لك في عجوز ه هنا من أهل دينك تشتريها مني؟ قال: نعم، قال: أخذتها بسبعمائة درهم، قال: فإني أربحك سبعمائة أخرى، قال: فإني قد حلفت أن لا أقصصها من أربعة آلاف، قال: لا حاجة لي فيها، قال: والله لتشرينها مني أو لتكفرن بيديك الذي أنت عليه، قال: ادْنِ مِنِّي ، فدنا منه، فقرأ في آذنه مما في التوراة: إنك لا تجد مملاوكاً منبني إسرائيل إلا اشتريته، فأعترقه ﴿ وإن يأتوكم أسرى تفدوهم وهو محروم عليكم إخراجهم ﴾ قال: أنت عبد الله بن سلام؟ قال: نعم: فجاء بأربعة آلاف، فأخذ عبد الله ألفين، ورد عليه ألفين.

وقال آدم بن أبي إياس في تفسيره: حدثنا أبو جعفر يعني الرazi، حدثنا الربيع بن أنس، أخبرنا أبو العالية: أن عبد الله بن سلام مر على رأس الجالوت بالكوفة، وهو يفادى من النساء من لم يقع عليه العرب، ولا يفادى من وقع عليه العرب، فقال عبد الله: أما أنه مكتوب عندك في كتابك أن تفاديهن كلهن والذي أرشدت إليه الآية الكريمة، وهذا السياق ذم اليهود في قيامهم بأمر التواارة التي يعتقدون صحتها ومخالفتها شرعاً مع معرفتهم بذلك وشهادتهم له بالصحة، فلهذا لا يؤتمنون على ما فيها ولا على نقلها، ولا يصدقون فيما كتموه من صفة الرسول ﷺ ونعته وبعثه ومخرجه ومهاجرته وغير ذلك من شؤونه التي أخبرت بها الأنبياء قبله عليهم الصلاة والسلام، واليهود عليهم لعائن الله يكتامونه بينهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خَرْزٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أي بسبب مخالفتهم شرع الله وأمره ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَرَدُونَ إِلَى أَشَدِ الْعَذَابِ ﴾ جزاء على مخالفتهم كتاب الله الذي بأيديهم ﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْلَمُونَ \* أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ ﴾ أي استحبواها على الآخرة واختاروها ﴿ فَلَا يَخْفَى عَنْهُمُ الْعَذَابُ ﴾ أي لا يفتر عنهم ساعة واحدة ﴿ وَلَا هُمْ يَنْصُرُونَ ﴾ أي وليس لهم ناصر ينقذهم مما هم فيه من العذاب الدائم السرمدي ولا يجيرهم منه.

وَلَقَدْ أَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْتَ مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَأَتَيْنَا عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ الْبَيْتَنَتْ وَأَيَّدَنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُّسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا يَهُوَ أَنفُسُكُمْ أَسْتَكْبِرُتُمْ فَفَرِيقًا كَذَبْتُمْ وَفَرِيقًا نَفَّلُوْتُمْ

ينعت تبارك وتعالى بنبي إسرائيل بالعناد والمخالفة والاستكبار على الأنبياء، وأنهم

(١) في معجم البلدان: فتحها عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي. وفي فتوح البلدان للبلاذري: سلمان بن ربيعة الباهلي.

(٢) بلنجر: مدينة ببلاد الخزر خلف باب الأبواب. (معجم البلدان: ٤٨٩/١).

إنما يتبعون أهواءهم، فذكر تعالى أنه آتى موسى الكتاب وهو التوراة، فحرفوها وبدلوها وخالفوا أوامرها وأولوها، وأرسل الرسل والنبين من بعده الذين يحكمون بشرعيته كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التُّورَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا الْبَيْنُونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَانِيُّونَ وَالْأَحْجَارُ بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شَهِداء﴾ [المائدة: ٤٤]: ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَفِينَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرَّسُلِ﴾ قال السدي عن أبي مالك: أتبنا، وقال غيره: أردفنا والكل قريب كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُلَنَا تَتْرَى﴾ [المؤمنون: ٤٤] حتى ختم أنبياء بنى إسرائيل بعيسى ابن مرريم، فجاء بمخالفة التوراة في بعض الأحكام، ولهذا أعطاه الله من البيانات وهي المعجزات، قال ابن عباس من إحياء الموتى، وخلقه من الطين كهيئة الطير فينفع فيها ف تكون طيراً بإذن الله، وإبراء الأسماق، وإخباره بالغيب، وتأييده بروح القدس وهو جبريل عليه السلام - ما يدلهم على صدقه فيما جاءهم به، فاشتد تكذيب بنى إسرائيل له، وحسدهم وعنادهم لمخالفة التوراة في البعض، كما قال تعالى إخباراً عن عيسى: ﴿وَلَا حُلْكُمْ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي حُرِمَ عَلَيْكُمْ وَجَتَّبْتُمْ بِآيَةٍ مِّنْ رَبِّكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠]، فكانت بنو إسرائيل تعامل الأنبياء أسوأ المعاملة، ففريقاً يكذبونه، وفريقاً يقتلونه، وما ذاك إلا لأنهم يأتونهم بالأمور المخالفة لأهوائهم وآرائهم، وبالإلزام بأحكام التوراة التي قد تصرفوا في مخالفتها، فلهذا كان ذلك يشق عليهم فكذبواهم، وربما قتلوا بعضهم، ولهذا قال تعالى: ﴿أَنذَّلْنَا مَا جَاءَكُمْ رَسُولُنَا بِمَا لَا تَهُوَى أَنفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتَلُونَ﴾ .

والدليل على أن روح القدس هو جبريل، كما نص عليه ابن مسعود في تفسير هذه الآية، وتابعه على ذلك ابن عباس ومحمد بن كعب وإسماعيل بن خالد والسدسي والرابع بن أنس وعطاء العوفي وقادة مع قوله تعالى: ﴿نَزَّلْنَا بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينَ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذَرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٣] ما قال البخاري<sup>(١)</sup> وقال ابن أبي الزناد، عن أبي هريرة، عن عروة عن عائشة: أن رسول الله ﷺ وضع لحسان بن ثابت منبراً في المسجد، فكان ينافع عن رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ «اللَّهُمَّ أَيْدِي حَسَانَ بِرُوحِ الْقَدْسِ كَمَا نَافَعَكَ عَنْ نَبِيِّكَ» فهذا من البخاري تعليقاً. وقد رواه أبو داود في سنته عن ابن سيرين والترمذمي، عن علي بن حجر وإسماعيل بن موسى الفزاروي، ثلاثة، عن أبي عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن أبيه وهشام بن عروة، كلها عن عروة، عن عائشة به. قال الترمذمي: حسن صحيح، وهو حديث أبي الزناد، وفي الصحيحين من حديث سفيان بن عيينة، عن الزهرى عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة: أن عمر بن الخطاب مر بحسان وهو ينشد الشعر في المسجد، فللحظ إليه فقال: قد كنت أنشد فيه وفيه من هو خير منك، ثم التفت إلى أبي هريرة فقال أنشدك الله، أسمعت رسول الله ﷺ يقول: «أَجَبَ عَنِي اللَّهُمَّ أَيْدِي بِرُوحِ الْقَدْسِ» فقال: اللَّهُمَّ نَعَمْ، وفي بعض الروايات: أن رسول الله ﷺ قال لحسان

(١) صحيح البخاري (صلاة باب ٦٨؛ وبدء الخلق باب ٦).

«اهجهم - أو هاجهم - وجبريل معك» وفي شعر حسان قوله: [الوافر]

## وجبريل رسول الله فينا وروح القدس ليس به خفاء<sup>(١)</sup>

وقال محمد بن إسحاق: حدثني عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي حسين المكي، عن شهر بن حوشب الأشعري: أن نفراً من اليهود سألوا رسول الله ﷺ، قالوا: أخبرنا عن الروح، فقال: «أنشدكم بالله وب أيامه عندبني إسرائيل هل تعلمون أنه جبرائيل وهو الذي يأتيني؟» قالوا: نعم، وفي صحيح ابن حبان، عن ابن مسعود: أن رسول الله ﷺ قال: «إن روح القدس نفت في روبي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب». أقوال آخر - قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا منجاب بن الحارث، حدثنا بشر عن أبي روق، عن الضحاك، عن ابن عباس ﷺ وأيدناته بروح القدس قال: هو الاسم الأعظم الذي كان عيسى يحيي به الموتى. وقال ابن جرير<sup>(٢)</sup>: حدثت عن المنجاب ذكره، وقال ابن أبي حاتم: وروي عن سعيد بن جبیر نحو ذلك، ونقله القرطبي<sup>(٣)</sup> عن عبيد بن عمیر أيضاً قال: وهو الاسم الأعظم. وقال ابن أبي نجیح: الروح هو حفظة على الملائكة، وقال أبو جعفر الرازی عن الربيع بن أنس: القدس هو رب تبارك وتعالی، وهو قول كعب، وحکی القرطبي عن مجاهد والحسن البصري أنهما قالا: القدس: هو الله تعالى، وروحه: جبريل، وهو قول كعب، وحکی القرطبي عن مجاهد والحسن البصري أنهما قالا: القدس: هو الله تعالى، وروحه: جبیر. فعلی هذا يكون القول الأول، وقال السدي: القدس البركة. وقال العوفی عن ابن عباس: القدس: الطهر، وقال ابن جریر حدثنا یونس بن عبد الأعلى، أبیأنا ابن وهب، قال ابن زید فی قوله تعالى ﴿وَآیدَنَاهُ بِرُوحِ الْقَدْسِ﴾ قال: أید الله عیسی بالإنجیل روحًا كما جعل القرآن روحًا، كلاهما روح من الله، كما قال تعالى ﴿وَكَذَّلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشوری: ٥٢] ثم قال ابن جریر<sup>(٤)</sup>: وأولی التأویلات فی ذلك بالصواب قول من قال: الروح فی هذا الموضع: جبرائيل، فإن الله تعالى أخیر أنه أید عیسی به كما أخیر فی قوله تعالى ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرِيمٍ اذْكُرْ نَعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى الَّذِي أَذْكَرْتَكَ بِرُوحِ الْقَدْسِ تَكَلَّمُ النَّاسُ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلِمْتَكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالْتُّورَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ [المائدۃ: ١١٠]، فذكر أنه أیده به ، فلو كان الروح الذي أیده به هو الإنجیل، لكان قوله: «إذ أیدتك بروح القدس \* وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة

(١) الروایة المشهورة «ليس له كفاء» مكان «ليس به خفاء». والبیت لحسان فی دیوانه ص ٧٥؛ ولسان العرب (کفاء، جبر)؛ وكتاب العین ٤١٤ / ٥؛ وتهذیب اللغة ٣٨٩ / ١٠؛ وتجالی العروس (کفاء، جبر)؛ وأساس البلاغة (کفاء).

(٢) تفسیر الطبری ٤٤٩ / ١.

(٣) تفسیر القرطبي ٢٤ / ٢.

(٤) تفسیر الطبری ٤٤٩ / ١.

«والإنجيل» تكرير قول لا معنى له، والله سبحانه وتعالى أعز وأجل أن يخاطب عباده بما لا يفيدهم به، (قلت) ومن الدليل على أنه جبرائيل ما تقدم من أول السياق، والله الحمد.

وقال الزمخشري **﴿بِرُوحِ الْقَدْس﴾** بالروح المقدسة، كما تقول: حاتم العجود ورجل صدق ووصفها بالقدس كما قال: **﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾** فوصفه بالاختصاص والتقريب تكراة، وقيل: لأنه لم تضمه الأصلاب والأرحام الطوامث وقيل بجبريل، قيل بالإنجيل كما قال في القرآن **﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾** [الشورى: ٥٢] وقيل: باسم الله الأعظم الذي كان يحيي الموتى بذكره فتضمن كلامه قوله آخر، وهو أن المراد روح عيسى نفسه المقدسة المطهرة، وقال الزمخشري في قوله تعالى: **﴿فَرِيقًا كُلْدَبْتُمْ وَفَرِيقًا قُتْلَوْنَ﴾** إنما لم يقل وفريقاً قتلتم، لأنه أراد بذلك وصفهم في المستقبل أيضاً لأنهم حاولوا قتل النبي ﷺ بالسم والسحر وقد قال عليه السلام في مرض موته: «ما زالت أكلة خير تعادني فهذا أوان انقطاع أبيه» (قلت) وهذا الحديث في صحيح البخاري<sup>(١)</sup> وغيره.

وَقَالُوا قُلُوبُنَا غَلَفٌ بَلْ لَعْنُهُمُ اللَّهُ يُكْفِرُهُمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ [٨٨]

قال محمد بن إسحاق حدثني محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد، عن ابن عباس **﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غَلَفٌ﴾** أي في أكنة. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: **﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غَلَفٌ﴾** أي لا تفقهه. وقال العوفي عن ابن عباس: **﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غَلَفٌ﴾** هي القلب المطبوع عليها. وقال مجاهد **﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غَلَفٌ﴾** عليه غشاوة وقال عكرمة: عليها طابع، وقال أبو العالية: أي لا تفقهه، وقال السدي يقولون عليه غلاف، وهو الغطاء، وقال عبد الرزاق عن معمر، عن قتادة: فلا تعي ولا تفقهه، قال مجاهد وقتادة: وقرأ ابن عباس غلف، بضم اللام، وهو جمع غلاف، أي قلوبنا أوعية كل علم فلا تحتاج إلى علمك، قاله ابن عباس وعطاء **﴿بَلْ لَعْنُهُمُ اللَّهُ يُكْفِرُهُمْ﴾** أي طردتهم الله وأبعدهم من كل خير **﴿فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ﴾** قال قتادة: معناه لا يؤمن منهم إلا القليل **﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غَلَفٌ﴾** هو كقوله **﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكْنَةٍ مَا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾** [فصلت: ٥] وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله غلف، قال: تقول قلبي في غلاف فلا يخلص إليه مما تقول شيء، وقرأ **﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكْنَةٍ مَا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾** [فصلت: ٥] وهذا الذي رجحه ابن جرير، واستشهد بما روی من حديث عمرو بن مرة الجملي عن أبي البحترى، عن حذيفة قال: «القلوب أربعة» فذكر منها «وقلب أغلف مغضوب عليه وذاك قلب الكافر».

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الرحمن العززمي، أئبنا أبي، عن جدي، عن قتادة، عن الحسن في قوله: **﴿قُلُوبُنَا غَلَفٌ﴾** قال: لم تختن، هذا القول يرجع معناه إلى ما تقدم من عدم ظهارة قلوبهم وأنها بعيدة من الخير. قوله آخر - قال الضحاك عن ابن عباس **﴿وَقَالُوا﴾**

(١) صحيح البخاري (معاذي باب ٨٣).

قلوبنا غلف﴿ قال : يقولون قلوبنا غلف مملوءة لا تحتاج إلى علم محمد ولا غيره . وقال عطية العوفي عن ابن عباس ﴿وقالوا قلوبنا غلف﴾ أي أوعية للعلم ، وعلى هذا المعنى جاءت قراءة بعض الأنصار فيها ، حكاہ ابن جریر<sup>(١)</sup> . وقالوا : قلوبنا غلف ، بضم اللام ، نقلها الزمخشري ، أي جمع غلف ، أي أوعية ، بمعنى أنهم ادعوا أن قلوبهم مملوءة بعلم لا يحتاجون معه إلى علم آخر كما كانوا يفتون بعلم التوراة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ بل لعنهم الله بکفرهم فقليلًا ما يؤمّنون ﴾ أي ليس الأمر كما ادعوا بل قلوبهم ملعونة مطبوع عليها ، كما قال في سورة النساء : ﴿ وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بکفرهم فلا يؤمّنون إلا قليلاً ﴾ [النساء : ١٥٥] وقد اختلفوا في معنى قوله : ﴿ فقليلًا ما يؤمّنون ﴾ و قوله : ﴿ فلا يؤمّنون إلا قليلاً ﴾ [النساء : ٤٦] فقال بعضهم : فقليل من يؤمن منهم ، وقيل : فقليل إيمانهم بمعنى أنهم يؤمّنون بما جاءهم به موسى من أمر المعاد والثواب والعقاب ، ولكنه إيمان لا ينفعهم لأنّه مغمور بما كفروا به من الذي جاءهم به محمد ﷺ ، وقال بعضهم : إنما كانوا غير مؤمنين بشيء ، وإنما قال : فقليلًا ما يؤمّنون وهم بالجميع كافرون ، كما تقول العرب : قلما رأيت مثل هذا قط ، تريد ما رأيت مثل هذا قط ، وقال الكسائي : تقول العرب : من زنى بأرض قلما تبت ، أي لا تبت شيئاً ، حكاہ ابن جریر<sup>(٢)</sup> رحمة الله ، والله أعلم .

وَلَمَّا جَاءَهُمْ كَتَبْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلِ يَسْتَغْفِرُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا  
جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكُفَّارِ<sup>٨٩</sup>

يقول تعالى : ﴿ولما جاءهم﴾ ، يعني اليهود ، ﴿كتاب من عند الله﴾ وهو القرآن الذي أنزل على محمد ﷺ ﴿مصدق لما معهم﴾ يعني من التوراة ، قوله ﴿وكانوا من قبل يستغفرون على الذين كفروا﴾ أي وقد كانوا من قبل مجيء هذا الرسول بهذا الكتاب يستنصرون بمجيئه على أعدائهم من المشركين إذا قاتلوكم يقولون : إنه سيبعث النبي في آخر الزمان فقتلوكم معه قتل عاد وإرم ، كما قال محمد بن إسحاق ، عن عاصم بن عمرو ، عن قادة الأنصار ، عن أشياخ منهم ، قال : فيما والله وفيهم ، يعني في الأنصار وفي اليهود الذين كانوا جيرانهم نزلت هذه القصة يعني : ﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم و كانوا من قبل يستغفرون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به﴾ قالوا : كنا قد علّوناهم قهراً دهراً في الجاهلية ، ونحن أهل شرك ، وهم أهل كتاب ، وهم يقولون : إن نبياً سيبعث الآن تتبّعه قد أظل زمانه فقتلكم معه قتل عاد وإرم فلما بعث الله رسوله من قريش واتبعناه كفروا به . يقول الله تعالى : ﴿فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين﴾ .

(١) تفسير الطبرى / ١٤٥٢ .

(٢) الطبرى / ٤٥٤ .

وقال الضحاك، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلِ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال: يستنصرون، يقولون: نحن نعین محمداً عليهم، وليسوا كذلك بل يكذبون.

وقال محمد بن إسحاق: أخبرني محمد بن أبي محمد، أخبرني عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس: أن يهوداً كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه، فلما بعثه الله من العرب، كفروا به وتجحدوا ما كانوا يقولون فيه، فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء بن معروف وداود بن سلمة: يا عشر يهود، اتقوا الله وأسلموا، فقد كتم تستفتحون علينا بمحمد ﷺ ونحن أهل شرك وتبخروننا بأنه مبعوث وتصفونه بصفته، فقال سلام بن مشكم أخوبني النضير: ما جاءنا بشيء نعرفه، ما هو الذي كنا نذكر لكم، فينزل الله في ذلك من قولهم: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ أَنْدَلَّهُ مَصْدِقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ الآية.

وقال العوفي عن ابن عباس ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلِ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يقول: يستنصرون بخروج محمد ﷺ على مشركي العرب، يعني بذلك أهل الكتاب، فلما بعث محمد ﷺ ورأوه من غيرهم، كفروا به وحسدوه. وقال أبو العالية: كانت اليهود تستنصر بمحمد ﷺ على مشركي العرب، يقولون: اللهم ابعث هذا النبي الذي نجده مكتوباً عندنا حتى نعذب المشركين ونقتلهم. فلما بعث الله محمداً ﷺ ورأوا أنه من غيرهم، كفروا به حسداً للعرب وهم يعلمون أنه رسول الله ﷺ، فقال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ وقال قتادة ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلِ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال: و كانوا يقولون: إنه سيأتي نبي. ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ وقال مجاهد ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ قال: هم اليهود.

**يُشَكُّمَا أَشَرَّوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكُنْ فُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزَّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضْبٍ عَلَى غَضْبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِيْرٌ**

قال مجاهد ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾ يهود شروا الحق بالباطل وكتمان ما جاء به محمد ﷺ لأن بيبيوه، وقال السدي ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾ يقول: باعوا به أنفسهم، يقول: بئسما اعتاصوا لأنفسهم فرضوا به وعدلوا إليه من الكفر بما أنزل الله على محمد ﷺ عن تصديقه وموازرته ونصرته، وإنما حملهم على ذلك البغي والحسد والكرهية لـ ﴿أَنْ يُنَزَّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ ولا حسد أعظم من هذا.

قال ابن إسحاق، عن محمد، عن عكرمة أو سعيد، عن ابن عباس ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكُفُّرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزَّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ أَيْ أَنْ اللَّهُ جَعَلَهُ مِنْ غَيْرِهِمْ:

﴿فَبَاءُوا بِغَضْبٍ عَلَى غَضْبٍ﴾ قال ابن عباس: في الغضب على الغضب، فغضب عليهم فيما

كانوا ضيعوا من التوراة وهي معهم، وغضب بکفراهم بهذا النبي الذي بعث الله إليهم (قلت) ومعنى **(باعوا)** استوجبا واستحقوا واستقرروا بغضب على غضب. وقال أبو العالية: غضب الله عليهم بکفراهم بالإنجيل وعيسي، ثم غضب الله عليهم بکفراهم بمحمد ﷺ وبالقرآن. وعن عكرمة وقتادة مثله. قال السدي: أما الغضب الأول، فهو حين غضب عليهم في العجل، وأما الغضب الثاني، فغضب عليهم حين كفروا بمحمد ﷺ، وعن ابن عباس مثله.

وقوله تعالى: **﴿وَلِكُفَّارِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾** لما كان كفراهم سببه البغي والحسد، ومنشأ ذلك التكبر، قوبلا بالإهانة والصغر في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾** [غافر: ٦٠] أي صاغرين حقيرين ذليلين راغمين. وقد قال الإمام أحمد<sup>(١)</sup>: حدثنا ابن عجلان، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ، قال: **«يَحْشُرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أُمَّالَ النَّذْرِ فِي صُورِ النَّاسِ يَعْلُوُهُمْ كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الصَّغَارِ حَتَّى يَدْخُلُوا سَجَنًا فِي جَهَنَّمَ يَقَالُ لَهُ بُولَسٌ تَعْلُوُهُمْ نَارُ الْأَنْيَارِ يَسْقُونَ مِنْ طَيْنَةِ الْخَيَالِ عَصَارَةً أَهْلَ النَّارِ﴾**.

**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ إِنَّمَا آتَيْنَاكُمْ مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ قَاتِلُوا مُؤْمِنِينَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ أَحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلَمْ تَقْتُلُوا أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلٍ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ أَخْذَنَا مِنَ الْعِجْلَةِ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنَّمَا ظَلَمُوكُمْ ﴿٢﴾**

يقول تعالى: **﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾** أي لليهود وأمثالهم من أهل الكتاب **﴿آمَنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾** على محمد ﷺ وصدقوا واتبعوه **﴿قَالُوا نَؤْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا﴾** أي يكتفينا الإيمان بما أنزل علينا من التوراة والإنجيل ولا نقر إلا بذلك **﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾** يعني بما بعده **﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾** أي وهم يعلمون أن ما أنزل على محمد ﷺ **﴿الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾** منصوباً على الحال، أي في حال تصديقه لما معهم من التوراة والإنجيل، فالحججة قائمة عليهم بذلك، كما قال تعالى: **﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرُفُونَ أَنْبَاءَهُمْ﴾** [آل عمرة: ١٤٦] ثم قال تعالى: **﴿فَلَمْ تَقْتُلُوا أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فِي دُعَائِكُمُ الْإِيمَانَ بِمَا أَنْزَلْتُ إِلَيْكُمْ**، فلم قتلتكم الأنبياء الذين جاؤكم بتصديق التوراة التي بأيديكم والحكم بها وعدم نسخها، **وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ صَدَقَهُمْ؟ قَتَلْتُمُوهُمْ بِغِيَّاً وَعَنَادِاً وَاسْتَكْبَارًا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ**، فلستم تتبعون إلا مجرد الأهواء والأراء والتشهي، كما قال تعالى: **﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهُوِيْ أَنْفُسَكُمْ اسْتَكْبَرُتُمْ فَفَرِيقًا كَذَبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾** [آل عمرة: ٨٧] وقال السدي: في هذه الآية يغيرهم الله تبارك وتعالى: **﴿قُلْ فَلَمْ تَقْتُلُوا أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾** وقال أبو جعفر بن جرير<sup>(٢)</sup>: قل

(١) المستند (ج ٢ ص ١٧٩).

(٢) تفسير الطبرى / ١ ٤٦٤. وحکى الطبرى حديث السدي الوارد قبل هذا.

يا محمد ليهود بنى إسرائيل إذا قلت لهم أمنا بما أنزل الله، قالوا: نؤمن بما أنزل علينا لم تقتلون - إن كنتم مؤمنين بما أنزل الله - أنبياء الله يا عشر اليهود وقد حرم الله في الكتاب الذي أنزل عليكم قتالهم، بل أمركم باتباعهم وطاعتهم وتصديقهم؟ وذلك من الله تكذيب لهم في قولهم: نؤمن بما أنزل علينا وتعير لهم.

﴿ولقد جاءكم موسى بالبيانات﴾ أي بالآيات الواضحات والدلائل القاطعات على أنه رسول الله، وأنه لا إله إلا الله، والآيات البينات هي: الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والعصا واليد، وفُلق البحر وتظليلهم بالغمام والمن والسلوى والحجر وغير ذلك من الآيات التي شاهدوها (ثم اتخذتم العجل) أي معبوداً من دون الله في زمان موسى وأيامه، قوله: من بعده، أي من بعد ما ذهب عنكم إلى الطور لمناجاة الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلًا جسداً له خوار﴾ [الأعراف: ١٤٨]، ﴿وأنتم ظالمون﴾، أي وأنتم ظالمون في هذا الصنيع الذي صنعتموه من عبادتكم العجل وانتم تعلمون أنه لا إله إلا الله كما قال تعالى: ﴿ولما سقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكون من الخاسرين﴾ [الأعراف: ١٤٩].

وَإِذْ أَخَدْنَا مِيشَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الْطُّورَ حَذُوا مَا أَتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَسْمَعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبْنَا وَأَشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمْ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ يَشْكُمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾

يعد سبحانه وتعالى عليهم خطأهم، ومخالفتهم للميثاق، وعتوهم وإعراضهم عنه، حتى رفع الطور عليهم حتى قبلوه ثم خالفوه ولهذا ﴿قالوا سمعنا وعصينا﴾ وقد تقدم تفسير ذلك.

﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ قال عبد الرزاق، عن عمر عن قتادة ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ قال: أشربوا حبه حتى خلص ذلك إلى قلوبهم، وكذا قال أبو العالية والربيع بن أنس. وقال الإمام أحمد<sup>(١)</sup>: حدثنا عصام بن خالد، حدثني أبو بكر بن عبد الله بن أبي مريم الغساني، عن خالد بن محمد التقي، عن بلال بن أبي الدرداء، عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ: قال «حبك الشيء يعمي ويصم» ورواه أبو داود عن حمزة بن شريح، عن بقية، عن أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم به، وقال السدي: أخذ موسى عليه السلام العجل فذبحه بالمبرد<sup>(٢)</sup>، ثم ذراه في البحر، ثم لم يبق بحر يجري يومئذ إلا وقع فيه شيء [ منه ]، ثم قال لهم موسى، أشربوا منه، فشربوا، فمن كان يحبه خرج على شاربيه الذهب، فذلك حين يقول الله

(١) المستند (ج ٥ ص ١٩٤).

(٢) في الطبرى ٤٦٧ / ١: «فذبحه ثم حرقه بالمبرد». قال في لسان العرب: حرق الحديد بالمبرد: برد وحک بعضه بعض.

تعالى : ﴿وأشربوا في قلوبهم العجل﴾ .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا عبد الله بن رجاء ، حدثنا إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن عمارة بن عمير وأبي عبد الرحمن السلمي ، عن علي رضي الله عنه ، قال : عمد موسى إلى العجل ، فوضع عليه المبارد فبرده بها ، وهو على شاطئ نهر ، فما شرب أحد من ذلك الماء من كان يعبد العجل إلا أصفر وجهه مثل الذهب ، وقال سعيد بن جبیر ﴿وأشربوا في قلوبهم العجل﴾ قال : لما أحرق العجل ، برد ثم نصف ، فحسوا الماء حتى عادت وجوههم كالزغافان . وحكى القرطبي <sup>(١)</sup> عن كتاب القشيري : أنه ما شرب أحد «منه» من عبد العجل إلا جن ، ثم قال القرطبي : وهذا شيء غير ما ه هنا ، لأن المقصود من هذا السياق : أنه ظهر على شفاههم ووجوههم ، والمذكور ه هنا : أنهم أشربوا في قلوبهم العجل ، يعني في حال عبادتهم له ، ثم أشد قول النابغة <sup>(٢)</sup> في زوجته عثمة : [الوافر]

فباديه مع الخافي يسير	تغلغل حب عثمة في فؤادي
ولا حزن ولسم يبلغ شراب	تغلغل حيث لم يبلغ سرور
أطيير لو أن إنساناً يطير <sup>(٣)</sup>	أكاد إذ ذكرت العهد منها

وقوله ﴿قل بئسما يأمركم إن كنتم مؤمنين﴾ أي بئسما تعتمدونه في قديم الدهر وحديثه من كفركم بآيات الله ، ومخالفتكم الأنبياء ثم اعتمادكم في كفركم بمحمد صلوات الله عليه وهذا أكبر ذنبكم وأشد الأمر عليكم إذ كفرتם بخاتم الرسل وسيد الأنبياء والمرسلين ، المبعوث إلى الناس أجمعين ، فكيف تدعون لأنفسكم الإيمان ، وقد فعلتم هذه الأفاعيل القبيحة : من نقضكم الموثيق ، وكفركم بآيات الله ، وعبادتكم العجل من دون الله ? .

**قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَدِقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبْدًا إِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلَيْمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَنْ يَجِدُنَّهُمْ أَحَرَصَ النَّاسَ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوْمَ أَحْدُهُمْ لَوْ يَعْمَرُ أَفَ سَنَةً وَمَا هُوَ بِمُرْحِزِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يَعْمَرُ ﴿٤٨﴾ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٤٩﴾**

قال محمد بن إسحاق ، عن محمد بن أبي محمد ، عن عكرمة أو سعيد بن جبیر ، عن ابن عباس رضي الله عنه : يقول الله تعالى لنبيه محمد صلوات الله عليه : ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين﴾ أي ادعوا بالموت على أي الفريقين

(١) تفسير القرطبي ٣٢ / ٢ .

(٢) لم ينسب القرطبي هذه الآيات إلى النابغة ، وإنما إلى «أحد التابعين الذي قال في زوجته عثمة» .

(٣) الآيات منسوبة إلى أحد التابعين في القرطبي ٣٢ / ٢ ، وإلى عبيد الله بن عبد الله بن عتبة في لسان العرب (غلل)؛ وتأج العروس (غلل)؛ وبلا نسبة في لسان العرب (مع) .

أكذب، فأبوا ذلك على رسول الله ﷺ «ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم، والله علیم بالظالمين» أي بعلمهم بما عندهم من العلم بك والكفر بذلك [فيقال]<sup>(١)</sup> لو تمنوه يوم قال لهم ذلك ما يقي على الأرض يهودي إلا مات. وقال الضحاك عن ابن عباس: فتمنوا الموت فسلوا الموت. وقال عبد الرزاق عن معاذ عن عبد الكريم الجزار عن عكرمة قوله: فتمنوا الموت إن كنتم صادقين. قال: قال ابن عباس: لو تمنى يهود الموت، لماتوا. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن محمد الطنافسي، حدثنا عثام: سمعت الأعمش قال: لا أظنه إلا عن المنهال، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: لو تمنوا الموت لشرف أحدهم يرقيقه، وهذه أسانيد صحيحة إلى ابن عباس.

وقال ابن جرير<sup>(٢)</sup> في تفسيره: وبلغنا أن النبي ﷺ، قال «لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا، ولرأوا مقاعدهم من النار ولو خرج الذين يباهلو رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون أهلاً ولا مالاً»، حدثنا<sup>(٣)</sup> بذلك أبو كريب، حدثنا زكريا بن عدي، حدثنا عبيد الله بن عمرو عن عبد الكريم، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن رسول الله ﷺ. ورواه الإمام أحمد عن إسماعيل بن يزيد الرقي، حدثنا فرات عن عبد الكريم به. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن أحمد، حدثنا إبراهيم بن عبد الله بن بشار، حدثنا سرور بن المغيرة، عن عباد بن منصور، عن الحسن، قال: قول الله: ما كانوا ليتمكنوا بما قدمت أيديهم، قلت: أرأيتك لو أنهم أحبو الموت حين قيل لهم تمنوا الموت أتراءهم كانوا ميتين؟ قال: لا والله ما كانوا ليموتوا ولو تمنوا الموت، وما كانوا ليتمكنوه، وقد قال الله ما سمعت «ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم والله علیم بالظالمين» وهذا غريب عن الحسن. ثم هذا الذي فسر به ابن عباس الآية، هو المتعين وهو الدعاء على أي الفريقين أكذب منهم أو من المسلمين على وجه المباهلة، ونقله ابن جرير عن قتادة وأبي العالية والربيع بن أنس رحمهم الله تعالى.

ونظير هذه الآية قوله تعالى في سورة الجمعة «قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء الله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين \* ولا يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم والله علیم بالظالمين \* قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملaciكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينئكم بما كنتم تعملون» [الجمعة: ٦ : ٧] فهم عليهم لعائن الله تعالى، لما زعموا أنهم أبناء الله وأحباوه، قالوا: لن يدخل الجنة إلا من كانوا يهوداً أو نصارى، دعوا إلى المباهلة والدعاء على أكذب الطائفتين منهم أو من المسلمين، لما نكلوا عن ذلك، علم كل أحد أنهم ظالمون، لأنهم لو كانوا جازمين بما هم فيه، لكانوا أقدموا على ذلك، فلما تأخرروا، علم كذبهم

(١) الزيادة من سيرة ابن هشام ١/٥٤٢.

(٢) تفسير الطبری ١/٤٦٩.

(٣) هذا إسناد ابن جرير الطبری.

وهذا كما دعا رسول الله وفد نجران من النصارى بعد قيام الحجة عليهم في المنازرة وعوهم وعنادهم إلى المباهلة، فقال: «فمن حاجك فيه من بن بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونسائكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نتباه ف يجعل لعنة الله على الكاذبين» [آل عمران: ٦١] فلما رأوا ذلك، قال بعض القوم لبعض: والله لئن باهلكم هذا النبي لا يبقى منكم عين تطرف، فعند ذلك جنحوا للسلم، وبذلوا الجزية عن يد وهم صاغرون، فضربها عليهم، وبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح أميناً. ومثل هذا المعنى أو قريب منه قول الله تعالى لنبيه أن يقول للمشركيين «قل من كان في الصلاة فليمدد له الرحمن مدار» [مريم: ٧٥] أي من كان في الصلاة منا ومنكم فزاده الله مما هو فيه ومد له واستدرجه، كما سيأتي تقريره في موضعه، إن شاء الله تعالى.

وأما من فسر الآية على معنى «إن كتم صادقين» أي في دعواكم، فتمنا الآن الموت، ولم يتعرض هؤلاء للمباهلة، كما قرره طائفة من المتكلمين وغيرهم، ومال إليه ابن جرير بعد ما قارب القول الأول، فإنه قال<sup>(١)</sup>: القول في تأويل قوله تعالى: «قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس» الآية، فهذه الآية مما احتج الله سبحانه لنبيه ﷺ على اليهود الذين كانوا بين ظهراني مهاجره، وفضح بها أخبارهم وعلماءهم وذلك أن الله تعالى أمر نبيه [أن يدعوهم]<sup>(٢)</sup> إلى قضية عادلة فيما كان بينه وبينهم من الخلاف، كما أمره أن يدعو الفريق الآخر من النصارى إذ خالقوه في عيسى ابن مریم عليه السلام، وجادلوه فيه إلى فاصلة بينه وبينهم من المباهلة، فقال لفريق اليهود: إن كتم محقين فتمنا الموت، فإن ذلك غير ضاركم إن كتم محقين فيما تدعون من الإيمان وقرب المترفة من الله لكم<sup>(٣)</sup> لكي يعطيكم أمنيتكم من الموت إذا تمتيتم، فإنما تصيرون إلى الراحة من تعب الدنيا ونصبها وكدر عيشها والفوز بجوار الله في جنته إن كان الأمر كما تزعمون، من أن الدار الآخرة لكم خاصة دوننا، وإن لم تعطوهها علم الناس أنكم المبطلون ونحن المحقون في دعوانا، وانكشف أمرنا وأمركم لهم، فامتنعت اليهود من الإجابة إلى ذلك لعلمهها، أنها إن تمنت الموت هلكت فذهبت دنياها، وصارت إلى حزي الأبد في آخرتها، كما امتنع فريق النصارى الذين جادلوا النبي ﷺ في عيسى إذ دعوا للمباهلة من<sup>(٤)</sup> المباهلة.

فهذا الكلام منه أوله حسن، وآخره فيه نظر، وذلك أنه لا تظهر الحجة عليهم على هذا التأويل، إذ يقال: إنه لا يلزم من كونهم يعتقدون أنهم صادقون في دعواهم، أنهم يتمنون

(١) تفسير الطبرى / ٤٦٨.

(٢) الزيادة من الطبرى.

(٣) عبارة الطبرى: «بل إن أعطيتم أمنيتكم...».

(٤) أي: كما امتنع فريق النصارى من المباهلة.

الموت، فإنه لا ملازمة بين وجود الصلاح وتنمي الموت، وكم من صالح لا يتنمي الموت، بل يود أن يعمر ليزداد خيراً وترتفع درجته في الجنة، كما جاء في الحديث «خيركم من طال عمره، وحسن عمله» ولهم مع ذلك أن يقولوا على هذا: فها أنتم تعتقدون أيها المسلمون أنكم أصحاب الجنة وأنتم لا تتنمون في حال الصحة الموت، فكيف تلزموننا بما لا يلزمكم؟ وهذا كله إنما نشأ من تفسير الآية على هذا المعنى، فأما على تفسير ابن عباس: فلا يلزم عليه شيء من ذلك، بل قيل لهم كلام نصفٍ إن كنتم تعتقدون أنكم أولياء الله من دون الناس، وأنكم أبناء الله وأحباؤه، وأنكم من أهل الجنة ومن عداكم من أهل النار، فباهلوها على ذلك وادعوا على الكاذبين منكم أو من غيركم، واعلموا أن المباهلة تستأصل الكاذب لا محالة، فلما تيقنوا بذلك وعرفوا صدقه، نكلوا عن المباهلة لما يعلمون من كذبهم وافتراضهم وكتمانهم الحق من صفة الرسول ﷺ ونعته، وهو يعرفون أبناءهم ويتحققونه، فعلم كل أحد باطلهم وخزيهم وضلالهم وعنادهم، عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيمة. وسميت هذه المباهلة تمنياً، لأن كل محق يود لو أهلك الله المبطل المناظر له، ولا سيما إذا كان في ذلك حجة له في بيان حقه وظهوره، وكانت المباهلة بالموت لأن الحياة عندهم عزيزة عظيمة لما يعلمون من سوء مآلهم بعد الموت، ولهذا قال تعالى: «ولن يتمتهنوا أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين، ولتجدتهم أحقر الناس على حياة» أي على طول العمر لما يعلمون من مآلهم السيء، وعاقبتهم عند الله الخاسرة، لأن الدنيا سجن المؤمن، وجنة الكافر، فهم يودون لو تأخروا عن مقام الآخرة بكل ما أمكنهم. وما يحذرون منه واقع بهم لا محالة حتى وهم أحقر من المشركين الذين لا كتاب لهم، وهذا من باب عطف الخاص على العام.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، عن سفيان، عن الأعمش، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس «ومن الذين أشركوا؟» قال: الأعاجم، وكذا رواه الحاكم في مستدركه من حديث الثوري، وقال: صحيح على شرطهما، ولم يخر جاه. قال: وقد اتفقا على سند تفسير الصحابي، وقال الحسن البصري: ولتجدتهم أحقر الناس على حياة. قال: المتفق أحقر الناس، وأحرص من المشرك على حياة، يود أحدهم أي يود أحد اليهود، كما يدل عليه نظم السياق، وقال أبو العالية: يود أحدهم، أي أحد المجروس، وهو يرجع إلى الأول لو يعمر ألف سنة. قال الأعمش، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: «يود أحدهم لو يعمر ألف سنة» قال: هو كقول الفارسي «ده هزار سال» يقول: عشرة آلاف سنة<sup>(١)</sup>. وكذا روي عن سعيد بن جبير نفسه أيضاً، وقال ابن

(١) في الدر المثبور (١/١٧٣) والطبرى (١/٤٧٤): «هو قول الأعاجم إذا عطس أحدهم: زه هزار سال، يعني ألف سنة».

جرير<sup>(١)</sup>: حدثنا محمد بن علي بن الحسن بن شقيق: سمعت أبي يقول: حدثنا أبو حمزة، عن الأعمش عن مجاهد، عن ابن عباس في قوله «يُوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يَعْمَرُ أَلْفَ سَنَةً» قال هو قول الأعاجم هزار سال نوروز مهرجان<sup>(٢)</sup> وقال مجاهد «يُوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يَعْمَرُ أَلْفَ سَنَةً» قال: حببت إليهم الخطيئة طول العمر، وقال مجاهد بن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، عن سعيد أو عكرمة، عن ابن عباس «وَمَا هُوَ بِمَزْحِنَةِ الْعَذَابِ أَنْ يَعْسُرَ» أي وما هو بمنجيه من العذاب، وذلك أن المشرك لا يرجو بعثاً بعد الموت، فهو يحب طول الحياة، وأن اليهودي قد عرف ما له في الآخرة من الخزي، بما ضيع ما عنده من العلم، وقال عوفى عن ابن عباس «وَمَا هُوَ بِمَزْحِنَةِ الْعَذَابِ أَنْ يَعْمَرَ» قال: هم الذين عادوا جبرائيل، قال أبو العالية وابن عمر: فما ذاك بمعنىه من العذاب، ولا منجيه منه. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في هذه الآية: يهود أحرص على الحياة من هؤلاء، وقد وذ هؤلاء لو يعمر أحدهم ألف سنة، وليس بمزحزحة من العذاب لو عمر كما أن عمر إيليس لم ينفعه إذ كان كافراً، «وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ» أي خبير بصير بما يعمل عباده من خير وشر، وسيجازي كل عامل بعمله.

قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِّجَبْرِيلَ فَإِنَّمَا نَزَّلَ عَلَى قَلْبِكَ إِيمَانُ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَئِكَتِهِ وَرَسُولِهِ وَجَبْرِيلَ وَمِيكَلَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوُّ لِلْكُفَّارِينَ

قال الإمام أبو جعفر بن جرير الطبرى<sup>(٣)</sup> رحمه الله: أجمع أهل العلم بالتأويل جمياً أن هذه الآية نزلت جواباً لليهود من بني إسرائيل، إذ زعموا أن جبريل عدو لهم، وأن ميكائيل ولهم، ثم اختلعوا في السبب الذي من أجله قالوا ذلك، فقال بعضهم: إنما كان سبب قيلهم ذلك، من أجل مناظرة جرت بينهم وبين رسول الله ﷺ في أمر نبوته. (ذكر من قال ذلك)<sup>(٤)</sup> حدثنا أبو كريب، حدثنا يونس بن بكير عن عبد الحميد بن بهرام، عن شهر بن حوشب، عن ابن عباس، أنه قال: حضرت عصابة من اليهود رسول الله ﷺ، فقالوا: يا أبا القاسم، حدثنا عن خلال نسألك. عنهن لا يعلمون إلا نبى، فقال رسول الله ﷺ: «سلوا عما شئتم، ولكن اجعلوا لي

(١) تفسير الطبرى ٢/٣٧٢؛ طبعة دار المعارف بتحقيق محمود محمد شاكر.

(٢) في الطبرى: «هو قول الأعاجم: سال زه نوروز مهرجان حر» قال الاستاذ شاكر في تعليقه: سألت أحد أصحابنا من يعرف الفارسية فقال: إن هذا النص لا ينطبق على قواعد الفارسية، وأنه يظن أن صوابها «زه در مهرجان نوروز هزار سال». ومعنى «زه»: عش. و«در» ظرف معنى «في». ومهرجان هو عيد لهم. ونوروز: عيد آخر في أول السنة. «وهزار»: ألف. وسال: ستة. فكان «حر» التي في آخر الكلام في نص الطبرى هي «در» مصحفة. وباقى النصوص الفارسية صحيح، ومعناه: عش ألف سنة.

(٣) تفسير الطبرى ١/٤٧٦.

(٤) هذه عبارة الطبرى.

ذمة الله وما أخذ يعقوب على بيته لئن أنا حديثكم عن شيء فعرفتموه لتابعوني على الإسلام» فقالوا: ذلك لك، فقال رسول الله ﷺ: «سلوا عما شئتم» قالوا: أخبرنا عن أربع خلال نسألك عنهن، أخبرنا أي الطعام حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة؟ وأخبرنا كيف ماء المرأة وماء الرجل، وكيف يكون الذكر منه والأنثى؟ وأخبرنا بهذا النبي الأمي في التوراة<sup>(١)</sup>، ومن وليه من الملائكة؟ فقال النبي ﷺ، «عليكم عهد الله لئن أنا أبأركم لتابعوني؟» فأعطوه ما شاء الله<sup>(٢)</sup> من عهد وميثاق، فقال: «نشدتم بالذي أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن إسرائيل يعقوب مرض مرضًا شديداً، فطال سقمه منه، فنذر الله نذراً لئن عافاه الله من مرضه ليحرمن أحب الطعام والشراب إليه، وكان أحب الطعام إليه: لحوم الإبل، وأحب الشراب إليه ألبانها» فقالوا: اللهم نعم، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اشهد عليهم، وأنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو الذي أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن ماء الرجل غليظ أبيض، وأن ماء المرأة رقيق أصفر، فأيهما علا كان له الولد والشبيه بإذن الله عز وجل، فإذا علا ماء الرجل ماء المرأة كان الولد ذكرًا بإذن الله، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل كان الولد أنثى بإذن الله عز وجل» قالوا: اللهم نعم، «قال اللهم اشهد، وأنشدكم بالله الذي أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن هذا النبي الأمي تناه عيناه ولا ينام قلبه؟» قالوا: اللهم نعم، قال: «اللهم اشهد»، قالوا: أنت الآن فحدثنا من وليك من الملائكة، فعندها نجتمعك<sup>(٣)</sup> أو نفارقك، قال: «فإن ولني جبريل، ولم يبعث الله نبياً قط إلا وهو ولية» قالوا: فعندها نفارقك، ولو كان وليك سواه من الملائكة تابعناك وصدقناك، قال: «فما يمنعكم أن تصدقوه؟» قالوا: إنه عدونا، فأنزل الله عز وجل: «قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقاً لما بين يديه - إلى قوله - لو كانوا يعلمون» فعندها باؤوا بغضب على غضب.

وقد رواه الإمام أحمد في مسنده عن أبي النضر هاشم بن القاسم وعبد الرحمن بن حميد في تفسيره عن أحمد بن يونس كلامهما عن عبد الحميد بن بهرام به. ورواه أحمد أيضًا عن الحسين بن محمد المروزي عن عبد الحميد بنحوه وقد رواه محمد بن إسحاق بن يسار، حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي حسين، عن شهر بن حوشب، فذكره مرسلاً وزاد فيه، قالوا فأخبرنا عن الروح، قال: «فأنشدكم بالله وبأيامه عندبني إسرائيل هل تعلمون أنه جبريل وهو الذي يأتيك» قالوا: اللهم نعم، ولكنه عدو لنا، وهو ملك إنما يأتي بالشدة وسفك الدماء، فلو لا ذلك اتبعناك، فأنزل الله تعالى فيهم: «قل من كان عدواً لجبريل - إلى قوله - لا يعلمون» وقال

(١) في الطبرى: «في النوم» مكان «في التوراة».

(٢) لفظ «الله» غير موجود في الطبرى.

(٣) في الطبرى «تابعك».

الإمام أحمد<sup>(١)</sup>: حدثنا أبو أحمد، حدثنا عبد الله بن الوليد العجلي عن بكير بن شهاب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: أقبلت يهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم، أخبرنا عن خمسة أشياء، فإن أبأتنا بهن عرفنا أنك نبي واتبعناك، فأخذ عليهم ما أخذ إسرائيل على بيته إذ قال: والله على ما نقول وكيل، قال «هاتوا» قالوا: فأخبرنا عن علامة النبي؟ قال: «تنام عيناه ولا ينام قلبه» قالوا: أخبرنا كيف تؤثر المرأة؟ وكيف يذكر الرجل؟ قال: «يلتقى الماءان، فإذا علا ماء الرجل ماء المرأة أذكرت، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل أذنت» قالوا: أخبرنا ما حرم إسرائيل على نفسه؟ قال: «وكان يشتكى عرق النساء، فلم يجد شيئاً يلامه إلا ألبان كذا وكذا» قال أحمد: قال بعضهم: يعني الإبل فحرم لحومها، قالوا: صدقت، قالوا: أخبرنا ما هذا الرعد؟ قال: «ملك من ملائكة الله عز وجل موكل بالسحاب بيديه أو في يديه محرق من نار يزجر به السحاب يسوقه حيث أمره الله تعالى» قالوا: فما هذا الصوت الذي نسمع؟ قال: «صوته» قالوا: صدقت، قالوا: إنما بقيت واحدة، وهي التي تتبعك إن أخبرتنا بها، أنه ليس من نبي إلا وله ملك يأتيه بالخبر، فأخبرنا من صاحبك؟ قال: «جبريل عليه السلام» قالوا: جبريل ذاك الذي ينزل بالحرب والقتال والعقاب عدونا لو قلت ميكائيل الذي ينزل بالرحمة والقطر والنبات لكان، فأنزل الله تعالى: «قل من كان عدوًّا لجبريل فإنه نزله على قلبك يأذن الله» إلى آخر الآية. ورواه الترمذى والنسائى من حديث عبد الله بن الوليد به، وقال الترمذى: حسن غريب وقال سنيد فى تفسيره عن حجاج بن محمد عن ابن جرير: أخبرنى القاسم بن أبي بزة أن يهوداً سألوا النبي ﷺ عن صاحبه الذى ينزل عليه بالوحى، قال: «جبريل» قالوا: فإنه عدو لنا ولا يأتي إلا بالحرب والشدة والقتال، فنزلت: «قل من كان عدوًّا لجبريل» الآية.

قال ابن جرير<sup>(٢)</sup>: قال مجاهد: قالت يهود: يا محمد ما نزل جبريل إلا بشدة وحرب وقتل فإنه لنا عدو، فنزل: «قل من كان عدوًّا لجبريل» الآية. قال البخارى<sup>(٣)</sup>: قوله تعالى: «من كان عدوًّا لجبريل» قال عكرمة: جبرا وميكا وإسراف: عبد. إيل: الله، حدثنا عبد الله بن منير سمع عبد الله بن بكر، حدثنا حميد عن أنس بن مالك، قال: سمع عبد الله بن سلام بمقدم رسول الله ﷺ وهو في أرض يخترف<sup>(٤)</sup> فأتى النبي ﷺ فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمها إلا النبي: ما أول أشراط الساعة، وما أول طعام أهل الجنة، وما ينزع الوالد إلى أبيه أو إلى أمه؟ قال: «أخبرني بهذه»<sup>(٥)</sup> جبرائيل آنفاً قال: جبريل؟ قال: «نعم» قال: ذاك عدو اليهود من

(١) المستند (ج ١ ص ٢٧٤).

(٢) تفسير الطبرى ١ / ٤٧٨.

(٣) صحيح البخارى (تفسير سورة البقرة باب ٣).

(٤) اخترف في أرضه أو بستانه: أقام وقت اجتناء التمر في الخريف.

(٥) في البخارى «بهن».

الملائكة، فقرأ هذه الآية: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجَبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾ «وَأَمَا أُولُو أَشْرَاطِ السَّاعَةِ، فَنَارٌ تَحْسِرُ النَّاسَ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَيْ الْمَغْرِبِ. وَأَمَا أُولُو طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الْجَنَّةِ، فَرِيَادَةٌ كَبَدٌ الْحَوْتُ، وَإِذَا سَبَقَ مَاءُ الرَّجُلِ مَاءَ الْمَرْأَةِ، نَزَعَ الْوَلَدُ، وَإِذَا سَبَقَ مَاءَ الْمَرْأَةِ نَزَعَتِ﴾ قال: أَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ. يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ الْيَهُودَ قَوْمٌ بُهُثُّونَ<sup>(١)</sup>، وَإِنَّهُمْ إِنْ يَعْلَمُوا بِإِسْلَامِ قَبْلَ أَنْ تَسْأَلُهُمْ يَبْهُتُونِي، فِجَاءُتِ الْيَهُودُ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَيُّ رَجُلٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ فِيْكُمْ؟» قَالُوا: خَيْرُنَا وَابْنُ خَيْرِنَا وَسَيِّدُنَا وَابْنُ سَيِّدِنَا، قَالَ: «أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمْ» قَالُوا: أَعَادَهُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ، فَخَرَجَ عَبْدُ اللَّهِ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللَّهِ. قَالُوا: هُوَ شَرُّنَا وَابْنُ شَرِّنَا وَأَنْتَضُوهُ، فَقَالَ: هَذَا الَّذِي كَنْتَ أَخَافُ يَا رَسُولَ اللَّهِ - انْفَرَدَ بِهِ الْبَخَارِيُّ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ .. وَقَدْ أَخْرَجَهُ مِنْ وَجْهِ آخَرٍ عَنْ أَنْسَ بْنِ حَنْوَهٖ، وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ ثُوبَانَ مُولَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَرِيبٌ مِنْ هَذَا السِّيَاقِ كَمَا سِيَّأَتِيَ فِي مَوْضِعِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

وَحَكَايَةُ الْبَخَارِيِّ كَمَا تَقْدِيمُ عَنْ عَكْرَمَةَ هُوَ الْمُشْهُورُ أَنَّ إِبْلِيْلَ هُوَ اللَّهُ، وَقَدْ رَوَاهُ سَفِيَّانُ الثُّوْرَى عَنْ خَصِيفٍ، عَنْ عَكْرَمَةَ، وَرَوَاهُ عَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْحَكْمَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَكْرَمَةَ، وَرَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ الْحَسِينِ بْنِ يَزِيدَ الطَّحَانِ عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ مُنْصُورٍ عَنْ قَيْسِ بْنِ عَاصِمٍ عَنْ عَكْرَمَةَ أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ جَرِيلَ اسْمُهُ عَبْدُ اللَّهِ، وَمِيكَائِيلَ اسْمُهُ عَبْدُ اللَّهِ، إِبْلِيْلَ: اللَّهُ، وَرَوَاهُ يَزِيدُ النَّحْوِيُّ عَنْ عَكْرَمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مُثْلِهِ سَوَاءً، وَكَذَّا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلْفِ كَمَا سِيَّأَتِيَ قَرِيبًا، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ: إِبْلِيْلَ عِبَارَةٌ عَنْ عَبْدٍ، وَالْكَلْمَةُ الْأُخْرَى هِيَ اسْمُ اللَّهِ، لَأَنَّ كَلْمَةَ إِبْلِيْلَ لَا تَتَغَيِّرُ فِي الْجَمِيعِ فَوْزَانُهُ عَبْدُ اللَّهِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ عَبْدُ الْمُلْكِ عَبْدُ الْقَدُوسِ عَبْدُ السَّلَامِ عَبْدُ الْكَافِيِّ عَبْدُ الْجَلِيلِ، فَعِبْدُ مُوْجُودَةِ فِي هَذَا كُلَّهُ، وَأَخْتَلَفَتِ الْأَسْمَاءُ الْمُضَافَ إِلَيْهَا، وَكَذَّلِكَ جَرِيلُ مِيكَائِيلُ وَعَزْرَائِيلُ وَإِسْرَافِيلُ وَنَحْوُ ذَلِكَ، وَفِي كَلَامِ غَيْرِ الْعَرَبِ يَقْدِمُونَ الْمُضَافَ إِلَيْهِ عَلَى الْمُضَافِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

ثُمَّ قَالَ ابْنُ جَرِيرَ<sup>(٢)</sup>، وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ كَانَ سَبَبُ قِيلِهِمْ ذَلِكَ مِنْ أَجْلِ مَنَاظِرَةِ جَرَتْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَمْرَ بْنِ الْخَطَابِ فِي أَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ.

(ذَكَرَ مَنْ قَالَ ذَلِكَ) حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ الْمُشْنَى، حَدَّثَنِي رَبِيعُ بْنُ عَلِيٍّ، عَنْ دَاؤِدَ بْنِ أَبِي هَنْدٍ، عَنِ الشَّعْبِيِّ، قَالَ: نَزَلَ عَمْرُ الرُّوحَاءَ، فَرَأَى رِجَالًا يَبْتَدِرُونَ أَحْجَارًا يَصْلُونَ إِلَيْهَا، فَقَالَ: مَا بَالَ هَؤُلَاءِ؟ قَالُوا يَزْعُمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ صَلَّى هُنَّا، قَالَ: فَكَرِهَ ذَلِكَ، وَقَالَ إِنَّمَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَدْرَكَهُ الصَّلَاةُ بِوَادِ فَصَلَّى، ثُمَّ ارْتَحَلَ فَتَرَكَهُ، ثُمَّ أَنْشَأَ يَحْدُثُهُمْ، فَقَالَ: كَنْتَ أَشْهَدُ الْيَهُودَ يَوْمَ مَدَارِسِهِمْ فَأَعْجَبَ مِنَ التُّورَةِ كَيْفَ تَصْدِقُ الْقُرْآنَ وَمِنَ الْقُرْآنِ كَيْفَ يَصْدِقُ التُّورَةَ، فَبَيْنَمَا أَنَا عَنْهُمْ ذَاتَ يَوْمٍ قَالُوا: يَا ابْنَ الْخَطَابِ مَا مِنْ أَصْحَابِكَ أَحَدٌ أَحَبَ إِلَيْنَا مِنْكَ قَلْتَ وَلَمْ ذَكَرْ

(١) أي موصوفون بالبهتان، وهو الكذب.

(٢) تفسير الطبرى / ٤٧٨.

قالوا: لأنك تغشاناً وتأتينا، فقلت: إني آتيكم فأعجب من القرآن كيف يصدق التوراة ومن التوراة كيف تصدق القرآن، قال: ومر رسول الله ﷺ، فقالوا: يا ابن الخطاب، ذاك صاحبكم فالحق به، قال: فقلت لهم عند ذلك: نشد لكم بالله الذي لا إله إلا هو، وما استرعاكم من حقه، وما استودعكم من كتابه، هل تعلمون أنه رسول الله؟ قال: فسكنوا، فقال عالمهم وكبيرهم: إنه قد عظم عليكم فأجيبيوه، قالوا: فأنت عالمنا وكبيرنا فأجبه أنت، قال: أما إذا نشدتنا بما نشدنا، فإننا نعلم أنه رسول الله، قلت: ويحكم إذا هلكتم، قالوا: إنما لم نهلك، قلت: كيف ذلك وأنت تعلمون أنه رسول الله ولا تتبعونه ولا تصدقونه؟ قالوا: إن لنا عدواً من الملائكة وسلموا من الملائكة، وأنه قرن بنبوته عدونا من الملائكة، قلت: ومن عدوكم، ومن سلمكم؟ قالوا: عدونا جبريل، وسلمتنا ميكائيل، قالوا: إن جبرائيل ملك الفظاظة والغلاطة والإعسار والتشديد والعذاب ونحو هذا، وإن ميكائيل ملك الرحمة والرأفة والتخفيف ونحو هذا، قال: قلت: وما متزلفهم من ربهمما عز وجل؟ قالوا: أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره، قال: فقلت: فو الذي لا إله إلا هو إنهما والذي بينهما لعدو لمن عادهما، وسلم لمن سالمهما، وما ينبغي لجبرائيل أن يسلم عدو ميكائيل، وما ينبغي لميكائيل أن يسلم عدو جبرائيل، قال: ثم قمت فأتبعت النبي ﷺ، فلحته وهو خارج من خوخة<sup>(١)</sup> لبني فلان، فقال: «يا ابن الخطاب ألا أقرئك آيات نزلن قبل» فقرأ عليّ «من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله» حتى قرأ الآيات، قال: قلت: بأبي وأمي أنت يا رسول الله، والذي بعثك بالحق لقد جئت أنا أريد أن أخبرك وأنا أسمع اللطيف الخير قد سبقني إليك بالخبر.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشجع، حدثنا أبوأسامة عن مجallo، أنسأنا عامر، قال: انطلق عمر بن الخطاب إلى اليهود، فقال: أنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى هل تجدون محمداً في كتبكم؟ قالوا: نعم، قال: فما يمنعكم أن تتبعوه؟ قال: إن الله لم يبعث رسولًا إلا جعل له من الملائكة كفلاً وإن جبرائيل كفلَ محمداً وهو الذي يأتيه، وهو عدونا من الملائكة، وميكائيل سلمتنا لو كان ميكائيل الذي يأتيه أسلمنا، قال: فإني أنشدكم بالله الذي أنزل التوراة على موسى ما متزلفها عند الله تعالى؟ قالوا: جبريل عن يمينه، وميكائيل عن شماله، قال عمر: وإنني أشهد ما يتزلان إلا بإذن الله، وما كان ميكائيل ليسلم عدو جبرائيل، وما كان جبرائيل ليسالم عدو ميكائيل، فيبينما هو عندهم إذ مر النبي ﷺ، فقالوا: هذا صاحبك يا ابن الخطاب، فقام إليه عمر فأتاه، وقد نزل الله عز وجل: «من كان عدواً لله ولملائكته ورسله وجبريل وميكائيل فإن الله عدو للكافرين» وهذا الإسنادان يدلان على أن الشعبي حدث به عن عمر، ولكن فيه انقطاع بينه وبين عمر فإنه لم يدرك زمانه، والله أعلم.

(١) في الطبرى: مخرفة لبني فلان». والمخرفة: البستان. والخوخة: باب صغير وسط باب كبير نصب حاجزاً بين دارين، ومخترق ما بين كل دارين.

وقال ابن جرير : حدثنا بشر ، حدثنا يزيد بن زريع ، عن سعيد عن قتادة ، قال : ذكر لنا أن عمر بن الخطاب انطلق ذات يوم إلى اليهود ، فلما انصرف ورحبوا به ، فقال لهم عمر : وأما والله ما جئتم لحکم ولا لرغبة فيکم ، ولكن جئت لأسمع منکم ، فسألهم وسائله ، فقالوا : من صاحب صاحبکم ؟ فقال لهم : جبرائيل ، فقالوا : ذاك عدونا من أهل السماء يطلع محمداً على سرنا ، وإذا جاء جاء بالحرب والستة ، ولكن صاحب صاحبنا ميكائيل ، وكان إذا جاء جاء بالخصب والسلم ، فقال لهم عمر : هل تعرفون جبرائيل ، وتنكرون محمدًا ؟ ففارقهم عمر عند ذلك وتوجه نحو النبي ﷺ ليحدثه حديثهم ، فوجده قد أنزلت عليه هذه الآية : ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجَبْرِيلَ فَإِنَّهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ الآيات .

ثم قال <sup>(١)</sup> : حدثني المثنى ، حدثنا آدم ، حدثنا أبو جعفر ، حدثنا قتادة ، قال : بلغنا أن عمر أقبل إلى اليهود يوماً فذكر نحوه . وهذا في تفسير آدم وهو أيضاً منقطع . وكذلك رواه أسباط عن السدي عن عمر مثل هذا أو نحوه ، وهو منقطع أيضاً . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن عمار ، حدثنا عبد الرحمن يعني الدشتكي ، حدثنا أبو جعفر عن حصين بن عبد الرحمن ، عن عبد الرحمن وهو عبد الرحمن بن أبي ليلي : أن يهودياً لقي عمر بن الخطاب ، فقال : إن جبرائيل الذي يذكر صاحبکم عدو لنا ، فقال عمر ﴿ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرَسُولِهِ وَجَبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوًّا لِلْكَافِرِينَ﴾ قال : فنزلت على لسان عمر رضي الله عنه . ورواه عبد بن حميد عن أبي النضر هاشم بن القاسم ، عن أبي جعفر هو الرازبي . وقال ابن جرير <sup>(٢)</sup> : حدثني يعقوب بن إبراهيم ، حدثني هشيم ، أخبرنا حصين بن عبد الرحمن ، عن ابن أبي ليلي في قوله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجَبْرِيلَ﴾ قال : قالت اليهود لل المسلمين : لو أن ميكائيل كان هو الذي ينزل عليکم لتبتعنکم ، فإنه ينزل بالرحمة والغيث ، وإن جبرائيل ينزل بالعذاب والنقمـة ، فإنه عدو لنا ، قال : فنزلت هذه الآية . حدثنا يعقوب ، أخبرنا هشيم ، أخبرنا عبد الملك عن عطاء بنحوه . وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر عن قتادة في قوله : ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجَبْرِيلَ﴾ قال : قالت اليهود : إن جبرائيل عدو لنا ، لأنـه ينزل بالشدة والستة ، وإن ميكائيل ينزل بالرخاء والعافية والخصب ، فجبرائيل عدو لنا . فقال الله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجَبْرِيلَ﴾ الآية .

وأما تفسير الآية فقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجَبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَلَ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ، أي من عادى جبرائيل فليعلم أنه الروح الأمين الذي نزل بالذكر الحكيم على قلبك من الله بإذنه له في ذلك ، فهو رسول من رسول الله ملـكي ، ومن عادى رسولـاً فقد عادى جميع الرسل ، كما أنـ من آمن برسولـ يلزمـه الإيمـان بـجميع الرـسل ، وكـما أنـ من كـفر بـرسـولـ فإـنه يـلزمـه الكـفر بـجـميع الرـسل ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيَرِيدُونَ أَنْ يَغْرِقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾

(١) أي الطبرـي . وهذا الحديث والذـي قبلـه في تفسـير الطـبرـي ٤٧٩ / ١ .

(٢) تفسـير الطـبرـي ٤٨ / ١ .

ويقولون نؤمن ببعض ونكرر بعض ويريدون أن يتَّخذوا بين ذلك سبيلاً أو لئلا هم الكافرون حقاً وأعتقدنا للكافرين عذاباً مهيناً» [النساء: ١٥٠ - ١٥١]، فحكم عليهم بالكفر المحقق إذا آمنوا ببعض الرسل وكفروا ببعضهم، وكذلك من عادى جبرائيل فإنه عدو الله، لأن جبرائيل لا ينزل بالأمر من تلقاء نفسه وإنما ينزل بأمر ربه، كما قال: «وَمَا نَزَّلَ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ» [مريم: ٦٤]، وقال تعالى: «وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ \* نَزَّلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ \* عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذَرِينَ» [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٣ - ١٩٤]، وقد روى البخاري<sup>(١)</sup> في صحيحه عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «من عادى لي ولِيًّا فقد بارزني بالحرب» ولها غضب الله لجبرائيل على من عاداه، فقال تعالى: «مَنْ كَانَ عَدُواً لِجَبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ لِجَبْرِيلَ مَا بَيْنَ يَدِيهِ» أي من الكتب المتقدمة: «وَهُدِيَ وَبُشِّرِي لِلْمُؤْمِنِينَ» أي هدى لقلوبهم وبشرى لهم بالجنة، وليس ذلك إلا للمؤمنين، كما قال تعالى: «قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدَىٰ وَشَفَاءٌ» [فصلت: ٤٤]؛ وقال تعالى: «وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شَفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ» [الإسراء: ٨٢].

ثم قال تعالى: «مَنْ كَانَ عَدُواً لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرَسُولِهِ وَجَبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّهُ عَدُوًّا لِلْكَافِرِينَ» يقول تعالى: من عاداني وملائكتي ورسلي، ورسله تشمل رسلي من الملائكة والبشر، كما قال تعالى «الَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رَسُولاً وَمِنَ النَّاسِ» [الحج: ٧٥]. «وَجَبْرِيلَ وَمِيكَالَ» وهذا من باب عطف الخاص على العام، فإنهم دخلا في الملائكة في عموم الرسل، ثم خصصا بالذكر لأن السياق في الانتصار لجبرائيل، وهو السفير بين الله وأنبيائه، وقرن معه ميكائيل في اللفظ، لأن اليهود زعموا أن جبرائيل عدوهم، وميكائيل ولهم، فأعلمهم الله تعالى أن من عادى واحداً منهما فقد عادى الآخر وعادى الله أيضاً، وأنه أيضاً ينزل على أنبياء الله بعض الأحيان، كما قرن رسول الله ﷺ في ابتداء الأمر، ولكن جبرائيل أكثر وهي وظيفته وميكائيل موكل بالنبات والقطر، هذا بالهدى وهذا بالرزق، كما أن إسرافيل موكل بالفتح في الصور للبعث يوم القيمة، ولهذا جاء في الصحيح أن رسول الله ﷺ كان إذا قام من الليل يقول: «اللَّهُمَّ رَبُّ جَبَرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ، فاطِّرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عَبْدَكَ وَمَنْ كَانَ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتَلَفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مِنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ» وقد تقدم ما حكاه البخاري، ورواه ابن جرير عن عكرمة وغيره أنه قال، جبر، وميك، وإسراط: عبيد، وإيل: الله، وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي عن سفيان، عن الأعمش، عن إسماعيل بن أبي رجاء، عن عمير مولى ابن عباس، عن ابن عباس، قال: إنما كان قوله جبرائيل كقوله عبد الله وعبد الرحمن وقيل جبر: عبد، وإيل: الله. وقال محمد بن إسحاق عن الزهري، عن علي بن الحسين، قال: أتدرؤن ما اسم جبرائيل من أسمائكم؟ قلنا: لا، قال: اسمه عبد الله، وكل اسم مرجعه إلى إيل فهو إلى الله عز

(١) صحيح البخاري (رقاق باب ٣٨).

وجل . قال ابن أبي حاتم : وروي عن عكرمة ومجاحد والضحاك ويحيى بن يعمر ، نحو ذلك . ثم قال : حدثني أبي حمد بن أبي الحواري حدثني عبد العزيز بن عمير قال : اسم جبرائيل في الملائكة خادم الله ، قال : فحدثت به أبا سليمان الداراني فانتقض ، وقال : لهذا الحديث أحب إلى من كل شيء في دفتر كان بين يديه . وفي جبرائيل وميكائيل لغات وقراءات<sup>(١)</sup> تذكر في كتب اللغة والقراءات ، ولم نطول كتابنا هذا بسرد ذلك إلا أن يدور فهم المعنى عليه ، أو يرجع الحكم في ذلك إليه ، وبالله الثقة وهو المستعان .

وقوله تعالى : «فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوُّ الْكَافِرِينَ» فيه إيقاع المظهر مكان المضمر حيث لم يقل : فإنه عدو ، بل قال : «فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوُّ الْكَافِرِينَ» كما قال الشاعر : [الخفيف]

لَا أَرَى الْمَوْتَ يَسْبِقُ الْمَوْتَ شَيْءٌ      نَّعَصَ الْمَوْتَ ذَا الْغَنِيِّ وَالْفَقِيرِ<sup>(٢)</sup>  
وَقَالَ الْآخِرُ : [الكامل]

لَيْتَ الْغَرَابَ غَدَةً يَنْعَبُ دَائِبًا      كَانَ الْغَرَابَ مَقْطُوعَ الْأَوَادِجَ<sup>(٣)</sup>

وإنما أظهر الله هذا الاسم هنا لتقرير هذا المعنى وإظهاره ، وإعلامهم أن من عادي ولها الله فقد عادي الله ، ومن عادي الله فإن الله عدو له ، ومن كان الله عدوه فقد خسر الدنيا والآخرة ، كما تقدم الحديث «من عادي لي ولها فقد أذنته بالمحاربة» وفي الحديث الآخر «إني لأنثر لأوليائي كما يثار الليث الحرب» وفي الحديث الصحيح «من كنت خصمه خصمته» .

وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مَا يَسِّرْتَ مَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَسِقُونَ ﴿١﴾ أَوْ كُلُّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا ثَبَدَهُ فَرَيْقٌ مِنْهُمْ بِلَأَكْرَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ بَدَأُوا فَرَيْقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كَتَبَ اللَّهُ وَرَأَهُ طُهُورُهُمْ كَانُوهُمْ لَا يَعْنِمُونَ ﴿٣﴾ وَاتَّبَعُوا مَا تَلَوَّهُ أَشَيَّطِينٌ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرُ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيْطَانَ كَفَرَ وَأَعْلَمُونَ النَّاسَ أَسْتَخِرُ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِإِبَابِ هَرُوتَ وَمَرُوتَ وَمَا يَعْلَمُانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرُ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ، بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ، وَمَا هُمْ بِضَارِّيْنَ بِهِ، مِنْ أَحَدٍ إِلَّا يَأْدِنُ اللَّهَ وَيَسْتَعْوِنُ مَا يَصْرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اسْتَرْهَهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ

(١) انظر تفسير القرطبي ٣٧/٢ — ٣٨؛ وتفسير الرازى ١٧٧/٣ — ١٨١ .

(٢) البيت لعدي بن زيد في ديوانه ص ٦٥؛ والأشباه وللناظير ٣٠/٨؛ وخزانة الأدب ٣٧٨/١؛ وشرح ديوان الحماسة للمرزاوى ص ٣٦؛ ولسوادة بن عدي في شرح أبيات سيبويه ١٢٧/١؛ وشرح شواهد المعني ١٧٦/٢؛ والكتاب ٦٢/١ .

(٣) البيت بلا نسبة أيضاً في الطبرى ٤٨٥/١ . وهو لجرير في ديوانه ص ٨٩؛ وأمالى ابن الشحرى ٢٤٣/١ .

وَلِئْسَ مَا شَرَفُوا إِلَيْهِ أَنفُسُهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَمَّاً مُّؤْمِنُوا وَأَتَقَوْا لِمَثْوَيْهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢﴾

قال الإمام أبو جعفر بن جرير<sup>(١)</sup> في قوله تعالى: «ولقد أنزلنا إليك آيات بيئات» الآية، أي أنزلنا إليك يا محمد علامات واضحات، دلالات على نبوتك، وتلك الآيات هي ماحواه كتاب الله من خفايا علوم اليهود، ومكnonات سرائر أخبارهم وأخبار أولائهم من بني إسرائيل، والنها عمما تضمنته كتبهم التي لم يكن يعلمها إلا أخبارهم وعلماؤهم وما حرفه أولائهم وأخراهم وبدلوه من أحكامهم التي كانت في التوراة فأطلع الله في كتابه الذي أنزل على نبيه محمد ﷺ، فكان في ذلك من أمره الآيات البيئات لمن أتصف نفسه ولم يدعها إلى هلاكها الحسد والبغى، إذ كان في فطرة كل ذي فطرة صحيحة تصدق من أتى بمثل ماجاء به محمد ﷺ من الآيات البيئات التي وصف من غير تعلم تعلمه من بشر، ولا أخذ شيئاً منه عن آدمي، كما قال الضحاك عن ابن عباس «ولقد أنزلنا إليك آيات بيئات» يقول: فأنت تتلوه عليهم وتخبرهم به غدوة وعشية وبين ذلك، وأنت عندهم أمي لم تقرأ كتاباً، وأنت تخبرهم بما في أيديهم على وجهه، يقول الله تعالى: في ذلك عبرة وبيان [لهم]<sup>(٢)</sup>، وعليهم حجة لو كانوا يعلمون.

وقال محمد بن إسحاق<sup>(٣)</sup>: حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: قال ابن صوري الفطيني لرسول الله ﷺ: يا محمد، ما جئتنا بشيء نعرفه، وما أنزل الله عليك من آية بينة فتبعدك، فأنزل الله في ذلك من قوله «ولقد أنزلنا إليك آيات بيئات وما يكفر بها إلا الفاسقون».

وقال مالك بن الصيف<sup>(٤)</sup>: حين بعث رسول الله ﷺ - وذكر لهم ما أخذ عليهم له من الميثاق وما عهد إليهم في محمد ﷺ: والله ما عهد إلينا في محمد عهد، وما أخذ علينا ميثاقاً<sup>(٥)</sup>، فأنزل الله تعالى «أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم».

وقال الحسن البصري: في قوله «بِلْ أَكْثُرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ» قال: نعم، ليس في الأرض عهد يعاهدون عليه إلا نقضوه ونبذوه، يعاهدون اليوم وينقضون غداً. وقال السدي: لا يؤمنون بما جاء به محمد ﷺ. وقال قتادة: نبذه فريق منهم، أي نقضه فريق منهم. وقال ابن جرير: أصل النبذ الطرح والإلقاء، ومنه سمي اللقيط منبذاً، ومنه سمي النبذ، وهو التمر والزبيب إذا طرحا في الماء، قال أبو الأسود الدؤلي: [التطويل]

(١) تفسير الطبرى / ٤٨٥ .

(٢) زيادة من الطبرى .

(٣) سيرة ابن هشام / ١ / ٥٤٨؛ وتفسير الطبرى / ٤٨٥ / ١ .

(٤) سيرة ابن هشام / ١ / ٥٤٧ .

(٥) في السيرة: «وَمَا أَخْذَ لَهُ عَلَيْنَا مِنْ مِيثَاقٍ».

نظرت إلى عنوانه فبذاته كبذك نعلاً أخلقت من نعالك<sup>(١)</sup>

قلت : فالقوم ذمهم الله ببندهم العهود التي تقدم الله إليهم في التمسك بها والقيام بحقها ، ولهذا أعقبهم ذلك التكذيب بالرسول المبعوث إليهم وإلى الناس كافة الذي في كتبهم نعته وصفته وأخباره ، وقد أمروا فيها باتباعه ومؤازرته ونصرته ، كما قال تعالى : ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأَمِيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْهُمْ فِي التُّورَاةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف : ١٥٧] ، وقال ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِهِمْ مَصْدِقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ الآية ، أي طرح طائفة منهم كتاب الله ههنا ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِهِمْ مَصْدِقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ الآية ، أي تركوها لأنهم لا يعلمون ما فيها ، الذي بأيديهم مما فيه البشرة بمحمد ﷺ وراء ظهورهم ، أي تركوها لأنهم لا يعلمون ما فيها ، وأقبلوا على تعلم السحر واتباعه ، ولهذا أرادوا كيداً برسول الله ﷺ وسحروه في مشط ومشaque وقف طلعة ذَكَر تحت راعوفة بئر أروان<sup>(٢)</sup> ، وكان الذي تولى ذلك منهم رجل يقال له : ليبد بن الأعصم لعنه الله وقبحه ، فأطلع الله على ذلك رسوله ﷺ وشفاه منه وأنقذه ، كما ثبت ذلك مبسوطاً في الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، كما سيأتي بيانه .

قال السدي ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِهِمْ مَصْدِقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ قال : لما جاءهم محمد ﷺ عارضوه للتوراة ، فخاصموه بها ، فاتفق التوراة والقرآن ، فبنذوا التوراة وأخذوا بكتاب أصنف ، وسحر هاروت وماروت ، فلم يوافق القرآن فذلك قوله ﴿كَانُوكُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ . وقال قتادة في قوله ﴿كَانُوكُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قال : إن القوم كانوا يعلمون ، ولكنهم نبذوا علمهم وكموا وجحدوا به .

وقال العوفي في تفسيره عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتَلَوَ الشَّيَاطِينُ﴾ الآية ، وكان حين ذهب ملك سليمان ارتد فتات من الجن والإنس واتبعوا الشهوات ، فلما أرجع الله إلى سليمان ملكه ، وقام الناس على الدين كما كان ، وأن سليمان ظهر على كتبهم فدفنها تحت كرسيه ، وتوفي سليمان عليه السلام حدثان ذلك ، فظهر الإنس والجن على الكتب بعد وفاة سليمان و قالوا : هذا كتاب من الله نزل على سليمان فأخفاه عننا ، فأخذوا به فجعلوه ديناً ، فأنزل الله تعالى ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِهِمْ مَصْدِقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ الآية واتبعوا الشهوات التي كانت تتلو الشياطين ، وهي المعاذف واللعن وكل شيء يصد عن ذكر الله .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشجع ، حدثنا أبوأسامة عن الأعمش ، عن المنھاھ ، عن سعيد بن جبیر ، عن ابن عباس ، قال : كان أصنف كاتب سليمان ، وكان يعلم الاسم الأعظم ، وكان يكتب كل شيء بأمر سليمان ويدفعه تحت كرسيه ، فلما مات سليمان أخرجه الشياطين ، فكتبوا بين كل سطرين سحراً وكفراً ، و قالوا : هذا الذي كان سليمان يعمل به . قال : فأكفره جهال

(١) البيت لأبي الأسود الدؤلي في ديوانه ص ١٠٦؛ و تاج العروس (عن)؛ والطيري ٤٨٨/١.

(٢) أروان : اسم بئر بالمدينة . وقد جاء فيه «ذروان» و«ذو أروان». والمشaque : الشعر الذي يسقط في الرأس واللحية عند التسريح بالمشط . وجفت الطلع : الغشاء الذي يكون فوقه . والراغعة : صخرة ترك في أسفل البئر إذا حفرت ، تكون ناتحة ؛ فإذا أرادوا تنقيبة البئر جلس المتنقي عليها .

الناس وسبوه، ووقف علماء الناس، فلم يزل جهال الناس يسبونه حتى أنزل الله على محمد ﷺ **﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتَلَوَ الشَّيَاطِينُ عَلَى مَلْكِ سَلِيمَانَ وَمَا كَفَرَ سَلِيمَانَ لَكُنَّ الشَّيَاطِينُ كَفَرُوا﴾**.

وقال ابن جرير<sup>(١)</sup>: حديثي أبو السائب سلم بن جنادة السوائي، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن المنهال، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: كان سليمان عليه السلام إذا أراد أن يدخل الخلاء أو يأتي شيئاً من نسائه، أعطى الجرادة وهي امرأة خاتمه، فلما أراد الله أن يتلي سليمان عليه السلام بالذى ابتلاه به، أعطى الجرادة ذات يوم خاتمه، فجاء الشيطان في صورة سليمان فقال: هاتي خاتمي، فأخذته ولبسه، فلما لبسه دانت له الشياطين والجن والإنس. قال: فجاءها سليمان، فقال لها: هاتي خاتمي، فقالت: كذبت لست سليمان، قال: فعرف سليمان أنه بلاء ابتلي به. قال: فانطلقت الشياطين، فكتبت في تلك الأيام كتاباً فيها سحر وكفر، دفعوها تحت كرسي سليمان، ثم أخرجوها وقرؤوها على الناس وقالوا: إنما كان سليمان يغلب الناس بهذه الكتب، قال فبرئ الناس من سليمان وأكفروه حتى بعث الله محمداً ﷺ فأنزل عليه **﴿وَمَا كَفَرَ سَلِيمَانَ لَكُنَّ الشَّيَاطِينُ كَفَرُوا﴾**.

ثم قال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا جرير عن حصين بن عبد الرحمن، عن عمران وهو ابن الحارث، قال: بينما نحن عند ابن عباس رضي الله عنهما، إذ جاء رجل فقال له [ابن عباس]<sup>(٢)</sup>: من أين جئت؟ قال: من العراق، قال: من أيه؟ قال: من الكوقة، قال: فما الخبر؟ قال: تركتهم يتحدثون أن علياً خارج إليهم؛ ففرغ ثم قال: ما تقول لا أبا لك؟ لو شعرنا ما نكحنا نساء ولا قسمنا ميراثه، أما إني سأحدثكم عن ذلك، إنه كانت الشياطين يسترقون السمع من السماء فيجيء أحدهم بكلمة حق قد سمعها، فإذا جرّب منه وصدق، كذب معها سبعين كذبة، قال: فتشربها قلوب الناس قال: فأطاع الله عليها سليمان عليه السلام، دفنتها تحت كرسيه، فلما توفي سليمان عليه السلام، قام شيطان الطريق<sup>(٣)</sup>، فقال: هل أدلّكم على كنزه الممنوع الذي لا كنز له مثله؟ تحت الكرسي. فأخرجوه، فقالوا: هذا سحر، فتناسخها الأمم حتى بقايها ما يتحدث به أهل العراق، فأنزل الله عز وجل **﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتَلَوَ الشَّيَاطِينُ عَلَى مَلْكِ سَلِيمَانَ وَلَكُنَّ الشَّيَاطِينُ كَفَرُوا﴾** الآية، وروى الحاكم في مستدركه عن أبي زكريا العيني، عن محمد بن عبد السلام عن إسحق بن إبراهيم عن جرير به.

وقال السدي في قوله تعالى: **﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتَلَوَ الشَّيَاطِينُ عَلَى مَلْكِ سَلِيمَانَ﴾** أي على عهد سليمان، قال: كانت الشياطين تصعد إلى السماء فتقعد منها مقاعد للسمع، فيستمعون من كلام الملائكة ما يكون في الأرض من موت أو غيب أو أمر، فيأتون الكهنة فيخبرونهم، فتحدثت

(١) تفسير الطبرى / ٤٩٤ .

(٢) زيادة في الطبرى .

(٣) في الطبرى: قام شيطان بالطريق .

الكهنة الناس فيجدونه كما قالوا، فلما أمنتهم الكهنة كذبوا لهم وأدخلوا فيه غيره، فزادوا مع كل كلمة سبعين كلمة، فاكتتب الناس ذلك الحديث في الكتب، وفتشي ذلك فيبني إسرائيل أن الجن تعلم الغيب، بعث سليمان في الناس، فجمع تلك الكتب فجعلها في صندوق، ثم دفنتها تحت كرسيه ولم يكن أحد من الشياطين يستطيع أن يدنو من الكرسي إلا احترق، وقال: لا أسمع أحداً يذكر أن الشياطين يعلمون الغيب إلا ضربت عقنه، فلما مات سليمان، وذهب العلماء الذين كانوا يعرفون أمر سليمان، وخلف من بعد ذلك خلف، تمثل الشيطان في صورة إنسان ثم أتى نفراً من بني إسرائيل فقال لهم: هل أدلّكم على كنز لا تأكلونه<sup>(١)</sup> أبداً؟ قالوا: نعم، قال: فاحفروا تحت الكرسي، فذهب معهم وأراهم المكان وقام ناحيته، فقالوا له: فادن، فقال: لا ولكنني هبنا في أيديكم، فإن لم تجدهم فاقتلوه، فحفروا فوجدوا تلك الكتب، فلما أخرجوها قال الشيطان: إن سليمان إنما كان يضبط الإنس والشياطين والطير بهذا السحر، ثم طار وذهب. وفشا في الناس أن سليمان كان ساحراً، واتخذت بنو إسرائيل تلك الكتب، فلما جاء محمد ﷺ خاصموه بها فذلك حين يقول الله تعالى «وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا»<sup>(٢)</sup>.

وقال الربيع بن أنس<sup>(٣)</sup>: إن اليهود سأّلوا محمداً ﷺ زماناً عن أمور من التوراة لا يسألونه عن شيء من ذلك إلا أنزل الله سبحانه وتعالى ما سأله عنه، فيخصّصهم به فلما رأوا ذلك قالوا: هذا أعلم بما أنزل الله إلينا منا. وإنهم سأله عن السحر وخاصموه به، فأنزل الله عز وجل **﴿وابيعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر﴾** وإن الشياطين عمدوا إلى كتاب فكتبو فيه السحر والكهانة وما شاء الله من ذلك، فدفنوه تحت كرسي مجلس سليمان وكان عليه السلام لا يعلم الغيب، فلما فارق سليمان الدنيا استخرجوا ذلك السحر وخدعوا الناس وقالوا: هذا علم كان سليمان يكتمه ويحسد الناس عليه، فأخبرهم النبي ﷺ بهذا الحديث فرجعوا من عنده وقد أدخلوا الله حجتهم.

وقال مجاهد<sup>(٤)</sup> في قوله تعالى: **﴿وابيعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان﴾** قال: كانت الشياطين تستمع الوحي مما سمعوا من كلمة زادوا فيها مائتين مثلها، فأرسل سليمان عليه السلام إلى ما كتبوا من ذلك، فلما توفي سليمان وجدته الشياطين وعلمه الناس وهو السحر.

وقال سعيد بن جبير<sup>(٤)</sup>: كان سليمان يتبع ما في أيدي الشياطين من السحر فإذا خذله منهم فيدفعه تحت كرسيه في بيت خزانته فلم تقدر الشياطين أن يصلوا إليه فدنت إلى الإنس فقالوا لهم

(١) أي لا ينفع أبداً.

(٢) هذا الأثر الذي قبله ورد في الطبرى ٤٩٠ / ١.

(٣) الطبرى ٤٩٢ / ١.

(٤) الطبرى ٤٩٤ / ١.

أندرون ما العلم الذي كان سليمان يسخر به الشياطين والرياح وغير ذلك؟ قالوا: نعم، قالوا: فإنه في بيت خزانته وتحت كرسيه فاستشار به الإنس واستخرجوه وعملوا بها، فقال أهل الحجاز: كان سليمان يعمل بهذا وهذا سحر فأنزل الله تعالى على نبيه محمد ﷺ براءة سليمان عليه السلام فقال تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَنَلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مَلْكٍ سَلِيمَانَ وَمَا كَفَرَ سَلِيمَانٌ وَلَكُنْ الشَّيَاطِينُ كَفَرُوا﴾

وقال محمد بن إسحاق بن يسار: عمدت الشياطين حين عرفت موت سليمان بن داود عليه السلام، فكتبوا أصناف السحر، من كان يحب أن يبلغ كذا فليفعل كذا وكذا حتى إذا صنفوا أصناف السحر، جعلوه في كتاب ثم ختموه بخاتم على نقش خاتم سليمان وكتبوا في عنوانه: هذا ما كتب آصف بن برخيا الصديق للملك سليمان بن داود من ذخائر كنوز العلم. ثم دفونه تحت كرسيه واستخرجته بعد ذلك بقایا بني إسرائيل حتى أحدثوا ما أحدثوا فلما عثروا عليه قالوا: والله ما كان ملك سليمان إلا بهذه، فأفشووا السحر في الناس فتعلمواه وعلموه، فليس هو في أحد أكثر منه في اليهود لعنهم الله، فلما ذكر رسول الله ﷺ فيما نزل عليه من الله سليمان بن داود وعده فيمن عد من المرسلين، قال من كان بالمدينة من اليهود: لا تعجبون من محمد يزعم أن ابن داود كاننبياً والله ما كان إلا ساحراً. وأنزل الله في ذلك من قولهم ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَنَلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مَلْكٍ سَلِيمَانَ وَمَا كَفَرَ سَلِيمَانٌ وَلَكُنْ الشَّيَاطِينُ كَفَرُوا﴾ الآية.

وقال ابن جرير<sup>(١)</sup>: حدثنا حسين حدثنا الحجاج عن أبي بكر عن شهر بن حوشب، قال: لما سلب سليمان ملكه كانت الشياطين تكتب السحر في غيبة سليمان، فكتبت من أراد أن يأتي كذا وكذا فليستقبل الشمس وليقل كذا وكذا، ومن أراد أن يفعل كذا وكذا فليستدبر الشمس وليقل كذا وكذا، فكتبه وجعلت عنوانه: هذا ما كتب آصف بن برخيا للملك سليمان بن داود عليهما السلام من ذخائر كنوز العلم ثم دفنه تحت كرسيه، فلما مات سليمان عليه السلام، قام إبليس لعنه الله خطيباً فقال: يا أيها الناس إن سليمان لم يكننبياً إنما كان ساحراً فالتمسوا سحره في متاعه وبيوته، ثم دلهم على المكان الذي دفن فيه، فقالوا: والله لقد كان سليمان ساحراً هذا سحره بهذا تبعدنا وبهذا قهرنا، فقال المؤمنون: بل كاننبياً مؤمناً، فلما بعث الله النبي محمداً ﷺ وذكر داود وسلمان فقالت اليهود: انظروا إلى محمد يخلط الحق بالباطل، يذكر سليمان مع الأنبياء إنما كان ساحراً يركب الريح، فأنزل الله تعالى ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَنَلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مَلْكٍ سَلِيمَانَ وَمَا كَفَرَ سَلِيمَانٌ﴾ الآية.

وقال ابن جرير<sup>(١)</sup>: حدثنا محمد بن عبد الأعلى الصنعاني، حدثنا المعتمر بن سليمان، قال: سمعت عمران بن حذير عن أبي مجلز قال: أخذ سليمان عليه السلام من كل دابة عهداً فإذا

أصيب رجل فسأل بذلك العهد خلي عنـه، فزاد الناس السجع والـسحر، فقالوا: هذا يـعمل به سليمان بن داود عليهمـما السلام، فقال الله تعالى: ﴿وَمَا كـفر سليمان ولكن الشـياطين كـفروا بـعلمـون النـاس السـحر﴾.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عصام بن رواد حدثنا آدم حدثنا المسعودي عن زيـاد مولـى ابن مصعب عنـالحسن ﴿وـاتـبعـوا ما تـتـلـوا الشـيـاطـين﴾ قال: ثـلـثـ الشـعـر وـثـلـثـ السـحـر وـثـلـثـ الـكـهـانـةـ، وقال: حدـثـناـ الحـسـنـ بنـ أـحـمـدـ حدـثـناـ إـبـراهـيمـ بنـ عبدـ اللهـ بنـ بشـارـ الوـاسـطـيـ حدـثـنيـ سـرـورـ بنـ المـغـيـرـةـ عنـ عـبـادـ بنـ منـصـورـ عنـ الحـسـنـ ﴿وـاتـبعـوا ما تـتـلـوا الشـيـاطـينـ عـلـى مـلـكـ سـلـيمـانـ﴾ وـتـبـعـتـهـ اليـهـودـ عـلـى مـلـكـهـ وـكـانـ السـحـرـ قـبـلـ ذـلـكـ فـي الـأـرـضـ لـمـ يـزـلـ بـهـاـ، وـلـكـنـ إـنـمـاـ اـتـيـعـ عـلـى مـلـكـ سـلـيمـانـ. فـهـذـهـ نـبـذـةـ مـنـ أـقـوـالـ أـئـمـةـ السـلـفـ فـي هـذـاـ المـقـامـ، وـلـاـ يـخـفـيـ مـلـخـصـ القـصـةـ وـالـجـمـعـ بـيـنـ أـطـرـافـهـ وـأـنـهـ لـاـ تـعـارـضـ بـيـنـ السـيـاقـاتـ عـلـى اللـبـيـبـ الفـهـمـ، وـالـلـهـ الـهـادـيـ.

وقـولـهـ تـعـالـىـ: ﴿وـاتـبعـوا ما تـتـلـوا الشـيـاطـينـ عـلـى مـلـكـ سـلـيمـانـ﴾ أيـ وـاتـبعـتـ اليـهـودـ الـذـينـ أـوـتـواـ الـكـتـابـ مـنـ بـعـدـ إـعـرـاضـهـمـ عـنـ كـتـابـ اللهـ الـذـيـ بـأـيـدـيـهـمـ، وـمـخـالـفـتـهـمـ لـرـسـوـلـ اللهـ مـحـمـدـ ﷺـ ماـ تـتـلـواـ الشـيـاطـينـ، أيـ مـاـ تـرـوـيـهـ وـتـبـرـهـ بـهـ وـتـحـدـثـهـ الشـيـاطـينـ عـلـى مـلـكـ سـلـيمـانـ، وـعـدـاهـ بـعـلـىـ لـأـنـهـ ضـمـنـ تـتـلـواـ: تـكـذـبـ، وـقـالـ اـبـنـ جـرـيرـ ﴿عـلـىـ﴾ هـنـاـ بـمـعـنـىـ فـيـ، أيـ تـتـلـواـ فـيـ مـلـكـ سـلـيمـانـ، وـنـقـلـهـ عـنـ اـبـنـ جـرـيرـ وـابـنـ إـسـحـاقـ.

(قلـتـ) وـالتـضـمـنـ أـحـسـنـ وـأـوـلـىـ، وـالـلـهـ أـعـلـمـ. وـقـولـهـ الحـسـنـ الـبـصـرـيـ رـحـمـهـ اللهـ: وـكـانـ السـحـرـ قـبـلـ زـمانـ سـلـيمـانـ بنـ دـاـوـدـ - صـحـيـحـ لـاـ شـكـ فـيـهـ، لـأـنـ السـحـرـ كـانـواـ فـيـ زـمانـ مـوـسـىـ عـلـىـ السـلـامـ وـسـلـيمـانـ بنـ دـاـوـدـ بـعـدـهـ، كـمـاـ قـالـ تـعـالـىـ ﴿أـلـمـ تـرـ إـلـىـ الـمـلـأـ مـنـ بـنـيـ إـسـرـائـيلـ مـنـ بـعـدـ مـوـسـىـ﴾ [الـبـقـرةـ: ٢٤٦ـ]، ثـمـ ذـكـرـ الـقـصـةـ بـعـدـهـاـ وـفـيـهـاـ ﴿وـقـتـلـ دـاـوـدـ جـالـوتـ وـأـتـاهـ اللهـ الـمـلـكـ وـالـحـكـمـةـ﴾ [الـبـقـرةـ: ٢٥١ـ] وـقـالـ قـوـمـ صـالـحـ وـهـمـ قـبـلـ إـبـراهـيمـ الـخـلـيلـ عـلـىـ السـلـامـ لـنـبـيـهـمـ صـالـحـ إـنـمـاـ ﴿أـنـتـ مـنـ الـمـسـحـرـينـ﴾ [الـشـعـراءـ: ١٥٣ـ] أيـ الـمـسـحـورـينـ عـلـىـ الـمـشـهـورـ.

وـقـولـهـ تـعـالـىـ: ﴿وـمـاـ أـنـزـلـ عـلـىـ الـمـلـكـيـنـ بـبـابـ هـارـوـتـ وـمـارـوـتـ وـمـاـ يـعـلـمـانـ مـنـ أـحـدـ حـتـىـ يـقـوـلـاـ إـنـمـاـ نـحـنـ فـلـاـ تـكـفـرـ فـيـتـعـلـمـونـ مـنـهـمـ مـاـ يـفـرـقـونـ بـهـ بـيـنـ الـمـرـءـ وـزـوـجـهـ﴾ اـخـتـلـفـ النـاسـ فـيـ هـذـاـ الـمـقـامـ، فـذـهـبـ بـعـضـهـمـ إـلـىـ أـنـ ﴿مـاـ﴾ نـافـيـةـ أـعـنـيـهـ الـتـيـ فـيـ قـولـهـ: ﴿وـمـاـ أـنـزـلـ عـلـىـ الـمـلـكـيـنـ﴾ قالـ القرـطـبـيـ<sup>(١)</sup>: مـاـ نـافـيـةـ وـمـعـطـوفـ عـلـىـ قـولـهـ ﴿وـمـاـ كـفـرـ سـلـيمـانـ﴾ ثـمـ قـالـ ﴿وـلـكـنـ الشـيـاطـينـ كـفـرـواـ يـعـلـمـونـ النـاسـ السـحـرـ وـمـاـ أـنـزـلـ عـلـىـ الـمـلـكـيـنـ﴾ وـذـلـكـ أـنـ اليـهـودـ كـانـواـ يـزـعـمـونـ أـنـهـ نـزـلـ بـهـ جـبـرـيلـ وـمـيـكـائـيلـ فـأـكـذـبـهـمـ اللهـ وـجـعـلـ قـولـهـ ﴿هـارـوـتـ وـمـارـوـتـ﴾ بـدـلـاـًـ مـنـ الشـيـاطـينـ، قـالـ: وـصـحـ ذـلـكـ إـمـاـ لـأـنـ الـجـمـعـ يـطـلـقـ عـلـىـ الـاثـنـيـنـ كـمـاـ فـيـ قـولـهـ تـعـالـىـ: ﴿فـإـنـ كـانـ لـهـ إـخـوـةـ﴾ [الـسـاءـ: ١١ـ] أوـ لـكـونـهـمـ

لهمأتباع أو ذكرا من بينهم لتمردهما تقدير الكلام عنده يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت . ثم قال : وهذا أولى ما حملت عليه الآية وأصح ولا يلتفت إلى ما سواه .

وروى ابن جرير<sup>(١)</sup> بإسناده من طريق العوفي عن ابن عباس في قوله ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكِينَ بِبَابِل﴾ الآية ، يقول لم ينزل الله السحر وبإسناده عن الربيع بن أنس في قوله ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكِينَ﴾ قال : ما أُنْزِلَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا السُّحْرُ . قال ابن جرير فتأويل الآية على هذا ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتَلَوَّا الشَّيَاطِينُ عَلَى مَلْكِ سَلِيمَانَ﴾ من السحر وما كفر سليمان ولا أُنْزِلَ اللَّهُ السُّحْرُ عَلَى الْمَلَكِينَ ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت ، فيكون قوله ببابل هاروت وماروت من المؤخر الذي معناه المقدم قال : فإن قال لنا قائل : كيف وجه تقديم ذلك ؟ قيل وجه تقديمه أن يقال ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتَلَوَّا الشَّيَاطِينُ عَلَى مَلْكِ سَلِيمَانَ﴾ من السحر وما كفر سليمان وما أُنْزِلَ اللَّهُ السُّحْرُ عَلَى الْمَلَكِينَ ، ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت ، فيكون معنياً بالملكين جبريل وميكائيل عليهما السلام ، لأن سحرة اليهود فيما ذكرت كانت تزعم أن الله أُنْزِلَ السحر على لسان جبريل وميكائيل إلى سليمان بن داود فأكذبهم الله بذلك ، أخبر نبيه محمداً ﷺ أن جبريل وميكائيل لم ينزل بسحر وبراً سليمان عليه السلام مما نحلوه من السحر ، وأخبرهم أن السحر من عمل الشياطين وأنها تعلم الناس ذلك ببابل ، وأن الذين يعلموهم ذلك رجلان : اسم أحدهما هاروت ، واسم الآخر ماروت ، فيكون هاروت وماروت على هذا التأويل ترجمة عن الناس وردًا عليهم . هذا لفظه بحروفه .

وقد قال ابن أبي حاتم : حدثت عن عبيد الله بن موسى ، أخبرنا فضيل بن مرزوق عن عطية ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكِينَ﴾ قال : ما أُنْزِلَ اللَّهُ عَلَى جَبَرِيلَ وَمِيكَائِيلَ السُّحْرُ ، قال ابن أبي حاتم : وأخبرنا الفضل بن شاذان ، أخبرنا محمد بن عيسى ، أخبرنا يعلى يعني ابن أسد ، أخبرنا بكر يعني ابن مصعب ، أخبرنا الحسن بن أبي جعفر : أن عبد الرحمن بن أبي زرقي يقرؤها ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكِينَ دَاؤِدَ وَسَلِيمَانَ﴾ وقال أبو العالية : لم ينزل عليهما السحر ، يقول : علمًا بالإيمان والكفر ، فالسحر من الكفر ، فهما ينهيان عنه أشد النهي ، رواه ابن أبي حاتم . ثم شرع ابن جرير في رد هذا القول ، وأن ما بمعنى الذي ، وأطال القول في ذلك وادعى أن هاروت وماروت ملكان أُنْزل لهما الله إلى الأرض وأذن لهم في تعليم السحر اختباراً لعباده وامتحاناً بعد أن بين لعباده أن ذلك مما ينهى عنه على ألسنة الرسل ، وادعى أن هاروت وماروت مطيعان في تعليم ذلك ، لأنهما امثلاً ما أمر به ، وهذا الذي سلكه غريب جداً ، وأغرب منه قول من زعم أن هاروت وماروت قبيلان من الجن ، كما زعمه ابن حزم .

وروى ابن أبي حاتم بإسناده عن الضحاك بن مزاحم أنه كان يقرؤها ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى

الملكين» ويقول: هما على جان من أهل بابل، ووجه أصحاب هذا القول الإنزال بمعنى الخلق لا بمعنى الایحاء كما في قوله تعالى «وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُلْكِيْنَ» كما قال تعالى: «وَأَنْزَلْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَّةً أَرْوَاحًا» [ال Zimmerman: ٦] «وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ» [الحديد: ٢٥]، «وَأَنْزَلْنَا لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا» [غافر: ١٣] وفي الحديث «مَا أَنْزَلَ اللَّهُ دَاءً إِلَّا أَنْزَلَ لَهُ دَوْاءً» وكما يقال «أَنْزَلَ اللَّهُ الْخَيْرَ وَالشَّرِّ».

وحكى القرطبي<sup>(١)</sup> عن ابن عباس وابن أبي زيد والحسن البصري أنهم قرروا «وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُلْكِيْنَ» بكسر اللام، قال ابن أبي زيد: وما داود وسلمان، قال القرطبي: فعلى هذا تكون ما نافية أيضاً. وذهب آخرون إلى الوقف على قوله «يَعْلَمُونَ النَّاسَ السُّحْرَ» وما نافية. قال ابن حجرير<sup>(٢)</sup>: حدثني يونس، أخبرنا أبا عبد الله، أخبرنا الليث عن يحيى بن سعيد عن القاسم بن محمد وسأله رجل عن قول الله «يَعْلَمُونَ النَّاسَ السُّحْرَ» وما أَنْزَلَ عَلَى الْمُلْكِيْنَ بِبَابِ هَارُوتْ وَمَارُوتْ» فقال: الرجلان يعلمان الناس ما أَنْزَلَ عَلَيْهِمَا ويعلمان الناس ما لم ينزل عَلَيْهِمَا، فقال القاسم: ما أبالي أيتهما كانت. ثم روى عن يونس عن أنس بن عياض عن بعض أصحابه أن ذلك حديث مرفوع رواه الإمام أحمد في مسنده رحمه الله كما سنورده إن شاء الله، وعلى هذا فيكون الجمع بين هذا وبين ما ورد من الدلائل على عصمة الملائكة أن هذين سبق في علم الله لهما هذا، فيكون تخصيصاً لهما فلا تعارض حينئذ كما سبق في علمه من أمر إبليس ما سبق، وفي قوله إنه كان من الملائكة لقوله تعالى «وَإِذْ قَلَنَا لِلْمَلَائِكَةَ اسْجَدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسُ أَبِي» [البقرة: ٣٤] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك، مع أن شأن هاروت وماروت على ما ذكر أخف مما وقع من إبليس لعنة الله تعالى. وقد حكاه القرطبي عن علي وابن مسعود وابن عباس وابن عمر وكعب الأحبار والسدي والكلبي.

### ذكر الحديث الوارد في ذلك إن صلح سنته ورفعه وبيان الكلام عليه

قال الإمام أحمد بن حنبل<sup>(٤)</sup> رحمه الله تعالى في مسنده: أخبرنا يحيى بن بكر، حدثنا زهير بن محمد عن موسى بن جبير عن نافع عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أنه سمع النبي الله ﷺ يقول: «إِنَّ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَا أَهْبَطَهُ اللَّهُ إِلَى الْأَرْضِ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: أَيُّ رَبِّ

(١) تفسير القرطبي ٥٢/٢.

(٢) الطبراني ٤٩٩/١.

(٣) بعدهما سأله: أَنْزَلَ أَمْ لَمْ يُنْزَلْ، كما ورد في الطبراني.

(٤) مسنند أحمد (ج ٢ ص ١٣٤).

﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مِن يَفْسُدُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسْبِحُ بِحَمْدِكَ وَنَقْدِسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠] قالوا: ربنا نحن أطوع لك منبني آدم، قال الله تعالى للملائكة: هلموا ملكي من الملائكة حتى نهبطهم إلى الأرض فنتنظر كيف يعملان، قالوا: ربنا هاروت وماروت، فأهبطا إلى الأرض، ومثلت لهما الزهرة امرأة من أحسن البشر، فجاءتهما فسألاها نفسها، فقالت: لا والله حتى تتكلما بهذه الكلمة من الإشراك، فقال: والله لا نشرك بالله شيئاً أبداً، فذهبت عنهما ثم رجعت بصي تحمله فسألاها نفسها فقالت: لا والله حتى تقتلنا هذا الصبي، فقال: لا والله لا نقتله أبداً فذهبت ثم رجعت بقدح خمر تحمله فسألاها نفسها، فقالت: لا والله حتى تشربا هذا الخمر، فشربا فسروا فوقعوا عليها وقتلا الصبي، فلما أفاقا قال المرأة: والله ما تركتم شيئاً أبitemاه علي إلا قد فعلتماه حين سكرتما، فخيرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فاختارا عذاب الدنيا».

وهكذا رواه أبو حاتم بن حبان في صحيحه عن الحسن بن سفيان عن أبي بكر بن أبي شيبة عن يحيى بن بکير - به ، وهذا حديث غريب من هذا الوجه ، ورجاله كلهم ثقات من رجال الصحيحين إلا موسى بن جبير هذا وهو الأنصارى السلمي مولاهن المدينى الحذاء ، روى عن ابن عباس وأبى أمامة بن سهل بن حنيف ونافع وعبد الله بن كعب بن مالك وروى عنه ابن عبد السلام وبكر بن مضر وزهير بن محمد وسعيد بن سلمة وعبد الله بن لهيعة وعمرو بن الحارث ويحيى بن أيوب ، وروى له أبو داود وابن ماجه ، وذكره ابن أبي حاتم في كتاب الجرح والتعديل ، ولم يحك فيه شيئاً من هذا فهو مستور الحال ، وقد تفرد به عن نافع مولى ابن عمر عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ ، وروى له متابع من وجه آخر عن نافع ، كما قال ابن مردويه: حدثنا دلجم بن أحمد حدثنا هشام بن علي بن هشام حدثنا عبد الله بن رجاء حدثنا سعيد بن سلمة حدثنا موسى بن سرجس عن نافع عن ابن عمر: سمع النبي ﷺ يقول: فذكره بطوله .

وقال أبو جعفر بن جرير<sup>(١)</sup> رحمه الله: حدثنا القاسم، أخبرنا الحسين وهو سنيد بن داود صاحب التفسير، أخبرنا الفرج بن فضالة عن معاوية بن صالح عن نافع، قال: سافرت مع ابن عمر فلما كان من آخر الليل قال: يا نافع انظر طلعت الحمراء؟ قلت: لا، مرتين أو ثلاثة، ثم قلت: قد طلعت، قال: لا مرحباً بها ولا أهلاً، قلت: سبحان الله نجم مسخر سامي مطيع، قال: ما قلت لك إلا ما سمعت من رسول الله ﷺ وقال: قال لي رسول الله ﷺ «إن الملائكة قالت يا رب كيف صبرك علىبني آدم في الخطايا والذنوب؟ قال: إني ابتليتهم وعافيتكم، قالوا: لو كنا مكانهم ما عصيناك، قال: فاختاروا ملكي منكم، قال: فلم يأولوا جهداً أن يختاروا فاختاروا هاروت وماروت» وهذا أيضاً غريباً جداً. وأقرب ما يكون في هذا أنه من رواية

عبد الله بن عمر عن كعب الأحبار لا عن النبي ﷺ كما قال عبد الرزاق في تفسيره عن الثوري عن موسى بن عقبة عن سالم عن ابن عمر عن كعب الأحبار قال: ذكرت الملائكة أعمال بني آدم وما يأتون من الذنوب ، فقيل لهم: اختاروا منكم اثنين فاختاروا هاروت وماروت ، فقال لهمما إنني أرسل إلى بني آدم رسلاً وليس بيبي وبينكم رسول ، انزوا لا تشركا بي شيئاً ولا تزنيوا ولا تشربا الخمر ، قال كعب: فوالله ما أمسيا من يومهما الذي أهبطنا فيه حتى استكملا جميعاً ما نهيا عنه رواه ابن جرير من طريقين عن عبد الرزاق به ، ورواه ابن أبي حاتم عن أحمد بن عصام عن مؤمل عن سفيان الثوري به ، ورواه ابن جرير أيضاً حدثني المثنى أخبرنا المعلى وهو ابن أسد أخبرنا عبد العزيز بن المختار عن موسى بن عقبة حدثني سالم أنه سمع عبد الله يحدث عن كعب الأحبار فذكره ، فهذا أصح وأثبت إلى عبد الله بن عمر من الإسنادين المتقدمين وسالم أثبت في أبيه من مولاه نافع ، فدار الحديث ورجع إلى نقل كعب الأحبار عن كتب بني إسرائيل ، والله أعلم .

(ذكر الآثار الواردة في ذلك عن الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين)

قال ابن جرير<sup>(١)</sup>: حدثني المثنى الحجاج أخينا حماد عن خالد الحذاء عن عمير بن سعيد ، قال: سمعت علياً رضي الله عنه يقول: كانت الزهرة امرأة جميلة من أهل فارس وإنها خاصمت إلى الملائكة هاروت وماروت فراودتها عن نفسها فأبانت عليهما إلا أن يعلماها الكلام الذي إذا تكلم به أحد يعرج به إلى السماء فلعلماها فتكلمت به ، فعرجت إلى السماء فمسخت كوكباً . وهذا الإسناد رجاله ثقات وهو غريب جداً .

وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا الفضل بن شاذان أخينا محمد بن عيسى أخبرنا إبراهيم بن موسى أخينا معاوية عن خالد عن عمير بن سعيد عن علي رضي الله عنه قال: هما ملكان من ملائكة السماء ، يعني «وما أنزل على الملائكة» ورواه الحافظ أبو بكر بن مردوه في تفسيره بسنده عن مغيث عن مولاه جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عن علي مرفوعاً . وهذا لا يثبت من هذا الوجه . ثم رواه من طريقين آخرين عن جابر عن أبي الطفيل عن علي رضي الله عنه ، قال: قال رسول الله ﷺ «عن الله الزهرة فإنها هي التي فتنت الملائكة هاروت وماروت» وهذا أيضاً لا يصح وهو منكر جداً ، والله أعلم .

وقال ابن جرير<sup>(٢)</sup>: حدثني المثنى بن إبراهيم أخينا الحجاج بن منهال حماد عن علي بن زيد عن أبي عثمان النهدي عن ابن مسعود وابن عباس أنهما قالا جميعاً: لما كثر بنو آدم

(١) الطبرى / ٥٠٢ .

(٢) الطبرى / ٥٠١ .

وعصوا، دعت الملائكة عليهم والأرض والجبال ربنا لا تمهلهم، فأوحى الله إلى الملائكة إني أزلت الشهوة والشيطان من قلوبكم ولو نزلتم لفعلتم أيضاً. قال: فحدثوا أنفسهم ان لو ابتلوا اعتصموا، فأوحى الله إليهم أن اختاروا ملكين من أفضلكم، فاختاروا هاروت وماروت، فأهبطا إلى الأرض وأنزلت الزهرة إليهما في صورة امرأة من أهل فارس يسمونها ييذخت، قال: فوقعوا بالخطيئة، فكانت الملائكة يستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً، فلما وقعا بالخطيئة استغفروا لمن في الأرض ألا إن الله هو الغفور الرحيم، فخيرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة فاختارا عذاب الدنيا.

وقال ابن أبي حاتم : أخبرنا أبي أخبرنا عبد الله بن جعفر الرقى أخبرنا عبيد الله يعني ابن عمرو عن زيد بن أبي أنيسة عن المنهال بن عمرو ويونس بن خباب عن مجاهد ، قال : كنت نازلاً على عبد الله بن عمر في سفر ، فلما كان ذات ليلة قال لغلامه : انظر هل طلت الحمراء لا مرحباً بها ولا أهلاً ولا حياماً الله هي صاحبة الملkin ، قالت الملائكة : يا رب ، كيف تدع عصاةبني أدم وهم يسفكون الدم الحرام ويتهكرون محارماً ويفسدون في الأرض ؟ قال إني ابتليتهم فلعل إن ابتليتكم بمثل الذي ابتليتهم به فعلتم كالذى يفعلون ، قالوا : لا ، قال : فاختاروا من خياركم اثنين ، فاختاروا هاروت وماروت ، فقال لهم : إني مهبطكم إلى الأرض وعاهد إليكم أن لا تشركا ولا تزنيوا ولا تخونا ، فأهبطوا إلى الأرض وألقى عليهم الشهوة ، وأهبطت لهم الزهرة في أحسن صورة امرأة ، فتعرضت لهما فراوداهما عن نفسها ، فقالت : إني على دين لا يصح لأحد أن يأتيني إلا من كان على مثله ، قالا : وما دينك ؟ قالت المجنوسية ، قالا : الشرك هذا شيء لا نقر به ، فمكثت عنهما ما شاء الله تعالى ، ثم تعرضت لهما فراوداهما عن نفسها ، فقالت : ما شئتما غير أن لي زوجاً وأنا أكره أن يطلع على هذا مني فأفتصح ، فإن أقررتما لي بديني وشرطتما لي أن تصعدا بي إلى السماء فعلت ، فأقر لها بدينه وأتيها فيما يريان ثم صعدا بها إلى السماء ، فلما انتهيا بها إلى السماء اختطفت منها وقطعت أجنحتهما فوقيعاً خائفين نادمين يبكيان وفي الأرض نبى يدعو بين الجمعتين فإذا كان يوم الجمعة أ吉ب فقالا : لو أتينا فلاناً فسألناه فطلب لنا التوبة ، فأتياه فقال : رحمكما الله كيف يطلب التوبة أهل الأرض لأهل السماء ؟ قالا : إننا قد ابتلينا ، قال أتتني يوم الجمعة فأتياه ، فقال : ما أجبت فيكما بشيء أتتني في الجمعة الثانية فأتياه ، فقال : اختارا فقد خيرتما إن اخترتما معافاة الدنيا وعذاب الآخرة وإن أحبيتما عذاب الدنيا وأنتما يوم القيمة على حكم الله ، فقال أحدهما : إن الدنيا لم يمض منه إلا القليل . وقال الآخر : ويحك إني قد اطعتك في الأمر الأول فأطعني الآن إن عذاباً يفني ليس كعذاب يبقى . فقال : إننا يوم القيمة على حكم الله فأخاف أن يعذبنا ، قال : لا . إني أرجو إن علم الله أنا قد اخترنا عذاب الدنيا مخافة عذاب الآخرة أن لا يجمعها علينا ، قال : فاختارا عذاب الدنيا فجعلها في بكرات من حديد في قليب مملوقة من نار عليهما سافلهما - وهذا إسناد جيد إلى

عبد الله بن عمر - وقد تقدم في رواية ابن جرير من حديث معاوية بن صالح عن نافع عنه رفعه ، وهذا أثبت وأصح إسناداً ثم هو - والله أعلم - من رواية ابن عمر عن كعب كما تقدم بيانه من رواية سالم عن أبيه . وقوله: إن الزهرة نزلت في صورة امرأة حسناء ، وكذا في المروي عن علي فيه غرابة جداً .

وأقرب ما ورد في ذلك ما قال ابن أبي حاتم: أخبرنا عصام بن رجاد، أخبرنا آدم، أخبرنا أبو حضر، حدثنا الربيع بن أنس عن قيس بن عباد عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: لما وقع الناس من بعد آدم عليه السلام فيما وقعوا فيه من المعاشي والكفر بالله، قالت الملائكة في السماء: يا رب هذا العالم الذي إنما خلقتم لهم لعبادتك وطاعتكم قد وقعوا فيما وقعوا فيه، وركبوا الكفر، وقتل النفس، وأكل المال الحرام، والزنا والسرقة، وشرب الخمر، فجعلوا يدعون عليهم ولا يعذرون لهم فقيل: إنهم في غيب فلم يعذروهم، فقيل لهم: اختاروا من أفضلكم ملكين أمورهما، وأنهياهما، فاختاروا هاروت وماروت فأهبطا إلى الأرض وجعل لهما شهواتبني آدم وأمرهما الله أن يعبداه ولا يشركاه بشئناً ونهيا عن قتل النفس الحرام وأكل المال الحرام وعن الزنا والسرقة وشرب الخمر، فلبثا في الأرض زماناً يحكمان بين الناس بالحق وذلك في زمن إدريس عليه السلام، وفي ذلك الزمان امرأة حسنها في النساء كحسن الزهرة في سائر الكواكب، وإنهما أتيا عليها فخضعا لها في القول وأراداها على نفسها فأبى إلا أن يكون على أمرها وعلى دينها، فسألها عن دينها، فأخرجت لهما صنماً فقالت: هذا أعبده، فقالا: لا حاجة لنا في عبادة هذا، فذهبا فغبرا<sup>(١)</sup> ما شاء الله، ثم أتيا عليها فأراداها على نفسها ففعلت مثل ذلك، فذهبا ثم أتيا عليها فأراداها على نفسها، فلما رأت أنهما قد أتيا أن يعبدان الصنم، قالت لهما: اختارا إحدى الخلال الثلاث: إما ان تبعدا هذا الصنم، وإما أن تقتلوا هذه النفس، وإما أن تشربا هذه الخمر، فقالا: كل هذا لا ينبغي وأهون هذا شرب الخمر فشربا الخمر فأخذت فيهما، فوافقا المرأة فخشيا أن يخبر الإنسان عنهم فقتلاه، فلما ذهب عنهم السكر وعلما ما وقعوا فيه من الخطيئة أرادا أن يصعدا إلى السماء فلم يستطعوا وحيل بينهما وبين ذلك، وكشف الغطاء فيما بينهما وبين أهل السماء، فنظرت الملائكة إلى ما وقعوا فيه فعجبوا كل العجب وعرفوا أنه من كان في غيب فهو أقل خشية، فجعلوا بعد ذلك يستغفرون لمن في الأرض فنزل في ذلك **﴿وَالملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض﴾** [الشورى: ٥] فقيل لهم: اختارا عذاب الدنيا أو عذاب الآخرة، فقالا: أما عذاب الدنيا فإنه ينقطع ويدهب وأما عذاب الآخرة فلا انقطاع له، فاختارا عذاب الدنيا، فجعلوا ببابا فهما يعذبان. وقد رواه الحاكم في مستدركه مطولاً عن أبي زكريا العينري عن محمد بن عبد السلام عن إسحاق بن راهوية عن حكما بن سلم الرازي وكان ثقة عن أبي جعفر الرازي به، ثم قال: صحيح الإسناد لم يخرجاه، فهذا أقرب ما روی في شأن

## (١) غُبُرٌ غُبُرًا: مضى.

الزهرة، والله أعلم<sup>(١)</sup>.

وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا أبي أخبرنا مسلم أخبرنا القاسم بن الفضل الحذائي أخبرنا يزيد يعني الفارسي عن ابن عباس: أن أهل سماء الدنيا أشرفوا على أهل الأرض فرأوه يعملون بالمعاصي، فقالوا: يا رب أهل الأرض كانوا يعملون بالمعاصي، فقال عليه السلام: أنتم معى وهم في غيب عنى، فقيل لهم: اختاروا منكم ثلاثة فاختاروا منهم ثلاثة على أن يهبطوا إلى الأرض على أن يحكموا بين أهل الأرض، وجعل فيهم شهوة الآدميين، فأمروه أن لا يشربوا خمراً ولا يقتلوا نفساً ولا يزنوا ولا يسجدوا لوثن، فاستقال منهم واحد فأقيل، فأهبط اثنان إلى الأرض فأتهما امرأة من أحسن الناس يقال لها: مناهية فهو يها جميعاً، ثم أتيا منزلها فاجتمعا عندها فأراداها فقالت لهما: لا حتى تشربا خمراً، وتقتلابن جاري، وتسجدا لوثني، فقالا: لا نسجد ثم شربا من الخمر ثم قتلا ثم سجدا، فأشرف أهل السماء عليهم، وقالت لهما: أخبراني بالكلمة التي إذا قلتمها طرتما، فأخبراهما فطارت، فمسخت جمرة وهي هذه الزهرة، وأما هما فأرسل إليهما سليمان بن داود فخيرهما بين عذاب الدنيا وعداب الآخرة، فاختارا عذاب الدنيا فهما مناطنان بين السماء والأرض، وهذا السياق فيه زيادة كثيرة وإغراق ونكارة، والله أعلم بالصواب.

وقال عبد الرزاق: قال معمر قال قتادة والزهري، عن عبيد الله بن عبد الله ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكِينَ بِبَابِ هَارُوتْ وَمَارُوتْ﴾ كانوا ملوك من الملائكة فأهبطوا ليحكموا بين الناس، وذلك أن الملائكة سخروا من حكام بني آدم فحاكمت إليهما امرأة فخاف لها ثم ذهبوا يصعدان فحيل بينهما وبين ذلك، ثم خيرا بين عذاب الدنيا وعداب الآخرة فاختارا عذاب الدنيا. قال معمر: قال قتادة فكانا يعلمان الناس السحر فأخذ عليهما أن لا يعلما أحداً حتى يقولوا إنما نحن فتنة فلا تكفر.

وقال أسباط عن السدي أنه قال<sup>(٢)</sup>: كان من أمر هاروت وماروت أنهم طعنوا على أهل الأرض في أحکامهم، فقيل لهم: إني أعطيت بني آدم عشرة من الشهوات فيها يعصونني، قال هاروت وماروت: ربنا لو أعطيتنا تلك الشهوات ثم نزلنا لحكمنا بالعدل. فقال لهم: إنما فقد أعطيتكم تلك الشهوات العشر فاحكموا بين الناس، فنزل بباب ديانوند، فكانا يحكمان حتى إذا أمسيا عرجا فإذا أصبحا هبطا، فلم يزال كذلك حتى أتتهما امرأة تخاصم زوجها فأعجبهما حسنها وأسمها بالعربية الزهرة، وبالبطية يدخلت<sup>(٣)</sup>، وبالفارسية أنا هيدي، فقال أحدهما لصاحبه: إنها

(١) وقال ابن كثير في البداية والنهاية ١/٣٣: فهذا أظنه من وضع الإسرائييليين وإن كان قد أخرجه كعب الأحبار وتلقاه عنه طائفه من السلف، فذكروه على سبيل الحكاية والتحدث عن بني إسرائيل... وإذا أحسنا الظن قلنا هذا من أخبار بني إسرائيل ومن خرافاتهم التي لا يعول عليها.

(٢) الأثر في تفسير الطبرى ١/٥٠٢.

(٣) في الطبرى «يدخلت» و«أنا هيذ» كلاما بالذال المعجمة.

لتعجبني، قال الآخر: قد أردت أن أذكر لك فاستحييت منك، فقال الآخر: هل لك أن تذكرها لنفسها. قال: نعم، ولكن كيف لنا بعذاب الله؟ قال الآخر إننا لنرجوا رحمة الله. فلما جاءت تخاصم زوجها ذكرها إليها نفسها، فقالت: لا حتى تقضيا لي على زوجي فقضي لها على زوجها ثم واعدتهما خربة من الحرب يأتianها فيها فأتياها بذلك، فلما أراد الذي يواعدها قال: ما أنا بالذي أفعل حتى تخبراني بأي كلام تصعدان إلى السماء، وبأي كلام تنزلان منها، فأخبراهما فتكلمت فصعدت، فأنساها الله تعالى ما تنزل به فثبتت مكانها وجعلها الله كوكباً، فكان عبد الله بن عمر كلما رأها لعنها وقال: هذه التي فنت هاروت وماروت، فلما كان الليل، أرادا أن يصعدا فلم يطيقا فعرفا الهلكة، فخيرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فاختارا عذاب الدنيا، فعلقا ببابل وجعلوا يكلمان الناس كلامها وهو السحر.

وقال ابن أبي نجيع عن مجاهد<sup>(١)</sup>: أما شأن هاروت وماروت فإن الملائكة عجبت من ظلمبني آدم وقد جاءتهم الرسل والكتب والبيانات، فقال لهم ربهم تعالى: اختاروا منكم ملكين أنزلهما يحكمان في الأرض فاختاروا فلم يألفا هاروت وماروت، فقال لهم حين أُنجز لهما: أَعْجِبْتُمَا مِنْ بْنِي آدَمَ مِنْ ظُلْمِهِمْ وَمَعْصِيَتِهِمْ إِنَّمَا تَأْتِيهِمُ الرُّسُلُ وَالْكِتَابُ مِنْ وَرَاءِ وَرَاءِ إِنْكَمَا لَيْسَ بِيَنِّي وَبِيَنِّكُمَا رَسُولٌ، فَفَعَلَا كَذَا وَكَذَا وَدَعَا كَذَا وَكَذَا، فَأَمْرَهُمَا بِأَمْرٍ وَنَهَاهُمَا، ثُمَّ نَزَّلَا عَلَى ذَلِكَ لِيَسَ أَحَدٌ أَطْوَعُ اللَّهَ مِنْهُمَا فَحُكِمَ فَعْدَلًا، فَكَانَا يَحْكُمُانَ فِي النَّهَارِ بَيْنَ بْنِي آدَمَ إِذَا أَمْسِيَا عَرْجًا فَكَانَا مَعَ الْمَلَائِكَةِ، وَيَنْزَلُانِ حِينَ يَصْبَحُانِ فَيَحْكُمُانَ فِي دِيَارِهِمَا حَتَّى أُنْزَلَتْ عَلَيْهِمَا الزَّهْرَةُ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ امْرَأَةٌ تَخَاصِمَ فَقْضِيَّا عَلَيْهَا، فَلَمَّا قَامَتْ وَجَدَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا فِي نَفْسِهِ، فَقَالَ أَحْدَهُمَا لِصَاحِبِهِ: وَجَدْتُ مِثْلَ الَّذِي وَجَدْتُ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَبَعْثَاهُ أَنْ أَتَيَنَا نَقْضَتْ لَكَ، فَلَمَّا رَجَعَتْ قَالَا وَقْضِيَّا لَهَا<sup>(٢)</sup> فَأَتَتْهُمَا فَكَشَفَا لَهَا عَنْ عُورَتِهِمَا، إِنَّمَا كَانَتْ سُوَّا تَهْمَمَا<sup>(٣)</sup> فِي أَنْفُسِهِمَا وَلَمْ يَكُونَا كَبْنِي آدَمَ فِي شَهْوَةِ النِّسَاءِ وَلِذَاهِتِهَا، فَلَمَّا بَلَغَا ذَلِكَ وَاسْتَحْلَلَا افْتَنَتَا، فَطَارَتِ الْزَّهْرَةُ فَرَجَعَتْ حِيثُ كَانَتْ، فَلَمَّا أَمْسِيَ عَرْجًا فَزَجَرَا فَلَمْ يَؤْذِنْ لَهُمَا وَلَمْ تَحْمِلْهُمَا أَجْنَحَتْهُمَا، فَاسْتَغَاثَا بِرَبِّهِمْ يَذْكُرُكَ بِخَيْرِ فِي السَّمَاءِ، فَوَعْدَهُمَا يَوْمًا، وَغَدَارِدُهُمَا فَدَعَا لَهُمَا فَاسْتَجَبَ لَهُ، فَخَيْرَا بَيْنَ عَذَابِ الدُّنْيَا وَعَذَابِ الْآخِرَةِ، فَنَظَرَ أَحْدَهُمَا إِلَى صَاحِبِهِ فَقَالَ: أَلَا تَعْلَمُ أَنَّ أَفْوَاجَ عَذَابِ اللَّهِ فِي الْآخِرَةِ كَذَا وَكَذَا فِي الْخَلْدِ وَفِي الدُّنْيَا تَسْعَ مَرَاتٍ مِثْلَهَا؟ فَأَمْرَا أَنْ يَنْزَلَا بِبَابِلْ فَتَمْ عَذَابَهُمَا، وَزَعَمُ أَنْهُمَا مَعْلُوقَانِ فِي الْحَدِيدِ مَطْوَيَانِ يَصْفَقَانِ بِأَجْنَحَتِهِمَا.

وقد روى في قصة هاروت وماروت عن جماعة من التابعين كمجاهد والستي والحسن

(١) رواه الطبرى / ٥٠٤.

(٢) عبارة الطبرى: فلما رجعت قالا لها — وقضيا لها — : أتتينا! فأتتهما.

(٣) في الطبرى: «شهوتهم».

البصري وقتادة وأبي العالية والزهري والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان وغيرهم، وقصصها خلق من المفسرين من المتقدمين والمتاخرين، وحاصلها راجع في تفصيلها إلى أخباربني إسرائيل إذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصل بالإسناد إلى الصادق المصدوق المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى، وظاهر سياق القرآن إجمال القصة من غير بسط ولا إطناب فتحن نؤمن بما ورد في القرآن على ما أراده الله تعالى، والله أعلم بحقيقة الحال.

وقد ورد في ذلك أثر غريب وسياق عجيب في ذلك، أحببنا أن نتبه عليه، قال الإمام أبو جعفر بن جرير<sup>(١)</sup> رحمه الله تعالى: أخبرنا الربيع بن سليمان أخبرنا ابن وهب أخبرنا ابن أبي الزناد حدثني هشام بن عمروة عن أبيه عن عائشة زوج النبي ﷺ أنها قالت: قدمت علي امرأة من أهل دومة الجندي<sup>(٢)</sup> جاءت تتبعي رسول الله ﷺ بعد موته حداة<sup>(٣)</sup> ذلك تسأله عن شيء دخلت فيه من أمر السحر ولم تعمل به، وقالت عائشة رضي الله عنها لعروة: يا ابن أخي، فرأيتها تبكي حين لم تجد رسول الله ﷺ فيسفيفها، فكانت تبكي حتى إني لأرحمها، وتقول: إني أخاف أن أكون قد هلكت، كان لي زوج فغاب عنى فدخلت على عجوز فشكوت ذلك إليها، فقالت: إن فعلت ما أمرك به فأجعله يأتيك، فلما كان الليل جاءتني بكلبين أسودين فركبت أحدهما وركبت الآخر، فلم يكن لشيء<sup>(٤)</sup> حتى وقفتا ببابل وإذا برجلين معلقين بأرجلهما فقلما: ما جاء بك؟ قلت: أتعلم السحر، فقلما: إنما نحن فتنة فلا تكاري فارجعي، فأبكيت وقلت: لا، قالا: فاذبهي إلى ذلك التنور فبولي فيه، فذهبت ففزعتم ولم أفعل فرجعت إليهما فقلما: أفعلت؟ فقلت: نعم، فقلما: هل رأيت شيئاً؟ فقلت: لم أر شيئاً، فقلما لم تفعلي ارجعني إلى بلادك ولا تكاري فأربكت<sup>(٥)</sup> وأبكيت، فقلما: اذبهي إلى ذلك التنور فبولي فيه فذهبت فاقشعررت وخفت، ثم رجعت إليهما وقلت: قد فعلت، فقلما: فما رأيت؟ قلت: لم أر شيئاً، فقلما: كذبت لم تفعلي ارجعني إلى بلادك، ولا تكاري فإنك على رأس أمرك فأربكت وأبكيت، فقلما: اذبهي إلى التنور ببولي فيه، فذهبت إليه فبلى فيه فرأيت فارساً مقنعاً بحديد خرج مني فذهب في السماء وغاب حتى ما أراه، فجئتهما فقلت: قد فعلت، فقلما: صدقت ذلك إيمانك خرج منك اذبهي، فقلت فذهب في السماء وغاب حتى ما أراه، فقلما: صدقت ذلك إيمانك خرج منك اذبهي، فقلت للمرأة: والله ما أعلم شيئاً وما قالا لي شيئاً، فقالت: لن لم تريدي شيئاً إلا كان، خذني هذا القمح فابذرني، فبذرت وقلت: اطلعني فأطلعت، وقلت: احقلي فأحقلت، ثم قلت: افركي

(١) تفسير الطبرى ٥٠٦ / ١.

(٢) قال ابن خرداذة في المسالك والممالك (ص ١١٣): هي من المدينة على ثلاث عشرة مراحل، ومن الكوفة على عشر مراحل، ومن دمشق على عشر مراحل.

(٣) أي عقيبه.

(٤) في الطبرى «كشيء».

(٥) أرب بالمكان: لزمه ولم يبره.

فأفركت، ثم قلت: أيسى فأيست، ثم قلت: اطحني فأطحنت، ثم قلت: اخزني فأخبزت، فلما رأيتُ أنِّي لا أريد شيئاً إلا كان سقط في يدي، وندمت، والله يا أم المؤمنين ما فعلت شيئاً ولا أفعله أبداً. ورواه ابن أبي حاتم عن الريبع بن سليمان به مطولاً كما تقدم وزاد بعد قولها ولا أفعلها أبداً: فسألت أصحاب رسول الله ﷺ حداثة وفاة رسول الله ﷺ وهم يومئذ متواترون، فما دروا ما يقولون لها، وكلهم هاب وخوف أن يفتحها بما لا يعلمه إلا أنه قد قال لها ابن عباس أو بعض من كان عنده: لو كان أبواك حيين أو أحدهما. قال هشام: فلو جاءتنا أفيتها بالضمان. قال ابن أبي الزناد: وكان هشام يقول: أنهم كانوا من أهل الورع والخشية من الله ثم يقول هشام: لو جاءتنا مثلها اليوم لوجدت نوكى<sup>(١)</sup> أهل حمق وتتكلف بغير علم، فهذا إسناد جيد إلى عائشة رضي الله عنها.

وقد استدل بهذا الأثر من ذهب إلى أن الساحر له تمكّن في قلب الأعيان لأن هذه المرأة بذررت واستغلت في الحال. وقال آخرون: بل ليس له قدرة إلا على التخييل كما قال تعالى: «سحرروا أعين الناس واسترهبوا بسحر عظيم» [الأعراف: ١١٦] وقال تعالى: «يُخَيِّلُ إِلَيْهِ مِنْ سُحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى» [طه: ٦٦] استدل به على أن بابل المذكورة في القرآن هي بابل العراق لا بابل ديناروند كما قاله السدي وغيره. ثم الدليل على أنها بابل العراق ما قال ابن أبي حاتم: أخبرنا علي بن الحسين أخبرنا أحمد بن صالح حدثني ابن وهب حدثني ابن لهيعة ويحيى بن أزهر عن عمارة بن سعد المرادي عن أبي صالح الغفاري: أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه من ببابل وهو يسير، فجاء المؤذن يؤذنه بصلوة العصر، فلما برق منها أمر المؤذن فأقام الصلاة، فلما فرغ قال: إن حبيبي ﷺ نهاني أن أصلي بأرض المقبرة ونهاني أن أصلي ببابل فإنها ملعونة وقال أبو داود: أخبرنا سليمان بن داود أخبرنا ابن وهب حدثني ابن لهيعة ويحيى بن أزهر عن عمارة بن سعد المرادي عن أبي صالح الغفاري أن علياً من ببابل وهو يسير، فجاءه المؤذن يؤذنه بصلوة العصر، فلما برق منها أمر المؤذن فأقام الصلاة، فلما فرغ قال: إن حبيبي ﷺ نهاني أن أصلي في المقبرة، ونهاني أن أصلي بأرض ببابل فإنها ملعونة. حدثنا أحمد بن صالح حدثنا ابن وهب أخبرني يحيى بن أزهر وابن لهيعة عن حجاج بن شداد عن أبي صالح الغفاري عن علي بمعنى حديث سليمان بن داود، قال: فلما خرج منها برق، وهذا الحديث حسن عند الإمام أبي داود لأنَّه رواه وسكت عنه فيه من الفقه كراهية الصلاة بأرض ببابل كما تكره بديار ثمود الذين نهى رسول الله ﷺ عن الدخول إلى منازلهم إلا أن يكونوا باكين. قال أصحاب الهيئة: وبعد ما بين ببابل وهي من إقليم العراق عن البحر المتوسط الغربي، ويقال له أقيانوس سبعون درجة ويسمون هذا طولاً، وأما عرضها وهو بعد ما بينها وبين وسط الأرض من ناحية الجنوب، وهو المسافة لخط الاستواء ثنان وثلاثون درجة، والله أعلم.

(١) النوكى: الحمقى. واحده: نوك.

وقوله تعالى: «وَمَا يَعْلَمُنَّ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولُ إِنَّمَا نَحْنُ فَتَنَّةٌ فَلَا تَكْفُرُ» قال أبو جعفر الرازي، عن الريبع بن أنس عن قيس بن عباد عن ابن عباس قال: فإذا أتاهمَا الآتِيَ يُرِيدُ السُّحُرَ نهياً أَشَدَ النَّهْيِ وَقَالَا لَهُ: إِنَّمَا نَحْنُ فَتَنَّةٌ فَلَا تَكْفُرُ، وَذَلِكَ أَنَّهُمَا عَلِمَا الْخَيْرَ وَالْشَّرَ وَالْكُفْرَ وَالإِيمَانَ، فَعَرَفَا أَنَّ السُّحُرَ مِنَ الْكُفْرِ، قَالَ: إِنَّمَا أَبِي عَلِيهِمَا أُمْرَاهُ يَأْتِي مَكَانَ كَذَا وَكَذَا، إِنَّمَا أَتَاهُ عَايْنَ الشَّيْطَانَ فَعَلِمَهُ، إِنَّمَا تَعْلَمُهُ خَرْجُهُ مِنَ النُّورِ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ سَاطِعًا فِي السَّمَاوَاتِ فَيَقُولُ: يَا حَسْرَتَاهُ، يَا وَيلَهُ مَاذَا صَنَعَ.

وعن الحسن البصري أنه قال في تفسير هذه الآية: نعم انزل الملائكة بالسحر ليعلم الناس البلاء الذي أراد الله أن يبتلي به الناس، فأخذ عليهم الميثاق أن لا يعلما أحداً حتى يقولوا: إنما نحن فتنة فلا تكفر، رواه ابن أبي حاتم. وقال قتادة: كان أخذ عليهم أن لا يعلما أحداً حتى يقولوا: إنما نحن فتنة أي بلاء ابتلينا به فلا تكفر. وقال السدي: إذا أتاهمَا إنسان يرید السحر وعظاه وقال له: لا تكفر إنما نحن فتنة، فإذا أبى قال له: أئْتَ هَذَا الرَّمَادَ فِيلَ عَلَيْهِ، فإذا بالعليه خرج منه نور فسطع حتى يدخل السماء وذلك الإيمان، وأقبل شيء أسود كهيئة الدخان حتى يدخل في مسامعه، وكل شيء، وذلك غضب الله، فإذا أخبرهما بذلك علماء السحر، فذلك قول الله تعالى: «وَمَا يَعْلَمُنَّ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولُ إِنَّمَا نَحْنُ فَتَنَّةٌ فَلَا تَكْفُرُ» الآية، وقال سعيد عن حجاج عن ابن جريج في هذه الآية: لا يجري على السحر إلا كافر، وأما الفتنة فهي المحتنة والاختيار، ومنه قول الشاعر: [المتقارب]

وقد فتن الناس في دينهم وخلسى ابن عفان شرًّا طويلاً<sup>(١)</sup>

وكذلك قوله تعالى إخباراً عن موسى عليه السلام حيث قال «إِنَّهِ إِلَّا فَتَنَّتُكَ» [الأعراف: ١٥٥] أي ابتلاؤك واختبارك وامتحانك «تُضَلُّ بَهَا مِنْ تَشَاءُ وَتُهَدِّي مِنْ تَشَاءُ» [الأعراف: ١٥٥] وقد استدل بعضهم بهذه الآية على تكفير من تعلم السحر، واستشهد له بالحديث الذي رواه الحافظ أبو بكر البزار، حدثنا محمد بن المثنى، أخبرنا أبو معاوية عن الأعمش، عن إبراهيم عن همام عن عبد الله قال: «من أتى كاهناً أو ساحراً فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ وهذا إسناد صحيح قوله تعالى: «فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يَفْرَقُونَ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ» أي فيتعلّم الناس من هاروت وماروت من علم السحر وما يتصرّفون به فيما يتصرّفون من الأفاعيل المذمومة ما إنهم ليفرقون به بين الزوجين، مع ما بينهما من الخلطة والائلاف، وهذا من صنيع الشياطين، كما رواه مسلم في

(١) البيت للحقات بن يزيد المجاشعي عم الفرزدق في تاريخ الطبرى ١/١٥١ (وفيه: لقد سفه الناس في دينهم...)؛ وهو منسوب لعلى بن الغدير بن المضرس الغنوى أو لإهاب بن همام بن صعصعة أو لابن الغريرة النهشلي في أنساب الأشراف ٥/١٠٤؛ ولابن الغريرة النهشلي في معجم الشعراء ص ٣٤٩؛ والتكامل للمبرد ٢/٣٤؛ وتأج العروس (ويل).

صحيحه<sup>(١)</sup> من حديث الأعمش عن أبي سفيان عن طلحة بن نافع عن جابر بن عبد الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الشيطان ليضع عرشه على الماء ثم يبعث سراياه في الناس، فأقربهم عنده منزلة أعظمهم عنده فتنـة، ويجيء أحدهم فيقول: ما زلت بفلان حتى تركته وهو يقول كذا وكذا، فيقول إبليس: لا والله ما صنعت شيئاً! ويجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين أهله قال: فيقر به ويدنيه ويلترمه ويقول: نعم أنت» وسبب التفريق بين الزوجين بالسحر ما يخلي إلى الرجل أو المرأة من الآخر من سوء منظر أو خلق أو نحو ذلك أو عقد أو بغضة أو نحو ذلك من الأسباب المقتصبة للفرقـة، والمرء عبارة عن الرجل وتأنـثه امرأة ويشـتـى كلـاـ منـهـماـ ولاـ يـجـمـعـانـ والله أعلم.

وقوله تعالى ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ قال سفيان الثوري: إلا بقضاء الله، وقال محمد بن إسحاق: إلا بخلية الله بينه وبين ما أراد، وقال الحسن البصري ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ قال: نعم، من شاء الله سلطـهمـ عليهـ، ومن لم يشاـءـ اللهـ لم يسلطـ ولا يستـطـيعـونـ منـ أـحـدـ إـلـاـ بـإـذـنـ اللـهـ،ـ كماـ قـالـ اللـهـ تـعـالـىـ .ـ وفيـ روـاـيـةـ عنـ الحـسـنـ أـنـهـ قـالـ:ـ لاـ يـضـرـ هـذـاـ السـحـرـ إـلـاـ مـنـ دـخـلـ فـيـ .ـ

وقوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ أي يضرـهمـ فيـ دـيـنـهـ وـلـيـسـ لـهـ نـفـعـ يـواـزـيـ ضـرـرـهـ ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنْ اشْتَرَاهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقِهِ﴾ أي ولـقـدـ عـلـمـ عـلـمـ اليـهـودـ الـذـيـنـ اـسـتـبـدـلـوـاـ بـالـسـحـرـ عـنـ مـاتـابـعـةـ الرـسـوـلـ ﷺ لـمـنـ فـعـلـ فـعـلـهـ،ـ ذـكـرـ أـنـهـ مـاـ لـهـ فـيـ الـآخـرـةـ مـنـ خـلـاقـ،ـ قـالـ ابنـ عـباسـ وـمـجـاهـدـ وـالـسـدـيـ:ـ مـنـ نـصـيبـ،ـ وـقـالـ عـبـدـ الرـزـاقـ عـنـ مـعـمـرـ عـنـ قـتـادـةـ:ـ مـاـ لـهـ فـيـ الـآخـرـةـ مـنـ جـهـةـ عـنـ الدـلـلـ،ـ وـقـالـ عـبـدـ الرـزـاقـ،ـ وـقـالـ الحـسـنـ:ـ لـيـسـ لـهـ دـيـنـ،ـ وـقـالـ سـعـدـ عـنـ قـتـادـةـ:ـ مـاـ لـهـ فـيـ الـآخـرـةـ مـنـ خـلـاقـ﴾ـ قـالـ:ـ وـلـقـدـ عـلـمـ أـهـلـ الـكـتـابـ فـيـمـ عـهـدـ اللـهـ إـلـيـهـمـ أـنـ السـاحـرـ لـاـ خـلـاقـ لـهـ فـيـ الـآخـرـةـ .ـ

وقوله تعالى ﴿وَلِبَئِسْ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ \* وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقُوا لِمَثُوبَةِ مِنْ عَنِ الدُّنْيَا خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ يقول تعالى: ﴿وَلِبَئِسْ﴾ البديل ما استبدلـواـ بـهـ منـ السـحـرـ عـوـضاـ عنـ الإـيمـانـ وـمـاتـابـعـةـ الرـسـوـلـ لـوـ كـانـ لـهـ عـلـمـ بـمـاـ وـعـظـواـ بـهـ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقُوا لِمَثُوبَةِ مِنْ عَنِ الدُّنْيَا خَيْرٌ﴾ أي وـلـوـ أـنـهـ آمـنـواـ بـالـلـهـ وـرـسـلـهـ وـاتـقـواـ الـمحـارـمـ لـكـانـ مـثـوبـةـ اللـهـ عـلـىـ ذـكـرـ خـيـرـاـ لـهـ مـاـ اـسـتـخـارـوـاـ لـأـنـفـسـهـمـ وـرـضـواـ بـهـ كـمـاـ قـالـ تـعـالـىـ:ـ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَوْتَوْا الْعِلْمَ وَبِلِكْمَ ثَوَابَ اللَّهِ خَيْرٌ مِمَّا أَمْنُوا وَعَمِلُ صَالِحًا وَلَا يَلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ [القصص: ٨٠].

وقد استدلـ بـقـوـلـهـ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقُوا﴾ـ منـ ذـهـبـ إـلـىـ تـكـفـيرـ السـاحـرـ،ـ كـمـاـ هـوـ رـوـاـيـةـ عنـ الإمامـ أـحـمـدـ بـنـ حـنـبلـ وـطـائـفـةـ مـنـ السـلـفـ،ـ وـقـيـلـ:ـ بـلـ لـاـ يـكـفـرـ،ـ وـلـكـنـ حـدـهـ ضـرـبـ عـنـقـهـ،ـ لـمـاـ رـوـاـهـ .ـ

(١) صحيح مسلم (منافقين حديث رقم ٦٦ ، ٦٧).

الشافعي وأحمد بن حنبل<sup>(١)</sup>، قالا: أخبرنا سفيان، هو ابن عيينة عن عمرو بن دينار، أنه سمع بجالة بن عبدة يقول: كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن اقتلوا كل ساحر وساحرة، قال: فقتلنا ثلاث ساحر. وقد أخرجه البخاري في صحيحه أيضاً، وهكذا صح أن حفصة أم المؤمنين سحرتها جارية لها، فأمرت بها، فقتلتها، قال الإمام أحمد بن حنبل: صح عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ في قتل الساحر. وروى الترمذ<sup>(٢)</sup> من حديث إسماعيل بن مسلم عن الحسن عن جندب الأزدي أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «حد الساحر ضربه بالسيف» ثم قال: لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه، وإسماعيل بن مسلم يضعف في الحديث، وال الصحيح عن الحسن عن جندب موقوفاً. قلت: قد رواه الطبراني من وجه آخر عن الحسن عن جندب مرفوعاً. والله أعلم. وقد روي من طرق متعددة أن الوليد بن عقبة، كان عنده ساحر يلعب بين يديه فكان يضرب رأس الرجل ثم يصبح به فيرد إليه رأسه، فقال الناس: سبحان الله يحيي الموتى، ورأه رجل من صالح المهاجرين ، فلما كان الغد جاء مشتملاً على سيفه وذهب يلعب لعبه ذلك، فاختلط الرجل سيفه فضرب عنق الساحر، وقال: إن كان صادقاً فليحيي نفسه، وتلا قوله تعالى: «أفتائون السحر وأنتم تبصرون» [الأنياء: ٣]، فغضب الوليد إذ لم يستأنده في ذلك، فسجنه ثم أطلقه، والله أعلم. وقال الإمام أبو بكر الخلال: أخبرنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثني أبي أخبرنا يحيى بن سعيد، حدثني أبو إسحاق عن حارثة قال: كان عند بعض الأمراء رجل يلعب فجاء جندي مشتملاً على سيفه فقتله، قال: أراه كان ساحراً، وحمل الشافعي رحمه الله قصة عمر وحفصة على سحر يكون شركاً والله أعلم.

[فصل]

حكى أبو عبد الله الرازى في تفسيره<sup>(٣)</sup> عن المعتزلة أنهم أنكروا وجود السحر، قال: وربما كفروا من اعتقاد وجوده، قال: وأما أهل السنة فقد جوزوا أن يقدر الساحر أن يطير في الهواء ويقلب الإنسان حماراً، والحمار إنساناً إلا أنهم قالوا: إن الله يخلق الأشياء عندما يقول الساحر تلك الرقى والكلمات المعينة فاما أن يكون المؤثر في ذلك هو الفلك والنجموم، فلا، خلافاً للفلسفه والمنجمين والصادقه، ثم استدل على وقوع السحر وأنه بخلق الله تعالى بقوله تعالى: «وما هم بضارعين به من أحد إلا بإذن الله» ومن الأخبار بأن رسول الله ﷺ سحر، وأن السحر عمل فيه وبقصة تلك المرأة مع عائشة رضي الله عنها وما ذكرت تلك المرأة من إتيانها بابل وتعلمتها السحر قال: وبما يذكر في هذا الباب من الحكايات الكثير، ثم قال بعد هذا:

**المسألة الخامسة في أن العلم بالسحر ليس بقبيح ولا محظور - اتفق المحققون على ذلك لأن**

(١) المسند (ج ١ ص ١٩٠، ١٩١).

(٢) سنن الترمذى (حدود باب ٢٧).

(٣) التفسير الكبير ١٩٤/٣.

العلم لذاته شريف، وأيضاً لعموم قوله تعالى: «**فَلَمْ يَسْتَوِيَ الَّذِي يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ**» [الزمر: ٩] ولأن السحر لو لم يكن يعلم لما أمكن الفرق بينه وبين المعجزة والعلم بكون المعجز معجزاً واجباً، وما يتوقف الواجب عليه فهو واجب فهذا يقتضي أن يكون تحصيل العلم بالسحر واجباً، وما يكون واجباً كيف يكون حراماً وقيحاً؟ هذا لفظه بحروفه في هذه المسألة . وهذا الكلام فيه نظر من وجوه أحدهما قوله: العلم بالسحر ليس بقبيح عقلاً، فمخالفوه من المعتزلة يمنعون هذا، وإن عنى أنه ليس بقبيح شرعاً، ففي هذه الآية الكريمة تبشير لتعلم السحر، وفي الصحيح «من أتى عرافاً أو كاهناً فقد كفر بما أنزل على محمد»، وفي السنن «من عقد عقدة ونفت فيها فقد سحر» قوله: ولا محظوظ، اتفق المحققون على ذلك، كيف لا يكون محظوراً مع ما ذكرناه من الآية والحديث واتفاق المحققين يقتضي أن يكون قد نص إلى هذه المسألة أئمة العلماء أو أكثرهم وأين نصوصهم على ذلك؟ ثم إدخاله في علم السحر في عموم قوله تعالى: «**فَلَمْ يَسْتَوِيَ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ**» فيه نظر، لأن هذه الآية إنما دلت على مدح العالمين بالعلم الشرعي، ولم قلت إن هذا منه؟ ثم ترقيه إلى وجوب تعلمه بأنه لا يحصل العلم بالمعجز إلا به ضعيف بل فاسد، لأن أعظم معجزات رسولنا عليه الصلاة والسلام هي القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد. ثم إن العلم بأنه معجزة لا يتوقف على علم السحر أصلاً، ثم من المعلوم بالضرورة أن الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين وعامتهم، كانوا يعلمون المعجز، ويفرقون بينه وبين غيره، ولم يكونوا يعلمون السحر ولا تعلموه ولا علموه، والله أعلم.

ثم ذكر أبو عبد الله الرازى<sup>(١)</sup>، أن أنسواع السحر ثمانية [الأول] سحر الكلذابين والكلشانين<sup>(٢)</sup>، الذين كانوا يعبدون الكواكب السبعة المتحيرة، وهي السيارة، وكانوا يعتقدون أنها مدبرة العالم، وأنها تأتي بالخير والشر، وهم الذين بعث الله إليهم إبراهيم الخليل عليه السلام مبطلاً لمقالتهم ورداً لمذهبهم، وقد استقصى في (كتاب السر المكتوم، في مخاطبة الشمس والنجوم) المنسوب إليه، كما ذكرها القاضي ابن خلkan وغيره، ويقال أنه تاب منه، وقيل بل صنفه على وجه إظهار الفضيلة، لا على سبيل الاعتقاد، وهذا هو المظنون به إلا أنه ذكر فيه طريقهم في مخاطبة كل من هذه الكواكب السبعة وكيفية ما يفعلون وما يلبسوه وما يتمسكون به.

قال: [والنوع الثاني] سحر أصحاب الأوهام والنفوس القوية، ثم استدل على أن الوهم له تأثير بأن الإنسان يمكنه أن يمشي على الجسر الموضوع على وجه الأرض، ولا يمكنه المشي عليه إذا كان ممدوداً على نهر أو نهر<sup>(٣)</sup>، قال: وكما أجمعوا الأطباء على نهي المرعوف عن

(١) التفسير الكبير ١٨٧ / ٣ - ١٩٣.

(٢) في تفسير الرازى: «الكلذابين والكلشانين».

(٣) عبارة الرازى: «أن الجزع الذى يمكن الإنسان من المشي عليه، لو كان موضوعاً على الأرض، لا =

النظر إلى الأشياء الحمر، والمصرود إلى الأشياء القوية اللمعان أو الدوران، وما ذلك إلا لأن النفوس خلقت مطيبة للأوهام. قال: وقد اتفق العلاء على أن الإصابة بالعين حق - وله أن يستدل على ذلك بما ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «العين حق ولو كان شيء سابق القدر لسبقته العين» - قال: فإذا عرفت هذا فنقول النفس التي تفعل هذه الأفعال قد تكون قوية جداً فستغني في هذه الأفعال عن الاستعمال بالآلات والأدوات، وقد تكون ضعيفة فتحتاج إلى الاستعانت بهذه الآلات، وتحقيقه أن النفس إذا كانت متعلقة عن البدن شديدة الانجداب إلى عالم السموات صارت كأنها روح من الأرواح السماوية، فكانت قوية على التأثير في مواد هذا العالم، وإذا كانت ضعيفة شديدة التعلق بهذه الذات البدنية، فحينئذ لا يكون لها تأثير البتة إلا في هذا البدن، ثم أرشد إلى مداواة هذا الداء بتقليل الغذاء، والانقطاع عن الناس والرياء (قلت) وهذا الذي يشير إليه هو التصرف بالحال، وهو على قسمين، تارة تكون حالاً صحيحة شرعية يتصرف بها فيما أمر الله ورسوله ﷺ، ويترك ما نهى الله ورسوله ﷺ، فهذه الأحوال مواهب من الله تعالى وكرامات للصالحين من هذه الأمة ولا يسمى هذا سحراً في الشرع. وتارة تكون الحال فاسدة لا يمثل صاحبها ما أمر الله ورسوله ﷺ، ولا يتصرف بها في ذلك، فهذه حال الأشقياء المخالفين للشريعة ولا يدل إعطاء الله إياهم هذه الأحوال على محبتهم لهم، كما أن الدجال له من الخوارق للعادات ما دلت عليه الأحاديث الكثيرة مع أنه مذموم شرعاً لعن الله، وكذلك من شابهه من مخالفي الشريعة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، وبسط هذا يطول جداً وليس هذا موضعه.

قال: [والنوع الثالث] من السحر، الاستعانت بالأرواح الأرضية وهم الجن، خلافاً للفلاسفة والمعترلة<sup>(١)</sup>، وهم على قسمين: مؤمنون، وكفار وهم الشياطين، وقال: واتصال النفوس الناطقة بها أسهل من اتصالها بالأرواح السماوية لما بينها من المناسبة والقرب، ثم إن أصحاب الصنعة وأرباب التجربة شاهدوا أن الاتصال بهذه الأرواح الأرضية يحصل بها أعمال سهلة قليلة من الرقى والدخن والتجريد، وهذا النوع هو المسمى بالعزائم وعمل التسخير.

قال: [النوع الرابع] من السحر التخييلات والأخذ بالعيون والشعبنة، ومبناه على أن البصر قد يخطيء ويشتغل بالشيء المعين دون غيره ألا ترى ذا الشعبنة الحاذق يظهر عمل شيء يذهب أذهان الناظرين به ويأخذ عيونهم إليه حتى إذا استفرغهم الشغل بذلك الشيء والتحديق نحوه عمل شيئاً آخر عملاً بسرعة شديدة، وحينئذ يظهر لهم شيء آخر غير ما انتظروه فيتعجبون منه جداً ولو أنه سكت ولم يتكلم بما يصرف الخواطر إلى ضد ما يريد أن يعلمهم، ولم تتحرك

= يمكنه المشي عليه لو كان كالجسر على هاوية تحته. وما ذاك إلا أن تخيل السقوط متى قوي أوجبه».

(١) عبارة الرازي أوضح في المقام: «واعلم أن القول بالجن مما أنكره بعض المؤخرين من الفلاسفة والمعترلة. أما أكبر فلاسفة فإنهم ما أنكروا القول به، إلا أنهم سموها بالأرواح الأرضية...».

الغوس والآوهام إلى غير ما يريد إخراجه، لفظن الناظرون لكل ما يفعله (قال) وكلما كانت الأحوال التي تفيد حسن البصر نوعاً من أنواع الخلل أشد، كان العمل أحسن مثل أن يجلس المشعبد في موضع مضيء جداً أو مظلم فلا تقف القوة الناظرة على أحوالها والحالة هذه.

(قلت) وقد قال بعض المفسرين: إن سحر السحرة بين يدي فرعون إنما كان من باب الشعوذة ولهذا قال تعالى: «فَلِمَا أَلْقَوْا سُحْرَهُ أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهُوْهُمْ وَجَاؤُوا بِسُحْرٍ عَظِيمٍ» [الأعراف: ١١٦] وقال تعالى: «يَخْبِلُ إِلَيْهِ مِنْ سُحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعِي» [طه: ٦٦] قالوا: ولم تكن تسعى في نفس الأمر، والله أعلم.

[النوع الخامس من السحر]: الأعمال العجيبة التي تظهر من تركيب آلات مركبة على النسب الهندسية [تارةً وعلى ضروب الخيلاء أخرى]<sup>(١)</sup> كفارس على فرس في يده بوق كلما مضت ساعة من النهار ضرب بالبوق من غير أن يمسه أحد - ومنها الصور التي تصورها الروم والهند حتى لا يفرق الناظر بينها وبين الإنسان حتى يصورونها ضاحكة وباكية، إلى أن قال: فهذه الوجوه من لطيف أمور التخييل، قال: وكان سحر سحرة فرعون من هذا القبيل (قلت) يعني ما قاله بعض المفسرين: إنهم عمدوا إلى تلك الحال والعصي فحوشها زئقاً فصارت تتلوى بسبب ما فيها من ذلك الزئقاً فيخيل إلى الرائي أنها تسعى باختيارها. قال الرازبي: ومن هذا الباب تركيب صندوق الساعات، ويندرج في هذا الباب علم جر الأثقال بالآلات الخفيفة قال: وهذا في الحقيقة لا ينبغي أن يعد من باب السحر لأن لها أساساً معلومة يقينية من اطلع عليها قدر عليها. (قلت) ومن هذا القبيل حيل النصارى على عامتهم بما يرونه إيه من الأنوار قضية قمامنة الكنيسة التي لهم ببلد القدس، وما يحتالون به من إدخال النار خفية إلى الكنيسة وإشعال ذلك القنديل بصنعة لطيفة تروج على العوام منهم. وأما الخواص فهم معترفون بذلك، ولكن يتأولون أنهن يجمعون شمل أصحابهم على دينهم فيرون ذلك سائغاً لهم. وفيهم شبهة على الجهلة الأغبياء من متبعدي الكرامية<sup>(٢)</sup> الذين يرون جواز وضع الأحاديث في الترغيب والترهيب فيدخلون في عداد من قال رسول الله ﷺ فيهم: «من كذب علىي متعيناً فليتبوء مقعده من النار» قوله: «حدثوا عني ولا تكذبوا عليَّ فإنه من يكذب عليَّ يلتج النار» ثم ذكر هنا حكاية عن بعض الرهبان وهو أنه سمع صوت طائر حزين الصوت ضعيف الحركة فإذا سمعته الطيور ترق له فتدبر فتلقي في وكره من ثمر الزيتون ليبلغ به، فعمد هذا الراهب إلى صنعة طائر على شكله وتوصل إلى أن جعله أجوف فإذا دخلته الريح يسمع منه صوت الطائر وانقطع في صومعة ابنتها وزعم أنها على قبر

(١) الزيادة من الرازبي.

(٢) الكرامية: فرقة من أهل السنة، تسب إلى محمد بن كرام الذي نشأ في سجستان وتوفي بيت المقدس سنة ٨٦٩ م. والكرامية مجسمون يذهبون إلى أن الله تعالى محدود من جهة العرش وأن شيئاً لا يحدث في العالم قبل حدوث أعراض في ذاته.

بعض صالحهم وعلق على ذلك الطائر في مكان منها فإذا كان زمان الزيتون فتح باباً من ناحيته فيدخل الريح إلى داخل هذه الصورة، فيسمع صوتها كل طائر في شكله أيضاً، فتأتي الطيور فتحمل من الزيتون شيئاً كثيراً، فلا ترى النصارى إلا ذلك الزيتون في هذه الصومعة ولا يدررون ما سببه، ففتتهم بذلك وأوهم أن هذا من كرامات صاحب هذا القبر، عليهم لعائن الله المتابعة إلى يوم القيمة<sup>(١)</sup>.

قال الرazi : النوع السادس من السحر الاستعانة بخواص الأدوية يعني في هذا الأطعمة والدهانات قال : واعلم أنه لا سبيل إلى إنكار الخواص فإن تأثير المغناطيس مشاهد. (قلت) يدخل في هذا القبيل كثير ممن يدعى الفقر ويتحيل على جهلة الناس بهذه الخواص مدعياً أنها أحوال له من مخالطة التيران ومسك الحيات إلى غير ذلك من المحالات<sup>(٢)</sup>.

قال النوع السابع من السحر : التعليق للقلب ، وهو أن يدعى الساحر أنه عرف الاسم الأعظم وأن الجن يطعونه وينقادون له في أكثر الأمور فإذا اتفق أن يكون السامع لذلك ضعيف العقل قليل التمييز اعتقد أنه حق وتعلق قلبه بذلك وحصل في نفسه نوع من الرعب والمخافة فإذا ما حصل الخوف ضفت القوى الحساسة فحينئذ يمكن الساحر أن يفعل ما يشاء . (قلت) هذا النمط يقال له التنبلاة وإنما يروج على ضعفاء العقول منبني آدم . وفي علم الفراسة ما يرشد إلى معرفة العقل من ناقصه فإذا كان المتنبلا حاذقاً في علم الفراسة عرف من ينقاد له من الناس من غيره.

قال : النوع الثامن من السحر : السعي بالنميمة والتضريب<sup>(٣)</sup> من وجوه خفيفة لطيفة وذلك شائع في الناس (قلت) النميمة على قسمين تارة تكون على وجه التحرش بين الناس وتفرق قلوب المؤمنين فهذا حرام متفق عليه ، فأما إن كانت على وجه الإصلاح بين الناس وائتلاف الكلمة المسلمين كما جاء في الحديث «ليس بالكذاب من ينم خيراً» أو يكون على وجه التخذيل والتفرق بين جموع الكفرة ، وهذا أمر مطلوب كما جاء في الحديث «الحرب خدعة» ، وكما فعل نعيم بن مسعود في تفريق كلمة الأحزاب وبين قريظة : جاء إلى هؤلاء فنم إليهم عن هؤلاء كلاماً ، ونقل من هؤلاء إلى أولئك شيئاً آخر ، ثم لأم بين ذلك فتناكرت النفوس وافرقت ، وإنما

(١) يفهم من حكاية ابن كثير المنشورة هنا عن الرazi أن الراهب المشار إليه أعلاه نصراني . والحال أن الرazi إنما حكى عن «عمل أرجعيانوس الموسيقار في هيكل أورشليم العتيق عند تجديده إيه». قارن برواية الرazi ١٩٣/٣.

(٢) توجيه كلام الرazi إلى هذا المعنى غير دقيق . فقد تحدث الرazi عن «الاستعانة بخواص الأدوية مثل أن يجعل في طعامه بعض الأدوية المبلدة المزيلة للعقل والدخن المسكرة ، نحو دماغ الحمار إذا تناوله الإنسان تبلّد عقله وقلّت فطنته» فتأمل .

(٣) التضريب : الإغراء .

يحدو على مثل هذا الذكاء ذو البصيرة النافذة والله المستعان .

ثم قال الرازبي : فهذه جملة الكلام في أقسام السحر وشرح أنواعه وأصنافه ، (قلت) وإنما أدخل كثيراً من هذه الأنواع المذكورة في فن السحر للطافة مداركها لأن السحر في اللغة عبارة عما لطف وخفي بسببه ، ولهذا جاء في الحديث «إن من البيان لسحراً» ، وسمى السحور لكونه يقع خفياً آخر الليل ، والسحر : الرئة ، وهي محل الغذاء وسميت بذلك لخفايتها ولطف مجاريها إلى أجزاء البدن وغضونه ، كما قال أبو جهل يوم بدر لعتبة : انتفح سحره أي انتفخت رئته من الخوف . وقالت عائشة رضي الله عنها : توفي رسول الله صلوات الله عليه وسلم بين سحري ونحري ، وقال تعالى : «سحروا أعين الناس» [الأعراف : ١١٦] أي أخروا عنهم علمهم ، والله أعلم .

وقال أبو عبد الله القرطبي<sup>(١)</sup> : وعندنا أن السحر حق وله حقيقة يخلق الله عنده ما يشاء خلافاً للمعتزلة وأبي إسحاق الإسفرايني من الشافعية حيث قالوا : إنه تمويه وتخيل . قال : ومن السحر ما يكون بخفة اليد كالشعوذة ، والشعوذة البريد لخفة سيره ، قال ابن فارس : وليست هذه الكلمة من كلام أهل الbadia ، قال القرطبي : ومنه ما يكون كلاماً يحفظ ورقى من أسماء الله تعالى وقد يكون من عهود الشياطين ويكون أدوية وأدخرنة وغير ذلك ، قال : قوله عليه السلام : «إن من البيان لسحراً» يحتمل أن يكون مدحأً كما تقول طائفة ، ويحتمل أن يكون ذمأً للبلاغة قال : وهذا أصح ، قال لأنها تصوب الباطل حتى توهם السامع أنه حق كما قال عليه الصلاة والسلام : «فلعل بعضكم أن يكون أحن بحجته من بعض فأقضى له» الحديث .

[فصل] وقد ذكر الوزير أبو المظفر يحيى بن محمد بن هبيرة رحمه الله في كتابه (الإشراف على مذاهب الأشراف) بباباً في السحر فقال : أجمعوا على أن السحر له حقيقة إلا أبا حنيفة فإنه قال : لا حقيقة له عنده واختلفوا فيما يتعلّم السحر ويستعمله ، فقال أبو حنيفة ومالك وأحمد يكفر بذلك . ومن أصحاب أبي حنيفة من قال إن تعلمه ليتقيه أو ليجتنبه فلا يكفر ومن تعلمه معتقداً جوازه أو أنه ينفعه كفر ، وكذا من اعتقاد أن الشياطين تفعل له ما يشاء فهو كافر . وقال الشافعي رحمه الله : إذا تعلم السحر قلنا له صفتنا سحرك فإن وصف ما يوجب الكفر مثل ما اعتقاده أهل بابل من التقرب إلى الكواكب السبعة وأنها تفعل ما يلتمس منها فهو كافر ، وإن كان لا يوجب الكفر فإن اعتقاد إياحته فهو كافر ، قال ابن هبيرة : وهل يقتل بمجرد فعله واستعماله ؟ فقال مالك وأحمد نعم ، وقال الشافعي وأبو حنيفة : لا فاما إن قتل بسحره إنساناً فإنه يقتل عند مالك والشافعي وأحمد . وقال أبو حنيفة : يقتل حتى يتذكر منه ذلك أو يقر بذلك في حق شخص معين ، وإذا قتل فإنه يقتل حداً عندهم إلا الشافعي فإنه قال : يقتل والحالة هذه قصاصاً قال : وهل إذا تاب الساحر قبل توبته ؟ فقال مالك وأبو حنيفة وأحمد في المشهور

عنهم: لا تقبل، وقال الشافعي وأحمد في الرواية الأخرى تقبل، وأما ساحر أهل الكتاب فعند أبي حنيفة أنه يقتل كما يقتل الساحر المسلم، وقال مالك وأحمد والشافعي: لا يقتل يعني لقصة ليبد بن الأعصم. واختلفوا في المسلمة الساحرة فعند أبي حنيفة أنها لا تقتل ولكن تحبس، وقال الثلاثة حكمها حكم الرجل، والله أعلم. وقال أبو بكر الخلال: أخبرنا أبو بكر المروزي قال: قرأ على أبي عبد الله - يعني أحمد بن حنبل - عمر بن هارون أخبرنا يونس عن الزهري، قال: يقتل ساحر المسلمين ولا يقتل ساحر المشركين لأن رسول الله ﷺ سحرته امرأة من اليهود فلم يقتلها. وقد نقل القرطبي عن مالك رحمة الله، أنه قال في الذي يقتل إن قتل سحره، وحكي ابن خوizer متداد عن مالك روایتین في الذي إذا سحر: إدھاماً أنه يستتاب فإن أسلم وإلا قتل، والثانية أنه يقتل وإن أسلم، وأما الساحر المسلم فإن تضمن سحره كفراً كفر عند الأئمة الأربعه وغيرهم لقوله تعالى: «وَمَا يَعْلَمُنَّ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولُا إِنَّمَا نَحْنُ فَتَنَّةٌ فَلَا تَكْفُرُ» [البقرة: ١٠٢]. لكن قال مالك إذا ظهر عليه لم تقبل توبته لأنه كالزنديق فإن تاب قبل أن يظهر عليه وجاءنا تائباً قبلناه، فإن قتل سحره قتل قال الشافعي: فإن قال لم أتمد القتل فهو مخطيء تجب عليه الدية.

[مسألة] وهل يسأل الساحر حالاً لسحره؟ فأجاز سعيد بن المسيب فيما نقله عنه البخاري، وقال عامر الشعبي: لا بأس بالنشرة<sup>(١)</sup> وكره ذلك الحسن البصري، وفي الصحيح عن عائشة أنها قالت: يا رسول الله هل تنشرت، فقال: «أَمَا اللَّهُ فَقَدْ شَفَانِي وَخَشِيتُ أَنْ أُفْتَحَ عَلَى النَّاسِ شَرًا» وحكي القرطبي عن وهب أنه قال: يؤخذ سبع ورقات من سدر فتدق بين حجرين ثم تضرب بالماء ويقرأ عليها آية الكرسي ويشرب منها المسحور ثلاثة حسوات ثم يغسل بياقه فإنه يذهب ما به، وهو جيد للرجل الذي يؤخذ عن أمراته (قلت) أفع ما يستعمل لإذهاب السحر ما أنزل الله على رسوله في ذهاب ذلك وهم المعاوذتان، وفي الحديث «لَمْ يَتَعُودْ الْمُتَعَوِّذُ بِمَثْلِهِمَا» وكذلك قراءة آية الكرسي فإنها مطردة للشيطان.

يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَعَنَا وَقُلُّوا أَنْظَرَنَا وَأَسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ مَا يَوْدُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكُينَ أَنْ يُنَذَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رِزْقِكُمْ وَاللَّهُ يَخْصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ

نهى الله تعالى عباده المؤمنين أن يتشبهوا بالكافرين في مقامهم وفعالهم، وذلك أن اليهود كانوا يعلنون من الكلام ما فيه تورية لما يقصدونه من التتفيص، عليهم لعائن الله فإذا أرادوا أن يقولوا اسمع لنا يقولون راعنا ويورون بالرعونة كما قال تعالى: «مَنِ الَّذِينَ هَادُوا يَحْرُفُونَ الْكَلْمَنْ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصِينَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مَسْمَعْ وَرَاعِنَا لِيَا بِالسَّنْتِهِمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ وَلَوْ

(١) التسْرِة (بضم النون وتسكين الشين): الرُّؤْبة يعالج بها المريض ونحوه.

أنهم قالوا سمعنا وأطعنا وانظروا لكان خيراً لهم وأقوم، ولكن لعنهم الله بخفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً» [النساء: ٤٦]، وكذلك جاءت الأحاديث بالأخبار عنهم بأنهم كانوا إذا سلموا إنما يقولون السام عليكم، والسام هو الموت، ولهذا أمرنا أن نرد عليهم بـ«وعليكم»، وإنما يستجاب لنا فيهم ولا يستجاب لهم فيما. والغرض أن الله تعالى نهى المؤمنين عن مشابهة الكافرين قولهً وفعلاً، فقال **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعُونَا وَقُولُوا انْظُرُونَا وَاسْمَعُوْا وَلَا كَفَّارُونَ عَذَابَ أَلِيمٍ﴾**.

وقال الإمام أحمد<sup>(١)</sup>: أخبرنا أبو النصر أخبرنا عبد الرحمن بن ثابت أخبرنا حسان بن عطيه، عن أبي منيب الجرجشى عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «بعثت بين يدي الساعة بالسيف حتى يعبد الله وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رحمي، وجعلت الذلة والصغرى على من خالف أمري ومن تشبه بقوم فهو منهم».

وروى أبو داود<sup>(٢)</sup> عن عثمان بن أبي شيبة عن أبي شيبة عن أبي النضير هاشم أخبرنا ابن القاسم به «من تشبه بقوم فهو منهم» ففيه دلالة على النهي الشديد والتهديد والوعيد على التشبه بالكافر في أقوالهم وأفعالهم ولباسهم وأعيادهم وعباداتهم وغير ذلك من أمورهم التي لم تشرع لنا ولا نقر عليها.

وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا أبي أخبرنا نعيم بن حماد أخبرنا عبد الله بن المبارك أخبرنا مسعود عن معن وعون أو أحدهما أن رجلاً أتى عبد الله بن مسعود فقال: اعهد إلي، فقال: إذا سمعت الله يقول: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾** فأرعها سمعك فإنه خير يأمر به أو شر ينهى عنه. وقال الأعمش عن خيثمة قال: ما تقرؤون في القرآن **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾** فإنه في التوراة يا أيها المساكين. وقال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد عن سعيد بن جبير أو عكرمة عن ابن عباس **﴿رَاعُونَا﴾** أي أرعنَا سمعك. وقال الضحاك: عن ابن عباس **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعُونَا﴾** قال: كانوا يقولون للنبي ﷺ: أرعنَا سمعك وإنما راعنا كقولك عاطنا. وقال ابن أبي حاتم وروى عن أبي العالية وأبي مالك والربيع بن أنس، وعطاء العوفي وقتادة نحو ذلك، وقال مجاهد: **﴿لَا تَقُولُوا رَاعُونَا﴾** لا تقولوا خلافاً، وفي رواية لا تقولوا اسمع منا ونسمع منك. وقال عطاء لا تقولوا **﴿رَاعُونَا﴾**، كانت لغة تقولها الأنصار<sup>(٣)</sup>، فنهى الله عنها، وقال الحسن: **﴿لَا تَقُولُوا رَاعُونَا﴾**، قال: الراعن من القول السخري منه، نهاهم الله أن يستخروا من قول محمد ﷺ، وما يدعوههم إليه من الإسلام. وكذا روى عن ابن جريج، أنه قال مثله، وقال أبو صخر: **﴿لَا تَقُولُوا**

(١) مستند أحمد (ج ٢ ص ٥٠).

(٢) سنن أبي داود (باب باب ٤).

(٣) في الطبرى «تقولها الأنصار في الجاهلية». والأخبار الواردة هذا في تفسير «راعونا» ذكرها الطبرى في تفسيره ١/٥١٤ — ٥١٧.

راعنا وقولوا انتظروا قال: كان رسول الله ﷺ، إذا أذير ناداه من كانت له حاجة من المؤمنين، فيقول أرعنَا سمعك، فأعظم الله رسوله ﷺ أن يقال ذلك له. وقال السدي: كان رجل من اليهود من بني قينقاع يدعى رفاعة بن زيد<sup>(١)</sup> يأتي النبي ﷺ فإذا لقيه فكلمه قال: أرعنَا سمعك وأسمع غير مسمع، وكان المسلمون يحسبون أن الأنبياء كانت تفخم بهذا، فكان ناس منهم يقولون: اسمع غير مسمع غير صاغر، وهي كالتى في سورة النساء، فتقدم الله إلى المؤمنين أن لا يقولوا راعنا. وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم بنحو من هذا. قال ابن حجر: والصواب من القول في ذلك عندنا أن الله نهى المؤمنين أن يقولوا لنبيه راعنا. لأنها كلمة كرهها الله تعالى أن يقولوها لنبيه ﷺ، نظير الذي ذكر عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تقولوا للعنب الكرم ولكن قولوا الجبلة<sup>(٢)</sup> ولا تقولوا عبدي ولكن قولوا فتاي» وما أشبه ذلك.

وقوله تعالى: «ما يود الذين كثروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم» يبين بذلك تعالى شدة عداوة الكافرين من أهل الكتاب والمشركين، الذين حذر الله تعالى من مشابهتهم للمؤمنين، ليقطع الموعد بينهم وبينهم، ونبه تعالى على ما أنعم به على المؤمنين من الشرع التام الكامل الذي شرعه لنبيهم محمد ﷺ، حيث يقول تعالى: «وَاللَّهُ يَخْتَصُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمُ».

﴿ مَا نَسْخَطَ مِنْ آيَةٍ أَوْ تُنسِهَا نَأْتِ بِغَيْرِ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ إِنَّ اللَّهَ تَعَلَّمُ  
﴿ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُورٍ إِنَّ اللَّهَ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٌ ﴾

قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهمما ﴿ما ننسخ من آية﴾ ما نبدل من آية، وقال ابن جريج عن مجاهد ﴿ما ننسخ من آية﴾ أي ما نمحو من آية، وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد ﴿ما ننسخ من آية﴾ قال ثبت خطها ونبدل حكمها، حدث به عن أصحاب عبد الله بن مسعود رضي الله عنهم . وقال ابن أبي حاتم: روي عن أبي العالية ومحمد بن كعب القرظي نحو ذلك، وقال الضحاك ﴿ما ننسخ من آية﴾ ما ننسك، وقال عطاء أما ﴿ما ننسخ﴾، فما ترك من القرآن . وقال ابن أبي حاتم: يعني ترك فلم ينزل على محمد ﷺ . وقال السدي ﴿ما ننسخ من آية﴾ نسخها قبضاها وقال ابن أبي حاتم: يعني قبضها ورفعها، مثل قوله «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة»، قوله «لو كان لابن آدم واديان من ذهب لا بتغى لهمَا ثالثاً».

وقال ابن جرير<sup>(٣)</sup>: «ما نسخ من آية»، ما نقل من حكم آية إلى غيره، فنبذله ونغيره،

(١) في الطبرى: رفاعة بن زيد بن السائب، قال أبو جعفر: هذا خطأ، إنما هو ابن التابوت، ليس ابن السائب.

(٢) الجبلة (بالتحريك): الأصل أو القضيب من شجر الأعناب.

(٣) تفسير الطبرى / ٥٢١

وذلك أن يحول الحلال حراماً، والحرام حلالاً، والمباح محظوراً، والمحظور مباحاً، ولا يكون ذلك إلا في الأمر والنهي والحظر والإطلاق والمنع والإباحة، فاما الأخبار فلا يكون فيها ناسخ ولا منسوخ، وأصل النسخ من نسخ الكتاب وهو نقله من نسخة إلى أخرى غيرها، فكذلك معنى نسخ الحكم إلى غيره إنما هو تحويله ونقل عبارته عنه إلى غيرها وسواء نسخ حكمها أو خطها، إذ هي في كلتا حالتيها منسوخة.

وأما علماء الأصول، فاختلقت عباراتهم في حد النسخ والأمر في ذلك قريب، لأن معنى النسخ الشرعي معلوم عند العلماء ولحظ بعضهم أن رفع الحكم بدليل شرعي متاخر. فاندرج في ذلك نسخ الأخف بالائلول وعكسه والنسخ لا إلى بدل، وأما تفاصيل أحكام النسخ وذكر أنواعه وشروطه فمبسطة، في أصول الفقه.

وقال الطبراني: أخبرنا أبو سنبل<sup>(١)</sup> عبيد الله بن عبد الرحمن بن واقد، أخبرنا أبي أخبرنا العباس بن الفضل، عن سليمان بن أرقم عن الزهرى عن سالم عن أبيه قال: قرأ رجلان سورة أقرأهما رسول الله ﷺ، فكانا يقرآن بها، فقاما ذات ليلة يصليان، فلم يقدرا منها على حرف، فأصبحا غاديين إلى رسول الله ﷺ، فذكرا ذلك له، فقال رسول الله ﷺ: إنها مما نسخ وأنسي، فالهوا عنها، فكان الزهرى يقرؤها: ﴿مَا نسخ مِنْ آيَةٍ أَوْ نَسَّهَا﴾، بضم النون الخفيفة، سليمان بن أرقم ضعيف. وقد روى أبو بكر بن الأنباري عن أبيه عن نصر بن داود عن أبي عبيد الله عن عبد الله بن صالح عن الليث عن يونس وعقيل عن ابن شهاب عن أمامة بن سهل بن حنيف، مثله مرفوعاً، ذكره القرطبي.<sup>(٢)</sup>

وقوله تعالى: ﴿أَوْ نَسَّهَا﴾، فقرئ على وجهين، ننساها وتنسها، فاما من قرأها بفتح النون والهمزة بعد السين فمعناه نؤخرها. قال علي ابن أبي طلحة: عن ابن عباس، ﴿مَا نسخ مِنْ آيَةٍ أَوْ نَسَّهَا﴾، يقول ما نبدل من آية أو نتركها لا نبدلها، وقال مجاهد عن أصحاب ابن مسعود: أو ننساها، ثبت خطها وبدل حكمها، وقال عبد بن عمير ومجاهد وعطاء أو ننساها، نؤخرها ونرجئها. وقال عطيه العوفي: أو ننساها، نؤخرها فلا ننسخها، وقال السدي: مثله أيضاً وكذا الربع بن أنس، وقال الضحاك: ﴿مَا نسخ مِنْ آيَةٍ أَوْ نَسَّهَا﴾، يعني الناسخ والمنسوخ. وقال أبو العالية: ﴿مَا نسخ مِنْ آيَةٍ أَوْ نَسَّهَا﴾ نؤخرها عندنا، وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا عبيد الله بن إسماعيل البغدادي، أخبرنا خلف، أخبرنا الخفاف، عن إسماعيل يعني ابن أسلم، عن حبيب بن أبي ثابت، عن سعيد بن جبیر عن ابن عباس قال: خطبنا عمر رضي الله عنه، فقال: يقول الله عز وجل: ﴿مَا نسخ مِنْ آيَةٍ أَوْ نَسَّهَا﴾، أي نؤخرها، وأما على قراءة ﴿أَوْ نَسَّهَا﴾، فقال عبد الرزاق عن عمر عن قتادة في قوله: ﴿مَا نسخ مِنْ آيَةٍ أَوْ نَسَّهَا﴾، قال كان الله عز وجل:

(١) في المعجم الصغير للطبراني (١/٢٣٧): «أبو شبل».

(٢) تفسير القرطبي ٢/٦٨.

ينسي نبيه ﷺ ما يشاء ، وينسخ ما يشاء .

**وقال ابن جرير** <sup>(١)</sup>: أخبرنا سوار بن عبد الله ، أخبرنا خالد بن الحارث ، أخبرنا عوف ، عن **الحسن** أنه قال : في قوله : «أو ننسها» قال : إن نبكم ﷺ ، قرأ علينا <sup>(٢)</sup> قرآنًا ثم نسيه ، وقال ابن أبي حاتم : أخبرنا أبي أخينا ابن نفيل ، أخبرنا محمد بن الزبير الحراني ، عن الحجاج يعني **الجزري** عن عكرمة عن ابن عباس قال : كان مما ينزل على النبي ﷺ ، الوحي بالليل وينساه بالنهار ، فأنزل الله عز وجل : «ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها» ، قال ابن أبي حاتم : قال لي أبو جعفر بن نفيل ، ليس هو الحجاج بن أرطأة هو شيخ لنا جزري ، وقال عبيد بن عمير : «أو ننسها» نرفعها من عندكم .

**وقال ابن جرير** : حدثني يعقوب بن إبراهيم ، أخبرنا هشيم ، عن يعلى بن عطاء عن القاسم بن ربيعة ، قال : سمعت سعد بن أبي وقاص يقرأ «ما ننسخ من آية أو ننسها» قال : قلت له فإن سعيد بن المسيب يقرأ «أو ننسها» قال : قال سعد : إن القرآن ، لم ينزل على المسيب ولا على آل المسيب ، قال : قال الله جل ثناؤه : «ستقرئك فلا تنسى» [الأعلى : ٦] «واذك ربك إذا نسيت» [الكهف : ٢٤] ، وكذا رواه عبد الرزاق عن هشيم ، وأخرجه الحاكم في مستدركه ، من  **الحديث أبي حاتم الرازي** ، عن آدم عن شعبة عن يعلى بن عطاء به ، وقال على شرط الشيختين ولم يخرجا .

قال ابن أبي حاتم وروى عن محمد بن كعب وقتادة وعكرمة نحو قول سعيد .

**وقال الإمام أحمد** : أخبرنا يحيى أخينا سفيان الثوري : عن حبيب بن أبي ثابت عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ، قال : قال عمر : علي أقضانا وأبي أقرأنا ، وإننا لندع من قول أبي ، وذلك أن أبيا يقول : ما أدع شيئاً سمعته من رسول الله ﷺ ، والله يقول : «ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها» .

**قال البخاري** : أخبرنا يحيى أخينا سفيان عن حبيب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ، قال : قال عمر : أقرؤنا أبي وأقضانا علي ، وإننا لندع من قول أبي ، وذلك أن أبيا يقول : لا أدع شيئاً سمعته من رسول الله ﷺ ، وقد قال الله : «ما ننسخ من آية أو ننسها» .

**وقوله** : «نأت بخير منها أو مثلها» ، أي في الحكم بالنسبة إلى مصلحة المكلفين ، كما قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس «نأت بخير منها» ويقول خير لكم في المنفعة وأرفق بكم .

**وقال أبو العالية** : «ما ننسخ من آية» فلا نعمل بها «أو ننسها» ، أي نرجئها عندنا نأت بها أو نظيرها ، **وقال السدي** «نأت بخير منها أو مثلها» يقول : نأت بخير من الذي نسخناه أو مثل

(١) تفسير الطبرى ٥٢٢/١

(٢) في الطبرى : «أقرء قرآنًا ثم نسيه» .

الذى تركناه . وقال قتادة : **«نأت بخير منها أو مثلها»** يقول : آية فيها تخفيف فيها رخصة فيها أمر فيها نهى .

وقوله : **«ألم تعلم أن الله على كل شيء قادر \* ألم تعلم أن الله ملك السموات والأرض**  
**وما لكم من دون الله من ولی ولا نصیر»** ، يرشد عباده تعالى بهذا ، إلى أنه المتصرف في خلقه ،  
بما يشاء ، فله الخلق والأمر وهو المتصرف ، فكما خلقهم كما يشاء ، ويسعد من يشاء ، ويشقي  
من يشاء ويصح من يشاء ويمرض من يشاء ، ويوفق من يشاء ، ويخلد من يشاء كذلك يحكم في  
عباده بما يشاء ، فيحل ما يشاء ويحرم ما يشاء ويبعث ما يشاء ويحظر ما يشاء وهو الذي يحكم  
ما يريد لا معقب لحكمه ، ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، ويختبر عباده وطاعتهم لرسله  
بالنسخ ، فيأمر بالشيء لما فيه من المصلحة التي يعلمها تعالى ، ثم ينهى عنه لما يعلمه تعالى  
فالطاعة كل الطاعة في امتحان أمره واتباع رسالته في تصديق ما أخبروا ، وامتحان ما أمروا ، وترك  
ما عنه زجروا . وفي هذا المقام رد عظيم وبيان بلين لکفر اليهود وتزيف شبهتهم لعنهم الله ، في  
دعوى استحاللة النسخ ، إما عقلاً كما زعمه بعضهم جهلاً وكفراً ، وإما نفلاً كما تخرصه آخرون  
منهم افتراء وإفكًا

قال الإمام أبو جعفر بن جرير<sup>(١)</sup> رحمه الله : فتاویل الآية : ألم تعلم يا محمد ، أن لي ملك  
السموات والأرض وسلطانهما دون غيري ، أحکم فيهما وفيما فيهما بما أشاء ، وأمر فيهما وفيما  
فيهما بما أشاء ، وأنهى عما أشاء ، وأنسخ وأبدل وأغير ، من أحکامي التي أحکم بها في عبادي ،  
بما أشاء إذ أشاء ، وأقر منها ما أشاء . ثم قال : وهذا الخبر وإن كان خطاباً من الله تعالى ،  
لنبيه عليه السلام على وجه الخبر ، عن عظمته فإنه منه جل ثناوه تكذيب لليهود ، الذين أنكروا نسخ  
أحكام التوراة وجحدوا نبوة عيسى ومحمد عليهم الصلاة السلام ، لمعجنيهما بما جاء به من  
عند الله ، بتغيير ما غير الله من حكم التوراة ، فأخبرهم الله أن له ملك السموات والأرض  
وسلطانهما ، وأن الخلق أهل مملكته وطاعته ، وعليهم السمع والطاعة لأمره ونهيه ، وأن له  
أمرهم بما يشاء ونهيهم عما يشاء ، ونسخ ما يشاء ، وإقرار ما يشاء ، وإنشاء ما يشاء من إقراره  
وأمره ونهيه .

(قلت) الذي يحمل اليهود على البحث في مسألة النسخ ، إنما هو الكفر والعناد ، فإنه ليس  
في العقل ما يدل على امتناع النسخ في أحکام الله تعالى ، لأنه يحكم ما يشاء ، كما أنه يفعل  
ما يريد ، مع أنه قد وقع ذلك في كتبه المقدمة وشرائعه الماضية ، كما أحل لآدم تزویج بناته من  
بنيه ، ثم حرم ذلك ، وكما أباح لنوح ، بعد خروجه من السفينة أكل جميع الحيوانات ، ثم نسخ  
حل بعضها ، وكان نكاح الأختين مباحاً لإسرائيل وبنيه ، وقد حرم ذلك في شريعة التوراة

وما بعدها، وأمر إبراهيم عليه السلام بذبح ولده، ثم نسخه قبل الفعل، وأمر جمهور بنى إسرائيل بقتل من عبد العجل منهم، ثم رفع عنهم القتل كيلا يستأصلهم القتل، وأشياء كثيرة يطول ذكرها وهم يعترفون بذلك ويصدقون عنه وما يجاب به عن هذه الأدلة بأجوية لفظية فلا يصرف الدلالة في المعنى، إذ هو المقصود، كما في كتبهم مشهوراً من البشرة بمحمد ﷺ والأمر باتباعه، فإنه يفيد وجوب متابعته عليه الصلاة والسلام، وأنه لا يقبل عمل إلا على شريعته، وسواء قيل إن الشرائع المتقدمة مغيبة إلى بعثة عليه السلام، فلا يسمى ذلك نسخاً كقوله: «ثم أتموا الصيام إلى الليل» [البقرة: ١٨٧]، وقيل: إنها مطلقة، وإن شريعة محمد ﷺ نسختها، فعلى كل تقدير وجوب متابعته متعين، لأنه جاء بكتاب هو آخر الكتب عهداً بالله تبارك وتعالى، ففي هذا المقام بين تعالى جواز النسخ، ردًا على اليهود عليهم لعنة الله، حيث قال تعالى: «ألم تعلم أن الله على كل شيء قادر \* ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض» الآية، فكما أن له الملك بلا منازع، فكذلك له الحكم بما يشاء، «ألا له الخلق والأمر» [الأعراف: ٥٤] وقرئ في سورة آل عمران، التي نزل في صدرها خطاباً مع أهل الكتاب، وقوع النسخ في قوله تعالى: «كل الطعام كان حلاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه» [آل عمران: ٩٣]، كما سيأتي تفسيره. وال المسلمين كلهم متافقون على جواز النسخ في أحكام الله تعالى، لما له في ذلك من الحكمة البالغة، وكلهم قال بوقوعه. وقال أبو مسلم الأصبهاني المفسر: لم يقع شيء من ذلك في القرآن، وقوله ضعيف مردود مرذول، وقد تعسف في الأجوية عما وقع من النسخ، فمن ذلك قضية العدة بأربعة أشهر وعشر بعد الحول، لم يجب عن ذلك بكلام مقبول، وقضية تحويل القبلة إلى الكعبة عن بيت المقدس لم يجب بشيء، ومن ذلك نسخ مصاورة المسلم لعشرة من الكفرة إلى مصاورة الاثنين، ومن ذلك نسخ وجوب الصدقة قبل مناجاة الرسول ﷺ وغير ذلك، والله أعلم.

أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَأَلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلٍ وَمَنْ يَتَبَدَّلْ إِلَّا كُفَّارٌ بِالْأَيْمَنِ فَقَدْ ضَلَّ  
سَوَاءَ الْتَّكِبِيلُ

نهى الله تعالى المؤمنين في هذه الآية الكريمة، عن كثرة سؤال النبي ﷺ عن الأشياء قبل كونها كما قال تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنِ أَشْيَاءِ إِنْ تَبَدَّلْ لَكُمْ تَسْؤُلُكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوهَا عَنْهَا حِينَ يَنْزَلُ الْقُرْآنَ تَبَدَّلُكُمْ» [المائدة: ١٠١] أي وإن تأسألوا عن تفصيلها بعد نزولها تبين لكم، ولا تأسألوا عن الشيء قبل كونه فلعله أن يحرم من أجل تلك المسألة، ولهذا جاء في الصحيح: «إِنَّ أَعْظَمَ الْمُسْلِمِينَ جُرْمًا مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يَحْرُمْ فَحْرَمْ مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ»<sup>(١)</sup> ولما سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يجدد مع امرأته رجالاً، فإن تكلم بأمر عظيم، وإن سكت سكت

(١) البخاري (اعتراض باب ٣) ومسلم (فضائل حديث ١٣٢، ١٣٣).

عن مثل ذلك، فكره رسول الله ﷺ المسائل وعابها، ثم أنزل الله حكم الملاعنة، ولهذا ثبت في الصحيحين، من حديث المغيرة بن شعبة: أن رسول الله ﷺ كان ينهى عن قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال<sup>(١)</sup>. وفي صحيح مسلم «ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم وانختلفهم على أنبيائهم فإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم، وإن نهيتكم عن شيء فاجتنبوا»<sup>(٢)</sup> وهذا إنما قاله بعد ما أخبرهم، «أن الله كتب عليهم الحج، فقال رجل: أكلَ عام يا رسول الله؟ فسكت عنه رسول الله ﷺ ثلاثةً، ثم قال عليه السلام: «لا، ولو قلت نعم لوجبت ولو وجبت لما استطعتم»، ثم قال «ذروني ما تركتكم» الحديث، ولهذا قال أنس بن مالك: نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء، فكان يعجبنا أن يأتي الرجل من أهل البادية فيسأله ونحن نسمع. وقال الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده: أخبرنا أبو كريب، أخبرنا إسحاق بن سليمان، عن أبي سنان عن أبي إسحاق عن البراء بن عازب، قال: إن كان ليأتي عليّ السنة، أريد أن أسأله رسول الله ﷺ عن الشيء، فأتهيّب منه وإن كنا لنتمنى الأعراب. وقال البزار: أخبرنا محمد بن المثنى، أخبرنا ابن فضيل عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، قال: ما رأيت قوماً خيراً من أصحاب محمد ﷺ، ما سأله إلا عن اثنين عشرة مسألة كلها في القرآن **﴿يُسَأِّلُونَكُمْ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ - وَ - يُسَأِّلُونَكُمْ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ - وَ يُسَأِّلُونَكُمْ عَنِ الْيَتَامَى﴾**<sup>(٣)</sup> [البقرة: ٢١٧ - ٢١٩ - ٢٢٠]

، يعني هذا وأشباهه.

وقوله تعالى: **﴿أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَأَلَ مُوسَى مِنْ قَبْلِهِ﴾** أي بل تريدون، أو هي على بابها في الاستفهام، وهو إنكار، وهو يعلم المؤمنين والكافرين، فإنه عليه السلام رسول الله إلى الجميع، كما قال تعالى: **﴿يُسَأَّلُ أَهْلَ الْكِتَابَ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ، فَقَالُوا أَرْنَا اللَّهَ جَهْرًا، فَأَخْذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾** [ النساء: ١٥٣]، قال محمد بن إسحاق<sup>(٤)</sup>: حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد عن ابن عباس، قال: قال رافع بن حريملة و وهب بن زيد: يا محمد، أئتنا بكتاب تنزله علينا من السماء نقرؤه، و فجر لنا أنهاراً نتبعك و نصدقك، فأنزل الله من قولهم، **﴿أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَأَلَ مُوسَى مِنْ قَبْلِهِ﴾**.

وقال أبو جعفر الرازى<sup>(٥)</sup> عن الربيع بن أنس عن أبي العالية في قوله تعالى: **﴿أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَأَلَ مُوسَى مِنْ قَبْلِهِ﴾** قال: قال رجل: يا رسول الله، لو كانت كفارتنا ككفارات بني إسرائيل، فقال النبي ﷺ: **«اللَّهُمَّ لَا تُنْعِنِّيهَا - ثَلَاثًا - مَا أَعْطَاكُمُ اللَّهُ خَيْرٌ مَا أَعْطَى**

(١) البخاري (خصوصيات باب ٣) ومسلم (أقضية حديث ١٤).

(٢) مسلم (حج حديث ٤١١، وفضائل حديث ١٣١).

(٣) تفسير الطبرى ٥٣٠ / ١.

(٤) الأثر في الطبرى ٥٣١ / ١.

بني إسرائيل ، كانت بنو إسرائيل إذا أصاب أحدهم الخطية وجدها مكتوبة على بابه وكفارتها ، فإن كفرها كانت له خزيًّا في الدنيا وإن لم يكفرها كانت له خزيًّا في الآخرة ، فما أعطاكم الله خير مما أعطى بني إسرائيل » ، قال ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ اللَّهَ يَعْدُ اللَّهُ غَفْرَانًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠] ، وقال « الصلوات الخمس ومن الجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن » وقال : « من هم بسيئة فلم يعملاها لم تكتب عليه ، وإن عملها كتبت سيئة واحدة ، ومن هم بحسنة فلم يعملاها كتبت له حسنة واحدة ، وإن عملها كتبت له عشر أمثالها ، ولا يهلك على الله إلا هالك » ، فأنزل الله : « أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَئَلَ مُوسَى مِنْ قَبْلِهِ » .

وقال مجاهد : « أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سَئَلَ مُوسَى مِنْ قَبْلِهِ » ، أن يريهم الله جهرة ، قال : سألت قريش محمداً ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً ، قال : « نعم وهو لكم كالمائدة لبني إسرائيل [إِنْ كَفَرْتُمْ] »<sup>(١)</sup> ، فأبوا ورجعوا . وعن السدي وقتادة نحو هذا ، والله أعلم . والمراد أن الله ذم من سأله الرسول ﷺ عن شيء على وجه التعتن والاقتراح ، كما سألت بنو إسرائيل موسى عليه السلام تعتنًا وتكتذيبًا وعنادًا . قال الله تعالى : « وَمَنْ يَتَبَدَّلْ كُفَّارُ الْإِيمَانِ » ، أي ومن يشتري الكفر بالإيمان « فَقَدْ ضَلَّ سَوْءَ السَّبِيلِ » أي فقد خرج عن الطريق المستقيم إلى الجهل والضلال . وهكذا حال الذين عدلوا عن تصديق الأنبياء ، واتبعهم والانقياد لهم إلى مخالفتهم وتكتذيبهم ، والاقتراح عليهم بالأسئلة التي لا يحتاجون إليها على وجه التعتن والكفر ، كما قال تعالى : « أَلَمْ تَرِدُ إِلَيْنَا الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفَّارًا وَأَحْلَلُوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارَ \* جَهَنَّمْ يَصْلُوْنَهَا وَبَئْسَ الْقَرَارِ » [إِبْرَاهِيمٌ : ٢٨ - ٢٩] ، وقال أبو العالية : يتبدل الشدة بالرخاء .

وَدَكَيْشِرُّ مَتْ أَهْلُ الْكِتَابِ لَوْ يَرِدُونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُثُرًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَأَعْفُوْا وَأَصْفَحُوْا حَقَّ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَقْيِمُوا الْصَّلَاةَ وَأَتُوْلُوا الْرَّكُونَةَ وَمَا فَقَدَمُوا لَا نَشْكُرُ مِنْ خَيْرٍ حَدَّدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ

بَصِيرٌ

يحذر تعالى عباد المؤمنين عن سلوك طريق الكفار من أهل الكتاب ، ويعلّمهم بعاداتهم لهم في الباطن والظاهر ، وما هم مشتملون عليه من الحسد للمؤمنين ، مع علمهم بفضلهم وفضل نبيهم ، ويأمر عباد المؤمنين بالصفح والعفو والاحتمال ، حتى يأتي أمر الله من النصر والفتح ، ويأمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، ويحثّهم على ذلك ويرغبهم فيه ، كما قال محمد بن إسحاق<sup>(٢)</sup> : حدثني محمد بن أبي محمد ، عن سعيد بن جبير أو عكرمة عن ابن عباس قال : كان حبي بن أخطب وأبو ياسر بن أخطب ، من أشد اليهود للعرب حسداً ، إذ خصمهم الله

(١) الزيادة من الطبرى / ١ / ٥٣٠.

(٢) الأثر في الطبرى / ١ / ٥٣٤.

برسوله ﷺ، وكانوا جاهدين في رد الناس عن الإسلام ما استطاعوا، فأنزل الله فيهم «وَدُّ كثيْرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرْدُونَكُمْ» الآية.

وقال عبد الرزاق عن معمراً عن الزهري، في قوله تعالى: «وَدُّ كثيْرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ» قال: هو كعب بن الأشرف، وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا أبي أخبرنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهري، أخبرني عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك، عن أبيه أن كعب بن الأشرف اليهودي كان شاعراً، وكان يهجو النبي ﷺ، وفيه أنزل الله «وَدُّ كثيْرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرْدُونَكُمْ» إلى قوله «فَاعْفُوْا واصْفِحُوْا». وقال الضحاك: عن ابن عباس، أن رسولًا أمياً يخبرهم بما في أيديهم من الكتب والرسل والآيات، ثم يصدق بذلك كله مثل تصديقهم، ولكنهم جحدوا ذلك كفراً وحسداً وبغياً، ولذلك قال الله تعالى: «كُفَّارًا حَسْدًا مِّنْ عَنْ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ» يقول من بعد ما أضاء لهم الحق، لم يجعلوا منه شيئاً، ولكن الحسد حملهم على الجحود، فغيرهم ووبخهم ولا م لهم أشد الملامة، وشرع لنبيه ﷺ وللمؤمنين، ما هم عليه من التصديق والإيمان والإقرار بما أنزل الله عليهم، وما أنزل من قبلهم، بكرامته وثوابه الجزيل ومعونته لهم.

وقال الربيع بن أنس «مِنْ عَنْ أَنفُسِهِمْ» من قبل أنفسهم، وقال أبو العالية «مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ»، من بعد ما تبين أن محمداً رسول الله، يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، فكفروا به حسداً وبغياً، إذ كان من غيرهم، وكذا قال قتادة والربيع بن أنس.

وقوله: «فَاعْفُوْا واصْفِحُوْا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ»، مثل قوله تعالى: «وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أَوْتَوُا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذْيَ كَثِيرًا» [آل عمران: ١٨٦]، قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله، «فَاعْفُوْا واصْفِحُوْا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ»، نسخ ذلك قوله: «فَاقْتَلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ» [التوبه: ٥]، قوله: «فَقَاتَلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ» [التوبه: ٢٩]، إلى قوله «وَهُمْ صَاغِرُونَ» [التوبه: ٢٩]، فنسخ هذا عفوه عن المشركين، وكذا قال أبو العالية والربيع بن أنس وقتادة والسدسي، إنها منسوبة بآية السيف، ويرشد إلى ذلك أيضاً قوله تعالى: «حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ» . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي: أخبرنا أبو اليمان أخبرنا شعيب، عن الزهري، أخبرني عروة بن الزبير أن أسامة بن زيد أخبره قال: كان رسول الله ﷺ وأصحابه يغفون عن المشركين وأهل الكتاب، كما أمرهم الله ويسبرون على الأذى . قال الله تعالى: «فَاعْفُوْا واصْفِحُوْا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» وكان رسول الله ﷺ، يتأنّى من العفو ما أمره الله به، حتى أذن الله فيهم بالقتل، فقتل الله به من قتل من صناديق قريش، وهذا إسناده صحيح ولم أره في شيء من الكتب الستة، ولكن له أصل في الصحيحين عن أسامة بن زيد.

وقوله تعالى: «وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تَقْدِمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ»،

يحثهم تعالى على الاستعمال بما ينفعهم، وتعود عليهم عاقبته يوم القيمة، من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، حتى يمكن لهم الله النصر في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، «يوم لا ينفع الظالمين معدرتهم ولهم اللعنة ولم سوء الدار» [غافر: ٥٢]، ولهذا قال تعالى: «إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ»، يعني أنه تعالى لا يغفل عن عمل عامل، ولا يضيع لديه سواء كان خيراً أو شراً، فإنه سيجازي كل عامل بعمله. وقال أبو جعفر بن جرير<sup>(١)</sup>: في قوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ»، هذا الخبر من الله للذين خاطبهم بهذه الآيات من المؤمنين، إنهم مهما فعلوا من خير أو شر، سراً وعلانية، فهو به بصير لا يخفى عليه منه شيء، فيجزيهم بالإحسان خيراً، وبالإساءة مثلها، وهذا الكلام وإن كان قد خرج مخرج الخبر، فإن فيه وعداً ووعيداً وأمراً وجزراً، وذلك أنه أعلم القوم، أنه بصير بجميع أعمالهم، ليجدوا في طاعته إذ كان ذلك مذكوراً لهم عنده، حتى يشبعهم عليه، كما قال تعالى: «وَمَا تَقْدِمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِّنْ خَيْرٍ نَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ»، وليحذرروا معصيته، قال: وأما قوله «بصير» فإنه مبصر، صرف إلى بصير، كما صرف مبدع إلى بديع، ومؤلم إلى أليم، والله أعلم. وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا أبو زرعة، أخبرنا ابن بكر، حدثني ابن لهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب عن أبي الخير عن عقبة بن عامر، قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو يقرأ هذه الآية: «سميع بصير»، يقول «بكل شيء بصير».

وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَنَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١﴾ تَلَىٰ مِنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَمْرٌ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا حَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْمِلُونَ ﴿٢﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيَسْتَ الْنَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيَسْتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَكُلُّمُ يَتَّلُّونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلُ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾

يبين تعالى اغترار اليهود والنصارى بما هم فيه، حيث ادعت كل طائفة من اليهود والنصارى، أنه لن يدخل الجنة إلا من كان على ملتها، كما أخبر الله عنهم في سورة المائدة، أنهم قالوا: «نحن أبناء الله وأحباؤه» [المائدة: ١٨] فأكذبهم الله تعالى بما أخبرهم أنه معدبهم بذنبهم. ولو كانوا كما ادعوا، لما كان الأمر كذلك، وكما تقدم من دعواهم، أنه لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة، ثم يتقللون إلى الجنة، ورد عليهم تعالى في ذلك، وهكذا قال لهم في هذه الدعواي التي ادعوها بلا دليل ولا حجة ولا بينة، فقال: «تلك أماناتهم». وقال أبو العالية: أمانى تمنوها على الله بغير حق، وكذا قال قتادة والربيع بن أنس.

ثم قال تعالى «قل» أي يا محمد «هاتوا برهانكم» قال أبو العالية ومجاهد والسدى

والربيع بن أنس: حجتكم، وقال قنادة بيتكم على ذلك: «إن كنتم صادقين»، أي فيما تدعونه، ثم قال تعالى: «بلى من أسلم وجهه الله وهو محسن»، أي من أخلص العمل لله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: «فإِنْ حَاجُوكَ فَقلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ اللَّهُ وَمَنْ اتَّبَعَنِي» [آل عمران: ٢٠]، وقال أبو العالية والربيع «بلى من أسلم وجهه الله» يقول: من أخلص لله وقال سعيد بن جبير: «بلى من أسلم» أخلص «وجهه»، قال دينه «وهو محسن» أي اتبع فيه الرسول ﷺ، فإن للعمل المتقبل شرطين: أحدهما أن يكون صواباً خالصاً لله وحده، والآخر أن يكون صواباً موافقاً للشريعة، فمتى كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يتقبل، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»، رواه مسلم<sup>(١)</sup> من حديث عائشة عنه عليه الصلاة والسلام.

فعمل الرهبان ومن شابههم، وإن فرض أنهم مخلصون فيه لله، فإنه لا يتقبل منهم، حتى يكون ذلك متابعاً للرسول ﷺ، المبعوث إليهم وإلى الناس كافة، وفيهم وأمثالهم قال الله تعالى: «وَقَدْمَنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَباءً مُنثَرًا» [الفرقان: ٢٣] وقال تعالى: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالَهُمْ كَسَرَابٌ بِقِعَةٍ يَحْسِبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا» [النور: ٣٩]، وقال تعالى: «وَجْهُهُ يَوْمَئِذٍ خَاسِعٌ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ تَصْلِي نَارًا حَامِيَةٌ تَسْقِي مِنْ عَيْنٍ آنِيَةً» [الغاشية: ٥]، وروي عن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، أنه تأولها في الرهبان كما سيأتي.

وأما إن كان العمل موافقاً للشريعة، في الصورة الظاهرة، ولكن لم يخلص عامله القصد لله فهو أيضاً مردود على فاعله، وهذا حال المرائين والمنافقين، كما قال تعالى: «إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يَخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ يَخَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالَى يَرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذَكَّرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا» [النساء: ١٤٢]، وقال تعالى: «فَوَيْلٌ لِّلْمُصْلِيْنَ الَّذِيْنَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُوْنَ الَّذِيْنَ هُمْ يَرَاءُوْنَ وَيَمْنَعُوْنَ الْمَاعُوْنَ» [الماعون: ٤ - ٧] ولهذا قال تعالى: «فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقاءَ رَبِّهِ فَلَيَعْمَلْ صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا» [الكهف: ١١٠] وقال في هذه الآية الكريمة: «بلى من أسلم وجهه الله وهو محسن»، قوله: «فَلَهُ أَجْرٌ عَنْ رَبِّهِ وَلَا خُوفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزُنُوْنَ» ، ضمن لهم تعالى على ذلك تحصيل الأجر، وأنهم مما يخافونه من المحذور، «فَلَا خُوفٌ عَلَيْهِمْ» فيما يستقبلونه، «وَلَا هُمْ يَحْزُنُوْنَ» على ما مضى مما يتركونه، كما قال سعيد بن جبير، «فَلَا خُوفٌ عَلَيْهِمْ» يعني في الآخرة، «وَلَا هُمْ يَحْزُنُوْنَ» يعني لا يحزنون للموت.

وقوله تعالى: «وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتَلَوُنَ الْكِتَابَ»، بين به تعالى تناقضهم وتبغضهم وتعاديهم وتعاندهم، كما قال محمد بن إسحاق<sup>(٢)</sup>: حديثي محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس، قال: لما قدم أهل نجران من النصارى، على رسول الله ﷺ، أتتهم أخبار يهود فتنازعوا عند

(١) صحيح مسلم (أقضية حديث ١٨).

(٢) تفسير الطبرى ٥٤٢ / ١.

رسول الله ﷺ، فقال رافع بن حريملة: ما أنتم على شيء، وكفر بعيسى وبالإنجيل، وقال رجل من أهل نجران من النصارى لليهود: ما أنتم على شيء، ومحض نبأ موسى وكفر بالتوراة، فأنزل الله في ذلك من قولهما: ﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب﴾، قال<sup>(١)</sup>: إن كلا يتلو في كتابه تصديق من كفر به، أي يكفر اليهود بعيسى وعندهم التوراة، فيها ما أخذ الله عليهم على لسان موسى بالتصديق بعيسى وفي الإنجيل ما جاء به عيسى بتصديق موسى، وما جاء من التوراة من عند الله وكل يكفر بما في يد صاحبه.

وقال مجاهد في تفسير هذه الآية: قد كانت أوائل اليهود والنصارى على شيء. وقال قتادة: ﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء﴾ قال: بل قد كانت أوائل النصارى على شيء ولكنهم ابتدعوا وتفرقوا ﴿وقالت النصارى ليست اليهود على شيء﴾ قال: بل، قد كانت أوائل اليهود على شيء، ولكنهم ابتدعوا وتفرقوا، وعنه روایة أخرى كقول أبي العالية والربيع بن أنس في تفسير هذه الآية: ﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء﴾ هؤلاء أهل الكتاب الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ.

وهذا القول يقتضي، أن كلا من الطائفتين صدقت فيما رمت به الطائفة الأخرى، ولكن ظاهر سياق الآية يقتضي ذمهم فيما قالوه، مع علمهم بخلاف ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿وهم يتلون الكتاب﴾، أي وهم يعلمون شريعة التوراة والإنجيل، كل منهما قد كانت مشروعة في وقت، ولكنهم تجادلوا فيما بينهم عناداً وكفراً ومقابلة للفاسد، كما تقدم عن ابن عباس ومجاهد وفتادة في الرواية الأولى عنه في تفسيرها، والله أعلم.

وقوله: ﴿كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم﴾، بين بهذا جهل اليهود والنصارى فيما تقابلوا من القول وهذا من باب الإيماء والإشارة. وقد اختلف فيمن عن بقوله تعالى ﴿الذين لا يعلمون﴾ فقال الربيع بن أنس وفتادة ﴿كذلك قال الذين لا يعلمون﴾ قالا: وقالت النصارى مثل قول اليهود وقيلهم، وقال ابن جريج: قلت لعطاء من هؤلاء الذين لا يعلمون؟ قال أمم كانت قبل اليهود والنصارى وقبل التوراة والإنجيل. وقال السدي كذلك ﴿قال الذين لا يعلمون﴾، فهم العرب، قالوا ليس محمد على شيء. واختار أبو جعفر بن جرير<sup>(٢)</sup> أنها عامة تصلح للجميع، وليس ثم دليل قاطع يعين واحداً من هذه الأقوال، والحمل على الجميع أولى، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿فالله يحكم بينهم يوم القيمة فيما كانوا فيه يختلفون﴾، أي أنه تعالى يجمع

(١) من هنا إلى قوله «في يد صاحبه» رواه الطبرى ٥٤٣ / ١ منفصلاً عن الحديث السابق لابن إسحاق، ولكن بالإسناد نفسه. لذلك يصبح ما فعله ابن كثير هنا من الجمع بينهما.

(٢) تفسير الطبرى ٥٤٤ / ١

بینهم يوم المعاد، ويفصل بينهم بقضائه العدل، الذي لا يجور فيه ولا يظلم مثقال ذرة، وهذه الآية كقوله تعالى في سورة الحج: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالْبَصَارِي وَالْمَجْوُسُ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ» [الحج: ١٧]، وكما قال تعالى: «قُلْ يَجْمِعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ» [سأ: ٢٦].

وَمَنْ أَظْلَمَ مَنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي حَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا  
إِلَّا خَاتِمُنَّا لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خَرَّىٰ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ»

اختلف المفسرون في المراد من الذين منعوا مساجد الله وسعوا في خرابها، على قولين:  
أحدهما ما رواه العوفي في تفسيره عن ابن عباس، في قوله: «وَمَنْ أَظْلَمَ مَنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي حَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَاتِمُنَّا لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خَرَّىٰ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ» [الحج: ١٧].  
قال: هم النصارى وقال مجاهد: هم النصارى كانوا يطرحون في بيت المقدس الأذى ويمنعون الناس أن يصلوا فيه، وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن قتادة في قوله: «وَسَعَىٰ فِي حَرَابِهَا». قال هو بختنصر وأصحابه، خرب بيت المقدس، وأعانه على ذلك النصارى. وقال سعيد عن قتادة: قال أولئك أعداء الله، النصارى حملهم بغض اليهود على أنّ أعانوا بختنصر البابلي المجوسي على تخريب بيت المقدس، وقال السدي: كانوا ظاهروا بختنصر على خراب بيت المقدس، حتى خربه وأمر أن تطرح فيه الجيف، وإنما أعانه الروم على خرابه، من أجل أنّبني إسرائيل قتلوا يحيى بن زكريا، وروي نحوه عن الحسن البصري، (القول الثاني)، ما رواه ابن جرير<sup>(١)</sup>: حدثني يونس بن عبد الأعلى حدثنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد في قوله: «وَمَنْ أَظْلَمَ مَنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي حَرَابِهَا»، قال: هؤلاء المشركون الذين حالوا بين رسول الله ﷺ يوم الحديبية، وبين أن يدخلوا مكة، حتى نحر هديه بذى طوى، وهادنهم وقال لهم: «ما كان أحد يصد عن هذا البيت، وقد كان الرجل، يلقى قاتل أبيه أو أخيه فلا يصده» فقالوا: لا يدخل علينا من قتل أبيانا يوم بدر وفيينا باق. وفي قوله: «وَسَعَىٰ فِي حَرَابِهَا» قال: إذا قطعوا من يعمرها بذكره ويأتياها للحج والعمرة.

وقال ابن أبي حاتم ذكر عن سلمة قال: قال محمد بن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس، أن قريشاً منعوا النبي ﷺ الصلاة عند الكعبة في المسجد الحرام، فأنزل الله: «وَمَنْ أَظْلَمَ مَنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ»، ثم اختار ابن جرير القول الأول<sup>(٢)</sup>، واحتج بأن قريشاً لم تسع في خراب الكعبة، وأما الروم فسعوا في تخريب بيت المقدس.

(١) تفسير الطبرى ٥٤٦/١ . والوجوه السابقة عن ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدى كلها ذكرها ابن جرير.

(٢) أي أن النصارى هم الذين أعانيا بختنصر على ذلك.

(قلت) والذى يظهر، والله أعلم، القول الثاني كما قاله ابن زيد، وروي عن ابن عباس، لأن النصارى إذا منعت اليهود الصلاة في البيت المقدس، كان دينهم أقrom من دين اليهود، وكانوا أقرب منهم، ولم يكن ذكر الله من اليهود مقبولاً إذ ذاك، لأنهم لعنوا من قبل على لسان داود وعيسى ابن مريم، ذلك بما عصوا وكأنوا يعتدون، وأيضاً فإنه تعالى، لما وجه الذم في حق اليهود والنصارى، شرع في ذم المشركين الذين أخرجوا الرسول ﷺ وأصحابه من مكة، ومنعوهم من الصلاة في المسجد الحرام، وأما اعتماده على أن قريشاً لم تسع في خراب الكعبة، فأي خراب أعظم مما فعلوا؟ أخرجوا عنها رسول الله ﷺ وأصحابه، واستحوذوا عليها بأصنامهم وأندادهم وشركهم، كما قال تعالى: «وما لهم ألا يعبدون الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياء إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون» [الأنفال: ٣٤]، وقال تعالى: «ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطة أعمالهم وفي النار هم خالدون \* إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين» [التوبه: ١٧ - ١٨] وقال تعالى: «هم الذين كفروا وصدوك عن المسجد الحرام والهدى معكوفاً أن يبلغ محله ولو لا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطّوّفهم فتصيبكم منهم معرّة بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء لو تزيلوا العذاباً الذين كفروا منهم عذاباً أليماً» [الفتح: ٢٥] فقال تعالى: «إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله» [التوبه: ١٨]، فإذا كان من هو كذلك مطروداً منها مصدوداً عنها، فأي خراب لها أعظم من ذلك؟ وليس المراد من عمارتها زخرفتها وإقامة صورتها فقط، إنما عمارتها بذكر الله فيها وإقامة شرعه فيها، ورفعها عن الدنس والشرك.

وقوله تعالى: «أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين»، هذا خبر معناه الطلب، أي لا يمكنوا هؤلاء إذا قدرتم عليهم من دخولها، إلا تحت الهدنة والجزية، ولهذا لما فتح رسول الله ﷺ مكة، أمر من العام القابل في سنة تسع أن ينادي برحاب منى: «ألا لا يحجّن بعد العام مشرك، ولا يطوفن بالبيت عريان، ومن كان له أجل فأجله إلى منته»، وهذا إنما كان تصديقاً وعملاً بقوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامتهم هذا» [التوبه: ٢٨]، وقال بعضهم: ما كان ينبعي لهم أن يدخلوا مساجد الله إلا خائفين، على حال التهيب وارتعد الفرائص من المؤمنين، أن يبطشوا بهم فضلاً أن يستولوا عليها ويعنوا المؤمنين منها، والمعنى: ما كان إلا الحق والواجب إلا ذلك، لو لا ظلم الكفرا وغيرهم. وقيل إن هذا بشارة من الله لل المسلمين، أنه سيظهرونهم على المسجد الحرام وعلى سائر المساجد، وأنه يذل المشركين لهم، حتى لا يدخل المسجد الحرام أحد منهم، إلا خائفًا يخاف أن يؤخذ فيعاقب أو يقتل، إن لم يسلم. وقد أتى الله هذا الوعد، كما تقدم من منع المشركين

من دخول المسجد الحرام، وأوصى رسول الله ﷺ، أن لا يبقى بجزيرة العرب دينان، وأن يجلب اليهود والنصارى منها، والله الحمد والمنة. وما ذاك إلا تشريف أكنااف المسجد الحرام، وتطهير البقعة التي بعث الله فيها رسوله إلى الناس كافة، بشيراً ونذيراً، صلوات الله وسلامه عليه، وهذا هو الخزي لهم في الدنيا، لأن الجزء من جنس العمل، فكما صدوا المؤمنين عن المسجد الحرام، صدوا عنه، وكما أجلوهم من مكة أجلوها عنها، «ولهم في الآخرة عذاب عظيم» على ما انتهكوا من حرمة البيت، وامتهنهو من نصب الأصنام حوله، ودعاء غير الله عنده، والطواف به عزياً وغير ذلك من أفعالهم التي يكرهها الله ورسوله.

وأما من فسر بيت المقدس، فقال كعب الأحبار: إن النصارى لما ظهروا على بيت المقدس خربوه، فلما بعث الله محمداً ﷺ أنزل عليه: «ومن أظلم من منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين» الآية، فليس في الأرض نصراني يدخل بيت المقدس إلا خائفًا. وقال السدي: فليس في الأرض رومي يدخله اليوم إلا وهو خائف أن يضرب عنقه، أو قد أخيف بأداء الجزية، فهو يؤديها. وقال قتادة: لا يدخلون المساجد إلا مسارقة. (قلت) وهذا لا ينفي أن يكون داخلاً في معنى عموم الآية، فإن النصارى لما ظلموا بيت المقدس بامتهان الصخرة، التي كانت تصلي إليها اليهود، عوقبوا شرعاً وقدراً بالذلة فيه، إلا في أحيان من الدهر امتحن بهم بيت المقدس، وكذلك اليهود لما عصوا الله فيه أيضاً، أعظم من عصيان النصارى، كانت عقوبتهم أعظم، والله أعلم.

وفسر هؤلاء الخزي في الدنيا بخروج المهدى عند السدي وعكرمة ووائل بن داود، وفسره قتادة بأداء الجزية عن يد وهم صاغرون، وال الصحيح أن الخزي في الدنيا أعم من ذلك كله، وقد ورد الحديث بالاستعارة من خزي الدنيا وعداب الآخرة، كما قال الإمام أحمد<sup>(١)</sup>: أخبرنا الهيثم بن خارجة، أخبرنا محمد بن أيوب بن ميسرة بن حليس، سمعت أبي يحدث عن بسر بن أرطاة، قال كان رسول الله ﷺ يدعو: «اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها وأجرنا من خزي الدنيا وعداب الآخرة» وهذا حديث حسن، وليس هو في شيء من الكتبستة، وليس لصاحبه وهو بشر بن أبي أرطاة حديث سواه، وسوى حديث: لانقطع الأيدي في الغزو<sup>(٢)</sup>.

وَلَهُ الْمُشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيَّمَا تُولُوا فَمَمْ وَجَهَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلَيْهِمْ<sup>١١٥</sup>

وهذا، والله أعلم، فيه تسلية للرسول ﷺ وأصحابه، الذين أخرجوا من مكة، وفارقوا مسجدهم ومصلاهم، وقد كان رسول الله ﷺ، يصلى بمكة إلى بيت المقدس والكعبة بين يديه، فلما قدم المدينة، وجه إلى بيت المقدس ستة عشر شهرًا أو سبعة عشر شهرًا، ثم صرفه الله إلى

(١) مستند أحمد (ج ٤ ص ١٨١).

(٢) رواه أيضًا الإمام أحمد في المستند، قبل الحديث السابق، من طريقين.

الكعبة بعد، ولهذا يقول تعالى: ﴿وَلِهُ الْمَشْرُقُ وَالْمَغْرِبُ فَإِيْنَما تُولُوا فَتْحَمْ وَجْهَ اللَّهِ﴾.

قال أبو عبيد القاسم بن سلام في كتاب الناسخ والمنسوخ: أخبرنا حجاج بن محمد أخربنا ابن جريج وعثمان بن عطاء، عن عطاء عن ابن عباس قال: أول ما نسخ لنا من القرآن فيما ذكر لنا، والله أعلم، شأن القبلة. قال الله تعالى: ﴿وَلِهُ الْمَشْرُقُ وَالْمَغْرِبُ فَإِيْنَما تُولُوا فَتْحَمْ وَجْهَ اللَّهِ﴾ فاستقبل رسول الله ﷺ، فصلى نحو بيت المقدس وترك البيت العتيق، ثم صرفه إلى بيته العتيق ونسختها. فقال ﴿وَمَنْ حَيَثْ خَرَجْتُ فَوْلَ وَجْهِكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَحِيثْ مَا كُنْتُمْ فَوْلَوْا وَجْهَكُمْ شَطْرَه﴾ [البقرة: ١٤٩ - ١٥٠] وقال<sup>(١)</sup> علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: كان أول ما نسخ من القرآن القبلة، وذلك أن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة، وكان أهلها اليهود، أمره الله أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود، فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهراً، وكان رسول الله ﷺ يحب قبلة إبراهيم، وكان يدعو وينظر إلى السماء، فأنزل الله ﷺ قد نرى تقلب وجهك في السماء﴾ [البقرة: ١٤٩] إلى قوله ﴿فَوْلَوْا وَجْهَكُمْ شَطْرَه﴾ [البقرة: ١٤٤] فارتاد من ذلك اليهود، وقالوا: ما ولاهم عن قبليتهم التي كانوا عليها، فأنزل الله ﷺ ﴿قُلْ اللَّهُ أَكْبَرُ﴾ [المشروع والمغرب] [البقرة: ١٤٢]، وقال: ﴿فَإِيْنَما تُولُوا فَتْحَمْ وَجْهَ اللَّهِ﴾. وقال عكرمة عن ابن عباس ﴿فَإِيْنَما تُولُوا فَتْحَمْ وَجْهَ اللَّهِ﴾ قال: قبلة الله أينما توجهت شرقاً أو غرباً، وقال مجاهد ﴿فَإِيْنَما تُولُوا فَتْحَمْ وَجْهَ اللَّهِ﴾ حيثما كنتم فلكم قبلة تستقبلونها الكعبة، وقال ابن أبي حاتم بعد رواية الأثر المتقدم عن ابن عباس في نسخ القبلة عن عطاء عنه: وروي عن أبي العالية والحسن وعطاء الخراساني وعكرمة وقتادة والسدي وزيد بن أسلم نحو ذلك.

وقال ابن جرير: وقال آخرون: بل أنزل الله هذه الآية قبل أن يفرض التوجه إلى الكعبة، وإنما أنزلها ليعلم نبيه ﷺ وأصحابه، أن لهم التوجه بوجوههم للصلاحة حيث شاؤوا من نواحي المشرق والمغرب، لأنهم لا يوجهون وجوههم وجهاً من ذلك وناحية، إلا كان جل ثناوه في ذلك الوجه وتلك الناحية، لأن له تعالى المشارق والمغارب وأنه لا يخلو منه مكان كما قال تعالى: ﴿وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعْهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧]، قالوا: ثم نسخ ذلك بالفرض الذي فرض عليهم التوجه إلى المسجد الحرام هكذا قال.

وفي قوله وأنه تعالى لا يخلو منه مكان، إن أراد علمه تعالى فصحيح، فإن علمه تعالى محظ بجميع المعلومات، وأما ذاته تعالى فلا تكون محصورة في شيء من خلقه، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً. قال ابن جرير<sup>(٢)</sup> وقال آخرون: بل نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ، إذناً من الله أن يصلني المتقطع، حيث توجه من شرق أو غرب، في مسيره في سفره، وفي حال المسافحة

وشدة الخوف [والنقاء الزحوف في الفرائض]<sup>(١)</sup>. حدثنا أبو كريب، أخبرنا ابن إدريس، حدثنا عبد الملك هو ابن أبي سليمان، عن سعيد بن جبیر عن ابن عمر، أنه كان يصلي حيث توجّهت به راحلته، ويدرك أن رسول الله ﷺ، كان يفعل ذلك ويتأول هذه الآية «فَإِنَّمَا تُولُوا فَشْمَ وَجْهِ اللَّهِ». ورواه مسلم والترمذی والنمسائی وابن أبي حاتم وابن مردویه، من طرق عن عبد الملك بن أبي سليمان به، وأصله في الصحيحین، من حديث ابن عمر وعامر بن ربيعة، من غير ذكر الآية. وفي صحيح البخاری من حديث نافع عن ابن عمر، وأنه كان إذا سئل عن صلاة الخوف وصفها، ثم قال: فإن كان خوف أشد من ذلك، صلوا رجالاً قياماً على أقدامهم وركباناً مستقبلي القبلة وغير مستقبلتها قال نافع: ولا أرى ابن عمر ذكر ذلك إلا عن النبي ﷺ.

[مسألة] ولم يفرق الشافعی في المشهور عنه، بين سفر المسافة وسفر العدوی، فالجميع عنه يجوز التطوع فيه على الراحلة، وهو قول أبي حنيفة خلافاً لمالك وجماعته، واختار أبو يوسف وأبو سعيد الإصطخري، التطوع على الدابة في المصر، وحكاه أبو يوسف عن أنس بن مالك رضي الله عنه، واختاره أبو جعفر الطبری، حتى للماشی أيضاً. قال ابن جریر وقال آخرون: بل نزلت الآية في قوم عمیت عليهم القبلة، فلم يعرفوا شطراًها فصلوا على أنحاء مختلفة، فقال الله تعالى: لي المشارق والمغارب فأني ولیتم وجوهکم فهناک وجهی وهو قبلتکم فیعلمکم بذلك أن صلاتکم ماضیة. حدثنا<sup>(٢)</sup> أحمد بن إسحاق الأهوازی، أخبرنا أبو أحمد الزبیری أخبرنا أبو الربيع السمان، عن عاصم بن عبید الله عن عبد الله بن عامر بن ربيعة، عن أبيه قال: كنا مع رسول الله ﷺ، في ليلة سوداء مظلمة فنزلنا منزلة، فجعل الرجل يأخذ الأحجار فيعمل مسجداً يصلی فيه، فلما أصبحة إذا نحن قد صلينا إلى غير القبلة، فقلنا يا رسول الله لقد صلينا ليتنا هذه لغير القبلة، فأنزل الله تعالى: «وَلِهِ الْمَشْرُقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَشْمَ وَجْهِ اللَّهِ» الآية. ثم رواه عن سفیان بن وکیع عن أبي الربيع السمان ب نحوه. ورواه الترمذی عن محمود بن غیلان عن وکیع وابن ماجه عن یحیی بن حکیم عن أبي داود عن أبي الربيع السمان، ورواه ابن أبي حاتم عن الحسن بن محمد بن الصباح، عن سعید بن سلیمان عن أبي الربيع السمان، واسمه أشعث<sup>(٣)</sup> بن سعید البصري، وهو ضعیف الحديث، وقال الترمذی: هذا حديث حسن، وليس إسناده بذلك ولا نعرفه إلا من حديث الأشعث السمان، وأشعث یضعف في الحديث. قلت وشيخه عاصم أيضاً ضعیف. قال البخاری منکر الحديث. وقال ابن معین: ضعیف لا یحتج به. وقال ابن حبان: متروک، والله أعلم.

وقد روی من طريق آخر، عن جابر فقال الحافظ أبو بکر بن مردویه في تفسیر هذه الآية:

(١) الزيادة من الطبری.

(٢) الحديث للطبری، وهو في تفسیره ٥٥٠ / ١.

(٣) وانظر موسوعة رجال الكتب التسعة ١ / ١٤٠.

أخبرنا إسماعيل بن علي بن إسماعيل، أخبرنا الحسن بن علي بن شبيب، حدثني أحمد بن عبد الله بن الحسن، قال: وجدت في كتاب أبي أخبرنا عبد الملك العزري عن عطاء عن جابر قال: بعث رسول الله ﷺ سرية كنت فيها فأصابتنا ظلمة، فلم نعرف القبلة، فقالت طافحة منا: قد عرفنا القبلة هي ههنا قبل الشمال فصلوا وخطوا خطوطاً فلما أصبحوا وطلعت الشمس أصبحت تلك الخطوط لغير القبلة، فلما قفلنا من سفرنا سألنا النبي ﷺ فسكت وأنزل الله تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَشْرُقُ وَالْمَغْرِبُ فَإِنَّمَا تَوْلُوا فَشَمْ وَجْهَ اللَّهِ﴾. ثم رواه من حديث محمد بن عبيد الله العزري عن عطاء عن جابر به. وقال الدارقطني: قرئ على عبد الله بن عبد العزيز وأنا أسمع حدثكم داود بن عمرو أخبرنا محمد بن يزيد الواسطي عن محمد بن سالم عن عطاء عن جابر، قال: كنا مع رسول الله ﷺ في مسيرة فأصابنا غيم فتحيرنا فاختلنا في القبلة فصلى كل رجل مما على حدة وجعل أحدهنا يخط بين يديه لنعلم أمكنتنا فذكرنا ذلك للنبي ﷺ، فلم يأمرنا بالإعادة، وقال: قد أجزاء صلاتكم، ثم قال الدارقطني: كذا قال عن محمد بن سالم، وقال غيره عن محمد بن عبيد الله العزري عن عطاء وهو ضعيفان. ورواه ابن مردويه أيضاً من حديث الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ بعث سرية فأخذتهم ضبة فلم يهتدوا إلى القبلة فصلوا لغير القبلة ثم استبان لهم بعد أن طلعت الشمس أنهم صلوا لغير القبلة، فلما جاؤوا إلى رسول الله ﷺ حدثوه فأنزل الله تعالى في هذه الآية ﴿وَلَهُ الْمَشْرُقُ وَالْمَغْرِبُ فَإِنَّمَا تَوْلُوا فَشَمْ وَجْهَ اللَّهِ﴾ وهذه الأسانيد فيها ضعف، ولعله يشد بعضها بعضاً، وأما إعادة الصلاة لمن تبين له خطوه فيها قولان للعلماء وهذه دلائل على عدم القضاء، والله أعلم.

قال ابن جرير وقال آخرون: بل نزلت هذه الآية في سبب النجاشي كما حدثنا محمد بن بشار، أخبرنا هشام بن معاذ حدثني أبي عن قتادة أن النبي ﷺ، قال: إن أخاك لكم قد مات، فصلوا عليه، قالوا نصلي على رجل ليس بمسلم؟ قال: فنزلت ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمْ خَاتَمَنَا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٩٩] قال قتادة: فقالوا إنه كان لا يصلى إلى القبلة، فأنزل الله ﷺ ﴿وَلَهُ الْمَشْرُقُ وَالْمَغْرِبُ فَإِنَّمَا تَوْلُوا فَشَمْ وَجْهَ اللَّهِ﴾ وهذا غريب، والله أعلم.

وقد قيل: إنه كان يصلى إلى بيت المقدس قبل أن يبلغه الناسخ إلى الكعبة، كما حكاه القرطبي<sup>(١)</sup> عن قتادة، وذكر القرطبي أنه لما مات صلي عليه رسول الله ﷺ فأخذ بذلك من ذهب إلى الصلاة على الغائب، قال: وهذا خاص عند أصحابنا من ثلاثة أوجه - أحدهما - أنه عليه السلام، شاهده حين صلى عليه طويت له الأرض. الثاني أنه لما لم يكن عنده من يصلى عليه صلي عليه واختاره ابن العربي قال القرطبي: ويعين أن يكون ملك مسلم ليس عنده أحد من قومه على دينه، وقد أجاب ابن العربي عن هذا لعلهم لم يكن عندهم شرعية الصلاة على الميت.

(١) تفسير القرطبي ٨٣/٢.

وهذا جواب جيد. الثالث أنه عليه الصلاة والسلام إنما صلى عليه ليكون ذلك كالتأليف لبقية الملوك، والله أعلم.

وقد أورد الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسير هذه الآية من حديث أبي معشر عن محمد بن عمرو بن علقة عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «ما بين المشرق والمغارب قبلة لأهل المدينة وأهل الشام وأهل العراق» وله مناسبة هنا وقد أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث أبي معشر واسمه نجيح بن عبد الرحمن السدى المدنى به «ما بين المشرق والمغارب قبلة»<sup>(١)</sup> وقال الترمذى وقد روى من غير وجه عن أبي هريرة وتكلم بعض أهل العلم في أبي معشر من قبل حفظه، ثم قال الترمذى: حدثني الحسن بن بكر المروزى، أخبرنا المعلى بن منصور أخبرنا عبد الله بن جعفر المخرمي، عن عثمان بن محمد بن الأخنسى عن أبي سعيد المقبرى عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ما بين المشرق والمغارب قبلة» ثم قال الترمذى: هذا صحيح، وحكي عن البخارى أنه قال: هذا أقوى من حديث أبي معشر وأصح، قال الترمذى: وقد روى عن غير واحد من الصحابة «ما بين المشرق والمغارب قبلة» منهم عمر بن الخطاب وعلي وابن عباس رضي الله عنهم أجمعين. وقال ابن عمر: إذا جعلت المغرب عن يمينك والمشرق عن يسارك فما بينهما قبلة، إذا استقبلت القبلة، ثم قال ابن مردويه: حدثنا علي بن أحمد بن عبد الرحمن أخبرنا يعقوب بن يوسف مولى بني هاشم، أخبرنا شعيب بن أيوب أخبرنا ابن نمير عن عبد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «ما بين المشرق والمغارب قبلة» وقد رواه الدارقطنى والبيهقي: وقال المشهور عن ابن عمر عن عمر رضي الله عنهما قوله .

قال ابن جرير<sup>(٢)</sup> ويحتمل فأينما تولوا وجوهكم في دعائكم لي فهنا لك وجهي أستجيب لكم دعاءكم، كما حدثنا القاسم، أخبرنا الحسين حدثني حجاج قال، قال ابن جرير، قال مجاهد لما نزلت **﴿إِذَا دُعَوْنِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾** [غافر: ٦٠] قالوا إلى أين؟ فنزلت **﴿فَأَيْنَمَا تَوَلَّوْ فَشَّمْ وَجْهَ اللَّهِ﴾** قال ابن جرير: ومعنى قوله **﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلَيْهِ﴾** يسع خلقه كلهم بالكفاية والجود والإفضال، وأما قوله **﴿عَلِيهِ﴾** فإنه يعني عليهم ما يغيب عنهم منها شيء ولا يعزب عن علمه بل هو بجميعها عليم .

**وَقَالُوا أَنْخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَنَّمْ بَلَ اللَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّهُ فَقَنَّنُونَ** بِدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ **وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**

اشتملت هذه الآية الكريمة والتي تليها على الرد على النصارى عليهم لعائن الله وكذا من

(١) الترمذى (صلاة باب ١٣٩) وابن ماجه (إقامة باب ٥٦). والموطأ للإمام مالك (قبلة حديث ٨).

(٢) تفسير الطبرى ١/٥٥٢.

أشبههم من اليهود ومن مشركي العرب من جعل الملائكة بنات الله فأكذب الله جميعهم في دعواهم وقولهم إن الله ولداً، فقال تعالى: ﴿سبحانه﴾ أي تعالى وتنزه عن ذلك علواً كبيراً ﴿بل له ما في السموات والأرض﴾ أي ليس الأمر كما افتروا وإنما له ملك السموات والأرض ومن فيهنّ وهو المتصرف فيهم وهو خالقهم ورازقهم ومقدّرهم ومسخّرهم ومصّرّفهم كما يشاء والجميع عبيد له وملك له فكيف يكون له ولد منهم والولد إنما يكون متولداً من شئين متناسبين وهو تبارك وتعالى ليس له نظير ولا مشارك في عظمته وكرياته ولا صاحبة له فكيف يكون له ولد؟ كما قال تعالى: ﴿بديع السموات والأرض أني يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء علیم﴾ [الأنعام: ١٠١] وقال تعالى: ﴿و قالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئت شيئاً إذا﴾ \* تكاد السموات يتقطرن منه وتشنق الأرض وتخر الجبال هذا لأن دعوا للرحمن ولداً \* وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً إن كل من في السموات والأرض إلا آت الرحمن عبداً لقد أحصاهم وعدهم عداً وكلهم آتاه يوم القيمة فرداً﴾ [مريم: ٨٨ - ٩٢] وقال تعالى: ﴿قل هو الله أحد﴾ \* الله الصمد \* لم يلد ولم يولد \* ولم يكن له كفواً أحد﴾ [الإخلاص: ٤ - ١]. فقرر تعالى في هذه الآيات الكريمة أنه السيد العظيم الذي لا نظير له ولا شبيه له وأن جميع الأشياء غيره مخلوقة له مربوبة فكيف يكون له منها ولد؟

ولهذا قال البخاري<sup>(١)</sup> في تفسير هذه الآية من البقرة: حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب عن عبد الله بن أبي الحسين، حدثنا نافع بن جبير هو ابن مطعم عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «قال الله تعالى كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذبيه إياي فزعمتني أنا لا أقدر أن أعيده كما كان، وأما شتمه إياي فقوله لي ولد فسبحانني أن أتخذ صاحبة أو ولداً» انفرد به البخاري من هذا الوجه.

وقال ابن مردويه حدثنا أحمد بن كامل أخبرنا محمد بن إسماعيل الترمذى، أخبرنا محمد بن إسحاق بن محمد الفروي أخبرنا مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ويقول الله تعالى كذبني ابن آدم وما ينبغي له أن يكذبني وشتمني وما ينبغي له أن يشتمني، فأما تكذبيه إياي فقوله: لن يعيذني كما بدأني. وليس أول الخلق بأهون علىَ من إعادته؛ وأما شتمه إياي فقوله: اتخاذ الله ولداً. وأنا الله الأحد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد»<sup>(٢)</sup>.

وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم»<sup>(٣)</sup>.

(١) صحيح البخاري (تفسير سورة الفاتحة باب ٥).

(٢) وأخرجه البخاري أيضاً من هذا الطريق في تفسير سورة الإخلاص باب ١.

(٣) صحيح البخاري (توحيد باب ٣؛ وأدب باب ٧١) وصحيح مسلم (منافقين حديث ٤٩، ٥٠).

وقوله: «كل له قانتون» قال ابن أبي حاتم: أخبرنا أبو سعيد الأشجع، أخبرنا أسباط عن مطرف عن عطية عن ابن عباس قال: «قانتين» مصلين، وقال عكرمة وأبو مالك: «كل له قانتون» مقررون له بالعبودية، وقال سعيد بن جبير: «كل له قانتون»، يقول الإخلاص، وقال الربيع بن أنس: يقول: «كل له قانتون» أي: قائم يوم القيمة، وقال السدي: «كل له قانتون» أي: مطيون يوم القيمة، وقال خصيف عن مجاهد: «كل له قانتون» قال: مطيون، كن إنساناً فكأن، وقال: كن حماراً فكان، وقال ابن أبي نجيج عن مجاهد: كل له قانتون مطيون، قال: طاعة الكافر في سجود ظله وهو كاره، وهذا القول عن مجاهد وهو اختيار ابن جرير يجمع الأقوال كلها وهو أن القنوت والطاعة والاستكانة إلى الله وهو شرعي وقدري كما قال الله تعالى: «وله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدو والآصال» [الرعد: ١٥].

وقد ورد حديث فيه بيان القنوت في القرآن ما هو المراد به، كما قال ابن أبي حاتم: أخبرنا يوسف بن عبد الأعلى، حدثنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث أن دراجاً أبا السمح حدثه عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال: «كل حرف من القرآن يذكر فيه القنوت فهو الطاعة»، وكذا رواه الإمام أحمد<sup>(١)</sup>: عن حسن بن موسى عن ابن لهيعة عن دراج بإسناده مثله، ولكن في هذا الإسناد ضعف لا يعتمد عليه، ورفع هذا الحديث منكر، وقد يكون من كلام الصحابي أو من دونه، والله أعلم.

وقوله تعالى: «بديع السموات والأرض» أي: خالقهما على غير مثال سبق؛ قال مجاهد والسدي: وهو مقتضى اللغة، ومنه يقال للشيء المحدث بدعة، كما جاء في صحيح مسلم: فإن كل محدثة بدعة، والبدعة على قسمين: تارة تكون بدعة شرعية، كقوله: «فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلاله»، وتارة تكون بدعة لغوية، كقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عن جمعه إياهم على صلاة التراويح واستمرارهم: نعمت البدعة هذه.

وقال ابن حرير<sup>(٢)</sup>: «بديع السموات والأرض» مبدعهما، وإنما هو مفعول فصرف إلى فعل، كما صرف المؤلم إلى الآليم، والمسمى إلى السميع، ومعنى المبدع المنشيء والمحدث، ما لم يسبقه إلى إنشاء مثله وإحداثه أحد، قال: ولذلك سمي المبتدع في الدين، مبتدعاً لإحداثه فيه ما لم يسبق إليه غيره، وكذلك كل محدث قوله أو فعلًا، لم يتقدم فيه متقدم، فإن العرب تسميه مبتدعاً، ومن ذلك قول أعشى بنى ثعلبة في مدح هودة بن علي الحنفي: [البسيط]

يُرْعِي إِلَى قَوْلِ سَادَاتِ الرِّجَالِ إِذَا أَبْدَوُا لَهُ الْحَزْمَ أَوْ مَا شَاءُهُ ابْتَدَاعًا<sup>(٣)</sup>

(١) مسند أحمد (ج ٣ ص ٧٥).

(٢) تفسير الطبرى / ٥٥٥.

(٣) البيت للأعشى في ديوانه ص ٨٦؛ وتفسير الطبرى / ٥٥٥.

أي يحدث ما شاء ، قال ابن جرير : فمعنى الكلام سبحانه الله أن يكون له ولد ، وهو مالك ما في السموات والأرض تشهد له جميعها بدلاتها عليه بالوحدانية ، وترى له بالطاعة ، وهو بارتها وخالقها وموجدها ، من غير أصل ولا مثال احتذها عليه ، وهذا إعلام من الله لعباده ، أن مما يشهد له بذلك المسيح ، الذي أضافوا إلى الله بنوته ، وإخبار منه لهم ، أن الذي ابتدع السموات والأرض من غير أصل ، وعلى غير مثال ، هو الذي ابتدع المسيح عيسى ، من غير والد بقدره ، وهذا من ابن جرير رحمة الله كلام جيد وعبارة صحيحة .

وقوله تعالى : «إِنَّمَا قُضِيَ أَمْرًا إِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كَنْ فِيكُون» [غافر: ٦٨] يبين بذلك تعالى كمال قدرته وعظم سلطانه ، وأنه إذا قدر أمراً وأراد كونه ، فإنما يقول له كن ، أي : مرة واحدة فيكون ، أي : فيوجد ، على وفق ما أراد كما قال تعالى : «إِنَّمَا أَمْرَهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كَنْ فِيكُون» [يس: ٨٢] ، وقال تعالى : «إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كَنْ فِيكُون» [النحل: ٤٠] ، وقال تعالى : «وَمَا أَمْرَنَا إِلَّا وَاحِدَةً كَلْمَحَ بِالْبَصَرِ» [القمر: ٥٠] وقال الشاعر : [الطوبل]

إِذَا مَا أَرَادَ اللَّهُ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كَنْ قَوْلَةً فِيكُون  
وَنَبِهَ بِذَلِكَ أَيْضًا، عَلَى أَنْ خَلْقَ عِيسَى بِكَلْمَةِ كَنْ فَكَانَ كَمَا أَمْرَهُ اللَّهُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «إِنْ مِثْلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ كَمِثْلَ خَلْقِهِ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كَنْ فِيكُون» [آل عمران: ٥٩].

وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةً كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ تَشَهِّدُ قُلُوبُهُمْ فَلَدَّبَيْنَا آلَيَّتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١٨﴾

قال محمد بن إسحاق<sup>(١)</sup> : حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس ، قال : قال رافع بن حريلمة لرسول الله ﷺ : يا محمد إن كنت رسولاً من الله كما تقول ، فقل الله فيكلمنا حتى نسمع كلامه ؛ فأنزل الله في ذلك من قوله : «وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةً». يكلمنا الله أو تأتينا آية .

وقال مجاهد : «وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةً» ، قال : النصارى تقوله ، وهو اختيار ابن جرير ، قال : لأن السياق فيهم . وفي ذلك نظر .

وحكى القرطبي<sup>(٢)</sup> : «لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ» ، أي : يخاطبنا بنبوتك يا محمد ، (قلت) : وهو ظاهر السياق ، والله أعلم .

وقال أبو العالية والربيع بن أنس وقتادة والسدي في تفسير هذه الآية : هذا قول كفار العرب

(١) الأثر في الطبرى ١/٥٦٠ . وقد أخرجه من حديث ابن عباس بإسنادين من طريق ابن إسحاق .

(٢) تفسير القرطبي ٢/٩٢ .

﴿كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم﴾، قالوا: هم اليهود والنصارى . ويؤيد هذا القول ، وأن القاتلين ذلك هم مشركون العرب ، قوله تعالى : «إِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةً قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رَسُولُ اللَّهِ يَعْلَمُ حِيثُ يَجْعَلُ رَسُولُهُ سِبِّيبَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَفَّارًا عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابًا شَدِيدًا بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ» [الأعراف: ١٢٤] ، قوله تعالى : «وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا» [الإسراء: ٩٠] إلى قوله : «قُلْ سَبَحَنَ رَبِّيْ هَلْ كُنْتَ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا» [الإسراء: ٩٣] ، قوله تعالى : «وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا الْمُلَائِكَةُ أَوْ نَرِيَ رَبَّنَا» [الفرقان: ٢١] ، قوله تعالى : «بَلْ يَرِيدُ كُلُّ امْرَءٍ مِنْهُمْ أَنْ يَؤْتَى صَحْفًا مَنْشَرَةً» [المدثر: ٥٢] ؛ إلى غير ذلك من الآيات الدالة على كفر مشركي العرب وعتوهم وعنادهم وسؤالهم ما لا حاجة لهم به ، إنما هو الكفر والمعاندة ، كما قال من قبلهم من الأمم الخالية من أهل الكتابين وغيرهم ، كما قال تعالى : «يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابَ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاوَاتِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرْنَا اللَّهَ جَهَرًا» [النساء: ١٥٣] ، وقال تعالى : «إِذَا قَلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نُرِيَ اللَّهَ جَهَرًا» [البقرة: ٥٥] .

وقوله تعالى : «تشابهت قلوبهم» ؛ أي أشبهاه قلوب مشركي العرب قلوب من تقدمهم في الكفر والعناد والمعنوي ، كما قال تعالى : «كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون أتواصوا به» [الذاريات: ٥٢] ، قوله تعالى : «قَدْ بَيَّنَاهُ لَقَوْمَ يُوقَنُونَ» ، أي قد أوضحتنا الدلالات على صدق الرسل ، بما لا يحتاج معها إلى سؤال آخر وزيادة أخرى لمن أيقن وصدق واتبع الرسل ، وفهم ما جاؤوا به عن الله تبارك وتعالى ، وأما من ختم الله على قلبه وسمعه ، وجعل على بصره غشاوة ، فأولئك قال الله فيهم : «إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلْمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرُوا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ» [يونس: ٩٦] .

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ شَيْرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُشَكِّلْ عَنْ أَنْتَ كَبِيرٌ الْجَحَّامُ

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي أخبرنا عبد الرحمن بن صالح أخبرنا عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الفزارى ، عن شيبان النحوى ، أخبرني قتادة عن عكرمة عن ابن عباس عن النبي ﷺ ، قال : «أَنْزَلْتَ عَلَيَّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ شَيْرًا وَنَذِيرًا» ، قال : بشيراً بالجنة ونذيراً من النار .

وقوله : «وَلَا تَسْأَلْ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحَّامِ» قراءة أكثرهم ولا تسأل بضم التاء ، على الخبر وفي قراءة أبي بن كعب ، وما تُسَأَلُ ، وفي قراءة ابن مسعود ولن تُسَأَلْ عن أ أصحاب الجحيم ، نقلها ابن جرير<sup>(١)</sup> ، أي : لا نسألك عن كفر من كفر بك كقوله : «إِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ» [الرعد: ٤٠] ، وقوله تعالى : «فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مَذْكُورٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسِيْطِرٍ» [الغاشية: ٢١] الآية ، وقوله تعالى : «نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَارٍ ذَكْرٌ بِالْقُرْآنِ»

من يخاف وعید» [ق: ٤٥]؛ وأشباه ذلك من الآيات.

وقرأ آخرون: «ولا تَسْأَلْ عن أَصْحَابِ الْجَهَنَّمِ» بفتح التاء على النهي<sup>(١)</sup>، أي: لا تسأل عن حالهم، كما قال عبد الرزاق: أخبرنا الثوري عن موسى بن عبيدة عن محمد بن كعب القرطي، قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيْتْ شَعْرِي مَا فَعَلَ أَبْوَايَ لَيْتْ شَعْرِي مَا فَعَلَ أَبْوَايَ لَيْتْ شَعْرِي مَا فَعَلَ أَبْوَايَ؟» فنزلت: «وَلَا تَسْأَلْ عن أَصْحَابِ الْجَهَنَّمِ»، فما ذكرهما حتى توفاه الله عز وجل. ورواه ابن جرير عن أبي كريب عن وكيع عن موسى بن عبيدة، وقد تكلموا فيه عن محمد بن كعب بمثله، وقد حكاه القرطبي، عن ابن عباس ومحمد بن كعب، قال القرطبي: وهذا كما يقال لا تسأل عن فلان، أي: قد بلغ فوق ما تحسب، وقد ذكرنا في التذكرة أن الله أحيا له أبويه حتى أمنا به، وأجبنا عن قوله: «إِنَّ أَبِي وَأَبَكَ فِي النَّارِ»<sup>(٢)</sup>، (قلت): والحديث المروي في حياة أبويه عليه السلام، ليس في شيء من الكتب ستة ولا غيرها، وإن ساده ضعيف، والله أعلم.

ثم قال ابن جرير: وحدثني القاسم أخبرنا الحسين حدثني حجاج عن ابن جريج، أخبرني داود بن أبي عاصم، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ: «أَيْنَ أَبْوَايَ؟» فنزلت: «إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ شَيْرًا وَنَذِيرًا وَلَا تَسْأَلْ عن أَصْحَابِ الْجَهَنَّمِ»، وهذا مرسل كالذى قبله، وقد رد ابن جرير هذا القول المروي، عن محمد بن كعب وغيره في ذلك، لاستحالة الشك من الرسول ﷺ في أمر أبويه، واختار القراءة الأولى، وهذا الذي سلكه هنا فيه نظر، لاحتمال أن هذا كان في حال استغفاره لأبويه، قبل أن يعلم أمرهما، فلما علم ذلك تبرأ منها، وأخبر عنهما أنهما من أهل النار، كما ثبت هذا في الصحيح، ولهذا أشباه كثيرة ونظائر ولا يلزم ما ذكر ابن جرير، والله أعلم.

وقال الإمام أحمد: أخبرنا موسى بن داود حدثنا فليح بن سليمان، عن هلال بن علي عن عطاء بن يسار، قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص، فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة فقال: أجل والله إنه لموصوف في التوراة بصفته في القرآن؛ يا أيها النبي إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَحْرَزًا لِلْأَمِينِ، وأنت عبدي ورسولي سميك المتكل، لا غلط ولا غلطة ولا صخاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يغفو ويغفر ولن يقبضه حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا لا إله إلا الله فيفتح به أعيناً عمياً وأذاناً صماً وقلوباً غلفاً. انفرد بإخراجه البخاري، فرواه في البيوع<sup>(٣)</sup> عن محمد بن سنان عن فليح به، وقال تابعه عبد العزيز بن أبي سلمة عن هلال: وقال سعيد بن هلال عن عطاء عن عبد الله بن سلام، ورواه في التفسير عن عبد الله عن عبد العزيز بن أبي سلمة، عن هلال عن عطاء عن عبد الله بن

(١) ذكر القرطبي (٩٢/٢) أنها قراءة نافع وحده.

(٢) تفسير القرطبي ٩٣/٢.

(٣) صحيح البخاري (بيوع باب ٥٠) وفيه «سَخَاب» في موضع «صَخَاب»، وهو ما يعنى.

عمرو بن العاص، به ذكر نحوه، فعبد الله هذا هو ابن صالح، كما صرخ به في كتاب الأدب، وزعم ابن مسعود الدمشقي أنه عبد الله بن رجاء، وقد رواه الحافظ أبو بكر بن مردوه في تفسير هذه الآية من البقرة، عن أحمد بن الحسن بن أبيه عن محمد بن أحمد بن البراء، عن المعافى بن سليمان عن فليح به وزاد: قال عطاء: ثم لقيت كعب الأحبار فسألته، فما اختلفا في حرف إلا أن كعباً قال: بلغته أعيناً عمومي، وأذاناً صمومي، وقلوباً غلوفاً.

وَلَنْ تَرَضَىَ عَنِكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىَ حَقَّ تَبِعَ مِلَّهُمْ قُلْ إِنَّ هَدَىَ اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ إِنَّ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتَّلَوُنَهُ حَقَّ تِلَاقِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكُفُّرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَسِيرُونَ

قال ابن حجرير<sup>(١)</sup>: يعني بقوله جل ثناؤه: «ولن ترضي عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم» وليس اليهود يا محمد ولا النصارى براضية عنك أبداً، فدع طلب ما يرضيهم ويوافقهم، وأقبل على طلب رضا الله في دعائهم إلى ما يبعثك الله به من الحق.

وقوله تعالى: «قُلْ إِنَّ هَدَىَ اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ» أي: قل يا محمد إن هدى الله الذي بعثني به هو الهدى، يعني هو الدين المستقيم الصحيح الكامل الشامل، قال قتادة في قوله: «قُلْ إِنَّ هَدَىَ اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ» قال: خصومة علمها الله محمداً عليه وأصحابه يخاصمون بها أهل الضلال، قال قتادة: وبلغنا أن رسول الله ﷺ كان يقول: «لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق، ظاهرين لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله»<sup>(٢)</sup>، (قلت): هذا الحديث مخرج في الصحيح عن عبد الله بن عمرو.

«وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ الْوَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ» فيه تهديد ووعيد شديد للأمة، عن اتباع طرائق اليهود والنصارى بعد ما علموا من القرآن والسنة، عيادة بالله من ذلك فإن الخطاب مع الرسول والأمر لأمته؛ وقد استدل كثير من الفقهاء بقوله: «حتى تتبع ملتهم» حيث أفرد الملة على أن الكفر كله ملة واحدة، كقوله تعالى: «لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِي دِينِ» [الكافرون: ٦] فعلى هذا لا يتوارث المسلمون والكافر، وكل منهم يرث قرينه سواء كان من أهل دينه أم لا ، لأنهم كلهم ملة واحدة وهذا مذهب الشافعى وأبى حنيفة وأحمد في رواية عنه، وقال في الرواية الأخرى كقول مالك، إنه لا يتوارث أهل ملتين شتى، كما جاء في الحديث، والله أعلم.

وقوله: «الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتَّلَوُنَهُ حَقَّ تِلَاقِهِ» قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة: هم

(١) تفسير الطبرى / ٥٦٥

(٢) صحيح البخارى (اعتصام باب ١٠) وصحيح مسلم (إيمان حديث ٢٤٧ ، وجihad وحديث ٤).

اليهود والنصارى، وهو قول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، واختاره ابن جرير، وقال سعيد عن قتادة: هم أصحاب رسول الله ﷺ، وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا أبي أخينا إبراهيم بن موسى وعبد الله بن عمران الأصبهاني، قال: أخبرنا يحيى بن يمان حدثنا أسامة بن زيد، عن أبيه عن عمر بن الخطاب: (يتلونه حق تلاوته) قال: إذا مر بذكر الجنة سأله الجنة، وإذا مر بذكر النار تعود بالله من النار، وقال أبو العالية: قال ابن مسعود: والذي نفسي بيده إن حق تلاوته أن يحل حلاله، ويحرم حرامه، ويقرأه كما أنزله الله، ولا يحرف الكلم عن مواضعه، ولا يتأنى منه شيئاً على غير تأويله، وكذا رواه عبد الرزاق، عن معمر عن قتادة ومنصور بن المعتمر عن ابن مسعود، قال السدي عن أبي مالك عن ابن عباس في هذه الآية قال: يحلون حلاله ويحرمون حرامه ولا يحرفونه عن مواضعه؛ قال ابن أبي حاتم: وروي عن ابن مسعود نحو ذلك، وقال الحسن البصري: يعملون بمحكمه ويؤمنون بمتشابهه، ويكلون ما أشكل عليهم إلى عالمه، وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا أبو زرعة أخينا إبراهيم بن موسى أخبرنا ابن أبي زائدة أخينا داود بن أبي هند، عن عكرمة عن ابن عباس في قوله: (يتلونه حق تلاوته) قال: يتبعونه حق اتباعه، ثم قرأ: «والقمر إذا تلاها» [الشمس: ٢] يقول: اتبعها قال: وروي عن عكرمة وعطاء ومجاده وأبي رزين وإبراهيم النخعى نحو ذلك. وقال سفيان الثوري: أخبرنا زبيد عن مرة عن عبد الله بن مسعود، في قوله: (يتلونه حق تلاوته) قال: يتبعونه حق اتباعه، قال القرطبي<sup>(١)</sup>: وروي نصر بن عيسى عن مالك عن نافع عن ابن عمر عن النبي ﷺ في قوله: (يتلونه حق تلاوته) قال: «يتبعونه حق اتباعه» ثم قال في إسناده غير واحد من المجهولين فيما ذكره الخطيب إلا أن معناه صحيح. وقال أبو موسى الأشعري: من يتبع القرآن يهبط به على رياض الجنة. وعن عمر بن الخطاب: هم الذين إذا مروا بأية رحمة سألوها من الله، وإذا مروا بأية عذاب استعاذوا منها، قال: وقد روي هذا المعنى عن النبي ﷺ أنه كان إذا مَرَّ بأية رحمة سأله، وإذا مَرَّ بأية عذاب تعوذ.

وقوله: «أولئك يؤمنون به» خبر عن «الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته» أي: من أقام كتابه من أهل الكتب المنزلة على الأنبياء المتقدمين حق إقامته، آمن بما أرسلتك به يا محمد، كما قال تعالى: «ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم» [المائدة: ٦٦]، «قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم» [المائدة: ٦٨] أي: إذا أقمتموها حق الإقامة وأتمتم بها حق الإيمان وصدقتم ما فيها من الأخبار ببعث محمد ﷺ ونعته وصفته والأمر باتباعه ونصره وموازنته، قادركم ذلك إلى الحق واتباع الخير في الدنيا والآخرة كما قال تعالى: «الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل» [الأعراف: ١٥٧]، وقال

تعالى : «قُلْ آمَنَّا بِهِ أَوْ لَا تَؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أَوْتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يَتَلَى عَلَيْهِمْ يَخْرُونَ لِلأَذْقَانِ سَجَدًا وَيَقُولُونَ سَبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لِمَفْعُولًا» [الإسراء : ١٠٧] أي : إن كان ما وعدنا به من شأن محمد ﷺ لواقعاً، وقال تعالى : «الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ \* وَإِذَا يَتَلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كَنَا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ \* أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرْتَبَتِهِنَّ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرُؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يَنْفَقُونَ» [القصص : ٥٢ - ٥٤] وقال تعالى : «وَقُلْ لِلَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ وَالْأَمْيَانِ أَسْلَمُوكُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوكُمْ فَقَدْ اهْتَدُوكُمْ وَإِنْ تُولُوا فَإِنَّمَا عَلَيْكُمُ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعَبَادِ» [آل عمران : ٢٠] ولهذا قال تعالى : «وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ» [آل عمران : ١٢١] كما قال تعالى : «وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ» [هود : ١٧] وفي الصحيح : «وَالَّذِي نَفْسِي بِيدهِ لَا يُسْمِعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، يَهُودِيٌّ وَلَا نَصَارَىٰ ثُمَّ لَا يُؤْمِنُ بِي إِلَّا دُخُلَ النَّارَ»<sup>(١)</sup>.

يَكْبِي إِسْرَئِيلَ أَذْكُرُوا نَعْمَقِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَصَلَّيْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمَيْنَ ﴿١﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا يَنْجِرِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسِ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفْعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴿٢﴾

قد تقدم نظير هذه الآية في صدر السورة وكررت هنا للتأكيد والبحث على اتباع الرسول النبي الأمي الذي يجدون صفتة في كتبهم : نعمته واسمه وأمره وأمته فخذلهم من كتمان هذا ، وكتمان ما أنعم به عليهم وأمرهم أن يذكروا نعمة الله عليهم من النعم الدنيوية والدينية ولا يحسدوا بني عمهم من العرب على ما رزقهم الله من إرسال الرسول الخاتم منهم ، ولا يحملهم ذلك على الحسد على مخالفته وتكذيبه والوحيد عن موافقته ، صلوات الله وسلمه عليه دائمًا إلى يوم الدين .

﴿ وَإِذَا أَبْتَلَنَا إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمَنْ دُرِيَّ قَالَ لَا يَتَأْلُمُ عَهْدِي أَظَلَّلِيمِينَ ﴾

يقول تعالى منبهأً على شرف إبراهيم خليله عليه السلام وأن الله تعالى جعله إماماً للناس يقتدى به في التوحيد حين قام بما كلفه الله تعالى به من الأوامر والنواهي ، ولهذا قال : «وَإِذَا أَبْتَلَنَا إِبْرَاهِيمَ رَبِّهِ بِكَلِمَاتٍ» أي : واذكر يا محمد لهؤلاء المشركين وأهل الكتابين الذين يتخلون ملة إبراهيم وليسوا عليها وإنما الذي هو عليها مستقيم فأنت والذين معك من المؤمنين ، اذكر لهؤلاء ابتلاء الله إبراهيم أي : اختباره له بما كلفه به من الأوامر والنواهي (فأتمهن) أي : قام بهن كلهن كما قال تعالى : «وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَى» [النجم : ٣٧] أي : وفي جميع ما شرع له فعله به صلوات الله عليه وقال تعالى : «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أَمَّةً قَاتَلَتْ اللَّهَ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُشَرِّكِينَ \* شَاكِرًا

لأنعمه اجتباه ودهاه إلى صراط مستقيم \* وأتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين \* ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين» [التحل: ١٢٠ - ١٢١ - ١٢٢]

وقال تعالى: «قل إني هداني ربى إلى صراط مستقيم \* دينًا قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين» [الأنعام: ١٦١ - ١٦٢]، وقال تعالى: «ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصراانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين \* إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولهم المؤمنين» [آل عمران: ٦٧ - ٦٨]، قوله تعالى: «بكلمات» أي:

بشرائع وأوامر ونواه، فإن الكلمات تطلق، ويراد بها الكلمات القدرة كقوله تعالى عن مريم عليها السلام: «وصدق بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين» [التحرير: ١٢] وتطلق، ويراد بها الشرعية، كقوله تعالى: «وتمنت كلمة ربك صدقًا وعدلاً» [الأنعام: ١١٥] أي:

كلماته الشرعية، وهي إما خبر صدق، وإما طلب عدل إن كان أمراً أو نهاياً، ومن ذلك هذه الآية الكريمة: «إِذْ أَبْتَلَ إِبْرَاهِيمَ رَبَّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَهُنَّ» ، أي: قام بهن قال: «إِنِّي جاعلُكُمْ لِلنَّاسِ إِمَاماً» أي: جزاء على ما فعل، لما قام بالأوامر وترك الزواجر جعله الله للناس قدوة، وإماماً يقتدى به ويحتذى حذوه.

وقد اختلف في تعين الكلمات التي اختبر الله بها إبراهيم الخليل عليه السلام، فروي عن ابن عباس في ذلك روايات، فقال عبد الرزاق، عن معمر عن قتادة قال ابن عباس: ابتلاء الله بالمناسك، وكذا رواه أبو إسحاق السبيسي عن التميمي عن ابن عباس. وقال عبد الرزاق أيضاً، أخبرنا معمر عن ابن طاووس عن أبيه عن ابن عباس «إِذْ أَبْتَلَ إِبْرَاهِيمَ رَبَّهُ بِكَلِمَاتٍ» ، قال: ابتلاء بالطهارة خمس في الرأس وخمس في الجسد، في الرأس قص الشارب والمضمضة والاستنشاق والسواك وفرق الرأس، وفي الجسد تقليم الأظفار وحلق العانة والختان وتنف الإبط وغسل أثر الغائط والبول بالماء، قال ابن أبي حاتم: وروي عن سعيد بن المسيب ومجاهد والشعبي والنخعي، وأبي صالح وأبي الجلد نحو ذلك، (قلت): وقرب من هذا ما ثبت في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله ﷺ: «عشر من الفطرة: قص الشارب وإفقاء اللحية والسواك واستنشاق الماء وقص الأظفار وغسل البراجم وتنف الإبط وحلق العانة وانتقاد الماء، ونسيت العاشرة إلا أن تكون المضمضة». قال وكيع: انتقاد الماء يعني الاستنجاء، وفي الصحيحين<sup>(١)</sup> عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «الفطرة خمس: الختان والاستحداد<sup>(٢)</sup> وقص الشارب وتقليم الأظفار وتنف الإبط»، لفظه لمسلم. وقال ابن أبي حاتم: أبأنا يونس بن عبد الأعلى قراءة، أخبرنا ابن وهب، أخبرني ابن لهيعة عن ابن هبيرة عن حنش بن عبد الله الصنعاني عن ابن عباس أنه كان يقول في تفسير هذه الآية: «إِذْ أَبْتَلَ إِبْرَاهِيمَ

(١) صحيح البخاري (لباس باب ٥١، ٦٣، ٦٤) و صحيح مسلم (طهارة حديث ٤٩، ٥٠).

(٢) الاستحداد: هو حلق العانة. سمي استحداداً لاستعمال الحديدية، وهي الموسى.

ربه بكلمات فأتمهن» قال: عشر، سرت في الإنسان، وأربع في المشاعر، فاما التي في الإنسان حلق العانة، وتنف الإبط والختان، وكان ابن هبيرة يقول: هؤلاء الثلاثة واحدة، وتقليم الأظفار وقص الشارب والسواك وغسل يوم الجمعة، والأربعة التي في المشاعر: الطواف والسعى بين الصفا والمروءة ورمي الجamar والإفاضة. وقال داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال: ما ابتلي بهذا الدين أحد فقام به كله إلا إبراهيم، قال الله تعالى: «إِذَا أَبْتَلَنَا إِبْرَاهِيمَ بِكُلِّ مَا فَعَلَ إِلَّا إِنَّمَا يَأْتِيُنَا بِمَا نَسِيْنَا» قلت له: وما الكلمات التي ابتلى الله إبراهيم بهن فأتمهن؟ قال: الإسلام ثلاثون سهماً منها عشر آيات في براءة **«الثائرون العابدون»** [التوبه: ١١٢] إلى آخر الآية، وعشر آيات في أول سورة: **«قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ»** [المؤمنون: ١]، و **«سَأَلَ سَائِلٌ بِعِذَابٍ وَاقِعٍ»** [المعارج: ١] وعشرون آيات في الأحزاب: **«إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ»** [الأحزاب: ٣٥] إلى آخر الآية فأتمهن كلهن فكتبت له براءة، قال الله: **«وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَىْ»** [النجم: ٣٧] هكذا رواه الحاكم وأبو جعفر بن جرير وأبو محمد بن أبي حاتم بأسانيدهم إلى داود بن أبي هند وهذا لفظ ابن أبي حاتم.

وقال محمد بن إسحاق عن محمد بن أبي محمد عن سعيد أو عكرمة عن ابن عباس قال: الكلمات التي ابتلى الله بهن إبراهيم فأتمهن، فراق قومه في الله حين أمر بمفارقتهم، ومحاجته نمرود في الله حين وقفه على ما وقفه عليه من خطر الأمر الذي فيه خلافه، وصبره على قذفه وإيهامه في النار ليحرقوه في الله على هول ذلك من أمرهم، والهجرة بعد ذلك من وطنه وبلاده في الله حين أمره بالخروج عنهم وما أمره به من الضيافة والصبر عليها بنفسه وماليه، وما ابتلي به من ذبح ابنه حين أمره بذبحه فلما مضى على ذلك من الله كله وأخلصه للبلاء، قال الله له: **«أَسْلَمَ قَالَ أَسْلَمَتْ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ»** [البقرة: ١٣١] على ما كان من خلاف الناس وفراقهم.

وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا أبو سعيد الأشجع أخبرنا إسماعيل بن علية عن أبي رجاء عن الحسن، يعني البصري **«إِذَا أَبْتَلَنَا إِبْرَاهِيمَ بِكُلِّ مَا فَعَلَ إِلَّا إِنَّمَا يَأْتِيُنَا بِمَا نَسِيْنَا»** قال: ابتلاء بالكوكب فرضي عنه، وابتلاء بالقمر فرضي عنه، وابتلاء بالشمس فرضي عنه، وابتلاء بالهجرة فرضي عنه، وابتلاء بالختان فرضي عنه، وابتلاء بابنه فرضي عنه.

وقال ابن جرير<sup>(١)</sup>: أخبرنا بشر بن معاذ أخبرنا يزيد بن زريع، أخبرنا سعيد عن قتادة قال: كان الحسن يقول: أي والله لقد ابتلاء بأمر فصبر عليه، ابتلاء بالكوكب والشمس والقمر، فأحسن في ذلك وعرف أن ربه دائم لا يزول، فوجه وجهه للذي فطر السموات والأرض حنيفاً، وما كان من المشركين، ثم ابتلاء بالهجرة، فخرج من بلاده وقومه، حتى لحق بالشام مهاجراً إلى الله، ثم ابتلاء بالنار قبل الهجرة، فصبر على ذلك، وابتلاء بذبح ابنه والختان، فصبر على ذلك.

(١) تفسير الطبرى / ١ ٥٧٥.

وقال عبد الرزاق : أخبرنا معاذ بن جعفر عن الحسن يقول في قوله : «إِذَا بَتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبَّهُ بِكَلْمَاتٍ» قال : ابتلاء الله بذبح ولده وبالنار وبالكوكب والشمس والقمر . وقال أبو جعفر بن جرير : أخبرنا ابن شمار أخبرنا سلم بن قتيبة ، أخبرنا أبو هلال عن الحسن «إِذَا بَتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبَّهُ بِكَلْمَاتٍ» ، قال : ابتلاء بالكوكب والشمس والقمر ، فوجده صابراً .

وقال العوفي في تفسيره عن ابن عباس : «إِذَا بَتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبَّهُ بِكَلْمَاتٍ فَأَتَمَهُنَّ» فمنهن «قال إِنِّي جَاعَلْتُ لِلنَّاسِ إِمَامًا» ومنهن «إِذَا يَرَفِعُ إِبْرَاهِيمَ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلَ» [البقرة : ١٢٧] ومنهن الآيات في شأن المنسك والمقام الذي جعل لإبراهيم والرزرق الذي رزق ساكنو البيت ، ومحمد بعث في دينهما<sup>(١)</sup> .

وقال ابن أبي حاتم : أخبرنا الحسن بن محمد بن الصباح ، أخبرنا شابة عن ورقاء عن ابن أبي نجيح عن مجاهد ، في قوله تعالى : «إِذَا بَتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبَّهُ بِكَلْمَاتٍ فَأَتَمَهُنَّ» قال الله لإبراهيم : إِنِّي مُبَتَّلٌ بِأَمْرٍ فَمَا هُوَ؟ قال : تجعلني للناس إماماً؟ قال : نعم ، قال : ومن ذريتي؟ قال : «لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ» ، قال : تجعل البيت مثابة للناس؟ قال : نعم ، قال : وأمناً؟ قال : نعم ، قال : وتجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك؟ قال : نعم ، قال : وترزق أهله من الشمرات من آمن منهم بالله؟ قال : نعم ، قال ابن نجيح : سمعته عن عكرمة فعرضته على مجاهد فلم ينكحه ، وهكذا رواه ابن جرير من غير وجه عن ابن أبي نجح عن مجاهد .

وقال سفيان الثوري عن ابن أبي نجح عن مجاهد ، «إِذَا بَتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبَّهُ بِكَلْمَاتٍ فَأَتَمَهُنَّ» قال : ابتلي بالآيات التي بعدها «إِنِّي جَاعَلْتُ لِلنَّاسِ إِمَامًا» قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين<sup>(٢)</sup> .

وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس : «إِذَا بَتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبَّهُ بِكَلْمَاتٍ» قال : الكلمات «إِنِّي جَاعَلْتُ لِلنَّاسِ إِمَامًا» وقوله : «إِذَا جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا» [البقرة : ١٢٥] وقوله : «وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مَصْلِي» [البقرة : ١٢٥] وقوله : «وَعَهَدْنَا إِلَيْهِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ» [البقرة : ١٢٥] الآية ، وقوله : «إِذَا يَرَفِعُ إِبْرَاهِيمَ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلَ» [البقرة : ١٢٧] الآية ، قال : فذلك كله من الكلمات التي ابتلي بها إبراهيم .

وقال السدي : الكلمات التي ابتلي بها إبراهيم ربه : «رَبَّنَا تَقْبَلْ مَنِ إِنْكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ \* رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمَنْ ذَرْيَتْنَا أَمَةً مُسْلِمَةً لَكَ» [البقرة : ١٢٧ - ١٢٨] «رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ» [البقرة : ١٢٩] وقال القرطبي<sup>(٢)</sup> : وفي الموطأ وغيره ، عن يحيى بن سعيد أنه سمع سعيد بن المسيب يقول : إبراهيم عليه السلام أول من اختتن وأول من ضاف الضيف ،

(١) في الطبرى : «ومحمد في ذريتهما عليهم السلام» .

(٢) تفسير القرطبي ٩٨/٢ .

[وأول من استحده<sup>(١)</sup>] وأول من قلم أظفاره، وأول من قص الشارب، وأول من شاب فلما رأى الشيب، قال: ما هذا؟ قال: وقار، قال: يا رب زدني وقاراً. وذكر ابن أبي شيبة عن سعيد بن إبراهيم عن أبيه قال: أول من خطب على المتنابر إبراهيم عليه السلام، قال غيره: وأول من بَرَد<sup>(٢)</sup> البريد وأول من ضرب بالسيف، وأول من استاك، وأول من استنجي بالماء، وأول من ليس السراويل، وروي عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنْ أَتَخْذَ الْمُتَنَبِّرَ فَقَدْ اتَّخَذَهُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَإِنْ أَتَخْذَ الْعَصَمَ فَقَدْ اتَّخَذَهَا أَبِي إِبْرَاهِيمَ» (قلت): هذا حديث لا يثبت، والله أعلم. ثم شرع القرطبي يتكلم على ما يتعلّق بهذه الأشياء من الأحكام الشرعية.

قال أبو جعفر بن جرير<sup>(٣)</sup> ما حاصله: أنه يجوز أن يكون المراد بالكلمات جميع ما ذكر وجائز أن يكون بعض ذلك ولا يجوز الجزم بشيء منها أنه المراد على التعيين إلا بحديث أو إجماع، قال: ولم يصح في ذلك خبر بنقل الواحد ولا بنقل الجماعة الذي يجب التسليم له. قال: غير أنه قد روي عن النبي ﷺ في نظير معنى ذلك خبران أحدهما ما حدثنا به أبو كريب، أخبرنا رشدين بن سعد، حدثني زبان بن فائد عن سهل بن معاذ بن أنس قال: كان النبي ﷺ يقول: «ألا أخبركم لم سمي الله إبراهيم خليله، الذي وفي؟ لأنَّه كان يقول كلما أصبح وكلما أمسى: ﴿سَبَحَنَ اللَّهُ حِينَ تَمَسَّونَ وَحِينَ تَصْبِحُونَ \* وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشَيْأً وَحِينَ تَظَهَرُونَ﴾ [الروم: ١٧ - ١٨] إلى آخر الآية» قال: والآخر: ما حدثنا به أبو كريب، أخبرنا الحسن عن عطية، أخبرنا إسرائيل عن جعفر بن الزبير عن القاسم عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «وَإِبْرَاهِيمُ الَّذِي وَفَىٰ» [النجم: ٣٧] قال: «أَنْدَرُونَ مَا وَفَىٰ؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «وَفَىٰ عَمَلَ يَوْمَهُ أَرْبَعَ رَكْعَاتٍ فِي النَّهَارِ» ورواه آدم في تفسيره عن حماد بن سلمة وعبد بن حميد عن يونس بن محمد عن حماد بن سلمة عن جعفر بن الزبير به، ثم شرع ابن جرير يضعف هذين الحديثين، وهو كما قال: فإنه لا يجوز روایتهما إلا ببيان ضعفهما، وضعفهما من وجوه عديدة، فإن كلاً من السندين مشتمل على غير واحد من الضعفاء مع ما في متن الحديث مما يدل على ضعفه، والله أعلم. ثم قال ابن جرير: ولو قال قائل: إنَّ الذي قاله مجاهد وأبو صالح والربيع بن أنس أولى بالصواب من القول الذي قاله غيرهم كان مذهبًا لأن قوله: «إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا» قوله: «وَعَهَدْنَا إِلَيْهِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِرَا بَيْتَنَا لِلطَّائِفَيْنِ» [البقرة: ١٢٥]، وسائر الآيات التي هي نظير ذلك كالبيان عن الكلمات التي ذكر الله أنه ابْتَلَى بِهِنَّ إِبْرَاهِيمَ، (قلت): والذي قاله أولاً من أن الكلمات تشمل جميع ما ذكر أقوى من هذا الذي جوزه من قول مجاهد ومن قال مثله لأنَّ السياق يعطي غير ما قالوه، والله أعلم.

(١) زيادة من القرطبي.

(٢) في القرطبي: «وأول من ثَرَدَ الثَّرِيدَ» وهو الصواب.

(٣) تفسير الطبرى / ١ . ٥٧٥

وقوله قال: «ومن ذريتي» قال: «لا ينال عهدي الظالمين» لما جعل الله إبراهيم إماماً سأله أن تكون الأئمة من بعده من ذريته فأجيب إلى ذلك وأخبر أنه سيكون من ذريته ظالمون وأنه لا ينالهم عهد الله ولا يكونون أئمة فلا يقتدى بهم، والدليل على أنه أجيب إلى طلبه قوله تعالى في سورة العنكبوت: «وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب» [العنكبوت: ٢٧] فكل نبي أرسله الله، وكل كتاب أنزله الله بعد إبراهيم ففي ذريته صلوات الله وسلامه عليه.

وأما قوله تعالى: «قال لا ينال عهدي الظالمين» فقد اختلفوا في ذلك. فقال خصيف عن مجاهد في قوله: «قال لا ينال عهدي الظالمين» قال: إنه سيكون في ذريتك ظالمون، وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد «قال لا ينال عهدي الظالمين» قال: لا يكون لي إمام ظالم، وفي رواية: لا أجعل إماماً ظالماً يقتدى به. وقال سفيان عن منصور عن مجاهد في قوله تعالى: «قال لا ينال عهدي الظالمين» قال: لا يكون إمام ظالم يقتدى به. وقال ابن أبي حاتم أخبرنا أبي أخينا مالك بن إسماعيل أخبرنا شريك عن منصور عن مجاهد في قوله: «ومن ذريتي» قال أما من كان منهم صالحاً فأجعله إماماً يقتدى به، وأما من كان ظالماً فلا ولا نعمة عين. وقال سعيد بن جير «لا ينال عهدي الظالمين» المراد به المشرك لا يكون إمام ظالم، يقول لا يكون إمام مشرك، وقال ابن جرير عن عطاء قال: «إني جاعلك للناس إماماً» قال ومن ذريتي فأبى أن يجعل من ذريته إماماً ظالماً، قلت لعطاء ما عهده؟ قال أمره. وقال ابن أبي حاتم أخبرنا عمرو بن ثور القيساري فيما كتب إلى أخينا الفريابي حدثنا إسماعيل حدثنا سماعة بن حرب عن عكرمة عن ابن عباس، قال: قال الله لإبراهيم إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي فأبى أن يفعل ثم قال «لا ينال عهدي الظالمين» وقال محمد بن إسحاق عن محمد بن أبي محمد عن سعيد أو عكرمة عن ابن عباس «قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين» يخبره أنه كائن في ذريته ظالم لا ينال عهده ولا ينبغي أن يوليه شيئاً من أمره وإن كان من ذرية خليله، ومحسن ستتفذ فيه دعوته وتبلغ له ما أراد من مسألته. وقال العوفي عن ابن عباس «لا ينال عهدي الظالمين» قال يعني: لا عهد لظالم عليك في ظلمه أن تطيعه فيه.

وقال ابن حجر<sup>(١)</sup> حدثنا إسحاق أخبرنا عبد الرحمن بن عبد الله عن إسرائيل عن مسلم الأعور عن مجاهد عن ابن عباس قال «لا ينال عهدي الظالمين» قال ليس للظالمون عهد وإن عاهدته أنفشه وروي عن مجاهد وعطاء ومقاتل بن حيان نحو ذلك. وقال الثوري عن هارون بن عترة عن أبيه قال ليس لظالم عهد.

وقال عبد الرزاق<sup>(٢)</sup> أخبرنا معمر عن قتادة في قوله: «لا ينال عهدي الظالمين» قال لا ينال

(١) تفسير الطبرى ٥٧٩/١.

(٢) تفسير الطبرى ٥٧٩/١.

عهد الله في الآخرة الظالمين فاما في الدنيا فقد ناله الظالم فامن به وأكل وعاش، وكذا قال إبراهيم النخعي وعطاء وعكرمة.

وقال الربيع بن أنس : عهد الله الذي عهد إلى عباده دينه يقول لا ينال دينه الظالمن ، ألا ترى أنه قال : « وبarkanنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين » [الصفات : ١١٣] يقول ليس كل ذريتك يا إبراهيم على الحق ، وكذا روي عن أبي العالية وعطاء ومقاتل بن حيان .

وقال جوير<sup>(١)</sup> عن الضحاك : لا ينال طاعتي عدو لي يعصيني ولا أنحلها إلا ولها يطعني .  
وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه : أخبرنا عبد الرحمن بن محمد بن حامد أخبرنا أحمدا بن عبد الله بن سعيد الأستدي ، حدثنا سليم بن سعيد الدامغاني ، أخبرنا وكيع عن الأعمش عن سعد بن عبيدة عن أبي عبد الرحمن السلمي عن علي بن أبي طالب عن النبي ﷺ قال : لَا ينال عهدي الظالمن<sup>لَا ينال عهدي الظالمن</sup> قال لا طاعة إلا في المعروف ، وقال السدي : لَا ينال عهدي الظالمن<sup>لَا ينال عهدي الظالمن</sup> يقول عهدي نبوتي .

فهذه أقوال مفسري السلف في هذه الآية ، على ما نقله ابن جرير وابن أبي حاتم رحمهما الله تعالى واختار ابن جرير أن هذه الآية وإن كانت ظاهرة في الخبر ، أنه لا ينال عهد الله بالإماماة ظالماً ، ففيها إعلام من الله لإبراهيم الخليل عليه السلام ، أنه سيوجد من ذريتك من هو ظالم لنفسه كما تقدم عن مجاهد وغيره . والله أعلم . وقال ابن خويز منداد المالكي : الظالم لا يصلح أن يكون خليفة ولا حاكماً ولا مفتياً ولا شاهداً ولا راوياً .

وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ، إِذَا مَنَّا وَلَمْ يُنْجِدْنَا، كَمْ كَانَ أَنْجَدْنَا لَهُمْ مِنْ هُنَّا

قال العوفي : عن ابن عباس قوله تعالى : « وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ » يقول : لا يقضون فيه وطراً ، يأتونه ثم يرجعون إلى أهليهم ثم يعودون إليه . وقال علي بن طلحة عن ابن عباس : مثابة للناس يقول يثوبون ، رواهما ابن جرير<sup>(١)</sup> .

وقال ابن أبي حاتم : أخبرنا أبي أخبرنا عبد الله بن رجاء ، أخبرنا إسرائيل عن مسلم عن مجاهد عن ابن عباس ، في قوله تعالى : « وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ » قال : يثوبون إليه ثم يرجعون ، قال وروي عن أبي العالية وسعيد بن جبير ، في رواية وعطاء ومجاهد والحسن وعطيه والربيع بن أنس والضحاك نحو ذلك .

وقال ابن جرير<sup>(٢)</sup> : حدثني عبد الكريم بن أبي عمير حدثني الوليد بن مسلم ، قال : قال أبو عمرو يعني الأوزاعي ، حدثني عبيدة بن أبي لبابة في قوله تعالى : « وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ »

(١) تفسير الطبرى ٥٨١/١

قال : لا ينصرف عنه منصرف ، وهو يرى أنه قد قضى منه وطراً . وحدثني <sup>(١)</sup> يونس عن ابن وهب قال : قال ابن زيد **﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ﴾** قال يثوبون إِلَيْهِ مِنَ الْبَلْدَانِ كُلُّهَا وَيَأْتُونَهُ ، وما أحسن ما قاله الشاعر في هذا المعنى أورده القرطبي <sup>(٢)</sup> : [الرمل]

جعل البيت مثابةً لهم ليس منه الدهر يقضون الوطэр

وقال سعيد بن جبير في الرواية الأخرى وعكرمة وقتادة وعطاء الخراساني **﴿مَثَابَةً لِلنَّاسِ﴾** أي مجمعاً **﴿وَأَمْنًا﴾** قال الضحاك عن ابن عباس : أي أمناً للناس . وقال أبو جعفر الرازمي : عن الريبع بن أنس عن أبي العالية **﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَمَنًا﴾** يقول وأمناً من العدو وأن يحمل فيه السلاح ، وقد كانوا في الجاهلية يتخطف الناس من حولهم وهم آمنون لا يُسبّون ، وروي عن مجاهد وعطاء والسدي وقتادة والريبع بن أنس قالوا : من دخله كان أمناً .

ومضمون ما فسر به هؤلاء الأئمة هذه الآية أن الله تعالى يذكر شرف البيت وما جعله موصوفاً به شرعاً وقراً، من كونه مثابة للناس ، أي جعله محلاً لشاتق إِلَيْهِ الأرواح ، وتحن إِلَيْهِ، ولا تقضي منه وطراً ولو ترددت إِلَيْهِ كل عام استجابة من الله تعالى ، لدعاء خليله إِبراهيم عليه السلام ، في قوله فاجعل أفتدة من الناس تهوي إِلَيْهِم ، إِلَى أن قال : **﴿رَبُّنَا وَتَقْبِلُ دُعَاء﴾** [إِبراهيم : ٤٠] ويصفه تعالى بأنه جعله آمناً من دخله أمن ، ولو كان قد فعل ما فعل ثم دخله كان آمناً ، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : كان الرجل يلقى قاتل أبيه أو أخيه فيه ، فلا يعرض له ، كما وصف في سورة المائدة في قوله تعالى : **﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ﴾** [المائدة : ٩٧] أي يدفع عنهم بسبب تعظيمها السوء ، كما قال ابن عباس : لو لم يحج الناس هذا البيت ، لأطبق الله السماء على الأرض ، وما هذا الشرف إِلَّا لشرف بانيه أولاً ، وهو خليل الرحمن ، كما قال تعالى : **﴿وَإِذْ بَوَأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئاً﴾** [الحج : ٢٦] . وقال تعالى : **﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وَضَعٌ لِلنَّاسِ لِلَّذِي بَيْكَةَ مَبَارِكًا وَهَدِي لِلْعَالَمِينَ \*** فيه آيات بيّنات مقام إِبراهيم ومن دخله كان آمناً **﴾[آل عمران : ٩٦ - ٩٧]** وفي هذه الآية الكريمة ، نبه على مقام إِبراهيم مع الأمر بالصلاحة عنده . فقال **﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مَصْلِي﴾** .

وقد اختلف المفسرون في المراد بالمقام ما هو ، فقال ابن أبي حاتم : أخبرنا عمرو بن شبة النميري ، حدثنا أبو خلف ، يعني عبد الله بن عيسى ، أخبرنا داود بن أبي هند عن مجاهد عن ابن عباس **﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مَصْلِي﴾** قال : مقام إِبراهيم الحرم كله . وروي عن مجاهد وعطاء مثل ذلك . وقال أيضاً أخبرنا الحسن بن محمد بن الصباح ، حدثنا حجاج عن ابن جريج ، قال : سألت عطاء عن **﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مَصْلِي﴾** فقال سمعت ابن عباس قال : أما مقام

(١) تفسير الطبرى / ١ ٥٨٢ .

(٢) تفسير القرطبي / ٢ ١١٠ .

إبراهيم الذي ذكر هنا، فمقام إبراهيم هذا الذي في المسجد، ثم قال: ومقام إبراهيم يعد كثيراً مقام إبراهيم الحج كله، ثم فسره لي عطاء فقال: التعريف وصلاتان بعرفة، والمشعر، ومني، ورمي الجamar، والطواف بين الصفا والمروءة، فقلت أفسره ابن عباس؟ قال لا. ولكن قال مقام إبراهيم الحج كله. قلت: أسمعت ذلك لهذا أجمع؟ قال: نعم سمعته منه.

وقال سفيان الثوري عن عبد الله بن مسلم، عن سعيد بن جبير (رواتحدوا من مقام إبراهيم مصلى) قال: الحجر مقام إبراهيم نبي الله قد جعله الله رحمة، فكان يقوم عليه ويناوله إسماعيل الحجار، ولو غسل رأسه كما يقولون لاختالف رجاله.

وقال السدي: المقام الحجر الذي وضعه زوجة إسماعيل تحت قدم إبراهيم حتى غسلت رأسه. حكاہ القرطبي <sup>(١)</sup> وضعه ورجحه غيره. وحكاہ الرازی <sup>(٢)</sup> في تفسيره عن الحسن البصري وقتادة والربيع بن أنس.

وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا الحسن بن الصباح، أخبرنا عبد الوهاب بن عطاء عن ابن جريج، عن جعفر بن محمد عن أبيه، سمع جابرأ يحدث عن حجة النبي ﷺ، قال: لما طاف النبي ﷺ، قال له عمر: هذا مقام أبينا؟ قال: نعم، قال: أفلانتخذه مصلى؟ فأنزل الله عز وجل (رواتحدوا من مقام إبراهيم مصلى)، وقال عثمان بن أبي شيبة: أخبرنا أبوأسامة عن زكريا، عن أبي إسحاق، عن أبي ميسرة، قال: قال عمر: قلت: يارسول الله هذا مقام خليل ربنا؟ قال: نعم، قال: أفلانتخذه مصلى؟ فنزلت (رواتحدوا من مقام إبراهيم مصلى)، وقال ابن مردويه: أخبرنا دعليج بن أحمد، أخبرنا غيلان بن عبد الصمد، أخبرنا مسروق بن المرزبان، أخبرنا زكريا بن أبي زائدة عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون، عن عمر بن الخطاب، أنه من بمقام إبراهيم فقال: يارسول الله أليس نقوم بمقام خليل ربنا؟ قال: بلـ، قال: أفلانتخذه مصلى؟ فلم يلبث إلا يسيراً حتى نزلت (رواتحدوا من مقام إبراهيم مصلى)، وقال ابن مردويه: أخبرنا علي بن أحمد بن القزويني، أخبرنا علي بن الحسين، حدثنا الجنيد، أخبرنا هشام بن خالد، أخبرنا الوليد عن مالك بن أنس، عن جعفر بن محمد عن أبيه، عن جابر، قال: لما وقف رسول الله ﷺ يوم فتح مكة عند مقام إبراهيم، قال له عمر: يارسول الله هذا مقام إبراهيم الذي قال الله (رواتحدوا من مقام إبراهيم مصلى)، قال: نعم، قال الوليد: قلت لمالك: هكذا حدثك واتخذوا؟ قال: نعم هكذا وقع في هذه الرواية وهو غريب، وقد روی النسائي من حدیث الوليد بن مسلم نحوه.

وقال البخاري <sup>(٣)</sup>: باب قوله (رواتحدوا من مقام إبراهيم مصلى) مثابة يثوبون يرجعون،

(١) تفسير القرطبي ١١٢/٢.

(٢) تفسير الرازی ٤٥/٤.

(٣) صحيح البخاري (تفسير سورة البقرة باب ٦).

حدثنا مسدد، أخبرنا يحيى عن حميد، عن أنس بن مالك، قال: قال عمر بن الخطاب: وافتقت ربي في ثلاثة أو وافقني ربي في ثلاثة، قلت: يارسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى فنزلت «واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى»، وقلت: يارسول الله، يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب، فأنزل الله آية الحجاب. قال: وبلغني معاتبة النبي ﷺ بعض نسائه، فدخلت عليهن فقلت: إن انتهيت أو ليبدلن الله رسوله خيراً منك حتى أتيت إحدى نسائه، قالت: يا عمر، أما في رسول الله ما يعظ نساءه حتى تعظهن أنت، فأنزل الله «عسى ربه إن طلقكن أن يبدلها أزواجاً خيراً منكن مسلمات» [التحريم: ٥]، وقال ابن أبي مريم: أخبرنا يحيى بن أيوب، حدثني حميد، قال: سمعت أنساً عن عمر رضي الله عنهما، هكذا ساقه البخاري هنا، وعلق الطريق الثانية عن شيخه سعيد بن الحكم المعروف بابن أبي مريم المصري، وقد تفرد عنه بالرواية البخاري من بين أصحاب الكتب الستة، وروى عنه الباقيون بواسطة، وغيره من تعليق هذا الطريق لبيان فيه اتصال إسناد الحديث، وإنما لم يستدله لأن أبو أيوب الغافقي فيه شيء، كما قال الإمام أحمد فيه هو شيء الحفظ، والله أعلم.

وقال الإمام أحمد<sup>(١)</sup>: حدثنا هشيم، أخبرنا حميد عن أنس، قال: قال عمر رضي الله عنه: وافتقت ربي عز وجل في ثلاثة، قلت: يارسول الله، لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى، فنزلت «واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى»، وقلت: يارسول الله، إن نسائك يدخلن عليهم البر والفاجر، فلو أمرتهن أن يحتاجن، فنزلت آية الحجاب. واجتمع على رسول الله ﷺ نساوه في الغيرة، فقلت لهن: «عسى ربه إن طلقكن أن يبدلها أزواجاً خيراً منكن» [التحريم: ٥]، فنزلت كذلك، ثم رواه أحمد عن يحيى وابن أبي عدي كلاهما عن حميد، عن أنس عن عمر، أنه قال: وافتقت ربي في ثلاثة أو وافقني ربي في ثلاثة، فذكره.

وقد رواه البخاري عن عمر وابن عون والترمذى عن أحمد بن منيع، والنسائى عن يعقوب بن إبراهيم الدورقى، وابن ماجه عن محمد بن الصباح، كلهم عن هشيم بن بشيريه. ورواه الترمذى أيضاً عن عبد بن حميد، عن حجاج بن منهال، عن حماد بن سلمة والنسائى، عن هناد عن يحيى بن أبي زائدة كلاهما، عن حميد وهو ابن تيرويه الطويل به. وقال الترمذى: حسن صحيح. ورواه علي المدينى بن زريع، عن حميد به، وقال: هذا من صحيح الحديث وهو بصري.

ورواه الإمام مسلم بن حجاج في صحيحه بسند آخر ولفظ آخر، فقال: أخبرنا عقبة بن مكرم، أخبرنا سعيد بن عامر عن جويرية بن أسماء، عن نافع، عن ابن عمر، قال: وافتقت ربي في ثلاثة: في الحجاب، وفي أسارى بدر، وفي مقام إبراهيم.

وقال أبو حاتم الرازي: أخبرنا محمد بن عبد الله الأنباري، أخبرنا حميد الطويل عن أنس بن مالك، قال: قال عمر بن الخطاب: وافقني ربى في ثلاث أو وافقت ربى في ثلاث، قلت يارسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى، فنزلت ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾، وقلت: يارسول الله لو حجبت النساء، فنزلت آية العجائب، والثالثة: لما مات عبد الله بن أبي، جاء رسول الله ﷺ ليصلي عليه، قلت: يارسول الله تصلي على هذا الكافر المนาقة؟ فقال: إيهَا عنك<sup>(١)</sup> يا بن الخطاب، فنزلت ﴿ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره﴾ [التوبه: ٨٤] وهذا إسناد صحيح أيضاً، ولا تعارض بين هذا ولا هذا بل الكل صحيح ومفهوم العدد إذا عارضه منطوق قدم عليه، والله أعلم.

وقال ابن جريج: أخبرني جعفر عن محمد عن أبيه، عن جابر: أن رسول الله ﷺ رمل ثلاثة أشواط ومشى أربعاً حتى إذا فرغ عمد إلى مقام إبراهيم فصلى خلفه ركعتين، ثم قرأ ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾.

وقال ابن جرير<sup>(٢)</sup>: حدثنا يوسف بن سلمان، أخبرنا حاتم بن إسماعيل، أخبرنا جعفر بن محمد عن أبيه، عن جابر، قال: استلم رسول الله ﷺ الركن فرمى ثلثاً ومشى أربعاً ثم نفذ إلى مقام إبراهيم فقرأ ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ فجعل المقام بينه وبين البيت، فصلى ركعتين. وهذا قطعة من الحديث الطويل الذي رواه مسلم<sup>(٣)</sup> في صحيحه من حديث حاتم بن إسماعيل.

وروى البخاري بسنده عن عمرو بن دينار، قال: سمعت ابن عمر يقول: قدم رسول الله ﷺ فطاف بالبيت سبعاً وصلى خلف المقام ركعتين. فهذا كله مما يدل على أن المراد بالمقام إنما هو الحجر الذي كان إبراهيم عليه السلام يقوم عليه لبناء الكعبة، لما ارتفع الجدار أتاه إسماعيل عليه السلام به ليقوم فوقه ويناوله الحجارة فيضعها بيده لرفع الجدار، وكلما كمل ناحية انتقل إلى الناحية الأخرى يطوف حول الكعبة، وهو واقف عليه كلما فرغ من جدار نقله إلى الناحية التي تليها، وهكذا حتى تم جدران الكعبة كما سيأتي بيانه في قصة إبراهيم وإسماعيل في بناء البيت من رواية ابن عباس عند البخاري، وكانت آثار قدميه ظاهرة فيه، ولم يزل هذا معروفاً تعرفه العرب في جاهليتها، ولهذا قال أبو طالب في قصidته المعروفة اللامية: [الطويل]

ومنوطى إبراهيم في الصخر رطبة      على قدميه حافيًّا غير ناعل

وقد أدرك المسلمين ذلك فيه كما قال عبد الله بن وهب: أخبرني يونس بن يزيد عن ابن

(١) أي اسكت.

(٢) تفسير الطبرى ٥٨٦/١.

(٣) صحيح مسلم (حج حديث ١٤٧).

شهاب : أن أنس بن مالك حدثهم ، قال : رأيت المقام فيه أصابعه عليه السلام وأخموس قدميه ، غير أنه أذهب مسح الناس بأيديهم .

وقال ابن جرير<sup>(١)</sup> : حدثنا بشر بن معاذ أخبرنا يزيد بن زريع ، أخبرنا سعيد عن قتادة « واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى » إنما أمروا أن يصلوا عنده ولم يؤمنوا بمسحة . وقد تكلفت هذه الأمة شيئاً ما تكلفته الأمم قبلها ، ولقد ذكر لنا من رأى ثُر عقبه وأصابعه فيه فما زالت هذه الأمة يمسحونه حتى أخلو لق وانمحى .

(قلت) وقد كان هذا المقام ملصقاً بجدار الكعبة قدماً ومكانه معروف اليوم إلى جانب الباب مما يلي الحجر يمتهن الداخل من الباب في البقعة المستقلة هناك ، وكان الخليل عليه السلام لما فرغ من بناء البيت وضعه إلى جدار الكعبة أو أنه انتهى عنده البناء فتركه هناك ولهذا ، والله أعلم ، أمر بالصلاحة هناك عند الفراغ من الطواف ، وناسب أن يكون عند مقام إبراهيم حيث انتهى بناء الكعبة فيه ، وإنما أخرى عن جدار الكعبة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أحد الأئمة المهديين والخلفاء الراشدين الذين أمرنا باتباعهم ، وهو أحد الرجالين اللذين قال فيهما رسول الله ﷺ « اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر » وهو الذي نزل القرآن بوفاته في الصلاة عنده ، ولهذا لم يذكر ذلك أحد من أصحابه رضي الله عنهم أجمعين .

قال عبد الرزاق عن ابن جريج : حدثني عطاء وغيره من أصحابنا ، قال : أول ما نقله عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وقال عبد الرزاق أيضاً عن معمر ، عن حميد الأعرج ، عن مجاهد ، قال : أول من أخر المقام إلى موضعه الآن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وقال الحافظ أبو بكر أحمد بن علي بن الحسين البهقي : أخبرنا أبو الحسين بن الفضيل القطان ، أخبرنا القاضي أبو بكر أحمد بن كامل ، حدثنا أبو إسماعيل محمد بن إسماعيل السلمي ، حدثنا أبو ثابت ، حدثنا الدراوردي عن هشام بن عمرو ، عن أبيه ، عن عائشة رضي الله عنها : أن المقام كان زمان رسول الله ﷺ ، وزمان أبي بكر رضي الله عنه ، ملتصقاً بالبيت ، ثم أخره عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وهذا إسناد صحيح مع ما تقدم . وقال ابن أبي حاتم : أخبرنا أبي أخبرنا ابن أبي عمر العدني قال : قال سفيان ، يعني ابن عيينة وهو إمام المكينين في زمانه : كان المقام من سبع البيت على عهد رسول الله ﷺ ، فحوله عمر إلى مكانه بعد النبي ﷺ وبعد قوله « واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى » قال : ذهب السيل به بعد تحويل عمر إياه من موضعه هذا ، فرده عمر إليه . وقال سفيان : لا أدرى كم بينه وبين الكعبة قبل تحويله ، وقال سفيان لا أدرى أكان لاصقاً بها أم لا ؟ فهذه الآثار متعارضة على ما ذكرناه ، والله عالم .

وقد قال الحافظ أبو بكر بن مردويه : أخبرنا ابن عمر وهو أحمد بن محمد بن حكيم ، أخبرنا محمد بن عبد الوهاب بن أبي تمام ، أخبرنا آدم هو ابن أبي إياس في تفسيره ، أخبرنا شريك عن

إبراهيم بن المهاجر عن مجاهد، قال: قال عمر بن الخطاب: يا رسول الله لو صلينا خلف المقام، فأنزل الله ﴿وَاتخذوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مَصْلِي﴾ فكان المقام عند البيت، فحوله رسول الله ﷺ على موضعه هذا. قال مجاهد: وكان عمر يرى الرأي فينزل به القرآن. هذا مرسل عن مجاهد، وهو مخالف لما تقدم من رواية عبد الرزاق عن معمر، عن حميد الأعرج، عن مجاهد: أن أول من أخر المقام إلى موضعه الآن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهذا أصح من طريق ابن مردويه مع اعتراضه هذا بما تقدم، والله أعلم.

وَعَهَدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهَرَا بَيْتَ لِلطَّائِفَيْنَ وَالْعَاكِفَيْنَ وَالرُّكْعَ وَالسُّجُودُ ﴿٢١﴾ وَلَدَّ قَالَ إِبْرَاهِيمُ  
رَبِّي أَجْعَلْ هَذَا بَلَدًا أَمِنًا وَرَزِقْ أَهْلَهُمْ مِنَ الْثَّمَرَاتِ مَنْ أَمِنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَأَيْمَوْمُ الْآخِرِ ﴿٢٢﴾ قَالَ وَمَنْ كَفَرْ فَأُمْتَعِهُ قَلِيلًا ثُمَّ  
أَضْطَرْهُ إِلَى عَذَابِ الْأَنَارِ وَئِسَّ الْمَصِيرِ ﴿٢٣﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقْبَلَ مِنَّا  
إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٤﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمَنْ دُرِّيَّتْنَا أَمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتَبْ  
عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْمَوَابُ الرَّحِيمُ ﴿٢٥﴾

قال الحسن البصري: قوله ﴿وَعَهَدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيل﴾ قال: أمرهما الله أن يطهراه من الأذى والنجس، ولا يصييه من ذلك شيء، وقال ابن جريج: قلت لعطاء: ما عهده؟ قال: أمره. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ﴿وَعَهَدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيم﴾ أي أمرناه كذا، قال: والظاهر أن هذا الحرف إنما عدى بالي لأنه في معنى تقدمنا وأوحينا، وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس قوله ﴿أَنْ طَهَرَا بَيْتَ لِلطَّائِفَيْنَ وَالْعَاكِفَيْنَ﴾ قال: من الأوثان، وقال مجاهد وسعيد بن جبير ﴿طَهَرَا بَيْتَ لِلطَّائِفَيْنَ﴾ أن ذلك من الأوثان والرفث وقول الزور والرجس. قال ابن أبي حاتم، وروي عن عبيد بن عمير وأبي العالية وسعيد بن جبير ومجاهد وعطاء وقتادة ﴿أَنْ طَهَرَا بَيْتَ﴾ أي بلا إلا الله من الشرك.

وأما قوله تعالى: ﴿لِلطَّائِفَيْنَ﴾ فالطواف بالبيت معروف وعن سعيد بن جبير أنه قال في قوله تعالى ﴿لِلطَّائِفَيْنَ﴾ يعني من أتاه من غربة ﴿وَالْعَاكِفَيْنَ﴾ المقيمين فيه، وهكذا روي عن قنادة والربيع بن أنس، أنهما فسرا العاكفين بأهله المقيمين فيه، كما قال سعيد بن جبير، وقال يحيى القطان عن عبد الملك هو ابن أبي سليمان، عن عطاء في قوله ﴿وَالْعَاكِفَيْنَ﴾ قال: من انتابه من الأمصار فأقام عنده وقال لنا ونحن مجاورون أنت من العاكفين، وقال وكيع عن أبي بكر الهمذلي، عن عطاء، عن ابن عباس، قال: إذا كان جالساً فهو من العاكفين، وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا أبي، أخبرنا موسى بن إسماعيل، أخبرنا حماد بن سلمة، أخبرنا ثابت، قال: قلنا لعبد الله بن عبيد بن عمير: ما أراني إلا مكلم الأمير أن أمنع الذين ينامون في المسجد الحرام، فإنهم يتجنبون ويحدثون. قال: لا تفعل، فإن ابن عمر سئل عنهم فقال: هم العاكفون. ورواه عبد بن حميد عن سليمان بن حرب عن حماد بن سلمة به.

(قلت) وقد ثبت في الصحيح أن ابن عمر كان ينام في مسجد الرسول ﷺ وهو عزب، وأما قوله تعالى: ﴿والرَّكُوعُ السَّجُودُ﴾ فقال وكيع عن أبي بكر الهمذاني، عن عطاء عن ابن عباس: والرَّكُوعُ السَّجُودُ، قال: إِذَا كَانَ مَصْلِيًّا فَهُوَ مِنَ الرَّكُوعِ السَّجُودِ، وكذا قال عطاء وقتادة.

قال ابن جرير<sup>(١)</sup> رحمه الله: فمعنى الآية، وأمرنا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ بِتَطْهِيرِ بَيْتِ الْمَطَافِينَ، والتطهير الذي أمرهما الله به في البيت هو تطهيره من الأصنام وعبادة الأولئك فيه ومن الشرك، ثم أورد سؤالاً فقال: فإن قيل: فهل كان قبل بناء إِبْرَاهِيمَ عند البيت شيء من ذلك الذي أمر بتطهيره منه؟ وأجاب بوجهين: [أَحَدُهُمَا] أنه أمرهما بتطهيره مما كان يعبد عنده زمان قوم نوح من الأصنام والأوثان، ليكون ذلك سنة لمن بعدهما، إذ كان الله تعالى قد جعل إِبْرَاهِيمَ إِماماً يقتدى به، كما قال عبد الرحمن بن زيد ﴿أَنْ طَهَرَا بَيْتِي﴾ قال: من الأصنام التي يعبدون، التي كان المشركون يعظمونها (قلت) وهذا الجواب مفزع على أنه كان يعبد عنده أصنام قبل إِبْرَاهِيمَ عليه السلام، ويحتاج إثبات هذا إلى دليل عن المعصوم محمد ﷺ. [الجواب الثاني] أنه أمرهما أن يخلصا بناءه لله وحده لا شريك له، فيبنياه مطهراً من الشرك والريب، كما قال جل ثناؤه: ﴿أَنْسِنْ بَنِيَّهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانَ خَيْرَ أَمْ مِنْ أَنْسِنْ بَنِيَّهُ عَلَى شَفَاعَةِ حَارِ﴾ [التوبية: ١٠٩] قال: فكذلك قوله: ﴿وَعَهَدْنَا إِلَيْكُمْ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهَرَا بَيْتِي﴾ أي ابنياه على طهر من الشرك بي والريب، كما قال السدي ﴿أَنْ طَهَرَا بَيْتِي﴾ ابنيا بيتي للطائفين، وملخص هذا الجواب أن الله تعالى أمر إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ عليهما السلام أن يبنوا الكعبة على اسمه وحده لا شريك له للطائفين به، والعاكفين عنده، والمصلين إليه من الرَّكُوعُ السَّجُودُ، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ بُوأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئاً وَطَهَرْ بَيْتِي لِلْمَطَافِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرَّكُوعُ السَّجُودُ﴾ [الحج: ٢٦].

وقد اختلف الفقهاء أيهما أفضل الصلاة عند البيت أو الطواف به؟ فقال مالك رحمه الله، الطواف به لأهل الأمصار أفضل. وقال الجمهور: الصلاة أفضل مطلقاً، وتوجيه كل منهما يذكر في كتاب الأحكام، والمراد من ذلك الرد على المشركين الذين كانوا يشركون بالله عند بيته المؤسس على عبادته وحده لا شريك له، ثم مع ذلك يصدون أهله المؤمنين عنه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرامِ الَّذِي جَعَلْنَا لِلنَّاسِ سَوَاءَ الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يَرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بَظْلَمَ نَذْقَهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥] ثم ذكر أن البيت إنما أنسى لمن يعبد الله وحده لا شريك له إما بطواف أو صلاة، فذكر في سورة الحج أجزاءها الثلاثة: قيامها وركوعها وسجودها، ولم يذكر العاكفين لأنه تقدم ﴿سَوَاءَ الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ وفي هذه الآية الكريمة ذكر الطائفين والعاكفين، واكتفى بذلك الركوع والسجود عن القيام، لأنه قد علم أنه لا يكون ركوع ولا سجود إلا بعد قيام، وفي ذلك أيضاً رد على من لا يحتجه من أهل

الكتابين اليهود والنصارى، لأنهم يعتقدون فضيلة إبراهيم الخليل وعظمته، ويعلمون أنه بنى هذا البيت للطواف في الحج والعمرة وغير ذلك وللإعتكاف والصلة عنده، وهم لا يفعلون شيئاً من ذلك، فكيف يكونون مقتدين بالخليل وهم لا يفعلون ما شرع الله له؟ وقد حج النبي موسى بن عمران وغيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، كما أخبر بذلك المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى **«إن هو إلا وحي يوحى»** [النجم: ٤].

وتقدير الكلام إذا **«وعهدنا إلى إبراهيم»** أي تقدمنا بـوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل **«أن طهرا بيته للطائفين والعاكفين والركع السجود»** أي طهرا من الشرك والريب، وابنياه خالصاً لله معقلاً للطائفين والعاكفين والركع السجود، وتطهير المساجد مأخوذه من هذه الآية الكريمة، ومن قوله تعالى: **«في بيوت أذن الله أن ترفع ويدرك فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال»** [النور: ٣٦] ومن السنة من أحاديث كثيرة من الأمر بتطهيرها وتطهيرها وغير ذلك من صيانتها من الأذى والتجلبات وما أشبه ذلك. ولهذا قال عليه السلام **«إنما بنت المساجد لما بنيت له»** وقد جمعت في ذلك جزاء على حدة، والله الحمد والمنة. وقد اختلف الناس في أول من بنى الكعبة، فقيل: الملائكة قبل آدم، روي هذا عن أبي جعفر الباقر محمد بن علي بن الحسين، ذكره القرطبي<sup>(١)</sup> وحكي لفظه، وفيه غرابة، وقيل: آدم عليه السلام، رواه عبد الرزاق عن ابن جريج، عن عطاء وسعيد بن المسيب وغيرهم: أن آدم بناه من خمسة أجيال: من حراء وطور سيناء وطور زيتا وجبل لبنان والجودي، وهذا غريب أيضاً. روي عن ابن عباس وكتب الأخبار وقادة وعن وهب بن منبه: أن أول من بنى شيش عليه السلام، وغالب من يذكر هذه إنما يأخذ من كتب أهل الكتاب، وهي مما لا يصدق ولا يكذب ولا يعتمد عليها بمجردتها، وأما إذا صع حديث في ذلك فعلى الرأس والعين.

وقوله تعالى: **«وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدًا آمنًا وارزق أهله من الشمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر»** قال الإمام أبو جعفر بن جرير<sup>(٢)</sup>: أخبرنا ابن بشار قال: أخبرنا عبد الرحمن بن مهدي، أخبرنا سفيان عن أبي الزبير، عن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن إبراهيم حرم بيت الله وأمنه، وإنني حرمت المدينة ما بين لابتها فلا يصاد صيدها ولا يقطع عصاها»**<sup>(٣)</sup> وهكذا رواه النسائي عن محمد بن بن شار، عن بن دار به، وأخرجه مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة وعمرو بن الناقد كلامهما عن أبي أحمد الزبيري عن سفيان الثوري. وقال ابن جرير<sup>(٤)</sup> أيضاً: أخبرنا أبو كريب وأبو السائب، قالا: حدثنا ابن إدريس،

(١) تفسير القرطبي ١٢٠ / ٢ والذى ذكره القرطبي هو رواية عن جعفر الصادق ابن محمد الباقر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب.

(٢) تفسير الطبرى ١ / ٥٩١.

(٣) الالبة: هي الأرض ذات الحجارة السوداء. والعضاء: شجر عظيم له شوك.

وأخبرنا أبو كريب، أخبرنا عبد الرحيم الرازي، قالا جمِيعاً: سمعنا أشعث عن نافع، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن إبراهيم كان عبد الله وخليله، وإنى عبد الله ورسوله، وإن إبراهيم حرم مكة، وإنى حرمت المدينة ما بين لابتيها: عصاها وصيدها، لا يحمل فيها سلاح لقتال، ولا يقطع منها شجرة إلا لعلف بغيره».

وهذه الطريقة غريبة ليست في شيء من الكتب الستة، وأصل الحديث في صحيح مسلم<sup>(١)</sup> من وجه آخر عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: كان الناس إذا رأوا أول الثمر، جاؤوا به إلى رسول الله ﷺ، فإذا أخذه رسول الله ﷺ قال: «اللهم بارك لنا في ثمننا، وبارك لنا في مدینتنا، وبارك لنا في صاعنا، وبارك لنا في مدننا، اللهم إن إبراهيم عبدك وخليلك ونبيك، وإنى عبدك ونبيك، وإن دعاك لمكة، وإنني أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك لمكة، ومثله معه» ثم يدعوه أصغر ولد له فيعطيه ذلك الثمر وفي لفظ «بركة مع بركة» ثم يعطيه أصغر من يحضره من الولدان - لفظ مسلم.

ثم قال ابن جرير<sup>(٢)</sup>: حدثنا أبو كريب، حدثنا قتيبة بن سعيد، أخبرنا بكر بن مضر عن ابن الهاد، عن أبي بكر بن محمد، عن عبد الله بن عمرو بن عثمان، عن رافع بن خديج، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن إبراهيم حرم مكة، وإنى أحروم ما بين لابتيها» إنفرد بإخراجه مسلم، فرواه عن قتيبة عن بكر بن مضر به، ولفظه كلفظه سواء.

وفي الصحيحين عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ لأبي طلحة: «التمس لي غالماً من غلمانكم يخدموني» فخرج بي أبو طلحة يرددني وراءه، فكنت أخدم رسول الله ﷺ كلما نزل، وقال في الحديث: ثم أقبل حتى إذا بدا له أحد قال: «هذا جبل يحبنا ونحبه» فلما أشرف على المدينة قال: «اللهم إني أحروم ما بين جبليها مثلما حرم به إبراهيم مكة، اللهم بارك لهم في مدهم وصاعهم» وفي لفظ لهما «اللهم بارك لهم في مكياهم، وبارك لهم في صاعهم، وبارك لهم في مدهم» زاد البخاري يعني أهل المدينة<sup>(٣)</sup>.

ولهما أيضاً عن أنس أن رسول الله ﷺ، قال: «اللهم اجعل بالمدينة ضعفي ما جعلته بمكة من البركة».

وعن عبد الله بن زيد بن عاصم رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «إن إبراهيم حرم مكة ودعا لها، وحرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة، ودعوت لها في مدها وصاعها مثل ما دعا إبراهيم لمكة» رواه البخاري وهذا لفظه، ومسلم ولفظه: أن رسول الله ﷺ، قال: «إن إبراهيم حرم مكة ودعا لأهلها، وإنى حرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة، وإنى دعوت لها في صاعها ومدها بممثل ما دعا به إبراهيم لأهل مكة».

(١) صحيح مسلم (حج حديث ٤٧٣).

(٢) تفسير الطبرى ٥٩٢ / ١.

(٣) صحيح البخاري (جهاد باب ٧٤) وصحيح مسلم (حج حديث ٤٤٥).

وعن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ، قال: «اللهم إن إبراهيم حرم مكة فجعلها حراماً، وإنى حرمت المدينة حراماً ما بين مازمها<sup>(١)</sup>، أن لا يهراق فيها دم ولا يحمل فيها سلاح لقتال، ولا يخبط فيها شجرة إلا لعلف، اللهم بارك لنا في مدینتنا، اللهم بارك لنا في صاعنا، اللهم بارك لنا في مدننا، اللهم أجعل مع البركة بركتين» الحديث، رواه مسلم.

والأحاديث في تحريم المدينة كثيرة، وإنما أوردنا منها ما هو متعلق بتحريم إبراهيم عليه السلام لمكة، لما في ذلك من مطابقة الآية الكريمة. وتمسك بها من ذهب إلى أن تحريم مكة إنما كان على لسان إبراهيم الخليل، وقيل: إنها محمرة منذ خلقت مع الأرض، وهذا أظهر وأقوى، والله يعلم.

وقد وردت أحاديث أخرى تدل على أن الله تعالى حرم مكة قبل خلق السموات والأرض كما جاء في الصحيحين عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهم، قال: قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة «إن هذا البلد حرمته الله يوم خلق السموات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيمة، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحلّ لي إلا ساعة من نهار فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيمة لا يعهد شوكه، ولا ينفر صيده، ولا يلتقط لقطته إلا من عرّفها ولا يختلى خلاها»<sup>(٢)</sup> فقال العباس: يا رسول الله: «إلا الإذخر»<sup>(٣)</sup>، فإنه لقينهم ولبيوتهم، فقال: «إلا الإذخر» وهذا لفظ مسلم، ولهمما عن أبي هريرة نحو من ذلك، ثم قال البخاري بعد ذلك: وقال أبوان بن صالح، عن الحسن بن مسلم، عن صفية بنت شيبة: سمعت النبي ﷺ مثله، وهذا الذي علقه البخاري رواه الإمام أبو عبد الله بن ماجه عن محمد بن عبد الله بن نمير، عن يونس بن بكير، عن محمد بن إسحاق، عن أبوان بن صالح، عن الحسن بن مسلم بن ينافق، عن صفية بنت شيبة، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يخطب عام الفتح، فقال: «يا أيها الناس، إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض، فهي حرام إلى يوم القيمة لا يعهد شجرها، ولا ينفر صيدها، ولا يأخذ لقطتها إلا منشد» فقال العباس: «إلا الإذخر، فإنه للبيوت والقبور»، فقال رسول الله ﷺ: «إلا الإذخر» وعن أبي شريح العدوبي أنه قال لعمرو بن سعيد وهو يبعث البعوث إلى مكة: إذن لي أيها الأمير أن أحادثك قولهً قولاً قام به رسول الله ﷺ الغد من يوم الفتح، سمعته أذناني، ووعاه قلبي، وأبصرته عيناي حين تكلم به - إنه حمد الله وأثنى عليه ثم قال: «إن مكة حرمها الله ولم يحررها الناس، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً، ولا يعهد بها شجرة، فإن أحد ترخص بقتال رسول الله ﷺ فقولوا: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم». وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد الغائب» فقيل لأبي

(١) المازم: الطريق الضيق بين جبلين.

(٢) الخلا: النبات الرطب. لا يختلى: لا يقطع.

(٣) الإذخر: حشيشة طيبة الرائحة تُسقَّف بها البيوت فوق الخشب.

شريح: ما قال لك عمرو؟ قال: أنا أعلم بذلك منك يا أبي شريح، إن الحرم لا يعذ عاصياً ولا فاراً بدم ولا فاراً بخربة، رواه البخاري ومسلم وهذا لفظه.

فإذا علم هذا فلا منافاة بين هذه الأحاديث الدالة على أن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض، وبين الأحاديث الدالة على أن إبراهيم عليه السلام حرمها، لأن إبراهيم بلغ عن الله حكمه فيها وتحريمها إليها وأنها لم تزل بلداً حراماً عند الله قبل بناء إبراهيم عليه السلام لها، كما أنه قد كان رسول الله ﷺ مكتوباً عند الله خاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طيته، ومع هذا قال إبراهيم عليه السلام «ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم» [البقرة: ١٢٩]، وقد أجاب الله دعاءه بما سبق في علمه وقدره. ولهذا جاء في الحديث أنهم قالوا: يا رسول الله، أخبرنا عن بدء أمرك. فقال: «دعاة أبي إبراهيم عليه السلام، وبشرى عيسى ابن مريم، ورأت أمي كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام» أي أخبرنا عن بدء ظهور أمرك، كما سيأتي قريباً إن شاء الله.

وأما مسألة تفضيل مكة على المدينة كما هو قول الجمهور، أو المدينة على مكة كما هو مذهب مالك وأتباعه، فلتذكر في موضع آخر بأدلة إن شاء الله وبه الثقة. وقوله تعالى إخباراً عن الخليل أنه قال: «رب اجعل هذا بلداً آمناً» أي من الخوف أي لا يرعب أهله، وقد فعل الله ذلك شرعاً وقدراً، كقوله تعالى: «ومن دخله كان آمناً» [آل عمران: ٩٧] وقوله: «أو لم يروا أنا جعلنا حرمآً آمناً ويختطف الناس من حولهم» [العنكبوت: ٦٧] إلى غير ذلك من الآيات، وقد تقدمت الأحاديث في تحريم القتال فيه. وفي صحيح مسلم<sup>(١)</sup> عن جابر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يحل لأحد أن يحمل بمكة السلاح» وقال في هذه السورة «رب اجعل هذا بلداً آمناً» أي اجعل هذه البقعة بلداً آمناً وناسب هذا لأنه قبل بناء الكعبة. وقال تعالى في سورة إبراهيم: «إذا قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً» [البقرة: ١٢٦] وناسب هذا هناك لأنه، والله أعلم، كأنه وقع دعاء مرة ثانية بعد بناء البيت واستقرار أهله به، وبعد مولد إسحاق الذي هو أصغر سنًا من إسماعيل بثلاث عشرة سنة، ولهذا قال في آخر الدعاء «الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق، إن ربي لسميع الدعاء» [إبراهيم: ٣٩].

وقوله تعالى: «وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله وانيوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير» قال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي بن كعب «قال ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير» قال: هو قول الله تعالى، وهذا قول مجاهد وعكرمة، وهو الذي صوبه ابن جرير<sup>(٢)</sup> رحمه الله. قال: وقرأ آخرون: «قال ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير»

(١) صحيح مسلم (حج حديث ٤٤٩).

(٢) تفسير الطبرى / ١٥٩٤. قال: والصواب عندنا ما قاله أبي بن كعب وقراءته. والمراد بقراءة أبي: أُمّتعه، بشديد التاء ورفع العين.

فجعلوا ذلك من تمام دعاء<sup>(١)</sup> إبراهيم، كما رواه أبو جعفر عن أبي العالية قال: كان ابن عباس يقول ذلك قول إبراهيم، يسأل ربه أن من كفر فأمته قليلاً.

وقال أبو جعفر عن ليث بن أبي سليم عن مجاهد «ومن كفر فأمته قليلاً» يقول، ومن كفر فأرزرقه قليلاً أيضاً «ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير».

قال محمد بن إسحاق: لما عزل إبراهيم الدعوة أبي الله أن يجعل له الولاية - انقطاعاً إلى الله ومحبته، وفراقاً لمن خالف أمره وإن كانوا من ذريته، حين عرف أنه كائن منهم ظالم لا يناله عهده بخبر الله له بذلك، قال الله تعالى: ومن كفر فإني أرزرق البر والفاجر وأمته قليلاً.

وقال حاتم بن إسماعيل عن حميد الخراط، عن عمار الذهني، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس في قوله تعالى: «رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله وانتي يوم الآخر» قال ابن عباس: كان إبراهيم يحرجها على المؤمنين دون الناس فأنزل الله: ومن كفر أيضاً أرزرقهم كما أرزرق المؤمنين، أخلق خلقاً لا أرزرقهم؟ أمتهם قليلاً ثم أضطرهم إلى عذاب النار وبئس المصير، ثم قرأ ابن عباس «كلاند هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربكم وما كان عطاء ربكم محظوراً» [الإسراء: ٢٠] رواه ابن مردوية، وروي عن عكرمة وممجاد نحو ذلك أيضاً.

وهذا كقوله تعالى: «إن الذين يفتررون على الله الكذب لا يفلحون متعة في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون» [يونس: ٧٠] وقوله تعالى: «ومن كفر فلا يحزنك كفره إلينا مرجعهم فتبّئهم بما عملوا إن الله عليم بذات الصدور \* نمتهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ» [لئمان: ٢٤ - ٢٣] وقوله: «ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون \* ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتکونون \* وزخرفاً وإن كل ذلك لِمَا متعة الحياة الدنيا والآخرة عند ربكم للمتقين» [الزخرف: ٣٣ - ٣٤ - ٣٥].

وقوله: «ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير» أي ثم أجهه بعد متاعه في الدنيا وبسطنا عليه من ظلها إلى عذاب النار وبئس المصير، ومعناه أن الله تعالى ينظرهم ويهملهم ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر كقوله تعالى: «وَكَأْنَ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخْذَتْهَا إِلَيَّ الْمَصِيرِ» [الحج: ٤٨] وفي الصحيحين «لأحد أصبر على أذى سمعه من الله إنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم» وفي الصحيح أيضاً «إِنَّ اللَّهَ لِيُمْلِي لِلظَّالَمِ حَتَّى إِذَا أَخْذَهُ لَمْ يَفْلِهِ» ثم قرأ قوله تعالى: «وَكَذَلِكَ أَخْذَ رَبِّكَ إِذَا أَخْذَ الْقَرْيَةَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ» [هود: ١٠٢] وقرأ بعضهم «قال ومن كفر فأمته قليلاً» الآية، جعله من تمام دعاء إبراهيم وهي قراءة شادة مخالفة

(١) أي قراءة «وأمته» بتخفيف التاء المكسورة وجزم العين، بصيغة الطلب. وكذلك «ثم أضطره» على سبيل الطلب.

للقراء السبعة، وتركيب السياق يأبى معناها، والله أعلم، فإن الضمير في قال: راجع إلى الله تعالى في قراءة الجمهور، والسياق يقتضيه، وعلى هذه القراءة الشاذة يكون الضمير في قال عائداً على إبراهيم، وهذا خلاف نظم الكلام، والله سبحانه هو العلام.

وأما قوله تعالى: «إِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمَ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلَ رَبَّنَا تَقْبِلُ مَنِ إِنْكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمّة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم» فالقواعد جمع قاعدة وهي السارية والأساس، يقول تعالى: واذكر يا محمد لقومك بناء إبراهيم وإسماعيل عليهم السلام البيت ورفعهما القواعد منه، وهما يقولان «ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم» وحكي القرطبي<sup>(١)</sup> وغيره عن أبي وابن مسعود أنهم كانا يقرآن «إِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمَ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلَ رَبَّنَا تَقْبِلُ مَنِ إِنْكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ»، (قلت) ويدل على هذا قولهما بعده «ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمّة مسلمة لك» الآية، فهما في عمل صالح، وهما يسألان الله تعالى أن يتقبل منهما، كما روى ابن أبي حاتم من حديث محمد بن يزيد بن خنيس المكي عن وهيب بن الورد أنه قرأ «إِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمَ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلَ رَبَّنَا تَقْبِلُ مَنِ إِنْكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» ثم يبكي ويقول: يا خليل الرحمن ترفع قوائم بيت الرحمن وأنت مشفع أن لا يتقبل منك. وهذا كما حكى الله تعالى عن حال المؤمنين الخلص في قوله «وَالَّذِينَ يَؤْتُونَ مَا آتُوا» [المؤمنون: ٦٠] أي يعطون ما أعطوا من الصدقات والنفقات والقربات «وَقُلُوبُهُمْ وَجْلَهُ» [المؤمنون: ٦٠] أي خائفة أن لا يتقبل منهم، كما جاء به الحديث الصحيح عن عائشة عن رسول الله ﷺ كما سيأتي في موضعه.

وقال بعض المفسرين: الذي كان يرفع القواعد هو إبراهيم والداعي إسماعيل، وال الصحيح أنهم كانوا يرفعان ويقولان كما سيأتي بيانه.

وقد روى البخاري ه هنا حديثا سنورده ثم نتبعه بآثار متعلقة بذلك، قال البخاري<sup>(٢)</sup> رحمه الله حدثنا عبد الله بن محمد، أخبرنا عبد الرزاق أخبرنا عمر عن أيوب السختياني وكثير بن كثير بن المطلب بن أبي وداعة - يزيد أحدهما على الآخر - عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل اتخذت منطقاً ليقعى أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم وبابها إسماعيل وهي ترضعه، حتى وضعها عند البيت عند دوحة فوق زمم في أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، فوضعهما هنالك ووضع عندهما جراباً فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ثم قفا إبراهيم منطقاً فتبعته أم إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي ليس فيه أنسين؟ ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت: الله أمرك بهذا؟ قال: نعم: قالت: إذا لا يضيعنا. ثم رجعت. فانطلق إبراهيم

(١) تفسير القرطبي ١٢٦/٢.

(٢) صحيح البخاري (أبياء باب ٩). ورواه أيضا الإمام أحمد في مسنده (ج ١ ص ٣٤٧).

حتى إذا كان عند الثانية حيث لا يرونها استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهذه الدعوات ورفع يديه، فقال «ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم» حتى بلغ «يشكرن» [إبراهيم : ٣٧] وجعلت أم إسماعيل ترتفع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفذ ما في السقاء عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر إليه يتلوى - أو قال: يتلبط<sup>(١)</sup> - فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض إليها، فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً، فلم تر أحداً، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي: رفعت طرف درعها ثم سمعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروء فقامت عليها فنظرت هل ترى أحداً، فلم تر أحداً، ففعلت ذلك سبع مرات، قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «فلذلك سمع الناس بينهم» فلما أشرفت على المروء سمعت صوتاً فقالت «صه» - ت يريد نفسها - ثم سمعت فسمعت أيضاً، فقالت: قد سمعت إن كان عندك غواص فإذا هي بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه، أو قال: بحناحه، حتى ظهر الماء، فجعلت تحوّضه<sup>(٢)</sup> وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعد ما تغرف، قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم - أو قال: لو لم تعرف من الماء - وكانت زمزم عيناً معيناً»<sup>(٣)</sup> قال: فشربت وأرضعت ولدتها، فقال لها الملك: لا تخافي الضيعة، فإن هئنا بيتاً لله يبنيه هذا الغلام وأبوه وإن الله لا يضيع أهله، وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرایة تأتيه السیول فتأخذ عن يمينه وشماله، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفة من جرهم أو أهل بيته من جرمهم مقبليين من طريق كداء، فنزلوا في أسفل مكة، فرأوا طائراً عافاً<sup>(٤)</sup>، فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماء، لعهداً بها الوادي وما فيه ماء، فأرسلوا جريأاً أو جريين<sup>(٥)</sup>، فإذا هم بالماء فرجعوا فأخبروهم بالماء، فأقبلوا، قال: وأم إسماعيل عند الماء، فقالوا أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ قالت: نعم، ولكن لا حق لكم في الماء عندنا، قالوا: نعم، قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «فألفي ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأنس» فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم، حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم، وشب الغلام وتعلم العربية منهم، وأنفسهم<sup>(٦)</sup> وأعجبهم حين شب، فلما أدرك زوجه امرأة منهم، وماتت أم إسماعيل فجاء إبراهيم عندما تزوج إسماعيل ليطالع تركته<sup>(٧)</sup> فلم يوجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه فقالت: خرج يتغى لنا، ثم سألها عن عيشهم وهبتهم، فقالت:

(١) أي يتمئن.

(٢) أي يجعل له حوضاً يجتمع فيه الماء.

(٣) قوله: «يرحم الله أم إسماعيل... عيناً معيناً» منسوب في المسند إلى ابن عباس لا إلى النبي ﷺ.

(٤) عاف الطائر: دار حول الشيء يريد الوقوع عليه.

(٥) أي رسولاً أو رسولين.

(٦) أنفسهم وأعجبهم بمعنى.

(٧) أي زوجته وابنته، لما تركهما بمكة.

نحن بشر، نحن في ضيق وشدة، فشككت إليه، قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام، وقولي له يغیر عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل، كأنه أنس شيئاً، فقال: هل جاءكم من أحد؟ قالت: نعم، جاءنا شيخ كذا وكذا، فسألنا عنك فأخبرته، وسألني كيف عيشنا؟ فأخبرته أنا في جهد وشدة، قال: فهل أوصاك بشيء؟ قالت: نعم، أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول غير عتبة بابك، قال: ذاك أبي وقد أمرني أن أفارقك، فالحقى بأهلك، وطلقها وتزوج منهم بأخرى، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ثم أتاهم بعد، فلم يجده، فدخل على امرأته فسألها عنه، فقالت: خرج يتغنى لنا، قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهبتهم، فقالت: نحن بخير وسعة، وأثنت على الله عز وجل، قال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم، قال: مما شرابكم؟ قالت: الماء. قال: اللهم بارك لهم في اللحم والماء، قال النبي ﷺ: «ولم يكن لهم يوماً حب ولو كان لهم لدعا لهم فيه» قال: فهما لا يخلو<sup>(١)</sup> عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه، قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ومريه ثبت عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم، أتانا شيخ حسن الهيئة، وأثنت عليه، فسألني عنك فأخبرته، فسألني كيف عيشنا؟ فأخبرته أنا بخير، قال: فأوصاك بشيء؟ قالت: نعم، وهو يقرأ عليك السلام، ويأمرك أن تثبت عتبة بابك، قال: ذاك أبي وأنت العتبة، أمرني أن أمسكك، ثم لبث عنهم ما شاء الله، ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل ييري نبلاً له تحت دوحة قريباً من زمم، فلما رأه قام إليه، وصنعاً كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد، ثم قال: يا إسماعيل، إن الله أمرني بأمر، قال: فاصنع ما أمرك ربك، قال: وتعيني؟ قال: وأعينك، قال: فإن الله أمرني أن أبني هنا بيتي، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها، قال: فعند ذلك رفعا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له، فقام عليه، وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة، وهو يقولان «ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم»، قال: فجعلوا بينيانت حتى يدورا حول البيت وهو يقولان «ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم»، ورواه عبد بن حميد عن عبد الرزاق به مطولاً، ورواه ابن أبي حاتم عن أبي عبد الله بن حماد الطبراني، وابن جرير عن أحمد بن ثابت الرازي، كلامهما عن عبد الرزاق به مختصرأ.

وقال أبو بكر بن مردوحه: أخبرنا إسماعيل بن علي، أخبرنا بشر بن موسى، أخبرنا أحمد بن محمد الأزرقي، أخبرنا مسلم بن خالد الزنجي عن عبد الملك بن جريج، عن كثير بن كثير، قال: كنت أنا وعثمان بن أبي سليمان وعبد الله بن عبد الرحمن بن أبي حسين في ناس مع سعيد بن جبير في أعلى المسجد ليلاً، فقال سعيد بن جبير: سلوني قبل أن لا تروني، فسألوه عن المقام، فأنشأ يحدثهم عن ابن عباس، فذكر الحديث بطولة.

ثم قال البخاري: حدثنا عبد الله بن محمد، أخبرنا أبو عامر عبد الملك بن عمرو، أخبرنا

(١) خلا على طعام كذا وكذا: اقتصر عليه.

إبراهيم بن نافع عن كثير بن كثير، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهمما قال : لما كان بين إبراهيم وبين أهله ما كان ، خرج بإسماعيل وأم إسماعيل ومعهم شنة<sup>(١)</sup> فيها ماء ، فجعلت أم إسماعيل تشرب من الشنة فيدر لبنيها على صبيها ، حتى قدم مكة ، فوضعهما تحت دوحة ثم رجع إبراهيم إلى أهله ، فاتبعته أم إسماعيل حتى بلغوا كداء<sup>(٢)</sup> ، نادته من ورائه : يا إبراهيم ، إلى من تركنا ؟ قال : إلى الله ، قالت : رضيت بالله قال : فرجعت فجعلت تشرب من الشنة ويدر لبنيها على صبيها ، حتى لما فني الماء قالت : لو ذهبت فنظرت لعلي أحس أحداً ، فصعدت الصفا ، فنظرت هل تحس أحداً ، فلم تحس أحداً فلما بلغت الوادي سمعت حتى أنت المروءة وفعلت ذلك أشواطاً حتى أتمت سبعاً ، ثم قالت : لو ذهبت فنظرت ما فعل الصبي ، فذهبت فنظرت فإذا هو على حاله كأنه ينشع<sup>(٣)</sup> للموت ، فلم تقرها نفسها ، فقالت : لو ذهبت فنظرت لعلي أحس أحداً ، فذهبت فصعدت الصفا ، فنظرت ونظرت هل تحس أحداً فلم تحس ثم قالت : لو ذهبت فنظرت ما فعل ، فإذا هي بصوت فقالت : أغث إن كان عندك خير ، فإذا جبريل عليه السلام ، قال : فقال بعقبه : هكذا ، وغمز عقبه على الأرض ، فانبثق الماء ، فدهشت أم إسماعيل ، فجعلت تحضر ، قال : فقال أبو القاسم عليه السلام : «لو تركته لكان الماء ظاهراً» قال : فجعلت تشرب من الماء ويدر لبنيها على صبيها ، قال : فمر ناس من جرمهم ببطن الوادي ، فإذا هم بطير كأنهم أنكروا ذلك ، وقالوا : ما يكون الطير إلا على ماء فبعثوا رسولهم ، فنظر فإذا هو بالماء ، فأتاهم فأخبرهم ، فأتوا إليها ، فقالوا : يا أم إسماعيل ، أتأذنين لنا أن تكون معك ونسكن معك ؟ بلغ ابنها ونکح منهم امرأة ، قال : ثم إنه بدا لإبراهيم عليه السلام فقال لأهله : إني مطلع تركتي ، قال : فجاء فسلم ، فقال : أين إسماعيل ؟ قالت امرأته : ذهب يصيد ، قال : قوله له إذا جاء : غير عتبة ببابك ، فلما أخبرته ، قال : أنت ذاك فاذهبي إلى أهلك ، قال : ثم إنه بدا لإبراهيم فقال : إني مطلع تركتي ، قال : فجاء فقال : أين إسماعيل ؟ قالت امرأته : ذهب يصيد ، فقالت : ألا تنزل فتطعم وتشرب ؟ فقال ، ما طعامكم ، وما شرابكم ؟ قالت : طاعمنا اللحم ، وشرابنا الماء ، قال : اللهم بارك لهم في طعامهم وشرابهم ، قال : فقال أبو القاسم عليه السلام «بركة بدعة إبراهيم» ، قال : ثم إنه بدا لإبراهيم عليه السلام فقال لأهله : إني مطلع تركتي ، فجاء فوافق إسماعيل من وراء زمزم يصلح نيلاته ، فقال : يا إسماعيل ، إن ربك عز وجل أمرني أن أبيني له بيتأ : فقال : أطع ربك عز وجل ، قال : إنه قد أمرني أن تعيني عليه ، فقال : إذن أفعل - أو كما قال - قال : فقام فجعل إبراهيم يبني وإسماعيل ينالوه الحجارة ، ويقولان ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم قال : حتى ارتفع البناء وضعف الشيخ عن نقل الحجارة ، فقام على حجر المقام فجعل ينالوه

(١) الشنة: القرية.

(٢) كداء: جبل بأعلى مكة.

(٣) ينشع: يشقق.

الحجارة ويقولان ﴿ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾ هكذا رواه من هذين الوجهين في كتاب الأنبياء.

والعجب أن الحافظ أبا عبد الله الحاكم رواه في كتابه المستدرك عن أبي العباس الأصم عن محمد بن سنان القرزا지 عن أبي علي عبيد الله بن عبد المجيد الحنفي عن إبراهيم بن نافع به، وقال، صحيح على شرط الشيفيين ولم يخرجاه كذا قال، وقد رواه البخاري كما ترى من حديث إبراهيم بن نافع، وكأن فيه اختصاراً فإنه لم يذكر فيه شأن الذبح، وقال: جاء في الصحيح أن قرنى الكبش كانا معلقين بالكتيبة، وقد جاء أن إبراهيم عليه السلام كان يزور أهله بمكة على البراق سريعاً ثم يعود إلى أهله بالبلاد المقدسة، والله أعلم، إنما فيه مرفوع أماكن صرح بها ابن عباس عن النبي ﷺ.

وقد ورد عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في هذا السياق ما يخالف بعض هذا، كما قال ابن جرير<sup>(١)</sup>: حدثنا محمد بن بشار ومحمد بن المثنى، قالا: أخبرنا مؤمل، أخبرنا سفيان عن أبي إسحاق، عن حارثة بن مضرب، عن علي بن أبي طالب، قال: لما أمر إبراهيم ببناء البيت خرج معه إسماعيل وهاجر، قال: فلما قدم مكة رأى على رأسه في موضع البيت مثل الغمامات فيه مثل الرأس فكلمه فقال: يا إبراهيم، ابن على ظلي، أو قال: على قدرني، ولا تزد ولا تنقص، فلما بنى خرج وخلف إسماعيل وهاجر، فقالت هاجر: يا إبراهيم، إلى من تكلنا؟ قال: إلى الله، قالت: انطلق فإنه لا يضيعنا، قال: فعطش إسماعيل عطشاً شديداً، قال فصعدت هاجر إلى الصفا، فنظرت فلم تر شيئاً، حتى أتت المروءة فلم تر شيئاً، ثم رجعت إلى الصفا فنظرت فلم تر شيئاً، ففعلت ذلك سبع مرات، فقالت: يا إسماعيل مت حيث لا أراك، فأتته وهو يفحص برجله من العطش، فنادها جبريل فقال لها: من أنت؟ قالت: أنا هاجر أم ولد إبراهيم، قال: فإلى من وكلكما؟ قالت: وكلنا إلى الله، قال: وكلكما إلى كاف، قال: ففحص الغلام الأرض بأصبعه، فنبعث زمزم يجعله تحبس الماء، فقال: دعيه فإنها رواء<sup>(٢)</sup>، وفي هذا السياق أنه بنى البيت قبل أن يفارقهها، وقد يحتمل أنه كان محفوظاً أن يكون أولاً وضع له حوطاً وتحجيراً لا أنه بناه إلى أعلى، حتى كبر إسماعيل فبنياه معاً كما قال الله تعالى.

ثم قال ابن جرير<sup>(١)</sup>: أخبرنا هناد بن السري، حدثنا أبو الأحوص عن سماك عن خالد بن عرعرة: أن رجلاً قام إلى علي رضي الله عنه، فقال: ألا تخبرني عن البيت، فهو أول بيت وضع في الأرض؟ فقال: لا، ولكنه أول بيت وضع في البركة مقام إبراهيم، ومن دخله كان آمناً، وإن شئت أنتأتني كيفبني: إن الله أوحى إلى إبراهيم أن ابن لي بيتاً في الأرض، فضاق إبراهيم بذلك

(١) تفسير الطبراني / ٦٠٠ / ١.

(٢) أي كثيرة الماء.

ذرعاً فأرسل الله السكينة وهي ريح خجوج<sup>(١)</sup> ولها رأسان، فاتبع أحدهما صاحبه حتى انتهت إلى مكة فنطوت على موضع البيت كطي الحجفة<sup>(٢)</sup>، وأمر إبراهيم أن يبني حيث تستقر السكينة، فبني إبراهيم وبقي الحجر فذهب الغلام يبغي شيئاً، فقال إبراهيم: أبغني حجراً كما أمرك، قال: فانطلق الغلام يلتمس له حجراً فأتاها به فوجده قد ركب الحجر الأسود في مكانه، قال: يا أبا من أراك بهذا الحجر؟ قال: أتاني به من لم يتكل على بناته، جاء به جبريل عليه السلام من السماء فأتماه.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرري، أخبرنا سفيان عن بشر بن عاصم، عن سعيد بن المسيب عن كعب الأحبار، قال: كان البيت غثاء<sup>(٣)</sup> على الماء قبل أن يخلق الله الأرض بأربعين عاماً، ومنه دحيت الأرض. قال سعيد: وحدثنا علي بن أبي طالب: أن إبراهيم أقبل من أرض أرمينية ومعه السكينة تدله على تبوء البيت كما تتبوأ العنكبوت بيته، قال: فكشفت عن أحجار لا يطيق الحجر إلا ثلاثون رجلاً، فقلت: يا أبا محمد فإن الله يقول ﴿وَإِذْ يُرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾ [البقرة: ١٢٧] قال: كان ذلك بعد، وقال النبي: إن الله عز وجل أمر إبراهيم أن يبني البيت هو وإسماعيل، ابني بيتي للطائفين والعاكفين والركع والسجود. فانطلق إبراهيم حتى أتى مكة فقام هو وإسماعيل وأخذوا المعاول لا يدريان أين البيت، فبعث الله ريحأ يقال لها الريح الخجوج، لها جناحان ورأس في صورة حية، فكشفت لهما حول الكعبة عن أساس البيت الأول، واتبعها بالمعاول يحرفان حتى وضعا الأساس، فذلك حين يقول تعالى: ﴿وَإِذْ يُرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾، ﴿وَإِذْ بُوأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ فلما بنا القواعد بلغا مكان الركن، قال إبراهيم لإسماعيل: يابني، اطلب لي حجراً حسناً أضعه هنا. قال: يا أبا إني كسلان لغب<sup>(٤)</sup>، قال: على بذلك، فانطلق يطلب له حجراً فجاءه بحجر فلم يرضه فقال: أئنني بحجر أحسن من هذا فانطلق يطلب له حجراً، وجاءه جبريل بالحجر الأسود من الهند، وكان أبيض ياقوته بيضاء مثل الثغامة<sup>(٥)</sup>، وكان آدم هبط به من الجنة فاسود من خطايا الناس، فجاءه إسماعيل بحجر فوجده عند الركن، فقال: يا أبا من جاءك بهذا؟ قال: جاء به من هو أنشط منك، فبينا هما يدعوان الكلمات التي ابتلى إبراهيم ربه، فقال ﴿رَبُّنَا تَقْبِلُ مِنَ إِنْكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

وفي هذا السياق ما يدل على أن قواعد البيت كانت مبنية قبل إبراهيم، وإنما هدي إبراهيم إليها وبؤء لها، وقد ذهب إلى هذا ذاهبون، كما قال الإمام عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن

(١) ريح خجوج: شديدة ملتوية في هبوبها.

(٢) الحجفة: الترس.

(٣) الغثاء: ما يحتمله السيل.

(٤) لغب: تعب.

(٥) الثغامة: شجرة بيضاء الثمر والزهر، تنبت في قنة الجبل. وإذا يpest اشتداً بياضها.

أيوب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس ﴿وَإِذْ يُرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدُ مِنَ الْبَيْتِ﴾ قال، القواعد التي كانت قواعد البيت قبل ذلك. وقال عبد الرزاق أيضاً: أخبرنا هشام بن حسان عن سوار ختن عطاء، عن عطاء بن أبي رباح، قال: لما أهبط الله آدم من الجنة كانت رجلاه في الأرض ورأسه في السماء، يسمع كلام أهل السماء ودعاؤهم يأنس إليهم، فهابت الملائكة حتى شكت إلى الله في دعائهما وفي صلاتهما، فخفضه الله تعالى إلى الأرض، فلما فقد ما كان يسمع منهم استوحش، حتى شكا ذلك إلى الله في دعائهما وفي صلاتهما، فوجه إلى مكة فكان موضع قدميه قرية، وخطوه مفازة، حتى انتهى إلى مكة وأنزل الله ياقوتة من ياقوتة الجنة، فكانت على موضع البيت الآن، فلم يزل يطوف به حتى أنزل الله الطوفان، فرفعت تلك الياقوتة، حتى بعث الله إبراهيم عليه السلام فبناء، ذلك قول الله تعالى : ﴿وَإِذَا بُوأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ .

وقال عبد الرزاق: أخبرنا ابن جريج عن عطاء، قال: قال آدم: إنني لأسمع أصوات الملائكة، فقال: بخطيتك، ولكن أهبط إلى الأرض فابن لي بيتأ ثم احلف به كما رأيت الملائكة تحف بيتي الذي في السماء فيزع الناس أنه بناء من خمسة أجبال: من حراء وطور زيتا وطور سيناء [وجبل لبنان]<sup>(١)</sup> والجودي، وكان ربضه من حراء، فكان هذا بناء آدم حتى بناء إبراهيم عليه السلام بعد، وهذا صحيح إلى عطاء ولكن في بعضه نكارة، والله أعلم.

وقال عبد الرزاق<sup>(٢)</sup> أيضاً أخبرنا معمر عن قتادة، قال: وضع الله البيت مع آدم حين أهبط الله آدم إلى الأرض، وكان مهبطه بأرض الهند، وكان رأسه في السماء ورجلاه في الأرض، فكانت الملائكة تهابه، فتنقص إلى ستين ذراعاً، فحزن آدم إذ فقد أصوات الملائكة وتسبّب لهم، فشكى ذلك إلى الله عز وجل، فقال الله: يا آدم إنني أهبط لك بيتأ تطوف به كما يطاف حول عرشي، وتصلي عنده كما يصلى عند عرشي، فانطلق إليه آدم، فخرج ومدد له في خطوه، فكان بين كل خطوتين مفازة، فلم تزل تلك المفازة بعد ذلك، فأتى آدم البيت فطاف به ومن بعده من الأنبياء.

وقال ابن جرير<sup>(١)</sup>: أخبرنا ابن حميد، أخبرنا يعقوب العمّي، عن حفص بن حميد، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال، وضع الله البيت على أركان الماء على أربعة أركان قبل أن تخلق الدنيا بالفِي عام، ثم دحيت الأرض من تحت البيت.

وقال محمد بن إسحاق<sup>(١)</sup>: حدثني عبد الله بن أبي نجيع عن مجاهد وغيره من أهل العلم: إن الله لما برأ إبراهيم مكان البيت خرج إليه من الشام، وخرج معه إسماعيل وأمه هاجر وإسماعيل طفل صغير يرضع، وحملوا فيما حدثني على البراق، ومعه جبريل يدلله على موضع البيت ومعالم الحرم، فخرج وخرج معه جبريل، فكان لا يمْرُ بقرية إلا قال: أبهذه أمرت

(١) الزيادة من الطبرى.

(٢) تفسير الطبرى ٥٩٦/١.

يا جبريل؟ فيقول جبريل: امضه<sup>(١)</sup>، حتى قدم به مكة، وهي إذ ذاك عضاه وسلم وسمر<sup>(٢)</sup>، وبها أناس يقال لهم العماليق خارج مكة وما حولها، والبيت يومئذ ربوة حمراء مدرة<sup>(٣)</sup>، فقال إبراهيم لجبريل: أهنا أمرت أن أضعهما؟ قال: نعم، فعمد بهما إلى موضع الحجر فأنزلهما فيه، وأمر هاجر أم إسماعيل أن تتخذ فيه عريشاً، فقال **﴿رَبِّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذَرِّيَّتِي بَوَادٍ غَيْرَ ذِي زَرْعٍ عَنْ دِيْنِكَ الْمُحْرَمِ﴾** [إبراهيم: ٣٧] إلى قوله: **﴿لَعْلَهُمْ يَشْكُرُونَ﴾**.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا هشام بن حسان، أخبرني حميد، عن مجاهد، قال: خلق الله موضع هذا البيت قبل أن يخلق شيئاً بألفي سنة، وأركانه في الأرض السابعة. وكذا قال ليث بن أبي سليم عن مجاهد: القواعد في الأرض السابعة. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، أخبرنا عمرو بن رافع أخبرنا عبد الوهاب بن معاوية عن عبد المؤمن بن خالد، عن علياء بن أحمر: إن ذا القرنين قدم مكة، فوجد إبراهيم وإسماعيل يبنيان قواعد البيت من خمسة أجبال. فقال: ما لكما ولأرضي؟ فقال: نحن عباد مأموران، أمرنا ببناء هذه الكعبة. قال: فهاتا البينة على ما تدعيان. فقامت خمسة أكبش فقلن: نحن نشهد أن إبراهيم وإسماعيل عباد مأموران أمراً ببناء هذه الكعبة. فقال: قد رضيت وسلمت، ثم مضى، وذكر الأزرق في تاريخ مكة أن ذا القرنين طاف مع إبراهيم عليه السلام بالبيت، وهذا يدل على تقدم زمانه، والله أعلم.

وقال البخاري<sup>(٤)</sup> رحمه الله: قوله تعالى: **﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمَ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلَ﴾** الآية، القواعد: أساسه، واحدها قاعدة، والقواعد من النساء واحدتها قاعد. حدثنا إسماعيل: حدثني مالك عن ابن شهاب، عن سالم بن عبد الله أن عبد الله بن محمد بن أبي بكر أخبر عبد الله بن عمر عن عائشة زوج النبي ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: «ألم ترى أن قومك حين بنوا البيت اقتصرروا على قواعد إبراهيم؟»<sup>(٥)</sup> فقلت: يا رسول الله، لا تردها على قواعد إبراهيم؟ قال «لولا حدثان قومك بالكفر» فقال عبد الله بن عمر: لئن كانت عائشة سمعت هذا من رسول الله ﷺ ما أرى رسول الله ﷺ ترك استلام الركنين اللذين يليان الحجر، إلا أن البيت لم يُتم على قواعد إبراهيم عليه السلام. وقد رواه في الحج عن القعنبي، وفي أحاديث الأنبياء عن عبد الله بن يوسف ومسلم، عن يحيى بن يحيى، ومن حديث ابن وهب والنسائي من حديث عبد الرحمن بن القاسم كلهم عن مالك به.

ورواه مسلم أيضاً من حديث نافع قال: سمعت عبد الله بن أبي بكر بن أبي قحافة، يحدث

(١) امضه: بمعنى امضى، والهاء زائدة.

(٢) العضاه والسلم والسمر: أنواع من الشجر.

(٣) أي من طين لوح متمسك.

(٤) صحيح البخاري (تفسير سورة البقرة باب ٧).

(٥) عبارة البخاري: «أن قومك بنوا الكعبة واقتصرروا...».

عبد الله بن عمر عن عائشة، عن النبي ﷺ، قال «لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية أو قال: بکفر - لأنفقت کنز الكعبة في سبیل الله، ولجعلت بابها بالأرض ولأدخلت فيها الحجر». .

وقال البخاري: أخبرنا عبد الله بن موسى عن إسرائيل، عن أبي اسحاق، عن الأسود، قال: قال لي ابن الزبير: كانت عائشة تسر إليك حديثاً كثيراً، فما حدثتك في الكعبة؟ قال: قلت: قالت لي: قال النبي ﷺ «يا عائشة لولا قومك حديث عهدهم - فقال ابن الزبير - بکفر لقضت الكعبة، فجعلت لها بابين: باباً يدخل منه الناس، وباباً يخرجون منه» ففعله ابن الزبير، انفرد بإخراجه البخاري فرواه هكذا في كتاب العلم من صحيحه.

وقال مسلم<sup>(١)</sup> في صحيحه: حدثنا يحيى بن يحيى، أخبرنا أبو معاوية عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، قالت: قال لي رسول الله ﷺ «ولولا حادثة عهد قومك بالکفر لقضت الكعبة ولجعلتها على أساس إبراهيم، فإن قريشاً حين بنت البيت استنصرت، ولجعلت لها خلفاً»<sup>(٢)</sup> قال: وحدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، وأبو كريب، قالا: أخبرنا ابن نمير عن هشام بهذا الإسناد انفرد به مسلم، قال: وحدثني محمد بن حاتم، حدثني ابن مهدي، أخبرنا سليم بن حيان عن سعيد يعني ابن ميناء، قال: سمعت عبد الله بن الزبير يقول: حدثني خالي، يعني عائشة رضي الله عنها، قالت: قال النبي ﷺ «يا عائشة لولا قومك حديث عهد بشرك، لهدمت الكعبة فأزلقتها بالأرض، ولجعلت لها باباً شرقياً، وباباً غربياً، وزدت فيها ستة أذرع من الحجر فإن قريشاً اقتصرت بها حيث<sup>(٣)</sup> بنت الكعبة» انفرد به أيضاً.

ذكر بناء قريش الكعبة بعد إبراهيم الخليل عليه السلام بمدد طويلة،  
و قبل مبعث رسول الله ﷺ بخمس سنين

وقد نقل معهم في الحجارة وله من العمر خمس وثلاثون سنة صلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم الدين. قال محمد بن إسحاق بن يسار في السيرة<sup>(٤)</sup>: ولما بلغ رسول الله ﷺ خمساً وثلاثين سنة، اجتمعت قريش لبنيان الكعبة، وكانوا يهمنون بذلك ليسقفوها ويهابون هدمها، وإنما كانت رضيماً<sup>(٥)</sup> فوق القامة فأرادوا رفعها وتسقيفها وذلك أن نفراً سرقوا کنز الكعبة، وإنما كان يكمن في بئر في جوف الكعبة، وكان الذي وجد عنده الکنز دويك مولىبني مليح بن عمرو من خزاعة، فقطعت قريش يده، ويزعم الناس أن الذين سرقواه وضعوه عند دويك، وكان البحر

(١) صحيح مسلم (حج حديث ٣٩٨).

(٢) خلفاً: أي باباً من خلفها.

(٣) حيث هنا بمعنى حين. وذكر ابن هشام في مغني الليب أن كلمة حيث قد ترد للزمان.

(٤) سيرة ابن هشام ١٩٢/١.

(٥) الرضي: أن تنضد الحجارة بعضها على بعض من غير ملاط.

قد رمى بسفينة إلى جدة لرجل من تجار الروم، فتحطمـت، فأخذوا خشبها فأعدوه لتسقيفها، وكان بمكة رجل قبطي نجار، فتهيأ لهم في أنفسهم بعض ما يصلحها، وكانت حية تخرج من بئر الكعبة التي كان يُطرح فيها ما يهدي لها كل يوم تتشرق<sup>(١)</sup> على جدار الكعبة وكانت مما يهابون، وذلك أنه كان لا يدنو منها أحد إلا احـزـأـلـت<sup>(٢)</sup> وكشت وفتحـتـ فـاـهـاـ، فـكـانـواـ يـهـابـونـهاـ، فـبـيـنـاـ هيـ يومـاـ تـشـرـقـ عـلـىـ جـادـارـ الـكـعـبـةـ كـمـاـ كـانـتـ تـصـنـعـ، بـعـثـ اللـهـ إـلـيـهـ طـائـرـاـ فـاخـطـفـهـاـ فـذـهـبـ بـهـاـ، فـقـالـتـ قـرـيـشـ: إـنـاـ لـنـرـجـوـ أـنـ يـكـوـنـ اللـهـ قـدـ رـضـيـ مـاـ أـرـدـنـاـ، عـنـدـنـاـ عـاـمـلـ رـفـيقـ، وـعـنـدـنـاـ خـشـبـ، وـقـدـ كـفـانـ اللـهـ الـحـيـةـ، فـلـمـ أـجـمـعـوـ أـمـرـهـمـ فـيـ هـدـمـهـاـ وـبـيـانـهـاـ، قـامـ أـبـوـ وـهـبـ بـنـ عـمـرـ وـبـنـ عـائـذـ بـنـ عـبـدـ بـنـ عـمـرـانـ بـنـ مـخـزـومـ، فـتـنـاـولـ مـنـ الـكـعـبـةـ حـجـرـاـ فـوـثـبـ مـنـ يـدـهـ حـتـىـ رـجـعـ إـلـىـ مـوـضـعـهـ، فـقـالـ: يـاـعـشـرـ قـرـيـشـ، لـاـ تـدـخـلـوـ فـيـ بـيـانـهـاـ مـنـ كـسـبـكـمـ إـلـاـ طـيـاـ، لـاـ يـدـخـلـ فـيـهـاـ مـهـرـ بـغـيـ، وـلـاـيـعـ رـبـاـ، وـلـاـ مـظـلـمـةـ أـحـدـ مـنـ النـاسـ، قـالـ اـبـنـ إـسـحـاقـ: وـالـنـاسـ يـتـحـلـوـنـ هـذـاـ الـكـلـامـ لـلـوـلـيـدـ بـنـ الـمـغـيـرـةـ بـنـ عـبـدـ اللـهـ بـنـ عـمـرـ بـنـ مـخـزـومـ، قـالـ: ثـمـ إـنـ قـرـيـشـاـ تـجـزـأـتـ الـكـعـبـةـ، فـكـانـ شـقـ<sup>(٣)</sup> الـبـابـ لـبـنـيـ عـبـدـ مـنـافـ وـزـهـرـةـ، وـكـانـ مـاـ بـيـنـ الرـكـنـ الـأـسـوـدـ، وـالـرـكـنـ الـيـمـانـيـ لـبـنـيـ مـخـزـومـ وـقـبـائلـ مـنـ قـرـيـشـ اـنـضـمـوـ إـلـيـهـمـ، وـكـانـ ظـهـرـ الـكـعـبـةـ، لـبـنـيـ جـمـعـ وـسـهـمـ، وـكـانـ شـقـ الـحـجـرـ لـبـنـيـ عـبـدـ الدـارـ بـنـ قـصـيـ وـلـبـنـيـ أـسـدـ بـنـ عـبـدـ العـزـىـ بـنـ قـصـيـ وـلـبـنـيـ عـدـيـ بـنـ كـعـبـ بـنـ لـؤـيـ وـهـوـ الـحـطـيمـ، ثـمـ إـنـ النـاسـ هـابـوـهـاـ وـفـرـقـوـهـاـ، فـقـالـ الـوـلـيـدـ بـنـ الـمـغـيـرـةـ، أـنـ أـبـدـؤـكـمـ فـيـ هـدـمـهـاـ، فـأـخـذـ الـمـعـولـ ثـمـ قـامـ عـلـيـهـاـ وـهـوـ يـقـولـ: اللـهـمـ إـنـاـ لـاـ نـرـيـدـ إـلـاـ الـخـيـرـ، ثـمـ هـدـمـ مـنـ نـاحـيـةـ الرـكـنـيـنـ فـتـرـبـصـ النـاسـ تـلـكـ الـلـيـلـةـ، وـقـالـوـ: نـنـظـرـ، فـإـنـ أـصـيـبـ لـمـ نـهـدـمـ مـنـهـاـ شـيـئـاـ، وـرـدـدـنـاـهـاـ كـمـاـ كـانـتـ، وـإـنـ لـمـ يـصـبـهـ شـيـئـ فـقـدـ رـضـيـ اللـهـ مـاـ صـنـعـنـاـ، فـأـصـبـ الـوـلـيـدـ مـنـ لـيـلـتـهـ غـادـيـاـ عـلـىـ عـمـلـهـ، فـهـدـمـ وـهـدـمـ النـاسـ مـعـهـ، حـتـىـ إـذـ اـنـتـهـيـ الـهـدـمـ بـهـمـ إـلـىـ الـأـسـاسـ، أـسـاسـ إـبـرـاهـيمـ عـلـيـهـ السـلـامـ، أـفـضـوـاـ إـلـىـ حـجـارـةـ خـضـرـ كـالـأـسـنـةـ أـخـذـ بـعـضـهـاـ بـعـضاـ، قـالـ: فـحـدـثـنـيـ بـعـضـ مـنـ يـرـوـيـ الـحـدـيـثـ: أـنـ رـجـلـاـ مـنـ قـرـيـشـ مـنـ كـانـ يـهـدـمـهـاـ، أـدـخـلـ عـتـلـةـ بـيـنـ حـجـرـيـنـ مـنـهـاـ لـيـقـلـعـ بـهـاـ أـيـضـاـ أـحـدـهـمـاـ، فـلـمـ تـحـرـكـ الـحـجـرـ تـنـقـضـتـ<sup>(٥)</sup> مـكـةـ بـأـسـرـهـاـ، فـانـتـهـواـ عـنـ ذـلـكـ الـأـسـاسـ.

قال اـبـنـ إـسـحـاقـ: ثـمـ إـنـ الـقـبـائلـ مـنـ قـرـيـشـ جـمـعـتـ الـحـجـارـةـ لـبـنـائـهـاـ، كـلـ قـبـيلـةـ تـجـمـعـ عـلـىـ حـدـدـةـ، ثـمـ بـنـوـهـاـ حـتـىـ بـلـغـ الـبـنـيـانـ مـوـضـعـ الرـكـنـ، يـعـنـيـ الـحـجـرـ الـأـسـوـدـ، فـاـخـتـصـمـوـ فـيـهـ كـلـ قـبـيلـةـ تـرـيدـ أـنـ تـرـفـعـ إـلـىـ مـوـضـعـهـ دـوـنـ الـأـخـرـىـ، حـتـىـ تـحـاـوـرـوـاـ<sup>(٦)</sup> وـتـخـالـفـوـ وـأـعـدـوـ لـلـقـتـالـ، فـقـرـبـتـ بـنـوـ

(١) تـشـرـقـ: تـبـرـزـ لـلـشـمـسـ.

(٢) اـحـزـأـلـتـ: رـفـعـتـ رـأـسـهـاـ. كـشـتـ: صـوتـ باـحـتـكـاكـ بـعـضـ جـلـدـهـاـ بـعـضـ.

(٣) الشـقـ: النـاحـيـةـ وـالـجـانـبـ.

(٤) لـمـ ثـرـغـ: لـمـ تـنـزـعـ. وـالـضـمـيرـ فـيـهـ يـعـودـ عـلـىـ الـكـعـبـةـ. قـالـ اـبـنـ هـشـامـ: وـيـقـالـ: لـمـ نـزـعـ.

(٥) تـنـقـضـتـ: اـهـتـرـتـ.

(٦) كـذـاـ أـيـضـاـ فـيـ أـكـثـرـ الـمـصـادـرـ. وـلـعـلـ الصـوـابـ، تـحـاـوـرـوـاـ (ـبـالـزـايـ)ـ أـيـ انـحـازـتـ كـلـ قـبـيلـةـ إـلـىـ جـهـةـ، كـمـاـ جـاءـ

عبد الدار جفنة مملوءة دمًا، ثم تعاقدوا هم وبنو عدي بن كعب بن لؤي على الموت، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة فسموا «العقة الدم» فمكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمساً، ثم إنهم اجتمعوا في المسجد فتشاوروا وتناصروا، فزعم بعض أهل الرواية أن أبو أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، وكان عاملاً أسن قريش كلهم، قال: يا معشر قريش، أجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضى بينكم فيه، ففعلوا، فكان أول دخل رسول الله ﷺ، فلما رأوه قالوا: هذا الأمين رضينا، هذا محمد. فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر قال ﷺ: هلم إلّي ثواباً، فأتني به فأخذ الركن، يعني الحجر الأسود، فوضعه فيه بيده، ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الشوب ثم ارفعوه جميعاً، ففعلوا حتى إذا بلغوا به موضوعه، وضعه هو بيده ﷺ ثم بنى عليه، وكانت قريش تسمي رسول الله ﷺ قبل أن ينزل الوحي الأمين فلما فرغوا من البناء وبنوها على ما أرادوا، قال الزبير بن عبد المطلب، فيما كان من أمر الحياة التي كانت قريش تهاب بناء الكعبة لها: [الوافر]

إلى العبان وهي لها اضطراب  
وأحياناً يكون لها وثاب  
تهيننا البناء وقد تهاب  
عقاب تتائب<sup>(٢)</sup> لها انصباب  
لنا البناء ليس له حجاب  
لنا منه القواعد والترباب  
وليس على مساوينا<sup>(٣)</sup> ثياب  
فليس لأصله منهم ذهاب  
ومرة قد تقدمها كلاب  
وعند الله يتمس الشواب

قال ابن إسحاق: وكانت الكعبة على عهد النبي ﷺ ثمانية عشر ذراعاً، وكانت تكسى القباطي<sup>(٤)</sup>، ثم كسيت بعد البرود<sup>(٥)</sup>، وأول منكسها الديجاج الحجاج بن يوسف.

(قلت) ولم تزل على بناء قريش حتى احترقت في أول إمارة عبد الله بن الزبير بعد سنة ستين

عجبت لما تصوبت العقاب  
وقد كانت يكون لها كشيش  
إذا قمنا إلى التأسيس شدت  
فلما إن خشينا الرجز<sup>(١)</sup> جاءت  
فضمتها إليها ثم خلت  
فقمينا حاشدين إلى باء  
غداة نرفع التأسيس منه  
أعز به الملوك بنبي لؤي  
وقد حشدت هناك بنو عدي  
في وأنما الملك بذلك عزاً

= في طبعة دار الكتب العلمية من السيرة ١٩٦١.

(١) الرجز: العذاب.

(٢) تتائب: تتابع في انقضاضها.

(٣) مساوينا: سواتنا.

(٤) القباطي: ثياب يypress كانت تصنع بمصر.

(٥) البرود: ضرب من ثياب اليمن.

وفي آخر ولاية يزيد بن معاوية، لما حاصروا ابن الزبير، فحيثئذ نقضها ابن الزبير إلى الأرض وبناها على قواعد إبراهيم عليه السلام، وأدخل فيها الحجر، وجعل لها باباً شرقياً وباباً غرياً ملصقين بالأرض كما سمع ذلك من خالته عائشة أم المؤمنين عن رسول الله ﷺ ولم تزل كذلك مدة إمارته حتى قتله الحجاج، فردها إلى ما كانت عليه بأمر عبد الملك بن مروان له بذلك، كما قال مسلم بن الحجاج في صحيحه:

أخبرنا هناد بن السري، أخبرنا ابن أبي زائدة، أخبرنا ابن أبي سليمان عن عطاء، قال: لما احترق البيت زمن يزيد بن معاوية حين غزاها أهل الشام، فكان من أمره ما كان، تركه ابن الزبير حتى قدم الناس الموسم، يريد أن يحربيهم أو يجرئهم على أهل الشام، فلما صدر الناس قال: يا أيها الناس، أشيروا عليّ في الكعبة أنقضها ثم أبني بناءها، أو أصلح ما وَهَىَ منها؟ قال ابن عباس: فإني قد فرق<sup>(١)</sup> لي رأي فيها، أرى أن تصلح ما وَهَىَ منها، وتدع بيتاً أسلم الناس عليه، وأحجاراً أسلم الناس عليها، وبعث عليها بِكَلَّة، فقال ابن الزبير: لو كان أحدهم احترق بيته ما رضي حتى يجده، فكيف بيت ربكم عز وجل؟ إني مستخير ربى ثلاثة، ثم عازم على أمري، فلما مضت ثلاثة، أجمع رأيه على أن ينقضها فتحاماها الناس أن يتزل بأول الناس يصعد فيه أمر من السماء، حتى صعده رجل فألقى منه حجارة، فلما لم يره الناس أصابه شيء تتابعوا فنقضوه حتى بلغوا به الأرض، فجعل ابن الزبير أعمدة يستر عليهاستور حتى ارتفع بناؤه، وقال ابن الزبير: إني سمعت عائشة رضي الله عنها تقول إن النبي ﷺ قال «لولا أن الناس حديث عهدهم بکفر، وليس عندي من النفقه ما يقويني على بنائه لكنه أدخلت فيه من الحجر خمسة أذرع، ولجعلت له باباً يدخل الناس منه، وباباً يخرجون منه» قال: فأنا أجد ما أتفق، ولست أخاف الناس، قال: فزاد فيه خمسة أذرع من الحجر حتى أبدى له أساً، فنظر الناس إليه، فبني عليه البناء، وكان طول الكعبة ثمانية عشر ذراعاً فلما زاد فيه استقصره فراد في أوله عشرة أذرع وجعل له بابين: أحدهما يدخل منه، والآخر يخرج منه. فلما قتل ابن الزبير، كتب الحجاج إلى عبد الملك يستجيزه بذلك ويخبره أن ابن الزبير قد وضع البناء على أنس نظر إليه العدول من أهل مكة؛ فكتب إليه عبد الملك: إننا لسنا من تلطيخ ابن الزبير في شيء، أما ما زاده في طوله فأقره، وأما ما زاد فيه من الحجر فرده إلى بنائه، وسد الباب الذي فتحه، فنقضه وأعاده إلى بنائه.

وقد رواه النسائي في سننه عن هناد، عن يحيى بن أبي زائدة، عن عبد الملك بن أبي سليمان، عن عطاء، عن ابن الزبير عن عائشة بالمرفوع منه، ولم يذكر القصة وقد كانت السنة إقرار ما فعله عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما، لأنّه هو الذي وَدَّ رسول الله ﷺ، ولكن خشي أن تنكره قلوب بعض الناس لحداثة عهدهم بالإسلام وقرب عهدهم من الكفر، ولكن خفيت هذه السنة على عبد الملك بن مروان، ولهذا لما تحقق ذلك عن عائشة أنها روت ذلك عن

(١) في الأصل «خرق». والمثبت عن صحيح مسلم. والمراد: قد ظهر لي أمرٌ ورأي فيها.

رسول الله ﷺ قال: وددنا أنا تركناه وما تولى، كما قال مسلم:

حدثني محمد بن حاتم، حدثنا محمد بن بكر، أخبرنا ابن جريج: سمعت عبد الله بن عبيد بن عمير والوليد بن عطاء يحدثان عن الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة، قال عبد الله بن عبيد: وفـدـ الحارث بن عبد الله على عبد الملك بن مروان في خلافته، فقال عبد الملك: ما أظن أبا خبيب، يعني ابن الزبير، سمع من عائشة ما كان يزعم أنه سمعه منها، قال الحارث: بلـىـ، أنا سمعـتـهـ منهاـ. قالـ: سـمعـتـهاـ تـقـوـلـ ماـذاـ؟ قالـ: قـالـتـ: قـالـ رسولـاللهـ ﷺ إـنـ قـومـكـ استـقـصـرـواـ مـنـ بـنـيـانـ الـبـيـتـ، وـلـوـ لـاـ حـادـثـةـ عـهـدـهـمـ بـالـشـرـكـ أـعـدـتـ ماـ تـرـكـواـ مـنـهـ، فـإـنـ بـدـاـ لـقـومـكـ مـنـ بـعـدـيـ أـنـ يـبـنـوـهـ، فـهـلـمـيـ لـأـرـيكـ مـاـ تـرـكـوهـ مـنـهـ» فـأـرـاهـاـ قـرـيبـاـ مـنـ سـبـعـةـ أـذـرـعـ، هـذـاـ حـدـيـثـ عـبـدـ اللهـ بـنـ عـبـدـ اللهـ بـنـ عـمـيرـ، وـزـادـ عـلـيـهـ الـولـيدـ بـنـ عـطـاءـ قـالـ النـبـيـ ﷺ «وـلـجـعـلـتـ لـهـ بـاـبـيـنـ مـوـضـوعـيـنـ فـيـ الـأـرـضـ: شـرـقـيـاـ وـغـرـبـيـاـ، وـهـلـ تـدـرـيـنـ لـمـ كـانـ قـومـكـ رـفـعـواـ بـابـهـ» قـالـتـ: لـاـ. قـالـ «تـعـزـزـأـ أـنـ لـاـ يـدـخـلـهـ إـلـاـ مـنـ أـرـادـواـ، فـكـانـ الرـجـلـ إـذـاـ هـوـ أـرـادـ أـنـ يـدـخـلـهـ يـدـعـونـهـ حـتـىـ يـرـتـقـيـ، حـتـىـ إـذـاـ كـادـ أـنـ يـدـخـلـ دـفـعـوـهـ فـسـقـطـ» قـالـ عبدـالـملكـ: فـقـلـتـ للـحـارـثـ: أـنـ سـمعـتـهـ تـقـوـلـ هـذـاـ؟ قـالـ: نـعـمـ، قـالـ فـنـكـتـ سـاعـةـ بـعـصـاهـ، ثـمـ قـالـ: وـدـدـتـ أـنـيـ تـرـكـهـ وـمـاـ تـحـمـلـ.

قال مسلم: وحدثنا عبد الرحمن بن عمرو بن جبلة، حدثنا أبو عاصم(ح)، وحدثنا عبد بن حميد، أخبرنا عبد الرزاق كلامهما عن ابن حريج بهذا الإسناد مثل حديث أبي بكر، قال: وحدثنا محمد بن حاتم، حدثنا عبد الله بن بكر السهمي، حدثنا حاتم بن أبي صغيرة عن أبي قزعة: أن عبد الملك بن مروان بينما هو يطوف بالبيت إذ قال: قاتل الله ابن الزبير حيث يكذب على أم المؤمنين، يقول سمعتها تقول: قال رسول الله ﷺ «يا عائشة لولا حدثان قومك بالكفر لنقضت الكعبة حتى أزيد فيها من الحجر. فإن قومك قصرروا في البناء» فقال الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة: لا تقل هذا يا أمير المؤمنين، فإني سمعت أم المؤمنين تحدث هذا. قال: لو كنت سمعته قبل أن أهدمه لتركته على ما بني ابن الزبير. فهذا الحديث كالمقطوع به إلى عائشة، لأنه قد روی عنها من طرق صححه متعددًا عن الأسود بن يزيد والحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن محمد بن أبي بكر وعروة بن الزبير، فدل هذا على صواب ما فعله ابن الزبير، فلو ترك لكان جيداً.

ولكن بعدما رجع الأمر إلى هذا الحال، فقد كره بعض العلماء أن يغير عن حاله كما ذكر عن أمير المؤمنين هارون الرشيد أو أبيه المهدي أنه سأله الإمام مالكاً عن هدم الكعبة وردها إلى ما فعله ابن الزبير. فقال له مالك: يا أمير المؤمنين، لا تجعل كعبة الله ملعنة للملوك لا يشاء أحد أن يهدمها إلا هدمها، فترك ذلك الرشيد، نقله عياض والنwoي ولا تزال - والله أعلم - هكذا إلى آخر الزمان، إلى أن يخربها ذو السويقتين من العبشة، كما ثبت ذلك في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «يُخرب الكعبة ذو السويقتين من العبشة» آخر جاه. وعن ابن

عباس عن النبي ﷺ «كأني به أسود أفحج يقلعها حجراً حجراً» رواه البخاري . وقال الإمام أحمد<sup>(١)</sup> بن حنبل في مسنده: أخبرنا أبو عبد الله بن عبد الملك الحراني، أخبرنا محمد بن سلمة عن ابن إسحاق عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة، ويسلبها حليتها، ويجردها من كسوتها، ولكنني أنظر إليه أصيلع أفيض يضرب عليها بمسحاته ومعوله» - الفرع: زيج بين القدم وعظم الساق - وهذا، والله أعلم، إنما يكون بعد خروج ياجوج ومأجوج، لما جاء في صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ «ليحجن البيت وليعتمرَّ بعد خروج ياجوج ومأجوج».

وقوله تعالى حكاية لدعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ﴿رَبِّنَا وَرَبِّنَا مُسَلِّمُنَا لَكَ وَمَنْ ذَرْيْتَنَا أَمَّةً مُسَلِّمَةً لَكَ وَأَرْنَا مُنَاسِكَنَا وَتَبَّ عَلَيْنَا إِلَيْكَ أَوْدَنَتِ الْمُرْأَةَ أَمْرَ حَسِيبٍ﴾ قال ابن جرير<sup>(٢)</sup>: يعنيان بذلك واجعلنا مستسلمين لأمرك، خاضعين لطاعتك، ولا نشرك معك في الطاعة أحداً سواك، ولا في العبادة غيرك.

وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا أبي، أخبرنا إسماعيل عن رجاء بن حبان الحصنى القرشي، أخبرنا معقل بن عبد الله عن عبد الكريم ﴿وَاحْمَدَ مُخْلِصُنَّ لَكَ﴾ قال: مخلصين لك، **﴿وَمَنْ ذَرْيْتَنَا أَمَّةً مُسَلِّمَةً لَكَ﴾** قال: مخلصة، وقال أيضاً: أخبرنا علي بن الحسين، أخبرنا المقدمي، أخبرنا سعيد بن عامر عن سلام بن أبي مطیع في هذه الآية **﴿وَاجْعَلْنَا مُسَلِّمِينَ﴾** قال: كانا مسلمين، ولكنهما سلالة الثبات.

وقال عكرمة **﴿رَبِّنَا وَرَبِّنَا مُسَلِّمُنَا لَكَ﴾** قال الله: قد فعلت، **﴿رَبِّنَا وَرَبِّنَا أَمَّةً مُسَلِّمَةً لَكَ﴾** قال الله: قد فعلت.

وقال السدي<sup>(٣)</sup> **﴿وَمَنْ ذَرْيْتَنَا أَمَّةً مُسَلِّمَةً لَكَ﴾** يعنيان العرب . قال ابن جرير: والصواب أنه يعم العرب وغيرهم، لأن من ذرية إبراهيمبني إسرائيل ، وقد قال الله تعالى: **﴿وَمَنْ قَوْمٌ مُوسَى أَمَّةٌ يَهُدُونَ بِالْحَقِّ وَهُوَ يَعْلَمُونَ﴾** [الأعراف: ١٥٩].

(قلت) وهذا الذي قاله ابن جرير لا ينفيه السدي، فإن تخصيصهم بذلك لا ينفي من عداهم، والسياق إنما هو العرب، ولهذا قال بعده **﴿رَبِّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيَعْلَمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيَزْكِيْهِم﴾**. والمراد بذلك محمد ﷺ، وقد بعث فيهم كما قال تعالى: **﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأَمْمَيْنِ رَسُولاً مِنْهُمْ﴾** [الجمعة: ٢] ومع هذا لا ينفي رسالته إلى

(١) مسنـدـ أـحـمـدـ (جـ ٢ـ صـ ٢٢٠ـ).

(٢) تفسـيرـ الطـبـريـ . ٦٠٢/١ـ.

(٣) رواه الطـبـريـ . ٦٠٣/١ـ.

الأحمر والأسود لقوله تعالى ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨] وغير ذلك من الأدلة القاطعة، وهذا الدعاء من إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام كما أخبرنا الله تعالى عن عباده المتقين المؤمنين في قوله ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبُّنَا هُبْ لَنَا مِنْ أَرْوَاحِنَا وَذَرْيَتْنَا قَرْأَةً أَعْيْنَ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَقْنِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤] وهذا القدر مرغوب فيه شرعاً، فإن من تمام محبة عبادة الله تعالى أن يحب أن يكون من صلبه من يعبد الله وحده لا شريك له. ولهذا لما قال الله تعالى لإبراهيم عليه السلام ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ قال ﴿وَمَنْ ذَرَيْتَ قَالَ لَا يَنْالُ عَهْدِ الظَّالِمِينَ﴾ وهو قوله ﴿وَاجْبَنِي وَبْنِي أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥] وقد ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ، أنه قال: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاثة: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له».

﴿وَأَرَنَا مَنَاسِكَنَا﴾ قال ابن جرير عن عطاء ﴿وَأَرَنَا مَنَاسِكَنَا﴾ أخرجها لنا علمناها، وقال مجاهد ﴿أَرَنَا مَنَاسِكَنَا﴾ مذابحنا. وروي عن عطاء أيضاً وقتادة نحو ذلك. وقال سعيد بن منصور: أخبرنا عتاب بن بشير عن خصيف، عن مجاهد، قال: قال إبراهيم ﴿أَرَنَا مَنَاسِكَنَا﴾ فأراه جباريل فأتى به البيت، فقال: ارفع القواعد، فرفع القواعد وأتم البنيان ثم أخذ بيده فآخرجه فانطلق به إلى الصفا، قال: هذا من شعائر الله، ثم انطلق به إلى المروءة، فقال: وهذا من شعائر الله، ثم انطلق به نحو مني، فلما كان من العقبة إذا إبليس قائم عند الشجرة، فقال: كبر وارمه، فكبّر ورمّه، ثم انطلق إبليس فقام عند الجمرة الوسطى، فلما جاز به جبريل وإبراهيم قال له: كبر وارمه، فكبّر ورمّه، فذهب الخبيث إبليس وكان الخبيث أراد أن يدخل في الحج شيئاً، فلم يستطع، فأخذ بيد إبراهيم حتى أتى به المشعر الحرام، فقال: هذا المشعر الحرام، فأخذ بيد إبراهيم حتى أتى به عرفات، قال: قد عرفت ما أريتك؟ قالها ثلاث مرات، قال: نعم.

وروي عن أبي مجلز وقتادة نحو ذلك، وقال أبو داود الطيالسي: أخبرنا حماد بن سلمة عن أبي العاصم الغنوبي، عن أبي الطفيلي، عن ابن عباس، قال: إن إبراهيم لما أرى أوامر المنسك، عرض له الشيطان عند المسعى، فسابقه إبراهيم ثم انطلق به جبريل حتى أتى به مني، قال: هذا مناخ الناس، فلما انتهى إلى جمرة العقبة تعرض له الشيطان، فرمّاه بسبع حصيات حتى ذهب، ثم أتى به إلى الجمرة القصوى فعرض له الشيطان، فرمّاه بسبع حصيات حتى ذهب فأتى به جمعاً، فقال: هذا المشعر، ثم أتى به عرفة، فقال: هذه عرفة، فقال له جبريل: أعرفت؟ .

رَبَّنَا وَأَبَعَثْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَنْذِلُوا عَلَيْهِمْ مَا يَأْتِيَنَّكَ وَيَعْلَمُهُمْ الْكِتَابُ وَالْحِكْمَةُ وَيُنَزِّكُهُمْ إِنَّكَ أَنْتَ  
الْعَرَبُ أَنْتَ الْحَكِيمُ

يقول تعالى إخباراً عن تمام دعوة إبراهيم لأهل الحرم أن يبعث الله فيهم رسولاً منهم، أي من ذرية إبراهيم، وقد وافقت هذه الدعوة المستجابة قدر الله السابق في تعين محمد صلوات الله

وسلامه عليه رسولًا في الأميين إليهم والى سائر الأعميين من الإنس والجن، كما قال الإمام أحمد<sup>(١)</sup>: أخبرنا عبد الرحمن بن مهدي عن معاوية بن صالح، عن سعيد بن سعيد الكلبي، عن عبد الأعلى بن هلال السلمي، عن العرياض بن سارية، قال: قال رسول الله ﷺ «إني عبد الله لخاتم النبيين، وإن آدم لم ينجلد في طيته، وسائبئكم بأول ذلك، دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى بي، ورؤيا أمي التي رأيت، وكذلك أمها التي يرين» وكذلك رواه ابن وهب واللث وكاتبه عبد الله بن صالح عن معاوية بن صالح وتابعه أبو بكر بن أبي مريم عن سعيد بن سعيد به.

وقال الإمام أحمد<sup>(٢)</sup> أيضًا: أخبرنا أبو النصر، أخبرنا الفرج، أخبرنا لقمان بن عامر، قال: سمعت أباً وأماماً قال: قلت يا رسول الله: ما كان أول بدء أمرك؟ قال «دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى بي. ورأيت أمي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام».

والمراد أن أول من نوه بذكره وشهره في الناس إبراهيم عليه السلام، ولم يزل ذكره في الناس مذكوراً مشهوراً سائراً حتى أتصح باسمه خاتم الأنبياء بنى إسرائيل نسباً، وهو عيسى ابن مريم عليه السلام، حيث قام في بنى إسرائيل خطيباً، وقال «إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد» [الصف: ٦] ولهذا قال في هذا الحديث دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى بن مريم. قوله: ورأيت أمي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام، قيل كان مناماً رأته حين حلمت به، وقصته على قومها، فشاع فيهم واشتهر بينهم، وكان ذلك توطئة؛ وتخصيص الشام بظهور نوره إشارة إلى استقرار دينه ونبوته ببلاد الشام، ولهذا تكون الشام في آخر الزمان معللاً للإسلام وأهله، وبها ينزل عيسى بن مريم إذا نزل بدمشق بالمنارة الشرقية البيضاء منها، ولهذا جاء في الصحيحين «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك» وفي صحيح البخاري «وهم بالشام».

قال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبي العالية في قوله ﴿ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم﴾ يعني أمة محمد ﷺ، فقيل له: قد استجيب لك، وهو كائن في آخر الزمان، وكذا قال السدي وقتادة، قوله تعالى: ﴿ويعلمهم الكتاب﴾ يعني القرآن، ﴿والحكمة﴾ يعني السنة، قاله الحسن وقتادة ومقاتل بن حيان وأبو مالك وغيرهم، وقيل: الفهم في الدين ولا منافاة، ﴿ويزكيهم﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس يعني طاعة الله وقال محمد بن إسحاق ﴿ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾ قال الخير فيفعلوه والشر فيتقوه، ويخبرهم برضاء الله عنهم إذا أطاعوه ليستكثروا من طاعته ويجتنبوا ما يخطئه من معصيته.

(١) مسند أحمد (ج ٤ ص ١٢٧).

(٢) مسند أحمد (ج ٥ ص ٢٦٢).

وقوله «إنك أنت العزيز الحكيم» أي العزيز الذي لا يعجزه شيء، وهو قادر على كل شيء الحكيم في أفعاله وأقواله، فيضع الأشياء في محلها لعلمه وحكمته وعدله.

وَمَنْ يَرْعَبُ عَنِ الْمِلَةِ إِلَّا هُمْ سَيِّدُونَ فَلَقَدْ أَصَطَّفْنَاكُمْ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّمَا فِي الْآخِرَةِ لِمَنِ الْمُصْلِحُونَ إِذَا قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لَرِبِّ الْمُكْرِمِينَ وَوَصَّى بِهَا إِلَّا هُمْ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَبْيَنِ إِنَّ اللَّهَ أَصَطَّفَنَّ لَكُمُ الْأَذْنِ فَلَا تَمُوْشُ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ

يقول تبارك وتعالى رداً على الكفار فيما ابتدعوه وأحدثوه من الشرك بالله، المخالف لملة إبراهيم الخليل إمام الحنفاء، فإنه جرد توحيد ربه تبارك وتعالى فلم يدعوه معه غيره ولا أشرك به طرفة عين، وتبراً من كل معبد سواه خالف في ذلك سائر قومه حتى تبراً من أبيه، فقال «يا قوم إني بريء مما تشركون \* إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين» [الأنعام: ٧٨ - ٧٩] وقال تعالى: «وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنِّي بَرَأَ مِمَّا تَعْبُدُونَ \* إِلَّا الَّذِي فَطَرْنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِنَاينَ» [الزخرف: ٢٦ - ٢٧] وقال تعالى: «وَمَا كَانَ إِسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوُّ اللَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لِأَوَّلَاهِ حَلِيمٌ» [التوبة: ١١٤] وقال تعالى: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أَمَةً قَاتَنَتِهِ اللَّهُ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ \* شَاكِرًا لَأَنَّهُمْ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ \* وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لِمِنِ الْمُصْلِحِينَ» [النحل: ١٢١ - ١٢٢] ولهذا وأمثاله قال تعالى: «وَمَنْ يَرْعَبُ عَنِ الْمِلَةِ إِلَّا هُمْ سَيِّدُونَ» عن ملة إبراهيم عن طريقه منهجه في خالفها ويرغب عنها؟ أي ظلم نفسه بسفهه وسوء تدبیره بتركه الحق إلى الضلال حيث خالف طريق من اصطفى في الدنيا للهداية والرشاد من حداثة سنّه إلى أن اتخذه الله خليلاً، وهو في الآخرة من الصالحين السعداء، فمن ترك طريقه هذا ومسلكه وملته، واتبع طريق الضلال والغنى، فأي سفه أعظم من هذا؟ أم أي ظلم أكبر من هذا؟ كما قال تعالى: «إِنَّ الشَّرَكَ لِظُلْمٍ عَظِيمٍ» [لقمان: ١٣].

قال أبو العالية وقتادة: نزلت هذه الآية في اليهود، أحدثوا طريقاً ليست من عند الله، وخالفوا ملة إبراهيم فيما أحدثوه، ويشهد لصحة هذا القول قول الله تعالى: «مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصَارَائِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ \* إِنَّ أُولَئِكَ النَّاسَ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهُدُّا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيَ الْمُؤْمِنِينَ» [آل عمران: ٦٧ - ٦٨].

وقوله تعالى «إِذَا قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلَمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ» أي أمره الله بالإخلاص والاستسلام والانتقاد، فأجاب إلى ذلك شرعاً وقدراً، قوله «وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمَ بْنَهِ وَيَعْقُوبَ» أي وصى بهذه الملة، وهي الإسلام لله، أو يعود الضمير على الكلمة وهي قوله «أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ» لحرصهم عليها ومحبتهم لها، حافظوا عليها إلى حين الوفاة، ووصوا أبناءهم بها من بعدهم قوله تعالى: «وَجَعَلُهَا كَلْمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ» [الزخرف: ٢٨] وقد فرأ بعض السلف

«ويعقوب» بالنصب<sup>(١)</sup> عطفاً على بنيه، كأن إبراهيم وصي بنيه وابن ابنه يعقوب بن إسحاق وكان حاضراً ذلك، وقد ادعى القشيري فيما حكاه القرطبي<sup>(٢)</sup> عنه أن يعقوب إنما ولد بعد وفاة إبراهيم، ويحتاج مثل هذا إلى دليل صحيح، والظاهر، والله أعلم، أن إسحاق ولد له يعقوب في حياة الخليل وسارة، لأن البشارة وقعت بهما في قوله ﴿فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ [هود: ٧١] وقد قرئ بـ«بنصب يعقوب هننا على نزع الخافض»، فلو لم يوجد يعقوب في حياتهما لما كان لذكره من بين ذرية إسحاق كبير فائدة، وأيضاً فقد قال الله تعالى في سورة العنكبوت: «ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب» [العنكبوت: ٢٧]، وقال في الآية الأخرى «ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة» [الأنباء: ٧٢] وهذا يقضي أنه وجد في حياته، وأيضاً فإنه باني بيت المقدس، كما نطقت بذلك الكتب المتقدمة.

وثبت في الصحيحين من حديث أبي ذر قلت: يا رسول الله، أي مسجد وضع أول؟ قال: «المسجد الحرام» قلت: ثم أي؟ قال «بيت المقدس»، قلت: كم بينهما؟ قال «أربعون سنة» الحديث<sup>(٣)</sup>، فرغم ابن حبان أن بين سليمان الذي اعتقاد أنه باني بيت المقدس - وإنما كان جدده بعد خرابه وزخرفه - وبين إبراهيم أربعين سنة، وهذا مما أنكر على ابن حبان، فإن المدة بينهما تزيد على ألف السنين، والله أعلم، وأيضاً فإن وصية يعقوب لبنيه سيأتي ذكرها قريباً، وهذا يدل على أنه هننا من جملة الموصيين.

وقوله ﴿يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ أي أحسنوا في حال الحياة، والزموا هذا ليرزقكم الله الوفاة عليه، فإن المرء يموت غالباً على ما كان عليه، ويبعث على ما مات عليه، وقد أجرى الله الكريم عادته بأنه من قصد الخير وفق له ويسر عليه، ومن نوى صالحاً ثبت عليه. وهذا لا يعارض ما جاء في الحديث الصحيح «إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها. وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيما يbedo للناس ويعمل أهل النار فيما يbedo للناس، وقد قال الله تعالى: «فاما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنسره للعسرى» [الليل: ٥ - ١٠].

(١) هي قراءة عمرو بن فائد الأسواري وإسماعيل بن عبد الله المكي، كما جاء في تفسير القرطبي.

(٢) تفسير القرطبي ١٣٦/٢.

(٣) آخر جهه مسلم (مساجد حديث ١) وأحمد في المستند (ج ٥ ص ١٥٠). وتتممة الحديث: ثم أي؟ قال: «ثم حি�ثما أدركت الصلاة فصلٌ فكلها مسجد».

أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِيَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ أَبَائِكَ إِنَّا هُمْ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَجَدًا وَمَنْعَنَ لَهُ مُسْلِمُونَ ۝ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُشْرُكُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝

يقول تعالى محتاجاً على المشركين من العرب أبناء إسماعيل وعلى الكفار من بنى إسرائيل - وهو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام - بأن يعقوب لما حضرته الوفاة، وصى بنيه بعبادة الله وحده لا شريك له، فقال لهم ﴿ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق﴾ وهذا من باب التغليب، لأن إسماعيل عمه، قال النحاس: والعرب تسمي العم أباً، نقله القرطبي، وقد استدل بهذه الآية الكريمة من جعل الجد أباً وحجب به الإخوة، كما هو قول الصديق، حكاه البخاري عنه من طريق ابن عباس وابن الزبير، ثم قال البخاري: ولم يختلف عليه، وإليه ذهبت عائشة أم المؤمنين، وبه يقول الحسن البصري وطاوس وعطاء، وهو مذهب أبي حنيفة وغير واحد من السلف والخلف، وقال مالك والشافعي وأحمد في المشهور عنه أنه يقاسم الإخوة، وحكي ذلك عن عمر وعثمان وعلي وابن مسعود وزيد بن ثابت وجماعة من السلف والخلف، واختاره أصحاباً أبي حنيفة القاضي أبو يوسف ومحمد بن الحسن، ولتريرها موضع آخر.

وقوله ﴿إِلَهًا وَاحِدًا﴾ أي نوحده بالآلوهية ولا نشرك به شيئاً غيره، ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ أي مطیعون خاضعون، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَهُ يَرْجِعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣] والإسلام هو ملة الأنبياء قاطبة وإن تنوعت شرائعهم واختلفت مناهجهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نَوْحَى إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونَ﴾ [الأنباء: ٢٥]، والآيات في هذا كثيرة والأحاديث فمنها قوله ﴿نَحْنُ مَعْشِرُ الْأَنْبِيَاءِ﴾ أولاد علات<sup>(١)</sup> ديننا واحد».

وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ أي مضت، ﴿إِنَّمَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ أي إن السلف الماضين من آبائكم من الأنبياء والصالحين لا ينفعكم اتسابكم إذا لم تفعلوا خيراً يعود نفعه عليكم، فإن لهم أعمالهم التي عملوها لكم أعمالكم ﴿وَلَا تَسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وقال أبو العالية والربيع وقتادة ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ يعني إبراهيم وإسحاق ويعقوب والأسباء ولهذا جاء في الأثر «من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه».

وَقَاتُوا كَوْنِيَا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قَلْ بَلْ مَلَةٌ إِنْ هُمْ حَنِيفُونَ وَمَا كَانَ زِيَادَ الْمُشْرِكِينَ ۝

(١) بنو العلات: بنو زجل واحد من أمراء شتنى. والمراد بقوله «أولاد علات» أن إيمانهم واحد وشرائعهم مختلفة.

قال محمد بن إسحاق : حديثي محمد بن أبي محمد ، حديثي سعيد بن جبير أو عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : قال عبد الله بن صوريا الأعور لرسول الله ﷺ : ما الهدى إلا ما نحن عليه ، فاتبعنا يا محمد تهتد ، وقالت النصاري مثل ذلك ، فأنزل الله عز وجل ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا﴾ .

وقوله ﴿قُلْ بِلْ مَلَةُ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفٌ﴾ أي لا نريد ما دعوتمونا إليه من اليهودية والنصرانية بل تتبع ﴿مَلَةُ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفٌ﴾ أي مستقيما ، قاله محمد بن كعب القرظي ويعسى بن جارية ، وقال خصيف عن مجاهد : مخلصاً ، وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : حاجاً ، وكذا روى عن الحسن والضحاك وعطاء والسدي ، وقال أبو العالية : الحنيف الذي يستقبل البيت بصلاته ، ويرى أن حججه عليه إن استطاع إليه سبيلا . وقال مجاهد والربيع بن أنس : حنيفاً أي متبعاً . وقال أبو قلابة : الحنيف الذي يؤمن بالرسل كلهم من أولهم إلى آخرهم ، وقال قتادة : الحنيفية شهادة أن لا إله إلا الله ، يدخل فيها تحريم الأمهات والبنات والخالات والعمات وما حرم الله عز وجل والختان<sup>(١)</sup> .

**فُولُونَ أَمَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَلِسَمْعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُنْزِلَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُنْزِلَ أَنْبِيَاءُ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نَفْرَقُ بَيْنَ أَهْدِيْنَهُمْ وَهُنْ لَمْ مُسْلِمُونَ**

أرشد الله تعالى عباده المؤمنين إلى الإيمان بما أنزل إليهم بواسطة رسوله محمد ﷺ مفصلاً وما أنزل على الأنبياء المتقدمين مجملًا ، ونص على أعيان من الرسل ، وأجمل ذكر بقية الأنبياء ، وأن لا يفرقوا بين أحد منهم بل يؤمنوا بهم كلهم ، ولا يكونوا كمن قال الله فيهم ﴿وَيَرِيدُونَ أَنْ يُفْرِقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيَقُولُونَ نَؤْمِنُ بِعِصْمَانَ وَنَكْفُرُ بِعَصْمَانَ وَيَرِيدُونَ أَنْ يَتَخَذُوا بَيْنَ ذَلِكُمْ سَبِيلًا﴾ . **أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًا﴾ [ النساء : ١٥٠ ] .**

وقال البخاري : حديثنا محمد بن بشار ، أخبرنا عثمان بن عمدة ، أخبرنا علي بن المبارك عن يحيى بن أبي كثیر ، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن ، عن أبي هريرة ، قال : كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : « لَا تَصْدِقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا تَكْذِبُوهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ اللَّهُ». »

وقد روى مسلم وأبو داود والنسائي من حديث عثمان بن حكيم عن سعيد بن يسار عن ابن عباس ، قال : كان رسول الله ﷺ أكثر ما يصلي الركعتين اللتين قبل الفجر بـ ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ الآية ، والأخرى بـ ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران : ٥٢] .

وقال أبو العالية والربيع وقتادة : الأسباط بنو يعقوب اثنا عشر رجلاً ، ولد كل رجل منهم أمة

(١) الآثار الواردة في تفسير هذه الآية حكاها الطبرى في تفسيره ٦١٦ / ١ — ٦١٧ .

من الناس، فسموا الأسباط<sup>(١)</sup>.

وقال الخليل بن أحمد وغيره: الأسباط فيبني إسرائيل كالقبائل فيبني إسماعيل، وقال الرمخشري في الكشاف: الأسباط قبائل بني إسرائيل، وهذا يقتضي أن المراد بالأسباط هؤلاء شعوب بني إسرائيل، وما أنزل الله من الوحي على الأنبياء الموجودين منهم، كما قال موسى لهم: «اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً» [المائدة: ٢٠]، وقال تعالى: «وقطعنهم اثنتي عشرة أسباطاً» [الأعراف: ١٠٦] قال القرطبي<sup>(٢)</sup>: سمو الأسباط من السبط، وهو التتابع، فهم جماعة، وقيل أصله من السبط، بالتحريك، وهو الشجر، أي في الكثرة بمنزلة الشجر، الواحدة سبطه. قال الزجاج: وبين لك أصله ما حدثنا محمد بن جعفر الأنباري، حدثنا أبو نجید الدقاد، حدثنا الأسود بن عامر، حدثنا إسرائيل عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: كل الأنبياء من بني إسرائيل إلا عشرة: نوح وهود وصالح وشعيب وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وإسماعيل و Mohammad عليهم الصلاة والسلام، قال القرطبي: والسبط الجماعة والقبيلة الراجعون إلى أصل واحد.

وقال قتادة: أمر الله المؤمنين أن يؤمنوا به ويصدقوا بكتبه كلها وبرسله. وقال سليمان بن حبيب: إنما أمرنا أن نؤمن بالتوراة والإنجيل، ولا نعمل بما فيهما. وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا محمد بن محمد بن مصعب الصوري، أخبرنا مؤمل، أخبرنا عبيد الله بن أبي حميد عن أبي المليح، عن مقلن بن يسار، قال: قال رسول الله ﷺ «آمنوا بالتوراة والزبور والإنجيل وليس عكلكم القرآن».

**فَإِنَّمَا مَنْأُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنُتُمْ بِهِ فَقَدْ أَهْتَدَوْا وَإِنْ تُؤْنَوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شَقَاقٍ فَسِكِّيفِكُهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴿١١﴾ صَبَغَةُ اللَّهِ وَمَنْ أَحَسَنَ مِنْ اللَّهِ صَبَغَةً وَتَخْنُلُ لَمْ يَعْلِمُونَ

يقول تعالى: فإن آمنوا، يعني الكفار من أهل الكتاب وغيرهم، بمثل ما آمنت به يا أيها المؤمنون من الإيمان بجميع كتب الله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم (فقد اهتدوا) أي فقد أصابوا الحق وأرشدوا إليه ( وإن تولوا) أي عن الحق إلى الباطل بعد قيام الحجة عليهم (فإنما هم في شقاق فسيكفيكهم الله)، أي فسينصرك عليهم ويفوز بك بهم (وهو السميع العليم).

قال ابن أبي حاتم:قرأ علي بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرنا زياد بن يونس، حدثنا نافع بن أبي نعيم، قال: أرسل إلى بعض الخلق مصحف عثمان بن عفان ليصلحه، قال زياد: فقلت له: إن الناس ليقولون إن مصحفه كان في حجره حين قتل فوق الدم على (فسِكِّيفِكُهُمُ الله وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ) فقال نافع: بصرت عيني بالدم على هذه الآية، وقد قدم.

(١) تفسير الطبرى ٦١٩/١

(٢) تفسير القرطبي ١٤١/٢

وقوله ﴿صَبْغَةُ اللَّهِ﴾، قال الضحاك عن ابن عباس: دين الله، وكذا روي عن مجاهد وأبي العالية وعكرمة وإبراهيم والحسن وقتادة والضحاك وعبد الله بن كثير وعطيه العوفي والربيع بن أنس والسدي نحو ذلك. وانتصب صبغة الله إما على الإغراء كقوله ﴿فَطْرَةُ اللَّهِ﴾ أي الزموا ذلك عليكموه، وقال بعضهم: بدلًا من قوله ﴿مَلْتَ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الروم: ٣٠] وقال سيبويه: هو مصدر مؤكّد انتصب عن قوله ﴿آمَنَا بِاللَّهِ﴾ كقوله ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾.

وقد ورد في حديث رواه ابن أبي حاتم وابن مردويه من روایة أشعث بن إسحاق عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس أنّ نبی اللہ ﷺ قال «إنّ بنی اسرائیل قالوا: يا رسول الله، هل يصيغ ربک؟ فقال: اتقوا الله. فناداه ربک: يا موسى سألك هل يصيغ ربک؟ فقال: نعم، أنا أصبح الألوان: الأحمر والأبيض والأسود، والألوان كلها من صبغي» وأنزل الله على نبیه ﷺ ﴿صَبْغَةُ اللَّهِ وَمِنْ أَحْسَنِ مِنَ اللَّهِ صَبْغَةً﴾ كذا وقع في روایة ابن مردويه مرفوعاً، وهو في روایة ابن أبي حاتم موقف و هو أشبه إن صح إسناده والله أعلم.

قُلْ أَتَحْاجِجُونَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَمْ نُخْلِصُنَا ۝ ۝ ۝ أَمْ نَقُولُونَ ۝ ۝ ۝ إِنَّ إِنْرَهْمَ وَإِشْمَعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ إِنَّكُمْ أَعْمَلُكُمْ أَمْ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَدَةَ عِنْدَهُ مِنْ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِعَفِيفٌ عَمَّا قَصَمُونَ ۝ ۝ ۝ تِلْكَ أُمَّةٌ فَدَخَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْتَأْلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ ۝ ۝

يقول الله تعالى مرشدًا نبیه صلوات الله وسلامه عليه إلى درء مجادلة المشركين: ﴿قُلْ أَتَحْاجِجُونَا فِي اللَّهِ﴾ أي تاظروننا في توحيد الله والإخلاص له والإنتقاد واتباع أوامره وترك زواجهه (وهو ربنا وربکم) المتصرف فيما وفيكم المستحق لإخلاص الإلهية له وحده لا شريك له (ولنا أعمالنا ولكم أعمالکم) أي نحن براء منكم ومما تعبدون وأنت براء منا، كما قال في الآية الأخرى ﴿فَإِنْ كَذَبُوكَ فَقُلْ لِي عَمْلِي وَلَكُمْ عَمْلُكُمْ﴾ أنت بريئ من ما عمل وأنا بريء مما تعملون﴿ [يونس: ٤١ - ٤٢] وقال تعالى: ﴿فَإِنْ حَاجُوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ اللَّهُ وَمَنْ اتَّعْنَى﴾ [آل عمران: ٢٠] إلى آخر الآية، وقال تعالى إخباراً عن إبراهيم (وحاجة قومه قال أتحاجوني في الله) [الأنعام: ٨٠] إلى آخر الآية، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، وقال في هذه الآية الكريمة (ولنا أعمالنا ولكم أعمالکم ونحن له مخلصون) أي نحن براء منكم كما أنت براء منا، ونحن له مخلصون أي في العبادة والتوجّه، ثم انكر تعالى عليهم في دعواهم أن إبراهيم ومن ذكر بعده من الأنبياء والأساطير، كانوا على ملتهم إما اليهودية وإما النصرانية، فقال: ﴿قُلْ أَنَّتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ يعني بل الله أعلم، وقد أخبر أنهم لم يكونوا هوداً ولا نصارى كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصَارَىً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشَرِّكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧] والتي بعدها.

وقوله ﴿وَمِنْ أَظْلَمُ مَنْ كَتَمَ شَهَادَةَ عَنْهُ مِنَ الَّهِ﴾ قال الحسن البصري : كانوا يقرأون في كتاب الله الذي أتاهم إن الدين الإسلام وإن محمدًا رسول الله وإن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأساطير ، كانوا براء من اليهودية والنصرانية فشهدوا الله بذلك ، وأفروا على أنفسهم الله ، فكتموا شهادة الله عندهم من ذلك .

وقوله ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ تهديد ووعيد شديد ، أي أن علمه محيط بعلمكم وسيجزيكم عليه . ثم قال تعالى : ﴿تَلَكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ أي قد مضت ، ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ أي لهم أعمالهم ولكم أعمالكم ﴿وَلَا تَسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ وليس يعني عنكم انتسابكم إليهم من غير متابعة منكم لهم ، ولا تغتروا بمجرد النسبة إليهم حتى تكونوا منقادين مثلهم لأوامر الشهوات اتباع رسالته الذين بعثوا مبشرين ومنذرين ، فإنه من كفربني واحد ، فقد كفر بسائر الرسل ولا سيما بسيد الأنبياء وخاتم المرسلين ورسول رب العالمين إلى جميع الإنس والجن من المكلفين صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر أنبياء الله أجمعين .

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَدُهُمْ عَنْ قِبَلِهِمْ أَلَّيْ كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَسْرِقُ وَالْمَعْرِبُ يَهْدِي مَنِ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً وَسَطَا لَنَّكُوْنُوا شَهَادَةَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونُونَ الرَّسُولُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ أَلَّيْ كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِتَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقِلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لِكِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيِّعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾

قيل : المراد بالسفهاء - هنا مشركون العرب ، قاله الزجاج ، وقيل أحبار يهود ، قاله مجاهد ،  
وقيل : المنافقون ، قاله السدي ، والأية عامة في هؤلاء كلهم ، والله أعلم .

قال البخاري <sup>(١)</sup> : أخبرنا أبو نعيم ، سمع زهيراً عن أبي إسحاق ، عن البراء رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ صلى إلى بيته المقدس ستة عشر شهراً ، أو سبعة عشر شهراً ، وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت ، وأنه صلى أول صلاة <sup>(٢)</sup> صلاتها صلاة العصر ، وصلى معه قوم فخرج رجل من كان يصلي <sup>(٣)</sup> معه ، فمر على أهل المسجد وهم راكعون ، قال : أشهد بالله لقد صليةت مع النبي ﷺ قبل مكة ، فداروا كما هم قبل البيت ، وكان الذي مات على القبلة قبل ان تحول قبل البيت رجال قتلوا لم ندر ما نقول فيهم ، فأنزل الله ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيِّعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ انفرد به البخاري من هذا الوجه ، ورواه مسلم من وجه آخر .

وقال محمد بن إسحاق : حدثني إسماعيل بن أبي خالد عن أبي إسحاق ، عن البراء ، قال :

(١) صحيح البخاري (تفسير سورة البقرة باب ٨).

(٢) عبارة الصحيح : «وأنه صلى أو صلاتها صلاة العصر» .

(٣) في الصحيح : «صلى معه» .

كان رسول الله ﷺ يصلی نحو بيت المقدس ، ويكثر النظر إلى السماء يتضرر أمر الله ، فأنزل الله ﷺ **﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضهاها فول وجهك شطر المسجد الحرام﴾** [البقرة: ١٤٤] فقال رجل من المسلمين : وددنا لو علمنا علم من مات منا قبل أن نصرف إلى القبلة ، وكيف بصلاتنا نحو بيت المقدس ، فأنزل الله ﷺ **﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾** وقال السفهاء من الناس ، وهم أهل الكتاب : ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ، فأنزل الله ﷺ **﴿سيقول السفهاء من الناس﴾** إلى آخر الآية .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة ، حدثنا الحسن بن عطية ، حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن البراء ، قال : كان رسول الله ﷺ قد صلى نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً ، وكان يحب أن يوجه نحو الكعبة ، فأنزل الله ﷺ **﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضهاها فول وجهك شطر المسجد الحرام﴾** قال : فوجه نحو الكعبة وقال السفهاء من الناس وهم اليهود **﴿ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها﴾** فأنزل الله ﷺ **﴿قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾** .

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : إن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة أمره الله أن يستقبل بيت المقدس ، ففرحت اليهود ، فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهراً وكان رسول الله ﷺ يحب قبلة إبراهيم ، فكان يدعو الله وينظر إلى السماء ، فأنزل الله عز وجل : **﴿فولوا وجوهكم شطراه﴾** [البقرة: ١٤٤ - ١٥٠] أي نحوه ، فارتبا من ذلك اليهود وقالوا : ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ؟ فأنزل الله ﷺ **﴿قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾** .

وقد جاء في هذا الباب أحاديث كثيرة ، وحاصل الأمر أنه قد كان رسول الله ﷺ أمر باستقبال الصخرة من بيت المقدس ، فكان بمكة يصلي بين الركنين ، فتكون بين يديه الكعبة وهو مستقبل صخرة بيت المقدس ، فلما هاجر إلى المدينة تذرع الجمع بينهما ، فأمره الله بالتوجه إلى بيت المقدس ، قال ابن عباس والجمهور : ثم اختلف هؤلاء ، هل كان الأمر به بالقرآن أو بغيره على قولين .

وحكى القرطبي في تفسيره عن عكرمة وأبي العالية والحسن البصري : إن التوجّه إلى بيت المقدس كان باجتهاده عليه السلام .

والمقصود : إن التوجّه إلى بيت المقدس بعد مقدمه ﷺ المدينة ، واستمر الأمر على ذلك بضعة عشر شهراً وكان يكثر الدعاء والابتهاج أن يوجه إلى الكعبة التي هي قبلة إبراهيم عليه السلام ، فأجيب إلى ذلك وأمر بالتوجّه إلى البيت العتيق ، فخطب رسول الله ﷺ الناس فأعلمهم بذلك ، وكان أول صلاة صلاتها إليها صلاة العصر ، كما تقدم في الصحيحين رواية البراء .

ووقع عند النسائي من رواية أبي سعيد بن المعلى أنها الظهر، وقال: كنت أنا وصاحبى أول من صلى إلى الكعبة.

وذكر غير واحد من المفسرين وغيرهم: أن تحويل القبلة نزل على رسول الله وقد صلي ركعتين من الظهر، وذلك في مسجدبني سلمة، فسمي مسجد القبلتين، وفي حديث نويلة بنت مسلم: أنهم جاءهم الخبر بذلك وهم في صلاة الظهر، قالت: فتحول الرجال مكان النساء والنساء مكان الرجال، ذكره الشيخ أبو عمر بن عبد البر التمري، وأما أهل قباء فلم يبلغهم الخبر إلى صلاة الفجر اليوم الثاني، كما جاء في الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما، أنه قال: بينما الناس بقباء في صلاة الصبح، إذ جاءهم آت فقال: إن رسول الله ﷺ قد أنزل عليه الليلة قرآن وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها، وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة. وفي هذا دليل على أن الناسخ لا يلزم حكمه إلا بعد العلم به، وإن تقدم نزوله وإبلاغه، لأنهم لم يؤمنوا بإعادة العصر والمغرب والعشاء، والله أعلم. ولما وقع هذا، حصل لبعض الناس من أهل النفاق والريب والكفرة من اليهود ارتياط، وزيف عن الهدى وتخبيط وشك، وقالوا «ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها» أي قالوا: ما لهؤلاء تارة يستقبلون كذا وتارة يستقبلون كذا؟ فأنزل الله جوابهم في قوله ﴿قُلْ لِلّٰهِ الْمَشْرُقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ أي الحكم والتصرف والأمر كله لله ﴿فَإِنَّمَا تَوَلُّوْا فَثُمَّ وَجَهُوا﴾ [البقرة: ١١٥] و﴿لَيْسَ الْبَرُّ أَنْ تَوَلُّوْا وَجْهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرُقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكُنَّ الْبَرُّ مِنْ آمِنِ بِاللّٰهِ﴾ [البقرة: ١٧٧] أي الشأن كله في امثال أوامر الله، فحيثما وجها توجها، فالطاعة في امثال أمره ولو وجها في كل يوم مرات إلى جهات متعددة: ففتحن عبيده وفي تصرفه، وخدماته حيضا وجها توجها، وهو تعالى له بعده ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه وأمته عناية عظيمة إذ هداهم إلى قبلة إبراهيم خليل الرحمن، وجعل توجههم إلى الكعبة المبنية على اسمه تعالى وحده لا شريك له أشرف بيوت الله في الأرض، إذ هي بناء إبراهيم الخليل عليه السلام ولهذا قال: ﴿قُلْ لِلّٰهِ الْمَشْرُقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مِنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

وقد روى الإمام أحمد<sup>(١)</sup> عن علي بن عاصم عن حصين بن عبد الرحمن، عن عمرو<sup>(٢)</sup> بن قيس، عن محمد بن الأشعث، عن عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ، يعني في أهل الكتاب: «إنهم لا يحسدوننا على شيء كما يحسدوننا على يوم الجمعة التي هدانا الله لها وضلوا عنها، وعلى القيمة التي هدانا الله لها وضلوا عنها، وعلى قولنا خلف الإمام: أمين».

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أَمَةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ يقول تعالى: إنما حولناكم إلى قبلة إبراهيم عليه السلام، واختربناها لكم

(١) مسند أحمد (ج ٦ ص ١٣٥).

(٢) في المستند «عمر».

لنجعلكم خيار الأمم لتكونوا يوم القيمة شهادة على الأمم، لأن الجميع معترفون لكم بالفضل، والوسط ه هنا الخيار والأجداد كما يقال: قريش أو سط العرب نسباً وداراً، أي خيرها، وكان رسول الله ﷺ وسطاً في قومه، أي أشرفهم نسباً، ومنه الصلاة الوسطى التي هي أفضل الصلوات وهي العصر، كما ثبت في الصحيح وغيرها. ولما جعل الله هذه الأمة وسطاً، خصها بأكمل الشرائع وأقوم المنهاج وأوضح المذاهب، كما قال تعالى: «هو اجتباك وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهادة على الناس» [الحج: ٧٨].

وقال الإمام أحمد<sup>(١)</sup>: حدثنا وكيع عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد، قال: قال رسول الله ﷺ «يدعى نوح يوم القيمة، فيقال له: هل بلغت؟ فيقول: نعم، فيدعى قومه فيقال لهم: هل بلغتم فيقولون: ما أتانا من نذير وما أتانا من أحد، فيقال لـنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، قال فذلك قوله: «وكذلك جعلناكم أمة وسطاً» قال: والوسط العدل، فتدعون فتشهدون له بالبلاغ ثم أشهد عليكم» رواه البخاري والترمذى والنسائي وابن ماجه من طرق عن الأعمش.

وقال الإمام أحمد<sup>(٢)</sup> أيضاً: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش عن أبي صالح، عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ «يجيء النبي يوم القيمة ومعه الرجال وأكثر من ذلك، فيدعى قومه، فيقال: هل بلغتم هذا؟ فيقولون: لا فيقال له: هل بلغت قومك؟ فيقول: نعم، فيقال: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فيدعى محمد وأمته، فيقال لهم: هل بلغ هذا قومه؟ فيقولون: نعم، فيقال: وما علمتم؟ فيقولون: جاءنا نبينا فأخبرنا أن الرسل قد بلغوا، فذلك قوله عز وجل: «وكذلك جعلناكم أمة وسطاً» قال: عدلاً «لتكونوا شهادة على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً».

وقال أحمد أيضاً: حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ في قوله تعالى: «وكذلك جعلناكم أمة وسطاً» قال عدلاً.

وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه وابن أبي حاتم، من حديث عبد الواحد بن زياد عن أبي مالك الأشجعي عن المغيرة بن عتبة بن نهاس، حدثني مكاتب لنا عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ قال: «أنا وأمي يوم القيمة على كوم مشرفين على الخلائق، ما من الناس أحد إلا ود أنه مني وما من نبي كذبه قوله إلا ونحو نشهد أنه قد بلغ رسالة رب عز وجل».

وروى الحاكم في مستدركه وابن مردويه أيضاً، واللفظ له من حديث مصعب بن ثابت عن محمد بن كعب القرظي عن جابر بن عبد الله قال: شهد رسول الله ﷺ جنازة في بني مسلمة

(١) مسنـدـ أـحمدـ (جـ ٣ـ صـ ٣٢ـ).

(٢) مسنـدـ أـحمدـ (جـ ٣ـ صـ ٥٨ـ).

وكنت إلى جانب رسول الله ﷺ فقال بعضهم: والله يا رسول الله لنعم المرء كان، لقد كان عفيفاً مسلماً وكان... وأنثنا عليه خيراً، فقال رسول الله ﷺ: أنت بما تقول. فقال الرجل: الله يعلم بالسرائر، فأما الذي بدا لنا منه فذاك، فقال النبي ﷺ وجبت وجبت، ثم شهد جنازة فيبني حارثة وكانت إلى جانب رسول الله ﷺ فقال بعضهم: يا رسول الله بئس المرء كان إن كان لفظاً غليظاً فأنثنا عليه شراً، فقال رسول الله ﷺ لبعضهم: أنت بالذى تقول. فقال الرجل: الله أعلم بالسرائر، فأما الذي بدا لنا منه فذاك. فقال رسول الله ﷺ: وجبت. قال مصعب بن ثابت: فقال لنا عند ذلك محمد بن كعب: صدق رسول الله ﷺ ثم قرأ **﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أَمَّةً وَسْطًا لِّتَكُونُوا شَهَادَةً عَلَى النَّاسِ وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾** ثم قال الحاكم: هذا صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يونس بن محمد حدثنا داود بن أبي الفرات عن عبد الله بن بريدة عن أبي الأسود أنه قال: أتيت المدينة فوافقتها وقد وقع بها مرض فهم يموتون موتاً ذريعاً، فجلست إلى عمر بن الخطاب فمررت به جنازة فأثنى على صاحبها خيراً، فقال: وجبت وجبت، ثم مر بأخرى فأثنى عليها شراً، فقال عمر: وجبت. فقال أبو الأسود: ما وجبت يا أمير المؤمنين قال، قلت كما قال رسول الله ﷺ **﴿إِيمَانًا مُسْلِمًا شَهَدَ لَهُ أَرْبَعَةُ بَخِيرٍ أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ﴾** قال: فقلنا وثلاثة قال: فقال «وثلاثة» قال: فقلنا واثنان: قال «واثنان». ثم لم نسأله عن الواحد. وكذا رواه البخاري والترمذى والنمسائى من حديث داود بن أبي الفرات به.

وقال ابن مردوه حدثنا أحمد بن عثمان بن يحيى حدثنا أبو قلابة الرقاشي، حدثني أبو الوليد حدثنا نافع بن عمر حدثني أمية بن صفوان عن أبي بكر بن أبي زهير التقي عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ **بالنبأ**<sup>(١)</sup> يقول: **﴿يُوشِكُ أَنْ تَعْلَمُوا خِيَارَكُمْ مِنْ شَرَارِكُمْ﴾** قالوا: بم يا رسول الله؟ قال: **﴿بِالثَّنَاءِ الْحَسْنِ وَالثَّنَاءِ السَّيِّءِ أَنْتُمْ شَهَادَةُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ﴾**، ورواه ابن ماجة عن أبي بكر بن أبي شيبة عن يزيد بن هارون، ورواه الإمام أحمد عن يزيد بن هارون وعبد الملك بن عمر وشريح عن نافع عن ابن عمر به.

وقوله تعالى: **﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مَمْنُونَ يَنْقُلِبُ عَلَى عَقْبِيهِ، وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾** يقول تعالى: إنما شرعنا لك يا محمد التوجه أولاً إلى بيت المقدس، ثم صرفناك عنها إلى الكعبة ليظهر حال من يتعاك ويطريك، ويستقبل معك حيثما توجهت ومن ينقلب على عقبه، أي مرتدأ عن دينه وإن كانت لكبيرة، أي هذه الفعلة وهو صرف التوجه عن بيت المقدس إلى الكعبة، أي وإن كان هذا الأمر عظيماً في النفوس إلا على الذين هدى الله قلوبهم وأيقنوا بتصديق الرسول، وأن كل ما جاء به فهو الحق الذي لا مرية فيه، وأن الله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد فله أن يكلف عباده بما شاء وينسخ ما يشاء، وله الحكمة التامة والحججة البالغة في جميع ذلك بخلاف الذين في قلوبهم مرض، فإنه كلما حدث

أمر أحدث لهم شكاً كما يحصل للذين آمنوا إيقان وتصديق، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْتُ سُورَةً فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زادَهُ هَذِهِ إِيمَانًا؟ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبَشِّرُونَ \* وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرْضٌ فَزَادَتْهُمْ رَجْسًا إِلَى رَجْسِهِم﴾ [التوبه: ١٢٤ - ١٢٥] ، وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شَفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢] ولهذا كان من ثبت على تصديق الرسول ﷺ واتباعه في ذلك وتوجيه حيث أمره الله من غير شك ولا ريب من سادات الصحابة، وقد ذهب بعضهم إلى أن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار هم الذين صلوا إلى القبلتين.

وقال البخاري<sup>(١)</sup> في تفسير هذه الآية: حدثنا مسدد حدثنا يحيى عن سفيان عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال: بينما الناس يصلون الصبح في مسجد قباء إذ جاء رجل<sup>(٢)</sup> فقال: قد أنزل على النبي ﷺ قرآن وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها، فتوجهوا إلى الكعبة. وقد رواه مسلم من وجه آخر عن ابن عمر ورواه الترمذى من حديث سفيان الثورى وعنه أنس بن حماد عن سلمة عن ثابت فاستداروا كما هم إلى الكعبة وهم ركوع، وكذا رواه مسلم من حديث حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس مثله، وهذا يدل على كمال طاعتكم الله ولرسوله وانقيادهم لأمر الله عز وجل رضي الله عنهم أجمعين.

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُم﴾ أي صلاتكم إلى بيت المقدس قبل ذلك ما كان يضيع ثوابها عند الله، وفي الصحيح من حديث أبي إسحاق السبئي عن البراء قال: مات قوم كانوا يصلون نحو بيت المقدس، فقال الناس: ما حالهم في ذلك؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُم﴾ ورواه الترمذى عن ابن عباس وصححه.

وقال ابن إسحاق: حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُم﴾ أي بالقبلة الأولى وتصديقكم نبيكم واتباعه إلى القبلة الأخرى، أي ليعطىكم أجرهما جميعاً ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

وقال الحسن البصري ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُم﴾ أي ما كان الله ليضيع محمداً ﷺ وانصرافكم معه حيث انتصر. ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ رأى امرأة من السبي قد فرق بينها وبين ولدها فجعلت كلما وجدت صبياً من السبي أخذته فأصلقته بصدرها وهي تدور على ولدها، فما وجدته ضمته إليها وألقته ثديها، فقال رسول الله ﷺ «أترؤن هذه طارحة ولدها في النار وهي تقدر على أن لا تطرحه؟» قالوا: لا يا رسول الله. قال: «فوالله أرحم بعباده من هذه

(١) صحيح البخاري (تفسير سورة البقرة باب ٧).

(٢) في الصحيح: «إذ جاءَ جاءَ».

(١) بولدها».

فَدَنَرَى تَقْلِبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُولِينَكَ قِبْلَةً تَرْضِدُهَا فَوْلَ وَجْهَكَ شَطَرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ  
وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُوا وُجُوهُكُمْ سَطْرٌ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: كان أول ما نسخ من القرآن القبلة، وذلك أن رسول الله ﷺ، لما هاجر إلى المدينة وكان أكثر أهلها اليهود فأمره الله أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود فاستقبلها رسول الله ﷺ بسبعة عشر شهرًا، وكان يحب قبلة إبراهيم فكان يدعو إلى الله وينظر إلى السماء فأنزل الله ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء﴾ إلى قوله: ﴿فولوا وجوهكم شطره﴾ فارتابت من ذلك اليهود وقالوا: ﴿ما لاهم عن قبتهم التي كانوا عليها قل الله المشرق والمغرب﴾ [البقرة: ١٤٢] وقال: ﴿فainما تولوا فثم وجه الله﴾ [البقرة: ١١٥] وقال الله تعالى: ﴿وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لتعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبه﴾ [البقرة: ١٤٣].

وروى ابن مردويه من حديث القاسم العمري عن عممه عبيد الله بن عمر عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ إذا سلم من صلاته إلى بيت المقدس رفع رأسه إلى السماء، فأنزل الله ﴿فلنولينك قبلاً ترضيها فول وجهك شطر المسجد الحرام﴾ إلى الكعبة إلى المizarب يؤم به جبرائيل عليه السلام.

وروى الحكمي في مستدركه من حديث شعبة عن يعلى بن عطاء عن يحيى بن قمطة قال: رأيت عبد الله بن عمرو جالساً في المسجد الحرام يازأ المizarب فتلى هذه الآية، ﴿فلنولينك قبلاً ترضها﴾ قال: نحو مizarب الكعبة. ثم قال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ورواه ابن أبي حاتم عن الحسن بن عرفة عن هشام عن يعلى بن عطاء به. وهكذا قال غيره وهو أحد قولي الشافعية رضي الله عنه: إن الغرض إصابة عين القبلة، والقول الآخر وعليه الأكثرون: أن المراد المواجهة، كما رواه الحكمي من حديث محمد بن إسحاق عن عمير بن زياد الكندي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ﴿فول وجهك شطر المسجد الحرام﴾ قال شطره: قبله، ثم قال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، وهذا قول أبي العالية ومجاحد وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة والربيع بن أنس وغيرهم. وكما تقدم في الحديث الآخر «ما بين المشرق والمغرب قبلة».

وقال القرطبي (٢): روى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ

(١) صحيح مسلم (توبه حديث ٢٢).

(٢) تفسير القرطبي ٢/ ١٥٩.

قال: «البيت قبلة لأهل المسجد والمسجد قبلة لأهل الحرم والحرم قبلة لأهل الأرض في مشارقها ومغاربها من أمتي».

وقال أبو نعيم الفضل بن دكين: حدثنا زهير عن أبي إسحاق عن البراء أن النبي ﷺ صلى قبل بيته المقدس ستة عشر شهراً، أو سبعة عشر شهراً، وكان يعجبه قبنته قبل البيت وأنه صلى صلاة العصر وصلى معه قوم، فخرج رجل من كان يصلى معه فمر على أهل المسجد وهم راكعون فقال: أشهد بالله لقد صليت مع رسول الله ﷺ قبل مكة فداروا كما هم قبل البيت.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن البراء قال: لما قدم رسول الله ﷺ بالمدينة صلى نحو بيته المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، وكان رسول الله ﷺ يحب أن يحول نحو الكعبة، فنزلت **﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء﴾** فصرف إلى الكعبة.

وروى النسائي عن أبي سعيد بن المعلى قال: كنا نغدو إلى المسجد على عهد رسول الله ﷺ فنصلي فيه فمررنا يوماً برسول الله ﷺ قاعد على المنبر، فقلت: لقد حدث أمي فجلسست، فقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: **﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضها﴾** حتى فرغ من الآية، فقلت لصاحبي: تعال نركع ركتبين قبل أن يتزل رسول الله ﷺ، فنكون أول من صلى، فتوارينا فصليناها. ثم نزل النبي ﷺ وصلى للناس الظهر يومئذ.

وكذا روى ابن مردويه عن ابن عمر: أن أول صلاة صلاتها رسول الله ﷺ إلى الكعبة صلاة الظهر وإنها الصلاة الوسطى، والمشهور أن أول صلاة صلاتها إلى الكعبة صلاة العصر ولهذا تأخر الخبر عن أهل قباء إلى صلاة الفجر.

وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه: حدثنا سليمان بن أحمد حدثنا الحسين بن إسحاق التستري، حدثنا رجاء بن محمد السقطي حدثنا إسحاق بن إدريس حدثنا إبراهيم بن جعفر، حدثني أبي عن جدته أم أبيه نويلة بنت مسلم قالت: صلينا الظهر أو العصر في مسجدبني حارثة فاستقبلنا مسجد إيليا<sup>(١)</sup> فصلينا ركتعين، ثم جاء من يحدثنا أن رسول الله ﷺ قد استقبل البيت الحرام فتحول النساء مكان الرجال والرجال مكان النساء، فصلينا السجدين الباقيتين ونحن مستقبلون البيت الحرام، فحدثني رجل من بني حارثة أن النبي ﷺ قال: «أولئك رجال يؤمنون بالغيب».

وقال ابن مردويه أيضاً، حدثنا محمد بن علي بن دحيم حدثنا أحمد بن حازم حدثنا مالك بن إسماعيل النهدي حدثنا قيس عن زياد بن علامة عن عمارة بن أوس قال: بينما نحن في الصلاة نحو بيته المقدس ونحن ركوع إذ نادى مناد بالباب: إن القبلة قد حولت إلى الكعبة، قال فأشهد على إمامتنا أنه انحرف فتحول هو والرجال والصبيان وهم ركوع نحو الكعبة.

(١) إيليا: بيت المقدس.

وقوله: ﴿وَحِيثُ مَا كُنْتُمْ فَوْلُوا وَجْهَكُمْ شَطْرَه﴾ أمر تعالى باستقبال الكعبة من جميع الجهات الأرض شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، ولا يستثنى من هذا شيء سوى النافلة في حال السفر فإنه يصلها حياماً توجه قالبه وقلبه نحو الكعبة، وكذا في حال المسماقة في القتال يصلي على كل حال. وكذا من جهل جهة القبلة يصلها باجتهاده وإن كان مخططاً في نفس الأمر، لأن الله تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها.

[مسألة] وقد استدل المالكية بهذه الآية على أن المصلحي ينظر أمامه لا إلى موضع سجوده كما ذهب إليه الشافعي وأحمد وأبو حنيفة، قال المالكية بقوله: ﴿فَوْلَ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ فلو نظر إلى موضع سجوده لاحتاج أن يتكلف ذلك بنوع من الانحناء وهو ينافي كمال القيام، وقال بعضهم: ينظر المصلحي في قيامه إلى صدره. وقال شريك القاضي: ينظر في حال قيامه إلى موضع سجوده كما قال جمهور الجماعة، لأنه أبلغ في الخضوع وأكيد في الخشوع وقد ورد به الحديث، وأما في حال رکوعه فإلى موضع قدميه، وفي حال سجوده إلى موضع أنفه وفي حال قعوده إلى حجره.

وقوله: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ لِيَعْلَمُوا أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي واليهود الذين أنكروا استقبالكم وانصرافكم عن بيت المقدس، يعلمون أن الله تعالى سيوجهك إليهم بما في كتابهم عن أنبيائهم من النعم والصفة لرسول الله ﷺ وأمته، وما خصه الله تعالى به وشرفه من الشريعة الكاملة العظيمة، ولكن أهل الكتاب يتکاتمون ذلك بينهم حسداً وكفراً وعناداً ولهذا تهددهم تعالى بقوله: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾.

وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ إِعْلَمٍ مَا تَعْبُرُوا قِيلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِيلَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ  
قِيلَةً بَعْضٌ وَلَئِنْ أَتَبْعَثْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمْنَ

### الظَّالِمِينَ

يخبر تعالى عن كفر اليهود وعنادهم ومخالفتهم ما يعرفونه من شأن رسول الله ﷺ، وأنه لو أقام عليهم كل دليل على صحة ما جاءهم به لما اتبعواه وتركوا أهواهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلْمَةُ رَبِّكَ لَا يَؤْمِنُونَ﴾ ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم﴾ [يوهانس: ٩٦ - ٩٧] ولهذا قال هنا ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ إِعْلَمٍ مَا تَبَعَوا قِيلَتَكَ﴾ وقوله ﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِيلَهُمْ﴾ إخبار عن شدة متابعة الرسول ﷺ لما أمره الله تعالى به وأنه كما هم مستمسكون بأرائهم وأهواهم، فهو أيضاً مستمسك بأمر الله وطاعته واتباع مرضاته، وأنه لا يتبع أهواهم في جميع أحواله ولا كونه متوجهاً إلى بيت المقدس لكونها قبلة اليهود، وإنما ذلك عن أمر الله تعالى، ثم حذر تعالى عن مخالفته الحق الذي يعلمه العالم إلى الهوى، فإن العالم الحجة عليه أقوم من غيره، ولهذا قال مخاطباً للرسول والمراد به الأمة ﴿وَلَئِنْ أَتَبْعَثْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ

ما جاءك من العلم إنك إذاً لم من الظالمين ﴿١﴾.

الَّذِينَ أَتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنْ فِرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُوا الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٢﴾  
الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٣﴾

يخبر تعالى أن علماء أهل الكتاب، يعرفون صحة ما جاءهم به الرسول ﷺ كما يعرف أحدهم ولده، والعرب كانت تضرب المثل في صحة الشيء بهذا، كما جاء في الحديث<sup>(١)</sup>. أن رسول الله ﷺ قال لرجل معه صغير «ابنك هذا»؟ قال: نعم يا رسول الله أشهد به، قال «أما أنه لا يjenي عليك ولا تجني عليه».

قال القرطبي<sup>(٢)</sup>: ويروى عن عمر أنه قال لعبد الله بن سلام: أتعرف محمداً كما تعرف ولدك؟ قال، نعم وأكثر، نزل الأمين من السماء على الأمين في الأرض بنته فعرفته<sup>(٣)</sup>، وأبني لا أدرى ما كان من أمه (قلت) وقد يكون المراد «يعروفون أبناءهم» من بين أبناء الناس كلهم، لا يشك أحد ولا يمتري في معرفة ابنه إذا رأه من أبناء الناس كلهم. ثم أخبر تعالى أنهم مع هذا التحقق والإتقان العلمي «ليكتومون الحق» أي ليكتومون الناس ما في كتبهم من صفة النبي ﷺ «وهم يعلمون»، ثم ثبت تعالى نبيه ﷺ والمؤمنين وأخبرهم بأن ما جاء به الرسول ﷺ هو الحق الذي لا مرية فيه ولا شك، فقال: «الحق من ربك فلا تكونن من الممتنين»

وَلِكُلِّ وِجْهٍ هُوَ مُولِيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ إِلَيْكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾

قال العوفي عن ابن عباس. ولكل وجهة هو مولتها يعني بذلك أهل الأديان، يقول لكل قبيلة قبلة يرضونها ووجهة الله حيث توجه المؤمنون. وقال أبو العالية: لليهودي وجهة هو مولتها، وللنصراني وجهة هو مولتها، وهذاكم أنتم أيتها الأمة إلى القبلة التي هي القبلة. وروي عن مجاهد وعطاء والضحاك والرابع بن أنس والستي نحو هذا، وقال مجاهد في الرواية الأخرى والحسن: أمر كل قوم أن يصلوا إلى الكعبة، وقرأ ابن عباس وأبو جعفر الباقر وابن عامر «ولكل وجهة هو مولتها»، وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: «لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً» [المائدة: ٤٨] وقال هنا «أينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً إن الله على كل شيء قادر» أي هو قادر على جمعكم من الأرض وإن تفرقت أجسادكم وأبدانكم.

(١) مسند أحمد (ج ٥ ص ٨١).

(٢) تفسير القرطبي ١٦٣ / ٢.

(٣) عارة القرطبي: «بعث الله أمينه في سمائه إلى أمينه في أرضه فعرفته».

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوْلَ وَجْهَكَ شَطَرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِعَنْفَلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوْلَ وَجْهَكَ شَطَرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوْلًا وَجُوهَكُمْ شَطَرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشُونَ وَلَا تَرْأَسُنَ يَعْمَلُونَ  
وَلَعَلَّكُمْ تَهَدُونَ ﴿١٥٠﴾

هذا أمر ثالث من الله تعالى باستقبال المسجد الحرام من جميع أقطار الأرض، وقد اختلعوا في حكمه هذا التكرار ثلاث مرات، فقيل، تأكيد لأنه أول ناسخ وقع في الإسلام على ما نص فيه ابن عباس وغيره، وقيل: بل هو منزل على أحوال، فالأمر الأول لمن هو مشاهد الكعبة، والثاني لمن هو في مكة غائباً عنها، والثالث لمن هو في بقية البلدان، هكذا وجهه فخر الدين الرازي.

وقال القرطبي: الأول لمن هو بمكة، والثاني لمن هو في بقية الأمصار، والثالث لمن خرج في الأسفار، ورجح هذا الجواب القرطبي.

وقيل: إنما ذكر ذلك لتعلقه بما قبله أو بعده من السياق، فقال: أولاً **﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنوليك قبلة ترضها﴾** [البقرة: ١٤٤] إلى قوله **﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أَوتُوا الْكِتَابَ لِيَعْمَلُونَ أَنَّ الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾** [البقرة: ١٤٤] فذكر في هذا المقام إجابته إلى طلبه وأمره بالقبلة التي كان يود التوجه إليها ويرضها، وقال في الأمر الثاني، **﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوْلَ وَجْهَكَ شَطَرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِعَنْفَلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾** فذكر أنه الحق من الله وارتفاعه المقام الأول، حيث كان موافقاً لرضا الرسول ﷺ فيبين أنه الحق أيضاً من الله يحبه ويرتضيه، وذكر في الأمر الثالث حكمة قطع حجة المخالف من اليهود الذين كانوا يتحججون باستقبال الرسول إلى قبلتهم وقد كانوا يعلمون بما في كتبهم أنه سيصرف إلى قبلة إبراهيم عليه السلام إلى الكعبة، وكذلك مشركو العرب انقطع حجتهم لما صرف الرسول ﷺ عن قبلة اليهود إلى قبلة إبراهيم التي هي أشرف، وقد كانوا يعظمون الكعبة وأعجبهم استقبال الرسول إليها، وقيل غير ذلك من الأوجبة عن حكمة التكرار، وقد بسطها الرازى وغيره، والله أعلم.

وقوله، **﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾** أي: أهل الكتاب فإنهم يعلمون من صفة هذه الأمة التوجه إلى الكعبة، فإذا فقدوا ذلك من صفتها ربما احتجوا بها على المسلمين، ولئلا يتحجروا بموافقة المسلمين إياهم في التوجه إلى بيت المقدس، وهذا أظهر.

قال أبو العالية: **﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾** يعني به أهل الكتاب حين قالوا: صرف محمد إلى الكعبة. وقالوا: اشتاق الرجل إلى بيت أبيه ودين قومه وكان حجتهم على النبي ﷺ أنصرافه إلى البيت الحرام، وأن قالوا، سيرجع إلى ديننا كما رجع إلى قبلتنا.

قال ابن أبي حاتم: روى عن مجاهد وعطاء والضحاك والربيع بن أنس وفتادة والسدي نحو هذا، وقال هؤلاء في قوله ﴿إِلَّا الَّذِينَ ظلمُوا مِنْهُمْ﴾ يعني مشركي قريش.

ووجه بعضهم حجة الظلمة وهي داحضة، أن قالوا: إن هذا الرجل يزعم أنه على دين إبراهيم، فلم يرجع عنه والجواب أن الله تعالى اختار له التوجه إلى بيت المقدس، أولاً لاما له تعالى في ذلك من الحكمة، فأطاع ربها تعالى في ذلك ثم صرفه إلى قبلة إبراهيم وهي الكعبة، فامثل أمر الله في ذلك أيضاً، فهو صلوات الله وسلامه عليه مطيع لله في جميع أحواله لا يخرج عن أمر الله طرفة عين وأمنته تبع له.

وقوله، ﴿فَلَا تَخْشُوْهُمْ وَأَخْشُونِي﴾ أي لا تخشاوا شبه الظلمة المتعنتين وأفردوا الخشية لي، فإنه تعالى هو أهل أن يخشى منه، وقوله: ﴿وَلَا تَمْنَعُنِي عَلَيْكُمْ﴾ عطف على ﴿لِئَلَّا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حَجَّةٌ﴾، أي، لأنّ نعمتي عليكم فيما شرعت لكم من استقبال الكعبة، لتكميل لكم الشريعة من جميع وجوهها ﴿وَلِعِلْكُمْ تَهَدُونَ﴾ أي إلى ما ضلت عنه الأمم هديناكم إليه وخصصناكم به، ولهذا كانت هذه الأمة أشرف الأمم وأفضلها.

كَمَا أَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتَلَوَّعُ عَيْنَيْهِمْ أَيْنَتِنَا وَيُزَكِّيْهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحَكْمَةَ وَيُعَلِّمُهُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ فَإِذَا ذَكَرُونِي أَذْكُرُكُمْ وَأَسْكُرُوْلِي وَلَا تَكُفُّرُونِي

يدرك تعالى عباده المؤمنين ما أنعم به عليهم من بعثة الرسول محمد ﷺ إليهم يتلو عليهم آيات الله مبينات، ويزكيهم، أي يظهرهم من رذائل الأخلاق ودنس النفوس وأفعال الجاهلية، ويخرجهم من الظلمات إلى النور ويعلّمهم الكتاب، وهو القرآن، والحكمة وهي السنة، ويعلّمهم مالم يكونوا يعلمون، فكانوا في الجاهلية الجهلاء يسفهون بالعقل الغراء، فانتقلوا ببركة رسالته، ويفسرون سفارته، إلى حال الأولياء، وسبّاجيّ العلماء. فصاروا أعمق الناس علمًا، وأبرّهم قلوبًا، وأقلّهم تكلفاً، وأصدقهم لهجة. وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مِنَ اللَّهِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنفُسِهِمْ يَتَلَوُ عَلَيْهِمْ آيَاتٍ وَيُزَكِّيْهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وذم من لم يعرف قدر هذه النعمة، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحْلَلُوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَار﴾ [إبراهيم: ٢٨] قال ابن عباس: يعني بنعمة الله محمداً ﷺ، ولهذا ندب الله المؤمنين إلى الاعتراف بهذه النعمة ومقابلتها بذكره وشكره، وقال: ﴿فَإِذَا ذَكَرْنَاكُمْ وَاسْكُرُوا لِي وَلَا تَكُفُّرُونِ﴾.

قال مجاهد، في قوله: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ يقول: كما فعلت فاذكروني، قال عبد الله بن وهب: عن هشام بن سعد عن زيد بن أسلم أن موسى عليه السلام قال: يا رب كيف أشكرك؟ قال له ربه: «تذكريني ولا تنساني، فإذا ذكرتني فقد شكرتني، وإذا نسيتني فقد كفرتني» قال الحسن البصري وأبو العالية والسدي والربيع بن أنس: أن الله يذكر من ذكره ويزيد من شكره

ويعدب من كفره.

وقال بعض السلف في قوله تعالى، «اتقوا الله حق تقاته» [آل عمران: ١٠٢] قال، هو أن بطاع فلا يعصى ويدرك فلا ينسى ويشكراً فلا يكفر.

وقال ابن أبي حاتم، حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، أخبرنا يزيد بن هارون، أخبرنا عمارة الصيدلاني، أخبرنا مكحول الأزدي، قال: قلت لابن عمر: أرأيت قاتل النفس وشارب الخمر والسارق والزاني يذكر الله، وقد قال الله تعالى: «فاذكروني أذكريكم»؟ قال: إذا ذكر الله هذا ذكره الله بعلته حتى يسكت.

وقال الحسن البصري في قوله: «فاذكروني أذكريكم» قال: اذكريني فيما افترضت عليكم اذكريكم فيما أوجبت لكم على نفسي، وعن سعيد بن جبير: اذكريني بطاعتي اذكريكم بمغفرتي، وفي رواية، برحمتي. وعن ابن عباس في قوله: «اذكروني أذكريكم» قال: ذكر الله إياكم أكبر من ذكركم إياه.

وفي الحديث الصحيح: «يقول الله تعالى من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ومن ذكرني في ملأ ذكره في ملأ خير منه».

قال الإمام أحمد<sup>(١)</sup>: حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر عن قتادة عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله عز وجل: يا ابن آدم، إن ذكرتني في نفسك ذكرتك في نفسي، إن ذكرتني في ملأ ذكرتك في ملأ من الملائكة - أو قال، في ملأ خير منه - وإن دنوت مني شبراً دنوت منك ذراعاً، وإن دنوت مني ذراعاً دنوت منك باعاً، وإن أتيتني تمشي أتيتك هرولة»، صحيح الإسناد أخرجه البخاري من حديث قتادة، وعنده قال قتادة: الله أقرب بالرحمة<sup>(٢)</sup>.

وقوله: «واشکروا لی و لا تکفرون» أمر الله تعالى بشكره ووعد على شكره بمزيد الخير فقال: «وإذ تاذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتם إن عذابي لشديد» [إبراهيم: ٧] وقال الإمام أحمد<sup>(٣)</sup>: حدثنا روح، حدثنا شعبة عن الفضيل بن فضالة - رجل من قيس - حدثنا أبو رجاء العطاردي، قال: خرج علينا عمران بن حصين وعليه مطرف من خز لم نره عليه قبل ذلك ولا بعده، فقال، إن رسول الله ﷺ قال، «من أنعم الله عليه نعمة فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على خلقه»، وقال روح مرة: على عبده.

**يَتَأْيَهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَسْتَعِنُ بِالصَّابِرِ وَالْمَصْلُوفِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ**

(١) مستند أحمد (ج ٣ ص ١٣٨).

(٢) عبارة المستند: «قال قتادة: فالله عز وجل أسرع بالغفرة».

(٣) مستند أحمد (ج ٤ ص ٤٣٨).

اللَّهُ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنَ لَا تَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾

لما فرغ تعالى من بيان الأمر بالشكير، شرع في بيان الصبر والإرشاد والاستعانة بالصبر والصلوة، فإن العبد إما أن يكون في نعمة فيشكير عليها، أو في نعمة فيصبر عليها كما جاء في الحديث «عجبًا للمؤمن لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيراً له: إن أصابته ضراء فشكير كان خيراً له وإن أصابته ضراء فصبر كان خيراً له».

وبين تعالى أن أجود ما يستعان به على تحمل المصائب الصبر والصلوة كما تقدم في قوله: « واستعينوا بالصبر والصلوة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين » [البقرة: ٤٥]، وفي الحديث أن رسول الله ﷺ كان إذا حزبه أمر صلي، والصبر صبران فصبر على ترك المحارم والمأثم وصبر على فعل الطاعات والقربات، والثاني أكثر ثواباً لأن المقصود. وأما الصبر الثالث وهو الصبر على المصائب والنوايب، فذلك أيضاً واجب كالاستغفار من المعايب، كما قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الصبر في بابين: الصبر لله بما أحب وإن ثقل على الأنفس والأبدان، والصبر لله عما كره وإن نازعت إليه الأهواء، فمن كان هكذا فهو من الصابرين الذين يسلم عليهم إن شاء الله .

وقال علي بن الحسين زين العابدين: إذا جمع الله الأولين والآخرين ينادي مناد، أين الصابرون ليدخلوا الجنة قبل الحساب؟ قال: فيقوم عنق<sup>(١)</sup> من الناس فتتقاهم الملائكة فيقولون: إلى أين يابني آدم؟ فيقولون: إلى الجنة، فيقولون: قبل الحساب؟ قالوا: نعم، قالوا: ومن أنتم؟ قالوا: نحن الصابرون، قالوا: وما كان صبركم، قالوا: صبرنا على طاعة الله وصبرنا عن معصية الله حتى توفانا الله، قالوا: أنتم كما قلتم ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين.

(قلت) ويشهد لهذا قوله تعالى: «إِنَّمَا يُوفَى الصابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ» [الزمر: ١٠] وقال سعيد بن جبير: الصبر اعتراف العبد لله بما أصاب منه، واحتسابه عند الله رجاء ثوابه وقد يرجع الرجل وهو متجلد لا يرى منه إلا الصبر.

وقوله تعالى: «وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ»، يخبر تعالى أن الشهداء في برزخهم أحياه يرزقون، كما جاء في صحيح مسلم<sup>(٢)</sup>: أن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى قناديل معلقة تحت العرش، فاطلع عليهم ربك إطلاعة، فقال: ماذا تبغون؟ فقالوا: يا ربنا وأي شيء نبغى، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك؟ ثم عاد عليهم بمثل هذا فلما رأوا أنهم لا يتركون من أن يسألوا، قالوا: نريد أن ترددنا

(١) العنق (بالتحريك): الطائفة من الناس.

(٢) صحيح مسلم (إمارة حديث ١٢١). والحديث الذي يرويه ابن كثير هنا يختلف بلفظه كثيراً عما جاء في رواية مسلم. قارن أيضاً بسنن الترمذى (تفسير سورة ٣ باب ١٩).

إلى الدار الدنيا فتقاتل في سبيلك حتى نقتل فيك مرة أخرى - لما يرون من ثواب الشهادة - فيقول رب جل جلاله: إني كتبت أنهم إليها لا يرجعون.

وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد<sup>(١)</sup> عن الإمام الشافعي عن الإمام مالك عن الزهري عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: «نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه» فيه دلالة لعموم المؤمنين أيضاً وإن كان الشهداء قد خصصوا بالذكر في القرآن تشيرفاً وتكريماً وتعظيمًا.

وَلَنَبْلُونَكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخُوفِ وَالْجُوعِ وَنَفْقَضَ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرَ الصَّابِرِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ۝ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَواتٌ مِّنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهَتَّدُونَ ۝

١٥٧

أخبرنا تعالى أنه يبتلي عباده، أي يختبرهم ويختestsنهم كما قال تعالى: «ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم» [محمد: ٣١] فتارة بالسراء وتارة بالضراء من خوف وجوع كما قال تعالى: «فَإِذَا قَاتَاهَا اللَّهُ لِبَاسُ الْجُوعِ وَالْخُوفِ» [النحل: ١١٢] فإن الجائع والخائف كل منهما يظهر ذلك عليه، ولهذا قال لباس الجوع والخوف. وقال هنا: «بِشَيْءٍ مِّنَ الْخُوفِ وَالْجُوعِ» أي بقليل من ذلك «وَنَفْقَضَ مِنَ الْأَمْوَالِ» أي ذهاب بعضها «وَالْأَنْفُسِ» كموت الأصحاب والأقارب والأحباب «وَالثَّمَرَاتِ» أي لا تغل الحدائق والمزارع كعادتها.

قال بعض السلف: فكانت بعض التخيل لا تثمر غير واحدة، وكل هذا وأمثاله مما يخبر الله به عباده فمن صبر أثابه ومن قنط أحل به عقابه، ولهذا قال تعالى: «وَبَشِّرَ الصَّابِرِينَ» وقد حكى بعض المفسرين أن المراد من الخوف هنا خوف الله، وبالجوع صيام رمضان، وبنقص الأموال الزكاة، والأنفس الأمراض، والثمرات الأولاد، وفي هذا نظر، والله أعلم.

ثم بين تعالى من الصابرين الذين شكرهم فقال: «الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ» أي تسلوا بقولهم هذا عما أصابهم وعلموا أنهم ملك الله يتصرف في عباده بما يشاء، وعلموا أنه لا يضيع لديه مثقال ذرة يوم القيمة فأحدث لهم ذلك اعترافهم بأنهم عباده وأنهم إليه راجعون في الدار الآخرة. ولهذا أخبر تعالى عما أعطاهم على ذلك، فقال: «أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَواتٌ مِّنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ» أي ثناء من الله عليهم. قال سعيد بن جبير: أي أمنة من العذاب «أُولَئِكَ هُمُ الْمُهَتَّدُونَ» قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: نعم العدلان ونعمت العلاوة «أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَواتٌ مِّنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ» فهذا العدلان «أُولَئِكَ هُمُ الْمُهَتَّدُونَ» فهذه العلاوة وهي ما توضع بين العدلتين وهي زيادة في العمل فكذلك هؤلاء أعطوا ثوابهم

وزيدوا أيضاً.

وقد ورد في ثواب الاسترجاع وهو قول ﴿إِنَّا لَهُ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ عند المصائب أحاديث كثيرة . فمن ذلك ما رواه الإمام أحمد<sup>(١)</sup> حيث قال : حدثنا يونس بن محمد حدثنا ليث يعني ابن سعد عن يزيد بن عبد الله بن أسامه بن الهداد عن عمرو بن أبي عمرو ، عن المطلب عن أم سلمة قالت : أتاني أبو سلمة يوماً من عند رسول الله ﷺ فقال : لقد سمعت من رسول الله ﷺ قوله قولاً سررت به . قال : «لا يصيّب أحداً من المسلمين مصيبة فيسترجع عند مصيّبته ثم يقول : اللهم أجرني في مصيّبتي وأخلف لي خيراً منها ، إلا فعل ذلك به» ، قالت أم سلمة : فحفظت ذلك منه ، فلما توفي أبو سلمة استرجعت وقلت : اللهم أجرني في مصيّبتي وأخلف لي خيراً منها ، ثم رجعت إلى نفسي ، فقلت : من أين لي خير من أبي سلمة ؟ فلما انقضت عدتي استأذن على رسول الله ﷺ وأنا أدبغ إهاباً لي فغسلت يدي من القرظ وأذنت له ، فوضعت له وسادة أدم حشوها ليف فقدت عليها فخطبني إلى نفسي ، فلما فرغ من مقالته قلت : يا رسول الله ما بي أن لا يكون بك الرغبة ، لكنني امرأة في غيرة شديدة فأخاف أن ترى مني شيئاً يذهبني الله به ، وأنا امرأة قد دخلت في السن وأنا ذات عيال ، فقال : «أما ما ذكرت من الغيرة فسوف يذهبها الله عز وجل عنك وأما ما ذكرت من السن قد أصابني مثل الذي أصابك وأما ما ذكرت من العيال فإنما عيالك عيالي». قالت : فقد سلمت لرسول الله ﷺ ، فتزوجها رسول الله ﷺ فقالت أم سلمة بعد : أبدلني الله بأبي سلمة خيراً منه : رسول الله ﷺ .

وفي صحيح سلم<sup>(٢)</sup> عنها أنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول : ﴿إِنَّا لَهُ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ اللهم أجرني في مصيّبتي وأخلف لي خيراً منها إلا أجره الله في مصيّبته وأخلف له خيراً منها» قالت : فلما توفي أبو سلمة قلت : كما أمرني رسول الله ﷺ فأحلف الله لي خيراً منه رسول الله ﷺ .

وقال الإمام أحمد<sup>(٣)</sup> : حدثنا يزيد وعبد بن عباد قالاً : حدثنا هشام بن أبي هشام حدثنا عبد بن زياد عن أمها عن فاطمة بنت أبيها الحسين بن علي عن النبي ﷺ قال : «ما من مسلم ولا مسلمة يصاب بمصيبة فيذكرها وإن طال عهدها - وقال عبد قدم عهدها - فيحدث لذلك استرجاعاً إلا جدد الله له عن ذلك فأعطيها مثل أجرها يوم أصيب». ورواه ابن ماجه في سنته عن أبي بكر بن أبي شيبة عن وكيع عن هشام بن زياد عن أمها عن فاطمة بنت الحسين عن أبيها . وقد رواه إسماعيل بن علية ويزيد بن هارون عن هشام بن زياد عن أبيه (كذا) عن فاطمة عن أبيها .

(١) مسنـد أـحمد (ج ٤ ص ٢٨).

(٢) صحيح سلم (جـ ١ حـ ٣، ٤).

(٣) مسنـد أـحمد (ج ١ ص ٢٠١).

وقال الإمام أحمد<sup>(١)</sup> حدثنا يحيى بن إسحاق السيلحيني<sup>(٢)</sup> حدثنا حماد بن سلمة عن أبي سنان قال: دفنت ابناً لي وإنني لففي القبر إذ أخذ بيدي أبو طلحة يعني الخولاني فأخر جنبي وقال لي: ألا أبشرك؟ قلت: بلى. قال: حدثني الضحاك بن عبد الرحمن بن عرزب عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ «قال الله: يا ملك الموت قبضت ولد عبدي؟ قبضت قرة عينه وثمرة فؤاده؟ قال: نعم. قال: فما قال؟ قال: حمدك واسترجع. قال: «ابنوا له بيته في الجنة وسموه بيت الحمد».

ثم رواه عن علي بن إسحاق عن عبد الله بن المبارك فذكره. وهكذا رواه الترمذى عن سويد بن نصر عن ابن المبارك به، وقال حسن غريب واسم أبي سنان عيسى بن سنان.

**﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ أَعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَنْهُ أَنْ يَطْوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ حَيْثَا فَإِنَّ اللَّهَ شَرِيكٌ عَلَيْهِ﴾**

قال الإمام أحمد: حدثنا سليمان بن داود الهاشمي أخبرنا إبراهيم بن سعد عن الزهرى عن عروة عن عائشة، قال: قلت أرأيت قول الله تعالى. «إن الصفا والمروءة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما»؟ قلت: فوالله ما على أحد جناح أن لا يطوف بهما، فقالت عائشة: بئسما قلت يا ابن أخي إنها لو كانت على ما أقولتها عليه كانت فلا جناح أن عليه لا يطوف بهما، ولكنها إنما أنزلت أن الأنصار كانوا قبل أن يسلموا كانوا يهلوون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها عند المثلل<sup>(٣)</sup>، وكان من أهل لها يتحرج أن يطوف بالصفا والمروءة، فسألوا عن ذلك رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، إننا كنا نتحرج أن نطوف بالصفا والمروءة في الجاهلية. فأنزل الله عز وجل: «إن الصفا والمروءة من شعائر الله، فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما» قال عائشة: ثم قد سن رسول الله ﷺ الطواف بهما فليس لأحد أن يدع الطواف بهما أخر جاه في الصحيحين.

وفي رواية عن الزهرى أنه قال: فحدثت بهذا الحديث أبا بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام. فقال: إن هذا العلم ما كنت سمعته، ولقد سمعت رجالاً من أهل العلم يقولون: إن الناس - إلا من ذكرت عائشة - كانوا يقولون: إن طوافنا بين هذين الحجرين من أمر الجاهلية. وقال آخرون من الأنصار: إنما أمرنا بالطواف بالبيت، ولم نؤمر بالطواف بين الصفا والمروءة فأنزل الله تعالى: «إن الصفا والمروءة من شعائر الله» قال أبو بكر بن عبد الرحمن: فلعلها نزلت في هؤلاء وهوؤلاء.

(١) مستند أحمد (ج ٤ ص ٤١٥).

(٢) في المستند: «الصالحي». وفي موسوعة رجال الكتب التسعة ٤/١٩٥: «السيلحيني».

(٣) المثلل: جبل يُحيط منه إلى قديد من ناحية البحر (معجم البلدان).

ورواه البخاري من حديث مالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة بنت حمودة ما تقدم . ثم قال البخاري : حدثنا محمد بن يوسف حدثنا سفيان عن عاصم بن سليمان قال : سألت أنساً عن الصفا والمروءة ، قال : كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية ، فلما جاء الإسلام أمسكنا عنهما فأنزل الله عز وجل : «إن الصفا والمروءة من شعائر الله» .

وذكر القرطبي<sup>(١)</sup> في تفسيره عن ابن عباس قال : كانت الشياطين تفرق<sup>(٢)</sup> بين الصفا والمروءة الليل كله وكانت بينهما آلة ، فلما جاء الإسلام سألهما رسول الله ﷺ عن الطواف بينهما ، فنزلت هذه الآية . وقال الشعبي : كان إساف على الصفا وكانت نائلة على المروءة ، وكانوا يستلمونها فتحرجوها بعد الإسلام من الطواف بينهما فنزلت هذه الآية (قلت) ذكر محمد بن إسحاق<sup>(٣)</sup> في كتاب السيرة أن إسافاً ونائلة كانوا بشرين ، فزنياً داخل الكعبة فمسخاً حجرين فنصبتهما قريش تجاه الكعبة ليعتبر بهما الناس ، فلما طال عهدهما عبداً ، ثم حولا إلى الصفا والمروءة ، فنصباً هنالك فكان من طاف بالصفا والمروءة يستلمهما ، ولهذا يقول أبو طالب في قصidته المشهورة : [الطوبل]

وحىث ينيخ الأشuron ركبهم لمفضي<sup>(٤)</sup> السيل من إساف ونائل  
وفي صحيح مسلم من حديث جابر الطويل ، وفيه أن رسول الله ﷺ لما فرغ من طوافه بالبيت  
عاد إلى الركن فاستلمه ، ثم خرج من باب الصفا وهو يقول «إن الصفا والمروءة من شعائر الله» ثم  
قال : «أبدأ بما بدأ الله به» وفي رواية النسائي «ابدوا بما بدأ الله به» .

وقال الإمام أحمد<sup>(٥)</sup> : حدثنا شريح حدثنا عبد الله بن المؤمل عن عطاء بن أبي رباح عن صفية بنت شيبة عن حبيبة بنت أبي تجرأه قالت :رأيت رسول الله ﷺ يطوف بين الصفا والمروءة والناس بين يديه وهو يسعى ، حتى أرى ركبتيه من شدة السعي يدور به إزاره وهو يقول : «اسعوا فإن الله كتب عليكم السعي» .

ثم رواه الإمام أحمد<sup>(٦)</sup> عن عبد الرزاق : أخبرنا معمر عن واصل مولى أبي عبيدة عن موسى بن عبيدة عن صفية بنت شيبة ، أن امرأة أخبرتها أنها سمعت النبي ﷺ بين الصفا والمروءة يقول : «كتب عليكم السعي فاسعوا» .

وقد استدل بهذا الحديث على مذهب من يرى أن السعي بين الصفا والمروءة ركن في الحج ،

(١) تفسير القرطبي ٢/١٧٩ .

(٢) في القرطبي : «تعزف» .

(٣) سيرة ابن هشام ١/٨٣ .

(٤) في السيرة : « بمفضي» .

(٥) مسنـدـ أـحمدـ (ـجـ ٦ـ صـ ٤٢١ـ)ـ .

(٦) مسنـدـ أـحمدـ (ـجـ ٦ـ صـ ٤٣٧ـ)ـ .

كما هو مذهب الشافعى ومن وافقه ، ورواية عن أَحْمَد وهو المشهور عن مالك . وقيل أنه واجب وليس بركن ، فإن تركه عمداً أو سهواً جبره بدم ، وهو رواية عن أَحْمَد وبه يقول طائفة ، وقيل بل مستحب ، وإليه ذهب أبو حنيفة والثوري والشعبي وابن سيرين ، وروي عن أنس وابن عمر وابن عباس ، وحكي عن مالك في العتبة قال القرطبي : واحتجوا بقوله تعالى : ﴿وَمِنْ تَطْوعَ خَرِّا﴾ والقول الأول أرجح لأنه عليه السلام طاف بينهما ، وقال : ﴿لَا تَأْخُذُوا عَنِي مَا نَسَّكُمْ﴾ فكل ما فعله في حجته تلك واجب لا بد من فعله في الحج ، إلا ما خرج بدليل ، والله أعلم .

وقد تقدم قوله عليه السلام «اسعوا فإن الله كتب عليكم السعي» فقد بين الله تعالى أن الطواف بين الصفا والمروءة من شعائر الله ، أي مما شرع الله تعالى لإبراهيم في مناسك الحج ، وقد تقدم في حديث ابن عباس ، أن أصل ذلك مأخوذ من طواف هاجر وتردادها بين الصفا والمروءة في طلب الماء لولدها لما نفذ ما ذهبتها وزادها حين تركهما إبراهيم عليه السلام هنالك ، وليس عندهما أحد من الناس ، فلما خافت على ولدها الصيغة هنالك ، وتنفذ ما عندهما ، قامت تطلب الغوث من الله عز وجل ، فلم تزل تتردد في هذه البقعة المشرفة بين الصفا والمروءة ، متذلة خائفة وجلة مضطربة فقيرة إلى الله عز وجل ، حتى كشف الله كربتها ، وأنس غربتها ، وفرج شدتها ، وأنبع لها زمم التي ما ذهبتها «طعام طعم ، وشفاء سقم» فالساعي بينهما ينبغي له أن يستحضر فقره وذله و حاجته إلى الله ، في هداية قلبه وصلاح حاله وغفران ذنبه ، وأن يلتوجه إلى الله عز وجل ، لتغريح ما هو به من النقصان والعيب ، وأن يهديه إلى الصراط المستقيم ، وأن يثبته عليه إلى مماته وأن يحوله من حاله الذي هو عليه من الذنوب والمعاصي ، إلى حال الكمال والغفران والسداد والاستقامة كما فعل بهاجر عليها السلام .

وقوله ﴿وَمِنْ تَطْوعَ خَرِّا﴾ قيل زاد في طوافه بينهما على قدر الواجب ، ثامنة وتسعة ونحو ذلك ، وقيل يطوف بينهما في حجة طوع أو عمرة طوع ، وقيل : المراد طوع خيراً في سائر العبادات ، حكى ذلك الرازى ، وعزمى الثالث إلى الحسن البصري ، والله أعلم ، وقوله ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلَيْهِمْ﴾ أي يثيب على القليل بالكثير ، عليم بقدر الجزا فلا يبخس أحداً ثوابه ، و﴿لَا يُظْلَمُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسْنَةٌ يضاعفُهَا وَإِنْ تَكُ نَسْكَةٌ يَوْئِدُهَا﴾ [ النساء : ٤٠ ] .

إِنَّ الَّذِينَ يَكْنِمُونَ مَا أَنْزَلَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَكُمْ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَعْنِيهِمُ اللَّهُ وَيَلْعَبُهُمُ اللَّهُعُوتُ ﴿١﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَنُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا أَنَّوْبُ إِلَيْهِمْ ﴿٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَا تُؤْمِنُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسُ أَجْمَعِينَ ﴿٣﴾  
خَلِيلِنِ فِيهَا لَا يُنْهَقُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُظْهَرُونَ ﴿٤﴾

هذا وعيد شديد لمن كتم ما جاء به الرسل من الدلالات البينة على المقاصد الصحيحة ، والهدى النافع للقلوب من بعد ما بينه الله تعالى لعباده من كتبه التي أنزلها على رسle .

قال أبو العالية: نزلت في أهل الكتاب، كتموا صفة محمد ﷺ، ثم أخبر أنهم يلعنهم كل شيء على صنيعهم ذلك، فكما أن العالم يستغفر له كل شيء حتى الحوت في الماء، والطير في الهواء، فهو لا بخلاف العلماء، فيلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون، وقد ورد في الحديث المسند من طرائق يشد بعضها بعضاً عن أبي هريرة وغيره أن رسول الله ﷺ قال: «من سئل عن علم فكتمه، أعلم يوم القيمة بليجام من نار» والذي في الصحيح عن أبي هريرة أنه قال: لو لا آية في كتاب الله، ما حدثت أحداً شيئاً «إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البيانات والهدى» الآية.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن عرفة حدثنا عمار بن محمد عن ليث بن أبي سليم عن المنھا بن عمرو، عن زاذان بن عمرو، عن البراء بن عازب، قال: كنا مع النبي ﷺ في جنازة، فقال: «إن الكافر يضرب ضربة بين عينيه، فيسمع صوته كل دابة غير الثقلين، فتلعنه كل دابة سمعت صوته، فذلك قول الله تعالى، «أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون» يعني دواب الأرض» ورواه ابن ماجة عن محمد بن الصباح، عن عامر بن محمد به، وقال عطاء بن أبي رباح: كل دابة والجن والإنس، وقال مجاهد: إذا أجدبت الأرض، قال البهائم: هذا من أجل عصاةبني آدم، لعن الله عصاةبني آدم، وقال أبو العالية والربيع بن أنس وقتادة «ويلعنهم اللاعنون» يعني تلعنهم الملائكة والمؤمنون، وقد جاء في الحديث أن العالم يستغفر له كل شيء، حتى الحيتان في البحر، وجاء في هذه الآية أن كاتم العلم يلعنه الله والملائكة والناس أجمعون واللاعنون أيضاً، وهم كل فضيح وأعجمي، إما بلسان المقال، أو الحال، أو لو كان له عقل ويوم القيمة والله أعلم.

ثم استثنى الله تعالى من هؤلاء من تاب إليه، فقال: «إلا الذين تابوا وأصلحوا وبيتوا» أي رجعوا عما كانوا فيه وأصلحوا أعمالهم وبينوا للناس ما كانوا يكتمونه «فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم» وفي هذا دلالة على أن الداعية إلى كفر، أو بدعة إذا تاب إلى الله تاب الله عليه. وقد ورد أن الأمم السالفة لم تكن التوبة تقبل من مثل هؤلاء منهم ولكن هذا من شريعة النبي التوبة ونبي الرحمة صلوات الله وسلامه عليه.

ثم أخبر تعالى عمن كفر به واستمر به الحال إلى مماته بأن «عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين خالدين فيها» أي في اللعنة التابعة لهم إلى يوم القيمة ثم المصاحبة فهم في نار جهنم التي «لا يخف عنهم العذاب» فيها أي لا ينقص عما هم فيه «ولا هم ينظرون» أي لا يغيرونهم ساعة واحدة ولا يفتر بل هو متواصل دائم فنعود بالله من ذلك. قال أبو العالية وقتادة إن الكافر يوقف يوم القيمة فيلعنه الله ثم يلعنه الملائكة، ثم يلعن الناس أجمعون.

[فصل] لا خلاف في جواز لعن الكفار، وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومن بعده من الأئمة، يلعنون الكفرا في القنوت وغيره، فاما الكافر المعين، فقد ذهب جماعة من العلماء إلى أنه لا يلعن لأننا لا ندرى بما يختتم الله له، واستدل بعضهم بالآية «إن الذين كفروا وما توا

وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين» وقالت طائفة أخرى : بل يجوز لعن الكافر المعين ، واختاره الفقيه أبو بكر بن العربي المالكي ولكنه احتاج بحديث فيه ضعف ، واستدل غيره بقوله عليه السلام في قصة الذي كان يؤتي به سكران فيحده ، فقال رجل لعنه الله ما أكثر ما يؤتي به ، فقال رسول الله ﷺ « لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله » فدل على أن من لا يحب الله ورسوله يلعن ، والله أعلم .

وَإِنَّهُمْ إِلَّا مَا يَنْفَعُ  
إِلَهٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ

يخبر تعالى عن تفرده بالإلهية ، وأنه لا شريك له ولا عديل له ، بل هو الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لا إله إلا هو ، وأنه الرحمن الرحيم وقد تقدم تفسير هذين الأسمين في أول الفاتحة ، وفي الحديث عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد بن السكن عن رسول الله ﷺ أنه قال «اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين «إلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم» [البقرة: ٢٥٥] و«الم الله لا إله إلا هو الحي القيوم» ثم ذكر الدليل على تفرده بالإلهية بخلق السموات والأرض وما فيها وما بين ذلك مما ذرأ ويرا من المخلوقات الدالة على وحدانيته ، فقال :

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ الْأَيَّلِ وَالنَّهَارِ وَالْفَلَكِ أَلَّى بَحْرٍ فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ  
وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَنْجَى بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَنَصَرِيفُ الْرِّيحَ  
وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا يَكُنْ لِقَوْمٍ يَعْقُلُونَ

يقول تعالى : «إن في خلق السموات والأرض» تلك في ارتفاعها ولطافتها واتساعها وكواكبها السيارة والثوابت ودوران فلكها - وهذه الأرض في كثافتها وانخفاضها وجبارتها وبحارها وقفارها ووهادها وعمرانها وما فيها من المنافع ، واختلاف الليل والنهار . هذا يجيء ثم يذهب ويختلفه الآخر ويعقبه ، لا يتأخر عنه لحظة ، كما قال تعالى : «لَا الشَّمْسُ يُنْبَغِي لَهَا أَنْ تَدْرِكَ الْقَمَرَ  
وَلَا الْلَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلُّ فَلَكٍ يَسْبُحُونَ» [الأنياء: ٣٣] وتارة يطول هذا ويقصر هذا ، وتارة يأخذ هذا من هذا ثم يتعاوضان ، كما قال تعالى : «بَوْلَجَ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَبَوْلَجَ النَّهَارُ فِي  
اللَّيْلِ» [الحديد: ٦] أي يزيد من هذا في هذا ومن هذا في هذا .

«والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس» أي في تسخير البحر بحمل السفن من جانب إلى جانب لمعايش الناس والانتفاع بما عند أهل ذلك الإقليم ، ونقل هذا إلى هؤلاء «ومَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَنْجَى بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا» كما قال تعالى : «وَآيَةٌ لِهِمُ الْأَرْضُ  
الْمِيَّةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ - إِلَى قَوْلِهِ - وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ» [يس: ٣٣] «وَبَثَ  
فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ» أي على اختلاف أشكالها وألوانها ومنافعها وصغرها وكبرها ، وهو يعلم ذلك

كله ويرزقه، لا يخفى عليه شيء من ذلك ، كما قال تعالى : ﴿وَمَا مِنْ دَبَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مَسْتَقْرِئَهَا وَمَسْتَوْدِعَهَا كُلُّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود: ٦] ﴿وَتَصْرِيفُ الرِّياحِ﴾ أي فتارة تأتي بالرحمة ، وتارة تأتي بالعذاب ، وتارة تأتي مبشرة بين يدي السحاب ، وتارة تسوقه ، وتارة تجمعه ، وتارة تفرقه ، وتارة تصرفه ، ثم تارة تأتي من الجنوب وهي الشامية ، وتارة تأتي من ناحية اليمن وتارة صبا ، وهي الشرقية التي تصدم وجه الكعبة ، وتارة دبوراً وهي غربية تفند من ناحية دبر الكعبة . وقد صنف الناس في الرياح والمطر والأنواء كتاباً كثيرة فيما يتعلق بلغاتها وأحكامها ، وبسط ذلك يطول ه هنا ، والله أعلم .

﴿وَالسَّحَابُ الْمَسْخُرُ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي سائر بين السماء والأرض ، مسخر إلى ما يشاء الله من الأراضي والأماكن ، كما يصرفه تعالى : ﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقُلُونَ﴾ أي في هذه الأشياء دلالات بينة على وحدانية الله تعالى ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْخَلْفِ اللَّيلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولَئِي الْأَلْبَابِ﴾ \* الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلأ سبحانك فتنا عذاب النار﴿ [آل عمران: ١٩٠ - ١٩١] .

وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه : أخبرنا محمد بن أحمد بن إبراهيم ، حدثنا أبو سعيد الدشتكي ، حدثني أبي عن أبيه ، عن أشعث بن إسحاق ، عن جعفر بن أبي المغيرة ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال : أنت قريش محمداً ﷺ فقالوا : يا محمد ، إنما نريد أن تدعو ربك أن يجعل لنا الصفا ذهباً فشتري به الخيل والسلاح ، فتومن بك ونقاتل معك ، قال «أوثقوا لي لتن دعوت ربى فجعل لكم الصفا ذهباً لتومن بي» فأوثقوا له ، فدعا ربه ، فأتاه جبريل فقال : إن ربك قد أعطاهم الصفا ذهباً على أنهم إن لم يؤمنوا بك عذبهم عذباً لم يعذبه أحداً من العالمين ، قال محمد ﷺ «رب لا بل دعني وقومي فلا دعهم يوماً بيوم» ، فأنزل الله هذه الآية : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْخَلْفِ اللَّيلِ وَالنَّهَارِ وَالْفَلَكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ الآية .

ورواه ابن أبي حاتم من وجه آخر عن جعفر بن أبي المغيرة به ، وزاد في آخره : وكيف يسألونك الصفا وهم يرون من الآيات ما هو أعظم من الصفا ؟ وقال ابن أبي حاتم أيضاً : حدثنا أبي ، حدثنا أبو حذيفة ، حدثنا شبل عن ابن أبي نجيح ، عن عطاء ، قال : نزلت على النبي ﷺ بالمدينة ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهٌ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣] فقال كفار قريش بمكة : كيف يسع الناس إله واحد ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْخَلْفِ اللَّيلِ وَالنَّهَارِ وَالْفَلَكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ إلى قوله : ﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقُلُونَ﴾ ففيهذا يعلمون أنه إله واحد ، وأنه إله كل شيء ، وخالق كل شيء .

وقال وكيع بن الجراح : حدثنا سفيان عن أبيه ، عن أبي الضحى ، قال : لما نزلت ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ إلى آخر الآية ، قال المشركون : إن كان هكذا ، فليأتنا بأية ، فأنزل الله عز وجل ﴿إِنَّ

في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار» إلى قوله: «يُعْقِلُونَ» رواه آدم بن أبي إياس عن أبي جعفر هو الرازبي، عن سعيد بن مسروق والد سفيان، عن أبي الضحى به<sup>(١)</sup>.

وَمِنْ أَنَّاسٍ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنَّدَادًا يُحِبُّهُمْ كَعْبَتُ اللَّهُ طَوَّلَتْ لَهُ وَلَوْرَى  
الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ إِذْ تَبَرَّاً الَّذِينَ أَتَيْعُوا مِنَ  
الَّذِينَ أَتَبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَنَقَطَعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ وَقَالَ الَّذِينَ أَتَبَعُوا لَوْلَا كَرَّةُ فَنَبَرَأُ  
مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّهُوا وَمِنْ أَنَّكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَرِيجِينَ مِنَ النَّارِ

يذكر تعالى حال المشركين به في الدنيا ومالهم في الدار الآخرة حيث جعلوا له أنداداً أي أمثلاً ونظراً، يعبدونهم معه ويحبونهم كحبه، وهو الله لا إله إلا هو، ولا ضد له، ولا ند له، ولا شريك معه.

وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود، قال: قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل الله ندّاً وهو خلقك»<sup>(٢)</sup>.

وقوله: «والذين آمنوا أشد حباً لله» ولحبهم الله وتمام معرفتهم به وتوقيرهم وتوحيدهم، له، لا يشركون به شيئاً بل يعبدونه وحده، ويتوكلون عليه، ويلجاؤن في جميع أمرهم إليه. ثم توعد تعالى المشركين به الظالمين لأنفسهم بذلك، فقال: «ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جمیعاً» قال بعضهم: تقدير الكلام، لو عاينوا العذاب لعلموا حينئذ أن القوة لله جمیعاً، أي أن الحكم له وحده لا شريك له، وأن جميع الأشياء تحت قهره وغلوته وسلطانه.

«وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ» كما قال «فَيُوْمَئِذَ لَا يَعْذَبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ وَلَا يُوْثَقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ» [الفجر: ٢٥ - ٢٦] يقول لو يعلمون ما يعاينونه هنالك وما يحل بهم من الأمر الفظيع المنكر الهائل على شركهم وكفرهم لانتهوا عما هم فيه من الضلال ثم أخبر عن كفرهم بأوثانهم وتبرير المتبوعين من التابعين، فقال: «إِذْ تَبَرَّا الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا» تبرأت منهم الملائكة الذين كانوا يزعمون أنهم يعبدونهم في الدار الدنيا، فيقول الملائكة: «تَبَرَّا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّاكَ يَعْبُدُونَ» [القصص: ٦٣] ويقولون: «سَبِّحْنَاكَ أَنْتَ وَلِنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّا  
أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ»، [سباء: ٤١] والجن أيضاً تبرأاً منهم، ويتنصلون من عبادتهم لهم، كما قال تعالى: «وَمِنْ أَصْلِ مَنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دِعَائِهِمْ غَافِلُونَ \* وَإِذَا حَشَرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءٍ وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ» [الأحقاف: ٤٦ - ٤٧] وقال تعالى: «وَاتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلَّهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عَزَّاً \* كَلَّا سِكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ

(١) رواه الطبراني في تفسيره ٦٦/٢، به وبالاستاد نفسه.

(٢) رواه البخاري (تفسير سورة ٢ باب ٣، وتوحيد باب ٤٠) ومسلم (إيمان حديث ١٤١، ١٤٢).

عليهم ضداً» [مريم: ٨١ - ٨٢] وقال الخليل لقومه: «إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أُوْثَانًا مُّوَدَّةٍ بَيْنَكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعُنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَا وَأَكْمَ النَّارِ وَمَا لَكُمْ مِّنْ نَاصِرِينَ» [العنكبوت: ٢٥] وقال تعالى: «وَلَوْ تَرَى إِذَا الظَّالِمُونَ مُوْقَفُوْنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضِ الْقَوْلِ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضْعَفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُمْ مُؤْمِنُينَ \* قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضْعَفُوا أَنْحَنَ صَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذَا جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ \* وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضْعَفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذَا تَأْمُرُونَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرَوْنَا التَّنَادِيَةَ لِمَا رَأَوْا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يَجْزُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» [سبأ: ٣١ - ٣٢ - ٣٣] وقال تعالى: «وَقَالَ الشَّيْطَانُ لِمَا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَقْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِّنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُنِي وَلَوْمُوا أَنفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُ بِمُصْرِخِي إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشَرَّكُمُونَ مِنْ قَبْلِ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» [إِبْرَاهِيمَ: ٢٢].

وقوله: «وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقْطَعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ» أي عاينوا عذاب الله وتقطعت بهم العبر وأسباب الخلاص ولم يجدوا عن النار معدلاً ولا مصراً. قال عطاء عن ابن عباس: «وتقطعت بهم الأسباب» قال المودة، وكذا قال مجاهد في رواية ابن أبي نجيح<sup>(١)</sup>.

وقوله: «وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنْ لَنَا كَرْبَةً فَتَبَرُّأُ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرُّوا مِنْنَا» أي لو أن لنا عودة إلى الدار الدنيا حتى تبرأ من هؤلاء ومن عبادتهم، فلا تلتفت إليهم بل توحّد الله تعالى عنهم بذلك، وللهذا قال: «كَذَلِكَ يَرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حُسْرَاتٍ عَلَيْهِمْ» أي تذهب وتضمحل كما قال تعالى: «وَقَدْمَنَا إِلَىٰ مَا عَمِلَّا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَباءً مُّنْثُرًا» [الفرقان: ٢٣] وقال تعالى: «مِثْلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرِمَادٌ اشْتَدَتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمِ عَاصِفٍ» [إِبْرَاهِيمَ: ١٨]، وقال تعالى: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسْرَابٌ بَقِيعَةٌ يَحْسِبُهُ الظَّمَآنُ مَاءً» [النور: ٣٩]، وللهذا قال تعالى: «وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ».

يَأَيُّهَا النَّاسُ كُلُّمَا فِي الْأَرْضِ حَلَّاكَ طَيْبًا وَلَا تَنْتَهُوا عُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّمَا لَكُمْ عَذُوبَةٌ مُّمِينُ<sup>(٢)</sup>  
إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ<sup>(٣)</sup>

لما بين تعالى أنه لا إله إلا هو، وأنه المستقل بالخلق، شرع يبين أنه الرزاق لجميع خلقه، فذكر في مقام الامتنان أنه أباح لهم أن يأكلوا مما في الأرض في حال كونه حلالاً من الله طيباً، أي مستطاباً في نفسه غير ضار للأبدان ولا للعقول، ونهاهم عن اتباع خطوات الشيطان وهي طرائقه ومسالكه فيما أضل اتبعاه فيه من تحريم البحائر والسوائب والوسائل ونحوها، مما كان زينه لهم في جاهليتهم، كما في حديث عياض بن حماد الذي في صحيح

مسلم<sup>(١)</sup> عن رسول الله ﷺ أنه قال «يقول الله تعالى: إن كل مال منحته عبادي فهو لهم حلال - وفيه - وإنني خلقت عبادي حنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أححلت لهم».

وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه: حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا محمد بن عيسى بن شيبة المصري ، حدثنا الحسين بن عبد الرحمن الاحتياطي ، حدثنا أبو عبد الله الجوزجاني رفيف إبراهيم بن أدهم ، حدثنا ابن جرير عن عطاء عن ابن عباس ، قال تلية هذه الآية عند النبي ﷺ «يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً» فقام سعد بن أبي وقاص فقال: يا رسول الله ، ادع الله أن يجعلني مستجاب الدعوة ، فقال «يا سعد أطب مطعمك ، تكون مستجاب الدعوة ، والذي نفس محمد بيده ، إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام في جوفه ما يتقبل منه أربعين يوماً ، وأيما عبد نبت لحمه من السحت والربا فالنار أولى به».

وقوله: «إنه لكم عدو مبين» تغیر عنه وتحذير منه ، كما قال: «إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعونا حزبه ليكونوا من أصحاب السعير» [فاطر: ٦] وقال تعالى: «افتخذونه وذرите أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلًا» [الكهف: ٥٠].

وقال قتادة والستي في قوله: «ولا تتبعوا خطوات الشيطان» : كل معصية لله فهي من خطوات الشيطان ، وقال عكرمة: هي نزعات الشيطان ، وقال مجاهد: خطأه أو قال خطاياه ، وقال أبو مجلز: هي النذور في المعاصي<sup>(٢)</sup>.

وقال الشعبي: نذر رجل أن ينحر ابنه ، فأفاته مسرور بذبح كبش ، وقال: هذا من خطوات الشيطان .

وقال أبو الضحى عن مسرور أتى عبد الله بن مسعود بضرع وملح ، فجعل يأكل فاعزل رجل من القوم فقال ابن مسعود: ناولوا صاحبكم ، فقال: لا أريده ، فقال: أصائم أنت قال: لا ، قال: قما شأنك؟ قال: حرمت أن آكل ضرعاً أبداً ، فقال ابن مسعود: هذا من خطوات الشيطان ، فاطعم وكفر عن يمينك ، رواه ابن أبي حاتم .

وقال أيضاً: حدثنا أبي ، حدثنا حسان بن عبد الله المصري عن سليمان الترمي ، عن أبي رافع ، قال: غضبت يوماً على امرأتي ، فقالت: هي يوماً يهودية ويوماً نصرانية ، وكل مملوك لها حر إن لم تطلق امرأتك ، فأتت عبد الله بن عمر فقال: إنما هذه من خطوات الشيطان ، وكذلك قالت زينب بنت أم سلمة ، وهي يومئذ أفقه امرأة في المدينة: وأتت عاصماً وابن عمر فقالا مثل ذلك .

(١) صحيح مسلم (جنة حديث ٦٣).

(٢) أورد هذه الآثار الطبراني في تفسيره ٨١ / ٢ — ٨٢

وقال عبد بن حميد: حدثنا أبو نعيم عن شريك، عن عبد الكريم، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: ما كان من يمين أو نذر في غضب، فهو من خطوات الشيطان، وكفارته كفارة يمين.

وقوله: «إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون» أي إنما يأمركم عدوكم الشيطان بالأفعال السيئة، وأغلظ منها الفاحشة كالزنا ونحوه، وأغلظ من ذلك وهو القول على الله بلا علم، فيدخل في هذا كل كافر وكل مبتدع أيضاً.

وإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَتَيْعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَسْعَ مَا أَلْفَيْنَا عَنِّيهِ إِبَاءَةً فَأَوْلَوْ كَارِبَةً إِبَآءَةً وَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ كَسِيْئَا وَلَا يَهْتَدُونَ ۝ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَعْقِلُ عِمَّا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ۝ صُمُّ بَكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝

يقول تعالى: وإذا قيل لهؤلاء الكفرا من المشركين: اتبعوا ما أنزل الله على رسوله، واتركوا ما أنتم عليه من الضلال والجهل، قالوا في جواب ذلك: بل نتبع ما ألفينا، أي وجدنا عليه آباءنا، أي من عبادة الأصنام والأنداد، قال الله تعالى منكراً عليهم: «أولو كان آباءهم» أي الذين يقتدون بهم ويقتدون أثراً لهم (لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون) أي ليس لهم فهم ولا هداية.

وروى ابن إسحاق عن محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس: أنها نزلت في طائفة من اليهود دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام، فقالوا: بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا، فأنزل الله هذه الآية<sup>(١)</sup>.

ثم ضرب لهم تعالى مثلاً. كما قال تعالى: «للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء» [التحل]: ٦٠ فقال «ومثل الذين كفروا» أي فيما هم فيه من الغي والضلال والجهل كالدوااب السارحة التي لا تفقه ما يقال لها بل إذا نعم بها راعيها، أي دعاها إلى ما يرشدها لا تفقه ما يقول ولا تفهمه بل إنما تسمع صوته فقط. هكذا روى عن ابن عباس وأبي العالية ومجاهد وعكرمة وعطاء والحسن وقتادة وعطاء الخراساني والربيع بن أنس نحو هذا. وقيل: إنما هذا مثل ضرب لهم في دعائهم الأصنام التي لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل شيئاً واختاره ابن جرير<sup>(٢)</sup>، والأول أولى، لأن الأصنام لا تسمع شيئاً ولا تعقله ولا تبصره ولا بطش لها ولا حياة فيها.

وقوله «صم بكم عمي» أي صم عن سماع الحق، بكم لا يتفهون به، عمي عن رؤية طريقه ومسلكه «فهم لا يعقلون» أي لا يعلمون شيئاً ولا يفهمونه.

(١) رواه الطبرى تفسيره ٨٣/٢. وفيه أن من قال ذلك هما رافع بن خارجة ومالك بن عوف، قالا: «بل تتبع ما ألفينا عليه آباءنا فإنهم كانوا أعلم منا وخيراً منا».

(٢) تفسير الطبرى ٨٦/٢.

يَتَأْلِمُ الَّذِينَ آمَنُوا كُلُّاً مِّنْ طَبَبِكُمْ وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيمَانَ تَعْبُدُونَ<sup>(١)</sup> إِنَّمَا حَرَمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنَبِرِ وَمَا أَهْلَ بِهِ لغَيْرُ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَرَّ بَاغٍ وَلَا عَادِ فَلَا إِنَّمَا عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ<sup>(٢)</sup>

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بالأكل من طيبات ما رزقهم تعالى، وأن يشكروه تعالى على ذلك إن كانوا عبيده، والأكل من الحلال سبب لتقبل الدعاء والعبادة، كما أن الأكل من الحرام يمنع قبول الدعاء والعبادة. كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد<sup>(٣)</sup>: حدثنا أبو النصر، حدثنا الفضيل بن مرزوق عن عدي بن ثابت، عن أبي حازم، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال «يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعلمون عليم» [المؤمنون: ٥١]، وقال «يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم» ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر ثم يمد يديه إلى السماء: يا رب يا رب، ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام، وغذي بالحرام فأنئني يستجاب لذلك؟» ورواه مسلم في صحيحه والترمذى من ذلك حديث فضيل بن مرزوق.

ولما امتن تعالى عليهم برزقه وأرشدهم إلى الأكل من طيبة، ذكر أنه لم يحرم عليهم من ذلك إلا الميتة، وهي التي تموت حتف أنها من غير تذكرة وسواء كانت منختنة أو موقوذة<sup>(٤)</sup> أو متربدة أو نطيحة أو قد عدا عليها السبع، وقد خصص الجمهور من ذلك ميتة البحر لقوله تعالى: «أحل لكم صيد البحر وطعامه» [المائدة: ٩٦] على ما سيأتي إن شاء الله، وحديث العنبر في الصحيح وفي المسند والموطأ والسنن قوله عليه السلام في البحر «هو الظهور ماؤه محل ميتته».

وروى الشافعي وأحمد وابن ماجه والدارقطني حديث ابن عمر مرفوعاً «أحل لنا ميتان ودمان السمك والجراد والكبدين والطحال» وسيأتي تقرير ذلك إن شاء الله في سورة المائدة.

[مسألة] ولبن الميتة وبضمها المتصل بها نجس عند الشافعي وغيره. لأنه جزء منها. وقال مالك في رواية: هو ظاهر إلا أنه ينجس بالمجاورة، وكذلك أنفحة الميتة فيها الخلاف والمشهور عندهم أنها نجسة، وقد أوردوا على أنفسهم أكل الصحابة من جبن المجوس، فقال القرطبي<sup>(٥)</sup> في التفسير ه هنا يخالط اللبن منها يسير، ويعف عن قليل النجاسة إذا خالط الكثير من الماء. وقد روى ابن ماجه<sup>(٦)</sup> من حديث سيف بن هارون عن سليمان التميمي، عن أبي عثمان

(١) مسنـد أـحمد (ج ٢ ص ٣٢٨).

(٢) المـوقـوذـةـ:ـ الـتيـ ضـرـبـتـ بـالـعـصـاحـىـ مـاتـ.

(٣) تـفـسـيرـ القـرـطـبـيـ ٢١٦ / ٢.

(٤) سنـ ابنـ مـاجـهـ (أـطـعـمـةـ بـابـ ٦٠ـ).

الن Heidi، عن سلمان رضي الله عنه: سئل رسول الله ﷺ عن السمن والجبن والفراء، فقال «الحلال ما أحل الله في كتابه، والحرام ما حرم الله في كتابه، وما سكت عنه فهو مما عفا عنه».

وكذلك حرم عليهم لحم الحنزير سواء ذكي أم مات حتف أنفه، ويدخل شحمة في حكم لحمه إما تغليباً أو أن اللحم يشمل ذلك أو بطريق القياس على رأي وكذلك حرم عليهم ما أهل به غير الله، وهو ما ذبح على غير اسمه تعالى من الأنصاب والأنداد والأزلام ونحو ذلك مما كانت الجاهلية ينحرون له.

وذكر القرطبي<sup>(١)</sup> عن ابن عطية أنه نقل عن الحسن البصري: أنه سئل عن امرأة عملت عرساً للعبها فتحررت فيه جزوراً، فقال: لا تؤكل لأنها ذبخت لصنم، وأورد القرطبي عن عائشة رضي الله عنها: أنها سنت عمما يذبحه العجم لأعيادهم فيهدون منه للمسلمين فقالت: ما ذبح لذلك اليوم فلا تأكلوا منه، وكلوا من أشجارهم.

ثم أباح تعالى تناول ذلك عند الضرورة والاحتياج إليها عند فقد غيرها من الأطعمة، فقال «فمن اضطرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادَ» أي في غير بغي ولا عدوان وهو مجاوزة الحد «فلا إِثْمٌ عَلَيْهِ» أي في أكل ذلك «إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ»، وقال مجاهد: فمن اضطرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادَ، قاطعاً للسبيل أو مفارقاً للأئمة، أو خارجاً في معصية الله، فله الرخصة، ومن خرج باغياً أو عادياً أو في معصية الله، فلا رخصة له وإن اضطرَّ إليه، وكذا روى عن سعيد، بن جبير. وقال سعيد في رواية عنه ومقاتل بن حيان: غير باغ يعني غير مستحلة، وقال السدي: غير باغ، يتغى فيه شهوته، وقال آدم بن أبي إيساس: حدثنا ضمرة عن عثمان بن عطاء وهو الخراساني، عن أبيه، في قوله «غَيْرَ بَاغٍ» قال: لا يشوي من الميتة ليشتته، ولا يطبه، ولا يأكل إلا العلقة، ويحمل معه ما يبلغه الحلال، فإذا بلغه ألقاه، وهو قوله «وَلَا عَادَ» ويقول لا يعدو به الحال، وعن ابن عباس: لا يشبع منها، وفسره السدي بالعدوان، وعن ابن عباس «غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادَ» قال «غَيْرَ بَاغٍ» في الميتة ولا عاد في أكله، وقال قتادة: فمن اضطرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادَ، قال: غير باغ في الميتة أي في أكله أن يتعدى حلالاً إلى حرام وهو يجد عنه مندودحة، وحكى القرطبي عن مجاهد في قوله: فمن اضطرَّ، أي أكره على ذلك بغير اختياره.

[مسألة] إذا وجد المضطر ميتة وطعام الغير بحيث لا قطع فيه ولا اذى، فإنه لا يحل له أكل الميتة بل يأكل طعام الغير بغير خلاف - كذا قال<sup>(٢)</sup> - ثم قال: وإذا أكله، والحالة هذه، هل يضمن أم لا؟ فيه قولان هما روایتان عن مالك، ثم أورد<sup>(٣)</sup> من سنن ابن ماجه من حديث شعبة

(١) تفسير القرطبي ٢/٢٢٤.

(٢) أي القرطبي.

(٣) تفسير القرطبي ٢/٢٦٦.

عن أبي إِيَّاس جعفر بن أبي وحشية<sup>(١)</sup>: سمعت عباد بن شرحبيل الغربي قال: أصابتنا عاماً مخصصة، فأُتْيَتْ المدينة، فأنْتَيْتْ حائطاً<sup>(٢)</sup>، فأخذت سبلاً ففركته وأكلته، وجعلت منه في كسائي، فجاء صاحب الحائط فضربني وأخذ ثوبي، فأُتْيَتْ رسول الله ﷺ فأخبرته، فقال للرجل «ما أطعمته إذ كان جائعاً، ولا ساغياً ولا علمته إذ كان جاهلاً» فأمره فرد إليه ثوبه، فأمر له بوسق من طعام أو نصف وسق، إسناد صحيح قوي جيد وله شواهد كثيرة، من ذلك حديث عمرو بن شعيب عن أبيه، عن جده: سئل رسول الله ﷺ عن الشمر المعلق، فقال «من أصاب منه من ذي حاجة بفيه غير متخدٍ خبنة<sup>(٣)</sup>، فلا شيء عليه» الحديث.

وقال مقاتل بن حيان في قوله: «فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم»: فيما أكل من اضطرار، وبلغنا، والله أعلم. أنه لا يزداد على ثلات لقم، وقال سعيد بن جبير: غفور لما أكل من الحرام، رحيم إذ أحل له الحرام في الاضطرار، وقال وكيع: أخبرنا الأعمش عن أبي الضحى، عن مسروق، قال: من اضطر فلم يأكل ولم يشرب ثم مات، دخل النار، وهذا يقتضي أن أكل الميتة للمضطر عزيمة لا رخصة. قال أبو الحسن الطبرى المعروف بالكياالهراسي رفيق الغزالى في الاشتغال: وهذا هو الصحيح عندنا، كالإفطار للمريض ونحو ذلك<sup>(٤)</sup>.

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَسْتَرُونَ كِتَابَ اللَّهِ أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي  
بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارُ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيُهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ<sup>١٧٦</sup> أُولَئِكَ  
الَّذِينَ أَشْرَقُوا الظُّلَلَةَ بِإِلْهَدَى وَأَعْذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ<sup>١٧٧</sup> ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ  
أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ أَخْتَلُفُوا فِي الْكِتَابِ إِنَّمَا يُشَاقِقُونَ<sup>١٧٨</sup>

يقول تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ» يعني اليهود الذين كتموا صفة محمد ﷺ في كتبهم التي بأيديهم مما تشهد له بالرسالة والنبوة، فكتموا ذلك لئلا تذهب رياستهم وما كانوا يأخذونه من العرب من الهدايا والتحف على تعظيمهم إِيَّاهُمْ، فخشوا - لعنهم الله - إن أظهروا ذلك أن يتبعه الناس ويترکوهم، فكتموا ذلك ابقاء على ما كان يحصل لهم من ذلك وهو نزر يسير، فباعوا أنفسهم بذلك واعتراضوا عن الهدى واتباع الحق وتصديق الرسول والإيمان بما جاء عن الله، بذلك التذر اليسيير، فخابوا وخسروا في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فإن الله أظهر لعباده صدق رسوله بما نصبه وجعله معه من الآيات الظاهرات والدلائل القاطعات، فصدقه الذين كانوا يخافون أن يتبعوه، وصاروا عوناً له على قتالهم، وباءوا بغضب على غضب،

(١) في القرطبي: «حدثنا شعبة عن أبي بشر جعفر بن إِيَّاس» وقد أخرجه ابن ماجه بأسنادين.

(٢) الحائط: البستان، سمي كذلك لأنه يجعل من حوله حائط.

(٣) الخبنة: ما يحمله الإنسان في حضنه أو تحت إبطه.

(٤) انظر تفسير القرطبي ٢٣٣ / ٢ - ٢٣٤ .

وذمهم الله في كتابه في غير موضع فمن ذلك هذه الآية الكريمة ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثُمَّاً قَلِيلًا﴾ وهو عرض الحياة الدنيا ﴿أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بطْوَنِهِمْ إِلَّا النَّارُ﴾ أي إنما يأكلون ما يأكلونه في مقابلة كتمان الحق، ناراً تأجج في بطونهم يوم القيمة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْبَيْتَمَى ظَلَمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بطْوَنِهِمْ نَارًا وَسِيَّصُلُونَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠] وفي الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال، «الذى يأكل أو يشرب في آنية الذهب والفضة إنما يجرجر في بطنه نار جهنم»

وقوله: ﴿وَلَا يَكْلِمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يَزْكِيَهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وذلك لأنه تعالى غضبان عليهم، لأنهم كتموا وقد علموا، فاستحقوا الغضب، فلا ينظر إليهم ولا يزكيهم، أي يشي علىهم ويمدحهم بل يذبحهم عذاباً أليماً، وقد ذكر ابن أبي حاتم وابن مردويه، ههنا حديث الأعمش عن أبي حازم، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ «ثُلَاثَةٌ لَا يَكْلِمُهُمُ اللَّهُ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلَا يَزْكِيَهُمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: شِيخُ زَانَ، وَمَلَكُ كَذَابٍ، وَعَائِلٌ مُسْتَكِبٌ» ثم قال تعالى مخبراً عنهم ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُ الْضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾ أي اعتاضوا عن الهدى، وهو نشر ما في كتبهم من صفة الرسول وذكر مبعثه والبشرارة به من كتب الأنبياء واتباعه وتصديقه، استبدلوا عن ذلك واعتراضوا عنه الصلاة وهو تكذيبه والكفر به وكتمان صفاته في كتبهم ﴿وَالْعَذَابُ بِالْمَغْفِرَةِ﴾ أي اعتاضوا عن المغفرة بالعذاب، وهو ما تعاطوه من أسبابه المذكورة.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا أَصْبَرْتَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ يخبر تعالى أنهم في عذاب شديد عظيم هائل، يتعجب من رأهم فيها من صبرهم على ذلك مع شدة ما هم فيه من العذاب والنکال والأغلال، عباداً بالله من ذلك، وقيل معنى قوله: ﴿فَمَا أَصْبَرْتَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ أي فما أدوهم لعمل المعاصي التي تفضي بهم إلى النار.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أي إنما استحقوا هذا العذاب الشديد لأن الله تعالى أنزل على رسوله محمد ﷺ وعلى الأنبياء قبله كتبه بتحقيق الحق وإبطال الباطل، وهؤلاء اتخذوا آيات الله هزواً، فكتابهم أمرهم بإظهار العلم ونشره فخالفوه وكذبوا، وهذا الرسول الخاتم يدعوهم إلى الله تعالى ويأمرهم بالمعروف وينهواهم عن المنكر، وهم يكذبونه ويخالفونه ويجحدونه ويكتمون صفتة، فاستهزأوا بآيات الله المتزلة على رسله، فلهذا استحقوا العذاب والنکال، ولهذا قال ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ شَقِّاقٌ بَعِيدٌ﴾

لَيْسَ الْبَرَأَنْ بُولُوا وَجُوَهُهُمْ كِلَّ الْمَسْرِقِ وَأَمْعَرُبْ وَكَلَّ الْمَنْعَمَ إِمَانَهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكَلَبِ وَالْتَّنَّيْنَ وَأَمَّا الْمَالُ عَلَى حِمَةِ دَوْيِ الْمَسْرِقِ وَأَيْسَمِي وَالْمَسْلَكِيَّ وَابْنِ السَّبِيلِ وَالْمَسَابِيَّ وَفِي الْرِّقَابِ وَأَقَامَ الْمَسْلَوَةَ وَأَمَّا الْزَّكَوَةَ وَالْمُؤْتُوكَ عَهْدُهُمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالْعَصَبَرِيَّنِ فِي الْبَسَاءِ

وَالظَّرِيرَةِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُنَّصُونَ

اشتملت هذه الآية على جمل عظيمة وقواعد عميمة، وعقيدة مستقيمة، كما قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عبيد بن هشام الحليبي، حدثنا عبيد الله بن عمرو عن عامر بن شفي، عن عبد الكريم، عن مجاهد، عن أبي ذر: أنه سأله رسول الله ﷺ: ما الإيمان؟ فتلا عليه «ليس البر أن تولوا وجوهكم» إلى آخر الآية، قال: ثم سأله أيضاً، فتلها عليه، ثم سأله فقال: «إذا عملت حسنة أحبها قلبك، وإذا عملت سيئة أبغضها قلبك» وهذا منقطع، فإن مجاهداً لم يدرك أبي ذر، فإنه مات قديماً، وقال المسعودي: حدثنا القاسم بن عبد الرحمن قال: جاء رجل إلى أبي ذر، فقال: ما الإيمان؟ فقرأ عليه هذه الآية «ليس البر أن تولوا وجوهكم» حتى فرغ منها، فقال الرجل: ليس عن البر سألك، فقال أبو ذر: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فسألته عمّا سأله عنه فقرأ عليه هذه الآية فأبى أن يرضى كما أبى أن ترضى فقال له رسول الله ﷺ وأشار بيده «المؤمن إذا عمل حسنة سرته ورجا ثوابها، وإذا عمل سيئة أحزنته وخاف عقابها» ورواه ابن مردويه . وهذا أيضاً منقطع، والله أعلم.

وأما الكلام على تفسير هذه الآية، فإن الله تعالى لما أمر المؤمنين أولاً بالتوجه إلى بيت المقدس ثم حولهم إلى الكعبة، شق ذلك على نفوس طائفة من أهل الكتاب وبعض المسلمين، فأنزل الله تعالى بيان حكمته في ذلك وهو أن المراد إنما هو طاعة الله عز وجل ، وامتثال أوامرها، والتوجه حيثما واجه واتباع ما شرع، فهذا هو البر والتقوى والإيمان الكامل، وليس في لزوم التوجه إلى جهة من المشرق أو المغرب بر ولا طاعة إن لم يكن عن أمر الله وشرعه، ولهذا قال «ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر» الآية، كما قال في الأضاحي والهدايا «لن ينال الله لحومها ولا دماءها ولكن يناله التقوى منكم» [الحج: ٣٧].

وقال العوفي عن ابن عباس في هذه الآية: ليس البر أن تصلوا ولا تعملوا، فهذا حين تحول من مكة إلى المدينة ونزلت الفرائض والحدود، فأمر الله بالفرائض والعمل بها، وروي عن الضحاك ومقاتل نحو ذلك، وقال أبو العالية: كانت اليهود تقبل قبل المغرب، وكانت النصارى تقبل قبل المشرق، فقال الله تعالى: «ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب» يقول: هذا كلام الإيمان وحقيقة العمل، وروي عن الحسن والربيع بن أنس مثله؛ وقال مجاهد ولكن البر ما ثبت في القلوب من طاعة الله عز وجل ، وقال الضحاك: ولكن البر والتقوى أن تؤدوا الفرائض على وجوهها وقال الثوري: «ولكن البر من آمن بالله» الآية قال: هذه أنواع البر كلها، وصدق رحمه الله، فإن من اتصف بهذه الآية، فقد دخل في عرى الإسلام كلها، وأخذ بمجامع الخير كله، وهو الإيمان بالله وأنه لا إله إلا هو، وصدق بوجود الملائكة الذين هم سفرة بين الله ورسله .

(والكتاب) وهو اسم جنس يشمل الكتب المترفة من السماء على الأنبياء، حتى ختمت بأشرفها وهو القرآن المهيمن على ما قبله من الكتب الذي انتهى إليه كل خير، واشتمل على كل سعادة في الدنيا والآخرة ونسخ به كل ما سواه من الكتب قبله، وأمن بأنبياء الله كلهم من أولهم إلى خاتمهم محمد صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

وقوله ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حِبِّهِ﴾ أي أخرجه وهو محب له راغب فيه، نص على ذلك ابن مسعود وسعيد بن جبیر وغيرهما من السلف والخلف، كما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «أفضل الصدقة أن تصدق وأنت صحيح شحيح، تأمل الغنى وتخشى الفقر»<sup>(١)</sup>.

وقد روى الحاكم في مستدركه من حديث شعبة والثوري عن منصور، عن زبيد، عن مرة، عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حِبِّهِ﴾ أن تعطيه وأنت صحيح شحيح، تأمل العيش و تخشى الفقر» ثم قال: صحيح على شرط الشیخین ولم يخرجاه.

(قلت) وقد رواه وكيع عن الأعمش، وسفيان عن زبيد، عن مرة، عن ابن مسعود موقوفاً، وهو أصح، والله أعلم.

وقال تعالى: ﴿وَيَطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حِبِّهِ مُسْكِنًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا \* إِنَّمَا نَطْعَمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا تَرِيدُنَا جِزَاءً وَلَا شَكُورًا﴾ [الإنسان: ٩ - ٨] وقال تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبَرَ حَتَّى تَنْفَعُوا مَا تَحْبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢] وقوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَاصَّةً﴾ [الحشر: ٩] نمط آخر أرفع من هذا، وهو أنهem آثروا بما هم مضطرون إليه وهؤلاء أعطوا وأطعموا ما هم محبوون له.

وقوله: ﴿ذُوِّي التَّرَبَى﴾ وهم قربات الرجل وهم أولى من أعطي من الصدقة كما ثبت في الحديث «الصدقة على المساكين صدقة، وعلى ذي الرحم اثنان: صدقة وصلة، فهم أولى الناس بك وببرك وإعطائك» وقد أمر الله تعالى بالإحسان إليهم في غير موضع من كتابه العزيز.

﴿وَالْيَتَامَى﴾ هم الذين لا كاسب لهم، وقد مات آباءهم وهم ضعفاء صغار دون البلوغ والقدرة على التكسب، وقد قال عبد الرزاق: أنبأنا معاذ عن جوير، عن الضحاك عن الزمال بن سبرة، عن علي، عن رسول الله ﷺ قال: «لا يتم بعد حلم».

﴿وَالْمَسَاكِين﴾ وهم الذين لا يجدون ما يكفيهم في قوتهم وكسوتهم وسكناتهم، فيعطون ما تسد به حاجتهم وخلتهم، وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ليس المسكين بهذا الطواف الذي ترده التمرة والتمرتان واللقطة واللقطتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه»<sup>(٢)</sup>.

(١) أخرجه البخاري (نفقات باب ٢) ومسلم (زكاة حديث ٩٥).

(٢) أخرجه البخاري (تفسير سورة ٢ باب ٤؛ وزكاة باب ٥٣) وأبو داود (زكاة باب ٢٤) والنمسائي (زكاة =

﴿وابن السبيل﴾ وهو المسافر المجتاز الذي قد فرغت نفقةه فيعطي ما يوصله إلى بلده، وكذا الذي يريد سفراً في طاعة فيعطي ما يكفيه في ذهابه وإيابه، ويدخل في ذلك الصيف، كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أنه قال: ابن السبيل هو الضيف الذي يتزل بال المسلمين، وكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير وأبو جعفر الباقر والحسن وقتادة والضحاك والزهرى والريعان بن أنس ومقاتل بن حيان.

﴿والسائلين﴾ وهم الذين يتعرضون للطلب فيعطون من الزكوات والصدقات، كما قال الإمام أحمد<sup>(١)</sup>: حدثنا وكيع وعبد الرحمن قالا: حدثنا سفيان عن مصعب بن محمد، عن يعلى بن أبي يحيى، عن فاطمة بنت الحسين، عن أبيها - قال عبد الرحمن حسين بن علي - قال: قال رسول الله ﷺ «للسائل حق وإن جاء على فرس» رواه أبو داود.

﴿وفي الرقاب﴾ وهم المكاتبون الذين لا يجدون ما يؤدونه في كتابتهم، وسيأتي الكلام على كثير من هذه الأصناف في آية الصدقات من براءة إن شاء الله تعالى، وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا يحيى بن عبد الحميد، حدثنا شريك عن أبي حمزة عن الشعبي، حدثتني فاطمة بنت قيس، أنها سألت رسول الله ﷺ: أفي المال حق سوى الزكاة؟ قالت: فتلا علي ﴿وأتأتي المال على حبه﴾ ورواه ابن مردوخ من حديث آدم بن إياس ويحيى بن عبد الحميد كلاماً عن شريك عن أبي حمزة عن الشعبي عن فاطمة بنت قيس، قالت: قال رسول الله ﷺ «في المال حق سوى الزكاة» ثم قرأ ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغارب - إلى قوله - وفي الرقاب﴾ وأشار إلى ابن ماجه والترمذى، وضعف أبا حمزة ميموناً الأعور، وقد رواه سيار وإسماعيل بن سالم عن الشعبي.

وقوله ﴿وأقام الصلاة وأتى الزكاة﴾ أي وأتم أفعال الصلاة في أوقاتها بركوعها وسجودها وطمأنيتها وخشوعها على الوجه الشرعي المرضي، وقوله: ﴿وأتأتي الزكاة﴾ يتحمل أن يكون المراد به زكاة النفس وتخلصها من الأخلاق الدنية الرذيلة كقوله: ﴿قد أفلح من زakah﴾ وقد خاب من دساهها﴾ [الشمس: ٩ - ١٠] وقول موسى لفرعون ﴿هل لك إلى أن تزكي وأهديك إلى ربك فتخشي﴾ [النازعات: ١٨] وقوله تعالى: ﴿ووويل للمشركين الذين لا يؤمنون الزكاة﴾ [فصلت: ٧] ويتحمل أن يكون المراد زكاة المال، كما قاله سعيد بن جبير ومقاتل بن حيان، ويكون المذكور من إعطاء هذه الجهات والأصناف المذكورين، إنما هو التطوع والبر والصلة، ولهذا تقدم في الحديث عن فاطمة بنت قيس أن في المال حقاً سوى الزكاة، والله أعلم.

وقوله: ﴿والموفون بعهدهم إذا عاهدوا﴾، كقوله: ﴿الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون

= باب (٧٦) والدارمي (زكاة باب ٢) ومالك في الموطأ (صفة النبي حديث ٢٤).

(١) المستند (ج ١ ص ٢٠١).

الميثاق» [الرعد: ٢٠] وعكس هذه الصفة النفاق كما صح في الحديث «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائمن خان» وفي الحديث الآخر: «وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر».

وقوله: «والصابرين في اليساء والضراء وحين البأس» أي في حال الفقر وهو اليساء، وفي حال المرض والأقسام وهو الضراء «وحين البأس» أي في حال القتال والتقاء الأعداء، وقاله ابن مسعود وابن عباس وأبو العالية ومرة الهمданى ومجاحد وسعيد بن جبير والحسن وقتادة والربيع بن أنس والسدي ومقاتل بن حبان وأبو مالك والضحاك وغيرهم، وإنما نصب «الصابرين» على المدح والبحث على الصبر في هذه الأحوال لشدة وصعوبته والله أعلم، وهو المستعان وعليه التكلان.

وقوله «أولئك الذين صدقوا»، أي هؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات هم الذين صدقوا في إيمانهم، لأنهم حفروا الإيمان القلبي بالأقوال والأفعال، فهؤلاء هم الذين صدقوا «أولئك هم المتنتون» لأنهم اتقوا المحارم وفعلوا الطاعات.

يَتَائِمُ الَّذِينَ أَمْنَوْا كُتُبَكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحَرُّ بِالْحُرُّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى يَا لَأَنَّى فَمَنْ عَفَى لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَإِنَّمَا يَأْدَمُ إِلَيْهِ يَأْخُسِنُ دَلِيلَ تَحْفِيقٍ مِّنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةً فَمَنْ أَعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَمْ يَعْذَّبْ أَلِيمًا وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَتَأْوِلُ إِلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ

يقول تعالى: كتب عليكم العدل في القصاص أيها المؤمنون، حركم بحركم، وعبدكم بعدكم، وأنثاكם بأنثاكم، ولا تتجاوزوا وتعتدوا كما اعترضتم من قبلكم وغيروا حكم الله فيهم، وبسبب ذلك قريطة والنمير، كانت بني النمير قد غزت قريطة في الجاهلية وقهروهم، فكان إذا قتل النميري القرطي لا يقتل به، بل يفادى بمائة وسق من التمر، وإذا قتل القرطي النميري قتل، وإن فادوه فدوه بمائة وسق من التمر ضعف دية قريطة، فأمر الله بالعدل في القصاص، ولا يتبع سبيل المفسدين المحرفين المخالفين لأحكام الله فيهم كفراً وبغياناً، فقال تعالى: «كتب عليكم القصاص في القتلى، الحر بالحر والعبد بالعبد والأُنْثَى يَا لَأَنَّى ذَلِكَ فَذَكْرٌ في سبب نزولها ما رواه الإمام أبو محمد بن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير حدثني عبد الله بن لهيعة، حدثني عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير في قول الله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كتب عليكم القصاص في القتلى»، يعني إذا كان عمداً الحر بالحر، وذلك أن حيين من العرب اقتتلوا في الجاهلية قبل الإسلام بقليل، فكان بينهم قتل وجراحات حتى قتلوا العبيد النساء، فلم يأخذ بعضهم من بعض حتى أسلموا، فكان أحد الحيين يتطاول على الآخر في العدة والأموال، فحلقوا أن لا يرضاوا حتى يقتل العبد منا الحر منهم، والمرأة منا الرجل منهم، فنزل فيهم «الحر بالحر والعبد بالعبد والأُنْثَى يَا لَأَنَّى ذَلِكَ» منها منسوبة نسختها «النفس بالنفس».

[المائدة: ٤٥]، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله: «والأنثى بالأنثى» وذلك أنهم كانوا لا يقتلون الرجل بالمرأة، ولكن يقتلون الرجل بالرجل والمرأة بالمرأة، فأنزل الله: النفس بالنفس والعين بالعين، فجعل الأحرار في القصاص سواء فيما بينهم من العمد رجالهم ونساؤهم في النفس وفيما دون النفس، وجعل العبيد مستويين فيما بينهم من العمد في النفس وفيما دون النفس رجالهم ونساؤهم، وكذلك روي عن أبي مالك أنها منسوبة بقوله النفس بالنفس.

[مسألة] ذهب أبو حنيفة إلى أن الحر يقتل بالعبد لعموم آية المائدة، وإليه ذهب الثوري وابن أبي ليلى وداود، وهو مروي عن علي وابن مسعود وسعيد بن المسيب وإبراهيم النخعي وقاتدة والحكم، قال البخاري وعلي بن المديني وإبراهيم النخعي والثوري في رواية عنه: ويقتل السيد بعده، لعموم حديث الحسن عن سمرة «ومن قتل عبده قتلناه، ومن جدع عبده جدعناه، ومن خصاه خصيناه» وخالفهم الجمهور فقالوا: لا يقتل الحر بالعبد، لأن العبد سلعة لو قتل خطأ لم يجب فيه دية، وإنما تجب فيه قيمته وأنه لا يقاد بطرفة ففي النفس بطريق الأولى، وذهب الجمهور إلى أن المسلم لا يقتل بالكافر، لما ثبت في البخاري عن علي، قال: قال رسول الله ﷺ «ولا يقتل مسلم بكافر» ولا يصح حديث ولا تأويل يخالف هذا، وأما أبو حنيفة فذهب إلى أنه يقتل به لعموم آية المائدة.

[مسألة] قال الحسن وعطاء: لا يقتل الرجل بالمرأة لهذه الآية، وخالفهم الجمهور لآية المائدة ولقوله عليه السلام: «المسلمون تتکافأ دماءهم» وقال الليث: إذا قتل الرجل امرأته لا يقتل بها خاصة.

[مسألة] ومذهب الأئمة الأربع والجمهور أن الجماعة يقتلون بالواحد، قال عمر في غلام: قتله سبعة فقتلهم، وقال: لو تمالأ عليه أهل صنعاء لقتلتهم. ولا يعرف له في زمانه مخالف من الصحابة، وذلك كالإجماع، وحكي عن الإمام أحمد رواية: أن الجماعة لا يقتلون بالواحد، ولا يقتل بنفس إلا نفسم واحدة، وحكاه ابن المنذر عن معاذ وابن الزبير وعبد الملك بن مروان والزهري وابن سيرين وحبيب بن أبي ثابت، ثم قال ابن المنذر: وهذا أصح، ولا حجة لمن أباح قتل الجماعة، وقد ثبت عن ابن الزبير ما ذكرناه، وإذا اختلف الصحابة فسيله النظر.

وقوله: «فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان» فالغفو أن يقبل الديمة في العدم، وكذا روي عن أبي العالية وأبي الشعثاء ومجاحد وسعيد بن جبير وعطاء والحسن وقاتدة ومقاتل بن حيان وقال الضحاك عن ابن عباس: «فمن عفي له من أخيه شيء يعني: فمن ترك له من أخيه شيء يعني أخذ الديمة بعد استحقاق الدم، وذلك العفو، «فاتباع بالمعروف» يقول: فعل الطالب اتباع بالمعروف إذا قبل الديمة، «وأداء إليه بإحسان» يعني من

القاتل من غير ضرر ولا مَعْكَ<sup>(١)</sup> يعني المدافعة، وروى الحاكم من حديث سفيان عن عمرو، عن مجاهد، عن ابن عباس: ويؤدي المطلوب بإحسان. وكذا قال سعيد بن جبير وأبو الشعثاء جابر بن زيد والحسن وقتادة وعطاء الخراساني والرابع بن أنس والسدي ومقاتل بن حيان.

[مسألة] قال مالك رحمه الله في رواية ابن القاسم عنه وهو المشهور، وأبو حنيفة وأصحابه، والشافعي وأحمد في أحد قوله: ليس لولي الدم أن يغفو على الدية إلا برضاء القاتل. وقال الباقيون: له أن يغفو عليها وإن لم يرض.

[مسألة] وذهب طائفة من السلف إلى أنه ليس للنساء عفو، منهم الحسن وقتادة والزهري وابن شبرمة والليث والأوزاعي، وخالفهم الباقيون.

وقوله: «ذلك تخفيف من ربكم ورحمة» يقول تعالى: إنما شريع لكمأخذ الدية في العمد تخفيضاً من الله عليكم ورحمة بكم مما كان محظوماً على الأمم قبلكم من القتل أو العفو، كما قال سعيد بن منصور: حدثنا سفيان عن عمرو بن دينار، أخبرني مجاهد عن ابن عباس قال: كتب علىكم علىبني إسرائيل القصاص في القتلى، ولم يكن فيهم العفو، فقال الله لهذه الأمة «كتب عليكم القصاص في القتلى العر بالعر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى، فمن عفى له من أخيه شيء» فالعفو أن يقبل الدية في العمد وقد رواه غير واحد عن عمرو، وأنخرجه ابن حبان في صحيحه عن عمرو بن دينار، ورواه جماعة عن مجاهد عن ابن عباس بنحوه. وقال قتادة «ذلك تخفيف من ربكم» رحم الله هذه الأمة وأطعمهم الدية ولم تحل لأحد قبلهم فكان أهل التوراة: إنما هو القصاص وعفو ليس بينهم أرش، وكان أهل الانجيل: إنما هو عفو أمروا به وجعل لهذه الأمة القصاص والعفو والأرش<sup>(٢)</sup>، وهكذا روي عن سعيد بن جبير ومقاتل بن حيان والرابع بن أنس نحو هذا.

وقوله «من اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم» يقول تعالى: فمن قتل بعد أخذ الدية أو قبولها، فله عذاب من الله أليم موجع شديد، وهكذا روي عن ابن عباس ومجاهد وعطاء وعكرمة والحسن وقتادة والرابع بن أنس والسدي ومقاتل بن حيان أنه هو الذي يقتل بعد أخذ الدية، كما قال محمد بن إسحاق عن الحارث بن فضيل، عن سفيان بن أبي العوجاء، عن أبي شريح الخزاعي، أن النبي ﷺ قال: «من أصيب بقتل أو خبل<sup>(٣)</sup> فإنه يختار إحدى ثلاث: إنما أن يقتص، وإنما أن يغفو، وإنما أن يأخذ الدية، فإن أراد الرابعة، فخذلوا على يديه، ومن اعتدى بعد ذلك فله نار جهنم خالداً فيها» رواه أحمد<sup>(٤)</sup>، وقال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن الحسن عن

(١) معكَهُ: بالقتل والخصومة. لواه، ومعكَهُ في دينه: مَطَّلهُ به.

(٢) الأرش: دية الجراحة. وما يسترّد من ثمن المبيع إذا ظهر فيه عيب.

(٣) الخَبَل: الجراح، كما في رواية المسند.

(٤) المسند (ج ٤ ص ٣١).

سمرة قال : قال رسول الله ﷺ : «لا أعافي رجلاً قتل بعد أخذ الديمة» يعني لا أقبل منه الديمة ، بل أقتلته .

وقوله «ولكم في القصاص حياة» يقول تعالى : وفي شرع القصاص لكم ، وهو قتل القاتل حكمة عظيمة وهي بقاء المهج وصونها ، لأنه إذا علم القاتل أنه يقتل انكف عن صنيعه ، فكان في ذلك حياة للنفوس ، وفي الكتب المتقدمة : القتل أدنى للقتل فجاءت هذه العبارة في القرآن افصح وأبلغ وأوجز «ولكم في القصاص حياة» قال أبو العالية : جعل الله القصاص حياة ، فكم من رجل يريد أن يقتل فتمتنع مخافة أن يقتل . وكذا روي عن مجاهد وسعيد بن جبير وأبي مالك والحسن وقتادة والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان .

﴿يَا أَوْلَى الْأَلَبَابِ لِعُلُوكِمْ تَقُولُونَ﴾ يقول : يا أولي العقول والأفهام والنهى ، لعلكم تنتجزون وتتركون محارم الله وماثمه ، والتقوى اسم جامع لفعل الطاعات وترك المنكرات .

**كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتَ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالَّدِيْنَ وَالْأَقْرَبِيْنَ بِالْمَعْرُوفِ حَتَّىٰ عَلَى الْمُؤْمِنِيْنَ [١] فَمَنْ بَدَأَ لَهُ بَعْدَ مَا سَعَى فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِيْنَ يُبَدِّلُوْنَهُ إِنَّ اللَّهَ سَيِّعُ عَلَيْمٌ [٢] فَمَنْ حَافَ مِنْ مُوصِي جَنَّفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ [٣]**

اشتملت هذه الآية الكريمة على الأمر بالوصية للوالدين والأقربين ، وقد كان ذلك واجباً على أصح القولين قبل نزول آية المواريث ، فلما نزلت آية الفرائض نسخت هذه ، وصارت المواريث المقدرة فريضة من الله يأخذها أهلوها حتماً من غير وصية ولا تحمل منه الموصى ، ولهذا جاء في الحديث الذي في السنن وغيرها عن عمرو بن خارجة قال : سمعت رسول الله ﷺ يخطب وهو يقول «إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه ، فلا وصية لوارث»<sup>(١)</sup> .

وقال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل بن إبراهيم بن عليه عن يونس بن عبيد عن محمد بن سيرين ، قال : جلس ابن عباس فقرأ سورة البقرة حتى أتى هذه الآية «إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين» فقال : نسخت هذه الآية وكذا رواه سعيد بن منصور ، عن هشيم ، عن يونس به ، ورواه الحاكم في مستدركه ، وقال : صحيح على شرطهما ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله «الوصية للوالدين والأقربين» قال : كان لا يرث مع الوالدين غيرهما إلا وصية للأقربين ، فأنزل الله آية الميراث ، فبين ميراث الوالدين وأقر وصية الأقربين في ثلث مال الميت .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا الحسن بن الصباح ، حدثنا حجاج بن محمد ، أخبرنا ابن جريج وعثمان بن عطاء عن عطاء ، عن ابن عباس ، في قوله «الوصية للوالدين والأقربين» :

(١) أخرجه البخاري (وصايا باب ٦) وأبو داود (وصايا باب ٦) والترمذى (وصايا باب ٥) والنسائي (وصايا باب ٥) وابن ماجه (وصايا باب ٦) والدارمى (وصايا باب ٢٨) وأحمد في المسند (ج ٤ ص ١٨٦) .

نسختها هذه الآية ﴿للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضاً﴾ [النساء : ٧] ثم قال ابن أبي حاتم ، وروي عن ابن عمر وأبي موسى وسعيد بن المسيب والحسن ومجاحد وعطاء وسعيد بن جبير ومحمد بن سيرين وعكرمة وزيد بن أسلم والربيع بن أنس وقتادة والستي ومقاتل بن حيان وطاوس وإبراهيم النخعي وشريح والضحاك والزهري : أن هذا الآية منسوخة ، نسختها آية الميراث .

والعجب من أبي عبد الله محمد بن عمر الرازي رحمة الله ، كيف حكى في تفسيره الكبير عن أبي مسلم الأصفهاني أن هذه الآية غير منسوخة وإنما هي مفسرة بآية المواريث ، ومعنىه كتب عليكم ما أوصى الله به من توريث الوالدين والأقربين من قوله ﴿يوصيكم الله في أولادكم﴾ [النساء : ١١] قال : وهو قول أكثر المفسرين والمعتبرين من الفقهاء : قال : ومنهم من قال : إنها منسوخة فيمن يرث ثابتة فيمن لا يرث ، وهو مذهب ابن عباس والحسن ومسروق وطاوس والضحاك ومسلم بن يسار والعلاء بن زياد<sup>(١)</sup> .

(قلت) وبه قال أيضاً سعيد بن جبير والربيع بن أنس وقتادة ومقاتل بن حيان ، ولكن على قول هؤلاء لا يسمى هذا نسخاً في اصطلاحنا المتأخر ، لأن آية المواريث إنما رفت حكم بعض أفراد ما دل عليه عموم آية الوصاية ، لأن الأقربين أعم من يرث ولا يرث ، فرفع حكم من يرث بما عين له ، وبقي الآخر على ما دلت عليه الآية الأولى ، وهذا إنما يتأنى على قول بعضهم : إن الوصاية في ابتداء الإسلام إنما كانت ندباً حتى نسخت ، فأما من يقول : إنها كانت واجبة وهو الظاهر من سياق الآية ، فيتعين أن تكون منسوخة بآية الميراث كما قاله أكثر المفسرين والمعتبرين من الفقهاء ، فإن وجوب الوصية للوالدين والأقربين الوارثين منسوخ بالإجماع ، بل منهي عنه للحديث المتقدم «إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوراث» فآية الميراث حكم مستقل ووجوب من عند الله لأهل الفرض والعصبات ، رفع بها حكم هذه بالكلية ، بقي الأقارب الذين لا ميراث لهم يستحب له أن يوصي لهم من الثالث استثنائاً بآية الوصية وشمولها ، ولما ثبت في الصحيحين عن ابن عمر ، قال : قال رسول الله ﷺ «ما حق امرئ مسلم له شيء يوصي فيه بيته ليليتين إلا ووصيته مكتوبة عنده»<sup>(٢)</sup> قال ابن عمر : ما مرت على ليلة منذ سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك إلا وعندى وصيتي . والآيات والأحاديث بالأمر بغير الأقارب والإحسان إليهم كثيرة جداً .

وقال عبد بن حميد في مسنده : أخبرنا عبد الله عن مبارك بن حسان ، عن نافع قال : قال عبد الله : قال رسول الله ﷺ : يقول الله تعالى : يا ابن آدم ثنتان لم يكن لك واحدة منها : جعلت لك نصيباً في مالك حين أخذت بكظمك لأظهرك به وأذكيك ، وصلة عبادي عليك بعد انقضاء

(١) تفسير الرازي ٥٣/٥ — ٥٤.

(٢) أخرجه البخاري (وصايا باب ١) ومسلم (وصية حديث ١ و٤) .

أجلك».

وقوله ﴿إِنْ تَرَكْ خَيْرًا﴾ أي مالاً، قاله ابن عباس ومجاحد وعطاء وسعيد بن جبير وأبو العالية وعطيية العوفي والضحاك والسدوي والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان وقادة وغيرهم.

ثم منهم من قال: الوصية مشروعة سواء قل المال أو كثراً كالوراثة ومنهم من قال: إنما يوصي إذا ترك مالاً جليلاً، ثم اختلفوا في مقداره، فقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرري، أخبرنا سفيان عن هشام بن عمروة عن أبيه، قال: قيل لعلي رضي الله عنه: إن رجلاً من قريش قد مات وترك ثلثمائة دينار أو أربع مائة ولم يوص؟ قال: ليس بشيء إنما قال الله ﴿إِنْ تَرَكْ خَيْرًا﴾ وقال أيضاً: وحدثنا هارون بن إسحاق الهمданى، حدثنا عبدة يعني ابن سليمان، عن هشام بن عمروة عن أبيه: إن علياً دخل على رجل من قومه يعوده، فقال له: أوصي؟ فقال له علي: إنما قال الله ﴿إِنْ تَرَكْ خَيْرًا الْوَصِيَّة﴾ إنما ترك شيئاً يسيرًا فاتركه لولدك.

وقال الحاكم<sup>(١)</sup> بن أبان حديث عن عكرمة عن ابن عباس ﴿إِنْ تَرَكْ خَيْرًا﴾ قال ابن عباس: من لم يترك ستين ديناراً لم يترك خيراً، قال الحاكم<sup>(٢)</sup>: قال طاووس: لم يترك خيراً من لم يترك ثمانين ديناراً، وقال قتادة: كان يقال: ألفاً فما فوقها.

وقوله ﴿بِالْمَعْرُوف﴾ أي بالرفق والإحسان، كما قال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن أحمد، حدثنا إبراهيم بن عبد الله بن بشار، حدثني سرور بن المغيرة عن عباد بن منصور عن الحسن قوله ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتَ﴾ فقال: نعم الوصية حق على كل مسلم أن يوصي إذا حضر الموت بالمعروف غير المنكر. والمراد بالمعروف أن يوصي لأقربائه وصية لا تجحف بورثته من غير إسراف ولا تقدير، كما ثبت في الصحيحين أن سعداً قال: يا رسول الله، إن لي مالاً ولا يرثني إلا ابنة لي، أتفوصي بثلثي مالي؟ قال: «لا» قال: فالبشر؟ قال «لا» قال: فالثالث؟ قال «الثالث والثالث كثير، إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتکفرون الناس». وفي صحيح البخاري<sup>(٢)</sup> أن ابن عباس قال: لو أن الناس غضوا من الثالث إلى الرابع، فإن رسول الله ﷺ قال «الثالث والثالث كثير» وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد مولىبني هاشم عن زياد بن عتبة بن حنظلة سمعت حنظلة بن جذيم بن حنفية: أن جده حنفية أوصى ليتيم في حجره بمائة من الإبل، فشق ذلك على بنيه فارتغعوا إلى رسول الله ﷺ فقال حنفية: إني أوصيت ليتيم لي بمائة من الإبل كنا نسميتها المطية، فقال النبي ﷺ «لا لا لا، الصدقة خمس وإلا فعشرون وإلا فخمس عشرة وإلا فعشرون وإلا فخمس وعشرين وإلا فثلاثون وإلا فخمس وثلاثون فإن كثرت فأربعون» وذكر الحديث بطوله.

(١) كذا. والصواب: الحكم بن أبان — انظر موسوعة رجال الكتب التسعة / ١ / ٣٧٠.

(٢) صحيح البخاري (جناز باب ٣٦؛ ووصايا باب ٢ و٣؛ ونفقات باب ٤؛ وفرائض باب ٦).

وقوله «فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم» يقول تعالى : فمن بدّل الوصية وحرفها، فغير حكمها وزاد فيها أو نقص ، ويدخل في ذلك الكتمان لها بطريق الأولى «إنما إثمه على الذين يبدلونه» قال ابن عباس وغير واحد : وقد وقع أجر الميت على الله ، وتعلق الإثم بالذين بدلوا ذلك «إن الله سميع عليم» أي قد اطلع على ما أوصى به الميت وهو عليم بذلك وبما بدلَّه الموصى إليهم .

وقوله تعالى : «فمن خاف من موصى جنفاً أو إثماً» قال ابن عباس وأبو العالية ومجاهد والضحاك والربيع بن أنس والسدي : الجنف الخطأ ، وهذا يشمل أنواع الخطأ كلها بأن زادوا وارثاً بواسطة أو وسيلة ، كما إذا أوصى بيضة الشيء الفلانى محاباة أو أوصى لابن ابنته ليزيدها أو نحو ذلك من الوسائل ، إما مخططاً غير عامد بل بطبعه وقوه شفقته من غير تبصر ، أو متعمداً آثماً في ذلك ، فللوصي والحالة هذه ، أن يصلح القضية ويعدل في الوصية على الوجه الشرعي ، ويعدل عن الذي أوصى به الميت إلى ما هو أقرب الأشياء إليه وأشبه الأمور به جمعاً بين مقصود الموصي والطريق الشرعي ، وهذا الإصلاح والتوفيق ، ليس من التبديل في شيء ، ولهذا عطف هذا فيه على النهي عن ذلك ، ليعلم أن هذا ليس من ذلك بسيط ، والله أعلم .

وقد قال ابن أبي حاتم : حدثنا العباس بن الوليد بن مزيد قراءة ، أخبرني أبي عن الأوزاعي ، قال الزهرى : حدثني عروة عن عائشة عن النبي ﷺ أنه قال «يرد من صدقة الجنف في حياته ما يرد من وصية الجنف عند موته» وهكذا رواه أبو بكر بن مردويه من حديث العباس بن الوليد به ، قال ابن أبي حاتم : وقد أخطأ فيه الوليد بن مزيد ، وهذا الكلام إنما هو عن عروة فقط ، وقد رواه الوليد بن مسلم عن الأوزاعي فلم يجاوز به عروة ، وقال ابن مردويه أيضاً : حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم ، حدثنا إبراهيم بن يوسف ، حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا عمر بن المغيرة عن داود بن أبي هند ، عن عكرمة ، عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : «الجنف في الوصية من الكبائر» وهذا في رفعه أيضاً نظر .

وأحسن ما ورد في هذا الباب ما قال عبد الرزاق : حدثنا معمر عن أشعث بن عبد الله ، عن شهر بن حوشب ، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : «إِنَّ الرَّجُلَ لِيَعْمَلَ بِعَمَلِ أَهْلِ الْخَيْرِ سَبْعِينَ سَنَةً، فَإِذَا أَوْصَى حَافِظَ فِي وصيَّتِهِ، فَيَخْتَمُ لَهُ بَشَرُ عَمَلِهِ فِي الدُّنْدَارِ. وَإِنَّ الرَّجُلَ لِيَعْمَلَ بِعَمَلِ الشَّرِّ سَبْعِينَ سَنَةً، فَيَعْدَلُ فِي وصيَّتِهِ، فَيَخْتَمُ لَهُ بَخِيرُ عَمَلِهِ، فَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ» قال أبو هريرة : اقرأوا إن شئتم «تلك حدود الله فلا تعتدوها» [البقرة : ٢٢٩].

يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُبَابٌ عَلَيْكُمْ أَقْسِيَامٌ كَمَا كُبَابٌ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَنَقَّوْنَ ۝ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّهُ مِنْ أَيَّامٍ أُخْرَ ۝ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدَيَةٌ طَعَامٌ مِسْكِينٌ فَمَنْ تَطْلُقَعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ ۝ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ ۝ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۝

يقول تعالى مخاطباً للمؤمنين من هذه الآية، وأمراً لهم بالصيام وهو الإمساك عن الطعام والشراب والواقع، بنية خالصة لله عز وجل لما فيه من زكاة النفوس وطهارتها وتنقيتها من الأخلاط الرديئة والأخلاق الرذيلة، وذكر أنه كما أوجبه عليهم فقد أوجبه على من كان قبلهم فلهم فيه أسوة، وليجتهد هؤلاء في أداء هذا الفرض أكمل مما فعله أولئك، كما قال تعالى: «لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات» [المائدة: ٤٨]، ولهذا قال هنأنا «يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون» لأن الصوم فيه تزكية للبدن وتضييق لمسالك الشيطان، ولهذا ثبت في الصحيحين «يا معاشر الشباب من استطاع منكم البقاء فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»<sup>(١)</sup> ثم بين مقدار الصوم وأنه ليس في كل يوم، لثلا يشق على النفوس فتضعف عن حمله وأدائه بل في أيام معدودات. وقد كان هذا في ابتداء الإسلام، يصومون من كل شهر ثلاثة أيام، ثم نسخ ذلك بصوم شهر رمضان كما سيأتي بيانه.

وقد روي أن الصيام كان أولاً كما كان عليه الأمم قبلنا من كل شهر ثلاثة أيام عن معاذ وابن مسعود وابن عباس وعطاء وقتادة والضحاك بن مزاحم وزاد: لم يزل هذا مشروعاً من زمان نوح إلى أن نسخ الله ذلك بصيام شهر رمضان. وقال عباد بن منصور عن الحسن البصري «يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون \* أياماً معدودات» فقال: نعم، والله لقد كتب الصيام على كل أمة قد خلت، كما كتبه علينا شهراً كاماً وأياماً معدودات عدداً معلوماً، وروي عن السدي نحوه. وروى ابن أبي حاتم من حديث أبي عبد الرحمن المقربي، حدثني سعيد بن أبي أيوب، حدثني عبد الله بن الويل عن أبي الربع رجل من أهل المدينة، عن عبد الله بن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «صيام رمضان كتبه الله على الأمم قبلكم» في حديث طويل اختصر منه ذلك. وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عمن حدثه عن ابن عمر قال: أنزلت **﴿كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم﴾** كتب عليهم إذا صلوا أحد هم العتمة ونام، حرم عليهم الطعام والشراب والنماء إلى مثلها، قال ابن أبي العالية عبد الرحمن بن أبي ليلى ومجاحد وسعيد بن جبير ومقاتل بن حيان والربيع بن أنس وعطاء الخراساني نحو ذلك، وقال عطاء الخراساني عن ابن عباس **﴿كما كتب على الذين من قبلكم﴾** يعني بذلك أهل الكتاب، وروي عن الشعبي والسدي وعطاء الخراساني مثله، ثم بين حكم الصيام على ما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام فقال **﴿ فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام آخر﴾** أي المريض والمسافر لا يصومان في حال المرض والسفر، لما في ذلك من المشقة عليهما بل يفطران ويقضيان بعد ذلك من أيام آخر، وأما الصحيح المقيم الذي يطبق الصيام فقد كان مخيراً بين الصيام وبين الإطعام، إن شاء صام وإن شاء أفطر وأطعم عن كل يوم

(١) البخاري (صوم باب ١٠؛ ونكاح باب ٢ و٣) ومسلم (نكاح حديث ١ و٣).

مسكيناً، فإن أطعم أكثر من مسكين عن كل يوم فهو خير، وإن صام فهو أفضل من الإطعام، قاله ابن مسعود وابن عباس ومجاهد وطاوس ومقاتل بن حيان وغيرهم من السلف، ولهذا قال تعالى: «وَعَلَى الَّذِينَ يَطْيِقُونَهُ فِدْيَةً طَعَامٌ مَسْكِينٌ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ».

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو النضر، حدثنا المسعودي حدثنا عمرو بن مرة عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، قال: أحيلت الصلاة ثلاثة أحوال، وأحيل الصيام ثلاثة أحوال، فأما أحوال الصلاة فإن النبي ﷺ، قدم المدينة وهو يصلي سبعة عشر شهراً إلى بيت المقدس، ثم إن الله عز وجل أنزل عليه: «فَدَنَرٍ تَقْلِبْ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُولِينَكَ قِبْلَةَ تَرْضَاهَا» [البقرة: ١٤٤]، فوجهه الله إلى مكة هذا حول، قال: وكانوا يجتمعون للصلاحة ويؤذن بها بعضهم بعضاً، حتى نفروا أو كادوا ينقسون<sup>(١)</sup>، ثم إن رجلاً من الأنصار يقال له عبد الله بن زيد بن عبد ربه أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إني رأيت فيما يرى النائم، ولو قلت إني لم أكن نائماً لصدقت، إني بينما أنا بين النائم واليقظان إذ رأيت شخصاً عليه ثوبان أحضران فاستقبل القبلة، فقال: الله أكبر الله أكبر،أشهد أن لا إله إلا الله - مثنى - حتى فرغ من الأذان، ثم أمهل ساعة ثم قال مثل الذي قال غير أنه يزيد في ذلك: قد قامت الصلاة مرتين قال رسول الله ﷺ: «عِلْمُهَا بِلَالٌ فَلَيُؤذنُ بِهَا» فكان بلال أول من أذن بها، قال: وجاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: يا رسول الله، قد طاف بي مثل الذي طاف به، غير أنه سبقني فهذا حالان، قال: وكانوا يأتون الصلاة وقد سبقهم النبي ﷺ ببعضها، فكان الرجل يشير إلى الرجل إذن كم صلى؟ فيقول: واحدة أو اثنتين فيصليهما، ثم يدخل مع القوم في صلاتهم، قال: ف جاء معاذ فقال: لا أجده على حال أبداً إلا كنت عليها، ثم قضي ما سبقني، قال: فجاء وقد سبقه النبي ﷺ ببعضها، قال: فثبت معه فلما قضى رسول الله ﷺ قام فقضى، فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّهُ قَدْ سَنَ لَكُمْ مَعَاذَ فَهَكُذَا فَاصْنَعُوا» فهذه ثلاثة أحوال، وأما أحوال الصيام فإن رسول الله ﷺ، قدم المدينة فجعل يصوم من كل شهر ثلاثة أيام وصام عاشوراء، ثم إن الله فرض عليه الصيام، وأنزل الله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتُبْ عَلَيْكُمُ الصِّيَامَ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ» إلى قوله «وَعَلَى الَّذِينَ يَطْيِقُونَهُ فِدْيَةً طَعَامٌ مَسْكِينٌ» فكان من شاء صام ومن شاء أطعم مسكيناً، فأجزأ ذلك عنه، ثم إن الله عز وجل أنزل الآية الأخرى «شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ» [البقرة: ١٨٥] إلى قوله «فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلِيصُمِّهِ» [البقرة: ١٨٥] فأثبت الله صيامه على المقيم الصحيح، ورخص فيه للمريض والمسافر، وثبت الإطعام للكبير الذي لا يستطيع الصيام، فهذا حالان، قال: وكانوا يأكلون ويشربون ويأتون النساء ما لم يناموا، فإذا

(١) التَّقْسِ: الضرب بالناقوس، وهي خشبة طويلة تضرب بخشبة أصغر منها، وكان النصارى يعلمون بها أوقات صلاتهم.

ناموا امتنعوا، ثم إن رجلاً من الأنصار يقال له صرمة، ظل يعمل صائمًا حتى أمسى فجاء إلى أهله فصلى العشاء ثم نام، فلم يأكل ولم يشرب حتى أصبح فأصبح صائمًا، فرأه رسول الله وقد جهد جهداً شديداً، فقال «ما لي أراك قد جهدت جهداً شديداً؟» قال: يا رسول الله، إني عملت أمس فجهت حين جئت، فألقيت نفسي فنمت، فأصبحت صائمًا، قال: وكان عمر قد أصاب من النساء بعد ما نام فأتى النبي ﷺ فذكر له ذلك، فأنزل الله عز وجل: «أحل لكم ليلة الصيام الرفت إلى نسائكم - إلى قوله - ثم أنتموا الصيام إلى الليل» [البقرة: ١٨٧].

وأخرجه أبو داود في سنته، والحاكم في مستدركه من حديث المسعودي به، وقد أخرجه البخاري ومسلم من حديث الزهرى عن عروة عن عائشة أنها قالت: كان عاشوراء يصوم، فلما نزل فرض رمضان، كان من شاء صام ومن شاء أفطر، وروى البخاري عن ابن عمر وابن مسعود مثله.

وقوله تعالى: «وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين» كما قال معاذ رضي الله عنه: كان في ابتداء الأمر من شاء صام، ومن شاء أفطر وأطعم عن كل يوم مسكيناً، وهكذا روى البخاري عن سلمة بن الأكوع أنه قال لما نزلت «وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين»: كان من أراد أن يفطر يفادي حتى نزلت الآية التي بعدها فسختها، وروي أيضاً من حديث عبيد الله عن نافع عن ابن عمر قال: هي منسوبة، وقال السدي عن مرة عن عبد الله، قال: لما نزلت هذه الآية «وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين» قال: يقول «وعلى الذين يطيقونه» أي يتجمسونه، قال عبد الله: فكان من شاء صام، ومن شاء أفطر وأطعم مسكييناً « فمن تطوع» يقول: أطعم مسكييناً آخر « فهو خير له وأن تصوموا خير لكم» فكانوا كذلك حتى نسختها « فمن شهد منكم الشهر فليصم» [البقرة: ١٨٥].

وقال البخاري أيضاً: أخبرنا إسحاق، حدثنا زكريا بن إسحاق، حدثنا عمرو بن دينار عن عطاء: سمع ابن عباس يقرأ «وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين» قال ابن عباس: ليست منسوبة، هو الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة يستطيعان أن يصوما فيطعمان مكان كل يوم مسكييناً، وهكذا روى غير واحد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس نحوه.

وقال أبو بكر بن أبي شيبة: حدثنا عبد الرحيم بن سليمان عن أشعث بن سوار، عن عكرمة عن ابن عباس، قال: نزلت هذه الآية «وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين» في الشيخ الكبير الذي لا يطيق الصوم، ثم ضعف فرخص له أن يطعم مكان كل يوم مسكييناً.

وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه: حدثنا محمد بن أحمد، حدثنا الحسين بن بهرام المخزوبي، حدثنا وهب بن بقية، حدثنا خالد بن عبد الله عن ابن أبي ليلى، قال: دخلت على

عطاء في رمضان وهو يأكل، فقال: قال ابن عباس: نزلت هذه الآية ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يَطْيَقُونَهُ فِدْيَةً طَعَامَ مُسْكِنٍ﴾ فكان من شاء صام ومن شاء أفتر وأطعم مسكيناً ثم نسخت الأولى إلى الكبير الفاني إن شاء أطعم عن كل يوم مسكيناً وأفتر.

فحاصل الأمر أن النسخ ثابت في حق الصحيح المقيم بإيجاب الصيام عليه بقوله ﴿فَمَنْ شَهَدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلِيَصُمِّمْهُ﴾ وأما الشيخ الفاني الهرم الذي لا يستطيع الصيام، فله أن يفتر ولاقضاء عليه، لأنه ليست له حال يصير إليها يمكن فيها من القضاء، ولكن هل يجب عليه إذا أفتر أن يطعم عن كل يوم مسكيناً إذا كان ذا جدة<sup>(١)</sup>؟ فيه قولان للعلماء: أحدهما لا يجب عليه إطعام لأنه ضعيف عنه لسن، فلم يجب عليه فدية كالصبي، لأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها وهو أحد قوله الشافعي. والثاني، وهو الصحيح وعليه أكثر العلماء، أنه يجب عليه فدية عن كل يوم، كما فسره ابن عباس وغيره من السلف على قراءة من قرأ ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يَطْيَقُونَهُ﴾ أي يتجمشونه، كما قاله ابن مسعود وغيره، هو اختيار البخاري فإنه قال: وأما الشيخ الكبير إذا لم يطق الصيام، فقد أطعم أنس بعد ما كبر عاماً أو عامين عن كل يوم، مسكيناً، خبزاً ولحماً وأفتر، وهذا الذي علقه البخاري قد أسنده الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده فقال: حدثنا عبد الله بن معاذ، حدثنا أبي، حدثنا عمران عن أيوب بن أبي تميمة، قال: ضعف أنس عن الصوم، فصنع جفنة من ثريد، فدعا ثلاثة مسكيناً فأطعمهم، ورواه عبد بن حميد عن روح بن عبادة، عن عمران وهو ابن حذير، عن أيوب به. ورواه عبد أيضاً من حديث ستة من أصحاب أنس عن أنس بمعناه، ومما يلتحق بهذا المعنى الحامل والمريض إذا خافت على أنفسهما أو ولديهما، فيهما خلاف كثير بين العلماء، فمنهم من قال: يفتران ويفديان ويقضيان، وقيل: يفديان فقط ولا قضاء، وقيل يجب القضاء بلا فدية، وقيل: يفتران ولا فدية ولاقضاء، وقد بسطنا هذه المسألة مستقصاة في كتاب الصيام الذي أفردناه، والله الحمد والمنة.

شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًىٰ لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهَدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلِيَصُمِّمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعَذَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرٌ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْأَيْسَرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْمُسَرَّ وَلَتُكَمِّلُوا الْعِدَّةَ وَلَا تَكُرُّوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَنَاكُمْ وَلَا لَكُمْ شَكُورٌ

١٨٣

يمدح تعالى شهر الصيام من بينسائر الشهور بأن اختاره من بينهن لإنزال القرآن العظيم، وكما اختصه بذلك قد ورد الحديث بأنه الشهر الذي كانت الكتب الإلهية تنزل فيه على الأنبياء، قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: حدثنا أبو سعيد مولى بنى هاشم، حدثنا عمران أبو العوام

عن قنادة، عن أبي الملحق، عن وائلة يعني ابن الأسعق: أن رسول الله ﷺ قال «أنزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان، وأنزلت التوراة لست مضمون من رمضان، والإنجيل لثلاث عشرة خلت من رمضان، وأنزل الله القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان»<sup>(١)</sup>.

وقد روي من حديث جابر بن عبد الله وفيه: أن الزبور أُنزل لثنتي عشرة خلت من رمضان، والإنجيل لثمانية عشرة، والباقي كما تقدم، رواه ابن مردويه. وأما الصحف والتوراة والزبور والإنجيل، فنزل كل منها على النبي الذي أُنزل عليه جملة واحدة، وأما القرآن فإنما نزل جملة واحدة إلى بيت العزة من السماء الدنيا، وكان ذلك في شهر رمضان في ليلة القدر منه، كما قال تعالى: «إنا أَنْزَلْنَاكَ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ» [القدر: ١] وقال «إنا أَنْزَلْنَاكَ فِي لَيْلَةِ مَبَارَكَةٍ» [الدخان: ٣] ثم نزل بعده مفرقاً بحسب الواقع على رسول الله ﷺ، هكذا روي من غير وجه عن ابن عباس، كما قال إسرائيل عن السدي، عن محمد بن أبي المجاد، عن مقسم، عن ابن عباس: أنه سأله عطية بن الأسود فقال: وقع في قلبي الشك، قول الله تعالى: «شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ» وقوله «إنا أَنْزَلْنَاكَ فِي لَيْلَةِ مَبَارَكَةٍ» وقوله: «إنا أَنْزَلْنَاكَ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ» [القدر: ١] وقد أُنزل في شوال، وفي ذي القعدة، وفي ذي الحجة، وفي المحرم وصفر وشهر ربيع، فقال ابن عباس: إنه أُنزل في رمضان في ليلة القدر وفي ليلة مباركة جملة واحدة، ثم أُنزل على موقع النجوم ترتيلًا في الشهور والأيام، رواه ابن أبي حاتم وابن مردويه وهذا لفظه.

وفي رواية سعيد بن جبیر عن ابن عباس قال، أُنزل القرآن في النصف من شهر رمضان إلى سماء الدنيا، فجعل في بيت العزة، ثم أُنزل على رسول الله ﷺ في عشرين سنة لجواب كلام الناس، وفي رواية عكرمة عن ابن عباس، قال: نزل القرآن في شهر رمضان في ليلة القدر، على هذه السماء الدنيا جملة واحدة، وكان الله يحدث لنبيه ما يشاء ولا يجيء المشركون بمثل يخاصمون به إلا جاءهم الله بجوابه، وذلك قوله: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نَزَّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جَمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لَنْتَبِتْ بِهِ فَؤَدِكَ وَرَتَلْنَاهُ تَرْتِيلًا وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثْلِ إِلَّا جَئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا» [الفرقان: ٣٢].

وقوله: «هَدَى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ» هذا مدح للقرآن الذي أُنزله الله هدى لقلوب العباد ممن آمن به وصدقه واتبعه «وَبَيِّنَاتٍ» أي دلائل وحجج بينة واضحة جلية لمن فهمها وتدبّرها دالة على صحة ما جاء به من الهدى المنافي للضلالة، والرشد المخالف للغى، ومفرقاً بين الحق والباطل والحلال والحرام.

وقد روي عن بعض السلف: أنه كره أن يقال إلا شهر رمضان، ولا يقال رمضان، قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا محمد بن بكار بن الريان، حدثنا أبو معشر عن محمد بن كعب

(١) مسنـدـ أـحمدـ (جـ ٤ـ صـ ١٠٧ـ).

القرظي وسعيد هو المقبري عن أبي هريرة قال : لا تقولوا رمضان فإن رمضان اسم من أسماء الله تعالى ولكن قولوا شهر رمضان - قال ابن أبي حاتم وقد روي عن مجاهد ومحمد بن كعب نحو ذلك ، ورخص فيه ابن عباس وزيد بن ثابت .

(قلت) أبو معشر هو نجيح بن عبد الرحمن المدني إمام المغازي والسير ، ولكن فيه ضعف ، وقد رواه ابنته محمد عنه فجعله مرفوعاً عن أبي هريرة ، وقد أنكره عليه الحافظ بن عدي ، وهو جدير بالإنكار ، فإنه متروك ، وقد وهم في رفع هذا الحديث ، وقد انتصر البخاري رحمة الله في كتابه لهذا فقال : باب يقال رمضان وساق أحاديث في ذلك منها «من صام رمضان إيماناً واحتساباً ، غفر له ما تقدم من ذنبه» ونحو ذلك .

وقوله : **﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلِيصُمِّمَهُ﴾** هذا إيجاب حتم على من شهد استهلال الشهر ، أي كان مقيناً في البلد حين دخل شهر رمضان ، وهو صحيح في بدنه أن يصوم لا محالة ، ونسخت هذه الآية الإباحة المتقدمة لمن كان صحيحاً مقيناً أن يفطر ويفدي بإطعام مسكين عن كل يوم كما تقدم بيانه ، ولما حَتَّمَ الصيام أعاد ذكر الرخصة للمربيض وللمسافر أن يفطر بشرط القضاء ، فقال **﴿وَمَنْ كَانَ مَرِضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعَذْدَةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخْرَى﴾** معناه : ومن كان به مرض في بدنه يشق عليه الصيام معه أو يؤذيه ، أو كان على سفر ، أي في حالة السفر ، فله أن يفطر ، فإذا أفطر فعليه عدة ما أفطره في السفر من الأيام ، ولهذا قال **﴿يَرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يَرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾** اي إنما رخص لكم في الفطر في حال المرض والسفر مع تحتممه في حق المقيم الصحيح تيسيراً عليكم ورحمة بكم .

ووهنا مسائل تتعلق بهذه الآية [إحداها] أنه قد ذهب طائفة من السلف إلى أن من كان مقيناً في أول الشهر ثم سافر في أثناءه ، فليس له الإفطار بعد السفر والحالة هذه لقوله **﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلِيصُمِّمَهُ﴾** وإنما يباح الإفطار لمسافر استهل الشهر وهو مسافر ، وهذا القول غريب ، نقله أبو محمد بن حزم في كتابه المحلي عن جماعة من الصحابة والتابعين ، وفيما حكاه عنهم نظر ، والله أعلم ، فإنه قد ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ أنه خرج في شهر رمضان لغزوة الفتح ، فسار حتى بلغ الكديد ثم أفطر ، وأمر الناس بالفطر ، أخرجه صاحبا الصحيح . [الثانية] ذهب آخرون من الصحابة والتابعين إلى وجوب الإفطار في السفر لقوله **﴿فَعَذْدَةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخْرَى﴾** وال الصحيح قول الجمهور أن الأمر في ذلك على التخيير وليس بحتم ، لأنهم كانوا يخرجون مع رسول الله ﷺ في شهر رمضان ، قال : فمن الصائم ومن المفطر ، فلم يعب الصائم على المفطر ، ولا المفطر على الصائم ، ولو كان الإفطار هو الواجب لأنكر عليهم الصيام ، بل الذي ثبت من فعل رسول الله ﷺ أنه كان في مثل هذه الحالة صائماً لما ثبت في الصحيحين عن أبي الدرداء ، قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ في شهر رمضان في حر شديد حتى إن كان أحدهنا ليضع يده على رأسه من شدة ، وما فينا صائم إلا رسول الله ﷺ وعبد الله بن رواحة .

[الثالثة] قالت طائفة منهم الشافعي: الصيام في السفر أفضل من الإفطار لفعل النبي ﷺ كما تقدم، وقالت طائفة: بل الإفطار أفضل أخذنا بالرخصة ولما ثبت عن رسول الله ﷺ أنه سئل عن الصوم في السفر، فقال: «من أفتر فحسن، ومن صام فلا جناح عليه» وقال في حديث آخر «عليكم بـرخصة الله التي رخص لكم» وقالت طائفة: هما سواء لحديث عائشة أن حمزة بن عمرو الأسلمي قال: يا رسول الله، إني كثير الصيام فأصوم في السفر؟ فقال: إن شئت فصم، وإن شئت فأفتر وهو في الصحيحين، وقيل: إن شق الصيام فالإفطار أفضل، لحديث جابر أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً قد ظلل عليه فقال: «ما هذا؟ قالوا: صائم، فقال ليس من البر الصيام في السفر» أخرجاه، فاما إن رغب عن السنة ورأى أن الفطر مكره عليه، فهذا يتعين عليه الإفطار، ويحرم عليه الصيام، والحالـة هذه لما جاء في مستند الإمام أحمد وغيره عن ابن عمر وجابر وغيرهما: من لم يقبل رخصة الله كان عليه من الإثم مثل جبال عرفة.

[الرابعة] القضاـء هل يجب متابعاً أو يجوز فيه التفريق فيه قولـان: [أحدـهما] أنه يجب التتابع لأن القضاـء يـحكـي الأداء. [والثانـي] لا يجب التتابع بل إن شاء فرق وإن شاء تابـع، وهذا قولـجمهـور السـلف والـخلف، وعليـه ثـبتـ الدـلـائل لأنـ التـابـعـ إنـماـ وجـبـ فيـ الشـهـرـ لـضـرـورـةـ أـدـائـهـ فيـ الشـهـرـ، فـاماـ بـعـدـ انـقـضـاءـ رـمـضـانـ، فالـمـرـادـ صـيـامـ أـيـامـ عـدـةـ ماـ أـفـطـرـ، وـلـهـذاـ قـالـ تعـالـىـ: ﴿فـعـدـةـ مـنـ أـيـامـ أـخـرـ﴾ـ ثـمـ قـالـ تعـالـىـ: ﴿بـرـيدـ اللـهـ بـكـمـ الـيـسرـ وـلـاـ يـرـيدـ بـكـمـ الـعـسـرـ﴾ـ.

قال الإمام أحمد<sup>(١)</sup>: حدثنا أبو سلمة الخزاعي، حدثنا ابن هلال عن حميد بن هلال العدوـيـ، عنـ أبيـ قـاتـدةـ عنـ الأـعـرـابـيـ الـذـيـ سـمـعـ النـبـيـ ﷺـ يـقـولـ ﴿إـنـ خـيـرـ دـيـنـكـمـ أـيـسـرـهـ، إـنـ خـيـرـ دـيـنـكـمـ أـيـسـرـهـ﴾ـ.

وقـالـ أـحـمـدـ<sup>(٢)</sup>ـ أـيـضاـ: حدـثـناـ يـزـيدـ بـنـ هـارـونـ، أـخـبـرـناـ عـاصـمـ بـنـ هـالـلـ، حدـثـناـ غـاضـرـةـ بـنـ عـرـوـةـ الفـقيـميـ، حدـثـنيـ أـبـيـ عـرـوـةـ، قـالـ: كـنـاـ نـتـنـظـرـ النـبـيـ ﷺـ فـخـرـ جـلـاـ<sup>(٣)</sup>ـ يـقـطـرـ رـأـسـهـ مـنـ وـضـوءـ أـوـ غـسلـ، فـصـلـىـ، فـلـمـاـ قـضـىـ الصـلـاـةـ جـعـلـ النـاسـ يـسـأـلـونـهـ: عـلـيـنـاـ حـرـجـ فـيـ كـذـاـ؟ـ فـقـالـ رـسـولـ اللـهـ ﷺـ ﴿إـنـ دـيـنـ اللـهـ فـيـ يـسـرـ﴾ــ ثـلـاثـاـ يـقـولـهـاــ وـرـوـاهـ إـلـمـامـ أـبـوـ بـكـرـ بـنـ مـرـدـوـيـهـ فـيـ تـفـسـيرـ هـذـهـ الـآـيـةـ مـنـ حـدـيـثـ مـسـلـمـ بـنـ إـبـرـاهـيمـ عـنـ عـاصـمـ بـنـ هـالـلـ بـهــ.

وقـالـ إـلـمـامـ أـحـمـدـ<sup>(٤)</sup>ـ: حدـثـناـ مـحـمـدـ بـنـ جـعـفـرـ حدـثـناـ شـعـبـةـ قـالـ: حدـثـناـ أـبـوـ الـتـيـاحـ سـمـعـ أـنـسـ بـنـ مـالـكـ يـقـولـ: إـنـ رـسـولـ اللـهـ ﷺـ قـالـ: ﴿يـسـرـوـاـ وـلـاـ تـعـسـرـوـاـ وـسـكـنـوـاـ وـتـنـفـرـوـاـ﴾ـ أـخـرـجـاهـ فـيـ الصـحـيـحـينــ.

(١) مستند أـحـمـدـ (جـ ٣ـ صـ ٤٧٩ـ).

(٢) المسند (جـ ٥ـ صـ ٦٩ـ).

(٣) أيـ كانـ شـعرـهـ رـجـلاــ وـتـرـجـيلـ الشـعـرـ: إـرـسـالـهـ بـالـمـشـطــ. وـيـأـتـيـ بـمـعـنـىـ تـجـعـيـدـهــ.

(٤) المسند (جـ ٣ـ صـ ١٣١ـ).

وفي الصحيحين أيضاً أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ وأبي موسى حين بعثهما إلى اليمن «بُشِّرُوا ولا تنفروا ويسروا ولا تعسروا وتطاوعوا ولا تختلفوا» وفي السنن والمسانيد أن رسول الله ﷺ قال: «بعثت بالحنيفية السمححة».

وقال الحافظ أبو بكر مردوه في تفسيره: حدثنا عبد الله بن اسحاق بن إبراهيم حدثنا يحيى بن أبي طالب حدثنا عبد الوهاب بن عطاء، حدثنا أبو مسعود الحريري عن عبد الله بن شقيق، عن مجhn بن الأدرع: أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يصلي فتراه ببصره ساعة، فقال «أترأه يصلي صادقاً؟» قال: قلت يا رسول الله، هذا أكثر أهل المدينة صلاة، فقال رسول الله ﷺ «لا تسمعه فتهلكه» وقال «إن الله إنما أراد بهذه الأمة اليسر ولم يرد بهم العسر».

ومعنى قوله «يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة» أي إنما أمر خاص لكم في الإفطار للمرض والسفر ونحوهما من الأعذار لإرادته بكم اليسر وإنما أمركم بالقضاء لتكملوا عدة شهركم.

وقوله: «ولتكبروا الله على ما هداكم» أي ولتذكروا الله عند انقضاء عبادتكم، كما قال: «إذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذركم آباءكم أو أشد ذكرأ» [البقرة: ٢٠٠] وقال «إذا قضيتم الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون» [الجمعة: ١٠] وقال «فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب \* ومن الليل فسبحه وأدبار السجود» [ق: ٣٩ - ٤٠] ولهذا جاءت السنة باستحباط التسبيح والتحميد والتکبير بعد الصلوات المكتوبات، وقال ابن عباس: ما كنا نعرف انقضاء صلاة رسول الله ﷺ إلا بالتكبير، ولهذا أخذ كثير من العلماء مشروعية التکبير في عيد الفطر من هذه الآية: «ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم» حتى ذهب داود بن علي الأصبهاني الظاهري إلى وجوبه في عيد الفطر لظاهر الأمر في قوله: «ولتكبروا الله على ما هداكم» وفي مقابلته مذهب أبي حنيفة رحمة الله أنه لا يشرع التکبير في عيد الفطر، والباقيون على استحباطه على اختلاف في تفاصيل بعض الفروع بينهم، وقوله: «ولعلكم تشکرون» أي إذا قمت بما أمركم الله من طاعته بأداء فرائضه وترك محارمه وحفظ حدوده فلعلكم أن تكونوا من الشاكرين بذلك.

وإذا سألك عبادي عَنِّي فلأني قَرِيبٌ أَجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلَيَسْ تَحِبُّونِي وَلَيَوْمَ مُتَوَّلِّي  
لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَكَ ١٦١

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا يحيى بن المغيرة أخبرنا جرير عن عبدة بن أبي بربة السجستانى، عن الصلب بن حكيم بن معاوية بن حيدة القشيري عن أبيه عن جده، أن أعرابياً قال يا رسول الله ﷺ، أقرب ربنا فنتاجيه، أم بعيد فنتاجيه؟ فسكت النبي ﷺ فأنزل الله: «وإذا سألك عبادي عنِّي فلأني قَرِيبٌ أَجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ» إذا دعاني أُمرتهم أن يدعوني فدعوني

استجبت ، ورواه ابن جرير<sup>(١)</sup> عن محمد بن حميد الرازى ، عن جرير به ، ورواه ابن مردوه وأبو الشيخ الأصبهانى من حديث محمد بن أبي حميد عن جرير به .

وقال عبد الرزاق<sup>(٢)</sup> أخبرنا جعفر بن سليمان عن عوف عن الحسن قال سأله أصحاب رسول الله ﷺ أين ربنا ؟ فأنزل الله عز وجل ﴿وإذا سألك عبادي عنِّي فإني قریب أجیب دعوَة الداعِ إذا دعَانِ﴾ الآية وقال ابن جريج<sup>(٣)</sup> عن عطاء أنه بلغه لما نزلت ﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم﴾ [غافر: ٦٠] قال الناس لو نعلم أي ساعة فنزلت ﴿وإذا سألك عبادي عنِّي فإني قریب أجیب دعوَة الداعِ إذا دعَانِ﴾ .

وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفي ، حدثنا خالد الحذاء عن أبي عثمان النهدي ، عن أبي موسى الأشعري ، قال : كنا مع رسول الله ﷺ في غزوة ، فجعلنا لا نصعد شرفاً<sup>(٤)</sup> ولا نعلو شرفاً ولا نهبط وادياً ، إلا رفعنا أصواتنا بالتكبير ، قال : فدنا منا ، فقال يا أيها الناس ، اربعوا على أنفسكم ، فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً ، إنما تدعون سمعياً بصيراً ، إن الذي تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته ، يا عبد الله بن قيس ، ألا أعلمك كلمة من كنوز الجنة ؟ لا حول ولا قوة إلا بالله » آخر جاه في الصحيحين وبقية الجماعة من حديث أبي عثمان النهدي واسمه عبد الرحمن بن علي عنه بنحوه .

وقال الإمام أحمد<sup>(٥)</sup> : حدثنا سليمان بن داود ، حدثنا شعبة ، حدثنا قتادة عن أنس رضي الله عنه : أن النبي ﷺ قال : « يقول الله تعالى أنا عند ظن عبدي بي وأنما معه إذا دعاني ». .

وقال الإمام أحمد<sup>(٦)</sup> حدثنا علي بن إسحاق ، أبناؤنا عبد الله ، أبناؤنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر ، حدثنا إسماعيل بن عبيد الله عن كريمة بنت خشخاش المزنية ، قالت : حدثنا أبو هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ ، يقول : « قال الله تعالى أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفاته ». .

(قلت) وهذا كقوله تعالى : ﴿إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾ [النحل: ١٢٨] ، وقوله لموسى وهارون عليهم السلام ﴿إِنِّي مُعْكَمًا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦] والمراد من هذا أنه تعالى لا يخيب دعاء داع ، ولا يشغله عنه شيء ، بل هو سميع الدعاء ، ففيه ترغيب في الدعاء ، وأنه لا يضيع لديه تعالى ، كما قال الإمام أحمد<sup>(٧)</sup> : حدثنا يزيد ، حدثنا رجل : أنه سمع أبا عثمان هو النهدي ، يحدث عن سلمان يعني الفارسي رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال : « إن الله تعالى ليستحي أن يبسط العبد إليه يديه فيهمَا خيراً فِيرَدْهُمَا خَائِبَتِينَ » - قال يزيد : سموا لي

(١) تفسير الطبرى ١٦٤ / ٢ — ١٦٥ .

(٢) الشرف : الموضع العالى يشرف على ما حوله .

(٣) المسند (ج ٣ ص ٢١٠) .

(٤) المسند (ج ٢ ص ٥٤٠) .

(٥) المسند (ج ٥ ص ٤٣٨) .

هذا الرجل، فقالوا: جعفر بن ميمون - وقد رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه من حديث جعفر بن ميمون صاحب الأنماط به، وقال الترمذى: حسن غريب، ورواه بعضهم ولم يرفعه، قال الشيخ الحافظ أبو الحجاج المزى رحمة الله في أطرافه، وتابعه أبو همام محمد بن الزبرقان عن سليمان التيمي، عن أبي عثمان النهدي به.

وقال الإمام أحمد<sup>(١)</sup> أيضاً: حدثنا أبو عامر، حدثنا علي بن دؤاد أبي المتوكل الناجي عن أبي سعيد: أن النبي ﷺ، قال «ما من مسلم يدعو الله عز وجل بدعة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم، إلا أعطاه الله بها إحدى ثلات خصال: إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخلها له في الأخرى، وإنما أن يصرف عنه من السوء مثلها» قالوا: إذاً أكثر؟ قال: «الله أكثر».

وقال عبد الله بن الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن منصور الكوسج، أئبنا محمد بن يوسف، حدثنا ابن ثوبان عن أبيه، عن مكحول، عن جبير بن نفير: أن عبادة بن الصامت، حدثهم: أن النبي ﷺ، قال «ما على ظهر الأرض من رجل مسلم يدعو الله عز وجل بدعة إلا آتاه الله إياها، أو كف عنه من السوء مثلها ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم» ورواه الترمذى عن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى، عن محمد بن يوسف الفريابى، عن ابن ثوبان وهو عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان به، وقال: حسن صحيح غريب من هذا الوجه.

وقال الإمام مالك<sup>(٢)</sup> عن ابن شهاب، عن أبي عبد مولى ابن أزهر، عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ، قال «يستجاب لأحدكم مالم يعجل، يقول دعوت فلم يستجب لي» آخر جاه في الصحيحين من حديث مالك به، وهذا لفظ البخاري رحمة الله وأباه الجنـة.

وقال مسلم<sup>(٣)</sup> في صحيحه: حدثني أبو الطاهر، حدثنا ابن وهب، أخبرني معاوية بن صالح عن ربيعة بن يزيد، عن أبي إدريس الغولاني، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، أنه قال «لا يزال يستجاب للعبد مالم يدع بإثم أو قطيعة رحم مالم يستعجل» قيل: يا رسول الله، وما الاستعجال؟ قال «يقول قد دعوت وقد دعوت، فلم أر يستجاب لي، فистحرس عند ذلك ويدع الدعاء».

وقال الإمام أحمد<sup>(٤)</sup>: حدثنا عبد الصمد، حدثنا أبو هلال عن قتادة، عن أنس، أن رسول الله ﷺ قال: «لا يزال العبد بخير مالم يستعجل» قالوا: وكيف يستعجل؟ قال: «يقول قد دعوت ربي فلم يستجب لي».

(١) المستند (ج ٣ ص ١٨).

(٢) الموطأ (قرآن حديث ٢٩).

(٣) صحيح مسلم (ذكر حديث ٩٢).

(٤) المستند (ج ٣ ص ١٩٣).

وقال الإمام أبو جعفر الطبرى في تفسيره: حدثني يونس بن عبد الأعلى، حدثنا ابن وهب، حدثني أبو صخر: أن يزيد بن عبد الله بن قسيط حدثه عن عروة بن الزبير، عن عائشة رضي الله عنها، أنها قالت: ما من عبد مؤمن يدعوا الله بدعاوة فتذهب حتى تعجل له في الدنيا أو تدخر له في الآخرة إذا لم يتعجل أو يقطن، قال عروة: قلت: يا أماه كيف عجلته وقنوطه؟ قالت: يقول: سألت فلم أعط ودعوت فلم أجب. قال ابن قسيط: وسمعت سعيد بن المسيب يقول كقول عائشة سواء.

وقال الإمام أحمد<sup>(١)</sup>: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا بكر بن عمرو عن أبي عبد الرحمن الجبلي عن عبد الله بن عمرو: أن رسول الله ﷺ قال «القلوب أوعية، وبعضها أوعى من بعض، فإذا سألتم الله أيها الناس، فاسألوه وأنتم موقنون بالإجابة، فإنه لا يستجيب لعبد دعاه عن ظهر قلب غافل».

وقال ابن مردويه: حدثنا محمد بن إسحاق بن أبيه، حدثنا إسحاق بن إبراهيم بن أبي بن نافع بن معدي يكرب ببغداد، حدثني أبي بن نافع حدثني أبي نافع بن معدي يكرب، قال: كنت أنا وعائشة سألت رسول الله ﷺ عن آية «أجيب دعوة الداع إذا دعاني» قال: «يا رب مسألة عائشة» فهبط جبريل فقال «الله يقرؤك السلام هذا عبدي الصالح بالنية الصادقة وقلبه نقى يقول يا رب فأقول ليك فأقضى حاجته» وهذا حديث غريب من هذا الوجه.

وروى ابن مردويه من حديث الكلبي عن أبي صالح، عن ابن عباس، حدثني جابر بن عبد الله: أن النبي ﷺ قرأ: «وإذا سألك عبادي عنِّي فإني قریب أجيوب دعوة الداع إذا دعاني» الآية، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم أمرت بالدعاء وتوكلت بالإجابة، ليك اللهم ليك، ليك لا شريك لك، ليك إن الحمد والنعمـة لك والملك لا شريك لك، أشهد أنك فرد أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، وأشهد أن وعدك حق، ولقاءك حق، والجنة حق، والنار حق، والساعة آتية لا ريب فيها، وأنت تبعث من في القبور».

وقال الحافظ أبو بكر البزار: وحدثنا الحسن بن يحيى الأزدي ومحمد بن يحيى القطبي، قالا: حدثنا الحجاج بن منهال، حدثنا صالح المدي عن الحسن، عن أنس، عن النبي ﷺ قال: «يقول الله تعالى يا ابن آدم واحدة لك وواحدة لي وواحدة فيما بيني وبينك، فأما التي لي فتعبدني لا تشرك بي شيئاً وأما التي لك فيما عملت من شيء وفيتكه وأما الذي بيني وبينك، فمنك الدعاء وعلى الإجابة».

وفي ذكره تعالى هذه الآية الباعثة على الدعاء متخللة بين أحكام الصيام، إرشاد إلى اجتهداد في الدعاء عند إكمال العدة، بل وعند كل فطر، كما رواه الإمام أبو داود الطيالسي في مستنته:

حدثنا أبو محمد المليكي عن عمرو، هو ابن شعيب بن محمد بن عبد الله بن عمرو، عن أبيه، عن جده عبد الله بن عمرو، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «للصائم عند إفطاره دعوة مستجابة» فكان عبد الله بن عمرو إذا أفتر دعا أهله وولده ودعا.

وقال أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه في سنته: حدثنا هشام بن عمار، أخبرنا الوليد بن مسلم عن إسحاق بن عبد الله المدنى، عن عبيد الله بن أبي مليكة، عن عبد الله بن عمرو، قال: قال النبي ﷺ: «إن للصائم عند فطره دعوة ما ترد» قال عبيد الله بن أبي مليكة: سمعت عبد الله بن عمرو يقول إذا أفتر: اللهم إني أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء أن تغفر لي.

وفي مسنـد الإمام أحمد وسـنـن الترمذـي والنسـائي وابـن مـاجـه عنـ أبي هـرـيرـة، قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثـة لا تـرد دـعـوـتـهـمـ: الإـمامـ العـادـلـ، وـالـصـائـمـ حـتـىـ يـفـطـرـ، وـدـعـوـةـ الـمـظـلـومـ، يـرـفـعـهـاـ اللـهـ دـوـنـ الـغـمـامـ يـوـمـ الـقـيـامـةـ وـتـفـتـحـ لـهـ أـبـوـابـ السـمـاءـ، يـقـولـ بـعـزـتـيـ لـأـنـصـرـنـكـ وـلـوـ بـعـدـ حـيـنـ»<sup>(١)</sup>.

أَحَلَّ لَكُمْ يَلِيلَةَ الْصِّيَامِ أَرْفَثُ إِلَّا نِسَاءِكُمْ هُنَّ لِيَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَاسٌ لَهُنَّ عِلْمَ اللَّهِ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ  
خَتَّارُونَ أَنْفَسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَأَنْقَنَ بَشِّرُوهُنَّ وَأَبَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا  
وَأَشْرِبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْفَجَرِ ثُمَّ أَتَوْا الْصِّيَامَ إِلَى الْأَيَّلِ وَلَا  
تُبَشِّرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَنِّكُفُونَ فِي الْمَسْكِدِ تَبَرُّكُ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهُنَّ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ أَيْتَهُمْ  
لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ

هذه رخصة من الله تعالى للمسلمين، ورفع لها الأصل في ابتداء الإسلام، فإنه كان إذا أفتر أحدهم إنما يحل له الأكل والشرب والجماع إلى صلاة العشاء أو ينام قبل ذلك، فمتي نام أو صلى العشاء حرم عليه الطعام والشراب والجماع إلى الليلة القابلة، فوجدوا من ذلك مشقة كبيرة، والرفث هنا هو الجماع، قاله ابن عباس وعطاء ومجاهد وسعيد بن جبير وطاوس وسالم بن عبد الله وعمرو بن دينار والحسن وقتادة والزهري والضحاك وإبراهيم النخعي والستي وعطاء الخراساني ومقاتل بن حيان.

وقوله **«هن لباس لكم وأنتم لباس لهن»** قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير والحسن وقتادة والستي ومقاتل بن حيان: يعني هن سكن لكم وأنتم سكن لهن، وقال الربيع بن أنس: هن لحاف لكم وأنتم لحاف لهن، وحاصله: أن الرجل والمرأة كل منهما يخالف الآخر ويمسه ويضاجه، فناسب أن يرخص لهم في المjamاعة في ليل رمضان لثلا يشق ذلك عليهم ويحرجوها،

(١) أخرجه الترمذـيـ (جـةـ بـابـ ٣ـ، وـدـعـوـاتـ بـابـ ١٢٨ـ) وـابـنـ مـاجـهـ (صـيـامـ بـابـ ٤٨ـ) وـأـحـمـدـ فـيـ الـمـسـنـدـ (جـ ٤ـ) صـ ١٥٤ـ).

قال الشاعر : [المتقارب]

إذا ما الضجيجُ ثنى جيدَها تداعت فكانت عليه لباساً<sup>(١)</sup>

وكان السبب في نزول هذه الآية كما تقدم في حديث معاذ الطويل ، وقال أبو إسحاق عن البراء بن عازب : كان أصحاب النبي ﷺ إذا كان الرجل صائماً فنام قبل أن يفترط لم يأكل إلى مثلها ، وإن قيس بن صرمة الأنباري كان صائماً وكان يومه ذلك يعمل في أرضه ، فلما حضر الإفطار أتى امرأته فقال : هل عندك طعام ؟ قالت : لا ، ولكن أنطلق فأطلب لك ، فغلبته عينه فنام ، وجاءت امرأته ، فلما رأته نائماً قالت : خيبة لك أنممت ؟ فلما انتصف النهار غشي عليه فذكر ذلك للنبي ﷺ فنزلت هذه الآية «أحل لكم ليلة الصيام الرفت إلى نسائكم - إلى قوله - وكلوا وشربوا حتى يتبيّن لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر» ففرحوا بها فرحاً شديداً .

ولفظ البخاري هنا من طريق أبي إسحاق سمعت البراء ، قال : لما نزل صوم رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كله ، وكان رجال يخونون أنفسهم ، فينزل الله «علم الله أنكم كتم تحثانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم» .

وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس ، قال : كان المسلمين في شهر رمضان إذا صلوا العشاء ، حرم عليهم النساء والطعام إلى مثلها من القابلة ، ثم إن أناساً من المسلمين أصابوا من النساء والطعام في شهر رمضان بعد العشاء ، منهم عمر بن الخطاب فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ ، فأنزل الله تعالى : «علم الله أنكم كتم تحثانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن» الآية ، وكذا روى العوفي عن ابن عباس .

وقال موسى بن عقبة عن كريب عن ابن عباس ، قال : إن الناس كانوا قبل أن ينزل في الصوم ما نزل فيهم ، يأكلون ويشربون ويحل لهم شأن النساء ، فإذا نام أحدهم لم يطعم ولم يشرب ولا يأتي أهله حتى يفترط من القابلة ، فبلغنا أن عمر بن الخطاب بعد ما نام ووجب عليه الصوم وقع على أهله ، ثم جاء إلى النبي ﷺ فقال : أشكو إلى الله وإليك الذي صنعت . قال : «وما صنعت» ؟ قال : إني سوت لي نفسي ، فوقعت على أهلي بعد ما نمت ، وأنا أريد الصوم ، فزعموا أن النبي ﷺ قال : «ما كنت خليقاً أن تفعل» فنزل الكتاب «أحل لكم ليلة الصيام الرفت إلى نسائكم» .

وقال سعد بن أبي عروبة عن قيس بن سعد ، عن عطاء بن أبي رباح ، عن أبي هريرة في قول الله تعالى : «أحل لكم ليلة الصيام الرفت إلى نسائكم - إلى قوله - ثم أتموا الصيام إلى

(١) البيت للنابغة الجعدي في ديوانه ص ٨١؛ ومقاييس اللغة ٥/٢٣٠؛ وتهذيب اللغة ١٢/٤٤٤؛ ومجمل اللغة ٤/٢٦٢؛ وتاح العروس (ليس)، ولسان العرب (ليس)؛ والشعر والشعراء ص ٣٠٢.

الليل》 قال : كان المسلمين قبل أن تنزل هذه الآية إذا صلوا العشاء الآخرة ، حرم عليهم الطعام والشراب والنساء حتى يفطروا ، وأن عمر بن الخطاب أصاب أهله بعد صلاة العشاء ، وأن صرمة بن قيس الأنباري غلبته عيناه بعد صلاة المغرب ، فنام ولم يشبع من الطعام ، ولم يستقيط حتى صلى رسول الله ﷺ العشاء ، فقام فأكل وشرب ، فلما أصبح أتى رسول الله ﷺ فأخبره بذلك ، فأنزل الله عند ذلك «أحل لكم ليلة الصيام الرفت إلى نساءكم» يعني بالرفث مجاومة النساء «هن لباس لكم وأنتم لباس لهن علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم» يعني تجامعون النساء وتأكلون وتشربون بعد العشاء «فتات عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن» يعني جامعوهن «وابتغوا ما كتب الله لكم» يعني الولد «وكلوا واشربوا حتى يتبيّن لكم الخيط الأبيض من الخط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل» فكان ذلك عفواً من الله ورحمة .

وقال هشيم عن حصين بن عبد الرحمن عن عبد الرحمن بن أبي ليلى ، قال : قام عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقال : يا رسول الله ، إني أردت أهلي البارحة على ما يريد الرجل أهله ، فقالت : إنها قد نامت فظننتها تعتل فوافقتها ، فنزل في عمر «أحل لكم ليلة الصيام الرفت إلى نسائكم» وهكذا رواه شعبة عن عمرو بن مرة عن ابن أبي ليلى به .

وقال أبو جعفر بن جرير<sup>(١)</sup> : حدثني المثنى ، حدثنا سعيد ، أخبرنا ابن المبارك ، عن أبي لهيعة ، حدثني موسى بن جبیر مولى بنی سلمة ، أنه سمع عبد الله بن كعب بن مالك يحدث عن أبيه قال : كان الناس في رمضان إذا صام الرجل فأمسى فنام حرم عليه الطعام والشراب والنساء حتى يفطر من الغد ، فرجع عمر بن الخطاب من عند النبي ﷺ ذات ليلة وقد سمر عنده ، فوجد امرأته قد نامت فأرادها فقالت : إني قد نمت ، ثم وقع بها ، وصنع كعب بن مالك مثل ذلك ، فغدا عمر بن الخطاب إلى النبي ﷺ فأخبره فأنزل الله : «علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتات عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن» الآية ، وهكذا روى عن مجاهد وعطاء وعكرمة وقادة وغيرهم في سبب نزول هذه الآية في عمر بن الخطاب ومن صنع كما صنع ، وفي صرمة بن قيس ، فأباح الجماع والطعام الشراب في جميع الليل رحمة ورخصة ورفقاً .

وقوله : «وابتغوا ما كتب الله لكم» قال أبو هريرة وابن عباس وأنس وشريح القاضي ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبیر وعطاء والربيع بن أنس والسدی وزيد بن أسلم والحكم بن عتبة ومقاتل بن حيان والحسن البصري والضحاک وقادة وغيرهم : يعني الولد : وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : «وابتغوا ما كتب الله لكم» يعني الجماع ، وقال عمرو بن مالك البکری عن أبي الجوزاء عن ابن عباس «وابتغوا ما كتب الله لكم» قال : ليلة القدر ، رواه ابن أبي حاتم وابن جریر<sup>(٢)</sup> . وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر ، قال : قال قادة : ابتغوا الرخصة التي

(١) تفسير الطبری ١٧١ / ٢ .

(٢) تفسير الطبری ١٧٦ / ٢ .

كتب الله لكم، يقول: ما أحل الله لكم، وقال عبد الرزاق أيضاً: أخبرنا ابن عيينة عن عمرو بن دينار عن عطاء بن أبي رباح، قال: قلت لابن عباس: كيف تقرأ هذه الآية ﴿وابتغوا ما كتب الله لكم﴾؟ قال: أيهما شئت، عليك بالقراءة الأولى، واختار ابن جرير أن الآية أعم من هذا كله.

قوله ﴿وكلوا وشربوا حتى يتبيّن لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل﴾ أباح تعالى الأكل والشرب مع ما تقدم من إباحة الجماع في أي الليل شاء الصائم إلى أن يتبيّن ضياء الصباح من سواد الليل، وعبر عن ذلك بالخيط الأبيض من الخيط الأسود، ورفعليس بقوله ﴿من الفجر﴾ كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أبو عبد الله البخاري: حدثني ابن أبي مريم، حدثنا أبو غسان محمد بن مطرف، حدثنا أبو حازم عن سهل بن سعد، قال: أنزلت ﴿وكلوا وشربوا حتى يتبيّن لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود﴾ ولم ينزل ﴿من الفجر﴾ وكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم في رجليه الخيط الأبيض والخيط الأسود، فلا يزال يأكل حتى يتبيّن له رؤيهما، فأنزل الله بعد ﴿من الفجر﴾ فعلموا أنه يعني الليل والنهار.

وقال الإمام أحمد: حدثنا هشام، أخبرنا حصين عن الشعبي، أخبرني عدي بن حاتم قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وكلوا وشربوا حتى يتبيّن لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود﴾ عدت إلى عقالين: أحدهما أسود والآخر أبيض، قال: فجعلتهما تحت وسادي، قال: فجعلت أنظر إليهما، فلما تبيّن لي الأبيض من الأسود أمسكت، فلما أصبحت غدوات إلى رسول الله فأخبرته بالذي صنعت، فقال «إن وسادك إذا لعريض إنما ذلك بياض النهار من سواد الليل» آخر جاه في الصحيحين من غير وجه عن عدي.

ومعنى قوله: إن وسادك إذا لعريض، أي إن كان ليعرض الخطيدين: الخيط الأسود والأبيض المرادين من هذه الآية تحتها، فإنهما بياض النهار وسواد الليل، فيقتضي أن يكون بعرض المشرق والمغرب.

وهكذا وقع في رواية البخاري مفسراً بهذا، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا أبو عوانة عن حصين، عن الشعبي، عن عدي، قال: أخذ عدي عقلاً أبيض وعقلاً أسود، حتى كان بعض الليل نظر فلم يستبينا، فلما أصبح قال يا رسول الله جعلت تحت وسادي، قال «إن وسادك إذا لعريض، إن كان الخيط الأبيض والأسود تحت وسادتك» وجاء في بعض الألفاظ «إنك لعريض القفا» ففسره بعضهم بالبلاد، وهو ضعيف، بل يرجع إلى لأنه إذا كان وساده عريضاً ففاته أيضاً عريض، والله أعلم. ويفسره رواية البخاري أيضاً: حدثنا قتيبة حدثنا جرير عن مطرف عن الشعبي عن عدي بن حاتم قال: قلت يا رسول الله ما الخيط الأبيض من الخيط الأسود، أهـما الخيطان؟ قال: «إنك لعريض القفا إن أبصرت الخطيدين، ثم قال: لا بل هو سواد الليل وبياض النهار».

وفي إباحتة تعالى جواز الأكل إلى طلوع الفجر دليل على استحباب السحور لأنه من باب الرخصة والأخذ بها محظوظ ، ولهذا وردت السنة الثابتة عن رسول الله ﷺ بالبحث على السحور . ففي الصحيحين عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ «تسحروا فإن في السحور بركة» وفي صحيح مسلم عن عمرو بن العاص رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ «إن فصل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلة السحور» وقال الإمام أحمد ، حدثنا إسحاق بن عيسى هو ابن الطيعان ، حدثنا عبد الرحمن بن زيد عن أبيه ، عن عطاء بن يسار ، عن أبي سعيد ، قال : قال رسول الله ﷺ «السحور أكلة بركة فلا تدعوه ، ولو أن أحدكم تجرع جرعة ماء ، فإن الله وملائكته يصلون على المتسحرين» .

وقد ورد في الترغيب في السحور أحاديث كثيرة حتى ولو بجرعة ماء تشبههاً بالأكلين ، ويستحب تأخيره إلى وقت انفجار الفجر ، كما جاء في الصحيحين عن أنس بن مالك ، عن زيد بن ثابت قال : تسحرنا مع رسول الله ﷺ ثم قمنا إلى الصلاة ، قال أنس : قلت لزيد : كم كان بين الآذان والسحور ؟ قال : قدر خمسين آية .

وقال الإمام أحمد<sup>(١)</sup> : حدثنا موسى بن داود ، حدثنا ابن لهيعة ، عن سالم بن غيلان ، عن سليمان بن أبي عثمان ، عن عدي بن حاتم الحمصي ، عن أبي ذر ، قال : قال رسول الله ﷺ «لا تزال أمتي بخير ما عجلوا الإفطار وأخرروا السحور» .

وقد ورد أحاديث كثيرة أن رسول الله ﷺ سماه الغذاء المبارك ، وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد والنسيائي وابن ماجه من روایة حماد بن سلمة ، عن عاصم بن بهدلة ، عن زر بن حبيش عن حذيفة ، قال : تسحرنا مع رسول الله ﷺ ، وكان النهار إلا أن الشمس لم تطلع ، وهو حديث تفرد به عاصم بن أبي النجود ، قاله النسيائي ، وحمله على أن المراد قرب النهار ، كما قال تعالى : «فإذا بلغن أجلهن فأمسكونهن بمعرف أو فارقوهن بمعرف» أي قاربن انتهاء العدة فإما إمساك بمعرف أو ترك للفرق ، وهذا الذي قاله هو المتعين حمل الحديث عليه أنهم تسحروا ولم يتيقنوا طلوع الفجر ، حتى أن بعضهم ظن طلوعه وبعضهم لم يتحقق ذلك .

وقد روى عن طائفة كثيرة من السلف ، أنهم تسامحوا في السحور عند مقاربة الفجر ، روي مثل هذا عن أبي بكر وعمر وعلي وابن مسعود وحذيفة وأبي هريرة وابن عمر وابن عباس وزيد بن ثابت ، وعن طائفة كثيرة من التابعين منهم محمد بن علي بن الحسين وأبو مجلز وإبراهيم النخعي وأبو الضحى وأبي وائل وغيره من أصحاب ابن مسعود وعطاء والحسن والحاكم بن عيينة ومجاحد وعروة بن الزبير وأبو الشعثاء جابر بن زيد ، وإليه ذهب الأعمش وجابر بن راشد ، وقد حررنا أسانيد ذلك في كتاب الصيام المفرد ، والله الحمد .

وحكى أبو جعفر بن جرير<sup>(١)</sup> في تفسيره عن بعضهم: أنه إنما يجب الإمساك من طلوع الشمس كما يجوز الإفطار بغيرها. (قلت) وهذا القول ما أظن أحداً من أهل العلم يستقر له قدم عليه، لمخالفته نص القرآن في قوله ﴿وَكُلُوا وَاشْرِبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتَمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيلِ﴾.

وقد ورد في الصحيحين<sup>(٢)</sup> من حديث القاسم عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «لا يمنعكم أذان بلال عن سحوركم ، فإنه ينادي بليل فكلوا واشربوا حتى تسمعوا أذان ابن أم مكتوم فإنه لا يؤذن حتى يطلع الفجر» لفظ البخاري .

وقال الإمام أحمد: حدثنا موسى بن داود، حدثنا محمد بن جابر عن قيس بن طلق عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال «ليس الفجر المستطيل في الأفق ولكن المعرض الأحمر» ورواه الترمذى ولفظهما «كلوا واشربوا ولا يهيدنكم الساطع المصعد فكلوا واشربوا حتى يعترض لكم الأحمر».

وقال ابن جرير<sup>(٣)</sup>: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي ، حدثنا شعبة عن شيخ من بني قشير ، سمعت سمرة بن جندب يقول: قال رسول الله ﷺ «لا يغرنكم نداء بلال وهذا البياض حتى ينفجر الفجر أو يطلع الفجر» ، ثم رواه من حديث شعبة وغيره ، عن سواد بن حنظلة ، عن سمرة ، قال: قال رسول الله ﷺ «لا يمنعكم من سحوركم أذان بلال ولا الفجر المستطيل ولكنه الفجر المستطير في الأفق» ، قال: وحدثني يعقوب بن إبراهيم حدثنا بن علية عند عبد الله بن سوادة القشيري عن أبيه ، عن سمرة بن جندب ، قال: قال رسول الله ﷺ «لا يغرنكم أذان بلال ولا هذا البياض - لعمود الصبح - حتى يستطير» رواه مسلم في صحيحه عن زهير بن حرب ، عن إسماعيل بن إبراهيم هو ابن عليه مثله سواء .

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا ابن المبارك عن سليمان التيمي، عن أبي عثمان النهدي ، عن ابن مسعود ، قال : قال رسول الله ﷺ «لا يمنعن أحدكم أذان بلال عن سحوره ، أو قال نداء بلال ، فإن بلاً يؤذن بليل أو قال ينادي لينبه نائمكم وليرجع قائمكم ، وليس الفجر أن يقول هكذا وهكذا حتى يقول هكذا» ، ورواه من وجه آخر عن التيمي به ، وحدثني الحسن بن الزبرقان التخعي حدثني أبوأسامة عن محمد بن أبي ذئب ، عن العمارث بن عبد الرحمن ، عن محمد بن عبد الرحمن بن ثوبان : « وإنما هو المستطير الذي يأخذ الأفق فإنه يحل الصلاة ويحرم الطعام» وهذا مرسل جيد .

(١) تفسير الطبرى / ٢ / ١٧٧ .

(٢) البخاري (أذان باب ١٣ ، وصوم باب ١٧) ومسلم (صيام حديث ٤٢ ، ٣٩ ، ٤٣) .

(٣) تفسير الطبرى / ٢ / ١٧٩ .

وقال عبد الرزاق : أخبرنا ابن جريج عن عطاء : سمعت ابن عباس يقول : هما فجران ، فاما الذي يسطع في السماء فليس يحل ولا يحرم شيئاً ، ولكن الفجر الذي يستثير على رؤوس الجبال هو الذي يحرم الشراب ، وقال عطاء فأما إذا سطع سطوعاً في السماء ، وسطوعه أن يذهب في السماء طولاً ، فإنه لا يحرم به شراب الصائم ولا صلاة ولا يفوت به الحج ، ولكن إذا انتشر على رؤوس الجبال ، حرم الشراب للصيام وفات الحج ، وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس وعطاء ، وهكذا روي عن غير واحد من السلف رحمهم الله .

[مسألة] ومن جعله تعالى الفجر غاية لإباحة الجماع والطعام والشراب لمن أراد الصيام يستدل على أنه من أصبح جنباً فليغتسل ول يتم صومه ولا حرج عليه ، وهذا مذهب الأئمة الأربع وجمهور العلماء سلفاً وخلفاً ، لما رواه البخاري ومسلم من حديث عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما أنهما قالتا : كان رسول الله ﷺ يصبح جنباً من جماع غير احتلام ثم يغتسل ويصوم وفي حديث أم سلمة عندهما : ثم لا يفطر ولا يقضى ، وفي صحيح مسلم عن عائشة ، أن رجلاً قال : يا رسول الله ، تدركني الصلاة وأنا جنب فأصوم ؟ فقال رسول الله ﷺ «أَوْنَا تدركني الصلاة وأَنَا جنب فَأَصُوم» فقال : لست مثلنا يارسول الله ، فقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، فقال «وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَخْشَاكُمْ اللَّهُ وَأَعْلَمُكُمْ بِمَا أَنْتُقِي» .

فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد<sup>(١)</sup> : حدثنا عبد الرزاق عن معمر ، عن همام ، عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ ، أنه قال «إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ صَلَّا الصَّبَحَ وَأَحَدُكُمْ جَنْبٌ فَلَا يَصُومُ يَوْمَئِذٍ» فإنه حديث جيد الإسناد على شرط الشعixin كما ترى ، وهو في الصحيحين عن أبي هريرة ، عن الفضل بن عباس ، عن النبي ﷺ ، وفي سنن النسائي عنه عن أسامة بن زيد والفضل بن عباس ولم يرفعه . فمن العلماء من علل هذا الحديث بهذا ، ومنهم من ذهب إليه ، ويفحكي هذا عن أبي هريرة وسالم وعطاء وهشام بن عروة والحسن البصري ، ومنهم من ذهب إلى التفرقة بين أن يصبح جنباً نائماً فلا عليه ، لحديث عائشة وأم سلمة ، أو مختاراً فلا صوم له ، لحديث أبي هريرة ، يحكي هذا عن عروة وطاوس والحسن ، ومنهم من فرق بين الفرض فيقضي ، وأما التفل فلا يضره ، رواه الثوري عن منصور ، عن إبراهيم النخعي وهو رواية عن الحسن البصري أيضاً ، ومنهم من ادعى نسخ حديث أبي هريرة بحديثي عائشة وأم سلمة ، ولكن لا تاريخ معه ، وادعى ابن حزم أنه منسوخ بهذه الآية وهو بعيد أيضاً إذ لا تاريخ بل الظاهر من التاريخ خلافه ، ومنهم من حمل حديث أبي هريرة على نفي الكمال فلا صوم له ، لحديث عائشة وأم سلمة الدالين على الجواز ، وهذا المسلك أقرب الأقوال وأجمعها ، والله أعلم .

**﴿ثُمَّ أَتَمُوا الصَّيَامَ إِلَى الْلَّيْلِ﴾** يقتضي الإفطار عند غروب الشمس حكماً شرعاً ، كما جاء في

(١) مسند أحمد (ج ٢ ص ٣١٤).

الصحابيَّين عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «إذا أقبل الليل من هنا، وأدبر النهار من هنا فقد أفطر الصائم» وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ «لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر» آخر جاه، وقال الإمام أحمد: حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا الأوزاعي، حدثنا قرة بن عبد الرحمن عن الزهري، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ يقول الله عز وجل إن أحب عبادي إلى أعلجهم فطرًا ورواه الترمذى من غير وجه عن الأوزاعي به، وقال: هذا حديث حسن غريب، وقال أحمد أيضًا: حدثنا عفان، حدثنا عبد الله بن إياد، سمعت إياد بن لقيط، سمعت ليلي امرأة بشير بن الخصاچية قالت: أردت أن أصوم يومين مواصلة، فمتعني بشير وقال: إن رسول الله ﷺ نهى عنه وقال «يفعل ذلك النصارى، ولكن صوموا كما أمركم الله ﷺ ثم أتموا الصيام إلى الليل» فإذا كان الليل فأفطروا» ولها ورد في الأحاديث الصحيحة النهي عن الوصال وهو أن يصل يوماً بيوم ولا يأكل بينهما شيئاً، قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر عن الزهري عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ «لا تواصلوا» قالوا: يا رسول الله إنك تواصل، قال «إنني لست مثلكم إنني أبى يتعمى ربي ويستقيني» قال: فلم ينتهوا عن الوصال فواصل بهم النبي ﷺ يومين وليلتين ثم رأوا الهلال، فقال: «لو تأخر الهلال لزدتكم» كالمنكل لهم، وأخر جاه في الصحاحين من حديث الزهري به، وكذلك آخر جاه النهي عن الوصال من حديث أنس وابن عمر، وعن عائشة رضي الله عنهما، قالت: نهى رسول الله ﷺ عن الوصال رحمة لهم، فقالوا: إنك تواصل، قال: «إنني لست كهيتكم إنني يتعمى ربي ويستقيني» فقد ثبت النهي عنه من غير وجه وثبت أنه من خصائص النبي ﷺ وأنه كان يقوى على ذلك ويعان، والأظهر أن ذلك الطعام والشراب في حقه إنما كان معنوياً لا حسيّاً، وإلا فلا يكون مواصلاً مع الحسي، ولكن كما قال الشاعر: [البسيط]

### لها أحاديث من ذكرك تشغله عن الشراب وتلهيها عن الزاد

وأما من أحب أن يمسك بعد غروب الشمس إلى وقت السحر فله ذلك، كما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ «لا تواصلوا فأيكم أراد يواصل فليواصل إلى السحر» قالوا: فإنك تواصل يارسول الله ﷺ، قال «إنني لست كهيتكم، إنني أبى مطعم يطعمني وساق يسكنيني» آخر جاه في الصحاحين أيضًا.

وقال ابن حجر<sup>(١)</sup>: حدثنا أبو كريب، حدثنا أبو نعيم، حدثنا أبو إسرائيل العبسي عن أبي بكر بن حفص، عن أم ولد حاطب بن أبي بلترة: أنها مرت برسول الله ﷺ وهو يتسرح فدعاهما إلى الطعام، فقالت: إنني صائمة، قال: وكيف تصومين. فذكرت ذلك للنبي ﷺ، فقال: أين

أنت من وصال آل محمد من السحر إلى السحر».

وقال الإمام أحمد: حديثنا عبد الرزاق، حدثنا إسرائيل عن عبد الأعلى، عن محمد بن علي، عن علي: أن النبي ﷺ كان يواصل من السحر إلى السحر.

وقد روى ابن جرير عن عبد الله بن الزبير وغيره من السلف: أنهم كانوا يواصلون الأيام المتعددة، وحمله منهم على أنهم كانوا يفعلون ذلك رياضة لأنفسهم لا أنهم كانوا يفعلونه عبادة، والله أعلم. ويحتمل أنهم كانوا يفهمون من النهي أنه إرشاد من باب الشفقة، كما جاء في حديث عائشة: رحمة لهم، فكان ابن الزبير وابنه عامر ومن سلك سبيلهم يتجمسون بذلك ويفعلونه، لأنهم كانوا يجدون قوة عليه، وقد ذكر عنهم أنهم كانوا أول ما يفطرون على السمن والصبر لثلا تتحقق الأمعاء بالطعم أولاً، وقد روى عن ابن الزبير أنه كان يواصل سبعة أيام ويصبح في اليوم السابع أقواهم وأجلدهم.

وقال أبو العالية: إنما فرض الله الصيام بالنهار، فإذا جاء بالليل فمن شاء أكل ومن شاء لم يأكل.

قوله تعالى: «ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد» قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: هذا في الرجل يعتكف في المسجد في رمضان أو في غير رمضان، فحرم الله عليه أن ينكح النساء ليلاً أو نهاراً حتى يقضي اعتكافه وقال الضحاك كان الرجل إذا اعتكف فخرج من المسجد جامع إن شاء، فقال الله تعالى: «ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد» أي لا تقربوهن ما دمتم عاكفين في المسجد ولا في غيره. وكذا قال مجاهد وقتادة وغير واحد: أنهم كانوا يفعلون ذلك حتى نزلت هذه الآية، قال ابن أبي حاتم: روى عن ابن مسعود ومحمد بن كعب ومجاهد وعطاء والحسن وقتادة والضحاك والسدوي والربيع بن أنس ومقاتل، قالوا: لا يقربها وهو معتكف. وهذا الذي حكاه عن هؤلاء هو الأمر المتفق عليه عند العلماء أن المعتكف يحرم عليه النساء ما دام معتكفاً في مسجده، ولو ذهب إلى منزله لحاجة لا بد له منها فلا يحل له أن يثبت فيه إلا بمقدار ما يفرغ من حاجته تلك من قضاء الغائب أو الأكل، وليس له أن يقبل أمرأته ولا أن يضمها إليه، ولا يستغل بشيء سوى اعتكافه، ولا يعود المريض لكن يسأل عنه وهو مار في طريقه.

ولل اعتكاف أحكام مفصلة في بابها، منها ما هو مجمع عليه بين العلماء ومنها ما هو مختلف فيه، وقد ذكرنا قطعة صالحة من ذلك في آخر كتاب الصيام، والله الحمد والمنة، ولهذا كان الفقهاء المصنفون يتبعون كتاب الصيام بكتاب الاعتكاف اقتداء بالقرآن العظيم، فإنه نبه على ذكر الاعتكاف بعد ذكر الصوم. وفي ذكره تعالى، الاعتكاف بعد الصيام إرشاد وتنبيه على الاعتكاف في الصيام أو في آخر شهر الصيام، كما ثبتت في السنة عن رسول الله ﷺ أنه كان يعتكف العشر الأوائل من شهر رمضان حتى تفاه الله عز وجل، ثم اعتكف أزواجه من بعده، آخر جاه من

حديث عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها. وفي الصحيحين أن صفية بنت حبي كانت تزور النبي ﷺ وهو معتكف في المسجد، فتحدثت عنده ساعة ثم قامت لترجع إلى منزلها، وكان ذلك ليلاً، فقام النبي ﷺ ليمشي معها حتى تبلغ دارها، وكان منزلها في دار أسماء بن زيد في جانب المدينة، فلما كان بعض الطريق لقيه رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبي ﷺ أسرعاً، وفي رواية: تواريا، أي حياء من النبي ﷺ لكون أهله معه، فقال لها: «على رسلكما إنها صفية بنت حبي» أي لا تسرعا واعلموا أنها صفية بنت حبي أي زوجتي، فقالا: سبحان الله يا رسول الله، فقال ﷺ: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، وإنني خشيت أن يقذف في قلوبكم شيئاً، أو قال: شرًا» قال الشافعي رحمه الله: أراد عليه السلام أن يعلم أمته التبرير من التهمة في محلها، لثلا يقع في محذور، وهما كانا أتقى الله من أن يطأنا بالنبي ﷺ شيئاً، والله أعلم.

ثم المراد بال المباشرة إنما هو الجماع ودعاعيه من تقبيل ومعانقة ونحو ذلك، فأما معاطاة الشيء ونحوه فلا بأس به، فقد ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كان رسول الله ﷺ يدنى إلى رأسه فأرجله وأنا حائض، وكان لا يدخل البيت إلا لحاجة الإنسان، قالت عائشة: ولقد كان المريض يكون في البيت، فما أسأل عنه، إلا وأنا مارة.

وقوله **﴿تَلَكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾** أي هذا الذي بیناه وفرضناه وحددناه من الصيام وأحكامه وما أبحنا فيه وما حرمنا وذكرنا غایاته ورخصه وعزمائه، حدود الله أي شرعها الله وبينها بنفسه، فلا تقربوها أي لا تجاوزوها وتعدوها، وكان الضحاك ومقاتل يقولان في قوله **﴿تَلَكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾** أي المباشرة في الاعتكاف، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: يعني هذه الحدود الأربع، ويقرأ **﴿أَحَلَّ لَكُمْ لِيَلَةَ الصِّيَامِ الرُّفُثُ إِلَى نِسَائِكُمْ - حَتَّىٰ بُلَغُ - ثُمَّ أَتْسُوا الصِّيَامَ إِلَى الظَّلَلِ﴾** قال: وكان أبي وغيره من مشيختنا يقولون هذا ويتعلونه علينا: **﴿كَذَلِكَ يَبْيَنُ اللَّهُ آيَاتَهُ لِلنَّاسِ﴾** أي كما بين الصيام وأحكامه وشرائعه وتفاصيله كذلك يبين سائر الأحكام على لسان عبده ورسوله محمد ﷺ **﴿لِلنَّاسِ لِعْلَمُهُمْ يَتَقَوَّنُ﴾** أي يعرفون كيف يهتدون وكيف يطيعون، كما قال تعالى: **﴿هُوَ الَّذِي يَنْزِلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُمْ مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾** [الحديد: ٩].

وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْتَكُمْ بِالْبَطْلِ وَتَدْرُوْبَهَا إِلَى الْحُكْمَ كَمَا لَمْ يَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْأَثْرِ  
وَأَنْتُمْ تَعْنِمُونَ

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: هذا في الرجل يكون عليه مال وليس عليه فيه بينة، فيجدد المال ويخصص إلى الحكام وهو يعرف أن الحق عليه، وهو يعلم أنه أثم أكل الحرام، وكذا روى عن مجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة والحسن وقتادة والسدي ومقاتل بن حيان

وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنهم قالوا: لا تخاصم وأنت تعلم أنك ظالم. وقد ورد في الصحيحين<sup>(١)</sup> عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ قال «ألا إنما أنا بشر وإنما يأتيني الخصم فعلع بعضكم أن يكون الحن بحجه من بعض فأقضى له، فمن قضيت له بحق مسلم، فإنما هي قطعة من نار فليحملها أو ليذرها» فدللت هذه الآية الكريمة وهذا الحديث على أن حكم الحاكم لا يغير الشيء في نفس الأمر، فلا يحل في نفس الأمر حراماً هو حرام، ولا يحرم حلالاً هو حلال وإنما هو ملزم في الظاهر، فإن طابق في نفس الأمر فذاك وإنما للحاكم أجره وعلى المحتال وزره، ولهذا قال تعالى: «وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتَدْنُوا بِهَا إِلَى الْحَكَامِ لَتَأْكُلُوا ثُرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ» أي تعلمون بطلان ما تدعونه وتزوجونه في كلامكم.

قال قتادة: أعلم يا ابن آدم إن قضاء القاضي لا يحل لك حراماً ولا يحق لك باطلاً، وإنما يقضي القاضي بنحو ما يرى وتشهد به الشهود، والقاضي بشر يخطيء ويصيب، واعلموا أن من قضى له بباطل أن خصومته لم تنقض حتى يجمع الله بينهما يوم القيمة، فيقضي على المبطل للمحق بأجود مما قضى به للمبطل على المحق في الدنيا.

**سَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ قُلْ هَيْ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجَّ وَلَيْسَ أَلْيَرُ بِأَنْ تَأْتُوا أَبْشِرُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ أَلْيَرَ مِنْ أَتَقَنَّ وَأَتَوْ أَبْشِرُوتَ مِنْ أَبْوَيْهَا وَأَتَقَنُوا اللَّهُ لَمَّا كُنْمُ فُلْيِحُونَ**

قال العوفي عن ابن عباس: سأله الناس رسول الله ﷺ عن الأهلة، فنزلت هذه الآية **«سَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ قُلْ هَيْ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجَّ وَلَيْسَ أَلْيَرُ بِأَنْ تَأْتُوا أَبْشِرُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ أَلْيَرَ مِنْ أَتَقَنَّ وَأَتَوْ أَبْشِرُوتَ مِنْ أَبْوَيْهَا وَأَتَقَنُوا اللَّهُ لَمَّا كُنْمُ فُلْيِحُونَ**»<sup>(٢)</sup> عن الأهلة قل هي مواقيت للناس يعلمون بها حل دينهم وعدة نسائهم وقت حجتهم. وقال أبو جعفر<sup>(٢)</sup> عن الربيع، عن أبي العالية: بلغنا أنهم قالوا: يا رسول الله ﷺ لم خلقت الأهلة؟ فأنزل الله **«سَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلَةِ قُلْ هَيْ مَوَاقِيتُ**» يقول جعلها الله مواقيت لصوم المسلمين وإفطارهم وعدة نسائهم ومحل دينهم<sup>(٣)</sup>، كذا روي عن عطاء والضحاك وقتادة والسدي والربيع بن أنس نحو ذلك؛ وقال عبد الرزاق عن عبد العزيز بن أبي رواد عن نافع عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ «جعل الله الأهلة مواقيت للناس، فصوموا لرؤيته، وأفطروا لرؤيته، فإن غم عليكم فعدوا ثلاثة أيام» ورواه الحاكم في مستدركه من حديث ابن أبي رواد به، وقال: كان ثقة عابداً مجتهداً شريف النسب فهو صحيح الإسناد ولم يخرجه، وقال محمد بن جابر عن قيس بن طلق عن أبيه، قال: قال رسول الله: «جعل الله الأهلة، فإذا رأيتم الهلال فصوموا، وإذا رأيتموه فأفطروا، فإن غم عليكم فأكملو العدة ثلاثة» وكذا روي من

(١) صحيح البخاري (مظالم باب ١٦، وأحكام باب ٢٩ و٣١) وصحيح مسلم (أقضية حديث ٥).

(٢) تفسير الطبرى ١٩١/٢.

(٣) في الطبرى: «وحل ديونهم».

الحديث أبي هريرة ومن كلام علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

وقوله ﴿وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها﴾ قال البخاري : حدثنا عبيد الله بن موسى عن إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن البراء ، قال : كانوا إذا أحرموا في الجاهلية ، أتوا البيت من ظهره فأنزل الله ﴿وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها﴾ وكذا رواه أبو داود الطيالسي عن شعبة ، عن أبي إسحاق ، عن البراء ، قال : كانت الأنصار إذا قدموا من سفرهم ، لم يدخل الرجل من قبل بابه ، فنزلت هذه الآية .

وقال الأعمش ، عن أبي سفيان ، عن جابر : كانت قريش تدعى الحمس<sup>(١)</sup> ، وكانوا يدخلون من الأبواب في الإحرام ، وكانت الأنصار وسائر العرب لا يدخلون من باب في الإحرام ، فبينا رسول الله ﷺ في بستان ، إذ خرج من بابه ، وخرج معه قطبة بن عامر من الأنصار فقالوا : يا رسول الله ، إن قطبة بن عامر رجل تاجر ، وإنه خرج معك من الباب ، فقال له : ما حملك على ما صنعت ؟ قال :رأيتك فعلته ، ففعلت كما فعلت ، فقال : إني أحمس ، قال له : فإن ديني دينك . فأنزل الله ﴿وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها﴾ رواه ابن أبي حاتم ، ورواه العوفي عن ابن عباس بنحوه ، وكذا روی عن مجاهد والزهري وقتادة وإبراهيم النخعي والسدي والربيع بن أنس .

وقال الحسن البصري : كان أقوام من أهل الجاهلية إذا أراد أحدهم سفراً ، وخرج من بيته يريد سفره الذي خرج له ، ثم بدا له بعد خروجه أن يقيم ويدع سفره ، لم يدخل البيت من بابه ولكن يتسره من قبل ظهره ، فقال الله تعالى : ﴿وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها﴾ الآية ، وقال محمد بن كعب : كان الرجل إذا اعتكف لم يدخل منزله من باب البيت ، فأنزل الله هذه الآية ، وقال عطاء بن أبي رباح : كان أهل يثرب إذا رجعوا من عيدهم دخلوا منازلهم من ظهورها ، ويرون أن ذلك أدنى إلى البر ، فقال الله ﴿وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها﴾ قوله : ﴿واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ أي اتقوا الله ، فافعلوا ما أمركم به واتركوا ما نهاكم عنه ﴿لعلكم تفلحون﴾ غداً إذا وفتهم بين يديه فيجازيكم على التمام والكمال .

وَقَاتُلُوكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتَلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٧﴾ وَقَاتُلُوكُمْ حَيْثُ ثَفَنُوكُمْ وَأَخْرِجُوكُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرِجُوكُمْ وَلَفْتُنَّهُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقْتَلُوكُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْمَرْعَى حَتَّىٰ يُقْتَلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلْتُمُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكُفَّارِينَ ﴿١٩٨﴾ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ وَقَاتُلُوكُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونُ فِتْنَةٌ وَيَكُونُ الَّذِينَ لِلَّهِ فِي إِنَّهُمْ قَلَّا عَدُوَنَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٢٠٠﴾

(١) الحمس : لأنهم كانوا يتشددون في دينهم .

قال أبو جعفر الرازى<sup>(١)</sup> عن الريبع بن أنس، عن أبي العالية في قوله تعالى: ﴿وَقَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقْاتِلُونَكُم﴾ قال: هذه أول آية نزلت في القتال بالمدينة، فلما نزلت كان رسول الله ﷺ يقاتل من قاتله، ويكتف عنمن كف عنه، حتى نزلت سورة براءة. وكذا قال عبد الرحمن<sup>(١)</sup> بن زيد بن أسلم، حتى قال: هذه منسوخة بقوله: ﴿فَاقْتَلُوا الْمُشْرِكِينَ حِيثُ وَجَدْتُمُوهُم﴾ [التوبه: ١] وفي هذا نظر، لأن قوله ﴿الَّذِينَ يَقْاتِلُونَكُم﴾ إنما هو تهبيج وإغراء بالأعداء الذين هم منهم قتال الإسلام وأهله، أي كما يقاتلونكم فاقتلوهم أنتم، كما قال: ﴿وَقَاتَلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَةً كَمَا يَقْاتِلُونَكُمْ كَافَةً﴾ [التوبه: ٣٦] ولهذا قال في الآية: ﴿وَقَاتَلُوهُمْ حِيتَنَقْتَمُوهُمْ وَأَخْرَجُوهُمْ مِنْ حِيَاتِهِمْ﴾ أي لتكون همتكم منبعثة على قتالهم، كما هم همهم منبعثة على قتالكم، وعلى إخراجهم من بلادهم التي أخرجوك منها قصاصاً.

وقوله: ﴿وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ أي قاتلوا في سبيل الله، ولا تعتدوا في ذلك ويدخل في ذلك ارتكاب المناهي، كما قاله الحسن البصري: من المثلة والغلول وقتل النساء والصبيان والشيخ، الذين لا رأي لهم ولا قتال فيهم، والرهبان وأصحاب الصوامع، وتحريق الأشجار، وقتل الحيوان لغير مصلحة، كما قال ذلك ابن عباس وعمر بن عبد العزيز ومقاتل بن حيان وغيرهم، ولهذا جاء في صحيح مسلم، عن بريدة أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اغزوا في سبيل الله وقاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا الوليد ولا أصحاب الصوامع» رواه الإمام أحمد وعن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث جيشه قال «اخروا باسم الله قاتلوا في سبيل الله من كفر بالله لا تعتدوا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا الولدان ولا أصحاب الصوامع» رواه الإمام أحمد<sup>(٢)</sup>، ولأبي داود عن أنس مرفوعاً نحوه.

وفي الصحيحين عن ابن عمر قال: وجدت امرأة في بعض معازى النبي ﷺ مقتولة، فأنكر رسول الله ﷺ قتل النساء والصبيان.

وقال الإمام أحمد<sup>(٣)</sup>: حدثنا مصعب بن سلام، حدثنا الأجلج عن قيس بن أبي مسلم، عن ربعي بن حراش، قال: سمعت حذيفة يقول: ضرب لنا رسول الله ﷺ أمثلاً واحداً وثلاثة وخمسة وسبعة وتسعة، وأحد عشر، فضرب لنا رسول الله ﷺ منها مثلاً وترك سائرها، قال: «إن قوماً كانوا أهل ضعف ومسكينة قاتلهم أهل تجبر وعداوة، فأظهر الله أهل الضعف عليهم، فعمدوا إلى عدوهم فاستعملوهم وسلطوهم، فأسخطوا الله عليهم إلى يوم القيمة» هذا حديث حسن الإسناد، ومعناه أن هؤلاء الضعفاء لما قدروا على الأقواء فاعتدوا عليهم فاستعملوهم

(١) تفسير الطبرى ١٩٥ / ٢.

(٢) المسند (ج ١ ص ٣٠٠).

(٣) المسند (ج ٥ ص ٤٠٧).

فيما لا يليق بهم، أُسخطوا الله عليهم بسبب هذا الاعتداء. والأحاديث والآثار في هذا كثيرة جداً.

ولما كان الجهاد فيه إزهاق النفوس وقتل الرجال، نبه تعالى على أن ما هم مشتملون عليه من الكفر بالله والشرك به والصد عن سبيله، أبلغ وأشد وأعظم وأظم من القتل، ولهذا قال: **﴿وَالْفَتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾** قال أبو مالك: أي ما أنتم مقيمون عليه أكبر من القتل. ولهذا قال: **﴿وَالْفَتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾**، يقول الشرك أشد من القتل.

وقوله: **﴿وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عَنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾** كما جاء في الصحيحين «إن هذا البلد حرمته الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيمة، ولم يحل إلا ساعة من نهار وإنها ساعتي هذه، حرام بحرمة الله إلى يوم القيمة، لا يعتصد شجره ولا يختلي خلاه، فإن أحد ترخص بقتال رسول الله ﷺ، فقولوا إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم»، يعني بذلك صلوات الله وسلامه عليه قتاله أهله يوم فتح مكة، فإنه فتحها عنوة وقتلت رجال منهم عند الختمة<sup>(١)</sup>، وقيل صلحاً لقوله «من أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن».

وقوله: **﴿حَتَّىٰ يَقَاتِلُوكُمْ فِيهِ إِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾** يقول تعالى: **﴿وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عَنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَّا أَنْ يَدُؤُوكُمْ بِالْقَتْلِ فِيهِ، فَلَكُمْ حِينَئِذٍ قَتَالُهُمْ وَقَتْلُهُمْ دَفْعًا لِلصَّيْالِ، كَمَا بَاعَ النَّبِيُّ ﷺ أَصْحَابَهُ يَوْمَ الْحَدِيبِيةِ تَحْتَ الشَّجَرَةِ عَلَى الْقَتَالِ، لَمَّا تَأْلَبَتْ عَلَيْهِ بَطْوَنُ قَرِيشٍ وَمِنْ وَالْأَهْمَمِ مِنْ أَحْيَاءِ ثَقِيفٍ وَالْأَحَبِيشِ عَامِئَةً، ثُمَّ كَفَ اللَّهُ الْقَتَالَ بَيْنَهُمْ فَقَالَ ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَ أَيْدِيهِمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيكُمْ عَنْهُمْ يَبْطِنُ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ٢٤] وَقَالَ **﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطْوِئُهُمْ فَتُصْبِّيَكُمْ مِنْهُمْ مَرَةً بَغْرِيرَ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مِنْ يَشَاءُ، لَوْ تَزِيلُوا لِعْذَبَنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾** [الفتح: ٢٥].**

وقوله: **﴿فَإِنْ انتَهُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾** أي فإن تركوا القتال في الحرم وأنابوا إلى الإسلام والتوبه، فإن الله يغفر ذنبهم ولو كانوا قد قتلوا المسلمين في حرم الله فإنه تعالى لا يتغاضمه ذنب أن يغره لمن تاب منه إليه، ثم أمر الله بقتال الكفار **﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فَتْنَةً﴾**، أي شرك قاله ابن عباس وأبو العالية ومجاهد والحسن وقتادة والريبع ومقاتل بن حيان والسدي وزيد بن أسلم **﴿وَيَكُونُ الدِّينُ لِلَّهِ﴾** أي يكون دين الله هو الظاهر العالمي على سائر الأديان، كما ثبت في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري قال: سئل النبي ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رباء، أي ذلك في سبيل الله؟ فقال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله» وفي الصحيحين «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا

(١) الختمة: جبل بمكة.

مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله»<sup>(١)</sup>.

وقوله: «فَإِنْ انتَهُوا فَلَا عَدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ» يقول تعالى فإن انتهوا عما هم فيه من الشرك وقتال المؤمنين فكفروا عنهم، فإن من قاتلهم بعد ذلك فهو ظالم ولا عدوان إلا على الظالمين، وهذا معنى قول مجاهد أن لا يقاتل إلا من قاتل أو يكون تقديره فإن انتهوا تخلصوا من الظلم وهو الشرك، فلا عدوان عليهم بعد ذلك، والمراد بالعدوان هنا المعاقبة والمقاتلة كقوله: «فَمَنْ أَعْتَدْتُ لَكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدْتُ لَكُمْ» [البقرة: ١٩٤] وقوله: «وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مُّثْلِهَا» [الشورى: ٤٠] «وَإِنْ عَاقِبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عَوْقَبْتُمْ بِهِ» [التحل: ١٢] ولهذا قال عكرمة وقتادة: الظالم الذي أبى أن يقول لا إله إلا الله.

وقال البخاري: قوله: «وَقَاتَلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً» الآية، حدثنا محمد بن بشار، حدثنا عبد الوهاب حدثنا عبيد الله عن نافع، عن ابن عمر قال: أتاه رجلان في فتنة ابن الزبير فقالا: إن الناس ضيعوا وأنت ابن عمر وصاحب النبي ﷺ فما يمنعك أن تخرج؟ فقال يمنعني أن الله حرم دم أخي، قالا: ألم يقل الله «وَقَاتَلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً»؟ فقال: قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين لله، وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة، وحتى يكون الدين لغير الله، وزاد عثمان بن صالح عن ابن وهب، أخبرني فلان وحبيبة بن شريح عن بكر بن عمر المغافري، أن بكير بن عبد الله حدثه عن نافع، أن رجلاً أتى ابن عمر فقال: يا أبا عبد الرحمن ما حملك على أن تحج عاماً وتقيم عاماً وتترك الجهاد في سبيل الله عز وجل، وقد علمت ما رغب الله فيه؟ فقال: يا ابن أخيبني الإسلام على خمس: الإيمان بالله ورسوله والصلوات الخمس وصيام رمضان وأداء الزكاة وحج البيت. قالوا: يا أبا عبد الرحمن، ألا تسمع ما ذكر الله في كتابه، «وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا، فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَنْفِي إِلَى أَمْرِ اللَّهِ» [الحجرات: ٩] «وَقَاتَلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً» قال: فعلنا على عهد رسول الله ﷺ وكان الإسلام قليلاً، فكان الرجل يفتتن في دينه إما قتلوه أو عذبوه، حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة، قال مما قولك في علي وعثمان؟ قال: أما عثمان فكان الله عفوا عنه، وأما أنتم فكرهتم أن يعفو عنه، وأما علي فابن عم رسول الله ﷺ وختنه، فأشار بيده، فقال: هذا بيته حيث ترون.

الشَّهْرُ الْحَرامُ بِالشَّهْرِ الْحَرامِ وَالْحُرُمَاتُ قَصَاصٌ فَمَنْ أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِمْ فَمَا أَعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ  
اللَّهُ وَأَعْلَمُمَا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ

قال عكرمة: عن ابن عباس والضحاك والسدي وقتادة ومقسم والربيع بن أنس وعطاء

(١) البخاري (إيمان باب ١٧) ومسلم (إيمان حديث ٢٢).

وغيرهم<sup>(١)</sup>، لما سار رسول الله ﷺ، معتمراً في سنة ست من الهجرة وحبسه المشركون عن الدخول والوصول إلى البيت وصدوه بمن معه من المسلمين، في ذي القعدة وهو شهر حرام حتى قاضاهم على الدخول من قابل، فدخلها في السنة الآتية هو ومن كان من المسلمين، وأقصه الله منهم، فنزلت في ذلك هذه الآية (الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص).

وقال الإمام أحمد: حدثنا إسحاق بن عيسى حدثنا ليث بن سعد عن أبي الزبير عن جابر بن عبد الله، قال: لم يكن رسول الله ﷺ يغزو في الشهر الحرام، إلا أن يغزى ويغزوا، فإذا حضره أقام حتى ينسليخ.

هذا إسناد صحيح. ولهذا لما بلغ النبي ﷺ، وهو مخيم بالحدبية أن عثمان قتل، وكان قد بعثه في رسالة إلى المشركين، بaidu أ أصحابه و كانوا ألفاً وأربعينأة تحت الشجرة، على قتال المشركين، فلما بلغه أن عثمان لم يقتل، كف عن ذلك وجئ إلى المسالمة والمصالحة، فكان ما كان. وكذلك لما فرغ من قتال هوازن يوم حنين، وتحصن فلّهم<sup>(٢)</sup> بالطائف، عدل إليها فحاصرها، ودخل ذو القعدة وهو محاصر لها بالمنجنيق، واستمر عليه إلى كمال أربعين يوماً كما ثبت في الصحيحين عن أنس، فلما كثر القتل في أصحابه انصرف عنها ولم تفتح، ثم كر راجعاً إلى مكة واعتمر من الجعرانة حيث قسم غنائم حنين، وكانت عمرته هذه في ذي القعدة أيضاً، عام ثمان صلوات الله وسلامه عليه.

وقوله: «فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم» أمر بالعدل حتى في المشركين، كما قال: « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به» [النحل: ١٢٦] وقال: «وجراء سيئة سيئة مثلها» [الشورى: ٤٠] وروى علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس أن قوله: «فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم»، نزلت بمكة حيث لا شوكة ولا جهاد، ثم نسخ بآية القتال بالمدينة، وقد رد هذا القول ابن جرير<sup>(٣)</sup>، وقال: بل الآية مدنية بعد عمرة القضية وعزا ذلك إلى مجاهد رحمه الله.

وقوله: «واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقيين» أمر لهم بطاعة الله وتقواه، وإخباره بأنه تعالى مع الذين اتقوا بالنصر والتأييد في الدنيا والآخرة.

وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُنْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلِكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ

قال البخاري: حدثنا إسحاق أخبرنا النضر، أخبرنا شعبة عن سليمان، سمعت أبا وائل عن حذيفة (وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) قال: نزلت في النفقه، ورواه ابن

(١) انظر تفسير الطبرى ٢٠٢ / ٢ — ٢٠٣ .

(٢) فلّهم: أي المنهزون منهم والجمع فللوں.

(٣) تفسير الطبرى ٢٠٥ / ٢ .

أبي حاتم عن الحسن بن محمد بن الصباح عن أبي معاوية عن الأعمش به مثله، قال: وروي عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وعطاء والضحاك والحسن وقتادة والستي ومقاتل بن حيان نحو ذلك.

وقال الليث بن سعد عن يزيد بن أبي حبيب عن أسلم أبي عمران قال: حمل رجل من المهاجرين بالقسطنطينية على صف العدو حتى خرقه، ومعنا أبو أيوب الأنباري، فقال ناس: ألقى بيده إلى التهلكة، فقال أبو أيوب: نحن أعلم بهذه الآية، إنما نزلت فينا، صحبتنا رسول الله ﷺ وشهدنا معه المشاهد ونصرناه، فلما فشا الإسلام وظهر، اجتمعنا عشرة الأنصار نجياً فقلنا: قد أكرمنا الله بصحبة نبيه ﷺ ونصره، حتى فشا الإسلام وكثُر أهله، وكنا قد آثرناه على الأهلين والأموال والأولاد، وقد وضعوا الحرب أوزارها فتراجع إلى أهلينا وأولادنا، فنفيم فيهما، فنزل فينا **﴿ وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقو بأيديكم إلى التهلكة ﴾**، فكانت التهلكة في الإقامة في الأهل والمآل وترك الجهاد. رواه أبو داود والترمذمي والنسائي وعبد بن حميد، في تفسيره، وابن أبي حاتم وابن جرير وابن مردوه والحافظ أبو يعلى في مسنده، وابن حبان في صحيحه والحاكم في مستدركه، كلهم من حديث يزيد بن أبي حبيب به.

وقال الترمذمي حسن صحيح غريب، وقال الحاكم على شرط الشيختين ولم يخر جاه. وللفظ أبي داود عن أسلم أبي عمران: كنا بالقسطنطينية وعلى أهل مصر عقبة بن عامر، وعلى أهل الشام رجل يُريدُ فضالة بن عبيد، فخرج من المدينة صفت عظيم من الروم، فصفقنا لهم فحمل رجل من المسلمين على الروم حتى دخل فيهم، ثم خرج إلينا فصاح الناس إليه، فقالوا سبحان الله ألقى بيده إلى التهلكة فقال أبو أيوب: يا أيها الناس، إنكم لتأتون هذه الآية على غير التأويل وإنما نزلت فينا عشرة الأنصار، إنما لما أعز الله دينه وكثُر ناصروه، قلنا فيما بيننا: لو أقبلنا على أموالنا فاصلحناها، فأنزل الله هذه الآية<sup>(١)</sup>.

وقال أبو بكر بن عياش عن أبي إسحاق السباعي، قال: قال رجل للبراء بن عازب، إن حملت على العدو وحدي فقتلوني، أكنت أقيت بيدي إلى التهلكة؟ قال: لا، قال الله لرسوله: **﴿ فقاتل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك ﴾** [النساء: ٨٤] وإنما هذه في النفقة، رواه ابن مردوه وأخرجه الحاكم في مستدركه، من حديث إسرائيل عن أبي إسحاق به، وقال: صحيح على شرط الشيختين ولم يخر جاه، ورواه الترمذمي وقيس بن الريبع عن أبي إسحاق عن البراء، فذكره وقال بعد قوله **﴿ لا تكلف إلا نفسك ﴾**، ولكن التهلكة أن يذنب الرجل الذنب فيلقى بيده إلى التهلكة ولا يتوب.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو صالح، كاتب الليث، حدثني الليث، حدثنا

عبد الرحمن بن خالد بن مسافر عن ابن شهاب عن أبي بكر بن نمير بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام أن عبد الرحمن الأسود بن عبد يغوث، أخبره أنهم حاصروا دمشق فانطلقوا رجل من أزد شنوة، فأسرع إلى العدو وحده ليستقبل، فعاد ذلك عليه المسلمين، ورفعوا حديثه إلى عمرو بن العاص، فأرسل إليه عمرو فرده، وقال عمرو: قال الله: ﴿وَلَا تلقوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلِكَةِ﴾.

وقال عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، في قوله تعالى: ﴿وَأَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تلقوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلِكَةِ﴾، قال: ليس ذلك في القتال، إنما هو في النفقه أن تمسك بيده عن النفقه في سبيل الله ولا تلق بيده إلى التهلكة.

قال حماد بن سلمة، عن داود، عن الشعبي عن الضحاك بن أبي جبير، قال: كانت الأنصار يتصدقون وينفقون من أموالهم، فأصابتهم سنة فامسكتوا عن النفقه في سبيل الله، فنزلت: ﴿وَلَا تلقوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلِكَةِ﴾.

وقال الحسن البصري ﴿وَلَا تلقوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلِكَةِ﴾ قال: هو البخل.

وقال سماك بن حرب عن النعمان بن بشير، في قوله: ﴿وَلَا تلقوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلِكَةِ﴾، أن يذنب الرجل الذنب فيقول: لا يغفر لي، فأنزل الله: ﴿وَلَا تلقوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلِكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يَحْبُبُ الْمُحْسِنِينَ﴾ رواه ابن مردوه.

وقال ابن أبي حاتم: وروي عن عبيدة السلماني والحسن وابن سيرين وأبي قلابة نحو ذلك، يعني نحو قول النعمان بن بشير، أنها في الرجل يذنب الذنب فيعتقد أنه لا يغفر له، فيلقي بيده إلى التهلكة، أي يستكثر من الذنوب فيهلك. ولهذا روى علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: التهلكة عذاب الله.

وقال ابن أبي حاتم وابن جرير<sup>(١)</sup>، جميعاً حدثنا يونس حدثنا ابن وهب، أخبرني أبو صخر عن القرطبي محمد بن كعب، أنه كان يقول في هذه الآية: ﴿وَلَا تلقوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلِكَةِ﴾ قال: كان القوم في سبيل الله، فيتزود الرجل، فكان أفضل زاداً من الآخر، أنفق البائس من زاد حتى لا يبقى من زاده شيء، أحب أن يواسى صاحبه فأنزل الله ﴿وَأَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تلقوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلِكَةِ﴾.

وقال ابن وهب أيضاً: أخبرني عبد الله بن عياش عن زيد بن أسلم في قوله ﴿وَأَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تلقوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلِكَةِ﴾ وذلك أن رجالاً يخرجون في بعوث يبعثها رسول الله ﷺ، وغير نفقة، فإما أن يقطع بهم وإما كانوا عيالاً، فأمرهم الله أن يستنفقو من المشي. وقال لمن بيده فضل ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يَحْبُبُ الْمُحْسِنِينَ﴾.

ومضمون الآية الأمر بالإنفاق في سبيل الله، فيسائر وجوه القربات ووجوه الطاعات، وخاصة صرف الأموال في قتال الأعداء، وبذلها فيما يقوى به المسلمون على عدوهم، والإخبار عن ترك فعل ذلك بأنه هلاك ودمار لمن لزمه واعتاده، ثم عطف بالأمر بالإحسان، وهو أعلى مقامات الطاعة، فقال: «وأحسنوا إن الله يحب المحسنين».

وَأَتَمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةِ إِلَيْهِ فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ فَمَا أَسْتَيْسِرَ مِنَ الْهَدَىٰ وَلَا تُحَلِّقُو رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَنْبَغِي الْهَدَىٰ مَحَلَّهُ فَنَ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذَىٰ مِنْ رَأْسِهِ فَفَدَيْهُ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةً أَوْ سُكُنٍ فَإِذَا آتَيْتُمْ مِنْ تَمَنْعَ يَالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجَّ فَمَا أَسْتَيْسِرَ مِنَ الْهَدَىٰ فَمَنْ لَمْ يَمْحُدْ فَصَيَامٌ مُلْثَثَةُ أَيَّامٍ فِي الْحَجَّ وَسَبْعَةٌ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةً كَامِلَةً ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرٍ الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ

لما ذكر تعالى أحكام الصيام، وعطف بذلك الجهاد، شرع في بيان المناسب فأمر بإتمام الحج والعمرة، وظاهر السياق إكمال أفعالهما بعد الشروع فيهما، ولهذا قال بعده: فإن أحضرتم، أي صدّتم عن الوصول إلى البيت، ومنعتم من إتمامهما، ولهذا اتفق العلماء، على أن الشروع في الحج والعمرة ملزم، سواء قيل بوجوب العمرة أو باستحبابها، كما هما قولان للعلماء، وقد ذكرناهما بدلائلهما في كتابنا الأحكام، مستقصى والله الحمد والمنة.

وقال شعبة: عن عمرو بن مرة، عن عبد الله بن سلمة، عن علي أنه قال في هذه الآية: «وَأَتَمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةِ إِلَيْهِ»، قال: أن تحرم من دويرة أهلك، وكذا قال ابن عباس وسعيد بن جبير وطاوس، وعن سفيان الثوري أنه قال في هذه الآية: إتمامها أن تحرم من أهلك، لا تزيد إلا الحج والعمرة وتهل من الميقات، ليس أن تخرج لتجارة ولا لحاجة، حتى إذا كنت قريباً من مكة، قلت لو حججت أو أعمرت، وذلك يجزيء، ولكن التمام أن تخرج له ولا تخرج لغيره، وقال مكحول: إتمامهما إنشاؤهما جميعاً من الميقات، وقال عبد الرزاق: أخبرنا عمر عن الزهرى، قال: بلغنا أن عمر قال في قول الله «وَأَتَمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةِ إِلَيْهِ» من تمامهما أن تفرد كل واحد منها من الآخر، وأن تعتمر في غير أشهر الحج، إن الله تعالى يقول: الحج أشهر معلومات، وقال هشام عن ابن عون: سمعت القاسم بن محمد يقول: إن العمرة في أشهر الحج ليست بتامة، فقيل له: فالعمرة في المحرم؟ قال: كانوا يرونها تامة، وكذا روی عن قتادة بن دعامة رحمهما الله.

وهذا القول فيه نظر لأنه قد ثبت أن رسول الله ﷺ، اعتمر أربع عمر، كلها في ذي القعدة، عمرة الحديبية في ذي القعدة سنة ست، وعمرة القضاء في ذي القعدة سنة سبع، وعمرة الجعرانة في ذي القعدة سنة ثمان وعمرته التي مع حجته أحرم بها معاً في ذي القعدة سنة عشر وما اعتمر في غير ذلك بعد هجرته، ولكن قال لأم هانىء: «عمرة في رمضان تعدل حجة معي»، وما ذاك إلا لأنها قد عزمت على الحج معه عليه السلام، فاعتاقت عن ذلك بسبب الطهر، كما هو مرسوط

في الحديث عند البخاري ونص سعيد بن جبير على أنه من خصائصها، والله أعلم.

وقال السدي في قوله : «وأتموا الحج والعمره لله» أي أقيموا الحج والعمره، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله : «وأتموا الحج والعمره لله»، يقول : من أحرم بحج أو بعمره فليس له أن يحل ، حتى يتمهما تمام الحج ، يوم النحر إذا رمى جمرة العقبة ، وطاف بالبيت وبالصفا والمروءة فقد حل . وقال قتادة عن زرارة ، عن ابن عباس أنه قال : الحج عرفة ، وال عمرة الطواف ، وكذا روى الأعمش عن إبراهيم عن علقة في قوله : «وأتموا الحج والعمره لله»، قال : هي قراءة عبد الله وأتموا الحج والعمرة إلى البيت لا يجاوز بالعمره البيت . قال إبراهيم : ذكرت ذلك لسعيد بن جبير ، فقال : كذلك قال ابن عباس . وقال سفيان عن الأعمش عن إبراهيم عن علقة أنه قال : وأقيموا الحج والعمرة إلى البيت ، وكذاروى الثورى أيضاً ، عن إبراهيم عن منصور عن إبراهيم ، أنه قرأ : «وأقيموا الحج والعمرة إلى البيت». وقرأ الشعبي : «وأتموا الحج والعمره لله» برفع العمره ، وقال : ليست بواجية . وروي عنه خلاف ذلك ، وقد وردت أحاديث كثيرة من طرق متعددة ، عن أنس وجماعة من الصحابة ، أن رسول الله ﷺ ، جمع في إحرامه بحج وعمره ، وثبت عنه في الصحيح أنه قال لأصحابه : «من كان معه هدي فليهـ بـ حـجـ وـ عـمـرـةـ» ، وقال في الصحيح أيضاً : «دخلت العمره في الحج إلى يوم القيمة».

وقد روى الإمام أبو محمد بن أبي حاتم في سبب نزول هذه الآية حديثاً غريباً ، فقال : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا أبو عبد الله الهروي ، حدثنا غسان الهروي ، حدثنا إبراهيم ابن طهمان ، عن عطاء عن صفوان بن أمية ، أنه قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ متضمخ بالزعفران ، عليه جبة ، فقال : كيف تأمرني يا رسول الله في عمرتي قال : فأنزل الله «وأتموا الحج والعمره لله» فقال رسول الله ﷺ «أين السائل عن العمره»؟ فقال : ها أنا ذا ، فقال له «ألق عنك ثيابك ثم اغتنسل واستنشق ما استطعت ، ثم ما كنت صانعاً في حبك فاصنعه في عمرتك» هذا حديث غريب وسياق عجيب ، والذي ورد في الصحيحين عن يعلى بن أمية في قصة الرجل الذي سأله النبي ﷺ وهو بالجعرانة ، فقال : كيف ترى في رجل أحرم بالعمره وعليه جبة وخلوق<sup>(١)</sup>؟ فسكت رسول الله ﷺ ، ثم جاءه الوحي ثم رفع رأسه فقال : أين السائل ؟ فقال ها أنا ذا ، فقال «أما الجبة فائزها ، وأما الطيب الذي بك فاغسله ، ثم ما كنت صانعاً في حبك فاصنعه في عمرتك» ولم يذكر فيه الغسل والاستنشاق ، ولا ذكر نزول هذه الآية ، وهو عن يعلى بن أمية لا صفوان بن أمية ، فإله أعلم .

وقوله «فإن أحضرتم مما استيسر من الهدي» ذكروا أن هذه الآية نزلت في سنة ست ، أي عام الحديبية حين حال المشركون بين رسول الله ﷺ وبين الوصول إلى البيت ، وأنزل الله في ذلك

(١) الخلوق : ضرب من الطيب أعظم أجزاءه الزعفران .

سورة الفتح بكمالها، وأنزل لهم رخصة أن يذبحوا ما معهم من الهدي، وكان سبعين بدنة، وأن يحلقوا رؤوسهم وأن يتحللو من إحرامهم، فعند ذلك أمرهم عليه السلام أن يحلقوا رؤوسهم وأن يتخللو، فلم يفعلوا انتظاراً للنسخ، حتى خرج فحلق رأسه فعل الناس، وكان منهم من قصر رأسه ولم يحلقه، فلذلك قال ﷺ «رحم الله المحلقين» قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ فقال في الثالثة «والمقصرين»، وقد كانوا اشتركوا في هديهم ذلك كل سبعة في بدنة، وكانوا ألفاً وأربعمائة، وكان متزلاهم بالحدبية خارج الحرم، وقيل بل كانوا على طرف الحرم، فالله أعلم.

ولهذا اختلف العلماء: هل يختص الحصر بالعدو فلا يتحلل إلا من حصره عدو لا مرض ولا غيره على قولين، فقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقربي، حدثنا سفيان عن عمرو بن دينار عن ابن عباس، وابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس، وابن أبي نجيح عن ابن عباس، أنه قال: لا حصر إلا حصر العدو، فأما من أصابه مرض أو وضع أو ضلال فليس عليه شيء، إنما قال الله تعالى: «إِنَّمَا حُصِرَ الْأَمْنَاءُ» فليس الأم安 حصراً، قال: وروي عن ابن عمر وطاوس والزهري وزيد بن أسلم نحو ذلك، والقول الثاني: إن الحصر أعم من أن يكون بعدو أو مرض أو ضلال، وهو التوهان عن الطريق أو نحو ذلك، قال الإمام أحمد<sup>(١)</sup>: حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا حجاج بن الصواف عن يحيى بن أبي كثیر، عن عکرمة، عن العجاج بن عمرو الأنصاري، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «من كسر أو وجع أو عرج فقد حل عليه حجة أخرى» قال: فذكرت ذلك لابن عباس وأبي هريرة فقالا: صدق، وأخرجه أصحاب الكتب الأربع من حديث يحيى بن أبي كثیر به، وفي رواية لأبي داود وابن ماجه: من عرج أو كسر أو مرض، فذكر معناه. ورواه ابن أبي حاتم عن الحسن بن عرفة، عن إسماعيل بن علي، عن الحجاج بن أبي عثمان الصواف به، ثم قال: وروي عن ابن مسعود وابن الزبير وعلقمة وسعيد بن المسيب وعروة بن الزبیر ومجاہد والنخعی وعطاء ومقاتل بن حیان: الإحصار من عدو أو مرض أو كسر وقال الثوري: الإحصار من كل شيء أذاته ثبت في الصحيحين عن عائشة أن رسول الله ﷺ دخل على ضباعة بنت الزبیر بن عبد المطلب، فقالت: يا رسول الله إني أريد الحج وأنا شاكية، فقال «حجي واشتري طيأن محلبي حيث حبسني» ورواه مسلم عن ابن عباس بمثله، فذهب من ذهب من العلماء إلى صحة الاشتراط في الحج لهذا الحديث، وقد علق الإمام محمد بن إدريس الشافعي القول بصحة هذا المذهب على صحة هذا الحديث، قال البيهقي وغيره من الحفاظ: وقد صح والله الحمد.

وقوله «فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدَىٰ» قال الإمام مالك عن جعفر بن محمد عن أبيه، عن علي بن أبي طالب، أنه كان يقول: «فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدَىٰ» شاة، وقال ابن عباس: الهدي من الأزواج الثمانية من الإبل والبقر والمعز والضأن، وقال الثوري عن حبيب، عن سعيد بن جبير، عن ابن

عباس في قوله ﴿فَمَا اسْتِيَرَ مِنَ الْهَدِي﴾ قال: شاة، وكذا قال عطاء ومجاحد وطاوس وأبو العالية ومحمد بن علي بن الحسين وعبد الرحمن بن القاسم والشعبي والتخري والحسن وقتادة والضحاك ومقاتل بن حيان وغيرهم مثل ذلك، وهو مذهب الأئمة الأربع، وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشجع، حدثنا أبو خالد الأحمر عن يحيى بن سعيد عن القاسم عن عائشة وابن عمر: أنهما كانا لا يربان ما استيسر من الهدي إلا من الإبل والبقر. قال: وروي عن سالم والقاسم وعروة بن الزبير وسعيد بن جبير نحو ذلك.

(قلت) والظاهر أن مستند هؤلاء فيما ذهبوا إليه قصة الحديبية، فإنه لم ينقل عن أحد منهم أنه ذبح في تحلله ذلك شاة، وإنما ذبحوا الإبل والبقر، ففي الصحيحين عن جابر، قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نشتراك في الإبل والبقر كل سبعة منا في بقرة، وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه، عن ابن عباس في قوله ﴿فَمَا اسْتِيَرَ مِنَ الْهَدِي﴾ قال: بقدر يسارته، وقال العوفي، عن ابن عباس: إن كان موسراً فمن الإبل، وإلا فمن البقر، وإلا فمن الغنم. وقال هشام بن عمرو عن أبيه ﴿فَمَا اسْتِيَرَ مِنَ الْهَدِي﴾ قال: إنما ذلك فيما بين الرخص والغلاء، والدليل على صحة قول الجمهور فيما ذهبوا إليه من إجزاء ذبح الشاة في الإحصار أن الله أوجب ذبح ما استيسر من الهدي أي مهما تيسر مما يسمى هدية، والهدي من بهيمة الأنعام، وهي الإبل والبقر والغنم، كما قاله الحبر البحر ترجمان القرآن وابن عم<sup>(١)</sup> رسول الله ﷺ، وقد ثبت في الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت: أهدى النبي ﷺ مرة غنمًا.

وقوله ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُؤُسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدِي مَحْلَهُ﴾ معطوف على قوله ﴿وَأَتَمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ وليس معطوفاً على قوله ﴿إِنْ أَحْصَرْتُمْ فَمَا اسْتِيَرَ مِنَ الْهَدِي﴾ كما زعمه ابن جرير رحمه الله، لأن النبي ﷺ وأصحابه عام الحديبية لما حصرهم كفار قريش عن الدخول إلى الحرم، حلقوا وذبحوا هديهم خارج الحرم، فأماما في حال الأمن والوصول إلى الحرم فلا يجوز الحلق ﴿حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدِي مَحْلَهُ﴾ ويفرغ الناسك من أفعال الحج والعمرة إن كان قارناً، أو من فعل أحدهما إن كان منفرداً أو ممتعاً، كما ثبت في الصحيحين عن حفصة أنها قالت: يا رسول الله، ما شأن الناس حلوا من العمرة، ولم تحل أنت من عمرتك؟ فقال «إنني لبدت رأسى وقلدت هديي، فلا أحل حتى أنحر»<sup>(٢)</sup>.

وقوله ﴿فَمِنْ كُنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذى مِنْ رَأْسِهِ فَنَدِيَهُ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نِسَكٍ﴾ قال البخاري: حدثنا آدم، حدثنا شعبة عن عبد الرحمن بن الأصبhani، سمعت عبد الله بن معقلا قال: قعدت إلى كعب بن عجرة في هذا المسجد - يعني مسجد الكوفة - فسألته عن فدية من صيام، فقال: حملت إلى النبي ﷺ، والقمول يتناثر على وجهي، فقال «ما كنت أرى أن الجهد

(١) هذه النعوت تطلق عادة على عبد الله بن عباس.

(٢) صحيح البخاري (حج باب ٣٤) ومسلم (حج حديث ١٧٥، ١٧٧).

بلغ بك هذا، أما تجد شاة؟ قلت: لا، قال: «صم ثلاثة أيام أو أطعم ستة مساكين، لكل مسكين نصف صاع من طعام، واحلق رأسك» فنزلت في خاصة وهي لكم عامة.

وقال الإمام أحمد<sup>(١)</sup>: حدثنا إسماعيل، حدثنا أيوب عن مجاهد، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن كعب بن عجرة، قال: أتى عليَّ النبي ﷺ وأنا أُوقد تحت قدر والقمل يتناثر على وجهي، أو قال حاجبي، فقال «يؤذيك هوم رأسك»؟ قلت: نعم، قال «فاحلقه، وصم ثلاثة أيام، أو أطعم ستة مساكين، أو أنسك نسيكة» قال أيوب: لا أدرِّي بأيْهُن بدأ.

وقال أحمد<sup>(١)</sup> أيضاً: حدثنا هشيم، حدثنا أبو بشر عن مجاهد، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن كعب بن عجرة، قال: كنا مع رسول الله ﷺ بالحدبية ونحن محرومون وقد حصرنا المشركون، وكانت لي وفرة، فجعلت الهوام تساقط على وجهي، فمر عليَّ النبي ﷺ فقال: «أيُّ ذيک هوم رأسك»؟ فأمره أن يحلق قال: ونزلت هذه الآية ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِأَذْنِي مِنْ رَأْسِهِ فَنَذِلْهُ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نِسْكٍ﴾.

وكذا رواه عفان عن شعبة عن أبي بشر وهو جعفر بن إياس به، وعن شعبة عن الحكم عن عبد الرحمن بن أبي ليلى به؛ وعن شعبة عن داود عن الشعبي عن كعب بن عجرة نحوه؛ ورواه الإمام مالك عن حميد بن قيس، عن مجاهد، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن كعب بن عجرة، فذكره نحوه، وقال سعد بن إسحاق بن كعب بن عجرة عن أبيان بن صالح، عن الحسن البصري: أنه سمع كعب بن عجرة يقول: فذبحت شاة، ورواه ابن مردويه، وروي أيضاً من حديث عمر بن قيس وهو ضعيف عن عطاء عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ «النسك شاة، والصوم ثلاثة أيام، والطعام فرق بين ستة» وكذا روی عن علي و محمد بن كعب وعكرمة وإبراهيم ومجاهد وعطاء والسدي والربيع بن أنس.

وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا عبد الله بن وهب أن مالك بن أنس حدثه عن عبد الكري姆 بن مالك الجزري، عن مجاهد، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن كعب بن عجرة: أنه كان مع رسول الله ﷺ فآذاه القمل في رأسه، فأمره رسول الله ﷺ أن يحلق رأسه، وقال: «صم ثلاثة أيام، أو أطعم ستة مساكين، مدین مدین لکل إنسان، أو أنسك شاة، أي ذلك فعلت أجزأ عنك» وهكذا روی ليث بن أبي سليم عن مجاهد، عن ابن عباس في قوله ﴿فَنَذِلْهُ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نِسْكٍ﴾ قال: إذا كان أو فـأـيـهـ أـخـذـتـ أـجـزـأـ عـنـكـ، قال ابن أبي حاتم: وروي عن مجاهد وعكرمة وعطاء وطاوس والحسن وحميد الأعرج وإبراهيم والنخعي والضحاك نحو ذلك.

(قلت) وهو مذهب الأئمة الأربع، وعامة العلماء أنه يخير في هذا المقام، إن شاء صام وإن

شاء تصدق بفرق، وهو ثلاثة أضع لكل مسكين نصف صاع وهو مدان، وإن شاء ذبح شاة وتصدق بها على القراء أي ذلك فعل أجزاءه، ولما كان لفظ القرآن في بيان الرخصة جاء بالأسهل فالأسهل **(فَفِدْيَةٌ مِّنْ صِيَامٍ أَوْ صِدْقَةٍ أَوْ نِسْكٍ)** ولما أمر النبي ﷺ كعب بن عجرة بذلك، أرشده إلى الأفضل فالأفضل، فقال: أنسك شاة، أو أطعم ستة مساكين، أو صم ثلاثة أيام، فكل حسن في مقامه، والله الحمد والمنة.

وقال ابن جرير<sup>(١)</sup>: حدثنا أبو كريب، حدثنا أبو بكر بن عياش، قال: ذكر الأعمش، قال: سأله إبراهيم سعيد بن جبیر عن هذه الآية **(فَفِدْيَةٌ مِّنْ صِيَامٍ أَوْ صِدْقَةٍ أَوْ نِسْكٍ)** فأجابه بقوله: يحکم عليه إطعام، فإن كان عنده اشتري شاة، وإن لم يكن قومت الشاة دراهم وجعل مكانها طعام فتصدق، وإلا صام لكل نصف صاع يوماً، قال إبراهيم: كذلك سمعت علقة يذكر، قال: لما قام لي سعيد بن جبیر: من هذ ما أظرفه؟ قال: قلت: هذا إبراهيم، فقال: ما أظرفه كان يجالستنا، قال: فذكرت ذلك لإبراهيم قال: فلما قلت: يجالستنا انقض منها.

وقال ابن جرير<sup>(١)</sup> أيضاً: حدثنا ابن أبي عمران، حدثنا عبد الله بن معاذ عن أبيه، عن أشعث، عن الحسن في قوله **(فَفِدْيَةٌ مِّنْ صِيَامٍ أَوْ صِدْقَةٍ أَوْ نِسْكٍ)** قال: إذا كان بالمحرم أذى من رأسه، حلق وافتدى بأي هذه الثلاثة شاة، والصيام عشرة أيام، والصدقة على عشرة مساكين، كل مسكين ممكوكين: ممكوكاً من تمر، وممكوكاً من بر، والنسك شاة.

وقال قتادة عن الحسن وعكرمة في قوله **(فَفِدْيَةٌ مِّنْ صِيَامٍ أَوْ صِدْقَةٍ أَوْ نِسْكٍ)** قال: إطعام عشرة مساكين، وهذا القولان من سعيد بن جبیر وعلقة والحسن وعكرمة، قولان غريبان فيهما نظر، لأنه قد ثبتت السنة في حديث كعب بن عجرة الصيام ثلاثة أيام لا ستة، أو إطعام ستة مساكين، أو نسك شاة، وأن ذلك على التخيير كما دل عليه سياق القرآن، وأما هذا الترتيب فإنما هو معروف في قتل الصيد كما هو نص القرآن وعليه أجمع الفقهاء هناك بخلاف هذا، والله أعلم.

وقال هشيم: أخبرنا ليث عن طاوس أنه كان يقول: ما كان من دم أو طعام فبمكة، وما كان من صيام فحيث شاء، وكذا قال مجاهد وعطاء والحسن، وقال هشيم: أخبرنا حجاج وعبد الملك وغيرهما عن عطاء أنه كان يقول: ما كان من دم فبمكة، وما كان من طعام وصيام فحيث شاء، وقال هشيم: أخبرنا يحيى بن سعيد عن يعقوب بن خالد، أخبرنا أبو أسماء مولى ابن جعفر، قال: حج عثمان بن عفان ومعه علي والحسين بن علي فارتاحل عثمان، قال أبو أسماء وكانت مع ابن جعفر فإذا نحن برج نائم وناقتة عند رأسه، قال: فقلت: أيها النائم، فاستيقظ فإذا الحسين بن علي، قال: فحمله ابن جعفر حتى أتيته به السقيا، قال: فأرسل إلى علي ومعه أسماء بنت عميس، قال: فمرضناه نحواً من عشرين ليلة، قال: قال علي للحسين:

ما الذي تجد؟ قال: فأوّل ما بيده إلى رأسه، قال: فأمر به على فحلق رأسه، ثم دعا بيدنته فنحرها فإن كانت هذه الناقه عن الحلق، ففيه أنه نحرها دون مكة. وإن كانت عن التحلل فواضح.

وقوله ﴿فإِذَا أَمْتَمْتُمْ فَمَنْ تَمْتَعُ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجَّ نَمَّا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدِيِّ﴾ أي فإذا تمكتم من أداء المناسك فمن كان منكم ممتنعاً بالعمرة إلى الحج، وهو يشمل من أحمر بهما، أو أحمر بالعمرة أولاً، فلما فرغ منها أحمر بالحج، وهذا هو التمتع الخاص، وهو المعروف في كلام الفقهاء، والتمتع العام يشمل القسمين، كما دلت عليه الأحاديث الصحاح، فإن من الرواية من يقول: تمتع رسول الله ﷺ وأخر يقول: قرن ولا خلاف أنه ساق هدياً، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ تَمْتَعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجَّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدِيِّ﴾ أي فليذبح ما قدر عليه من الهدي، وأقله شاة، وله أن يذبح البقر، لأن رسول الله ﷺ ذبح عن نسائه البقر، وقال الأوزاعي، عن يحيى بن أبي كثیر عن أبي سلمة عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ ذبح البقر عن نسائه وكفن ممتنعات، رواه أبو بكر بن مردويه.

وفي هذا دليل على مشروعية التمتع، كما جاء في الصحيحين عن عمران بن حصين، قال: نزلت آية المتعة في كتاب الله و فعلناها مع رسول الله ﷺ، ثم لم ينزل قرآن يحرمنها ولم ينه عنها حتى مات، قال رجل برأيه ما شاء. قال البخاري<sup>(١)</sup>: يقال إنه عمر، وهذا الذي قاله البخاري قد جاء مصراحاً به أن عمر كان ينهى الناس عن التمتع ويقول: إن تأخذ بكتاب الله فإن الله يأمر بالتمام، يعني قوله ﴿وَأَتُمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلّهِ﴾ وفي نفس والأمر لم يكن عمر رضي الله عنه ينهى عنها محراً لها، إنما كان ينهى عنها ليكثر قصد الناس للبيت حاجين ومعتمرين، كما قد صرخ به رضي الله عنه.

وقوله ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فِصَامَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجَّ وَسَبْعَةً إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةَ كَامِلَةً﴾ يقول تعالى: فمن لم يجد هدياً فليصم ثلاثة أيام في الحج، أي في أيام المناسك، قال العلماء: والأولى أن يصومها قبل عرفة في العشر، قاله عطاء، أو من حين يحرم قاله ابن عباس وغيره لقوله في الحج، ومنهم من يجوز صيامها من أول شوال، قاله طاوس ومجاهد وغير واحد، وجوز الشعبي صيام يوم عرقة وقبله يومين، وكذلك قال مجاهد وسعيد بن جبير والسدي وعطاء وطاوس والحكم والحسن وحماد وإبراهيم وأبو جعفر الباقر والربيع ومقاتل بن حيان، وقال العوفي عن ابن عباس: إذا لم يجد هدياً فعليه صيام ثلاثة أيام في الحج قبل يوم عرفة، فإذا كان يوم عرفة الثالث، فقد تم صومه، وسبعة إذا رجع إلى أهله، وكذلك روى أبو إسحاق عن وبرة عن ابن عمر قال: يصوم يوماً قبل التروية، ويوم التروية، ويوم عرفة وكذلك روى جعفر بن محمد عن أبيه، عن علي أيضاً:

(١) صحيح البخاري (تفسير سورة ٢ باب ١٣).

فلو لم يصومها أو بعضها قبل العيد، فهل يجوز أن يصومها في أيام التشريق؟ فيه قولان للعلماء وما للإمام الشافعى أيضاً، القديم منهمما: أنه يجوز له صيامها لقول عائشة وابن عمر في صحيح البخارى: لم يرخص في أيام التشريق أن يصوم إلا لمن لم يجد الهدى هكذا رواه مالك عن الزهرى عن عروة عن عائشة وعن سالم عن ابن عمر وقد روى من غير وجه عنهم، ورواه سفيان عن جعفر بن محمد عن أبيه عن علي، أنه كان يقول: من فاته صيام ثلاثة أيام في الحج، صامهن أيام التشريق، وبهذا يقول عبيد بن عمير الليثى عن عكرمة والحسن البصري وعروة بن الزبیر، وإنما قالوا ذلك لعموم قوله «فصيام ثلاثة أيام في الحج» والجديد من القولين أنه لا يجوز صيامها أيام التشريق لما رواه مسلم عن قتيبة الهذلي رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ «أيام التشريق أيام أكل وشرب، وذكر الله عز وجل».

وقوله «وبعة إذا رجعتم» فيه قولان: [أحدhem] إذا رجعتم إلى رحالكم، ولهذا قال مجاهد: هي رخصة إذا شاء صامها في الطريق، وكذا قال عطاء بن أبي رباح. والقول [الثاني] إذا رجعتم إلى أوطانكم، قال عبد الرزاق: أخبرنا الثوري عن يحيى بن سعيد عن سالم، سمعت ابن عمر قال: «فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج، وبعة إذا رجعتم» قال: إذا رجع إلى أهله، وكذا روى عن سعيد بن جبير وأبي العالية ومجاحد وعطاء وعكرمة والحسن وقتادة والزهرى والرابع بن أنس، وحکى على ذلك أبو جعفر بن جرير الإجماع، وقد قال البخارى: حدثنا يحيى بن بکير، حدثنا الليث عن عقيل، عن ابن شهاب، عن سالم بن عبد الله، أن ابن عمر قال: تمنع رسول الله ﷺ في حجة الوداع بالعمرمة إلى الحج، وأهدى فساق معه الهدى من ذي الحلیفة، فأهل بعمرمة، ثم أهل بالحج، فتمتع الناس مع رسول الله ﷺ، وبدأ رسول الله ﷺ بالعمرمة إلى الحج، فكان من الناس من أهدى فساق الهدى، ومنهم من لم يهدى، فلما قدم النبي ﷺ مكة قال للناس: «من كان منكم أهدى فإنه لا يحل بشيء حرم منه حتى يقضى حجه ومن لم يكن منكم أهدى فليطوف بالبيت وبالصفا والمروءة وليقصر وليرحل ثم ليهلي بالحج، فمن لم يجد هدية فليصم ثلاثة أيام في الحج، وبعة إذا رجع إلى أهله» وذكر تمام الحديث، قال الزهرى: وأخبرنى عورة عن عائشة بمثل ما أخبرنى سالم عن أبيه، والحديث مخرج في الصحيحين من حديث الزهرى به.

وقوله « تلك عشرة كاملة» قيل: تأكيد، كما تقول العرب: رأيت بعيني، وسمعت بأذني، وكتب بيدي، وقال الله تعالى: «ولا طائر يطير بجناحيه» [الأنعام: ٣٨] وقال «ولا تخطه بيدينك» [العنكبوت: ٤٨] وقال «وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشرين فتم مبقات ربه أربعين ليلة» [الأعراف: ١٤٢] وقيل: معنى كاملة الأمر بإكمالها وإتمامها، اختاره ابن جرير، وقيل معنى كاملة أي مجزئه عن الهدى، قال هشيم عن عباد بن راشد عن الحسن البصري في قوله « تلك عشرة كاملة» قال: من الهدى.

وقوله ﴿ذلِكَ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ قال ابن جرير<sup>(١)</sup>: وانختلف أهل التأويل فيمن عنى بقوله ﴿لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ بعد إجماع جميعهم على أن أهل الحرم معنيون به وأنه لا متعة لهم، فقال بعضهم: عنى بذلك أهل الحرم خاصة دون غيرهم، حدثنا ابن بشار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان هو الثوري قال: قال ابن عباس ومجاهد: هم أهل الحرم، وكذا روى ابن المبارك عن الثوري، وزاد الجماعة عليه، وقال قتادة: ذكر لنا أن ابن عباس كان يقول: يا أهل مكة، لا متعة لكم، أحلت لأهل الآفاق وحرمت عليكم، إنما يقطع أحدكم وادياً، أو قال: يجعل بينه وبين الحرم وادياً، ثم يهلي بعمره، وقال عبد الرزاق: حدثنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه، قال: المتعة للناس لا لأهل مكة، ومن لم يكن أهله من الحرم. وذلك قول الله عز وجل ﴿ذلِكَ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ قال: ويلغى عن ابن عباس مثل قول طاوس، وقال آخرون: هم أهل الحرم ومن بينه وبين المواقف<sup>(٢)</sup>، كما قال عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن عطاء، قال: من كان أهله دون المواقف فهو كأهل مكة لا يتمتع، وقال عبد الله بن المبارك عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن مكحول في قوله ﴿ذلِكَ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ قال: من كان دون المواقف<sup>(٣)</sup>. وقال ابن جريج عن عطاء: ذلك لمن لم يكن أهل حاضري المسجد الحرام قال: عرفة ومرأة وعرنة وضجنان والرجيع، وقال عبد الرزاق: حدثنا معمر سمعت الزهري يقول من كان أهله على يوم أو نحوه تمنعه، وفي رواية عنه: اليوم واليومين، واختار ابن جرير في ذلك مذهب الشافعي أنهم أهل الحرم، ومن كان منه على مسافة لا يقصر فيها الصلاة، لأن من كان كذلك يعذر<sup>الله</sup> لا مسافراً، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي فيما أمركم ونهاكم ﴿واعلموا أنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي لمن خالف أمره وارتكب ما عنه زجره.

الْحَجَّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَتُهُ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقٌ وَلَا حِدَالٌ فِي الْحَجَّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَرَوَدُوا فَإِنَّهُ خَيْرُ الرَّازِدِ الْنَّقْوَةُ وَأَنَّقُونَ يَتَأْوِلُ إِلَى الْأَبْيَبِ ﴿٩٧﴾

انختلف أهل العربية في قوله ﴿الْحَجَّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾ فقال بعضهم: تقديره الحج حج أشهر معلومات، فعلى هذا التقدير يكون الإحرام بالحج فيها أكمل من الإحرام فيما عداها وإن كان ذاك صحيحاً، والقول بصحة الإحرام بالحج في جميع السنة مذهب مالك وأبي حنيفة وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه، وبه يقول إبراهيم النخعي والثورى واللith بن سعد واحتج لهم بقوله

(١) تفسير الطبرى / ٢٦٥.

(٢) عبارة الطبرى: «ومن كان منزله دون المواقف إلى مكة».

(٣) في الطبرى: «المواقف».

تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكُمْ عَنِ الْأَهْلَةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجَّ﴾ [البقرة: ١٨٩] وبأنه أحد النسرين ، فصح الإحرام به في جميع السنة كالعمرة . وذهب الشافعي رحمه الله ، إلى أنه لا يصح الإحرام بالحج إلا في أشهره ، ولو أحرم به قبلها لم ينعقد إحرامه به وهل ينعقد عمرة ، فيه قولان عنه .

والقول بأنه لا يصح الإحرام بالحج إلا في أشهره مروي عن ابن عباس وجابر ، وبه يقول عطاء وطاوس ومجاهد رحمهم الله ، والدليل عليه قوله ﴿الحج أشهر معلومات﴾ وظاهره التقدير الآخر الذي ذهب إليه النحاة ، وهو أن وقت الحج أشهر معلومات فخصصه بها من بين سائر شهور السنة ، فدل على أنه لا يصح قبلها كميات الصلاة .

وقال الشافعي رحمه الله : أخبرنا مسلم بن خالد عن ابن جريج ، أخبرني عمر بن عطاء عن عكرمة ، عن ابن عباس أنه قال : لا ينبغي لأحد أن يحرم بالحج إلا في شهور الحج من أجل قول الله تعالى : ﴿الحج أشهر معلومات﴾ وكذا رواه ابن أبي حاتم عن أحمد بن يحيى بن مالك السوسي عن حجاج بن محمد الأعور ، عن ابن جريج به ، ورواه ابن مردويه في تفسيره من طريقين عن حجاج بن أرطاة ، عن الحكم بن عتيبة ، عن مقدم عن ابن عباس أنه قال : من السنة أن لا يحرم بالحج إلا في أشهر الحج .

وقال ابن خزيمة في صحيحه : حدثنا أبو كريب ، حدثنا أبو خالد الأحمر عن شعبة ، عن الحكم ، عن مقدم ، عن ابن عباس ، قال : لا يحرم بالحج إلا في أشهر الحج ، فإن من سنة الحج أن يحرم في أشهر الحج ، وهذا إسناد صحيح ، وقول الصحابي «من السنة كذا» في حكم المرفوع عند الأكثرين ، ولا سيما قول ابن عباس تفسيراً للقرآن وهو ترجمانه . وقد ورد فيه حديث مرفوع ، قال ابن مردويه : حدثنا عبد الباقى ، حدثنا نافع ، حدثنا الحسن بن المثنى ، حدثنا أبو حذيفة ، حدثنا سفيان عن أبي الزبير ، عن جابر ، عن النبي ﷺ أنه قال «لا ينبغي لأحد أن يحرم بالحج إلا في أشهر الحج» وإنستاده لا بأس به ، لكن رواه الشافعى والبىهقى من طرق عن ابن جريج ، عن أبي الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يسأل : أيهـ بالحج قبل أشهر الحج ؟ فقال : لا ، وهذا الموقف أصح وأثبت من المرفوع ، ويبقى حيثـ مذهب صحابي يتقوى بقول ابن عباس من السنة : أن لا يحرم بالحج إلا في أشهره ، والله أعلم .

وقوله ﴿أشهر معلومات﴾ قال البخاري : قال ابن عمر : هي شوال وذو القعدة وعشرين من ذي الحجة ، وهذا الذي علقه البخاري بصيغة الجزم ، رواه ابن جرير<sup>(١)</sup> موصولاً ، حدثنا أحمد بن حازم بن أبي بربة ، حدثنا أبو نعيم ، حدثنا ورقاء عن عبد الله بن دينار ، عن ابن عمر ﴿الحج أشهر معلومات﴾ قال : شوال وذو القعدة وعشرين من ذي الحجة ، إسناد صحيح . وقد رواه

الحاكم أيضاً في مستدركه عن الأصم، عن الحسن بن علي بن عفان، عن عبد الله بن نمير، عن عبد الله عن نافع، عن ابن عمرو فذكره وقال: هو على شرط الشيفيين.

(قلت) وهو مروي عن عمر وعلي وابن مسعود وعبد الله بن الزبير وابن عباس وعطاء وطاوس ومجاحد وإبراهيم النخعي والشعبي والحسن وابن سيرين ومكحول وقادة والضحاك بن مزاحم والرابع بن أنس ومقاتل بن حيان، وهو مذهب الشافعى وأبي حنيفة وأحمد بن حنبل وأبي يوسف وأبي ثور رحمهم الله، واختار هذا القول ابن جرير<sup>(١)</sup>، قال: وصح إطلاق الجمع على شهرين وبعض الثالث للتغلب، كما يقول العرب: رأيته العام ورأيته اليوم، وإنما وقع ذلك في بعض العام واليوم «فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه» [البقرة: ٢٠٣] وإنما تعجل في يوم ونصف يوم.

وقال الإمام مالك بن أنس والشافعى في القديم: هي شوال وذو القعدة وذو الحجة بكماله، وهو روایة عن ابن عمر أيضاً، قال ابن حریر<sup>(٢)</sup>: حدثنا أبو أحمد بن إسحاق، حدثنا أبو أحمد، حدثنا شريك عن إبراهيم بن مهاجر، عن مجاهد، عن ابن عمر، قال: شوال وذو القعدة وذو الحجة.

وقال ابن أبي حاتم في تفسيره: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، حدثنا ابن وهب، أخبرني ابن جريج، قال: قلت لนาيف: أسمعت عبد الله بن عمر يسمى شهور الحج . قال: نعم، كان عبد الله يسمى شوالاً وذا القعدة وذا الحجة، قال ابن جريج : وقال ذلك ابن شهاب وعطاء وجابر بن عبد الله صاحب النبي ﷺ، وهذا إسناد صحيح إلى ابن جريج، وقد حكى هذا أيضاً عن طاوس ومجاحد وعروة بن الزبير والرابع بن أنس وقادة.

وجاء فيه حديث مرفوع لكنه موضوع، رواه الحافظ ابن مردویه من طريق حصین بن مخارق ، وهو متهم بالوضع، عن يونس بن عبید عن شهر بن حوشب عن أبي أمامة، قال : قال رسول الله ﷺ «الحج أشهر معلومات: شوال وذو القعدة وذو الحجة» وهذا كما رأيت لا يصح رفعه والله أعلم.

وفائدة مذهب مالك أنه إلى آخر ذي الحجة بمعنى أنه مختص بالحج، فيكره الاعتمار في بقية ذي الحجة، لا أنه يصح الحج بعد ليلة التحر.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو محمد بن سنان، حدثنا أبو معاوية عن الأعمش، عن قيس بن مسلم، عن طارق بن شهاب قال: قال عبد الله: الحج أشهر معلومات، ليس فيها عمرة، وهذا إسناد صحيح.

(١) تفسير الطبرى ٢٧١/٢.

(٢) تفسير الطبرى ٢٦٩/٢.

قال ابن جرير: وإنما أراد من ذهب إلى أن أشهر الحج شوال وذو القعدة وذو الحجة أن هذه الأشهر ليست أشهر العمرة إنما هي للحج وإن كان عمل الحج قد انقضى بانقضاء أيام مني، كما قال محمد بن سيرين: ما أحد من أهل العلم يشك في أن عمرة في غير أشهر الحج أفضل من عمرة في أشهر الحج، وقال ابن عون: سألت القاسم بن محمد عن العمرة في أشهر الحج فقال: كانوا لا يرونها تامة. (قلت) وقد ثبت عن عمر وعثمان رضي الله عنهم، أنهمما كان يحبان الاعتمار في غير أشهر الحج وينهيان عن ذلك في أشهر الحج، والله أعلم.

وقوله **«فمن فرض فيهنَّ الحج»** أي أوجب بإحرامه حجاً، فيه دلالة على لزوم الإحرام بالحج والمضي فيه، قال ابن جرير: أجمعوا على أن المراد من الفرض ه هنا الإيجاب والإلزام، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس **«فمن فرض فيهنَّ الحج»** يقول: من أحزم بحج أو عمرة، وقال عطاء: الفرض الإحرام. وكذا قال إبراهيم والضحاك وغيرهم. وقال ابن جرير: أخبرني عمر بن عطاء عن عكرمة، عن ابن عباس أنه قال **«فمن فرض فيهنَّ الحج»** فلا ينبغي أن يلبي بالحج ثم يقيم بأرض. قال ابن أبي حاتم: روى عن ابن مسعود وابن عباس وابن الزبير مجاهد وعطاء وإبراهيم التخعي وعكرمة والضحاك وقتادة وسفيان الثوري والزهري ومقاتل بن حيان: نحو ذلك، وقال طاوس والقاسم بن محمد: هو التلبية.

وقوله **«فلا رفت»** أي من أحزم بالحج أو العمرة فليجتنب الرفت، وهو الجماع، كما قال تعالى: **«أَحِلُّ لَكُمْ لِيَلَةُ الصِّيَامِ الرُّفْثُ إِلَى نِسَائِكُمْ»** [البقرة: ١٨٧] وكذلك يحرم تعاطي دواعية من المباشرة والتقبيل ونحو ذلك، كذلك التكلم به بحضور النساء، قال ابن جرير: حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرني يونس: أن نافعاً أخبره أن عبد الله بن عمر كان يقول: الرفت إتيان النساء والتكلم بذلك للرجال والنساء إذا ذكروا ذلك بأفواههم، قال ابن وهب: وأخبرني أبو صخر عن محمد بن كعب مثله، قال ابن جرير: وحدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة عن قتادة، عن رجل، عن أبي العالية الرياحي، عن ابن عباس، أنه كان يحدو وهو محرم، وهو يقول: [الرجز]

وَهَنَّ يَمْشِينَ بِنَا هَمِيسَا      إِن يَصْلُقَ الطِّيرُ نَزْكُ لَمِيسَا<sup>(١)</sup>

وقال أبوالعلية: فقلت: تكلم بالرفث وأنت محرم؟ قال: إنما الرفت ما قيل عند النساء. ورواه الأعمش عن زياد بن حصين عن أبي العالية عن ابن عباس فذكره. وقال ابن جرير أيضاً، حدثنا محمد بن بشار، حدثنا ابن أبي عدي، عن عون، حدثني زياد بن حصين حدثني أبي حصين بن قيس، قال: أصعدت مع ابن عباس في الحاج، وكنت خليله، فلما كان بعد إحراماً

(١) الرجز لابن عباس في جمهور اللغة ص ٤٢٢؛ وتاح العروس (رفث، همس)؛ ولسان العرب (رفث، همس)؛ وتهذيب اللغة ٦/١٤٣؛ وبلا نسبة في تاج العروس (لمس)؛ وكتاب العين ٤/١٠.

قال ابن عباس : فأخذ بذنب بعيره فجعل يلويه ويرتجز ويقول : [الرجز]

**وَهُنُّ يَمْشِيْنَ بِنَا هَمِيْسَا إِنْ تَصْدِقُ الطَّيْرُ نَنْكُ لَمِيْسَا**

قال فقلت : أترفت وأنت محرم ؟ فقال : إنما الرفت ما قيل عند النساء . وقال عبد الله بن طاوس عن أبيه : سألت ابن عباس عن قول الله عز وجل : ﴿فَلَا رُفْثٌ وَلَا فَسْوَقٌ﴾ ؟ قال : الرفت التعريض بذكر الجماع ، وهي العرابة في كلام العرب ، وهو أدنى الرفت ، وقال عطاء بن أبي رباح : الرفت الجماع وما دونه من قول الفحش وكذا قال عمرو بن دينار وقال عطاء : كانوا يكرهون العرابة ، وهو التعريض وهو محرم . وقال طاوس : هو أن يقول للمرأة إذا حللت أصبتك ، وكذا قال أبو العالية ، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : الرفت غشيان النساء والقبلة والغمز ، وأن يعرض لها بالفحش من الكلام ونحو ذلك ، وقال ابن عباس أيضاً وابن عمر : الرفت غشيان النساء وكذا قال سعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد وإبراهيم وأبو العالية عن عطاء ومكحول وعطاء الخراساني وعطاء بن يسار وعطيه وإبراهيم التخعي والربع والزهرى والسدى ومالك بن أنس ومقاتل بن حيان وعبد الكريم بن مالك والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم .

وقوله ﴿فَلَا فَسْوَقٌ﴾ قال مقسم وغير واحد ، عن ابن عباس : هي المعاشي ، وكذا قال عطاء ومجاهد وطاوس وعكرمة وسعيد بن جبير ومحمد بن كعب والحسن وقتادة وإبراهيم التخعي والزهرى والربع بن أنس وعطاء بن يسار وعطاء الخراساني ومقاتل بن حيان ، وقال محمد بن إسحاق عن نافع عن ابن عمر ، قال : الفسوق ما أصيب من معاشي الله صيداً أو غيره ، وكذا روى ابن وهب عن يونس عن نافع أن عبد الله بن عمر كان يقول : الفسوق إتيان معاشي الله في الحرم ، وقال آخرون : الفسوق ه هنا السباب قال ابن عباس وابن عمر وابن الزبير ومجاهد والسدى وإبراهيم التخعي والحسن ، وقد يتمسك هؤلاء بما ثبت في الصحيح «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر» ولهذا رواه هنا الحبر أبو محمد بن أبي حاتم من حديث سفيان الثوري عن زيد ، عن أبي وائل ، عن عبد الله ، عن النبي ﷺ ، قال : «سباب المسلم فسوق ، وقتاله كفر» ، وروي من حديث عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن أبيه ، ومن حديث أبي إسحاق عن محمد بن سعد عن أبيه وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : الفسوق ه هنا النبذ للأصنام ، قال الله تعالى : ﴿أَوْ فَسِقًا أَهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [الأنعام : ١٤٥] ، وقال الضحاك : الفسوق التباذل بالألقاب .

والذين قالوا : الفسوق ه هنا هو جميع المعاشي الصواب معهم ، كما نهى تعالى عن الظلم في الأشهر الحرم ، وإن كان في جميع السنة منها عنه ، إلا أنه في الأشهر الحرم أكد ، ولهذا قال ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةُ حِرَمٍ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيْمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ [التوبه : ٣٦] وقال في الحرم ﴿وَمَنْ يَرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بَظْلَمَ نَذْقَهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ [الحج : ٢٥] واختار ابن جرير أن الفسوق ه هنا ارتکاب ما نهى عنه في الإحرام من قتل الصيد وحلق الشعر وقلم الأظفار ونحو ذلك ، كما تقدم

عن ابن عمر، وما ذكرناه أولى، والله أعلم، وقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي حازم عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «من حج هذا البيت، فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنبه كيوم ولدته أمه»<sup>(١)</sup>

وقوله ﴿وَلَا جَدَالُ فِي الْحَجَّ﴾ فيه قولان: [أَحَدُهُمَا] ولا مجادلة في وقت الحج في مناسكه، وقد بينه الله أتم بيان، ووضّحه أكمل إيضاح، كما قال وكيع عن العلاء بن عبد الكريّم: سمعت مجاهداً يقول ﴿وَلَا جَدَالُ فِي الْحَجَّ﴾ قد بين الله أشهر الحج فليس فيه جدال بين الناس. وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد ﴿وَلَا جَدَالُ فِي الْحَجَّ﴾ قال: لا شهر ينساً ولا جدال في الحج قد تبين ثم ذكر كيفية ما كان المشركون يصنعون في النسيء الذي ذمهم الله به. وقال الثوري، عن عبد العزيز بن رفيع، عن مجاهد في قوله ﴿وَلَا جَدَالُ فِي الْحَجَّ﴾ قال: قد استقام الحج. فلا جدال فيه، وكذلك قال السدي. وقال هشيم: أخبرنا حجاج عن عطاء، عن ابن عباس ﴿وَلَا جَدَالُ فِي الْحَجَّ﴾ قال: المراء في الحج. وقال عبد الله بن وهب: قال مالك: قال الله تعالى: ﴿وَلَا جَدَالُ فِي الْحَجَّ﴾ فالجدال في الحج - والله أعلم - أن قريشاً كانت تقف عند المشعر الحرام بالمذلة، وكانت العرب وغيرهم يقفون بعرفة، وكانوا يتجادلون يقول هؤلاء: نحن أصوب ويقول هؤلاء: نحن أصوب، فهذا فيما نرى، والله أعلم، وقال ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: كانوا يقفون مواقف مختلفة يتجادلون كلهم يدعى أن موقفه موقف إبراهيم، فقطعه الله حين أعلم نبيه بالمناسك، وقال ابن وهب: عن أبي صخر، عن محمد بن كعب، قال: كانت قريش اذا اجتمعت بمني قال هؤلاء: حجنا أتم من حجكم، وقال هؤلاء: حجنا أتم من حجكم، وقال - اد بن سلمة، عن جبير بن حبيب، عن القاسم بن محمد أنه قال: الجدال في الحج أن يقول بعضهم: الحج غداً، ويقول بعضهم: الحج اليوم، وقد اختار ابن جرير مضمون هذه الأقوال، وهو قطع التنازع في مناسك الحج، والله أعلم.

[والقول الثاني] أن المراد بالجدال ه هنا المخاصمة. قال ابن جرير<sup>(٢)</sup>: حدثنا عبد الحميد بن بيان، حدثنا إسحاق عن شريك، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله بن مسعود في قوله ﴿وَلَا جَدَالُ فِي الْحَجَّ﴾ قال: أن تماري صاحبك حتى تغضبه. وبهذا الإسناد إلى أبي إسحاق عن التميمي، سألت ابن عباس، عن الجدال، قال: المرأة تماري صاحبك حتى تغضبه، وكذلك روى مقسم والضحاك عن ابن عباس وكذلك قال أبو العالية وعطاء ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة وجابر بن زيد وعطاء الخراساني ومكحول والسدي ومقاتل بن حيان وعمرو بن دينار والضحاك والرابع بن أنس وإبراهيم النخعي وعطاء بن يسار والحسن وقتادة والزهرى وقال

(١) أخرجه البخاري (حج باب ٤) ومسلم (حج حديث ٤٣٨) والترمذى (حج باب ٢) والنسائي (حج باب

٤) وأبن ماجه (مناسك باب ٣).

(٢) تفسير الطبرى ٢/٢٨٣.

علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ولا جدال في الحج، المراء والملاحة حتى تغضب أخاك وصاحبك فنهى الله عن ذلك، وقال إبراهيم النخعي «ولا جدال في الحج» قال: كانوا يكرهون الجدال، وقال محمد بن إسحاق، عن نافع، عن ابن عمر، قال: الجدال في الحج السباب والمنازعة، وكذا روى ابن وهب عن يونس، عن نافع: أن ابن عمر كان يقول: الجدال في الحج السباب والمراء والخصومات، وقال ابن أبي حاتم: وروي عن ابن الزبير والحسن وإبراهيم وطاوس ومحمد بن كعب، قالوا الجدال المراء، وقال عبد الله بن المبارك عن يحيى بن بشر، عن عكرمة «ولا جدال في الحج» والجدال الغضب، أن تغضب عليك مسلماً إلا أن تستعتبر مملوكاً فتغضبه من غير أن تضره، فلا بأس عليك إن شاء الله.

(قلت) ولو ضربه لكان جائزاً سائغاً، والدليل على ذلك ما رواه الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن إدريس، حدثنا محمد بن إسحاق، عن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه، عن أسماء بنت أبي بكر قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ حجاجاً حتى إذا كنا بالعرج نزل رسول الله ﷺ فجلست عائشة إلى جنب رسول الله ﷺ وجلست إلى جانب أبي، وكانت زمالة أبي بكر وزمالة رسول الله ﷺ واحدة مع غلام أبي بكر، فجلس أبو بكر ينتظره إلى أن يطلع عليه، فأططلع وليس معه بيته، فقال: أين بيته؟ فقال: أصلحته البارحة، فقال أبو بكر: بغير تضلله؟ فطفق يضربه ورسول الله ﷺ يتسم ويقول «انظروا إلى هذا المحرم ما يصنع» وهكذا أخرجه أبو داود وابن ماجه من حديث ابن إسحاق، ومن هذا الحديث حكى بعضهم عن بعض السلف أنه قال: من تمام الحج ضرب الجمال، ولكن يستفاد من قول النبي ﷺ عن أبي بكر رضي الله عنه «انظروا إلى هذا المحرم ما يصنع» كهيئة الإنكار اللطيف أن الأولى ترك ذلك، والله أعلم.

وقد قال الإمام عبد بن حميد في مسنده: حدثنا عبيد الله بن موسى، عن موسى بن عبيدة، عن أخيه عبد الله بن عبيدة، عن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ «من قضى نسكه وسلم المسلمين من لسانه ويده، غفر له ما تقدم من ذنبه».

وقوله «وما تفعلوا من خير يعلمه الله» لما نهاهم عن إتيان القبيح قوله «وما فعلوا من خيراً يعلمه الله» لما نهاهم عن إتيان القبيح قوله «وما فعلوا من أذراً يعلمه الله» لما نهاهم عن إتيان الأذى، فلما أخبرهم أنه عالم به، وسيجزيهم عليه أ渥 الجزاء يوم القيمة، وقوله «وتزودوا فإن خير الزاد التقوى» قال العوفي، عن ابن عباس: كان أناس يخرجون من أهليهم ليست معهم أرودة، يقولون: نحاج بيت الله ولا يطعمتنا؟ فقال الله: تزودوا ما يكفي وجوهكم عن الناس. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقري: حدثنا سفيان عن عمرو بن دينار، عن عكرمة: أن ناساً كانوا يحجون بغير زاد فأنزل الله ﷺ «وتزودوا فإن خير الزاد التقوى» وكذا روى ابن جرير عن عمرو وهو الفلاس، عن ابن عيينة، قال ابن أبي حاتم: وقد روى هذا الحديث ورقاء عن عمرو بن دينار، عن عكرمة عن ابن عباس، قال وما يرويه عن ابن عيينة أصح.

(قلت) قد وراه النسائي عن سعيد بن عبد الرحمن المخزومي، عن سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس: كان ناس يحجون بغير زاد، فأنزل الله ﷺ وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴿ واما حديث ورقاء فأخرجه البخاري عن يحيى بن بشر، عن شابة، وأخرجه أبو داود عن أبي مسعود أحمد بن الفرات الرازي ومحمد بن عبد الله المخزومي عن شابة عن ورقاء عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس، قال: كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ويقولون: نحن المتكلون، فأنزل الله ﷺ وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴿ ورواه عبد بن حميد في تفسيره عن شابة، ورواه ابن حبان في صحيحه من حديث شابة به.

وروى ابن جرير وابن مردويه من حديث عمرو بن عبد الغفار عن نافع، عن ابن عمر، قال: كانوا إذا أحرموا ومعهم أزواهم رموا بها واستأنفوا زاداً آخر، فأنزل الله تعالى: ﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾ فنهوا عن ذلك وأمروا أن يتزودوا الدقيق والسويق والكعك، وكذا قال ابن الزبير وأبو العالية ومجاهد وعكرمة والشعبي والنخعي وسالم بن عبد الله وعطاء الخراساني وقتادة والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان، وقال سعيد بن جبیر: فتزودوا الدقيق والسويق والكعك.

وقال وكيع بن الجراح في تفسيره: حدثنا سفيان عن محمد بن سوقة عن سعيد بن جبیر ﴿وتزودوا﴾ قال الخشكناج والسويق، قال وكيع أيضاً: حدثنا إبراهيم المكي عن ابن نجيج، عن مجاهد، عن ابن عمر، قال: إن من كرم الرجل طيب زاده في السفر، وزاد فيه حماد بن سلمة عن أبي ريحانة أن ابن عمر كان يشرط على من صحبه الجوزة.

وقوله ﴿فإن خير الزاد التقوى﴾ لما أمرهم بالزاد للسفر في الدنيا أرشدهم إلى زاد الآخرة، وهو استصحاب التقوى إليها، كما قال ﴿وريثاً ولباس التقوى ذلك خير﴾ [الأعراف: ٢٦] لما ذكر اللباس الحسي نبه مرشدًا إلى اللباس المعنوي، وهو الخشوع والطاعة والتقوى، وذكر أنه خير من هذا وأنفع، قال عطاء الخراساني في قوله ﴿فإن خير ارزاد التقوى﴾ يعني زاد الآخرة، وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني<sup>(١)</sup>: حدثنا عبدان، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا مروان بن معاوية عن إسماعيل، عن قيس، عن جرير بن عبد الله، عن النبي ﷺ قال «من يتزود في الدنيا ينفعه في الآخرة» وقال مقاتل بن حيان لما نزلت هذه الآية ﴿وتزودوا﴾: قام رجل من فقراء المسلمين فقال: يا رسول الله، ما نجد ما نتزود به، فقال رسول الله ﷺ «تزود ما تكتَّبْ به وجهك عن الناس، وخير ما تزودتم التقوى» رواه ابن أبي حاتم<sup>(١)</sup>، قوله ﴿واتقون يا أولي الألباب﴾ يقول: واتقوا عقابي ونكالي وعدائي لمن خالفني ولم يأتمر بأمرِي، يا ذوي العقول والأفهام.

**لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّنْ رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِّنْ عَرَفَتِ**

فَإِذْ كُرُوا اللَّهُ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَذَكْرُوْهُ كَمَا هَدَنَا لَكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ  
لَمْ يَنْأِ أَصْنَاكَ الَّذِينَ ۝

قال البخاري: حدثنا محمد، أخبرني ابن عيينة عن عمرو، عن ابن عباس، قال: كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقاً في الجاهلية، فتأثروا أن يتجرروا في الموسم، فنزلت **﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جَنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّنْ رَبِّكُمْ﴾** في مواسم الحج. وهكذا رواه عبد الرزاق وسعيد بن منصور وغير واحد عن سفيان بن عيينة به. ولبعضهم: فلما جاء الإسلام تأثروا أن يتجرروا، فسألوا رسول الله **ﷺ** عن ذلك، فأنزل الله هذه الآية، وكذا رواه ابن جرير عن عمرو بن دينار عن ابن عباس، قال: كان متجر الناس في الجاهلية عكاظ ومجنة وذو المجاز، فلما كان الإسلام كأنهم كرهوا ذلك حتى نزلت هذه الآية، وروى أبو داود وغيره من حديث يزيد بن أبي زياد، عن مجاهد، عن ابن عباس، قال: كانوا يتقدون البيوع والتجارة في الموسم والحج، يقولون: أيام ذكر، فأنزل الله: **﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جَنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّنْ رَبِّكُمْ﴾**

وقال ابن جرير<sup>(١)</sup> حدثني يعقوب بن إبراهيم حدثنا هشيم أخبرنا حجاج عن عطاء عن ابن عباس أنه قرأ: «ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم في مواسم الحجّ».

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية: لا حرج عليكم في الشراء والبيع قبل الإحرام وبعده، وهكذا روى العوفي عن ابن عباس، وقال وكيع: حدثنا طلحة بن عمرو الحضرمي عن عطاء، عن ابن عباس أنه كان يقرأ: «ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم في مواسم الحج»، وقال عبد الرحمن، عن ابن عيينة، عن عبد الله بن أبي يزيد: وهكذا فسرها مجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة ومنصور بن المعتمر وقتادة وإبراهيم النخعي والربيع بن أنس وغيرهم.

وقال ابن حجرير: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا شبابة بن سوار، حدثنا شعبة عن أبي أميمة، سمعت ابن عمر سئل عن الرجل يحج و معه تجارة، فقرأ ابن عمر (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم) وهذا موقوف، وهو قوي جيد.

وقد روي مرفوعاً، قال أَحْمَد: حَدَّثَنَا أَبْسَاطٌ، حَدَّثَنَا الْحَسْنُ بْنُ عُمَرَ الْفَقِيمِيُّ عَنْ أَبِي أَمَامَةَ التَّيْمِيِّ، قَالَ: قَلْتُ لِابْنِ عُمَرَ: إِنَّ نَكْرِي فَهْلَ لَنَا مِنْ حَجَّ؟ قَالَ: أَلِيْسْ تَطْرُفُونَ بِالْبَيْتِ، وَتَأْتُونَ الْمَعْرُوفَ، وَتَرْمُونَ الْجَمَارَ، وَتَحْلِقُونَ رَؤُوسَكُمْ؟ قَالَ: قَلَّنَا: بَلِي، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَسَأَلَهُ عَنِ الدِّيَنِ سَأَلْتُنِي، فَلَمْ يَجْبِهِ حَتَّى نَزَلَ عَلَيْهِ جَبَرَائِيلُ بِهَذِهِ الْآيَةِ «لَيْسَ عَلَيْكُمْ جَنَاحٌ أَنْ تَبْغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ» فَدَعَاهُ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ «أَتَسْمِ حَجَاجَ».

وقال عبد الرزاق : أخبرنا الثوري عن العلاء بن المسيب ، عن رجل من بنى تميم ، قال : جاء

رجل إلى عبد الله بن عمر ، فقال : يا أبا عبد الرحمن ، إنا نقوم نكري ويزعمون أنه ليس لنا حج ، قال : ألستم تحرمون كا يحرمون ، وتطوفون كما يطوفون ، وترمون كما يرمون ؟ قال : بلى ، قال فأنت حاج ، ثم قال ابن عمر جاء رجل إلى النبي ﷺ فسألة عما سأله عنه ، فنزلت هذه الآية ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبَغُوا فَضْلًا مِّنْ رَبِّكُمْ﴾ ورواه عبد بن حميد في تفسيره عن عبد الرزاق به ، وهكذا روى هذا الحديث أبو حذيفة عن الشورى مرفوعاً ، وهكذا روی من غير هذا الوجه مرفوعاً ، فقال ابن أبي حاتم : حدثنا الحسن بن عرفة ، حدثنا عباد بن العوام عن العلاء بن المسيب عن أبي أمامة التيمي ، قال : قلت لابن عمر : إنا نناس نكري في هذا الوجه إلى مكة ، وإن أناساً يزعمون أنه لا حج لنا ، فهل ترى لنا حجاً ؟ قال : ألستم تحرمون وتطوفون بالبيت وتقضون المناسبك ؟ قال : قلت : بلى ، قال «فأنتم حجاج» ثم قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فسألة عن الذي سأله فلم يدر ما يعود عليه ، أو قال : فلم يرد شيئاً حتى نزلت ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبَغُوا فَضْلًا مِّنْ رَبِّكُمْ﴾ فدعا الرجل فتلها عليه ، وقال «أنت حجاج» وكذا رواه مسعود بن سعد وعبد الواحد بن زياد وشريك القاضي عن العلاء بن المسيب مرفوعاً .

وقال ابن جرير<sup>(١)</sup>: حديثي طليق بن محمد الواسطي، حدثنا أسباط هو ابن محمد، أخبرنا الحسن بن عمرو هو الفقيهي عن أبي أمامة التيمي، قال: قلت لابن عمر: إنا قوم نكري، فهل لنا حج؟ فقال: أليس تطوفون بالبيت، وتأتون المعرف، وترمون الجمار، وتحلقون رؤوسكم؟ قلنا: بلـى، قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فسأله عن الذي سألتني عنه، فلم يدر ما يقول له حتى نزل جبريل عليه السلام بهذه الآية «ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم» إلى آخر الآية، فقال النبي ﷺ «أنتم حجاج» وقال ابن جرير: حدثني أحمد بن إسحاق، حدثنا أبو أحمد، حدثنا غندر عن عبد الرحمن بن المهاجر عن أبي صالح مولى عمرو قال: قلت: يا أمير المؤمنين، كتم تتجرون في الحج؟ قال: وهل كانت معايشهم إلا في الحج؟

وقوله تعالى: «إِذَا أَفْضَلْتُم مِّنْ عِرَافَاتٍ فَادْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْبِرِ الْحَرَامِ» إنما صرف عرفات وإن كان علمًا على مؤنث، لأنه في الأصل جمع كمسلمات ومؤمنات، سمي به بقعة معينة فروعى فيه الأصل فصرفه، اختاره ابن جرير.

وعرفة موضع الوقوف في الحجج، وهي عمدة أفعال الحجج، ولهذا روى الإمام أحمد وأهل السنن بإسناد صحيح عن الثوري عن بكير عن عطاء عن عبد الرحمن بن يعمر الديلي، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحج عرفات - ثلاثة - فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك، وأيام منى ثلاثة، فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه، ومن تأخر فلا إثم عليه» ووقد الوقوف من الزوال يوم عرفة إلى طلوع الفجر الثاني من يوم النحر، لأن النبي ﷺ وقف في حجة

الوداع بعد أن صلى الظهر إلى أن غربت الشمس ، وقال «لتأخذوا عني مناسككم» وقال في هذا الحديث «فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك» وهذا مذهب مالك وأبي حنيفة والشافعي ، رحمهم الله .

وذهب الإمام أحمد إلى أن وقت الوقوف من أول يوم عرفة ، واحتجوا بحديث الشعبي عن عروة بن مضرس بن حارثة بن لام الطائي ، قال: أتيت رسول الله ﷺ بالمزدلفة حين خرج إلى الصلاة فقلت: يا رسول الله، إني جئت من جبل طيء، أكللت راحلتي، وأتعبت نفسي، والله ما تركت من جبل إلا وقفت عليه، فهل لي من حج؟ فقال رسول الله ﷺ: «من شهد صلاتنا هذه، فوقف معنا حتى ندفع وقد وقف بعرفة قبل ذلك ليلاً أو نهاراً، فقد تم حجه وقضى تفته»<sup>(١)</sup> رواه الإمام أحمد وأهل السنن ، وصححه الترمذى .

ثم قيل: إنما سميت عرفات لما رواه عبد الرزاق: أخبرني ابن جريج، قال: قال ابن المسيب: قال علي بن أبي طالب: بعث الله جبريل عليه السلام إلى إبراهيم ﷺ فحج به، حتى إذا أتى عرفة قال: عرفت، وكان قد أتتها مرة قبل ذلك، فلذلك سميت عرفة وقال ابن المبارك عن عبد الملك بن أبي سليمان، عن عطاء، قال: إنما سميت عرفة لأن جبريل كان يري إبراهيم المناسك فيقول: عرفت عرفة، فسميت عرفات، وروي نحوه عن ابن عباس وابن عمر وأبي مجلز، فالله أعلم .

وتسمى عرفات المشعر الحرام ، والمشعر الأقصى ، وإلال على وزن هلال ، ويقال للجبل في وسطها: جبل الرحمة ، قال أبو طالب في قصidته المشهورة: [الطوبل]

**وبالمشعر الأقصى إذا قصدوا له إلال إلى تلك الشراح القوابل**<sup>(٢)</sup>

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا حماد بن الحسن بن عنبسة ، حدثنا أبو عامر عن زمعة هو ابن صالح ، عن سلمة بن وهram ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال: كان أهل الجahلية يقفون بعرفة حتى إذا كانت الشمس على رؤوس الرجال كأنها العمائم على رؤوس الرجال دفعوا ، فآخر رسول الله ﷺ الدفعة من عرفة حتى غربت الشمس رواه ابن مردويه من حديث زمعة بن صالح وزاد: ثم وقف بالمزدلفة وصلى الفجر بغضس ، حتى إذا أسفر كل شيء وكان في الوقت الآخر ، دفع ، وهذا حسن الإسناد .

وقال ابن جريج عن محمد بن قيس عن المسور بن مخرمة ، قال: خطبنا رسول الله ﷺ وهو

(١) رواه أحمد في المستند (ج ٤ ص ١٥) باختلاف في بعض الألفاظ . والتفّت: ما يفعله المحرم في الحج إذا حل ، كقص الشارب والأظفار ونتف الإبط وحلق العانة .

(٢) البيت من قصيدة طويلة لأبي طالب رواها ابن اسحاق في السيرة النبوية — انظر سيرة ابن هشام ٢٧٢ / ١ — ٢٨٠ .

عرفات، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال «أما بعد - وكان إذا خطب خطبة قال: أما بعد - فإن هذا اليوم الحج الأكبر، ألا وإن أهل الشرك والأوثان كانوا يدفعون في هذا اليوم قبل أن تغيب الشمس إذا كانت الشمس في رؤوس الرجال لأنها عمامي الرجال في وجهها، وإننا ندفع بعد أن تغيب الشمس، وإنما يدفعون من المشعر الحرام بعد أن تطلع الشمس إذا كانت الشمس في رؤوس الرجال لأنها عمامي الرجال في وجوهها، وإننا ندفع قبل أن تطلع الشمس مخالفًا هدinya هدي أهل الشرك»، هكذا رواه ابن مردوية، وهذا لفظه، والحاكم في مستدركه، كلامًا من حديث عبد الرحمن بن المبارك العيشي عن عبد الوارث بن سعيد عن ابن جريج، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيفين، ولم يخرجاه، وقد صح وثبت بما ذكرناه سماع المسور من رسول الله ﷺ لا كما يتوهّم بعض أصحابنا أنه من له رؤية بلا سماع.

وقال وكيع، عن شعبة، عن إسماعيل بن رجاء الزبيدي، عن المعاور بن سويد، قال: رأيت عمر رضي الله عنه حين دفع من عرقه لأنني أنظر إليه رجلًا أصلع على بعيه له يوضع<sup>(١)</sup> وهو يقول: إننا وجدنا الإفاضة هي الإيضاع.

وفي حديث جابر بن عبد الله الطويل الذي في صحيح مسلم<sup>(٢)</sup>، قال فيه: فلم يزل واقفًا - يعني بعرفة - حتى غربت الشمس، وبدت<sup>(٣)</sup> الصفرة قليلاً حتى غاب القرص، وأردف أسامة خلفه، ودفع رسول الله ﷺ وقد شنق للقصواد<sup>(٤)</sup> الزمام حتى إن رأسها ليصيب مورك رحله، ويقول بيده اليمنى: «أيها الناس السكينة السكينة» كلما أتى جبلًا من الجبال أرخى لها قليلاً حتى تصعد حتى أتى المزدلفة، فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين، ولم يسع بينهما شيئاً، ثم اضطجع حتى طلع الفجر فصلى الفجر، حتى تبين له الصبح بأذان وإقامة، ثم ركب القصواد حتى أتى المشعر الحرام، فاستقبل القبلة، فدعوا الله وكبره وهلله ووحده، فلم يزل واقفًا حتى أسفى جداً، فدفع قبل أن تطلع الشمس.

وفي الصحيحين عن أسامة بن زيد أنه سئل: كيف كان يسير رسول الله ﷺ حين دفع؟ قال: كان يسير العنق، فإذا وجد فجوة نص. والعنق هو انبساط السير، والنصل فوقه.

وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا أبو محمد ابن بنت الشافعي فيما كتب إليّ عن أبيه أو عمّه، عن سفيان بن عيينة قوله «إذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام» وهي الصلاتان<sup>(٥)</sup> جمیعاً.

(١) أ وضع الراكب الدابة: حملها على السير السريع.

(٢) صحيح مسلم (حج حديث ١٤٧).

(٣) في صحيح مسلم «وذہبت».

(٤) القصواد: هي ناقة النبي.

(٥) في الأصل «الصلاتين».

وقال أبو إسحاق السبيبي، عن عمرو بن ميمون: سألت عبد الله بن عمرو عن المشعر الحرام؟ فسكت حتى إذا هبطت أيدي رواحلنا بالمزدلفة، قال: أين السائل عن المشعر الحرام؟ هذا المشعر الحرام، وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن الزهري، عن سالم، قال: قال ابن عمر: المشعر الحرام المزدلفة كلها. وقال هشيم، عن حجاج، عن نافع، عن ابن عمر: أنه سئل عن قوله **﴿فاذكروا الله عند المشعر الحرام﴾** قال: فقال: هذا الجبل وما حوله. وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن المغيرة، عن إبراهيم، قال: فرآهم ابن عمر يزدحمون على قزح، فقال: على ما يزدح حم هؤلاء؟ كل هنا مشعر. وروي عن ابن عباس وسعيد بن جبير وعكرمة ومجاحد والسدوي والربيع بن أنس والحسن وقتادة أنهم قالوا: هو ما بين الجبلين. وقال ابن جريج: قلت لعطاء: أين المزدلفة؟ قال: إذا أضفت من مأذمي عرفة بذلك إلى محسر، قال: وليس مأذمان عرفة من المزدلفة، ولكن مفاضاهما، قال: فقف بينهما إن شئت، قال: وأحب أن تقف دون قزح هلم إلينا من أجل طريق الناس.

(قلت) والمشاعر هي المعالم الظاهرة، وإنما سميت المزدلفة المشعر الحرام، لأنها داخل الحرم، وهل الوقوف بها ركن في الحج لا يصح إلا به، كما ذهب إليه طائفة من السلف وبعض أصحاب الشافعي منهم القفال وابن خزيمة لحديث عروة بن مضرس؟ أو واجب كما هو أحد قولي الشافعي يجبر بدم؟ أو مستحب لا يجب بتركه شيء كما هو القول الآخر؟ في ذلك ثلاثة أقوال للعلماء لبسطها موضع آخر غير هذا، والله أعلم.

وقال عبد الله بن المبارك، عن سفيان الثوري، عن زيد بن أسلم أن رسول الله ﷺ، قال **«عرفة كلها موقف، وارفعوا عن عرنة، وجمع كلها موقف إلا محسراً»** هذا حديث مرسل.

وقد قال الإمام أحمد<sup>(١)</sup>: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا سعيد بن عبد العزيز حدثني سليمان بن موسى عن جبير بن مطعم، عن النبي ﷺ، قال «كل عرفات موقف، وارفعوا عن عرنة، وكل مزدلفة موقف، وارفعوا عن محسر، وكل فجاج مكة منحر، وكل أيام التشريق ذبح» وهذا أيضاً منقطع، فإن سليمان بن موسى هذا، وهو الأشدق، لم يدرك جبير بن مطعم، ولكن رواه الوليد بن مسلم وسويد بن عبد العزيز، عن سليمان، فقال الوليد، عن جبير بن مطعم عن أبيه، وقال سويد عن نافع بن جبير عن أبيه عن النبي ﷺ ذكره، والله أعلم.

وقوله **﴿واذکروه کما هدّاکم﴾** تنبیه لهم على ما أنعم الله به عليهم من الهدایة والبيان والإرشاد إلى مشاعر الحج على ما كان عليه من الهدایة إبراهيم الخليل عليه السلام، ولهذا قال **﴿إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾** قيل: من قبل هذا الهدى وقبل القرآن وقبل الرسول، والكل متقارب ومترافق صحيح.

(١) مسنـد أـحمد (ج ٤ ص ٨٢).

ثُمَّ أَفِيظُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِذْ أَنْتَ أَلَّا تَعْفُوْ رَحِيمٌ ﴿١٩٩﴾

ثم - هنا - لعطف خبر على خبر وترتيبه عليه، كأنه تعالى أمر الواقف بعرفات أن يدفع إلى المزدلفة ليذكر الله عند المشعر الحرام، وأمره أن يكون وقوفه مع جمهور الناس بعرفات، كما كان جمهور الناس يصنعون، يقفون بها إلا قريشاً فإنهم لم يكونوا يخرجون من الحرم فيقفون في طرف الحرم عند أدنى الحل، ويقولون: نحن أهل الله في بلدته وقطان بيته.

قال البخاري: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا محمد بن حازم، حدثنا هشام، عن أبيه، عن عائشة، قالت: كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة، وكانوا يسمون الحمس، وسائر العرب يقفون بعرفات، فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه ﷺ أن يأتي عرفات ثم يقف بها ثم يفيض منها، فذلك قوله ﴿مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ وكذا قال ابن عباس ومجاهد وعطاء وقتادة والسدوي وغيرهم، واختاره ابن جرير وحكى عليه الإجماع.

وقال الإمام أحمد<sup>(١)</sup>: حدثنا سفيان عن عمرو عن محمد بن جبیر بن مطعم عن أبيه، قال: أصللت بغيراً لي بعرفة فذهبت أطلبه، فإذا النبي ﷺ واقف، قلت: إن هذا من الحمس ما شأنه هنا؟ آخر جاه في الصحيحين، ثم رواه البخاري من حديث موسى بن عقبة، عن كريب، عن ابن عباس ما يقتضي أن المراد بالإفاضة هنا هي الإفاضة من المزدلفة إلى منى لرمي الجمار، فالله أعلم، وحکاه ابن جریر عن الضحاك بن مزاحم فقط. قال: والمراد بالناس إبراهيم عليه السلام، وفي رواية عنه: الإمام، قال ابن جریر: ولو لا إجماع الحجة على خلافه لكان هو الأرجح.

وقوله ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ كثيراً ما يأمر الله بذلك بعد قضاء العبادات، ولهذا ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ، كان إذا فرغ من الصلاة يستغفر الله ثلاثاً، وفي الصحيحين أنه ندب إلى التسبیح والتحمید والتکبیر ثلاثة وثلاثين. وقد روى ابن جریر<sup>(٢)</sup> هنا حديث العباس بن مرداس السلمي، في استغفاره ﷺ لأمته عشية عرفة، وقد أوردناه في جزء جمعناه في فضل يوم عرفة، وأورد ابن مردویه هنا الحديث الذي رواه البخاري عن شداد بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: «سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربى، لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بعمتك عليّ، وأبوء بذنبي، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، من قالها في ليلة فمات في ليلته دخل الجنة، ومن قالها في يومه فمات دخل الجنة»، وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمرو أن أبا بكر قال: يا رسول الله، علمتني دعاء أدعوه به في صلاتي، فقال «قل اللهم إني ظلمت نفسي

(١) المسند (ج ٤، ص ٨٠).

(٢) تفسير الطبری ٣٠٦ / ٢.

ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم» والأحاديث في الاستغفار كثيرة.

فَإِذَا قَصَبْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَادْعُوا اللَّهَ كَذِكْرُكُمْ أَبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فِيمِنْ  
النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا إِنَّا فِي الدِّينِ كَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ  
رَبَّنَا إِنَّا فِي الدِّينِ كَا حَسَنَةٌ وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقَاتَ عَذَابَ النَّارِ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا  
كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾

يأمر تعالى بذلك والإكثار منه بعد قضاء المناسب وفراغها، قوله «كذكركم آباءكم» اختلعوا في معناه، فقال ابن جريج عن عطاء: هو كقول الصبي أبهأمه، يعني كما يلهم الصبي بذلك أبيه وأمه، فكذلك أنتم فالهجووا بذلك الله بعد قضاء النسك، وكذا قال الضحاك والربيع بن أنس، وروى ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس نحوه، وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس: كان أهل الجاهلية يقفون في الموسم فيقول الرجل منهم: كان أبي يطعم ويحمل الحمالات<sup>(١)</sup>، ويحمل الديات، ليس لهم ذكر غير فعال آبائهم، فأنزل الله على محمد ﷺ «فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرآ».

قال ابن أبي حاتم: وروى السدي، عن أنس بن مالك وأبي وائل وعطاء بن أبي رباح في أحد قوله وسعيد بن جبير وعكرمة في أحد رواياته، ومجاهد والسدي وعطاء الخراساني والربيع بن أنس والحسن وقتادة ومحمد بن كعب ومقاتل بن حيان نحو ذلك، وهكذا حكا ابن جرير عن جماعة والله أعلم، والمقصود منه الحث على كثرة الذكر لله عز وجل، ولهذا كان انتصار قوله، «أو أشد ذكراً» على التمييز، تقديره: كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً، وأو - ه هنا - لتحقيق المماثلة في الخبر كقوله «فهي كالحجارة أو أشد قسوة» [البقرة: ٧٤] قوله «يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية» [النساء: ٧٧] « فأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون» [الصفات: ١٤٧] «فكان قاب قوسين أو أدنى» [النجم: ٩] فليست هنا للشك قطعاً، وإنما هي لتحقيق المخبر عنه كذلك أو أزيد منه.

ثم إنه تعالى أرشد إلى دعائه بعد كثرة ذكره فإنه مظنة الإجابة، ودم من لا يسأله إلا في أمر دنياه وهو معرض عن أخراه، فقال «فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وماله في الآخرة من خلق» أي من نصيب ولا حظ، وتضمن هذا الذم والتغفير عن التشبه بمن هو كذلك، قال سعيد بن جبير، عن ابن عباس: كان قوم من الأعراب يجيئون إلى الموقف فيقولون: اللهم اجعله عام غيث، وعام خصب، وعام ولاد حسن، لا يذكرون من أمر الآخرة شيئاً، فأنزل الله

(١) الحمالة: الدية أو الغرامة يحملها قوم عن قوم، أو إنسان عن غيره.

فيهم ﴿فمن الناس من يقول ربنا أتنا في الدنيا وماله في الآخرة من خلاق﴾ وكان يجيء بعدهم آخرون من المؤمنين فيقولون ﴿ربنا أتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار﴾ فأنزل الله ﴿أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب﴾ ولهذا مدح من يسأله الدنيا والآخرى، فقال: ﴿ومنهم من يقول ربنا أتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار﴾ فجمعت هذه الدعوة كل خير في الدنيا وصرفت كل شر، فإن الحسنة في الدنيا تشمل كل مطلوب دنيوي من عافية، ودار رحمة، وزوجة حسنة، ورزق واسع، وعلم نافع، وعمل صالح، ومركب هنئ، وثناء جميل إلى غير ذلك مما اشتملت عليه عبارات المفسرين، ولا منافاة بينها، فإنها كلها متدرجة في الحسنة في الدنيا، وأما الحسنة في الآخرة، فأعلى ذلك دخول الجنة وتوابعه من الأمان من الفزع الأكبر في العرصات، وتسهيل الحساب وغير ذلك من أمور الآخرة الصالحة، وأما النجاة من النار فهو يقتضي تسهيل أسبابه في الدنيا من اجتناب المحارم والآثام وترك الشبهات والحرام.

وقال القاسم بن عبد الرحمن: «من أعطي قلباً شاكراً، ولساناً ذاكراً، وجسداً صابراً، فقد أُوتى في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، ووقي عذاب النار».

ولهذا وردت السنة بالترغيب في هذا الدعاء، فقال البخاري<sup>(١)</sup>: حدثنا أبو معمر، حدثنا عبد الوارث عن عبد العزيز، عن أنس بن مالك، قال: كان النبي ﷺ يقول: «اللهم ربنا أتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار» وقال أحمد<sup>(٢)</sup>: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثنا عبد العزيز بن صحيب، قال: سأله قتادة أنساً: أي دعوة كان أكثر ما يدعوها النبي ﷺ؟ قال: يقول «اللهم ربنا أتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار» وكان أنس إذا أراد أن يدعو بدعا بها، وإذا أراد أن يدعوا بدعاء دعا بها. ورواه مسلم<sup>(٣)</sup>، وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو نعيم، حدثنا عبد السلام بن شداد يعني أبي طالوت، قال: كنت عند أنس بن مالك، فقال له ثابت: إن إخوانك يحبون أن تدعوا لهم، فقال: «اللهم أتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار» وتحديثها ساعة، حتى إذا أرادوا القيام قال: يا أبي حمزة، إن إخوانك يريدون القيام، فادع الله لهم، فقال: أتريدون أن أشقق لكم الأمور إذا آتاكم الله في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، ووقاكم عذاب النار، فقد آتاكم الخير كله، وقال أحمد<sup>(٤)</sup> أيضاً: حدثنا محمد بن أبي عدي عن حميد عن ثابت، عن أنس: أن رسول الله ﷺ عاد رجلاً من المسلمين قد صار مثل الفرج، فقال له رسول الله ﷺ «هل كنت تدعوا الله بشيء أو

(١) صحيح البخاري (دعوات باب ٥٥).

(٢) المسند (ج ٣ ص ١٠١).

(٣) صحيح مسلم (ذكر حديث ٢٣ و ٢٦).

(٤) المسند (ج ٣ ص ١٠٧).

تسأله إيه؟ قال: نعم، كنت أقول اللهم ما كنت معاقب بي به في الآخرة فعجله لي في الدنيا، فقال رسول الله ﷺ: سبحان الله لا تطيقه ولا تستطيعه، فهلا قلت «ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار» قال: فدعاه فشفاء، انفرد بإخراجه مسلم، فرواه من حديث ابن أبي عدي به.

وقال الإمام الشافعي: أخبرنا سعيد بن سالم القداح عن ابن جريج، عن يحيى بن عبيد مولى السائب، عن أبيه، عن عبد الله بن السائب: أنه سمع النبي ﷺ يقول فيما بين الركن اليماني والركن الأسود: «ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار» ورواه الثوري عن ابن جريج كذلك. وروي ابن ماجه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ نحو ذلك، وفي سنته ضعف، والله أعلم. وقال ابن مردويه: حدثنا عبد الباقى، أخبرنا أحمد بن القاسم بن مساور، حدثنا سعيد بن سليمان عن إبراهيم بن سليمان عن عبد الله بن هرمز، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ «ما مررت على الركن إلا رأيت عليه ملكاً يقول أمين، فإذا مررت عليه فقولوا «ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار»» وقال الحاكم في مستدركه: حدثنا أبو زكريا العنبري، حدثنا محمد بن عبد السلام، حدثنا إسحاق بن إبراهيم، أخبرنا جرير عن الأعمش، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير، قال: جاء رجل إلى ابن عباس فقال: إني أجرت نفسي من قوم على أن يحملوني، ووضعت لهم من أجرتي على أن يدعوني أحج معهم، أفيجزي ذلك؟ فقال: أنت من الذين قال الله: «أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب» ثم قال الحاكم: صحيح على شرط الشيفيين، ولم يخرجاه.

﴿وَأَذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَأَتَقْوَا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُخْسَرُونَ﴾

قال ابن عباس: الأيام المعدودات أيام التشريق، والأيام المعلومات أيام العشر، وقال عكرمة «واذكروا الله في أيام معدودات» يعني التكبير في أيام التشريق بعد الصلوات المكتوبات الله أكبر الله أكبر. وقال الإمام أحمد<sup>(١)</sup>: حدثنا وكيع، حدثنا موسى بن علي عن أبيه، قال: سمعت عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «يوم عرفة، ويوم النحر، وأيام التشريق، عيدنا أهل الإسلام، وهي أيام أكل وشرب»، وقال أحمد<sup>(٢)</sup> أيضاً: حدثنا هشيم، أخبرنا خالد، عن أبي الملبح، عن نبيثة الهذلي قال: قال رسول الله ﷺ: «أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله» ورواه مسلم أيضاً، وتقدم حديث جبير بن مطعم «عرفة كلها موقف، وأيام التشريق كلها ذبح» وتقدم أيضاً حديث عبد الرحمن بن يعمر الديلي «وأيام مني ثلاثة فمن تعجل في يومين فلا إثم

(١) مسنـدـ أـحمدـ (جـ ٤ـ صـ ١٥٣ـ).

(٢) مسنـدـ أـحمدـ (جـ ٥ـ صـ ٧٥ـ).

عليه ومن تأخر فلا إثم عليه».

وقال ابن جرير<sup>(١)</sup>: حدثنا يعقوب بن إبراهيم وخلاد بن أسلم قالا: حدثنا هشيم عن عمرو بن أبي سلمة، عن أبيه، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أيام التشريق أيام طعم وذكر الله» وحدثنا خلاد بن أسلم، حدثنا روح، حدثنا صالح، حدثني ابن شهاب عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ بعث عبد الله بن حداقة يطوف في متى: «لا تصوموا هذه الأيام فإنها أيام أكل وشرب وذكر الله عز وجل» وحدثنا يعقوب حدثنا هشيم عن سفيان بن حسين عن الزهري قال: بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن حداقة فنادي في أيام التشريق فقال «إن هذه أيام أكل وشرب وذكر الله إلا من كان عليه صوم من هدي» زيادة حسنة ولكن مرسلة، وبه قال هشيم عن عبد الملك بن أبي سليمان، عن عمرو بن دينار أن رسول الله ﷺ بعث بشر بن سحيم فنادي في أيام التشريق فقال: «إن هذه أيام أكل وشرب وذكر الله» وقال هشيم عن ابن أبي ليلى، عن عطاء، عن عائشة قالت: نهى رسول الله ﷺ عن صوم أيام التشريق، قال: «وهي أيام أكل وشرب وذكر الله» وقال محمد بن إسحاق عن حكيم بن حكيم، عن مسعود بن الحكم الزرقى، عن أمه قالت: لكأني أنظر إلى علي على بغلة رسول الله ﷺ البيضاء حتى وقف على شعب الأنصار وهو يقول: يا أيها الناس، إنها ليست بأيام صيام، إنما هي أيام أكل وشرب وذكر الله، وقال مقسم عن ابن عباس: الأيام المعدودات أيام التشريق أربعة أيام: يوم النحر، وثلاثة بعده، وروي عن ابن عمر وابن الزبير وأبي موسى وعطاء ومجاحد وعكرمة وسعيد بن جبير وأبي مالك وإبراهيم النخعي ويحيى بن أبي كثير والحسن وقتادة والسدي والزهري والربيع بن أنس والضحاك ومقاتل بن حيان وعطاء الخراصاني ومالك بن أنس وغيرهم مثل ذلك. وقال علي بن أبي طالب: هي ثلاثة: يوم النحر ويومان بعده اذبح في أيهين شئت، وأفضلها أولها، والقول الأول هو المشهور، وعليه دلّ ظاهر الآية الكريمة حيث قال «فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه» فدل على ثلاثة بعد النحر.

ويتعلق بقوله «واذكروا الله في أيام معدودات» ذكر الله على الأضاحي وقد تقدم، وأن الراجح في ذلك مذهب الشافعى رحمه الله وهو أن وقت الأضحية من يوم النحر إلى آخر التشريق ويتعلق به أيضاً الذكر المؤقت خلف الصلوات، والمطلق فيسائر الأحوال وفي وقته أقوال للعلماء أشهرها الذي عليه العمل أنه من صلاة الصبح يوم عرفة إلى صلاة العصر من آخر أيام التشريق، وهو آخر النفر الآخر، وقد جاء فيه حديث رواه الدارقطنى لكن لا يصح مرفوعاً، والله أعلم. وقد ثبت أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يكبر في قبته فيكبر أهل السوق بتكبيره حتى ترتفع منه تكبيراً ويتعلق بذلك أيضاً التكبير وذكر الله عند رمي الجمرات كل يوم من أيام التشريق وقد جاء في الحديث الذي رواه أبو داود وغيره: إنما جعل الطواف بالبيت والسعى بين

الصفا والمروءة ورمي الجمار لإقامة ذكر الله عز وجل . ولما ذكر الله تعالى النفر الأول<sup>(١)</sup> والثاني وهو تفرق الناس من موسم الحج إلىسائر الأقاليم والأفاق بعد اجتماعهم في المشاعر والموقف ، قال ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تَحْشَرُونَ﴾ كما قال ﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَ أَكْمَنَ فِي الْأَرْضِ إِلَيْهِ تَحْشَرُونَ﴾ [المؤمنون : ٧٩].

وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعِجِّبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشَهِّدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَبِيلَةِ، وَهُوَ أَذَلُّ الْخَصَائِصِ  
تَوْكِيدًا سَعْيَ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهَلِّكَ الْحَرَثَ وَالشَّلْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ  
أَتَقَ اللَّهُ أَخْدَهُ الْعَزَّةُ يَا لِإِلَيْهِ فَحَسِبُهُمْ جَهَنَّمُ وَلَكِنَّ أَمْبَاهَا دَرَّةٌ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي  
أَبْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَوَدَهُ بِالْعَبَادَةِ  
أَبْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَوَدَهُ بِالْعَبَادَةِ

قال السدي : نزلت في الأئنس بن شريق الثقيفي ، جاء إلى رسول الله ﷺ ، وأظهر الإسلام وفي باطنه خلاف ذلك ، وعن ابن عباس ، أنها نزلت في نفر من المنافقين تكلموا في خبيب وأصحابه الذين قتلوا بالرجيع وعابوهم ، فأنزل الله في ذم المنافقين ومدح خبيب وأصحابه ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ أَبْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ وقيل : بل ذلك عام في المنافقين كلهم وفي المؤمنين كلهم ، وهذا قول قتادة ومجاهد والربيع بن أنس وغير واحد ، وهو الصحيح .

وقال ابن جرير<sup>(٢)</sup> : حدثني يونس ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرني الليث بن سعد عن خالد بن أبي هلال ، عن القرظي ، عن نوف وهو البكري وكان ممن يقرأ الكتب ، قال : إنني لأجد صفة ناس من هذه الأمة في كتاب الله المترى : قوم يحتالون على الدنيا بالدين ، أستتهم أحلى من العسل ، وقلوبهم أمر من الصبر ، يلبسون للناس [لباس]<sup>(٣)</sup> مسوک الضأن ، وقلوبهم قلوب الذئاب ، يقول الله تعالى : فعلىٰ يجترئون وبي يتغرون ، حلفت بنفسي لأبعن عليهم فتنة ترك الحليم فيها حيران ، قال القرظي : تدبرتها في القرآن فإذا هم المنافقون فوجدتها<sup>(٤)</sup> ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبك الآية<sup>(٤)</sup> .

وحدثني<sup>(٢)</sup> محمد بن أبي معشر : أخبرني أبو معشر نجيح ، قال : سمعت سعيداً المقبري يذكر محمد بن كعب القرظي ، فقال سعيد : إن في بعض الكتب : إن عباداً أستتهم أحلى من العسل ، وقلوبهم أمر من الصبر ، لبسوا للناس مسوک الضأن من اللين ، يجترون الدنيا بالدين ، قال الله تعالى ، عليٰ يجترئون وبي يتغرون ؟ وعزتي لأبعن عليهم فتنة ترك الحليم منهم حيران ،

(١) النفر الأول هو اليوم الثاني من أيام التشريق ، والنفر الثاني أو الآخر هو اليوم الثالث .

(٢) تفسير الطبرى / ٢ ٣٢٥ .

(٣) زيادة من الطبرى . والمسوک : جمع مسك ، وهو الجلد .

(٤) في رواية الطبرى زيادة هنا ، وهي : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حِرْفٍ فَإِنَّ أَصَابَهُ خَيْرٌ أَطْمَانَ بَهِ﴾

فقال محمد بن كعب هذا في كتاب الله، فقال سعيد: وأين هو من كتاب الله؟ قال: قول الله **﴿وَمِنْ أَنْاسٍ مَنْ يَعْجِبُكَ قَوْلَهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾** الآية، فقال سعيد: قد عرفت فمن أنزلت هذه الآية؟ فقال محمد بن كعب، إن الآية تنزل في الرجل ثم تكون عامّة بعد. وهذا الذي قاله القرظي، حسن صحيح.

وأما قوله **﴿وَيَشَهِدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾** فقرأه ابن محيصن **﴿وَيَشَهِدُ اللَّهُ﴾** بفتح الياء وضم الجلاة **﴿عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾** ومعناها أن هذا وإن أظهر لكم الحيل لكن الله يعلم من قلبه القبيح قوله تعالى: **﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشَهِدُ إِنَّكَ لِرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لِرَسُولِهِ وَاللَّهُ يَشَهِدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾** [المنافقون: ١] وقراءة الجمهور بضم الياء ونصب الجلاة، **﴿يَشَهِدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ﴾** ومعناه أنه يظهر للناس الإسلام ويبارز الله بما في قلبه من الكفر والنفاق كقوله تعالى: **﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يُسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ﴾** [النساء: ١٠٨]، هذا معنى ما رواه ابن إسحاق عن محمد بن أبي محمد، عن عكرمة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، وقيل: معناه أنه إذا ظهر للناس الإسلام حلف وأشهد الله لهم أن الذي في قلبه موافق للسانه، وهذا المعنى صحيح، وقاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، واختاره ابن جرير وعزاه إلى ابن عباس وحكاه عن مجاهد، والله أعلم.

وقوله **﴿وَهُوَ أَلَدُ الْخُصَامِ﴾** الألد في اللغة الأعوج **﴿وَتَنْذِرُ بِهِ قَوْمًا لَدَائِ﴾** [مريم: ٩٧] أي عوجاً، وهكذا المنافق في حال خصومته، يكذب ويزور عن الحق ولا يستقيم معه، بل يفترى ويفجر، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال **﴿آيَةُ الْمُنَافِقِ تِلْاثَةٌ: إِذَا حَدَثَ كَذِبٌ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرٌ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرٌ﴾**. وقال البخاري: حدثنا قبيصة، حدثنا سفيان عن ابن جريج، عن ابن مليكة عن عائشة ترفعه، قال **«إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللَّهِ أَلَدُ الْخُصَامِ»** قال: وقال عبد الله بن يزيد: حدثنا سفيان، حدثنا ابن جريج عن ابن مليكة عن عائشة عن النبي ﷺ، قال **«إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللَّهِ أَلَدُ الْخُصَامِ»** وهكذا رواه عبد الرزاق عن معاذ في قوله **﴿وَهُوَ أَلَدُ الْخُصَامِ﴾** عن ابن جريج، عن ابن أبي مليكة، عن عائشة عن النبي ﷺ، قال **«إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللَّهِ أَلَدُ الْخُصَامِ»**.

وقوله **﴿وَإِذَا تُولِيَ سَعْيَ فِي الْأَرْضِ لِيَفْسِدَ فِيهَا وَيَهْلِكَ الْحَرَثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُ لَا يَحْبُبُ الْفَسَادَ﴾** أي هو أعوج المقال سيء الفعال، فذلك قوله وهذا فعله، كلامه كذب، واعتقاده فاسد، وأفعاله قبيحة، والسعى - ههنا - هوقصد، كما قال إخباراً عن فرعون **﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعِي فَحَسِرَ فَنَادَى** فقال أنا ربكم الأعلى فأخذه الله نكال الآخرة والأولى، إن في ذلك لعبرة لمن يخشى **﴿[النَّازَعَاتِ: ٢٢ - ٢٦] وَقَالَ تَعَالَى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجَمْعَةِ فَاسْعُوا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾** [الجمعة: ٩] أي اقصدوا واعمدوا ناوين بذلك صلاة الجمعة، فإن السعي الحسي إلى الصلاة منهي عنه بالسنة النبوية **«إِذَا أَتَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَلَا تَأْتُوهَا وَأَنْتُمْ تَسْعُونَ، وَأَتُوهَا وَعَلَيْكُمْ**

السکینة والوقار» فهذا المنافق ليس له همة إلا الفساد في الأرض وإهلاك الحرث، وهو محل نماء الزروع والثمار والنسل، وهو نتاج الحيوانات اللذين لا قوام للناس إلا بهما وقال مجاهد: إذا سعي في الأرض إفساداً، منع الله القطر فهلك الحرث والنسل «والله لا يحب الفساد» أي لا يحب من هذه صفتة، ولا من يصدر منه ذلك.

وقوله «إِذَا قُيلَ لَهُ أَتْقَنَ اللَّهَ أَخْذَتْهُ الْعَزَّةُ بِالْأَئْمَةِ» أي إذا وعظ هذا الفاجر في مقاله وفعاله، ويقول له اتق الله وانزع عن قولك وفعلك وارجع إلى الحق، امتنع وأبى وأخذته الحمية والغضب بالآثم، أي بسبب ما اشتمل عليه من الآثام، وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: «إِذَا تَنَاهَى عَنْهُمْ آيَاتُنَا بِيَنَاتٍ تَعْرَفُ فِي وِجْهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرُ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتَلوُنُ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا، قُلْ أَفَبَنَّيْكُمْ بَشَرٌ مِّنْ ذَلِكُمُ النَّارِ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِوَيْسِ الْمَصِيرِ» [الحج: ٧٢] ولهذا قال في هذه الآية «فَحَسِبَهُ جَهَنَّمُ وَلَبَئِسَ الْمَهَادُ» أي هي كافية عقوبة في ذلك.

وقوله «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُشَرِّي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ» لما أخبر عن المنافقين بصفاتهم الذميمة، ذكر صفات المؤمنين الحميدة فقال «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُشَرِّي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ» قال ابن عباس وأنس وسعيد بن المسيب وأبو عثمان النهدي وعكرمة وجماعة: نزلت في صهيب بن سنان الرومي وذلك أنه لما أسلم بمكة وأراد الهجرة، منعه الناس أن يهاجر بمالي، وإن أحب أن يتجرد منه ويهاجر فعل، فتخلص منهم وأعطاهم ماله، فأنزل الله فيه هذه الآية، فتلقاء عمر بن الخطاب وجماعة إلى طرف الحرة وقلوا له: رب البيع فقال: وأنت فلا أخسر الله تجارتك وما ذاك؟ فأخبره أن الله أنزل فيه هذه الآية، ويروي أن رسول الله ﷺ قال له «رب البيع صهيب» قال ابن مردويه: حدثنا محمد بن إبراهيم، حدثنا محمد بن عبد الله بن رستة، حدثنا سليمان بن داود، حدثنا جعفر بن سليمان الضبي، حدثنا عوف عن أبي عثمان النهدي عن صهيب، قال: لما أردت الهجرة من مكة إلى النبي ﷺ قالت لي قريش يا صهيب قدمنا إلينا، ولا مال لك وتخرج أنت ومالك والله لا يكون ذلك أبداً، فقلت لهم: أرأيتم إن دفعت إليكم مالي تخلون عنني؟ قالوا: نعم، فدافعت إليهم مالي، فخلوا عنني، فخرجت حتى قدمت المدينة، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال «رب صهيب رب صهيب» مرتين، وقال حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب، قال: أقبل صهيب مهاجراً نحو النبي ﷺ فاتبعه نفر من قريش، فنزل عن راحلته وانتشر<sup>(١)</sup> ما في كنانته، ثم قال: يا معاشر قريش قد علمتني أنني من أرماككم رجالاً، وأنت والله لا تصلون إلي حتى أرمي بكل سهم في كنانتي، ثم أضرب بسيفي ما تبقى في يدي منه شيء، ثم افعلوا ما شئتم وإن شئتم دللكم على مالي وقنيتي بمكة وخليتكم سبيلاً، قالوا: نعم، فلما قدم على النبي ﷺ قال «رب البيع» قال: ونزلت «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُشَرِّي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَوْفٌ بِالْعِبَادِ» وأما الأكثرون فحملوا ذلك على أنها نزلت في كل مجاهد في

(١) استخرج ما فيها من السهام.

سبيل الله كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يَقْاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَيُقْتَلُونَ وَيُقْتَلُونَ، وَعِدَّاً عَلَيْهِ حَقًا فِي التُّورَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ، وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبِشُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَيَّنْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبه: ١١١] ولما حمل هشام بن عامر بين الصفين أنكر عليه بعض الناس، فرد عليهم عمر بن الخطاب وأبو هريرة وغيرهما، وتلوا هذه الآية ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُشَرِّي نَفْسَهُ أَبْغَاءَ مَرْضَاةَ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعَبادِ﴾.

**يَتَأْلِمُهَا الَّذِينَ أَمْسَنُوا أَدْخُلُوهُ فِي الْسَّلَمِ كَافَةً وَلَا تَسْتَعِيْعُوا حُطُّرَاتَ الشَّيْطَانِ إِنَّمَا لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ** ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ مَنْ بَعْدَ مَا جَاءَ تَكُونُمُ الْأَبْيَنَتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

يقول الله تعالى آمراً عباده المؤمنين به المصدقين برسوله أن يأخذوا بجميع عرى الإسلام وشرائعه، والعمل بجميع أوامره، وترك جميع زواجه، ما استطاعوا من ذلك، قال العوفي، عن ابن عباس ومجاهد وطاوس والضحاك وعكرمة وقتادة والسدي وابن زيد في قوله ﴿ادخلوا في السلم﴾ يعني الإسلام. وقال الضحاك، عن ابن عباس وأبو العالية والربيع بن أنس ﴿ادخلوا في السلم﴾ يعني الطاعة. وقال قتادة أيضاً المودعة. وقوله ﴿كافة﴾ قال ابن عباس ومجاهد وأبو العالية وعكرمة والربيع بن أنس والسدي ومقاتل بن حيان وقتادة والضحاك جميعاً، وقال مجاهد: أي اعملوا بجميع الأعمال ووجوه البر.

وزعم عكرمة أنها نزلت في نفر من المسلمين من اليهود وغيرهم كعبد الله بن سلام وأسد بن عبيد وثعلبة وطائفة استأذنوا رسول الله ﷺ في أن يسبتوا وأن يقوموا بالتوراة ليلاً، فأمرهم الله بإقامة شعائر الإسلام والاستغلال بها عما عداها، وفي ذكر عبد الله بن سلام مع هؤلاء نظر، إذ يبعد أن يستأذن في إقامة السبت وهو مع تمام إيمانه يتحقق نسخه ورفعه وبطلانه والتعويض عنه بأعياد الإسلام.

ومن المفسرين من يجعل قوله ﴿كافة﴾ حالاً من الداخلين أي ادخلوا في الإسلام كلكم وال الصحيح الأول وهو أنهم أمروا كلهم أن يعملوا بجميع شعب الإيمان وشائع الإسلام وهي كثيرة جداً ما استطاعوا منها، كما قال ابن أبي حاتم: أخبرنا علي بن الحسين، أخبرنا أحمد بن الصباح، أخبرني الهيثم بن يمان، حدثنا إسماعيل بن زكريا، حدثني محمد بن عون عن عكرمة عن ابن عباس ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَدْخُلُوهُ فِي الْسَّلَمِ كَافَةً﴾ كذا قرأها بالنصب، يعني مؤمني أهل الكتاب، فإنهم كانوا مع الإيمان بالله مستمسكين ببعض أمور التوراة والشريعة التي أنزلت فيهم، فقال الله ﴿أَدْخُلُوهُ فِي الْسَّلَمِ كَافَةً﴾ يقول: ادخلوا في شرائع دين محمد ﷺ ولا تدعوا منها شيئاً وحسبكم الإيمان بالتوراة وما فيها.

وقوله ﴿وَلَا تَتَبَعُوا حَطَّوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ أي اعملوا بالطاعات واجتبوا ما يأمركم به الشيطان ف ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٩]، و ﴿إِنَّمَا

يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب **السعير** ﴿فاطر : ٦﴾ ولهذا قال ﴿إنه لكم عدو مبين﴾ قال مطرف: أغش عباد الله لعبد الله الشيطان، وقوله: ﴿فَإِنْ زَلَّتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ أي عدلتم عن الحق بعد ما قامت عليكم الحجج، فاعلموا أن الله عزيز أي في انتقامه لا يفوته هارب ولا يغله غالب حكيم في أحکامه ونقضه وإبرامه، ولهذا قال أبو العالية وقتادة والربيع بن أنس: عزيز في نعمته حكيم في أمره. وقال محمد بن إسحاق: العزيز في نصره من كفر به إذا شاء الحكيم في عذرها وحجه إلى عباده.

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيهِمُ اللَّهُ فِي ظُلْلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تَرْجَعُ الْأُمُورُ

يقول تعالى مهدداً للكافرين بمحمد صلوات الله وسلامه عليه ﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة﴾ يعني يوم القيمة لفصل القضاء بين الأولين والآخرين، فيجزي كل عامل بعمله إن خيراً فخير، وإن شرًا فشر، ولهذا قال تعالى: ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تَرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ كما قال الله تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا دَكَّتِ الْأَرْضُ دَكًا دَكًا \* وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًا صَفًا \* وَجَيْءَ بِيَوْمِئِ بِجَهَنَّمِ يَوْمَئِ يَذَكِّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنِّي لَهُ الذَّكْرِ﴾ [الفجر: ٢١ - ٢٣] وقال ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِي رَبُّكُمْ أَوْ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكُمْ﴾ [الأనعام: ١٥٨]. وقد ذكر الإمام أبو جعفر بن جرير<sup>(١)</sup> - هنا - حديث الصور بطوله من أوله عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ، وهو حديث مشهور ساقه غير واحد من أصحاب المسانيد وغيرهم، وفيه: أن الناس إذا اهتموا لموقفهم في العرصات تشفعوا إلى ربهم بالأنبياء واحداً واحداً من آدم فمن بعده فكلهم يحيد عنها حتى ينتهوا إلى محمد ﷺ، فإذا جاؤوا إليه قال «أنا لها أنا لها» فيذهب فيسجد لله تحت العرش، ويشفع عنده الله في أن يأتي بفصل القضاء بين العباد فيشفعه الله ويأتي في ظلل من الغمام بعد ما تنشق السماء الدنيا وينزل من فيها من الملائكة، ثم الثانية، ثم الثالثة، إلى السابعة، وينزل حملة العرش وال Krobyoon<sup>(٢)</sup>، قال: وينزل العبار عز وجل في ظلل من الغمام والملائكة، ولهم زجل من تسفيحهم يقولون: سبحان ذي الملك والملائكة، سبحان ذي العزة والجبروت، سبحان الحي الذي لا يموت، سبحان الذي يحيي الخالق ولا يموت، سبحان رب الملائكة والروح، سبحان قدوس قدوس ربنا الأعلى، سبحان ذي السلطان والعظمة، سبحانه سبحانه أبداً أبداً.

وقد أورد الحافظ أبو بكر بن مردويه - هنا - أحاديث فيها غرابة، والله أعلم. فمنها ما رواه من حديث المنهاج بن عمرو عن أبي عبيدة بن عبد الله بن ميسرة، عن مسروق، عن ابن مسعود،

(١) تفسير الطبرى / ٣٤٣ / ٢.

(٢) الكروبيون: سادة الملائكة المقربون.

عن النبي ﷺ، قال «يجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم قياماً شاخصة أبصارهم إلى السماء يتنتظرون فصل القضاء، وينزل الله في ظلل من الغمام من العرش إلى الكرسي» وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا أبو بكر بن مقدم، حدثنا معتمر بن سليمان، سمعت عبد الجليل القيسبي يحدث عن عبد الله بن عمرو «هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام» الآية. قال: يهبط حين يهبط وبين خلقه سبعون ألف حجاب، منها التور والظلمة والماء فيصوت الماء في تلك الظلمة صوتاً تنخلع له القلوب. قال: وحدثنا أبي، حدثنا محمد بن الوزير الدمشقي، حدثنا الوليد. قال: سالت زهير بن محمد عن قول الله «هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام» قال: ظلل من الغمام منظوم من الياقوت، مكمل بالجوهر والزبرجد. وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد في ظلل من الغمام، قال: هو غير السحاب ولم يكن قط إلا لبني إسرائيل في تيههم حين تاهوا، وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبي العالية «هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة» يقول: والملائكة يجيئون في ظلل من الغمام، والله تعالى يجيء فيما يشاء، وهي في بعض القراءات «هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله والملائكة في ظلل من الغمام» وهي كقوله «وَيَوْمَ تُشَقِّقُ السَّمَاوَاتُ بِالْغَمَامِ وَنَزَلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا» [الفرقان: ٢٥].

**سَلَّمَ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ مَا تَيَّنَهُمْ مِنْ أَيَّامَهُمْ بَيْنَهُ وَمَنْ يُبَدِّلُ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** **لِلَّذِينَ زَرَّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَسَخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ آتَقُوا فَوْقَهُمْ يَوْمُ الْقِيَمةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ**

يقول تعالى مخبراً عن بني إسرائيل: كم شاهدوا مع موسى من آية بينة أي حجة قاطعة بصدقه فيما جاءهم به، كيده وعصاه وفلقه البحر وضرب الحجر، وما كان من تظليل الغمام عليهم في شدة الحر، ومن إنزال المن والسلوى، وغير ذلك من الآيات الدلالات على وجود الفاعل المختار، وصدق من جرت هذه الخوارق على يديه، ومع هذا أعرض كثير منهم عنها ويدلوا نعمة الله كفراً، أي استبدلوا بالإيمان بها الكفر بها والإعراض عنها «وَمَنْ يُبَدِّلُ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ» كما قال تعالى إخباراً عن كفار قريش «أَلَمْ تَرِ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحْلَوْا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ \* جَهَنَّمَ يَصْلُوْنَهَا وَبَئْسَ الْقَرَارِ» [إبراهيم: ٢٨ - ٢٩] ثم أخبر تعالى عن تزيينه الحياة الدنيا للكافرين الذين رضوا بها، واطمأنوا إليها وجمعوا الأموال ومنعوها عن مصارفها التي أمروا بها، مما يرضي الله عنهم وسخروا من الذين آمنوا، الذين أعرضوا عنها، وأنفقوا ما حصل لهم منها في طاعة ربهم، وبدلوه ابتغاء وجه الله، فلهذا فازوا بالمقام الأسعد والحظ الأوفر يوم معادهم، فكانوا فوق أولئك في محشرهم ونشرهم ومسيرهم وما واهم، فاستقرروا في الدرجات في أعلى عליين، وخلد أولئك في الدركات في أسفل سافلين،

ولهذا قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي يزرق من يشاء من خلقه ويعطيه عطاء كثيراً جزيلاً بلا حصر ولا تعداد في الدنيا والآخرة، كما جاء في الحديث «ابن آدم أنفق أثنا عشر عليك» وقال النبي ﷺ: «أنفق بلال ولا تخش من ذي العرش إقلالاً» وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتَ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُه﴾ [سبأ: ٣٩] وفي الصحيح «أن ملكين ينزلان من السماء صبيحة كل يوم فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً» وفي الصحيح «يقول ابن آدم: مالي مالي. وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، وما لبست فأبليت، وما تصدقت فأمضيت، وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس» وفي مسنـد الإمام أحمد عن النبي ﷺ أنه قال «الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له»<sup>(١)</sup>.

كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَجَدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيًّا مُّبَشِّرًا وَمُنذِرًا وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحُكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا أَخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَعْيَانًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ يَأْذِنُهُ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ

قال ابن جرير<sup>(٢)</sup>: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا أبو داود، أخبرنا همام عن قتادة عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: كان بين نوح وأدم عشرة قرون، كلهم على شريعة من الحق، فاختلقوها، فبعث الله النبـيين مبشرـين ومنذـرين، قال: وكذلك هي في قراءة عبد الله «كان الناس أمة واحدة فاختلـقوها». ورواه الحاـكم في مستدرـكه من حديث بنـدار عن محمد بن بشـار ثم قال: صحيح الإـسنـاد، ولم يخرـجـاهـ، وكـذا روـيـ أبوـ جـعـفرـ الـراـزـيـ عنـ أبيـ الـعـالـيـةـ عنـ أبيـ بنـ كـعبـ أـنـهـ كانـ يـقـرـؤـهـاـ «ـكـانـ النـاسـ أـمـةـ وـاحـدـةـ فـاخـتـلـقـوـهـاـ فـبـعـثـ اللـهـ النـبـيـنـ مـبـشـرـينـ وـمـنـذـرـينـ»ـ وـقـالـ عبدـ الرـزاـقـ أـخـبـرـنـاـ مـعـمـرـ عـنـ قـتـادـةـ فـقـوـلـهـ «ـكـانـ النـاسـ أـمـةـ وـاحـدـةـ»ـ قـالـ:ـ كـانـواـ عـلـىـ الـهـدـىـ جـمـيـعـاـ «ـفـاخـتـلـقـوـهـاـ فـبـعـثـ اللـهـ النـبـيـنـ مـبـشـرـينـ وـمـنـذـرـينـ»ـ وـقـالـ العـوـفـيـ عـنـ ابنـ عـبـاسـ «ـكـانـ النـاسـ أـمـةـ وـاحـدـةـ»ـ يـقـوـلـ:ـ كـانـواـ كـفـارـاـ «ـفـبـعـثـ اللـهـ النـبـيـنـ مـبـشـرـينـ وـمـنـذـرـينـ»ـ وـالـقـوـلـ الـأـوـلـ عـنـ ابنـ عـبـاسـ أـصـحـ سـنـدـاـ وـمـعـنـىـ،ـ لـأـنـ النـاسـ كـانـواـ عـلـىـ مـلـةـ آـدـمـ حـتـىـ عـبـدـواـ الـأـصـنـامـ،ـ فـبـعـثـ اللـهـ إـلـيـهـ نـوـحـاـ عـلـيـهـ السـلـامـ،ـ فـكـانـ أـوـلـ رـسـوـلـ بـعـثـهـ اللـهـ إـلـىـ أـهـلـ الـأـرـضـ.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحُكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَعْيَانًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ يَأْذِنُهُ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ﴾.

(١) آخرـهـ أـحـمـدـ فـيـ مـسـنـدـهـ (ـجـ ٦ـ صـ ٧١ـ)ـ مـنـ حـدـيـثـ عـائـشـةـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـاـ،ـ وـلـيـسـ فـيـ عـبـارـةـ «ـوـمـالـ مـنـ لـاـ مـالـ لـهـ»ـ.

(٢) تـفـسـيرـ الطـبـرـيـ ٣٤٧ـ /ـ ٢ـ

وقال عبد الرزاق : حدثنا معمر عن سليمان الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة في قوله : « فَهُدِيَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ » الآية ، قال : قال النبي ﷺ : « نحن الآخرون الأولون يوم القيمة ، نحن أول الناس دخولاً الجنة ، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم ، فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ، فهذا اليوم الذي اختلفوا فيه فهدانا الله له ، فالناس لنا فيه تبع فغداً لليهود وبعد غد للنصارى » ثم رواه عبد الرزاق عن معمر ، عن ابن طاوس ، عن أبيه ، عن أبي هريرة .

وقال ابن وهب ، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، عن أبيه في قوله « فَهُدِيَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ » فاختلفوا في يوم الجمعة ، فاتخذ اليهود يوم السبت ، والنصارى يوم الأحد ، فهذا الله أمة محمد ﷺ ليوم الجمعة واختلفوا في القبلة فاستقبلت النصارى المشرق واليهود بيت المقدس فهذا الله أمة محمد للقبلة واختلفوا في الصلاة ، فمنهم من يركع ولا يسجد ، ومنهم من يسجد ولا يركع ، ومنهم من يصلي وهو يتكلم ، ومنهم من يصلي وهو يمشي ، فهذا الله أمة محمد للحق من ذلك ، واختلفوا في الصيام ، فمنهم من يصوم بعض النهار ، ومنهم من يصوم عن بعض الطعام ، فهذا الله أمة محمد للحق من ذلك . واختلفوا في إبراهيم عليه السلام ، فقالت اليهود : كان يهودياً ، وقالت : النصارى كان نصراوياً ، وجعله الله حنيفاً مسلماً ، فهذا الله أمة محمد للحق من ذلك . واختلفوا في عيسى عليه السلام ، فكذبت به اليهود وقالوا لأمه بهتاناً عظيماً ، وجعلته النصارى إليهاً ولدًا ، وجعله الله روحه وكلمته ، فهذا الله أمة محمد ﷺ للحق من ذلك .

وقال الربيع بن أنس في قوله « فَهُدِيَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ » أي عند الاختلاف أنهم كانوا على ما جاءت به الرسل قبل الاختلاف ، فأقاموا على الإخلاص لله عز وجل وحده ، وعبادته لا شريك له ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، فأقاموا على الأمر الأول الذي كان قبل الاختلاف واعتزلوا الاختلاف وكانوا شهداء على الناس يوم القيمة شهداء على قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم شعيب وآل فرعون ، أن رسلهم قد بلغوهم ، وأنهم قد كذبوا رسالهم . وفي قراءة أبي بن كعب : « وَلَيَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ ». وكان أبو العالية يقول في هذه الآية : المخرج من الشبهات والضلالات والفتن .

وقوله « بِإِذْنِهِ » أي بعلمه بهم وبما هدأهم له ، قاله ابن جرير « وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » أي من خلقه « إِلَى صِرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ » أي وله الحكمة والحججة البالغة ، وفي صحيح البخاري ومسلم عن عائشة : أن رسول الله ﷺ ، كان إذا قام من الليل يصلي يقول : « اللَّهُمَّ رَبِّ جَبَرِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ ، فاطِّرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عَبْدَكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ، اهْدِنِي لِمَا اخْتَلَفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ ، إِنَّكَ تَهْدِي مِنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ » وفي

الدعاء المأثور: «اللهم أرنا الحق حقاً، وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلًا، وارزقنا اجتنابه، ولا تجعله ملتبساً علينا فضل، واجعلنا للمتقين إماماً».

أَمْ حِسِّبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثْلُ الَّذِينَ خَلُوا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهِمُ الْبَأْسَاءَ وَالضَّرَاءَ وَزُلْزَلُوا  
حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصَرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصَرَ اللَّهُ قَرِيبٌ [١٣]

يقول تعالى: «أَمْ حِسِّبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ» قبل أن تدخلوا وتخبروا وتمتحنوا كما فعل بالذين من قبلكم من الأمم، ولهذا قال «ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء» وهي الأمراض والأستقام والألام والمصائب والتواب. قال ابن مسعود وابن عباس وأبو العالية ومجاحد وسعيد بن جبير ومرة الهمданى والحسن وقتادة والضحاك والربيع والسدى ومقاتل بن حيان «البأساء» الفقر «والضراء» السقم «وزلزلوا» خوفاً من الأعداء زلزالاً شديداً، وامتحنوا امتحاناً عظيماً، كما جاء في الحديث الصحيح عن خباب بن الأرت، قال: قلنا: يا رسول الله، ألا تستنصر لنا، ألا تدعوا الله لنا؟ فقال: «إن من كان قبلكم كان أحدهم يوضع المنشار على مفرق رأسه فيخلص إلى قدميه لا يصرفه ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما بين لحمه وعظمه، لا يصرفه ذلك عن دينه» ثم قال «والله ليتمكن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمته، ولكنكم قوم تستعجلون».

وقال الله تعالى: «آلم. أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمون الله الذين صدقوا وليعلمون الكاذبين» [العنكبوت: ١ - ٣] وقد حصل من هذا جانب عظيم للصحابية رضي الله تعالى عنهم في يوم الأحزاب، كما قال الله تعالى: «إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب العجاجر وتظنون باللهطنونا \* هنالك ابتي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً \* وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً» [الأحزاب: ١٠ - ١٢]. ولما سأله هرقل أبا سفيان هل قاتلتكموه؟ قال: نعم. قال فكيف كانت الحرب بينكم؟ قال سجالاً، يدال علينا وندال عليه. قال: كذلك الرسل تتلى ثم تكون لها العاقبة.

وقوله «مثلكم الذين خلوا من قبلكم» أي سنتهم كما قال تعالى: «فَأَهْلَكْنَا أَشَدُّهُمْ بَطْشًا وَمُضِيَّ مثلكم الأولين» [الزخرف: ٨] وقوله «وزلزلوا حتى يقول الرسل والذين آمنوا معه متى نصر الله» أي يستفتحون على أعدائهم ويدعون بقرب الفرج والمخرج عند ضيق الحال والشدة، قال الله تعالى: «ألا إن نصر الله قريب» كما قال «فإإن مع العسر يسراً إن مع العسر يسراً» [الشرح: ٥ - ٦] وكما تكون الشدة يتزل من النصر مثلها، ولهذا قال «ألا إن نصر الله قريب» وفي حديث أبي رزين «عجب ربك من قنوط عباده وقرب غيشه، فينظر إليهم قطرين، فيظل

يضحك يعلم أن فرجهم قريب» الحديث.

يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّهِ الْدِينُ وَالْأَقْرَبُينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَآتَيْنَاكُمْ سَكِينَ  
وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾

قال مقاتل بن حيان : هذه الآية في نفقة التطوع . وقال السدي : نسختها الزكاة ، وفيه نظر ، ومعنى الآية : يسألونك كيف ينفقون ؟ قاله ابن عباس ومجاحد فيبن لهم تعالى ذلك ، فقال « قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل » أي اصرفوها في هذه الوجه . كما جاء الحديث « أمك وأباك وأختك وأخاك ثم أدناك أدناك » وتلا ميمون بن مهران هذه الآية ، ثم قال : هذه مواضع النفقة ما ذكر فيها طبلاً ولا مزماراً ولا تصاویر الخشب ولا كسوة الحيطان . ثم قال تعالى : « وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم » أي مهما صدر منكم من فعل معروف ، فإن الله يعلمه وسيجزيكم على ذلك أوفى الجزاء ، فإنه لا يظلم أحداً مثقال ذرة .

كُتِبَ عَلَيْكُمْ أَقْتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرُهُوا شَيْئاً  
وَهُوَ شَرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾

هذا إيجاب من الله تعالى للجهاد على المسلمين أن يكفوا شر الأعداء عن حوزة الإسلام ، وقال الزهري : الجهاد واجب على كل أحد غزا أو قعد ، فالقاعد عليه إذا استعين أن يعين ، وإذا استغث أن يغيث ، وإذا استفر ان ينفر ، وإن لم يحتاج إليه قعد .

(قلت) ولهذا ثبت في الصحيح « من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو ، مات ميتة جاهلية » وقال عليه السلام يوم الفتح : « لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية ، وإذا استنفرتم فانفروا » .

وقوله « وهو كره لكم » أي شديد عليكم ومشقة وهو كذلك ، فإنه إما أن يقتل أو يجرح مع مشقة السفر ومجالدة الأعداء . ثم قال تعالى : « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم » أي لأن القتال يعقبه النصر والظفر على الأعداء والاستيلاء على بلادهم وأموالهم وذرارتهم وأولادهم . « وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم » وهذا عام في الأمور كلها قد يحب المرء شيئاً وليس له فيه خيرة ولا مصلحة ، ومن ذلك القعود عن القتال قد يعقبه استيلاء العدو على البلاد والحكم . ثم قال تعالى : « والله يعلم وأنتم لا تعلمون » أي هو أعلم بعواقب الأمور منكم ، وأخبر بما فيه صلاحكم في دنياكم وأخراكم ، فاستجيبوا له وانقادوا لأمره ، لعلكم ترشدون .

يَسْأَلُونَكَ عَنِ التَّمَرِيرِ الْحَرَامِ قِتَالٌ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَنْ سَيِّلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدُ  
الْحَرَامُ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَرَالُونَ يُفَيَّلُونَ كُمْ حَتَّى يَرُدُوكُمْ عَنْ

دِيْنَكُمْ إِنْ أَسْتَطْعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِيْنِهِ فَيَمْتَأْلِكَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَاطَّ  
أَعْمَلَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَلِيلُوكَ [١٧] إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا  
وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهُهُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ [١٨]

قال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا محمد بن أبي بكر المقدمي ، حدثنا المعتمر بن سليمان عن أبيه ، حدثني الحضرمي عن أبي السوار ، عن جندب بن عبد الله ، أن رسول الله ﷺ بعث رهطاً ، وبعث عليهم أبو عبيدة بن الجراح ، فلما ذهب ينطلق بكى صباة إلى رسول الله ﷺ فحبسه فبعث عليهم مكانه عبد الله بن جحش ، وكتب له كتاباً وأمره أن لا يقرأ الكتاب حتى يبلغ مكان كذا وكذا ، وقال « لا تكرهن أحداً على السير معك من أصحابك » فلما قرأ الكتاب استرجع ، وقال : سمعاً وطاعة لله ولرسوله ، فخبرهم الخبر وقرأ عليهم الكتاب ، فرجع رجال ويقي بقيتهم ، فلقوا ابن الحضرمي فقتلوه ، ولم يدرروا أن ذلك اليوم من رجب أو من جمادى ، فقال المشركون لل المسلمين : قتلتم في الشهر الحرام ، فأنزل الله ﷺ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قتال فيه كبير ﴿ الآية .

وقال السدي <sup>(١)</sup> عن أبي مالك وعن أبي صالح ، عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود <sup>(٢)</sup> يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قتال فيه كبير ﴿ الآية ، وذلك أن رسول الله ﷺ بعث سرية ، وكانوا سبعة نفر عليهم عبد الله بن جحش الأستدي ، وفيهم عمار بن ياسر وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وسعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوan السلمي حليف لبني نوفل ، وسهيل بن بيضاء وعامر بن فهيرة وواقد بن عبد الله اليربوعي حليف لعمر بن الخطاب ، وكتب لابن جحش كتاباً وأمره أن لا يقرأه حتى يتزل بطن ملل فلما نزل بطن ملل فتح الكتاب فإذا فيه «أن سر حتى تنزل بطن نخلة» فقال لأصحابه : من كان يريد الموت فليمض وليوص ، فإني موصل وماض لأمر رسول الله ﷺ ، فسار ، فتختلف عنه سعد بن أبي وقاص وعتبة ، أصلاً راحلة لهم فتخلقاً <sup>(٣)</sup> يطلبانها ، وسار ابن جحش إلى بطن نخلة ، فإذا هو بالحكم بن كيسان والمغيرة بن عثمان [و عمرو بن الحضرمي] <sup>(٤)</sup> وعبد الله بن المغيرة ، وانفلت [المغيرة] <sup>(٥)</sup> وقتل عمرو ، قتله واقد ابن عبد الله ، فكانت أول غنية غنمها أصحاب رسول الله ﷺ ، فلما رجعوا إلى المدينة بأسيرين وما أصابوا من المال ، أراد أهل مكة أن يفادوا الأسيرين عليه [فقال النبي ﷺ : حتى تنظر ما فعل أصحابنا ، فلما رجع سعد وصاحبه فادي بالأسيرين ، ففجر عليه المشركون] <sup>(٦)</sup> . وقالوا : إن محمداً يزعم أنه يتبع طاعة الله وهو أول من استحل الشهير الحرام وقتل أصحابنا في رجب ، فقال

(١) رواه الطبرى في تفسيره ٣٦١ / ٢.

(٢) في الطبرى : «فأتيا بحران يطلبانها».

(٣) الزيادة بين معقوفين من الطبرى .

ال المسلمين : إنما قتلناه في جمادى ، وقيل : في أول ليلة من رجب وآخر ليلة من جمادى ، وغمد المسلمين سيفهم حين دخل شهر رجب ، وأنزل الله يعير أهل مكة ﴿يُسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قتال فيه كثير﴾ لا يحل وما صنعتم أنتم يا عشر المشركين أكبر من القتل في الشهر الحرام حين كفرتم بالله وصدتم عن محمد ﷺ وأصحابه ، وإخراج أهل المسجد الحرام منه حين أخرجوا محمداً ﷺ وأصحابه أكبر من القتل عند الله .

وقال العوفي عن ابن عباس ﴿يُسألونك عن الشهر الحرام قتال ، فيه قتال فيه كثير﴾ وذلك أن المشركين صدوا رسول الله ﷺ وردوه عن المسجد في شهر حرام ، قال : ففتح الله على نبيه في شهر حرام من العام المقبل ، فعاد المشركون على رسول الله ﷺ القتال في شهر حرام ، فقال الله ﴿وَصَدَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفَرَ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجِ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ من القتال فيه ، وأن محمداً ﷺ بعث سرية ، فلقو عمرو بن الحضرمي وهو مقبل من الطائف في آخر ليلة من جمادى وأول ليلة من رجب وأن أصحاب محمد ﷺ ، كانوا يظنون أن تلك الليلة من جمادى وكانت أول رجب ، ولم يشعروا ، فقتله رجال منهم وأخذوا ما كان معه ، وإن المشركين أرسلوا يعironه بذلك ، فقال الله تعالى : ﴿يُسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قتال فيه كثير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه﴾ إخراج أهل المسجد الحرام أكبر من الذي أصاب أصحاب محمد ﷺ ، والشرك أشد منه ، وهكذا روى أبو سعيد البقال عن عكرمة ، عن ابن عباس ، أنها نزلت في سرية عبد الله بن جحش وقتل عمرو بن الحضرمي .

وقال محمد بن إسحاق : حدثني محمد بن السائب الكلبي عن أبي صالح ، عن ابن عباس ، وقال : نزل فيما كان من مصاب عمرو بن الحضرمي ﴿يُسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه﴾ إلى آخر الآية .

وقال عبد الملك بن هشام راوي السيرة<sup>(١)</sup> ، عن زياد بن عبد الله البكائي ، عن محمد بن إسحاق بن يسار المدني رحمه الله ، في كتاب السيرة له ، أنه قال : وبعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش بن رباب الأسدية في رجب ، مقله من بدر الأولى ، وبعث معه ثمانية رهط من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحد ، وكتب له كتاباً وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين ، ثم ينظر فيه فيمضي كما أمره به ، ولا يستكره من أصحابه أحداً ، وكان أصحاب عبد الله بن جحش من المهاجرين ، ثم منبني عبد شمس بن عبد مناف : أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف ، ومن حلفائهم : عبد الله بن جحش ، وهو أمير القوم ، وعكاشه بن محصن بن حرثان أحد بنيني أسد بن خزيمة حليف لهم ، ومنبني نوفل بن عبد مناف عتبة بن غزوان بن جابر حليف لهم ومنبني زهرة بن كلاب سعد بن أبي وقاص ومنبني

عدي بن كعب بن عامر بن ربيعة، حليف لهم من عتبر بن وائل، وواقد بن عبد الله بن عبد مناف بن عرير بن ثعلبة بن يربوع، أحد بنى تميم حليف لهم، وخالد بن الكبير أحد بنى سعد بن ليث حليف لهم، ومن بنى الحارث بن فهر: سهيل بن بيضاء، فلما سار عبد الله بن جحش يومين، فتح الكتاب فنظر فإذا فيه: إذا نظرت في كتابي هذا، فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم، فلما نظر عبد الله بن جحش الكتاب، قال: سمعاً وطاعة، ثم قال لأصحابه: قد أمرني رسول الله ﷺ، أن امضي إلى نخلة أرصد بها قريشاً حتى آتيتهم بخبر، وقد نهاني أن أستكره أحداً منكم، فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق، ومن كره ذلك فليرجع، فأما أنا فماض لأمر رسول الله ﷺ، فمضى معه أصحابه لم يختلف عنهم أحد، فسلك على الحجاز حتى إذا كان بمعدن فوق الفرع يقال له بُحران، أصل سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بعيراً لهما كانا يعتبانه فتختلفوا عليه في طلبه، ومضى عبد الله بن جحش وبقية أصحابه حتى نزل نخلة، فمررت به غير لقريش تحمل زبيباً وأداماً وتجارة من تجارة قريش، فيها عمرو بن الحضرمي، واسم الحضرمي عبد الله بن عباد أحد الصدف وعثمان بن عبد الله بن المغيرة وأخوه نوفل بن عبد الله المخزوميان والحكم بن كيسان مولى هشام بن المغيرة، فلما رأاهم القوم هابوهم، وقد نزلوا قريباً منهم، فأشرف لهم عكاشه بن محسن، وكان قد حلق رأسه، فلما رأوه أمنوا وقالوا: عُمار لا بأس عليكم منهم، وتشاور القوم فيهم، وذلك في آخر يوم من رجب، فقال القوم: والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن الحرم، فليمتنعن منكم به، ولئن قتلتكم لقتلهم في الشهر الحرام، فتردد القوم وهابوا الإقدام عليهم، ثم شجعوا أنفسهم عليهم، وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم وأخذ ما معهم، فرمى واقد بن عبد الله التميمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله، واستأسر عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان، وأفلت القوم نوفل بن عبد الله فأعجزهم، وأقبل عبد الله بن جحش وأصحابه بالغير والأسرى حتى قدموا على رسول الله ﷺ بالمدينة، قال ابن إسحاق: وقد ذكر بعض آل عبد الله بن جحش أن عبد الله قال لأصحابه: إن رسول الله ﷺ مما غنمنا الخمس، وذلك قبل أن يفرض الله الخمس من المغانم، فعزل لرسول الله ﷺ خمس العير، وقسم سائرها بين أصحابه، قال ابن إسحاق: فلما قدموا على رسول الله ﷺ، قال: «ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام» فوقف العير والأسرى، وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً، فلما قال ذلك رسول الله ﷺ، سقط في أيدي القوم، وظنوا أنهم قد هلكوا، وعففهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا، وقالت قريش: قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام، وسفكوا فيه الدم، وأخذوا فيه الأموال، وأسرروا فيه الرجال؛ فقال من يرد عليهم من المسلمين من كان بمكة إنما أصابوا ما أصابوا في شعبان وقالت اليهود: تفأئ بذلك على رسول الله ﷺ: عمرو بن الحضرمي قتله واقد بن عبد الله، عمرو عمّرت الحرب، والحضرمي حضرت الحرب، وواقد بن عبد الله وقدت

الحرب ، فجعل الله عليهم ذلك لا لهم ، فلما أكثر الناس في ذلك أنزل الله على رسول الله ﷺ: «يُسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قتل فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل» أي إن كنتم قاتلتم في الشهر الحرام ، فقد صدوك عن سبيل الله مع الكفر به ، وعن المسجد الحرام وإخراجكم منه وأنتم أهله «أكبر» عند الله من قاتل من قاتلتهم منهم «والفتنة أكبر من القتل» أي قد كانوا يفتنون المسلم في دينه حتى يردوه إلى الكفر بعد إيمانه ، فذلك أكبر عند الله من القتل «ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم عن استطاعوا» أي ثم هم مقاومون على أختبئ ذلك وأعظمهم ، غير تائبين ولا نازعين ، قال ابن إسحاق : فلما نزل القرآن بهذا من الأمر وفرج الله عن المسلمين ما كانوا فيه من الشفق<sup>(١)</sup> ، قبض رسول الله ﷺ والله وسلم العير والأسيرين ، وبعثت إليه قريش في فداء عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان ، فقال رسول الله ﷺ: «لا تغدوكم مما حتى يقدم أصحابنا» يعني سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان ، فإننا نخشىكم عليهما ، فإن تقتلوا هما نقتل أصحابكم ، فقدم سعد وعتبة ، فدعاهما رسول الله ﷺ منهم ، فأما الحكم بن كيسان فأسلم وحسن إسلامه ، وأقام عند رسول الله ﷺ حتى قتل يوم بئر معونة شهيداً ، وأما عثمان بن عبد الله فلتحق بمكة فمات بها كافراً ، قال ابن إسحاق : فلما تجلى عن عبد الله بن جحش وأصحابه ما كان حين نزل القرآن طمعوا في الأجر فقالوا : يا رسول الله ، أنطعم ان تكون لنا زوجة نعطي فيها أجر المجاهدين ؟ فأنزل الله عز وجل : «إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم» فوضعهم الله من ذلك على أعظم الرجاء ، قال ابن إسحاق ، والحديث في هذا عن الزهرى ويزيد بن رومان ، عن عروة .

وقد روى يونس بن بكير ، عن محمد بن إسحاق ، عن يزيد بن رومان ، عن عروة بن الزبير قريباً من هذا السياق ، وروى موسى بن عقبة ، عن الزهرى نفسه نحو ذلك ، وروى شعيب بن أبي حمزة عن الزهرى عن عروة بن الزبير نحواً من هذا أيضاً ، وفيه : فكان ابن الحضرمي أول قاتل قاتل بين المسلمين والمشركين ، فركب وفد من كفار قريش حتى قدموا على رسول الله ﷺ بالمدينة ، فقالوا : أیحل القتال في الشهر الحرام ؟ فأنزل الله ﷺ «يُسألونك عن الشهر الحرام» الآية ، وقد استقصى ذلك الحافظ أبو بكر البيهقي في كتاب دلائل النبوة .

ثم قال ابن هشام ، عن زياد ، عن ابن إسحاق : وقد ذكر عن بعض آل عبد الله أن عبد الله قسم الغيء بين أهله ، فجعل أربعة أحمراته لمن أفاءه ، وخمساً على الله ورسوله ، فوقع على ما كان عبد الله بن جحش صنع في تلك العير ، قال ابن هشام : وهي أول غنيمة غنمها المسلمين ، وعمرو بن الحضرمي أول من قاتل المسلمين ، وعثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان أول من أسر المسلمين ، قال ابن إسحاق : فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه في غزوة عبد الله بن

جحش ، ويقال : بل عبد الله بن حجش قالها حين قالت قريش : قد أحل محمد وأصحابه الشهر الحرام فسفكوا فيه الدم وأخذوا فيه المال وأسرموا فيه الرجال ، قال ابن هشام : هي لعبد الله بن حجش : [الطوبل]

وأعظم منه لو يرى الرُّشَدَ راشدُ  
وكفر به والله راء وشاهدُ  
لثلا يرى الله في البيت ساجدُ  
وأرجف بالإسلام باغ وحاسدُ  
بنخلة لما أوقدَ الحرب واقتُدُ  
ينازعه غُلَّ من القَدَ عائِدُ<sup>(١)</sup>

تعدون قتلاً في الحرام عظيمة  
صددكم عما يقول محمد  
وإحراجكم من مسجد الله أهلَه  
فإنما وإن غيرتمونا بقتله  
سقينا من ابن الحضرمي رماحنا  
دمًا وابن عبد الله عثمان بيننا

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلْتَّائِسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْمَغْنُونُ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَتِ لَعَلَّكُمْ تَنَفَّكُرُونَ<sup>(٢)</sup> فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَمَّيِّدِ قُلْ إِصْلَاحُهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِنَّهُمْ فَارِغُونَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتُكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ<sup>(٣)</sup>

قال الإمام أحمد<sup>(٤)</sup> : حدثنا خلف بن الوليد ، حدثنا إسرائيل عن أبي ميسرة ، عن عمر أنه قال : لما أنزل تحرير الخمر ، قال : اللهم بين لنا في الخمر بيانًا شافيًا ، فنزلت هذه الآية التي في البقرة **يَسْأَلُونَكَ عن الخمر والميسير قل فيهما إثم كبير** **فدعني عمر** ، فقرئت عليه فقال . اللهم بين لنا في الخمر بيانًا شافيًا ، فنزلت الآية التي في النساء **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرِبُوا الصَّلَاةَ وَأَتْمِمُوهُمْ** **فكان منادي رسول الله ﷺ إذا أقام الصلاة نادى** : أن لا يقربن الصلاة سكران ، **فدعني عمر** ، فقرئت عليه فقال : اللهم بين لنا في الخمر بيانًا شافيًا ، فنزلت الآية التي في المائدة ، **فدعني عمر** ، فقرئت عليه فلما بلغ **فهل أنت منتهون ؟** **قال عمر** : انتهينا انتهينا .

هكذا رواه أبو داود والترمذى والنمسائى من طرق عن إسرائيل عن أبي إسحاق ، وكذا رواه ابن أبي حاتم وابن مردويه من طريق الثورى عن أبي إسحاق ، عن أبي ميسرة واسميه عمرو بن شربيل الهمданى الكوفى ، عن عمر وليس له عنه سواه ، لكن قد قال أبو زرعة : لم يسمع منه ، والله أعلم . وقال علي بن المدينى : هذا إسناد صالح صحيح ، وصححه الترمذى ، وزاد ابن أبي حاتم بعد قوله انتهينا ، إنها تذهب المال وتذهب العقل ، وسيأتي هذا الحديث أيضًا مع ما رواه أحمد من طريق أبي هريرة أيضًا عند قوله في سورة المائدة **إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ**

(١) الأبيات في سيرة ابن هشام ٦٠٥ / ١ .

(٢) مستند أحمد (ج ١ ص ٥٣) .

والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون» [المائدة: ٩٠]، قوله ﴿يَسْأَلُونَكُمْ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ أَمَا الْخَمْرُ، فَكَمَا قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّهُ كُلُّ مَا خَاطَرَ الْعُقْلَ، كَمَا سَيَّأَتِي بِيَانَهُ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ، وَكَذَا الْمَيْسِرُ وَهُوَ الْقَمَارُ.

وقوله ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ أَمَا إِثْمَهُمَا فَهُوَ فِي الدِّينِ، وَأَمَا الْمَنَافِعُ فَدُنْيَوِيَّةٌ مِنْ حِلْفَةٍ إِنْ فِيهَا نَفْعٌ لِلْبَدْنِ وَتَهْضِيمِ الطَّعَامِ وَإِخْرَاجِ الْفَضَّلَاتِ وَتَشْحِيدِ بَعْضِ الْأَذْهَانِ وَلَذْنَةِ الشَّدَّةِ الْمَطْرِبَةِ الَّتِي فِيهَا، كَمَا قَالَ حَسَنُ بْنُ ثَابَتَ فِي جَاهْلِيَّتِهِ: [الوافر]

وَنَشَرِيهَا فَتَرَكْنَا مَلْوَكًا  
وَأَسْدًا لَا يَنْهَنَنَا اللَّقَاءُ<sup>(١)</sup>

وَكَذَا بِيَعْهَا وَالْأَنْتَاعَ بِشَمْنَاهَا، وَمَا كَانَ يَقْمِشُهُمْ (٢) بَعْضُهُمْ مِنْ الْمَيْسِرِ فَيَنْفَقُهُ عَلَى نَفْسِهِ أَوْ عِيَالِهِ، وَلَكِنْ هَذِهِ الْمَصَالِحُ لَا تَوَازِي مَضَرَّتَهُ وَمَفْسَدَتَهُ الرَّاجِحةُ، لَتَعْلَقُهَا بِالْعُقْلِ وَالْدِينِ، وَلَهُذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: «وَإِثْمَهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعَهُمَا»، وَلَهُذَا كَانَتْ هَذِهِ الْآيَةُ مَمْهُدَةً لِتَحْرِيمِ الْخَمْرِ عَلَى الْبَيْتَاتِ، وَلَمْ تَكُنْ مَصْرَحَةً بِلِمَعْرِضَةٍ، وَلَهُذَا قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِمَا قَرَئَتْ عَلَيْهِ: اللَّهُمَّ بَنِنَا فِي الْخَمْرِ بِيَانًا شَافِيًّا، حَتَّى نَزَلَ التَّصْرِيفُ بِتَحْرِيمِهَا فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجْسٌ مِنْ وَعْدِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعْلَكُمْ تَفْلِحُونَ﴾ إِنَّمَا يَرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يَوْقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدْوَةِ وَالْبَغْضَاءِ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصْدُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهُلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ» [المائدة: ٩١ - ٩٠] وَيَأْتِي الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى وَبِهِ الثَّقَةُ، قَالَ ابْنُ عُمَرَ وَالشَّعْبِيُّ وَمُجَاهِدُ وَقَتَادَةُ وَالرَّبِيعُ بْنُ أَنْسٍ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدٍ بْنُ أَسْلَمَ: إِنَّ هَذِهِ أَوَّلَ آيَةٍ نَزَلَتْ فِي الْخَمْرِ ﴿يَسْأَلُونَكُمْ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾، ثُمَّ نَزَلَتْ الْآيَةُ الَّتِي فِي سُورَةِ النِّسَاءِ، ثُمَّ نَزَلَتْ الْآيَةُ الَّتِي فِي الْمَائِدَةِ فَحَرَّمَتِ الْخَمْرَ.

قوله ﴿وَيَسْأَلُونَكُمْ مَاذَا يَنْفَقُونَ قُلْ الْعَفْوُ﴾ قُرِئَ بِالنَّصْبِ وَبِالرَّفْعِ وَكَلَاهُما حَسْنٌ مَتْجَهٌ قَرِيبٌ. قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتَّمَ: حَدَثَنَا أَبِي، حَدَثَنَا مُوسَى بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَثَنَا أَبَانُ، حَدَثَنَا يَحْيَى، أَنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّ مَعَاذَ بْنَ جَبَلَ وَثَعْلَبَةَ أَتَيَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ لَنَا أَرْقَاءٍ وَأَهْلِيْنَ مِنْ أَمْوَالِنَا فَأَنْزَلْنَا اللَّهُ ﴿وَيَسْأَلُونَكُمْ مَاذَا يَنْفَقُونَ﴾ وَقَالَ الْحَكْمُ عَنْ مَقْسُمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿وَيَسْأَلُونَكُمْ مَاذَا يَنْفَقُونَ قُلْ الْعَفْوُ﴾ قَالَ: مَا يَفْضُلُ عَنْ أَهْلِكَ، كَذَا رُوِيَ عَنْ ابْنِ عُمَرَ وَمُجَاهِدٍ وَعَطَاءٍ وَعَكْرَمَةٍ وَسَعِيدٍ بْنَ جَبَرٍ وَمُحَمَّدٍ بْنَ كَعْبٍ وَالْحَسْنِ وَقَتَادَةَ وَالْقَاسِمِ وَسَالِمَ وَعَطَاءَ الْخَرَاسَانِيَّ وَالرَّبِيعَ بْنَ أَنْسٍ وَغَيْرَ وَاحِدٍ، أَنَّهُمْ قَالُوا فِي قُرْآنِ الْعَفْوِ يَعْنِي الْفَضْلِ، وَعَنْ طَاوِسٍ: الْمَيْسِرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ. وَعَنْ الرَّبِيعِ أَيْضًا: أَفْضَلُ مَالِكٍ وَأَطْبَيهِ وَالْكُلُّ يَرْجِعُ إِلَى الْفَضْلِ. وَقَالَ عَبْدُ بْنَ حَمِيدٍ فِي تَفْسِيرِهِ: حَدَثَنَا هُوَذَةُ بْنُ خَلِيفَةَ، عَنْ عَوْفٍ، عَنْ الْحَسْنِ، فِي الْآيَةِ ﴿يَسْأَلُونَكُمْ مَاذَا يَنْفَقُونَ قُلْ الْعَفْوُ﴾

(١) الْبَيْتُ لِحَسَنٍ فِي دِيْوَانِهِ ص٤؛ وَالْكَامِلُ ١/٧٤؛ وَالْطَّبَرِيُّ ٢/٣٧٢.

(٢) أَيْ يَجْمِعُهُ مِنْ هَهُنَا وَهَهُنَا.

قال ، ذلك ألا تجهد مالك ثم تقدر تسأل الناس ، ويidel على ذلك ما رواه ابن جرير<sup>(١)</sup> : حدثنا علي بن مسلم ، حدثنا أبو عاصم عن ابن عجلان ، عن المقبري ، عن أبي هريرة ، قال : قال رجل : يا رسول الله ، عندي دينار ، قال «أنفقه على نفسك» قال : عندي آخر ، قال : «أنفقه على أهلك» قال : عندي آخر : قال «أنفقه على ولدك» قال : عندي آخر ، قال «فأنت أبصر» ؛ وقد رواه مسلم في صحيحه وأخرجه مسلم أيضاً عن جابر ، أن رسول الله ﷺ قال لرجل «ابداً بنفسك فتصدق عليها ، فإن فضل شيء فلأهلتك ، فإن فضل شيء عن أهلك فلذى قرابتك ، فإن فضل عن ذي قرابتك شيء فهكذا وهكذا». وعنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى ، واليد العليا خير من اليد السفلة ، وابداً بمن تعول» وفي الحديث أيضاً «ابن آدم إنك إن تبذل الفضل خير لك ، وإن تمسكه شر لك ، ولا تلام على كفاف» ثم قد قيل إنها منسوخة بأية الزكاة ، كما رواه علي بن أبي طلحة والعوفي عن ابن عباس ، وقاله عطاء الخراساني والسدي ، وقيل مبينة بأية الزكاة ، قاله مجاهد وغيره ، وهو أوجه .

وقوله «كذلك يبيّن الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة» أي كما فعل لكم هذه الأحكام وبينها وأوضحتها كذلك يبيّن لكم سائر الآيات في أحکامه ووعده ووعيده ، لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة . قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : يعني في زوال الدنيا وفنائها ، وإقبال الآخرة وبقائهما . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا علي بن محمد الطنافسي ، حدثنا أبوأسامة عن الصقععيشي ، قال : شهدت الحسن وقرأ هذه الآية من البقرة «لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة» قال : هي والله لم من تفك فيها ليعلم أن الدنيا دار بلاء ثم دار فناء ، ول히علم أن الآخرة دار جزاء ثم دار بقاء ، وهكذا قال قتادة وابن جريج وغيرهما ، وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة : لتعلموا فضل الآخرة على الدنيا . وفي رواية عن قتادة : فاثروا الآخرة على الأولى .

وقوله «ويسألونك عن اليتامي قل إصلاح لهم خير وإن تحاطوهم فإخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ولو شاء الله لأعنتهكم» الآية ، قال ابن جرير<sup>(٢)</sup> : حدثنا سفيان بن وكيع ، حدثنا جرير عن عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، قال : لما نزلت «ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن» و «إن الذين يأكلون أموال اليتامي ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً» [النساء : ١٠] انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه ، فجعل يفضل له الشيء من طعامه فيحبس له حتى يأكله أو يفسد ، فاشتد ذلك عليهم ، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله : «ويسألونك عن اليتامي قل إصلاح لهم خير وإن تحاطوهم فإخوانكم» فخلطوا طعامهم بطعمهم وشرابهم . وهكذا رواه أبو داود

(١) تفسير الطبرى ٣٧٨/٢.

(٢) تفسير الطبرى ٩٨٢/٢.

والنسائي وابن أبي حاتم وابن مردوه والحاكم في مستدركه من طرق عن عطاء بن السائب به . وكذا رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ، وكذا رواه السدي عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس ، وعن مرة عن ابن مسعود بمثله ، وهكذا ذكر غير واحد في سبب نزول هذه الآية كمجاحد وعطاء والشعبي وابن أبي ليلى وقتادة وغير واحد من السلف والخلف ، قال وكيع بن الجراح : حدثنا هشام صاحب الدستوائي<sup>(١)</sup> ، عن حماد ، عن إبراهيم ، قال : قالت عائشة رضي الله عنها : إنني لأكره أن يكون مال اليتيم عندي على حدة ، حتى أخلط طعامه بطعمي ، وشرابه بشرابي .

قوله ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ﴾ أي على حدة ، ﴿وَإِنْ تَخَالَطُوهُمْ فِي إِخْرَانِكُمْ﴾ أي وإن خلطتم طعامكم بطعمهم وشرابكم بشرابهم فلا بأس عليكم ، لأنهم إخوانكم في الدين ، ولهذا قال ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسَدَ مِنَ الْمُصْلَحِ﴾ أي يعلم من قصده ونيته الإفساد أو الإصلاح ، قوله ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَدَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي ولو شاء الله لضيق عليكم وأحرجكم ، ولكنه وسع عليكم ، وخفف عنكم ، وأباح لكم مخالفتهم بالتي هي أحسن ، قال تعالى : ﴿وَلَا تَقْرِبُوا مَالَ الْيَتَيمِ إِلَّا بِالْتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الأعراف: ١٥٢] بل جوز الأكل منه للتفقير بالمعروف ، إما بشرط ضمان البدل لمن أيسر ، أو مجاناً كما سيأتي بيانه في سورة النساء ، إن شاء الله وبه الثقة .

وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَيْتَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُنَّ وَلَا مَّا مُؤْمِنَكُمْ حَيْدَرٌ مِّنْ مُشْرِكَيْتَ وَلَا أَعْجَبْتُكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِيْنَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوْا وَلَا يَعْبُدُوْمُؤْمِنَ حَيْدَرٌ مِّنْ مُشْرِكِيْتَ وَلَا أَعْجَبْكُمْ وَلَا لَيْلَكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَعْفَرَةِ بِإِذْنِهِ وَبِمِنْ أَيْتَهُهُ لِلنَّاسِ لِعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾٢﴾

هذا تحريم من الله عز وجل على المؤمنين ، أن يتزوجوا المشركيات من عبدة الأولان ، ثم إن كان عمومها مراداً ، وأنه يدخل فيها كل شركة من كتابية ووثنية ، فقد خص من ذلك نساء أهل الكتاب بقوله ﴿وَالمحصنات من الذين أتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيموهن أجورهن محصنين غير مسافحين﴾ [المائدة: ٥] قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس في قوله ﴿وَلَا تنكحوا المشركيات حتى يؤمنن﴾ : استثنى الله من ذلك نساء أهل الكتاب ، وهكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير ومكحول والحسن والضحاك وزيد بن أسلم والربيع بن أنس وغيرهم . وقيل : بل المراد بذلك المشركون من عبدة الأولان ، ولم يرد أهل الكتاب بالكلية ، والمعنى قريب من الأول ، والله أعلم .

فاما ما رواه ابن جرير<sup>(٢)</sup> : حدثني عبيد بن آدم بن أبي إياس العسقلاني ، حدثنا أبي ، حدثني

(١) كذا . وفي موسوعة رجال الكتب التسعة (٤/١٤١) : هو هشام بن أبي عبد الله سنبر ، أبو بكر الدستوائي المتوفى سنة ١٥٤ هـ . من كبار الطبقة السابعة .

(٢) تفسير الطبرى ٣٨٩ / ٢ .

عبد الحميد بن بهرام الفزارى ، حدثنا شهر بن حوشب ، قال : سمعت عبد الله بن عباس يقول : نهى رسول الله ﷺ عن أصناف النساء ، إلا ما كان من المؤمنات المهاجرات وحرم كل ذات دين غير الإسلام . قال الله عز وجل : «ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله» [المائدة: ٥] وقد نكح طلحة بن عبيد الله يهودية ، ونكح حذيفة بن اليمان نصرانية ، فغضب عمر بن الخطاب غضباً شديداً حتى هم أن يسطو عليهم فقلالاً نحن نطلق يا أمير المؤمنين ولا تعصب فقال : لئن حل طلاقهن لقد حل نكاحهن ، ولكنني أنتزعهن منكم صغرة قمة ، فهو حديث غريب جداً ، وهذا الأثر غريب عن عمر أيضاً.

قال أبو جعفر بن جرير رحمه الله : بعد حكايته الإجماع على إباحة تزويج الكتابيات : وإنما كره عمر ذلك لثلاثة يزهد الناس في المسلمات أو لغير ذلك من المعاني . كما حدثنا أبو كريب ، حدثنا ابن إدريس ، حدثنا الصلت بن بهرام عن شقيق ، قال : تزوج حذيفة يهودية ، فكتب إليه عمر : خلّ سبيلها ، فكتب إليه : أترعم أنها حرام ، فأحلي سبيلها ؟ فقال : لا أرعم أنها حرام ، ولكنني أخاف أن تعاطوا المؤسسات منهن ، وهذا إسناد صحيح .

وروى الخلال عن محمد بن إسماعيل ، عن وكيع ، عن الصلت ، نحوه ، وقال ابن جرير : حدثني موسى بن عبد الرحمن المسروري ، حدثنا محمد بن بشر ، حدثنا سفيان بن سعيد عن يزيد بن أبي زياد ، عن زيد بن وهب ، قال : قال عمر بن الخطاب : المسلم يتزوج النصرانية ، ولا يتزوج النصراني المسلمة ، قال : وهذا أصح إسناداً من الأول ، ثم قال : وقد حدثنا تميم بن المتصر ، أخبرنا إسحاق الأزرقي عن شريك ، عن أشعث بن سوار ، عن الحسن ، عن جابر بن عبد الله ، قال : قال رسول الله ﷺ «تزوج نساء أهل الكتاب ولا يتزوجون نسائنا» ثم قال : وهذا الخبر وإن كان في إسناده ما فيه ، فالقول به لإجماع الجميع من الأمة عليه [أولى من خبر عبد الحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب]<sup>(١)</sup> ، كذا قال ابن جرير رحمه الله .

وقد قال ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسى ، حدثنا وكيع عن جعفر بن برقان ، عن ميمون بن مهران ، عن ابن عمر ، أنه كره نكاح أهل الكتاب ، وتأول «ولا تنكحوا المشرفات حتى يؤمن». وقال البخاري : وقال ابن عمر : لا أعلم شركاً أعظم من أن تقول : ربها عيسى ، وقال أبو بكر الخلال الحنبلي : حدثنا محمد بن هارون ، حدثنا إسحاق بن إبراهيم وأخبرني محمد بن علي ، حدثنا صالح بن أحمد ، أنهما سألاً أبا عبد الله أحمد بن حنبل عن قول الله «ولا تنكحوا المشرفات حتى يؤمن». قال : مشرفات العرب الذين يعبدون الأصنام .

وقوله «ولا مأمة مؤمنة خير من مشرفة ولو أعجبتكم» قال السدي : نزلت في عبد الله بن رواحة ، كانت له أمة سوداء فغضبت عليها فلطمها ، ثم فزع فأتى رسول الله ﷺ فأخبره خبرهما ،

فقال له «ما هي؟» قال: تصوم وتصلبي، وتحسن الوضوء، وتشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، فقال «يا أبا عبد الله هذه مؤمنة». فقال: والذي بعثك بالحق لأعترضها ولأتزوجنها، ففعل، فطعن عليه ناس من المسلمين وقالوا: نكح أمته وكانوا يريدون أن ينكحوا إلى المشركين، وينكحونهم رغبة في أحسابهم، فأنزل الله ﷺ «ولآئه مؤمنة خير من مشركة ولو عجبتكم... ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم».

وقال عبد بن حميد: حدثنا جعفر بن زياد الإفريقي عن عبد الله بن يزيد، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ، قال «لا تنكحوا النساء لحسنهن فعسى حسنهن أن يرديهن، ولا تنكحوهن عن أموالهن فعسى أموالهن أن تطغيهن، وأنكحوهنهن على الدين، فلأممة سوداء جرداء ذات دين أفضل» والإفريقي ضعيف، وقد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ، قال «تنكح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين، تربت يداك» ولمسلم عن جابر مثله، قوله عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال «الدنيا متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة».

وقوله «ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمّنوا» أي لا تزوجوا الرجال المشركين النساء المؤمنات، كما قال تعالى: «لا هن حل لهم، ولا هم يحلون لهم» [الممتحنة: ١٠] ثم قال تعالى: «ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم» أي ولرجل مؤمن - ولو كان عبداً حبشياً - خير من مشرك، وإن كان رئيساً سرياً «أولئك يدعون إلى النار» أي معاشرتهم ومخالطتهم، تبعث على حب الدنيا واقتنائها وإيثارها على الدار الآخرة، وعاقبة ذلك وخيمة «والله يدعوك إلى الجنة والمغفرة بإذنه» أي بشرعه وما أمر به وما نهى عنه «وبين الله آياته للناس لعلهم يتذكرون».

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا نَقْرِبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا طَهَرْنَ فَأَتُوْهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمْرَكُمْ اللَّهُ أَنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَبَّينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ إِنَّ سَأْوَكُمْ حَرَثُكُمْ فَأَتُوْهُنَّ أَنَّ شَعْرَمَ وَقَرْمَوْلَانَ فَأَنْتُمُ الْأَنْفَسُكُو وَأَنْتُمُ اللَّهُ وَأَعْلَمُمَا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ

قال الإمام أحمد<sup>(١)</sup>: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت، عن أنس، أن اليهود كانت إذا حاضرت المرأة منهم لم يواكلوها ولم يجامعوها في البيوت فسأل أصحاب النبي ﷺ، فأنزل الله عز وجل «ويسائلونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن» حتى فرغ من الآية، فقال رسول الله ﷺ «اصنعوا كل شيء إلا النكاح» فبلغ ذلك اليهود فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمينا شيئاً، إلا خالفنا فيه،

(١) مسند أحمد (ج ٣ ص ١٣٢ — ١٣٣).

فجاء أسيد بن حضير وعبد بن بشر، فقالا: يا رسول الله، إن اليهود قالت: كذا وكذا، أفلا نجامعنهم؟ فتغير وجه رسول الله ﷺ حتى ظتنا أن قد وجد عليهما، فخرجا فاستقبلتهما هدية من ابن إلى رسول الله ﷺ، فأرسل في آثارهما فسقاهم فعرفا أن لم يجد عليهما، رواه مسلم من حديث حماد بن زيد بن سلمة، قوله ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ يعني الفرج، لقوله «اصنعوا كل شيء إلا النكاح» ولهذا ذهب كثير من العلماء أو أكثرهم، إلى أنه يجوز مباشرة الحائض فيما عدا الفرج.

قال أبو داود أيضاً: حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد عن أئوب، عن عكرمة، عن بعض أزواج النبي ﷺ، كان إذا أراد من الحائض شيئاً يلقى على فرجها ثوباً، وقال أبو داود أيضاً: حدثنا القعبي، حدثنا عبد الله يعني ابن عمر بن غانم، عن عبد الرحمن يعني ابن زياد، عن عمارة بن غراب أن عممة له حدثته أنها سألت عائشة قالت: إحدانا تحيسن وليس لها ولزوجها فراش إلا فراش واحد، قالت: أخبرك بما صنع رسول الله ﷺ، دخل فمضى إلى مسجده، قال أبو داود: تعني مسجد بيتها، مما انصرف حتى غلبتني عيني فأوجعه البرد فقال «ادني مني» فقلت: إني حائض، فقال «اكشفي عن فخذنيك» فكشفت فخذني، فوضع خده وصدره على فخذني وحننت عليه حتى دفأه ونام ﷺ.

وقال أبو جعفر بن حرير: حدثنا عبد الوهاب، حدثنا أئوب عن كتاب أبي قلابة، أن مسروقاً ركب إلى عائشة فقال: السلام على النبي وعلى أهله، فقالت عائشة: مرحباً مرحباً، فأذنوا له فدخل فقال: إني أريد أن أسألك عن شيء وأنا أستحيي، فقالت: إنما أنا أمك وأنت ابني، فقال: ما للرجل من امرأته وهي حائض؟ قالت له: كل شيء إلا فرجها. رواه أيضاً عن حميد بن مسعدة، عن يزيد بن زريع، عن عيينة بن عبد الرحمن بن جوشن، عن مروان الأصفر، عن مسروق قال: قلت لعائشة: ما يحل للرجل من امرأته إذا كانت حائضاً؟ قالت: كل شيء إلا الجماع. وهذا قول ابن عباس ومجاهد والحسن وعكرمة، وروى ابن حرير أيضاً عن أبي كريب عن ابن أبي زائدة، عن حجاج، عن ميمون بن مهران، عن عائشة، قالت له: ما فوق الإزار.

(قلت) ويحل مضاجعتها ومواكتتها بلا خلاف، قالت عائشة: كان رسول الله ﷺ، يأمرني فأغسل رأسه وأنا حائض، وكان يتکىء في حجري وأنا حائض فيقرأ القرآن. وفي الصحيح عنها، قالت: كنت أتعرق العرق<sup>(١)</sup> وأنا حائض فأعطيه النبي ﷺ، فيضع فمه في الموضع الذي وضعت فمي فيه، وأشرب الشراب فأناوله فيضع فمه في الموضع الذي كنت أشرب منه.

وقال أبو داود<sup>(٢)</sup>: حدثنا مسدد، حدثنا يحيى عن جابر بن صبح، سمعت خلاساً الهجري

(١) العرق: العظم إذا أخذ منه معظم اللحم. وتعرقه: أخذ عنه اللحم بأسنانه.

(٢) سنن أبي داود (طهارة باب ١٠٦).

قال : سمعت عائشة تقول : كنت أنا ورسول الله ﷺ نبيت في الشعار الواحد وأنا حائض طامث ، فإن أصابه مني شيء غسل مكانه لم يعده وإن أصابه - يعني ثوبه - شيء غسل مكانه لم يعده وصلى فيه ، فأما ما رواه أبو داود<sup>(١)</sup> حدثنا سعيد بن عبد الجبار ، حدثنا عبد العزيز يعني ابن محمد ، عن أبي اليمان ، عن أم ذرة ، عن عائشة أنها قالت : كنت إذا حضرت نزلت عن المثال<sup>(٢)</sup> على الحصير ، فلم تقرب رسول الله ﷺ ولم ندن منه حتى نظهر ، فهو محمول على التزه والاحتياط .

وقال آخرون : إنما تحل له مباشرتها فيما عدا ما تحت الإزار ، كما ثبت في الصحيحين عن ميمونة بنت الحارث الهلالية قالت : كان النبي ﷺ إذا أراد أن يباشر امرأة من نسائه أمرها فاتررت وهي حائض ، وهذا لفظ البخاري ، ولهمما عن عائشة نحوه ، وروى الإمام أحمد وأبو داود والترمذى وابن ماجه من حديث العلاء ، عن حزام بن حكيم ، عن عمته عبد الله بن سعد الأنصارى أنه سأله رسول الله ﷺ : ما يحل لي من امرأة وهي حائض ؟ قال : ما فوق الإزار . ولأبي داود أيضاً عن معاذ بن جبل ، قال : سألت رسول الله ﷺ عما يحل لي من امرأة وهي حائض ؟ قال : ما فوق الإزار والتعفف عن ذلك أفضل » وهو روایة عن عائشة كما تقدم وابن عباس وسعيد بن المسيب وشريح .

فهذه الأحاديث وما شابهها حجة من ذهب إلى أنه يحل ما فوق الإزار منها ، وهو أحد القولين في مذهب الشافعى رحمة الله ، الذى رجحه كثير من العراقيين وغيرهم ، ومانخذهم أنه حرير الفرج فهو حرام لثلا يتوصل إلى تعاطي ما حرم الله عز وجل الذى أجمع العلماء على تحريمه وهو المباشرة في الفرج ، ثم من فعل ذلك فقد أثم ، فيستغفر الله ويتب إليه ، وهل يلزمه مع ذلك كفارة أم لا ؟ فيه قولان : [أحدهما] نعم ، لما رواه الإمام أحمد وأهل السنن عن ابن عباس عن النبي ﷺ في الذي يأتي امرأته وهي حائض ، يتصدق بدينار أو نصف دينار ، وفي لفظ للترمذى «إذا كان دماً أحمر فدينار ، وإن كان دماً أصفر فنصف دينار» وللإمام أحمد أيضاً عنه أن رسول الله ﷺ ، جعل في الحائض تصاص ديناراً ، فإن أصابها وقد أدرى الدم عنها ولم تغسل ، فنصف دينار . [والقول الثاني] وهو الصحيح الجديد من مذهب الشافعى وقول الجمهور أنه لا شيء في ذلك ، بل يستغفر الله عز وجل لأنه لم يصح عندهم رفع هذا الحديث ، فإنه قد روى مرفوعاً كما تقدم ، وموقاً وهو الصحيح عند كثير من أئمة الحديث ، قوله تعالى : «ولا تقربوهن حتى يطهرن» تفسير قوله «فاعتزلوا النساء في المحيض» ونهى عن قربانهن بالجماع ما دام المحيض موجوداً ، ومفهومه حله إذا انقطع . قال الإمام أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل فيما أملأه في الطاعة : قوله «ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فإذا تطهرن فأتوهن من حيث» الآية ، الطهر يدل

(١) سنن أبي داود (طهارة باب ١٠٦).

(٢) المثال : الفراش .

على أن يقربها، فلما قالت ميمونة وعائشة: كانت إحدانا إذا حاضت اتزررت ودخلت مع رسول الله ﷺ في شعاره، دل ذلك على أنه إنما أراد الجماع.

وقوله ﴿فِإِذَا تَطَهَّرُنَّ فَأَتُوْهُنَّ مِنْ حِثَّ أَمْرِكُمُ اللَّهُ﴾ فيه ندب وإرشاد إلى غشيانهن بعد الاغتسال وذهب ابن حزم إلى وجوب الجماع بعد كل حيضة لقوله ﴿فِإِذَا تَطَهَّرُنَّ فَأَتُوْهُنَّ مِنْ حِثَّ أَمْرِكُمُ اللَّهُ﴾ وليس له في ذلك مستند، لأن هذا أمر بعد الحظر. وفيه أقوال لعلماء الأصول منهم من يقول إنه على الوجوب كالمطلق، هؤلاء يحتاجون إلى جواب ابن حزم، ومنهم من يقول: إنه للإباحة، وبجعلون تقدم النهي عليه قرينة صارفة له من الوجوب، وفيه نظر، والذي ينهض عليه الدليل أنه يرد عليه الحكم إلى ما كان عليه الأمر قبل النهي، فإن كان واجباً، فواجب كقوله ﴿فِإِذَا أَنْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ٥] أو مباحاً فمباح كقوله ﴿وَإِذَا حَلَّتِ الْفَاصِطَادُوا﴾ [المائدة: ٢] ﴿فِإِذَا فَضَيَّتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١٠] وعلى هذا القول تجتمع الأدلة، وقد حکاه الغزالی وغيره، فاختاره بعض أئمة المتأخرین وهو الصحيح، وقد اتفق العلماء على أن المرأة إذا انقطع حيضها لا تحل حتى تغسل بالماء أو تتيسم إن تعذر ذلك عليها بشرطه، إلا أن أبا حنيفة رحمه الله يقول، فيما إذا انقطع دمها لأكثر الحيض وهو عشرة أيام عنده: أنها تحل بمجرد الانقطاع ولا تفتقر إلى غسل، والله أعلم، وقال ابن عباس ﴿حَتَّى يُطَهَّرُنَّ﴾ أي من الدم ﴿فِإِذَا تَطَهَّرُنَّ﴾ أي بالماء، وكذا قال مجاهد وعكرمة والحسن ومقاتل بن حيان والليث بن سعد وغيرهم.

وقوله ﴿مِنْ حِثَّ أَمْرِكُمُ اللَّهُ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: يعني الفرج. قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿فَأَتُوْهُنَّ مِنْ حِثَّ أَمْرِكُمُ اللَّهُ﴾ يقول: في الفرج ولا تعوده إلى غيره، فمن فعل شيئاً من ذلك فقد اعتدى. وقال ابن عباس ومجاهد وعكرمة ﴿مِنْ حِثَّ أَمْرِكُمُ اللَّهُ﴾ أي تعتزلوهن، وفيه دلالة حينئذ على تحريم الوطء في الدبر، كما سيأتي تقريره قريباً إن شاء الله تعالى. وقال أبو زين وعكرمة والضحاك وغير واحد ﴿فَأَتُوْهُنَّ مِنْ حِثَّ أَمْرِكُمُ اللَّهُ﴾ يعني طاهرات غير حيض، ولهذا قال ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَابِينَ﴾ أي من الذنب وإن تكرر غشيانه ﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ أي المتزهدين عن الأقدار والأذى، وهو ما نهوا عنه من إيتان الحائض أو في غير المتأتي.

وقوله ﴿نَسَاوِكُمْ حَرْثَ لَكُمْ﴾ قال ابن عباس: الحرث موضع الولد ﴿فَأَتُوْهُنَّ حَرْثَكُمْ أَنِّي شَتَّمْ﴾ أي كيف شتم، قال: سمعت جابرأ قال: كانت اليهود تقول: إذا جامعها من وراءها جاء الولد أحول، فنزلت ﴿نَسَاوِكُمْ حَرْثَ لَكُمْ فَأَتُوْهُنَّ حَرْثَكُمْ أَنِّي شَتَّمْ﴾ ورواه مسلم وأبو داود من حديث سفيان الثوري به. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني مالك بن أنس وابن جريج وسفيان بن سعيد الثوري: أن محمد بن المنكدر حدثهم: أن جابر بن عبد الله أخبره أن اليهود قالوا لل المسلمين: من أتى امرأ وهي مدبرة جاء الولد أحول،

فأنزل الله ﷺ «نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أني شئت» قال ابن جريج في الحديث: فقال رسول الله ﷺ «مقبلة ومدبرة إذا كان ذلك في الفرج» وفي حديث بهز بن حكيم بن معاوية بن حيدة القشيري، عن أبيه، عن جده، أنه قال: يا رسول الله، نساوئنا ما نأتي منها وما نذر؟ قال «حرثك أئت حرثك أني شئت، غير أن لا تضرب الوجه، ولا تقبع ولا تهجر إلا في البيت» الحديث، رواه أحمد وأهل السنن<sup>(١)</sup>.

حديث آخر - قال ابن أبي حاتم حدثنا يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرني ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب، عن عامر بن يحيى، عن حنش بن عبد الله، عن عبد الله بن عباس، قال: أتى ناس من حمير إلى رسول الله ﷺ، فسألوه عن أشياء، فقال له رجل: إني أجب<sup>(٢)</sup> النساء فكيف ترى في؟ فأنزل الله ﷺ «نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أني شئت» ورواه الإمام أحمد<sup>(٣)</sup>، حدثنا يحيى بن غيلان، حدثنا رشدين، حدثني الحسن بن ثوبان عن عامر بن يحيى المغافري عن حشن، عن ابن عباس، قال: أنزلت هذه الآية «نساؤكم حرث لكم» في أناس من الأنصار أتوا النبي ﷺ فسألوه، فقال النبي ﷺ «ائتها على كل حال إذا كان في الفرج».

حديث آخر - قال أبو جعفر الطحاوي في كتابه مشكل الحديث: حدثنا أحمد بن داود بن موسى، حدثنا يعقوب بن كاسب، حدثنا عبد الله بن نافع عن هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري، أن رجلاً أصاب امرأة في دبرها، فأنكر الناس عليه ذلك، فأنزل الله ﷺ «نساؤكم حرث لكم» الآية، ورواه ابن جرير<sup>(٤)</sup> عن يونس، وعن يعقوب، ورواه الحافظ أبو يعلى الموصلي عن العمارث بن شريح، عن عبد الله بن نافع به.

حديث آخر - قال الإمام أحمد<sup>(٥)</sup>: حدثنا عفان، حدثنا وهيب، حدثنا عبيد الله بن عثمان بن خثيم عن عبد الله بن سابط، قال: دخلت على حفصة بنت عبد الرحمن بن أبي بكر، فقلت: إني لسائلك عن أمر وأنا أستحيي أن أسألك، قالت: فلا تستحي يا ابن أخي، قال: عن إتيان النساء في أدبارهن؟ قالت: حدثني أم سلمة أن الأنصار كانوا يجرون النساء وكانت اليهود تقول: إنه من أجيبي امرأته، كان ولده أحول، فلما قدم المهاجرون المدينة نكحوا في نساء الأنصار فأجبوهن، فأبانت امرأة أن تطيع زوجها وقالت: لن تفعل ذلك حتى آتني رسول الله ﷺ، فدخلت على أم سلمة فذكرت لها ذلك، فقالت: اجلسي حتى يأتي رسول الله ﷺ، فلما جاء رسول الله ﷺ، استحق الأنصارية أن تسأله رسول الله ﷺ، فخرجت فسألته أم سلمة، فقال:

(١) رواه أحمد في المستند (ج ٥ ص ٣ و ٥) وأبو داود (نكاح باب ٤١).

(٢) أي أنه يأتي زوجته وهي منكبة على وجهها.

(٣) المستند (ج ١ ص ٢٦٨).

(٤) تفسير الطبرى ٤٠٣ / ٢.

(٥) المستند (ج ٦ ص ٣٠٥).

ادعى «الأنصارية» فدعتها، فتلا عليها هذه الآية «نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أتني شتم» «صماماً واحداً». ورواه الترمذى عن بندار، عن ابن مهدي، عن سفيان، عن أبي خثيم به، وقال حسن. (قلت) وقد روى من طريق حماد بن أبي حنفية عن أبيه، عن ابن خثيم، عن يوسف بن ماهك، عن حفصة أم المؤمنين ان امرأة أتتها، فقالت: إن زوجي يأتيني مجيبة ومستقبلة فكرهته، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال «لا بأس إذا كان في صمام واحد».

حديث آخر - قال الإمام أحمد<sup>(١)</sup>: حدثنا حسن، حدثنا يعقوب يعني القمي، عن جعفر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: جاء عمر بن الخطاب إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله هلكت، قال ما الذي أهلتك؟ قال: حولت رحلي<sup>(٢)</sup> البارحة، قال، فلم يرد عليه شيئاً. قال: فأوحي الله إلى رسول الله ﷺ هذه الآية «نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أتني شتم» «أقبل وأدبر واتق الدبر والحيضة». ورواه الترمذى عن عبد بن حميد، عن حسن بن موسى الأشيب به، وقال: حسن غريب.

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا الحارث بن شريح، حدثنا عبد الله بن نافع، حدثنا هشام بن سعد عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد، قال: أثغر<sup>(٣)</sup> رجل امرأته على عهد رسول الله ﷺ فقالوا: أثغر فلان امرأته، فأنزل الله عز وجل: «نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أتني شتم».

قال أبو داود: حدثنا عبد العزيز بن يحيى أبو الأصيغ، قال: حدثنى محمد يعني ابن سلامة، عن محمد بن إسحاق، عن أبان بن صالح، عن مجاهد عن ابن عباس، قال: إن ابن عمر - والله يغفر له - أوهم وإنما كان الحي من الأنصار، وهم أهل وثن مع هذا الحي من يهود، وهم أهل كتاب، وكانوا يرون لهم فضلاً عليهم في العلم، فكانوا يقتدون كثيراً من فعلهم، وكان من أمر أهل الكتاب لا يأتون النساء إلا على حرف وذلك أستر ما تكون المرأة، فكان هذا الحي من الأنصار قد أخذوا بذلك من فعلهم، وكان هذا الحي من قريش يشرحون النساء شرعاً منكراً، ويتلذذون بهن مقبلات ومدبرات ومستلقيات، فلما قدم المهاجرون المدينة، تزوج رجل منهم امرأة من الأنصار، فذهب يصنع بها ذلك، فأنكرته عليه، وقالت: إنما كنا نؤتى على حرف، فأصنع ذلك، وإلا فاجتنبني، فسرى أمرهما فبلغ رسول الله ﷺ، فأنزل الله ﷺ «نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أتني شتم» أي مقبلات ومدبرات ومستلقيات يعني بذلك موضوع الولد، تفرد به أبو داود، ويشهد له بالصحة ما تقدم له من الأحاديث ولا سيما روایة أم سلامة، فإنها مشابهة لهذا السياق.

(١) المسند (ج ١ ص ٢٩٧).

(٢) كنایة عن إثيائه زوجته مدبرة.

(٣) أثغر: ساقه من ورائه (أساس البلاغة: ثغر) والمراد أنه أتى امرأته من وراء.

وقد روی هذا الحديث الحافظ أبو القاسم الطبراني من طريق محمد بن إسحاق، عن أبيان بن صالح، عن مجاهد، قال، عرضت المصحف على ابن عباس من فاتحته إلى خاتمتها، أوقفه عند كل آية منه، وأسأله عنها، حتى انتهيت إلى هذه الآية «نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شتم» فقال ابن عباس: إن هذا الحي من قريش كانوا يشرحون<sup>(١)</sup> النساء بمكة ويتلذذون بهن، فذكر القصة بتمام سياقها، وقول ابن عباس إن ابن عمر - والله يغفر له - أوهם، كأنه يشير إلى ما رواه البخاري: حدثنا إسحاق حدثنا النضر بن شميل، أخبرنا ابن عون عن نافع، قال، كان ابن عمر إذا قرأ القرآن لم يتكلم حتى يفرغ منه، فأخذته عنه يوماً فقرأ سورة البقرة حتى انتهى إلى مكان قال: أتدري فيما نزلت؟ قلت: لا. قال: نزلت في كذا وكذا، ثم مضى، وعن عبد الصمد قال، حدثني أبي، حدثنا أبوب عن نافع، عن ابن عمر «فأتوا حرثكم أنى شتم» قال: أن يأتيها في... هكذا رواه البخاري، وقد تفرد به من هذا الوجه.

وقال ابن جرير<sup>(٢)</sup>، حدثني يعقوب، حدثنا ابن علي حدثنا ابن عون عن نافع، قال قرأت ذات يوم «نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شتم» فقال ابن عمر أتدري فيما نزلت؟ قلت: لا. قال: نزلت في إثبات النساء في أدبارهن. وحدثني أبو قلابة. حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث، حدثني أبي عن أبوب، عن نافع، عن ابن عمر «فأتوا حرثكم أنى شتم» قال: في الدبر. وروي من حديث مالك عن نافع عن ابن عمر ولا يصح.

وروى النسائي عن محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، عن أبي بكر بن أبي أوييس، عن سليمان بن بلال، عن زيد بن أسلم، عن ابن عمر، أن رجلاً أتى أمرأه في دبرها فوجد في نفسه من ذلك وجداً شديداً، فأنزل الله<sup>(٣)</sup> «نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شتم». قال أبو حاتم الرازي، لو كان هذا عند زيد بن أسلم عن ابن عمر، لما أوقع الناس بنافع، وهذا تعليل منه لهذا الحديث. وقد رواه عبد الله بن نافع عن داود بن قيس، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن ابن عمر، فذكره.

وهذا الحديث محمول على ما تقدم وهو أنه يأتيها في قبلها من دبرها، لما رواه النسائي عن علي بن عثمان التيفيلي عن سعيد بن عيسى، عن الفضل بن فضالة عن عبد الله بن سليمان الطويل، عن كعب بن علقمة، عن أبي النضر، أنه أخبره أنه قال لنافع مولى ابن عمر، أنه قد أكثر عليك القول، أنك تقول عن ابن عمر أنه أفتى أن تؤتي النساء في أدبارهن، قال: كذبوا عليّ، ولكن سأحدثك كيف كان الأمر، إن ابن عمر عرض المصحف يوماً وأنا عنده حتى بلغ «نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شتم» فقال: يا نافع، هل تعلم من أمر هذه الآية؟ قلت: لا. قال،

(١) شرح المرأة: أنها مستلقية. ومنه: غطت المرأة مشرحها أي فرجها (أساس البلاغة: شرح).

(٢) تفسير الطبرى ٤٠٧/٢.

إنا كنا معشر قريش نجبي النساء، فلما دخلنا المدينة ونكحنا نساء الأنصار أردنا منهن مثل ما كانا نريد، فإذا هن قد كرهن ذلك وأعظمنه وكانت نساء الأنصار قد أخذن بحال اليهود إنما يؤتمن على جنبيهن، فأنزل الله ﷺ **﴿نساؤكم حرث لكم فأنتوا حرثكم أئن شئتم﴾**.

وهذا إسناد صحيح، وقد رواه ابن مردويه عن الطبراني، عن الحسين بن إسحاق، عن ذكريا بن يحيى الكاتب العمري، عن مفضل بن فضالة، عن عبد الله بن عياش، عن كعب بن علقمة، فذكره، وقد روينا عن ابن عمر خلاف ذلك صريحاً، وأنه لا يباح ولا يحل كما سيأتي، وإن كان قد نسب هذا القول إلى طائفة من فقهاء المدينة وغيرهم، وعزاه بعضهم إلى الإمام مالك في كتاب السر، وأكثر الناس ينكر أن يصح ذلك عن الإمام مالك رحمه الله. وقد وردت الأحاديث المروية من طرق متعددة بالزجر عن فعله وتعاطيه، فقال الحسن بن عرفة: حدثنا إسماعيل بن عياش عن سهيل بن أبي صالح، عن محمد بن المنكدر، عن جابر، قال: قال رسول الله ﷺ **«استحبوا إن الله لا يستحب من الحق، لا يحل أن تأتوا النساء في حشوشهن»**<sup>(١)</sup>. وقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان عن عبد الله بن شداد، عن خزيمة بن ثابت، أن رسول الله ﷺ **نهى أن يأتي الرجل امرأته في دبرها**.

طريق أخرى قال أحمد<sup>(٢)</sup>: حدثنا يعقوب، سمعت أبي يحدث عن يزيد بن عبد الله بن أسامة بن الهداد، أن عبد الله بن الحسين الوالي حدثه أن هرمي بن عبد الله الواقفي، حدثه أن خزيمة بن ثابت الخطمي، حدثه أن رسول الله ﷺ **قال «استحبوا إن الله لا يستحب من الحق لا تأتوا النساء في أعجازهن»** رواه النسائي وابن ماجه من طريق عن خزيمة بن ثابت وفي إسناده اختلاف كثير.

حديث آخر قال أبو عيسى الترمذى والنسائى: حدثنا أبو سعيد الأشجع، حدثنا أبو خالد الأحمر عن الضحاك بن عثمان، عن مخرمة بن سليمان عن كريب، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ **«لا ينظر الله إلى رجل أتى رجلاً أو امرأة في الدبر»** ثم قال الترمذى: هذا حديث حسن غريب، وهكذا أخرجه ابن حبان في صحيحه، وصححه ابن حزم أيضاً، ولكن رواه النسائى أيضاً عن هناد، عن وكيع، عن الضحاك به موقوفاً. وقال عبد: أخبرنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر عن ابن طاوس، عن أبيه، أن رجلاً سأله ابن عباس عن إثبات المرأة في دبرها، قال: تسلّتني عن الكفر، إسناده صحيح، وكذا رواه النسائى من طريق ابن المبارك عن معمر به نحوه، وقال عبد أيضاً في تفسيره: حدثنا إبراهيم بن الحكم عن أبيه عن عكرمة، قال: جاء رجل إلى ابن عباس وقال: كتب أبي أهلي في دبرها، وسمعت قول الله ﷺ **﴿نساؤكم حرث لكم فأنتوا حرثكم﴾**

(١) الحشوش: الأدباء. وفي حديث آخر: نهى عن إثبات النساء في محاشهن، وقد روى أيضاً بالسین. وفي حديث ابن مسعود: محاش النساء عليكم حرام. (لسان العرب: حشش).

(٢) مستند أحمد (ج ٥ ص ٢١٥).

أَنِي شَتَّمْ》 فَظَنَنْتُ أَنْ ذَلِكَ لِي حَالَلُ، فَقَالَ: يَا لَكَعْ إِنَّمَا قَوْلُهُ: 《فَأَتَرَا حَرَثَكُمْ أَنِي شَتَّمْ》 قَائِمَةً وَقَاعِدَةً وَمُقْبَلَةً وَمُدَبَّرَةً فِي أَقْبَالِهِنَّ لَا تَعْدُوا ذَلِكَ إِلَى غَيْرِهِ.

حَدِيثُ آخَرَ قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ<sup>(١)</sup>: حَدَثَنَا عَبْدُ الصَّمْدِ، حَدَثَنَا قَتَادَةُ عَنْ عُمَرِ بْنِ شَعِيبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «الَّذِي يَأْتِي امْرَأَهُ فِي دِبْرِهَا هِيَ الْلَّوْطِيَّةُ الصَّغْرَى» وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ: حَدَثَنِي هَدْبَةُ، حَدَثَنَا هَمَّامُ، قَالَ: سُئِلَ قَتَادَةُ عَنِ الدِّرْسِ الْمُؤْمِنِيَّةِ فِي دِبْرِهِ، فَقَالَ قَتَادَةُ: أَخْبَرَنَا عُمَرُ بْنُ شَعِيبٍ عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «هِيَ الْلَّوْطِيَّةُ الصَّغْرَى». قَالَ قَتَادَةُ: وَحَدَثَنِي عَقْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ الْقَطَّانُ عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي عَرْوَةَ، عَنْ قَاتَادَةَ، عَنْ أَبِي أَيُوبَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْعَاصِ مَوْلَى قَوْلِهِ، وَهَذَا أَصْحَاحٌ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ. وَكَذَلِكَ رَوَاهُ عَبْدُ بْنِ حَمِيدٍ عَنْ يَزِيدِ بْنِ هَارُونَ، عَنْ حَمِيدِ الْأَعْرَجِ، عَنْ عُمَرِ بْنِ شَعِيبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ مَوْقُوفاً مِنْ قَوْلِهِ.

طَرِيقُ أُخْرَى قَالَ جَعْفُرُ الْفَرِيَّابِيُّ: حَدَثَنَا أَبْنُ لَهِيَعَةَ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدٍ بْنِ أَنَّعَمَ، عَنْ أَبِيهِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحَبْلَى، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «سَبْعَةٌ لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يَزْكِيهِمْ، وَيَقُولُ ادْخُلُوا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ»: الْفَاعِلُ، وَالْمُفْعُولُ بِهِ، وَالنَّاكِحُ يَدَهُ، وَنَاكِحُ الْبَهِيمَةِ، وَنَاكِحُ الْمَرْأَةِ فِي دِبْرِهَا، وَجَامِعُ بَيْنِ الْمَرْأَةِ وَابْنَتِهَا، وَالزَّانِي بِحَلِيلَةِ جَارِهِ، وَمَؤْذِي جَارِهِ حَتَّى يَلْعَنَهُ أَبْنُ لَهِيَعَةَ وَشَيْخُهُ ضَعِيفَانِ.

حَدِيثُ آخَرَ قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَثَنَا عَبْدُ الرَّزَاقِ، أَخْبَرَنَا سَفِيَّانُ عَنْ عَاصِمٍ، عَنْ عَيْسَى بْنِ حَطَّانٍ، عَنْ مُسْلِمِ بْنِ سَلَامٍ، عَنْ عَلَى بْنِ طَلْقٍ، قَالَ: نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ تُؤْتِي النِّسَاءَ فِي أَدْبَارِهِنَّ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحِي مِنَ الْحَقِّ، وَأَخْرَجَهُ أَحْمَدُ أَيْضًا عَنْ أَبِي مَعَاوِيَةَ وَأَبِي عَيْسَى التَّرمِذِيِّ مِنْ طَرِيقِ أَبِي مَعَاوِيَةِ أَيْضًا، عَنْ عَاصِمِ الْأَحْوَلِ بِهِ، وَفِيهِ زِيَادَةُ، وَقَالَ: هُوَ حَدِيثُ حَسْنٍ، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَوْرِدُ هَذَا الْحَدِيثَ فِي مَسْنَدِ عَلَى بْنِ أَبِي طَالِبٍ كَمَا وَقَعَ فِي مَسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدِ بْنِ حَنْبَلِ<sup>(٢)</sup>، وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ عَلَى بْنِ طَلْقٍ.

حَدِيثُ آخَرَ قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ<sup>(٣)</sup>: حَدَثَنَا عَبْدُ الرَّزَاقِ، أَخْبَرَنَا مَعْمَرُ عَنْ سَهْلِ بْنِ أَبِي صَالِحٍ، عَنِ الْحَارِثِ بْنِ مَخْلَدٍ، عَنْ أَبِي هَرِيرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «إِنَّ الَّذِي يَأْتِي امْرَأَهُ فِي دِبْرِهَا لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِ». وَقَالَ أَحْمَدُ أَيْضًا حَدَثَنَا عَفَانُ، حَدَثَنَا وَهِبَّ، حَدَثَنَا سَهْلُ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ مَخْلَدٍ، عَنْ أَبِي هَرِيرَةِ يَرْفَعُهُ، قَالَ: «لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْ رَجُلٍ جَامِعٍ امْرَأَهُ فِي دِبْرِهِ»، وَكَذَا رَوَاهُ أَبْنُ مَاجِهِ مِنْ طَرِيقِ سَهْلٍ وَقَالَ أَحْمَدُ أَيْضًا: حَدَثَنَا وَكِيعٌ عَنْ سَهْلِ بْنِ أَبِي صَالِحٍ، عَنِ الْحَارِثِ بْنِ مَخْلَدٍ، عَنْ أَبِي هَرِيرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «مَلُوْنُونَ مَنْ أَتَى امْرَأَهُ فِي دِبْرِهِ»، وَهَكَذَا رَوَاهُ

(١) المسند (ج ٢ ص ١١٠).

(٢) المسند (ج ١ ص ٨٦).

(٣) المسند (ج ٢ ص ٣٤٤).

أبو داود والنمساني من طريق وكيع به.

طريق أخرى قال الحافظ أبو نعيم الأصبهاني : أخبرنا أحمد بن القاسم بن الريان ، حدثنا أبو عبد الرحمن النسائي ، حدثنا هناد ومحمد بن إسماعيل واللفظ له ، قالا : حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان عن سهيل بن أبي صالح ، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ «ملعون من أتى امرأة في دبرها» ليس هذا الحديث هكذا في سنن النسائي ، وإنما الذي فيه عن سهيل عن الحارث بن مخلد كما تقدم ، قال شيخنا الحافظ أبو عبد الله الذهبي : ورواية أحمد بن القاسم بن الريان هذا الحديث بهذا السند ، وهم منه وقد ضعفوه .

طريق أخرى - رواها مسلم بن خالد الزنجي عن العلاء بن عبد الرحمن ، عن أبيه ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ ، قال «ملعون من أتى النساء في أدبارهن» ومسلم بن خالد فيه كلام ، والله أعلم .

طريق أخرى - رواها الإمام أحمد<sup>(١)</sup> وأهل السنن من حديث حماد بن سلمة عن حكيم الأثر ، عن أبي تميمة الهجيمي ، عن أبي هريرة ، أن رسول الله ﷺ ، قال «من أتى حائضاً أو امرأة في دبرها أو كاهناً فصدقه ، فقد كفر بما أنزل على محمد» وقال الترمذى : ضعف البخاري هذا الحديث ، والذي قاله البخاري في حديث الترمذى عن أبي تميمة : لا يتابع على حديثه .

طريق أخرى - قال النسائي : حدثنا عثمان بن عبد الله ، حدثنا سليمان بن عبد الرحمن من كتابه عن عبد الملك بن محمد الصنعاني ، عن سعيد بن عبد العزيز ، عن الزهري ، عن أبي سلمة رضي الله عنه ، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ، قال «استح gioوا من الله حق الحياة لا تأتوا النساء في أدبارهن» تفرد به النسائي من هذا الوجه . قال حمزة بن محمد الكنانى الحافظ : هذا حديث منكر باطل من حديث الزهري ومن حديث أبي سلمة ومن حديث سعيد فإن كان عبد الملك سمعه من سعيد ، فإنما سمعه بعد الاختلاف ، وقد رواه الترمذى عن أبي سلمة أنه كان ينهي عن ذلك ، فاما عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ، فلا ، انتهى كلامه ، وقد أجاد وأحسن الانتقاد ، إلا أن عبد الملك بن محمد الصنعاني لا يعرف أنه اخترط ، ولم يذكر ذلك أحد غير حمزة عن الكنانى وهو ثقة ، ولكن تكلم فيه دحيم وأبو حاتم وابن حبان ، وقال : لا يجوز الاحتجاج به ، والله أعلم . وقد تابعه زيد بن يحيى بن عبيد عن سعيد بن عبد العزيز . وروي من طريقين آخرين عن أبي سلمة ، ولا يصح منها كل شيء .

طريق أخرى - قال النسائي : حدثنا إسحاق بن منصور ، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي ، عن سفيان الثوري ، عن ليث بن أبي سليم ، عن مجاهد ، عن أبي هريرة ، قال : إتيان الرجال النساء في أدبارهن كفر ، ثم رواه النسائي من طريق الثوري عن ليث ، عن مجاهد ، عن أبي هريرة

(١) المسند (ج ٢ ص ٤٠٨).

مرفوعاً، وكذا رواه من طريق علي بن نديمة عن مجاهد، عن أبي هريرة موقفاً، ورواه بكر بن خنيس عن ليث، عن مجاهد، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ، قال: «من أتى شيئاً من الرجال والنساء في الأدباء فقد كفر» والموقف أصح، وبكر بن خنيس ضعفه غير واحد من الأئمة، وتركه آخرون.

حديث آخر - قال محمد بن أبان البلخي: حدثنا وكيع، حدثني زمعة بن صالح عن ابن طاووس، عن أبيه، وعن عمرو بن دينار، عن عبيد الله بن يزيد بن الهاد، قالا: قال عمر بن الخطاب: قال رسول الله ﷺ «إن الله لا يستحي من الحق، لا تأتوا النساء في أدبارهن» وقد رواه النسائي، حدثنا سعيد بن يعقوب الطالقاني عن عثمان بن اليمان عن زمعة بن صالح، عن ابن طاووس عن أبيه، عن ابن الهاد، عن عمر، قال: لا تأتوا النساء في أدبارهن وحدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا يزيد بن أبي حكيم عن زمعة بن صالح، عن عمرو بن دينار، عن طاووس، عن عبد الله بن الهاد الليثي، قال: قال عمر رضي الله عنه: استحبوا من الله فإن الله لا يستحي من الحق، لا تأتوا النساء في أدبارهن، والموقف أصح.

الحديث آخر - قال الإمام أحمد: حدثنا غندر ومعاذ بن معاذ، قالا: حدثنا شعبة عن عاصم الأحول عن عيسى بن حطان، عن مسلم بن سلام، عن طلق بن يزيد أو يزيد بن طلق، عن النبي ﷺ قال «إن الله لا يستحي من الحق، لا تأتوا النساء في أدبارهن» وكذا رواه غير واحد عن شعبة، ورواه عبد الرزاق عن معمر، عن عاصم الأحول، عن عيسى بن حطان، عن مسلم بن سلام، عن طلق بن علي، والأشبه أنه علي بن طلق كما تقدم، والله أعلم.

الحديث آخر - قال أبو بكر الأثرم في سنته: حدثنا أبو مسلم الحرمي، حدثنا أخوه أنيس بن إبراهيم، أن أبياه إبراهيم بن عبد الرحمن بن القعقاع أخبره عن أبيه أبي القعقاع، عن ابن مسعود عن النبي ﷺ، قال «محاش النساء حرام» وقد رواه إسماعيل بن علية وسفيان الثوري وشعبة وغيرهم عن أبي عبد الله الشقربي واسميه سلمة بن تمام ثقة، عن أبي القعقاع عن ابن مسعود موقفاً وهو أصح.

طريق أخرى - قال ابن عدي: حدثنا أبو عبد الله المحاملي، حدثنا سعيد بن يحيى الثوري، حدثنا محمد بن حمزة، عن زيد بن رفيع، عن أبي عبيدة، عن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ «لا تأتوا النساء في أعيجازهن» محمد بن حمزة هو الجزمي وشيخه فيهما مقال. وقد روی من الحديث أبي بن كعب والبراء بن عازب وعقبة بن عامر وأبي ذر وغيرهم، وفي كل منها مقال لا يصح معه الحديث، والله أعلم.

وقال الثوري، عن الصلت بن بهرام، عن أبي المعتمر، عن أبي جويرية، قال: سأله رجل علياً عن إتيان المرأة في دبرها، فقال: سفل الله بك، ألم تسمع قول الله عز وجل: «أتاتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين» [الأعراف: ٨٠]. وقد تقدم قول ابن

مسعود وأبي الدرداء وأبي هريرة وابن عباس وعبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه يحرمه.

قال أبو محمد عبد الرحمن بن عبد الله الدارمي في مسنده: حدثنا عبد الله بن صالح، حدثنا الليث عن الحارث بن يعقوب، عن سعيد بن يسار أبي العجائب، قال: قلت: لابن عمر: ما تقول في الجواري أفتحممض لهن؟ قال: وما التحيمض؟ فذكر الدبر، فقال: وهل يفعل ذلك أحد من المسلمين؟ وكذا رواه ابن وهب وقتيبة عن الليث به وهذا إسناد صحيح ونص صريح منه بتحريم ذلك. فكل ما ورد عنه مما يحتمل فهو مردود إلى هذا المحكم.

قال ابن جرير<sup>(١)</sup>: حدثني عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم، حدثنا أبو زيد أحمدر<sup>(٢)</sup> بن عبد الرحمن بن أحمد بن أبي الغمر، حدثني عبد الرحمن بن القاسم عن مالك بن أنس، أنه قيل له: يا أبا عبد الله، إن الناس يروون عن سالم بن عبد الله أنه قال: كذب العبد أو العلج على أبيه. فقال مالك أشهد على يزيد بن رومان أنه أخبرني عن سالم بن عبد الله عن ابن عمر مثل ما قال نافع. فقيل له فإن الحارث بن يعقوب يروي عن أبي العجائب سعيد بن يسار أنه سأل ابن عمر فقال له يا أبا عبد الرحمن إننا نشتري الجواري أفتحممض لهن؟ فقال وما التحيمض؟ فذكر له الدبر، فقال: ابن عمر: أَفْ أَفْ! وهل يفعل ذلك مؤمن، أو قال مسلم؟ فقال مالك: أشهد على ربعة لأنه أخبرني عن أبي العجائب عن ابن عمر مثل ما قال نافع.

وروى النسائي عن الربيع بن سليمان، عن أصيغ بن الفرج الفقيه، حدثنا عبد الرحمن بن القاسم، قال: قلت لمالك: إن عندنا بمصر الليث بن سعد يحدث عن الحارث بن يعقوب عن سعيد بن يسار قال: قلت لابن عمر إننا نشتري الجواري أفتحممض لهن؟ قال: وما التحيمض؟ قلت: نأتيهن في أدبارهن فقال أَفْ أَفْ! أو يعمل هذا مسلم فقال لي مالك فأشهد على سعيد بن يسار، أنه سأله ابن عمر، فقال: لا بأس به. وروى النسائي أيضاً من طريق يزيد بن رومان، عن عبيد الله بن عبد الله: أن ابن عمر كان لا يرى بأساً أن يأتي الرجل المرأة في دبرها. وروى عمر بن عيسى عن مالك أن ذلك حرام.

وقال أبو بكر بن زياد النيسابوري: حدثني إسماعيل بن حسين، حدثني إسرائيل بن روح، سأله مالك بن أنس: ما تقول في إتيان النساء في أدبارهن؟ قال: ما أنت إلا قوم عرب، هل يكون الحرج إلا موضع الزرع، لا تدعوا الفرج، قلت: يا أبا عبد الله، إنهم يقولون إنك تقول ذلك. قال: يكذبون علي يكذبون علي، فهذا هو الثابت عنه، وهو قول أبي حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل وأصحابهم قاطبة، وهو قول سعيد بن المسيب وأبي سلمة وعكرمة وطاوس وعطاء وسعيد بن جبیر وعروة بن الزبیر ومجاهد بن جبر والحسن وغيرهم من السلف، أنهم

(١) تفسير الطبری ٤٠٧/٢.

(٢) في الطبری: «أبو زيد عبد الرحمن بن أحمد بن أبي الغمر».

أنكروا ذلك أشد الأنكار، ومنهم من يطلق على فعله الكفر وهو مذهب جمهور العلماء، وقد حكى في هذا شيء عن بعض فقهاء المدينة حتى حکوه عن الإمام مالك، وفي صحته نظر.

قال الطحاوي: روى أصيغ بن الفرج عن عبد الرحمن بن القاسم، قال: ما أدركت أحداً أقتدي به في ديني يشك أنه حلال، يعني وطء المرأة في دبرها، ثم قرأ ﴿نَساؤُكُمْ حَرثٌ لَّكُمْ﴾ ثم قال: فأي شيء أبين من هذا؟ هذه حكاية الطحاوي.

وقد روی الحاکم والدارقطني والخطيب البغدادي عن الإمام مالک من طرق ما يقتضي إباحة ذلك، ولكن في الأسانید ضعف شديد، وقد استقصاها شيخنا الحافظ أبو عبد الله الذهبي في جزء جمعه في ذلك، والله أعلم.

وقال الطحاوي: حکى لنا محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، أنه سمع الشافعي يقول: ما صح عن النبي ﷺ في تحليله ولا تحريميه شيء والقياس أنه حلال وقد روی ذلك أبو بكر الخطيب عن أبي سعيد الصیرفي عن أبي العباس الأصم سمعت محمد بن عبد الله بن عبد الحكم سمعت الشافعي يقول، فذكره، قال أبو نصر الصباغ: كان الربيع يحلف بالله لا إله إلا هو، لقد كذب - يعني ابن عبد الحكم - على الشافعي في ذلك، لأن الشافعي نص على تحريميه في ستة كتب من كتبه، والله أعلم.

وقوله ﴿وَقَدَّمُوا لِأَنفُسِكُمْ﴾ أي من فعل الطاعات مع امتحان ما أنهاكم عنه من ترك المحرمات، ولهذا قال ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ﴾ أي فيحاسبكم على أعمالكم جميعها ﴿وَبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي المطيعين الله فيما أمرهم، التاركين ما عنه زجرهم. وقال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثني محمد بن عبد الله بن واقد، عن عطاء، قال: أراه عن ابن عباس ﴿وَقَدَّمُوا لِأَنفُسِكُمْ﴾ قال: تقول باسم الله التسمية عند الجماع، وقد ثبت في صحيح البخاري عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ «لَوْ أَنْ أَحَدَكُمْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَأْتِي أَهْلَهُ، قَالَ: بِاسْمِ اللَّهِ، اللَّهُمَّ جَنِبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنْبْ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْنَا، فَإِنَّهُ إِنْ يَقْدِرْ بِنَهْمَاهُ وَلَدْ فِي ذَلِكَ، لَنْ يَضْرِهِ الشَّيْطَانُ أَبَدًا».

**وَلَا يَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِآيَمَنِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَنَقَّلُوا وَتَعْمَلُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلَيْهِمْ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي آيَمَنِكُمْ وَلَا كُنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبْتُ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ حَلِيمٌ**

يقول تعالى: لا تجعلوا أيمانكم بالله تعالى مانعة لكم من البر وصلة الرحم إذا حلقت على تركها، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِلُ أُولَاهُا الْفَضْلُ مِنْكُمْ وَالسَّعْيُ أَنْ يَؤْتُوا أُولَاهُ الْقَرِبَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْمَهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيَعْفُوا وَلِيَصْفُحُوا أَلَا تَحْبُونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٢]

فالاستمرار على اليمين أثم لصاحبه من الخروج منها بالتكفير، كما قال

**البخاري** <sup>(١)</sup>: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، أخبرنا عبد الرزاق، أخبرنا عمر عن همام بن منبه، قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة عن النبي ﷺ قال «نحن الآخرون السابعون يوم القيمة» وقال رسول ﷺ «والله لأن يلْجَأ أحدكم بيمينه في أهله آثم له عند الله من أن يعطي كفارته التي افترض الله عليه» وهكذا رواه مسلم <sup>(٢)</sup> عن محمد بن رافع عن عبد الرزاق به، ورواه أحمد عنه به، ثم قال **البخاري**: حدثنا إسحاق بن منصور، حدثنا يحيى بن صالح، حدثنا معاوية هو ابن سلام، عن يحيى وهو ابن أبي كثير، عن عكرمة عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ «من استلْجَأ في أهله بيمين فهو أعظم إثماً، ليس تغني الكفار» <sup>(٣)</sup>.

وقال علي بن طلحة عن ابن عباس في قوله «ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم» قال: لا تجعلن عرضة ليمينك أن لا تصنع الخير، ولكن كفر عن يمينك واصنع الخير، وكذا قال مسروق الشعبي وإبراهيم النخعي ومجاحد وطاوس وسعيد بن جبير وعطاء وعكرمة ومكحول والزهري والحسن وقتادة ومقاتل بن حيان والربيع بن أنس والضحاك وعطاء الخراساني والسدي رحمهم الله.

ويؤيد ما قاله هؤلاء الجمورو ما ثبت في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنِّي وَاللَّهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، لَا أَحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ فَإِنَّهَا خَيْرًا مِّنْهَا إِلَّا أَتَيْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ وَتَحْلِلْتَهَا» وثبت فيما أيضاً أن رسول الله ﷺ، قال لعبد الرحمن بن سمرة «يا عبد الرحمن بن سمرة، لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها من غير مسألة أعتنت عليها، وإن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها، إذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فأنت الذي هو خير، وكفر عن يمينك» وروى مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ، قال «من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليكفر عن يمينه، وليفعل الذي هو خير».

وقال الإمام أحمد <sup>(٤)</sup>: حدثنا أبو سعيد مولىبني هاشم، حدثنا خليفة بن خياط، حدثني عمرو بن شعيب عن أبيه، عن جده، أن رسول الله ﷺ، قال «من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها، فتركها كفارتها» ورواه أبو داود من طريق أبي عبيد الله بن الأختنس عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، قال: قال رسول الله ﷺ «ولَا نَذْرٌ وَلَا يَمِينٌ فِيمَا لَا يَمْلِكُ ابْنُ آدَمَ، وَلَا فِي مُعْصِيَةِ اللَّهِ، وَلَا فِي قَطْبِعَةِ رَحْمٍ، وَمَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ فَرَأَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِّنْهَا فَلِيَدْعُهَا وَلِيَأْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ، فَإِنْ تَرَكَهَا كَفَّارَتَهَا» ثم قال أبو داود: والأحاديث عن النبي ﷺ كلها

(١) صحيح البخاري (وضوء باب ٦٨؛ و الجمعة باب ١٢؛ وأنباء باب ٥٤؛ وأيمان باب ١؛ وتوحيد باب ٣٥).

(٢) صحيح مسلم (جمعة حديث ٢١، ١٩).

(٣) البخاري (أيمان باب ١) وابن ماجه (كفارات باب ١١) وأحمد في المسند (ج ٢ ص ٢٧٨).

(٤) مسند أحمد (ج ٣ ص ٧٦).

## ﴿فَلِيَكُفَرْ عَنْ يَمِينِهِ﴾ وَهِيَ الصَّحَاحُ .

وقال ابن جرير : حدثنا علي بن سعيد الكندي ، حدثنا علي بن مسهر عن حارثة بن محمد ، عن عمرة ، عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ «من حلف على يمين قطيعة رحم ومعصية فبره أن يحيث فيها ويرجع عن يمينه» وهذا حديث ضعيف ، ثم روى ابن جرير عن ابن عباس وسعيد بن المسيب ومسروق والشعبي أنهم قالوا : لا يمين في معصية ولا كفارة عليها .

وقوله ﴿لَا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم﴾ أي لا يعاقبكم ولا يلزمكم بما صدر منكم من الأيمان اللاغية ، وهي التي لا يقصدها الحالف بل تجري على لسانه عادة من غير تعقيد ولا تأكيد ، كما ثبت في الصحيحين من حديث الزهري عن حميد بن عبد الرحمن عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ ، قال «من حلف فقال في حلفه باللات والعزى ، فليقل لا إله إلا الله» فهذا قاله لقوم حديسي عهد بجاهلية ، قد أسلموا وأستثنوا قد ألفت ما كانت عليه من الحلف باللات من غير قصد ، فأمرروا أن يتلفظوا بكلمة الإخلاص كما تلفظوا بتلك الكلمة من غير قصد لتكون هذه بهذه ، ولهذا قال تعالى : ﴿وَلَكُنْ يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم﴾ الآية ، وفي الآية الأخرى ﴿بِمَا عَدَتْمُ الْأَيْمَانَ﴾ [المائدة : ٨٩] . قال أبو داود [باب لغو اليمين] حدثنا حميد بن مسدة الشامي ، حدثنا حيان يعني ابن إبراهيم ، حدثنا إبراهيم يعني الصائغ ، عن عطاء : في اللغو في اليمين ، قال : قالت عائشة : إن رسول الله ﷺ قال «اللغو في اليمين هو كلام الرجل في بيته : كلا والله ، وبلى والله» ثم قال أبو داود : رواه دواود بن الفرات عن إبراهيم الصائغ ، عن عطاء عن عائشة موقوفاً ، ورواه الزهري وعبد الملك ومالك بن مغول كلهم عن عطاء عن عائشة موقوفاً أيضاً . (قلت) وكذا رواه ابن جريج وابن ليلى عن عطاء عن عائشة موقوفاً ، ورواه ابن جرير عن هناد عن وكيع وعبدة وأبي معاوية عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة في قوله ﴿لَا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم﴾ لا والله وبلى والله ، ثم رواه عن محمد بن حميد عن سلمة ، عن ابن إسحاق ، عن هشام ، عن أبيه عنها ، وبه عن ابن إسحاق عن الزهري عن القاسم عنها ، وبه عن سلمة عن ابن أبي نجيح عن عطاء عنها ، وقال عبد الرزاق : أخبرنا معاشر عن الزهري عن عروة عن عائشة في قوله ﴿لَا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم﴾ قالت : هم القوم يتدارؤون في الأمر ، فيقول هذا : لا والله ، بلى والله ، وكلا والله ، يتدارؤون في الأمر لا تعدد عليه قلوبهم ، وقد قال ابن أبي حاتم : حدثنا هارون بن إسحاق الهمданى ، حدثنا عبدة يعني ابن سليمان ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة في قول الله ﴿لَا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم﴾ قالت : هو قول الرجل : لا والله ، وبلى والله . وحدثنا أبي ، حدثنا أبو صالح كاتب الليث ، حدثني ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة ، قال : كانت عائشة تقول : إنما اللغو في المزاحة والهزل ، وهو قول الرجل : لا والله ، وبلى والله ، فذاك لا كفارة فيه ، إنما الكفارة فيما عقد عليه قلبه أن يفعله ثم لا يفعله ، ثم قال ابن أبي حاتم : وروي عن ابن عمر وابن عباس في أحد قوله ، والشعبي وعكرمة في أحد قوله ،

وعروة بن الزبير وأبي صالح والضحاك في أحد قوله، وأبي قلابة والزهري نحو ذلك.

الوجه الثاني قرئ على يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني الثقة عن ابن شهاب عن عروة، عن عائشة أنها كانت تتأول هذه الآية، يعني قوله ﴿لَا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم﴾ وتقول: هو الشيء يحلف عليه أحدكم لا يريد منه إلا الصدق فيكون على غير ما حلف عليه، ثم قال: وروي عن أبي هريرة وابن عباس في أحد قوله، وسلمان بن يسار وسعيد بن جبير ومجاحد في أحد قوله، وإبراهيم التخعي في أحد قوله، والحسن وزرارة بن أوفى وأبي مالك وعطاء الخراساني وبكر بن عبد الله، وأحد قوله عكرمة وحبيب بن أبي ثابت والستي ومكحول ومقاتل وطاوس وقتادة والربيع بن أنس ويحيى بن سعيد وربيع نحو ذلك.

وقال ابن جرير<sup>(١)</sup> حدثنا محمد بن موسى الحرشي، حدثنا عبد الله بن ميمون المرادي، حدثنا عوف الأعرابي عن الحسن بن أبي الحسن قال: مر رسول الله ﷺ بقوم ينتضلون، يعني يرمون، ومع رسول الله ﷺ رجل من أصحابه، فقام رجل من القوم فقال: أصبت والله، وأخطأت والله، فقال الذي مع النبي ﷺ للنبي ﷺ: حنت الرجل يا رسول الله، قال «كلا أيمان الرماة لغو لا كفارة فيها ولا عقوبة» هذا مرسلاً حسن عن الحسن.

وقال ابن أبي حاتم: وروي عن عائشة القولان جميعاً، حدثنا عصام بن رواد، أئبنا آدم، حدثنا شيبان عن جابر، عن عطاء بن أبي رباح، عن عائشة، قالت: هو قوله: لا والله، وبلى والله، وهو يرى أنه صادق ولا يكون كذلك.

أقوال أخرى - قال عبد الرزاق<sup>(٢)</sup>، عن هشيم عن مغيرة، عن إبراهيم: هو الرجل يحلف على الشيء ثم ينساه. وقال زيد بن أسلم<sup>(١)</sup>: هو قول الرجل أعمى الله بصرى إن لم أفعل كذا وكذا، أخرجي الله من مالي إن لم أتاك غداً، فهو هذا. قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا مسدد بن خالد، حدثنا خالد، حدثنا عطاء عن طاوس، عن ابن عباس، قال: لغو اليمين أن تحلف وأنت غضبان. وأخبرني أبي: حدثنا أبو الجماهر، حدثنا سعيد بن بشير، حدثني أبو بشر عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: لغو اليمين أن تحرم ما أحل الله لك فذلك ما ليس عليك فيه كفارة، وكذا روي عن سعيد بن جبير. وقال أبو داود [باب اليمين في الغضب] حدثنا محمد بن المنهال، أئبنا يزيد بن زريع، حدثنا حبيب المعلم عن عمرو بن شعيب، عن سعيد بن المسيب: أن أخوين من الأنصار كان بينهما ميراث، فسأل أحدهما صاحبه القسمة، فقال: إن عدت تسألني عن القسمة فكل ما لي في رتاج الكعبة، فقال له عمر: إن الكعبة غنية عن مالك، كفر عن يمينك، وكلم أخاك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يمين عليك ولا نذر في معصية

(١) تفسير الطبرى ٤٢٤ / ٢.

(٢) تفسير الطبرى ٤٢٤ / ٢ — ٤٢٥.

الرب عز وجل ، ولا في قطيعة الرحم ، ولا فيما لا تملك» .

وقوله «ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم» قال ابن عباس ومجاحد وغير واحد: هو أن يحلف على الشيء وهو يعلم أنه كاذب ، قال مجاهد وغيره ، وهي قوله تعالى : «ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان» [المائدة: ٨٩] . «وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ» أي غفور لعباده حليم عليهم .

**لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِسَائِهِمْ تَرْبُصُ أَرْبَعَةً أَشْهُرٍ إِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**

عَلَيْهِمْ

الإيلاء الحلف ، فإذا حلف الرجل أن لا يجامع زوجته مدة ، فلا يخلو إما أن يكون أقل من أربعة أشهر أو أكثر منها ، فإن كانت أقل ، فله أن يتضرر انتفاء المدة ثم يجامع امرأته ، وعليها أن تصبر وليس لها مطالبته بالفيفة في هذه المدة ، وهذا كما ثبت في الصحيحين عن عائشة أن رسول الله ﷺ ، إلى من نسائه شهراً فنزل لتسع وعشرين ، وقال «الشهر تسعة وعشرون» ولهمما عن عمر بن الخطاب نحوه ، فاما إن زادت المدة على أربعة أشهر فللزوجة مطالبة الزوج عند انتفاء أربعة أشهر ، إما أن يفيء أي يجامع ، وإما أن يطلق فيجبره الحاكم على هذا ، وهذا ثلاثة يضر بها ، ولهذا قال تعالى : «لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِسَائِهِمْ» أي يحلفون على ترك الجماع عن نسائهم ، فيه دلالة على أن الإيلاء يختص بالزوجات دون الإمام كما هو مذهب الجمهور «تربيص أربعة أشهر» أي ينتظر الزوج أربعة أشهر من حين الحلف ، ثم يوقف ويطلب بالفيفة أو الطلاق ، ولهذا قال «فَإِنْ فَاءُوا» أي رجعوا إلى ما كانوا عليه وهو كنایة عن الجماع ، قاله ابن عباس ومسروق والشعبي وسعيد بن جبیر وغير واحد ومنهم ابن جریر رحمه الله «فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ» لما سلف من التقصير في حقهن بسبب اليمين .

قوله «فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ» فيه دلالة لأحد قولي العلماء ، وهو القديم عن الشافعی أن المولى إذا فاء بعد الأربعه الأشهر أنه لا كفاره عليه ، ويعتضد بما تقدم في الحديث عند الآية التي قبلها عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ، أن رسول الله ﷺ ، قال : «من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها ، فتركها كفارتها» كما رواه أحمد وأبو داود والترمذی ، والذي عليه الجمهور وهو الجديد من مذهب الشافعی أن عليه التكفير لعموم وجوب التكفير على كل حالف ، كما تقدم أيضاً في الأحاديث الصلاح ، والله أعلم .

وقوله «وَإِنْ عَزَمُوا الطلاق» فيه دلالة على أن الطلاق لا يقع بمجرد مضي الأربعه أشهر ، كقول الجمهور من المتأخرین ، وذهب آخرون إلى أنه يقع بمضي أربعة أشهر تطليقة ، وهو مروي بأسانید صحيحة عن عمر وعثمان وعلي وابن مسعود وابن عباس وابن عمر وزيد بن ثابت ، وبه يقول ابن سيرین ومسروق والقاسم وسالم والحسن وأبو سلمة وقتادة وشريح القاضي وقبضة بن

ذؤيب وعطاء وأبو سلمة بن عبد الرحمن وسليمان بن طرخان التيمي وإبراهيم التخعي والربيع بن أنس والسدسي، ثم قيل: إنها تطلق بمضي الأربعة أشهر طلقة رجعية، قاله سعيد بن المسيب وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ومكحول وريبيعة والزهري ومروان بن الحكم، وقيل: إنها تطلق طلقة بائنة، روی عن علي وابن مسعود وعثمان وابن عباس وابن عمر وزيد بن ثابت، وبه يقول عطاء وجابر بن زيد ومسروق وعكرمة والحسن وابن سيرين ومحمد بن الحنفية وإبراهيم وقيصية بن ذؤيب وأبو حنيفة والثوري والحسن بن صالح، فكل من قال: إنها تطلق بمضي الأربعة أشهر أو جب عليها العدة، إلا ما روی عن ابن عباس وأبي الشعثاء: أنها إن كانت حاضت ثلاثة حيض فلا عدة عليها، وهو قول الشافعی، والذي عليه الجمهور من المتأخرین أن يوقف فیطالب إما بهاذا وإما بهاذا ولا يقع عليها بمجرد مضيها طلاق، وروی مالک عن نافع عن عبد الله بن عمر أنه قال: إذا آتى الرجل من امرأته لم يقع عليه طلاق وإن مضت أربعة أشهر حتى يوقف، فإذاً يطلق وإما أن يفيء، وأخرجه البخاري.

وقال الشافعی رحمه الله: أخبرنا سفيان بن عيينة عن يحيی بن سعید، عن سلیمان بن یسار، قال: أدركت بضعة عشر من أصحاب النبي ﷺ كلهم يوقف المولی، قال الشافعی: وأقل ذلك ثلاثة عشر، ورواه الشافعی عن علي رضی الله عنه أنه يوقف المولی، ثم قال: وهكذا نقول، وهو موافق لما روينا عن عمر وابن عمر وعائشة وعثمان وزيد بن ثابت وبضعة عشر من أصحاب النبي ﷺ، هكذا قال الشافعی رحمه الله.

قال ابن جریر: حدثنا ابن أبي مريم، حدثنا یحیی بن أیوب، عن عبید الله بن عمر، عن سهیل بن أبي صالح، عن أبيه، قال: سألت اثنی عشر رجلاً من الصحابة عن الرجل یولي من امرأته، فكلهم يقول: ليس عليه شيء حتى تمضي الأربعة أشهر فيوقف، فإن فاء وإلا طلاق، ورواه الدارقطنی من طريق سهیل.

(قلت) وهو يروی عن عمر وعثمان وعلي وأبي الدرداء وعائشة أم المؤمنین وابن عمر وابن عباس، وبه يقول سعید بن المسيب وعمر بن عبد العزیز ومجاہد وطاوس ومحمد بن كعب والقاسم، وهو مذهب مالک والشافعی وأحمد بن حنبل وأصحابهم رحمهم الله، وهو اختيار ابن حریر أيضاً، وهو قول الليث وإسحاق بن راهويه وأبي عبید وأبي ثور وداود، وكل هؤلاء قالوا: إن لم یفیء ألزم بالطلاق، فإن لم یطلق طلاق عليه الحاکم، والطلقة تكون رجعیة، لها رجعتها في العدة، وانفرد مالک بأن قال، لا یجوز له رجعتها حتى یجامعها في العدة وهذا غریب جداً.

قد ذکر الفقهاء وغيرهم في مناسبة تأجیل المولی بأربعة أشهر، الآخر الذي رواه الإمام مالک بن أنس رحمه الله في الموطأ، عن عبد الله بن دینار، قال: خرج عمر بن الخطاب من اللیل، فسمع امرأة تقول: [الطویل]

تطاول هذا اللیلُ واسود جانبَهْ وأرقنيَّ أن لا خلیلَ الاعبِّ

فَوَاللَّهِ لَوْلَا اللَّهُ أَنِي أَرَقِبُهُ لَحُرْكَ مِنْ هَذَا السَّرِيرِ جَوَانِبِهِ<sup>(١)</sup>

فَسَأَلَ عَمَرَ ابْنَهُ حَفْصَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كَمْ أَكْثَرُ مَا تَصْبِرُ الْمَرْأَةُ عَنْ زَوْجِهِ؟ فَقَالَتْ: سَتَةُ أَشْهُرٍ أَوْ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ، فَقَالَ عَمَرُ: لَا أَحْبَسُ أَحَدًا مِنَ الْجَيُوشِ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ، عَنْ السَّائِبِ بْنِ جَبَيرٍ مُولَى ابْنِ عَبَّاسٍ وَكَانَ قَدْ أَدْرَكَ أَصْحَابَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: مَا زَلْتَ أَسْمَعُ حَدِيثَ عُمَرَ أَنَّهُ خَرَجَ ذَاتَ لَيْلَةٍ يَطْوِفُ بِالْمَدِينَةِ، وَكَانَ يَفْعُلُ ذَلِكَ كَثِيرًا إِذَا مَرَ بِامْرَأَةٍ مِنْ نِسَاءِ الْعَرَبِ مَغْلَقَةً بَابِهَا، تَقُولُ:

وَأَرْقَنِي أَنْ لَا ضَجِيعَ لِأَلَاعِبِهِ  
بَدَا قَمْرًا فِي ظُلْمَةِ اللَّيلِ حَاجِبِهِ  
لَطِيفُ الْحَشَاءُ لَا يَحْتَوِيهِ أَقْارِبِهِ  
لِنَقْضِ مِنْ هَذَا السَّرِيرِ جَوَانِبِهِ  
بِأَنْفَاسِنَا لَا يَفْتَرُ الدَّهْرُ كَاتِبِهِ  
إِكْرَامُ بَعْلِيٍّ أَنْ تَنَالَ مَرَاكِبِهِ  
ثُمَّ ذَكَرَ بَقِيَةُ ذَلِكَ، كَمَا تَقْدِمُ أَوْ نَحْوُهُ، وَقَدْ رُوِيَ هَذَا مِنْ طَرِيقٍ وَهُوَ مِنَ الْمَشْهُورَاتِ.

تَطاوِلُ هَذَا الْلَّيْلَ وَازُورُ جَانِبِهِ  
الْأَلَاعِبِ طُورًا وَطُورًا كَأَنَّمَا  
يُسَرُّ بِهِ مَنْ كَانَ يَلْهُو بِقَرْبِهِ  
فَوَاللَّهِ لَوْلَا اللَّهُ لَا شَيْءٌ غَيْرُهُ  
وَلَكُنْتِي أَخْشَى رَقِيبًا مُوكِلاً  
مُخَافَةً رَبِّي وَالْحَيَاءَ يَصْدُنِي  
ثُمَّ ذَكَرَ بَقِيَةُ ذَلِكَ، كَمَا تَقْدِمُ أَوْ نَحْوُهُ، وَقَدْ رُوِيَ هَذَا مِنْ طَرِيقٍ وَهُوَ مِنَ الْمَشْهُورَاتِ.

وَالْمُطَلَّقَاتِ يَرَبِصُنَّ إِنْفَسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قِرْوَهُ وَلَا يَحْلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمُنَ مَا حَلَّ اللَّهُ فِي أَرْجَاهِهِنَّ إِنْ كُنَّ  
يُؤْمِنُنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبِعُولَهُنَّ أَحَقُّ بِرِيَاهِنَ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَ بِالْمَعْرُوفِ  
وَلِلرَّجَالِ عَلَيْهِنَ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ<sup>(٢)</sup>

هذا أمر من الله سبحانه وتعالى للملائكة المدخول بهن من ذات الأقراء، بأن يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء، أي بأن تمكث إحداهن بعد طلاق زوجها لها ثلاثة قروء، ثم تتزوج إن شاءت، وقد أخرج الأئمة الأربعية من هذا العموم الأمة إذا طلقت، فإنها تعتد عندهم بقرارain لأنها على نصف من الحرة، والقراء لا يتبعض فكميل لها قرآن، ولما رواه ابن جرير عن مظاہر بن أسلم المخزومي المدني، عن القاسم، عن عائشة، أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «طلاق الأمة تطليقات، وعدتها حيستان» رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه، ولكن مظاہر هذا ضعيف بالكلية، وقال الحافظ الدارقطني وغيره: الصحيح أنه من قول القاسم بن محمد نفسه، ورواه ابن ماجه من طريق عطيه العوفي عن ابن عمر مرفوعاً، قال الدارقطني: وال الصحيح ما رواه سالم ونافع عن ابن عمر قوله، وهكذا روي عن عمر بن الخطاب. قالوا: ولم يعرف بين الصحابة

(١) البيت الأول منسوب لأم الحجاج بن يوسف في تاج العروس (زعزع)؛ وهو بلا نسبة في لسان العرب (أسن، زعع، وصل، وجه). والبيت الثاني بلا نسبة في خزانة الأدب ٣٣٣/١٠؛ ورصف المبني ص ٢٤؛ وسر صناعة الإعراب ص ٣٩٤؛ وشرح شواهد المعنى ص ٦٦٨.

خلاف، وقال بعض السلف: بل عدتها كعده الحرة لعموم الآية، ولأن هذا أمر جبلي، فكان الحرائر والإماء في هذا سواء، حكى هذا القول الشيخ أبو عمر بن عبد البر، عن محمد بن سيرين وبعض أهل الظاهر وضعفه. وقد قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا أبو اليمان، حدثنا إسماعيل، يعني ابن عياش، عن عمرو بن مهاجر، عن أبيه، أن أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية، قالت: طلقت على عهد رسول الله ﷺ، ولم يكن للمطلقة عدة، فأنزل الله عز وجل حين طلقت أسماء العدة للطلاق، فكانت من هذا الوجه فيها العدة للطلاق يعني «المطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء»، وهذا حديث غريب من هذا الوجه. وقد اختلف السلف والخلف والأئمة في المراد بالأقراء ما هو على قولين: [أحدهما] أن المراد بها الأطهار، وقال مالك في الموطأ<sup>(١)</sup> عن ابن شهاب، عن عروة، عن عائشة أنها انتقلت حفصة بنت عبد الرحمن بن أبي بكر حين دخلت في الدم من الحيضة الثالثة، فذكر ذلك لعمرة بنت عبد الرحمن، فقالت: صدق عروة، وقد جادلها في ذلك ناس فقالوا: إن الله تعالى يقول في كتابه «ثلاثة قروء». فقالت عائشة: صدقتم، وتدرؤون ما الأقراء؟ إنما الأقراء الأطهار. وقال مالك<sup>(٢)</sup>، عن ابن شهاب: سمعت أبي بكر بن عبد الرحمن يقول: ما أدركت أحداً من فقهائنا إلا وهو يقول ذلك، يريد قول عائشة. وقال مالك<sup>(٣)</sup> عن نافع، عن عبد الله بن عمر، أنه كان يقول: إذا طلق الرجل امرأته، فدخلت في الدم من الحيضة الثالثة فقد برئت منه وبريء منها، وقال مالك: وهو الأمر عندنا.

وروي مثله عن ابن عباس وزيد بن ثابت وسالم والقاسم وعروة وسليمان بن يسار، وأبي بكر بن عبد الرحمن وأبان بن عثمان وعطاء بن أبي رباح وقادة والزهري وبقية الفقهاء السبعة وهو مذهب مالك والشافعي وغير واحد ودادود وأبي ثور، وهو رواية عن أحمد واستدلوا عليه بقوله تعالى: «فطلقوهن لعدتهن» أي في الأطهار ولما كان الطهر الذي يطلق فيه محتسباً، دل على أنه أحد الأقراء الثلاثة المأمور بها ولهذا قال هؤلاء: إن المعتدة تنقضي عدتها وتبين من زوجها بالطعن في الحيضة الثالثة، وأقل مدة تصدق فيها المرأة في انقضاء عدتها اثنان وثلاثون يوماً ولحظتان، واستشهد أبو عبد وغيره على ذلك بقول الشاعر وهو الأعشى: [الطويل]

ففي كل عام أنت جاشم غزوة      تشد لأقصاها عزيز عزائكا  
مورثة مالاً وفي الذكر رفة      لما ضاع فيها من قروء نسائك<sup>(٤)</sup>

يمدح أميراً<sup>(٥)</sup> من أمراء العرب آثر الغزو على المقام، حتى ضاعت أيام الطهر من نسائه لم

(١) الموطأ (طلاق حديث ٥٤).

(٢) الموطأ (طلاق حديث ٥٥).

(٣) الموطأ (طلاق حديث ٥٨).

(٤) البيتان للأعشى في ديوانه ص ١٤١؛ ولسان العرب (غزا)؛ والطبرى ٤٥٨/٢؛ ومجاز القرآن ١/٧٤.

(٥) هو هوذة بن علي الحنفي.

يواقعهن فيه . [والقول الثاني] - أن المراد بالأقراء ، الحيض ، فلا تنقضي العدة حتى تطهر من الحيضة الثالثة ، زاد آخرون : وتغسل منها ، وأقل وقت تصدق فيه المرأة في انقضاء عدتها ثلاثة وثلاثون يوماً ولحظة ، قال الثوري : عن منصور عن إبراهيم عن علقة قال : كنا عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه فجاءه امرأة فقالت : إن زوجي فارقني بواحدة أو اثنتين فجاءني وقد نزعت ثيابي وأغلقت بالي ، فقال عمر لعبد الله بن مسعود : أراها امرأته ما دون أن تحل لها الصلاة قال : وأنا أرى ذلك ، وهكذا روي عن أبي بكر الصديق وعمر وعثمان وعلي وأبي الدرداء وعبادة بن الصامت وأنس بن مالك وابن مسعود ومعاذ ، وأبي بن كعب وأبي موسى الأشعري وابن عباس وسعيد بن المسيب وعلقة والأسود وإبراهيم ومجاحد وعطاء وطاوس وسعيد بن جبير وعكرمة ومحمد بن سيرين والحسن وقتادة والشعبي والربيع ومقاتل بن حيان والسدي ومكحول والضحاك وعطاء الخراساني أنهما قالوا : الأقراء الحيض .

وهذا مذهب أبي حنفة وأصحابه وأصح الروايتين عن الإمام أحمد بن حنبل ، وحكى عنه الأئمأنه قال : الأكابر من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون : الأقراء الحيض ، وهو مذهب الثوري والأوزاعي وابن أبي ليلى وابن شبرمة والحسن بن صالح بن حي وأبي عبيد وإسحاق بن راهويه . ويؤيد هذا ما جاء في الحديث الذي رواه أبو داود والنسائي من طريق المنذر بن المغيرة عن عروة بن الزبير عن فاطمة بنت أبي حبيش ، أن رسول الله ﷺ قال لها «دعى الصلاة أيام أقربائك» فهذا لو صاح لكان صريحاً في أن القرء هو الحيض ، ولكن المنذر هذا قال فيه أبو حاتم : مجھول ليس بمشهور وذكره ابن حبان في الثقات .

وقال ابن جرير : أصل القرء في كلام العرب : الوقت لمعجبيء الشيء المعتاد مجئه في وقت معلوم ولإدبار الشيء المعتاد إدباره لوقت معلوم . وهذه العبارة تقتضي أن يكون مشتركاً بين هذا وهذا ، وقد ذهب إليه بعض الأصوليين ، والله أعلم . وهذا قول الأصمعي أن القرء هو الوقت . وقال أبو عمرو بن العلاء : العرب تسمى الحيض قراء ، وتسمى الطهر قراءاً وتسمى الطهر والحيض جميعاً قراءاً . وقال الشيخ أبو عمر بن عبد البر لا يختلف أهل العلم بلسان العرب والفقهاء أن القرء يراد به الحيض ، ويراد به الطهر ، وإنما اختلفوا في المراد من الآية ما هو على قولين .

وقوله : «ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن» أي من حبل أو حيض ، قاله ابن عباس وابن عمر ومجاحد والشعبي والحكم بن عيينة والربيع بن أنس والضحاك وغير واحد ، وقوله : «إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر» تهديد لهن على خلاف الحق ، دل هذا على أن المرجع في هذا إليهن لأنه أمر لا يعلم إلا من جهتهم ويتعدى إقامة البينة غالباً على ذلك ، فرد الأمر إليهن وتوعدهن فيه لثلا يخبرن بغير الحق ، إما استعجالاً منها لانقضاء العدة أو رغبة منها في تطويلها لما لها في ذلك من المقاصد ، فأمرت أن تخبر بالحق في ذلك من غير زيادة ولا نقصان .

وقوله: «وبعولتهن أحق بردهن في ذلك إن أرادوا إصلاحاً» أي وزوجها الذي طلقها أحق بردها، ما دامت في عدتها، إذا كان مراده بردها الإصلاح والخير، وهذا في الرجعيات، فاما المطلقات البواين، فلم يكن حال نزول هذه الآية مطلقة بائن، وإنما كان ذلك لما حصرروا في الطلقات الثلاث، فأما حال نزول هذه الآية، فكان الرجل أحق برجعة امرأته وإن طلقها مائة مرة، فلما قصرروا في الآية التي بعدها على ثلاث تطليقات، صار للناس مطلقة بائن، وغير بائن. وإذا تأملت هذا، تبين لك ضعف ما سلكه بعض الأصوليين من استشهادهم على مسألة عود الضمير، هل يكون مختصاً لما تقدمه من لفظ العموم أم لا بهذه الآية الكريمة، فإن التمثيل بها غير مطابق لما ذكروه، الله أعلم.

وقوله «ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف» أي ولهن على الرجال من الحق مثل ما للرجال عليهن، فليؤد كل واحد منها إلى الآخر، ما يجب عليه بالمعروف، كما ثبت في صحيح مسلم<sup>(١)</sup> عن جابر، أن رسول الله ﷺ قال في خطبته في حجة الوداع «فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتمن فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح، ولهن رزقهن وكسوتهم بالمعروف» وفي حديث بهز بن حكيم عن معاوية بن حيدة القشيري عن أبيه عن جده أنه قال: يا رسول الله ما حق زوجة أحدنا؟ قال «أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضرب الوجه، ولا تقبع، ولا تهجر إلا في البيت» وقال وكيع، عن بشير بن سليمان، عن عكرمة عن ابن عباس، قال: إني لأحب أن أتزين للمرأة كما أحب أن تتزين لي المرأة، لأن الله يقول «ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف» ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم، وقوله «للرجال عليهن درجة» أي في الفضيلة في الخلق والخلق والمنزلة وطاعة الأمر والإتفاق والقيام بالمصالح والفضل في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: «الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم» [النساء: ٣٤].

وقوله «والله عزيز حكيم» أي عزيز في انتقامه ممن عصاه وخالف أمره، حكيم في أمره وشروعه وقدره.

الْأَطْلَقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ شَرِيفٌ يَإِحْسَنٌ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا أَتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلَّا  
أَنْ يَخَافُوا أَلَا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خَفْتُمْ أَلَا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا أَفْنَدْتُمْ بِهِمْ تِلْكَ حُدُودَ اللَّهِ فَلَا  
تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَعْتَدَ حُدُودَ اللَّهِ فَأَوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢﴾ فَإِنْ طَلَقَهَا فَلَا يَحِلُّ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ حَرَّى تَنكِحَ رَوْجَاجَيْرَةَ  
فَإِنْ طَلَقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَرْجِعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودَ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾

(١) صحيح مسلم (حج حديث ١٤٧) وأخرجه أبو داود (مناسك باب ٥٦) وابن ماجه (مناسك باب ٨٤) وأحمد في المسند (ج ٥ ص ٧٣).

هذه الآية الكريمة رافعة لما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام من أن الرجل كان أحق برجعة امرأته وإن طلقها مائة مرة ما دامت في العدة، فلما كان هذا فيه ضرر على الزوجات قصرهم الله إلى ثلاث طلقات، وأباح الرجعة في المرة والثنتين، وأبانها بالكلية في الثالثة، فقال «الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان» قال أبو داود رحمة الله في سنته [باب نسخ المراجعة بعد الطلقات الثلاث]. حدثنا أحمد بن محمد المروزي، حدثني علي بن الحسين بن واقد عن أبيه، عن يزيد التحوي، عن عكرمة، عن ابن عباس «والطلاقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن» الآية، ودل أن الرجل كان إذا طلق امرأته فهو أحق برجعتها وإن طلقها ثلاثاً، فنسخ ذلك فقال «الطلاق مرتان» الآية، ورواه النسائي عن زكريا بن يحيى عن إسحاق بن إبراهيم عن علي بن الحسين به.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا هارون بن إسحاق، حدثنا عبدة يعني ابن سليمان، عن هشام بن عروة، عن أبيه، أن رجلاً قال لامرأته: لا أطلقك أبداً ولا أويك أبداً، قالت: كيف ذلك؟ قال: أطلق حتى إذا دنا أجلك راجعتك، فأتت رسول الله ﷺ، ذكرت ذلك له، فأنزل الله عز وجل «الطلاق مرتان»، وهكذا رواه ابن جرير في تفسيره من طريق جرير بن عبد الحميد وابن إدريس، ورواه عبد بن حميد في تفسيره عن جعفر بن عون، كلهم عن هشام عن أبيه، قال: كان الرجل أحق برجعة امرأته وإن طلقها ما شاء ما دامت في العدة، وإن رجلاً من الأنصار غضب على امرأته، فقال: والله لا أويك ولا أفارقك، قالت: وكيف ذلك؟ قال: أطلقك، فإذا دنا أجلك راجعتك، ثم أطلقك فإذا دنا أجلك راجعتك ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فأنزل الله عز وجل «الطلاق مرتان» قال: فاستقبل الناس الطلاق من كان طلق ومن لم يكن طلق. وقد رواه أبو بكر بن مردويه من طريق محمد بن سليمان عن يعلى بن شبيب مولى الزبير، عن هشام، عن أبيه، عن عائشة ذكره بنحو ما تقدم. ورواه الترمذى عن قتيبة، عن يعلى بن شبيب به، ثم رواه عن أبي كريب، عن ابن إدريس، عن هشام. عن أبيه مرسلاً، وقال: هذا أصح. ورواه الحكمي في مستدركه من طريق يعقوب بن حميد بن كاسب عن يعلى بن شبيب به، وقال: صحيح الإسناد.

ثم قال ابن مردويه: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا إسماعيل بن عبد الله، حدثنا محمد بن حميد، حدثنا سلمة بن الفضل عن محمد بن إسحاق، عن هشام بن عروة، عن عائشة، قالت: لم يكن للطلاق وقت يطلق الرجل امرأته ثم يراجعها ما لم تنتقض العدة، وكان بين رجل من الأنصار وبين أهله بعض ما يكون بين الناس، فقال: والله لأتركنك لا أيمأ ولا ذات زوج، فجعل يطلقها حتى إذا كادت العدة أن تنقضى راجعها، ففعل ذلك مراراً، فأنزل الله عز وجل فيه «الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان» فوق الطلاق ثلاثاً لا رجعة فيه بعد الثالثة حتى تنكح زوجاً غيره. وهكذا روی عن قتادة مرسلاً، ذكره السدي وابن زيد وابن

جرير كذلك، واختار أن هذا تفسير هذه الآية.

وقوله **﴿فإمساك بمعرفٍ أو تسریح بِإحسان﴾** أي إذا طلقتها واحدة أو اثنتين، فأنت مخير فيها ما دامت عدتها باقية بين أن تردها إليك ناوياً بالإصلاح بها والإحسان إليها، وبين أن تتركها حتى تنقضي عدتها فتدين منك وتطلق سراحها محسناً إليها، لا تظلمها من حقها شيئاً ولا تضار بها. وقال ابن أبي طلحة. عن ابن عباس، قال: إذا طلق الرجل امرأته تطليقتين، فليتق الله في ذلك، أي في الثالثة، فإما أن يمسكها بمعرفٍ فيحسن صاحبها، أو يسرحها بِإحسان فلا يظلمها من حقها شيئاً.

وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا يونس بن عبد الأعلى قراءة، أخبرنا ابن وهب، أخبرني سفيان الثوري، حدثني إسماعيل بن سميمع، قال: سمعت أبا رزین يقول: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أرأيت قول الله عز وجل **﴿فإمساك بمعرفٍ أو تسریح بِإحسان﴾** أين الثالثة؟ قال: «التسریح بِإحسان» ورواه عبد بن حميد في تفسيره ولفظه: أخبرنا يزيد بن أبي حكيم عن سفيان عن إسماعيل بن سميمع، أن أبا رزین الأستدي يقول: قال رجل: يا رسول الله، أرأيت قوله الله **﴿الطلاق مرتان﴾** فأين الثالثة؟ قال «التسریح بِإحسان الثالثة» ورواه الإمام أحمد أيضاً. وهكذا رواه سعيد بن منصور عن خالد بن عبد الله، عن إسماعيل بن ذكرياء وأبي معاوية، عن إسماعيل بن سميمع، عن أبا رزین به وكذا رواه ابن مردویه أيضاً من طريق قيس بن الربيع عن إسماعيل بن سميمع عن أبا رزین به مرسلاً ورواه ابن مردویه أيضاً من طريق عبد الواحد بن زياد، عن إسماعيل بن سميمع، عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ، فذکرہ، ثم قال: حدثنا عبد الله بن أحمد بن عبد الرحيم، حدثنا حماد بن سلمة بن قتادة، عن أنس بن مالك، قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ذكر الله الطلاق مرتين، فأين الثالثة؟ قال: **﴿إمساك بمعرفٍ أو تسریح بِإحسان﴾**.

وقوله: **﴿وَلَا يحلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مَا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا﴾** أي لا يحل لكم أن تصادروهن وتضيقوا عليهم، ليفتدين منكم بما أعطيتموهن من الأصدقة أو ببعضه، كما قال تعالى: **﴿وَلَا تَعْصِلُوهُنَّ لِتَذَهَّبُوا بِعِصْمٍ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَ﴾** [النساء: ١٩] فاما إن وهبته المرأة شيئاً عن طيب نفسها منها، فقد قال تعالى: **﴿فَإِنْ طَبَنَ لَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ نَفْسٍ فَكُلُوهُ هنِئًا مَرِيئًا﴾** [النساء: ٤٠] وأما إذا تشاقد الزوجان، ولم تقم المرأة بحقوق الرجل وأبغضته ولم تقدر على معاشرته، فلها أن تفتدي منه بما أعطاها، ولا حرج عليها في بذلك له، ولا حرج عليه في قبول ذلك منها، ولهذا قال تعالى: **﴿وَلَا يحلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مَا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافُوا أَنْ لَا يَقِيمَا حَدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحٌ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾** الآية.

**فَإِنْمَا إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهَا عُذْرٌ، وَسَأَلَتِ الْأَفْتَدَاءَ مِنْهُ، فَقَدْ قَالَ أَبْنَ**

جرير<sup>(١)</sup>: حدثنا ابن بشار، حدثنا عبد الوهاب (ح)<sup>(٢)</sup> وحدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن علية، قالا جمِيعاً: حدثنا أَيُوب عن أبي قلابة، عن حدثه عن ثوبان، أن رسول الله ﷺ قال: «أيما امرأة سالت زوجها طلاقها في غير ما بأس، فحرام عليها رائحة الجنة». وهكذا رواه الترمذى عن بندار، عن عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفى به، وقال حسن: قال ويروى عن أَيُوب، عن أبي قلابة، عن أبي أسماء، عن ثوبان، ورواه بعضهم عن أَيُوب بهذا الإسناد ولم ير فعه.

وقال الإمام أحمد<sup>(٣)</sup>: حدثنا عبد الرحمن، حدثنا حماد بن زيد عن أَيُوب عن أبي قلابة، قال: وذكر أبا أسماء وذكر ثوبان، قال: قال رسول الله ﷺ «أيما امرأة سالت زوجها الطلاق في غير ما بأس فحرام عليها رائحة الجنة». وهكذا رواه أبو داود وابن ماجه وابن جرير من حديث حماد بن زيد به.

طريق آخر - قال ابن جرير<sup>(٤)</sup>: حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا المعتمر بن سليمان، عن ليث بن أبي إدريس، عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ، عن النبي ﷺ أنه قال: «أيما امرأة سالت زوجها الطلاق في غير ما بأس حرم الله عليها رائحة الجنة» وقال: «المختلعتات هن المنافقات». ثم رواه ابن جرير والترمذى جمِيعاً، عن أبي كريب، عن مزاحم بن داود بن علية، عن أبيه، عن ليث هو ابن أبي سليم، عن أبي الخطاب، عن أبي زرعة، عن أبي إدريس، عن ثوبان، قال: قال رسول الله ﷺ «إن المختلعتات هن المنافقات». ثم قال الترمذى: غريب من هذا الوجه وليس بإسناده بالقولى.

حديث آخر - قال ابن جرير<sup>(٥)</sup>: حدثنا أبو كريب، حدثنا حفص بن بشر، حدثنا قيس بن الريبع، عن أشعث بن سوار، عن الحسن، عن ثابت بن يزيد، عن عقبة بن عامر، قال: قال رسول الله ﷺ «إن المختلعتات هن المنافقات» غريب من هذا الوجه ضعيف.

الحديث آخر - قال الإمام أحمد<sup>(٦)</sup>: حدثنا عفان، حدثنا وهيب، حدثنا أَيُوب عن الحسن، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ «المختلعتات والمتنزعات هن المنافقات».

الحديث آخر - قال ابن ماجه: حدثنا بكر بن خلف أبو بشر، حدثنا أبو عاصم عن جعفر بن يحيى بن ثوبان، عن عمته عمارة بن ثوبان، عن عطاء عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تسأل امرأة زوجها الطلاق في غير كنهه، فتجدر بفتح الجنة وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين

(١) تفسير الطبرى ٤٨١/٢.

(٢) إذا كان للحديث إسنادان أو أكثر كتبوا عند الانتقال من إسناد إلى إسناد (ح) وهي مأخوذة من التحول.

(٣) المسند (ج ٥ ص ٢٧٧).

(٤) تفسير الطبرى ٤٨١/٢.

(٥) المسند (ج ٢ ص ٤١٤).

ثم قد قال طائفة كثيرة من السلف وأئمة الخلف : إنه لا يجوز الخلع إلا أن يكون الشقاق والنشوز من جانب المرأة فيجوز للرجل حينئذ قبول الفدية ، واحتجوا بقوله تعالى : ﴿وَلَا يحل لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلَّا أَن يَخْفَافَا أَلَا يَقِيمَا حَدُودَ اللَّهِ﴾ قالوا : فلم يشرع الخلع إلا في هذه الحالة ، فلا يجوز في غيرها إلا بدليل ، والأصل عدمه ، منمن ذهب إلى هذا ابن عباس وطاوس وإبراهيم وعطاء والحسن والجمهور حتى قال مالك والأوزاعي : لو أخذ منها شيئاً وهو مضار لها ، وجب رده إليها ، وكان الطلاق رجعياً قال مالك : وهو الأمر الذي أدركت الناس عليه ، وذهب الشافعي رحمه الله إلى أنه يجوز الخلع في حال الشقاق وعند الاتفاق بطريق الأولى والأخرى ، وهذا قول جميع أصحابه قاطبة ، وحکى الشيخ أبو عمر بن عبد البر في كتاب الاستذكار له عن بكر بن عبد الله المزنی ، أنه ذهب إلى أن الخلع منسوخ بقوله : ﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قُنْطَاراً فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً﴾ [النساء : ٢٠] ورواه ابن جرير عنه ، وهذا قول ضعيف ومؤخذ مردود على قائله .

وقد ذكر ابن جرير رحمه الله أن هذه الآية نزلت في شأن ثابت بن قيس بن شناس وامرأته حبيبة بنت عبد الله بن أبي بن سلول ، ولنذكر طرق حديثها واختلاف ألفاظه .

قال الإمام مالك في موطئه<sup>(١)</sup> ، عن يحيى بن سعيد ، عن عمرة بنت عبد الرحمن بن سعيد بن زرار : أنها أخبرته عن حبيبة بنت سهل الانصارية ، أنها كانت تحت ثابت بن قيس بن شناس ، وأن رسول الله ﷺ خرج إلى الصبح ، فوجد حبيبة بنت سهل عند بابه في الغلس ، فقال رسول الله ﷺ «من هذه؟» قالت : أنا حبيبة بنت سهل . فقال «ما شأنك؟» قالت : لا أنا ولا ثابت بن قيس ، لزوجها ، فلما جاء زوجها ثابت بن قيس قال له رسول الله ﷺ «هذه حبيبة بنت سهل قد ذكرت ما شاء الله أن تذكر» فقالت حبيبة : يا رسول الله كل ما أعطاني عندي ، فقال رسول الله ﷺ «خذ منها» فأخذ منها وجلس في أهلها . وهكذا رواه الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن مهدي عن مالك ياسناده مثله ، ورواه أبو داود<sup>(٢)</sup> عن القعنبي عن مالك والنسيائي عن محمد بن مسلمة عن ابن القاسم عن مالك .

حديث آخر - عن عائشة ، قال أبو داود وابن جرير<sup>(٣)</sup> : حدثنا محمد بن معمر ، حدثنا أبو عامر ، حدثنا عمرو السدوسي عن عبد الله بن أبي بكر ، عن عمرة ، عن عائشة ، أن حبيبة بنت سهل كانت تحت ثابت بن قيس بن شناس فضربيها فانكسر بعضها ، فأثبتت رسول الله ﷺ بعد الصبح فاشتكته إليه ، فدعى رسول الله ﷺ ثابتًا ، فقال «خذ بعض مالها وفارقها» قال : ويصلح

(١) الموطأ (طلاق حديث ٣١).

(٢) سنن أبي داود (طلاق باب ١٧).

(٣) تفسير الطبرى ٤٧٥ / ٢ .

ذلك يا رسول الله؟ قال «نعم». قال إنني أصدقها حديقتين فهما بيدها، فقال النبي ﷺ «خذهما وفارقهما» ففعل، وهذا لفظ ابن جرير وأبو عمرو السدوسي هو سعيد بن سلمة بن أبي الحسام.

حدث آخر فيه، عن ابن عباس رضي الله عنه، قال **البخاري**<sup>(١)</sup>: حدثنا أزهراً بن جمِيل، أخبرنا عبد الوهاب الثقفي، حدثنا خالد عن عكرمة، عن ابن عباس، أن امرأة ثابت بن قيس بن شمس، أتت النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله ما أعيب عليه في خلق ولا دين، ولكن أكره الكفر في الإسلام، فقال رسول الله ﷺ «أتَرَدِينَ عَلَيْهِ حَدِيقَتِهِ؟» قالت: نعم، قال رسول الله ﷺ «أقبل الحديقة وطلّقها تطليقة». وكذا رواه النسائي عن أزهراً بن جمِيل بإسناده مثله، ورواه البخاري أيضاً به، عن إسحاق الواسطي، عن خالد هو ابن عبد الله الطحان، عن خالد هو ابن مهران الحذاء، عن عكرمة، به نحوه، وهكذا رواه البخاري أيضاً من طرق عن أيوب عن عكرمة عن ابن عباس وفي بعضها أنها قالت: لا أطيقه يعني بغضاً. وهذا الحديث من إفراد البخاري من هذا الوجه، ثم قال: حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن زيد عن أيوب، عن عكرمة أن جميلة رضي الله عنها - كذا قال - والمشهور أن اسمها حبيبة كما تقدم، لكن قال الإمام أبو عبد الله بن بطة: حدثني أبو يوسف يعقوب بن يوسف الطباخ، حدثنا أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز البغوي، حدثنا عبد الله بن عمر القراريري، حدثني عبد الأعلى، حدثنا سعيد عن قتادة، عن عكرمة، عن ابن عباس، أن جميلة بنت سلول أتت النبي ﷺ، فقالت: والله ما أعتب على ثابت بن قيس في دين ولا خلق، ولكنني أكره الكفر في الإسلام لا أطيقه بغضاً، فقال لها النبي ﷺ «تَرَدِينَ عَلَيْهِ حَدِيقَتِهِ؟». قالت: نعم فأمره النبي ﷺ أن يأخذ ما ساق ولا يزداد.

وقد رواه ابن مردوه في تفسيره عن موسى بن هارون، حدثنا أزهراً بن مروان، حدثنا عبد الأعلى مثله، وهكذا رواه ابن ماجه<sup>(٢)</sup> عن أزهراً بن مروان بإسناد مثله سواء، وهو إسناد جيد مستقيم. وقال ابن جرير<sup>(٣)</sup>: حدثنا ابن حميد، حدثنا يحيى بن واضح، حدثنا الحسين بن واقد عن ثابت، عن عبد الله بن رباح، عن جميلة بنت عبد الله بن أبي بن سلول، أنها كانت تحت ثابت بن قيس فنشرت عليه، فأرسل إليها النبي ﷺ فقال «يا جميلة ما كرهت من ثابت؟». قالت: والله ما كرهت منه ديناً ولا خلقاً، إلا أنني كرهت دمامته، فقال لها، «أَتَرَدِينَ عَلَيْهِ حَدِيقَتِهِ؟». قالت: نعم، فردت الحديقة، وفرق بينهما. وقال ابن جرير<sup>(٢)</sup> أيضاً: حدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا المعتمر بن سليمان، قال: قرأت على فضيل عن أبي جرير، أنه سأل عكرمة هل كان للخلع أصل؟ قال: كان ابن عباس يقول: إن أول خلع كان في الإسلام في أخت عبد الله بن أبي، أنها أتت رسول الله ﷺ فقالت: يارسول الله لا يجمع رأسه شيء

(١) صحيح البخاري (طلاق باب ١٢) والنسائي (طلاق باب ٣٤).

(٢) سنن ابن ماجه (طلاق باب ٢٢).

(٣) تفسير الطبرى (٤٨٣/٢).

أبداً، إني رفعت جانب الخباء فرأيته قد أقبل في عدة، فإذا هو أشدهم سواداً وأقصرهم قامة، وأقبحهم وجهاً، فقال زوجها: يا رسول الله، إني قد أعطيتها أفضل مالي حديقة لي، فإن ردت علي حديقتي، قال «ما تقولين»؟ قالت: نعم وإن شاء زدته، قال: ففرق بينهما.

حديث آخر - قال ابن ماجه: حدثنا أبو كريب، حدثنا أبو خالد الأحمر عن حجاج، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه عن جده، قال: كانت حبيبة بنت سهل تحت ثابت بن قيس بن شماس، وكان رجلاً دمياً، فقالت يارسول الله، والله لو لا مخافة الله إذا دخل علىي بصفت في وجهه، فقال رسول الله ﷺ «أترين إليه حديقته»؟ قالت: نعم، فرددت عليه حديقته، قال: ففرق بينهما رسول الله ﷺ.

وقد اختلف الأئمة رحمهم الله في أنه هل يجوز للرجل أن يفاديهما بأكثر مما أعطاها، فذهب الجمهور إلى جواز ذلك لعموم قوله تعالى: «فلا جناح عليهم فيما افتدت به» وقال ابن جرير<sup>(١)</sup>: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن علية، أخبرنا أبوب عن كثير مولى سمرة أن عمر أتى بأمرأة ناشز، فأمر بها إلى بيت كثير الزبل [ثلاثاً]<sup>(٢)</sup>، ثم دعا بها فقال: كيف وجدت؟ فقالت: ما وجدت راحة منذ كنت عنده إلا هذه الليلة التي كنت حبستني، فقال لزوجها: اخلعها ولو من قرطها، ورواه عبد الرزاق عن معمر عن أبوب عن كثير مولى سمرة فذكر مثله، وزاد فحبسها فيه ثلاثة أيام.

قال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة، عن حميد بن عبد الرحمن: أن امرأة أتت عمر بن الخطاب، فشككت زوجها، فأبانتها في بيت الزبل، فلما أصبحت قال لها: كيف وجدت مكانك؟ قالت: ما كنت عنده ليلة أقر لعيني من هذه الليلة. فقال: خذ ولو عقاصها.

وقال البخاري: وأجاز عثمان الخلع دون عقاص<sup>(٣)</sup> رأسها، وقال عبد الرزاق: أخبرنا عمر، عن عبد الله بن عقيل، أن الربيع بنت معاذ بن عفراه حدثه، قالت: كان لي زوج يقل علي الخير إذا حضرني، ويحرمني إذا غاب عندي، قالت: فكانت مني زلة يوماً فقللت له: أختلع منك بكل شيء أملكه، قال: نعم، قالت: فعلت، قالت: فخاصم عمي معاذ بن عفراه إلى عثمان بن عفان، فأجاز الخلع وأمره أن يأخذ عقاص رأسه بما دونه، أو قالت: ما دون عقاص الرأس، ومعنى هذا أنه يجوز أن يأخذ منها كل ما بيدها من قليل وكثير ولا يترك لها سوى عقاص شعرها، وبه يقول ابن عمر وابن عباس ومجاحد وعكرمة وإبراهيم النخعي وقيصية بن ذؤيب والحسن بن صالح وعثمان البتي، وهذا مذهب مالك والليث والشافعي وأبي ثور، واختاره ابن

(١) تفسير الطبرى ٤٨٣/٢.

(٢) الزيادة من الطبرى.

(٣) العقاص: جمع عقيصة، وهي الضفيرة.

جرير، وقال أصحاب أبي حنيفة: إن كان الإضرار من قبلها، جاز أن يأخذ منها ما أعطاها، ولا يجوز الزيادة عليه، فإن ازداد جاز في القضاء، وإن كان الإضرار من جهته لم يجز أن يأخذ منها شيئاً، فإن أخذ، جاز في القضاء. وقال الإمام أحمد وأبو عبيد وإسحاق بن راهويه: لا يجوز أن يأخذ أكثر مما أعطاها، وهذا قول سعيد بن المسيب وعطاء وعمرو بن شعيب والزهري وطاوس والحسن الشعبي وحماد بن أبي سليمان والربيع بن أنس، وقال معمر والحكم: كان علي يقول: لا يأخذ من المختلعة فوق ما أعطاها، وقال الأوزاعي: القضاة لا يجيزون أن يأخذ منها أكثر مما ساق إليها.

(قلت): ويستدل لهذا القول بما تقدم من رواية قتادة عن عكرمة، عن ابن عباس في قصة ثابت بن قيس، فأمره رسول الله ﷺ أن يأخذ منها العديقة ولا يزداد، وبما روى عبد بن حميد حيث قال: أخبرنا قبيص عن سفيان، عن ابن جريج، عن عطاء، أن النبي ﷺ كره أن يأخذ منها أكثر مما أعطاها، يعني المختلعة، وحملوا معنى الآية على معنى «فلا جناح عليهم فيما افتدت به» أي من الذي أعطاها لتقدم قوله: «ولا تأخذوا مما آتتكمون شيئاً إلا أن يخافوا ألا يقيموا حدود الله فإن خفتم ألا يقيموا حدود الله فلا جناح عليهم فيما افتدت به» أي من ذلك، وهكذا كان يقرؤها الربيع بن أنس «فلا جناح عليهم فيما افتدت به منه» رواه ابن جرير، لهذا قال بعده «تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون».

فصل: قال الشافعي: اختلف أصحابنا في الخلع، فأخبرنا سفيان عن عمر بن دينار، عن طاوس، عن ابن عباس في رجل طلق امرأته تطليقتين ثم اختلفت منه بعد، يتزوجها إن شاء، لأن الله تعالى يقول: «الطلاق مرتان - قرأ إلى - أن يتراجعا» قال الشافعي: وأخبرنا سفيان عن عمرو، عن عكرمة، قال: كل شيء أجازه المال فليس بطلاق، وروى غير الشافعي عن سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن طاوس، عن ابن عباس: أن إبراهيم بن سعد بن أبي وقاص سأله قال: رجل طلق امرأته تطليقتين ثم اختلفت منه، أيتزوجها؟ قال: نعم، ليس بالخلع بطلاق، ذكر الله الطلاق في أول الآية وأخرها، والخلع فيما بين ذلك، فليس الخلع بشيء، ثم قرأ «الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان» وقرأ: «فإن طلقها فلا تحل له من بعد، حتى تنكح زوجاً غيره» وهذا الذي ذهب إليه ابن عباس رضي الله عنهما من أن الخلع ليس بطلاق وإنما هو فسخ، هو روايه عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان وابن عمر، وهو قول طاوس وعكرمة، وبه يقول أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه وأبو ثور وداود بن علي الظاهري، وهو مذهب الشافعي في القديم، وهو ظاهر الآية الكريمة، والقول الثاني في الخلع: أنه طلاق بائن إلا أن ينوي أكثر من ذلك، قال مالك، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن جهمان مولى المسلمين، عن أم بكر الأسلامية: أنها اختلفت من زوجها عبد الله بن خالد بن أسيد فأتأتيا عثمان بن عفان في ذلك، فقال: تطليقة إلا أن تكون سميت شيئاً فهو ما سميت، قال الشافعي:

ولا أعرف جهمان، وكذا ضعف أحمد بن جنبل هذا الأثر، والله أعلم. وقد روي نحوه عن عمر وعلي وابن مسعود وابن عمر، وبه يقول سعيد بن المسيب والحسن وعطاء وشريح والشعبي وإبراهيم وجابر بن زيد، وإليه ذهب مالك وأبو حنيفة وأصحابه والثوري والأوزاعي وأبو عثمان البти والشافعي في الجديد، غير أن الحنفية عندهم أنه متى نوى المخالف تطليقة أواثنتين أو أطلق، فهو واحدة بائنة، وإن نوى ثلاثة فثلاث، وللشافعي قول آخر في الخلع، وهو أنه متى لم يكن بلفظ الطلاق، وعرى عن البينة، فليس هو بشيء بالكلية.

مسألة: وذهب مالك وأبو حنيفة والشافعي وأحمد وإسحاق بن راهويه في رواية عنهما وهي المشهورة، إلى أن المختلعة عدتها عدة المطلقة بثلاثة قروء، إن كانت من تحضن، وروي ذلك عن عمر وعلي وابن عمر، وبه يقول سعيد بن المسيب وسليمان بن يسار وعروة وسالم وأبو سلمة وعمر بن عبد العزيز وابن شهاب والحسن والشعبي وإبراهيم النخعي وأبو عياض وخلاس بن عمر وقتادة وسفيان الثوري والأوزاعي والليث بن سعد وأبو العبيد. قال الترمذى: وهو قول أكثر أهل العلم من الصحابة وغيرهم، وמאיخذهم في هذا أن الخلع طلاق، فتعتذر كسائر المطلقات، والقول الثاني أنها تعتد بحضة واحدة تستبرئ بها رحمها. قال ابن أبي شيبة. حدثنا يحيى بن سعيد عن نافع، عن ابن عمر: أن الربع اختلعت من زوجها، فأتى عمها عثمان رضى الله عنه، فقال: تعتد بحضة. قال: وكان ابن عمر يقول: تعتد ثلاثة حيض، حتى قال هذا عثمان، فكان ابن عمر يفتى به، ويقول: عثمان خيرنا وأعلمنا. وحدثنا عبدة عن عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر، قال: عدة المختلعة حيبة. وحدثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربى، عن ليث، عن طاوس، عن ابن عباس، قال: عدتها حيبة، وبه يقول عكرمة وأبان بن عثمان وكل من تقدم ذكره ممن يقول أن الخلع فسخ يلزم القول بهذا واحتاجوا لذلك بما رواه أبو داود والترمذى حيث قال كل منهما: حدثنا محمد بن عبد الرحيم البغدادى، حدثنا علي بن بحر، أخبرنا هشام بن يوسف عن معاذ، عن عمرو بن مسلم، عن عكرمة، عن ابن عباس، أن امرأة ثابت بن قيس اختلعت من زوجها على عهد النبي ﷺ، فأمرها النبي ﷺ أن تعتد بحضة، ثم قال الترمذى: حسن غريب، وقد رواه عبد الرزاق عن معاذ، عن عمرو بن مسلم عن عكرمة مرسلًا.

حديث آخر - قال الترمذى: حدثنا محمود بن غيلان، حدثنا الفضل بن موسى عن سفيان، حدثنا محمد بن عبد الرحمن، وهو مولى آل طلحة، عن سليمان بن يسار، عن الربع بنت معوذ بن عفرا، أنها اختلعت على عهد رسول الله ﷺ، فأمرها النبي ﷺ، أو أمرت أن تعتد بحضة قال الترمذى: الصحيح أنها أمرت أن تعتد بحضة.

طريق أخرى - قال ابن ماجه: حدثنا علي بن سلمة النيسابوري، حدثنا يعقوب بن إبراهيم بن سعد، حدثنا أبي عن ابن إسحاق، أخبرني عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت عن الربيع بنت

معوذ بن عفراء، قال: قلت لها: حديثي حديثك، قالت: اختلعت من زوجي، ثم جئت عثمان فسألت عثمان: ماذا على من العدة؟ قال: لا عدة عليك إلا أن يكون حديث عهد بك، فتمكتين عنده حتى تحيضي حيضة، قالت: وإنما اتبع في ذلك قضاء رسول الله ﷺ في مريم المغالبة، وكانت تحت ثابت بن قيس، فاختلعت منه؛ وقد روى ابن لهيعة عن ابن الأسود، عن أبي سلمة ومحمد بن عبد الرحمن بن ثوبان عن الربيع بنت معوذ، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يأمر امرأة ثابت بن قيس حين اختلعت منه أن تعتد بحية.

مسألة وليس للمخالف أن يراجع المختلعة في العدة بغير رضاها عن الأئمة الأربع وجمهور العلماء، لأنها قد ملكت نفسها بما بذلت له من العطاء. وروي عن عبد الله بن أبي أوفى وماهان الحنفي وسعيد بن المسيب والزهري أنهم قالوا: إن رد إليها الذي أعطاها جاز له رجعتها في العدة بغير رضاها، وهو اختيار أبي ثور رحمه الله. وقال سفيان الثوري: إن كان الخلع بغير لفظ الطلاق فهو فرقة ولا سبيل له عليها، وإن كان يسمى طلاقاً فهو أملك لرجعتها ما دامت في العدة، وبه يقول داود بن علي الظاهري، واتفق الجميع على أن للمختلعة أن يتزوجها في العدة، وحكى الشيخ أبو عمر بن عبد البر عن فرقة: أنه لا يجوز له ذلك كما لا يجوز لغيره، وهو قول شاذ مردود.

مسألة وهل له أن يقع عليها طلاقاً آخر في العدة؟ فيه ثلاثة أقوال للعلماء: [أحدها] ليس له ذلك، لأنها قد ملكت نفسها وبانت منه، وبه يقول ابن عباس وابن الزبير وعكرمة وجابر بن زيد والحسن البصري والشافعي وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه وأبو ثور. [والثاني] قال مالك: إن أتبع الخلع طلاقاً من غير سكت بينهما، وقع، وإن سكت بينهما، لم يقع، قال ابن عبد البر: وهذا يشبه ما روي عن عثمان رضي الله عنه. [والثالث] أنه يقع عليها الطلاق بكل حال ما دامت في العدة، وهو قول أبي حنيفة وأصحابه والثوري والأوزاعي، وبه يقول سعيد بن المسيب وشريح وطاوس وإبراهيم والزهري والحاكم والحكم وhammad بن أبي سليمان، وروي ذلك عن ابن مسعود وأبي الدرداء، وقال ابن عبد البر: وليس ذلك بثابت عنهم.

وقوله ﴿ تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعدّ حدود الله فأولئك هم الظالمون ﴾ أي هذه الشرائع التي شرعاها لكم هي حدوده فلا تتجاوزوها، كما ثبت في الحديث الصحيح «إن الله حد حدوداً فلا تعتدوها، وفرض فرائض فلا تضييعوها، وحرم محارم فلا تنتهكوهـا، وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تسألوها عنها». وقد يستدل بهذه الآية من ذهب إلى أن جمع الطلقات الثلاث بكلمة واحدة حرام، كما هو مذهب المالكية ومن وافقهم، وإنما السنة عندهم أن يطلق واحدة لقوله ﴿ الطلاق مرتان ﴾ ثم قال ﴿ تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعدّ حدود الله فأولئك هم الظالمون ﴾ ويقولون ذلك بحديث محمود بن لبيد الذي رواه النسائي في سننه حيث قال: حدثنا سليمان بن داود، أخبرنا ابن وهب عن مخرمة بن بكيـر، عن أبيه، عن محمود بن

لبيد، قال : أخبر رسول الله ﷺ عن رجل طلق امرأته ثلاث تطليقات جمِيعاً، فقام غضبان ثم قال «أيلعب بكتاب الله وأنا بين أظهركم»؟ حتى قام رجل فقال : يارسول الله، ألا أقتله - فيه انقطاع . وقوله تعالى : ﴿فَإِنْ طَلَقَهَا فَلَا تَحْلِلُ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتْنِكَحْ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ أي أنه إذا طلق الرجل امرأته طلقة ثلاثة بعد ما أرسل عليها الطلاق مرتين ، فإنها تحرم عليه ﴿حتى تنكح زوجاً غيره﴾ ، أي حتى يطأها زوج آخر في نكاح صحيح ، ولو وطنها واطئ في غير نكاح ولو في ملك اليمين ، لم تحل للأول ، لأنه ليس بزوج ، وهكذا لو تزوجت ولكن لم يدخل بها الزوج لم تحل للأول ، واشتهر بين كثير من الفقهاء عن سعيد بن المسيب رحمه الله أنه يقول : يحصل المقصود من تحليلها للأول بمجرد العقد على الثاني ، وفي صحته عنه نظر ، على أن الشيخ أبو عمر بن عبد البر قد حكاه عنه في الاستذكار ، والله أعلم .

وقد قال أبو جعفر بن جرير<sup>(١)</sup> رحمه الله : حدثنا ابن بشار حدثنا محمد بن جعفر عن شعبة ، عن علقة بن مرثد ، عن سالم بن رزين عن سالم بن عبد الله ، عن سعيد بن المسيب ، عن ابن عمر ، عن النبي ﷺ ، في الرجل يتزوج المرأة فيطلقها قبل أن يدخل بها البتة ، فيتزوجها زوج آخر ، فيطلقها قبل أن يدخل بها ، أترجع إلى الأول ؟ قال «لا ، حتى تذوق عسلته ويدوّق عسلتها» هكذا وقع في رواية ابن جرير .

وقد رواه الإمام أحمد<sup>(٢)</sup> فقال : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة عن علقة بن مرثد ، قال : سمعت سالم بن رزين يحدث عن سالم بن عبد الله يعني ابن عمر ، عن سعيد بن المسيب ، عن ابن عمر ، عن النبي ﷺ ، في الرجل تكون له المرأة فيطلقها ثم يتزوجها رجل فيطلقها قبل أن يدخل بها ، فترجع إلى زوجها الأول ، فقال رسول الله ﷺ «حتى تذوق العسيلة» وهكذا رواه عصفر غندر ، عن شعبة به ، كذلك فهذا من رواية سعيد بن المسيب عن ابن عمرو مرفوعاً على خلاف ما يحكى عنه ، فبعد أن يخالف ما رواه بغير مستند ، والله أعلم . وقد روى أحمد أيضاً والنسائي عن عمرو بن علي الفلاس وابن ماجه ، عن محمد بن بشار بندار ، كلامهما عن محمد بن عصفر غندر ، عن شعبة به ، كذلك فهذا من طريق سفيان الثوري عن علقة بن مرثد ، عن رزين بن سليمان الأحمدي ، عن ابن عمر ، قال : سئل النبي ﷺ عن الرجل يطلق امرأته ثلاثة ، فيتزوجها آخر ، فيغلق الباب ، ويرخي الستر ، ثم يطلقها قبل أن يدخل بها ، هل تحل للأول ؟ قال «لا ، حتى تذوق العسيلة» ، وهذا لفظ أحمد ، وفي رواية لأحمد سليمان بن رزين .

الحديث آخر - قال الإمام أحمد<sup>(٣)</sup> : حدثنا عفان ، حدثنا محمد بن دينار ، حدثنا يحيى بن يزيد الهنائي عن أنس بن مالك ، أن رسول الله ﷺ سئل عن رجل كانت تحته امرأة فطلقها ثلاثة ،

(١) تفسير الطبرى / ٢ ٤٩١.

(٢) المستند (ج ٢ ص ٨٥).

(٣) المستند (ج ٣ ص ٢٨٤).

فتزوجت بعده رجلاً فطلقتها قبل أن يدخل بها، أتحل لزوجها الأول؟ فقال رسول الله ﷺ «لا، حتى يكون الآخر قد ذاق من عسلتها وذاقت من عسلتها». وهكذا رواه ابن جرير عن محمد بن إبراهيم الأنماطي عن هشام بن عبد الملك، حدثنا محمد بن دينار، فذكره (قلت) ومحمد بن دينار بن صندل أبو بكر الأزدي ثم الطاحي البصري ويقال له ابن أبي الفرات، اختلفوا فيه، فمنهم من ضعفه، ومنهم من قواه وقبله وحسن له، وذكر أبو داود أنه تغيرة قبل موته، فالله أعلم، حديث آخر - قال ابن جرير<sup>(١)</sup>: حدثنا عبيد بن آدم بن أبي أياس العسقلاني، حدثنا أبي، حدثنا شيبان، حدثنا يحيى بن أبي كثير، عن أبي الحارث الغفاري عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ، في المرأة يطلقها زوجها ثلاثة، فتزوج غيره فيطلقها قبل أن يدخل بها، فيريد الأول أن يراجعها. قال «لا، حتى يذوق الآخر عسلتها» ثم رواه من وجه آخر عن شيبان وهو ابن عبد الرحمن به - وأبو الحارث غير معروف - .

حديث آخر - قال ابن جرير: حدثنا يحيى عن عبيد الله، حدثنا القاسم عن عائشة: أن رجلاً طلق امرأته ثلاثة، فتزوجت زوجاً، فطلقتها قبل أن يمسها، فسئل رسول الله ﷺ: أتحل للأول؟ فقال «لا، حتى يذوق من عسلتها كما ذاق الأول» أخرجه البخاري ومسلم والنسائي من طريق عن عبد الله بن عمر العمري عن القاسم بن عبد الرحمن بن أبي بكر عن عمته عائشة به .

طريق أخرى - قال ابن جرير<sup>(٢)</sup>: حدثنا عبيد الله بن إسماعيل الهباري وسفيان بن وكيع وأبو هشام الرفاعي، قالوا: حدثنا أبو معاوية عن الأعمش، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عائشة قالت: سئل النبي ﷺ عن رجل طلق امرأته، فتزوجت رجلاً غيره، فدخل بها ثم طلقها قبل أن يوافعها، أتحل لزوجها الأول؟ فقال رسول الله ﷺ «لا تحل لزوجها الأول حتى يذوق الآخر عسلتها وتذوق عسلتها»، وكذا رواه أبو داود عن مسدد والنمسائي عن أبي كريب، كلامهما عن أبي معاوية وهو محمد بن حازم الضرير به .

طريق أخرى - قال مسلم<sup>(٣)</sup> في صحيحه: حدثنا محمد بن العلاء الهمданى، حدثنا أبو أسامة عن هشام، عن أبيه، عن عائشة أن رسول الله ﷺ، سئل عن المرأة يتزوجها الرجل فيطلقها، فتزوج رجلاً فيطلقها قبل أن يدخل بها، أتحل لزوجها الأول؟ قال «لا حتى يذوق عسلتها»، قال مسلم<sup>(٤)</sup>: وحدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا أبو فضيل، وحدثنا أبو كريب، حدثنا أبو معاوية جمياً عن هشام بهذا الإسناد، وقد رواه البخاري من طريق أبي معاوية محمد بن حازم عن هشام به، وتفرد به مسلم من الوجهين الآخرين، وهكذا رواه ابن جرير من طريق عبد الله بن

(١) تفسير الطبرى / ٤٩٠ / ٢.

(٢) تفسير الطبرى / ٤٨٩ / ٢.

(٣) صحيح مسلم (طلاق حديث ١، ٢، ٤، ٥).

(٤) صحيح مسلم (طلاق حديث ١، ٢، ٤، ٥).

المبارك عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة مرفوعاً بنحوه أو مثله - وهذا إسناد جيد -، وكذا ورواه ابن حجر أيضاً من طريق علي بن زيد بن جدعان عن امرأة أبيه أمينة أم محمد، عن عائشة عن النبي ﷺ بمثله، وهذا السياق مختصر من الحديث الذي رواه البخاري، حدثنا عمرو بن علي، حدثنا يحيى عن هشام بن عروة، حدثني أبي عن عائشة مرفوعاً عن النبي ﷺ، وحدثنا عثمان بن أبي شيبة، حدثنا عبدة عن هشام بن عروة عن أبيه، عن عائشة، أن رفاعة القرظي تزوج امرأة ثم طلقها، فأتت النبي ﷺ فذكرت له إنه لا يأيتها وأنه ليس معه إلا مثل هبة الشوب، فقال «لا حتى تذوق عسيلتاك» تفرد به من هذا الوجه.

طريق أخرى - قال الإمام أحمد<sup>(١)</sup>: حدثنا عبد الأعلى عن معاذ، عن الزهرى، عن عروة، عن عائشة، قالت: دخلت امرأة رفاعة القرظى وأنا وأبى بكر عند النبي ﷺ، فقالت: إن رفاعة طلقنى البتة، وإن عبد الرحمن بن الزبير تزوجنى، وإنما عنده مثل الهدبة، وأخذت هدبة من جلبابها، وخالد بن سعيد بن العاص بالباب لم يؤذن له، فقال: يا أبا بكر، ألا تنهى هذه عما تجهر به بين يدي رسول الله ﷺ، فما زاد رسول الله ﷺ عن التبسّم، فقال رسول الله ﷺ «كأنك تريدين أن ترجعي إلى رفاعة، لا حتى تذوقى عسيلته ويدوّق عسيلتاك»، وهكذا رواه البخارى من حديث عبد الله بن المبارك ومسلم من حديث عبد الرزاق والنسائي من حديث يزيد بن زريع، ثلاثتهم عن معاذ به، وفي حديث عبد الرزاق عند مسلم، أن رفاعة طلقها آخر ثلاث تطليقات، وقد رواه الجماعة إلا أبو داود من طريق سفيان بن عيينة والبخاري من طريق عقيل ومسلم من طريق يونس بن يزيد، وعنه آخر ثلاث تطليقات، والنسائي من طريق أبوبن موسى، ورواه صالح بن أبي الأحضر، كلهم عن الزهرى عن عروة عن عائشة به. وقال مالك، عن المسور بن رفاعة القرظى، عن الزبير بن عبد الرحمن بن الزبير: أن رفاعة بن سموأل طلق امرأته تميمة بنت وهب في عهد رسول الله ﷺ ثلاثة، فنكحت عبد الرحمن بن الزبير فاعتراض عنها فلم يستطع أن يمسها ففارقتها، فأراد رفاعة بن سموأل أن ينكحها وهو زوجها الأول الذي كان طلقها فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فنهاه عن تزوجها، وقال «لا تحل لك حتى تذوق العسيلة» هكذا رواه أصحاب الموطأ عن مالك، وفيه انقطاع وقد رواه إبراهيم بن طهمان وعبد الله بن وهب عن مالك، عن رفاعة، عن الزبير بن عبد الرحمن بن الزبير، عن أبيه فوصله.

فصل: والمقصود من الزوج الثاني أن يكون راغباً في المرأة، قاصداً للدّوام عشرتها، كما هو المشروع من التزويج، واشترط الإمام مالك مع ذلك، أن يطأها الثاني وطاً مباحاً، فلو وطئها وهي محمرة أو صائمة أو معتكفة أو نساء أو الزوج صائم أو محرم أو معتكف لم تحل للأول بهذا الوطء، وكذا لو كان الزوج الثاني ذميًّا لم تحل للمسلم بمناسبه، لأن أنكحة الكفار باطلة عنده، واشترط الحسن البصري فيما حكاه عنه الشيخ أبو عمر بن عبد البر أن ينزل الزوج

الثاني وكأنه تمسك بما فهمه من قوله عليه الصلاة والسلام «حتى تذوقى عسيلته ويدوّق عسيلتك» ويلزم على هذا أن تنزل المرأة أيضاً، وليس المراد بالعسيلة المني، لما رواه الإمام أحمد والنسائي عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «ألا إن العسيلة الجماع» فاما إذا كان الثاني إنما قصده أن يحلها للأول، فهذا هو المحلل الذي وردت الأحاديث بذمه ولعنه ومتنى صرح بمقصوده في العقد بطل النكاح عند جمهور الأئمة.

### ذكر الأحاديث الواردة في ذلك

الحديث الأول عن ابن مسعود رضي الله عنه . قال الإمام أحمد<sup>(١)</sup>: حدثنا الفضل بن دكين ، حدثنا سفيان عن أبي قيس عن الهزيل عن عبد الله قال : لعن رسول الله ﷺ: الواشمة والمستوشمة والواصلة والمستوصلة والمحلل له وأكل الربا وموكله . ثم رواه أحمد والترمذى والنسائي من غير وجه عن سفيان وهو الثوري عن أبي قيس واسميه عبد الرحمن بن ثروان الأودي عن هزيل بن شرحبيل الأودي عن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ به ، ثم قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح . قال : والعمل على هذا عند أهل العلم من الصحابة منهم عمر وعثمان وابن عمر ، وهو قول الفقهاء من التابعين ، ويروى ذلك عن علي وابن مسعود وابن عباس .

طريق أخرى عن ابن مسعود . قال الإمام أحمد : حدثنا زكريا بن عدي ، حدثنا عبد الله عن عبد الكريم عن أبي الوائل عن ابن مسعود عن رسول الله ﷺ قال : «لعن الله المحلل والمحلل له» .

طريق أخرى - روى الإمام أحمد والنسائي من حديث الأعمش عن عبد الله بن مرة عن الحارث الأعور عن عبد الله بن مسعود ، قال : أكل الربا وموكله وشاهده وكاتبه إذا علموا به ، والواصلة والمستوصلة ، ولا وي الصدقة والمعتدي فيها ، والمرتد على عقيبه أغراياً بعد هجرته ، والمحلل والمحلل له ، ملعونون على لسان محمد ﷺ يوم القيمة .

ال الحديث الثاني عن علي رضي الله عنه ، قال الإمام أحمد<sup>(٢)</sup> ، حدثنا عبد الرزاق أخبرنا سفيان عن جابر عن الشعبي عن الحارث عن علي قال : لعن رسول الله ﷺ أكل الربا وموكله وشهاديه وكاتبه ، والواشمة والمستوشمة للحسن ، ومانع الصدقة ، والمحلل والمحلل له ، وكان ينهى عن النوح . وكذا رواه عن شعبة عن جابر وهو ابن يزيد الجعفي عن الشعبي عن الحارث عن علي به ، وكذا رواه من حديث إسماعيل بن أبي خالد وحسين بن عبد الرحمن ومجالد بن سعيد وابن عون ، عن عامر الشعبي به ، وقد رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه من حديث

(١) المسند (ج ١ ص ٤٤٨).

(٢) المسند (ج ١ ص ١٠٧).

الشعبي به . ثم قال أَحْمَدُ : أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ، أَخْبَرَنَا إِسْرَائِيلُ عَنْ أَبِي إِسْحَاقِ عَنِ الْحَارِثِ عَنْ عَلَيِّ ، قَالَ : لَعْنَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَاحِبِ الرِّبَا وَأَكْلِهِ وَكَاتِبِهِ وَشَاهِدِهِ ، وَالْمَحَلِّ وَالْمَحَلَّ لَهُ .

الحاديـث الثـالـث عـن جـابر رـضـي الله عـنـهـ . قـال التـرمـذـي<sup>(١)</sup> : أـخـبـرـنـا أـبـو سـعـيدـ الـأشـجـ، أـخـبـرـنـا أـشـعـثـ بـنـ عـبـدـ الرـحـمـنـ بـنـ يـزـيدـ الـأـيـامـيـ، حـدـثـنـا مـجـالـدـ عـنـ الشـعـبـيـ عـنـ جـابرـ بـنـ عـبـدـ اللـهـ، وـعـنـ الـحـارـثـ عـنـ عـلـيـ: أـنـ رـسـوـلـ اللـهـ لـعـنـ الـمـحـلـلـ وـالـمـحـلـلـ لـهـ، ثـمـ قـالـ: وـلـيـسـ إـسـنـادـهـ بـالـقـائـمـ . وـمـجـالـدـ ضـعـفـهـ غـيرـ وـاحـدـ مـنـ أـهـلـ الـعـلـمـ مـنـهـمـ أـحـمـدـ بـنـ حـنـبـلـ، قـالـ: وـرـوـاهـ اـبـنـ نـمـيرـ عـنـ مـجـالـدـ عـنـ الشـعـبـيـ عـنـ جـابرـ بـنـ عـبـدـ اللـهـ عـنـ عـلـيـ، قـالـ: وـهـذـاـ وـهـمـ مـنـ اـبـنـ نـمـيرـ، وـالـحـادـيـثـ الـأـوـلـ . أـصـحـ .

الحاديـث الـرـابـع عـن عـقـبةـ بـنـ عـامـرـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ . قـالـ أـبـو عـبـدـ اللـهـ مـحـمـدـ بـنـ يـزـيدـ بـنـ مـاجـهـ<sup>(٢)</sup> ، حـدـثـنـا يـحـيـيـ بـنـ عـثـمـانـ بـنـ صـالـحـ الـمـصـرـيـ، أـخـبـرـنـا أـبـيـ، سـمـعـتـ الـلـيـثـ بـنـ سـعـدـ يـقـولـ: قـالـ أـبـوـ الـمـصـعـبـ مـشـرـحـ وـهـوـ اـبـنـ هـاعـانـ، قـالـ عـقـبةـ بـنـ عـامـرـ، قـالـ رـسـوـلـ اللـهـ صـلـى اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـلـهـ عـلـيـهـ وـسـلـلـهـ عـلـيـهـ «أـلـاـ أـخـبـرـكـمـ بـالـتـيـسـ الـمـسـتـعـارـ؟ قـالـواـ: بـلـىـ يـاـ رـسـوـلـ اللـهـ صـلـى اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـلـهـ عـلـيـهـ وـسـلـلـهـ عـلـيـهـ» . قـالـ: «هـوـ الـمـحـلـلـ، لـعـنـ اللـهـ الـمـحـلـلـ وـالـمـحـلـلـ لـهـ» تـفـرـدـ بـهـ اـبـنـ مـاجـهـ، كـذـاـ رـوـاهـ إـبـرـاهـيمـ بـنـ يـعـقـوبـ الـجـوـزـجـانـيـ عـنـ عـثـمـانـ بـنـ صـالـحـ عـنـ الـلـيـثـ بـهـ، ثـمـ قـالـ: كـانـوـاـ يـنـكـرـوـنـ عـلـىـ عـثـمـانـ فـيـ هـذـاـ الـحـدـيـثـ إـنـكـارـاـ شـدـيـداـ . (قـلتـ) عـثـمـانـ هـذـاـ أـحـدـ الـثـقـاتـ، روـيـ عـنـ الـبـخـارـيـ فـيـ صـحـيـحـهـ ثـمـ قـدـ تـابـعـهـ غـيرـهـ، فـرـوـاهـ جـعـفـرـ الـفـرـيـابـيـ عـنـ عـبـاسـ الـمـعـرـوفـ بـاـبـنـ فـرـيقـ، عـنـ أـبـيـ صـالـحـ عـبـدـ اللـهـ بـنـ صـالـحـ، عـنـ الـلـيـثـ بـهـ فـبـرـيـءـ مـنـ عـهـدـتـهـ، وـالـلـهـ أـعـلـمـ .

الحاديـث الـخـامـس عـنـ اـبـنـ عـبـاسـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـماـ . قـالـ اـبـنـ مـاجـهـ: حـدـثـنـا مـحـمـدـ بـنـ بـشـارـ، حـدـثـنـا أـبـوـ عـامـرـ عـنـ زـمـعـةـ بـنـ صـالـحـ عـنـ سـلـمـةـ بـنـ وـهـرـامـ عـنـ عـكـرـمـةـ عـنـ اـبـنـ عـبـاسـ، قـالـ: لـعـنـ رـسـوـلـ اللـهـ صـلـى اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـلـهـ عـلـيـهـ وـسـلـلـهـ عـلـيـهـ الـمـحـلـلـ وـالـمـحـلـلـ لـهـ .

طـرـيـقـ أـخـرىـ - قـالـ الـإـمـامـ الـحـافـظـ خـطـيـبـ دـمـشـقـ أـبـوـ إـسـحـاقـ إـبـرـاهـيمـ بـنـ يـعـقـوبـ الـجـوـزـجـانـيـ السـعـديـ: حـدـثـنـا اـبـنـ أـبـيـ مـرـيمـ، حـدـثـنـا إـبـرـاهـيمـ بـنـ إـسـمـاعـيلـ بـنـ أـبـيـ حـنـيفـةـ عـنـ دـاـوـدـ بـنـ الـحـصـينـ عـنـ عـكـرـمـةـ عـنـ اـبـنـ عـبـاسـ قـالـ: سـئـلـ رـسـوـلـ اللـهـ صـلـى اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـلـهـ عـلـيـهـ وـسـلـلـهـ عـلـيـهـ عـنـ نـكـاحـ الـمـحـلـلـ، قـالـ: «لـاـ، إـلـاـ نـكـاحـ رـغـبةـ لـاـ نـكـاحـ دـلـسـةـ<sup>(٣)</sup> ، وـلـاـ اـسـتـهـزـاءـ بـكـتـابـ اللـهـ ثـمـ يـذـوقـ عـسـيـلـتـهـ» وـيـتـقـوـيـ هـذـاـ إـسـنـادـانـ بـمـاـ رـوـاهـ أـبـوـ بـكـرـ بـنـ أـبـيـ شـيـةـ عـنـ حـمـيدـ بـنـ عـبـدـ الرـحـمـنـ عـنـ مـوـسـىـ بـنـ أـبـيـ الـفـراتـ عـنـ عـمـرـوـ بـنـ دـيـنـارـ عـنـ النـبـيـ صـلـى اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـلـهـ عـلـيـهـ وـسـلـلـهـ عـلـيـهـ بـنـحـوـهـ مـنـ هـذـاـ، فـيـتـقـوـيـ كـلـ مـنـ هـذـاـ الـمـرـسـلـ وـالـذـيـ قـبـلـهـ بـالـآـخـرـ، وـالـلـهـ أـعـلـمـ .

(١) سنـنـ التـرـمـذـيـ (نـكـاحـ بـابـ ٢٨) .

(٢) سنـنـ اـبـنـ مـاجـهـ (نـكـاحـ بـابـ ٣٣) .

(٣) الدـلـسـةـ: الـظـلـمـةـ .

الحاديـث السادس عن أبي هريرة رضي الله عنه . قال الإمام أـحمد<sup>(١)</sup> : حدثنا أبو عـامر ، حدثـنا عبد الله هو ابن جـعـفر عن عـثمان بن مـحـمـد عن المـقـبـري عن أبي هـرـيرـة قال : لـعـن رـسـول الله ﷺـ المـحـلـلـ والمـحـلـلـ لهـ ، وهـكـذـا روـاهـ أبوـ بـكـرـ بنـ أبيـ شـيـبةـ والـجـوـزـجـانـيـ الـبـيـهـقـيـ منـ طـرـيقـ عبدـ اللهـ بنـ جـعـفرـ الـقـرـشـيـ وـقـدـ وـثـقـهـ أـحـمـدـ بنـ حـنـبـلـ وـعـلـيـ بنـ الـمـدـيـنـيـ وـيـحـيـيـ بنـ مـعـيـنـ وـغـيـرـهـ ، وـأـخـرـجـ لهـ مـسـلـمـ فـيـ صـحـيـحـهـ عنـ عـثـمـانـ بنـ مـحـمـدـ الـأـخـنـسـيـ ، وـثـقـهـ اـبـنـ مـعـيـنـ ، عنـ سـعـيدـ الـمـقـبـريـ وـهـوـ مـتـفـقـ عـلـيـهـ .

الـحـدـيـثـ السـابـعـ عـنـ اـبـنـ عـمـرـ رـضـيـ اللهـ عـنـهـماـ . قالـ الـحـاـكـمـ فـيـ مـسـتـدـرـكـهـ ، حدـثـناـ أـبـوـ الـعـابـسـ الـأـصـمـ ، حدـثـناـ مـحـمـدـ بنـ إـسـحـاقـ الصـفـانـيـ ، حدـثـناـ سـعـيدـ بنـ أـبـيـ مـرـيمـ حدـثـناـ أـبـوـ يـمـانـ مـحـمـدـ بنـ مـطـرـ الـمـدـنـيـ عـنـ عـمـرـ بنـ نـافـعـ عـنـ أـبـيـهـ أـنـ قـالـ : جاءـ رـجـلـ إـلـىـ اـبـنـ عـمـرـ فـسـأـلـهـ عـنـ رـجـلـ طـلقـ اـمـرـأـهـ ثـلـاثـاًـ فـتـرـوـجـهـاـ أـخـ لـهـ مـنـ غـيـرـ مـؤـامـرـةـ مـنـ لـيـحلـهـاـ لـأـخـيـهـ ، هلـ تـحـلـ لـلـأـولـ ؟ـ فـقـالـ : لـاـ إـلـاـ نـكـاحـ رـغـبـةـ كـنـاـ نـعـدـ هـذـاـ سـفـاحـاًـ عـلـىـ عـهـدـ رـسـولـ اللهـ ﷺـ ، ثـمـ قـالـ : هـذـاـ حـدـيـثـ صـحـيـحـ الـإـسـنـادـ وـلـمـ يـخـرـجـاهـ ، وـقـدـ روـاهـ الـشـوـرـيـ عـنـ عـبـدـ اللهـ بنـ نـافـعـ عـنـ أـبـيـهـ عـنـ اـبـنـ عـمـرـ بـهـ ، وـهـذـهـ الـصـيـغـةـ مـشـعـرةـ بـالـرـفـعـ وـهـكـذـا روـيـ أـبـوـ بـكـرـ بنـ أـبـيـ شـيـبةـ وـالـجـوـزـجـانـيـ وـحـرـبـ الـكـرـمـانـيـ وـأـبـوـ بـكـرـ الـأـثـرـمـ مـنـ حـدـيـثـ الـأـعـمـشـ عـنـ الـمـسـيـبـ بنـ رـافـعـ عـنـ قـبـيـصـةـ بنـ جـاـبـرـ ، عـنـ عـمـرـ أـنـهـ قـالـ : لـاـ أـوـتـىـ بـمـحـلـلـ وـلـاـ مـحـلـلـ لـهـ إـلـاـ رـجـمـتـهـمـ ، وـرـوـيـ الـبـيـهـقـيـ مـنـ حـدـيـثـ اـبـنـ لـهـيـعـةـ عـنـ بـكـيرـ بنـ الـأـشـيـجـ عـنـ سـلـيـمانـ بنـ يـسـارـ ، أـنـ عـثـمـانـ بنـ عـفـانـ رـفـعـ إـلـيـهـ رـجـلـ تـزـوـجـ اـمـرـأـ لـيـحلـهـاـ لـزـوـجـهـاـ فـرـقـ بـيـنـهـمـ وـكـذـاـ روـيـ عـنـ عـلـيـ وـابـنـ عـبـاسـ وـغـيـرـ وـاحـدـ مـنـ الـصـحـابـةـ رـضـيـ اللهـ عـنـهـمـ .

وـقـوـلـهـ «ـفـإـنـ طـلـقـهـاـ»ـ أـيـ الزـوـجـ الثـالـثـ بـعـدـ الدـخـولـ بـهـاـ «ـفـلاـ جـنـاحـ عـلـيـهـمـ أـنـ يـتـرـاجـعـاـ»ـ أـيـ الـمـرـأـةـ وـالـزـوـجـ الـأـوـلـ «ـإـنـ ظـنـاـ أـنـ يـقـيـمـاـ حـدـودـ اللهـ»ـ أـيـ يـتـعـاـشـرـاـ بـالـمـعـرـوفـ . قـالـ مـجـاـهـدـ إـنـ ظـنـاـ أـنـ نـكـاحـهـمـاـ عـلـىـ غـيـرـ دـلـسـةـ «ـوـتـلـكـ حـدـودـ اللهـ»ـ أـيـ شـرـائـعـهـ وـأـحـكـامـهـ «ـيـبـيـنـهـاـ»ـ أـيـ يـوـضـحـهـاـ «ـلـقـومـ يـعـلـمـونـ»ـ .

وـقـدـ اـخـتـلـفـ الـأـئـمـةـ رـحـمـهـمـ اللهـ فـيـماـ إـذـاـ طـلـقـ الرـجـلـ اـمـرـأـهـ طـلـقـةـ أـوـ طـلـقـتـيـنـ وـتـرـكـهـ حـتـىـ انـقـضـتـ عـدـتهاـ ، ثـمـ تـزـوـجـتـ بـآخـرـ ، فـدـخـلـ بـهـاـ ثـمـ طـلـقـهـاـ فـانـقـضـتـ عـدـتهاـ ، ثـمـ تـزـوـجـهـاـ الـأـوـلـ ، هـلـ تـعـودـ إـلـيـهـ بـمـاـ بـقـيـ مـنـ الـثـلـاثـ ، كـمـاـ هـوـ مـذـهـبـ مـالـكـ وـالـشـافـعـيـ وـأـحـمـدـ بنـ حـنـبـلـ ، وـهـوـ قـوـلـ طـائـفـةـ مـنـ الـصـحـابـةـ رـضـيـ اللهـ عـنـهـمـ ، أـوـ يـكـونـ الزـوـجـ الثـالـثـ قـدـ هـدـمـ مـاـ قـبـلـهـ مـنـ الطـلاقـ ، إـذـاـ عـادـتـ إـلـيـهـ الـأـوـلـ تـعـودـ بـمـجـمـوعـ الـثـلـاثـ ، كـمـاـ هـوـ مـذـهـبـ أـيـ حـنـيفـةـ وـأـصـحـابـهـ رـحـمـهـمـ اللهـ ، وـحـجـتـهـمـ أـنـ الزـوـجـ الثـالـثـ إـذـاـ هـدـمـ الـثـلـاثـ فـلـأـنـ يـهـدـمـ مـاـ دـوـنـهـاـ بـطـرـيـقـ الـأـوـلـيـ وـالـأـخـرـ ، وـالـلـهـ أـعـلـمـ .

وـإـذـاـ طـلـقـتـ الـنـسـاءـ بـلـغـنـ أـجـاهـنـ فـأـمـسـكـوـهـنـ بـمـعـرـفـهـ أـوـ سـرـحـوـهـنـ بـمـعـرـفـهـ وـلـاـ تـسـكـوـهـنـ ضـرـارـاـ لـتـعـدـهـاـ

وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۝ وَلَا تَنْخُذُوا إِيَّاتِ اللَّهِ هُزُوا ۝ وَإِذْ كُرِّأُتْ آيَاتُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ آلِكِتْبٍ وَالْحِكْمَةٍ يَعْلَمُكُمْ بِهِ ۝ وَأَنَّقُوا اللَّهَ وَأَغْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُكْلِ شَيْءٍ عَلَيْمٌ ۝

هذا أمر من الله، عز وجل للرجال، إذا طلق أحدهم المرأة طلاقاً له عليها فيه رجعة، أن يحسن في أمرها إذا انقضت عدتها، ولم يبق منها إلا مقدار ما يمكنه فيه رجعتها، فإذا ما أن يمسكها، أي يرجعها، إلى عصمة نكاحه، بمعرفة وهو أن يشهد على رجعتها، وينوي عشرتها بالمعروف، أو يسرحها، أي يتركها حتى تنقضي عدتها ويخرجها من منزله بالتي هي أحسن، من غير شCAC ولا مخاصمة ولا تقابل، قال الله تعالى: «ولَا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا»، قال ابن عباس، ومجاهد ومسروق والحسن وقتادة والضحاك والربيع ومقاتل بن حيان وغير واحد: كان الرجل يطلق المرأة، فإذا قارت انتقام العدة راجعها، ضراراً لثلا تذهب إلى غيره، ثم يطلقها فتعتذر، فإذا شارت على انتقام العدة طلق لتطول عليها العدة، فنهاهم الله عن ذلك، وتوعدهم عليه، فقال: «ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه» أي بمخالفته أمر الله تعالى.

وقوله تعالى: «ولَا تتخذوا آيات الله هزوأ» قال ابن جرير<sup>(١)</sup> عند هذه الآية: أخبرنا أبو كريب، أخبرنا إسحاق بن منصور عن عبد السلام بن حرب، عن يزيد بن عبد الرحمن، عن أبي العلاء الأودي، عن حميد بن الرحمن، عن أبي موسى، أن رسول الله ﷺ غضب على الأشعريين، فأتاه أبو موسى فقال: يا رسول الله، أغضبت على الأشعريين؟ فقال: «يقول أحدكم قد طلقت، قد راجعت، ليس هذا طلاق المسلمين، طلقوا المرأة في قبل عدتها» ثم رواه من وجه آخر عن أبي خالد الدالاني وهو يزيد بن عبد الرحمن، وفيه كلام.

وقال مسروق: هو الذي يطلق في غير كنهه، ويضار امرأته بطلاقها وارتجاعها لتطول عليها العدة، وقال الحسن وقتادة وعطاء الخراساني والربيع ومقاتل بن حيان: هو الرجل يطلق ويقول: كنت لاعباً، أو يعتق أو ينكح ويقول: كنت لاعباً، فأنزل الله «ولَا تتخذوا آيات الله هزوأ» فألزم الله بذلك.

وقال ابن مردويه: حدثنا إبراهيم بن محمد، حدثنا أبو أحمد الصيرفي، حدثني جعفر بن محمد السمساري، عن إسماعيل بن يحيى عن سفيان، عن ليث، عن مجاهد، عن ابن عباس، قال: طلق رجل امرأته وهو يلعب لا يريد الطلاق، فأنزل الله «ولَا تتخذوا آيات الله هزوأ» فألزمه رسول الله ﷺ الطلاق. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عصام بن رواد، حدثنا آدم، حدثنا المبارك بن فضالة عن الحسن هو البصري، قال: كان الرجل يطلق ويقول: كنت لاعباً ويعتق ويقول: كنت لاعباً، وينكح ويقول: كنت لاعباً، فأنزل الله «ولَا تتخذوا آيات الله هزوأ»، وقال رسول الله ﷺ: «من طلق أو أعتق أو نكح أو أنكح، جاداً أو لاعباً، فقد جاز عليه» وكذا رواه ابن

جرير، من طريق الزهري، عن سليمان بن أرقم، عن الحسن مثله، وهذا مرسل، وقد رواه ابن مردويه، عن طريق عمرو بن عبيد، عن الحسن، عن أبي الدرداء موقوفاً عليه. وقال أيضاً: حدثنا أحمد بن الحسن بن أبيوب، حدثنا يعقوب بن أبي يعقوب، حدثنا يحيى بن عبد الحميد، حدثنا أبو معاوية عن إسماعيل بن سلمة عن الحسن عن عبادة بن الصامت في قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَنْخُذُوا آيَاتِ اللَّهِ هَرَوْا﴾ . قال: كان الرجل على عهد النبي ﷺ يقول للرجل: زوجتك ابنتي ثم يقول: كنت لاعباً، ويقول: قد أعتقت، ويقول: كنت لاعباً، فأنزل الله ﷺ ﴿وَلَا تَنْخُذُوا آيَاتِ اللَّهِ هَرَوْا﴾ .

قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من قالهن لاعباً أو غير لاعب، فهن جائزات عليه: الطلاق والعناق والنكاح» والمشهور في هذا الحديث الذي رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه من طريق عبد الرحمن بن حبيب بن أدرك عن عطاء عن ابن ماهك عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث جدهن جد، وهزلهن جد: النكاح والطلاق والرجعة» وقال الترمذى: حسن غريب.

وقوله ﴿وَذَكَرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ ، أي في إرساله الرسول بالهدى والبيانات إليكم ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ﴾ ، أي السنة ﴿يَعْظِمُونَ بِهِ﴾ أي يأمركم وينهاكم ويتوعدكم على ارتكاب المحارم، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ ، أي فيما تأتون وفيما تذرون، ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي فلا يخفى عليه شيء من أموركم السرية والجهرية وسيجازيكم على ذلك.

**وإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَأَضُوا بِهِنْمَ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ  
يُهُمْ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَالظَّهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: نزلت هذه الآية في الرجل يطلق امرأته طلقة أو طلقتين، فتنقضي عدتها، ثم يبدو له أن يتزوجها وأن يراجعها، وتريد المرأة ذلك فيمنعها أولياؤها من ذلك، فنهى الله أن يمنعوها. وكذا روى العوفي عنه عن ابن عباس أيضاً، وكذا قال مسروق وإبراهيم التخخي والزهري والضحاك: إنها أزلت في ذلك، وهذا الذي قالوه ظاهر من الآية، وفيها دلالة على أن المرأة لا تملك أن تزوج نفسها، وأنه لابد في النكاح من ولد، كما قاله الترمذى وابن جرير عند هذه الآية، كما جاء في الحديث «لا تزوج المرأة المرأة، ولا تزوج المرأة نفسها، فإن الزانية هي التي تزوج نفسها» وفي الأثر الآخر «لا نكاح إلا بولي مرشد وشاهدي عدل» وفي هذه المسألة نزاع بين العلماء، محرر في موضعه من كتب الفروع، وقد قررنا ذلك في كتاب الأحكام، والله الحمد والمنة.

وقد روی أن هذه الآية نزلت في معلق بن يسار المزني وأخته، فقال البخاري رحمه الله في

كتابه الصحيح عند تفسير هذه الآية: حدثنا عبيد الله بن سعيد، حدثنا أبو عامر العقدي، حدثنا عباد بن راشد، حدثنا الحسن، قال: حدثني مقل بن يسار، قال: كانت لي أخت تخطب إلي، قال البخاري: وقال إبراهيم عن يونس، عن الحسن، حدثني مقل بن يسار، وحدثنا أبو معمر، وحدثنا عبد الوارث، حدثنا يونس عن الحسن، أن أخت مقل بن يسار طلقها زوجها، فتركها حتى انقضت عدتها فخطبها، فأبى مقل، فنزلت **﴿وَلَا تَعْضِلُوهُنَّ أَنْ ينكحُنَّ أَزْوَاجَهُنَّ﴾** وهكذا رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه وابن أبي حاتم وابن جرير وابن مردوه من طرق متعددة عن الحسن، عن مقل بن يسار به، وصححه الترمذى أيضاً، ولفظه عن مقل بن يسار، أنه زوج أخته رجلاً من المسلمين، على عهد رسول الله ﷺ فكانت عنده ما كانت، ثم طلقها تطليقة لم يراجعها حتى انقضت عدتها، فهوبيها وهوبيته، ثم خطبها مع الخطاب، فقال له: يا لکع بن لکع! أكرمتك بها وزوجتكها فطلقتها، والله لا ترجع إليك إبداً آخر ما عليك، قال: فعلم الله حاجته إليها، وحاجتها إلى بعلها، فأنزل الله **﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلْيَغْلُنْ أَجْلَهُنَّ﴾** إلى قوله **﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾** فلما سمعها مقل قال: سمعاً لربى وطاعة ثم دعاه، فقال: أزوجك وأكرمك، زاد ابن مردوه: وكفرت عن يميني. وروى ابن جرير، عن ابن جريج، قال: هي جمل بنت يسار، كانت تحت أبي البداح. وقال سفيان الثوري، عن أبي إسحاق السبئي، قال: هي فاطمة بنت يسار. وهكذا ذكر غير واحد من السلف، أن هذه الآية نزلت في مقل بن يسار وأخته. وقال السدي: نزلت في جابر بن عبد الله وبنته عم له وال الصحيح الأول والله أعلم.

وقوله **﴿ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾** أي هذا الذي نهيتكم عنه من من الولايا أن يتزوجن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف يأتمن به، ويتعظ به، وينفع له **﴿مِنْ كَانَ مِنْكُمْ﴾** أيها الناس **﴿يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾** أي يؤمن بشرع الله، ويختلف وعيه الله وعداته، في الدار الآخرة، وما فيها من الجزاء **﴿ذَلِكُمْ أَزْكِي لَكُمْ وَأَطْهَرُ﴾** أي اتبعكم شرع الله، في رد الموليات إلى أزواجهن، وترك الحمية في ذلك أزكي لكم وأطهر لقلوبكم **﴿وَاللهُ يَعْلَمُ أَيُّ مِنَ الْمُصَالِحِ، فِيمَا يَأْمُرُ بِهِ وَيَنْهَا عَنْهُ﴾** **﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾** أي الخيرة فيما تأتون، ولا فيما تذرون.

**﴿وَالْوَلَدَاتُ يُرضِّعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتَمَّ الرَّضَاعَةُ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكَسُوْهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسٌ إِلَّا وَسَعَهَا لَا تُضْسَرُ وَلِلَّهِ يُولَدُهُ وَلَا مَوْلُودُ لَهُ يُولَدِهُ وَعَلَى أَوْلَادِهِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَ أَرَادَ فَصَالًا عَنْ رَضِّيْمِهِمَا وَتَشَاؤِرِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلَقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾**

هذا إرشاد من الله تعالى للوالدات أن يرضعن أولادهن كمال الرضاعة، وهي ستنان فلا اعتبار بالرضاعة بعد ذلك، ولهذا قال **﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتَمَّ الرَّضَاعَةُ﴾** وذهب أكثر الأئمة إلى أنه لا يحرم من الرضاعة إلا ما كان دون الحولين، فلو ارتفع المولود وعمره فوقهما لم يحرم.

قال الترمذى<sup>(١)</sup>: [باب ما جاء أن الرضاعة لا تحرم إلا في الصغر دون الحولين] حدثنا قتيبة، حدثنا أبو عوانة عن هشام بن عروة، عن فاطمة بنت المنذر، عن أم سلمة، قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا يحرم من الرضاع إلا ما فتق الأمعاء في الثدي وكان قبل الفطام» هذا حديث حسن صحيح، والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم من أصحاب رسول الله ﷺ وغيرهم، أن الرضاعة لا تحرم إلا ما كان دون الحولين، وما كان بعد الحولين الكاملين، فإنه لا يحرم شيئاً، وفاطمة بنت المنذر بن الزبير بن العوام هي امرأة هشام بن عروة. (قلت) تفرد الترمذى برواية وهذا الحديث ورجاله على شرط الصحيحين.

ومعنى قوله «إلا ما كان في الثدي» أي في مجال الرضاعة قبل الحولين، كما جاء في الحديث الذي رواه أحمد عن وكيع، وعند روى عن شعبة، عن عدي بن ثابت، عن البراء بن عازب، قال: لما مات إبراهيم بن النبي ﷺ، قال: «إن ابني مات في الثدي، إن له مرضعاً في الجنة»، وهكذا أخرجه البخاري من حديث شعبة وإنما قال عليه السلام ذلك، لأن ابنه إبراهيم عليه السلام، مات ولو سنة وعشرين أشهر، فقال: إن له مرضعاً، يعني تكمل رضاعه، ويؤيد ما رواه الدارقطني من طريق الهيثم بن جميل عن سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحرم من الرضاع إلا ما كان في الحولين» ثم قال: ولم يستدِّه عن ابن عيينة غير الهيثم بن جميل، وهو ثقة حافظ. (قلت) وقد رواه الإمام مالك في الموطأ عن ثور بن يزيد، عن ابن عباس مرفوعاً، ورواه الدراوردي عن ثور، عن عكرمة، عن ابن عباس، وزاد «وما كان بعد الحولين فليس بشيء» وهذا أصح.

وقال أبو داود الطيالسي، عن جابر، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا رضاع بعد فصال، ولا يتم بعد احتلام» وتمام الدلالة من هذا الحديث في قوله تعالى: «وفصاله في عامين أن اشكري لي» [لقمان: ١٤]، وقال «وحمله وفصالة ثلاثون شهراً» [الأحقاف: ١٥] والقول بأن الرضاعة لا تحرم بعد الحولين، يروى عن علي وابن عباس وابن مسعود وجابر وأبي هريرة وابن عمر وأبا سعيد بن المسيب وعطاء والجمهور، وهو مذهب الشافعى وأحمد وإسحاق والثورى وأبي يوسف ومحمد ومالك في رواية، وعنه أن مدته ستة شهور، وفي رواية: وثلاثة أشهر. وقال أبو حنيفة: ستة شهور، وستة أشهر. وقال زفر بن الهذيل: ما دام يرضع فإلى ثلاثة سنين، وهذا رواية عن الأوزاعى، قال مالك: ولو فطم الصبي دون الحولين، فأرضعه امرأة بعد فصاله، لم يحرم لأنه قد صار بمنزلة الطعام، وهو رواية عن الأوزاعى، وقد روي عن عمر وعلى أنهما قالا: لا رضاع بعد فصال، فيحتمل أنهما أرادا الحولين، كقول الجمهور: سواء فطم أو لم يفطم ويحتمل أنهما أرادا الفعل كقول مالك، والله أعلم.

(١) سنن الترمذى (رضاع باب ٥).

وقد روى في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها، أنها كانت ترى رضاع الكبير يؤثر في التحرير، وهو قول عطاء بن أبي رباح والليث بن سعد، وكانت عائشة تأمر بمن تخثار أن يدخل عليها من الرجال لبعض نسائها، فترضعه، وتحتاج في ذلك بحديث سالم مولى أبي حذيفة حيث أمر النبي ﷺ امرأة أبي حذيفة أن ترضعه وكان كبيراً، فكان يدخل عليها بتلك الرضاعة، وأبى ذلك سائر أزواج النبي ﷺ، ورأين ذلك من الخصائص، وهو قول الجمهور، وحجة الجمهور وهم الأئمة الأربع، والفقهاء السبعة، والأكابر من الصحابة، وسائر أزواج رسول الله ﷺ، سوى عائشة ما ثبت في الصحيحين عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «انظرن من إخوانكم فإنما الرضاعة من المجاعة» وسيأتي الكلام على مسائل الرضاع وفيما يتعلق برضاع الكبير، عن قوله تعالى: «وأمها لكم اللاتي أرضعنكم» [النساء: ٢٣].

وقوله: «وعلى المولود له رزقهن وكسوتهم بالمعروف» أي وعلى والد الطفل نفقة الوالدات وكسوتهم بالمعروف، أي بما جرت به عادة أمثالهن في بلدهن من غير إسراف ولا إقتار، بحسب قدرته في يساره، وتوسيطه وإقتاره، كما قال تعالى: «لينفق ذو سعة من سنته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاها الله لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها س يجعل الله بعد عسر يسراً» [الطلاق: ٧] قال الضحاك: إذا طلق زوجته وله منها ولد، فأرضعت له ولده، وجب على الوالد نفقتها وكسوتها بالمعروف.

وقوله: «لا تضار والدة بولدها» أي بأن تدفعه عنها لتضر أباه بتربيته، ولكن ليس لها دفعه إذا ولدته حتى تسقيه اللبن الذي لا يعيش بدون تناوله غالباً، ثم بعد هذا لها دفعه عنها إذا شاءت، ولكن إن كانت مضارة لأبيه، فلا يحل لها ذلك، كما لا يحل له انتزاعه منها لمجرد الضرار لها، ولهذا قال: «ولا مولود له بولده» أي بأن يريد أن يتزعز الولد منها إضراراً بها، قاله مجاهد وقتادة والضحاك والزهري والسدي والثوري وابن زيد وغيرهم.

وقوله تعالى: «وعلى الوارث مثل ذلك» قيل: في عدم الضرار لقربيه، قاله مجاهد والشعبي والضحاك، وقيل: عليه مثل ما على والد الطفل من الإنفاق على والدة الطفل والقيام بحقوقها وعدم الإضرار بها، وهو قول الجمهور، وقد استقصى ذلك ابن جرير<sup>(١)</sup> في تفسيره، وقد استدل بذلك من ذهب من الحنفية والحنبلية إلى وجوب نفقة الأقارب بعضهم على بعض، وهو مروي عن عمر بن الخطاب وجمهور السلف، ويرجع ذلك بحديث الحسن عن سمرة مرفوعاً «من ملك ذا رحم محرم، عتق عليه» وقد ذكر أن الرضاعة بعد الحولين ربما ضررت الولد إما في بدنها أو في عقله. وقال سفيان الثوري، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن علامة: أنه رأى امرأة ترضع بعد الحولين، فقال: لا ترضعيه.

(١) تفسير الطبرى ٥١٣ / ٢ — ٥١٩

وقوله: «فَإِنْ أَرَادَا فَصَالاً عَنْ تِرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَارُورٌ فَلَا جُنَاحٌ عَلَيْهِمَا» أي فإن اتفق والد الطفل على فطامه قبل الحولين، ورأيا في ذلك مصلحة له، وتشاروا في ذلك وأجمعوا عليه، فلا جناح عليهما في ذلك، فيؤخذ منه أن انفراد أحدهما بذلك دون الآخر لا يكفي، ولا يجوز لواحد منهما أن يستبدل ذلك من غير مشاورة الآخر، قاله الثوري وغيره، وهذا فيه احتياط للطفل وإلزام للنظر في أمره، وهو من رحمة الله بعباده حيث حجر على الوالدين في تربية طفليهما، وأرشدهما إلى ما يصلحهما ويصلحه، كما قال في سورة الطلاق «فَإِنْ أَرْضَعْنَا لَكُمْ فَاتَّوْهُنَّ أَجْوَرُهُنَّ وَأَتَمْرَوْهُنَّ بِمَا عُرِفَ وَإِنْ تَعَسَّرْتُمْ فَسْتَرْضِعُوهُنَّ أَخْرَى» [الطلاق: ٦].

وقوله تعالى: «وَإِنْ أَرْدَتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أُولَادَكُمْ فَلَا جُنَاحٌ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ» أي إذا اتفقت الوالدة والوالد على أن يستلم منها الولد إما لعدم منها أو العذر له، فلا جناح عليهما في بذلك، ولا عليه في قوله منها إذا سلمها أجرتها الماضية بالتي هي أحسن، واسترضع لولده غيرها بالأجرة بالمعروف، قاله غير واحد. وقوله: «وَاتَّقُوا اللَّهَ» أي في جميع أحوالكم «وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» أي فلا يخفى عليه شيء من أحوالكم وأقوالكم. **وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَرْبِّصُنَّ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشَرًا فَإِذَا بَلَغُنَّ أَجْلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ حَمِيرٌ**

هذا أمر من الله للنساء اللاتي يتوفى عنهن أزواجهن، أن يعتدن أربعة أشهر وعشرين ليل، وهذا الحكم يشمل الزوجات المدخول بهن وغير المدخول بهن بالإجماع، ومستنده في غير المدخل بها عموم الآية الكريمة، وهذا الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن وصححه الترمذى: أن ابن مسعود سئل عن رجل تزوج امرأة فمات عنها، ولم يدخل بها ولم يفرض لها، فترددوا إليه مراراً في ذلك، فقال أقول فيها برأيي، فإن يك صواباً فمن الله، وإن يك خطأ فمني ومن الشيطان، والله رسوله بريثان منه: لها الصداق كاملاً، وفي لفظ: لها صداق مثلها لا وكس ولا شطط، وعليها العدة، ولها الميراث، فقام معقل بن يسار الأشعجي فقال: سمعت رسول الله ﷺ، قضى به في بروع بنت واشق ففرح عبد الله بذلك فرحاً شديداً، وفي رواية: فقام رجال من أشجع فقالوا: نشهد أن رسول الله ﷺ قضى به في بروع بنت واشق. ولا يخرج من ذلك إلا المتوفى عنها زوجها، وهي حامل، فإن عدتها بوضع الحمل ولو لم تتمكث بعده سوى لحظة لعموم قوله: «وَأَوْلَاتُ الْأَحْمَالِ أَجْلَهُنَّ أَنْ يَضْعُنَ حَمْلَهُنَّ» [الطلاق: ٤].

وكان ابن عباس يرى أن عليها أن تربض بأبعد الأجلين من الوضع، أو أربعة أشهر وعشرين للجمع بين الآيتين، وهذا مأخذ جيد ومسلك قوي، لو لا ما ثبتت به السنة في حدث سبعة الأساسية المخرج في الصحيحين<sup>(١)</sup> من غير وجه، أنها توفي عنها زوجها سعد بن خولة وهي

(١) ينظر صحيح البخاري (طلاق باب ٣٨، ومخازي باب ١٠) وصحيح مسلم (رضاع حديث ١٢٣) وسنن

حامل، فلم تتشبأ أن وضعت حملها بعد وفاته، وفي رواية: فوضعت حملها بعده بليل، فلما تعلت من نفاسها، تجملت للخطاب، فدخل عليها أبو السنابل بن بعكك، فقال لها: ما لي أراك متجملة لعلك ترجين النكاح؟ والله ما أنت بناكح حتى يمر عليك أربعة أشهر وعشرين. قالت سبعة: فلما قال لي ذلك، جمعت على ثيابي حين أمسيت، فأتيت رسول الله ﷺ فسألته عن ذلك، فأفتاني بأنني قد حللت حين وضعت حملي، وأمرني بالتزويج إن بدا لي.

قال أبو عمر بن عبد البر: وقد روي أن ابن عباس رجع إلى حديث سبعة، يعني لما احتاج عليه به، قال: ويصح ذلك عنه، أن أصحابه أفتوا بحديث سبعة كما هو قول أهل العلم قاطبة.

وكذلك يستثنى من ذلك الزوجة إذا كانت أمّة، فإن عدتها على النصف من عدة الحرة، شهراً وخمس ليال على قول الجمهور، لأنها لما كانت على النصف من الحرة في الحد، فكذلك فلتكن على النصف منها في العدة. ومن العلماء كمحمد بن سيرين وبعض الظاهريه من يسوّي بين الزوجات الحرائر والإماء في هذا المقام لعموم الآية، ولأن العدة من باب الأمور الجليلة التي تستوي فيها الخلقة، وقد ذكر سعيد بن المسيب، وأبو العالية وغيرهما، أن الحكمة في جعل عدة الوفاة أربعة أشهر وعشرين، لاحتمال اشتمال الرحم على حمل، فإذا انتظر به هذه المدة، ظهر إن كان موجوداً، كما جاء في حديث ابن مسعود الذي في الصحيحين وغيرهما «إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمّه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضبغة مثل ذلك، ثم يبعث إليه الملك فينفع فيه الروح» فهذه ثلاثة أربعينات بأربعة أشهر، والاحتياط بعشر بعدها لما قد ينقص بعض الشهور، ثم لظهور الحركة بعد نفح الروح فيه، والله أعلم.

قال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة: سألت سعيد بن المسيب: ما بال العشر؟ قال: فيه ينفع الروح، وقال الربيع بن أنس: قلت لأبي العالية: لم صارت هذه العشر مع الأشهر الأربع؟ قال: لأنه ينفع فيه الروح، رواهما ابن جرير<sup>(١)</sup>.

ومن ه هنا ذهب الإمام أحمد، في رواية عنه، إلى أن عدة أم الولد عدة الحرة ه هنا، لأنها صارت فرائساً كالحرائر، وللحديث الذي رواه الإمام أحمد عن يزيد بن هارون، عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة عن رجاء بن حمزة، عن قبيصة بن ذؤيب، عن عمرو بن العاص أنه قال: لا تلبسو علينا سنة نبينا، عدة أم الولد، إذا توفى عنها سيدها أربعة أشهر وعشرين. ورواه أبو داود عن قتيبة، عن غندر، وعن ابن المثنى، عن عبد الأعلى، وابن ماجه عن علي بن محمد، عن الربيع، ثلاثتهم عن سعيد بن أبي عروبة، عن مطر الوراق، عن رجاء بن حمزة، عن قبيصة، عن عمرو بن العاص، فذكره. وقد روي عن الإمام أحمد أنه أنكر هذا الحديث، وقيل إن قبيصة لم

= أبي داود (طلاق باب ٤٧) وسنن النسائي (طلاق باب ٥٦).

(١) تفسير الطبرى / ٢ ٥٣٠.

يسمع عمراً، وقد ذهب إلى القول بهذا الحديث طائفة من السلف، منهم سعيد بن المسيب ومجاحد وسعيد بن جبير، والحسن وابن سيرين وأبو عياض والزهري وعمر بن عبد العزيز، وبه كان يأمر يزيد بن عبد الملك بن مروان، وهو أمير المؤمنين، وبه يقول الأوزاعي وإسحاق بن راهويه وأحمد بن حنبل في رواية عنه.

وقال طاوس وقتادة: عدة أم الولد إذا توفي عنها سيدها نصف عدة الحرة شهران وخمس ليال. وقال أبو حنيفة وأصحابه، والثوري والحسن بن صالح بن حبي: تعتد بثلاث حيض، وهو قول علي وابن مسعود وعطاء وإبراهيم التخعي. وقال مالك والشافعي وأحمد في المشهور عنه: عدتها حيضة، وبه يقول ابن عمر الشعبي ومكحول واللith وأبو عبيد وأبو ثور والجمهور، وقال الليث: ولو مات وهي حائض، أجزأتها. وقال مالك: فلو كانت ممن لا تحيسن، فثلاثة أشهر. وقال الشافعي والجمهور: شهر وثلاثة أحب إلى، والله أعلم.

وقوله: «فإذا بلغن أجلهن لا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف والله بما تعملون خبير» يستفاد من هذا وجوب الإحداد على المتوفى عنها زوجها مدة عدتها لما ثبت في الصحيحين من غير وجه عن أم حبيبة وزينب بنت جحش أم المؤمنين، أن رسول الله ﷺ قال «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث، إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً» وفي الصحيحين أيضاً عن أم سلمة أن امرأة قالت: يا رسول الله، إن ابتي توفي عنها زوجها وقد اشتكت عينها أفنكلحها؟ فقال «لا» كل ذلك يقول - لا - مرتين أو ثلاثة، ثم قال: «إنما هي أربعة أشهر وعشرين، وقد كانت إحداكم في الجاهلية تمكث سنة» قالت زينب بنت أم سلمة: كانت المرأة إذا توفي عنها زوجها، دخلت حفشاً<sup>(١)</sup> ولبس شر ثيابها، ولم تمس طيباً ولا شيئاً حتى تمر بها سنة، ثم تخرج فتعطى برة فترمي بها، ثم تؤتى بدابة حمار أو شاة أو طير فتفقض به. فقلما تفتقش شيء إلا مات، ومن هنا ذهب كثيرون من العلماء إلى أن هذه الآية ناسخة للآية التي بعدها، وهي قوله: «والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصبة لأزواجهم متاعاً إلى الحول غير إخراج» الآية، كما قاله ابن عباس وغيره، وفي هذا نظر كما سبأته تقريره. والغرض أن الإحداد هو عبارة عن ترك الزينة من الطيب وليس ما يدعوها إلى الأزواج من ثياب وحلي وغير ذلك، وهو واجب في عدة الوفاة قولاً واحداً، ولا يجب في عدة الرجعة قولاً واحداً، وهل يجب في عدة البائن فيه قولان. ويجب الإحداد على جميع الزوجات المتوفى عنهن أزواجهن، سواء في ذلك الصغيرة والآيسة والحرة والأمة والمسلمة والكافرة، لعموم الآية، وقال الثوري وأبو حنيفة وأصحابه: لا إحداد على الكافرة، وبه يقول أشهب وابن نافع من أصحاب مالك، وحججة قائل هذه المقالة قوله ﷺ «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد

(١) الحفشن: البيت الحقير القريب السقف من الأرض. والبيت الصغير من بيوت الأعراب. والدرج تصنع المرأة فيه حاجتها.

على ميت فوق ثلاث، إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً» قالوا: فجعله تبداً، وألحق أبو حنيفة وأصحابه والثوري الصغيرة بها لعدم التكليف، وألحق أبو حنيفة وأصحابه الأمة المسلمة لنقضها، ومحل تقرير ذلك كله في كتب الأحكام والفروع، والله الموفق للصواب.

وقوله «إذا بلغن أجلهن» أي انقضت عدتهن، قاله الضحاك والربيع بن أنس، «فلا جناح عليكم» قال الزهرى: أي على أوليائهما. «فيما فعلن» يعني النساء اللاتي انقضت عدتهن، قال العوفى عن ابن عباس: إذا طلقت المرأة أو مات عنها زوجها، فإذا انقضت عدتها فلا جناح عليهما أن تزین وتتصنع وتتعرض للتزویج، فذلك المعروف. وروي عن مقاتل بن حيان نحوه، وقال ابن جريج عن مجاهد «فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف» قال: النكاح الحال الطيب، وروي عن الحسن والزهرى والسدى ونحو ذلك.

وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَضْتُمْ بِهِ مِنْ خَطْبَةِ إِلَسَاءٍ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عِلْمًا اللَّهُ أَنْكُنْ سَتَذَكَّرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تَوَاعِدُوهُنَّ سِرًا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا فَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْرِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاجِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجْلَهُ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَأَخْدُرُوهُ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ

يقول تعالى: «ولا جناح عليكم» أن تعرضوا بخطبة النساء في عدتهن من وفاة أزواجهن من غير تصريح، قال الثوري وشعبة وجرير وغيرهم، عن منصور، عن مجاهد، عن ابن عباس في قوله «ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء» قال: التعريض أن يقول: إني أريد التزویج، وإنني أحب امرأة من أمرها - يعرض لها بالقول بالمعروف - وفي رواية: وددت أن الله رزقني امرأة، ونحو هذا، ولا يتنصب للخطبة، وفي رواية: إني لا أريد أن أتزوج غيرك إن شاء الله، ولو ددت أني وجدت امرأة صالحة، ولا يتنصب لها ما دامت في عدتها ورواه البخاري تعليقاً فقال: وقال لي طلق بن غنم، عن زائدة، عن منصور، عن مجاهد، عن ابن عباس «ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء» هو أن يقول: إني أريد التزویج، وإن النساء لمن حاجتي، ولو ددت أن يسэр لي امرأة صالحة، وهكذا قال مجاهد وطاوس وعكرمة وسعيد بن جبیر وإبراهيم النخعي والشعیی وقتادة والحسن وقتادة والزهری ويزید بن قسيط ومقاتل بن حیان والقاسم بن محمد وغير واحد من السلف والأئمة في التعريض: إنه يجوز للمتوفى عنها زوجها من غير تصريح لها بالخطبة، وهكذا حکم المطلقة المبتوطة يجوز التعريض لها، كما قال النبي ﷺ لفاطمة بنت قيس حين طلقها زوجها أبو عمرو بن حفص آخر ثلاث تطليقات، فأمرها أن تعتد في بيت ابن أم مكتوم، وقال لها: فإذا حللت فاذنني، فلما حللت، خطب عليها أسامة بن زید مولاها، فزوجها إياه، فأما المطلقة فلا خلاف في أنه لا يجوز لغير زوجها التتصريح بخطبتها ولا التعريض لها، والله أعلم.

وقوله «أو أكنتم في أنفسكم» أي أضمرتم في أنفسكم من خطبتهن، وهذا كقوله تعالى «وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلون» [القصص: ٦٩] وكقوله «وأنا أعلم بما أخفيت وما أعلتم» [المتحنة: ١] ولهذا قال «علم الله أنكم ستدكرنهن» أي في أنفسكم، فرفع الحرج عنكم في ذلك. ثم قال: «ولكن لا تواعدوهن سراً» قال أبو مجلز وأبو الشعثاء جابر بن زيد والحسن البصري وإبراهيم النخعي وفتادة والضحاك والربيع بن أنس وسلمان التيمي ومقاتل بن حيان والسدي: يعني الزنا، وهو معنى الزنا، وهو معنى رواية العوفي عن ابن عباس، واختاره ابن جرير، وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس «ولكن لا تواعدوهن سراً» لا تقل لها: إني عاشق وعاهديني أن لا تتزوجي غيري، ونحو هذا، وكذا روي عن سعيد بن جبير والشعبي وعكرمة وأبي الضحى والضحاك والزهري ومجاحد والثورى، هو أن يأخذ ميثاقها أن لا تتزوج غيره. وعن مجاهد: هو قول الرجل للمرأة: لا تفوتيني بنفسك فإني ناكحك، وقال قتادة: هو أن يأخذ عهد المرأة وهي في عدتها أن لا تنكح غيره، فنهى الله عن ذلك، وقدم فيه وأحل الخطبة، والقول بالمعروف، وقال ابن زيد «ولكن لا تواعدوهن سراً» هو أن يتزوجها في العدة سراً، فإذا حللت أظهر ذلك، وقد يتحمل أن تكون الآية عامة في جميع ذلك، لهذا قال «إلا أن تقولوا قولًا معروفاً» قال ابن عباس ومجاحد وسعيد بن جبير والسدي والثورى وابن زيد: يعني به ما تقدم من إباحة التعريض كقوله: إني فيك لراغب ونحو ذلك، وقال محمد بن سيرين: قلت لعبيدة: ما معنى قوله «إلا أن تقولوا قولًا معروفاً»؟ قال: يقول لوليهما: لا تسبني بها، يعني لا تزوجها حتى تعلمني، رواه ابن أبي حاتم.

وقوله «ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله» يعني ولا تعقدوا العقدة بالنكاح حتى تنقضي العدة. قال ابن عباس ومجاحد والشعبي وفتادة والضحاك والربيع بن أنس وأبو مالك وزيد بن أسلم ومقاتل بن حيان والزهري وعطاء الخراساني والسدي والثورى والضحاك: «حتى يبلغ الكتاب أجله» يعني ولا تعقدوا العقد بالنكاح حتى تنقضي العدة، وقد أجمع العلماء على أنه لا يصح العقد في العدة. واختلفوا فيما زرجم امرأة في عدتها، فدخل بها، فإنه يفرق بينهما، وهل تحرم عليه أبداً؟ على قولين: الجمهور على أنها لا تحرم عليه، بل له أن يخطبها إذا انقضت عدتها. وذهب الإمام مالك إلى أنها تحرم عليه على التأييد، واحتج في ذلك بما رواه عن ابن شهاب وسلمان بن يسار، أن عمر رضي الله عنه، قال: أيما امرأة نكحت في عدتها، فإن كان زوجها الذي تزوج بها لم يدخل بها فرق بينهما، ثم اعتدت بقية عدتها من زوجها الأول، وكان خاطباً من الخطاب، وإن كان دخل بها فرق بينهما ثم اعتدت بقية عدتها من زوجها الأول، ثم اعتدت من الآخر، ثم لم ينكحها أبداً قالوا: وماخذ هذا أن الزوج لما استعجل ما أحل الله، عوقب بنقيض قصده، فحرمت عليه على التأييد كالقاتل يحرم الميراث. وقد روى الشافعى هذا الأثر عن مالك. قال البيهقي: وذهب إليه في القديم ورجع عنه في الجديد، لقول علي أنها تحل

له. (قلت) قال: ثم هو منقطع عن عمر. وقد روى الثوري عن أشعث، عن الشعبي، عن مسروق، أن عمر رجع عن ذلك، وجعل لها مهرها وجعلهما يجتمعان.

وقوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحذِرُوهُ﴾، توعدهم على ما يقع في ضمائركم من أمور النساء، وأرشدهم إلى إضمار الخير دون الشر، ثم لم يؤيدهم من رحمته، ولم يقتضهم من عائذته، فقال ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ الْأَسَاءَ مَا آتَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيشَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدْرُهُ وَعَلَى  
الْمُفْتَرِ قَدْرُهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٤١﴾

أباح تبارك وتعالي طلاق المرأة بعد العقد عليها، وقبل الدخول بها. قال ابن عباس وطاوس وإبراهيم والحسن البصري: المس النكاح، بل ويجوز أن يطلقها قبل الدخول بها والفرض لها، إن كانت مفوضة وإن كان في هذا إنكسار لقلبه، ولهذا أمر تعالى بiamاتاعها وهو تعويضها بما فاتها بشيء تعطاه من زوجها بحسب حاله، على الموسوع قدره، وعلى المقتر قدره. وقال سفيان الثوري، عن إسماعيل بن أمية عن عكرمة، عن ابن عباس قال: متعة الطلاق أعلاه الخادم، ودون ذلك الورق، ودون ذلك الكسوة. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: إن كان موسراً متعها بخادم أو نحو ذلك، وإن كان معسراً أمتعها بثلاثة أثواب. وقال الشعبي: أوسط ذلك درع وخمار وملحفة وجلباب، قال: وكان شريح يمتع بخمسماه. وقال عبد الرزاق: أخبرنا معاشر عن أيوب بن سيرين، قال: كان يمتع بالخادم أو بالنفقة أو بالكسوة. قال: ومتعب الحسن بن علي بعشرة آلاف، ويروى أن المرأة قالت: متاع قليل من حبيب مفارق. وذهب أبو حنيفة إلى أنه متى تنازع الزوجان في مقدار المتعة وجب لها عليه نصف مهر مثلها. وقال الشافعي في الجديد: لا يجر الزوج على قدر معلوم إلا على أقل ما يقع عليه اسم المتعة، وأحب ذلك إلى أنني أستحسن ثلاثة درهماً، كما روي عن ابن عمر رضي الله عنهما.

وقد اختلف العلماء أيضاً هل تجب المتعة لكل مطلقة أو إنما تجب المتعة لغير المدخول بها التي لم يفرض لها، على أقوال: أحدها أنها تجب المتعة لكل مطلقة لعموم قوله تعالى: ﴿وَلِلْمَطْلُقاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًا عَلَى الْمُتَقِينَ﴾ [البقرة: ٢٤١] ولقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ  
قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كَتَنْ تَرْدَنِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَزِيَّنَتْهَا فَتَعْلِيْنَ أَمْتَعْكُنَ وَأَسْرَحْكُنْ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٨] وقد كن مفروضاً لهن ومدخولاً بهن، وهذا قول سعيد بن جبير وأبي العالية والحسن البصري، وهو أحد قولي الشافعي ومنهم من جعله الجديد الصحيح، والله أعلم.

والقول الثاني أنها تجب للمطلقة إذا طلقت قبل الميسىس، وإن كانت مفروضاً لها، لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكْحَتُمُ الْمُؤْمَنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عَدَةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَتَعُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٩] قال شعبة وغيره،

عن قتادة، عن سعيد بن المسيب، قال: نسخت هذه الآية التي في الأحزاب الآية التي في البقرة. وقد روى البخاري في صحيحه، عن سهل بن سعد وأبي أسد. أنهم قالا: تزوج رسول الله ﷺ أميمة بنت شرحبيل، فلما دخلت عليه، بسط يده إليها، فكأنها كرهت ذلك، فأمر أبو أسد أن يجهزها ويكسوها ثوبين أزرقين.

القول الثالث أن المتعة إنما تجب للمطلقة إذا لم يدخل بها ولم يفرض لها، فإن كان قد دخل بها، وجب لها مهر مثلها إذا كانت وإن كان قد فرض لها وطلاقها قبل الدخول، وجب لها عليه شطره، فإن دخل بها استقر الجميع، وكان ذلك عوضاً لها عن المتعة، وإنما المصابة التي لم يفرض لها ولم يدخل بها، فهذه التي دلت هذه الآية الكريمة على وجوب متعتها، هذا قول ابن عمر ومجاهد، ومن العلماء من استحبها لكل مطلقة من عدا المفروضة المفارقة قبل الدخول، وهذا ليس بمنكور، عليه تحمل آية التخيير في الأحزاب، ولهذا قال تعالى: «على الموسوع قدره وعلى المقتر قدره متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين» «وللمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين» [البقرة: ٢٤١] ومن العلماء من يقول: إنها مستحبة مطلقاً. قال ابن أبي حاتم: حدثنا كثير بن شهاب القزويني، حدثنا محمد بن سعيد بن سعيد، حدثنا عمرو - يعني ابن أبي قيس - عن أبي إسحاق، عن الشعبي، قال: ذكروا له المتعة، أيحبس فيها؟ فقرأ «على الموسوع قدره وعلى المقتر قدره» قال الشعبي: والله ما رأيت أحداً حبس فيها، والله لو كانت واجبة لحبس فيها القضاة.

وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فِي ضَيْنَةٍ فَنَصَّبْتُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْقُلُوْكُمْ أَوْ يَعْقُلُوا الَّذِي يَيْدِيهِ عُقْدَةً أَنْتَكُحُّ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ يَتَنَزَّكُمْ إِنَّ اللَّهَ يِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ

وهذه الآية الكريمة مما يدل على اختصاص المتعة بما دلت عليه الآية الأولى، حيث إنما أوجب في هذه الآية نصف المهر المفروض إذا طلق الزوج قبل الدخول، فإنه لو كان ثم واجب آخر من متعة لبيتها لا سيما وقد قرناها بما قبلها من اختصاص المتعة بتلك الآية، والله أعلم. وتشطير الصداق والحاله هذه أمر مجمع عليه بين العلماء، لا خلاف بينهم في ذلك، فإنه متى كان قد سمي لها صداقاً ثم فارقتها قبل دخوله بها، فإنه يجب لها نصف ما سمي من الصداق، إلا أن عند الثلاثة أنه يجب جمبع الصداق إذا خلا بها الزوج وإن لم يدخل بها، وهو مذهب الشافعي في القديم، وبه حكم الخلفاء الراشدون، لكن قال الشافعي: أخبرنا مسلم بن خالد، أخبرنا ابن جريج عن ليث بن أبي سليم، عن طاوس، عن ابن عباس أنه قال في الرجل يتزوج المرأة فيخلو بها ولا يمسها ثم يطلقها: ليس لها إلا نصف الصداق، لأن الله يقول: «وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فِي ضَيْنَةٍ فَنَصَّبْتُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْقُلُوْكُمْ أَوْ يَعْقُلُوا الَّذِي يَيْدِيهِ عُقْدَةً أَنْتَكُحُّ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ يَتَنَزَّكُمْ إِنَّ اللَّهَ يِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ

الكتاب. قال البيهقي وليث بن أبي سليم، وإن كان غير محتاج به، فقد روينا من حديث ابن أبي طلحة عن ابن عباس فهو مقوله.

وقوله: «إلا أن يغفون» أي النساء، عما وجب لها على زوجها، فلا يجب لها عليه شيء، قال السدي عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله: «إلا أن يغفون» قال: إلا أن تعفو الشيب فتدع حقها. قال الإمام أبو محمد بن أبي حاتم رحمه الله: روي عن شريح وسعيد بن المسيب وعكرمة ومجاهد والشعبي والحسن ونافع وقتادة وجابر بن زيد وعطاء الخراساني والضحاك والزهري ومقاتل بن حيان وابن سيرين والربيع بن أنس والسدي نحو ذلك. قال: وخالفهم محمد بن كعب القرظي فقال: «إلا أن يغفون» يعني الرجال، وهو قول شاذ لم يتبع عليه، انتهى كلامه.

وقوله: «أو يغفو الذي بيده عقدة النكاح» قال ابن أبي حاتم: ذكر عن ابن لهيعة حدثني عمرو بن شعيب، عن أبيه عن جده، عن النبي ﷺ، قال «ولي عقد النكاح الزوج» وهكذا أسنده ابن مردويه من حديث عبد الله بن لهيعة به، وقد أسنده ابن جرير عن ابن لهيعة، عن عمرو بن شعيب، أن رسول الله ﷺ ذكره ولم يقل عن أبيه عن جده، فالله أعلم. ثم قال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن حبيب، حدثنا أبو داود، حدثنا جابر يعني ابن أبي حازم، عن عيسى يعني ابن عاصم، قال: سمعت شريحاً يقول: سألني علي بن أبي طالب عن الذي بيده عقدة النكاح، فقلت له: هو ولی المرأة، فقال علي: لا، بل هو الزوج، ثم قال: وفي إحدى الروايات عن ابن عباس وجابر بن مطعم وسعيد بن المسيب وشريح في أحد قوله، وسعيد بن جبير ومجاهد والشعبي وعكرمة ونافع ومحمد بن سيرين والضحاك ومحمد بن كعب القرظي وجابر بن زيد وأبي مجلز والربيع بن أنس وإياس بن معاوية ومكحول ومقاتل بن حيان، أنه الزوج (قلت) وهذا هو الجديد من قولي الشافعي، ومذهب أبي حنيفة وأصحابه، والثورى وابن شبرمة والأوزاعى، واختاره ابن جرير، وأخذ هذا القول أن الذي بيده عقدة النكاح حقيقة الزوج، فإن بيده عقدها وإن بها ونقضها وانهداها، وكما أنه لا يجوز للولي، أن يهب شيئاً من مال المولية للغير، فكذلك في الصداق، قال: والوجه الثاني حدثنا أبي حدثنا ابن أبي مريم، حدثنا محمد بن مسلم، حدثنا عمرو بن دينار، عن ابن عباس - في الذي ذكر الله بيده عقدة النكاح - قال: ذلك أبوها أو أخوها أو من لا تنكر إلا بإذنه. وروي عن علقة والحسن وعطاء وطاوس والزهري وربيعة وزيد بن أسلم وإبراهيم التنجي وعكرمة في أحد قوله، ومحمد بن سيرين في أحد قوله أنه الولي. وهذا مذهب مالك، وقول الشافعى في القديم، وأخذه أن الولي هو الذي أكسبها إياه، فله التصرف فيه بخلاف سائر مالها. وقال ابن جرير<sup>(١)</sup>: حدثنا سعيد بن الربيع الرازي، حدثنا سفيان عن عمرو بن دينار عن عكرمة، قال: أذن الله في العفو وأمر به، فأي امرأة عفت

جاز عفوها، فإن شحت وضنت عفا ولها جاز عفوه. وهذا يقتضي صحة عفو الولي وإن كانت رشيدة؛ وهو مروي عن شريح، لكن أنكر عليه الشعبي، فرجع عن ذلك وصار إلى أنه الزوج وكان يياهل عليه.

وقوله: «وأن تعفوا أقرب للتفوى» قال ابن جرير<sup>(١)</sup>: قال بعضهم: خوطب به الرجال والنساء، حديثي يونس، أئبنا ابن وهب، سمعت ابن جريج يحدث عن عطاء بن أبي رباح، عن ابن عباس «وأن تعفوا أقرب للتفوى» قال: أقربهما للتفوى الذي يغفو، وكذا روي عن الشعبي وغيره. وقال مجاهد والنخعي والضحاك ومقاتل بن حيان والربيع بن أنس والثورى: الفضل - هنا - أن تعفوا المرأة عن شطرها أو إتمام الرجل الصداق لها، ولهذا قال «ولا تنسوا الفضل بينكم» أي الإحسان، قاله سعيد، وقال الضحاك وقتادة والسدي وأبو وائل المعروف: يعني لا تهملوه بل استعملوه بينكم، وقد قال أبو بكر بن مردوية، حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا موسى بن إسحاق، حدثنا عقبة بن مكرم، حدثنا يونس بن بكير، حدثنا عبد الله بن الوليد الرصافي عن عبد الله بن عبيد، عن علي بن أبي طالب، أن رسول الله ﷺ قال: «ليأتين على الناس زمان عضوض، بعض المؤمن على ما في يديه وينسى الفضل، وقد قال الله تعالى: «ولا تنسوا الفضل بينكم» شرار يباعون كل مضطر» وقد نهى رسول الله ﷺ عن بيع المضطر وعن بيع الغرر، فإن كان عندك خير فعد به على أخيك ولا ترده هلاكاً إلى هلاكه، فإن المسلم أخوه المسلم لا يحزنه ولا يحرمه. وقال سفيان: عن أبي هارون، قال: رأيت عون بن عبد الله في مجلس القرظي، فكان عون يحدثنا ولحيته ترش من البكاء، ويقول صحبت الأغنياء فكنت من أكثرهم هماً حين رأيتهم أحسن ثياباً، وأطيب ريحاناً، وأحسن مركباً، وجالست الفقراء فاسترحت بهم، وقال «ولا تنسوا الفضل بينكم» إذا أتاه السائل وليس عنده شيء فليدع له، رواه ابن أبي حاتم «إن الله بما تعلمون بصير» أي لا يخفى عليه شيء من أموركم وأحوالكم، وسيجزي كل عامل بعمله.

حَفِظُوا عَلَى الصَّلَواتِ وَالصَّلَوةَ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَنِيتِينَ فَإِنْ حَفَظْتُمْ فِرْجًا لَا أَوْرُكُبَانًا فَإِذَا  
أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُو اللَّهَ كَمَا عَلَمْتُمْ مَا لَمْ تَكُنُوا تَعْلَمُونَ

يأمر تعالى بالمحافظة على الصلوات في أوقاتها وحفظ حدودها وأدائها في أوقاتها، كما ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود، قال: سألت رسول الله ﷺ: أي العمل أفضل؟ قال: «الصلاه في وقتها». قلت: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله». قلت: ثم أي؟ قال: «بر الوالدين»، قال: حديثي بهن رسول الله ﷺ ولو استزدته لزادني.

وقال الإمام أحمد<sup>(١)</sup>: حدثنا يونس، حدثنا ليث عن عبد الله بن عمر بن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطاب، عن القاسم بن غنم، عن جدته أم فروة، وكانت ممن بايع رسول الله ﷺ، أنها سمعت رسول الله ﷺ وذكر الأعمال، فقال «أحب العمل إلى الله تعجيل الصلاة لأول وقتها» وهكذا رواه أبو داود والترمذى، وقال: لا نعرف إلا من طريق العمري وليس بالقوى عند أهل الحديث، وخص تعالي من بينها بمزيد التأكيد الصلاة الوسطى.

وقد اختلف السلف والخلف فيها أي صلاة هي؟ فقيل: إنها الصبح، حكاه مالك في الموطأ بلاغاً عن علي وابن عباس، وقال هشيم وابن علية وغندر وابن أبي عدي وعبد الوهاب وشريك وغيرهم عن عوف الأعرابي عن أبي رجاء العطاردي، قال: صليت خلف ابن عباس الفجر، ففكت فيها ورفع يديه، ثم قال: هذه الصلاة الوسطى التي أمرنا أن نقوم فيها قانتين، رواه ابن جرير، ورواه أيضاً من حديث عوف عن خلاس بن عمرو، عن ابن عباس مثله سواء، وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا عبد الوهاب، حدثنا عوف عن أبي المنهال، عن أبي العالية، عن ابن عباس، أنه صلى الغداة في مسجد البصرة، ففكت قبل الركوع، وقال: هذه الصلاة الوسطى التي ذكرها الله في كتابه، فقال: «حافظوا على الصلوات والصلاحة الوسطى وقوموا الله قانتين» وقال أيضاً: حدثنا محمد بن عيسى الدامغاني، أخبرنا ابن المبارك، أخبرنا الربيع بن أنس عن أبي العالية، قال: صليت خلف عبد الله بن قيس بالبصرة صلاة الغداة، فقللت لرجل من أصحاب رسول الله ﷺ إلى جنبي: ما الصلاة الوسطى؟ قال: هذه الصلاة. وروي من طريق أخرى عن الربيع عن أبي العالية، أنه صلى مع أصحاب رسول الله ﷺ صلاة الغداة فلما فرغوا قال: قلت لهم: أيتهن الصلاة الوسطى؟ قالوا: التي قد صليتها قبل. وقال أيضاً: حدثنا ابن بشار، حدثنا ابن عثمة عن سعيد بن بشير، عن قتادة، عن جابر بن عبد الله، قال: الصلاة الوسطى صلاة الصبح، وحكاه ابن أبي حاتم عن ابن عمر وأبي أمامة وأنس وأبي العالية وعبيد بن عمير وعطاء ومجاحد وجابر بن زيد وعكرمة والربيع بن أنس، ورواه ابن جرير عن عبد الله بن شداد وابن الهاد أيضاً، وهو الذي نص عليه الشافعى رحمة الله، محتاجاً بقوله تعالى: «وَقَوْمًا لِّهُ قَانْتِينَ» والقنوت عنده في صلاة الصبح.

ومنهم من قال: هي وسطى باعتبار أنها لا تقصير، وهي بين صلاتين ورباعيتين مقصورتين، وترد المغرب، وقيل: لأنها بين صلاتين جهريتين وصلاتي نهار سريتين.

وقيل: إنها صلاة الظهر، قال أبو داود الطیالسی في مسنده: حدثنا ابن أبي ذئب عن الزبرقان يعني ابن عمرو، عن زهرة يعني ابن معبد، قال: كنا جلوساً عند زيد بن ثابت، فأرسلوا إلى أسامة فسألوه عن الصلاة الوسطى، فقال: هي الظهر، كان رسول الله ﷺ يصليها بالهجر، وقال

(١) مسنـدـ أـحمدـ (جـ ٦ـ صـ ٣٧٥ـ).

أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، حدثني عمرو بن أبي حكيم، سمعت الزبير قان يحدث عن عروة بن الزبير عن زيد بن ثابت، قال: كان رسول الله ﷺ يصلّي الظهر بالهاجرة، ولم يكن يصلّي صلاة أشد على أصحاب رسول الله ﷺ منها، فنزلت ﴿حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى وقوموا لله قانتين﴾ وقال: إن قبلها صلاتين وبعدها صلاتين. ورواه أبو داود في سننه من حديث شعبة به وقال أَحْمَد أَيْضًا: حدثنا يزيد حدثنا ابن أبي ذئب عن الزبير قان أن رهطاً من قريش مر بهم زيد بن ثابت وهم مجتمعون فأرسلوا إليه غلامين لهم يسألانه عن الصلاة الوسطى، فقال: هي صلاة العصر فقام إليه رجالان منهم فسألاه، فقال: هي الظهر. ثم انصروا إلى أسامة بن زيد فسألاه، فقال: هي الظهر، إن النبي ﷺ كان يصلّي الظهر بالهجرة، فلا يكون وراءه إلا الصف والصفان، والناس في قائلتهم وفي تجارتهم، فأنزل الله ﷺ ﴿حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى وقوموا لله قانتين﴾ قال: فقال رسول الله ﷺ لـ«ليتهما رجال أو لأحرقن بيوتهم». والزبير قان هو ابن عمرو بن أمية الضمري، لم يدرك أحداً من الصحابة، الصحيح ما تقدم من روایته عن زهرة بن معبد وعروة بن الزبير. وقال شعبة وهمام عن قتادة عن سعيد بن المسيب عن ابن عمر عن زيد بن ثابت، قال: الصلاة الوسطى صلاة الظهر. وقال أبو داود الطيالسي وغيره، عن شعبة: أخبرني عمر بن سليمان من ولد عمر بن الخطاب، قال: سمعت عبد الرحمن بن أبان بن عثمان يحدث عن أبيه عن زيد بن ثابت، قال: الصلاة الوسطى هي الظهر، ورواه ابن جرير، عن زكريا بن يحيى بن أبي زائدة عن عبد الصمد، عن شعبة، عن عمر بن سليمان، عن زيد بن ثابت، قال الصلاة الوسطى هي الظهر، ورواه ابن جرير، عن زكريا بن يحيى بن أبي زائدة عن عبد الصمد، عن شعبة، عن عمر بن سليمان، عن زيد بن ثابت، في حديث رفعه، قال «الصلاوة الوسطى صلاة الظهر». وممن روی عنه أنها الظهر ابن عمر، وأبو سعيد وعائشة، على اختلاف عنهم، وهو قول عروة بن الزبير وعبد الله بن شداد بن الهاد، وروایة عن أبي حنيفة رحمهما الله.

وقيل: إنها صلاة العصر. قال الترمذى والبغوى رحمهما الله: وهو قول أكثر علماء الصحابة وغيرهم. وقال القاضى الماوردي: هو قول جمهور التابعين. وقال الحافظ أبو عمر بن عبد البر: هو قول أكثر أهل الأثر. وقال أبو محمد بن عطية فى تفسيره. وهو قول جمهور الناس. وقال الحافظ أبو محمد عبد المؤمن بن خلف الدمياطى فى كتابه المسمى بكشف المعطى فى تبيين الصلاة الوسطى، وقد نص فيه: أنها العصر، وحكاه عن عمر وعلي وابن مسعود وأبي أيوب وعبد الله بن عمرو وسميرة بن جندب وأبي هريرة وأبي سعيد وحفصة وأم حبيبة وأم سلمة وعن ابن عباس وعائشة على الصحيح عنهم، ويه قال عبيدة وإبراهيم النخعى ورزين وزر بن حبيش وسعيد بن جبیر وابن سيرين والحسن وقتادة والضحاك والكلبى ومقاتل وعبيد بن مریم وغيرهم، وهو مذهب أَحْمَد بن حنبل. قال القاضى الماوردى والشافعى قال ابن

المنذر: وهو الصحيح عن أبي حنفية، وأبي يوسف ومحمد، واختاره ابن حبيب المالكي، رحمة الله .

ذكر الدليل على ذلك - قال الإمام أحمد<sup>(١)</sup>: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن مسلم، عن شتير بن شكل، عن علي، قال: قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب «شغلونا عن الصلاة الوسطى، صلاة العصر، ملأ الله قلوبهم وبيوتهم ناراً» ثم صلاتها بين العشاءين المغرب والعشاء، وكذا رواه مسلم<sup>(٢)</sup> من حديث أبي معاوية محمد بن حازم الضرير، والنسيائي<sup>(٣)</sup> من طريق عيسى بن يونس كلاهما عن الأعمش، عن مسلم بن صبيح عن أبي الضحى، عن شتير بن شكل بن حميد، عن علي بن أبي طالب عن النبي ﷺ مثله، وقد رواه مسلم أيضاً من طريق شعبة عن الحكم بن عتبة، عن يحيى بن الجزار عن علي بن أبي طالب ، وأخرجه الشيخان وأبو داود والترمذى والنسيائى وغير واحد من أصحاب المساند والسنن والصحاح من طرق يطول ذكرها عن عبيدة السلماني، عن علي به، ورواه الترمذى والنسيائى من طريق الحسن البصري عن علي به، قال الترمذى: ولا يعرف سماعه منه، وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا عبد الرحمن بن مهدي عن سفيان عن عاصم عن زر، قال: قلت لعبيدة: سل علياً عن الصلاة الوسطى، فسألته، فقال: كنا نراها الفجر أو الصبح، حتى سمعت رسول الله ﷺ يقول يوم الأحزاب «شغلونا عن الصلاة الوسطى، صلاة العصر، ملأ الله قبورهم وأجوارهم أو بيوتهم ناراً» ورواه ابن جرير عن بندار عن ابن مهدي به. وحديث يوم الأحزاب، وشغل المشركين رسول الله ﷺ وأصحابه عن أداء صلاة العصر يومئذ، مروي عن جماعة من الصحابة يطول ذكرهم، وإنما المقصود روایة من نص منهم في روايته، أن الصلاة الوسطى هي صلاة العصر . وقد رواه مسلم أيضاً من حديث ابن مسعود والبراء بن عازب رضي الله عنهم .

الحديث آخر - قال الإمام أحمد<sup>(٤)</sup>: حدثنا عفان، حدثنا همام عن قتادة عن الحسن عن سمرة، أن رسول الله ﷺ قال: «صلاة الوسطى صلاة العصر» وحدثنا بهز وعفان قالا: حدثنا أبان، حدثنا قتادة عن الحسن، عن سمرة أن رسول الله ﷺ قال ﴿حافظوا على الصلوات والصلاه الوسطى﴾ وسمها لنا أنها هي صلاة العصر، وحدثنا محمد بن جعفر وروح، قالا: حدثنا سعيد عن قتادة، عن الحسن عن سمرة بن جندب، أن رسول الله ﷺ قال «هي العصر» قال ابن جعفر: سئل عن صلاة الوسطى، ورواه الترمذى من حديث سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن الحسن، عن سمرة، وقال: حسن صحيح، وقد سمع منه حديث آخر . وقال ابن

(١) مستند أحمد (ج ١ ص ٨١ — ٨٢).

(٢) صحيح مسلم (مساجد حديث ٢٠٢ — ٢٠٦).

(٣) النسيائي (صلاة باب ١٤).

(٤) المستند (ج ٥ ص ١٢).

جرير<sup>(١)</sup>: حدثنا أحمد بن منيع، حدثنا عبد الوهاب بن عطاء، عن التيمي، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ «الصلاحة الوسطى صلاة العصر».

طريق أخرى بل حديث آخر قال ابن جرير<sup>(٢)</sup>: وحدثني المثنى، حدثنا سليمان بن أحمد الحرشي الواسطي، حدثنا الوليد بن مسلم، قال: أخبرني صدقة بن خالد، حدثني خالد بن دهقان، عن خالد بن سبلان، عن كهيل بن حرملة، قال: سئل أبو هريرة عن الصلاة الوسطى، فقال: اختلفنا فيها كما اختلفتم فيها، ونحن بفناء بيت رسول الله ﷺ، وفينا الرجل الصالح أبو هاشم بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، فقال: أنا أعلم لكم ذلك، فقام فاستأذن على رسول الله ﷺ، فدخل عليه ثم خرج إلينا، فقال: أخبرنا أنها صلاة العصر، غريب من هذا الوجه جداً.

حديث آخر - قال ابن جرير<sup>(٣)</sup>: حدثنا أحمد بن إسحاق، حدثنا أبو أحمد، حدثنا عبد السلام عن مسلم مولى أبي جبير، حدثني إبراهيم بن يزيد الدمشقي، قال: كنت جالساً عند عبد العزيز بن مروان، فقال: يا فلان اذهب إلى فلان فقل له: أي شيء سمعت من رسول الله ﷺ في الصلاة الوسطى؟ فقال رجل جالس: أرسليني أبو بكر وعمر، وأنا غلام صغير، أسأله عن الصلاة الوسطى فأخذ أصبعي الصغيرة، فقال «هذه صلاة الفجر»، وبعض التي تلتها، فقال «هذه الظهر»، ثم قبض الإبهام، فقال «هذه المغرب»، ثم قبض التي تلتها، فقال «هذه العشاء»، ثم قال «أي أصابعك بقيت؟» فقلت: الوسطى، فقال «أي الصلاة بقيت؟» فقلت: العصر، فقال «هي العصر» غريب أيضاً جداً.

الحديث آخر قال ابن جرير<sup>(٤)</sup>: حدثنا محمد بن عوف الطائي حدثنا محمد بن إسماعيل بن عياش، حدثني أبي حدثي ضمضم بن زرعة عن شريح بن عبد الله الأشعري، قال: قال رسول الله ﷺ «الصلاحة الوسطى صلاة العصر» إسناده لا بأنس به.

الحديث آخر قال أبو الحاتم بن حبان في صحيحه: حدثنا أحمد بن يحيى بن زهير، حدثنا الجراح بن مخلد، حدثنا عمرو بن العاصم، حدثنا همام بن مورق العجلي، عن أبي الأحوص، عن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ «صلاحة الوسطى صلاة العصر».

وقد روى الترمذى من حديث محمد بن طلحة بن مصرف عن زيد اليامي، عن مرة الهمданى، عن ابن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ «صلاحة الوسطى صلاة العصر»، ثم قال: حسن صحيح، وأخرجه مسلم في صحيحه من طريق محمد بن طلحة به، ولفظه «شغلونا عن

(١) تفسير الطبرى (٥٧٤/٢).

(٢) تفسير الطبرى (٥٧٥/٢).

(٣) تفسير الطبرى (٥٧٦/٢).

الصلاوة الوسطى صلاة العصر» الحديث، فهذه نصوص في المسألة لا تحتمل شيئاً، ويؤكد ذلك الأمر بالمحافظة عليها، قوله عليه السلام في الحديث الصحيح من رواية الزهرى عن سالم، عن أبيه، أن رسول الله عليه السلام قال «من فاته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله» وفي الصحيح أيضاً من حديث الأوزاعي، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي قلابة عن أبي كثير عن أبي المهاجر، عن بريدة بن الحصيب، عن النبي عليه السلام، قال «بكروا بالصلاحة في يوم الغيم، فإنه من ترك صلاة العصر، فقد حبط عمله».

وقال الإمام أحمد<sup>(١)</sup>: حدثنا يحيى بن إسحاق، أخبرنا ابن لهيعة عن عبد الله بن هبيرة، عن أبي تميم عن أبي بصرة الغفارى، قال: صلى بنا رسول الله عليه السلام في واد من أوديـتهمـ، يقال له المخصوص، صلاة العصر، فقال «إن هذه الصلاة صلاة العصر عرضت على الذين من قبلكم فضيـعـوهاـ،ـ أـلـاـ وـمـنـ صـلـاـهـاـ ضـعـفـ لـهـ أـجـرـهـ مـرـتـينـ،ـ أـلـاـ وـلـاـ صـلـاـةـ بـعـدـهـاـ حـتـىـ تـرـوـاـ الشـاهـدـ»<sup>(٢)</sup> ثم قال: رواه عن يحيى بن إسحاق عن يزيد بن حبيب عن جبير بن نعيم عن عبد الله بن هبيرة عن أبي تميم عن أبي بصرة به، وهكذا رواه مسلم والنسائي جميعاً عن قتيبة عن الليث، ورواه مسلم أيضاً من حديث محمد بن إسحاق، حدثني يزيد بن أبي حبيب كلامهما عن جبير بن نعيم الحضرمي، عن عبد الله بن هبيرة السبائى به.

فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد<sup>(٣)</sup> أيضاً حدثنا إسحاق، أخبرني مالك، عن زيد بن أسلم، عن القعقاع بن حكيم، عن أبي يونس مولى عائشة، قال: أمرتني عائشة أن أكتب لها مصحفاً، قالت: إذا بلغت هذه الآية «حافظوا على الصلوات والصلاحة الوسطى» فاذنني، فلما بلغتها أذنتها، فأمللت علىي «حافظوا على الصلوات والصلاحة الوسطى وصلاة العصر وقوموا لله فانتين». قالت: سمعتها من رسول الله عليه السلام، وهكذا رواه مسلم عن يحيى بن مالك به.

وقال ابن جرير: حدثني ابن المثنى الحجاج، حدثنا حماد عن هشام بن عروة عن أبيه، قال: كان في مصحف عائشة «حافظوا على الصلوات والصلاحة الوسطى وهي صلاة العصر» وهكذا رواه من طريق الحسن البصري أن رسول الله عليه السلامقرأها كذلك وقد روى الإمام مالك أيضاً عن زيد بن أسلم، عن عمرو بن رافع، قال: كنت أكتب مصحفاً لحفصة زوج النبي عليه السلام، فقالت: إذا بلغت هذه الآية فاذنني «حافظوا على الصلوات والصلاحة الوسطى» فلما بلغتها أذنتها، فأمللت علىي «حافظوا على الصلوات والصلاحة الوسطى وصلاة العصر وقوموا لله فانتين». هكذا رواه محمد بن إسحاق بن يسار فقال: حدثني أبو جعفر محمد بن علي ونافع مولى ابن عمر أن

(١) المسند (ج ٦ ص ٣٩٧).

(٢) أضاف في المسند: قلت لابن لهيعة: ما الشاهد؟ قال: الكوكب، الأعراب يسمون الكوكب شاهد الليل.

(٣) المسند (ج ٦ ص ٧٣).

عمر بن نافع قال فذكر مثله وزاد كما حفظتها من النبي ﷺ .

طريق أخرى عن حفصة قال ابن جرير<sup>(١)</sup>: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة عن أبي بشر، عن عبد الله بن يزيد الأزدي، عن سالم بن عبد الله، أن حفصة أمرت إنساناً أن يكتب لها مصحفاً، فقالت: إذا بلغت هذه الآية «حافظوا على الصلوات والصلاحة الوسطى» فاذنني، فلما بلغ آذنها، فقالت: اكتب «حافظوا على الصلوات والصلاحة الوسطى وصلاة العصر».

طريق أخرى قال ابن جرير<sup>(١)</sup>: حدثني ابن المثنى، حدثنا عبد الوهاب، حدثنا عبيد الله عن نافع، أن حفصة أمرت مولى لها أن يكتب لها مصحفاً، فقالت: إذا بلغت هذه الآية «حافظوا على الصلوات والصلاحة الوسطى» فلا تكتبها حتى أملأها عليك كما سمعت رسول الله ﷺ يقرؤها، فلما بلغها أمرته فكتبتها «حافظوا على الصلوات والصلاحة الوسطى وصلاة العصر وقوموا لله قانتين». قال نافع: فقرأت ذلك المصحف، فوجدت فيه الواو. وكذا روى ابن جرير عن ابن عباس وعبيد بن عمير أنهماقرأا كذلك، وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا عبدة، حدثنا محمد بن عمرو، حدثني أبو سلمة عن عمرو بن رافع مولى عمر، قال: كان في مصحف حفصة «حافظوا على الصلوات والصلاحة الوسطى وصلاة العصر وقوموا لله قانتين».

وتقرير المعارضة أنه عطف صلاة العصر على الصلاة الوسطى بواو العطف التي تقتضي المغايرة، فدل ذلك على أنها غيرها، وأجيب عن ذلك بوجوه [أحدها] أن هذا إن روى على أنه خبر، فحديث علي أصح وأصرح منه، وهذا يحتمل أن تكون الواو زائدة، كما في قوله «وكذلك نفصل الآيات ولستبين سبيل المجرمين» [الأنعام: ٥٥] «وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض ولن يكون من الموقفين» [الأنعام: ٧٥]، أو تكون لعطف الصفات لا لعطف الذوات، كقوله «ولكن رسول الله وخاتم النبيين» [الأحزاب: ٤٠] وكقوله «سبح اسم ربك الأعلى الذي خلق فسوى والذي قدر فهدي والذي أخرج المرعى» [الأعلى: ١ - ٤] وأشباه ذلك كثيرة وقال الشاعر: [المتقارب]

إلى الملك القرزم وابن الهمام وليث الكتبة في المزدحم<sup>(٢)</sup>

وقال أبو دؤاد الأيادي: [الخفيف]

سلط الموت والمنون عليهم فلهم في صدى المقابر هام<sup>(٣)</sup>

(١) تفسير الطبرى / ٢ / ٥٧٨.

(٢) البيت بلا نسبة في الإنفاق / ٢ / ٤٦٩؛ وخزانة الأدب / ٤٥١؛ وشرح قطر الندى ص ٢٩٥.

(٣) البيت لأبي دؤاد في ديوانه ص ٣٣٩؛ ولسان العرب (من، صدى)؛ وتهذيب اللغة / ٣ / ٣٠٢؛ وتاج العروس (من).

والموت هو المنون، قال عدي بن زيد العبادي : [الوافر]

فقد مدت الأديم لراحته فألقى قولها كذلكً ومينا<sup>(١)</sup>

والكذب هو المين، وقد نص سيبويه شيخ النحاة على جواز قول القائل : مرت بأخيك وصاحبك ، ويكون الصاحب هو الأخ نفسه ، والله أعلم ، وأما إن روي على أنه قرآن ، فإنه لم يتواتر فلا يثبت بمثل خبر الواحد قرآن ، ولهذا لم يثبته أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه في المصحف ، ولاقرأ بذلك أحد من القراء الذين ثبتت الحجة بقراءتهم ، لا من السبعة ولا من غيرهم .

ثم قد روي ما يدل على نسخ هذه التلاوة المذكورة في هذا الحديث ، قال مسلم : حدثنا إسحق بن راهويه ، أخبرنا يحيى بن أدم عن فضيل بن مرزوق ، عن شقيق بن عقبة ، عن البراء بن عازب ، قال : نزلت « حافظوا على الصلوات وصلة العصر » فقرأناها على رسول الله ﷺ ما شاء الله ، ثم نسخها الله عز وجل ، فأنزل **﴿حافظوا على الصلوات والصلاحة الوسطى﴾** فقال له زاهر رجل كان مع شقيق : أفهي العصر ؟ قال : قد حدثتك كيف نزلت ، وكيف نسخها الله عز وجل . قال مسلم : ورواه الأشجعي عن الثوري ، عن الأسود ، عن شقيق (قلت) : وشقيق هذا لم يرو له مسلم سوى هذا الحديث الواحد ، والله أعلم ، فعلى هذا تكون هذه التلاوة وهي تلاوة الجادة ناسخة للفظ روایة عائشة وحفصة ولمعناها إن كانت الواو دالة على المغایرة ، وإلا فلفظها فقط ، والله أعلم .

وقيل : إن الصلاة الوسطى هي صلاة المغرب ، رواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس ، وفي إسناده نظر ، فإنه رواه عن أبيه عن أبي الجماهير عن سعيد بن بشير ، عن قنادة عن أبي الخليل ، عن عمه ، عن ابن عباس ، قال : صلاة الوسطى المغرب . وحكى هذا القول ابن جرير ، عن قبيصة بن ذؤيب ، وحكى أيضاً عن قنادة على اختلاف عنه ، ووجه هذا القول بعضهم بأنها وسطى في العدد بين الرابعة والثانية ، وبأنها وتر المفروضات ، وبما جاء فيها من الفضالية ، والله أعلم .

وقيل : إنها العشاء الأخير ، اختاره علي بن أحمد الواحدي في تفسيره المشهور ، وقيل : هي واحد من الخمس لا بعينها وأبهمت فيهن ، كما أبهمت ليلة القدر في الحول أو الشهر أو العشر ، ويعحكي هذا القول عن سعيد بن المسيب وشريح القاضي ونافع مولى ابن عمر ، والربع بن خيثم ، ونقل أيضاً عن زيد بن ثابت واختاره إمام الحرمين الجويني في نهايته .

وقيل : بل الصلاة الوسطى مجموع الصلوات الخمس ، رواه ابن أبي حاتم عن ابن عمر ، وفي صحته أيضاً نظر ، والعجب أن هذا القول اختاره الشيخ أبو عمرو بن عبد البر النمري إمام

(١) البيت لعدي بن زيد في ذيل ديوانه ص ١٨٣ ، والأشباه والنظائر ٣/٢١٣ ، وجمهرة اللغة ص ٩٩٣ ، والدرر ٦/٧٣ ، وشرح شواهد المغني ٢/٧٧٦ ، والشعر والشعراء ١/٢٣٣ ، ولسان العرب (مين) .

ما وراء البحر، وإنها لـإحدى الكبر إذ اختاره مع اطلاعه وحفظه ما لم يقم عليه دليل من كتاب ولا سنة ولا أثر. وقيل: إنها صلاة العشاء وصلاة الفجر. وقيل: بل هي صلاة الجماعة. وقيل: صلاة الجمعة. وقيل صلاة الخوف. وقيل: بل صلاة عيد الفطر. وقيل: بل صلاة الأضحى، وقيل: الوتر. وقيل: الصحي. وتوقف فيها آخرون لما تعارضت عندهم الأدلة، ولم يظهر لهم وجه الترجيح، ولم يقع الإجماع على قول واحد، بل لم يزل النزاع فيها موجوداً من زمان الصحابة وإلى الآن. قال ابن جرير: حدثني محمد بن بشار وابن مثنى، قالا: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، قال: سمعت قتادة يحدث عن سعيد بن المسيب، قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ مختلفين في الصلاة الوسطى هكذا وشك بين أصابعه، وكل هذه الأقوال فيها ضعف بالنسبة إلى التي قبلها، وإنما المدار ومعترك النزاع في الصبح والعصر، وقد ثبتت السنة بأنها العصر فتعين المصير إليها.

وقد روى الإمام أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي رحمهما الله في كتاب الشافعي رحمة الله، حدثنا أبي سمعت حرملة بن يحيى التجيبي يقول: قال الشافعي، كل ما قلت فكان عن النبي ﷺ. بخلاف قولي مما يصح، فحديث النبي ﷺ أولى ولا تقليوني، وكذا روى الريبع والزعفراني وأحمد بن حنبل عن الشافعي، وقال موسى أبو الوليد بن أبي الجارود عن الشافعي: إذا صح الحديث وقلت قوله، فأنا راجع عن قوله وقاتل بذلك، وهذا من سيادته وأمانته، وهذا نفس إخوانه من الأئمة رحمهم الله، أن صلاة الوسطى هي صلاة العصر، وإن كان قد نص في الجديد وغيره أنها الصبح لصحة الأحاديث أنها العصر، وقد وافقه على هذه الطريقة جماعة من محدثي المذهب الشافعي، وصمموا على أنها الصبح قوله واحداً، قال المارودي: ومنهم من حكى في المسألة قولين ولتقرير المعارضات والجوابات موضع آخر غير هذا وقد أفردناه على حدة والله الحمد والمنة.

وقوله تعالى: «وَقَوْمًا لِّلَّهِ قَاتِلِينَ» أي خاسعين ذليلين مستكينين بين يديه، وهذا الأمر مستلزم ترك الكلام في الصلاة لمنافاته إياها، ولهذا لما امتنع النبي ﷺ من الرد على ابن مسعود حين سلم عليه وهو في الصلاة، اعتذر إليه بذلك وقال «إن في الصلاة لشغالاً». وفي صحيح مسلم أنه ﷺ قال لمعاوية بن الحكم السلمي حين تكلم في الصلاة «إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هي التسبيح والتكبير وذكر الله»، وقال الإمام أحمد بن حنبل: حدثنا يحيى بن سعيد، عن إسماعيل، حدثني الحارث بن شبيل عن أبي عمرو الشيباني، عن زيد بن أرقم، قال: كان الرجل يكلم صاحبه في عهد النبي ﷺ في الحاجة في الصلاة، حتى نزلت هذه الآية «وَقَوْمًا لِّلَّهِ قَاتِلِينَ» فأمرنا بالسكتوت، رواه الجماعة سوى ابن ماجه من طرق عن إسماعيل

وقد أشكل هذا الحديث على جماعة من العلماء حيث ثبت عندهم أن تحريم الكلام في

الصلاوة كان بمكة قبل الهجرة إلى المدينة وبعد الهجرة إلى أرض الحبشة، كما دل على ذلك حديث ابن مسعود الذي في الصحيح، قال: كنا نسلم على النبي ﷺ قبل أن نهاجر إلى الحبشة وهو في الصلاة فيرد علينا، قال: فلما قدمنا سلمت عليه فلم يرد علي، فأخذني ما قرب وما بعد، فلما سلم قال «إني لم أرد عليك إلا أنني كنت في الصلاة، وإن الله يحدث من أمره ما يشاء، وإن مما أحدث أن لا تكلموا في الصلاة» وقد كان ابن مسعود من أسلم قدি�ماً وهاجر إلى الحبشة، ثم قدم منها إلى مكة مع من قدم فهاجر إلى المدينة، وهذه الآية «وَقَوْمًا لَهُ قَاتِلِينَ» مدنية بلا خلاف، فقال قائلون: إنما أراد زيد بن أرقم بقوله: كان الرجل يكلم أخاه في حاجته في الصلاة، الإخبار عن جنس الكلام، واستدل على تحريم ذلك بهذه الآية بحسب ما فهمه منها، والله أعلم.

وقال آخرون: إنما أراد أن ذلك قد وقع بالمدينة بعد الهجرة إليها، ويكون ذلك قد أبى مرتين وحرم مرتين، كما اختار ذلك قوم من أصحابنا وغيرهم، والأول أظهر، والله أعلم.

وقال الحافظ أبو يعلى: أخبرنا بشر بن الوليد، أخبرنا إسحاق بن يحيى عن المسيب، عن ابن مسعود، قال كنا نسلم بعضاً على بعض في الصلاة، فمررت برسول الله ﷺ فسلمت عليه، فلم يرد علي، فوقع في نفسي أنه نزل في شيء فلما قضى النبي ﷺ صلاته قال «وعليك السلام أيها المسلم ورحمة الله، إن الله عز وجل يحدث من أمره ما يشاء، إذا كتمت في الصلاة فاقتروا ولا تكلموا».

وقوله «فإن خفتم فرجالاً أو ركباناً فإذا أمنتكم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلموه» لما أمر تعالى عباده بالمحافظة على الصلوات والقيام بحدودها، وشدد الأمر بتأكيدها ذكر الحال الذي يستغل الشخص فيها عن أدائها على الوجه الأكمل، وهي حال القتال والتحام الحرب، فقال «فإن خفتم فرجالاً أو ركباناً» أي فعلوا على أي حال كان رجالاً أو ركباناً يعني مستقبلي القبلة وغير مستقبليها، كما قال مالك عن نافع: أن ابن عمر كان إذا سئل عن صلاة الخوف وصفها، ثم قال: فإن كان خوف أشد من ذلك صلوا رجالاً على أقدامهم، أو ركباناً مستقبلي القبلة أو غير مستقبليها، قال نافع: لا أرى ابن عمر ذكر ذلك إلا عن النبي ﷺ، ورواه البخاري وهذا لفظهُ ومسلم<sup>(١)</sup> -، ورواه البخاري من وجه آخر عن ابن جريج، عن موسى بن عقبة، عن نافع، عن ابن عمرو عن النبي ﷺ نحوه أو قريباً منه، ولمسلم أيضاً عن ابن عمر، قال: فإن كان خوف أشد من ذلك، فصل راكباً أو قائماً تومي إيماء.

وفي حديث عبد الله بن أنيس الجهني لما بعثه النبي ﷺ إلى خالد بن سفيان الهذلي ليقتله، وكان نحو عرفة أو غرفات، فلما واجهه حانت صلاة العصر، قال فخشيت أن تفوتي فجعلت

(١) صحيح البخاري (تفسير سورة، باب ٤٤) ومسلم (مسافرين حديث ٣٠٥ - ٣٠٧).

أصلٍي وأنا أومئ إيماء. الحديث بطوله رواه أحمد وأبو داود بإسناد جيد، وهذا من رخص الله التي رخص لعباده ووضعه الآصار والأغلال عنهم، وقد روى ابن أبي حاتم من طريق شبيب بن بشر عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: في هذه الآية يصلّي الراكب على دابته والراجل على رجليه، قال وروي عن الحسن ومُجاهد ومكحول والسدِي والحكم والمَالِك والأوزاعي والثوري والحسن بن صالح، نحو ذلك - وزاد: يومئ برأسه أينما توجه، ثم قال: حدثنا أبي، حدثنا غسان، حدثنا داود يعني ابن عليه عن مطرف، عن عطية، عن جابر بن عبد الله، قال: إذا كانت المسائية فليومئ برأسه حيث كان وجهه، فذلك قوله **﴿فِرْجًا أَوْ رَكْبَانًا﴾**، وروي عن الحسن ومُجاهد وسعيد بن جبير وعطاء وعطية والحكم وحماد وقتادة نحو ذلك.

وقد ذهب الإمام أحمد فيما نص عليه إلى أن صلاة الخوف تفعل في بعض الأحيان ركعة واحدة إذا تلاحم الجيشان، وعلى ذلك ينزل الحديث الذي رواه مسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه وابن جرير من حديث أبي عوانة الوضاح بن عبد الله اليشكري - زاد مسلم والنسائي وأبيوب بن عائذ - كلاماً عن بكير بن الأحسن الكوفي، عن مجاهد، عن ابن عباس، قال: فرض الله الصلاة على لسان نبيك **ﷺ** في الحضر أربعاً، وفي السفر ركعتين، وفي الخوف ركعة، وبه قال: الحسن البصري وقتادة والضحاك وغيرهم.

وقال ابن جرير<sup>(١)</sup>: حدثنا ابن بشار، حدثنا ابن مهدي عن شعبة، قال: سألت الحكم وحماداً وقتادة عن صلاة المسائية، فقالوا: ركعة، وهكذا روى الثوري عنهم سواء، وقال ابن جرير<sup>(٢)</sup> أيضاً: حدثني سعيد بن عمرو السكوني، حدثنا بقية بن الوليد، حدثنا المسعودي، حدثنا يزيد الفقير عن جابر بن عبد الله، قال: صلاة الخوف ركعة. واختار هذا القول ابن جرير.

وقال البخاري: (باب الصلاة عند مناهضة الحصون ولقاء العدو): وقال الأوزاعي: إن كان تهياً الفتح ولم يقدروا على الصلاة، صلوا إيماء كل أمرئ لنفسه، فإن لم يقدروا على الإيماء أخرموا الصلاة حتى ينكشف القتال، ويأمنوا فيصلوا ركعتين، فإن لم يقدروا صلوا ركعة وسجدتين، فإن لم يقدروا لا يجزئهم التكبير ويؤخرونها حتى يأمنوا. وبه قال مكحول، وقال أنس بن مالك: حضرت عند مناهضة حصن تستر عند إضاءة الفجر واشتتد اشتعال القتال، فلم يقدروا على الصلاة، فلم نصل إلا بعد ارتفاع النهار، فصليناها ونحن مع أبي موسى، ففتح لنا. قال أنس: وما يسرني بتلك الصلاة الدنيا وما فيها. هذا لفظ البخاري<sup>(٣)</sup>. ثم استشهد على ذلك بحديث تأخيره **ﷺ** صلاة العصر يوم الخندق لعدم المحاربة إلى غيبة الشمس، وبقوله **ﷺ** بعد ذلك لأصحابه لما جهزهم إلىبني قريظة «لا يصلّين أحد منكم العصر إلا فيبني قريظة» فمنهم

(١) تفسير الطبرى / ٥٨٩ / ٢.

(٢) تفسير الطبرى / ٥٩٠ / ٢.

(٣) صحيح البخاري (الجمعة باب ٤٣).

من أدركته الصلاة في الطريق فصلوا وقالوا: لم يرد منا رسول الله ﷺ إلا تعجيل السير، ومنهم من أدركته فلم يصل إلى أن غربت الشمس في بني قريظة، فلم يعنف واحداً من الفريقين.

وهذا على اختيار البخاري لهذا القول، والجمهور على خلافه، ويعولون على أن صلاة الخوف على الصفة التي ورد بها القرآن في سورة النساء، ووردت بها الأحاديث، لم تكن مشروعة في غزو المندق، وإنما شرعت بعد ذلك، وقد جاء مصراحاً بهذا في حديث أبي سعيد وغيره، وأما مكحول والأوزاعي والبخاري فيجيبون بأن مشروعيّة صلاة الخوف بعد ذلك لا تنافي جواز ذلك، لأن هذا حال نادر خاص، فيجوز فيه مثل ما قلنا بدليل صنيع الصحابة زمان عمر في فتح تستر وقد اشتهر ولم ينكر، والله أعلم.

وقوله ﴿فِإِذَا أَمْتَمْتُمْ فَادْكُرُوْا اللَّهَ﴾ أي أقيموا صلاتكم كما أمرتم، فأتموا رکوعها وسجودها وقيامها وقعودها وخشعها وهجودها، ﴿كَمَا عَلِمْتُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُوْنَ﴾ أي مثل ما أنعم عليكم وهذاكم وعلمكم ما ينفعكم في الدنيا والآخرة فقابلوه بالشكر والذكر، كقوله بعد صلاة الخوف ﴿فِإِذَا اطْمَأْنَتُمْ فَاقْيِمُوْا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِيْنَ كَاتِبًاً مُوقُوتًاً﴾ [النساء: ١٠٣] وستأتي الأحاديث الواردة في صلاة الخوف وصفاتها في سورة النساء عند قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنْتُ فِيْهِمْ فَأَقِمْتُ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ [النساء: ١٠٢].

وَالَّذِيْنَ يَتَوَقَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَدْرُوْنَ أَرْوَاجًا وَصَيْهَ لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَّعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ إِنَّ حَرَجَنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْتُمْ فِيْنَفْسِهِمْ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ وَلَمْ يَمْلَأْنَتْ مَعْنَى بِالْمَعْرُوفِ حَقًا عَلَى الْمُتَّقِيْنَ كَذَلِكَ مِبْيَنُ اللَّهِ لَكُمْ إِيْشَتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُوْنَ

قال الأكثرون: هذه الآية منسوخة بالتالي قبلها، وهي قوله ﴿يُتَبَصَّرُ بِأَنْفُسِهِنَ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾. قال البخاري: حدثنا أمية حدثنا يزيد بن زريع، عن حبيب، عن ابن أبي ملكية، قال ابن الزبير: قلت لعثمان بن عفان ﴿وَالَّذِيْنَ يَتَوَقَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَدْرُوْنَ أَرْوَاجًا﴾ قد نسختها الآية الأخرى، فلم تكتبها أو تدعها، قال يا ابن أخي، لا أغير شيئاً منه من مكانه. ومعنى هذا الإشكال الذي قاله ابن الزبير لعثمان: إذا كان حكمها قد نسخ بالأربعة أشهر فما الحكم في إبقاء رسماها مع زوال حكمها، وبقاء رسماها بعد التي نسختها يوهم بقاء حكمها؟ فأجابه أمير المؤمنين، بأن هذا أمر توقيفي، وأنا وجدتها مثبتة في المصحف كذلك بعدها، فأثبتتها حيث وجدتها.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا حجاج بن محمد عن ابن جريج وعثمان بن عطاء عن عطاء، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَالَّذِيْنَ يَتَوَقَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَدْرُوْنَ أَرْوَاجًا وَصَيْهَ لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَّعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ فكان للمتوفى عنها زوجها نفقتها وسكنها

في الدار سنة، فنسختها آية المواريث فجعل لهن الثمن أو الربع مما ترك الزوج، ثم قال: وروي عن أبي موسى الأشعري وابن الزبير ومجاحد وإبراهيم وعطاء والحسن وعكرمة وقناة والضحاك وزيد بن أسلم والسدي ومقاتل بن حيان وعطاء الخراساني والربيع بن أنس أنها منسوخة. وروي من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، قال: كان الرجل إذا مات وترك امرأته اعتدت سنة في بيته ينفق عليها من ماله، ثم أنزل الله بعد **﴿وَالَّذِي يَتَوفَّونَ مِنْكُمْ وَيَذْرُونَ أَزْواجًا يَتَرَبَّصُنَّ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةً أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾** [البقرة: ٢٣٤] وهذه عدة المتوفى عنها زوجها، إلا أن تكون بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً. فيبيان ميراث المرأة وترك الوصية والنفقة، قال: وروي عن مجاهد والحسن وعكرمة وقناة والضحاك والربيع ومقاتل بن حيان، قالوا: نسختها **﴿أَرْبَعَةً أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾**. قال: وروي عن سعيد بن المسيب، قال: نسختها التي في الأحزاب **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكْحَتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾** [الأحزاب: ٤٩].

(قلت) وروي عن مقاتل وقناة أنها منسوخة بآية الميراث، وقال البخاري: حدثنا إسحاق بن راهويه، حدثنا شبل عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن مجاهد **﴿وَالَّذِينَ يَتَوَفَّونَ مِنْكُمْ وَيَذْرُونَ أَزْواجًا﴾** قال: كانت هذه للمعتدة، تعتد عند أهل زوجها واجب. فأنزل الله **﴿وَالَّذِينَ يَتَوَفَّونَ مِنْكُمْ وَيَذْرُونَ أَزْواجًا وَصِيَّةً لِأَزْواجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ، فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِمْ مِنْ مَعْرُوفٍ﴾** قال: جعل الله تمام السنة سبعة أشهر وعشرين ليلة، وصية إن شاءت سكت في وصيتها، وإن شاءت خرجت، وهو قول الله **﴿غَيْرِ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ** **﴿فَالْعُدَدُ كَمَا هِيَ وَاجِبٌ عَلَيْهَا، زُعمَ ذَلِكَ عَنْ مَجَاهِدِ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَقَالَ عَطَاءُ :** قال ابن عباس: نسخت هذه الآية عدتها عند أهلها، فتعتد حيث شاءت، وهو قول الله تعالى: **﴿غَيْرِ إِخْرَاجٍ﴾** قال عطاء: إن شاءت اعتدت عند أهلها وسكت في وصيتها، وإن شاءت خرجت، لقول الله **﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ﴾** قال عطاء: ثم جاء الميراث، فنسخ السكنى فتعتد حيث شاءت، ولا سكت في لها، ثم أسنداً البخاري عن ابن عباس مثل ما تقدم عنه.

فهذا القول الذي عول عليه مجاهد وعطاء، من أن هذه الآية لم تدل على وجوب الاعتداد سنة، كما زعمه الجمهور، حتى يكون ذلك منسوخاً بالأربعة أشهر وعشراً، وإنما دلت على أن ذلك كان من باب الوصاة بالزوجات بأن يمكن من السكنى في بيوت أزواجهن بعد وفاتهم حولاً كاملاً إن اخترن ذلك، ولهذا قال **﴿وَصِيَّةً لِأَزْواجِهِمْ﴾** أي يوصيكم الله بهن وصية كقوله **﴿يَوْصِيَكُمُ اللَّهُ فِي أُولَادِكُم﴾** الآية، قوله: **﴿وَصِيَّةٌ مِنَ اللَّهِ﴾** وقيل: إنما انتصب على معنى فلو توصوا لهن وصية وقرأ آخرهن بالرفع: وصية على معنى كتب عليكم وصية واختارها ابن حرير، ولا يمنعه من ذلك لقوله **﴿غَيْرِ إِخْرَاجٍ﴾** فاما إذا انقضت عدتها بالأربعة أشهر والعشر، أو بوضع الحمل، واخترن الخروج والانتقال من ذلك المنزل، فإنهن لا يمنعن من ذلك لقوله

﴿فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ﴾ وهذا القول له اتجاه، وفي اللفظ مساعدة له، وقد اختاره جماعة منهم الإمام أبو العباس بن تيمية ورده آخرون، منهم الشيخ أبو عمر بن عبد البر.

وقول عطاء ومن تابعه، على أن ذلك منسوخ بآية الميراث، إن أرادوا ما زاد على الأربعة أشهر والعشر فمسلم، وإن أرادوا أن سكتي الأربعة أشهر وعشر لا تجب في تركة الميت، فهذا محل خلاف بين الأئمة وهمما قولان للشافعي رحمة الله، وقد استدلوا على وجوب السكتي في منزل الزوج، بما رواه مالك في موطئه<sup>(١)</sup>، عن سعد بن إسحاق بن كعب بن عجرة، عن عمته زينب بنت كعب بن عجرة، أن الفريعة بنت مالك بن سنان وهي أخت أبي سعيد الخدري، رضي الله عنها، أخبرتها أنها جاءت إلى رسول الله ﷺ تسأله أن ترجع إلى أهلها في بني خدرة، فإن زوجها خرج في طلب أبعد له أبقوه حتى إذا كان بطرف القدوم لحقهم فقتلوه قالت: فسألت رسول الله ﷺ أن أرجع إلى أهلي في بني خدرة، فإن زوجي لم يتركني في مسكن يملكه ولا نفقة، قالت: فقال رسول الله ﷺ «نعم» قالت: فانصرفت حتى إذا كنت في الحجرة ناداني رسول الله ﷺ أو أمر بي فنوديت له فقال «كيف قلت؟» فرددت عليه القصة التي ذكرت له شأن زوجي، فقال «امكثي في بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله» قالت: فاعتذرت فيه أربعة أشهر وعشراً، قالت: فلما كان عثمان بن عفان أرسل إلي فسألني عن ذلك، فأخبرته فاتبعه وقضى به، وكذا رواه أبو داود والترمذى والنمسائى من حديث مالك به. ورواہ النسائي أيضاً وابن ماجه من طرق عن سعد بن إسحاق به، وقال الترمذى: حسن صحيح<sup>(٢)</sup>.

وقوله ﴿وَلِلْمُطْلَقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًا عَلَى الْمُتَقِينَ﴾ قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم لما نزل قوله تعالى: ﴿مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ قال رجل: إن شئت أحسنت فعلت، وإن شئت لم أفعل، فأنزل الله هذه الآية ﴿وَلِلْمُطْلَقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًا عَلَى الْمُتَقِينَ﴾ وقد استدل بهذه الآية، من ذهب من العلماء، إلى وجوب المتعة لكل مطلقة، سواء كانت مفوضة، أو مفروض لها، أو مطلقة قبل المisis، أو مدخولأً بها، وهو قول عن الشافعى رحمة الله، وإليه ذهب سعيد بن جبير، وغيره من السلف، واختاره ابن جرير، ومن لم يوجبهها مطلقاً، يخصص من هذا العموم مفهوم قوله تعالى: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرُضُوا لَهُنَّ فِرِيَضَةً وَمَتَعْوَهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدْرَهُ وَعَلَى الْمَقْتُرِ قَدْرَهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٦] وأجاب الأولون بأن هذا من باب ذكر بعض أفراد العموم، فلا تخصيص على المشهور المنصوص، والله أعلم.

(١) الموطاً (طلاق حديث ٨٧).

(٢) الترمذى (طلاق باب ٢٣) والنمسائى (طلاق باب ٦٠) وأبو داود (طلاق باب ٤٤) وابن ماجه (طلاق باب ٨) والدارمى (طلاق باب ١٤).

وقوله ﴿كذلك يبین اللہ لکم آیاتہ﴾ أي في إحلاله وتحريميه وفروضه وحدوده، فيما أمركم ونهاكم عنه، بينه ووضحه وفسره، ولم يتركه مجملًا في وقت احتياجكم إليه ﴿لعلکم تعقلون﴾ أي تفهمون وتتدبرون.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَرَجُوا مِنْ دِيَرِهِمْ وَهُمُ الْأَلْوَحُ حَذَرَ الْمَوْتَ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوْتَأْثِمٌ أَحِيَّهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى الْمَنَاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ ﴿وَقَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَيِّعُ عَلَيْهِمْ ﴾ ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْصًا حَسَنًا فِي ضَعْفِهِ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَعِصِّمُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ﴿٤٥﴾

روي عن ابن عباس أنهم كانوا أربعة آلاف، وعنهم كانوا ثمانية آلاف وقال أبو صالح: تسعة آلاف، وعن ابن عباس أربعون ألفاً، وقال وهب بن منبه وأبو مالك: كانوا بضعة وثلاثين ألفاً. وروي ابن أبي حاتم عن ابن عباس، قال: كانوا أهل قرية يقال لها داوردان. وكذا قال السدي وأبو صالح وزاد من قبل واسط، وقال سعيد بن عبد العزيز: كانوا من أهل أذرعات، وقال ابن جريج عن عطاء قال: هذا مثل. وقال علي بن عاصم: كانوا من أهل داوردان قرية على فرسخ من قبل واسط. وقال وكيع بن الجراح في تفسيره: حدثنا سفيان عن ميسرة بن حبيب النهدي، عن المنهاج بن عمرو الأستدي، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمُ الْأَلْوَحُ حَذَرَ الْمَوْتَ﴾ قال: كانوا أربعة آلاف خرجوا فراراً من الطاعون قالوا: نأتي أرضنا ليس بها موت حتى إذا كانوا بموضع كذا وكذا قال الله لهم ﴿مُوْتَأْثِمٌ﴾ فماتوا، فمر عليهمنبي من الأنبياء، فدعاه ربها أن يحييهم فأحياهم، فذلك قوله عز وجل ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمُ الْأَلْوَحُ حَذَرَ الْمَوْتَ﴾ الآية. وذكر غير واحد من السلف، أن هؤلاء القوم، كانوا أهل بلدة في زمان النبي إسرائيل استوخرموا أرضهم، وأصحابهم بها وباء شديد، فخرجوا فراراً من الموت، هاربين إلى البرية، فنزلوا وادياً أفيح، فملؤوا ما بين عدوتيه، فأرسل الله إليهم ملكين، أحدهما من أسفل الوادي، والآخر من أعلىه، فصاحا بهم صيحة واحدة، فماتوا عن آخرهم موتة رجل واحد، فحيزوا إلى حظائر، وبني عليهم جدران وقبور، وفروا وتمزقوا وتفرقوا، فلما كان بعد دهر، مر بهم النبي من أنبياء بني إسرائيل، يقال له حزقيل، فسأل الله أن يحييهم على يديه، فأجابه إلى ذلك، وأمره أن يقول: أيتها العظام البالية، إن الله يأمرك أن تجتمع، فاجتمع عظام كل جسد بعضها إلى بعض، ثم أمره فنادي: أيتها العظام إن الله يأمرك أن تكتسي لحماً وعصباً وجلاً، فكان ذلك وهو يشاهد، ثم أمره فنادي: أيتها الأرواح، إن الله يأمرك أن ترجع كل روح إلى الجسد الذي كانت تعمره فقاموا أحياءً ينظرون قد أحياهم الله بعد رقدتهم الطويلة وهم يقولون: سبحانك لا إله إلا أنت.

وكان في إحياءهم عبرة ودليل قاطع على وقوع المعاد الجسماني يوم القيمة، ولهذا قال:

﴿إِنَّ اللَّهَ لِذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾، أي فيما يرיהם من الآيات الباهرة والحجج القاطعة والدلالات الدامغة ﴿وَلَكُنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي لا يقومون بشكر ما أنعم الله به عليهم في دينهم ودنياهم . وفي هذه القصة عبرة ودليل ، على أنه لن يعني حذر من قدر ، وأنه لا ملجأ من الله إلا إليه ، فإن هؤلاء خرجوا فراراً من الوباء ، طلباً لطول الحياة ، فعوملوا بتنقيض قصدهم ، وجاءهم الموت سريعاً في آن واحد . ومن هذا القبيل ، الحديث الصحيح الذي رواه الإمام أحمد<sup>(١)</sup> : حدثنا إسحاق بن عيسى ، أخبرنا مالك وعبد الرزاق ، أخبرنا عمر كلاهما عن الزهري عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب عن عبد الله بن الحارث بن نوفل ، عن عبد الله بن عباس ، أن عمر بن الخطاب خرج إلى الشام حتى إذا كان بسرغ ، لقيه أمراء الأجناد أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه ، فأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام ، فذكر الحديث ، فجاءه عبد الرحمن بن عوف ، وكان متغياً بعض حاجته فقال : إن عندي من هذا علمًا ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إذا كان بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه ، وإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه» فحمد الله عمر ثم انصرف ، وأخرجاه في الصحيحين من حديث الزهري به بطريق آخر لبعضه .

قال أحمد<sup>(٢)</sup> : حدثنا حجاج ويزيد العمي ، قالا : أخبرنا ابن أبي ذئب عن الزهري عن سالم عن عبد الله بن عامر بن ربيعة أن عبد الرحمن بن عوف أخبر عمر وهو في الشام عن النبي ﷺ «أن هذا السقم عذب به الأمم قبلكم فإذا سمعتم به في أرض ، فلا تدخلوها ، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً» قال : فرجع عمر من الشام ، وأخرجاه في الصحيحين من حديث مالك ، عن الزهري بنحوه .

وقوله : ﴿وَقَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلَيْهِ﴾ أي كما أن الحذر لا يعني من القدر ، كذلك الفرار من الجهاد وتجنبه ، لا يقرب أجلًا ولا يبعد ، بل الأجل المحظوم والرزق المقسم مقدر مقتن لا يزداد فيه ولا ينقص منه ، كما قال تعالى : ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَدْعَوْا لَوْ أطَاعُوْنَا مَا قُتْلُوا، قُلْ فَادْرُءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران : ١٦٨] ، وقال تعالى : ﴿وَقَالُوا رَبُّنَا لَمْ كُتِبْتَ عَلَيْنَا الْقَتْالُ لَوْلَا أَخْرَتَنَا إِلَى أَجْلٍ قَرِيبٍ، قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلِمُونَ فَتِيلًا﴾ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة<sup>(٣)</sup> [النساء : ٧٧ - ٧٨] وروينا عن أمير الجيوش ، ومقدم العساكر ، وحامي حوزة الإسلام ، وسيف الله المسلول على أعدائه : أبي سليمان خالد بن الوليد رضي الله عنه ، أنه قال وهو في سياق الموت : لقد شهدت كذا وكذا موقفاً . وما من عضو من أعضائي إلا وفيه رمية أو طعنة أو ضربة وهذا أنا ذا أموت على فراشي كما يموت العير ، فلا نامت أعين الجنابة - يعني أنه يتألم

(١) مستند أحمد (ج ١ ص ١٩٤).

(٢) مستند أحمد (ج ١ ص ١٩٣).

لكرمه ما مات قتيلاً في الحرب ، ويتأسف على ذلك ، ويتألم أن يموت على فراشه .

وقوله : «من ذا الذي يفرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة» ، يبحث تعالى عباده على الانفاق في سبيل الله ، وقد كرر تعالى هذه الآية في كتابه العزيز في غير موضع ، وفي حديث التزول أنه يقول تعالى : «من يفرض غير عديم ولا ظلوم» وقال ابن أبي حاتم : حدثنا الحسن بن عرفة ، حدثنا خلف بن خليفة ، عن حميد الأعرج ، عن عبد الله بن الحارث ، عن عبد الله بن مسعود ، قال : لما نزلت «من ذا الذي يفرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له» ، قال أبو الدحداح الأنباري : يا رسول الله ، وإن الله عز وجل ليريد منا القرض ؟ قال : «نعم يا أبو الدحداح» . قال : أرنى يدك يا رسول الله . قال : فناوله يده ، قال : فإني قد أفرضت ربى عز وجل حائطي ، قال : وحائط له فيه ستمائة نخلة ، وأم الدحداح فيه وعيالها . قال فجاء أبو الدحداح فنادها : يا أم الدحداح . قالت : ليك . قال : اخرجي ، فقد أفرضته ربى عز وجل . وقد رواه ابن مردوه من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه ، عن عمر رضي الله عنه مرفوعاً بعنوه .

وقوله : «قرضاً حسناً» روی عن عمر وغيره من السلف هو النفقة في سبيل الله ، وقيل : هو النفقة على العيال ، وقيل : هو التسبیح والتقدیس .

وقوله : «فيضاعفه له أضعافاً كثيرة» كما قال تعالى : «مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبت سبع سنابل في كل سبعة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء» [البقرة : ٢٦١] ، وسيأتي الكلام عليها .

وقال الإمام أحمد<sup>(١)</sup> : حدثنا يزيد ، أخبرنا مبارك بن فضالة ، عن علي بن زيد ، عن أبي عثمان النهدي ، قال : أتيت أبي هريرة رضي الله عنه ، فقلت له : إنه بلغني أنك تقول إن الحسنة تضاعف ألف ألف حسنة ، قال : وما أعجبك من ذلك ، لقد سمعته من النبي ﷺ يقول «إن الله يضاعف الحسنة ألف في ألف حسنة» هذا حديث غريب ، وعلي بن زيد بن جدعان عنده مناكير .

لكن رواه ابن أبي حاتم من وجه آخر فقال : حدثنا أبو خلاد سليمان بن خلاد المؤدب ، حدثنا يونس بن محمد المؤدب ، حدثنا محمد بن عقبة الرفاعي عن زياد الجصاص عن أبي عثمان النهدي ، قال : لم يكن أحد أكثر مجالسة لأبي هريرة مني ، فقدم قبلي حاجاً ، قال : وقدمت بعده ، فإذا أهل البصرة يأترون عنه أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول «إن الله يضاعف الحسنة ألف ألف حسنة» فقلت : ويفهم ، والله ما كان أحد أكثر مجالسة لأبي هريرة مني ، فما سمعت هذا الحديث ، قال : فتحملت أريد أن ألحقه فوجده قد انطلق حاجاً ، فانطلقت إلى الحج ألقاه في هذا الحديث ، فلقيته لهذا ، فقلت : يا أبي هريرة ، ما حديث سمعت أهل البصرة يأترون عنك ؟ قال : ما هو ؟ قلت : زعموا أنك تقول : إن الله يضاعف الحسنة ألف حسنة ،

(١) مستند أحمد (ج ٢ ص ٢٩٦).

قال : يا أبا عثمان ، وما تعجب من ذا ، والله يقول ﴿مِنْ ذَا الَّذِي يَقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيَضَعُفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ ويقول ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبه : ٣٨] ؟ والذى نفسي بيده لقب سمعت رسول الله ﷺ ، يقول : «إِنَّ اللَّهَ يَضَعِفُ الْحَسَنَاتِ أَلْفَيْ أَلْفَ حَسَنَةٍ» .

وفي معنى هذا الحديث ما رواه الترمذى وغیره من طریق عمرو بن دینار ، عن سالم ، عن عبد الله بن عمر بن الخطاب ، أن رسول الله ﷺ ، قال «من دخل سوقاً من الأسواق فقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قادر - كتب الله له ألف ألف حسنة ، ومحى عنه ألف ألف سيئة» الحديث .

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة إسماعيل بن إبراهيم بن بسام ، حدثنا أبو إسماعيل المؤدب عن عيسى بن المسيب ، عن نافع ، عن ابن عمر ، قال : لما نزلت ﴿مَثُلُ الَّذِينَ يَنْفَعُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمِثْلِ حَجَةِ أَنْبَتَ سَبْعَ سَنَابِلٍ﴾ إلى آخرها ، فقال رسول الله ﷺ «رَبُّ زَدَ أَمْتِي» ، فنزلت ﴿مِنْ ذَا الَّذِي يَقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيَضَعُفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ . قال : «رَبُّ زَدَ أَمْتِي» ، فنزلت ﴿إِنَّمَا يَوْفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر : ١٠] .

وروى ابن أبي حاتم أيضاً عن كعب الأحبار : أنه جاءه رجل فقال : إنني سمعت رجلاً يقول : من قرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ مرة واحدة ، بنى الله له عشرة آلاف غرفة من در وياقوت في الجنة ، فأصدق ذلك ؟ قال : نعم ، أو عجبت من ذلك ؟ قال : نعم ، وعشرين ألف وثلاثين ألف ألف وما لا يحصي ذلك إلا الله ، ثم قرأ ﴿مِنْ ذَا الَّذِي يَقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيَضَعُفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ فالكثير من الله لا يحصى و قوله ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسِطُ﴾ أي أنفقوا ولا تبالوا ، فالله هو الرزاق يضيق على من يشاء من عباده في الرزق ، ويتوسعه على آخرين ، له الحكمة البالغة في ذلك ﴿وَإِلَيْهِ تَرْجِعُونَ﴾ أي يوم القيمة .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ إِنَّهُمْ يَلْمِزُونَكَ لَهُمْ أَبْعَثْ لَنَا مَلِكًا فَنُفَتَّلَ فِي سَكِينَةِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتَمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَا لَنُقْتَلُوْا قَاتُلُوا وَمَا لَنَا أَلَا نُفَتَّلَ فِي سَكِينَةِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَرِنَا وَأَبْسَأْنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلَيْهِ بِالظَّالِمِينَ

قال عبد الرزاق عن معاذ عن قتادة : هذا النبي هو يوشع بن نون قال ابن جرير : يعني ابن أفرام بن يوسف بن يعقوب ، وهذا القول بعيد لأن هذا كان بعد موسى بدهر طويل ، وكان ذلك في زمان داود عليه السلام ، كما هو مصرح به في القصة ، وقد كان بين داود وموسى ما ينفي عن ألف سنة ، والله أعلم وقال السدي : هو شمعون . وقال مجاهد : هو شمويل عليه السلام ، وكذا قال محمد بن إسحاق عن وهب بن منبه : وهو شمويل<sup>(١)</sup> بن بالي بن علقة بن يرham بن

(١) تأتي هذه الأسماء في الكتب العربية وقد طرأ عليها الكثير من التحرير والتصحيف . وما أثبتناه في =

إليهوبن تهوبن صوفبن علقة بن ماحث بن عموصابن عزريا بن صفتيةبن علقة بن أبي ياسف بن قارون بن يصهر بن قاهم بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليه السلام. وقال وهب بن منبه وغيره: كان بنو إسرائيل بعد موسى عليه السلام على طريق الاستقامة مدة من الزمان، ثم أحدثوا الأحداث، وعبد بعضهم الأصنام، ولم يزل بين أظهرهم من الأنبياء من يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ويقيمهم على منهج التوراة، إلى أن فعلوا ما فعلوا، فسلط الله عليهم أعداءهم، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وأسرروا خلقاً كثيراً، وأخذوا منهم بلاداً كثيرة، ولم يكن أحد يقاتلهم إلا غلبوه، وذلك أنهم كان عندهم التوراة، والتابوت الذي كان في قديم الزمان، وكان ذلك موروثاً لخلفهم عن سلفهم إلى موسى الكليم عليه الصلاة والسلام، فلم يزل بهم تماديهم على الضلال حتى استتب لهم بعض الملوك في بعض الحروب، وأخذوا التوراة من أيديهم، ولم يبق من يحفظها فيهم إلا القليل، وانقطعت النبوة من أسباطهم، ولم يبق من سبط لاوي الذي يكون فيه الأنبياء إلا امرأة حامل من بعلها وقد قتل، فأخذوها فحبسوها في بيت، واحتفظوا بها لعل الله يرزقها غلاماً يكوننبياً لهم، ولم تزل المرأة تدعوا الله عز وجل أن يرزقها غلاماً، فسمع الله لها ووهبها غلاماً، فسمته شمويل، أي سمع الله دعائى، ومنهم من يقول: شمعون، وهو بمعناه، فشب ذلك الغلام، ونشأ فيهم، وأنبتها الله نباتاً حسناً، فلما بلغ سن الأنبياء أوحى الله إليه، وأمره بالدعوة إليه وتوحيده، فدعا بني إسرائيل، فطلبوه منه أن يقيم لهم ملكاً يقاتلون معه أعداءهم، وكان الملك أيضاً قد باد فيهم، فقال لهم النبي: فهل عسيتم إن أقام الله لكم ملكاً لا تقاتلوه وتتفوّه بما التزمتم من القتال معه، ﴿قَالُوا وَمَا لَنَا لَا نَقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾ أي وقد أخذت منا البلاد وسيطت الأولاد، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَتَبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلَ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلَيْهِ بِالظَّالِمِينَ﴾ أي ما وفوا بما وعدوا بل نكل عن الجهاد أكثرهم، والله عليهم بهم.

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحْقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعْةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ أَكْظَفَنَا عَلَيْكُمْ وَرَزَدَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِ مُلْكَهُمْ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلَيْهِمْ

أي لما طلبوا من نبيهم أن يعين لهم ملكاً منهم، فعين لهم طالوت، وكان رجلاً من أجنادهم، ولم يكن من بيت الملك فيهم، لأن الملك كان في سبط يهودا، ولم يكن هذا من ذلك السبط، فلهذا قالوا: ﴿أَئِي يَكُونُ لِهِ الْمَلْكُ عَلَيْنَا﴾، أي كيف يكون ملكاً علينا ﴿وَنَحْنُ أَحْقَبُ بِالْمَلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يَؤْتُ سَعْةً مِنَ الْمَالِ﴾ أي هو مع هذا فقير لا مال له يقوم بالملك، وقد ذكر بعضهم أنه كان سقاء، وقيل: دباغاً، وهذا اعتراض منهم على نبيهم وتعنت، وكان الأولى بهم طاعة وقول معروف، ثم قد أجابهم النبي قائلًا: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُم﴾ أي اختاره لكم من بينكم، والله أعلم به منكم، يقول: لست أنا الذي عينته من تلقاء نفسي، بل الله أمرني به لما طلبتم مني ذلك، ﴿وَزَادَهُ بُسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجَسْمِ﴾ أي وهو مع هذا، أعلم منكم، وأنبل، وأشكل منكم، وأشد قوة وصبراً في الحرب ومعرفة بها، أي أتم علمًاً وقاممة منكم، ومن ه هنا ينبغي أن يكون الملك ذا علم وشكل حسن وقوة شديدة في بدنها ونفسه؛ ثم قال ﴿وَاللَّهُ يَؤْتِي مَلَكَهُ مِنْ يَشَاءُ﴾ أي هو الحاكم الذي ما شاء فعل، ولا يُسأل عما يفعل، وهم يسألون لعلمه وحكمته ورأفته بخلقه، ولهذا قال ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ فَضْلُهُ﴾ أي هو واسع الفضل، يختص برحمته من يشاء، عليم بمن يستحق الملك ممن لا يستحقه.

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ إِعْلَمَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْنِيَكُمُ الْتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ  
وَنَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ أَهْلُ مُوسَى وَأَهْلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَكِيَّةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذَّةً لَكُمْ إِنْ  
كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ٢٤٨

يقول لهم نبيهم: إن علامات برقة ملك طالوت عليكم، أن يرد الله عليكم التابتوب الذي كان أخذ منكم ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ قيل معناه وقار وجلاله. قال عبد الرزاق عن قتادة ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ﴾ أي وقار: وقال الربيع: رحمة، وكذا روی عن العوفي، عن ابن عباس. وقال ابن جريج: سالت عطاء عن قوله ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾؟ قال: ما تعرفون من آيات الله فتسكنون إليه، وكذا قال الحسن البصري. وقيل: السكينة طست من ذهب، كانت تعسل فيه قلوب الأنبياء، أعطاها الله موسى عليه السلام، فوضع فيها الألواح، ورواه السدي عن أبي مالك عن ابن عباس، وقال سفيان الثوري، عن سلمة بن كهيل، عن أبي الأحواص، عن علي، قال: السكينة لها وجه الإنسان، ثم هي روح هفافة. وقال ابن جرير، حدثني المثنى، حدثنا أبو داود، حدثنا شعبة وحمد بن سلمة وأبو الأحواص، كلهم عن سماعة عن خالد بن عرعرة، عن علي، قال: السكينة ريح خجوج، ولها رأسان. وقال مجاهد: لها جناحان وذنب. وقال محمد بن إسحاق، عن وهب بن منبه: السكينة رأس هرة ميتة إذا صرخت في التابتوب بصراخ هر، أيقتوها بالنصر، وجاءهم الفتح. وقال عبد الرزاق: أخبرنا بكار بن عبد الله، أنه سمع وهب بن منبه يقول: السكينة روح من الله تتكلم، إذا اختلفوا في شيء، تكلم، فتخبرهم ببيان

ما يريدون.

وقوله ﴿وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون﴾ قال ابن جرير<sup>(١)</sup>: أخبرنا ابن مثنى، حدثنا أبو الوليد، حدثنا حماد عن داود بن أبي هند، عن عكرمة، عن ابن عباس، في هذه الآية ﴿وبقية مما ترك موسى وآل هارون﴾ قال: عصاه، ورضاض الأنواح، وكذا قال قتادة والسدي والربيع بن أنس وعكرمة، وزاد: والتوراة. قال أبو صالح ﴿وبقية مما ترك آل موسى﴾ يعني عصا موسى، وعصا هارون، ولوحين من التوراة، والمن. وقال عطيه بن سعد: عصا موسى، وعصا هارون، وثياب موسى، وثياب هارون، ورضاض الأنواح. وقال عبد الرزاق: سألت الثوري عن قوله ﴿وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون﴾، فقال: منهم من يقول: قفيز من من، ورضاض الأنواح، ومنهم من يقول: العصا والنعلان.

وقوله ﴿تحمله الملائكة﴾ قال ابن عباس: جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض حتى وضعته بين يدي طالوت والناس ينظرون، قال السدي: أصبح التابوت في دار طالوت، فآمنوا بنبوة شمعون، وأطاعوا طالوت. وقال عبد الرزاق، عن الثوري، عن بعض أشياخه، جاءت به الملائكة تسوقه على عجلة على بقرة، وقيل: على بقرتين. وذكر غيره: أن التابوت كان بأريحا، وكان المشركون لما أخذوه وضعوه في بيت آلهتهم تحت صنمهم الكبير فأصبح التابوت على رأس الصنم فانزلوه فوضعوه تحته، فأصبح كذلك، فسمروه تحته، فأصبح الصنم مكسور القوائم، ملقى بعيداً، فلعلوا أن هذا أمر من الله لا قبل لهم به، فآخر جروا التابوت من بلدتهم، فوضعوه في بعض القرى، فاصاب أهلها داء في رقبهم، فأمرتهم جارية من سبي بني إسرائيل أن يردوه إلى بني إسرائيل حتى يخلصوا من هذا الداء، فحملوه على بقرتين فسارتا به، لا يقربه أحد إلا مات، حتى اقتربتا من بلد بني إسرائيل، فكسرتا النيرين ورجعتا، وجاء بني إسرائيل فأخذوه، وقيل: إنه تسلمه داود عليه السلام، وإنه لما قام إليهما خجل من فرجه بذلك، وقيل: شابان منهم، فالله أعلم وقيل: كان التابوت بقرية من قرى فلسطين يقال لها أزدرد.

وقوله ﴿إن في ذلك لآية لكم﴾ أي على صدقى فيما جئتكم به من النبوة، وفيما أمرتكم به من طاعة طالوت ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ أي بالله واليوم الآخر.

فَلَمَّا فَصَلَ طَلَوْتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِبْرَاهِيمَ اللَّهُ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهْرٍ فَنَسِيَ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ أَغْرَى بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاءَ زُهْرٌ هُوَ وَالَّذِينَ أَمْنَوْا مَعَهُ كَالْوَالَا طَاقَةَ لَنَا أَلْيَوْمَ بِجَاهُلَوْتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظْلُمُونَ أَنَّهُمْ مُلْكُوْنَا اللَّهُ كَمْ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٌ غَلَبَتْ فِتْنَةً كَثِيرَةً يَأْذِنِ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ<sup>(٢)</sup>

يقول تعالى مخبراً عن طالوت ملك بني إسرائيل حين خرج في جنوده، ومن أطاعه من ملأ بني إسرائيل، وكان جيشه يومئذ فيما ذكره السدي ثمانين ألفاً، فالله أعلم، أنه قال ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِكُم﴾ أي مختبركم بنهر، قال ابن عباس وغيره: وهو نهر بين الأردن وفلسطين، يعني نهر الشريعة المشهور، ﴿فَمَنْ شَرَبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مَنِي﴾ أي فلا يصحيبني اليوم في هذا الوجه ﴿وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مَنِي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غَرْفَةَ بِيَدِهِ﴾، أي فلا يأس عليه، قال الله تعالى: ﴿فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ قال ابن جريج: قال ابن عباس: من اغترف منه بيده روي، ومن شرب منه لم يرو. وكذا رواه السدي عن أبي مالك، عن ابن عباس. وكذا قال قنادة وابن شوذب، وقال السدي: كان الجيش ثمانين ألفاً، فشرب منه ستة وسبعون ألفاً، وتبقى معه أربعة آلاف، كذا قال. وقد روى ابن جرير من طريق إسرائيل وسفيان الثوري ومسعر بن كدام عن أبي إسحاق السبيبي عن البراء بن عازب، قال: كنا نتحدث أن أصحاب محمد ﷺ، الذين كانوا يوم بدر ثلاثة وثلاثمائة وبضعة عشر على عدة أصحاب طالوت الذين جازوا معه النهر، وما جازه معه إلا مؤمن، ورواه البخاري عن عبد الله بن رجاء، عن إسرائيل بن يونس، عن أبي إسحاق، عن جده، عن البراء بنحوه، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءُوهُمْ هُوَ وَالَّذِينَ آتَيْنَا مَعَهُمْ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا يَوْمَ بِجَالُوتٍ وَجِنْوَدِهِ﴾ أي استقلوا أنفسهم عن لقاء عدوهم لكثراهم، فشجعهم علماؤهم العالمون بأن وعد الله حق، فإن النصر من عند الله ليس عن كثرة عدد ولا عدد. ولهذا قالوا ﴿كُمْ مَنْ فَتَنَّتْ قَلِيلَةً غَلَبْتُمْ فَتَنَّ كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجِنْوَدِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِعَ عَيْتَنَا صَبَرَاً وَشَيْتَ أَقْدَامَنَا وَأَنْصَرَنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿فَهَزَّ مُؤْمِنَهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاؤُدُّ جَالُوتَ وَءَاتَكُهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَمَهُ مَا كَانَ يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعَ اللَّهِ النَّاسَ بِعَصْنِيهِمْ بِعَيْنِ لَفْسَكَدِتِ الْأَرْضَ وَلَكَيْنَ اللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُكَلِّمِينَ﴾ تَلَكَءَ اِيَّكُمْ اللَّهُ سَلُوْهَا عَيْنَكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿ۚ﴾

أي لما واجه حزب الإيمان، وهم قليل من أصحاب طالوت، لعدوهم أصحاب جالوت، وهم عدد كثير ﴿قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً﴾ أي أنزل علينا صبراً من عندك ﴿وَثَبَتَ أَقْدَامُنَا﴾ أي في لقاء الأعداء، وجنبنا الفرار والعجز ﴿وَانْصَرَنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

قال الله تعالى: ﴿فَهَزَّ مُؤْمِنَهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي غلبوهم وقهروهم بنصر الله لهم ﴿وَقُتِلَ دَاؤُدُّ جَالُوتَ﴾ ذكروا في الإسرائيليات أنه قتله بمقلع كان في يده، رماه به فأصابه فقتله، وكان طالوت قد وعده إن قتل جالوت أن يزوجه ابنته، ويسلطه نعمته، ويشركه في أمره، فوفى له ثم آل الملك إلى دواد عليه السلام مع ما منحه الله به من النبوة العظيمة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ الذي كان يهد طالوت ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ أي النبوة بعد شمويل ﴿وَعَلَمَهُ مَا يَشَاءُ﴾

أي مما يشاء الله من العلم الذي اختص به ﷺ ثم قال تعالى: «ولولا دفع الله الناس بعضهم بعض لفسد الأرض» أي لو لا الله يدفع عن قوم بأخرين كما دفع عنبني إسرائيل بمقاتلة طالوت وشجاعة داود لهلكوا كما قال تعالى: «ولولا دفع الله الناس بعضهم بعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً» [الحج: ٤٠]، وقال ابن جرير<sup>(١)</sup>: حدثني أبو حميد الحمصي أحمد بن المغيرة، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا حفص بن سليمان عن محمد بن سوقة، عن وبرة بن عبد الرحمن، عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليدفع بالمسلم الصالح عن مائة أهل بيته من جيرانه البلاء» ثم قرأ ابن عمر «ولولا دفع الله الناس بعضهم بعض لفسد الأرض» وهذا إسناد ضعيف، فإن يحيى بن سعيد هذا، هو ابن العطار الحمصي، وهو ضعيف جداً، ثم قال ابن جرير<sup>(١)</sup>: حدثنا أبو حميد الحمصي، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا عثمان بن عبد الرحمن، عن محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليصلاح بصلاح الرجل المسلم ولده، وولد ولده، وأهل دويرته، ودوريات حوله، ولا يزالون في حفظ الله عزّ وجلّ، ما دام فيهم» وهذا أيضاً غريب ضعيف لما تقدم أيضاً.

وقال أبو بكر بن مردوه: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا علي بن إسماعيل بن حماد، أخبرنا أحمد بن محمد بن يحيى بن سعيد، أخبرنا زيد بن الحباب، حدثني حماد بن زيد، عن أبي قلابة، عن أبي أسماء، عن ثوبان رفع الحديث، قال «لا يزال فيكم سبعة بهم تتصرون، وبهم تمطرون، وبهم ترزقون، حتى يأتي أمر الله». وقال ابن مردوه أيضاً: وحدثنا محمد بن أحمد، حدثنا محمد بن جرير بن يزيد، حدثنا أبو معاذ نهار بن معاذ بن عثمان الليثي، عن أبي قلابة عن أبي الأشعث الصناعي، عن عبادة بن الصامت، قال رسول الله ﷺ: «الأبدال في أمتي ثلاثة، بهم ترزقون، وبهم تمطرون، وبهم تتصرون» قال قتادة، إني لأرجو أن يكون الحسن منهم.

وقوله «ولكن الله ذو فضل على العالمين» أي ذو من عليهم ورحمة بهم، يدفع عنهم بعضهم بعضاً، وله الحكم والحكمة والحججة على خلقه في جميع أفعاله وأقواله.

ثم قال تعالى: «تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين» أي هذه آيات الله التي قصصناها عليك من أمر الذين ذكرناهم بالحق، أي بالواقع الذي كان عليه الأمر المطابق لما بأيدي أهل الكتاب من الحق الذي يعلمه علماءبني إسرائيل، « وإنك» يا محمد «لمن المرسلين» وهذا توكيده وتوطئته للقسم.

**٢٧٣** تَلَكَ الرَّسُولُ فَضَلَّنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُمْ مَنْ كَلَمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَءَانِيَنَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ الْبَيْتَ وَأَيَّدَنَا بِرُوحِ الْقَدْسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَكَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مَنْ بَعْدَ مَا جَاءَتْهُمْ

**أَبْيَنْتُ وَلَكِنَّ أَخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ظَاهَرَ كُفَّارًا وَكُوْثَانَةً اللَّهُ مَا أَفْتَنُوكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا**

يريد

يخبر تعالى أنه فضل بعض الرسل على بعض، كما قال تعالى: «ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبورا» [الإسراء: ٥٥]، وقال هنا «تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله» يعني موسى ومحمدًا ﷺ، وكذلك آدم كما ورد به الحديث المروي في صحيح ابن حبان عن أبي ذر رضي الله عنه «ورفع بعضهم درجات» كما ثبت في حديث الإسراء حين رأى النبي ﷺ، الأنبياء في السماوات بحسب تفاوت منازلهم عند الله عز وجل، (فإن قيل) فما الجمع بين هذه الآية وبين الحديث الثابت في الصحيحين عن أبي هريرة، قال استب رجل من المسلمين ورجل من اليهود، فقال اليهودي في قسم يقسمه: لا والذى اصطفى موسى على العالمين. فرفع المسلم يده، فلطم بها وجه اليهودي، فقال: أي خبيث: وعلى محمد ﷺ؟ فجاء اليهودي إلى النبي ﷺ، فاشتكى على المسلم، فقال رسول الله ﷺ: «لا تفضلوني على الأنبياء، فإن الناس يصعقون يوم القيمة، فأكون أول من يفيق ، فأجد موسى باطشاً بقائمة العرش، فلا أدرى أفاق قبلى أم جوزي بصعقة الطور؟ فلا تفضلوني على الأنبياء» وفي رواية «لا تفضلوا بين الأنبياء» فالجواب من وجوه [أحدها] أن هذا كان قبل أن يعلم بالتفضيل، وفي هذا نظر [الثاني] أن هذا قاله من باب الهضم والتواضع، [الثالث] أن هذا نهي عن التفضيل في مثل هذه الحال التي تحاكموا فيها عند التخاصم والتشاجر. [الرابع] لا تفضلوا بمجرد الآراء والعصبية. [الخامس] ليس مقام التفضيل إليكم، وإنما هو إلى الله عز وجل، وعليكم الانقياد والتسليم له، والإيمان به.

وقوله «وآتينا عيسى بن مريم البينات» أي الحجج والدلائل القاطعات على صحة ما جاء بني إسرائيل به من أنه عبد الله ورسوله إليهم «وأيدناه بروح القدس» يعني أن الله أيده بجبريل عليه السلام، ثم قال تعالى: «ولو شاء الله ما أقتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفو ف منهم من آمن و منهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا» أي كل ذلك عن قضاء الله وقدره، لهذا قالوا «ولكن الله يفعل ما يريد».

**يَكَانُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَنَّا مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمَ لَا يَبْعَثُ فِيهِ وَلَا خَلَةٌ وَلَا شَفَاعةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ**

يأمر تعالى عباده بالإنفاق مما رزقهم في سبيله، سبيل الخير، ليذخروا ثواب ذلك عند ربهم وملكيتهم، ولبيادروا إلى ذلك في هذه الحياة الدنيا، «من قبل أن يأتي يوم» يعني يوم القيمة «لَا يَبْعَثُ فِيهِ وَلَا خَلَةٌ وَلَا شَفَاعةٌ» أي لا يباع أحد من نفسه ولا يفادي بمالي لو بذل، ولو جاء بملء الأرض ذهبًا، ولا تنفعه خلة أحد، يعني صداقته بل ولا نسباته، كما قال «فإذا نفح في

الصور فلا أنساب بينهم يومئذٍ ولا يتساءلون﴿ [المؤمنون: ١٠١] ولا شفاعة: أي ولا تفهمهم شفاعة الشافعين.

وقوله ﴿والكافرون هم الظالمون﴾ مبتدأ محصور في خبره، أي ولا ظالم أظلم من وافق الله يومئذٍ كافراً، وقد روى ابن أبي حاتم عن عطاء بن دينار أنه قال: الحمد لله الذي قال ﴿والكافرون هم الظالمون﴾ ولم يقل: والظالمون هم الكافرون.

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَقُّ الْقَيُومُ لَا تَأْخُذُهُ سَنَةٌ وَلَا تُوْلَىٰ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَبِسَعَةٍ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يُغُورُهُ حَقْظُهُمْ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾٢٠٣﴿

هذه آية الكرسي، ولها شأن عظيم، وقد صح الحديث عن رسول الله ﷺ بأنها أفضل آية في كتاب الله. قال الإمام أحمد<sup>(١)</sup>: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا سفيان، عن سعيد الجريري، عن أبيه السليل، عن عبد الله بن رباح، عن أبيه هو ابن كعب، أن النبي ﷺ سأله «أي آية في كتاب الله أعظم؟» قال: الله ورسوله أعلم، فرددتها مراراً، ثم قال: آية الكرسي، قال «ليهناك العلم أبا المتندر، والذي نفسي بيده، إن لها لساناً وشفتين تقدس الملك عند ساق العرش» وقد رواه مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن عبد الأعلى بن عبد الأعلى، عن الجريري به، وليس عنده زيادة: والذي نفسي بيده الخ.

حديث آخر عن أبي أيضاً في فضل آية الكرسي، قال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا أحمد بن إبراهيم الدورقي، حدثنا مبشر عن الأوزاعي، عن يحيى بن أبي كثير، عن عبدة بن أبي لبابة، عن عبد الله بن أبي بن كعب، أن أباه أخبره أنه كان له جرن فيه تمر، قال: فكان أبي يتعاهده، فوجده ينقص، قال: فحرسه ذات ليلة، فإذا هو بدابة شبيه الغلام المحتلم، قال: فسلمت عليه، فرد السلام، قال: فقلت: ما أنت؟ جن؟ أم أنسى؟ قال: جن. قال: لقد علمت يدك، قال فناولني يده، فإذا يد كلب وشعر كلب، فقلت: هكذا خلق الجن. قال: لقد علمت الجن ما فيهم أشد مني. قلت: فما حملك على ما صنعت؟ قال: بلغني أنك رجل تحب الصدق، فأحببنا أن نصيب من طعامك. قال: فقال له أبي: فما الذي يجبرنا منكم؟ قال: هذه الآية، آية الكرسي، ثم غدا إلى النبي ﷺ فأخبره، فقال النبي ﷺ صدق الحديث» وهكذا رواه الحاكم في مستدركه من حديث أبي داود الطيالسي، عن حرب بن شداد، عن يحيى بن أبي كثير، عن الحضرمي بن لاحق، عن محمد بن عمرو بن أبي بن كعب، عن جده به، وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

(١) المسند (ج ٥ ص ١٤٢ - ١٤١).

طريق آخر قال الإمام أحمد<sup>(١)</sup>: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا عثمان بن غياث، قال: سمعت أبا السليل، قال: كان رجل من أصحاب النبي ﷺ يحدث الناس حتى يكثروا عليه، فيصعد على سطح بيت، فيحدث الناس، قال: قال رسول الله ﷺ: «أي آية في القرآن أعظم؟» فقال رجل ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ قال: فوضع يده بين كتفيه، فوجدت بردها بين ثديي، أو قال: فوضع يده بين ثديي فوجدت بردها بين كتفيه، وقال: ليهنيك العلم يا أبا المنذر.

حديث آخر عن الأسفع البقري. قال الحافظ أبو القاسم الطبراني: حدثنا أبو زيد القرطبي، حدثنا يعقوب بن أبي عباد المكي، حدثنا مسلم بن خالد، عن ابن حريج، أخبرني عمر بن عطاء أن مولى ابن الأسفع رجل صدق، أخبره عن الأسفع البكري، أنه سمعه يقول: إن النبي ﷺ جاءهم في صفة المهاجرين، فسأله إنسان: أي آية في القرآن أعظم؟ فقال النبي ﷺ: «الله لا إله هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم» حتى انقضت الآية.

الحديث آخر - عن أنس - قال الإمام أحمد<sup>(٢)</sup>: حدثنا عبد الله بن العارث، حدثني سلمة بن وردان، أن أنس بن مالك، حدثه أن رسول الله ﷺ سأله رجلاً من صحابته، فقال «أي فلان هل تروجت؟» قال: لا ، وليس عندي ما أتروج به، قال «أليس معك قل هو الله أحد؟» قال: بلـ، قال «ربع القرآن». قال «أليس معك قل يا أيها الكافرون؟» قال: بلـ. قال: «ربع القرآن». أليس معك إذا زللت؟» قال: بلـ. قال «ربع القرآن» قال «أليس معك إذا جاء نصر الله؟» قال: بلـ. قال «ربع القرآن». قال «أليس معك آية الكرسي الله لا إله إلا هو الحي القيوم» قال بلـ. قال «ربع القرآن».

الحديث آخر عن أبي ذر جنادة. قال الإمام أحمد<sup>(٣)</sup>: حدثنا وكيع بن الجراح، حدثنا المسعودي، أئباني أبو عمر الدمشقي، عن عبيد الخشاش، عن أبي ذر رضي الله عنه، قال: أتيت النبي ﷺ وهو في المسجد فجلست، فقال «يا أبا ذر، هل صليت؟» قلت: لا . قال «قم فصل». قال: فقمت فصلت، ثم جلست، فقال «يا أبا ذر تعود بالله من شر شياطين الإنس والجن». قال: قلت: يا رسول الله، أَو لِلإنس شياطين؟ قال: نعم، قال قلت: يا رسول الله الصلاة؟ قال «خير موضوع، من شاء أقل، ومن شاء أكثر» قال: قلت: يا رسول الله فالصوم؟ قال «فرض مجزي وعند الله مزيد» قلت: يا رسول الله فالصدقة؟ قال «أضعاف مضاعفة». قلت: يا رسول الله، فأيها أفضل؟ قال: «جهد من مقل، أوسر إلى فقير» قلت: يا رسول الله، أي الأنبياء كان أول؟ قال: «آدم» قلت: يا رسول الله، ونبي كان؟ قال: نعم نبي مكلم» قلت: يا رسول الله، كم المرسلون؟ قال: ثلاثة وبضعة عشر جمـاً غيرـاً، وقال مرة «وخمسة عشر»

(١) المسند (ج ٥ ص ٥٨).

(٢) المسند (ج ٣ ص ٢٢١).

(٣) المسند (ج ٥ ص ١٧٨).

قلت: يا رسول الله، أي ما أنزل عليك أعظم؟ قال: «آية الكرسي» **﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾** ورواه النسائي.

حدث آخر عن أبي أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري رضي الله عنه وأرضاه. قال الإمام أحمد<sup>(١)</sup>: حدثنا سفيان عن ابن أبي ليلى، عن أخيه عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن أبي أيوب، أنه كان في سهوة<sup>(٢)</sup> له، وكانت الغول تجيء فتأخذ، فشكها إلى النبي ﷺ، فقال «إذا رأيتها فقل باسم الله، أجيبي رسول الله». قال: فجاءت، فقال لها، فأخذتها، فقالت: إني لا أعود، فأرسلها؛ فجاء فقال له النبي ﷺ «ما فعل أسيرك»؟ قال: أخذتها، فقالت: إني لا أعود، فأرسلتها، فقال: إنها عائدة، فأخذتها مرتين أو ثلاثة كل ذلك يقول: لا أعود، فيقول «إنها عائدة»، فأخذتها، فقالت: أرسلني، وأعلمك شيئاً تقوله فلا يقربك شيء، آية الكرسي، فأتى النبي ﷺ. فأخبره، فقال «صدقت وهي كذب». ورواه الترمذى في فضائل القرآن عن بندار عن أبي أحمد الزبيري به، وقال حسن غريب. والغول في لغة العرب: الجن إذا تبدى في الليل.

وقد ذكر البخارى هذه القصة عن أبي هريرة، فقال في كتاب فضائل القرآن، وفي كتاب الوكالة، وفي صفة إبليس من صحيحه<sup>(٣)</sup>: قال عثمان بن الهيثم أبو عمرو: حدثنا عوف عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة، قال: وكلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، فأتأني أت يجعل يحشو من الطعام، فأخذته وقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ، فقال: دعني فاني محتاج وعليّ عيال ولی حاجة شديدة، قال: فخليت عنه فأصبحت، فقال النبي ﷺ «يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة؟» قال: قلت يا رسول الله، شكا حاجة شديدة وعيالاً، فرحمته وخليت سبيله، قال «أما إنه قد كذبك وسيعود» فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله ﷺ «إنه سيعود» فرصلته، فجاء يحشو الطعام، فأخذته فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ، قال: دعني فأنا محتاج وعليّ عيال، لا أعود. فرحمته وخليت سبيله، فأصبحت فقال لي رسول الله ﷺ، «يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة؟» قلت: يا رسول الله، شكا حاجة وعيالاً، فرحمته وخليت سبيله. قال «أما أنه قد كذبك وسيعود»، فرصلته الثالثة، فجاء يحشو من الطعام، فأخذته فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ، وهذا آخر ثلاث مرات أنك تزعم أنك لا تعود ثم تعود، فقال: دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها، قلت: وما هي؟ قال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي **﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾** حتى تختتم الآية، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح. فخليت سبيله، فأصبحت فقال لي رسول الله ﷺ «ما فعل أسيرك البارحة؟» قلت: يا رسول الله، زعم أنه يعلمني كلمات ينفعي الله بها، فخليت سبيله. قال «وما هي؟» قال

(١) المسند (ج ٥ ص ٤٢٣).

(٢) السهوة: شيء كالصفنة يكون بين البيوت. وبيت على الماء يستظلون به.

(٣) ما يأتي ورد كاملاً في صحيح البخاري (وكالة باب ١٠).

لي : إذا أويت إلى فراشك ، فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم الآية ﴿الله لا إله إلا هو العزيز القيوم﴾ وقال لي : لا يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبيع ، وكانوا أحقرن شيئاً على الخير ، فقال النبي ﷺ «أما إنه قد صدّقك وهو كذوب ، تعلم من تخاطب من ثلاث ليال يا أبي هريرة؟» قلت : لا . قال «ذاك شيطان». كذا رواه البخاري معلقاً بصيغة الجزم ، وقد رواه النسائي في اليوم والليلة عن إبراهيم بن يعقوب ، عن عثمان بن الهيثم ، فذكره.

وقد روی من وجه آخر عن أبي هريرة بسياق آخر قريب من هذا ، فقال الحافظ أبو بكر بن مردویه في تفسیره : حدثنا محمد بن عبد الله بن عمرويه الصفار ، حدثنا أحمد بن زهير بن حرب ، أئبنا مسلم بن إبراهيم ، أئبنا إسماعيل بن مسلم العبدی ، أئبنا أبو المتكل التاجی ، أن أبي هريرة كان معه مفتاح بيت الصدقه ، وكان فيه تمر ، فذهب يوماً ففتح الباب ، فوجد التمر قد أخذ منه ملء كف ، ودخل يوماً آخر فإذا قد أخذ منه ملء كف ، ثم دخل يوماً آخر ثالثاً ، فإذا قد أخذ منه مثل ذلك ، فشكى ذلك أبو هريرة إلى النبي ﷺ ، فقال له النبي ﷺ : «تحب أن تأخذ صاحبك هذا؟» قال : نعم . قال «إذا فتحت الباب فقل سبحان من سخرك محمد . فذهب ففتح الباب فقال سبحان من سخرك محمد فإذا هو قائم بين يديه ، قال : يا عدو الله ، أنت صاحب هذا . قال : نعم ، دعني فإني لا أعود ، ما كنت أخذنا إلا لأهل بيته من الجن فقراء ، فخلع عنه ، ثم عاد الثانية ، ثم الثالثة ، فقلت : أليس قد عاهدتني لا أعود ؟ لا أدعك اليوم حتى أذهب بك إلى النبي ﷺ ، قال لا تفعل ، فإنك إن تدعوني علمتك كلمات إذا أنت قلتها ، لم يقربك أحد من الجن صغير ولا كبير ، ذكر ولا أنثى ، قال له : لتفعلن ؟ قال : نعم . قال : ما هن ؟ قال ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ قرأ آية الكرسي حتى ختمها ، فتركه فذهب فلم يعد ، فذكر ذلك أبو هريرة للنبي ﷺ ، فقال له رسول الله ﷺ «ما علمنت أن ذلك كذلك» وقد رواه النسائي عن أحمد بن محمد بن عبيد الله ، عن شعيب بن حرب ، عن إسماعيل بن مسلم ، عن أبي المتكل ، عن أبي هريرة به ، وقد تقدم لأبي بن كعب كائنة مثل هذه أيضاً ، فهذه ثلاث وقائع .

قصة أخرى قال أبو عبيد في كتاب الغريب : حدثنا أبو معاوية ، عن أبي عاصم الثقفي ، عن الشعبي ، عن عبد الله بن مسعود قال : خرج رجل من الإنس ، فلقيه رجل من الجن فقال : هل لك أن تصارعني ؟ فإن صرعتني علمتك آية إذا قرأتها حين تدخل بيتك لم يدخله شيطان ، فصارعه فصرعه ، فقال : إني أراك ضئلاً شحيتاً ، كان ذراعيك ذرعاً كلب ، أفهمكذا أنتم أيها الجن لكم ، أم أنت من بينهم ؟ فقال : إني بينهم لضليع<sup>(١)</sup> ، فعاودني فصارعه فصرعه الأنسي فقال : تقرأ آية الكرسي فإنه لا يقرؤها أحد إذا دخل بيته إلا خرج الشيطان وله خنج كخنج الحمار ، فقيل لابن مسعود : أهو عمر ؟ فقال من عسى أن يكون إلا عمر ، قال أبو عبيد : الضئيل النحيف الجسم ، والخنج بالخاء المعجمة ، ويقال بالحاء المهملة الضراط .

(١) الضليع : العظيم الخلقة والجسم .

حدث آخر عن أبي هريرة. قال الحاكم أبو عبد الله في مستدركه: حدثنا علي بن حمshan، حدثنا سفيان حدثنا بشر بن موسى، حدثنا الحميدي، حدثنا حكيم بن جبير الأستدي، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «سورة البقرة فيها آية سيدة آي القرآن، لا تقرأ في بيت فيه شيطان إلا خرج منه: آية الكرسي»، وكذا رواه من طريق آخر عن زائدة، عن حكيم بن جبير، ثم قال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، كذا قال، وقد رواه الترمذى من حديث زائدة، ولفظه «الكل شيء سنام، وسنام القرآن سورة البقرة، وفيها آية هي سيدة آي القرآن: آية الكرسي» ثم قال: غريب، لا نعرفه إلا من حديث حكيم بن جبير، وقد تكلم فيه شعبة وضعفه. (قلت) وكذا ضعفه أحمد ويعيني بن معين، وغير واحد من الأئمة، وتركه ابن مهدي وكذبه السعدي.

حدث آخر قال ابن مردوه: حدثنا عبد الباقي بن نافع، أخبرنا عيسى بن محمد المروزى، أخبرنا عمر بن محمد البخارى، أخبرنا عيسى بن غنجار، عن عبد الله بن كيسان، حدثنا يحيى، أخبرنا بن عقيل، عن يحيى بن يعمر عن ابن عمر، عن عمر بن الخطاب: أنه خرج ذات يوم إلى الناس وهم سمات (١) فقال: أيكم يخبرني بأعظم آية في القرآن. فقال ابن مسعود: على الخبر سقطت، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أعظم آية في القرآن ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾

حدث آخر في اشتماله على اسم الله الأعظم قال الإمام أحمد (٢): حدثنا محمد بن بكر، أبناؤنا عبد الله بن زياد، حدثنا شهر بن حوشب، عن أسماء بنت يزيد بن السكن، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول في هاتين الآيتين ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ و﴿ألم الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ «إن فيهما اسم الله الأعظم» وكذا رواه أبو داود، عن مسدد والترمذى، عن علي بن خشrum وابن ماجه، عن أبي بكر بن أبي شيبة، ثلاثتهم عن عيسى بن يونس، عن عبيد الله بن أبي زياد به، وقال الترمذى: حسن صحيح.

حدث آخر في معنى هذا، عن أمامة رضي الله عنه، قال ابن مردوه: أخبرنا عبد الله بن نمير، أخبرنا إسحاق بن إبراهيم بن إسماعيل، أخبرنا هشام بن عمار، أبناؤنا الوليد بن مسلم، أخبرنا عبد الله بن العلاء بن زيد، أنه سمع القاسم بن عبد الرحمن يحدث عن أبي أمامة يرفعه، قال «اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب في ثلاث: سورة البقرة، وأل عمران وطه» وقال هشام وهو ابن عمار خطيب دمشق أما البقرة ف﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ وفي آل عمران ﴿ألم الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ وفي طه ﴿وَعَنْتُ الْوِجْهَ لِلْحَيِّ الْقَيُومَ﴾.

حدث آخر عن أبي أمامة في فضل قراءتها بعد الصلاة المكتوبة، قال أبو بكر بن مردوه: حدثنا محمد بن محرز بن مساور الأدمي، أخبرنا جعفر بن محمد بن الحسن، أخبرنا الحسين بن

(١) السمات: الجماعات.

(٢) المسند (ج ٦ ص ٤٦١).

بشر بطرسوس، أخبرنا محمد بن حمير، أخبرنا محمد بن زياد، عن أبي أمامة، قال: قال رسول الله ﷺ «من قرأ دبر كل صلاة مكتوبة آية الكرسي، لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت» وهكذا رواه النسائي في اليوم والليلة، عن الحسين بن بشر به، وأخرج جابر بن حبان في صحيحه، من حديث محمد بن حمير وهو الحمصي، من رجال البخاري أيضاً، فهو إسناد على شرط البخاري، وقد زعم أبو الفرج بن الجوزي، أنه حديث موضوع، والله أعلم. وقد روى ابن مردويه من حديث علي والمغيرة بن شعبة وجابر بن عبد الله، نحو هذا الحديث، ولكن في إسناد كل منها ضعف. وقال ابن مردويه أيضاً: حدثنا محمد بن الحسن بن زياد المقربي، أخبرنا يحيى بن درستويه المروزي، أخبرنا زياد بن إبراهيم، أخبرنا أبو حمزة السكري، عن المثنى، عن قتادة، عن الحسن، عن أبي موسى الأشعري، عن النبي ﷺ قال: «أوحى الله إلى موسى بن عمران عليه السلام أن أقرأ آية الكرسي في دبر كل صلاة مكتوبة، فإنه من يقرؤها في دبر كل صلاة مكتوبة، يجعل له قلب الشاكرين، ولسان الذاكرين، وثواب النبئين، وأعمال الصديقين، ولا يواكب على ذلك إلا نبي أو صديق أو عبد امتحن قلبه للإيمان، أو أريد قتلها في سبيل الله» وهذا حديث منكر جداً.

حديث آخر في أنها تحفظ من قرأها في أول النهار وأول الليل. قال أبو عيسى الترمذى: حدثنا يحيى بن المغيرة أبو سلمة المخزومي المدينى، أخبرنا ابن أبي فديك. عن عبد الرحمن المليكي، عن زرارة بن مصعب، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ «من قرأ: «**حَمْ**» المؤمن إلى **إِلَيْهِ الْمَصِيرِ» آية الكرسي، حين يصبح، حفظ بهما حتى يمسي، ومن قرأهما حين يمسي حفظ بهما حتى يصبح» ثم قال: هذا حديث غريب، وقد تكلم بعض أهل العلم في عبد الرحمن بن أبي بكر بن أبي مليكة المليكي، من قبل حفظه.**

وقد ورد في فضلها أحاديث أخرى، تركناها اختصاراً لعدم صحتها وضعف أسانيدها كحديث علي في قراءتها عند الحجامة، إنها تقوم مقام حجامتين. وحديث أبي هريرة في كتابتها في اليد اليسرى بالزعفران سبع مرات، وتلحس للحفظ وعدم النسيان، أوردهما ابن مردويه، وغير ذلك.

### وهذه الآية مشتملة على عشر جمل مستقلة

قوله **«الله لا إله إلا هو»** إخبار بأنه المتفرد بالإلهية لجميع الخلائق **«الحي القيوم»** أي الحي في نفسه الذي لا يموت أبداً، القيم لغيره. وكان عمر يقرأ **«القيام»**، فجميع الموجودات مفتقرة إليه، وهو غني عنها، لا قوام لها بدون أمره، قوله **«وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومُ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ»** [الروم: ٢٥] قوله **«لَا تَأْخُذْهُ سَنَةٌ وَلَا نُوْمٌ»** أي لا يعتريه نقص ولا غفلة ولا ذهول عن خلقه، بل هو قادر على كل نفس بما كسبت، شهيد على كل شيء، لا يغيب عنه شيء.

ولا يخفى عليه خافية، ومن تمام القيومية أنه لا يعتريه سنة ولا نوم، فقوله ﴿لا تأخذه﴾ أي لا تغلبه سنة وهي الوسن والنعاس، ولهذا قال: ولا نوم لأنه أقوى من السنة. وفي الصحيح عن أبي موسى، قال: قام فيما رأينا رسول الله ﷺ بأربع كلمات، فقال «إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخوض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل النهار قبل عمل الليل، وعمل الليل قبل عمل النهار، حجابه النور أو النار، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه» وقال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، أخبرني الحكم بن أبيان، عن عكرمة مولى ابن عباس في قوله ﴿لا تأخذه سنة ولا نوم﴾ أن موسى عليه السلام سأله الملائكة: هل ينام الله عز وجل؟ فأوحى الله تعالى إلى الملائكة وأمرهم أن يورقوه ثلاثة، فلا يتركوه ينام، ففعلوا، ثم أعطوه قارورتين فامسكهما، ثم تركوه وحذوره أن يكسرهما، قال: فجعل ينعش وهما في يده، وفي كل يد واحدة، قال: فجعل ينعش وينبه، وينعش وينبه، حتى نعش نعسة، فضرب إحداهما بالأخرى فكسرهما، قال معمر: إنما هو مثل ضربه الله عز وجل، يقول كذلك السموات والأرض في يده، وهكذا رواه ابن جرير، عن الحسن بن يحيى، عن عبد الرزاق ذكره، وهو من أخباربني إسرائيل، وهو مما يعلم أن موسى عليه السلام لا يخفى عليه مثل هذا من أمر الله عز وجل، وأنه متزه عنه.

وأغرب من هذا كله الحديث الذي رواه ابن جرير<sup>(١)</sup>: حدثنا إسحاق بن أبي إسرائيل. حدثنا هشام بن يوسف، عن أمية بن شبل، عن الحكم بن أبيان، عن عكرمة، عن أبي هريرة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يحكى عن موسى عليه السلام على المنبر، قال «وَقَعَ فِي نَفْسِ مُوسَىٰ: هَلْ يَنْامُ اللَّهُ إِلَيْهِ مَلْكًا فَأَرْقَهُ ثَلَاثًا، ثُمَّ أَعْطَاهُ قَارُورَتَيْنِ فِي كُلِّ يَدٍ قَارُورَةً، وَأَمْرَهُ أَنْ يَحْفَظَ بِهِمَا قَالَ: فَجَعَلَ يَنْامُ، وَكَادَتْ يَدَاهُ تُلْقِيَانِ، فَيُسْتَيقِظُ فِي جَبَسٍ إِنْدَاهَمَا عَلَى الْأُخْرَى، حَتَّى نَامَ نُومَةً، فَاصْطَفَقَتْ يَدَاهُ، فَانْكَسَرَتِ الْقَارُورَتَانِ، - قَالَ - ضَرَبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَ مَثَلًا، أَنَّ اللَّهَ لَوْ كَانَ يَنْامَ لَمْ تَسْتَمِسْكِ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ» وهذا حديث غريب جداً، والأظهر أنه إسرائيلي لا مرفوع، والله أعلم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن القاسم بن عطية، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الدشتكي، حدثني أبي عن أبيه، حدثنا أشعث بن إسحاق عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، أنبني إسرائيل قالوا: يا موسى، هل ينام ربكم؟ قال: اتقوا الله، فناداه ربها عز وجل يا موسى، سألكم هل ينام ربكم، فخذ زجاجتين في يديك، فقم الليلة، ففعل موسى، فلما ذهب من الليل ثلث نعس، فوقع لركبتيه، ثم انتعش فضبطهما، حتى إذا كان آخر الليل نعس، فسقطت الزجاجتان فانكسرتا، فقال: يا موسى، لو كنت أئم لسقطت السموات والأرض فهلكت كما هلكت الزجاجتان في يديك. فأنزل الله عز وجل على نبيه ﷺ آية

الكرسي .

وقوله ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ إِخْبَارٌ بِأَنَّ الْجَمِيعَ عَبِيدَهُ وَفِي مَلْكِهِ، وَتَحْتَ قَهْرِهِ وَسُلْطَانِهِ، كَقَوْلِهِ ﴿إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَيَ الرَّحْمَنَ عَبْدًا﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ عَوْدَهُمْ عَدًّا \* وَكَلِّهُمْ آتَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرَدًّا﴾ [مَرِيمٌ : ٩٣ - ٩٥].

وقوله ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عَنْهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ كَقَوْلِهِ ﴿وَكُمْ مَنْ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ لَا تَغْنِي شَفَاعَتِهِمْ شَيْئًا إِلَّا مَنْ بَعْدَ أَنْ يَأْذِنَ اللَّهُ لَمَنْ يَشَاءُ وَبِرِضَى﴾ [النَّجْمٌ : ٢٦] وَكَقَوْلِهِ ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا مَنْ ارْتَضَى﴾ [الْأَنْبِيَاءُ : ٢٨] وَهَذَا مِنْ عَظَمَتِهِ وَجْلَالِهِ وَكَبْرِيَائِهِ عَزْ وَجْلُهُ، أَنَّهُ لَا يَتَجَاسِرُ أَحَدٌ عَلَى أَنْ يَشْفَعَ لِأَحَدٍ عَنْهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ لَهُ فِي الشَّفَاعَةِ، كَمَا فِي حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ: «أَتَيْتُ تَحْتَ الْعَرْشِ فَأَخْرَجْتُ سَاجِدًا، فَيَدْعُنِي مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَدْعُنِي». ثُمَّ يَقَالُ: ارْفِعْ رَأْسَكَ وَقُلْ تَسْمَعْ وَاشْفَعْ تَشْفَعْ - قَالَ - فَيَحْدِدُ لِي حَدًّا فَأَدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ».

وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ دَلِيلٌ عَلَى إِحْاطَةِ عِلْمِهِ بِجَمِيعِ الْكَائِنَاتِ، مَاضِيهَا وَحَاضِرُهَا وَمُسْتَقْبِلَهَا، كَقَوْلِهِ إِخْبَارًا عَنِ الْمَلَائِكَةِ ﴿وَمَا نَنْزَلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِنَا وَمَا خَلْفَنَا، وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ، وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيَّا﴾ [مَرِيمٌ : ٦٤].

وقوله: ﴿وَلَا يَحْيِطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ أَيْ لَا يَطْلُعُ أَحَدٌ مِّنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَى شَيْءٍ إِلَّا بِمَا أَعْلَمَهُ اللَّهُ عَزْ وَجْلُهُ وَأَطْلَعَهُ عَلَيْهِ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمَرَادُ لَا يَطْلَعُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّنْ عِلْمِ ذَاتِهِ وَصَفَاتِهِ، إِلَّا بِمَا أَطْلَعَهُمُ اللَّهُ عَلَيْهِ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَلَا يَحْيِطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طهٌ : ١١٠].

وقوله: ﴿وَسَعَ كَرْسِيهِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَثَنَا أَبُو سَعِيدُ الْأَشْجَعُ، حَدَثَنَا أَبُو إِدْرِيسٍ عَنْ مَطْرُوفِ بْنِ طَرِيفٍ، عَنْ جَعْفَرٍ بْنِ أَبِي الْمَغِيرَةِ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جَبَّارٍ، عَنْ أَبْنَ عَبَّاسٍ، فِي قَوْلِهِ: ﴿وَسَعَ كَرْسِيهِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قَالَ: عِلْمُهُ، وَكَذَا رَوَاهُ أَبُو جَرِيرٍ مِّنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ إِدْرِيسٍ وَهَشَمِيْمَ، كَلَاهُمَا عَنْ مَطْرُوفِ بْنِ طَرِيفٍ بْنِهِ، قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: وَرَوَى عَنْ سَعِيدِ بْنِ جَبَّارٍ مُثْلِهِ، ثُمَّ قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: وَقَالَ آخَرُونَ الْكَرْسِيُّ مَوْضِعُ الْقَدِمَيْنِ، ثُمَّ رَوَاهُ عَنْ أَبِي مُوسَى وَالسَّدِيِّ وَالضَّحَّاكِ وَمُسْلِمِ الْبَطِينِ.

وَقَالَ شَجَاعُ بْنُ مَخْلَدٍ فِي تَفْسِيرِهِ: أَخْبَرَنَا أَبُو عَاصِمٍ، عَنْ سَفِيَّانَ، عَنْ عَمَّارِ الْذَّهَبِيِّ، عَنْ مُسْلِمِ الْبَطِينِ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جَبَّارٍ، عَنْ أَبْنَ عَبَّاسٍ، قَالَ: سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزْ وَجْلُهُ ﴿وَسَعَ كَرْسِيهِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؟ قَالَ: «كَرْسِيهِ مَوْضِعُ قَدَمَيْهِ وَالْعَرْشُ لَا يَقْدِرُ قَدْرَهِ إِلَّا اللَّهُ عَزْ وَجْلُهُ» كَذَا أَوْرَدَ هَذَا الْحَدِيثُ الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ بْنِ مَرْدُوْيَهُ مِنْ طَرِيقِ شَجَاعٍ بْنِ مَخْلَدٍ الْفَلَاسِ، فَذَكَرَهُ وَهُوَ غَلْطٌ، وَقَدْ رَوَاهُ وَكَيْعٌ فِي تَفْسِيرِهِ، حَدَثَنَا سَفِيَّانُ عَنْ عَمَّارِ الْذَّهَبِيِّ، عَنْ مُسْلِمِ الْبَطِينِ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جَبَّارٍ، عَنْ أَبْنَ عَبَّاسٍ، قَالَ: الْكَرْسِيُّ مَوْضِعُ الْقَدِمَيْنِ، وَالْعَرْشُ لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ قَدْرَهُ. وَقَدْ رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي مُسْتَدْرَكِهِ عَنْ أَبِي عَبَّاسٍ مُحَمَّدٍ بْنِ أَحْمَدَ الْمَحْبُوبِيِّ، عَنْ

محمد بن معاذ، عن أبي عاصم، عن سفيان، وهو الثوري ياسناده عن ابن عباس موقوفاً مثله، وقال: صحيح على شرط الشيختين، ولم يخرجاه. وقد رواه ابن مردوه من طريق الحاكم بن ظهير الغزارى الكوفي، وهو متزوك عن السدى، عن أبيه، عن أبي هريرة، مرفوعاً ولا يصح أيضاً. وقال السدى، عن أبي مالك: الكرسي تحت العرش: وقال السدى: السموات والأرض في جوف الكرسي، والكرسي بين يدي العرش. وقال الصحاح عن ابن عباس: لو أن السموات السبع والأرضين السبع، بسطن ثم وصلن بعضهن إلى بعض، ما كن في سعة الكرسي إلا بمتنزلة الحلقة في المفازة، ورواه ابن جرير وابن أبي حاتم، وقال ابن جرير: حدثني يونس، أخبرني ابن وهب قال: قال ابن زيد: حدثني أبي قال: قال رسول الله «ما السموات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة أقيمت في ترس» قال: وقال أبو ذر: سمعت رسول الله يقول: «ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد أقيمت بين ظهراني فللة من الأرض».

وقال أبو بكر بن مردوه: أخبرنا سليمان بن أحمد، أخبرنا عبد الله بن وهيب المقرى، أخبرنا محمد بن أبي السرى العسقلانى، أخبرنا محمد بن عبد الله التميمي، عن القاسم بن محمد الثقفى، عن أبي إدريس الخولانى، عن أبي ذر الغفارى، أنه سأله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الكرسي، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «والذى نفسى بيده ما السموات السبع والأرضون السبع عند الكرسي، إلا حلقة ملقاء بأرض فللة، وإن فضل العرش على الكرسي كفضل الغلاة على تلك الحلقة».

وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى في مسنده: حدثنا زهير، حدثنا ابن أبي بكر، حدثنا إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن عبد الله بن خليفة، عن عمر رضي الله عنه، قال: أنت امرأة إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالت: ادع الله أن يدخلنِي الجنة، قال: فعظم الرب تبارك وتعالى، وقال: «إن كرسيه وسع السموات والأرض وإن له أطيطاً كأطيطاً الرحل الجديد من ثقله» وقد رواه الحافظ البزار في مسنده المشهور وعبد بن حميد وابن جرير في تفسيريهما، والطبرانى وابن أبي عاصم في كتابى السنة لهما، والحافظ الضياء في كتابه المختار من حديث أبي إسحاق السباعي، عن عبد الله بن خليفة، وليس بذلك المشهور، وفي سماعه من عمر نظر. ثم منهم من يرويه عنه عن عمر موقوفاً، ومنهم من يرويه عنه مرسلاً، ومنهم من يزيد في متنه زيادة غريبة، ومنهم من يحدفها.

وأغرب من هذا حديث جبیر بن مطعم في صفة العرش كما رواه أبو داود في كتابه السنة من سننه، والله أعلم. وقد روى ابن مردوه وغيره أحاديث عن بريدة وجابر وغيرهما في وضع الكرسي يوم القيمة لفصلقضاء، والظاهر أن ذلك غير المذكور في هذه الآية، وقد زعم بعض المتكلمين على علم الهيئة من الإسلاميين، إن الكرسي عندهم هو الفلك الثامن، وهو ذلك الثواب الذي فوقه الفلك التاسع، وهو الفلك الأثير ويقال له الأطلس، وقد رد ذلك عليهم آخرون وروى ابن جرير من طريق جوير عن الحسن البصري أنه كان يقول: الكرسي هو العرش،

والصحيح أن الكرسي غير العرش، والعرش أكبر منه، كما دلت على ذلك الآثار والأخبار، وقد اعتمد ابن جرير على حديث عبد الله بن خليفة عن عمر في ذلك، وعندي في صحته نظر، والله أعلم.

وقوله: «وَلَا يُؤْدِه حَفْظَهُمَا» أي لا يقله ولا يكرره حفظ السموات والأرض، ومن فيهما، ومن بينهما، بل ذلك سهل عليه، يسير لديه، وهو القائم على كل نفس بما كسبت، الرقيب على جميع الأشياء، فلا يعزب عنه شيء ولا يغيب عنه شيء، والأشياء كلها حقيقة بين يديه، الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، وهو القاهر لكل شيء، الحبيب على كل شيء، الرقيب العلي العظيم، لا إله غيره، ولا رب سواه، فقوله: «وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ» كقوله: «وَهُوَ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالُ» [الرعد: ٩] وهذه الآيات وما في معناها من الأحاديث الصاححة الأجود فيها طريقة السلف الصالح، إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تشبيه.

لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرُ بِالظَّغْوَتِ وَيُؤْمِنُ بِاللَّهِ فَقَدْ أَسْتَمْسَكَ  
بِالْعَهْدِ الْوَثِيقِ لَا أَنْفَصَامَ لَهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ عَلَيْهِ<sup>(١)</sup>

يقول تعالى: «لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ» أي لا تكرهوا أحداً على الدخول في دين الإسلام، فإنه بين واضح، جلي دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام، وشرح صدره، ونور بصيرته، دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره، فإنه لا يفيده الدخول في الدين مكرهاً مقصوراً، وقد ذكروا أن سبب نزول هذه الآية في قوم من الأنصار، وإن كان حكمها عاماً.

وقال ابن جرير<sup>(١)</sup>: حدثنا ابن بشار، حدثنا ابن أبي عدي، عن شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: كانت المرأة [من الأنصار]<sup>(٢)</sup> تكون مقلاتاً<sup>(٣)</sup>، فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده، فلما أجليت بنو النضير، كان فيهم من أبناء الأنصار، فقالوا: لا ندع أبناءنا، فأنزل الله عز وجل «لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ»، وقد رواه أبو داود والنسائي جمياً عن بندار به، ومن وجوه آخر عن شعبة به نحوه. وقد رواه ابن أبي حاتم وابن حبان في صحيحه من حديث شعبة به، وهكذا ذكر مجاهد وسعيد بن جبير والشعبي والحسن البصري وغيرهم، أنها نزلت في ذلك.

وقال محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد الحرشي مولى زيد بن ثابت، عن عكرمة أو عن سعيد، عن ابن عباس قوله: «لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ» قال: نزلت في رجل من الأنصار من

(١) تفسير الطبرى ١٥/٣.

(٢) الزيادة من الطبرى.

(٣) المقلات: التي لا يعيش لها ولد.

بني سالم بن عوف، يقال له الحصيني، كان له ابنان نصريان و كان هو رجلاً مسلماً، فقال للنبي ﷺ: ألا استكرههما، فإنهما قد أبيا إلا النصرانية، فأنزل الله فيه ذلك، رواه ابن حجرير. وروى السدي نحو ذلك، وزاد: وكان قد تنصرا على يدي تجار قدموا من الشام يحملون زيتاً، فلما عزما على الذهاب معهم، أراد أبوهما أن يستكرههما، وطلب من رسول الله ﷺ أن يبعث في آثارهما، فنزلت هذه الآية.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا عمرو بن عوف، أخبرنا شريك عن أبي هلال عن أنس، قال: كنت في دينهم مملوكاً نصريانياً لعمر بن الخطاب، فكان يعرض على الإسلام، فآباه، فيقول **﴿لَا إِكْرَاهُ فِي الدِّينِ﴾** ويقول: يا أنس، لو أسلمت لا ستعنا بك على بعض أمور المسلمين.

وقد ذهب طائفة كبيرة من العلماء، أن هذه محمولة على أهل الكتاب، ومن دخل في دينهم قبل النسخ والتبديل إذا بذلوا الجزية، وقال آخرون: بل هي منسوخة بأية القتال، وإنه يجب أن يدعى جميع الأمم إلى الدخول في الدين الحنيف، دين الإسلام، فإن أبي أحد منهم الدخول فيه، ولم ينقدر له أو يبذل الجزية، قوتل حتى يقتل، وهذا معنى الإكراه، قال الله تعالى **﴿سَتَدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولَئِكَ شَدِيدُ تَقَاتُلُهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾** [الفتح: ١٦] وقال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدْ كُفَّارَ الْمَنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾** [التوبه: ٩٣] وقال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قاتلُوا الَّذِينَ يُلُونُكُمْ مِّنَ الْكُفَّارِ وَلَا يُجْدِو فِيمَا غَلَظْتُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾** [التوبه: ١٢٣] وفي الصحيح «عجب ربك من قوم يقادون إلى الجنة في السلسل» يعني الأسرارى الذين يقدم بهم بلاد الإسلام في الوثائق والأغلال والقيود والأكبال، ثم بعد ذلك يسلمون، وتصلح أعمالهم وسرائرهم فيكونون من أهل الجنة. فاما الحديث الذي رواه الإمام أحمد<sup>(١)</sup>: حدثنا يحيى عن حميد عن أنس، أن رسول الله ﷺ قال لرجل **«أَسْلِمْ»**، قال: إني أجدهني كارهاً، قال: «إِنْ كُنْتَ كَارِهًًا فَإِنَّهُ ثَلَاثَيْ صَحِيحٍ، وَلَكُنْ لَّيْسَ مِنْ هَذَا الْقَبْلَيْنَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَكُرِهْ النَّبِيَّ عَلَى إِلَيْهِمْ إِلَّا هُوَ أَسْلَمَ وَإِنْ كُنْتَ كَارِهًًا، فَإِنَّ اللَّهَ سَيِّرْ زَقْكَ حَسْنَ النِّيَّةِ وَالْإِخْلَاصِ.

وقوله: **﴿فَمَنْ يَكْفُرُ بِالْطَّاغُوتِ وَيَؤْمِنُ اللَّهَ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعَرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفَصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعُ عَلِيهِمْ﴾** أي من خلع الأنداد والأوثان، وما يدعو إليه الشيطان من عبادة كل ما يعبد من دون الله، ووحد الله فعبده وحده، وشهاد أنه لا إله إلا هو **﴿فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعَرْوَةِ الْوُثْقَى﴾** أي فقد ثبت في أمره، واستقام على الطريق المثلثي، والصراط المستقيم، قال أبو قاسم البغوي: حدثنا أبو روح البلدي، حدثنا أبو الأحوص سلام بن سليم، عن أبي إسحاق عن حسان، هو ابن

(١) المستند (ج ١ ص ١٨١).

قائد العبسي قال: قال عمر رضي الله عنه: إن الجبّت السحر، والطاغوت الشيطان، وإن الشجاعة والجبن غرائز تكون في الرجال، يقاتل الشجاع عنم لا يعرف، ويفرّ الجبان من أمره، وإن كرم الرجل دينه، وحسبه خلقه، وإن كان فارسيًا أو نبطيًّا. وهكذا رواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث الثوري، عن أبي إسحاق عن حسان بن قائد العبسي عن عمر، فذكره، ومعنى قوله في الطاغوت: إنه الشيطان، قوي جداً، فإنه يشمل كل شر كان عليه أهل الجاهلية من عبادة الأوّلاد والتحاكم إليها، والاستئصال بها.

وقوله: «فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرُوْفِ الْوَثَقِي لَا انْفَصَامَ لَهَا» أي فقد استمسك من الدين بأقوى سبب، وشبه ذلك بالعروفة القوية التي لا تفصّم، هي في نفسها محكمة مبرمة قوية وربطها قوي شديد، ولهذا قال «فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرُوْفِ الْوَثَقِي لَا انْفَصَامَ لَهَا» الآية، قال مجاهد: العروفة الوثقى يعني الإيمان، وقال السدي: هو الإسلام، وقال سعيد بن جبير والضحاك: يعني لا إله إلا الله، وعن أنس بن مالك: العروفة الوثقى القرآن. وعن سالم بن أبي الجعد قال: هو الحب في الله، والبغض في الله، وكل هذه الأقوال صحيحة، ولا تنافي بينها. وقال معاذ بن جبل في قوله: «لَا انْفَصَامَ لَهَا» دون دخول الجنة، وقال مجاهد وسعيد بن جبير «فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرُوْفِ الْوَثَقِي لَا انْفَصَامَ لَهَا» ثم قرأ «إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْيِرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يَغْيِرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ» [الرعد: ١١].

وقال الإمام أحمد<sup>(١)</sup>: حدثنا إسحاق بن يوسف، حدثنا ابن عوف عن محمد بن قيس بن عباد، قال: كنت في المسجد، فجاء رجل في وجهه أثر من خشوع، فصلّى ركعتين أو جزءاً فيهما، فقال القوم: هذا رجل من أهل الجنة، فلما خرج اتبّعه حتى دخل منزله، فدخلت معه فحدثه، فلما استأنس، قلت له: إن القوم لما دخلت المسجد، قالوا: كذا وكذا، قال: سبحان الله، ما ينبغي لأحد أن يقول مالاً يعلم، وسأحدّثك لم، إني رأيت رؤيا على عهد رسول الله ﷺ، فقصصتها عليه، رأيت كأنني في روضة خضراء. قال ابن عون فذكر من خضرتها وسعتها - وفي وسطها عمود حديد أسفله في الأرض وأعلاه في السماء، في أعلى عروفة، فقيل لي اصعد عليه، فقلت: لا أستطيع، فجاءني منصف - قال ابن عون هو الوصيف - فرفع ثيابي من خلفي، فقال: اصعد، فصعدت حتى أخذت بالعروفة، فقال: استمسك بالعروفة، فاستيقظت وإنها لفي يدي، فأتيت رسول الله ﷺ، فقصصتها عليه فقال «أَمَا الرَّوْضَةُ، فَرَوْضَةُ الْإِسْلَامِ، وَأَمَا الْعَوْدُ فَعَوْدُ الْإِسْلَامِ، وَأَمَا الْعُرُوْفُ فَهِيَ الْعُرُوْفُ الْوَثَقِيُّ، أَنْتَ عَلَى الْإِسْلَامِ حَتَّى تَمُوتُ» قال: وهو عبد الله بن سلام. أخرجه في الصحيحين من حديث عبد الله بن عون. وأخرجه البخاري من وجه آخر، عن محمد بن سيرين به.

طريق أخرى وسياق آخر قال الإمام أحمد<sup>(٢)</sup>: أَبْنَانَا حَسْنُ بْنُ مُوسَى وَعُثْمَانَ، قَالَا: أَبْنَانَا

(١) المستند (ج ٥ ص ٤٥٢).

(٢) المستند (ج ٥ ص ٤٥٣، ٤٥٤).

حمد بن سلمة، عن عاصم بن بهدلة، عن المسيب بن رافع، عن خرشة بن الحر، قال قدمت المدينة فجلست إلى مشيخة في مسجد النبي ﷺ، فجاء شيخ يتوكل على عصاً له، فقال القوم: من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة، فلينظر إلى هذا. فقام خلف سارية فصلّى ركعتين، فقلت له: قال بعض القوم: كذا وكذا، فقال: الجنة لله، يدخلها من يشاء، وإنّي رأيت على عهد رسول الله ﷺ رؤيا: كأن رجلاً أتاني فقال: انطلق، فذهبت معه فسلك بي منهجاً عظيماً، فعرضت لي طريق عن يسارِي، فأردت أن أسلكها، فقال: إنك لست من أهلها، ثم عرضت لي طريق عن يميني، فسلكتها حتى انتهيت إلى جبل زلق، فأخذ بيدي فزجل<sup>(١)</sup> بي فإذا أنا على ذروته، فلا أتقارّ ولا أتماسك، فإذا عمود من حديد في ذروته حلقة من ذهب، فأأخذ بيدي فزجل بي حتى أخذت بالعروة، فقال: استمسك، فقلت: نعم، فضرب العمود برجله، فاستمسكت بالعروة، فقصصتها على رسول الله ﷺ فقال «رأيت خيراً، أما المنهج العظيم فالمحشر، وأما الطريق التي عرضت عن يسارك فطريق أهل النار، ولست من أهلها، وأما الطريق التي عرضت عن يمينك فطريق أهل الجنة، وأما الجبل الزلق فمتزل الشهداء، وأما العروة التي استمسكت بها فعروة الإسلام، فاستمسك بها حتى تموت» قال: فإنما أرجو أن أكون من أهل الجنة، قال: وإذا هو عبد الله بن سلام، وهكذا رواه النسائي عن أحمد بن سليمان عن عفان، وابن ماجه عن أبي شيبة عن الحسن بن موسى الأشيب، كلاهما عن حماد بن سلمة به نحوه، وأخرجه مسلم في صحيحه من حديث الأعمش، عن سليمان بن مسهر، عن خرشة بن الحر الفزاري به.

اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلْمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلَئِكُمْ أَطَّلَعُوْتُ  
يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلْمَاتِ أَوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُوْنَ

يخبر تعالى أنه يهدي من اتبع رضوانه سبل السلام، فيخرج عباده المؤمنين من ظلمات الكفر والشك والريب إلى نور الحق الواضح الجلي المبين السهل المنير، وأن الكافرين إنما ولهم الشياطين، تزيّن لهم ما هم فيه من الجهالات والضلالات، ويخرجونهم ويعيدون بهم عن طريق الحق إلى الكفر والإفك «أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون» ولهذا وحد تعالى لفظ النور، وجمع الظلمات، لأن الحق واحد والكفر أجناس كثيرة ولكنها باطلة، كما قال «وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتفقون» [الأنعام: ١٥٣] وقال تعالى «وجعل الظلمات والنور» [الأنعام: ١] وقال تعالى: «عن اليمين والشمائل» [النحل: ٤٨] إلى غير ذلك من الآيات التي في لفظها إشعار بتفرد الحق وانتشار الباطل وتفرده وتشعبه. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا علي بن ميسرة، حدثنا عبد العزيز بن أبي عثمان، عن موسى بن عبيدة، عن أيوب بن خالد، قال: يبعث أهل الأهواء،

أو قال : تبعث أهل الفتنة ، فمن كان هوا الإيمان ، كانت فتنته بيضاء مضيئة ، ومن كان هوا الكفر ، كانت فتنته سوداء مظلمة ، ثم قرأ هذه الآية ﴿إِنَّمَا يُنَذَّلُ إِنَّمَا يُنَذَّلُ مَنْ كَفَرَ بِالنُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكُمُ الظَّاغُونُ يُخْرِجُهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

اَللَّهُ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ اَنْ يَعْلَمَ اَنَّمَا يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُسْلِمُ اَذْ قَالَ إِنَّهُمْ رَبِّ الَّذِي يَعْتَقِي  
وَيُعَيِّنُ قَالَ اَنَا اُحْيِي وَأَمْبَيْتُ قَالَ إِبْرَاهِيمَ فَإِنَّكَ اللَّهُ يَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُ مِنَ الْمُشْرِقِ فَأَقْتَلْهُمْ مِنَ الْمُغْرِبِ  
فَبَهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّلَمِينَ

هذا الذي حاج إبراهيم في ربها هو ملك بابل نمرود بن كعنان بن كوش بن نوح ويقال نمرود بن ثالخ بن عبار بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح ، والأول قول مجاهد وغيره ، قال مجاهد : وملك الدنيا مشارقها ومغاربها أربعة : مؤمنان وكافران ، فالمؤمنان سليمان بن داود ، وذو القرنين ، والكافران : نمرود وبختنصر ، والله أعلم .

ومعنى قوله : «ألم تر» أي بقلبك يا محمد «أي الذي حاج إبراهيم في ربها» ، أي وجود ربه ، وذلك أنه أنكر أن يكون ثم إله غيره ، كما قال بعده فرعون لمثله «ما علمت لكم من إله غيري» [القصص : ٣٨] . وما حمله على هذا الطغيان والكفر الغليظ والمعاندة الشديدة ، إلا تجراه ، وطول مدتة في الملك ، وذلك أنه يقال : أنه مكث أربعمائة سنة في ملكه ، ولهذا قال : «أن آتاه الله الملك» وكان طلب من إبراهيم دليلاً ، على وجود رب الذي يدعو إليه ، فقال إبراهيم «رب الذي يحيي ويميت» أي إنما الدليل على وجوده ، حدوث هذه الأشياء ، المشاهدة بعد عدمها ، وعدمها بعد وجودها ، وهذا دليل على وجود الفاعل المختار ، ضرورة ، لأنها لم تحدث بنفسها ، فلا بد لها من موجب أوجدها ، وهو رب الذي أدعوه إلى عبادته وحده لا شريك له . فعند ذلك قال المحاج - وهو النمرود - «أنا أحسي وأميّت» . قال قتادة ومحمد بن إسحاق والسدي ، وغير واحد : وذلك أنه أوتى بالرجلين ، قد استحقا القتل فامر بقتل أحدهما - فيقتل ، وأمر بالعفو عن الآخر فلا يقتل ، فذلك معنى الإحياء والإماتة - والظاهر والله أعلم - أنه ما أراد هذا لأنه ليس جواباً لما قال إبراهيم ، ولا في معناه لأنه غير مانع لوجود الصانع ، وإنما أراد أن يدعى لنفسه هذا المقام عناداً ومكابرة ويوهم أنه الفاعل لذلك ، وأنه هو الذي يحيي ويميت ، كما اتفقى به فرعون في قوله «ما علمت لكم من إله غيري» ولهذا قال له إبراهيم ، لما ادعى هذه المكابرة : «فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فتأت بها من المغرب» أي إذا كنت كما تدعى من أنك تحسي وتميت ، فالذي يحيي ويميت هو الذي يتصرف في الوجود في خلق ذاته وتسخير كواكبها وحركاتها ، فهذه الشمس تبدو كل يوم من المشرق ، فإن كنت إليها كما ادعى تحسي وتتميت ، فأنت بها من المغرب ؟ فلما علم عجزه وانقطاعه وأنه لا يقدر على المكابرة في هذا

المقام، بهت، أي أخرين، فلا يتكلّم، وقامت عليه الحجة.

قال الله تعالى: «وَاللَّهُ لَا يَهْدِي النَّاسَ إِلَّا قَوْمًا ظَالِمِينَ» أي لا يلهمهم حجة ولا برهاناً، بل حجتهم داحضة عند ربهم، وعليهم غضب، ولهم عذاب شديد، وهذا التنزيل على هذا المعنى أحسن مما ذكره كثير من المنطقين، أن عدول إبراهيم عن المقام الأول إلى المقام الثاني انتقال من دليل إلى أوضح منه، ومنهم من قد يطلق عبارة رديةً ترديه وليس كما قالوه، بل المقام الأول يكون كالمقيدة للثاني، وبين بطلان ما ادعاه نمرود في الأول والثاني، والله الحمد والمنة.

وقد ذكر السدي أن هذه المنازرة كانت بين إبراهيم ونمرود بعد خروج إبراهيم من النار، ولم يكن اجتمع بالملك إلا في ذلك اليوم فجرت بينهما هذه المنازرة. وروى عبد الرزاق عن معمر، عن زيد بن أسلم أن النمرود كان عنده طعام وكان الناس يغدون إليه للميرة، فوفد إبراهيم في جملة من وفد للميرة، فكان بينهما هذه المنازرة، ولم يعط إبراهيم من الطعام كما أعطى الناس، بل خرج وليس معه شيء من الطعام، فلما قرب من أهله، عمد إلى كثيب من التراب فملا منه عدليه، وقال: أشغل أهلي عنِّي إذا قدمت عليهم، فلما قدم وضع رحاله، وجاء فاتكأ فنام، ففاقت امرأته سارة إلى العدلين فوجدهما ملائين طعاماً طيباً، فعملت طعاماً، فلما استيقظ إبراهيم وجد الذي قد أصلحوه، فقال: أنى لك هذا؟ قالت: من الذي جئت به، فعلم أنه رزق رزقهم الله عز وجل. قال زيد بن أسلم: وبعث الله إلى ذلك الملك الجبار ملكاً، يأمره بالإيمان بالله، فأبى عليه، ثم دعاه الثانية فأبى ثم الثالثة فأبى، وقال: أجمع جموعك وأجمع جموعي، فجمع النمرود جيشه وجنوده وقت طلوع الشمس، وأرسل الله عليهم باباً من العوض بحيث لم يروا عين الشمس، وسلطها الله عليهم فأكلت لحومهم ودماءهم، وتركتهم عظاماً بادية، ودخلت واحدة منها في منخر الملك، فمكثت في منخر الملك أربعين سنة، عذبه الله بها، فكان يضرب برأسه بالمرازب في هذه المدة، حتى أهلكه الله بها.

أَوْ كَالَّذِي مَكَرَ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عِرْوَشَهَا قَالَ أَنَّ يُحِيِّيَ هَذِهِ الْأَنْتَارِيَةَ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةً عَامَّاً ثُمَّ بَعْثَهُ قَالَ كَمْ لَيْتَ قَالَ لَيْتَ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ يَلَيْتَ مِائَةً عَاكِرًا فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَسْكُنْهُ وَانْظُرْ إِلَى حِمَاوِرَكَ وَيَنْجُوكَ إِيَّاكَ لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ تُنْشِرُهَا ثُمَّ تَكُسُوُهَا لِحَمَّاً فَلَمَّا تَبَيَّنَ كُلُّ شَيْءٍ

فَلَيْلٌ ٢٩٩

تقدّم قوله تعالى: «أَلم تر إلى الذين حاج إبراهيم في ربه» وهو في قوة قوله: هل رأيت مثل الذي حاج إبراهيم في ربه، ولهذا عطف عليه بقوله «أو كالذى مر على قرية وهي خاوية على عروشها» اختلفوا في هذا المار من هو، فروى ابن أبي حاتم، عن عصام بن رجاد، عن آدم بن أبي إياس، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن ناجية بن كعب، عن علي بن أبي طالب، أنه

قال : هو عزير . ورواه ابن جرير عن ناجية نفسه ، وحكاه ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس والحسن وقتادة والسدي وسليمان بن بريدة ، وهذا القول هو المشهور وقال وهب بن منبه ، وعبد الله بن عبيد ، هو أرميا بن حلقيا . قال محمد بن إسحاق ، عمن لا يتهم عن وهب بن منبه ، أنه قال : هو اسم الخضر عليه السلام . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي قال : سمعت سليمان بن محمد اليساري الجاري من أهل الجار<sup>(١)</sup> ابن عم مطرف ، قال سمعت سليمان يقول : إن رجلاً من أهل الشام يقول : إن الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه اسمه حزقيل بن بوار . وقال مجاهد بن جبر : هو رجل من بني إسرائيل ، وأما القرية فالمشهور أنها بيت المقدس ، مر عليها بعد تحرير بختنصر لها وقتل أهلها **﴿وهي خاوية﴾** أي ليس فيها أحد ، من قولهم خوت الدار تخوي خوياً .

قوله **﴿على عروشها﴾** أي ساقطة سقوفها وجدرانها على عرصاتها ، فوقف متفكراً فيما ألم بها إليه بعد العمارة العظيمة ، وقال **﴿أني يحيى هذه الله بعد موتها؟﴾** وذلك لما رأى من ثورها وشدة خرابها وبعدها عن العود إلى ما كانت عليه ، قال الله تعالى : **﴿فأماته الله مائة عام ثم بعثه﴾** قال : وعمرت البلاد بعد مضي سبعين سنة من موته ، وتكامل ساكنوها ، وتراجع بنو إسرائيل إليها ، فلما بعثه الله عز وجل بعد موته ، كان أول شيء أحياء الله فيه عينيه لينظر بهما إلى صنع الله فيه : كيف يحيي بدنـه ، فلما استقل سوياً **﴿قال الله له، أي بواسطـة الملك: ﴿كم لبـثـتـ قـالـ لـبـثـتـ يـوـمـأـ أوـ بـعـضـ يـوـمـ﴾** قال : وذلك أنه مات أول النهار ، ثم بعثه الله في آخر النهار ، فلما رأى الشمس باقية ظن أنها شمس ذلك اليوم ، فقال **﴿أـرـ بـعـضـ يـوـمـ، قـالـ بـلـ لـبـثـتـ مـائـةـ عـامـ فـانـظـرـ إـلـيـ طـعـامـكـ وـشـرـابـكـ لـمـ يـتـسـهـ﴾** وذلك أنه كان معه فيما ذكر عنـبـ وـتـينـ وـعـصـيرـ ، فوجـدهـ كـمـاـ تـقـدـمـ لمـ يـتـغـيـرـ مـنـ شـيـءـ ، لـاـ العـصـيرـ اـسـتـحـالـ ، وـلـاـ التـينـ حـمـضـ وـلـاـ أـنـتـنـ ، وـلـاـ العـنـبـ نـقـصـ **﴿وـانـظـرـ إـلـيـ حـمـارـكـ﴾** أي كيف يحييه الله عز وجل ، وأنت تنظر **﴿وـسـجـلـكـ آـيـةـ لـلـنـاسـ﴾** أي دليلاً على المعاد **﴿وـانـظـرـ إـلـيـ العـظـامـ كـيـفـ نـشـرـهـاـ﴾** أي نرفعها ، فيركب بعضها على بعض . وقد روى الحاكم في مستدركه من حديث نافع بن أبي نعيم عن إسماعيل بن حكيم ، عن خارجة بن زيد بن ثابت ، عن أبيه ، أن رسول الله ﷺ قرأ : **﴿كيف نشرـهـاـ﴾** بالزاي ثم قال : صحيح الإسناد . ولم يخرجاه . وقرئ **﴿نشرـهـاـ﴾** أي نحييها ، قاله مجاهد **﴿ثـمـ نـسـوـهـ لـحـمـ﴾** . وقال السدي وغيره تفرقـتـ عظامـ حمارـهـ حولـهـ يـمـيـناـ وـيـسـارـاـ ، فـنـظـرـ إـلـيـهـ وـهـيـ تـلـوحـ مـنـ بـيـاضـهـ ، فـبـعـثـ اللـهـ رـيـحاـ فـجـمـعـتـهـاـ مـنـ كـلـ مـوـضـعـ مـنـ تـلـكـ الـمـحـلـةـ ، ثـمـ رـكـبـ كـلـ عـظـمـ فـيـ مـوـضـعـهـ حـتـىـ صـارـ حـمـارـاـ قـائـماـ مـنـ عـظـامـ لـاحـمـ عـلـيـهـ ، ثـمـ كـسـاـهـ اللـهـ لـحـمـاـ وـعـصـيـاـ وـعـرـوـقـاـ وـجـلـداـ ، وـبـعـثـ اللـهـ مـلـكـاـ فـنـفـخـ فـيـ مـنـخـرـيـ الـحـمـارـ ، فـنـهـقـ بـإـذـنـ اللـهـ عـزـ وـجـلـ ، وـذـلـكـ كـلـ بـمـرـأـيـ مـنـ الـعـزـيزـ ، فـعـنـدـ ذـلـكـ لـمـ تـبـيـنـ لـهـ هـذـاـ كـلـهـ **﴿قـالـ أـعـلـمـ﴾**

(١) **الجار** : مدينة على ساحل البحر الأحمر . كانت على مسافة عشرين يوماً جنوبى أيلة وثلاثة أيام من الجففة . وقد ظلت موجودة إلى نهاية القرون الوسطى فحلّت محلها مدينة ينبع صوب الشمال . (دائرة المعارف الإسلامية ٣٩١ / ١٠)

أن الله على كل شيء قادرٌ<sup>﴿﴾</sup> أي أنا عالم بهذا، وقد رأيته عياناً، فأنا أعلم أهل زمانِي بذلك، وقرأ آخرون «قال أعلم» على أنه أمر له بالعلم.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمَ رَبِّ أُرْنِي كَيْفَ تُحِيِّ الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوْلَئِمْ تُؤْمِنُ مَعِنَّ قَالَ إِنِّي وَلَكِنْ لِيَطَمِّنَنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصَرِّهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءاً أَدْعُهُنَّ يَا تَبَّانَكَ سَعِيًّا وَأَغْنَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزَّزَ حَكْمِي<sup>﴿﴾</sup>

ذكروا السؤال إبراهيم عليه السلام، أسباباً منها أنه لما قال لنمرود «ربِّي الذي يحيي ويميت»<sup>﴿﴾</sup> أحب أن يترقى من علم اليقين بذلك، إلى عين اليقين، وأن يرى ذلك مشاهدة، فقال «ربِّي الذي يحيي كيف تحيي الموتى قال: أو لم تؤمن؟ قال: بلى، ولكن ليطمئن قلبي»<sup>﴿﴾</sup> فأما الحديث الذي رواه البخاري عند هذه الآية: حدثنا أحمد بن صالح، حدثنا ابن وهب، أخبرني يونس عن ابن شهاب، عن أبي سلمة، وسعيد عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ «نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال ربِّي كيف تحيي الموتى، قال: أو لم تؤمن؟ قال: بلى، ولكن ليطمئن قلبي». وكذا رواه مسلم عن حرملاة بن يحيى، عن وهب به، فليس المراد هبها بالشك، ما قد يفهمه من لا علم عنده بلا خلاف، وقد أجيبي عن هذا الحديث بأوجوبة أحدها<sup>(١)</sup>.

وقوله «قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك» اختلف المفسرون في هذه الأربعة ما هي، وإن كان لا طائل تحت تعينها، إذ لو كان في ذلك مهم لنص عليه القرآن، فروي عن ابن عباس، أنه قال هي الغرنوق والطاوس والديك والحمامة، وعنه أيضاً أنه أخذ وزراً ورائلاً وهو فرج النعام، وديكاً وطاوساً. وقال مجاهد وعكرمة: كانت حماماً وديكاً وطاوساً وغراباً. وقوله «فصرهن إليك»<sup>﴿﴾</sup> أي: قطعهن، قاله ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير وأبو مالك وأبو الأسود الدؤلي و وهب بن منبه والحسن والسدي وغيرهم. وقال العوفي عن ابن عباس «فصرهن إليك»<sup>﴿﴾</sup> أو ثقهن، فلما أو ثقهن ذبحهن، ثم جعل على كل جبل منها جزءاً، فذكروا أنه عمد إلى أربعة من الطير، فذبحهن ثم قطعهن وتنف ريشهن ومزقهن وخلط بعضهن ببعض، ثم جزأهن أجزاء، وجعل على كل جبل منها جزءاً، قيل أربعة أجبال، وقيل سبعة، قال ابن عباس: وأخذ رؤوسهن بيده ثم أمره الله عز وجل أن يدعوهن فدعاهن كما أمره الله عز وجل، فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش، والدم إلى الدم، واللحم إلى اللحم، والأجزاء من كل طائر، يتصل بعضها إلى

(١) هنا يياض في النسخ التي بأيدينا. وذكر البغوي من حديث إسماعيل بن يحيى المزني أنه قال: لم يشك النبي ﷺ ولا إبراهيم في أن الله قادر على أن يحيي الموتى وإنما شكَا في أنه هل يحييهما إلى ما سالا... وأورد الطبرى في تفسيره (٥٣ / ٣٥) (رأين في تأويل «ليطمئن قلبي» أحدهما يتوافق مع ما ذكرناه عن البغوى، والآخر — وهو ما اختاره ابن جرير — أن « تكون مسألته ربَّه ما سأله أن يريه من إحياء الموتى لعارض من الشيطان عرض في قلبه ». قارن أيضاً بتفسير القرطبي / ٣٩٧ — ٣٠٠).

بعض، حتى قام كل طائر على حدته، وأتيته يمشين سعياً ليكون أبلغ له في الرؤية التي سألهما، وجعل كل طائر يجيء ليأخذ رأسه الذي في يد إبراهيم عليه السلام، فإذا قدم له غير رأسه يأباه، فإذا قدم إليه رأسه تركب مع بقية جسده بحول الله وقوته، ولهذا قال ﴿واعلم أن الله عزيز حكيم﴾ أي عزيز لا يغلبه شيء، ولا يمتنع من شيء، وما شاء كان بلا ممانع، لأنه القاهر لكل شيء، حكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره.

قال عبد الرزاق: أخبرنا معمر عن أئوب في قوله ﴿ولكن ليطمئن قلبي﴾ قال: قال ابن عباس: ما في القرآن آية أرجى عندي منها.

وقال ابن جرير: حدثني محمد بن المثنى، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، سمعت زيد بن علي يحدث عن رجل عن سعيد بن المسيب قال: اتفق عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمرو بن العاص أن يجتمعوا قال: ونحن شيبة. فقال أحدهما لصاحبه: أي آية في كتاب الله أرجى عندك لهذه الأمة؟ فقال عبد الله بن عمرو قوله الله تعالى: ﴿فَلْ يَا عَبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ، لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً﴾ [ال Zimmerman: ٥٣]، فقال ابن عباس: أما إن كنت تقول هذا، فأنا أقول أرجى منها لهذه الأمة، قول إبراهيم ﴿رَبِّ أَرْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى؟﴾ قال: أَوْلَمْ تَؤْمِنْ؟ قال: بلى، ولكن ليطمئن قلبي﴾.

وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا أبي، حدثنا عبد الله بن صالح كاتب الليث، حدثني محمد بن أبي سلمة عن عمرو، حدثني ابن المنكدر أنه قال: التقى عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمرو بن العاص، فقال ابن عباس لابن عمرو بن العاص: أي آية في القرآن أرجى عندي، فقال عبد الله بن عمرو: قول الله عز وجل: ﴿فَلْ يَا عَبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا﴾ الآية، فقال ابن عباس: لكن أنا أقول قول الله عز وجل: ﴿وَإِذَا قَالَ إِبْرَاهِيمَ رَبِّ أَرْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوْلَمْ تَؤْمِنْ قَالَ بَلِّي﴾ فرضي من إبراهيم قوله ﴿بَلِّي﴾، قال فهذا لما يعرض في النفوس ويتوسوس به الشيطان، وهكذا رواه الحاكم في المستدرك عن أبي عبد الله محمد بن يعقوب بن الأحرم، عن إبراهيم بن عبد الله السعدي، عن بشير بن عمر الزهراني، عن عبد العزيز بن أبي سلمة بإسناده مثله، ثم قال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

مَثُلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمْثُلُ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ  
وَاللَّهُ يُضَعِّفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلَيْهِ [١٧]

هذا مثل ضربه الله تعالى لتضييف الثواب لمن أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته، وأن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، فقال ﴿مَثُلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾. قال سعيد بن جبير: يعني في طاعة الله. وقال مكحول: يعني به الإنفاق في الجهاد من رباط الخيل وإعداد السلاح وغير ذلك. وقال شبيب بن بشر، عن عكرمة، عن ابن عباس: الجهاد والحج تفسير ابن كثير/ ج ١/ ٤٣

يضعف الدرهم فيهما إلى سبعمائة ضعف، ولهذا قال تعالى: «كمثُل حبة أبنت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة» وهذا المثل أبلغ في النفوس من ذكر عدد السبعمائة، فإن هذا فيه إشارة إلى أن الأعمال الصالحة ينميهَا الله عز وجل لأصحابها، كما ينمي الزرع لمن بذره في الأرض الطيبة، وقد وردت السنة بتضييف الحسنة إلى سبعمائة ضعف.

قال الإمام أحمد<sup>(١)</sup>: حدثنا زياد بن الريبع أبو خداش، حدثنا واصل مولى ابن عيينة، عن بشار بن أبي سيف الجرمي، عن عياض بن غطيف، قال: دخلنا على أبي عبيدة [بن الجراح] نعوده من شكوى أصحابه بجنبه، وامرأته تحيفه قاعدة عند رأسه، قلت: كيف بات أبو عبيدة؟ قالت: والله لقد بات بأجر. قال أبو عبيدة: ما بات بأجر، وكان مقبلاً بوجهه على الحائط، فأقبل على القوم بوجهه وقال: ألا تسألوني عما قلت؟ قالوا: ما أعجبنا ما قلت فسألتك عنه، قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أنفق نفقة فاضلة في سبيل الله فسبعمائة، ومن أنفق على نفسه وأهله أو عاد مريضاً أو أماته أذى، فالحسنة بعشر أمثالها، والصوم جنة ما لم يخرقها، ومن ابتلاه الله عز وجل بباء في جسده فهو له حطة» وقد روى النسائي في الصوم بعضه من حديث واصل به، ومن وجه آخر موافقاً.

حديث آخر - قال الإمام أحمد<sup>(٢)</sup>: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة عن سليمان، سمعت أبا عمرو الشيباني عن أبي مسعود أن رجلاً تصدق بناقة مخطومة في سبيل الله، فقال رسول الله ﷺ «لتأنرين يوم القيمة سبعمائة ناقة مخطومة» ورواه مسلم والنسائي من حديث سليمان بن مهران عن الأعمش به، ولفظ مسلم: جاء رجل بناقة مخطومة فقال: يا رسول الله، هذه في سبيل الله، فقال: «لك بها يوم القيمة سبعمائة ناقة».

حديث آخر - قال أحمـد<sup>(٣)</sup>: حدثنا عمرو بن مجـمـع أبو المنذر الكندي، أخـبرـنا إبرـاهـيم الـهـجـرـيـ، عنـ أـبـيـ الـأـحـوـصـ عنـ عـبـدـ اللهـ بنـ مـسـعـودـ، قالـ: قـالـ رسولـ اللهـ ﷺ «إـنـ اللهـ جـعـلـ حـسـنـةـ اـبـنـ آـدـمـ إـلـىـ عـشـرـ أـمـثـالـهـ إـلـىـ سـبـعـمـائـةـ نـاقـةـ مـخـطـومـةـ» وـروـاهـ مـسـلـمـ وـالـنـسـائـيـ منـ حـدـيـثـ سـلـيـمانـ بـنـ مـهـرـانـ عـنـ الـأـعـمـشـ بـهـ، وـلـفـظـ مـسـلـمـ: جـاءـ رـجـلـ بـنـاقـةـ مـخـطـومـةـ فـقـالـ: يـاـ رـسـولـ اللهـ، فـرـحـتـانـ: فـرـحـةـ عـنـ إـفـطـارـهـ، وـفـرـحـةـ يـوـمـ الـقـيـامـةـ، وـلـخـلـوفـ فـمـ الصـائـمـ أـطـيـبـ عـنـدـ اللهـ مـنـ رـيحـ الـمسـكـ».

حديث آخر - قال أحمـد<sup>(٤)</sup>: أخـبرـناـ وـكـيـعـ، أخـبرـناـ الـأـعـمـشـ عـنـ أـبـيـ صـالـحـ، عـنـ أـبـيـ هـرـيرـةـ، قـالـ: قـالـ رسولـ اللهـ ﷺ «كـلـ عـمـلـ اـبـنـ آـدـمـ يـضـاعـفـ الـحـسـنـةـ بـعـشـرـ أـمـثـالـهـ إـلـىـ سـبـعـمـائـةـ ضـعـفـ إـلـىـ ماـشـاءـ اللهـ، يـقـولـ اللهـ إـلـاـ الصـومـ فـإـنـهـ لـيـ، وـأـنـاـ أـجـزـيـ بـهـ، يـدـعـ طـعـامـهـ وـشـرـابـهـ مـنـ أـجـلـيـ، وـلـلـصـائـمـ

(١) مـسـنـدـ أـحـمـدـ (جـ ١ـ صـ ١٩٥ـ).

(٢) المسند (ج ٤ ص ١٤١).

(٣) المسند (ج ١ ص ٤٤٦).

(٤) المسند (ج ٢ ص ٤٤٣).

فرحتان: فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه، ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، الصوم جنة، الصوم جنة» وكذا رواه مسلم<sup>(١)</sup> عن أبي بكر بن أبي شيبة وأبي سعيد الأشج كلاهما عن وكيع به.

حديث آخر - قال أَحْمَدُ<sup>(٢)</sup>: حَدَّثَنَا حَسِينُ بْنُ عَلَيْ، عَنْ زَائِدَةِ، عَنِ الرَّكِينِ، عَنْ يُسَيْرِ بْنِ عَمِيلَةَ، عَنْ خَرِيمَ بْنِ فَاتِكَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «مَنْ أَنْفَقَ نَفْقَةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ، تَضَعَّفُ بِسَبِيلِ اللَّهِ بِسَبْعِمَائَةِ ضَعْفٍ».

الحديث آخر - قال أبو داود<sup>(٣)</sup>: أَبْنَاءُنَا مُحَمَّدُ بْنُ عُمَرُو بْنُ السَّرْحِ، حَدَّثَنَا ابْنُ وَهْبٍ، عَنْ يَحِيَّى بْنِ أَيُوبَ وَسَعِيدَ بْنِ أَيُوبَ، عَنْ زَيْنَبَ بْنِ فَائِدَ، عَنْ سَهْلِ بْنِ مَعَادَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «إِنَّ الصَّلَاةَ وَالصَّيَامَ وَالذِّكْرَ يَضَعُّفُ عَلَى النَّفْقَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِسَبْعِمَائَةِ ضَعْفٍ».

الحديث آخر - قال ابن أبي حاتم: أَبْنَاءُنَا أَبْيَ، حَدَّثَنَا هَارُونَ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَرْوَانَ، حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي فَدِيكَ، عَنْ الْخَلِيلِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، عَنِ الْحَسَنِ عَنِ عُمَرَانَ بْنِ حَصِينَ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ «مَنْ أَرْسَلَ بِنَفْقَةٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَقَامَ فِي بَيْتِهِ، فَلَهُ بِكُلِّ دَرْهَمٍ سَبْعِمَائَةَ دَرْهَمٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ غَزَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَنْفَقَ فِي جَهَةِ ذَلِكَ، فَلَهُ بِكُلِّ دَرْهَمٍ سَبْعِمَائَةَ أَلْفِ دَرْهَمٍ، ثُمَّ تَلَّاهُ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿وَاللَّهُ يَضَعُّفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾، وَهَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ، وَقَدْ تَقْدَمَ حَدِيثُ أَبِي عُثْمَانَ النَّهَدِيِّ عَنْ أَبِي هَرِيرَةَ فِي تَضَعِيفِ الْحَسَنَةِ إِلَى أَلْفِيْ أَلْفِ حَسَنَةٍ، عَنْ قَوْلِهِ «مَنْ ذَا الَّذِي يَقْرَضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيَضَعُّفْهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرًا﴾ الْآيَةُ.

الحديث آخر - قال ابن مردوية: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبِيدِ اللَّهِ بْنِ الْعَسْكَرِيِّ الْبَزَازُ، أَخْبَرَنَا الْحَسَنُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ شَبِيبٍ، أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ خَالِدِ الدَّمْشِقِيِّ، أَخْبَرَنَا أَبْيَ عَنْ عِيسَى بْنِ الْمُسِيبِ، عَنْ نَافِعٍ، عَنْ أَبِي عَمْرٍ: لَمَّا نَزَّلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿مَثُلُ الَّذِينَ يَنْفَقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ «رَبُّ زَدَ أَمْتِي» قَالَ: فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷺ «مَنْ ذَا الَّذِي يَقْرَضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ قَالَ «رَبُّ زَدَ أَمْتِي» قَالَ: فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷺ «إِنَّمَا يَوْفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ»، وَقَدْ رَوَاهُ أَبُو حَاتَّمَ وَابْنُ حَبَّانَ فِي صَحِيحِهِ عَنْ حَاجِبِ بْنِ أَرْكِينَ، عَنْ أَبِي عَمْرٍ حَفْصِ بْنِ عَمْرٍ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْمَقْرِيِّ، عَنْ أَبِي إِسْمَاعِيلِ الْمَؤْدِبِ، عَنْ عِيسَى بْنِ الْمُسِيبِ، عَنْ نَافِعٍ، عَنْ أَبِي عَمْرٍ، فَذَكَرَهُ وَقَوْلُهُ هَهُنَا ﴿وَاللَّهُ يَضَعُّفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أَيْ بِحَسْبِ إِخْلَاصِهِ فِي عَمَلِهِ ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلَيْهِ﴾ أَيْ فَضْلُهِ وَاسِعٌ كَثِيرٌ مِّنْ خَلْقِهِ، عَلِيهِ بِمَنْ يَسْتَحِقُ وَمَنْ لَا يَسْتَحِقُ، سَبَّحَهُ وَبِحَمْدِهِ.

**الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَمَّ لَا يُتَّسِّعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنَّا وَلَا أَذَى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا**

(١) صحيح مسلم (صيام حديث ١٦٤).

(٢) المسند (ج ٤ ص ٣٤٥).

(٣) سنن أبي داود (جهاد باب ١٣).

حَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزُنُونَ ﴿١﴾ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ حَبْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتَّبِعُهَا أَذىٌ وَاللَّهُ عَنِ  
حَلِيمٌ ﴿٢﴾ يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ أَمْنَوْا لَا يُنْطَلِوْا صَدَقَتُكُمْ بِالْمَيْنَ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفَقُ مَا لَهُ رِءَاءُ النَّاسُ وَلَا  
يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمَ أَلَاخِرٌ فَمَثَلُهُ كَشْلٌ صَفَوَانٌ عَيْتَهُ تَرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابْنَ فَنَّ كَلْمٌ صَلَلٌ أَلَا يَمْدُرُونَ  
عَلَى شَغِيرٍ مَكَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّافِرِ بِنَ

يمدح تبارك وتعالى الذين ينفقون في سبيله، ثم لا يتبعون ما أنفقوا من الخيرات والصدقات  
مناً على من أعطوه، فلا يمنون به على أحد، ولا يمنون به لا بقول ولا بفعل.

وقوله «ولا أذى» أي لا يفعلون مع من أحسنوا إليه مكروهاً يحيطون به ما سلف من الإحسان، ثم وعدهم الله تعالى الجزاء الجليل على ذلك، فقال «لهم أجرهم عند ربهم» أي ثوابهم على الله لا على أحد سواه. «ولا خوف عليهم» أي فيما يستقبلونه من أحوال يوم القيمة. «ولا هم يحزنون» أي على ما خلفوه من الأولاد، ولا ما فاتهم من الحياة الدنيا وزهرتها لا يأسفون عليها، لأنهم قد صاروا إلى ما هو خير لهم من ذلك.

ثم قال تعالى: «قول معروف» أي من كلمة طيبة ودعاء لمسلم «ومغفرة» أي عفو وغفر عن ظلم قولي أو فعلي «خير من صدقة يتبعها أذى». قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا ابن فضيل قال: قرأت على معقل بن عبد الله، عن عمرو بن دينار، قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: ما من صدقة أحب إلى الله من قول معروف، ألم تسمع قوله «قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني» عن خلقه، «حليم» أي يحمل ويغفر ويصفح ويتجاوز عنهم.

وقد وردت الأحاديث بالنهي عن المن في الصدقة، ففي صحيح مسلم<sup>(١)</sup> من حديث شعبة عن الأعمش، عن سليمان بن مسهر، عن خرشة بن العحر، عن أبي ذر، قال: قال رسول الله ﷺ «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيمة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم: المنان بما أعطى، والمسلب<sup>(٢)</sup> إزاره، والمنتفق سلطته بالحلف الكاذب».

وقال ابن مردويه: حدثنا أحمد بن عثمان بن يحيى، أخبرنا عثمان بن محمد الدوري، أخبرنا هشيم بن خارجة، أخبرنا سليمان بن عقبة، عن يونس بن ميسرة، عن أبي إدریس، عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ قال «لا يدخل الجنة عاق، ولا منان، ولا مدمن حمر، ولا مكذب بقدر».

وروى أحمد وابن ماجه من حديث يونس بن ميسرة نحوه ثم روى ابن مردويه وابن حبان والحاكم في مستدركه، والنمسائي من حديث عبد الله بن يسار الأعرج، عن سالم بن عبد الله بن

(١) صحيح مسلم (إيمان حديث ١٧١).

(٢) أي العجاز طرفه خيلاء.

عمر، عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ «ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيمة: العاق لوالديه، ومدمن خمر، والمنان بما أعطي» وقد روى النسائي، عن مالك بن سعد، عن عمه روح بن عبادة، عن عتاب بن بشير، عن خصيف الجزري، عن مجاهد عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال «لا يدخل الجنة مدمن خمر، ولا عاق لوالديه، ولا منان»، وقد رواه ابن أبي حاتم عن الحسن بن المنهال، عن محمد بن عبد الله بن عصار الموصلي، عن عتاب، عن خصيف، عن مجاهد، عن ابن عباس، ورواه النسائي من حديث عبد الكريم بن مالك الجزري، عن مجاهد قوله، وقد روي عن مجاهد، عن أبي سعيد، وعن مجاهد عن أبي هريرة نحوه، ولهذا قال الله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى» فأخبر أن الصدقة تبطل بما يتبعها من المن والأذى، فما يفي ثواب الصدقة بخطيئة المن والأذى، ثم قال تعالى: «كالذى ينفق ماله رباء الناس» أي لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كما تبطل صدقة من راءى بها الناس، فأظهر لهم أنه يريد وجه الله، وإنما قصده مدح الناس له أو شهرته بالصفات الجميلة ليشكرون بين الناس، أو يقال إنه كريم، ونحو ذلك من المقاصد الدنيوية، مع قطع نظره عن معاملة الله تعالى وابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه، ولهذا قال «ولا يؤمن بالله واليوم الآخر»، ثم ضرب تعالى مثل ذلك المرائي بإنفاقه، قال الصحاح: والذي يتبع نفقة مناً أو أذى، فقال «فمثله كمثل صفوان» وهو جمع صفوانة، فمنهم من يقول: الصفوان يستعمل مفرداً أيضاً وهو الصفا وهو الصخر الأملس، «عليه تراب فأصابه وابل» وهو المطر الشديد «فتركه صلداً» أي فترك الوابل ذلك الصفوان صلداً أي أملس يابساً، أي لا شيء عليه من ذلك التراب، بل قد ذهب كله، أي وكذلك أعمال المرائين تذهب وتض محل عند الله وإن ظهر لهم أعمال فيما يرى الناس كالتراب، ولهذا قال «لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدى القوم الكافرين»

وَمَثْلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ أَبْتِغَاءَ مَرْضَاكَاتِ اللَّهِ وَتَبَيَّنَتِ مِنْ أَنفُسِهِمْ كَمْشَلٌ جَنَّكَمْ بِرَبِّوَةٍ أَصَابَهَا وَأَبْلُفَعَانَتْ أَكْلُلَهَا ضَعَفَيْنِ إِنَّمَا لَمْ يُصْبِحَهَا وَأَبْلُفَعَانَ فَطَلَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ

وهذا مثل المؤمنين المنافقين أموالهم ابتغاء مرضاة الله عنهم في ذلك، «وتبييناً من أنفسهم» أي وهم متتحققون متثبتون أن الله سيجيزهم على ذلك أوفر الجزاء، ونظير هذا في معنى قوله عليه السلام في الحديث الصحيح المتفق على صحته «من صام رمضان إيماناً واحتساباً» أي يؤمن أن الله شرعه ويحتسب عند الله ثوابه، قال الشعبي: «وتبييناً من أنفسهم» أي تصدقواً ويقيناً، وكذا قال قتادة وأبو صالح وابن زيد، واختاره ابن جرير وقال مجاهد والحسن: أي يتثبتون أين يضعون صدقاتهم.

وقوله «كمثل جنة بربوة»، وهو عند الجمهور: المكان المرتفع من الأرض، وزاد ابن

عباس والضحاك وتجري<sup>(١)</sup> فيه الأنهر. قال ابن جرير<sup>(٢)</sup> رحمه الله: وفي الربوة ثلاث لغات: هن ثلاثة قراءات: بضم الراء، وبها قرأ عامة أهل المدينة والمحجاز والعراق، وفتحها وهي قراءة بعض أهل الشام والكوفة، ويقال إنها لغة تميم، وكسر الراء، ويدرك أنها قراءة ابن عباس<sup>(٣)</sup>.

وقوله **﴿أصابها وابل﴾** وهو المطر الشديد، كما تقدم، فاتت **﴿كلها﴾** أي ثمرتها **﴿ضعفين﴾** أي بالنسبة إلى غيرها من الجنان **﴿فإن لم يصبها وابل فطل﴾** قال الضحاك: هو الرذاذ وهو اللين من المطر، أي هذه الجنة بهذه الربوة لا تتحمل أبداً لأنها إن لم يصبها وابل فطل، وأياً ما كان فهو كفايتها، وكذلك عمل المؤمن لا يبور أبداً، بل يتقبله الله ويكتبه وينمي كل عامل بحسبه، ولهذا قال **﴿والله بما تعملون بصير﴾** أي لا يخفى عليه من أعمال عباده شيء.

**أَيُّودُ أَحَدَكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحْشِلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَعْتِهَا أَلَّا تَهُرُّ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ  
الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكَبَرُ وَلَمْ يُذْرِيْهُ ضَعْفَاءَ فَاصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ تَارٌ فَحَتَّرَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّثُ اللَّهُ  
لَكُمُ الْآيَتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ**

قال البخاري<sup>(٤)</sup> عند تفسير هذه الآية: حدثنا إبراهيم بن موسى، حدثنا هشام هو ابن يوسف، عن ابن جريج سمعت عبد الله بن أبي مليكة، يحدث عن ابن عباس، قال وسمعت أخيه أبا بكر بن أبي مليكة يحدث عن عبيد بن عمير، قال: قال عمر بن الخطاب يوماً لأصحاب النبي ﷺ: فيم ترون هذه الآية نزلت؟ **﴿أَيُّودُ أَحَدَكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحْشِلٍ وَأَعْنَابٍ﴾** قالوا: الله أعلم. فغضب عمر، فقال: قولوا: نعلم أو لا نعلم، فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين، فقال عمر: يا ابن أخي قل ولا تحقر نفسك، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: ضربت مثلاً لعمل، قال عمر: أي عمل؟ قال ابن عباس لعمل، قال عمر: لرجل غني يعمل بطاعة الله، ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي، حتى أغرق أعماله، ثم رواه البخاري عن الحسن بن محمد الزعفراني، عن حجاج بن محمد الأعور، عن ابن جريج، فذكره وهو من أفراد البخاري رحمه الله، وفي هذا الحديث كفاية في تفسير هذه الآية، وتبيين ما فيها من المثل بعمل من أحسن العمل أولاً ثم بعد ذلك انعكس سيره فبدل الحسنات بالسيئات عياذاً بالله من ذلك، فأبطل بعمله الثاني ما أسفله فيما تقدم من الصالح، واحتاج إلى شيء من الأول في أضيق

(١) في القرطبي (٣١٥/٢) عن ابن عباس: «الربوة المكان المرتفع الذي لا تجري فيه الأنهر، لأن قوله **﴿أصابها وابل﴾** إلى آخر الآية يدل على أنها ليس فيها ماءً جار، ولم يرد جنس التي تجري فيها الأنهر».

(٢) تفسير الطبرى ٧١/٣.

(٣) وذكر القرطبي أن فيها خمس لغات، فزاد على الثلاث الواردة هنا: ربابة (فتح الراء) قال: وبها قرأ أبو جعفر وأبو عبد الرحمن، وربابة (كسر الراء) قال: وبها قرأ الأشهب العقيلي.

(٤) صحيح البخاري (تفسير سورة ٢ باب ١٩).

الأحوال، فلم يحصل منه شيء وحانه أحوج ما كان إليه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَصَابَهُ الْكِبْرُ وَلَهُ ذُرْيَةٌ ضَعْفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ﴾ وهو الريح الشديد ﴿فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتِ﴾ أي أحرق ثمارها وأباد أشجارها، فـأي حال يكون حاله؟

وقد روى ابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس، قال: ضرب الله مثلاً حسناً وكل أمثاله حسن، قال ﴿أَيُّودُ أَحَدَكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَخْلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الشَّمَرَاتِ﴾ يقول صنعه في شبيته ﴿وَأَصَابَهُ الْكِبْرُ﴾ وولده وذريته ضعاف عند آخر عمره، فجاءه إعصار فيه نار فاحترق بستانه، فلم يكن عنده قوة أن يغرس مثله، ولم يكن عند نسله خير يعودون به عليه، وكذلك الكافر يكون يوم القيمة إذا رداً إلى الله عز وجل، ليس له خير فيستعتبر، كما ليس لهذا قوة فيغرس مثل بستانه، ولا يجده قدم لنفسه خيراً يعود عليه، كما لم يغنم عن هذا ولده، وحرم أجره عند أفق ما كان إليه، كما حرم هذا جنته عندما كان أفق ما كان إليها عند كبره وضعف ذريته. وهكذا روى الحاكم في مستدركه أن رسول الله ﷺ كان يقول في دعائه «اللهم اجعل أوسع رزقك عليّ عند كبر سني وانقضاء عمري» ولهذا قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعِلَّكُمْ تَتَكَبَّرُونَ﴾ أي تعتبرون وتفهمون الأمثال والمعاني وتنزلونها على المراد منها. كما قال تعالى: ﴿وَتَلِكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

**يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ أَمْنَوْا أَنْفَقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبُوكُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيْمِمُوا الْخَيْثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَا سُتُّمْ بِإِخْذِيْهِ إِلَّا أَنْ تُنْفِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوْا أَنَّ اللَّهَ غَنِيْ حَمِيدٌ ﴿الْشَّيْطَانُ يَعْدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمُ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعْدُكُمُ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلَيْمٌ ﴾ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتِ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتَتِ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَدْكُرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَيْ ﴿**

يأمر تعالى: عباده المؤمنين بالإإنفاق والمراد به الصدقة هنا، قاله ابن عباس: من طيبات ما رزقهم من الأموال التي اكتسبوها، قال مجاهد: يعني التجارة بتيسيره إليها لهم، وقال علي والسدي ﴿مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ يعني الذهب والفضة، ومن الشمار والزرع التي أبتها لهم من الأرض، قال ابن عباس: أمرهم بالإإنفاق من أطيب المال وأجوده وأنفسه، ونهاهم عن التصدق برذالة المال ودنيته وهو خبيثه، فإن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَيْمِمُوا الْخَيْثَ﴾ أي تقصدوا الخبيث ﴿مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَا سُتُّمْ بِإِخْذِيْهِ﴾ أي لو أعطيتموه ما أخذتموه، إلا أن تتغاضوا فيه، فالله أغنى عنه منكم، فلا تجعلوا الله ما تكرهون، وقيل معناه ﴿وَلَا تَيْمِمُوا الْخَيْثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾ أي لا تعدلوا عن المال الحلال وتقصدوا إلى الحرام فتجعلوا نفقتكم منه.

ويذكر هنا الحديث الذي رواه الإمام أحمد<sup>(١)</sup>: حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا إسحاق، عن الصباح بن محمد عن مرة الهمданى، عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ «إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا لمن أحب، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه، والذي نفسي بيده لا يسلم عبد، حتى يسلم قلبه ولسانه ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه قالوا وما بوائقه يا نبي الله؟ قال غشه وظلمه، ولا يكسب عبد مالاً من حرام فينفق منه فيبارك له فيه ولا يتصدق فيقبل منه ولا يتركه خلف ظهره إلا كان إلى النار، إن الله لا يمحو السيء بالسيء، ولكن يمحو السيء بالحسن، إن الخبيث لا يمحو الخبيث» وال الصحيح القول الأول.

قال ابن جرير<sup>(٢)</sup> رحمه الله: حدثنا الحسين بن عمرو العنزي، حدثني أبي عن أسباط عن السدي، عن عدي بن ثابت عن البراء بن عازب رضي الله عنه، في قول الله ﷺ «يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم وما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون» الآية، قال: نزلت في الأنصار، كانت الأنصار إذا كانت أيام جذاد النخل أخرجت من حيطانها أقنان البسر فعلقه على جبل، بين الأسطوانتين في مسجد رسول الله ﷺ، فيأكل فقراء المهاجرين منه، فيعدم الرجل منهم إلى الحشف فيدخله مع أقنان البسر، يظن أن ذلك جائز، فأنزل الله فيمن فعل ذلك «ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون»، ثم رواه ابن جرير وابن ماجه وابن مردويه، والحاكم في مستدركه من طريق السدي، عن عدي بن ثابت عن البراء بنحوه، وقال الحاكم: صحيح على شرط البخاري ومسلم، ولم يخرجاه.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشجع، حدثنا عبيد الله، عن إسرائيل عن السدي عن أبي مالك عن البراء رضي الله عنه، «ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه» قال: نزلت علينا، كنا أصحاب نخل فكان الرجل يأتي من نخله بقدر كثرته وقلته، فيأتي الرجل بالقنو فيعلقه في المسجد، وكان أهل الصفة ليس لهم طعام فكان أحدهم إذا جاء فضربه بعضاه فسقط منه البسر والتمر، فيأكل، وكان أناس من لا يرغبون في الخير يأتي بالقنو فيه الحشف والشيش، فيأتي بالقنو قد انكسر فيعلقه، فنزلت «ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه» قال: لو أن أحدكم أهدى له مثل ما أعطي ما أخذه إلا على إغماض وعياء، فكنا بعد ذلك يحيى الرجل منا بصالح ما عنده، وكذا رواه الترمذى عن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى، عن عبيد الله هو ابن موسى العبسى، عن إسرائيل عن السدي، وهو إسماعيل بن عبد الرحمن، عن أبي مالك الغفارى واسمه غروان، عن البراء فذكر نحوه، ثم قال وهذا حديث حسن غريب.

(١) المسند (ج ١ ص ٣٨٧).

(٢) تفسير الطبرى ٨٢ / ٣.

وقال ابن أبي حاتم، حدثنا أبي، حدثنا أبو الوليد، حدثنا سليمان بن كثير، عن الزهري عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف عن أبيه، أن رسول الله ﷺ، نهى عن لونين من التمر: **الجعرور<sup>(١)</sup>** والحبق، وكان الناس يتيممون شرار ثمارهم، ثم يخرجونها في الصدقة، فنزلت **﴿ولا تيمموا** **الخيث منه تنفقون﴾** ورواه أبو داود من حديث سفيان بن حسين عن الزهري، ثم قال: أنسدَّه أبو الوليد عن سليمان بن كثير عن الزهري، ولفظه نهى رسول الله ﷺ عن الجعرور ولون الحبق، أن يؤخذ في الصدقة، وقد روى النسائي هذا الحديث من طريق عبد الجليل بن حميد اليحصبي، عن الزهري، عن أبي أمامة، ولم يقل عن أبيه، فذكر نحوه، وكذا رواه ابن وهب، عن عبد الجليل.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا يحيى بن المغيرة، حدثنا جرير عن عطاء بن السائب، عن عبد الله بن مغفل، في هذه الآية **﴿ولا تيمموا الخيث منه تنفقون﴾** قال: كسب المسلم لا يكون خبيثاً، ولكن لا يصدق بالحشف والدرهم الزييف<sup>(٢)</sup> وما لا خير فيه.

وقال الإمام أحمد<sup>(٣)</sup>: حدثنا أبو سعيد، حدثنا حماد بن سلمة، عن حماد هو ابن أبي سليمان، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عائشة، قالت: أتي رسول الله ﷺ بضب، فلم يأكله ولم ينه عنه، قلت: يا رسول الله، نطعمه المساكين؟ قال «لا تطعموهم مما لا تأكلون». ثم رواه عن عفان عن حماد بن سلمة به؛ فقلت: يا رسول الله، ألا أطعمه المساكين؟ قال «لا تطعموهم مما لا تأكلون».

وقال الثوري، عن السدي، عن أبي مالك، عن البراء **﴿ولستم باخذيه إلا أن تغمضوا فيه﴾** يقول: لو كان لرجل على رجل فأعطيه ذلك، لم يأخذ إلا أن يرى أنه قد نقصه من حقه، رواه ابن جرير، وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس **﴿ولستم باخذيه إلا أن تغمضوا فيه﴾** يقول: لو كان لكم على أحد حق فجاءكم بحق دون حقوقكم، لم تأخذوه بحساب الجيد حتى تقصوه، قال فذلك قوله: **﴿إلا أن تغمضوا فيه﴾** فكيف ترضون لي ما لا ترضون لأنفسكم، وحقي عليكم من أطيب أموالكم وأنفسه؟ رواه ابن أبي حاتم، وابن جرير، وزاد: وهو قوله: **﴿لن تناولوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾** [آل عمران: ٩٢] ثم روي من طريق العوفي وغيره، عن ابن عباس، نحو ذلك، وكذا ذكره غير واحد.

وقوله: **﴿واعلموا أن الله غني حميد﴾** أي وإن أمركم بالصدقات وبالطيب منها، فهو غني عنها، وما ذاك إلا أن يساوي الغني الفقر، كقوله **﴿لن ينال الله لحومها ولا دماءها ولكن يناله﴾**

(١) **الجعرور والحبق:** من أردا أنواع التمر.

(٢) **الدرهم الزييف، والدرهم الزيوف:** التي تكون نسبة الفضة فيها منقوصة، أي أقل من المقدار الشرعي والمتعارف عليه.

(٣) **المسنن** (ج ٦ ص ١٠٥).

القوى منكم» [الحج: ٣٧] وهو غني عن جميع خلقه وجميع خلقه فقراء إليه، وهو واسع الفضل، لا ينفعه ما لديه، فمن تصدق بصدقه من كسب طيب، فليعلم أن الله غني واسع العطاء، كريم جود، ويجزيه بها، ويضاعفها له أضعافاً كثيرة، من يفرض غير عديم ولا ظلوم، وهو الحميد أي المحمود في جميع أفعاله وأقواله وشرعه وقدره، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

وقوله: «الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً والله واسع عليم» قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا هناد بن السري، حدثنا أبو الأحوص، عن عطاء بن السائب، عن مرة الهمданى، عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن للشيطان للّمَّةَ بابن آدم وللملك لِمَةٍ<sup>(١)</sup>، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتکذیب بالحق، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير والتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله، فليحمد الله، ومن وجد الأخرى فليتعوذ من الشيطان» ثم قرأ «الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً» الآية، وهكذا رواه الترمذى والنسائى فى كتابى التفسير من سننهما جمیعاً، عن هناد بن السري . وأخرجه ابن حبان فى صحيحه، عن أبي يعلى الموصلى، عن هناد به ، وقال الترمذى : حسن غريب ، وهو حديث أبي الأحوص ، يعني سلام بن سليم ، لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديثه ، كذلك قال وقد رواه أبو بكر بن مردويه فى تفسيره ، عن محمد بن أحمد؛ عن محمد بن عبد الله بن وسعة ، عن هارون الفروي ، عن أبي ضمرة ، عن ابن شهاب ، عن عبد الله بن عبد الله ، عن ابن مسعود مرفوعاً نحوه؛ ولكن رواه مسرور عن عطاء بن السائب ، عن أبي الأحوص عوف بن مالك بن نضلة ، عن ابن مسعود ، فجعله من قوله ، والله أعلم .

ومعنى قول تعالى: «الشيطان يعدكم الفقر» أي يخوكم الفقر لتمسكونا ما بأيديكم فلا تنفعوه في مرضاه الله . «ويأمركم بالفحشاء» أي مع نهيه إليكم عن الإنفاق خشية الإلأم ، يأمركم بالمعاصي والمأثم والمحارم ومخالفه الخلاق، قال تعالى: «والله يعدكم مغفرة منه» أي في مقابلة ما أمركم الشيطان بالفحشاء . «وفضلاً» أي في مقابلة ما خوكم الشيطان من الفقر «والله واسع عليم»

وقوله: «يؤتي الحكمة من يشاء» قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس: يعني المعرفة بالقرآن ، ناسخه ومنسوخه ، ومحكمه ومتشابهه ، ومقدمه ومؤخره ، وحاله وحرامه ، وأمثاله ، وروى جوير عن الضحاك عن ابن عباس مرفوعاً «الحكمة القرآن» يعني تفسيره ، قال ابن عباس: فإنه قد قرأ البر والفاجر ، رواه ابن مردويه ، وقال ابن أبي نجيح ، عن مجاهد: يعني بالحكمة الإصابة في القول ، وقال ليث بن أبي سليم ، عن مجاهد «يؤتي الحكمة من يشاء»: ليست بالنبوة ، ولكنه العلم والفقه والقرآن ، وقال أبو العالية: الحكمة خشية الله ، فإن خشية الله رأس

(١) اللّمَّةَ: التهّمة والخطرة في القلب، أو الدّنَّ.

كل حكمة، وقد روى ابن مارديه من طريق بقية عن عثمان ابن زفر الجهنمي، عن أبي عمارة الأنصاري، عن ابن مسعود مرفوعاً «رأس الحكمة مخافة الله» وقال أبو العالية في رواية عنه: الحكمة الكتاب والفهم، وقال إبراهيم التخعي، الحكمة الفهم، وقال أبو مالك: الحكمة السنة، وقال ابن وهب، عن مالك، قال زيد بن أسلم: الحكمة العقل، قال مالك: وإنه ليقع في قلبي أن الحكمة هو الفقه في دين الله، وأمر يدخله الله في القلوب من رحمته وفضله، ومما يبين ذلك أنك تجد الرجل عاقلاً في أمر الدنيا إذا نظر فيها، وتجد آخر ضعيفاً في أمر دنياه، عالماً بأمر دينه بصيراً به، يؤتى الله إياه ويحرمه هذا، فالحكمة الفقه في دين الله، وقال السدي: الحكمة النبوة.

والصحيح أن الحكمة كما قال الجمهور: لا تختص بالنبوة بل هي أعم منها، وأعلاها النبوة، والرسالة أخص، ولكن لأنبياء حظ من الخير على سبيل التبع، كما جاء في الأحاديث «من حفظ القرآن فقد أدرجت النبوة بين كتب فيه غير أنه لا يوحى إليه» رواه وكيع بن الجراح في تفسيره، عن إسماعيل بن رافع، عن رجل لم يسمه، عن عبد الله بن عمر - قوله: وقال الإمام أحمد<sup>(١)</sup>: حدثنا وكيع ويزيد، قالا: حدثنا إسماعيل يعني ابن أبي خالد عن قيس وهو ابن أبي حازم، عن ابن مسعود، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه واله وسلم، يقول «لا حسد إلا في الثنين: رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها ويعملها» وهكذا رواه البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجه من طرق متعددة عن إسماعيل بن أبي حازم به.

وقوله: ﴿وَمَا يذْكُرُ إِلَّا أُونِتُوا الْأَلْبَاب﴾ أي وما ينتفع بالموعظة والتذكرة إلا من له لب وعقل، يعي به الخطاب ومعنى الكلام

وَمَا آنفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ كَثْرَتْ مِنْ نَسْرَنِ فَلَيَكُنْ أَنْكَهُ سِرْعَةً بِعَسْمَهُ وَمَا لَنْظَلْتُمْ مِنْ أَنْسَابِكُمْ إِلَّا  
بُعْدًا وَأَنْصَدْتُمْ فِي عِصْمَاهُ وَلَمْ يَحْمُواهَا وَتَؤْتُوهَا الْمُسْفَرَاءَ فَهُوَ خَيْرُكُمْ وَيَكْفِرُ عَنْكُمْ مِنْ  
كُلِّ أَنْسَابِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ حَسِيرٌ

يخبر تعالى بأنه عالم يجمع ما يفعله العاملون من الخيرات من النفقات والمنتزورات، وتضمن ذلك مجازاته على ذلك أوفى الجزاء للعاملين لذلك ابتغاء وجهه ورجاء موعده، وتوعده من لا يعمل بطاعته، بل خالف أمره، وكذب خبره، وعبد معه غيره، فقال ﴿وَمَا لِلظَّالَمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ أي يوم القيمة ينتقدونهم من عذاب الله ونقمته.

وقوله: ﴿إِنْ تَبْدِلُ الصَّدَقَاتِ فَتُنَعِّبُنَا هِيَ﴾ أي إن أظهروا مهداً فنعم شيء هي. قوله: ﴿وَإِنْ تَحْنُوْهَا وَتَؤْتُوهَا الْفَقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرُ لَكُمْ﴾ فيه دلالة على أن إسرار الصدقة أفضل من إظهارها، لأنه

(١) المسند (ج ١ ص ٤٣٢).

أبعد عن الرياء إلا أن يترتب على الإظهار مصلحة راجحة من اقتداء الناس به، فيكون أفضل من هذه الحيثية.

وقال رسول الله ﷺ «الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة والممسر بالقرآن كالمسر بالصدقة» والأصل أن الإسرار أفضل لهذه الآية، ولما ثبت في الصحيحين<sup>(١)</sup> عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ «سبعة يظلمهم الله في ظله، يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجلان تحابا في الله، اجتمعوا عليه وتفرقوا عليه، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يرجع إليه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله رب العالمين، ورجل تصدق بصدقه فأخفها حتى لا تعلم شماليه ما تنفق بيمينه».

وقال الإمام أحمد<sup>(٢)</sup>: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا العوام بن حوشب، عن سليمان بن أبي سليمان، عن أنس بن مالك، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: قال «لما خلق الله الأرض جعلت تميد، فخلق الجبال فألقاها عليها، فاستقرت، فتعجبت الملائكة من خلق الله الجبال فقالت: يا رب هل في خلقك شيء أشد من الجبال؟ قال نعم الحديد. قالت: يا رب فهل من خلقك شيء أشد من الحديد؟ قال: نعم النار، قالت: يارب فهل من خلقك شيء أشد من النار؟ قال: نعم الماء. قالت: يارب فهل من خلقك شيء أشد من الماء؟ قال: نعم الريح؟ قالت: يارب فهل من خلقك شيء أشد من الريح؟ قال: نعم ابن آدم يتصدق بيمنيه فيخفيها من شماله».

وقد ذكرنا في فضل آية الكرسي عن أبي ذر، قال: قلت يا رسول الله، أي الصدقة أفضل؟ قال «سر إلى فقير أو جهد من مقل» رواه أحمد<sup>(٣)</sup> ورواه ابن أبي حاتم من طريق علي بن يزيد عن القاسم، عن أبي أمامة، عن أبي ذر، فذكره وزاد: ثم نزع<sup>(٤)</sup> بهذه الآية «إن تبدوا الصدقات فنعمما هي وإن تخفوها وتؤتواها القراء فهو خير لكم» الآية.

وفي الحديث المروي «صدقة السر تطفئ غضب الرب عز وجل».

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا الحسين بن زياد المحاربي مؤدب محارب، أخبرنا موسى بن عمير عن عامر الشعبي في قوله: «إن تبدوا الصدقات فنعمما هي وإن تخفوها وتؤتواها القراء فهو خير لكم» قال: أنزلت في أبي بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما، أما عمر فجاء بنصف ماله حتى دفعه إلى النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ «ما خلفت وراءك لأهلك يا عمر؟» قال:

(١) صحيح البخاري (اذان باب ٣٦) وصحیح مسلم (زکاة حديث ٩١).

(٢) المسند (ج ٣ ص ١٢٤).

(٣) المسند (ج ٥ ص ١٧٨).

(٤) أي تمثل بهذه الآية.

خلفت لهم نصف مالي، وأما أبو بكر فجاء بمالي كله يكاد أن يخفى من نفسه، حتى دفعه إلى النبي ﷺ فقال له النبي : «ما خلفت وراءك لأهلك يا أبو بكر؟» فقال : عدة الله وعدة رسوله، فبكي عمر رضي الله عنه وقال : بأبي أنت وأمي يا أبو بكر، والله ما استبقنا إلى باب خير قط إلا كنت سابقاً، وهذا الحديث روى من وجه آخر عن عمر رضي الله عنه، وإنما أوردناه هنا لقول الشعبي : إن الآية نزلت في ذلك، ثم إن الآية عامة في أن إخفاء الصدقة أفضل، سواء كانت مفروضة أو مندوحة، لكن روى ابن جرير من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسيره هذه الآية، قال : جعل الله صدقة السر في التطاوع تفضل علانيتها فقال بسبعين ضعفاً، وجعل صدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها فقال بخمسة وعشرين ضعفاً.

وقوله : «ويكفر عنكم من سبئاتكم» أي بدل الصدقات ولا سيما إذا كانت سراً، يحصل لكم الخير في رفع الدرجات ويکفر عنكم السبئات. وقد قرئ ويکفر بالجزم عطفاً على محل جواب الشرط وهو قوله : «فَعِمَا هِيَ» كقوله : «فَأَصْدِقْ وَأَكْنِ» [المنافقون : ١٠] وقوله : «وَاللَّهُ بِمَا تَعْلَمُونَ خَبِيرٌ» أي لا يخفى عليه من ذلك شيء وسيجيزيكم عليه.

﴿لَيَسْ عَلَيْكُمْ هُدًى نَّهُمْ وَلَا يَكُنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا نَفْسٌ كُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا أَبْتِكَاهُ وَجْهُ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُؤْفَ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾  
 لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَكِينَ اللَّهِ لَا يَسْتَطِعُونَ ضَرَبًا فِي الْأَرْضِ  
 يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنْ أَتَعْفَفُ تَعْرِفُهُمْ سِيمَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ النَّاسَ إِلَمْحَافًا  
 وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيهِمْ ﴾  
 الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِإِيمَانٍ وَأَنْتَهُمْ سِرَّاً  
 وَعَلَانِيَةً فَأَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا حَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾  
 ﴿٧﴾

قال أبو عبد الرحمن النسائي : أئبنا محمد بن عبد السلام بن عبد الرحيم، أئبنا الفريابي حدثنا سفيان عن الأعمش، عن جعفر بن إيس، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال : كانوا يکرون أن يرضخوا لأنسابهم من المشركين، فسألوا فرخوس لهم، فنزلت هذه الآية ﴿ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء، وما تنفقوا من خير فلا نفسكم، وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله، وما تنفقوا من خير يوفى إليكم وأنتم لا تظلمون﴾. وكذا رواه أبو حذيفة وابن المبارك وأبو أحمد الزبيدي وأبو داود الحضرمي عن سفيان، وهو الثوري به، وقال ابن أبي حاتم : أئبنا أحمد بن القاسم بن عطية، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن يعني الدشتكي، حدثني أبي عن أبيه، حدثنا أشعث بن إسحاق عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ أنه كان يأمر بأن لا يتصدق إلا على أهل الإسلام، حتى نزلت هذه الآية ﴿ليس عليك هداهم﴾ إلى آخرها، فأمر بالصدقة بعدها على كل من سألك من كل دين، وسيأتي عند قوله تعالى : ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم﴾ [الممتحنة]

[٨]، حديث أسماء بنت الصديق في ذلك.

وقوله: «وما تنفقوا من خير فلأنفسكم» كقوله «من عمل صالحًا فلنفسه» [فصلت: ٤٦] والجائية: ١٥] ونظائرها في القرآن كثيرة.

وقوله «وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله» قال الحسن البصري: نفقة المؤمن لنفسه ولا ينفق المؤمن إذا أنفق إلا ابتغاء وجه الله، وقال عطاء الخراساني: يعني إذا عطيت لوجه الله فلا عليك ما كان عمله. وهذا معنى حسن وحاصله أن المتصدق إذا تصدق ابتغاء وجه الله، فقد وقع أجره على الله، ولا عليه في نفس الأمر لمن أصاب ألبَرَ أو فاجر أو مستحق أو غيره، وهو مثار على قصده، ومستند لهذا تمام الآية «وما تنفقوا من خير يوفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تظلمون» والحديث المخرج في الصحيحين<sup>(١)</sup> من طريق أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «قال رجل لأتصدقَ الليلة بصدقة، فخرج بصدقته فوضعها في يد زانية، فأصبح الناس يتحدثون: تصدق على زانية، فقال: اللهم لك الحمد على زانية، لأتصدقَ الليلة بصدقَة فوضعها في يد غني، فأصبحوا يتحدثون: تصدق الليلة على غني، قال: اللهم لك الحمد على غني، لأتصدقَ الليلة بصدقَة، فخرج فوضعها في يد سارق فأصبحوا يتحدثون: تصدق الليلة على سارق، فقال: اللهم لك الحمد على زانية وعلى غني وعلى سارق، فأتي فقيل له: أما صدقتك فقد قبلت، وأما الزانية فلعلها أن تستعفَّ بها عن زناها، ولعل الغني يعتبر فينفق مما أعطاه الله، ولعل السارق أن يستعفَ بها عن سرقته».

وقوله «للقراء الذين أحصروا في سبيل الله» يعني المهاجرين الذين انقطعوا إلى الله وإلى رسوله وسكنوا المدينة، وليس لهم سبب يردون به على أنفسهم ما يغنينهم و «لا يستطيعون ضرباً في الأرض» يعني سفراً للتسبُّب في طلب المعاش والضرب في الأرض هو السفر، قال الله تعالى: «وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة» [النساء: ١٠١] وقال تعالى: «علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يتغدون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله» [المزمول: ٢٠].

وقوله «يحسبهم العاجل أغبياء من العقدين» أي العاجل بأمرهم وحالهم يحسبهم أغبياء من تعفهم في لباسهم وحالهم ومقالهم، وفي هذا المعنى الحديث المتفق على صحته عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ «ليس المسكين بهذا الطواف الذي ترده التمرة والتمرتان، وللقطمة والأكلة والأكلتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غنىًّا يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه، ولا يسأل الناس شيئاً». رواه أحمد<sup>(٢)</sup> من حديث ابن مسعود أيضاً.

(١) أخرجه مسلم (زكاة حديث ٧٨) والنسائي (زكاة باب ٤٧) وأحمد في المستند (ج ٢ ص ٣٢٢).

(٢) المستند (ج ٢ ص ٣١٦).

وقوله «تعرفهم بسمائهم» أي بما يظهر للذوي الألباب من صفاتهم، كما قال تعالى: «سماتهم في وجوههم» [الفتح: ٢٩] وقال «ولتعرفهم في لحن القول» [محمد: ٣٠] وفي الحديث الذي في السنن «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله» ثم قرأ «إن في ذلك لآيات للمتوسمين» [الحجر: ٧٥].

وقوله: «لا يسألون الناس إلحاداً» أي لا يلحون في المسألة ويكلفون الناس ما لا يحتاجون إليه، فإن سأله وله ما يعنيه عن المسألة، فقد ألح في المسألة، قال البخاري<sup>(١)</sup>: حدثنا ابن أبي مريم، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شريك بن أبي نمر أن عطاء بن يسار وعبد الرحمن بن أبي عمرة الأنصاري، قالا: سمعنا أبو هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ «ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمرتان، ولا اللقمة واللقطتان، إنما المسكين الذي يتغنى، اقرؤوا إن شئتم يعني قوله «لا يسألون الناس إلحاداً» وقد رواه مسلم من حديث إسماعيل بن جعفر المدني، عن شريك بن عبد الله بن أبي نمر، عن عطاء بن يسار وحده، عن أبي هريرة به، وقال أبو عبد الرحمن النسائي<sup>(٢)</sup>: أخبرنا علي بن حجر، حدثنا إسماعيل، أخبرنا شريك وهو ابن أبي نمر عن عطاء بن يسار، عن أبي هريرة به، عن النبي ﷺ قال: «ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمرتان، وللقمة واللقطتان، إنما المسكين المتغنى، اقرؤوا إن شئتم «لا يسألون الناس إلحاداً» وروى البخاري من حديث شعبة، عن محمد بن أبي زيد، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ نحوه.

وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرني ابن أبي ذئب، عن أبي الوليد، عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال «ليس المسكين بالطواف عليكم فتطعمونه لقمة لقمة، إنما المسكين المتغنى، اقرؤوا إن شئتم «لا يسألون الناس إلحاداً».

وقال ابن جرير: حدثني معتمر عن الحسن بن ماتك، عن صالح بن سعيد، عن أبي هريرة، قال: ليس المسكين بالطواف الذي ترده الأكلة والأكلتان، ولكن المسكين المتغنى في بيته لا يسأل الناس شيئاً تصيبه الحاجة، اقرؤوا إن شئتم «لا يسألون الناس إلحاداً».

وقال الإمام أحمد<sup>(٣)</sup> أيضاً: حدثنا أبو بكر الحتفي، حدثنا عبد الحميد بن جعفر عن أبيه، عن رجل من مزينة أنه قالت له أمه: ألا تبتلي فتسل رسول الله ﷺ كما يسأل الناس؟ فانطلقت أسأله فوجده قائماً يخطب، وهو يقول «ومن استغنى أفعه الله، ومن استغنى أغناه الله، ومن يسأل الناس وله عدل خمس أواق، فقد سأله الناس إلحاداً» فقلت بيني وبين نفسي: لئقة لي خير

(١) صحيح البخاري (تفسير سورة، باب ٤٨).

(٢) سنن النسائي (زكاة باب ٢٤).

(٣) المسند (ج ٤ ص ١٣٨).

من خمس أواق ، ولغلامه ناقة أخرى فهى خير من خمس أواق ، فرجعت ولم أسأل .

وقال الإمام أحمد<sup>(١)</sup> : حدثنا عبد الرحمن بن أبي الرجال عن عمارة بن غزية ، عن عبد الرحمن بن أبي سعيد ، عن أبيه ، قال : سرحتني أمي إلى رسول الله ﷺ وأسأله ، فأتيته فقعدت ، قال : فاستقبلني فقال «من استغنى أغناه الله ، ومن استغف أفعه الله ، ومن استكفت كفاه الله ، ومن سأله قيمة أوقية فقد الحف ، قال : فقلت ناقتى الياقوتة خير من أوقية ، فرجعت فلم أسأله . وهكذا رواه أبو داود والنسيائي عن قتيبة ، زاد أبو داود : وهشام بن عمار كلاهما عن عبد الرحمن بن أبي الرجال بإسناده نحوه .

وقال ابن أبي حاتم ، حدثنا أبي ، حدثنا أبو الجماهر ، حدثنا عبد الرحمن بن أبي الرجال ، عن عمارة بن غزية ، عن عبد الرحمن بن أبي سعيد ، قال : قال أبو سعيد الخدري ، قال رسول الله ﷺ «من سأله قيمة أوقية فهو ملحف ». والأوقية أربعون درهماً .

وقال أحمد<sup>(٢)</sup> : حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان عن زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار ، عن رجل من بني أسد ، قال : قال رسول الله ﷺ «من سأله قيمة أو عدلها فقد سأله إلحاضاً » ، وقال الإمام أحمد<sup>(٣)</sup> أيضاً : حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان عن حكيم بن جبیر ، عن محمد بن عبد الرحمن بن زيد ، عن أبيه ، عن عبد الله بن مسعود ، قال : قال رسول الله ﷺ «من سأله قيمة أو عدلها فقد سأله إلحاضاً » ، جاءت مسألته يوم القيمة خدوشاً أو كدواحاً في وجهه قالوا : يا رسول الله وما غناه ؟ قال «خمسون درهماً أو حسابها من الذهب ». وقد رواه أهل السنن الأربعة من حديث حكيم بن جبیر الأستاذ الكوفي ، وقد تركه شعبة بن الحجاج ، وضعفه غير واحد من الأئمة من جراء هذا الحديث .

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني : حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمي ، حدثنا أبو حسين عبد الله بن أحمد بن يونس ، حدثني أبي ، حدثنا أبو بكر بن عياش عن هشام بن حسان ، عن محمد بن سيرين ، قال : بلغ العحارث رجلاً كان بالشام من قريش ، أن أبي ذر كان به عوز فبعث إليه ثلاثة دينار ، فقال : ما وجد عبد الله رجلاً أهون عليه مني ، سمعت رسول الله ﷺ يقول «من سأله قيمة أو حسابها من الذهب » ولأن أبي ذر أربعون درهماً وأربعون شاة وماهتان ، قال أبو بكر بن عياش ، يعني خادمين .

وقال ابن مردويه : حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم ، أخبرنا إبراهيم بن محمد ، أنبأنا عبد الجبار ، أخبرنا سفيان عن داود بن سابور ، عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده ، عن النبي ﷺ ، قال «من سأله قيمة أو حسابها من الذهب فهو ملحف وهو مثل سف الملة» يعني الرمل ، ورواه

(١) المسند (ج ٣ ص ٩).

(٢) المسند (ج ٤ ص ٣٦).

(٣) المسند (ج ١ ص ٣٨٨).

النسائي عن أَحْمَدَ بْنَ سَلِيمَانَ، عَنْ أَحْمَدَ بْنَ آدَمَ، عَنْ سُفِيَّانَ وَهُوَ ابْنُ عَيْنَةَ بِإِسْنَادِهِ نَحْوَهُ.

قوله ﴿وَمَا تَنْفَقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ أي لا يخفى عليه شيء منه وسيجزي عليه أوفر الجزاء وأتمه يوم القيمة أحوج ما يكون إليه.

وقوله ﴿الَّذِينَ يَنْفَقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيلِ وَالنَّهَارِ سَرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرٌ هُنَّ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خُوفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ هذا مدح منه تعالى للمنتفقين في سبيله وابتغاء مرضاته في جميع الأوقات من ليل ونهار، والأحوال من سر وجه، حتى أن النفقة على الأهل تدخل في ذلك أيضاً، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لسعد بن أبي وقاص حين عاده مريضاً عام الفتح، وفي رواية عام حجة الوداع «إِنَّكَ لَنْ تَنْفَقْ نَفْقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أَزْدَدَتْ بِهَا دَرْجَةً وَرَفْعَةً حَتَّىٰ مَا تَجْعَلْ فِي فِيْ أَمْرَأَتِكَ».

وقال الإمام أحمد<sup>(١)</sup>: حدثنا محمد بن جعفر وبهز، قال: حدثنا شعبة عن عدي بن ثابت، قال: سمعت عبد الله بن يزيد الأنباري يحدث عن أبي مسعود رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ، أنه قال «إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا أَنْفَقَ عَلَىٰ أَهْلِهِ نَفْقَةً يَحْتَسِبُهَا كَانَتْ لَهُ صَدْقَةً»، آخر جاه من حديث شعبة به.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا سليمان بن عبد الرحمن، حدثنا محمد بن شعيب، قال: سمعت سعيد بن يسار عن يزيد بن عبد الله بن عريب المليكي، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ، قال: نزلت هذه الآية ﴿وَالَّذِينَ يَنْفَقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيلِ وَالنَّهَارِ سَرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرٌ هُنَّ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ في أصحاب الخيل.

وقال حبس الصناعي عن ابن شهاب، عن ابن عباس في هذه الآية، قال: هم الذين يعلفون الخيل في سبيل الله، رواه ابن أبي حاتم ثم قال: وكذا روي عن أبي أمامة وسعيد بن المسيب ومكحول.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشعج، أخبرنا يحيى بن يمان عن عبد الوهاب بن مجاهد، عن ابن جبير، عن أبيه، قال: كان لعلي أربعة دراهم، فأنفق درهماً ليلاً ودرهماً نهاراً ودرهماً سراً ودرهماً علانة، فنزلت ﴿الَّذِينَ يَنْفَقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيلِ وَالنَّهَارِ سَرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ ، وكذا رواه ابن جرير من طريق عبد الوهاب بن مجاهد، وهو ضعيف، ولكن رواه ابن مردويه من وجہ آخر عن ابن عباس، أنها نزلت في علي بن أبي طالب.

وقوله ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ هُنَّ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي يوم القيمة على ما فعلوا من الإنفاق في الطاعات ﴿وَلَا خُوفٌ عَلَيْهِمْ وَهُمْ يَحْزَنُونَ﴾ تقدم تفسيره.

(١) المسند (ج ٤ ص ١٢٢).

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الْذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَاتُلُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِدَةً مِنْ رَبِّهِ فَلَمَّا هَمَ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا حَلِيلُونَ ﴿٧٥﴾

لما ذكر تعالى الأبرار المؤدين النفقات، المخرجين الزكوات، المفضلين بالبر والصدقات لذوي الحاجات والقربات في جميع الأحوال والأوقات، شرع في ذكر أكلة الربا وأموال الناس بالباطل وأنواع الشبهات، فأخبر عنهم يوم خروجهم من قبورهم وقيامهم منها، إلى بعثهم ونشرورهم، فقال «الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقومون الذي يتخطبه الشيطان من المس»، أي لا يقومون من قبورهم يوم القيمة إلا كما يقوم المتصروع حال صرעהه، وتخطب الشيطان له، وذلك أنه يقوم قياماً منكراً. وقال ابن عباس: أكل الربا يبعث يوم القيمة مجنوناً يختنق، رواه ابن أبي حاتم، قال: وروي عن عوف بن مالك وسعيد بن جبير والسدي والربيع بن أنس وقتادة ومقاتل بن حيان نحو ذلك.

وحكي عن عبد الله بن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة ومقاتل بن حيان أنه قالوا في قوله «الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقومون الذي يتخطبه الشيطان من المس» يعني لا يقومون يوم القيمة، وكذا قال ابن أبي نجيع عن مجاهد والضحاك وابن زيد، روى ابن أبي حاتم من حديث أبي بكر بن أبي مريم عن ضمرة بن حنيف، عن أبي عبد الله بن مسعود، عن أبيه، أنه كان يقرأ «الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقومون الذي يتخطبه الشيطان من المس يوم القيمة».

وقال ابن جرير<sup>(١)</sup>: حدثني المثنى، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا ربيعة بن كلثوم، حدثنا أبي، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: يقال يوم القيمة لأكل الربا: خذ سلاحك للحرب، وقرأ «الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقومون الذي يتخطبه الشيطان من المس» وذلك حين يقوم من قبره.

وفي حديث أبي سعيد في الإسراء، كما هو مذكور في سورة سبحان، أنه عليه السلام مر ليلى تند責 لهم أجواف مثل البيوت، فسأل عنهم، فقيل: هؤلاء أكلة الربا. رواه البيهقي مطولاً، وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا الحسن بن موسى، عن حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن أبي الصلت، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ «أتيت ليلة أسرى بي على قوم بطونهم كالبيوت فيها الحيات تجري من خارج بطونهم فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء أكلة الربا». رواه الإمام أحمد، عن حسن وعفان وكلاهما عن حماد بن سلمة به،

وفي إسناده ضعف . وقد روى البخاري عن سمرة بن جندب في حديث المنام الطويل : فأتينا على نهر ، حسبت أنه كان يقول : أحمر مثل الدم ، وإذا في النهر رجل ساجح يسبح ، وإذا على شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة ، وإذا ذلك الساجح يسبح ، ثم يأتي الذي قد جمع الحجارة عنده ، فيفغر له فاه فيلقمه حجراً ، وذكر في تفسيره أنه آكل الربا .

وقوله «ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا ، وأحل الله البيع وحرم الربا» ، أي إنما جوزوا بذلك لاعتراضهم على أحكام الله في شرعيه ، وليس هذا قياساً منهم للربا على البيع ، لأن المشركين لا يعترفون بمشروعية أصل البيع الذي شرعه الله في القرآن ولو كان هذا من باب القياس لقالوا : إنما الربا مثل البيع ، وإنما قالوا : «إنما البيع مثل الربا» أي هو نظيره ، فلم حرم هذا وأبيح هذا ؟ وهذا اعتراض منهم على الشرع ، أي هذا مثل هذا ، وقد أحل هذا وحرم هذا .

وقوله تعالى : «وأحل الله البيع وحرم الربا» يتحمل أن يكون من تمام الكلام ردًا عليهم ، أي على ما قالوه من الاعتراض ، مع علمهم بتفرق الله بين هذا وهذا حكماً ، وهو العليم الحكيم الذي لا معقب لحكمه ولا يسأل عما يفعل وهو يسألون ، وهو العالم بحقائق الأمور ومصالحها وما ينفع عباده فيبيحه لهم ، وما يضرهم ينهى عنده ، وهو أرحم بهم من الوالدة بولدها الطفل ، وللهذا قال : «فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله» أي من بلغه نهي الله عن الربا فانتهى حال وصول الشرع إليه ، فله ما سلف من المعاملة ، لقوله : «عفا الله عما سلف» [المائدة: ٩٥] وكما قال النبي ﷺ يوم فتح مكة<sup>(١)</sup> «وكل ربا في الجاهلية موضوع تحت قدمي هاتين ، وأول ربا أضع ربا العباس» ولم يأمرهم برد الزيادات المأخوذة في حال الجاهلية بل عفا عما سلف ، كما قال تعالى : «فله ما سلف وأمره إلى الله» قال سعيد بن جبير والسدي : فله ما سلف ما كان أكل من الربا قبل التحرير .

وقال ابن أبي حاتم : قرئ على محمد بن عبد الله بن عبد الحكم ، أخبرنا ابن وهب ، أخبرني جرير بن حازم ، عن أبي إسحاق الهمданى ، عن أم يونس يعني امرأته العالية بنت أبيع ، أن عائشة زوج النبي ﷺ قالت لها أم محبة أم ولد لزيد بن أرقم : يا أم المؤمنين أتعرفين زيد بن أرقم ؟ قالت : نعم ، قالت : فإني بعثه عبداً إلى العطاء بثمانمائة ، فأحتاج إلى ثمنه ، فاشتريته قبل محل الأجل بستمائة ، فقالت : بئس ما شررت وبئس ما اشتريت ، أبلغي زيداً أنه قد أبطل جهاده مع رسول الله ﷺ ، إن لم يتتب ، قالت : فقلت أرأيت إن تركت المائتين وأخذت الستمائة ؟ قالت : نعم «فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف» وهذا الأثر مشهور وهو دليل لمن حرم مسألة العينة ، مع ما جاء فيها من الأحاديث المذكورة المقررة في كتاب الأحكام ، والله الحمد والمنة .

(١) في سيرة ابن هشام (٦٠٣/٢) ومستند أحمد (ج ٥ ص ٧٣) أنه كان في خطبة الوداع وليس يوم فتح مكة .

ثم قال تعالى: ﴿وَمِنْ عَادٍ﴾ أي إلى الربا ففعله بعد بلوغه نهي الله عنه، فقد استوجب العقوبة، وقامت عليه الحجة، ولهذا قال: ﴿فَأُولئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وقد قال أبو داود<sup>(١)</sup>: حدثنا يحيى بن معين، أخبرنا عبد الله بن رجاء المكي، عن عبد الله بن عثمان بن خيثم، عن أبي الزبير، عن جابر، قال: لما نزلت ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الْجِنُّ﴾ قال رسول الله ﷺ: «من لم يذر المخابرة فليأذن بحرب من الله ورسوله» ورواه الحاكم في مستدركه من حديث ابن خيثم، وقال : صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه.

وإنما حرمت المخابرة وهي المزارعة ببعض<sup>(٢)</sup> ما يخرج من الأرض والمزابنة: وهي اشتراء الرطب في رؤوس النخل بالتمر على وجه الأرض، والمحاقة وهي اشتراء الحب في سنبه في الحقل بالحب على وجه الأرض، إنما حرمت هذه الأشياء وما شاكلها حسماً لمادة الربا، لأنه لا يعلم التساوي بين الشيئين قبل الجفاف، ولهذا قال الفقهاء: الجهل بالمقابلة كحقيقة المفاضلة، ومن هذا حرموا أشياء بما فهموا من تضييق المسالك المفضية إلى الربا والوسائل الموصولة إليه، وتفاوت نظرهم بحسب ما وهب الله لكل منهم من العلم، وقد قال تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ﴾.

وباب الربا من أشكال الأبواب على كثير من أهل العلم، وقد قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ثلث وددت أن رسول الله ﷺ عهد إلينا فيهن عهداً نتهي إليه: الجد، والكلالة، وأبواب من أبواب الربا<sup>(٣)</sup> - يعني بذلك بعض المسائل التي فيها شائبة الربا - والشريعة شاهدة بأن كل حرام فالوسيلة إليه مثله، لأن ما أفضى إلى الحرام حرام، كما أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. وقد ثبت في الصحيحين عن النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الحلال بين والحرام بين، وبين ذلك أمور مشتبهات، فمن اتقى الشبهات استبراً لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه» وفي السنن عن الحسن بن علي رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «دع ما يربيك إلى ما لا يربيك» وفي الحديث الآخر: «الإثم ما حاك في القلب وترددت فيه النفس وكرهت أن يطلع عليه الناس» وفي رواية «استفت قلبك وإن أفتاك الناس وأفتوك».

وقال الثوري عن عاصم، عن الشعبي، عن ابن عباس، قال: آخر ما نزل على رسول الله ﷺ

(١) سنن أبي داود (بيوع باب ٣٣).

(٢) أي أن يعطي المالك الفلاح أرضًا يزرعها على بعض ما يخرج منها كالثلث أو الربع.

(٣) رواه البخاري (أشربة باب ٥) ومسلم (تفسير حديث ٣٣) وأبو داود (أشربة باب ١).

آية الربا، رواه البخاري عن قبيصة عنه، وقال أحمـد<sup>(١)</sup> عن يحيى عن سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة عن سعيد بن المسيب، أن عمر قال: من آخر ما نزل، آية الربا، وإن رسول الله ﷺ قبض قبل أن يفسرها لنا، فدعوا الربا والربيبة، رواه ابن ماجه وابن مردوـيـه وروى ابن مردوـيـه من طريق هياج بن بسطام، عن داود بن أبي هند عن أبي نصرة عن أبي سعيد الخدري، قال: خطبنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: إني لعليّ أنهاكم عن أشياء تصلح لكم، وأمركم بأشياء لا تصلح لكم، وإن من آخر القرآن نزولاً آية الربا، وإن قد مات رسول الله ﷺ ولم يبينه لنا، فدعوا ما لا يربـيـكم، إلى ما لا يربـيـكم، وقد قال ابن أبي عدي بالإسناد موقـفاً، ذكره ورده الحاكم في مستدركه.

وقد قال ابن ماجـه<sup>(٢)</sup>، حـدثـنا عمـروـبـنـعـلـيـ الصـيـرـفـيـ، حـدثـناـابـنـأـبـيـعـدـيـعـنـشـعـبـةـعـنـزـيـدـعـنـإـبـرـاهـيمـعـنـمـسـرـوـقـعـنـعـبـدـالـلـهـ،ـهـوـابـنـمـسـعـوـدـ،ـعـنـالـنـبـيـﷺـقـالـ:ـ«ـالـرـبـاـثـلـاثـةـوـسـبـعـونـبـاـبـاـ»ـوـرـوـاهـالـحـاـكـمـفـيـمـسـتـدـرـكـهـ:ـمـنـحـدـيـثـعـمـرـوـبـنـعـلـيـالـفـلـاسـبـإـسـنـادـمـثـلـهـ،ـوـزـادـأـيـسـرـهـاـأـنـيـنـكـحـالـرـجـلـأـمـهـ،ـوـإـنـأـرـبـيـالـرـبـاـعـرـضـالـرـجـلـالـمـسـلـمـ»ـوـقـالـ:ـصـحـيـحـعـلـىـشـرـطـالـشـيـخـيـنـ،ـوـلـمـيـخـرـجـاهـ.ـوـقـالـابـنـمـاجـهـ<sup>(٢)</sup>ـ:ـحـدـثـناـعـبـدـالـلـهـبـنـسـعـيـدـ،ـحـدـثـناـعـبـدـالـلـهـبـنـإـدـرـيـسـ،ـعـنـأـبـيـعـشـرـعـنـسـعـيـدـالـمـقـبـرـيـ،ـعـنـأـبـيـهـرـيـرـةـ،ـقـالـ:ـقـالـرـسـوـلـالـلـهـﷺـ«ـالـرـبـاـسـبـعـونـحـوـبـاـ»ـ<sup>(٣)</sup>ـ،ـأـيـسـرـهـاـأـنـيـنـكـحـالـرـجـلـأـمـهـ).

وقـالـإـلـمـامـأـحـمـدـ<sup>(٤)</sup>ـ:ـحـدـثـناـهـشـيـمـعـنـعـبـادـبـنـرـاشـدـ،ـعـنـسـعـيـدـبـنـأـبـيـخـيـرـةـ،ـحـدـثـناـالـحـسـنـمـذـنـحـوـأـرـبـعـينـأـوـخـمـسـينـسـنـةـ،ـعـنـأـبـيـهـرـيـرـةـأـنـرـسـوـلـالـلـهـ.ـﷺـقـالـ«ـيـأـتـيـعـلـىـالـنـاسـزـمـانـيـأـكـلـوـنـفـيـالـرـبـاـ»ـ،ـقـالـ:ـقـيلـلـهـ:ـالـنـاسـكـلـهـمـ؟ـقـالـ«ـمـنـلـمـيـأـكـلـهـمـنـهـمـنـالـهـمـغـبـارـهـ»ـ،ـوـكـذـاـرـوـاهـأـبـوـداـودـوـالـنـسـائـيـوـابـنـمـاجـهـ،ـمـنـغـيرـوـجـهـ،ـعـنـسـعـيـدـبـنـأـبـيـخـيـرـةـ،ـعـنـالـحـسـنـبـهـ،ـوـمـنـهـذـاـقـبـيـلـوـهـوـتـحـرـيـمـالـوـسـائـلـالـمـفـضـيـةـإـلـىـالـمـحـرـمـاتـ،ـالـحـدـيـثـالـذـيـرـوـاهـإـلـمـامـأـحـمـدـ<sup>(٥)</sup>ـ،ـحـدـثـناـأـبـوـمـعـاوـيـةـحـدـثـناـأـعـمـشـ،ـعـنـمـسـلـمـبـنـصـبـيـحـعـنـمـسـرـوـقـعـنـعـائـشـةـ،ـقـالـتـ:ـلـمـأـنـزـلتـالـآـيـاتـمـنـآـخـرـسـوـرـةـالـبـقـرـةـفـيـالـرـبـاـخـرـجـرـسـوـلـالـلـهـﷺـإـلـىـالـمـسـجـدـفـقـرـأـهـنـ،ـفـحـرـمـالـتـجـارـةـفـيـالـخـمـرـ،ـوـقـدـأـخـرـجـالـجـمـاعـةـ،ـسـوـىـالـتـرـمـذـيـ،ـمـنـطـرـقـمـنـأـعـمـشـبـهـ،ـوـهـكـذـاـلـفـظـرـوـايـهـالـبـخـارـيـعـنـتـقـسـيـرـهـذـهـالـآـيـةـ،ـفـحـرـمـالـتـجـارـةـ،ـوـفـيـلـفـظـلـهـعـنـعـائـشـةـ،ـقـالـتـ:ـلـمـأـنـزـلتـالـآـيـاتـمـنـآـخـرـسـوـرـةـالـبـقـرـةـفـيـالـرـبـاـ،ـقـرـأـهـأـرـسـوـلـالـلـهـﷺـعـلـىـالـنـاسـ،ـثـمـحـرـمـالـتـجـارـةـفـيـالـخـمـرـ.

(١) المسند (ج ١ ص ٣٦).

(٢) سنن ابن ماجـه (تجارات باب ٥٨).

(٣) في الأصول «جزءاً» وما أبنتهـ من سنن ابن ماجـه. والحوـبـ: الإنـمـ.

(٤) المسند (ج ٢ ص ٤٩٤).

(٥) المسند (ج ٦ ص ٤٦).

قال بعض من تكلم على هذا الحديث من الأئمة: لما حرم الربا ووسائله حرم الخمر وما يفضي إليه من تجارة ونحو ذلك، كما قال عليه السلام في الحديث المتفق عليه: «لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فجملوها فباعوها وأكلوا أثمانها» وقد تقدم في حديث علي وابن مسعود وغيرهما، عند لعن المحلل في تفسير قوله: «حتى تنكح زوجاً غيره» قوله عليه السلام «لعن الله أكل الربا وموكله وشاهديه وكاتبه»، قالوا: وما يشهد عليه ويكتب إلا إذا أظهر في صورة عقد شرعي، ويكون داخله فاسداً، فالاعتبار بمعناه لا بصورته، لأن الأعمال بالنيات، وفي الصحيح: «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم، وأعمالكم» وقد صنف الإمام العلامة أبو العباس بن تيمية، كتاباً في إبطال التحليل، تضمن النهي عن تعاطي الوسائل المفضية إلى كل باطل، وقد كفى في ذلك، وشفى، فرحمه الله، ورضي عنه.

يَمْحُقُ اللَّهُ أَلْرِبِيَا وَيُرِبِّي الصَّدَقَتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿١٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكُوَةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا حُوقُّ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٢٦﴾

يخبر الله تعالى أنه يمحق الربا، أي يذهب إما بأن يذهب بالكلية من يد صاحبه، أو يحرمه برقة ماله فلا ينفع به، بل يعدمه به في الدنيا ويعاقبه عليه يوم القيمة، كما قال تعالى: «قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث» [المائدة: ١٠٠] وقال تعالى: «ويجعل الخبيث بعضه على بعض، فيركمه جميعاً فيجعله في جهنم» [الأنفال: ٣٧] وقال «وما آتتكم من ربا ليربو في أموال الناس فلا يربوا عند الله» [الروم: ٣٩]، وقال ابن جرير<sup>(١)</sup>: في قوله «يمحق الله الربا» وهذا نظير الخبر الذي روی عن عبد الله بن مسعود أنه قال: الربا وإن كثر فإن عاقبته تصير إلى قل.

وهذا الحديث قد رواه الإمام أحمد<sup>(٢)</sup> في مسنده، فقال: حدثنا حجاج. حدثنا شريك، عن الركين بن الريبع عن أبيه، عن ابن مسعود عن النبي صلوات الله عليه وسلم، قال: «إن الربا وإن كثر فإن عاقبته تصير إلى قل».

وقد رواه ابن ماجه: عن العباس بن جعفر عن عمرو بن عون، عن يحيى بن زائدة عن إسرائيل عن الركين بن الريبع بن عميلة الفزاري، عن أبيه عن ابن مسعود عن النبي صلوات الله عليه وسلم، أنه قال «ما أحد أكثر من الربا إلا كان عاقبة أمره إلى قل»، وهذا من باب المعاملة، بتقىض المقصود، كما قال الإمام أحمد<sup>(٣)</sup>: حدثنا أبو سعيد مولىبني هاشم، حدثنا الهيثم بن رافع الطاطري،

(١) تفسير الطبرى ١٠٥ / ٣ .

(٢) المسند (ج ١ ص ٣٩٥) .

(٣) المسند (ج ١ ص ٢١) .

حدثني أبو يحيى رجل من أهل مكة، عن فروخ مولى عثمان، أن عمر وهو يومئذ أمير المؤمنين، خرج من المسجد فرأى طعاماً منشوراً، فقال: ما هذا الطعام؟ فقالوا: طعام جلب إلينا، قال: بارك الله فيه وفيمن جلبه، قيل: يا أمير المؤمنين إنه قد احتكر، قال: من احتكره؟ قالوا: فروخ مولى عثمان وفلان مولى عمر، فأرسل إليهما، فقال: ما حملكتما على احتكار طعام المسلمين؟ قالا: يا أمير المؤمنين نشتري بأموالنا ونبيع، فقال عمر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من احتكر على المسلمين طعامهم ضربه الله بالإفلات أو بجذام»، فقال فروخ عند ذلك: أعاده الله وأعادهك أن لا أعود في طعام أبداً، وأما مولى عمر فقال: إنما نشتري بأموالنا ونبيع، قال أبو يحيى: فلقد رأيت مولى عمر مجذوماً، ورواه ابن ماجه من حديث الهيثم بن رافع به، لفظه «من احتكر على المسلمين طعامهم ضربه الله بالإفلات والجذام»<sup>(١)</sup>.

وقوله **«ويربي الصدقات»** قرئ بضم اليماء والتخفيف، من ربا الشيء يربو وأرباه يربيه، أي كثره ونماه ينميه، وقرئ يربى بالضم والتشديد من الترية، كما قال **البخاري**: حدثنا عبد الله بن كثير، أخبرنا كثير سمع أبا النصر، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار، عن أبيه عن أبي صالح عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، فإن الله يتقبلها يمينه ثم يربيها لصاحبتها كما يربى أحدهكم فلوه، حتى يكون مثل الجبل» كذا رواه في كتاب الزكاة<sup>(٢)</sup>، وقال في كتاب التوحيد: وقال خالد بن مخلد بن سليمان بن بلاط، عن عبد الله بن دينار فذكره بإسناده نحوه، وقد رواه مسلم في الزكاة<sup>(٣)</sup>، عن أحمد بن عثمان بن حكيم، عن خالد بن مخلد، فذكره، قال **البخاري** ورواه مسلم بن أبي مرريم، وزيد بن أسلم، وسهيل، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ.

قلت: أما رواية مسلم بن أبي مرريم، فقد تفرد **البخاري** بذكرها، وأما طريق زيد بن أسلم، فرواها مسلم في صحيحه، عن أبي الطاهر بن السرح عن أبي وهب، عن هشام بن سعيد عن زيد بن أسلم به، وأما حديث سهيل، فرواها مسلم عن قتيبة عن يعقوب بن عبد الرحمن عن سهيل به، والله أعلم.

قال **البخاري**: وقال ورقاء عن ابن دينار عن سعيد بن يسار، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، وقد أنسد هذا الحديث من هذا الوجه الحافظ أبو بكر البهقي، عن الحاكم وغيره، عن الأصم، عن العباس المروزي، عن أبي النضر، هاشم بن القاسم، عن ورقاء وهو ابن عمر اليشكري، عن عبد الله بن دينار، عن سعيد بن يسار، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يصعد إلى الله إلا الطيب، فإن الله يتقبلها يمينه فيربيها لصاحبتها

(١) سنن ابن ماجه (تجارات باب ٦).

(٢) صحيح البخاري (زكاة باب ٨).

(٣) صحيح مسلم (زكاة حديث ٦٤).

كما يربى أحدكم فلوه، حتى يكون مثل أحد» وهكذا روى هذا الحديث مسلم والترمذى والنسائى جمیعاً، عن قتيبة، عن الليث بن سعد، عن سعد المقبرى، وأخرجه النسائى من رواية مالك، عن يحيى بن سعيد الأنصارى، ومن طريق يحيى القطان، عن محمد بن عجلان، ثلاثتهم عن سعيد بن يسار أبي الحباب المدنى، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، فذكره.

وقد روى عن أبي هريرة من وجه آخر، فقال ابن أبي حاتم: حدثنا عمرو بن عبد الله الأودي، حدثنا وكيع، عن عباد بن منصور، حدثنا القاسم بن محمد قال: سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول، الله ﷺ «إن الله عز وجل يقبل الصدقة، ويأخذها بيديه فيريها لأحدكم كا يربى أحدكم مهره أو فلوه، حتى إن اللقبة لتصير مثل أحد» وتصديق ذلك في كتاب الله **«يتحقق الله الربى ويربي الصدقات»** وكذلك رواه أحمد<sup>(١)</sup>، عن وكيع، وهو في تفسير وكيع، ورواه الترمذى، عن أبي كريب عن وكيع به، وقال: حسن صحيح، وكذلك رواه الثورى عن عباد بن منصور به، ورواه أحمد أيضاً عن خلف بن الوليد، عن ابن المبارك، عن عبد الواحد بن ضمرة وعباد بن منصور، كلاهما عن أبي نضرة، عن القاسم به.

وقد رواه ابن جرير<sup>(٢)</sup>، عن محمد بن عبد الملك بن إسحاق، عن عبد الرزاق، عن معمر، عن أيوب، عن القاسم بن محمد، عن أبي هريرة، قال: قال رسول، الله ﷺ «إن العبد إذا تصدق من طيب تقبّلها الله منه، فيأخذها بيديه ويربيها كما يربى أحدكم مهره أو فصيله، وإن الرجل ليتصدق باللقبة فتربو في يد الله، أو قال في كف الله حتى تكون مثل أحد، فتصدقوا» وهكذا رواه أحمد: عن عبد الرزاق، وهذا طريق غريب صحيح الإسناد، ولكن لفظه عجيب، والمحفوظ ما تقدم.

وروي عن عائشة أم المؤمنين، فقال الإمام أحمد<sup>(٣)</sup>، حدثنا عبد الصمد، حدثنا حماد عن ثابت، عن القاسم بن محمد، عن عائشة، أن رسول الله ﷺ قال: إن الله ليربى لأحدكم التمرة واللقبة كما يربى أحدكم فلوه أو فصيله حتى يكون مثل أحد» تفرد به أحمد من هذا الوجه.

وقال البزار حدثنا يحيى بن المعلى بن منصور حدثنا إسماعيل حدثني أبي عن يحيى بن سعيد عن عمرة عن عائشة عن النبي ﷺ وعن الصحاح بن عثمان عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «إن الرجل ليتصدق بالصدقة من الكسب الطيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، فيتلقاها الرحمن بيده، فيريها كما يربى أحدكم فلوه أو وصيفه» أو قال فصيله، ثم قال: لا نعلم أحداً رواه عن يحيى بن سعيد عن عمرة إلا أبو أوس.

(١) المستند (ج ٢ ص ٤٧١).

(٢) تفسير الطبرى ١٠٦/٣.

(٣) المستند (ج ٦ ص ٢٥١).

وقوله ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُ كُلَّ كُفَّارَ أَثِيمٍ﴾، أي لا يحب كفور القلب أثيم القول والفعل، ولا بد من مناسبة في ختم هذه الآية بهذه الصفة، وهي أن المرادي لا يرضى بما قسم الله له من الحلال، ولا يكتفى بما شرع له من الكسب المباح، فهو يسعى في أكل أموال الناس بالباطل، بأنواع المكاسب الخبيثة، فهو جحود لما عليه من النعمة، ظلوم أثم بأكل أموال الناس بالباطل - ثم قال تعالى مادحاً للمؤمنين بربهم، المطيعين أمره المؤدين شكره، المحسنين إلى خلقه في إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، مخبراً عما أعد لهم من الكرامة، وأنهم يوم القيمة من التبعات آمنون فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرٌ هُمْ عَنْ رِبِّهِمْ لَا يَحْزُنُونَ﴾.

**يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقَى مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** ﴿١﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأَذْنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَا كُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢﴾ فَإِنْ كَانَ ذَوُ عُسْرَةٍ فَنَظِرْهُ إِلَى مَيْسَرٍ وَإِنْ تَصْدَقُوا خَيْرَ أَكْمَمُ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤﴾

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بتقواه، ناهياً لهم عما يقربهم إلى سخطه ويعدهم عن رضاه، فقال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي خافوه وراقبوه فيما تفعلون ﴿وَذَرُوا مَا بَقَى مِنَ الرِّبَا﴾ أي اتركوا ما لكم على الناس من الزيادة على رؤوس الأموال، بعد هذا الإنذار ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي بما شرع الله لكم من تحليل البيع وتحريم الربا وغير ذلك، وقد ذكر زيد بن أسلم، وابن جريج ومقاتل بن حيان والسدي، أن هذا السياق نزل فيبني عمرو بن عمير من ثقيف، وبني المغيرة منبني مخزوم، كان بينهم ربا في الجاهلية، فلما جاء الإسلام ودخلوا فيه، طلبت ثقيف أن تأخذه منهم، فتشاورا وقلت بنو المغيرة لا نؤدي الربا في الإسلام، فكتب في ذلك عتاب بن أسيد، نائب مكة إلى رسول الله ﷺ فنزلت هذه الآية، فكتب بها رسول الله ﷺ إليه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقَى مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ﴿فَقَالُوا نَتُوبُ إِلَى اللَّهِ وَنَذِرُ مَا بَقَى مِنَ الرِّبَا فَتَرَكُوهُ كَلِمَهُ، وَهَذَا تَهْدِي وَوَعِيدٌ أَكِيدُ، لَمَنْ اسْتَمِرَ عَلَى تِعْاطِي الرِّبَا بَعْدَ إِنذَارٍ قَالَ أَبْنُ جَرِيجٍ: قَالَ أَبْنُ عَبَّاسٍ: ﴿فَإِذَا نَوَّا بِحَرْبٍ﴾، أي استيقنا بحرب من الله ورسوله، وتقدم من روایة ربيعة بن كلثوم، عن أبيه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، قال: يقال يوم القيمة لأكل الربا: خذ سلاحك للحرب، ثم قرأ ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأَذْنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأَذْنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ فمن كان مقينا على الربا لا يتزع عنه، كان حقاً على إمام المسلمين أن يستبيه، فإن نزع وإلا ضرب عنقه.

وقال ابن أبي حاتم : حدثنا علي بن الحسين ، حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا عبد الأعلى ، حدثنا هشام بن حسان ، عن الحسن وابن سيرين ، أنهما قالا : والله إن هؤلاء الصيارة لأكلة الربا ، وإنهم قد أذنوا بحرب من الله ورسوله ، ولو كان على الناس إمام عادل لاستتابهم ، فإن تابوا وإلا وضع فيه السلاح .

وقال قتادة : أوعدهم الله بالقتل كما يسمعون ، وجعلهم بهرجاً أين ما أتوا ، فإياكم ومخالطة هذه البيوع من الربا ، فإن الله قد أوسع الحلال وطابه ، فلا يلجهنكم إلى معصيته فاقطة . رواه ابن أبي حاتم ، وقال الريبع بن أنس : أوعد الله أكل الربا بالقتل ، رواه ابن جرير ، وقال السهيلي : ولهذا قالت عائشة لأم محبة مولا زيد بن أرقم في مسألة العينة : أخبريه أن جهاده مع النبي ﷺ قد بطل إلا أن يتوب ، فخصت الجهاد لأنه ضد قوله : «فاذنوا بحرب من الله ورسوله» قال : وهذا المعنى ذكره كثير ، قال : ولكن هذا إسناده إلى عائشة ضعيف .

ثم قال تعالى : «وإن تبتم فلكم رؤس أموالكم لا تظلمون» أي يأخذ الزيادة «ولا تظلمون» أي بوضع رؤوس الأموال أيضاً ، بل لكم ما بذلتكم من غير زيادة عليه ولا نقص منه ، وقال ابن أبي حاتم : حدثنا محمد بن الحسين بن أشكاب ، حدثنا عبيد الله بن موسى عن شبيان ، عن شبيب بن غرقدة البارقي ، عن سليمان بن عمرو بن الأحوص ، عن أبيه ، قال : خطب رسول الله ﷺ في حجة الوداع ، فقال «الا إن كل رباً كان في الجاهلية موضوع عنكم كله ، لكم رؤس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون ، وأول رباً موضوع ربا العباس بن عبد المطلب ، موضوع كله» وكذا وجدته : سليمان بن الأحوص ، وقال ابن مردويه : حدثنا الشافعي ، حدثنا معاذ بن المثنى ، أخبرنا مسدد ، أخبرنا أبو الأحوص ، حدثنا شبيب بن غرقدة ، عن سليمان بن عمرو ، عن أبيه ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول «الا إن كل رباً من ربا الجاهلية موضوع ، فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تُظلمون» وكذا رواه من حديث حماد بن سلمة عن علي بن زيد ، عن أبي حمزة الرقاشي عن عمر وهو ابن خارجة ، فذكره .

وقوله «إن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون» يأمر تعالى بالصبر على المعسر الذي لا يجد وفاء ، فقال «إن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة» لا كما كان أهل الجاهلية يقول أحدهم لمدينه إذا حل عليه الدين : إما أن تقضي وإما أن تربى ، ثم يندب إلى الوضع عنه ، ويعد على ذلك الخير والثواب الجزيل ، فقال : «وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون» أي وأن تتركوا رأس المال بالكلية وتضعوه عن المدين ، وقد وردت الأحاديث من طرق متعددة عن النبي ﷺ بذلك .

فالحديث الأول عن أبي أمامة أسعد بن زراره . قال الطبراني : حدثنا عبد الله بن محمد بن شعيب الرجاني ، حدثنا يحيى بن حكيم المقوم ، حدثنا محمد بن بكر البرساني ، حدثنا عبد الله بن أبي زياد ، حدثني عاصم بن عبيد الله ، عن أبي أمامة أسعد بن زراره ، قال : قال

رسول الله ﷺ: «من سره أن يظله الله يوم لا ظل إلا ظله، فليسر على معاشر أو ليضع عنه».

حديث آخر عن بريدة. قال الإمام أحمد<sup>(١)</sup>: حدثنا عفان، حدثنا عبد الوارث، حدثنا محمد بن جحادة، عن سليمان بن بريدة، عن أبيه، قال: سمعت النبي ﷺ يقول «من أنظر معاشرًا فله بكل يوم مثله صدقة» قال: ثم سمعته يقول: «من أنظر معاشرًا فله بكل يوم مثله صدقة» قلت: سمعتك يا رسول الله تقول «من أنظر معاشرًا فله بكل يوم مثله صدقة». ثم سمعتاك تقول «من أنظر معاشرًا فله بكل يوم مثله صدقة»، قال: «له لكل يوم مثله صدقة قبل أن يحل الدين، فإذا حل الدين فأنظره، فله بكل يوم مثله صدقة».

الحديث آخر عن أبي قتادة الحارث بن ربعي الأنصاري. قال أحمدر<sup>(٢)</sup>: حدثنا حماد بن سلمة، أخبرنا أبو جعفر الخطمي، عن محمد بن كعب القرظي، أن أبو قتادة كان له دين على رجل، وكان يأتيه يتضاضاه فيختئ منه، فجاء ذات يوم فخرج صبي، فسألته عنه، فقال: نعم هو في البيت يأكل خزيرة<sup>(٣)</sup>، فناداه، فقال: يا فلان، اخرج فقد أخبرت أنك هاهنا، فخرج إليه، فقال: ما يغريك عنني؟ فقال إني معاشر وليس عندي شيء، قال: الله أنت معاشر؟ قال: نعم، فبكى أبو قتادة، ثم قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «من نفس عن غريميه، أو محا عنه، كان في ظل العرش يوم القيمة»، ورواه مسلم في صحيحه.

الحديث آخر عن حذيفة بن اليمان، قال الحافظ أبو يعلى الموصلي: حدثنا الأحسن أحمدر بن عمران، حدثنا محمد بن فضيل، حدثنا أبو مالك الأشجعي، عن ربعي بن خراش، عن حذيفة، قال: قال رسول الله ﷺ: «أتى الله بعد من عبيده يوم القيمة قال: ماذا عملت في الدنيا؟ فقال: ما عملت لك يا رب مثقال ذرة في الدنيا أرجوك بها - قالها ثلاث مرات - قال العبد عند آخرها: يا رب إنك كنت أعطيتني فضل مال، وكانت رجلاً أباع الناس، وكان من خلقى الجواز، فكنت أيسر على الموسر وأنظر المعاشر، قال: فيقول الله عز وجل: أنا أحق من يسرا، ادخل الجنة». وقد أخرجه البخاري ومسلم وابن ماجه من طرق عن ربعي بن خراش، عن حذيفة، زاد مسلم: وعقبة بن عامر وأبي مسعود البدرى عن النبي ﷺ بنحوه، ولفظ البخاري: حدثنا هشام بن عمارة، حدثنا يحيى بن حمزة، حدثنا الزهرى عن عبد الله بن عبد الله، أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «كان تاجر يداين الناس، فإذا رأى معاشرًا قال لفتیانه: تجاوزا عنه لعل الله يتتجاوز عننا، فتجاوز الله عنه»<sup>(٤)</sup>.

(١) المسند (ج ٥ ص ٣٦٠).

(٢) المسند (ج ٥ ص ٣٠٨).

(٣) الخزيرة: لحم يقطع قطعًا صغارًا ثم يطبع بماكثير وملح، فإذا اكتمل نضجه ذُرَّ عليه الدقيق وعصده به ثم أدم بإدام ما.

(٤) صحيح البخاري (أنباء باب ٥٤؛ وبيوع باب ١٨).

حدث آخر عن سهل بن حنيف، قال الحاكم في مستدركه: حدثنا أبو عبد الله محمد بن يعقوب، حدثنا يحيى بن محمد بن يحيى، حدثنا أبو الوليد هشام بن عبد الملك، حدثنا عمرو بن ثابت، حدثنا عبد الله بن محمد بن عقيل، عن عبد الله بن سهل بن حنيف، أن سهلاً حدثه: أن رسول الله ﷺ، قال: «من أعن مجاهداً في سبيل الله أو غازياً أو غارماً في عسرته أو مكتاباً في رقبته أظلله الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله» ثم قال: صحيح الإسناد ولم يخرجه.

حدث آخر عن عبد الله بن عمر، قال الإمام أحمد<sup>(١)</sup>: حدثنا محمد بن عبيد، عن يوسف بن صهيب، عن زيد العمى عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «من أراد أن تستجاب دعوته وأن تكشف كربته، فليفرج عن معسر». انفرد به أحمد.

حدث آخر عن أبي مسعود عقبة بن عمرو. قال الإمام أحمد<sup>(٢)</sup>: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا أبو مالك عن ربيع بن حراش، عن حذيفة، أن رجلاً أتى به الله عز وجل، فقال: ماذا عملت في الدنيا؟ فقال له الرجل: ما عملت مثقال ذرة من خير، فقال ثلاثة، وقال في الثالثة: إني كنت أعطيتني فضلاً من المال في الدنيا، فكنت أباع الناس، فكنت أيسر على الموسر، وأنظر المعسر. فقال تبارك وتعالى: نحن أولى بذلك منك، تجاوزوا عن عبدي، فغفر له. قال أبو مسعود: هكذا سمعت من النبي ﷺ، وهكذا رواه مسلم من حديث أبي مالك سعد بن طارق به.

حدث آخر عن عمران بن حصين. قال الإمام أحمد<sup>(٣)</sup>: حدثنا أسود بن عامر، أخبرنا أبو بكر، عن الأعمش، عن أبي دواد، عن عمران بن حصين قال، قال: رسول الله ﷺ: «من كان له على رجل حق فآخره، كان له بكل يوم صدقة»، غريب من هذا الوجه، وقد تقدم عن بريدة نحوه.

حدث آخر عن أبي اليسر كعب بن عمرو. قال الإمام أحمد: حدثنا معاوية بن عمرو، حدثنا زائدة، عن عبد الملك بن عمير، عن ربيعي، قال: حدثنا أبو اليسر، أن رسول الله ﷺ، قال «من أنظر معسراً أو وضع عنه، أظلله الله عز وجل في ظله يوم لا ظل إلا ظله». وقد أخرج مسلم في صحيحه ومن وجه آخر من حديث عباد بن الوليد بن الصامت، قال: خرجت أنا وأبي نطلب العلم في هذا الحي من الأنصار قبل أن يهلكوا، فكان أول من لقينا أبو اليسر صاحب رسول الله ﷺ، ومعه غلام له معه ضمامة من صحف، وعلى أبي اليسر بردة ومعافري<sup>(٤)</sup>، وعلى غلامه بردة ومعافري، فقال له أبي: يا عم، إني أرى في وجهك سفة من غضب، قال: أجل

(١) المستند (ج ٢٣ ص ٢٣).

(٢) المستند (ج ٤ ص ١١٨).

(٣) المستند (ج ٤ ص ٤٤٢).

(٤) المعافري والمعافرية: ثياب تنسب إلى معافر — حي من همدان.

كان لي على فلان بن فلان - الحرامي - مال ، فأتيت أهله ، فسلمت فقلت : أتم هو ؟ قالوا : لا ، فخرج عليَّ ابن له جفر<sup>(١)</sup> ، فقال : أين أبوك ؟ فقال : سمع صوتك فدخل أريكة أمي ، فقلت : اخرج إليَّ فقد علمت أين أنت ، فخرج ، فقلت ما حملك على أن اختبأت مني ؟ قال : أنا والله أحدهنك ثم لا أكذبك ، خشيت والله أن أحدهنك فأكذبك أو أعدك فأخلفك ، وكنت صاحب رسول الله ﷺ ، وكنت والله معسراً . قال : قلت : الله ؟ قال : الله . قلت : الله ثم قال : فأتي بصحيفته فمحاها بيده ، ثم قال : فإن وجدت قضاء فاقضني وإلا فأنت في حل ، فأشهد بصر عيني هاتين - ووضع أصبعيه على عينيه - وسمع أذني هاتين ، ووعاه قلبي - وأشار إلى مناط قلبه ، رسول الله ﷺ وهو يقول : من أنظر معسراً أو وضع عنه ، أظلله الله في ظله . وذكر تمام الحديث .

حديث آخر عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، قال عبد الله بن الإمام أحمد : حدثني أبو يحيى البزار محمد بن عبد الرحمن ، حدثنا الحسن بن أسد بن سالم الكوفي ، حدثنا العباس بن الفضل الأنباري ، عن هشام بن زياد القرشي ، عن أبيه ، عن محجن مولى عثمان ، عن عثمان ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول «أظل الله عيناً في ظله يوم لا ظل إلا ظله ، من أنظر معسراً ، أو ترك لغarem» .

حديث آخر عن ابن عباس . قال الإمام أحمد<sup>(٢)</sup> : حدثنا عبد الله بن يزيد ، حدثنا نوح بن جعونة السلمي الخراساني ، عن مقاتل بن حيان ، عن عطاء ، عن ابن عباس ، قال خرج رسول الله ﷺ إلى المسجد وهو يقول بيده : هكذا ، وأوْمأ عبد الرحمن بيده إلى الأرض «من أنظر معسراً أو وضع عنه ، وقام الله من فيه جهنم ألا إن عمل الجنة حزن بربوة - ثلاثاً - ألا إن عمل النار سهل بسهولة ، والسعيد من وقى الفتنة ، وما من جرعة أحب إلى الله من جرعة غيظ يكظمها عبد ، ما كظمها عبد الله إلا ملا الله جوفه إيماناً» تفرد به أحمد .

طريق آخر قال الطبراني : حدثنا أحمد بن محمد البوراني قاضي الحدبية من ديار ربيعة ، حدثنا الحسن بن علي الصدائي ، حدثنا الحكم بن الجارود ، حدثنا ابن أبي المتنDX خال ابن عيينة ، عن أبيه ، عن عطاء ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ «من أنظر معسراً إلى ميسره أنظره الله بذنبه إلى توبته» .

ثم قال تعالى يعظ عباده ، ويذكرهم زوال الدنيا ، وفناء ما فيها من الأموال وغيرها ، وإتيان الآخرة ، والرجوع إليه تعالى ، ومحاسبته تعالى خلقه على ما عملوا ، ومجازاته إياهم بما كسبوا من خير وشر ، ويحذرهم عقوبته ، فقال : «وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوْفَى كُلُّ نَفْسٍ

(١) الجفر : الصبي انتفع لحمه وصار له كرش .

(٢) المستند (ج ١ ص ٣٢٧) .

ما كسبت وهم لا يظلمون﴿)، وقد روي أن هذه الآية آخر آية نزلت من القرآن العظيم، فقال ابن لهيعة: حدثني عطاء بن دينار، عن سعيد بن جبير قال: آخر ما نزل من القرآن كله ﴿واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفي كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾، وعاش النبي ﷺ بعد نزول هذه الآية تسع ليال، ثم مات يوم الإثنين لليلتين خلتا من ربيع الأول، رواه ابن أبي حاتم، وقد رواه ابن مردويه من حديث المسعودي عن حبيب ابن أبي ثابت، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: آخر آية نزلت ﴿واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله﴾ وقد رواه النسائي من حديث يزيد التحوي، عن عكرمة، عن عبد الله بن عباس، قال: آخر شيء نزل من القرآن ﴿واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفي كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾، وكذا رواه الضحاك والعوفى عن ابن عباس، وروى الثوري عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس، قال: آخر آية نزلت ﴿واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله﴾ فكان بين نزولها وموت النبي ﷺ واحد وثلاثون يوماً، وقال ابن جرير: يقولون: إن النبي ﷺ عاش بعدها تسع ليال وبده يوم السبت ومات يوم الإثنين، رواه ابن جرير، ورواه ابن عطية عن أبي سعيد، قال آخر آية نزلت ﴿واتقا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفي كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾

يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَانُتُمْ بِدِينِ إِلَّا أَجْلِ مُسْكَنَ فَاصْنُبُوهُ وَلَيَكُتبَ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ  
بِالْمَكْدُلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكُتبَ كَمَا عَلِمَهُ اللَّهُ فَلَيَكُتبَ وَلَيُمْلِلَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلَيُسْتَقِنَ اللَّهُ  
رَبُّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِعُ أَن يُمْلِلَ هُوَ فَلَيُمْلِلَ  
وَلِيُهُ بِالْمَكْدُلِ وَاسْتَهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَ كَانَ مِنْ تَرَضَوْنَ  
مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضَلَّ إِحْدَاهُمَا فَتَذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ أَشْهَدَاءُ إِذَا مَادُعُوا وَلَا سَعْمُوا أَن  
تَكْثُبُوهُ صَفِيرًا أَوْ كَيْرًا إِلَّا أَجْلُلُهُ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشُّهَدَاءِ وَأَدْقَنَ الْأَنْتَرَابُوا إِلَّا أَن  
تَكُونَ تِجْرِيَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيَسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَا تَكْثُبُوهُا وَأَشْهُدُوا إِذَا تَبَأَعْتَمْ  
وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ مُسْوِمٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمُ كُمْ اللَّهُ وَاللَّهُ  
يُكَلِّ شَيْءٍ عَلَيْهِ ﴿٢٧﴾

هذه الآية الكريمة أطول آية في القرآن العظيم، وقد قال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثنا يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرني يونس عن ابن شهاب، قال حدثني سعيد بن المسيب أنه بلغه أن أحدث القرآن بالعرش آية الدين. وقال الإمام أحمد<sup>(١)</sup>: حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن يوسف بن مهران، عن ابن عباس أنه قال لما نزلت آية الدين: قال رسول الله ﷺ «إن أول من جحد أدم عليه السلام، إن الله لما خلق آدم مسح ظهره، فأخرج منه

ما هو ذارىء إلى يوم القيمة، فجعل يعرض ذريته عليه فرأى فيهم رجلاً يزهراً<sup>(١)</sup>، فقال: أي رب من هذا؟ قال: هو ابنك داود، قال: أي رب، كم عمره، قال ستون عاماً، قال: رب زد في عمره، قال: لا إلا أن أزيده من عمرك، وكان عمر آدم ألف سنة، فزاده أربعين عاماً، فكتب عليه بذلك كتاباً وأشهد عليه الملائكة، فلما احتضر آدم وأنته الملايكة، قال: إنه بقي من عمري أربعون عاماً، فقيل له: إنك وهبتها لابنك داود، قال: ما فعلت، فأبرز الله عليه الكتاب وأشهد عليه الملائكة<sup>(٢)</sup>. وحدثنا أسود بن عامر، عن حماد بن سلمة، فذكره وزاد فيه «فأتمها الله لداود مائة وأتمها آدم ألف سنة». وكذا رواه ابن أبي حاتم عن يوسف بن أبي حبيب، عن أبي داود الطيالسي، عن حماد بن سلمة: هذا حديث غريب جداً، وعلى بن زيد بن جدعان في أحاديثه نكارة، وقد رواه الحاكم في مستدركه بنحوه من حديث الحارث بن عبد الرحمن بن أبي وثاب عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة، ومن رواية أبي داود بن أبي هند، عن الشعبي عن أبي هريرة، ومن طريق محمد بن عمرو عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، ومن حديث تمام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن أبي صالح، عن النبي ﷺ، فذكره بنحوه.

فقوله: «يا أيها الذين آمنوا إذا تدأبتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه» هذا إرشاد منه تعالى لعباده المؤمنين إذ اتعاملوا بمعاملات مؤجلة أن يكتبوها، ليكون ذلك أحافظ لمقدارها وميقاتها وأضبط للشاهد فيها، وقد نبه على هذا في آخر الآية حيث قال: «ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى أن لا تربوا» وقال سفيان الثوري، عن ابن أبي نجيج، عن مجاهد، عن ابن عباس في قوله: «يا أيها الذين آمنوا إذا تدأبتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه» قال: أنزلت في السلم<sup>(٣)</sup> إلى أجل غير معلوم، وقال قتادة عن أبي حسان الأعرج عن ابن عباس، قال: أشهد أن السلف المضمون إلى أجل مسمى أن الله أحله وأذن فيه، ثم قرأ «يا أيها الذين آمنوا إذا تدأبتم بدين إلى أجل مسمى»، رواه البخاري، وثبت في الصحيحين من رواية سفيان بن عيينة عن ابن أبي نجيج، عن عبد الله بن كثير، عن أبي المنهال، عن ابن عباس، قال قدم النبي ﷺ المدينة وهم يسلفون في الشمار السنة والستين والثلاث، فقال رسول الله ﷺ «من أسلف فليس له في كيل معلوم، وزن معلوم، إلى أجل معلوم»<sup>(٤)</sup>.

وقوله: «فاكتبوه» أمر منه تعالى بالكتابة لتوثيقه والحفظ، فإن قيل: فقد ثبت في الصحيحين عن عبد الله بن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ «إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب» فما الجمع بينه وبين الأمر بالكتابة؟ فالجواب أن الدين من حيث هو غير مفتقر إلى كتابة أصلًا، لأن كتاب الله

(١) يزهراً: يضيء.

(٢) السَّلْمُ: بيع شيء موصوف في الذمة بشمن عاجل.

(٣) آخرجه البخاري (سلم باب ١، ٧٢) ومسلم) مساقاة حديث ١٢٨ وأبو داود (بيوع باب ٥٥) والترمذى (بيوع باب ٦٨). والنمسائي (بيوع باب ٦٣) وابن ماجه (تجارات باب ٥٩).

قد سهل الله ويسر حفظه على الناس، والسنن أيضاً محفوظة عن رسول الله ﷺ، والذي أمر الله بكتابته إنما هو أشياء جزئية تقع بين الناس، فأمرروا أمر إرشاد لا أمر إيجاب كما ذهب إليه بعضهم، قال ابن جريج: من ادآن فليكتب، ومن ابتاع فليشهد.

وقال قتادة: ذكر لنا أن أبي سليمان المرعشى كان رجلاً صحب كعباً، فقال ذات يوم لأصحابه: هل تعلمون مظلوماً دعا ربه فلم يستجب له؟ فقالوا: وكيف يكون ذلك؟ قال: رجل باع بيعاً إلى أجل فلم يشهد ولم يكتب فلما حل ماله جحده صاحبه، فدعا ربه فلم يستجب له، لأنَّه قد عصى ربه، وقال أبو سعيد الشعبي والريبع بن أنس والحسن وابن جريج وابن زيد وغيرهم: كان ذلك واجباً، ثم نسخ بقوله: «إِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلَيُؤْدَ الذِّي أَتَمَنَّ أَمَانَتَهُ» [البقرة: ٢٨٣] والدليل على ذلك أيضاً الحديث الذي حكى عن شرع من قبلنا مقرراً في شرعاً ولهم ينكر عدم الكتابة والإشهاد.

قال الإمام أحمد<sup>(١)</sup>: حدثنا يونس بن محمد، حدثنا ليث عن جعفر بن ربيعة، عن عبد الرحمن بن هرمز، عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ، أنه ذكر أن رجلاً من بنى إسرائيل سأله بعض بنى إسرائيل أن يسلفه ألف دينار، فقال: أئنتني بشهادة أشهدهم. قال: كفى بالله شهيداً، قال أئنتني بكفيل قال: كفى بالله كفيلاً. قال: صدقت، فدفعها إلى أجل مسمى فخرج في البحر فقضى حاجته ثم التمس مرکباً يقدم عليه للأجل الذي أجله فلم يجد مرکباً فأخذ خشبة فنقرها، فأدخل فيها ألف دينار وصحيفة معها إلى صاحبها، ثم زجج<sup>(٢)</sup> موضعها، ثم أتى بها البحر، ثم قال: اللهم إنك قد علمت أني استسلفت فلاناً ألف دينار، فسألني كفيلاً فقلت: كفى بالله كفيلاً، فرضي بذلك؛ وسألني شهيداً، فرضي بذلك؛ وإنني قد جهدت أن أجد مرکباً أبعث بها إليه بالذى أعطاني فلم أجد مرکباً وإنني استودعتكها، فرمى بها في البحر حتى ولحت فيه، ثم انصرف وهو في ذلك يطلب مرکباً إلى بلده، فخرج الرجل الذي كان أسلفه ينظر لعل مرکباً يجيئه بماليه، فإذا بالخشبة التي فيها المال، فأخذها لأهله حطباً، فلما كسرها وجد المال والصحيفة، ثم قدم الرجل الذي كان تسلف منه، فأتاه بألف دينار وقال: والله ما زلت جاهداً في طلب مرکب لآتيك بمالك فما وجدت مرکباً قبل الذي أتيت فيه قال: هل كنت بعثت إلى شيء؟ قال: ألم أخبرك أني لم أجد مرکباً قبل الذي جئت فيه؟ قال: فإن الله قد أدى عنك الذي بعثت به في الخشبة، فانصرف بألفك راشداً، وهذا إسناد صحيح وقد رواه البخاري في سبعة مواضع من طرق صححها معلقاً بصيغة الجزم، فقال و قال الليث بن سعيد فذكره، ويقال إنه في بعضها عن عبد الله بن صالح كاتب الليث عنه.

(١) المسند (ج ٢ ص ٤٨).

(٢) زجج موضعها: سوى موضع النقر وأصلحه.

وقوله: «فليكتب بينكم كاتب بالعدل» أي بالقسط والحق ولا يجر في كتابته على أحد، ولا يكتب إلا ما اتفقا عليه من غير زيادة ولا نقصان. قوله «ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب» أي ولا يمتنع من يعرف الكتابة إذا سئل أن يكتب للناس ولا ضرورة عليه في ذلك، فكما علمه الله ما لم يكن يعلم، فليصدق على غيره من لا يحسن الكتابة وليكتب، كما جاء في الحديث «إن من الصدقة أن تعين صانعاً أو تصنع لآخر» وفي الحديث الآخر «من كتم علمًا يعلمه أ杰م يوم القيمة بلجام من نار» وقال مجاهد وعطاء: واجب على الكاتب أن يكتب، قوله: «وليملل الذي عليه الحق ولتيق الله ربه» أي وليملل المدين على الكاتب ما في ذمته من الدين ولتيق الله في ذلك «ولا يبخس منه شيئاً» أي لا يكتم منه شيئاً «فإن كان الذي عليه الحق سفيهاً» محجوراً عليه بتذير ونحوه «أو ضعيفاً» أي صغيراً، أو معجناً «أو لا يستطيع أن يمل هو» إما لعي أو جهل بموضع صواب ذلك من خطئه «فليملل وليه بالعدل».

وقوله: «واستشهدوا شهيدين من رجالكم» أمر بالإشهاد مع الكتابة لزيادة التوثيق «فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان» وهذا إنما يكون في الأموال، وما يقصد به المال، وإنما أقيمت المرأةتان مقام الرجل لنقصان عقل المرأة، كما قال مسلم في صحيحه: حدثنا قتيبة، حدثنا إسماعيل بن جعفر، عن عمرو بن أبي عمرو، عن المقبرى، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، أنه قال «يا معاشر النساء تصدقن وأكثرن الاستغفار، فإني رأيتكم أكثر أهل النار» فقالت امرأة منهن جزلة<sup>(١)</sup>: وما لنا يا رسول الله أكثر أهل النار؟ قال: «اتكثرن اللعن، وتکثرن العشير، ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذى لب منكن» قالت: يا رسول الله ما نقصان العقل والدين؟ قال «أما نقصان عقلها، فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل، فهذا نقصان العقل، وتمكث الليالي لا تصلي وتفطر في رمضان فهذا نقصان الدين».

وقوله: «من ترضون من الشهداء» فيه دلالة على اشتراط العدالة في الشهود، وهذا مقيد حكم به الشافعى على كل مطلق في القرآن من الأمر بالإشهاد من غير اشتراط وقد استدل من رد المستور بهذه الآية الدالة على أن يكون الشاهد عدلاً مرضياً. قوله: «أن تضل إحداهما» يعني المرأةتين إذا نسيت الشهادة «فتذكر إحداهما الأخرى» أي يحصل لها ذكر بما وقع به من الإشهاد، وبهذا قرأ آخرون فتذكرة بالتشديد من التذكرة، ومن قال: إن شهادتها معها تجعلها كشاهادة ذكر فقد أبعد. وال الصحيح الأول، والله أعلم.

وقوله: «ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا» قيل: معناه إذا دعوا للتحمل فعلتهم الإجابة، وهو قول قتادة والربيع بن أنس، وهذا كقوله: «ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب» ومن هنا استفيد أن تحمل الشهادة فرض كفاية، وقيل مذهب الجمهور، والمراد بقوله: «ولا يأب

(١) المرأة الجزلة: القوية التامة الخلق.

الشهداء إذا ما دعوا<sup>(١)</sup> للأداء، لحقيقة قوله الشهادة، والشاهد حقيقة فيمن تحمل، فإذا دعي لأدائها فعليه الإجابة إذا تعينت وإلا فهو فرض كفاية، والله أعلم، وقال مجاهد وأبو مجلز وغير واحد: إذا دعيت لتشهد فأنت بالخيار، وإذا شهدت فدعويت فأجب، وقد ثبت في صحيح مسلم والسنن من طريق مالك، عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، عن أبيه عبد الله بن عمرو بن عثمان، عن عبد الرحمن بن أبي عمرة عن زيد بن خالد، أن رسول الله ﷺ قال «ألا أخبركم بخير الشهداء؟ الذي يأتي بشهادته قبل أن يسألها» فاما الحديث الآخر في الصحيحين «ألا أخبركم بشر الشهداء؟ الذين يشهدون قبل أن يستشهدوا» وكذا قوله: «ثم يأتي قوم تسبق أيمانهم شهادتهم، وتسبق شهادتهم أيمانهم» وفي رواية «ثم يأتي قوم يشهدون ولا يستشهدون» وهؤلاء شهود الزور، وقد روی عن ابن عباس والحسن البصري أنها تعم الحالين التحمل، والأداء.

وقوله: «ولا تساموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله» هذا من تمام الإرشاد وهو الأمر بكتابة الحق صغيراً كان أو كبيراً، فقال: ولا تساموا أي لا تملوا أن تكتبوا الحق على أي حال كان من القلة والكثرة إلى أجله، قوله: «ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى أن لا ترتابوا» أي هذا الذي أمرناكم به من الكتابة للحق إذا كان مؤجلاً هو أقسط عند الله، أي أعدل وأقوم للشهادة، أي أثبت للشاهد إذا وضع خطه ثم رأه تذكر به الشهادة، لاحتمال أنه لو لم يكتبه أن ينساه، كما هو الواقع غالباً «وأدنى أن لا ترتابوا» وأقرب إلى عدم الريبة بل ترجعون عند التنازع إلى الكتاب الذي كتبتموه فيفصل بينكم بلا ريبة.

وقوله: «إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح أن لا تكتبوها» أي إذا كان البيع بالحاضر يداً بيده، فلا بأس بعد الكتابة لانتفاء المحدور في تركها.

فأما الإشهاد على البيع فقد قال تعالى: «وأشهدوا إذا تباعتم» قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثني يحيى بن عبد الله بن بكر، حدثني ابن لهيعة، حدثني عطاء بن دينار، عن سعيد بن جبير، في قوله تعالى: «وأشهدوا إذا تباعتم» يعني أشهدوا على حكمكم إذا كان في أجل أو لم يكن فيه أجل ، فأشهدوا على حكم على كل حال ، قال وروي عن جابر بن زيد وممجاهد وعطاء والضحاك نحو ذلك ، وقال الشعبي و الحسن: هذا الأمر منسوخ بقوله: «فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤدِّي الذي ائمن أمانته» وهذا الأمر محمول عند الجمهور على الإرشاد والندب لا على الوجوب ، والدليل على ذلك حديث خزيمة بن ثابت الانصاري ، وقد رواه الإمام أحمد<sup>(١)</sup>: حدثنا أبو اليمان، حدثنا شعيب عن الزهري، حدثني عمارة بن خزيمة الانصاري أن عمه حدثه وهو من أصحاب النبي ﷺ . أن النبي ﷺ ابْتَاعَ فرساً من أغراضي ،

فاستبعه النبي ﷺ ليقضي ثمن فرسه، فأسرع النبي ﷺ وأبطأ الأعرابي، فطفق رجال يعترضون الأعرابي فيساومونه بالفرس، ولا يشعرون أن النبي ﷺ ابتعاه حتى زاد بعضهم الأعرابي في السوم على ثمن الفرس الذي ابتعاه النبي ﷺ، فنادي الأعرابي النبي ﷺ فقال: إن كنت مبتاعاً هذا الفرس فابتله وإلا بعثه، فقال النبي ﷺ حين سمع نداء الأعرابي، قال: أوليس قد ابتعته منك؟ قال الأعرابي: لا والله ما بعثك، فقال النبي ﷺ «بل قد ابتعته منك» فطفق الناس يلوذون بالنبي ﷺ والأعرابي، وهم يتراجعون فطفق الأعرابي يقول: هلم شهيداً يشهد أني بابعثك، فمن جاء من المسلمين قال للأعرابي: وبذلك إن النبي ﷺ لم يكن يقول إلا حقاً حتى جاء خزيمة: فاستمع لمراجعة النبي ﷺ ومراجعة الأعرابي يقول: هلم شهيداً يشهد أني بابعثك، قال خزيمة: أنا أشهد بذلك قد بابعثه، فأقبل النبي ﷺ على خزيمة بشهادة رجلين، وهكذا رواه أبو داود من حديث شعيب والنسائي من رواية محمد بن الوليد الزبيدي، وكلاهما عن الزهرى به نحوه، ولكن الاحتياط هو الإرشاد لما رواه الإمامان الحافظ أبو بكر بن مردويه، والحاكم في مستدركه من رواية معاذ بن معاذ العنبرى، عن فراس، عن الشعبي، عن أبي بردة، عن أبي موسى، عن النبي ﷺ، قال «ثلاثة يدعون الله فلا يستجاب لهم: رجل له امرأة سيئة الخلق فلم يطلقها، ورجل دفع مال يتيم قبل أن يبلغ، ورجل أقرض رجلاً مالاً فلم يشهد» ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد على شرط الشيفيين، قال: ولم يخرجا لتوقيف أصحاب شعبة هذا الحديث على أبي موسى، وإنما أجمعوا على سند حديث شعبة بهذا الإسناد «ثلاثة يؤتون أجراً هم مرتين».

وقوله تعالى: «ولا يضار كاتب ولا شهيد» قيل: معناه لا يضار الكاتب ولا الشاهد، فيكتب هذا خلاف ما ي ملي، ويشهد هذا بخلاف ما سمع أو يكتتمها بالكلية، وهو قول الحسن وقتادة وغيرهما. وقيل: معناه لا يضر بهما، قال ابن أبي حاتم: حدثنا أسيد بن عاصم، حدثنا الحسين يعني ابن حفص، حدثنا سفيان عن يزيد بن أبي زيادة، عن مقسم، عن ابن عباس، في هذه الآية «ولا يضار كاتب ولا شهيد» قال: يأتي الرجل فيدعوهما إلى الكتاب والشهادة، فيقولان: إنا على حاجة، فيقول إنكم قد أمرتما أن تجيئا، فليس له أن يضارهما، قال: وروي عن عكرمة ومجاحد وطاوس وسعيد بن جبير والضحاك وعطاء ومقاتل بن حيان والربيع بن أنس والستي نحو ذلك، قوله: «وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم» أي إن خالفتكم ما أمرتم به أو فعلتم ما نهيتكم عنه، فإنه فسق كائن بكم، أي لازم لكم لا تحيدون عنه ولا تتفكون عنه، قوله «واتقوا الله» أي خافوه وراقبوه واتبعوا أمره واتركوا زجره «ويعلمكم الله» قوله «يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً» وقوله: «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وأمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته و يجعل لكم نوراً تمثون به» قوله: «والله بكل شيء عليم» أي هو عالم بحقائق الأمور ومصالحها وعواقبها فلا يخفى عليه شيء من الأشياء بل علمه محيط بجميع

﴿وَإِن كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَإِنَّ مَقْبُوضَةً فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلَيُؤْدِي الَّذِي أَقْتُمَ أَمْتَنَّهُ وَلَيُسَقِّي اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ إِثْمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيهِم﴾

يقول تعالى: ﴿وَإِن كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ﴾ أي مسافرين وتدايتم إلى أجل مسمى ﴿وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا﴾ يكتب لكم، قال ابن عباس: أو وجدوه ولم يجدوا قرطاً أو دواة أو قلماً، فرهان مقبوضة، أي فليكن بدل الكتابة رهان مقبوضة أي في يد صاحب الحق، وقد استدل بقوله: ﴿فَرَهَانٌ مَقْبُوضَةٌ﴾ على أن الرهن لا يلزم إلا بالقبض كما هو مذهب الشافعي والجمهور، واستدل بها آخرون على أنه لابد أن يكون الرهن مقبوضاً في يد المرتهن، وهو رواية عن الإمام أحمد، وذهب إليه طائفة، واستدل آخرون من السلف بهذه الآية، على أنه لا يكون الرهن مشروعاً إلا في السفر، قاله مجاهد وغيره، وقد ثبت في الصحيحين<sup>(١)</sup> عن أنس أن رسول الله ﷺ، توفي ودرعه مرهونة عند يهودي على ثلاثين وسبعين شعير رهنها قوتاً لأهله، وفي رواية: من يهود المدينة. وفي رواية الشافعي عند أبي الشحم اليهودي، وتقرير هذه المسائل في كتاب الأحكام الكبير، والله الحمد والمنة، وبه المستعان.

وقوله ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلَيُؤْدِي الَّذِي أَقْتُمَ﴾ روى ابن أبي حاتم بإسناد جيد عن أبي سعيد الخدري أنه قال: هذه نسخت ما قبلها. وقال الشعبي: إذا اتمن بعضكم بعضاً فلا يأس أن لا تكتبو أولاً تشهدوا: قوله: ﴿وَلَيُسَقِّي اللَّهَ رَبَّهُ﴾ يعني المؤمن كما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد وأهل السنن من رواية قتادة، عن الحسن عن سمرة أن رسول الله ﷺ، قال «على اليدين ما أخذت حتى تؤديه».

قوله: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾ أي لا تخفوها وتغلوها، ولا تظهروا. قال ابن عباس وغيره: شهادة الزور من أكبر الكبائر وكتمانها كذلك، ولهذا قال ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ قال السدي: يعني فاجر قلبه، وهذه كقوله تعالى: ﴿وَلَا نَكْتُمْ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذَا لَمْنَا الْأَمَّنِ﴾ [المائدة: ١٠٦] وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوْمَيْنِ بِالْقُسْطِ شَهَادَةَ اللَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوْ الْوَلَدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَإِنَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَبْعِدُوا الْهُوَى أَنْ تَعْدُلُوا وَإِنْ تَلُوُوا أَوْ تَعْرُضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْلَمُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥] وهكذا قال ه هنا ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيهِم﴾ .

(١) صحيح البخاري (جهاد باب ٨٩، ومجازي باب ٨٦) والترمذى (بيوع باب ٧) والنمسائى (بيوع باب ٥٨) وابن ماجه (رهون باب ١).

لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدِّلُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَعْلَمُ  
لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾

يخبر تعالى أن له ملك السموات والأرض وما فيهن وما بينهن، وأنه المطلع على ما فيهن، لا تخفي عليه الطواهر ولا السرائر والضمائر وإن دقت وخفيت، وأخبر أنه سيحاسب عباده على ما فعلوه وما أخفوه في صدورهم، كما قال تعالى: «قل إن تحفوا ما في صدروكم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما في السموات وما في الأرض والله على كل شيء قادر» [آل عمران: ٢٩] وقال «يعلم السر وأخفى» [طه: ٧] والآيات في ذلك كثيرة جداً، وقد أخبر في هذه بمزيد على العلم وهو المحاسبة على ذلك، ولهذا لما نزلت هذه الآية اشتد ذلك على الصحابة رضي الله عنهم، وخفوا منها، ومن محاسبة الله لهم على جليل الأعمال وحقيرها، وهذا من شدة إيمانهم وإيقانهم.

قال الإمام أحمد<sup>(١)</sup>: حدثنا عفان، حدثنا عبد الرحمن بن إبراهيم، حدثني أبو عبد الرحمن يعني العلاء عن أبيه، عن أبي هريرة، قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ «الله ما في السموات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قادر» اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فأتوا رسول الله ﷺ، ثم جثوا على الركب وقالوا: يا رسول الله كلفنا من الأعمال ما نطيق، الصلاة والصيام والجهاد والصدقة وقد أنزلت عليك هذه الآية، ولا نطيقها. فقال رسول الله ﷺ «أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتاب من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا، غفرانك ربنا وإليك المصير» فلما أقر بها القوم وزلت بها أستتهم، أنزل الله في أثرها «آمن الرسول بما أنزل إليه من ربها والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسليه، وقلوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير» فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل الله: «لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا» إلى آخره. ورواه مسلم منفرداً به من حديث يزيد بن زريع، عن روح بن القاسم، عن العلاء، عن أبيه عن أبي هريرة، فذكر مثله ولفظه، فلما فعلوا ذلك نسخها الله، فأنزل الله «لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت، ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا» قال: نعم، «ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به» قال: نعم «وابعد عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين» قال: نعم.

(١) المستند (ج ٢ ص ٤١٢).

حدث ابن عباس في ذلك: قال الإمام أحمد<sup>(١)</sup>: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان عن آدم بن سليمان، سمعت سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وَإِنْ تَبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تَخْفُوهُ يَحْاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ قال دخل قلوبهم منها شيء لم يدخل قلوبهم من شيء، قال: فقال رسول الله ﷺ ﴿قُولُوا سَمِعْنَا وَأَطْعَنْنَا وَسَلَمْنَا﴾ فألقى الله الإيمان في قلوبهم، فأنزل الله ﷺ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسليه وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾ إلى قوله ﴿فَانصَرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ وهكذا رواه مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة وأبي كريب وإسحاق بن إبراهيم، ثلاثتهم عن وكيع به، وزاد ﴿رَبِّنَا لَا تَؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِيْنَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ قال: قد فعلت ﴿رَبِّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ قال: قد فعلت ﴿رَبِّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ قال: قد فعلت ﴿وَاعْفْ عَنَا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصَرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ قال: قد فعلت.

طريق أخرى عن ابن عباس. قال الإمام أحمد<sup>(٢)</sup>: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر عن حميد الأعرج، عن مجاهد، قال: دخلت على ابن عباس، فقلت: يا أبو عباس، كنت عند ابن عمر فقرأ هذه الآية فبكى، قال: أية آية؟ قلت: ﴿وَإِنْ تَبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تَخْفُوهُ﴾ قال ابن عباس: إن هذه الآية حين أنزلت، غمت أصحاب رسول الله ﷺ عمّا شدداً وغاظتهم غيظاً شديداً، وقالوا: يا رسول الله هلكتنا إن كنا نؤاخذ بما تكلمنا وبما نعمل، فأما قلوبنا فليست بأيدينا، فقال لهم رسول الله ﷺ: ﴿قُولُوا سَمِعْنَا وَأَطْعَنْنَا﴾ فقالوا سمعنا وأطعنا، قال: فنسختها هذه الآية ﴿آمِنْ الرَّسُولَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ آمِنٍ بِاللَّهِ﴾ إلى ﴿لَا يَكْلُفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وَسَعَهَا لَهَا مَا كَسِبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ فتجوز لهم عن حديث النفس وأخذوا بالأعمال.

طريق أخرى عنه<sup>(٣)</sup>. قال ابن جرير<sup>(٤)</sup>: حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرني يونس بن يزيد، عن ابن شهاب، عن سعيد بن مرجانة، سمعه يحدث: أنه بينما هو جالس سمع عبد الله بن عمر تلا هذه الآية ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تَبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تَخْفُوهُ يَحْاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ الآية، فقال: والله لئن واخذنا الله بهذا النھلکن، ثم بكى ابن عمر حتى سمع نشيجه، قال ابن مرجانة: فقمت حتى أتيت ابن عباس، فذكرت له ما قال ابن عمر وما فعل حين تلاها، فقال ابن عباس: يغفر الله لأبي عبد الرحمن لعمري لقد وجده المسلمون منها حين أنزلت مثل ما وجد عبد الله بن عمر، فأنزل الله بعدها ﴿لَا يَكْلُفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وَسَعَهَا﴾ إلى آخر السورة. قال ابن عباس: فكانت هذه الوسعة مما لا طاقة للمسلمين بها،

(١) المسند (ج ١ ص ٢٣٣) وصحیح مسلم (إیمان حدیث ١٩٩، ٢٠٠).

(٢) المسند (ج ١ ص ٣٣٢).

(٣) أي عن ابن عباس.

(٤) تفسیر الطبری ١٤٤ / ٣.

وصار الأمر إلى أن قضى الله عز وجل أن للنفس ما اكتسبت وعليها ما اكتسبت في القول والفعل . طريق أخرى قال ابن جرير<sup>(١)</sup> : حدثني المثنى ، حدثنا إسحاق ، حدثنا يزيد بن هارون ، عن سفيان بن حسين ، عن الزهري ، عن سالم ، أن أباه قرأ « وإن تبدوا ما في انفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله » فدمعت عيناه ، فبلغ صنيعه ابن عباس فقال : يرحم الله أبا عبد الرحمن لقد صنع كما صنع رسول الله ﷺ حين أزلت ، فنسختها الآية التي بعدها « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » وهذه طرق صحيحة عن ابن عباس ، وقد ثبت عن ابن عمر كما ثبت عن ابن عباس قال البخاري<sup>(٢)</sup> : حدثنا إسحاق ، حدثنا روح ، حدثنا شعبة عن خالد الحذاء ، عن مروان الأصفر ، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ أحبسه ابن عمر « وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه » قال : نسختها الآية التي بعدها ، وهكذا روي عن عليّ وابن مسعود وكعب الأحبار والشعبي والنخعي ومحمد بن كعب القرظي وعكرمة وسعيد بن جبیر وقتادة ، أنها منسوخة بالتي بعدها ، وقد ثبت بما رواه الجماعة في كتبهم الستة من طريق قتادة ، عن زراره بن أبي أوفى عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله تجاوز لي عن أمتي ما حدثت به أنفسها مالم تكلم أو تعمل » .

وفي الصحيحين من حديث سفيان بن عيينة ، عن أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ « قال الله : إذا هم عبدي بسيئة فلا تكتبوا لها عليه ، فإن عملها فاكتبوها سيئة ، وإذا هم بحسنة فلم يكتبوا لها حسنة ، فإن عملها فاكتبوها عشرأً لفظ مسلم وهو في إفراده من طريق إسماعيل بن جعفر ، عن العلاء ، عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ ، قال « قال الله : إذا هم عبدي بحسنة ولم يعملها كتبها له حسنة ، فإن عملها كتبها له عشر حسناً ، إلى سبعمائة ضعف ، وإذا هم بسيئة فلم يعملها لم أكتبها عليه ، فإن عملها كتبها سيئة واحدة » . وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر عن همام بن منبه ، قال : هذا ما حدثنا أبو هريرة عن محمد رسول الله ﷺ ، قال « قال الله : إذا تحدث عبدي بأن يعمل حسنة فأنا أكتبها له حسنة ما لم يعمل ، فإذا عملها فأنا أكتبها بعشر أمثالها ، وإذا تحدث بأن ي عمل سيئة فأنا أغفرها له ما لم ي عملها ، فإن عملها فأنا أكتبها له بمثلها ». وقال رسول الله ﷺ « قالت الملائكة : رب وذاك أن عبده ، يريد أن يعمل سيئة وهو أبصر به فقال : ارقبوه ، فإن عملها فاكتبوها له بمثلها ، وإن تركها فاكتبوها له حسنة ، وإنما تركها من جرای » . وقال رسول الله ﷺ « إذا أحسن أحد إسلامه ، فإن له بكل حسنة يعملها تكتب له بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، وكل سيئة تكتب بمثلها حتى يلقى الله عز وجل » تفرد به مسلم عن محمد بن رافع عن عبد الرزاق بهذا السياق واللفظ ، وبعضه في صحيح البخاري .

وقال مسلم<sup>(٣)</sup> أيضاً : حدثنا أبو كريب ، حدثنا أبو خالد الأحمر ، عن هشام ، عن ابن سيرين ،

(١) تفسير الطبرى ١٤٥ / ٣ .

(٢) صحيح البخاري (تفسير سورة باب ٢٢) .

(٣) صحيح مسلم (إيمان حديث ٢٠٦) .

عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ «من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، ومن هم بحسنة فعملها كتبت له عشرًا إلى سبعمائة ضعف، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب له، وإن عملها كتبت» تفرد به مسلم دون غيره من أصحاب الكتب. وقال مسلم<sup>(١)</sup> أيضًا: حدثنا شيبان بن فروخ، حدثنا عبد الوارث عن الجعد أبي عثمان، حدثنا أبو رجاء العطاردي عن ابن عباس، عن رسول الله ﷺ فيما يروي عن ربه تعالى، قال «إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك، فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن هم بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة، وإن هم بها فعملها، كتبها الله عنده سيئة واحدة» ثم رواه مسلم عن يحيى بن يحيى، عن جعفر بن سليمان، عن الجعد أبي عثمان في هذا الإسناد بمعنى حديث عبد الرزاق<sup>(٢)</sup>. زاد: «ومحاجها الله ولا يهلك على الله إلا هالك» وفي حديث سهيل<sup>(٣)</sup> عن أبيه، عن أبي هريرة، قال: جاء ناس من أصحاب رسول الله ﷺ، فسألوه فقالوا: إنا نجد في أنفسنا ما يتراكم أحذنا أن يتكلم به، قال «وقد وجدتموه؟» قالوا: نعم، قال «ذاك صريح الإيمان» لفظ مسلم، وهو عند مسلم أيضًا من طريق الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ به، وروي مسلم أيضًا من حديث مغيرة، عن إبراهيم، عن علقمة، عبد الله، قال: سئل رسول الله ﷺ عن الوسوسة، قال «تلك صريح الإيمان».

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس **﴿وَإِنْ تَبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تَخْفُوهُ يَحْسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾** فإنها لم تنسخ، ولكن الله إذا جمع الخلاق يوم القيمة يقول: إني أخبركم بما أخفيتكم في أنفسكم مما لم يطلع عليه ملائكتي، فأما المؤمنون فيخبرهم ويعذر لهم ما حدثوا به أنفسهم، وهو قوله **﴿يَحْسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾** يقول: يخبركم، وأما أهل الشك والريب فيخبرهم بما أخفاوا من التكذيب، وهو قوله **﴿فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَعْذِبُ مَنْ يَشَاءُ﴾** وهو قوله **﴿وَلَكُنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبْتُ قُلُوبُكُمْ﴾** أي من الشك والنفاق. وقد روى العوفي والضحاك عنه قريباً من هذا.

وروى ابن جرير عن مجاهد والضحاك نحوه، وعن الحسن البصري أنه قال: هي محكمة لم تنسخ، واختار ابن جرير ذلك واحتج على أنه لا يلزم من المحاسبة المعاقبة، وأنه تعالى قد يحاسب ويعذر، وقد يحاسب ويعاقب، بالحديث الذي رواه عند هذه الآية قائلًا: حدثنا<sup>(٤)</sup> ابن بشار، حدثنا ابن أبي عدي عن سعيد وهشام (ح) وحدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن علية،

(١) صحيح مسلم (إيمان حديث ٢٠٧).

(٢) في صحيح مسلم: «بمعنى حديث عبد الوارث» وهو الصواب.

(٣) صحيح مسلم (إيمان حديث ٢٠٩).

(٤) تفسير الطبرى ٣/١٥٠.

المسند (ج، ص ١١٨).

حدثنا ابن هشام، قالا جمِيعاً في حديثهما عن قتادة عن صفوان بن محرز، قال: بينما نحن نطوف بالبيت مع عبد الله بن عمر وهو يطوف، إذ عرض له رجل فقال: يا ابن عمر، ما سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «يدنو المؤمن من ربه عز وجل حتى يضع عليه كنهه فيقرره بذنبه فيقول له: هل تعرف كذا؟ فيقول: رب اغفر، مرتين، حتى إذا بلغ به ما شاء الله أن يبلغ، قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا وإنني أغفرها لك اليوم، قال: فيعطي صحيفة حسناته أو كتابه بيمنيه، وأما الكفار والمنافقون فينادي بهم على رؤوس الأشهاد **﴿هُؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَىٰ الظَّالِمِينَ﴾** [هود: ١٨] وهذا الحديث مخرج في الصحيحين وغيرهما من طرق متعددة عن قتادة به.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد، عن أبيه، قال: سألت عائشة عن هذه الآية **﴿وَإِنْ تَبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تَخْفُوهُ يَحْاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾** قالت: ما سألكي عنها أحد منذ سألك رسول الله ﷺ عنها، فقالت: هذه مبادعة الله العبد وما يصيبه من الحمى والنكتة، والبضاعة يضعها في يد كمه فيفقدوها، فيفزع لها ثم يجدوها في ضيبيه حتى إن المؤمن ليخرج من ذنبه كما يخرج التبر الأحمر، وكذا رواه الترمذى وابن جرير من طريق حماد بن سلمة به، وقال الترمذى: غريب لا نعرفه إلا من حديثه. (قلت) وشيخه علي بن جدعان ضعيف يغرب في روایاته، وهو يروي هذا الحديث عن امرأة أبيه أم محمد أمية بنت عبد الله، عن عائشة، وليس لها عنها في الكتب سواه.

أَمَّنْ رَسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّهُمْ أَمَّنْ بِاللَّهِ وَمَا تَكَبَّرُهُ وَكُلُّهُمْ وَرُسُلُهُ لَا تَنْفَرُ بَيْنَ  
 أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَاتُلُوا سَعْيَنَا وَاطْعَنُوا عُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ **﴿لَا يُكَفِّفُ اللَّهُ تَفْسِيرًا إِلَّا  
 وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا أَكْسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ سَيِّئَنَا أَوْ أَخْطَأْنَا لَنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ  
 عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْنَا عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْنَا  
 وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ **﴾****

### ذكر الأحاديث الواردة في فضل هاتين الآيتين الكريمتين نفعنا الله بهما

**الحديث الأول - قال البخاري:** حدثنا محمد بن كثير، أخبرنا شعبة عن سليمان، عن إبراهيم، عن عبد الرحمن، عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ، قال «من قرأ الآيتين» وحدثنا أبو نعيم: حدثنا سفيان، عن منصور، عن إبراهيم عن عبد الرحمن بن يزيد، عن أبي مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ **«من قرأ بالآيتين - من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه** وقد أخرجه بقية الجماعة عن طريق سليمان بن مهران الأعمش بإسناده مثله وهو في الصحيحين من طريق الثوري، عن منصور، عن إبراهيم، عن عبد الرحمن عنه به، وهو في الصحيحين أيضاً عن عبد الرحمن، عن

علقمة، عن ابن مسعود، قال عبد الرحمن: ثم لقيت أبا مسعود فحدثني به، وهكذا رواه أحمد بن حنبل<sup>(١)</sup>، حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا شريك، عن عاصم، عن المسيب بن رافع، عن علقة، عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ، قال «من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلته كفتها».

**الحديث الثاني - قال الإمام أحمد<sup>(٢)</sup>:** حدثنا حسين، حدثنا شيبان، عن منصور، عن ربعي، عن خرشة بن الحر، عن المعاور بن سويد، عن أبي ذر، قال: قال رسول الله ﷺ «أعطيت خواتيم سورة البقرة من كثر تحت العرش لم يعطهن النبي قبلي» قد رواه ابن مروديه من حديث الأشجعي، عن الثوري، عن منصور، عن ربعي، عن زيد بن طبيان، عن أبي ذر، قال: قال رسول الله ﷺ «أعطيت خواتيم سورة البقرة من كثر تحت العرش».

**ال الحديث الثالث - قال مسلم<sup>(٣)</sup>:** حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، حدثنا أبوأسامة، حدثنا مالك بن مغول (ح) وحدثنا ابن نمير وذير بن حرب، جميعاً عن عبد الله بن نمير، وألفاظهم متقاربة، قال ابن نمير: حدثنا أبي، حدثنا مالك ابن مغول عن الزبير بن عدي، عن طلحة، عن مرة، عن عبد الله، قال: لما أسرى برسول الله ﷺ، انتهي به إلى سدرة المتنبي، وهي في السماء السادسة، إليها ينتهي ما يعرج من الأرض فيقبض منها، وإليها ينتهي ما يهبط له من فوقها فيقبض منها، قال «إِذْ يَغْشِي السَّدْرَةَ مَا يَغْشِي» [النجم: ١٦] قال: فراش من ذهب، قال: أعطي رسول الله ﷺ ثلاثة: أعطي الصلوات الخمس، وأعطي خواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لم يشرك بالله من أمته شيئاً المقدمات<sup>(٤)</sup>.

**ال الحديث الرابع قال أحمد<sup>(٥)</sup>:** حدثنا إسحاق بن إبراهيم الرازى حدثنا سلمة بن الفضل حدثني محمد بن إسحاق عن يزيد بن أبي حبيب عن مرثد بن عبد الله البزنى عن عقبة بن عامر الجنهى قال: قال رسول الله ﷺ «قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة فإني أعطيتهما من كثر تحت العرش» هذا إسناد حسن ولم يخرجوه في كتبهم.

**ال الحديث الخامس - قال ابن مروديه:** حدثنا أحمد بن كامل، حدثنا إبراهيم بن إسحاق الحربي، أخبرنا مروان، أبنا ابن عوانة عن أبي مالك، عن ربعي، عن حذيفة، قال: قال رسول الله ﷺ: «فضلنا على الناس بثلاث أوتيت هذه الآيات من آخر سورة البقرة من بيت كثر تحت العرش، لم يعطها أحد قبلي، ولا يعطها أحد بعدي» ثم رواه من حديث نعيم بن أبي هند

(١) المسند (ج ٥ ص ١١٨).

(٢) المسند (ج ٥ ص ١٥١).

(٣) صحيح مسلم (إيمان حديث ٢١٠).

(٤) المقدمات: الذنوب العظام الكبائر التي تهلك أصحابها وتوردهم النار.

(٥) المسند (ج ٤ ص ١٤٧).

عن ربعي عن حذيفة بن حمودة.

**الحادي السادس** - قال ابن مارديه : حدثنا عبد الباقى بن نافع ، أنبأنا إسماعيل بن الفضل ، أخبرنا محمد بن بزيع ، أخبرنا جعفر بن عون عن مالك بن مغول ، عن أبي إسحاق ، عن الحارث ، عن علي ، قال : لا أرى أحداً عقل الإسلام ينام حتى يقرأ خواتيم سورة البقرة ، فإنها من كنز أعطيه نبيكم ﷺ من تحت العرش ، ورواه وكيع في تفسيره عن إسرائيل ، عن أبي إسحاق ، عن عمير بن عمرو المخارقي ، عن علي ، قال : ما أرى أحداً يعقل ، بلغه الإسلام ، ينام حتى يقرأ آية الكرسي وخواتيم سورة البقرة ، فإنها من كنز تحت العرش .

الحاديـث السـابع - قال أـبـو عـيسـى التـرمـذـى : حـدـثـنـا بـنـدارـ حـدـثـنـا عـبـدـ الرـحـمـنـ بـنـ مـهـدـىـ ، حـدـثـنـا حـمـادـ بـنـ سـلـمـةـ عـنـ أـشـعـتـ بـنـ عـبـدـ الرـحـمـنـ الـجـرـمـىـ ، عـنـ أـبـى قـلـابـةـ ، عـنـ أـبـى أـشـعـتـ الصـنـعـانـىـ ، عـنـ النـعـمـانـ بـنـ بـشـيرـ عـنـ النـبـيـ ﷺـ ، قـالـ : إـنـ اللـهـ كـتـبـ كـتـابـاـ قـبـلـ أـنـ يـخـلـقـ السـمـوـاتـ وـالـأـرـضـ بـالـفـيـ عـامـ ، أـنـزـلـ مـنـهـ أـيـتـينـ خـتـمـ بـهـمـا سـوـرـةـ الـبـقـرـةـ ، وـلـاـ يـقـرـأـ بـهـنـ فـيـ دـارـ ثـلـاثـ لـيـالـ فـيـقـرـ بـهـ شـيـطـانـ »ـ ثـمـ قـالـ : هـذـاـ حـدـيـثـ غـرـبـ ، وـهـكـذـاـ رـوـاهـ الـحـاـكـمـ فـيـ مـسـتـدـرـكـهـ مـنـ حـدـيـثـ حـمـادـ بـنـ سـلـمـةـ بـهـ وـقـالـ : صـحـيـحـ عـلـىـ شـرـطـ مـسـلـمـ ، وـلـمـ يـخـرـجـاهـ .

الحاديـث الثامـن قال ابن مـردوـيـه : حدـثـنـا عبدـالـرـحـمـنـ بنـمـحـمـدـ بنـمـدـيـنـ، أخـبـرـنـا الحـسـنـ بنـالـجـهـمـ، أخـبـرـنـا إـسـمـاعـيلـ بنـعـمـرـوـ، أخـبـرـنـا اـبـنـمـرـيمـ، حـدـثـنـي يـوـسـفـ بنـأـبـيـالـحـجـاجـ، عـنـ سـعـيدـ، عـنـأـبـنـعـبـاسـ، قـالـ: كـانـ رـسـوـلـالـلـهـ ﷺ إـذـا قـرـأـ سـوـرـةـ الـبـقـرـةـ وـآيـةـ الـكـرـسيـ ضـحـكـ وـقـالـ: إـنـهـمـاـ مـنـ كـتـرـ الرـحـمـنـ تـحـتـالـعـرـشـ»ـ إـذـا قـرـأـ «ـوـمـنـ يـعـمـلـ سـوـءـاـ يـجـزـبـهـ»ـ «ـوـأـنـ لـيـسـ لـلـإـنـسـانـ إـلاـ مـاسـعـيـ، وـأـنـ سـعـيـهـ سـوـفـ يـبـرـىـ ثـمـ يـجـزـاهـ الـأـوـفـيـ»ـ استـرـجـعـ وـاستـكـانـ.

الحاديـث التاسع قال ابن مـردوـيـه: حـدـثـنـا عـبـدـالـلـهـ بـنـ مـحـمـدـ بـنـ كـوـفـيـ، حـدـثـنـا أـحـمـدـ بـنـ يـحـيـىـ بـنـ حـمـزـةـ، حـدـثـنـا مـحـمـدـ بـنـ بـكـرـ، حـدـثـنـا مـكـيـ بـنـ إـبـرـاهـيـمـ، حـدـثـنـا عـبـدـالـلـهـ بـنـ أـبـيـ حـمـيدـ، عـنـ أـبـيـ مـلـيـعـ، عـنـ مـعـقـلـ بـنـ يـسـارـ، قـالـ: قـالـ رـسـوـلـ اللـهـ ﷺ: «أـعـطـيـتـ فـاتـحةـ الـكـتـابـ وـخـواـتـيمـ سـوـرـةـ الـبـقـرـةـ مـنـ تـحـتـ الـعـرـشـ وـالـمـفـصـلـ نـاقـلـةـ».

**الحادي عشر** - قد تقدم في فضائل الفاتحة من روایة عبد الله بن عيسى بن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن سعيد بن جبیر، عن ابن عباس، قال: بينما رسول الله ﷺ وعنه جبريل إذ سمع نقضاً فوقه، فرفع جبريل بصره إلى السماء، فقال له: أبشر بنورين قد أوتاهمما لم يؤتھما نبی قبلك: فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ حرفًا منها إلا أوتاھے. رواه مسلم والنسائي وهذا لفظه.

فقوله تعالى: ﴿آمِنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ﴾ إخبار عن النبي ﷺ بذلك، قال ابن

جرير<sup>(١)</sup> : حدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد عن قتادة، قال: ذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال لما نزلت عليه هذه الآية «ويحق له أن يؤمن» وقد روى الحاكم في مستدركه<sup>(٢)</sup> : حدثنا أبو النضر الفقيه، حدثنا معاذ بن نجدة القرشي، حدثنا خلاد بن يحيى، حدثنا أبو عقيل عن يحيى بن أبي كثير، عن أنس بن مالك ، قال: لما نزلت هذه الآية على النبي ﷺ «آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه» قال النبي ﷺ : «حق له أن يؤمن»، ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخر جاه.

وقوله **﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾** عطف على الرسول، ثم أخبر عن الجميع فقال **﴿كُلُّ آمِنٍ بِاللَّهِ وَمُلَائِكَتِهِ وَرَسُولِهِ لَا تَفْرَقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْ رَسُولِهِ﴾** فالمؤمنون يؤمنون بأن الله واحد أحد، فرد صمد، لا إله غيره، ولا رب سواه. ويصدقون بجميع الأنبياء والرسل والكتب المتزلة من السماء على عباد الله المرسلين والأنبياء، لا يفرقون بين أحد منهم، فيؤمنون ببعض ويکفرون ببعض، بل الجميع عندهم صادقون بازورن راشدون مهديون هادون إلى سبيل الخير، وإن كان بعضهم ينسخ شريعة بعض بإذن الله حتى نسخ الجميع بشرع محمد ﷺ، خاتم الأنبياء والمرسلين، الذي تقوم الساعة على شريعته، ولا تزال طائفة من أمته على الحق ظاهرين، وقوله **﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾** أي سمعنا قولك يا ربنا وفهمناه، وقمنا به وامتثلنا العمل بمقتضاه، **﴿غَفَرَانَكَ رَبَّنَا﴾** سؤال للمغفرة والرحمة واللطف، قال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن حرب الموصلي، حدثنا ابن فضل عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس في قوله **﴿آمِنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى قَوْلِهِ - غَفَرَانَكَ رَبَّنَا﴾** قال: قد غفرت لكم **﴿وَإِلَيْكَ الْمَصِير﴾** أي المرجع والمآل يوم الحساب. قال ابن جرير<sup>(٣)</sup> : حدثنا ابن حميد، حدثنا جرير عن بيان، عن حكيم، بن جابر، قال: لما نزلت على رسول الله ﷺ **﴿آمِنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ آمِنٍ بِاللَّهِ وَمُلَائِكَتِهِ وَرَسُولِهِ لَا تَفْرَقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْ رَسُولِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غَفَرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِير﴾** قال جبريل: إن الله قد أحسن الثناء عليك وعلى أمتك فسل تعطه، فسأل **﴿لَا يَكْلُفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وَسْعَهَا﴾** إلى آخر هذه الآية، وقوله **﴿لَا يَكْلُفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وَسْعَهَا﴾** أي لا يكلف الله نفساً إلا وسعها أي لا يكلف أحداً فوق طاقتة، وهذا من لطفه تعالى بخلقه ورأفته بهم وإحسانه إليهم، وهذه هي الناسخة الرافعة لما كان أشفع منه الصحابة في قوله **﴿وَإِنْ تَبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تَخْفُوهُ يَحْسَبُوكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾** أي هو وإن حاسب وسائل، لكن لا يعذب إلا بما يملك الشخص دفعه، فأما مالا يملك دفعه من وسوسه النفس وحديثها، فهذا لا يكلف به الإنسان، وكراهة الوسوسة السيئة من الإيمان، وقوله **﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾** أي من خير **﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾** أي من شر وذلك في الأعمال التي تدخل تحت التكليف.

(١) تفسير الطبرى ١٥٢/٣ .

(٢) انظر الدر المنشور ١/٦٦٤ .

(٣) تفسير الطبرى ٣/١٥٤ .

ثم قال تعالى مرشدًا عباده إلى سؤاله، وقد تحفل لهم بالإجابة كما أرشدهم وعلمهم أن يقولوا «ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا» أي إن تركنا فرضاً على جهة النسيان، أو فعلنا حراماً كذلك، أو أخطأنا أي الصواب في العمل جهلاً متأثراً بوجهه الشرعي. وقد تقدم في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة، قال «قال الله: نعم» ول الحديث ابن عباس، قال الله «قد فعلت».

وروى ابن ماجه<sup>(١)</sup> في سنته وابن حبان في صحيحه من حديث أبي عمرو الأوزاعي، عن عطاء؛ قال ابن ماجه في روايته عن ابن عباس، وقال الطبراني وابن حبان، عن عطاء، عن عبيد بن عمير، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» وقد روي من طريق آخر وأعلمه أحمد وأبو حاتم، والله أعلم. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا أبو بكر الهذلي، عن شهر، عن أم الدرداء، عن النبي ﷺ، قال «إن الله تجاوز لأمتى عن ثلات: عن الخطأ والنسيان، والاستكراه» قال أبو بكر: فذكرت ذلك للحسن، فقال: أجل، أما تقرأ بذلك قرآنًا «ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا».

وقوله «ربنا ولا تحمل علينا إصرًا كما حملته على الذين من قبلنا» أي لا تكلفنا من الأعمال الشاقة وإن أطقتها كما شرعته للأمم الماضية قبلنا من الأغلال والآصار التي كانت عليهم، التي بعثت نبيك محمداً ﷺ، نبي الرحمة بوضعه في شرعه الذي أرسله به من الدين الحنيف السهل السمع، وقد ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ، قال «قال الله: نعم» وعن ابن عباس، عن رسول الله ﷺ، قال «قال الله قد فعلت». وجاء في الحديث من طرق عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بعثت بالحنفية السمة».

وقوله «ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به» أي من التكليف والمصائب والبلاء لا تبتلنا بما لا قبل لنا به، وقد قال مكحول في قوله «ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به» قال: الغربية والغلمة، [والإنعاذه]<sup>(٢)</sup> رواه ابن أبي حاتم، قال الله: نعم، وفي الحديث الآخر: قال الله: قد فعلت.

وقوله «واغفر لنا» أي فيما بيننا وبينك مما تعلم من تقصيرنا وزللنا «واغفر لنا» أي فيما بيننا وبين عبادك فلا تظهرهم على مساوينا وأعمالنا القبيحة «وارحمنا» أي فيما يستقبل فلا توقعنا بتوفيقك في ذنب آخر، ولهذا قالوا: إن المذنب يحتاج إلى ثلاثة أشياء: أن يعفو الله عنه فيما بينه وبينه، وأن يستره عن عباده فلا يفضحه به بينهم، وأن يعصمه فلا يقعه في نظيره. وقد تقدم في الحديث أن الله قال: نعم، وفي الحديث الآخر: قال الله: قد فعلت.

(١) سنن ابن ماجه (طلاق باب ١٦).

(٢) الزيادة من الدر المثور (١/٦٦٧) من إخراج ابن أبي حاتم عن مكحول.

وقوله ﴿أَنْتَ مُولَانَا﴾ أي أنت ولينا وناصرنا، وعليك توكلنا، وأنت المستعان، وعليك التكلان، ولا حول لنا ولا قوة إلا بك، ﴿فَانْصَرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أي الذين جحدوا دينك، وأنكروا وحدانيتك ورسالة نبيك، وعبدوا غيرك وأشركوا معك من عبادك، فانصرنا عليهم، واجعل لنا العاقبة عليهم في الدنيا والآخرة، قال الله: نعم. وفي الحديث رواه مسلم عن ابن عباس، قال الله: قد فعلت. وقال ابن جرير<sup>(١)</sup>: حدثني المثنى بن إبراهيم، حدثنا أبو نعيم، حدثنا سفيان عن أبي إسحاق أن معاذًا رضي الله عنه، كان إذا فرغ من هذه السورة ﴿فَانْصَرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ قال: آمين. ورواه وكيع عن سفيان، عن أبي إسحاق، عن رجل، عن معاذ بن جبل، أنه كان إذا ختم البقرة قال: آمين<sup>(٢)</sup>.

تم الجزء الأول، ويليه الجزء الثاني  
وأوله: «تفسير سورة آل عمران»

(١) تفسير الطبرى / ٣ / ١٦١.

(٢) قال في الدر المثور (١/٦٦٨): وأخرجه أبو عبيد وابن أبي شيبة في المصنف وابن المنذر عن معاذ بن جبل.

فهرس محتويات

الجزء الأول

من

تفسير ابن كثير



## فهرس المحتويات

٣	.....	مقدمة
٧	.....	مقدمة المؤلف
سورة الفاتحة		
١٨	.....	سورة الفاتحة ..
٢٠	.....	ذكر ما ورد في فضل الفاتحة ..
٢٤	.....	الكلام على ما يتعلّق بهذا الحديث مما يختص بالفاتحة من وجوه ..
٢٦	.....	الكلام على تفسير الاستعادة ..
٣١	.....	[بسم الله الرحمن الرحيم]
٣٣	.....	فصل في فضلها ..
٤٢	.....	الآية: ٢ ..
٤٦	.....	الآياتان: ٣ و ٤ ..
٤٨	.....	الآية: ٥ ..
٥٠	.....	الآية: ٦ ..
٥٣	.....	الآية: ٧ ..
تفسير سورة البقرة		
٦١	.....	ذكر ما ورد في فضلها ..
٦٣	.....	ذكر ما ورد في فضلها مع آل عمران ..
٦٥	.....	ذكر ما ورد في فضل السبع الطوال ..
٦٦	.....	فصل: البقرة نزلت بالمدينة ..
٦٧	.....	الآية: ١ ..

٧٢	الآية: ٢
٧٥	الآية: ٣
٨٠	الآية: ٤
٨٢	الآية: ٥
٨٣	الآية: ٦
٨٤	الآية: ٧
٨٧	الآياتان: ٨ و ٩
٨٩	الآية: ١٠
٩١	الآياتان: ١١ و ١٢
٩٢	الآية: ١٣
٩٣	الآياتان: ١٤ و ١٥
٩٦	الآيات: ١٦ — ١٨
٩٩	الآياتان: ١٩ و ٢٠
١٠٣	الآياتان: ٢١ و ٢٢
١٠٧	الآياتان: ٢٣ و ٢٤
١١٢	الآية: ٢٥
١١٤	الآياتان: ٢٦ و ٢٧
١٢٠	الآية: ٢٨
١٢١	الآية: ٢٩
١٢٣	الآية: ٣٠
١٣٠	الآيات: ٣١ — ٣٣
١٣٤	الآية: ٣٤
١٤٠	الآياتان: ٣٥ و ٣٦
١٤٥	الآية: ٣٧
١٤٦	الآياتان: ٣٨ و ٣٩

الآياتان: ٤٠ و ٤١	١٤٧
الآياتان: ٤٢ و ٤٣	١٥٠
الآلية: ٤٤	١٥١
الآياتان: ٤٥ و ٤٦	١٥٤
الآياتان: ٤٧ و ٤٨	١٥٨
الآياتان: ٤٩ و ٥٠	١٦٠
الآيات: ٥١ — ٥٣	١٦٣
الآلية: ٥٤	١٦٤
الآياتان: ٥٥ و ٥٦	١٦٦
الآلية: ٥٧	١٦٨
الآياتان: ٥٨ و ٥٩	١٧٤
الآلية: ٦٠	١٧٧
الآلية: ٦١	١٧٩
الآلية: ٦٢	١٨٢
الآيات: ٦٣ — ٦٦	١٨٥
الآلية: ٦٧	١٩٠
الآيات: ٦٨ — ٧١	١٩٣
الآياتان: ٧٢ و ٧٣	١٩٦
الآلية: ٧٤	١٩٨
الآيات: ٧٥ — ٧٧	٢٠١
الآياتان: ٧٨ و ٧٩	٢٠٣
الآلية: ٨٠	٢٠٦
الآياتان: ٨١ و ٨٢	٢٠٧
الآلية: ٨٣	٢٠٨
الآيات: ٨٤ — ٨٦	٢١٠

٢١٢	الآية: ٨٧
٢١٥	الآية: ٨٨
٢١٦	الآية: ٨٩
٢١٧	الآية: ٩٠
٢١٨	الآيات: ٩١ و ٩٢
٢١٩	الآية: ٩٣
٢٢٠	الآيات: ٩٤ — ٩٦
٢٢٤	الآيات: ٩٧ و ٩٨
٢٣١	الآيات: ٩٩ — ١٠٣
٢٥٦	الآيات: ١٠٤ و ١٠٥
٢٥٨	الآيات: ١٠٦ و ١٠٧
٢٦٢	الآية: ١٠٨
٢٦٤	الآيات: ١٠٩ و ١١٠
٢٦٦	الآيات: ١١١ — ١١٣
٢٦٩	الآية: ١١٤
٢٧١	الآية: ١١٥
٢٧٥	الآيات: ١١٦ و ١١٧
٢٧٨	الآية: ١١٨
٢٧٩	الآية: ١١٩
٢٨١	الآيات: ١٢٠ و ١٢١
٢٨٣	الآيات: ١٢٢ — ١٢٤
٢٨٩	الآية: ١٢٥
٢٩٥	الآيات: ١٢٦ — ١٢٨
٣١٦	الآية: ١٢٩
٣١٨	الآيات: ١٣٠ — ١٣٢

٣٢٠	الآيات: ١٣٣ — ١٣٥
٣٢١	الآلية: ١٣٦
٣٢٢	الآياتان: ١٣٧ و ١٣٨
٣٢٣	الآيات: ١٣٩ — ١٤١
٣٢٤	الآياتان: ١٤٢ و ١٤٣
٣٣٠	الآلية: ١٤٤
٣٣٢	الآلية: ١٤٥
٣٣٣	الآيات: ١٤٦ — ١٤٨
٣٣٤	الآياتان: ١٤٩ و ١٥٠
٣٣٥	الآياتان: ١٥١ و ١٥٢
٣٣٦	الآياتان: ١٥٣ و ١٥٤
٣٣٨	الآيات: ١٥٥ — ١٥٧
٣٤٠	الآلية: ١٥٨
٣٤٢	الآيات: ١٥٩ — ١٦٢
٣٤٤	الآياتان: ١٦٣ و ١٦٤
٣٤٦	الآياتان: ١٦٥ و ١٦٧
٣٤٧	الآياتان: ١٦٨ و ١٦٩
٣٤٩	الآياتان: ١٧٠ و ١٧١
٣٥٠	الآياتان: ١٧٢ و ١٧٣
٣٥٢	الآيات: ١٧٤ — ١٧٦
٣٥٤	الآلية: ١٧٧
٣٥٧	الآياتان: ١٧٨ و ١٧٩
٣٦٠	الآيات: ١٨٠ — ١٨٢
٣٦٣	الآياتان: ١٨٣ و ١٨٤
٣٦٧	الآلية: ١٨٥

٣٧١	الآية: ١٨٦
٣٧٥	الآية: ١٨٧
٣٨٤	الآية: ١٨٨
٣٨٥	الآية: ١٨٩
٣٨٦	الآيات: ١٩٠ — ١٩٣
٣٨٩	الآية: ١٩٤
٣٩٠	الآية: ١٩٥
٣٩٣	الآية: ١٩٦
٤٠١	الآية: ١٩٧
٤٠٩	الآية: ١٩٨
٤١٤	الآية: ١٩٩
٤١٥	الآيات: ٢٠٠ — ٢٠٢
٤١٧	الآية: ٢٠٣
٤١٩	الآيات: ٢٠٤ — ٢٠٧
٤٢٢	الآياتان: ٢٠٨ و ٢٠٩
٤٢٣	الآية: ٢١٠
٤٢٤	الآيات: ٢١١ و ٢١٢
٤٢٥	الآية: ٢١٣
٤٢٧	الآية: ٢١٤
٤٢٨	الآيات: ٢١٥ — ٢١٨
٤٣٣	الآياتان: ٢١٩ و ٢٢٠
٤٣٦	الآية: ٢٢١
٤٣٨	الآياتان: ٢٢٢ و ٢٢٣
٤٥٠	الآياتان: ٢٢٤ و ٢٢٥
٤٥٤	الآياتان: ٢٢٦ و ٢٢٧

٤٥٦	..... الآية: ٢٢٨
٤٥٩	..... الآياتان: ٢٢٩ و ٢٣٠
٤٧٤	..... الآية: ٢٣١
٤٧٦	..... الآية: ٢٣٢
٤٧٧	..... الآية: ٢٣٣
٤٨٠	..... الآية: ٢٣٤
٤٨٣	..... الآية: ٢٣٥
٤٨٥	..... الآية: ٢٣٦
٤٨٦	..... الآية: ٢٣٧
٤٨٨	..... الآياتان: ٢٣٨ و ٢٣٩
٤٩٩	..... الآيات: ٢٤٠ — ٢٤٢
٥٠٢	..... الآيات: ٢٤٣ — ٢٤٥
٥٠٥	..... الآية: ٢٤٦
٥٠٦	..... الآية: ٢٤٧
٥٠٧	..... الآية: ٢٤٨
٥٠٨	..... الآية: ٢٤٩
٥٠٩	..... الآيات: ٢٥٠ — ٢٥٢
٥١٠	..... الآية: ٢٥٣
٥١١	..... الآية: ٢٥٤
٥١٢	..... الآية: ٢٥٥
٥٢١	..... الآية: ٢٥٦
٥٢٤	..... الآية: ٢٥٧
٥٢٥	..... الآية: ٢٥٨
٥٢٦	..... الآية: ٢٥٩
٥٢٨	..... الآية: ٢٦٠

٥٢٩	.....	الآية: ٢٦١
٥٣٢	.....	الآيات: ٢٦٢ — ٢٦٤
٥٣٣	.....	الآية: ٢٦٥
٥٣٤	.....	الآية: ٢٦٦
٥٣٥	.....	الآيات: ٢٦٧ — ٢٦٩
٥٣٩	.....	الآياتان: ٢٧٠ و ٢٧١
٥٤١	.....	الآيات: ٢٧٢ — ٢٧٤
٥٤٦	.....	الآية: ٢٧٥
٥٥٠	.....	الآياتان: ٢٧٦ و ٢٧٧
٥٥٣	.....	الآيات: ٢٧٨ — ٢٨١
٥٥٨	.....	الآية: ٢٨٢
٥٦٤	.....	الآية: ٢٨٣
٥٦٥	.....	الآية: ٢٨٤
٥٦٩	.....	الآياتان: ٢٨٥ و ٢٨٦